الإخوة كارامازوف

فيودور دوستويفسكي





بسم الله الرحمن الرحيم

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

[الزلزلة:7-8]

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(يد الله مع الجماعة)

لولا هذا العمل الجماعي؛ لم يكن ليرى النور في الفضاء السيبراني، وهو أكبر عمل تطوعي جماعي لنقل كتاب مصور يحتوي على 2000 صفحة الى نص في العالم العربي.

قام بهذا العمل الجليل الضخم كلٌ من:

«د.طارق التميمي»، «تامر السلاموني»

«ماجدة علي علي»، «زينه»

«awakeel» ، «أريج محمد»

«م.محمد خضر»،«هادي إبراهيم»

«شمس الحياة»، «هشام حسني»

«سماهر»، « محمود شرف الدين»

«مروة جمال»، «محمد مصطفي كمال»

«أحمد»

«ماجد حنّا»، «رنا وليد»

«معالي»

«سعدي إلياس»، «ن. أبو قُصي الراشدي»

«حسن حدرج»، «مصطفى سليمان»

«علي الشمري»، «إسلام أشرف»

«رشيد تاديست»، «عزيز ابن ابو عزيز»

«منصور التميمي»، «يوسف المعاذ».

هوامش وحواشى الكتاب:

«ماجدة على علي»،«مروة جمال»

«رشا الظاهري», «عبدالله الحبابي».

تصميم الغلاف:

«عهود الدوسري»

فهرس و اخراج فني:

«ماجدة علي علي»

قام بعمل استثنائي كلٌ من:

«ماجدة علي علي»، «مروة جمال»

«سعدي إلياس»، «شمس الحياة»

«عبدالله الحبابي»، «منصور التميمي»

لا تنسوهم بدعوة صالحة في ظهر الغيب.

فيودور ميخايلوفتش ، دوستويفسكي

الإخوة كارامازوف

ترجمة:

سامي الدروبي

الأسم الأصلي للكتاب

Братья Карамазовы

:By

Фёдор Михайлович Достоевский

مقدمة

بقلم: بوري سليزنيوف

إبداع دوستويفسكي هو ظاهرة تاريخية من ظواهر الوجود الروحي للبشرية.. ظاهرة تهز الوجدان دائماً حينما تلتقي بها. لقد راود الكثيرين من قراء دوستويفسكي إحساس بأن ما تقع عليه أنظارهم ليس مجرد رواية، ليس مجرد مؤلف حتى ولو كان الأديب عبقري، بل هو ظاهرة تاريخية حقاً تقلب الوعي رأساً على عقب وتترك أثراً لا يمحى في نفس الإنسان.

والموقف من دوستويفسكي لا يعرف الوسطية.. فدوستويفسكي إما محبوب وأما ممقوت، إما يتقبلونه كليةً، وإما يرفضونه رفضاً قاطعاً.. وفي جميع الأحوال لا يستطيع أحد أن يقف منه موقف اللامبالاة؛ لقد كتب زعيم المصورين الروس الطليعيين إيفان كرامسكوي، مبدع اللوحة المشهورة «المسيح في الصحراء»: «لعب دوستويفسكي دوراً هائلاً في حياة كل من كانت الحياة بالنسبة له مأساة وليس عيداً (حسبما أعتقد). فبعد «الإخوة كارامازوف» (وأثناء قراءتها) تلفتّ حولي عدة مرات في رعب ودهشة من أن كل شيء يمضي كما كان في السابق، وأن العالم لم ينقلب رأساً على عقب.

... وباختصار كان ذلك شيئاً بلغ تلك الدرجة من النبوءة والاشتعال والوحي، حتى بدا من المستحيل معه أن نبقى في الموضع الذي كنا فيه بالأمس وأن نحمل نفس المشاعر التي كنا نكنّها من قبل... لقد كان دوستويفسكي بالفعل ضميرنا الوطني».

ولم يغيّر الزمن، بل الأقرب إلى الصواب أنه دعَّم مثل هذا الموقف من تراث الأديب لا في الوعي الروسي وحده. فقد كتب الأديب النمسوي ستيفان زفايغ (1881 - 1942): «إن دوستويفسكي بالنسبة لنا اليوم أكثر من فنان، إنه مفهوم روحي سيكون عُرضة للتفسير والإدراك المرة تلو المرة. فصورة هذا الكاتب الروسي تتغلغل اليوم بنورها في جميع مجالات الحياة الروحية». ويمكن إيراد الكثير من أمثال هذه الاعترافات.

ويبدو أنه بقدر ما يوجد قراء توجد تصورات «لدوستويفسكي الحقيقي». وبقدر ما توجد دراسات توجد تفسيرات مختلفة، ومتعارضة بشدة أحياناً، لروح ومغزى رواياته التي كانت نوعاً من النبوءات والرؤى.

بيد أنه مهما اختلفت تقديرات إبداع دوستويفسكي، ومهما جرى التأكيد أو النفي الحار لدروسه فإن المفاهيم التالية تتخلل معظم الآراء سواء بطريقة مباشرة أم مستترة: المفكر، المتنبئ، المعلم، الواعظ... إلخ. والأمر الغريب أن مفهوم الفنان هو الأقل تردداً بينها. وكأنما نحن لسنا أمام كاتب عظيم، مؤلف روايات عالمية الشهرة بقدر ما نحن أمام واعظ ديني أو سياسي، صاحب نبوءات وروى القرن التاسع عشر، التي اكتست بمسوح المؤلفات الفنية.

على أن دوستويفسكي كان يعتبر نفسه على الدوام كاتباً، فناناً واقعياً. وإن كان لا بد أن نقول إن مفهوم الكلمة-النبوءة (ليس بالمعنى الغيبي على الإطلاق) كان مميّزاً لإدراكه الذاتي إلى حد كبير.

«الكلمة، الكلمة عمل عظيم» ... هكذا كان يحلو لدوستويفسكي أن يردد. فكم مرة بُعِثَت الكلمة البشرية. هل تدرون -يسأل دوستويفسكي -أي قوة يبلغ «الإنسان الواحد»: رفائيل، شكسبير، أفلاطون؟ إنه يبقى ألف سنة ويبعث العالم...».

وحين راح دوستويفسكي يستوعب خبرة الأدب الوطني والعالمي في شخص أولئك الكتاب الأنبياء -كما سمّاهم، الذين جاءوا إلى العالم بكلمتهم الجديدة، ليعطوا له «تنظيماً للحياة الروحية والدنيوية» فقد كشف أمام الإبداع الفني إمكانيات جديدة وشق الطرق نحو وعي جديد بالذات، ونقل الأدب إلى مستوى نوعي جديد.

وطوال حياته الواعية ظل دوستويفسكي مهتماً بالكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد)، وفي سنوات عمره الناضح اهتم بالقرآن ثم بالكتب المقدسة للبوذية وغيرها. ولو اعتبرنا هذا الاهتمام اهتماماً دينياً محضاً لكان ذلك من غير الإنصاف مثلما لو نفينا عنه هذه الصفة. فمن المعروف أن دوستويفسكي لم يربط بحثه الديني وشكوكه وقناعاته في مجال الدين سوى بالمسيحية. لكنه كان يبحث في جميع الكتب الدينية لنفسه كفنان عن سر ذلك التأثير الذي مارسته الكلمة على العديد من الأجيال لكي يضفي على الأدب هذه القوة.

إن النظرة إلى الكلمة باعتبارها فعلاً تكمن في أساس جميع روايات دوستويفسكي التي تمثل مواعظ ملتهبة العاطفة لفنان مفكر.

وقد أدرك دوستويفسكي مذهبه الواقعي باعتباره «واقعية نبوئية» وسماه «الواقعية بأسمى معانيها».

والقضية بالطبع ليست قضية بعض التنبؤات التي أوردها الكاتب بهذه الدرجة من الوضوح أو تلك. فبوسعنا نحن أبناء السنين الأخيرة من القرن العشرين أن نتذكر الكثير من الأمراض الاجتماعية والخلقية والذهنية التي تراءت له، و «تلك القرحة العالمية الرهيبة التي لم يسمع بها أحد ولم يسبق لها مثيل» -من غرف الغاز حتى هيروشيما، وتلك «المخلوقات الدنيا» التي أودت بحياة عشرات الملايين من البشر خلال القرن الذي انقضى منذ وفاة الكاتب، ومحت من على وجه الأرض آلاف المدن، وما زالت مستعدة الارتكاب المزيد من أعمال الجنون الأرهب مما في سفر الرؤيا. ثم ألاّ تواجه البشرية اليوم، أكثر من أي وقت مضى، وبكل جلاء مشكلة الاختيار بين «دمعة الطفل الوحيدة» وبين «الانسجام العالمي القادم» كله.. تلك المشكلة التي تناولها دوستويفسكي في «الإخوة كارامازوف» بهذه الدرجة من التنبؤ؟

ولكننا، وأكرر، لا نتحدث الآن عن المحتوى الحقيقي «لنبوءات» الكاتب، بل عن النبوءة كمنهج إبداعي واعٍ لدى الفنان. إن الكتابة الفكرية لا تعني لدى دوستويفسكي التفكير في اليوم الراهن بملامحه المحددة بل أيضاً كيف أصبح الماضي جزءاً من اليوم الراهن، وكيفً يمكن لليوم الحاضر «أن يهدد المستقبل».

إن دوستويفسكي كمفكر وكفنان متجه بكل كيانه إلى المستقبل. وهو يرى أن «الواقع كله لا يمكن أن يستوعبه الحاضر، لأن جزءاً كبيراً من هذا الواقع متضمن فيه في صورة كلمة دفينة مستقبلية لم تُقَلْ بعد». ولا داعي لأن تكون نبياً لكي تصبح متنبئاً عندما ترى مثلاً الفوضى والازدواجية وعالم الهوات والدروب المسدودة والعنف والجنون: «فوضى!»، «جنون!»، «هوات!». كلا.. إن دوستويفسكي ليس «نبياً» من هذا النوع. يقول الكاتب: تنشأ من جديد على أسس جديدة حقاً. فمن ذا الذي سيلحظها ومن ذا الذي سيشير إليها؟ من ذا الذي يستطيع ولو بقدر ضئيل أن يحدد، ويعبر عن، قوانين هذا الانحلال وهذا الخلق الجديد؟».

ثمة من قال إن الكاتب كشخصية مبدعة «يموت» في كلمته. بيد أن هذا «الموت» ينطوي على الأساس الوحيد لخلوده الشخصي، فمؤلفاته هي كلمته المتجسدة.. كلمته التي أصبحت جسداً خالداً.

إن وعي دوستويفسكي الحساس بأسرار الوجود البشري قد دقق غير مرة في حكمة العبارة المسيحية القديمة: «الحق الحق أقول لكم، إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقي وحدها، ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير».

هذه الكلمات سوف يضعها دوستويفسكي في مستهل رواية «الإخوة كارامازف» بعد مضي سنوات طويلة. وستحفر هذه الكلمات فيما بعد على التمثال المقام على قبره. وكذلك فيما بعد ستكون خطبته الظافرة: «كلمة عن بوشكين» وروايات «المراهق» و الشياطين» و «الأبله» و «الجريمة والعقاب»، و «ذكريات من منزل الأموات»... تلك الروائع العظيمة التي أبدعتها عبقرية الفنان وعقله الجبار وقلبه الكبير... ذلك العالم الكامل الذي لم ير مثله من قبل، والذي سيهز البشرية باكتشافاته لأسرار الروح والوعي وبالأسئلة والإجابات التي ستزلزل كيان الإنسان وتدفعه إلى التفكير: أحقاً لن ينقلب العالم من جديد بدوائر «الجحيم»، الحقيقية لا الغيبية، عبر دروب العذاب والبحث المضني والضلال والآمال التي مر بها الوجود البشري منذ آلاف السنين، والمركزة إلى أقصى حد في هذا العالم الذي نسميه الآن: عالم دوستويفسكي، ولكن ذلك كله سيكون فيما بعد.

أما في البدء فكانت الجلجة.

وقف على منصة الإعدام مبهوراً بضوء المصباح الرمادي الصاعد في بطرسبرج يوم 22 ديسمبر 1849، بعد عدة أشهر قضاها في زنزانة منفردة كئيبة؛ كان ذلك يوماً عادياً للغاية بالنسبة للجميع؛ أما بالنسبة له فكان آخر يوم في حياته، وقد تأكد ذلك الآن، ولم يتبق من الحياة سوى بضع دقائق، وها هم قد أوثقوا ثلاثة من رفاقه إلى الصواري، واقترب منهم القس بمسوح الجناز، وقرب منهم الصليب ليقبّلوه قبلة الوداع الأخير، بينما دوّت في أذنيه وفي بدنه كله بصوت مكتوم الكلمات التي لا رادّ لها: «حُكم على المهندس -الملازم المتقاعد دوستويفسكي... بالإعدام رمياً بالرصاص ...».

«ما الذي يحدث للنفس في تلك اللحظة؟». هذا السؤال الذي وضعه المؤلف على لسان الأمير (في رواية «الأبله») ربما هو السؤال الأساسي الذي يحدد الشكل والمضمون الفكري عند الكاتب نفسه ويشكل جوهر موقفه الفني تجاه العالم.. فأيّاً كانت الملابسات والأحداث التي تمر بالبطل فهو دائماً يسأل ويجيب عما يحدث لنفسه في تلك اللحظة.

ورغم وفرة الكتب التي صدرت عن حياة الكاتب فليس لدينا حتى الآن، في واقع الأمر، كتاب جدير بسيرة هذا الإنسان. فالباحثون يولون اهتمامهم أكثر ما يولون للنسيج الخارجي، الحدثي، لحياته، هذا النسيج الذي ينبغي أن نعترف بأنه غني بالتحولات المفاجئة، وبالتقلبات الدرامية بل وحتى «الأخاذة». وبالفعل، فهناك

طفولة دوستويفسكي «في بيت الله» (ولد دوستويفسكي في موسكو في 11 نوفمبر 1821 في أسرة نبيل فقير كان طبيباً في مستشفى للفقراء، هذه المستشفيات التي كانوا يسمونها «بيوت الله». وقد أصبح هذا المبنى حالياً متحفاً للأديب)، وهناك وفاة أمه الحبيبة مبكراً، والانطباعات غير الطفولية المبكرة، وتصادم عالم الأحلام الخيالية للصبا الغض مع عالم الواقع الذي لا يقل خيالية؛ وهناك النضج الأخلاقي والذهني المبكر؛ والإحساس المسبق بمستقبل عريض في حقل الأدب، وبدلاً من تلك التدريبات والطوابير العسكرية الاضطرارية بالمدرسة الهندسية العسكرية في بطرسبرج. ثم خبر مصرع أبيه المفاجئ والغامض. وهناك السهر في الليالي، أي في الساعات الوحيدة التي يفرغ فيها من العمل، لينكب على رواية «المساكين» القادمة. ثم التعرف على الناقد الكبير بيلينسكي ثم الصعود المفاجئ غير المعقول من كاتب مغمور بالأمس إلى عبقري بطرسبرج وإلى واحد من أشهر رجالاتها. ثم دروس الإلحاد والاشتراكية في حلقة بيلينسكي والصداقة مع هذا الناقد العظيم والتي تحولت أيضاً فجأة وبنفس المباغتة إلى عدم تفاهم وتنافر متبادل. وبعد الصعود الخيالي جاءت مرارة الهزائم التي لا تقل خيالية، والسخرية العامة بالكاتب الذي أراد بالأمس أن يكون عبقرياً فلم يصبح. ثم الانضمام إلى حلقة بتراشيفسكي الذي كان واحداً من أوائل أتباع الاشتراكي الطوباوي فورييه، الراديكاليين في روسيا، ثم التقارب مع «الرجل الخيالي» سبيشنيف الذي نادى بالاستيلاء على السلطة بالقوة المسلحة وحاول الإعداد لتنفيذ فكرته. وبعد ذلك كان القضاء على الحلقة، وقرابة عام من السجن في زنزانة منفردة، وبداية علامات الصرع الذي أصبح «قرينه الدائم» وأخيراً منصة الإعدام والحكم بالإعدام، وبضع دقائق قبل تنفيذه. «من قال إن الطبيعة الإنسانية تستطيع أن تحتمل تعذيباً كهذا التعذيب دون أن تهوي إلى الجنون؟» - تساءل دوستويفسكي فيما بعد على لسان الأمير في «الأبله». أما هو نفسه فقد احتمل. احتمل الحكم بالإعدام، والتحضيرات التي سبقت تنفيذ الحكم، ثم إلغاء الحكم في اللحظة الأخيرة واستبداله بالأشغال الشاقة في سيبيريا، والرحلة الطويلة عبر البلاد كلها، مقيداً بالأصفاد، إلى هناك، ثم عشر سنوات من الأشغال الشاقة وحياة الجندية (وسيقول عن نفسه فيما بعد: لقد وضعوني في التابوت حياً وأغلقوه عليّ). ولكنه لم ينكسر، وعاد ووجد لديه من القوة والشجاعة الروحية ما جعله يصمد لضربات القدر دون أن يتشكى من المصير ولا حتى من الواقع. لقد وعى مأساة مصيره الفردي من خلال المأساة التاريخية العامة للبشرية في سعيها الأزلي إلى العدالة والسعادة عبر صنوف العذاب والمظالم ورغماً عنها. وقد صهر الأديب خبرته الحياتية هذه وخبرة الوجود البشري في كلمات رواياته المأساوية التي تدعو البشر ألاّ يصدقوا بدوام ومشروعية المأساة والفوضى، وتعزز فيهم اليقين بإمكانية وضرورة التغلب عليها هنا، على ظهر الأرض، لا في مكان ما هناك في الأبدية.

لقد عانى دوستويفسكي في حياته الكثير من الخسائر والآلام والعذاب وخيبة الأمل، ولكنه ذاق أيضاً فرحة اللُقيا والحب الحقيقي والاعتراف الشعبي، والشيء الرئيسي: تلك الانتصارات العظيمة لروحه الإبداعية ولعبقريته المتمثلة في رواياته الخالدة ونبوءاته عن العالم والإنسان، تلك الخلاصات المكثفة المدهشة للطاقة الروحية الخلاقة.

هذا الجانب الخارجي، الحدثي، من حياة الكاتب الرائد العظيم أصبح اليوم مدروساً بما فيه الكفاية، ويكاد يكون الباحثون قد تتبعونه بكل تفاصيله ودقائقه يوماً بيوم، بل وربما ساعة بساعة. ولكن من ذا الذي يستطيع أن يكتب السيرة الداخلية، الروحية، لعبقري من طراز دوستويفسكي؟ لا أعتقد أن هناك أحداً يقدر على ذلك... باستثناء شخص واحد.. هو دوستويفسكي نفسه. إن رواياته التي تبدو بعيدة كل البعد عن روايات السيرة الذاتية أو العائلية أو السردية الوصفية (رواية «الأخوة كارامازف» هي أكبر رواياته، أي إن «مساحتها» تتسع بما فيه الكفاية لملحمة كاملة تتناول حياة عدة أجيال، لا نجدها مع ذلك تتناول سوى يومين اثنين من حياة أبطاله) .. هذه الروايات هي السيرة الوحيدة -والتي ستبقى كذلك فيما يبدو إلى الأبد – لحياته المعبر عنها روحياً، هي نوع من التاريخ لروح العبقري وقلبه.

قال دوستويفسكي ذات مرة متحدثاً عن رواية «دون كيخوت» لسرفانتس، وهي من أحبّ الكتب إليه: «أوه، هذا كتاب عظيم، ليس مثل الكتب التي يكتبونها الآن. إن أمثال هذه الكتب تُرسل إلى البشرية كتاباً واحداً كل بضع مئات من السنين». ولا شك أن دوستويفسكي يقدم لنا بذلك أيضاً مفهومه العام لرسالة الأديب السامية على وجه الأرض: «... ولو أن الحياة انتهت على ظهر الأرض، وسئل الناس في مكان ما هناك: «ماذا، هل أدركتم حياتكم على الأرض، وما خلاصة رأيكم فيها؟ » .. لكان في وسع الإنسان أن يقدم «دون كيخوته قائلاً: «هذه هي خلاصة رأيي في الحياة، وهل يمكنكم أن تدينوني على ذلك؟».

وأعتقد أنه يمكننا دون تردد وضع روايات دوستويفسكي في عداد مثل تلك الروائع، وربما في المقام الأول روايته «الإخوة كارامازوف» التي أعتبرها أكمل خلاصة «دوستويفسكية» عن رأيه في الحياة.

ولا بد من الإشارة إلى أن دوستويفسكي يعد من أعقد الكتاب، فالكلمة لدى دوستويفسكي دائماً ذات أغوار، وهي متعددة الجوانب، ودائماً على صلة لا تكاد تحس بمجمل النظام الفكري والصوري لرواياته وفي تفاعل معه، وتكشف مختلف مستويات الإدراك والتقدير لنفس الواقعة أو الحدث.. إلخ. وفي هذا الصدد فليس من السهل فهم دوستويفسكي فهماً عميقاً وليس من النادر أن تُفسَّر تفسيراً سطحياً، وأحياناً تفسيراً خاطئاً، روح إبداع العبقري الروسي ونظرته إلى العالم. وربما لهذا السبب ما يزال الكثيرون يستوعبون دوستويفسكي على مستوى الحدوتة والحبكة الروائية، باعتبار رواياته قصص مغامرات جنائية، تجمع بين الموعظة والتسلية، رغم أنها ثقيلة بعض الشيء محشوة بالمشاهد «المقحمة» وبالحوارات الفلسفية العديدة.

وهل يا ترى سيتمكن القاري، والقارئ الأجنبي خاصة، من النفاذ ولو إلى «الطبقة العليا السطحية من العالم الفكري الصوري لرواية «الإخوة كارامازوف»؟ وهل سيرى مثلاً في الاسم «أليكسي»، لذلك الشاب «الواقعي» الذي عاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، هل سيرى فيه مثله الداخلي، ذلك المدعو «أليكسي حبيب الله» الذي تتحدث عنه السير الدينية للقرون الوسطى (وهو الشخصية الشعبية المحبوبة)، البطل المقرب من قلب دوستويفسكي؟ وهل سيحس القارئ الأجنبي في اسم سميردياكوف برائحة ذلك التحلل والتعفن المتمثلة بصورة ساطعة في فكرة هذه الشخصية بصفة عامة (الاسم مشتق من فعل «سميرديت» ويعني: يطلق رائحة عفنة)؟ وهل سيفطن القارئ إلى الرابطة، التي تبدو حتى غير واعية ولكنها حتمية، بين اسم ديمتري وبين الأرض ديمترا، آلهة الخصب الإغريقية، وليس مجرد أرض، بل الأرض الأم؟ إن فهم جوهر مثل هذه الصور الشعبية التي تحدد مجمل البناء الفكري -الأخلاقي للمؤلفات والتي تمثل نوعاً من المراكز العصبية المتميزة لجسد الروايات الحي .. هذا الفهم هو وحده الذي سيتيح للقارئ أن يدرك الفكرة الرئيسية للكاتب، -المتجسدة في لغز أسلوبه ذاته -الفكرة القائلة بأن المخرج الوحيد من فوضى الواقع يمر عبر الانبعاث في الشعبية .. هذه الفكرة التي نادى بها دوستويفسكي وتنبأ بها في مؤلفاته.

إن الكلمة لدى دوستويفسكي تتطلب من القارئ أقصى الاهتمام والإنصات والتأمل.. عندئذٍ تبدأ في الكشف عن قوانين علاقاتها الداخلية وعن الحقيقة الكامنة في أعماق الوقائع.

ترى أين هي، في خاتمة المطاف، «حقيقة، دوستويفسكي؟ إنه سؤال مخاتل، كتبت في محاولات الإجابة عليه مؤلفات عديدة أكثر بمئات، إن لم يكن بآلاف المرات، مما كتبه دوستويفسكي نفسه.

ولذا سنكتفي بمثال واحد.

ثمة ضابط شاب، ليس ممتازاً على الإطلاق، بل بالأحرى على العكس من ذلك إنسان طائش، عربيد بل وحتى سكير وزير نساء، ثم إنه بالطبع مقامر. وباختصار فهو ذو اندفاعات وتهور .. وقد قامر من دون حساب فخسر دفعة واحدة ثلاثة آلاف روبل**.. هي فوق ذلك أموال أمانة... والأمل كله معقود على أموال الوالد، وإلا فسيحكم** عليه بالأشغال الشاقة في سيبيريا. ولكن الوالد لن يعطي، فهو نفسه بحاجة إلى هذه النقود ليعيش بها على هواه حياة يؤمل أن تمتد به. وهكذا لا يبقى لدى الابن التعيس من رجاء سوى موت والده.. ليس موته تماماً .. ومع ذلك ففي ذهنه تدور فكرة سيئة إلى حد ما حول تغيير الوضع.

هذا الموضوع لا يبدو بعيداً عن الذهن. فمن هو هذا الشخص؟ أهو ميتينكا (دمترى) كارامازوف بطل رواية دوستويفسكي؟ كلاً إنه بينينكا (بيتر) ابن يهوذا جولوفليوف، بطل رواية «السادة آل جولوفليوف» للأديب سالطيكوف - شيدرين، أحد كبار الكتاب الروس في القرن التاسع عشر؛ ومع ذلك لا يسعنا إلا أن نعترف بأن بينينكا و ميتينكا يكادان يكونان أخوين شقيقين بل وحتى توأمين حسب الخط الروائي. بيد أن بينينكا قد استوعب كله في هذا الخط، وليس هناك ما يقال عنه أكثر مما قيل حسب تقدير الكاتب. أما ميتينكا فلا يتسع له الخط الروائي، وفي هذا يتجلى جوهر دوستويفسكي. صحيح أن بطله عربيد، وزير نساء، وقد خسر في القمار، وفكر في موت أبيه، وحكم عليه بالأشغال الشاقة في سيبيريا لأنه كان مع ذلك شقياً .. وكان الوالد المرحوم محقاً على الأرجح حين قال عنه إنه شقي، ولكن يا له من شقي! في هذا العربيد تحيا روح الأرض الأم، وفي هذا الضابط الصغير التعيس توجد مهاوٍ بلا قرار للروح والوعي. وليست النقود هي ما يحتاج إليه، بل يعذبه ويمزق روحه شيء آخر.

رهيب مصير الإنسان، شديدة آلام الإنسان... - يقول ميتينكا مخاطباً أخاه أليوشا - لا تحسبنّ أني امرؤ فظ برتبة ضابط، لا يعنيه إلا أن يشرب الكونياك ويمارس الفجور... ألاّ فلأكن ملعوناً، ألاّ فلاكن منحطاً سافلاً، ولكنني أريد، أنا أيضاً، أن أقبل ذيل الثوب الذي يتدثر به إلهي. لئن اتبعت الشيطان في الوقت ذاته يا رب، فإنني، مع ذلك، أظل ابنك، وأحبك، وفي نفسي سبيل إلى الفرج الذي لولاه ما وجد الكون...

الجمال شيء رهيب مخيف! هو رهيب لأنه لا يُحدد ... ولا يمكن تحديده لأن... الله ملأ الأرض ألغازاً وأسراراً. الجمال هو الشطآن تتقارب، هو الأضداد تتحد. لست على جانب كبير من الثقافة يا أخي، لكنني فكرت ملياً في هذا الأمر. ما أكثر الألغاز! ما أكثر الألغاز التي تضني الإنسان في هذا العالم!... أفظع ما في الجمال ليس أنه مخيف، بل إنه سر لا يفهمه».

في عالم دوستويفسكي الفني يتصارع الرحمن مع الشيطان والخير مع الشر، والحقيقة مع الزيف صراعاً لا يعرف المهادنة. ويدور هذا الصراع في جميع المجالات.. وعلى جميع المستويات .. من البناء الهيكلي لرواية «الأخوة كارامازوف» إلى العبارات الرمزية المحملة بالدلالات. وجميع هذه المجالات والمستويات للبناء الفكري - الصوري للرواية ترتبط فيما بينها بعلاقات متبادلة ضرورية يشترط بعضها البعض، وجميعها تميل بهذا الشكل أو ذاك نحو المركز، نحو قلب الرواية - نحو أسطورة المفتش الأكبر. وهذه العلاقات ليست علاقات خارجية، حدثية، بل داخلية، تكاد تكون روحية؛ فدمترى كارامازوف مثلاً، وهو يتحدث في «اعتراف قلب حار» عن الهويتين والحقيقتين، وعن صراع الرحمن والشيطان، دون أن يعرف شيئاً، حسب سياق الرواية، عن الأسطورة أو عن الشيطان في كابوس إيفان الليلي، إنما يكرر حرفياً تقريباً أفكارهما الرئيسية المفصلية: إن ما يجري في نفس الإنسان -سواء كان دمتري كارامازوف أم بطل آخر من أبطال دوستويفسكي -هو دائماً على صلة بما يجري في كل مكان، على الأرض وفي السماء، اليوم ومنذ ألف عام.

إن أبطال دوستويفسكي ليسوا على صلة بعصرهم وبيئتهم فحسب بل وبحياة العالم كله. وفي هذا الصراع الأزلي والشامل بين «ما للأمر» و «ما عليه» في عالم دوستويفسكي يفتش الباحثون عن مفتاح شخصية دوستويفسكي وإبداعه. ويركز معظمهم اهتمامهم بهذا الصراع. وكأنما عالم الكاتب لا يمثله سوى الأضداد المتصارعة، وكأنما لا يوجد هناك وسط، بل مجرد فراغ.. ولكن علام يدور إذن هذا الصراع؟ إن دوستويفسكي لا يجعل من ذلك سراً: الصراع يدور على روح الإنسان؛ وسؤال الكاتب الرئيسي هو: ما الذي يحدث لنفس الإنسان في تلك اللحظة؟

إذاً كان دمتري كارامازوف يبدو مستعداً في الفصول الأولى من الرواية لقتل أبيه (ولولا الصدفة لقتله فعلاً) دون أن يشعر بذنب في ذلك أو يقرّ به، لأن أباه وغد، فإن وعي دمتري نفسه في نهاية الرواية (هل يمكننا أن نقول إنه بقي «نفسه»؟ هل لم يصبح شخصاً آخر تماماً من الناحية الروحية؟) يمكن التعبير عنه بعبارة: لم أقتله، ولكنني مذنب لأنني أردت وكان بوسعي أن أقتله. وبين هذين القطبين للوعي الذاتي يمتد دهر كامل، بينما في الرواية لدى دوستويفسكي تمضي عدة أيام فقط. ولكنها أيام من تلك التي تشهد فيها نفس البطل صراعات آلاف السنين. حتى سميردياكوف، الذي بدا في الظاهر أنه لم يندم، قد أقدم على الانتحار. ولم يقدم على ذلك بدافع الخوف من اكتشاف جريمته، وإذن فقد حدث شيء ما، بخلاف الصراع نفسه بين المتناقضات، شيء فجر من الداخل حتى نفس سميردياكوف؟

وحين يتحدثون عن مواعظ دوستويفسكي ونبوءاته ينسون أحياناً الأمر الرئيس: إن نبوءاته لا تتجلى في عبارات معينة أو بيانات بل في «حسم» الصراعات في نفوس أبطاله. ففي الحركة الداخلية لعالم الكاتب وفي اتجاه هذه الحركة ذاته تظهر إمكانية وضرورة الانبعاث الروحي للإنسان وللبشرية. وفي هذا يتجلى ما أراد دوستويفسكي قوله وتتجلى ونبوءته.

في «الأسطورة» يقول المفتش الأكبر للمسيح:

«ألغيت القانون القديم الذي كان وطيداً راسخاً، فأصبح على الإنسان أن يميز الخير والشر بنفسه، مستلهماً حكم قلبه. كنت تريد أن يهبوا لك محبتهم أحراراً لا أن ينصاعوا لك عبيداً أذهلهم جبروتك».

إن هذه الفكرة -صورة الضمير الحر (لا بمعنى انعدامه، بل بمعنى حرية الاختيار وفقاً لما يمليه الضمير و«القلب الحر» وليس حب «القانون»).. فكرة الشخصية هذه قد عبر عنها دوستويفسكي حتى بأشكال بناء رواياته النبوئية. فهي لا تصوّر الحيرة والتردد بين الخير والشر ولا تقدم مواعظ تعليمية، بل ترسم في صور حية كلتي الهوتين وكلتي الحقيقتين، وقمم السمو البشري ومهاوي الانحطاط. فهل رأيت؟ فلنختر إذن هذا أو ذاك، ولكن فليكن قلبك الحر معينك في الاختيار، بدون إكراه من الكاتب. وأن يسمع الكاتب لنفسه بهذا الموقف معناه أنه كان مؤمناً إيماناً راسخاً بقدرة كلمته الفنية وقيمتها الروحية والأخلاقية وواثقة من أنها لا تصنع الشر بل الخير.

لقد قال دوستويفسكي وهو بعد شاب في أول طريقه الإبداعي: الإنسان لغز». ولم يكف أبداً عن البحث حتى في «أحقر إنسان» عن الإنسان ذي الروح، القادر على الانبعاث.

هناك من قال إن الدورة الدموية للثقافة العالمية تجري الآن بواسطة دوستويفسكي. وهذه بالطبع مبالغة. لكن الأمر المحقق أن قلب هذا العبقري الروسي الكبير على صلة قرابة بنبض البشرية حالياً. ونحن جميعاً كالأنابيب المستطرقة: أين ينتهي دوستويفسكي وأين نبدأ نحن؟ وكما قال الكاتب نفسه: «فلتحاولوا أن تنقسموا، ولتحاولوا أن تحددوا أين تنتهي شخصيتكم وأين تبدأ الأخرى؟».

إهداء

إلي آنا جريجوريفنا دوستويفسكايا[1]

«الحق الحق أقول لكم:
إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض و تمُت فهي تبقي وحدها. ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير».

(إنجيل يوحنا, الإصحاح الثاني عشر،24)[2]

إلى القارئ

حين أشرع في قص حياة بطلي، ألكسي فيدوروفتش كارامازوف، أشعر بشيء من الارتباك، وهو ارتباك له ما يبرره: إنني أسمي ألكسي فيدوروفتش هنا باسم البطل، وأنا أعرف حق المعرفة أنه رجل ليس فيه من العظمة كثير ولا قليل، لذلك أتوقع أن تطرح عليِّ حتماً أسئلة من هذا القبيل: «ماذا في صاحبك ألكسي فيدوروفتش هذا من أمر فذ، حتى اتخذته بطل؟ ما الذي قام به من أعمال نادرة. بماذا أصبح ذائع الصيت، وأين؟ ولماذا يجب عليّ أنا القارئ أن أضيع وقتي في دراسة وقائع حياته؟».
وهذا السؤال الأخير هو الطامة الكبرى، لأنني لا أستطيع أن أجيب عليه بغير قولي: «إقرأوا الرواية، فلربما ترون». وما عسى أن يكون موقفي إذاً قرأ القاري الرواية، فلم يرَ، ولم يشأ أن يسلم بأن صاحبي ألكسي فيدوروفتش شخصية فذة؟ إنني مضطر أن أتساءل هذا التساؤل، لأنني أتوقع، بكثير من الأسف، أن الأمر سيكون كذلك. فهذا الرجل يبدو لي فذاً، ولكنني أشك أقوى الشك في أن أصل إلى إقناع القارئ بذلك بل إنني لأراه بطلاً فعالاً، بمعنى من المعاني، رغم أن فعله يظل غامضاً، يصعب تحديده. وقد يكون الغريب، على كل حال، أن يطلب إلى الناس أن يكون سلوكهم واضحاً مفهوماً في عصر كهذا العصر الذي نعيش فيه على أن هناك أمراً يبدو ثابتاً، هو أن هذا الرجل غريب، شاذ! والغرابة والشذوذ تسيئان إلى السمعة أكثر مما تدفعان إلى العطف والاهتمام؛ وخاصة في عصر يجهد فيه الجميع أن يوحدوا الخصوصيات، التماساً لشيء من المعنى العام في هذا التشوش الشامل. والشذوذ، في أغلب الأحيان، سبيل إلى الخصوصية والتفرد.
أليس كذلك؟
أما إذاً لم توافقوا على هذا الرأي الأخير كل الموافقة، وأجبتم بأن «الأمر ليس كذلك»، أو بأنه «ليس كذلك دائماً»، فقد يردُ إليّ هذا شيئاً من الثقة ببطلي ألكسي فيدوروفتش. لأن الإنسان الشاذ اليس حتماً - ليس دائماً - ذلك الذي يسلك سبيل الخصوص والتفرد، حتى لقد يتفق، خلافاً لهذا، أن يحمل في ذاته حقيقة عصره، بينما يكون الناس، جميع الناس، من معاصريه، قد ابتعدوا عن هذه الحقيقة إلى حين، كأنما دفعتهم عنها ريح هبت عليهم على حين فجأة ...
كان في وسعي، على كل حال، أن أستغني عن محاولة هذه التعليلات المربكة التي ليس لها قيمة، وأن أدخل في الموضوع راساً بلا مقدمات : فإذا حظيت قصتي برضى القارئ، قرأها دونما حاجة إلى هذا التمهيد، ولكن مصيبتي في الأمر أنني أعرض تاريخ حياة واحدة بعينها، في روايتين اثنتين مستقلتين، الثانية منهما أخطر شأناً من الأولى، لأنني أقص فيها أعمال بطلي في العصر الذي نعيش فيه، في الأيام التي نجتازها. أما الأولى فقد جرت أحداثها منذ ثلاثة عشر عاماً، وليست في حقيقة الأمر رواية، وإنما هي فصل بسيط يصور حياة بطلي في صدر شبابه. وكان يستحيل علي أن أعدل عن هذه الرواية الأولى، ولو فعلت، لاستحال فهم الأمور في الرواية الثانية. وهذا ما يفاقم حيرتي الأولى كثيراً: إذاً كانت رواية واحدة تبدو لي، أنا الذي أكتبها، كثيرة على حياة بطل بلغ هذا المبلغ من التواضع والغموض، فكيف أستطيع أن أتقدم إلى الناس بروايتين اثنتين؟ كيف أبرر لهم مثل هذا الادعاء العريض؟
أشعر بأن الجهود التي أبذلها للإجابة على هذه الأسئلة تضيّعني لذلك أعدل عدولاً حاسماً عن محاولة أي تعليل. وواضح أن القارئ الذي أوتي نفاذ البصيرة قد أدرك منذ وقت طويل أنني ما سعيت إلا إلى ذلك منذ البداية، وأحنقه تضييعي الوقت الثمين في كلام عقيم ولكن جوابي على هذه النقطة الأخيرة ماثل في ذهني.
لقد استرسلت في كلام عقيم، وأضعت في ذلك الوقت الثمين، لسببين اثنين: أولهما اللياقة، وثانيهما المكر: فبهذا أكون، كما يقال، قد حذرت القارئ مسبقاً بصورة من الصور. ثم إنني حتى لمسرور أن روايتي تنقسم قسمين، مع الاحتفاظ بما في «مجموعها من وحدة أساسية» . إن القارئ يستطيع، بعد قراءة القصة الأولى، أن يعرف بنفسه هل ينبغي له أن يحمل نفسه عناء قراءة الثانية، وواضح أن لكل إنسان حريته في هذا كله، بل إن في وسع المرء أن يرمي الكتاب منذ قراءة الصفحات الأولى، وأن يعقد النية على أن لا يعود إليه أبداً. على أن هناك قراء أوتوا حظاً من الرهافة، فهم يريدون من كل بد أن يمضوا في قراءة الكتاب إلى آخره، ذلك من أجل أن يستطيعوا الخلوص إلى رأي يتصف بالحياد، ويتفادى الزلل. وهذا هو شأن النقاد الروس عامة، على سبيل المثال. وإليهم إنما أرتاح الآن: لقد قدمت لهم، رغم ما يتصفون به من الحرص على الدقة والنزاهة، حجة مشروعة للتوقف عن القراءة عند الفصل الأول. هذه إذن مقدمتي بكاملها . وإني لأعترف أنها زائدة لا محل لها. ولكنني ما دمت كتبتها فلأحتفظ بها. لا بأس.
ولننتقل الآن إلى الموضوع.

الباب الأول: قصة أسرة صغيرة

-1-فيدور بافلوفتش كارامازوف

كان ألكسي فيدوروفتش كارامازوف الابن الثالث لمالك الأطيان فيدور بافلوفتش كارامازف[3] الذي اشتهر جداً في مقاطعتنا في زمانه (وما يزال الناس يتحدثون عنه إلى يومنا هذا) بسبب نهايته الفاجعة التي ظلت بلا تفسير ووقعت منذ ثلاثة عشر عاماً على وجه الدقة[4] والتي سأروي قصتها متى آن الأوان، أما الآن فسأقتصر مؤقتاً على الإشارة إلى أن هذا «الإقطاعي» (كما كان يسمى عندنا، رغم أنه لم يكد يعيش أبداً في أراضيه) كان إنساناً عجيباً. إنه ينتمي إلى ذلك النوع من الأفراد الشاذين - وهو نوع منتشر انتشاراً كافياً والحق يقال - الذين يجمعون بين طبيعة سيئة رديئة منحطة وبين قدر كبير من السخف، ولكن سخفهم سخف خاص، فهم يعرفون حق المعرفة كيف يصرِّفون أعمالهم المادية الصغيرة، ويركزون اهتمامهم على هذه الأعمال وحدها. من ذلك أن فيدور بافلوفتش هذا قد بدأ من الصفر إن صح التعبير. لقد كان مالكاً صغيراً جداً، يعيش على موائد الناس، ويسعى إلى أن يحيا حياة إنسان طفيلي تماماً؛ ولكن وجدت عنده، حين مات، ثروة ضخمة تبلغ مائة ألف روبل عداً ونقداً . هذا لا ينفي أنه كان بين سكان منطقتنا من أكثرهم شذوذاً وغرابة. أعود فأكرر أن شذوذه لم يكن هو الغباوة، فإن أكثر هؤلاء الشاذين لا يعوزهم الذكاء ولا يعوزهم الدهاء والمكر، وإنما الأمر أمر سخف، سخف خاص، سخف وطني إن صح التعبير .

لقد تزوج هذا الرجل مرتين وأنجب ثلاثة أبناء، فأما الأكبر فهو دمتري فيدوروفتش الذي ولد له من زواجه الأول، وأما الآخران فهما إيفان وألكسي اللذين ولدا له من زواجه الثاني، كانت امرأته الأولى من أسرة ميوسوف الغنية العريقة في نبالتها التي كان أفرادها ملاكين أيضاً في مقاطعتنا. فإذا سألتني كيف أمكن لفتاة تملك بائنة كبيرة بل وتتمتع بالجمال وتنعم إلى ذلك بذكاء متفوق ذكاء من هذا الذكاء الذي نلقاه كثيراً بين نساء جيلنا ولكنه لم يكن نادراً كذلك في الماضي -أقول إذاً سألتني كيف أمكن لفتاة هذه مزاياها أن تتزوج «طِرْحاً» تافهاً هذه التفاهة (كذلك كان يلقبه جميع الناس) قلت إن هذا أمر لا أحبّ أن أحاول تعليله وتفسيره. لقد أتيح لي أن أعرف على كل حال فتاة - هي من الجيل القديم «الرومانسي» - ظلت خلال سنين طويلة هائمة هياماً عجيباً بحب رجل كان في وسعها أن تتزوجه بسهولة كبيرة، ولكنها مع ذلك انتهت إلى أن تتخيل بنفسها جميع العوائق والعقبات الكأداء، التي تحول بينها وبين تحقيق سعادتها فإذا هي في ذات ليلة عاصفة ترمي بنفسها من أعلى شاطئ وعر يشبه أن يكون جُرْفاً إلى نهر عميق وسريع، وإذا هي تقضي نحبها على هذه الصورة ضحية لنزواتها الخاصة، دون أن يكون لها هدف إلا أن تشبه أوفيليا بطلة شكسبير[5] ، حتى أن في وسع المرء أن يتصور أنه لو كان هذا الجرف الذي اختارته منذ زمن طويل متحمسةً له أشد التحمس، لو كان أقل جمالاً وروعة، ولو كان في مكانه شاطئ منبسط عادي مبتذل، إذن لأمكن أن لا يقع حادث الانتحار هذا. هذه قصة واقعية صادقة وهناك من الدلائل ما يبيح لنا أن نعتقد بأن الوقائع التي من هذا النوع كانت كثيرة في حياتنا الروسية منذ جيلين أو ثلاثة أجيال. فلعل زواج آديلائيدا إيفانوفنا ميوسوفا قد كان هو أيضاً ثمرة مؤثرات غريبة وخيال جامح[6] : لعلها أرادت بذلك أن تؤكد استقلالها النسوي، وأن تخرق الأحكام الاجتماعية السائدة، وأن تتحرر من طغيان أسرتها وتسلط أقربائها. لعل خيالاً طيعاً قد أقنعها، ولو خلال لحظة، بأن فيدور بافلوفتش رغم ما استقر في أذهان الناس عنه من أنه إنسان طفيلي، هو واحد من أشجع الرجال وأكثرهم سخرية في هذا العصر، عصر الانتقال الانتقال إلى الأفضل، في حين أن الرجل لم يكن في حقيقة الأمر إلا مهرجاً شريراً لا أكثر من ذلك. وقد أضيف إلى هذا أمر يؤثر في النفس ويلهب الخيال هو أن الزواج قد سبقه اختطاف، فذلك ما سحر آديلائيدا إيفانوفنا وفتنها. أما فيدور بافلوفتش فقد كان متهيئاً تهيؤاً خاصاً، بحكم وضعه الاجتماعي، لحل من هذا النوع، لأنه كان يتمنى بكثير من الحماسة والحرارة في ذلك الوقت أن تعرض له فرصة نجاح في الحياة بأية وسيلة من الوسائل. فلا شك أن التسلل إلى أسرة ممتازة والحصول على بائنة كانا يغريانه أيما إغراء.. وأغلب الظن أن الحب لم يكن له أي شأن في هذا الزواج، سواء من جهة الخطيبة أو من جهة الخطيب، رغم ما كانت تنعم به آديلائيدا إيفانوفنا من جمال لا يجحد. ولعل ذلك كان حالة فريدة في حياة فيدور بافلوفتش الذي ظل طوال حياته إنساناً تلتهب عواطف الحب عنده التهاباً شديداً، لأنه بطبيعته شهواني بمكن أن تجذبه في طرفة عين أي امرأة يقع عليها بصره، شريطة أن يشجَّع. ومع ذلك كانت آديلائيدا إيفانوفنا المرأة الوحيدة التي لم تستثر هواه ولا أضرمت عواطفه.

ولم تلبث آديلائيدا إيفانوفنا أن أدركت، بعد الاختطاف رأساً، أنها لا تشعر نحو زوجها إلا بالاحتقار. ولم تلبث عواقب مثل هذا الزواج بعد مدة قصيرة للغاية أن ظهرت. فرغم أن أسرة المرأة قد سارعت تذعن للأمر ولم ترفض أن تمهر الرجل بائنة الهاربة، فإن حياة الزوجين أصبحت مضطربة عاصفة تتخللها المشاكل ولا تنقطع فيها المناقشات، وقد قيل إن الزوجة الشابة عرفت كيف تبرهن في هذا الظرف على نُبل ورفعة لم يبرهن على مثلهما فيدور بافلوفتش الذي استطاع، كما نعرف اليوم، أن يدبر أموره منذ البداية بحيث يأخذ منها ثروتها دفعةً واحدة، وهي ثروة تبلغ خمسة وعشرين ألف روبل، فما كادت تقبض هذه الآلاف حتى فقدتها إلى الأبد. إما القرية وإما المنزل الرخي الذي كانت تملكه في المدينة، وهما جزء من البائنة، فقد ظل الرجل زمناً طويلاً يحاول بجميع الوسائل أن ينقلهما إلى ملكيته بسند قانوني، وكان يمكن أن يظفر بذلك لأن ما كانت تشعر به المرأة نحو زوجها من احتقار واشمئزاز ونفور من توسلاته الوقحة التي لا حياء فيها، ومطالباته المستمرة التي لا تنقطع، كان قد حظها على أن تتنازل له عن القرية والمنزل سأماً وضجراً ورغبةً في التخلص منه، لولا أن أسرة آديلائيدا إيفانوفنا قد تدخلت في الأمر في الوقت المناسب فوضعت حداً لمكائد هذا الرجل الجشع، وقد عُرف من مصدر موثوق أن معارك حقيقية قد نشبت بين الزوجين، وادعى بعضهم أن الغالب المنتصر في تلك المعارك لم يكن فيدور بافلوفتش بل آديلائيدا إيفانوفنا، المرأة السمراء ذات الطبع الحاد والإرادة الجريئة والمزاج النزق والجسم القوي قوة مدهشة، وقد انتهى الأمر بالزوجة إلى هجر المنزل والفرار من عند فيدور بافلوفتش مع طالب كان يعمل مربياً ويعيش في فقر مدقع وبؤس مهلك، تاركةً لزوجها أمر الاهتمام بالصغير ميتيا الذي كان يومئذ في السنة الثالثة من عمره. وسرعان ما استغل فيدور بافلوفتش هذه الفرصة فأسكن في منزله نساء من كل نوع، وأخذ يتعاطى الشراب بغير رادع ولا قصد. وفي أثناء ذلك أخذ يطوف في أرجاء الإقليم متباكياً شاكياً من أن آديلائيدا إيفانوفنا قد هجرته، حاكياً شقاءه لجميع الناس. وكان وهو يفعل ذلك لا يتورع أن يقص عن حياته الزوجية تفاصيل لا بد أن يحمر الزوج خجلاً من قصِّها. وأغرب ما في الأمر أنه كان يجد نوعاً من اللذة في أن يمثّل أمام الملا هذا الدور المضحك، دور الزوج الذي خانته زوجته ؛ وكأنما كان يسره أن يكون وضعه هذا الوضع، فهو يصف النازلة التي ألمّت به مضيفاً إليها مزيِّناً لها، حتى لقد كان بعضهم يقول له في معرض السخر منه والتهكم عليه: «لكأنك يا فيدور بافلوفتش قد نلت ترقية، فأنت تبدو مسروراً كل السرور رغم ألمك الشديد»، وزعم الكثيرون أن فيدور بافلوفتش يسره أن تتيح له هذه المناسبة فرصة العودة إلى تمثيل دور المهرج، وأنه يتظاهر عامداً بأنه لا يلاحظ ما في وضعه من أمور تبعث على الضحك، وذلك من أجل أن يزيد ما يتصف به هذا الوضع من طابع هزلي مضحك. ومن يدري مع ذلك؟ لعل جانباً من السذاجة كان له شيء من تأثير أيضاً! انتهى الرجل إلى اكتشاف أثر امرأته الهاربة . لقد كانت المسكينة في بطرسبرج، ذهبت إليها مع صاحبها الطالب، وتحررت فيها تحرراً لا يخطر ببالها أن تتراجع عنه. اضطرب فيدور بافلوفتش لهذا النبأ اضطراباً شديداً، وقرر على الفور أن يسافر إلى بطرسبرج دون أن يعرف طبعاً هو نفسه الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه بهذا السفر، وكان يمكن فعلاً أن يسافر إلى بطرسبرج لولا أنه حين اتخذ هذا القرار قد شعر بأن من حقه الأكيد أن يسكر سكراً قوياً بغية أن يتشجع على القيام بهذه الرحلة. وفيما كان يسكر هذا السكر. لقد توفيت المرأة فجأة في غرفة حقيرة تحت السطح من أحد المنازل، فبعضهم يقول إنها ماتت بمرض التيفوس وبعضهم يقول إنها ماتت من الجوع. فلمّا تناهى خبر وفاتها إلى مسامع فيدور بافلوفتش كان في حالة سكر شديد، فأخذ يركض في الشوارع رافعاً ذراعيه إلى السماء صائحاً بأعلى صوته: «الآن حررت عبدك يا رب!» ذلك ما رواه بعضهم، ولكن في رواية أخرى أنه حين علم بالنبأ أخذ ينتحب انتحاب طفل صغير، فإذا رآه الرائي أخذته به شفقة رغم ما يوقظه في النفس من اشمئزاز. وقد تكون الروايتان كلتاهما صحيحتين على كل حال، فلعل الرجل قد اغتبط بما ظفر به من حرية، ولكنه في الوقت نفسه بكى صادقاً على تلك التي وهبت له هذه الحرية. إن في البشر -وحتى في أعتى المجرمين -من السذاجة والطيبة فوق ما قد نتخيل، وهذا يصدّق علينا نحن أيضاً.

2 - -كيف تخلص من ابنه الأول

ليس من الصعب طبعاً أن نتخيل كيف يقوم مثل هذا الرجل بواجباته أباً ومربياً. لقد تصرف، من حيث هو أب، التصرف المتوقع منه: أي أنه لم يعبأ قط بالطفل الذي ولد الله من آديلائيد إيفانوفنا، وجهله جهلاً تاماً . لا لأنه يضمر للصغير كرهاً ويحمل له حقداً من حيث إنه زوج خانته امرأته، بل لسبب بسيط جداً هو أنه قد نسيه نسياناً تاماً . وبينما كان الأب يزعج الناس بشكاواه وبكائه، مع اتخاذه منزله مكاناً للفسق في الوقت نفسه، فإن خادماً وفياً أميناً اسمه جريجوري قد حنا على الصغير ميتيا[7] الذي كان عمره عندئذ ثلاث سنين، وضمه إليه وعني به، فلولا أن هذا الخادم قد تولى أمر الصبي لما وجد حتى من يغير له ملابسه. زد على ذلك أن أسرة أم ميتيا قد بدا أنها نسيت الصبي هي أيضاً في الآونة الأولى. كان جدُ الصبي، وهو الشيخ ميوسوف، أبو آديلائيد إيفانوفنا، قد بارح هذا العالم إلى العالم الآخر، وكانت أرملته، جدة الصبي، التي انتقلت إلى موسكو، تعاني من وطأة المرض. أما أخوات آديلائيد إيفانوفنا فكن قد تزوجن. وهكذا لبث الصبي ميتيا سنة كاملةً مقيماً مع الخادم جريجوري في كوخ يسكنه الخدم. وأغلب الظن أن الأب لو تذكر ابنه في مناسبة من المناسبات (وهو لا يمكن أن يجهل وجوده على كل حال) لأسرع يطرده إلى ذلك الكوخ، حتى لا يكون الصبي عقبة في طريق فجوره. ولكن حدث أن أحد أبناء عمومة المتوفاة آديلائيدا إيفانوفنا، واسمه بيتر ألكسندروفتش ميوسوف، قد رجع في ذلك الأوان من باريس. إن بيتر هذا، الذي سيعيش في المستقبل سنين طويلة خارج روسيا، كان عندئذ شاباً في شرخ الشباب، وكان رجلاً من نوع خاص يختلف كل الاختلاف عن أفراد أسرة ميوسوف: لقد كان مثقفاً نشأ وترعرع وتربي في العاصمة وفي الخارج فكان أوروبياً إلى أن أصبح في أواخر حياته ليبرالياً على طراز 1840 - 1850، كان على صلة بأكثر المفكرين ليبرالية وأشدهم تطرفاً في زمانه، سواء في روسيا أم في الخارج، حتى لقد عرف برودون وباكونين[8] معرفة شخصية. فلمّا بلغ خاتمة المطاف من تجواله وترحاله كان يحلو له كثيراً أن يستحضر ذكرى مشاعره أثناء الأيام الثلاثة من ثورة شباط (فبراير) 1848[9] التي قامت في باريس، وأن يُفهم سامعيه في هذه المناسبة أنه أوشك أن يشارك في تلك الثورة، حتى لقد وجد نفسه فوق المتاريس. وكانت هذه الذكرى من أحلى ذكريات شبابه. كان هذا الرجل يملك ثروة مستقلة يمكن أن تُقدَّر في ذلك العصر بألف نفس. وكانت أراضيه الممتازة تقع على مقربة من مدينتنا الصغيرة وتتاخم أراضي ديرنا الشهير الذي أقام عليه ميوسوف منذ صدر شبابه، أي بعد أن آلت إليه هذه الأراضي فوراً، قضيةً طال أمدها فما تنتهي. والقضية تتعلق بحقوق الصيد في النهر أو حقوق قطع الأشجار في الغابات، أو غير ذلك مما لم أعد أذكره، وهي قضية تافهة في ذاتها ، ولكن صاحبنا قدر أن من واجبه كمواطن صالح وإنسان متنوّر أن يقاضي هؤلاء «الإكليركين». فلمّا علم بمصير آديلائيدا إيفانوفنا التي لا شك أنه كان يتذكرها حتى لقد لاحظها في الماضي، ولما علم بوجود الطفل الصغير قرر أن يتدخل في الأمر رغم ما كان يحمله الفيدور بافلوفتش من احتقار، ورغم ما كان يحسه إزاء سلوكه من شعور الاستياء والاستنكار، وهو شعور طبيعي في شاب. ففي هذه الظروف إنما التقى لأول مرة بفيدور بافلوفتش فأبلغه صراحةً بغير لف ولا دوران أن في نيته أن يأخذ على عاتقه تربية الصبي. وقد روى فيما بعد، خلال سنين طويلة، كأنما ليبرز أخلاق فيدور بافلوفتش أن فيدور بافلوفتش هذا، حين سمع كلامه، بدا عليه في أول الأمر أنه لا يفهم أي صبي يعني، وظهر عليه الاندهاش من أن يكون له ابن صغير يسكن في مكان ما من المنزل. وهَبْنا سلّمنا بأن فيما رواه بيتر ألكسندروفتش شيئاً من مبالغة، فمما لا شك فيه أن فيدور بافلوفتش كان طوال حياته يحب أن يمثل وأن يظهر على حين فجأة في دور ليس متوقعاً، دون أن يكون هناك داع إلى ذلك، ودون أن يجني من ذلك نفعاً، بل ربما لحقه منه ضرر في كثير من الأحيان كما حدث مثلاً في هذه الحال. وتلك صفة نقع عليها لدى كثير من الناس قد يكونون على جانب عظيم من الذكاء خلافاً لفيدور بافلوفتش. وصرَّف بيتر ألكسندروفتش الأمور بهمة وحزم وحماسة، فعيّن آخر الأمر وصياً على الطفل (بالاشتراك مع فيدور بافلوفتش)، لأن هناك بقية من ميراث خلَّفته الأم هو منزل وأرض صغيرة. هكذا مضى ميتيا يعيش في منزل ابن عم أمه، الذي لم يكن له أسرة فأسرع يعود إلى باريس فيقيم فيها إقامة طويلة بعد أن رتب أموره وتقاضى ريع أراضيه، وعهد بالصبي إلى إحدى بنات أعمامه وهي سيدة من موسكو. وانتهى به الأمر، أثناء حياته الباريسية الطويلة، إلى أن ينسى الصبي هو أيضاً ، ولا سيما بعد ثورة شباط (فبراير) تلك الشهيرة التي أثرت في خياله تأثيراً كبيراً حتى أصبح فكره مشدوداً إليها حتى نهاية حياته . وماتت السيدة الموسكوفية، فانتقل الصبي إلى منزل إحدى بناتها المتزوجات. ويظهر أنه غير عشه بعد ذلك مرة رابعة، ولكنني لا أريد أن أفيض في ذكر هذه التفاصيل الآن، لا سيما وأنني سأتحدث كثيراً عن هذا الابن الأول من أبناء فيدور بافلوفتش، وحسبي أن أسوق بعض الإشارات التي لا غنى عنها، والتي بدونها يستحيل علي أن أشرع في قص هذه الرواية.

فأولاً: كان دمتري فيدوروفتش هذا الابن الوحيد من أبناء فيدور بافلوفتش الثلاثة الذي شب على الاعتقاد بأنه يملك ثروة لا بأس بها ستؤول إليه حينما يبلغ سن الرشد[10] فتكفل له الاستقلال. وقد قضى مراهقته والسنين الأولى من شبابه يعيش حياة مضطربة. لم يتم سني دراسته في المدرسة الثانوية، ثم دخل مدرسة عسكرية، وأرسل بعد ذلك إلى القفقاس، ونال هنالك ترقية. ولكنه تورط في مبارزة، فجرد من رتبته، ثم استرد شاراته، ثم راح يلهو ويقصف، فبدد مبالغ لا بأس بها... ومع ذلك فإنه لم يبدأ بتلقي أموال من أبيه فيدور بافلوفتش إلا حين بلغ سن الرشد، أما قبل ذلك فقد كان يعيش على ديون يتراكم بعضها فوق بعض. ولم يَرَ أباه لأول مرة منذ تركه في طفولته، ولم يعرفه إن صح التعبير، إلا بعد بلوغه سن الرشد بقليل، وذلك حين جاء إلى مدينتنا يناقش أباه في أمر ميراثه. ويظهر أنه نفر من أبيه حينذاك، فلم يمكث عنده إلا زمناً قصيراً، ثم قفل راجعاً بعد أن حصل منه على مبلغ من المال، وأبرم مع أبيه اتفاقاً غامضاً على أن يرسل إليه أبوه ريع أرضه تباعاً، دون أن يستطيع حمل أبيه على أن يعيّن له قيمة الأرض وإيرادها (هذه نقطة يجب أن تظل ماثلة في أذهاننا). وقد أدرك فيدور بافلوفتش في تلك اللحظة، ومنذ سمع الكلمات الأولى التي قالها ابنه (وهذه أيضاً نقطة يجب أن نسجّلها) أن الفكرة القائمة في ذهن ميتيا عن ثروته فكرة مغالية وخاطئة. وسُرّ الأب بذلك سروراً عظيماً، لأنه بيَّت أموراً تحقق له مصالحه، لقد استنتج أن الفتى خفيف طائش مندفع تسيطر عليه أهواؤه الجامحة، وهو نافذ الصبر متعجل، وأنه إلى ذلك يحب اللّهو والقصف وأن الشيء الذي يهم هذا الفتى خاصة هو أن يحصل على بعض المال الإشباع حاجاته الآنية، فمتى تحقق له ذلك هدأ فوراً، ولو إلى حين طبعاً. وهذا ما راح فيدور بافلوفتش يستغله، فكان يتحرر من مطالب ابنه بدفعات زهيدة من المال يرسلها إليه متقطعةً من حين إلى حين. حتى إذا نفد صبر ميتيا أخيراً، عاد إلى مدينتنا بعد أربع سنين، ليسوي قضية الميراث هذه تسوية نهائية مع أبيه، فما كان أشد دهشته حين عرف أنه أصبح لا يملك شيئاً البتة، فقد قبض بتلك الدفعات المتعاقبة مبالغ يصعب تحديدها على وجه الدقة، ولكنها تتجاوز قيمة الأرض الموروثة على كل حال، حتى أنه قد يكون مديناً لأبيه الآن وأنه بحكم الصفقات التي أبرمها في التواريخ الفلانية والفلانية أصبح لا يحق له أن يطالب بشيء البتة، إلخ. إلخ... صُعق الفتى، وأحس بأنه خدع وغرر به، وشعر بأن أباه يكذب عليه، فثارت ثائرته حتى بدا كمن فقد صوابه. ذلك هو الظرف الذي أدى إلى الكارثة التي تتألف من سرد قصتها روايتي الأولى التمهيدية، أو قل البناء الخارجي لتلك الرواية. ومع ذلك ينبغي لي قبل أن أعالج الرواية أن أتكلم عن ابنَي فيدور بافلوفتش الآخرين، عن أَخَوَيّ ميتيا، وأن أذكر كيف جاءا إلى هذه الحياة الدنيا.

- 3 -الزواج الثاني وابنا الفراش الثاني

بعد أن تخلص فيدور بافلوفتش من ابنه ميتيا ولما يكد يبلغ الرابعة من عمره، لم يلبث أن تزوج مرة أخرى. وقد دام زواجه الثاني هذا زهاء ثماني سنين. وكانت امرأته الجديدة، صوفيا إيفانوفنا، في هذه المرة أيضاً، شابة في ريعان الصبا، من إقليم مجاور ذهب إليه فيدور بافلوفتش في صحبة يهودي حقير من أجل قضية مقاولة بسيطة. ذلك أن فيدور بافلوفتش، على استرساله في اللّهو والقصف والشراب والمجون والفسق، لم ينقطع أثناء ذلك أبداً عن الاهتمام باستثمار رؤوس أمواله، وقد عرف دائماً كيف يصرّف شؤونه الصغيرة تصريفاً فيه حكمة وتدبر، ولكن بشيء من النذالة والغش في كثير من الأحيان طبعاً. وكانت صوفيا إيفانوفنا فتاة يتيمة لم تعرف أسرتها يوماً. إنها ابنة شماس مغمور، نشأت وترعرت في منزل ثري هو منزل ارستقراطي أرملة الجنرال فوردخوف العجوز النبيلة الأصل، التي كانت تحسن إليها وتربيها وتضطهدها في آن واحد. لست أعرف جميع التفاصيل ولكني سمعت من يروي أن هذه البنت الصغيرة التي كانت تعيش في كنف الجنرالة وكانت مخلوقة مسكينة عذبة دمثة، قد وجِدت ذات يوم تحاول أن تشنق نفسها بحبل علقته بمسمار في شونة، من فرط ما ضاقت بقسوة الفورات المستمرة والنزوات المتصلة تصبها على رأسها هذه العجوز التي لم تكن في الظاهر شريرة، ولكنها كانت في حقيقة الأمر امرأة جعلها الفراغ متسلطة تسلطاً لا يطاق، مستبدة استبداداً أحمق لا يحتمل. وقد خطب فيدور بافلوفتش الفتاة فسألوا عنه، فرفضوه. فما كان منه إلا أن فعل ما سبق أن فعله في المرة الأولى، فعرض على اليتيمة أن يختطفها. وأغلب الظن بل الأرجح أنها ما كانت لتوافق على الهروب معه أبداً لو عرفت آنذاك تفاصيل حياته خيراً مما عرفتها. ولكن السمعة السيئة التي نالها فيدور بافلوفتش لم تكن قد تجاوزت حدود إقليمنا إلى الأقاليم الأخرى، وكانت الفتاة المسكينة في السادسة عشرة من عمرها([11]) لا تعرف إلا شيئاً واحداً هو أن وجودها في قاع نهر من الأنهار خير من بقائها في منزل هذه السيدة المحسنة إليها. هكذا غادرت الشقية بيت محسنة إلى بيت محسن. ولم يقبض فيدور بافلوفتش في هذه المرة كوبيكاً واحداً، لأن الجنرالة قد غضبت غضباً شديداً فلم تهب للعروسين شيئاً عدا اللعنة. على أن فيدور بافلوفتش لم يكن قد عوّل على الحصول على مال في هذه المرة، وإنما أغراه ما كانت تتمتع به الفتاة البريئة من جمال أخاذ، وفتنه ما رآه في مظهرها من صفاء صعق هذا الرجل الشهواني الذي كان لا يحفل إلا بملذات الحسّ، هذا الرجل الساقط الذي لم تجتذبه في المرأة حتى ذلك الحين إلا المفاتن الخسيسة. «إن تينك العينين الصغيرتين البريئتين قد نفذتا إلى نفسي عندئذٍ كسكين»: كذلك اعتاد أن يقول فيما بعد، وهو يضحك تلك الضحكة الكريهة المعهودة فيه. ومن الجائز أيضاً أن ذلك الافتتان بالبراءة لم يكن لدى فاسق مثله إلا صورة من صور اللذة الحسية. وقد اعتقد فيدور بافلوفتش، لأنه لم ينل أي تعويض مالي، أنه ليس عليه أن يتحرج مع امرأته أي تحرج، واستغل شعورها بأنها «مذنبة» في حقه فهو الذي «أنقذها من الحبل»، واستغل من جهة أخرى ما يتصف به طبعها من عذوبة مفرطة وإذعان عجيب، فركل بقدميه أبسط قواعد اللياقة التي توجبها الحياة الزوجية، فكان يقيم حفلات الخلاعة والفجور على مرأى منها، وكان يجيء إلى البيت بنساء فاسقات ساقطات. ويجب أن أذكر، في هذه المناسبة، كَسِمَة من السِّمات التي تميز هذه البيئة، أن الخادم جريجوري، الإنسان المماحك المتجهم الغبي العنيد، الذي كان قد كره زوجة سيده الأولى، آديلائيدا إيفانوفنا، قد انحاز في هذه المرة إلى صف الزوجة الجديدة، ودافع عنها، وكثيراً ما اختصم مع فيدور بافلوفتش في أمرها بصورة توشك أن لا تكون مقبولة من خادم. حتى لقد اتفق له ذات مرة أن وضع حداً لحفلة خليعة، مستعملاً القوة في طرد المخلوقات الفاجرة التي تجمعت في المنزل. وفيما أصيبت هذه المرأة البائسة التي قاست من الإرهاب والعذاب ما قاست منذ طفولتها، أصيبت بنوع من المرض العصبي منتشر خاصةً بين بنات الطبقة الدنيا من الشعب وبين الفلاحات اللواتي يسمين بسبب هذه الإصابة «كليكوشي» [12]. إن هذا المرض الذي تصحبه نوبات رهيبة من نوبات الهستيريا، كان يهوي بالمرأة الشابة في بعض الأحيان إلى حالة من الهذيان والخرف. ومع ذلك أنجبت هذه المرأة ابنين، ولد أحدهما، وهو إيفان، بعد الزواج بسنة، وولد الثاني، وهو ألكسي، بعد ولادة الأول بثلاث سنين. وحين ماتت، كان الصغير ألكسي قد دخل السنة الرابعة من عمره. وإني لأعلم، مهما يبدو لكم هذا الأمر غريب، أن ذكرى أمه قد بقيت ماثلة في ذهنه طوال حياته، ولو في صورة تشبه أن تكون حلماً. وقد كان مصير هذين الابنين، بعد موت أمهما، شبيهاً بمصير أخيهما الأكبر ميتيا: نسيهما أبوهما نسياناً تاماً، وهجرهما هجراً كاملاً، وضمهما إليه جريجوري في كوخه مثلما ضم إليه أخاهما من قبل. وهناك، في ذلك الكوخ، إنما اكتشفتهما الجنرالة العجوز المهووسة التي كانت لأمهما محسنة ومنشئة، كانت العجوز ما تزال على قيد الحياة، ولم تستطع خلال تلك السنين الثماني أن تغفر الإهانة التي أُلحقت بها. وكانت طوال تلك الفترة تتسقط أخبار «ربيبتها صوفيا» تفصيلاً، فلمّا علمت بنبأ المرض الخطير الذي ألمّ بها، كما علمت بأنباء البيئة الفاسدة الفاضحة التي اضطرت المسكينة أن تعيش فيها، قالت مراراً كثيرة، بصوت عالٍ، أمام من تعولهن: «لقد استحقت ذلك، فإن الله هو الذي يعاقبها على نكرانها الجميل».

وبعد موت صوفيا إيفانوفنا بثلاثة أشهر تماماً، ظهرت الجنرالة ذات يوم بشخصها في مدينتنا الصغيرة واتجهت رأساً إلى منزل فيدور بافلوفتش. ولم تمكث عندنا أكثر من نصف ساعة، ولكنها لم تضيع وقتها سدى. كان ذلك في نحو المساء. إن فيدور بافلوفتش الذي لم تره منذ اختطاف صوفيا مرة واحدة خلال تلك السنين الثماني قد هب إلى لقائها الآن وهو في حالة سكر لطيف. فما كادت تراه حتى صفعته منذ اللحظة الأولى صفعتين قويتين ومدويتين، دون أن تسترسل في أية إيضاحات، ثم أمسكته من شعره وهزته في مكانه ثلاث مرات. ثم اتجهت إلى الكوخ الذي يوجد فيه الطفلان، دون أن تنطق بكلمة واحدة، فلمّا لاحظت بنظرة سريعة أنهما لم يُغسلا وينظفا، وأن ملابسهما الداخلية لم تغير، أسرعت تصفع جريجوري أيضاً، وأعلنت له أنها ستأخذ الصبيين إلى منزلها، ثم خرجت بهما كما كانا، بعد أن لفتهما بغطاء، ووضعتهما في عربتها، وعادت بهما إلى مدينتها. لقد تلقى جريجوري هذه الصفعة كما يتلقاها عبد خاضع مطيع، دون أن ينطق بكلمة ودون أن يخرج عن أدبه، بل لقد رافق السيدة العجوز إلى عربتها، وقال لها وهو ينحني حتى مستوى الحزام، قال لها في اقتناع كامل وإيمان قوي: «إن الرب سيجزيها جزاءً حسناً بسبب هذين اليتيمين»، فصرخت الجنرالة تقول له وهي تنصرف: «أنت مع ذلك أبله!» وبعد أن قلب فيدور بافلوفتش الأمر على وجوهه المختلفة انتهى إلى أن كل شيء قد جرى على ما يرام. ثم لم يضع بعد ذلك أية عقبة تحول دون موافقته الرسمية على أن يُربي الصبيان في منزل الجنرالة وذيّل بتوقيعه جميع الشروط التي اقترحت عليه. أما الصفعات التي تلقاها فقد مضى يتباهى بها في المدينة كلها.

وحدث أن توفيت الجنرالة أيضاً بعد ذلك بزمن قصير، ولكنها أورثت كلاً من الطفلين في وصيتها مبلغ ألف روبل، وقد نصّت الوصية على أن هذا المبلغ «مخصص لتعليمهما، فما ينبغي أن ينفق منه شيء إلا عليهما، ولكن على شرط أن يكفيهما حتى يبلغا سن الرشد، لأن مثل هذا المبلغ كاف لطفلين مثلهما، فإذا ظن بعض الناس أن هذا قليل فليتفضلوا بتدارك النقص من جيوبهم، إلخ إلخ». إنني لم أقرأ وصية الجنرالة ولكن قيل لي إنها تضمنت أموراً غريبة من هذا القبيل، وأنها قد كتبت بعبارات طريفة عجيبة. ومن حسن الحظ أن الوارث الرئيسي الذي آلت إليه أموال الجنرالة كان رجلاً شريفاً هو إيفيم بتروفتش بولينوف سيد نبلاء هذه المقاطعة. وقد كتب إلى فيدور بافلوفتش ولكنه لم يلبث أن أدرك أن هذا لن يدفع كوبيكا واحداً في سبيل تعليم ابنيه (رغم أن فيدور بافلوفتش ما كان ليرفض ذلك رفضاً مباشراً، وإنما هو يقتصر في مثل هذه الحالة على المماطلة والتسويف، وربما عمد أحياناً إلى التدفق في أقوال عاطفية). قرر إيفيم بتروفتش عندئذ أن يهتم باليتيمين شخصياً، وتعلق تعلقاً خاصاً بأصغرهما ألكسي، فرباه في أسرته نفسها خلال سنين. أرجو من القارئ أن ينتبه إلى هذه النقطة من البداية. لئن استطاع هذان الشابان أن ينعما في حياتهما بتربية جيدة وثقافة مناسبة، فإنما يرجع الفضل في ذلك إلى إيفيم بتروفتش هذا الذي كان إنساناً يتمتع بطيبة عظيمة وشهامة كبيرة يندر أن نقع على مثلهما في غيره. إنه لم يمس الألفي روبل التي ورثها الصبيان من الجنرالة، فلمّا بلغا سن الرشد كان كل ألف قد صار بالفوائد ألفين. لقد أخذ الرجل على عاتقه تربية الصبيين، فأنفق عل كل منهما أكثر كثيراً من الروبلات الألف طبعاً. لن أدخل هنا في قص تفاصيل حياتهما أثناء الطفولة والمراهقة، وإنما اقتصر مرة أخرى على إشارات لا غنى عنها. فأما عن الابن الأكبر إيفان فأقول إنه أصبح مع الأيام مراهقاً يتصف بشيء من التجهم والانطواء.

صحيح أنه لم يكن خجولاً، ولكن كان يبدو أنه أدرك منذ السنة العاشرة من عمره أنه يعيش هو وأخوه في أحضان أسرة هي أسرة غرباء رغم كل شيء، وأنهما يُربيّان في هذه الأسرة من باب الرأفة والإحسان على وجه الإجمال، وأن أباهما إنسان شاذ يضيق المرء ذرعاً حتى بالكلام عنه، إلخ إلخ. وقد أظهر هذا الصبي في وقت مبكّر منذ طفولته الأولى فيما يقال مواهب عظيمة للتعلم وتفوقاً واضحاً في الدراسة. إنني لم أطلع على التفاصيل، ولكنني أعلم أن الفتى ترك أسرة إيفيم بتروفتش وهو في نحو الثالثة عشرة من عمره، فدخل مدرسة ثانوية بموسكو حيث عاش في «بنسيون» عالم من علماء التربية واسع الخبرة ذائع الصيت في ذلك الزمان، كان أحد أصدقاء إيفيم بتروفتش في طفولته. وقد روى إيفان نفسه فيما بعد أن ذلك كله إنما مردّه إلى ما يتصف به إيفيم بتروفتش من حماسة شديدة لأعمال الخير»، لأن إيفيم بتروفتش قد استقر في ذهنه أن صبياً عبقرياً لا بد أن يتولى تربيته مربٍّ عبقري. على أن إيفيم بتروفتش والمربي العبقري كانا قد انتقلا كلاهما إلى رحمة الله حين أنهى الفتى دراسته الثانوية فانتسب إلى الجامعة. وقد تأخر استلام الروبلات الألف التي أوصت بها الجنرالة المهووسة للطفلين والتي صارت بالفوائد ألفين، تأخر استلامها نتيجة لسوء تدوين التدابير التي اتخذها إيفيم بتروفتش، وبسبب أنواع كثيرة من الإجراءات الشكلية والمماطلة التي لا بد منها في بلادنا... لذلك كانت السنتان الأوليان اللتان قضاهما إيفان في الجامعة حافلتين بالمصاعب والمشقات. لقد اضطر الفتى أن يلتمس رزقه بنفسه أثناء تلك المدة، مع استمراره على متابعة دراسته. يجب أن نذكر هنا أنه لم يخطر بباله في لحظة من اللحظات أن يستنجد في ذلك الظرف بأبيه، إما عن كبرياء وشمم في نفسه،

وإما عن احتقار وازدراء لأبيه، وإما لأن عقله الهادئ الرصين قد حدثه بأنه ليس له أن يعول على الحصول من أبيه على معونة ذات بال. المهم أن المصاعب لم تفت في عضد الفتي ولا أضعفت عزيمته، واستطاع أخيراً أن يجد عملاً. أخذ في أول الأمر يعطي دروساً في المنازل باجر زهيد، ثم استطاع أخيراً بالسعي من إدارة تحرير إلى إدارة تحرير أن يكتب للجرائد اليومية مقالات مقتضبة، في حدود عشرة أسطر، عن حوادث الشارع، مذيلة بتوقيع «شاهد عيان». وقد أكد المؤكدون أن تلك المقالات القصيرة كان فيها من الفكر المتوقد والفكاهة اللاذعة ما كفل لها أن تصيب نجاحاً سريعاً. بذلك استطاع هذا الشاب أن يبرهن تفوقه على أولئك الطلاب الكثيرين من الجنسين، الذين يعيشون دائماً في عَوَز وفاقة، ويلم بهم في عواصمنا البؤس والفقر والشقاء، ويحاصرون إدارات تحرير شتي الجرائد والمجلات في عاصمتينا من الصباح إلى المساء. إنهم في العادة لا يحسنون أن يبتكروا شيئاً غير تكرار طلبهم الأبدي، وهو أن يكلفوا بترجمة بعض النصوص عن اللغة الفرنسية، أو أن يقوموا ببعض أعمال النسخ. فلمّا استطاع إيفان فيدوروفتش أن يصل إلى إدارات التحرير دبر أموره بعد ذلك بحيث يبقى على صلة بها، ونشر أثناء السنين الأخيرة من دراسته الجامعية مقالات نقدية ودراسات طيبة عرض فيها الأنواع شتى من المؤلفات، فأخذ يُعرف حتى في المحافل الأدبية. على أنه لم يظفر، مصادفة، بأن يلفت إليه، على حين فجأة، انتباه دائرة من القراء أوسع كثيراً من ذلك، إلا في نهاية تلك الفترة، فأصبح عدد كبير من القراء يتذكرونه منذ ذلك الحين ولا ينسونه. كان هذا في مناسبة طريفة جداً. كان إيفان فيدوروفتش قد أنهى دراسته الجامعية، وكان يتهيأ بالألفي روبل التي يملكها أن يسافر إلى الخارج، حين نشر ذات يوم، في جريدة من كبرى الجرائد اليومية، مقالاً غريباً لَفَتَ إليه حتى أنظار غير المختصين من القراء؛ والعجيب أن المقال يعالج موضوعاً لا يمت بصلة من الصلات إلى ما انصرف إليه الشاب من اختصاص علمي (ذلك أنه قد تخصص في العلوم الطبيعية. لقد تناول المقال مسألة القضاء الإكليركي [13] التي كانت تثار آنذاك في كل مكان. فبعد أن ناقش كاتب المقال مختلف الآراء التي وردت في صدد هذا الموضوع، أبدى رأيه الشخصي. وقد تميز المقال خاصةً باللهجة التي كتب بها، كما تميز بالنتيجة التي انتهى إليها، وهي نتيجة تتصف بأنها جديدة غير متوقعة، ومع ذلك فإن عدداً كبيرة من أنصار الإكليروس قد عدوا الكاتب مؤيداً لهم، بينما أخذ أنصار العلمانية، وحتى الملحدون، يعربون عن استحسانهم لما تضمنه مقاله. وأدرك بعض أهل الحصافة والذكاء أخيراً أن المقال، من أوله إلى آخره، لم يكن إلا مزحة جريئة ومهزلة ساخرة. وإنما أذكر هنا هذه النقطة التفصيلية لأن المقال قد وصل في حينه إلى الدير الشهير الذي يقع على أبواب مدينتنا، فإذا بمسألة القضاء الإكليركي تثير اهتماماً عاماً على حين فجأة. لقد قرئ المقال في المدينة فأحدث هزة قوية؛ حتى إذا عرف اسم كاتبه اشتدت حماسة الناس، ذلك أن الكاتب يرجع أصله إلى مدينتنا، وهو أنه، فوق ذلك، «ليس إلا ابن فيدور بافلوفتش ذاك بعينه». وها هو ذا كاتب المقال يظهر في مدينتنا بنفسه في تلك الآونة نفسها.

ترى ماذا كانت غاية إيفان فيدوروفتش من تلك الزيارة، ولماذا جاء إلى مدينتنا؟ أذكر جيداً أنني قد ألقيت هذا السؤال على نفسي شاعراً حتى في تلك اللحظة بشيء من القلق. إن هذه الزيارة المشؤومة التي كانت السبب في وقوع أحداث كثيرة، قد ظلت في ذهني خلال زمن طويل، بل ظلت في ذهني إلى الأبد، أمراً غامضاً. إنه لشيء غريب، على وجه العموم، أن يقرر شاب يبلغ هذا المبلغ من سعة الثقافة وشدة الكبرياء وكثرة الحذر، فيما يبدو، أن يقرر على حين فجأة، أن يجيء إلى منزل يبلغ هذا المبلغ من سوء السمعة، أن يجيء إلى أب كهذا الأب الذي جهله طوال حياته، ولم يشأ يوماً أن يعرف شيئاً عنه، حتى نسي وجوده ذاته. والفتي يعلم حق العلم مع ذلك أن أباه الذي كان سيرفض قطعاً في أي ظرف من الظروف أن يعطي ابنه شيئاً من مال لو سأله ذلك، كان في خوف متصل من أن ينتهي الأمر بإبنيه ، إيفان وألكسي، أن يطلبا منه بعض المال واحداً بعد آخر. ورغم ذلك فهذا هو إيفان يسكن منزل أب كهذا الأب، ويقضي فيه شهراً بعد شهر، وهذان هما الرجلان يتفاهمان أحسن تفاهم! إن هذا الأمر لم يدهشني وحدي، بل أدهش عدداً آخر من الناس أيضاً. وكان بيتر ألكسندروفتش ميوسوف، قريب زوجة فيدور بافلوفتش الأولى، الذي سبق أن تحدثت عنه، كان في ذلك الحين يقيم عندنا في الأرض التي يملكها بضواحي مدينتنا. فلقد جاء من باريس التي اتخذها مقراً له. إن بيتر ألكسندروفتش ميوسوف هذا كان من أشد الناس دهشة حين تعرف بالشاب إيفان الذي أثار اهتمامه الشديد، وأصبح يحسّ بالمنافسة بينه وبينه في شؤون العلم والثقافة العامة، على شيء من ألم يستشعره خفياً. كان يسر إلينا في كثير من الأحيان أثناء تلك الفترة حين يتحدث عنه قائلاً: «هذا رجل ذو كبرياء، ولن يصعب عليه أن يجني رزقه، والآن أيضاً يملك مالاً للسفر إلى الخارج، فماذا جاء يفعل هنا؟ واضح أنه لم يأت إلى أبيه ليحصل على مال، لأن أباه لن يعطيه شيئاً بحال من الأحوال. أما أن يسكر وأن يسترسل في المجون فذلك ليس من أذواقه وميوله، ومع ذلك فإن الشيخ أصبح لا يستطيع الاستغناء عنه، من شدة تعلقه به!». هذا صحيح. ولقد كان واضحاً أن الشاب يؤثر في أبيه بعض التأثير، وكان يبدو أن أباه يطيعه في بعض الأحيان، رغم أن طبعه كان نزقاً للغاية، ورغم أنه يكون في بعض المناسبات شرساً، حتى لقد أخذ الأب يحتشم في سلوكه قليلاً.

ولم يعلم أحد إلا بعد ذلك بزمن طويل أن إيفان فيدوروفتش قد كان من أسباب مجيئه أن أخاه الأكبر دمتري فيدوروفتش قد طلب منه ذلك ليهتم بمصالحه. وفي هذه الفترة بعينها، أثناء إقامته تلك بمدينتنا، إنما عرف ذلك الأخ الذي لم يكن قد رآه من قبل في يوم من الأيام، رغم أنه قد أخذ يراسله قبل سفره إلى موسكو في موضوع قضية هامة تتعلق خاصة بدمتري فيدوروفتش. وسأشرح للقارئ بالتفصيل ماذا كانت تلك القضية، حين يجيء أوان الكلام عليها. ومع ذلك يجب أن أقول إنني حتى بعد أن اطّلعت على هذه الظروف الخاصة، ظللت أجد سلوك إيفان فيدوروفتش سراً محيّراً، وظللت أعد زيارته لمدينتنا أمراً لا أجد له تعليلاً ولا تفسيراً.

أضيف إلى هذا أن إيفان فيدوروفتش كان يُشعر الناس بأنه يتدخل وسيطاً ومصلحاً بين أبيه وأخيه الأكبر دمتري فيدوروفتش الذي دخل منازعة كبيرة مع الأب بل أقام عليه دعوى قضائية.

أعود فأقول إن هذه الأسرة الصغيرة قد وجدت نفسها تجتمع آنذاك لأول مرة، فإذا ببعض أفرادها يرى البعض الآخر لأول مرة في الحياة. إن الابن الأصغر، ألكسي فيدوروفتش، هو الوحيد الذي كان يقيم منذ سنة في مدينتنا التي وصل إليها قبل أخويه. ما أصعب أن أتحدث عن ألكسي هذا في هذه القصة التي هي تمهيد للرواية، قبل أن أدخله إلى مسرح الأحداث. ومع ذلك لا بد أن أعزم أمري على قول بضع كلمات تكون مقدمةً للدخول في موضوعه أيضاً، ولو لأوضح، منذ الآن، طابعاً غريباً جداً تتصف به هذه القصة: إنني مضطر في الواقع إلى أن أقدم بطلي للقارئ منذ أول لحظة لظهوره في الرواية في مسوح فتى يتأهب للترهب. إنه يعيش في ديرنا منذ قرابة سنة، متهيئاً لأن يعتكف فيه إلى آخر حياته فيما كان يبدو.

- 4 -أليوشا، الابن الثالث

لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره بعد (لقد دخل أخوه إيفان في الرابعة والعشرين، أما أخوهما دمتري فهو يشارف على الثامنة والعشرين). أريد أن أقول على وجه الإجمال إن الفتى أليوشا لم يكن فيه شيء من تعصب ديني، لا ولا كان غيبياً إطلاقاً في رأيي، وإذا شئت أن أكشف عن جوهر رأيي فيه قلت: إنه، بكل بساطة، إنسان يفيض قلبه حباً للبشر، وذلك منذ السنين الأولى من حياته. فلئن اختار طريق الاعتكاف في الدير، فما ذلك إلا لأن هذا الطريق وحده اجتذبه في تلك الآونة وبدا له السبيل المثالية التي يجب أن تسير فيها حتى النهاية نفسه المشتاقة إلى نور الحب ضد ظلمات الكره والبغض في هذا العالم. أضف إلى ذلك أن هذا الطريق لم يجتذبه إلا بفضل التقائه فيه بذلك الراهب الشيخ من رهبان ديرنا، وهو الشيخ [14] زوسيما. الذي عدّه الشاب إنساناً فذاً وتعلق به عندئذ تعلقاً شديداً فيه كل الحرارة الأولى التي تتدفق في قلبه الظامئ. على أنني لن أنكر أن هذا الشاب كان منذ تلك الآونة غريب الأطوار جداً، حتى لقد كان كذلك منذ المهد. سبق أن ذكرت، في هذا لصدد، أنه بعد أن فقد امه في السنة الرابعة من عمره، قد ظلت ذكراها مائلة في خياله طوال حياته، فهو يرى وجهها ويرى ملاطفاتها «كأنها حاضرة في هذه اللحظة نفسها أمامي». ذلك ما كان يقوله. إنكم تعلمون أن ذكرياتٍ من هذا النوع قد ترسخ في النفس، حتى في سن أصغر، وحتى منذ السنة الثانية من العمر، ولكنها لا تكون في مثل هذه الحالة إلا نقاطاً مضيئة تبرز من وسط الظلام، أو زاوية منفصلة من لوحة كبيرة انطفأ سائرها وبلعته الظلمات، باستثناء تلك الزاوية. وذلك بعينه ما حدث له: لقد احتفظ الفتى بذكري أمسية ساجية من أماسي الصيف، ونافذة مفتوحة، وأشعة مائلة ترسلها الشمس الغارية (وهذه الأشعة المائلة هي ما يتذكره خيراً مما يتذكر أي شيء آخر)، وأيقونة في ركن من الغرفة، وسراج صغير يشتعل أمام الأيقونة، والأم راكعة على ركبتيها ناشجة منتحبة قد ألقت بها الهستيريا وأخذت تطلق صرخات حادة وأنات موجعة، ثم إذا هي تمسكه بذراعيها على حين فجاة وتشده إلى صدرها شداً قوياً يؤلمه، وتبتهل إلى السيدة العذراء أن تحميه، وأن ترعى هذا الطفل الذي كانت تمده إلى الأيقونة كأنما لتضعه في حمّى أم الرب... وتظهر خادمة الطفل فجأة في الغرفة، فيبدو في وجهها ذعر شديد، وتسارع تنتزع الطفل من بين يدي أمه. يا لها من لوحة! لقد انحفرت صورة وجه الأم في ذاكرة أليوشا في تلك اللحظة. وهو يؤكد أن الوجه كان مروّعاً حتى الجنون ولكنه كان جميلاً جداً، هذا على قدر ما يستطيع أن يتصوره. ولكن كان يندر أن يعزم أليوشا أمره على الكلام عن هذه الذكرى. لقد كان أليوشا أثناء طفولته ومراهقته قليل الإفصاح عن نفسه، بل لقد كان صموتاً، لا عن شك وحذر طبعاً، ولا عن خجل أو وجل، ولا عن تجهّم في الطبع والمزاج... أبداً... بل بسبب شيء خاص في نفسه، بسبب همّ داخلي، شخصي تماماً، لا شأن له بالآخرين، يبلغ عنده من خطورة الشأن أنه ينسيه حتى وجود الناس.

ومع ذلك كان أليوشا يحب البشر. وكان مظهره يدل على أنه عاش حياته كلها في اندفاعة ثقة بالناس، ومع ذلك لم يعدّه أحد في يوم من الأيام امرءاً غراً أو ساذجاً. كان في نفسه شيء لا أدري ما هو، شيء يّشعر الآخرين شعوراً واضحاً (وعلى مدى حياته فيما بعد) بأنه لا يريد أن يحكم على أخيه الإنسان، بأنه يأبى أن يتهم أو يُدين، وبأنه لن يدين أبداً، حتى لقد كان يبدو أنه يقبل كل شيء دون أن يحكم عليه، ولكن بمرارة حزينة في كثير من الأحيان. ووصل من ذلك إلى أن لا يدهشه شيء، وأن لا يخيفه شيء، وذلك منذ غضارة صباه. وحين بلغ العشرين من عمره ووصل إلى منزل أبيه، الذي كان حقاً ماخور فحش وعهر، كان هذا الفتى المحافظ على عفته وطهارته يقتصر على الابتعاد صامتاً إذا شعر بأنه لا يستطيع أن يحتمل رؤية هذا المشهد أو ذاك، ولكن دون أن يظهر عليه شيء من الاحتقار أو النقد لأي إنسان. أما أبوه، الطفيلي القديم الذي كان لهذا السبب سريعاً إلى إدراك الإهانة والشعور بها، فقد استقبله في أول الأمر بشك وحذر وريبة، وشعر نحوه بعواطف ليس فيها ود كثير («إنه مسرف في الصمت تجاهي، مسرف في التفكير دون أن يقول شيئاً»)، ولكنه أصبح بعد أسبوعين في أكثر تقدير يعانقه ويضمه إلى ذراعيه في كل لحظة. صحيح أنه كان يفعل ذلك بدموع السكران وعواطف المخمور. ولكن كان واضحاً مع ذلك أنه يحبه حباً صادقاً عميقاً، كما لم يحب رجل من نوعه أحداً ...

وكان جميع الناس يحبون أليوشا على كل حال. لقد أيقظ هذا الشاب عواطف المحبة والمودة له في نفوس كل من عرفوه، وذلك منذ طفولته. وأيام كان يعيش في منزل المحسن إليه والمربي له، إيفيم بتروفتش بولينوف، بلغ من رضي جميع أفراد الأسرة عنه ومن إعجابهم به أنهم كانوا يعدونه ابناً من أبناء الأسرة تماماً، رغم أنه قد دخل ذلك المنزل طفلاً صغيراً عاجزاً عجزاً تاماً عن أي مكر أو حساب، لقد دخل أليوشا ذلك المنزل وهو في سن لا يمكن الافتراض فيه شيئاً من فن الممالأة والتملق والإرضاء، أي فن إجبار الآخرين على حبه. لقد أوتي أليوشا موهبة حمل الآخرين على حبه حباً شديداً بحكم طبيعته، فالناس يحبونه من تلقاء أنفسهم، دون أن يحتال هو لذلك. هكذا كان شأنه في المدرسة أيضاً، رغم أنه كان في ظاهره من أولئك الأطفال الذين لا بد أن يوقظوا في رفاقهم الحذر والشك، وأن يجلبوا لأنفسهم سخريات زملائهم، بل وعداوتهم في كثير من الأحيان. لقد كان يتفق لأليوشا كثيراً أن يعتزل رفاقه في فترات الراحة بيني الدروس، فيغرق في التأمل. كان أليوشا يحب كثيراً، منذ طفولته، أن ينزوي في ركن من الأركان يقرأ كتاباً من الكتب؛ ومع ذلك فقد أحبه التلاميذ حباً عظيماً، حتى لقد ظل طوال حياته المدرسية أثير رفاقه من دون منازع. كان لا يتحمس إلا نادراً، بل وكان لا يبدو في العادة مرحاً، ولكن يكفي أن تنظر إليه حتى تدرك أن ذلك لا يرجع إلى تجهمه، وإنما هو إنسان ذو نفس هادئة صافية رائعة. وكان لا يرغب أبداً في أن يظهر قيمته لرفاقه، ولعل هذا هو السبب في أنه كان لا يخشى أحداً. ولكن الصبية لم يلبثوا أن أدركوا أنه لا يزهو بشجاعته ولا يتباهى بها، بل يظل بسيطاً كأنه لا يشعر بشجاعته وجسارته. وكان لا يحتفظ أبداً بذكرى إساءة نالته أو إهانة أُلحقت به. وكثيراً ما كان يتفق له أن يبادر إلى مخاطباً الشخص الذي ناله بالإساءة، وذلك بعد وقوع الحادثة بساعة واحدة، فكان يبدو في كلامه عندئذ من الثقة والصفاء ما يشعر المرء بأن شيئاً لم يحدث بين الرفيقين. كان لا يبدو عليه، في مثل تلك المناسبات، أنه كان ينسى الإساءة عرضاً أو يغفرها عامداً، وإنما هو يرى أن الإساءة لم تحدث، فكان ذلك يفتن الصبية ويسحرهم فوراً. ولم يكن فيه إلا صفة واحدة أغرت رفاقه، في جميع فصول المدرسة، من أولها إلى آخرها، بأن يمازحوه، لا عن رغبة خبيثة في السخرية بل لأن ذلك كان يفرحهم ويشيع في نفوسهم المرح، ذلك هو حياؤه الشديد المفرط وعفته. إن الأحاديث التي يتبادلها التلاميذ عن النساء، والتعابير التي يستعملونها في هذا المجال، كانت أموراً لا يطيق الصبي أليوشا أن يسمعها. ومن المؤسف أن هذه الأحاديث وهذه التعابير لا تنفصل عن الحياة المدرسية ولا يمكن استئصالها منها. ورُبَّ تلاميذ أطهار النفس والقلب، رُبَّ تلاميذ ما يزالون أطفالاً صغاراً، يجدون لذة كبيرة في أن يتحادثوا في هذه الأمور، بصوت عالٍ في كثير من الأحيان، وأن يصفوا صوراً أو مشاهد قد يستحي حتى الجنود في الثكنات أن يتكلموا فيها. الجنود؟ إلا إن هؤلاء ليجهلون أو لا يفهمون كثيراً من الأمور التي أصبحت في أيامنا هذه مألوفة أو شبه مألوفة عند الأطفال الصغار من أبناء الطبقات المثقفة والطبقات العليا من الشعب. والحق أن ذلك لا يجب أن يعد فجوراً، أو حتى استهتاراً، لأنه ليس لديهم صادقاً ولا عميقاً، وما هو إذن بالخروج عن الأخلاق حقاً، وإنما هو نوع من الإباحية الكلامية السطحية التي يحلو للتلاميذ أن يعدوها علامة رهافة في الذوق، ودليل جرأة خليقة بأن تُقلد. فلمّا لاحظ التلاميذ أن هذا «الفتي الشهم أليوشا كارامازوف» يسارع إلى سد أذنيه حين يدور الحديث على «هذه الأمور»، أصبح يلذ لهم أن يتحلقوا حوله، ينطقون بعبارات بذيئة وهم يُبعدون يديه عن أذنيه بالقوة. فكان الفتى عندئذٍ يتخبط بينهم، ويرتمي على الأرض، ويخفي وجهه، ولكن دون أن ينطق بكلمة، ودون أن يثور، وإنما هو يتحمل الإساءة صامتاً. وانتهى الأمر بالتلاميذ إلى أن تركوه وشأنه، وعدلوا عن معاملته معاملة «بنت»، حتى أن السخرية حول هذا الموضوع قد حلّ محلها نوع من الرأفة به والعطف عليه.

وكان أليوشا من جهة أخرى تلميذاً ممتازاً، ولكنه لم يكن أول تلاميذ صفه في يوم من الأيام.

ظل أليوشا يواظب على مدرسة المقاطعة سنتين بعد موت إيفيم بتروفتش. إن أرملة إيفيم بتروفتش الحزينة التي لا يجد العزاء إلى قلبها سبيلاً قد سافرت بعد وفاة زوجها فوراً إلى إيطاليا، وأقامت هنالك زمناً طويلاً مع أسرتها كلها التي تتألف من نساء فقط. فانتقل أليوشا إلى منزل سيدتين تَمُتّان إلى أسرة بولينوف بقربي بعيدة، ولم يكن قد رآهما قبل ذلك، حتى لقد كان يجهل هو نفسه ما هي الترتيبات التي استقبلته هاتان السيدتان على أساسها. تلك سِمة بارزة من سمات طبعه، هي أنه كان لا يهمه أبداً أن يعرف بأي مال يعيش وعلى نفقة من يعيش! كان من هذه الناحية يختلف كل الاختلاف عن أخيه الأكبر إيفان فيدوروفتش الذي عاش حياة شديدة البؤس والفقر والعوز خلال السنتين الأوليين من دراسته الجامعية، وعمل عملاً مضنياً من أجل أن يجني رزقه، وشعر منذ الطفولة بكثير من المرارة والمذلة والهوان لأنه كان يأكل خبز البر والإحسان في منزل الرجل الذي كفله. على أننا لا نستطيع أن نقسو في الحكم على هذه السِّمة الغريبة في طبع ألكسي، إذ يكفي أن نعرفه ولو قليلاً حتى نقتنع فوراً بأنه كان في شؤون المال واحداً من أولئك الشبان المجانين الذين إذا هبط على أيديهم مبلغ ضخم من المال عرضاً لم يترددوا في أن يهبوه لأول قادم أو أن ينفقوه في عمل من أعمال الخير، أو حتى أن يسلموه لوغد حاذق متى سألهم ذلك. وفي وسعنا أن نؤكد أن أليوشا كان يجهل قيمة المال بوجه عام، وإنما يجب أن نفهم هذا الكلام على المجاز لا على الحقيقة طبعاً. كان أليوشا إذا أعطى شيئاً من المال ليكون في جيبه ينفق منه عند الحاجة (وهو لا يطلب شيئاً من ذلك في يوم من الأيام) كان يتفق له إما أن يظل المال في جيبه أسابيع طويلة لا يعرف ماذا يصنع به، وإما أن ينفقه بلا حساب فإذا بكل شيء يختفي في غمضة عين. إن بيتر ألكسندروفتش ميوسوف، وهو رجل من أكثر الناس دقة في شؤون المال، ومن أشدهم تقديساً للأمانة البرجوازية، قد قال عن ألكسي يوماً بعد أن لاحظه عن كثب: «لعل هذا الفتى هو الإنسان الوحيد في هذا العالم الذي يمكنك أن تتركه وحيداً بلا مورد في وسط مدينة كبرى لا يعرفها، ثم

إذاً هو لا يهلك من الجوع والبرد أبداً لأنه سيأخذه فوراً أحدهم فيطعمه ويدبر أموره ... فإذا لم يوجد مثل هذا الشخص فسيدير أموره بنفسه عندئذ بأيسر طريقة.. ولن يكلفه ذلك أي جهد ولن يحمله أي مذلة .. والشخص الذي سيضمه إليه لن يشعر بعبئه، بل لعله سيجد في ذلك لذة كبرى».

لم يتم أليوشا دراسته في مدرسته الثانوية. كان قد بقي عليه أن يقضي في المدرسة سنة أخرى حتى يتم دراسته فيها، حين أعلن في ذات يوم للسيدتين اللتين كان يقيم في منزلهما أنه سيذهب إلى أبيه لأمر ينتويه. ندبت السيدتان حظه كثيراً، حتى لقد حاولتا أن تصداه عن عزمه. ولم تكن الرحلة تكلف نفقة باهظة، وإذ خشيتا أن يرهن ساعته - وهي هدية أهدتها إليه أسرة المحسن إليه قبل سفرها إلى الخارج - فقد زودتاه بمبلغ وافر من المال، وأعطيناه ثياباً جديدة وملابس داخلية. ولكنه رد إليهما نصف المبلغ قائلاً إنه يحرص حرصاً مطلقاً على أن يسافر في الدرجة الثالثة من القطار. فلمّا وصل إلى مدينتنا أبى أن يجيب عن الأسئلة الأولى التي ألقاها عليه أبوه («ماذا دهاك، يا بنيّ، حتى جئت إليَّ قبل أن تتم دراستك؟»)، حتى لقد أظهر من الشرود والتأمل أكثر مما عُهد فيه. ذلك ما قيل. وسرعان ما عُرف أنه كان يحاول أن يعرف مكان قبر أمه. وقد اعترف آنذاك هو نفسه، على كل حال، بأن ذلك هو السبب الوحيد الذي دفعه إلى المجيء. ولكنني لا أعتقد أن هذا السبب كافي لتعليل رحلته هذه. ولعله كان يجهل هو نفسه في تلك الآونة الأسباب العميقة التي حملته على المجيء، ولعله لا يستطيع أن يقول ما هي تلك القوى التي أنبجست فجأة في كيانه ثم صعدت إلى سطح نفسه فدفعته دفعاً لا سبيل إلى مقاومته في هذه الطريق الجديدة التي كان يجهلها ولكنه لا يملك أن يتجنبها. لم يستطع فيدور بافلوفتش أن يدله على المكان الذي دفنت فيه زوجته الثانية. إنه لم يزر قبرها مرة واحدة منذ شيع جنازتها، وقد أصبح بعد انقضاء ذلك العدد كله من السنين لا يتذكر أين دُفِنت...

هنا يجب أن أقول كلمة عن فيدور بافلوفتش. لقد أقام فيدور بافلوفتش قبل هذه الأحداث التي نصفها الآن مدة طويلة بعيداً عن مدينتنا. إنه بعد وفاة زوجته الثانية بثلاث سنين أو أربع، قد سافر إلى جنوب روسيا، واستقر في أوديسا حيث عاش عدة سنين متصلة. وهناك، في أوديسا، تعرف بعدد كبير من أنواع اليهوده على حد تعبيره، حتى أصبح يستقبل «لا في منازل يهود فحسب، بل في منازل عبريين أيضاً». فمن حقنا إذن أن نقدّر أنه في تلك الفترة من حياته إنما نمى وحسن وجود فنه في تصريف الأعمال وإرباء الأموال. ولم يعد إلى مدينتنا ليستقر فيها تماماً إلا قبل وصول أليوشا بثلاث سنين. وقد لاحظ الذين كانوا يعرفونه أنه قد شاخ كثيراً، رغم أنه لم يبلغ سن الشيخوخة بعد، كما اكتسب عادات فيها مزيد من الاستهتار والوقاحة من ذلك مثلاً أن هذا المهرج القديم أصبح يحاول الآن في كثير من الغطرسة والعجرفة أن يجعل من الآخرين مهرجين مثله؛ وأصبح يتعاطى الفحش والفجور والغش لا كما كان يتعاطى ذلك في الماضي، بل بطريقة أدعى إلى مزيد من النفور. ولم يلبث أن فتح في مديريتنا عدة دكاكين لبيع الخمرة. وواضح أنه كان يملك رؤوس أموال ربما كانت تبلغ مائة ألف روبل أو شيئاً قريباً جداً من ذلك. وسارع كثير من سكان مدينتنا ومديرتنا يقرضونه أموالاً، لقاء رهون ثابتة بطبيعة الحال. وقد ضعف وتراخي في الآونة الأخيرة ، وأصبح فيما يبدو لا يملك من الاتزان ما كان يملكه منه في الماضي؛ وأصبح سلوكه أقل تروياً وتأنياً ووعياً، فهو ما يكاد يشرع في أمر حتى يتركه إلى غيره، وهو يبعثر جهوده يمنة ويسرة بلا رابط يربط بينها. وأصبح يسكر مزيداً من السكر، فلولا خادمه الأمين جريجوري الذي دلف إلى الشيخوخة كثيراً هو أيضاً، والذي كان يسهر عليه سهر المربي تقريباً، إذن للقي فيدور بافلوفتش كثيراً من المتاعب والهموم. على أن مجيء ألكسي قد أثر فيه من الناحية النفسية تأثيراً حسناً فيما يظهر، فكأنه أيقظ في نفس هذا الرجل الذي شاخ قبل الأوان عواطف كانت مخنوقة منذ زمان طويل. كان كثيراً ما يقول لابنه أليوشا: «هل تعلم يا أليوشا أنك تشبه كليكوشا كثيراً؟» (كذلك كان يسمي امرأته المتوفاة، أم ألكسي). واستطاع أليوشا أخيراً، بفضل جريجوري، أن يهتدي إلى قبر كليكوشا. لقد قاده الخادم في ذات يوم إلى مقبرة المدينة ودله على صفيحة من الحديد غير غالية ولكنها أنيقة، كانت مهجورة في ركن بعيد، وقد نُقِش عليها اسم المتوفاة وأصلها وسنها وتاريخ وفاتها، بل لقد كتبت عليها في أسفل هذه الوقائع بضعة أبيات مقفّاة من شعر المناسبات الذي جرت العادة أن تُزَين به قبور أبناء الطبقة المتوسطة من الناس. والأمر المدهش أن هذه الصفيحة إنما كانت قد وضعت في ذلك المكان بعناية جريجوري الذي أمر بها للمرحومة كليكوشا ودفع ثمنها منه، وذلك بعد أن سافر فيدور بافلوفتش إلى أوديسا.

لقد حاول جريجوري أن يذكر مولاه مراراً بهذا الضريح، ولكنه لم يظفر منه بطائل، وسافر فيدور بافلوفتش غير عابئ بالقبور، وغير حافل بالذكريات. لم يظهر أليوشا انفعالاً خاصاً أمام قبر أمه فاكتفى بان استمع إلى ما رواه جريجوري جاداً متعالماً متحذلقاً عن اللوح المعدني كيف صنعه، وانطوى على نفسه بضع لحظات خافضاً رأسه ثم انصرف دون أن ينطق بكلمة، ثم لم يعد إلى زيارة المقبرة مرة أخرى ربما خلال سنة كاملة. على أن تذكر هذا الحادث قد أثر في فيدور بافلوفتش بعض التأثير، فتصرف تصرفاً لم يكن يُتوقع منه. أخذ ألف روبل دون أن ينبئ أحداً بذلك، ومضى بها إلى ديرنا يسأل أن تتلى صلوات على روح زوجته، لا زوجته الثانية، أم ألكسي، المسكينة كليكوشا، بل زوجته الأولى آديلائيدا إيفانوفنا، تلك التي كانت تضربه. وفي مساء ذلك اليوم سكر سكراً شديداً وسب الرهبان أمام أليوشا. لا شك أن فيدور بافلوفتش كان قليل التدين إلى أقصى حد، ومن المشكوك فيه أن يكون قد أشعل طوال حياته شمعة بخمسة كوبيكات أمام أيقونة. غير أن أفراداً من هذا النوع قد يتفق لهم أن يغزوهم اندفاع عجيب من عواطف مفاجئة وآراء غريبة.

سبق أن قلت إن وجهه قد تراخي وتغضن. والحق أن وجهه كان يحمل في تلك الآونة آثارة تدل دلالة واضحة على طراز الحياة التي عاشها وأنواع الأهواء التي عصفت به، فإلى الجيوب الطويلة المنتفخة التي كانت قد تشكلت تحت عينيه الصغيرتين اللتين تظلان دائماً مرتابتين وقحتين ساخرتين، وإلى الغضون الصغيرة العميقة الكثيرة التي كانت تخدد وجهه الذي كان صغيراً ولكنه مليء بالشحم، قد أضيف الآن، تحت ذقنه الدقيقة غدة كبيرة من لحم سميك مستطيل كأنه كيس صغير، تضفي على وجهه سيماء حيوانية شهوانية منفرة. وكان له أيضاً فم كبير نهم منتفخ الشفتين، تظهر فيه بقايا أسنان صغيرة سوداء توشك أن تكون قد تخرت تماماً. فكلما فتح فاه للكلام تناثر منه اللعاب. ولقد كان يحب أن يتندر على وجهه، ولكنه كان راضياً عنه على كل حال، فيما يظهر؛ كان يلح في كلامه خاصة على شكل أنفه الذي كان صغيراً دقيقاً ولكنه شديد التقوس. كان يقول: «هو أنف روماني حقاَ، فإذا ضممت إليه غدتي رأيت وجه نبيل من نبلاء روما في عصر الانحطاط». كان فيدور بافلوفتش يبدو معتزاَ بذلك.

بعد أن اهتدى أليوشا إلى قبر أمه بزمن قصير أعلن لأبيه فجأة أنه ينوي أن يدخل الدير وأن الرهبان مستعدون لاستقباله فيه مبتدئاَ. وأضاف إلى ذلك قوله إن ذلك هو أعظم أمنياته، وإنه في هذه اللحظة الخطيرة من حياته يسأله بصفته أباه أن يأذن له بدخول الدير. وكان الشيخ يعلم من قبل أن الراهب العجوز زوسيما الذي انزوى في الدير واعتكف فيه قد أثر تأثيرا قوياً في «ابنه الوديع الطيب»..

قال بعد أن أصغي مطرقاً صامتاً إلى شروح أليوشا الذي لم يدهشه قراره هذا مع ذلك:

- لا شك أن هذا الشيخ زوسيما[15] هو خير أولئك الرهبان... هم!... ذلك إذن ما تصبو إليه نفسك يا بنيّ الوديع!)كان قد شرب، فهذا فمه يتسع فجأة في ضحكة سكران عريضاً لا تخلو من مكر وخبث)... هم!... لقد تنبأت أنا بأنك ستنتهي إلى حيث انتهيت، هل تعلم؟ ها أنت ذا قد عزمت أمرك الآن. إنك تملك ألفي روبل هما لك وحدك... تلك ذخيرة طيبة... أما أنا يا ملاكي فلن أتركك قط، حتى إنني مستعد، إذاً لزم الأمر، أن أدفع للدير الآن كل ما سيطلبه مني. ولكن إذا لم يطلبوا شيئاً، فلن نجبرهم إجباراً لن نزعجهم... أليس كذلك؟ ثم إنك لا تحتاج من المال إلى أكثر مما يحتاج طائر من طيور الكناري... تكفيك حبتان في الأسبوع... إنني أعرف ديراً يملك، في خارج المدينة، دوراً صغيرًا. وجميع الناس يعلمون أن هذه الدور تضم «زوجات الدير»... ذلك هو الاسم الذي سمى به تلك النسوة هناك... إن عدد هاته الزوجات ثلاثون فيما أعلم.... لقد ذهبت إلى هناك، وأعترف أن الأمر شائق، في نوعه طبعاً، من ناحية التنوع. ليس ثمة ألاّ عيب وحيد، هو التعصب القومي، فالنساء جميعاً روسيات ليس بينهم فرنسية واحدة، مع أن من السهل استقدام أجنبيات، لأن المال لا يعوز رهبان الدير، ومتى عرفت الفرنسيات ذلك جئن زرافات ووحدانا... أما هنا فلا شيء من ذلك. ليس للدير زوجات... وعددهم مائتان هؤلاء الرهبان! لا شيء هنا ألاّ العفة والشرف. وهم أناس أطهار... أعترف أن... همّ... أتريد، إذن، أن تكون راهبا؟ إنني أرثي لحالك حقاَ يا أليوشا، صدقني! هل تعلم أنني تعلقت بك؟.. على كل حال، رُب ضارة نافعة، مصائب قوم عند قوم فوائد: سوف تدعو لنا الله على الأقل نحن الضالين، ذلك أننا قد أثمنا كثيراً على هذه الأرض. إنني أتساءل منذ زمن طويل: ترى من ذا الذي سيصلي لي في يوم من الأيام؟ «هل في العالم كله إنسان يمكن أن يصلي لي؟» يا ولدي المسكين، إنني غبي جداً في هذه الأمور، لو علمت... غبي جداً، صدقني!... ولكن مهما أكن غبياً في هذه الأمور فقد فكرت فيها مع ذلك، فكرت فيها طويلاً. صحيح أنني لم أفكر فيها أحياناً كثيرة، ولكنني مع ذلك فكرت فيها. قلت لنفسي: «يستحيل أن تنسى الشياطين التقاطي بخطاطيفها حين أموت»، ثم تساءلت: خطاطيف؟ من أين لها الخطاطيف؟ ومتم صنعت هذه الخطاطيف؟ ألعلها صنعت من جديد؟ فأين صنعت إذن؟ ألعل عندهم إذن مصنعاً؟» إن الرهبان، هناك، في الدير، يؤمنون مثلا بأن في الجحيم سقفاً. أما أنا فلا مانع عندي من أن أعتقد بوجود الجحيم، ولكن شريطة أن لا يكون له سقف. إنني أؤثر على إيمانهم إيماناً ألطف، إيماناً أكثر ضياء، إيماناً أقرب إلى مذهب لوثر بمعنى من المعاني. ثم ألاّ يستوي أن يكون للجحيم سقف وأن لا يكون له سقف؟ هذه هي المسالة الأزلية اللعينة! ولكن إذا لم يكن ثمة سقف. لم يكن ثمة خطاطيف أيضاً؛ وبدون خطاطيف لا تجري الأمور، فنعود إلى ذلك السؤال نفسه... من عسى يلتقطني بعد موتي بخطاطيف؟ وما عسى يحدث إذاً لم تلتقطني الشياطين؟ أين تكون الحقيقة، عندئذ في هذا العالم؟

Il faudrait les inventer[16] من أجلي أنا خاصة[17] ، من أجلي وحدي، لأنني مذنب خالع العذار يا أليوشا، لو علمت!..

قال أليوشا بصوت عذب جاد وهو يتفرس أباه بانتباه:
- لا ليس هناك خطاطيف.
- صحيح، هي أطياف خطاطيف فحسب؟ فهمت! فهمت! أعرف هذا يذكرني بفرنسي وصف الجحيم كما يلي: J'ai vu l'ombre d'un cocher, qui avec l'ombre d'une bross
frottait l'ombre d'une carrosse[18]
من أين عرفت يا طائري الصغير أن ليس ثمة خطاطيف؟ إن عشت عند الرهبان لتقولن غير هذا الكلام. إذهب إليهم على كل حال. إبحث لديهم عن الحقيقة، فإذا وجدتها فتعال إلي وحدثني عنها، فيكون الرحيل عن الحياة بعد ذلك أسهل علي، لأنني أكون قد عرفت ما ينتظرني في الآخرة. ثم إن الدير مكان يناسبك أكثر من منزلي الذي يعيش فيه أب عجوز سكير مع هاته النساء... رغم أنك بما لك من عفة وطهارة لن تتسخ يوماً بهذه الأشياء، كما لا يمكن أن يتسخ بها ملاك. وإن شاء الله هناك أيضاً لن تتسخ بأي شيء، لا أدري هل تستطيع البقاء مع هؤلاء الرهبان؟ لذلك لك آذن لك أن تلتحق بالدير لأنني أعتمد على ذلك. ليس الذكاء ما يعوزك. إن النار تشتعل ثم تنطفئ. فمتى شفيت رجعت إلي. لسوف أنتظرك. أنت الإنسان الوحيد في هذا العالم الذي لم ينهمني ولم يدنّي، ذلك أشعر به يا صغيري الطيب الشهم، وهل يمكن أن لا أشعر به؟
قال الأب ذلك وأخذت دموعه تهطل. كان عاطفيًا: كان خبيثاً و عاطفياً معا.

- 5 -مشايخ الرهبان

قد يميل بعض قرائي إلى الاعتقاد بأن الشاب الذي أتحدث عنه إنسان مريض شديد الاندفاع ذو طبيعة فقيرة، وأنه واحد من أولئك الحالمين الشاحبة وجوههم الضعيفة صحتهم الضاوية أجسامهم. الواقع أن أليوشا كان في تلك الآونة عكس ذلك: مراهقاً في التاسعة عشرة من عمره فياض العافية مورد الخدين مضيء النظرة؛ بل لقد كان شديد الجمال قوي البنية. وهو مربوع القامة بني الشعر، له وجه منسق القسمات على شيء من الاستطالة، تسطع فيه عينان رماديتان قائمتان متباعدتان تفيضان حياة. إنه يبدو شارد الذهن كثير التفكير، وهو في الظاهر هادئ هدوءاً كبيراً. ربَّ قائل يقول إن تورد الخدين لا ينفي شدة التعصب الديني ولا ينفي الميل إلى الصوفية. ولكنني أعتقد أن أليوشا كان واقعياً أكثر من أي إنسان آخر. صحيح أنه اكتسب في الدير إيماناً بالمعجزات وأنه كان صلباً جداً في هذه الناحية، ولكن المعجزات لا تستطيع في رأيي أن تزعزع فكر إنسان واقعي. ذلك أن المعجزات ليست هي التي تولد الإيمان لديه. إن الواقعي الحقيقي إذا كان غير مؤمن يستطيع دائماً أن يجد في نفسه القوة والقدرة على إنكار معجزة من المعجزات، فإذا أكدت هذه المعجزة نفسها بحادثة لا سبيل إلى جحودها آثر أن يشك في صدق حواسه على أن يسلّم بالواقع. حتى إذاقرر أخيراً أن يعترف بهذا الواقع عده ظاهرة طبيعية كانت إلى ذلك الحين مجهولة له لا أكثر. إن المعجزات لا تولد الإيمان لدى الواقعي. بالعكس: فإن الإيمان هو الذي يستدعي لديه المعجزات. فمتى أصبح مؤمنا سلم بالمعجزات حتماً، بحكم واقعيته نفسها. لقد أعلن الرسول توما[19] أنه لن يؤمن بشيء قبل أن يرى، ولكنه حين رأى قال: «أنت ربي وإلهي». فهل المعجزة هي التي أدت به إلى الإيمان؟ أغلب الظن أن لا... وأنه إنما آمن لأنه كان يريد أن يؤمن، بل لعله كان مؤمناً إيماناً عميقاً، من قبل، في سره منذ كان يقول: «لن أؤمن ما لم أشاهد».

وقد يظن أن أليوشا كان محدود العقل قليل الذكاء، فهو لم يتم دراسته في الكلية، إلخ. فأما أنه قطع دراسته فذلك أمر لا أنكره، غير أن حسبانه رجلاً غبياً أو محدوداً أمر فيه ظلم كبير. ولا أستطيع هنا ألاّ أن أكرر ما سبق أن قلته: وهو أنه لم يختر هذه الطريق الا لأنها السبيل الوحيدة التي كانت تجتذبه في تلك الآونة وبدت له السبيل المثالية لخلاص روحه المشتاقة إلى النور من عالم الظلمات دفعة واحدة. تذكروا أيضاً أن هذا الشاب كان من أبناء عصرنا الأخير بعض الشيء، أي كان إنسانا ذا طبيعة صادقة شريفة تريد «الحقيقة» وتسعى إليها وتؤمن بها. فلمّا اهتدى إليها أصبح يرغب رغبة عارمة في أن يقف على خدمتها كل روحه، وأن يقوم بمآثر من غير إبطاء أو تلكؤ، يحرقه الشوق إلى التضحية بكل شيء من أجلها، ولو كان هذا الشيء هو الحياة ذاتها. من المؤسف أن الشباب الذين من هذا النوع لا يدركون أن التضحية بالحياة قد تكون بين جميع أنواع التضحيات أقلها صعوبة في كثير من الأحوال، وأن التضحية بخمس سنين أو ستة من حياتهم في معمعان الشباب، من أجل الدراسة الشاقة والتعلم الصعب، ولو لمضاعفة قواهم بغية أن يخدموا بعد ذلك العقيدة التي يريدون أن ينذروا أنفسهم لها، وبغية أن يحققوا مآثرهم التي يحلمون بها تحقيقاً أتم وأكمل أقول إن التزامهم أنفسهم ببذل هذا الجهد يتطلب شجاعة أكثر من الشجاعة التي تتطلبها التضحية بحياتهم... تلك صورة أخرى من التضحية قد تفوق في كثير من الأحوال قوى هؤلاء الشباب. صحيح أن أليوشا قد اختار طريقاً تعارض الطريق التي كان يسلكها في ذلك الزمان أكثر معاصريه، ولكنه اندفع في هذه الطريق برغبة قوياً حارة في اجتراح المأثرة من غير إبطاء لا تقل عن رغبة الآخرين. إنه منذ فكر تفكيراً عميقاً فأذهله الإيمان بوجود الله وخلود الروح، قال لنفسه على نحو طبيعي تماما: «إني أريد أن أعيش للخلود، وإنني أرفض التسويات وأنصاف الحلول». ولو قد انتهى إلى نتيجة أخرى فاقتنع بأنه لا وجود لله ولا وجود للخلود لما اختلف الأمر، ولأصبح على الفور ملحداً واشتراكياً (لأن الاشتراكية ليست مسألة الطبقة العاملة فحسب أو ما يطلق عليه اسم الفئة الرابعة»، وإنما هي قبل كل شيء نظرة إلحادية وتجسيد حديث للكفر بالدين. إنها مسألة برج بابل التي يحاول البشر أن يشيدوه بلا إله بالضبط، لا ليرتفعوا من الأرض إلى السماوات، بل لينزلوا السماء إلى الأرض). ما كان لأليوشا أن يتصور أن يظل يعيش كما كان يعيش في الماضي. لقد قيل: «إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء... وتعال اتبعني»[20]. فحدث أليوشا نفسه قائلاً: «هل في وسعي أن أهب روبلين فحسب، بدلاً من أن أهب كل شيء»؟ وإذا أردت أن أستجيب لنداء «اتبعني، فهل أكتفي بالذهاب إلى الصلاة؟» من الجائز أن يكون الدير المجاور لمدينتنا قد احتل مكانة في ذكريات طفولته، وأن تكون أمه قد مضت به إلى الدير في الماضي للصلاة، ومن الجائز أن تكون رؤية الأشعة المائلة ترسلها الشمس الغاربة أمام الأيقونة التي كانت ترفع أمه ذراعها نحوها وتمده إليها، من الجائز أن تكون هذه الرؤيا قد أثرت عليه أيضاً. ومهما يكن من أمر فقد جاء إلى مدينتنا في ذلك الوقت مفكراً حالماً، ربما للاستطلاع وحده، ربما ليرى هل يعطي «كل شيء»، أم يعطي روبلين فحسب. وفجأة التقى في الدير بشيخ الرهبان ذاك...

إنه شيخ الرهبان زوسيما، كما سبق أن أشرت إلى ذلك. وقد آن الى أن أقول هنا بضع كلمات عن الدور الذي يمثله، على وجه عام، شيوخ الرهبان في أديرتنا، سوف أحاول، رغم أنني أشعر، على أسف، بأنني لست بالعالم الكفء في هذا المجال، وبأن معارفي ليست راسخة جداً في هذه الشؤون، سأحاول أن أشرح الأمر شرحاً موجزاً سطحياً. ويجب أن أذكر قبل كل شيء أن المختصين في هذه الأمور والمطلعين عليها يؤكدون أن شيوخ الرهبان والمؤسسة التي يمثلونها لم تظهر لدينا في الأديرة الروسية لا في عهد متأخر بعض التأخر، في عهد لا يكاد يرجع إلى أكثر من مائة سنة، على حين أنها وجدت في الشرق الأرثوذكسي كله، وخاصة على جبل سينا وجبل آثوس منذ أكثر من ألف عام. ويقال إن شيوخ الرهبان هؤلاء قد وجدوا في روسيا في أزمنة بعيدة، أو لعلهم وجدوا فيها، ولكن ما أحاق ببلادنا بعد ذلك من مصائب، وما حل بها من الغزو التتري والاضطرابات الداخلية وانقطاع الصلات بالشرق بعد سقوط القسطنطينية[21]، قد قضى على هذه المؤسسة فلم يبق لشيوخ الرهبان وجود. ثم لم تقم هذه المؤسسة مرة أخرى بعد ذلك في بلادنا الا في نهاية القرن الماضي على يد أحد كبار المناضلين في سبيل الإيمان، ألاّ وهو بائيسي فيلتشكوفسكي[22]، الناسك (كما يسمونه)، وعلى يد مريديه، غير أنها لم توجد خلال تلك المدة كلها، وهي تقارب مائة عام، ألاّ في عدد صغير من الأديرة، بل لقد أثارت عداوة شديدة لها وصلت أحياناً إلى حد الاضطهاد بصفتها بدعة خارقة. ويقال إن هذه المؤسسة قد نمت خاصة عندنا في روسيا في المنسك الشهير، منسك كوزلسكايا أوبتينا[23]. أما متى دخلت الدير المجاور لمدينتنا، ومن أدخلها إلى هذا الدير، فذلك أمر أعترف بأنني أجهله، ولكني أعرف أنه قد تعاقب على هذا الدير ثلاثة شيوخ، آخرهم زوسيما. كان زوسيما يحس أنه يوشك أن يموت من الضعف والمرض، وكان لا يعرف من الذي سيحل محله إذا مات. إن لهذه المسألة شأناً خطيراً بالنسبة إلى ديرنا الذي لم يكن يملك شيئاً يمكن أن يكفل له الشهرة: فلا رفات قديسين، ولا أيقونات لها معجزات معترف بها، بل ولا أساطير جميلة تضمن للدير أن يرتبط بتاريخنا القومي. إن هذا الدير لم يشارك في أي عمل باهر، ولم يسهم في أي عمل وطني. إنه لم يحصل على المجد ولم يصبح شهيراً في روسيا كلها ألاّ بفضل مشايخه الذين كانوا يجتذبون الحجاج زرافات من جميع أنحاء البلاد، من مناطق تبعد عن مدينتنا آلاف الفراسخ، رغبة في رؤية هؤلاء الرجال والاستماع إليهم. فما هو الشيخ على وجه التحديد؟ إنه إنسان يأخذ نفس المرء وإرادته وحريته ويدخلها إلى نفسه وإرادته ويحتوي في ذاته جميع ما تجيش به نفوس مريديه من صبوات وأفكار. فحين يختار المريد شيخة لنفسه يتنازل عن حريته، ويلزم نفسه بطاعة مطلقة، ناسياً ذاته كل النسيان. والذي يجتاز هذا الامتحان الفاسي، ويرتضي تعلم الحياة على هذه الطريقة الرهيبة، إنما يفعل ذلك بإرادته، أملا في أن يصل، بعد محن طويلة، إلى التغلب على ذاته، وإلى أن يكتسب هكذا، بالطاعة المتصلة المستمرة، الحرية الحقيقية، المطلقة! أي يتخلص من ذاته ويفلت من مصير أولئك الذين يطوفون في طريق الحياة دون أن يصلوا إلى معرفة أنفسهم، ودون أن يستطيعوا اكتشاف حقيقتهم. ونظام المشايخ هذا لم ينشأ من تأمل مجرد نظري، وإنما نشأ في الشرق من ممارسة يرجع عهدها إلى أكثر من ألف عام، قبل أن يدخل إلى بلادنا. إن الواجبات التي تشد الراهب إلى شيخه تمضي إلى أبعد من مجرد «الطاعة» التي كانت سائدة على الدوام في أديرتنا الروسية أيضاً. فإن الرابطة التي تربط الراهب بشيخه في هذا النظام تفترض ثقة دائماً لا حدود لها، هي نوع من الاعتراف المستمر للشيخ واتصال روحي بينهما أصبح لا يقبل الانفصام بحال من الأحوال. حتى مثلا أن راهباً مبتدئاً من رهبان هذا النظام، في القرون الأولى من المسيحية، أبى أن يخضع لقاعدة فرضها عليه شيخه، فترك الشيخ والدير وذهب إلى بلد آخر، ذهب من سوريا إلى مصر، فاشتهر هناك بمزايا وأعمال عظيمة، واستطاع أخيراً أن يظفر بمجد الاستشهاد حين مات في سبيل الدين. وأخذت الكنيسة تستعد لدفنه على أنه قديس من القديسين، فما كاد الكاهن يعلن: «يا كفار، اخرجوا من المعبد»، حتى ارتفع التابوت الذي يضم رفات الشهيد فاجأة وخرج من الكنيسة مسرعاً، وتكرر ذلك ثلاث مرات. وغرف اخيراً أن هذا القديس الذي استشهد إنما خالف في الماضي أوامر شيخه وخرج على طاعته وهجره، فلذلك لا يمكن أن ينال الغفران، رغم جميع أعماله العظيمة، ما لم يأذن بذلك شيخه. واستدعى الشيخ، ولم يمكن دفن الراهب الا بعد أن أعفاه شيخه من واجب طاعته، تلكم مجرد أسطورة قديمة طبعاً، ولكن إليكم قصة حديثة صادقة: اعتكف راهب من الرهبان الذين كانوا يعيشون في عصرنا، اعتكف في دير بجبل آثوس، وهذا شيخه يأمره فجأة بأن يترك جبل آثوس هذا الذي ارتبط به الراهب ارتباطاً شديداً وتعلقت به نفسه تعلقاً عظيماً وأصبح يؤثره على كل ما عداه من أرجاء، لأنه وجد فيه شاطئ الأمان؛ أمره الشيخ أن يذهب أولاً إلى بيت المقدس فيحج إلى الأماكن المقدسة، وأن يعود بعد ذلك إلى شمال روسيا، إلى سيبيريا. قال له الشيخ: «هنالك مكانك لا هنا». حزن الراهب حزناً شديداً، واستبد به

كرب خانق وبأس مضن، فمضى إلى القسطنطينية، وسعى إلى رئيس البطاركة، وتوسل إليه أن يعفيه من واجب الطاعة. ولكن البطريرك أجابه بأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك، رغم رتبته، وبأنه لا توجد ولا يمكن أن توجد في العالم أية سلطة يمكنها أن تعفيه من هذا الواجب، الا شيخه الذي فرضه عليه وألزمه به. هكذا يتمتع المشايخ بسلطة يمكن أن تصبح في بعض الأحوال مطلقة غير ذات حدود. وذلكم هو السبب في أن أنصار هذا النظام قد تعرضوا في كثير من أديرتنا في أول الأمر لمعارضة شديدة أوشكت أن تستحيل إلى اضطهاد. ولكن الشعب أصبح على الفور يجل المشايخ إجلالا كبيراً ويقدسهم تقديساً عظيماً. من ذلك مثلاً أن مشايخ ديرنا كانوا يستقبلون زواراً يتوافدون عليهم حشود غفيرة من صغار الناس أو من علية القوم، يظهرون لهم إكبارهم وإعجابهم ويسرون إليهم، في مذلة، بما يساور نفوسهم من ريب وشكوك، وبما ارتكبوا من خطايا وآثام، وبما يقاسون من عذاب وآلام، طالبين إليهم أن يسدوا إليهم بالنصح وأن يمدوهم بالتوجيه والإرشاد. وقد استاء خصوم المشايخ من هذه الحظوة التي نالوها وهذه الثقة التي اكتسبوها فادعوا فيما ادعوا أن هذه الطريقة مستبدة طائشة تفسد قداسة الاعتراف، مع أن ما كان يبوح به الرهبان المبتدئون أو الأشخاص العاديون باستمرار لهؤلاء المشايخ لم يكن يتم على أسلوب الاعتراف. غير أن نظام المشايخ هذا قد استقر اخيراً في بلادنا، وامتد شيئاً فشيئاً إلى أديرتنا. يجب أن نعترف، مع ذلك، أن هذا الأسلوب الذي يرجع عهده إلى أكثر من ألف عام، والذي كان الهدف منه تحقيق إصلاح روحي للإنسانية برفعها من العبودية إلى الحرية، ويحقق لها كمالاً أخلاقياً، يمكن أن يصبح في بعض الأحوال سلاحاً ذا حدين، وأن يخلق لدى بعضهم، لا تواضعاً وسيطرة كاملة على الذات، بل غطرسة خبيثة وعنجهية شيطانية، أي أن يؤدي إلى القيود بدلاً من الحرية.

إن الشيخ زوسيما هو الآن في حوالي الخامسة والستين من عمره، كان أصلا من الإقطاعيين، وانخرط في سالف الزمان، في صدر شبابه في العسكرية، وعمل ضابطا في القفقاس. لا شك أن شيئاً ما كان ينبع من روحه، فأحدث في نفس أليوشا تأثيراً قوياً، كان أليوشا يعيش في الحجرة نفسها التي كان يعيش فيها الشيخ، وقد عطف الشيخ على أليوشا عطفاً كبيراً، فارتضى أن يكون له ولياً حميماً. يحسن أن نذكر هنا أن أليوشا، رغم أنه يعيش الآن في الدير، لم يكن قد ارتبط بعد بأي قاعدة، ولم يكن قد تقيد بأي أصول، فهو يستطيع أن يغيب عن الدير ما شاء له هواه أن يغيب، وربما غاب عن الدير أياماً بكاملها. ولئن ارتدي مسوح الرهبان، فلقد فعل ذلك بإرادته، حتى لا يتميز عن الرهبان في شيء. على أن من الواضح أنه كان يجد في ذلك رضى وغبطة أيضاً. ولعل خبال أليوشا المراهق قد افتتن افتتانا قوياً بهالة السلطة ومهابة المجد اللتين كانتا تحيطان تحيطاناً بشيخه. ويقال إن زوسيما هذا كان قد اكتسب من طول ما استقبل خلال هذه السنين الكثيرة كلها جميع أولئك الذين كانوا يجيئون إليهم فيفتحون له قلوبهم راغبين رغبة قويةً عنيفة في أن يسدي إليهم بنصائحه أو أن يشفيهم بأقواله، قد اكتسب قدرة غريبة على معرفة النفوس، وموهبة عظيمة في النفاذ إلى أعماق القلوب؛ حتى لقد أصبح فيما يقال، بعد الذي سمعه من اعترافات وعرفه من أسرار وما أفضى به إليه ذلك العدد الغفير من الناس من شجون قلوبهم ولواعج ضمائرهم الخفية المستترة، قد أصبح قادراً منذ أول نظرة يلقيها على وجه زائر مجهول على أن يحزر الغاية من مجيئه والرغبة التي تجيش في نفسه وحتى الآلام الخبيثة التي تعذب ضميره، فكان بهذه القدرة على التنبؤ يوقظ الدهشة ويبعث الاضطراب فيمن يلقونه لأول مرة، حتى ليكاد يرمي في قلوبهم الذعر حين يكتشف سر قلوبهم من قبل أن يفتحوا أفواههم بكلمة واحدة. وقد لاحظ أليوشا مع ذلك أن أكثر الأشخاص الذين كانوا يدخلون على الشيخ دون أن يعرفوه، من أجل أن يتحدثوا معه حديثا حميماً لأول مرة، كان يبدو عليهم عند وصولهم اضطراب وخوف، حتى إذاً خرجوا بعد ذلك من عنده كان جميعهم أو جميعهم تقريباً يخرج مطمئن البال متهلل الأسارير، وأن أشد الوجوه ظلامة وجهامة في أول الأمر كان عندئذ يشع بضياء السعادة. ومما خطف بصر أليوشا من جهة أخرى أن الشيخ لم يكن قاسياً البتة. بالعكس: لقد كان حين يتحدث إلى الناس أميل إلى الفرح والمرح. وكان الرهبان يؤكدون أن الشيخ يحب خاصة أولئك الذين تحمل ضمائرهم عدداً أكبر من الآثام، وأن عاطفته تنصرف إلى من هم بين الناس أكثرهم خطايا. صحيح أنه كان بين رجال الدير، حتى في نهاية حياة الشيخ، رهبان يحملون له كرهاً، ويشعرون نحوه بحسد، ولكن هؤلاء كانوا قلة قليلة، وكانوا يلزمون الصمت، رغم أن بينهم شخصيات شهيرة كان لها في الدير نفوذ كبير، كذلك الراهب الذي كان من أقدم رهبان الدير، والذي اشتهر بما كان يأخذ به نفسه من صيام عن الطعام والكلام. غير أن أكثر الرهبان قد انحازوا إلى الشيخ نهائياً، وكان بينهم من يحبونه حبا عميقاً من صميم القلب، بل إن منهم من أخلصوا له إخلاصا يوشك أن يكون تعصباً، فكان هؤلاء لا يترددون أن يعلنوا، خافضين أصواتهم مع ذلك، أن هذا الشيخ قديس، وأنه لا يجوز أن يتطرق إلى الأذهان أي شك في أنه قديس؛ وإذ كانوا يتوقعون موته قريباً، فقد كانوا يتوقعون أن تحدث معجزات مباشرة، وأن ينال الدير شهرة عظيمة في المستقبل القريب بفضل المرحوم وكان أليوشا أيضاً يؤمن إيماناً جازماً بما للشيخ من قدرة على المعجزات، مثلما كان مقتنعاً اقتناعاً قاطعاً بصدق حكاية التابوت الذي اندفع إلى خارج المعبد. لقد شهد أليوشا مرارا استقبال زوار يصطحبون أولادهم أو أهلهم الذين جاءوا يسألون الشيخ أن يضع يديه عليهم وأن يدعو الله لهم، فما هو الا زمن قصير قد لا يتجاوز يوماً واحدا فإذا هم يعودون فيرتمون على قدمي الشيخ شاكرين له أنه شفى مرضاهم! لم يخطر على بال أليوشا أن يتساءل هل تم الشفاء بمعجزة أم كان الشفاء تحسنا طبيعياً في حالة أولئك المرضى، لأن إيمانه بما يملكه الشيخ من قدرة فوق طبيعية كان إيماناً عميقاً، ولأن مجد شيخه قد أصبح في نظره نصرة شخصية له. كان قلبه يشعر بفرح عميق، وكان وجهه يضيء بسعادة عظيمة، حين كان الشيخ يقترب من جمهرة الناس البسطاء الذين ينتظرونه عند مدخل المنسك، حاجين إليه من جميع أرجاء روسيا، بغية أن يروه وأن ينالوا مباركته: كانوا ينطرحون أرضا أمامه، ويبكون، ويقبلون يديه، بل ويقبلون الأرض التي سار عليها ويصيحون صيحات الوجد والنشوة. وكانت النساء يمددن إليه أطفالهن أو يجئنه بالكليكوشات المريضات ليشفيهن. فكان الشيخ يحدثهن، ويتلو دعاء قصيراً، ويباركهن قبل أن يصرفهن. وقد أصبحت نوبات المرض في الآونة الأخيرة تبلغ من إضعافه في بعض الأحيان أن لا يملك من القوة ما يمكنه من ترك حجرته، فكان الحجاج ينتظرون أحياناً خروجه أياما بكاملها. ولم يخطر على بال أليوشا أن يتساءل لماذا يحب الحجاج هذا الشيخ حب العبادة، لماذا يرتمون على قدميه ويبكون حنانا حين يرون وجهه. كان أليوشا يشعر شعوراً قوياً بأن نفساً مذعنة كنفس الشعب الروسي، نفساً يرهقها العمل والعذاب، ويضنيها الظلم الأبدي والخطايا اليومية خاصة خطاياه هو وخطايا العالم كان أليوشا يشعر أن نفساً كهذه لا يوجد بالنسبة إليها حاجة أقوى ولا عزاء أعظم من أن تملك مقدساً أو قديسا تستطيع أن تركع أمامه متعبدة قائلة:

«إنا نعيش في الخطيئة والكذب والغواية، ولكن لا ضير... ما دام يوجد في مكان ما على هذه الأرض قديس وإنسان هو خير منا؛ فهذا الإنسان يملك الحقيقة على الأقل، ويعرف أين هي الحقيقة، فلا يمكن إذن أن تهلك الحقيقة في هذا العالم، ولسوف نعرفها نحن أيضاً في ذات يوم، لأنها ستسود العالم، كما وعدنا».

كان أليوشا يعلم أن الشعب يحس ويفكر على هذا النحو، وكان هو يفهم ذلك. فإما أن الشيخ هو القديس وهو الإنسان الذي عهد إليه الرب بالحفاظ على الحقيقة للشعب، فذلك أمر كان أليوشا لا يشك فيه لحظة واحدة، وكان يؤمن به إيماناً لا يقل عمقاً عن إيمان الفلاحين الباكين وزوجاتهم المريضات أو عن إيمان الفلاحات اللواتي يمددن صغارهن إلى الشيخ؛ ولعل يقينه من أن الشيخ سيهب للدير بعد وفاته مجداً خارقاً كان أرسخ وأقوى من يقين أي راهب آخر. ثم إن قلبه قد أصبح منذ زمن يزخر بمزيد من حماسة عميقة تلهبه يوماً بعد يوم. وكان لا يقلقه أن يتصور أن قداسة هذا الشيخ أمر استثنائي في هذا العالم رغم كل شيء. كان يقول لنفسه: «أي باس في هذا! إنه قديس، وإن قلبه يضم سر بعث جميع البشر، فيه تكمن القدرة التي ستكفل انتصار الحقيقة على هذه الأرض في آخر المطاف، وسيصير جميع الناس قديسين وسيحب بعضهم بعضاً، فلا فقراء ولا أغنياء، ولا متكبرين ولا مستذلين، لأنهم جميعاً سيصبحون كأبناء الرب، وسيسود ملكوت يسوع المسيح». ذلك كان الحلم الذي يملأ قلب أليوشا.

ويظهر أن وصول أخويه اللذين لم يكن يعرفهما حتى ذلك الحين قد أحدث في نفس أليوشا أثرا كبيراً في تلك الآونة. لقد تفاهم مع أخيه غير الشقيق، دمتري فيدوروفتش، تفاهماً أسرع وأعمق من تفاهمه مع أخيه الشقيق إيفان فيدوروفتش، رغم أن إيفان قد وصل قبل دمتري. كان يرغب رغبة قوية في أن يعرف أخاه إيفان عن كثب، ولكن رغم أن إيفان يقيم بالمدينة منذ شهرين، ورغم أنهما يلتقيان كثيراً، لم يحدث بينهما أي تقارب حقيقي، فأما أليوشا فكان يظل صامتاً لا يتكلم، ويبدو أنه ينتظر شيئاً ما أو ينطوي على نفسه في نوع من الخشية أو من الحرج الداخلي، وأما إيفان الذي لاحظ أليوشا نظراته الطويلة المتفرسة في البداية، فقد بدا أنه سرعان ما عزف عنه فأصبح لا يهتم به. ولاحظ أليوشا ذلك بشيء من الارتباك. وكان يعزو قلة اكتراث أخيه إلى ما بينهما من فرق في السن والثقافة. غير أن تعليلاً آخر كان يساور فكره أحياناً، فكان يتساءل: ألا يمكن أن تكون قلة اكتراث إيفان ناشئة عن سبب ما يزال يجهله، عن سبب لا يدركه البتة؟ لقد كان يبدو له أن إيفان مشغول البال دائماً بشيء ما، بمسألة نفسية لعلها خطيرة جداً، وأنه يتطلع إلى بلوغ هدف لعله صعب جداً، فما بتسع وقته كثيراً لأن يلتفت إلى أخيه وأن يفكر فيه. أفلا يكون هذا هو السبب الحقيقي الوحيد لموقفه منه، وذهوله عنه؟ وكان هنالك أمر آخر يقلق أليوشا: ألاّ يمكن أن يشتمل هذا الموقف على شيء من الاحتقار يشعر به عالم ملحد تجاه راهب مبتدئ غبي؟ لقد كان أليوشا يعرف تماما أن أخاه لا يؤمن بالله. إن مثل هذا الاحتقار إذاً وجد قد لا يكدر أليوشا، ومع ذلك كان أليوشا ينتظر، بقلق غامض تخالطه خشية، اللحظة التي يقرر فيها أخوه أن يقترب منه. أما دمتري فيدوروفتش فقد كان يتحدث عن أخيه إيفان بكثير من الاحترام، ويتكلم عليه بلهجة فيها تأثر خاص. ومن دمتري إنما عرف أليوشا جميع تفاصيل القضية الهامة التي خلقت بين الأخوين في الآونة الأخيرة هذه الصلة الحميمة وشدت أحدهما إلى الآخر شدة وثيقة. وكانت الحماسية التي يظهرها دمتري في تقدير أخيه إيفان تكتسب مزيداً من الدلالة في نظر أليوشا لأن دمتري كان بالقياس إلى إيفان رجلاً لا يكاد ينعم بأي حظ من ثقافة، فإذا قارنا بين الأخوين وجدناهما يبلغان من عمق اختلاف أحدهما عن الآخر في الطبع والشخصية أن من الصعب على المرء أن يتصور إنسانين بينهما من شدة التفاوت ما بين هذين الأخوين.

وفي تلك الفترة بعينها إنما تم اللقاء العائلي أو قل الاجتماع العائلي في حجرة الشيخ زوسيما بين جميع أفراد هذه الأسرة المتنافرة، وذلك حادث كان له في أليوشا تأثير كبير. الحق أن الحجة التي اتخذت ذريعة لهذا اللقاء كانت باطلة. إن الخلاف الناشب بين دمتري فيدوروفتش وأبيه فيدور بافلوفتش حول الميراث وتصفية الحساب كان قد بلغ في تلك اللحظة أوجه، وأن العلاقات المتوترة إلى أقصى حدود التوتر بين الأب وابنه كانت قد أصبحت لا تطاق. وأن فيدور بافلوفتش هو الذي اقترح - مازحاً فيما يظهر - أن يعقد اجتماع في حجرة الشيخ زوسيما بغية الوصول إلى التفاهم بروح أقرب إلى اللياقة دون اللجوء إلى تدخل الشيخ في الأمر بالضرورة، ذلك أن منزلة هذا الإنسان المحترم وشخصيته كفيلتان بأن تؤثرا في الجميع تأثيراً يهدئ النفوس ويصالح القلوب. وقد تخيل دمتري فيدوروفتش، الذي لم يسبق له أن زار الشيخ يوم، والذي لم يكن يعرفه حتى بالنظر، تخيل طبعاً أن الغرض من هذا الاجتماع إنما هو تخويفه بمهابة هذا الشيخ. ومع ذلك قبل دمتري هذا التحدي، لأنه كان في سره يلوم نفسه على الحدة العنيفة والنزق الشديد فيما كان يوجهه إلى أبيه من قارص الكلام وهاجر القول أحياناً كثيرة في الآونة الأخيرة. ويحسن أن نذكر هنا أنه كان لا يسكن في منزل أبيه. كأخيه إيفان فيدوروفتش، وإنما كان يقطن وحيداً في الطرف الآخر من المدينة. وقد حدث أثناء هذه الظروف أن بيتر ألكسندروفتش ميوسوف الذي كان يقيم في مدينتنا آنذاك، تبنى الرأي الذي اقترحه فيدور بافلوفتش. إنه، وهو الليبرالي على طراز سنوات 1840 - 1850، المتحرر من العقائد، الكافر بالأديان، قد ساهم في هذه القضية مساهمة فعالة، ربما عن ضجر وسام، وربما عن رغبة طائشة في السخرية والاستهزاء. وقد اشتهى فاجأة أن يرى الدير وأن يرى «قديس» الدير. وإذ كانت الدعوى القائمة بينه وبين الدير قد طال عليها الأمد، وإذ إن النزاع بينه وبين الدير على تعيين حدود أراضيه وحدود أراضي الدير، وعلى الحقوق الغامضة في قطع أشجار الغابات وصيد أسماك النهر وغيرها، لم يكن قد حسم حتى ذلك الحين، فقد أسرع ينتهز هذا الظرف متعللاً بأنه يريد أن يكلم كبير الرهبان شخصياً، فعسى أن يكون ذلك وسيلة لتصفية الخلاف بالود دون احتكام إلى القضاء. وقد ذكر في تأييد رأيه هذا أنه إذاً دخل الدير على هذه النية الحميدة فيمكن أن يستقبل استقبالا ألطف وأكرم من الاستقبال الذي سيستقبل به، لو ذهب إلى الدير بدافع الاستطلاع والفضول لا أكثر. وقد أتاحت هذه الاعتبارات كلها تحريك بعض المؤثرات في داخل الدير، وفعلت فعلها في الشيخ المريض الذي أصبح منذ زمن لا يكاد يبارح غرفته، وأصبح يرفض بسبب حالته استقبال زائريه الذين ألفوا أن يفدوا إليه. لقد وافق الشيخ على الاجتماع، وحدد موعد للقاء، واقتصر الشيخ على أن يقول لأليوشا وهو يبتسم: «من أقامني عليكما قاضياً أو حكماً؟» [24] .

حين علم أليوشا بأمر هذا الاجتماع قلق قلقاً شديداً واضطرب اضطراباً عظيماً. لا شك أن أخاه دمتري، من بين سائر ذويه الذين تقسمهم هذه المنازعات والمشاجرات، هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن يأخذ هذا الاجتماع مأخذ الجد. أما الآخرون فلعلهم لا يذهبون إلى الدير ألاّ لبواعث طائشة وأسباب سخيفة قد تسيء إلى الشيخ وتجرح شعوره. كان أليوشا يدرك ذلك حق الإدراك. فأخوه إيفان والسيد ميوسوف لن يأتيا إلى الدير ألاّ بداعي حب الاستطلاع، وربما بداعي الفضول الفظ الغليظ. أما أبوه فليس بالمستبعد أن يكون في نيته تمثيل مهزلة ساخرة مهرجة. ذلك أن أليوشا إن كان يحسن الصمت، فلقد كان يعرف أباه، بل كان يعرفه معرفة عميقة. يجب أن أكرر أن هذا الفتى كان أذكى فؤاداً وأنفذ بصيرة مما كان يتخيل أكثر الناس. لذلك أخذ ينتظر يوم اللقاء واجف القلب مهموم النفس. صحيح أنه كان في قرارة نفسه يتمنى كثيراً أن تنتهي هذه المنازعات العائلية على نحو من الأنحاء. غير أن اهتماماته الأساسية كانت منصرفة إلى الشيخ، فكان يرتعد قلقاً عليه، وحرصا على مجده، وكان يخشى أن يلحقوا به إهانة أو أن يمسوه بسوء، وكان يخشى خاصة السخريات اللطيفة المهذبة التي يمكن أن يعمد إليها ميوسوف، وغمزات الاحتقار التي يمكن أن يدسها أخوه العالم إيفان، وكان يتخيل هذا كله سلفاً. خطر على باله في لحظة من اللحظات أن ينذر الشيخ، أن يقول له كلمتين عن أهله هؤلاء الذين يستعدون لزيارته، ولكنه بعد أن فكر في الأمر أثر أن يصمت فلا يقول شيئاً، واقتصر في عشية اليوم المحدد للزيارة أن يبلغ أخاه دمتري بواسطة أحد معارفهما أنه يحبه كثيراً وأنه يعتمد على وعده. واحتار دمتري في أمر هذه الرسالة وأخذ يفرض الفروض ويخمن التخمينات في فهم معناها، ذلك أنه لا يتذكر أنه قطع على نفسه للأليوشا أي عهد، ثم أجاب أخاه في رسالة مكتوبة بأنه سيبذل قصارى جهوده في سبيل أن يسيطر على نفسه وفي سبيل أن يتجنب أي (صغار)، وأضاف إلى ذلك قوله إنه على احترامه العميق للشيخ وأخيه إيفان، واثق ثقة عميقاً بأن الأمر لا يعدو أن يكون إما فخا يُراد له أن يقع فيه، وإما مهزلة منحطة راد تمثيلها، وختم رسالته بقوله: (ومع ذلك فإنني أؤثر أن أبلع لساني على أن أقول كلاما يؤذي هذا الإنسان المقدس الذي تجله وتعظمه». غير أن هذه الرسالة لم تكن كفيلة بأن تطمئن أليوشا.

الباب الثاني: إجتماع في غير محله

- 1 -الوصول إلى الدير

كان ذلك في صبيحة يوم من أواخر شهر آب (أغسطس)، يوم مضيء حار. إن لقاء الشيخ قد حددت له الساعة الحادية عشرة والنصف تقريباً، بعد نهاية الصلاة الثانية فوراً. ولكن أصحابنا الزائرين لم يروا أن من الضروري أن يحضروا الصلاة، فوصلوا إلى الدير لحظة انتهاء القداس. كانوا قد ركبوا عربتين. فأما الأولى فهي مركبة أنيقة يجرها حصانان جوادان، فيها بيتر ألكسندروفتش ميوسوف، وفتى يصحبه في نحو العشرين من عمره، اسمه بيتر فومتش كالجانوف، وهو يمت إلى ميوسوف بقربى بعيدة. إن على هذا الشاب أن يدخل الجامعة قريباً، ولكن ميوسوف الذي كان الشاب يعيش في تلك الفترة عنده، يريد أن يصطحبه إلى الخارج حيث يستطيع أن يتم دراسته بمتابعة المحاضرات في جامعة زوريخ أو جامعة فيينا. لم يكن كالجانوف قد عزم أمره واتخذ قراره بعد. فهو الآن واجم مفكر يبدو ذاهلاً. هو فتى قوي البنية طويل القامة حلو الوجه، ولكن نظرته تجمد في بعض الأحيان جموداً غريباً: كان يتفق له في بعض الأحيان، كما يتفق ذلك لجميع كبار الذاهلين، أن يحدق إلى الناس تحديقاً طويلاً دون أن يلمح حتى وجودهم. وهو في العادة كثير الصمت قليل الكلام، لا يخلو من شيء من خراقة، ولكنه يتحمس في بعض الأحيان إذا خلا إلى أحد على انفراد فينطلق عندئذ على سجيته، ويفصح عن نفسه، ويضحك دون تحرج، بل ودون سبب ظاهر. على أن هذه الحماسة تزول بسرعة كما شبت بسرعة. والفتى حسن الهندام دائماً، على شيء من تأنق. وكان يملك آنذاك ثروة لا بأس بها تكفل له الاستقلال، ولكنه ينتظر مواريث أضخم وأعظم. ولقد كان صديقاً لأليوشا.

وأما العربة الثانية فقد ركبها فيدور بافلوفتش وابنه إيفان فيدوروفتش، وهي عربة عنيفة مهترئة مترنحة مقرقعة، ولكنها فسيحة، يجرها حصانان عجوزان أشهبان كانا يلقيان عناء في اللحاق بمركبة ميوسوف ويتركان لها دائماً أن تسبقهما.

أما دمتري فيدوروفتش فقد تأخر، رغم أنه قد أبلغ يوم اللقاء وساعته، منذ الليلة البارحة.

ترك الزائرون عربتيهما قرب السور أمام الفندق واجتازوا أبواب الدير سيرا على الأقدام. يظهر أن أحداً من هؤلاء الزائرين، باستثناء فيدور بافلوفتش، لم يسبق له أن رأى الدير قبل اليوم؛ أما ميوسوف فإنه لم يضع قدميه في كنيسة منذ ثلاثين عاماً. كان ينظر حواليه بشيء من الاستطلاع، دون أن يتنازل مع ذلك عن التظاهر بعدم الاهتمام وقلة الاكتراث. ولكن ما من شيء في داخل هذا الدير كان يمكن أن يلفت انتباه فكره الملاحظ، ألاّ تلك المباني الدينية والمباني الضرورية لحياة الرهبان المشتركة، وهي مبان عادية إلى أقصى حد. كان أواخر المصلين يخرجون من الكنيسة ويرسمون إشارة الصليب وهم ينزعون قبعاتهم عن رؤوسهم؛ وهم أناس من عامة الناس بينهم عدد قليل من طبقة اجتماعية أعلى، وسيدتان أو ثلاث سيدات، وجنرال عجوز جداً. كان هؤلاء جميعاً قد نزلوا في الفندق.

وسرعان ما احتشد المتسولون حول أصحابنا الزائرين، ولكن أحداً لم يعط لهم أي صدقة، باستثناء بتروشكا كالجانوف، فقد أخرج من حافظة نقوده قطعة عشرة كوبكات، وسارع يدسها خلسة مضطرباً بعض الاضطراب - لا أدري لماذا - في يد إحدى هاته الفقيرات وهو يقول لها بصوت لا يكاد يبين: «توزعوها جميعاً». لم يبد له أحد ملاحظة على ما فعل، فما كان له إذن أن يضطرب، ومع ذلك فإن صمتهم هذا قد بدا أنه زاد اضطرابه.

استغربوا أن أحداً لم يجئ لاستقبالهم في الدير. يظهر أنهم كانوا يتوقعون أن ينتظروا بل وأن يستقبلوا استقبالاً فيه حفاوة. ألم يتبرع واحد منهم للدير بألف روبل في الآونة الأخيرة؟ أليس الثاني منهم رجلاً غنياً جداً من أصحاب الأطيان، عدا أنه على جانب عظيم من الثقافة، وعدا أن هؤلاء الرهبان جميعاً قد يتوقف أمرهم عليه وقد يصبحون رهناً به فيما يتعلق بحقوق الصيد في النهر إذا جرت القضية مجرى يتفق ودعواه؟ ومع ذلك لم تجئ أي شخصية رسمية لاستقبال هؤلاء الزوار، أجال ميوسوف نظرة ذاهلة على أحجار القبور المجاورة للكنيسة، وهم أن يقول إن أهل هؤلاء الموتى لا بد أن يكونوا قد دفعوا مبالغ طائلة من المال حتى حق لهم أن يدفنوا موتاهم في مكان يبلغ هذا المبلغ من «القداسة»، ولكنه صمت ولم يقل شيئاً، ثم إذا بالسخرية الليبرالية تتحول في نفسه إلى انزعاج وغضب فقال فجأة وكأنه يخاطب نفسه:

- لا يعلم الاّ الشيطان من الذي سنتجه إليه في هذه الفوضى... وعلينا مع ذلك أن نسرع فإن الوقت يمضي...

وفي تلك اللحظة اقترب منهم سيد متقدم في السن، أصلع، متلطف النظرة. إنه يرتدي معطفاً فضفاضاً من معاطف الصيف. رفع الرجل قبعته، وقدم نفسه إليهم جميعاً، بصوت متعاذب مترقق ينطق الجيم زايا، قائلاً إنه الملاك ماكسيموف من إقليم تولا. وسرعان ما أدرك حيرة القادمين فقال:

- إن الشيخ زوسيما يقطن الصومعة في مكان منزو على مسافة أربعمائة قدم من الدير. فيجب للذهاب إليه اجتياز الغابة الصغيرة، هذه الغابة الصغيرة...

فأجاب فيدور بافلوفتش:

- أعرف أن مسكنه يقع وراء الغابة الصغيرة، ولكننا نسينا الطريق إليه. لأننا لم نأت إلى هنا منذ زمن طويل.

قال الرجل:

- يجب اجتياز هذا الباب، ثم السير رأساً في الغابة... الغابة الصغيرة... هيّا بنا.. هل أستطيع أن.. إنني أنا أيضاً، أنا أيضاً.. الطريق من هنا، من هنا...

خرج الجميع من الباب وساروا في الغابة. كان مالك الأطيبان ماكسيموف، وهو رجل في نحو الستين من عمره يسير إلى جانبهم، بل قل يكاد يركض إلى جانبهم ركضاً، وهو يتفرس فيهم بنوع من استطلاع متشنج لا يطاق، وقد اتسعت عيناه اتساعاً يدعو إلى الدهشة.

قال ميوسوف بلهجة صارمة:

- يجب أن أقول لك إننا ذاهبون إلى هذا الشيخ للأمور تتعلق بنا وحدنا، وقد فزنا بالحصول على موعد لمقابلة هذه «الشخصية»، فلعلك تدرك إذن أننا مع شكرنا لك على أن تدلنا على الطريق نسألك أن لا تصحبنا في الدخول عليه.

- لقد كنت عنده... كنت عنده... إنه فارس حقيقي (بالفرنسية في الأصل) Un chevalier parfait...[25].

قال الرجل ذلك وهو يفرقع بأصابعه في الهواء:

سال ميوسوف:

- من؟ من هذا الذي تصفه بأنه فارس؟

- الشيخ، الشيخ العظيم، هذا الشيخ... شرف هذا الدير ومجده.. زوسيما.. ذلك الشيخ...

وفي تلك اللحظة لحق بجماعة الزوار راهب قصير القامة، شديد النحول، شاحب اللون جداً، يرتدي قلنسوة، فقطع على مالك الأطيبان حديثه المضطرب المفكك. توقف فيدور بافلوفتش وميوسوف. وخاطبهم الراهب يقول بأدب عظيم وهو ينحني أمامهم حتى ليكاد يبلغ رأسه مستوى الحزام.

- إن الأب الأكبر يرجوكم، بكثير من التواضع، أن تشرفوه، عند عودتكم من الصومعة، فهو يدعوكم جميعاً لتناول طعام الغداء.

ثم التفت نحو ماكسيموف، فأضاف يقول له:

- وأنت أيضاً مدعو. هتف فيدور بافلوفتش يقول وقد طار لبه فرحاً بهذه الدعوة:

- سأجيء، ساجيء حتماً... لن أتخلف عن المجيء أعلم أننا قد تعهدنا جميعاً بأن نتصرف هنا باحتشام. هل تجيء أنت أيضاً يا بيتر ألكسندروفتش؟

- سؤال غريب! أكنت أجيء إلى هنا لولا حرصي على أن أرى جميع عاداتهم؟ ولكن الشيء الوحيد الذي يقلقني الآن هو أنني في صحبتك يا فيدور بافلوفتش...

- نعم ! وما رأيكم في دمتري فيدوروفتش الذي لم يتنازل أن يصل حتى الآن؟

- ليته لا يصل أبداً! ألعلك تظن أنه يسرني أن أجد نفسي مقحماً في جميع هذه القضايا الوسخة، وأن أحتمل فوق هذا صحبتك؟

قال ميوسوف ذلك، ثم أردف يقول وهو يلتفت نحو الراهب:

- إننا نقبل الدعوة، أشكر الأب الأكبر بإسمنا...

فأجاب الراهب:

- أنا باق معكم، لأنني مكلف باصطحابكم إلى الشيخ. قال مالك الأطيان ماكسيموف مزقزقاً:

- أما أنا قد أذهب أثناء ذلك إلى الأب الأكبر رأساً. أنا ذاهب إليه حالا.

قال الراهب متردداً:
- الأب الأكبر مشغول الآن، ولكن إذاً كنت تحرص على أن...
قال ميوسوف بصوت عال بينما كان الملاك ماكسيموف يتجه نحو الدير بخطاه القصيرة السريعة:
- يا للعجوز الصغير المزعج فعقب فيدور بافلوفتش فجأة بقوله:
- إنه يذكرني بفون سون! [26].
- كل شيء يذكرك بشيء آخر... أي شبه بينه وبين فون سون؟ وهل رأيته أنت، فون سون هذا؟
- رأيت صورة له. قد لا يشبهه بملامح الوجه، ولكنه يشبهه بشيء يصعب تحديده... هو نسخة طبق الأصل عن فون سون. أنا لا يخطئني الظن أبداً في مثل هذه الأمور. تكفيني نظرة واحدة ألقيها على الوجه.
- لعلك على حق، لا بد أن تكون لك هذه القدرة على كل حال. ولكن لا تنسى يا فيدور بافلوفتش ما قلته أنت نفسك منذ قليل: لقد قطعنا على أنفسنا عهدا ليكون سلوكنا هنا محتشماً. تذكر هذا. راقب نفسك. إنني أطلب إليك ذلك جازماً قاطعاً. إياك أن تأخذ في تمثيل دور المهرج. إنني أرفض أن يسوي هذا بيني وبينك.
قال ميوسوف ذلك ثم أضاف يقول للراهب:
- أرأيت أي نوع من البشر هو؟ يميناً إنني أخشى أن أذهب في صحبته عند أناس محترمين.
ارتسمت على شفتي الراهب الرقيقتين الذاويتين ابتسامة ناعمة صامتة لا تخلو من بعض المكر، ولكنه لم يجب بشيء. لقد كان واضحًا كل الوضوح أنه إنما يتعمد الصمت اعتزازاً منه بكرامته الشخصية. قطب ميوسوف حاجبيه مزيداً من التقطيب. وقال يحدث نفسه « شيطان ياخذ جميع هؤلاء الرهبان، فليس لديهم سوى مظهر خارجي اكتسبوه عبر قرون، أما في الحقيقة فليس ذلك سوى دجل وهراء».
صاح فيدور بافلوفتش يقول:
- هذا هو المنسك! لقد وصلنا السياج الحديدي موصد والباب مغلق!
و أخذ يرسم إشارة الصليب بحركات عريضة أمام صور القديسين التي تزين المدخل فوق الباب وعلى جانبيه. وقال:
- لكل دير قواعد تجب مراعاتها [27]. هم هنا خمسة وعشرون قديساً على وجه التقريب، ينشدون الأمن والسلامة والخلاص في هذا المنسك، يتفرس بعضهم في بعض ويأكلون الكرنب. ولكن ما من امرأة واحدة يسمح لها باجتياز هذا الباب. ذلك أعجب شيء هنا، ولكنه حقيقة. فكيف تعلّل، رغم هذا، أن الشيخ يستقبل في هذا المكان سيدات في بعض الأحيان كما قيل لي ذلك؟
بهذا السؤال ختم فيدور بافلوفتش كلامه، منجها فجأة إلى الراهب.
- إن نساء من عامة الشعب توجد هنا في هذه اللحظة نفسها. تستطيع أن تراهنّ إنهن ينتظرن قرب الرواق راقدات. أما سيدات المجتمع الراقي فقد خصصت لهن في الرواق، ولكن على الطرف الآخر من السياج، غرفتان صغيرتان هذه نوافذهما تراها من هنا. فالشيخ يذهب إليهن من ممر داخلي متى أحس بأنه قادر على ذلك، من دون أن يجتاز السياج في هذه الحال طبعاً. وثمة سيدة من مالكات الأطيان في مقاطعة خاركوف هي الآن هناك مع ابنتها المريضة تنتظر الشيخ: إنها السيدة خوخلاكوفا. أغلب الظن أن الشيخ قد وعد بلقائهما رغم أنه قد بلغ من الضعف منذ زمن أنه أصبح لا يكاد يخرج.
- هناك إذن ممر يؤدي من المنسك إلى السيدات. لا يذهبنّ بك الظن أيها الراهب المحترم إلى أن في كلامي هذا شيئاً من غمز؟ حاشا... فأنا إنما أقول هذا الكلام بغير نية البتة! هل تعلم أن زيارات النساء، في جبل آثوس، ولا شك أن ذلك قد ذكر لك، ليست وحدها ممنوعة، وإنما يمنع هناك أيضاً وجود الإناث من أي نوع من أنواع الحيوان... فلا دجاجة ولا أوزة ولا أي عجلة صغيرة يمكن أن يحتمل وجودها هناك...
- فيدور بافلوفتش، إذاً استمررت فسانصرف وأتركك وحدك! ولئن انصرفت أنا ليخرجك من هنا جراً من كتفيك! إنني أحذرك.
- وددت لو أعرف ما الذي يزعجك مني يا بيتر ألكسندروفتش؟
كذلك قال فيدور بافلوفنش، ثم صاح يقول فجأة وهو يجتاز سياج المنسك:
- انظر إلى وادي الورود هذا الذي يعيشون فيها..
حقاً... إن الناظر يرى أزهاراً خريفية رائعة نادرة، وإن لم ير وروداً في هذا الأوان. لقد رعت أزهاراً في كل ركن خال. وكان واضحا أن يداً ماهرة هي التي تعنى بالأزهار في كثير من الحب. إن هناك أحواض أزهار بين القبور وعلى طول الجدران. والبيت الصغير الذي يضم صومعة الشيخ، والذي كان مبنياً بخشب ومؤلفاً من طابق واحد مع رواق أمام المدخل، يزدان هو أيضاً بالأزهار تطوقه من كل جهة.
- قل لي: هل كان الأمر على هذه الحال في عهد الشيخ السابق، الشيخ فارسونوف يقال إنه كان يكره الترف والأناقة كانت تغضبه كثيراً حتى ليتفق له أن يرفع عصاه على سيدات.
كذلك قال فيدور بافلوفتش وهو يصعد درجات المدخل.
أجاب الراهب الصغير قائلاً:
- كان مظهر الشيخ فارسونوف يوهم حقاً في بعض الأحيان أنه إنسان بسيط، ولكن ما أكثر السخافات والأكاذيب التي قيلت في حقه ورويت عنه! إنه على كل حال لم يرفع عصاه على أحد في يوم من الأيام. انتظروا هنا لحظة يا سادة. سأبلغ الشيخ قدومكم.
اتسع وقت ميوسوف لأن يدمدم قائلاً لفيدور بافلوفتش:
- أحذرك آخر مرة يا فيدور بافلوفتش... أحسن التصرف، وإلا جعلتك تندم... فأجابه فيدور بافلوفتش ساخراً:
- لا أستطيع أن أفهم ما الذي يجعلك ثائر الأعصاب إلى هذه الدرجة. أهي خطاياك تعذب ضميرك؟ أأنت خائف من قدرة هذا الشيخ؟ يقال إن هذا الشيخ يقرأ في أعين الناس. ويستشف كل ما يجيش في الضمائر وكل ما يثوى في قرارة النفوس. هل يجوز لرجل باريسي تقدمي مثلك أن يقيم هذا الوزن كله لرأي هؤلاء الرهبان؟ ألاّ إن هذا ليدهشني منك قليلاً، هل تعلم؟
لم يتسع وقت ميوسوف للرد على هذه السخريات، لأنهم قد دعوا إلى الدخول. وكان يشعر، وهو يدخل، بنوع من الانزعاج...
قال يحدث نفسه:
« إنني أعلم ما سيحدث الآن. أنا أعرف نفسي. سوف تثور أعصابي، سوف أغضب... سوف أتحمس، فبذلك أخفض قدري وأغض من قيمة آرائي ».

- 2 -المهرّج العريق

دخلوا الحجرة في نفس الوقت الذي ظهر فيه الشيخ على عتبة مهجعه تقريباً. كان في الحجرة كاهنان من رهبان المنسك ينتظران فيها خروج الشيخ إليهما. إن أحدهما هو الأب القيم على مكتبة الدير، والثاني هو الأب بائيسي. إن الأب بائيسي رجل مريض جدامع أنه غير طاعن في السن كثيراً، وهو يعد على جانب عظيم من العلم. وكان هنالك فتى يرتدي زيا مدنياً، يبدو في الثانية والعشرين من عمره، قد وقف في ركن من الحجرة (ولقد ظل واقفاً حتى نهاية الاستقبال). إنه طالب سيصبح في المستقبل لاهوتياً، والدير وهذه الفرقة الدينية يهتمان به لسبب من الأسباب ويشملانه بالرعاية والحماية. هو شاب طويل القامة، نضر المحيا، عريض الوجنتين، تضيء وجهه عينان شهباوان طويلتان ضيقتان تعبران عن ذكاء وانتباه. وكان وجهه يفصح عن كثير من الاحترام والتوقير، ولكن بغير غضاضة ولا مذلة. إنه لم يسلم على الزائرين الذين دخلوا الحجرة، دالا بهذا الامتناع على أنه لا يعد نفسه ندا لهم، بل شخصا ثانويا مرؤوساً.

دخل الشيخ زوسيما يصحبه أليوشا ومترهب مبتدئ. نهض الراهبان الكاهنان فسلما على الشيخ منحنيين له انحناءة عميقة حتى لامست أصابعهم الأرض، ثم تباركا بالشيخ وقبلا يديه، فباركهما الشيخ أولاً ثم رد عليهما التحية منحنياً أمام كل منهما تلك الانحناءة نفسها لامسة بيديه الأرض، ولقد تم هذا الاحتفال بكثير من الوقار والمهابة، لا كما يتم طقس من الطقوس المألوفة اليومية، حتى لقد كانت الحركات التي قاموا بها مشبعة بانفعال صادق وعاطفة حقيقية. ومع ذلك أحس ميوسوف أنهم يفعلون كل ذلك بغية أن يتركوا انطباعاً لدى المحيطين بهم. وكان ميوسوف في مقدمة صحبه. وكان يقول لنفسه - وذلك أمر فكر فيه طويلاً منذ الليلة البارحة - إن عليه من باب اللباقة وحدها، مهما تكن آراؤه الخاصة، أن يقترب من الشيخ وأن يتلقى مباركته (ما دامت السنّة قد جرت بذلك في هذا المكان)، أن يتلقى مباركته على الأقل ما دام لا يريد أن يقبل يده. ولكنه حين رأى هذه التحيات الاحتفالية وهذه القبلات التي طبعها الرهبان على يدي الشيخ لم يلبث أن تراجع عن قراره، فاكتفى بأن حيا الشيخ تحية هادئة رصينة منحنية له الانحناءة الكبيرة إلى حد ما كالتي ينحنيها رجل مهذب من رجال المجتمع الراقي ثم تقهقر نحو كرسيه هادئاً رصيناً وقوراً واقتفى فيدور بافلوفتش أثره فحاكاه في كل حركة من حركاته حتى لقد بدا أنه يقلده تقليداً، ولعله فعل ذلك عامراً. وسلم إيفان فيدوروفتش هو أيضاً سلاماً رصيناً مهذباً ولكنه أيضاً أبقى يديه مشدودتين إلى جانبيه ؛ أما كالجانوف فقد بلغ من الاضطراب أنه نسي أن يسلم. وأنزل الشيخ يده التي كان قد رفعها مباركة؛ وبعد أن حياهم مرة أخرى رجاهم أن يجلسوا. صعد الدم إلى خدي أليوشا. لقد كان يشعر بالخجل والخزي من ذويه، إن ما أوجسه وتنبأ به قد تحقق.

جلس الشيخ على أريكة صغيرة من خشب الأكاجو، قديمة الطراز جداً، مغطاة بجلد؛ وأجلس ضيوفه، باستثناء الراهبين الكاهنين، صفاً واحداً أمام الجدار المقابل مشيراً لهم إلى مقاعد أربعة من خشب الأكاجو مغطاة بجلد أسود رث جداً. وجلس الراهبان الكاهنان على الجانبين، أحدهما قرب الباب والثاني أمام النافذة. أما الطالب وأليوشا والمترهب المبتدئ فقد ظلوا واقفين. إن الحجرة ضيقة قليلة الاتساع تشعر بأنها عتيقة بالية كل البلى، والأثاث الذي فيها عادي فقير يقتصر على ما هو ضروري لا غنى عنه، وهذان أصيصان للزهر يزينان حافة النافذة، وهذه طائفة كبيرة من الأيقونات تتكدس في ركن من الغرفة، إحداها للسيدة العذراء، وهي أيقونة كبيرة جداً يرجع تاريخها، في أغلب الظن، إلى عهد سابق على الانشقاق الديني[28]. وعلى جانبي العذراء صور مقدسة أخرى في إطارات من معدن لامع محفور؛ وبعدها بقليل يري الرائي تماثيل صغيرة لملائكة، وبيضة من خزف، وصليباً كاثوليكياً عاجياً مع Mater dolorosa[29] أم محزونة تضم الصليب بذراعيها، وعدداً من نسخ أجنبية للوحات كبار الرسامين الطليان في القرون الخوالي ؛ وهذا كله قد اختلط بعضه ببعض فوضى وإلى جوار تلك الصور الفنية التي لها قيمة كبيرة يرى الناظر عدة صور ليتوغرافية روسية شعبية تافهة تمثل قديسين وشهداء وكهنة كبارة وإلخ...، هي من تلك الصور التي تباع في جميع أسواق البلاد بكوبك واحد. وهناك صور ليتوغرافية أخرى هي وجوه أساقفة من الروس قدماء أو حاليين تزين الجدران الأخرى من الغرفة. طاف ميوسوف على هذه الأشياء «التفاهات» بنظرة سريعة، ثم حدّق إلى الشيخ. إن ميوسوف يعد نفسه ثاقب النظرة، غير أن ذلك ضعف يمكن أن نغفره له حتماً إذا نحن تذكرنا أنه قد بلغ الخمسين من عمره، وهي سن يكون فيها الإنسان الذكي الذي ينتمي إلى المجتمع الراقي وينعم بمركز وطيد قد تعود أن يحترم نفسه كثيراً، على غير شعور منه في بعض الأحيان.

لم يعجبه الشيخ في الوهلة الأولى. والحق أن في وجه الشيخ شيئاً يمكن أن لا يرضي كثيرين غير ميوسوف أيضاً. هو رجل قصير القامة محدودب الظهر مترنح الساقين، عمره خمسة وستون عاماً فحسب، غير أنه يبدو أطعن في السن بسبب مرضه الذي يظهره أكبر من عمره بعشر سنين في أقل تقدير. وإن وجهه النحيل الضامر المعروق مخدد كله بغضون صغيرة تكثر حول العينين خاصة. وليست عيناه الفاتحتان بالكبيرتين غير أنهما واضحتان حافيتان، فيهما كثير من الحركة والسطوع، بحيث لا يرى المرء منهما الا نقطتين مضيئتين. ولم يبق من شعره ألاّ خصلتان شابتان على الصدغين. أما لحيته المدببة فهي صغيرة دقيقة؛ وأما شفتاه اللتان كثيراً ما تعبران عن الدهاء فإنهما تشبهان خيطين؛ وأما أنفه فهو دقيق على غير طول، يشبه منقار طائر صغير...

حدّث ميوسوف نفسه قائلاً: «إن كل شيء فيه يدل على أن له طبيعة كالحة شرسة، وعلى أن فيه زهوة سخيفة وكبرياء مسكينة». وأحس ميوسوف باستياء من نفسه.

ودقت الساعة تقطع الصمت. إن ساعة صغيرة بخسة الثمن كانت معلقة بالحائط ومزودة بنواس، قد ترجع صوتها يدق اثني عشرة دقة متابعة سريعة. فصاح فيدور بافلوفتش يقول:

- هو الموعد المحدد ولما يصل ابني دمتري فيدوروفتش. أرجو المعذرة عنه أيها الراهب المقدس جداً (ارتعش أليوشا حين سمع قول أبيه هذا «أيها الراهب المقدس جداً»). لقد تعودت أنا أن أكون دقيق المواعيد، فلم أتأخر عن موعد في يوم من الأيام دقيقة واحدة، لأنني أتذكر أن دقة المواعيد هي من آداب الملوك...[30]

- ولكنك لست ملكًا فيما أعلم...

كذلك دمدم يقول ميوسوف الذي كان منذ ذلك الحين لا يكاد يستطيع السيطرة على نفسه. فأجابه فيدور بافلوفتش بقوله:

- صحيح. لست ملكاً. ثق يا بيتر ألكسندروفتش إنني أعلم حق العلم أنني لست ملكاً، والله ! ولكن هذا شأني دائماً: أقول كلاما في غير محله! قال فيدور بافلوفتش هذا ثم صاح يضيف بانفعال مفاجئ غريب:

- يا صاحب القداسة، إن أمامك رجلاً هو مهرج عريق! كذلك أقدم إليك نفسي. هذه عادة قديمة راسخة واأسفاه! ولكن لئن كنت أكذب أحياناً كذباً في غير محله، فإنني أفعل ذلك عامداً، في سبيل أن أضحك الناس وأن أبهجهم. أليس من واجب الإنسان أن يبهج أخاه الإنسان؟ اسمع... منذ سبع سنين مثلا ذهبت إلى مدينة صغيرة للعقد بعض الصفقات، فلم ألبث أن انعقدت الصلات بيني وبين بعض المهرة من تجار المدينة. قررنا أن نزور الإيسبرافنك رئيس الشرطة[31] الذي كنا نأمل أن نفوز بمساعدته وكان علينا من جهة أخرى أن ندعوه إلى الغداء. استقبلنا الإيسبرافنك. إنه رجل ضخم طويل، أشقر، متجهّم المظهر؛ والأفراد الذين هم من هذا النوع هم أخطر الناس حين يكون الأمر أمر أعمال وصفقات. إن أكبادهم مريضة، نعم أكبادهم، هل تفهمون؟ قررت أنا أن أهجم عليه مجابهةً إن صح التعبير، قلت له بلهجة منطلقة هي لهجة رجل من رجال المجتمع. « هلا تنازلت يا سيدي الإيسبرافنك، فكنت لنا نابرافنك[32] بمعنى من المعاني؟»، فما كان منه ألاّ أن أجاب قائلاً: «ماذا؟ كيف؟ أي نابرافنك؟» فادركت فوراً أن كل شيء قد ضاع. صمت الرجل قاسي النظرة كالح الهيئة صعب المراس. حاولت أن أعتذر.

قلت: «القد سمحت لنفسي بمزحة بريئة بغية أن أشيع المرح في الجو. وأنت تعلم أن نابرافنك هو اسم أكبر رئيس أوركسترا عندنا، ونحن إن كنا في حاجة إلى شيء فإلى نوع من رئيس أوركسترا يحقق المشروعنا الاتساق والانسجام...» ظننت أني قدمت له بهذا الكلام تفسير معقولاً قائماً على تشبيه سليم، أليس هذا صحيح؟ فأجابني قائلاً: «عفواً، أنا إيسبرافنك، ولست أقبل أي تلاعب بالألفاظ في موضوع وظيفتي». قال ذلك وأدار لي ظهره وانصرف. ركضت وراءه صائحاً: «أنت الأيسبرافنك! أنت إيسبرافنك لا نابرافنك!» ولكنه هز كتفيه ببرود وقال: «لا تحاول.. لقد سميتني نابرافنك، فحسبنا هذا!» هكذا غرقت صفقتنا في الماء.. فهل رأيت كيف أنا؟ إن رغبتي في أن أكون لطيفاً تسيء إلي دائماً في هذه الحياة. من ذلك أنني قلت في ذات يوم، منذ سنين كثيرة، لشخصية لها نفوذ و تأثير:

زوجتك يا سيدي حساسة إذا دغدغت، وكنت أقصد بهذه الكلمة معناها المجازي، كنت أقصد أنها سريعة التأذي إذا أسيء إلى كرامتها، إلى مبادئها الأخلاقية.

ولكن الرجل أسرع يسألني فجاة: «أنت دغدغتها إذن؟» ولم أملك أن أقاوم رغبتي في المزاح، فما كان مني ألاّ أن قلت له: «والله... دغدغتها قليلاً»،... فليتك رأيت ما أصابني في ذلك اليوم من دغدغة!.. غير أن هذه الحادثة قديمة جداً، بعيدة العهد جداً، بحيث لا أستحي الآن أن أرويها. فانظر كيف أسأت إلى نفسي دائماً في هذه الحياة! دمدم ميوسوف يقول باحتقار:

- وإنك لتستأنف ذلك في هذه اللحظة أيضاً.

وكان الشيخ يتفرس فيهما صامتاً، واحداً بعد آخر.

- هل يمكن؟ تصوّر يا بيتر ألكسندروفتش أنني كنت أعرف ذلك، وقد تنبأت به منذ فتحت فمي. وكنت أعلم أيضاً أنك ستكون أول من يلاحظ هذا. وفي مثل هذه اللحظات، يا صاحب القداسة، حين أدرك أن المزحة لم تنجح، يتصلب خداي فكأنهما يلتصقان بالفكين، حتى لأشعر من ذلك بتشنجات! ذلك يرجع عهده إلى أيام شبابي، إلى الأيام التي كنت فيها طفيليا أعيش على موائد النبلاء أصحاب الأملاك، وألتمس رزقي بتلك المهنة! أنا مهرج يا صاحب القداسة، أنا مهرج حقيقي، مهرج مفطور على التهريج، وإن شئت فقل يا صاحب القداسة إنني إنسان بسيط أبله!... قد تكون الروح التي تحركني غير طاهرة، أنا لا أجحد ذلك، ولكنها روح صغيرة. فلو كانت روحا كبيرة قوية إذن لاختارت لها مسكنا أفضل. على أنها ما كانت لتختارك أنت أيضاً يا بيتر ألكسندروفتش، لأنك كذلك لست بالمسكن الحسن لها! ومع ذلك فأنا مؤمن، مؤمن بالله، لم يساورني الشك الا في الآونة الأخيرة، وها أنا ذا الآن أمامك، يا صاحب القداسة، أنتظر كلمة تحررني من أساري. أنا يا صاحب القداسة مثل الفيلسوف ديدرو. لا شك أنك سمعت أن هذا الفيلسوف، أيها الأب المقدس، قد جاء يوماً إلى المطران أفلاطون في عهد الإمبراطورة أيكاترينا [33]، فما أن دخل عليه حتى أعلن يقول في برود: «الله غير موجودا ». فرفع الرجل العظيم المقدس إبهامه وقال له: «الطائش يقول في سره: الله غير موجود »، فأخذ الآخر بهذه الكلمات فإذا هو يرتمي فجأة على قدمي الكاهن صائحاً: «آمنت، آمنت، عمدوني! ». وسرعان ما تم تعميده. على الفور، فالأميرة داشكوفا [34] أصبحت عرابته، وبوتيو مكين كان عرابه.

قاطعه ميوسوف يقول بصوت يرتعش فيه الغضب، وكان قد أصبح منذ مدة طويلة عاجزة عن كبح جماح نفسه:

- فيدور بافلوفتش! هذا لا يطاق! أنت تعلم تماما أنك تكذب، وأن هذه القصة السخيفة لا أصل لها، أنت تعلم ذلك، ففيم هذا التمثيل؟

فهتف فيدور بافلوفتش يقول في حماسة فرحة:

- كنت طول حياتي أشعر شعوراً غامضاً بأن هذه القصة كاذبة لا أصل لها! والآن أيها السادة سأقول لكم الحقيقة كلها. غفرانك أيها الشيخ العظيم إن هذه النقطة الأخيرة التي ذكرتها عن تعميد ديدرو إنما اخترعتها في هذه اللحظة نفسها، وتخيلتها وأنا أرويها، ولم تكن قد خطرت ببالي مرة واحدة من قبل، وإنما أنا أضفتها رغبة في مزيد من البهجة... إنني أمثل هذا التمثيل يا بيتر ألكسندروفتش، لأبدو أكثر لطفا. ثم إنني لا أدري أنا نفسي في بعض الأحيان لماذا أفعل ذلك. أما عن ديدرو ذاك، وعن قول المطران: «الطائش يقول في سره»، فتلك قصة سمعت السادة الإقطاعيين في هذه المقاطعة يرددونها أكثر من عشرين مرة، وذلك في شبابي أيام كنت أعيش عندهم، حتى أن عمتك نفسها يا بيتر ألكسندروفتش، عمتك المحترمة مافرا فومينشنا كانت تحب أن ترويها بين ما كانت تحب أن ترويه من أمور. وجميع الناس مقتنعون حتى هذا اليوم بأن ذلك الملحد ديدرو قد ذهب إلى المطران أفلاطون ليناقشه في مسألة وجود الله...

نهض ميوسوف نافد الصبر، شاعراً أنه فقد كل سيطرة له على نفسه. لقد جن غضباً، وأدرك أنه أصبح من ذلك مضحكاً هو أيضاً. إن ما يجري في هذه الصومعة لهو في الواقع أمر مستحيل تماما.

فمنذ أربعين عاماً أو خمسين تتوافد على هذا المكان، حتى في عهود المشايخ السابقين، حشود كثيرة من الزائرين، ولكن أولئك الزائرين جميعاً بغير استثناء كانوا يجيئون ممتلئين بروح الاحترام والخشوع والتقديس. إن جميع أولئك الذين سمح لهم بأن يتخطوا عتبة هذه الصومعة كانوا يدركون أنهم نالوا حظوة كبيرة وظفروا بنعمة عظيمة، وإن عدداً كبيراً منهم كان إذا دخلها ارتمى على الأرض راكعاً وظل على هذه الحال إلى آخر الزيارة. وإن أكثر الزائرين حتى أعلاهم مقاماً، وأغزرهم علماً - وقد كان بينهم أناس يتصفون حتى بالتفكير الحر، أقول كان أكثر الزائرين الذين يجيئون إلى الدير من باب الفضول أو لسبب آخر من الأسباب، يلزمون أنفسهم بواجب أولي بسيط هو أن يتقيدوا عند دخولهم إلى الصومعة جماعةً أو عند دخولهم إليها لمقابلة خاصة، أن يتقيدوا طوال مدة وجودهم في هذا المكان المقدس باتخاذ وضع يتصف بأقصى الاحترام والأدب واللباقة، لا سيما وأن الدير كان لا يطالب باي مال، وأن كل شيء فيه يتم محبةً وإحسانا من طرف، وتوبةً وندامة من طرف آخر، وبدافع التحرق إلى حل مشكلة نفسية صعبة أو تجاوز ساعة أليمة من حياة القلب. كذلك كانت تجري الأمور دائماً، ثم إذا بفيدور بافلوفتش هذا يندفع فجأة في تهريج لا يليق بهذا المكان، تهريج لا بد أن يحث في نفوس من يرون هذا المشهد أو في نفوس بعضهم على الأقل استغراباً شديداً ودهشة أليمة. فأما الراهبان الكاهنان اللذان ظل وجهاهما هادئين على كل حال فقد كانا يرقبان رد الفعل عند الشيخ بانتباه رصين وقور، ويبدو عليهما أنهما يهمان أن ينهضا مثل ميوسوف تماما. وأما أليوشا فقد كان خافضاً رأسه مجاهداً مصابراً باذلاً قصاراه حتى لا يبكي. إن ما يدهشه خاصة هو أن أخاه إيفان فيدوروفتش، وهو الوحيد الذي كان أليوشا يعقد أملا عليه والذي كان له نفوذ على أبيهما يمكنه من أن يتدخل في الأمر، قد لبث ساكناً على كرسيه، غاضاً بصره، ينتظر نهاية هذا المشهد بنوع من استطلاع ليس في التراث أو اهتمام، كأنه غريب عن هذه القضية لا علاقة له بها ولا شأن له فيها. وأما راكيتين (وذلك هو اسم الطالب الذي كان أليوشا يعرفه أيضاً حق المعرفة، ويكاد يعده صديقاً قريباً جداً، فإن أليوشا لم يجرؤ حتى أن ينظر إليه، لأنه كان يحزر ما يدور في فكره من معاني وخواطر (وهو الوحيد الذي يحزرها في هذا الدير على كل حال). بدا ميوسوف يقول وهو يلتفت نحو الشيخ:

- سامحني... لا شك أنك تعدني شريكاً في هذه المهزلة الحقيرة. إن ذنبي الوحيد هو أنني تصورت أن كل إنسان، حتى ولو كان من نوع فيدور بافلوفتش، لا بد أن يحرص على أن يفهم واجباته عند زيارة شخص محترم مثلك.... فلو كنت تنبأت بأنني سيكون علي أن أعتذر عن مجرد الدخول إلى هذا المكان في صحبته، إذن...

لم يكمل بيتر ألكسندروفتش جملته. وكان قد بلغ ذروة الاضطراب، فهم أن يخرج من الغرفة، ولكن الشيخ قال له وهو ينهض فجأة على ساقيه النحيلتين ويمسك بيتر ألكسندروفتش من يديه. ويجلسه على مقعده من جديد:

- لا تقلق، أرجوك... هدى روعك، أرجوك... إن زيارتكم تسرني كثيرة وتبهجني بهجة خاصة.

وبعد أن انحنى تحية، التفت وعاد إلى مكانه يجلس على الأريكة الصغيرة من جديد..

صاح فيدور بافلوفتش فجأة يقول:

- تكلم أيها الشيخ العظيم، قل: هل تؤذيك حرارتي هذه أم لا؟

وكان فيدور بافلوفتش قد أمسك ذراعي المقعد بيديه كمن يستعد الأن ينهض واثباً إذا جاء جواب الشيخ موجباً لذلك، فقال له الشيخ بصوت قاطع جازم:

- أرجوك ملحّاً أن لا تقلق وأن لا تتحرج... لا تكره نفسك على شيء، وتصرف كما لو كنت في منزلك... وإياك أن تشعر بالخزي من نفسك خاصة، فإن شعورك بالخزي من نفسك هو بعينه أصل البلاء.

- أتصرف كما لو كنت في منزلي؟ أتريد أن تقول إن علي أن أطلق نفسي على سجيتها؟ الا إن هذا لكثير، بل لأكثر مما ينبغي، ولكنني أوافق بتأثر واعجاب! اسمع أيها الأب المبجل، لا تدفعني إلى إطلاق نفسي على سجيتها، لا تجازف فتفعل هذا... على أنني لن أمضي بعيداً هذا البعد كله. وإنني أنبهك لكي أحامي عنك. أما فيما عدا ذلك فإن كل شيء ما يزال غارقاً في ظلمات الجهل، رغم ما قاله بعضهم في وصف طبيعة نفسي. إن هذه الملاحظة تستهدفك أنت يا بيتر ألكسندروفتش! أما أنت أيها الإنسان الذي هو ضياءٌ كله، فإنني أضع عند قدميك إعجابي مندفعاً بغير حدود!

ثم نهض فرفع يديه إلى السماء وقال:

- «طوبى للبطن الذي حملك والثديين اللذين أرضعاك» [35]، نعم الثديين على الأخص... إنك حين نصحتني منذ هنيهة بأن لا أشعر بالخزي من نفسي، لأن هذا هو أصل البلاء»، قد نفذت إلى سريرتي وقرأت في أعماق قلبي ذلك بعينه ما أحسه. إنني أشعر دائماً، حين أدخل على الناس، بأنني أخبث من غيري، وأن الآخرين جميعاً يعدونني مهرجاً، فأخاطبهم عندئذ بيني وبين نفسي قائلاً: «ليكن... سامثل دور المهرج طائعاً مختاراً، ولست أخشى رأيكم، لأنني أعرف أنكم جميعاً شر مني وأجدر بالاحتقار والازدراء !» ذلك هو السبب أيها الشيخ العظيم في أنني أهرج... إنني أهرج لشعوري بالخزي، لشعوري بالخزي وحده. إني أعربد لإحساسي بالارتياب الدائم. آه... ليتني، حين أدخل على الناس، أستطيع أن أكون واثقاً من أن كل واحد سيعدني على الفور خير إنسان وأذكى إنسان في العالم، إذن لأصبحت عندئذ رجلاً من أنبل الرجال!

قال ذلك ثم ارتمى راكعاً على حين فجأة يقول:

- يا معلم ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟[36] إنه ليصعب على المرء أن يقول في تلك اللحظة هل كان الرجل ما يزال يمثل ويهرج، أم كان قد استولى عليه حقاً انفعال كبير؟

نظر إليه الشيخ وقال له مبتسما:

- تعرف أنت نفسك، منذ زمن طويل، ما الذي يجب عليك أن تعمله، فليس الذكاء هو ما يعوزك. امتنع عن الإسراف في الشراب والإفراط في الكلام، لا تستسلم للفجور، وتخل خاصة عن عبادة المال. أغلق دكاكين بيع الخمرة، أغلق دكاني ن أو ثلاثة منها على الأقل إذاً لم يسعك أن تغلقها كلها. وقبل هذا وذاك، لا تكذب... فذلك أهم شيء.

- ألعلك تشير إلى ما رويته عن ديدرو؟

- لا... ليس الأمر أمر ديدرو... فإنما الشيء الأساسي أن لا تكذب على نفسك. إن من يكذب على نفسه، ويرضى أن تنطلي عليه أكاذيبه، يصل من ذلك إلى أن يصبح عاجزاً عن رؤية الحقيقة في أي موضع، فلا يعود يراها لا في نفسه ولا فيما حوله، وهو ينتهي اخيراً، لهذا السبب، إلى فقد احترامه لنفسه واحترامه لغيره. وإذا أصبح لا يحترم أحداً، أصبح لا يحب أحداً، فإذا هو من أجل أن يتسلى، لأنه أصبح بغير حب، يستسلم للأهواء وينا دفع وراء الملذات الخسيسة، فيهوى عندئذ إلى قاع الرذيلة، ويصل من ذلك إلى درجة الحيوانية، وما هذا كله ألاّ لأنه يكذب بغير انقطاع، يكذب على غيره ويكذب على نفسه. إن من يكذب على نفسه يسرع كذلك إلى إهانة نفسه. ألاّ يشعر المرء بكثير من اللذة في بعض الأحيان حين يحس أنه مهان؟ وهو يعلم مع ذلك أنه ما من أحد قال له كلمة سوء، وإنما هو اخترع الإهانة بنفسه اختراعا في سبيل التلذذ بها، وكذب على نفسه، وبالغ وغالى تزييناً للموقف وزخرفة للوضع، وحمل كلمة من الكلمات على غير معناها، جاعلاً من الحبة قبة... هو يعلم ذلك، ولكنه يسارع إلى إهانة نفسه، ويهين نفسه متلذذا تلذذاً يبلغ حد الفرح، فإذا هو يصل من ذلك آخر الأمر إلى الشعور بعداء حقيقي... ولكن إنهض عن الأرض، أرجوك، أرجوك... اجلس في مكانك، أرجوك، تلك كلها أوضاع كذب أيضاً...

- أيها المقدس، اسمح لي أن أقبل يدك العزيزة اللطيفة! نهض فيدور بافلوفتش بوثبة، وطبع قبلة سريعة على يد الشيخ المعروقة. تماما، تماما، هذه هي الحقيقة. إن في إهانة المرء نفسه لذة. لقد أحسنت الإفصاح عن هذه الحقيقة. وتلك أول مرة أسمع فيها هذا الكلام. لقد ظللت طوال حياتي أهين نفسي، نشداناً للذة، بل وطلباً للجمال، لأن الإهانة ليست متعة فحسب، بل يمكن أحياناً أن يكون فيها جمال أيضاً. الجمال! ذلك ما نسيت أن تضيفه إلى كلامك أيها الشيخ العظيم! سوف أدون هذا في دفتري الصغير! لقد كذبت، كذبت بغير انقطاع عن الكذب طوال حياتي، في كل يوم، وفي كل ساعة. أنا في الواقع كذب يحيا، أنا للكذب أبوه! لا بل لست للكذب أباه.. لعلني أخطأت استعمال التعابير.. والأولى أن أقول إنني ابن الكذب لا أبوه... يكفيني كبراً أن أكون ابن الكذب... ولكن يا ملاكي الطيب، أحسب أن كذبة كالكذبة التي قلتها حين تكلمت عن ديدرو، أمر مباح من حين إلى حين! إن كذبة كهذه لا تسيء إلى أحد، على حين أن هناك كلمات ضارة... بالمناسبة، أيها الشيخ العظيم... لقد أوشكت أن أنسى... إنني أنتظر منذ ثلاث سنين أن تتاح لي فرصة إلقاء سؤال عليك. كنت أريد أن أتعلم منك، كنت أريد أن أجيء إلى هنا لهذا الأمر خاصة، كنت أريد أن أعرف منك الحقيقة حول هذه النقطة تفصيلا. ولكن أصدر أمرك أولاً إلى بيتر ألكسندروفتش بأن لا يقاطعني. إليك ما كنت أريد أن أعرفه: هل صحيح أيها الأب المبجل أن كتاب سير الشهداء القديسين يروي في موضع من مواضعه قصة قديس قام بمعجزات واستشهد في سبيل إيمانه، أي قطعوا رأسه، فإذا هو ينهض، فيتناول رأسه من الأرض[37]، ويعانقه في حنان، ثم يسير مدة طويلة، حاملا رأسه بيديه، حانية عليه ملاطفة له. قولوا لي أيها الآباء الطيبون، أهذا صحيح أم لا؟ قال الشيخ:

- بل هو غير صحيح.

وقال الراهب قيم المكتبة:

- لم يرد ذكر هذه القصة في أي موضع من مواضع كتاب سير الشهداء. من هو القديس الذي تقصده؟

- أنا لا أعرف من هو. أنا أجهل كل شيء عن هذه الأمور. لا شك في أنني ضللت. لقد سمعت أحداً يروي هذه القصة. وهل تعلمون من رواها لي؟ لم يروها لي أحد غير بيتر ألكسندروفتش هذا الذي ثار علي منذ هنيهة بصدد ديدرو! هو الذي روى لي هذه القصة، نعم هو...

- هذا كذب. أنا لم أرو لك هذه القصة! ثم إنني لا أكلمك أبداً.

- أعترف بأنك لم تروها لي أنا. ولكنك رويتها في اجتماع كنت أنا موجود فيه. حدث ذلك منذ ثلاث سنين. ولئن كنت أتذكرها هذا التذكر الواضح فلأنك قد زعزعت إيماني في ذلك المساء، بتلك القصة المضحكة... نعم يا بيتر ألكسندروفتش! أنت لم تعرف ذلك، وما كان لك أن تتنبا به، ولكنني عدت إلى منزلي في ذلك اليوم وأنا أشعر بأن يقيني قد ترنح، ولم يزد منذ ذلك اليوم على أن يهبط مزيداً من الهبوط. إنك يا بيتر ألكسندروفتش قد كنت السبب الحقيقي في سقوطي العظيم، واأسفاه! ليست القضية الآن قضية ديدرو!

كان فيدور بافلوفتش يتكلم بلهجة فيها لهجة الانفعال ونبرة التأثر، ولكن كان واضحة للجميع في هذه المرة أنه عاد يمثل ويهرج. ومع ذلك شعر ميوسوف بأنه أوذي إيذاءاً شديداً أليماً. فدمدم يقول:

- يا للسخف! إنك لا تقول ألاّ حماقات! من الجائز حقاً أن أكون قد رويت هذه القصة مرة... ولكني لم أكن أخاطبك أنت. كنت قد سمعت أنا هذه القصة... حدث ذلك في باريس. أكد لي فرنسي أن هذه القصة الواردة في كتاب سير الشهداء تتلى عندنا أثناء القداس... وكان هذا الفرنسي رجلاً مثقفاً قد تعمق في دراسة إحصائيات روسيا تعمقاً كبيراً، وكان قد عاش في بلادنا زمنا طويلاً... أنا لم أقرأ كتاب سير الشهداء بنفسي... ولست أنوي أن أقرأه على كل حال... ما قيمة أحاديث تجري بها الألسن على مائدة طعام؟ لقد حدث هذا أثناء عشاء...

- أثناء عشاء... ها... ها.. يا للعشاء الجميل الذي كلفني إيماني!.

كذلك قال فيدور بافلوفتش ساخراً. فانفجر ميوسوف يصيح:

- ما شأني أنا بإيمانك؟ ولكنه ثاب إلى هدوئه فوراً فقال بلهجة احتقار:

- إنك تدنس كل ما تلمسه يداك! فنهض الشيخ عندئذ مخاطبة جميع الحضور:

- معذرة أيها السادة. إنني مضطر أن أترككم لحظات. هناك زوار ينتظرونني وقد وصلوا قبلكم. ثم أضاف يقول بمرح وهو يلتفت إلى فيدور بافلوفتش:

- أما أنت فاترك الكذب على كل حال. وخرج. اندفع عندها أليوشا والمترقب المبتدئ ليمسكاه ويساعداه على هبوط السلم. كان أليوشا قد نفد صبره، وقد أسعده أن ينصرف، وأسعده كذلك أن الشيخ قد استقبل الأمر مرحاً دون غضب. وكان الشيخ يتجه نحو الرواق ليبارك أولئك الذين كانوا ينتظرونه هناك، غير أن فيدور بافلوفتش وجد السبيل إلى استيقافه عند العتبة. قال بصوت مختلج:

- أيها الإنسان المقدس جداً، اسمح لي أن أقبل يدك العزيزة اللطيفة مرة أخرى! ذلك أن المرء يستطيع أن يتفاهم معك ويتنفس بحضورك! ومن دون أن يفقد حبه للحياة وإقباله عليها لا تظنن أنني أكذب هكذا طول الوقت وأنني لست الا مهرجاً. الحق أنني فعلت هذا عامدة من البداية إلى النهاية، فعلته عامدا لأختبرك وأمتحنك! لقد أردت أن أتأكد من أنني أستطيع أن أتنفس في حضورك، ومن أن شخصي الهين يمكن أن يؤكد ذاته دون أن يصدم كبرياءك. في وسعي الآن أن أشهد لك شهادة جميلة: إن في وسع الإنسان أن يتنفس بحضورك! والآن لن أتكلم قط، لن أقول كلمة واحدة. سأجلس على هذا المقعد، فألبث ساكناً حتى النهاية. الكلام الآن لك يا بيتر ألكسندروفتش! تستطيع منذ هذه اللحظة أن تمثل دور الشخص الرئيسي... مدة عشر دقائق.

- 3 -الفلاحات المؤمنات

في الأسفل، قرب الرواق الخشبي المتاخم للجانب الخارجي من السور، كان يزدحم جمهور ليس فيه هذه المرة الا نساء. إن عددهن نحو من عشرين فلاحة. لقد أبلغن أن الشيخ سيخرج إليهن، فاحتشدن ينتظرنه. وقد ذهبت السيدتان خوخلاكوف أيضاً إلى الرواق، ولكنهما ذهبنا إلى المكان الموقوف على ذوات المكانة من الزائرات. هما أم وابنتها. إن السيدة خوخلاكوفا الأم، وهي امرأة غنية جداً أنيقة الهندام دائماً، ما تزال تبدو شابة، وهي لطيفة باشة، شاحبة الوجه قليلاً، لها عينان توشكان أن تكونا سوداوين على سطوع شديد وحركة قوية. إنها لم تتجاوز الثالثة والثلاثين من عمرها، وقد مات عنها زوجها منذ خمس سنين. أما ابنتها، وهي في الرابعة عشرة من العمر، فهي مصابة بشلل في الساقين. لقد أصبحت الصبية المسكينة عاجزة عن المشي منذ ستة أشهر، فنقلوها الآن في كرسي متحرك. إن لها وجهاً رائعاً فتاناً، قد أضناه المرض قليلاً، لكنه على جانب عظيم من اللطف والبشاشة، بل إن شيئاً من المكر يتراءى في عينيها الواسعتين القائمتين اللتين لهما أهداب طويلة. لقد كانت أمها تنوي منذ الربيع أن تمضي بها إلى الخارج، غير أن أعمالا بدأت في أرضهما فأجبرتهما على البقاء في روسيا طول الصيف؛ وهما لا تقيمان في مدينتنا الا منذ أسبوع، لا لزيارة الدير بل لقضاء بعض الأعمال في الواقع، غير أنهما قد جاءنا إلى الشيخ مرة أولى منذ ثلاثة أيام، وهما تعودان الآن إلى الدير على غير توقع، رغم أنهما تعلمان حالة الشيخ الذي أصبح لا يكاد يستطيع استقبال الزائرين. لقد توسلتا بكثير من الإلحاح أن يمن عليهما بأن تسعدا برؤية هذا الشافي العظيم مرة أخرى..

وبانتظار ظهور الشيخ اتخذت الأم مكانا على كرسي قرب مقعد ابنتها المتحرك؛ وعلى بعد خطوتين منهما كان يقف راهب عجوز لا ينتمي إلى هذا الدير، ولكنه كان ماراً بالمدينة. لقد ترك ديره إلى حين، وهو دير غير مشهور يقع في منطقة نائية بشمال روسيا. إن هذا الراهب العجوز يريد هو أيضاً أن يحظى بمباركة الشيخ. ولكن الشيخ الذي ظهر على الرواق في تلك اللحظة إنما اتجه أولاً إلى طبقة الشعب. تدافع الجمهور نحو درجات المدخل التي لا تزيد على ثلاث ؛ ومن على هذه الدرجات الثلاث إنما يطل على الحقول الرواق الذي لا يرتفع كثيراً عن سطح الأرض. توقف الشيخ على الدرجة العليا من هذه الدرجات، وتلفع بلفاع الكاهن وأخذ يبارك النساء اللواتي يزدحمن أمامه. قدمت إليه كليو كوشا كانت تجرها امرأتان تمسكانها من يديها، فما إن لمحت المسكينة الشيخ حتى أخذت تطلق صرخات حادة غريبة تدل على هذيان، وهي ترتعش ارتعاشة قوياً من أخمص قدميها إلى قمة رأسها، كأنها مصابة بالصرع. وضع الشيخ لفاعه على رأس المريضة، وتلا دعاء قصيراً، فإذا بالمرأة تصمت وتهدأ. لا أدري ماذا يحدث الآن، ولكنني في أثناء طفولتي قد أتيح لي مراراً أن أرى وأن أسمع هاته النسوة المريضات في قرانا وفي أديرتنا. كان يؤتى بهن إلى الصلاة معولات أو نابحات كالكلاب، فيملأن بصرخاتهن أرجاء الكنيسة. فما إن يقربن من القربان المقدس حتى يزول عنهن «المس» فجأة، ويستعدن هدوءهن في كل مرة إلى حين. وقد أدهشني ذلك كثيرة في طفولتي وترك في نفسي أثرة قوياً. ولكنني حين سألت عن سر هذا الأمر قال الي بعض الملاكين، وقال لي معلمو مدرستي في المدينة خاصة، إن ذلك كله ليس ألاّ تظاهراً كاذباً، وإن هاته النسوة كسالى لا يردن أن يعملن، وإن من الممكن دائماً ردهن إلى الصواب بإظهار شيء من القسوة. حتى لقد رويت حكايات في بيان صحة هذا التفسير. ومع ذلك علمت بعد ذلك من أطباء مختصين، على دهشة مني، أن الأمر ليس أمر تظاهر كاذب، وأن هذا في الواقع مرض رهيب تصاب به النساء، وأن هذا المرض منتشر انتشاراً واسعة في روسيا خاصة، وأن مرده إلى ما تتصف به ظروف حياة المرأة في أريافنا من قسوة شديدة، فهذا المرض يرجع إلى أن الفلاحات في بلادنا يقمن بأعمال مرهقة بعد نفاس شاق أليم لم تحتمله أجسامهن بسبب قلة العناية الطبية بهن؛ تضاف إلى ذلك آلام من أنواع شتى، جسمية ونفسية، مردها إلى ما ينالهن من ضرب مبرح، وإلى ما بصبيهن من سوء المعاملة، وإلى ما يلم بهن تبعا لذلك من كمد وكرب ويأس، لأن بعض النساء لا يستطعن احتمال محن قد يعدها غيرهن عادية لا غرابة فيها. فأما ذلك الشفاء العجيب الذي تنقذ به نساء مصابات بهذا المس متى أدنين من القربان المقدس - وهو شفاء يدعي بعضهم تعليله بالتظاهر الكاذب، وحتى بخداع مقصود يخرجه «رجال الكهنوت» إخراجاً مسرحياً - فالحق أنه يرجع هو أيضاً إلى أسباب طبيعية؛ ثم إن النساء اللواتي يدنين الممسوسات من القربان المقدس، والممسوسات أنفسهن خاصة، مؤمنات إيماناً عميقاً كإيمانهن بحقيقة راسخة ثابتة، أن الروح الخبيثة التي حلت فيهن لا تستطيع احتمال وجود القربان المقدس، فإذا هي تبارحهن متى دنون منه وانحنين له. لذلك لا بد أن يحدث اهتزاز شامل قوي في جسم هاته النسوة المصابات بمرض عصبي نفسي معاً منذ يواجهن بالقربان المقدس؛ فهذا الاهتزاز نتيجة طبيعية لتوقع الشفاء الذي لا بد منه في نظرهن، وانتظار البرء الذي لا محيص عنه حتماً، وهو نتيجة طبيعية لإيمانهن بالمعجزة إيماناً ليس له حدود. فلذلك كان يحدث الشفاء ويتم البرء، ولو إلى حين قصير. وهذا يعنيه هو ما وقع في الحالة الراهنة حين خلع الشيخ على المريضة لفاعه وتلا دعاءه.

كان بين الجمهور الذي ازدحم حول الشيخ نساء كثيرات أخذن يبكين حناناً وخشوعاً وحماسة بتأثير تلك اللحظة. واندفعت نساء أخريات تريد أن تقبل ثيابه على الأقل. وراحت بعضهن يرتلن بصوت خافت رتيب. باركهن الشيخ جميعاً، وتحدث مع بعضهن. وكان يعرف الكليكوشا التي قدمت إليه. إنها من قرية مجاورة تقع على مسافة ستة فراسخ من الدير؛ وما هذه أول مرة يؤتى بها إليه على كل حال.

قال الشيخ وهو يشير إلى امرأة أخرى لم تطعن في السن بعد، ولكنها نحيلة ضاوية معروفة، لها وجه ليس ملوّحاً ولكنه مسوداً اسوداداً غريباً (كانت راكعة على ركبتيها تحدق إلى الشيخ بنظرة ساكنة جامدة، وفي وجهها شيء من الوجد والنشوة):

- هذه آتية من مكان أبعد. فقالت المرأة بصوت كأنه الغناء وهي ترجح رأسها ترجحاً متواتراً موقعاً، وقد أسندته إلى راحة إحدى يديها:

- نعم يا أبتي، أنا آتية من مكان بعيد، بعيد جداً، يبعد عن هنا ثلاثمائة فرسخ.

- كانت المرأة تتكلم بلهجة هي إلى الترتيل أقرب. إن بين أفراد الشعب أناساً يتألمون ألماً أخرس مذعناً، هو ألم ينطوي على ذاته ويعتصم بالصمت. غير أن هناك أناساً يتألمون ألماً متفجراً ينطلق انتحابات على حين فجأة، ثم إذا هو يعتصم بعد ذلك بالترتيل.

وهذه حالة تلاحظ على النساء خاصة. وليس هذا الألم أقل أو أخف من ألم الصامتين. إن الترتيل لا يخفف عن النفس إلا لأنه يحيي جروح القلب وينكؤها أعمق فأعمق. إن هذه الصورة من صور الألم لا تتطلب عزاء ولا تسعى إلى سلوى، لأنها تغتذي من الشعور باستحالة إشباعه، فالترتيل إنما يعبر عن الحاجة إلى نكء الجروح بغير توقف.

استأنف الشيخ يقول وهو يتفرس فيها بانتباه:

- لعلك من أهل المدن؟

- نعم أنا من المدينة أيها الأب الطيب، نعم... وإن أكن قروية الأصل. نحن من أهل البندر، لأننا نعيش في المدن. ومن أجل أن أراك إنما جئت إلى هنا أيها الأب الطيب. لقد حدثونا عنك، أيها الأب، فرأوا أشياء كثيرة. لقد دفنت ابني، ابني الصغير... فخرجت أضرب في الأرض حاجة، فمررت بثلاثة أديرة، فقيل لي هنالك: «إذهبي إليه أيتها المسكينة ناستاسيوشكا[38]... إذهبي لرؤيته هو... يقصدون أنت... إذهبي لرؤيته... رؤية الأب العزيز...» هكذا جئت إليك. أمس حضرت صلاة الليل، وها أنذا الآن أمامك.

- لماذا تبكين؟

- أبكي صغيري أيها الأب الطيب. كان عمره ثلاثة أعوام إلا ثلاثة أشهر[39]. إنني أبكي ابني، أبكي صغيري. ذلك ما يعذبني. كان آخر أبنائي. كان لنا أنا وزوجي المسكين نيكيتوشكا[40] أربعة أبناء. إن الأطفال لا يبقون عندنا. إنهم يتركوننا يا أبانا المحترم، إنهم يتركوننا. دفنت الثلاثة الأولى، فسرعان ما تعزيت عنهم. أما ذاك، الأخير، فإنني لا أستطيع أن أنساه. يخيل إلي أنني أراه، هنا، أمامي، أراه طول الوقت. جفّت نفسي بسببه. أنظر إلى ملابسه، إلى قميصه الصغير، إلى حذاءيه، فأخذ أشج وأنتحب. أعرض أشياءه أمامي أتأملها... أستعرض جميع بقاياه التي تذكرني فأبكي. قلت لنيكيتوشكا، زوجي: «دعني أمضي... أريد أن أضرب في الأرض حاجة». زوجي حوذي. ولسنا فقراء أيها الأب الطيب. عندنا مال. حياتنا ليست رهناً بأحد. نملك خيولاً وعربة ننفق عليها من مالنا. فيم ينفعنا هذا كله الآن؟ وقد انحدر عزيزى نيكيتوشكا إلى طريق الضلال حين تركته. أخذ يشرب. أنا أعلم ذلك. وما هذه أول مرة. كان يضعف كلما حولت عيني عنه. ولكنني الآن لا أحفل بذلك. أصبحت لا أفكر فيه. تركت المنزل منذ ثلاثة أشهر. نسيته. نسيت كل شيء. أصبحت لا أريد أن أتذكره. وما عساني أفعل معه؟ لقد أنهيت صلتي به، أنهيت صلتي بجميع الناس. لا أريد أن أرى منزلي بعد الآن يوماً، لا منزلي ولا رزقي، لا أريد أن أرى شيئاً ألبتة!

قال الشيخ ببطء:

- اسمعي أيتها الأم الطيبة! في يوم من الأيام رأى قديس كبير من قديسي الماضي، رأى في الهيكل أماً تبكي ابنها الذي فقدته مثلما تبكين ابنك الآن... كان ابنها طفلاً صغيراً كابنك، وكان ابناً وحيداً أخذه الرب إليه. قال لها القديس: «ألست تعلمين إذن أن جميع الصغار الذين من هذا النوع يملكون جرأة كبيرة أمام عرش

الرب؟ بل ليس في ملكوت السماء كله أحد أجرأ من هؤلاء الصغار إنهم يقولون للرب: لقد وهبت لنا الحياة أيها الرب، فما إن رأينا الحياة حتى استرددتها منا!، هم يكلمون الرب ويطالبونه بهذه الجرأة حتى يرفعهم فوراً إلى مصاف الملائكة. وقال لها القديس بعد ذلك: «يا امرأة! كفي إذن عن البكاء، وابتهجي وافرحي، ما دام الأمر كذلك، لأن ابنك يسكن الآن قرب الرب بين الملائكة!» بهذا حدث القديس في الماضي المرأة التي كانت تبكي. ولقد كان قديساً عظيماً فلا يمكن أن يكذب على تلك المرأة. فاعلمي هذا أنت أيضًا أيتها الأم الطيبة، اعلمي أن ابنك الصغير يقف الآن قرب عرش الرب، فهو يفرح ويبتهج ويتوسل إلى الرب من أجلك. ولذلك عليك أن لا تبكي، ولكن افرحي أيضًا .

كانت المرأة تصغي إلى الشيخ مسندةً رأسها إلى إحدى يديها، غاضّة بصرها. وتنهدت تنهداً عميقاً.

- بمثل هذه الأقوال إنما كان يعزيني زوجي المسكين نيكيتا!

كان يقول مثلما تقول: «لماذا تبكين أيتها المرأة الطائشة؟ لا شك في أن ابننا هو الآن قرب الرب مع الملائكة». كان يقول لي هذا الكلام، ويبكي هو نفسه، وكنت أنا أرى أنه يبكي مثلما أبكي... قلت له: «أعلم ذلك يا نيكيتا... أعلم أن ابننا هو الآن عند الرب، وأين عساه يكون إن لم يكن عند الرب؟ ولكنه ليس عندنا يا نيكيتا، ليس معنا، ليس جالساً إلى جانبنا كما كان يجلس إلى جانبنا من قبل!، ليتني أستطيع أن أراه مرة أخرى، مرة واحدة، مرة واحدة لا أكثر... وأن أنظر إليه، أن أنظر إليه مرة واحدة، صغيري الحبيب لن أقترب منه، سأختبئ في ركن، وسأصمت! آه... أن أراه مرة أخرى، ولو دقيقة واحدة! ليتني أسمعه يلعب في المنزل، ثم يناديني بصوته الرقيق كما كان يفعل: «ماما! أين أنت؟» ليتني أسمعه يركض في الغرفة على قدميه الصغيرتين، ليتني أسمع وقع خطواته على الأرض: تك.. تك... ولقد كان يجيء إلي، إنني أتذكر هذا كثيراً، كثيراً جداً يجيء إلي راكضاً صائحاً ضاحكاً..آه .. ليتني أسمع وقع خطوانه، خطواته الصغيرة، فأعرف أنه هو... ولكن لا... يا أيها الأب الطيب... لن أسمعه بعد اليوم قط!.. انظر... هذا حزامه الصغير... أما هو فقد ذهب، ولن أراه بعد الآن في يوم من الأيام، ولن أسمعه بعد الآن في يوم من الأيام!..

- قالت المرأة ذلك وأخرجت من عبها الحزام الصغير المزخرف، حزام ابنها الصغير، فما إن رأته حتى هزّها النشيج، فسارعت تخفي عينيها بيديها، وأخذت الدموع تسيل من خلال أصابعها متدفقة على حين فجأة في كل جهة من الجهات.

قال الشيخ:

- هذه راشيل، راشيل القديمة، تبكي صغارها ولا يعزيها عن فقدهم شيء[41]. ذلك هو حظكن في هذا العالم أيتها الأمهات - لا تتعزي يا امرأة، فليس العزاء هو ما أنت في حاجة إليه. لا تتعزي... بل ابكي ما استطعت إلى البكاء سبيلاً. ولكن تذكري وأنت تبكين، تذكري في كل مرة، أن صبيك الصغير هو أحد ملائكة الرب، وأنه يراك من علياء السماء، وأنه ينظر إليك، ويغتبط لدموعك، ويلفت إليها انتباه الرب. ستظلين خلال زمن طويل تسكبين هذه الدموع، دموع الأم المفجوعة بابنها. ولكن بكاءك سيستحيل أخيراً إلى فرح هادئ، وستصير دموعك المرة إلى عبرات حنان وادع، وتطهّر روحي يخلصك من الخطيئة. أما ابنك فسأصلي من أجل راحة روحه. ماذا كان اسمه؟

- ألكسي، أيها الأب الطيب.

- اسم جميل. مولاه هو القديس ألكسي أحد أولياء الله، أليسركذلك؟

- نعم يا أبانا! ألكسي أحد أولياء الله!

- ما أعظمه من قديس! سأذكره في صلواتي[42]. وسوف أصلي من أجلك أنت أيضًا أيتها الأم الطيبة، لأنك تتألمين، وسوف أصلي من أجل زوجك كذلك حتى لا يصيبه سوء. ذلك أن هجرك إياه خطيئة، هل تعلمين؟ عودي إلى البيت لتسهري عليه وتعتني به. إن ابنك حين يرى من علياء السماء أنك تركت أباه سوف يبكي عليكما كليكما. فهل تريدين أن تدمري راحة نفسه؟ إنه حي، حي لأن النفس لا تموت أبداً. ولئن غاب عن منزلك، إنه لقريب منك ولو لم تريه. فكيف يمكن أن يجيء إليك إذا كنت قد كرهت منزلك وبيتك؟ من عساه يزور إذا لم يستطع أن يجد الاثنين، أمه وأباه معاً؟ إنه يظهر لك في المنام فتتعذبين، فعودي إلى منزلك يرسل إليك أحلاماً تهدي روعك! ارجعي إلى زوجك أيتها الأم الطيبة، ارجعي إليه اليوم بالذات!

- سأعمل بما تقول أيها الأب، سأرجع إلى منزلي! لقد قرأت ما في قلبي! أواه يا عزيزي نيكيتا، يا عزيزي نيكيتوشكا، يا طائري الصغير، إنك تنتظر أوبتي، وإني لآيبة!

عادت المرأة ترتل كلامها ترتيلاً، ولكن الشيخ كان قد دنا من عجوز قصيرة طاعنة في السن جداً، لا ترتدي ما يرتديه الحجاج، وإنما هي تلبس ثوباً عادياً من ثياب المدينة. كان في وسع المرء أن يرى في عينيها أنها جاءت لأمر بعينه من الأمور، وأنها تريد أن تتكلم عن هذا الأمر. قدمت نفسها للشيخ على أنها أرملة رجل كان من ضباط الصف في الجيش. إنها تسكن في مدينتنا غير بعيد. وقد خدم ابنها فاسنكا في مركز من مراكز الشرطة، ثم سافر إلى إيركوتسك بسيبيريا. كتب إليها رسالتين في البداية، ثم انقطعت عنها أخباره منذ سنة. أرادت أن تسأل عنه وأن تتقصى أنباءه، ولكنها لا تعرف إلى من تتجه... قالت:

-إن ستيبانيدا إيلينشنا بدرياجينا، وهي تاجرة غنية، قالت لي: «هلمي فسجلي اسم ابنك في سجل المرحومين في بروخوروفنا، واحمليه إلى الكنيسة، بغية أن تتلى صلاة الرحمة عليه، فتحن روحه إليك ويكتب رسالة». وقد أكدت ستيبانيدا إيلينشنا أن «هذه وسيلة مضمونة نجحت دائماً». غير أن في نفسي شكوكا... فقل لي، وأنت ضياؤنا، أهذا صحيح أم لا، وهل يجب علي أن أتبع نصيحتها؟

- دعيك من فكرتك هذه؟ ألا تستحين أن تلقي سؤالاً كهذا السؤال؟ كيف يخطر ببالك أن يُصلى على روح ابنك وهو ما يزال حياً؟ أتفعلين هذا وأنت أمه؟ تلك خطيئة كبرى تشبه خطيئة السحر، وسنغفر لك بسبب جهلك فقط، والأولى أن تتضرعي إلى ملكة السماء، التي تسارع إلى الشفاعة والحماية، أن تسهر على صحة ابنك، وأن تغفر لك هذه الفكرة الآثمة التي خطرت ببالك. واسمعي ما سأقوله لك أيضًا يا بروخوروفنا: إن ابنك سيرجع إليك قريباً، أو سيكتب إليك حتماً. كوني على ثقة. وانصرفي الآن بسلام. إن ابنك حي. صدقيني.

- جزاك الله خيراً أيها المحسن إلينا، الشفيع لنا، يا من تصلي من أجلنا جميعاً، وتستغفر عن خطايانا...

في أثناء ذلك لاحظ الشيخ في الجمهور نظرة حادة شاخصة إليه محدقة فيه، هي نظرة فلاحة شديدة النحول يبدو عليها أنها مصابة بالسل، على أنها ما تزال شابة. كانت تنظر إليه صامتة، وكأن عينيها تسألان شيئاً من الأشياء ضارعتين متوسلتين، ولكنها تخشى أن تقترب فيما يبدو. سألها الشيخ:

- وأنت ماذا تريدين أيتها الأخت الحبيبة؟ فقالت بصوت بطيء خافت:

- أنقذ نفسي أيها الأب الحبيب!

ثم جثت على ركبتيها وانحنت ساجدة على الأرض.

- لقد أثمت يا أبتاه، وأنا خائفة من إثمي.

قعد الشيخ على الدرجة الدنيا، واقتربت المرأة منه وهي ما تزال جاثية.

بدأت تقول بما يشبه الهمس، بينما كان يهزُّها نوع من التشنج:

- ترملت منذ ثلاث سنين. كنت شقية مع زوجي. كان هرماً. وكان يضربني كثيراً. ففي ذات يوم، بينما كان مريضاً متمدداً على سريره، نظرت إليه وقلت بيني وبين نفسي: «ما عسى تكون حياتي إذا شفي من مرضه ونهض من جديد؟» في تلك اللحظة إنما برقت في ذهني تلك الفكرة بالذات...

- انتظري لحظة.

كذلك قال الشيخ ثم دنا من المرأة ووضع أذنه على شفتيها. تابعت الفلاحة رواية قصتها بهمس يبلغ من الخفوت أن المرء أصبح لا يكاد يسمع كلمة مما تقوله. ولم تطل مسارتها.

سألها الشيخ: - أهذا منذ ثلاث سنين؟

- نعم من ثلاث سنين. لم أكن أفكر في الأمر من قبل. أما الآن فقد صرت مريضة. إن خواطر مظلمة تملأ جوانب نفسي.

- أأنت آتية من مكان بعيد؟

- من مكان يقع على مسافة خمسمائة فرسخ من هنا.

- هل ذكرت هذا في الاعتراف للكاهن؟

- نعم.. ذكرته مرتين.

- هل قبلوا أن تتناولي القربان المقدس؟

- قبلوا. ولكني خائفة، خائفة من الموت.

- لا تخشي شيئا. لا تدعي للخوف أن يستولي عليك، واطردي الحزن من نفسك. اجعلي الندامة مستقرة في قلبك قوية عميقة، فيغفر الله لك كل شيء. ليس على هذه الأرض ولا يمكن أن يكون خطيئة تبلغ من الهول أن الرب لا يمكن أن يغفرها لمن ندم عليها صادقاً. ثم إن الإنسان لا يمكن أن تبلغ خطيئته هذا المبلغ، ولا أن يقترف آثاماً كبيرة إلى حيث تستنفد رحمة الرب التي لا حدود لها. أفتظنين أن في هذا العالم ذنباً يمكن أن يفوق الحب الإلهي؟ اندمي، اندمي، بنفسك كلها، واطردي من قلبك كل خوف. ثقي أن الرب يحبك أكثر مما تستطيعين أن تتصوري، وأنه يحبك حتى في خطيئتك، ورغم هذه الخطيئة. إن الآثم الذي يندم ويتوب يكون فرح في السماء به أكثر من عشرة بررة[43] .
كذلك قيل من زمن بعيد. امضي. لا تخشي شيئاً. ولا تحملي للبشر حقداً. انسي الإساءات. اغفري في قلبك للمتوفى ما ألحقه بك من سوء وما نالك به من أذى، وصالحيه في قرارة نفسك. أنت تحبين ما دمت تشعرين بالندامة. وما دمت تحبين فأنت لله... إن الحب قادر على كل شيء، إنه ينقذ كل شيء. لئن كنت، وأنا الخاطئ مثلك، أشاركك ألمك وأندب حظك، فما بالك بالرب! إن الحب غنى عظيم يمكن أن يهب لنا الكون كله، وأن يجعلنا نكفر لا عن خطايانا نحن وحدها، بل عن خطايا الآخرين أيضًا . انصرفي الآن بسلام، وكوني بلا خوف.
قال الشيخ ذلك ورسم إشارة الصليب عليها ثلاث مرات، وتناول صورة مقدسة كان يحملها في عنقه فوضعها في عنق الفلاحة.
حيتة الفلاحة صامتة وانحنت حتى الأرض. ونهض الشيخ ببطء، وأشرقت نظرته حين وقعت على امرأة تفيض صحة وسناء وهي تحمل بين ذراعيها رضيعاً.
- أنا آتية من فيشجورييه يا أبانا الطيب.
- قطعتِ إذن ستة فراسخ حاملة هذا الصبي على ذراعيك فيم ترغبين؟
- أردت أن أراك فقط. لقد سبق أن جئت إليك، ألا تتذكر؟ إن كنت قد نسيتني فليست ذاكرتك إذن بالقوية. لقد قالوا عندنا إنك مريض، فأردت أن أراك بعيني. وإني لأنظر إليك الآن فما ألاحظ أنك مريض. دعك من هذا! لتعيش عشرين سنة أخرى إن شاء الله. ما أكثر الذين يدعون لك ويصلون من أجلك، فكيف يمكن أن تمرض؟
- أشكرك أيتها المرأة الطيبة، أشكرك على كل شيء!
- لي عندك رجاء آخر، وإن يكن هيناً. إليك ستين كوبيكا فاهدها يا أبت لإمرأة أخرى، لإمرأة أفقر مني. لقد قلت لنفسي وأنا في طريقي إلى هنا. «سأعطي هذا المال له هو، فإنه أدرى مني بمن يستحق أن يوهب له».
- شكراً، شكراً أيها القلب الطيب. هذا يسرني. سوف أفعل ما تطلبين. هل طفلك هذا بنت؟
- بنت أيها المبارك اسمها ليزافيتا.
- بارك الله فيكما كليكما أنت وابنتك ليزافيتا. لقد أفرحت قلبي أيتها الأم الطيبة. إلى اللقاء يا أصدقائي، إلى اللقاء يا أعزائي، يا أولادي الطيبين. بارك الشيخ الحجاج وحياهم بانحناءة عميقة.

- 4 – السيدة الضعيفة الإيمان

كانت السيدة الإقطاعية الزائرة تبكي بكاءً رقيقاً هادئاً من تأثرها برؤية الشيخ وهو يتحدث إلى العامة ويباركهم؛ وكانت تجفف عبراتها بمنديل صغير. إنها امرأة من الطبقة العليا حساسة جداً صادقة الطيبة كثيراً. فلما اقترب الشيخ منها أخيراً, تلقته بكثير من العاطفة المتدفقة قائلة:

- ما كان أعمق انفعالي، وأشد اضطرابي حين رأيت هذا المشهد المؤثر...

وقطع الاهتياج كلامها فلم تتابعه، ثم استأنفت تقول بعد لحظة:

- إنني أفهم أن يحبك الشعب. وأنا أيضًا أحب الشعب، أنا أريد أن أحبه. وكيف لا يحب المرء شعبنا الروسي الرائع هذا، كيف لا يحب المرء هذا الشعب العظيم والبريء الساذج في آن واحد؟

- كيف حال ابنتك؟ كنت تريدين حديثاً آخر معي؟

- أوه... لقد ألححت في طلب هذه المنّة. توسلت وتضرّعت، وكنت مستعدة لأن أجثو على ركبتيّ ثلاثة أيام بلياليها تحت نوافذك في سبيل أن تستقبلني. لقد جئناك، أيها الشافي العظيم، لنعبر لك عن شكرنا الحار، لأنك قد شفيت ابنتي ليزا من مرضها، شفيتها شفاءً تاماً، وبماذا؟ بان دعوت لها يوم الخميس الماضي ووضعت يديك عليها! إن علينا أن نسارع إلى تقبيلهما، هاتين اليدين المباركتين، وأن نظهر لك تأثرنا، وأن نعرب عن تبجيلنا وتقديسنا!

- شفيتها؟ كيف هذا؟ إنني ما زلت أراها متمددة في مقعدها...

- ولكن الحمى التي كانت توافيها في الليل قد زالت زوالاً تاماً, زالت منذ يومين، منذ ذلك الخميس تماماً (كذلك أسرعت تضيف السيدة قولها هذا بشيء من العصبية). وأكثر من ذلك إن ساقيها قد اشتدتا وقويتا، لقد استيقظت هذا الصباح معافاة تماماً، بعد أن نامت طول الليل. انظر إلى ألوان خديها وبريق عينيها! كانت قبل الآن ما تنفك تبكي، وها هي ذي الآن تضحك مرحة كل المرح سعيدة كل السعادة. أصرت اليوم إصراراً مطلقاً على أن تنهض قائمة، واستطاعت أن تقف على ساقيها ساعة كاملة دون أن تسند. وقد راهنتني على أنها ستكون بعد أسبوعين قادرة على أن ترقص. استدعيت طبيبنا الدكتور هرتسنشتوبه، فهز كتفيه وقال: «إني لا أفهم شيئاً وأستغرب». فكيف تريد بعد هذا أن لا نجيئك ونحن نحترق شوقاً إلى أن نطير إليك، وأن نصيح تعبيراً عن عرفاننا بجميلك؟ اشكري له صنيعه يا ليزا، أشكري!

اكتسي وجه ليزا الجميل الضاحك هيئة الجد في اللحظة الأولى، ونهضت عن كرسيها ما استطاعت النهوض، ونظرت إلى الشيخ ضامة يديها. ولكنها لم تستطع أن تكبح جماح نفسها، فإذا هي تنفجر ضاحكة على حين فجأة... قالت وهي تشير إلى أليوشا خجلة غاضبة كطفل لم يملك أن يسيطر على نفسه وأن يمتنع عن الضحك:

- هو السبب، هو السبب! لو ألقى أحد في تلك اللحظة نظرة على أليوشا الذي كان واقفاً وراء الشيخ على بعد خطوة منه، للاحظ الحمرة الشديدة التي اصطبغ بها خداه فجأة. وومضت شعلة في عينيه اللتين سارع يغضهما.

تدخلت الأم قائلة:

- عندها رسالة تريد أن تنقلها إليك يا ألكسي فيدوروفتش... وأضافت تقول وهي تلتفت نحو أليوشا بحرارة وتمد إليه يداً صغيرة يكسوها قفاز أنيق:

- كيف حالك؟

التفت الشيخ نحو أليوشا وألقى عليه نظرة منتبهة. ودنا الفتى من اليزا فمدّ إليها هو أيضًا يده وهو يبتسم ابتسامة غريبة فيها كثير من الارتباك والحرج. وحاولت الفتاة أن تصطنع هيئة الوقار والرصانة. وقالت له وهي تناوله رسالة صغيرة:

- كلفتني كاترينا إيفانوفنا بأن أوصل إليك هذه الرسالة. إنها ترجوك كثيراً أن تجيء إليها، أن تجيء إليها بأقصى سرعة، ومن غير إبطاء. إنها تريد أن تراك حتماً، وتأمل أن لا تخيب ظنها.

- تريد أن أزورها؟ أنا؟... لماذا؟

كذلك دمدم يقول أليوشا وقد ظهرت في وجهه دهشة واضحة.

واكتست سحنته فجأة تعبيراً عن هم كبير.

قالت الأم تشرح:

- أوه... الأمر أمر دمتري فيدوروفتش طبعاً... وأمر هذه الأحداث الأخيرة كلها أيضًا ... لقد اتخذت كاترينا إيفانوفنا قراراً في هذا الشأن. ولكنها تريد أن تراك أولاً... لماذا؟ لا أدري.... ولكنها تصر إصراراً شديداً على أن تراك بأقصى سرعة. ستزورها، أليس كذلك؟ عليك أن تزورها حتماً العاطفة المسيحية نفسها تأمر بذلك.

عاد أليوشا يقول بلهجة تعبر عن تلك الدهشة نفسها:

- ولكنني لم أرها في حياتي إلا مرة واحدة.

قالت الأم:

- ولكنها إنسانة نادرة المثال، عظيمة النقاء، سامية النفس... ولو بسبب ما قاست من آلام على الأقل... تذكر ما عانته وما تزال تعانيه.. وفكر أيضًا في ما ينتظرها... أليس هذا رهيباً، أليس رهيباً؟

قال أليوشا بعد أن مر بعينيه على الرسالة المقتضبة الغامضة التي لا تشتمل على أي إيضاح، ولا تزيد على أن تدعوه إلى زيارتها بإلحاح:

- طيب... سأذهب... صاحت ليزا تقول وقد تحمست على حين فجأة:

- أوه!... ما أجمل هذا منك وما أنبله... تباً لي... لقد قلت لأمي: «لن يذهب حتماً... سوف يرفض قطعاً... لأنه اعتكف في الدير». إنك طيب جداً، نبيل جداً! لقد قدرت دائماً أن لك نفساً رائعة، ويسرني أن أقول لك ذلك اليوم!

تدخلت الأم تقول بلهجة مهيبة:

ليزا

ولكنها لم تلبث أن ابتسمت، ثم أضافت تخاطب أليوشا:

- لقد تركتنا نحن أيضًا يا ألكسي فيدوروفتش! أصبحت لا تزورنا أبداً، مع أن ليزا أسرت إلي مرتين أنها لا تشعر بارتياح إلا بحضورك. رفع أليوشا عينيه اللتين كانتا مطرقتين إلى الأرض. واحمر من جديد، وابتسم مرة أخرى دون أن يعرف لماذا. كان الشيخ قد انصرف عنه فهو لا يلاحظه. كان الشيخ قد أخذ يكلم الراهب المار بالمدينة، الذي كان كما سبق أن قلنا ينتظر خروج الشيخ قرب مقعد ليزا. كان واضحاً أن هذا الراهب واحد من أولئك الرهبان العاديين جداً الذين ينتمون إلى فرقة رهبانية عادية، ويملكون أفكاراً محدودة جامدة، ولكن يحركهم إيمان عميق جداً، إيمان ثابت على طريقتهم الخاصة. ذكر الراهب للشيخ أنه آت من منطقة نائية بالشمال، من مدينة أوبدورسك[44]، من القديس سلفستر، وأنه يتمي إلى دير فقير جداً، لا يضم إلا تسعة رهبان. باركه الشيخ، ودعاه أن يزوره في صومعته متى حلا له ذلك.

سأله الراهب فجأة وهو يومئ إلى ليزا بإشارة رصينة ذات أبهة:

- ما تلك القوة التي تتيح لك أن تحقق مثل هذه الأمور؟ كان الراهب يشير إلى «الشفاء» بمعجزة. فقال له الشيخ:

- لم يحن وقت الكلام عن الشفاء بعد. ليس التحسن شفاء تاماً، وربما كان مرد هذا التحسن إلى أسباب أخرى. وإذا كان ثمة معجزة مع ذلك، فليس الأمر إلا أمر قوة واحدة هي القوة التي تصدر إلينا عن النعمة الإلهية. لا شيء يتم إلا بإرادة الله.

وأردف الشيخ يقول متجهاً بالكلام إلى الراهب:

- تعال زرني أيها الأب، ما دام في وسعي أن أستقبلك: إنني مريض، وإنني أحس أن أيامي معدودات.

صاحت أم ليزا تقول:

- لا... لا... إن الرب لن يحرمنا منك ستعيش طويلاً، طويلاً جداً. ما عسى يكون مرضك؟ إن في وجهك كثيراً من الحياة والفرح والسعادة.

- صحيح إنني أشعر أن حالتي اليوم أحسن كثيراً مما كانت، ولكنني أعلم أن هذا لن يدوم. أنا أعرف الآن مرضي معرفة كاملة.

تقولين إنني أبدو فرحاً. فاعلمي أنه لا شيء يمكن أن يفرحني كما يفرحني أن أسمع منك هذه الملاحظة. لأن الإنسان إنما خلق للسعادة، والذي يشعر بسعادة كاملة يحق له أن يقول: «لقد حققت وصية الله في هذا العالم». إن جميع الأتقياء، وجميع القديسين، وجميع الشهداء، كانوا سعداء كلهم.
هتفت الأم تقول:
- ما أجمل هذا الكلام الذي تقول! ما أعظم وما أرفع هذه المعاني التي تعبر عنها كلماتك! إن كل كلمة تقولها تمضي إلى القلب رأساً. ولكن أين هي السعادة؟ من ذا الذي يستطيع أن يقول إنه سعيد؟ يا من تلطفت فأذنت لنا بأن نراك اليوم مرة أخرى، هلا تحملت أن أفضي إليك اليوم بما سكت عنه أثناء زيارتنا السابقة ولم أجرؤ قط أن أتحدث عنه في المرة الأولى! دعني أكلمك في ما يعذبني كثيراً منذ زمن طويل، منذ سنين. إنني أتألم، معذرة... إنني أتألم... قالت السيدة ذلك وهي تضم يديها أمامه في سورة مفاجئة من الانفعال.
- ما الأمر؟
- إنني أتألم... من فقدي الإيمان...
- أأنت لا تؤمنين بالله؟
- ليس هذا... إنني لا أجرؤ حتى أن أفكر في هذا. وإنما أنا أشك في الحياة الأبدية. ذلك لغز لم استطع أن أستبينه؟ وما من أحد، ما من أحد يستطيع أن يقدم لي جواباً عن هذه المسألة! اصغ إلي: أنت إنسان تشفي المرضى وتعرف أغوار النفوس. لست أطمع طبعاً في أن تصدقني تصديقاً كاملاً، ولكنني أؤكد لك، أقسم لك بأعظم ما في هذه الحياة، أنني لا أتكلم في هذه اللحظة طيشاً وخفة. صدقني: إن فكرة الحياة الآخرة هذه تؤلمني إلى حد العذاب، إلى حد الرعب، إلى حد اليأس... لا أدري إلى من يجب أن أتجه... لم أجرؤ أن أتجه إلى أحد طول حياتي... ولكنني أجازف الآن فأتجه إليك... يا رب! ما عساك تظن بي من ظنون؟ (قالت ذلك وهي تعقف يديها).
أجابها الشيخ قائلاً:
- لا تهتمي برأيي. أنا مقتنع بصدق ما تعانين من كرب.
- أشكر لك ذلك أعمق الشكر؟ إنني أغمض عيني وأفكر. أقول النفسي: «إذا كان جميع البشر يؤمنون، فمما ينشأ هذا؟ هناك من يذهب إلى أن كل هذا قد نشأ في البداية من الخوف الذي أحدثته في نفس الإنسان قوى الطبيعة العاتية، وأن لا شيء من ذلك موجود في الواقع». ثم أقول لنفسي عندئذ: «وإذن فإنني أنا التي آمنت طوال حياتي سأموت فما يبقى مني بعد الموت شيء، ما يبقى «إلا قليل من العشب على قبري»، كما قرأت هذا الكلام لكاتب من الكتاب»[45] ذلك أمر مرعب! فكيف، كيف أرتد إلى الإيمان؟ على أنني لم أؤمن إلا في طفولتي، وكان إيماني بغير شعور البتة، بغير تفكير قط... فكيف، كيف السبيل إلى البرهان على الحقيقة؟ لقد جئت أسألك في مذلة وتواضع أن تنيرني يا أبتاه فإذا أفلتت مني هذه الفرصة اليوم، فلن يستطيع أحد أن يجيبني في يوم من الأيام. ما السبيل إلى البرهان؟ بم يمكن أن أقتنع؟ ما أشقاني! إنني أنظر حولي فما أرى أحداً يقلقه هذا الأمر، وجميع الناس، أو جميع الناس تقريباً، لا يحفلون به ولا يكترثون له، وإنني الوحيدة التي لا تطيق احتمال هذا الشك. أمر رهيب، أمر رهيب.
- هو رهيب فعلاً.. ولكن لا سبيل في هذا المجال إلى برهان. ومع ذلك يستطيع الإنسان أن يصل إلى اليقين.
- كيف؟ بأي طريقة؟
- بمعاناة الحب الفعال. حاولي أن تحبي الأقربين حباً فعالاً بلا كلل. فكلما ازددت حباً ازددت اقتناعاً بوجود الله، وازددت اقتناع بخلود نفسك. متى وصلت إلى نسيان نفسك في حب الآخرين نسياناً تاماً، أصبح يقينك كاملاً فلم يساور نفسك بعد ذلك أي شك. تلك حقيقة مجرّبة مؤكدة.
- أتقول: الحب الفعّال؟ هذه مشكلة أيضًا، ويا لها من مشكلة!
انظر يا أبتاه: إنني أبلغ من حبي الإنسانية أنه يتفق لي في بعض اللحظات صدقني أن يخطر ببالي أن أدع كل شيء، وأن أنفصل حتى عن ليزا لأصبح ممرضة! إنني أغمض عيني، وأفكر، وأحلم، فأشعر في نفسي أثناء تلك اللحظات بقوة لا تغالب. ما من جروح ولا من قروح متقيحة يمكن أن تخيفني... أنا أشعر بأنني مستعدة لأن أضمدها، لأن أغسلها بيدي، وأتمنى لو أصبح حارسة للمرضى قرب هؤلاء الأشقياء، وأن أقبّل جراحهم...
- إنه لحسن جداً وجميل جداً أن ينصرف فكرك إلى هذه الأمور بدلاً من أن يفكر في أشياء أخرى كثيرة. بدأت أعتقد أنك ستنتهين في يوم من الأيام إلى أن تقومي بعمل جليل فعلاً.
تابعت السيدة تقول بحرارة وكأنها خارجة عن طورها حماسة:
- نعم، ولكن إلى متى أستطيع أن أحتمل مثل هذه الحياة؟ ذلك هو السؤال الأساسي! ذلك هو، بين جميع الأسئلة، السؤال الذي يعذبني أكثر من سائر الأسئلة. إنني أغمض عيني وأسأل نفسي: «أتراكِ تستمرين طويلاً في هذا الطريق؟ وما عساك تفعلين إذا لاحظت أن المريض الذي ستغسلين قروحه لا يُظهر لك امتنانه ولا يعبّر لك عن شكره فوراً، وإنما هو يرهقك بنزواته، دون أن يقدّر بل ودون أن يلاحظ إخلاصك للإنسانية المعذبة، وتفانيك في سبيلها؟ وما عساك تفعلين إذا هو ثار عليك، وأغلظ لك القول، أو شكاك إلى الإدارة (وذلك ما يفعله في كثير من الأحيان أولئك الذين يعانون آلاماً شديدة)؟ أتراك تستمرين في حبك أم لا تستمرين؟» هل تتصور؟ لقد قررت في دخيلتي بارتياع: «إذا كان هنالك شيء يمكن أن يطفئ جذوة حبي «الفعال» فوراً، فذلك الشيء إنما هو نكران الجميل». معنى هذا على وجه الإجمال أنني لا أقبل أن أفعل إلا بأجر، وأنني أطالب بأن يجزي حبي على الفور مديحاً وحباً. وما لم أنل هذا الجزاء، لا أستطيع أن أحب أي إنسان!
كذلك اتهمت المرأة نفسها في فورة صدق جامح، حتى إذا فرغت من كلامها حدّقت إلى الشيخ وقد بدا في وجهها عزم يوشك أن يكون تحدياً.
قال الشيخ:
- ذلك بعينه ما حدثني به طبيب منذ زمن طويل. كان رجلاً مسناً ينعم بحظ وافر من الذكاء. وكان يتكلم بصدق وإخلاص كما تتكلمين، ولئن تكلم مازحاً، لقد كان الحزن ظاهراً في مزاجه. قال:
«إنني أحب الإنسانية، غير أن هناك شيئاً في نفسي يدهشني: كلما ازداد حبي للإنسانية جملة واحدة، نقص حبي للبشر أفراداً، أي أشخاصاً لهم حياتهم الخاصة»، وقال هذا الطبيب أيضًا : «إنه ليتفق لي كثيراً أثناء اندفاعي في الأحلام أن تستبد بي حماسة شديدة ورغبة عارمة جامحة في خدمة الإنسانية، حتى لقد ارتضي أن أصلب في سبيل البشر إذا بدا هذا ضرورياً في لحظة من اللحظات. ومع ذلك لو أريد لي أن أعيش يومين متتاليين في غرفة واحدة مع أي إنسان، لما استطعت أن أحتمل ذلك. إني أعرف هذا بتجربة. فمتى وجدت نفسي قرب إنسان آخر أحسست بان شخصيته تصدم ذاتي وتجور على حريتي. إنني قادر في مدى أربع وعشرين ساعة على أن أكره أحسن إنسان: فهذا يصبح في نظري إنساناً لا يطاق لأنه مسرف في البطء في تناوله الطعام على المائدة، وهذا لأنه مصاب بزكام فهو لا ينفك يمخط. إني أصبح عدواً للبشر متى اقتربوا مني ولو قليلاً». وأضاف الطبيب يقول مؤكداً: «ولكنني لاحظت في كل مرة أنني كلما ازددت كرهاً للبشر أفراداً، ازدادت حرارة حبي للإنسانية جملةً».
- فما العمل في هذه الحالة؟ ما العمل؟ أليس هذا مدعاة لليأس تماماً؟
- كلا... إنه ليكفي أنك تتحسرين على ذلك. افعلي ما تستطيعين أن تفعلي، وسيحسب لك هذا. ولقد فعلت كثيراً ما دمت قد استطعت أن تقرئي في قلبك بهذا العمق كله وهذا الصدق كله! وإذا كنت لم تحدثيني بمثل هذا الصدق، حتى في هذه اللحظة، إلا لتسمعي مني ثناءً على حبك للحقيقة، كما فعلت ذلك، فإنك لن تصلي طبعاً إلى شيء على طريق الحب الفعال، وستضيع حياتك في أحلام أكثر. ولكن من المؤكد أنك ستنسين عندئذ قلقك بصدد الحياة الآخرة، بل وستنتهين إلى أن يهدأ بالك فيما يتعلق بهذا الأمر، بطريقة أو بأخرى.
- لقد دمرتني! الآن أدركت، في هذه اللحظة وحدها، حين سمعت كلامك، أنني كنت لا أتوق في الواقع إلا إلى سماع ثنائك على صدقي في الاعتراف لك بعجزي عن احتمال نكران الجميل. لقد نفذت إلى دخيلتي، وكشفت عن قرارة قلبي، وحملتني على أن أفهم نفسي بنفسي.
- أصحيح هذا الذي تقولين؟ إنني بعد اعترافك هذا قد اقتنعت بصدقك كل الاقتناع، وأيقنت بأن لك قلباً طيباً. فإذا لم تبلغي السعادة، فلا تنسي أنك سائرة في الطريق السليمة، فلا تحيدي عنها. واهربي من الكذب قبل كل شيء، أهربي من جميع أنواع الكذب، ولا سيما كذب الإنسان على نفسه. راقبي ذاتك وافضحي الكذب في نفسك كل ساعة، وكل لحظة. وتجنبي الاشمئزاز من الناس ومن نفسك على السواء: إن ما قد يبدو لك في طبيعتك شراً إنما يصفيه وينقيه ويطهره مجرد شعورك به. حاربي الخوف كذلك، وما الخوف على كل حال إلا ثمرة من ثمرات الكذب. لا يصدنّك عن ملاحقة الحب ما قد تثيره فيك عيوبك من رعب أو يأس، لا تدعي حتى الأفعالك السيئة نفسها أن تهزمك في هذا الكفاح. يؤسفني أنني لا أملك أن أقول لك شيئا فيه مزيد من التشجيع: إن الحب الفعال شيء قاس رهيب إذا قيس بالأحلام التي يحملها المرء عنه. إن من يحلم بالحب يشعر بظمأ إلى عمل مباشر بطولي يحققه بسرعة وينال به إعجاب الناس، حتى لقد

يصل بهذه الطريقة إلى التضحية بحياته راضياً شريطة أن لا يدوم الأمر زمناً طويلاً، وإنما يتم بسرعة، كما لو كان على مسرح تراه الأبصار وتمدحه الألسن. ولا كذلك الحب الفعال، فإنه يقتضي جهداً ويتطلب صبراً، وهو بالنسبة إلى بعضهم كالعلم يجب تحصيله. وثقي من ذلك أنك حتى في اللحظة التي ستلاحظين فيها مذعورة أن جميع جهودك ضاعت سدى بغير جدوى. فتعترفين بأنك قد ابتعدت عن الهدف بدلاً من أن تقتربي منه، ثقي أنك في تلك اللحظة نفسها تكونين في الواقع قد بلغت الهدف، وسترين عندئذ بوضوح كامل ما قد أحدثه الرب في نفسك من فعل هو المعجزة، فإن حب الرب يكون طوال تلك المدة قد شد أزرك وقاد خطاك وأرشدك إلى الصواب على نحو لا تعرفين سره.
معذرة إذا كنت لا أستطيع أن أبقى معك زمناً طويلاً، فإن هناك أناساً ينتظرونني. إلى اللقاء.
كانت السيدة تبكي. ثم هتفت تقول كأنما ثابت إلى نفسها على حين فجاة:
- ليزا، ليزا، لا تنس أن تباركها. باركها!
فقال الشيخ مازحاً:
- هي لا تستحق حتى أن تحب. لقد لاحظتُ كيف أنها لم تزد على أن تتسلى هنا. لماذا كنت تسخرين من أليوشا طول الوقت؟
كانت ليزا، فعلاً، قد انصرفت منذ البداية إلى لعب ماكر. لقد لاحظت منذ الزيارة الماضية أن أليوشا يضطرب. يحاول أن لا ينظر إليها، فكان هذا يسليها كثيراً. فهي اليوم ترقب نظرته وتترصدها بإلحاح. وإذ لم يستطع أليوشا أن يقاوم نداء العينين اللتين كانتا تحدقان إليه، فقد كان يرفع رأسه من حين إلى آخر رغم إرادته، كأن قوة عليا تحركه، فينظر إلى الفتاة هو أيضًا، فإذا بالفتاة تأخذ تضحك مثبتة نظرها عليه، فيضطرب أليوشا مزيداً من الاضطراب ويغضب. وانتهى أخيراً إلى أن أدار لها ظهره واختبأ وراء الشيخ. ولكنه التفت من جديد بعد بضع دقائق، بتأثير تلك القوة القاهرة نفسها، ليعرف ألا تزال الصبية تراقبه أم هي كفت عن ذلك، فإذا هو يلاحظ أن ليزا التي مالت عن كرسيها المتحرك حتى تكاد تخرج منه لتراقب الفتى بمزيد من الانتباه، كانت تنظر إليه من جانب، منتظرة بإلحاح شديد أن يرفع عينيه نحوها، فلما فاجأت نظرته إليها أخيراً انفجرت تضحك في قهقهة بلغت من الاندفاع المباغت أن الشيخ نفسه لم يحتملها، فقال للفتاة:
- لماذا تحاولين أن تضايقيه أيتها الصبية الشريرة؟ فاحمر وجه الفتاة على حين فجأة أحمراراً لم يكن في الحسبان، والتمعت عيناها، واكتسي وجهها هيئة الجد الشديد، وأجابت بغتة بلهجة عنيفة، وبعبارات سريعة عصبية:
- ولماذا نسي كل شيء؟ لقد لعبنا معاً حين كنت طفلة صغيرة، وكان يحملني بذراعيه، وكان يجيء في الماضي إلينا ليعلمني القراءة، هل تجهل ذلك؟ ومنذ سنتين فقط، أكد لي، حين ودعنا، أنه لن ينساني في يوم من الأيام وأننا سنظل صديقين دائماً إلى الأبد, وهذا هو الآن يشبه أن يكون خائفاً مني كأنني سأكله! لماذا لا يقترب مني؟ لماذا لا يكلمني؟ لماذا لا يجيء إلينا؟ أأنت الذي تمنعه؟ نحن تعلم مع ذلك أن في إمكانه أن يخرج بحرية، وليس عليّ أنا أن أناديه، وإنما واجبه هو أن يجيء، إذا كان لا يزال يتذكر. ولكن لا! هو يحقق لنفسه الأمن والسلام والخلاص، أليس كذلك؟ ولماذا ألبستموه ثوب الراهب هذا الطويل؟... إنه يتعرض للسقوط على الأرض إذا ركض...
قالت الفتاة ذلك ثم لم تستطع أن تتمالك نفسها فإذا هي تغطي وجهها بيدها على حين فجأة وتنفجر ضاحكة ضحكة كبيرة هي ضحكتها الطويلة العصبية التي لا تستطيع مغالبتها والتي تهزها هزة قوية دون أن تكون صاخبة كثيراً.
أصغى الشيخ إليها مبتسماً، ثم باركها في حنان. فتناولت يده لتقبلها، وشدتها فجأة إلى عينيها وأخذت تبكي قائلة:
- لا تغضب مني. ما أنا إلا حمقاء لا أساوي شيئاً... ولا شك في أن أليوشا على حق... إنه على حق حين لا يريد أن يهتم بأمر صبية سخيفة هذا السخف كله.
قرر الشيخ في سره:
- سأرسله إليهم حتماً.

- 5 – لتكن مشيئة الرب

طال غياب الشيخ قرابة خمس وعشرين دقيقة. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة والنصف ولما يصل بعدُ دمتري فيدوروفتش الذي عقد هذا الاجتماع من أجله. وكان يبدو أنهم قد نسوه، حتى إن الشيخ حين عاد إلى صومعته، وجد ضيوفه غارقين في مناقشة حامية جداً. إن المناقشة تدور بين إيفان فيدوروفتش والراهبين الكاهنين. أما ميوسوف فهو يتدخل في المناقشة في كثير من الأحيان، بل وبكثير من الحرارة، ولكنه لم يحالفه التوفيق في هذه المرة أيضًا، فهو يظل في الدرجة الثانية، والمتناقشون يجيبونه بغير اهتمام، فكان هذا يزيد حنقه ويفاقم غيظه. لقد سبق له أن تنافس مع إيفان فيدوروفتش في ميدان سعة الاطلاع والمعرفة. فلم يستطع أن يطيق ذلك الازدراء الخفيف الذي أظهره له إيفان. كان يحدث نفسه قائلاً: «كنت أعتقد، حتى الآن على الأقل، أنني في مستوى كل ما يشكل التقدم في أوروبا، ولكن هذا الجيل الجديد يظهر أنه يتجاهلنا عامداً»، وأما فيدور بافلوفتش فكان قد آل على نفسه أن لا يتحرك من مكانه، وأن لا ينطق بكلمة واحدة، لذلك ظل صامتاً بعض الوقت، ملاحظاً مع ذلك جاره بيتر ألكسندروفتش، مبتسم ابتسامة هزء وسخرية، مبتهجاً بما يراه فيه من حنق وغيظ. إنه يفكر في أن يثأر لنفسه منذ مدة طويلة، ولا يريد أن يفوت فرصة جميلة كهذه الفرصة. وإذ أصبح لا يطيق صبرة، فقد مال على كتف جاره وعاد يمطره بسخرياته من جديد، متكلماً بصوت خافت:

- لماذا لم تنصرف منذ قليل، بعد تلك القصة التي رويت عن القديس الذي قطعت عنقه والقبلات التي طبعها على رأسه؟ لماذا رضيت أن تبقى في صحبة أناس يبلغون ما أبلغه أنا من قلة الاحتشام وسوء الأدب؟ سأذكر لك السبب: إنك قد بقيت لأنك شعرت بمذلة وإهانة، فأنت تنتظر اللحظة التي تثار فيها لنفسك بإظهار ذكائك، وإني لأراهن على أنك لن تبارح هذا المكان قبل أن تظهر ذكاءك لهم.

- استأنفت ثرثرتك؟ سوف أنصرف، بل سوف أتصرف فوراً.

حاول فيدور بافلوفتش أن يخزه من جديد قائلاً:

- دعك من هذا! لسوف تبقى إلى النهاية، ولن تنصرف إلا آخر المنصرفين! وفي تلك اللحظة نفسها تقريباً إنما رجع الشيخ إلى الحجرة.

توقفت المناقشة لحظات، ولكن الشيخ، بعد أن جلس في مكانه السابق، ألقى على المتناقشين نظرة لطيفة رضية كأنما ليشجعهم على مواصلة المناقشة. ولاحظ أليوشا الذي كان قد درس جميع تعابير وجه الشيخ، لاحظ فوراً أن الشيخ منهوك القوى وأنه يتحامل على نفسه ويكلفها من أمرها عسراً في سبيل أن يتغلب على تعبه. إن المرض قد أحدث للشيخ في الآونة الأخيرة عدة غيبوبات من شدة الضعف: وها هي ذي صفرة شبيهة بالصفرة التي تسبق حالات الغيبوبة هذه عامة، ها هي ذي تغشى وجه الشيخ الآن، وها هما شفتاه تبيضان. وكان واضحاً مع ذلك أن الشيخ لا يرغب في أن يختم هذا الاجتماع. لا بد أن هناك سبباً يدعوه إلى ذلك. ولكن ما هو هذا السبب؟ كان أليوشا يلاحظ الشيخ بانتباه شديد.

قال الراهب الكاهن يوسف، وهو قيم مكتبة الدير، قال يشرح وهو يشير إلى إيفان فيدوروفتش:

- كنا نتكلم عن المقالة الشائقة جداً التي نشرها هذا الشاب. لقد أورد آراء أصيلة في عدد من النقاط، غير أن بعض آرائه يبدو ذا حدين. والموضوع هو موضوع القضاء الإكليركي ومدى الصلاحيات التي يجب أن يُعطاها. كان أحد رجال الدين قد نشر كتاباً ضخماً في هذه المسألة[46]، فرد عليه هذا الشاب بمقالة نشرها في مجلة...

أجاب الشيخ وهو يلقي على إيفان فيدوروفتش نظرة طويلة متفرسة:

- يؤسفني أنني لم أقرأ مقالتك، ولكنني سمعت عنها.

استأنف الأب قيّم المكتبة كلامه يقول:

- إن هذا الشاب يدافع عن نظرية شائقة حقاً، وكأنه حين يعالج مشكلة القضاء الإكليركي، يدحض مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة.

قال الشيخ يسأل إيفان فيدوروفتش:

- هذه في الحق فكرة شائقة، ولكن بأي معنى تفهمها؟

فأجابه إيفان بعد بضع لحظات من صمت، فلم يصطنع في جوابه ذلك التعالي الذي يشتمل على احترام مهذب، وهو ما كان يخشاه أليوشا حتى الليلة البارحة، وإنما تكلم بلهجة فيها تواضع وتحفظ، وفيها تقدير واعتبار، ولا أثر فيها لأية فكرة مبيتة أو حكم سابق. قال:

- إن فكرتي هي أن الجمع الذي يفرضه هوانا بين العنصرين، أي بين جوهر الكنيسة وجوهر الدولة، سيظل قائما إلى الأبد ولا شك، رغم أنه مستحيل سويّة بين السلطتين، بل ولا إلى مصالحة تكون بقدر ما لها حظ من النجاح. ولا يمكن أبداً أن يؤدي إلى جعل العلاقات بينهما تتساوى. والواقع أن الكذب هو الأساس الذي تقوم عليه المسألة. وعندي أن تسوية بين الدولة والكنيسة في مسائل كمسألة القضاء مثلاً. أمر مستحيل ولا يمكن تخيله إطلاقاً. إن رجل الإكليروس الذي انتقدت نظرياته قد ذهب إلى أن الكنيسة تحتل في داخل الدولة مكاناً معيناً واضح الحدود. فأجبته بأنني، من جهتي، أرى أن الكنيسة يجب، على عكس رأيه تماماً، أن تستغرق الدولة كلها وأن لا تكتفي بمأوى بسيط نعتصم به في داخل التنظيم الاجتماعي. وأضفت إلى ذلك قولي إنه إذا تعذر الوصول إلى هذا الهدف في الظروف الحالية لسبب من الأسباب، فيحسن أن تنظر إليه على أنه الغاية الضرورية التي يجب على المجتمع المسيحي أن يتجه إليها بكل قواه أثناء تطوره المقبل.

قال الأب بائيسي الراهب الكاهن، العلّامة الشديد الصمت، قال بصوت قاطع جازم ولكنه لا يخلو من عصبية:

- هذا صحيح تماماً!

فصاح ميوسوف يقول وهو يضع ساقاً على أخرى بحركة تدل على نفاد الصبر:

- ولكن هذا ليس إلا عقيدة اولترامونتانية[47].

فانطلق الأب يوسف قائلاً:

- دعك من هذا الكلام! نحن ليس لدينا في روسيا حتى جبال! ثم استأنف بعد ذلك يقول متجهاً إلى الشيخ:

- إن هذا الشاب قد أورد الردود التالية، فيما أورد من ردود على آراء خصمه - ولاحظوا أن خصمه عضو من أعضاء الإكليروس - وهي آراء يعدها خصمه «جوهرية وأساسية»: الرأي الأول أو الموضوعة الأولى: «ما من رابطة اجتماعية يجوز لها أو يجب عليها أن تدعي لنفسها حق التصرف في الحقوق المدنية والسياسية لأفرادها» ؛ الموضوعة الثانية: «إن حق القضاء الجنائي والمدني يجب أن لا ينتمي إلى الكنيسة، لأنه يتنافى مع ماهيتها كمؤسسة دينية ويتنافى أيضًا مع صفتها كتنظيم إنساني وجد لتحقيق أهداف دينية»، الموضوعة الثالثة والأخيرة: «إن الكنيسة هي مملكة ليست من هذا العالم»...

فقال الأب بائيسي يندخل مرة أخرى وقد بدا عليه الاستياء واضحاً:

- ذلك لعب بالألفاظ لا يليق في رأيي بعضو من أعضاء الإكليروس! لقد قرأت الكتاب الذي رددت عليه، وقد أدهشني أن أرى مؤلفه يقول: «إن الكنيسة هي مملكة ليست من هذا العالم». ذلك أنها إن لم تكن تنتمي إلى هذا العالم فمن البديهي أنها لن يمكن عندئذ أن توجد في هذا العالم على أية صورة من الصور. وليس هذا هو المقصود إطلاقاً من التعبير «ليست من هذا العالم الوارد في الإنجيل المقدس»[48]. إن سيدنا يسوع المسيح إنما جاء ليقيم الكنيسة على الأرض. صحيح أن ملكوت السماوات لا ينتمي إلى هذا العالم، لأنه في السماء، ولكن دخول ملكوت السماء لا يكون إلا عن طريق الكنيسة التي أقيمت في الأرض. لذلك يجب أن نعد هذا التلاعب بالألفاظ المصطبغ بالروح العصرية أمراً لا يليق استعماله ولا يمكن قبوله في هذا المجال. إن الكنيسة هي في الواقع مملكة. وإن رسالتها هي أن تسود وأن تحكم، وستشمل مملكتها الأرض كلها أخيراً، وذلك ما جاء في النبوءة على كل حال...

قال الأب بائيسي ذلك ثم صمت فجأة كأنما هو يمسك عن الكلام عامداً. وكان إيفان فيدوروفتش يصغي إلى كلامه بانتباه فيه كثير من الاحترام، فاستأنف حديثه متجهاً إلى الشيخ قائلاً بهدوء عظيم ولهجة رصينة باشة طيبة:

- إن الفكرة الأساسية التي تجمل مقالتي كلها هي أن المسيحية كانت في الأزمنة القديمة، أي طوال القرون الثلاثة الأولى من قيامها، كانت كنيسة فحسب، وكانت لا تطمع في أن تصبح أكثر من ذلك. ولكن حين قررت الدولة الوثنية التي هي الدولة الرومانية أن تعتنق الديانة المسيحية[49]، فإن الذي حدث بالضرورة هو أنها حين أصبحت مسيحية قد احتوت الكنيسة واستوعبتها مع بقائها وثنية في كثير من النواحي. ولم يكن من الممكن أن يحدث غير هذا على كل حال. فإن روما من حيث هي دولة سياسية قد احتفظت بعناصر كثيرة مستمدة من الحضارة الوثنية والحكمة الوثنية، ولا سيما فيما يتعلق بأهداف الدولة وأسسها نفسها. وكان طبيعياً أن لا تستطيع الكنيسة المسيحية حين دخلت في الدولة أن تضحي بأي مبدأ من مبادئها، ولا أن تترك أي جزء من الصخرة التي بُنيت عليها.

كانت الكنيسة المسيحية لا تستطيع إلا أن تتابع أهدافها الخاصة كما رسمها لها الرب نفسه، وهي امتصاص الكنيسة للعالم بأسره وللدولة الوثنية القديمة تبعاً لذلك. ويترتب على هذا (أي بغية بلوغ أهداف المستقبل) أن الكنيسة ليست هي التي يجب عليها أن تسعى إلى احتلال مكان معيّن في داخل الدولة، «ككل رابطة اجتماعية أخرى» أو «ككل تنظيم إنساني وجد لتحقيق أهداف دينية» (وذلك ما يقوله في موضوع الكنيسة مؤلف الكتاب الذي انتقدته)، بل العكس هو الصحيح، فإن كل دولة من الدول الأرضية يجب عليها أن تستحيل في خاتمة المطاف من تطورها إلى كنيسة، وأن لا تصبح إلا كنيسة، متنازل عن أهدافها الخاصة حين لا تتفق وأهداف الكنيسة. وهذا التحول لن يغضّ من قيمة هذه الدولة ولن ينتقص من شأنها، ولن يفقدها شيئاً من كرامتها ومجدها من حيث هي دولة كبرى، لا ولن يسيء إلى ما يتمتع به ملوكها وقادتها من بريق اجتماعي، وكل ما هنالك أنه سيخرج هذه الدولة من طريق الضلالة والوثنية الذي سارت فيه، وسيضعها في الاتجاه السليم الرشيد، الاتجاه الوحيد الذي يمكن أن يؤدي إلى تحقيق الغايات الأبدية. لذلك أقول إن مؤلف كتاب «أسس القضاء الإكليركي في داخل المجتمع» كان عليه حين بحث عن هذه الأسس وحاول استخلاصها، أن لا يعدها إلا تسوية مؤقتة، تسوية لا بد منها ولا محيص عنها في هذا العالم الذي ما يزال في حالة الخطيئة ولمّا يبلغ بعد خاتمة المطاف من تطوره. أما أن يتورط مؤلف هذا الكتاب فيزعم أن هذه الأسس التي عرضها والتي عدّد لنا الأب يوسف بعضها منذ هنيهة هي بطبيعتها نفسها أبدية ثابتة كالكون نفسه، فإنه يناقض عندئذ حقيقة الكنيسة، ويعارض رسالتها المقدسة الأبدية التي يجب أن لا تُمس. ذلك كل ما قلته في مقالتي التي أوجزتها لكم إيجازاً وافياً.

قال الأب بائيسي يتدخل مرة أخرى مشدّداً على كل كلمة من كلماته:

- الخلاصة إذن أن بعض النظريات الشائعة كثيراً في قرننا التاسع عشر هذا تريد للكنيسة أن تستحيل إلى دولة، منتقلة من مرحلة دنيا إلى مرحلة عليا إن صح التعبير، وأن تذوب في الدولة، بعد أن أخلت المكان للعلم وروح العصر والحضارة، فإذا هي رفضت هذا مع ذلك، وقاومت هذا التحول، عُرض عليها عندئذٍ مكان محدود تلوذ به وتأوي إليه، تحت رقابة الدولة، كما يحدث اليوم في أكثر البلاد الأوروبية. أما النظرة الروسية، أما عقيدتنا فهي ترى أن الكنيسة ليس عليها هي أن تستحيل إلى دولة كما يتم الانتقال من صورة دنيا إلى صورة عليا من صور الوجود، وإنما الدولة هي التي يجب عليها أن تحاول أن تصير أخيراً إلى كنيسة وأن لا تكون شيئاً غير ذلك. هذا ما هو الصحيح! ألا فلتكن مشيئة الرب!

قال ميوسوف ساخراً وهو يضع ساقاً على ساق مرة أخرى، ولكن في اتجاه معاكس:

- أعترف لك بأنك قد رددت إليّ شجاعتي: إذا صح فهمي فأنت ترى أن المسألة مسألة مثل أعلى يجب الوصول إليه في زمن مقبل ما يزال بعيداً كل البعد، وربما امتد إلى يوم عودة المسيح. لك ما تشاء! ذلك حلم طوباوي جميل حول زوال الحروب والدبلوماسية والبنوك، إلخ، بل إن هذا حتى يذكّر بالاشتراكية بعض الشيء. لقد كنت أخشى في البداية أن يكون كل هذا أمراً جدياً، وأن الكنيسة ستقضي، منذ الآن، في الأمور الجزائية مثلاً فتصدر أحكاماً بالجلد والأشغال الشاقة وربما بالإعدام!

استأنف إيفان فيدوروفتش كلامه هادئاً بغير تعثر، فقال:

- حتى لو كانت المحاكم الإكليركية هي السلطة القضائية الوحيدة، فإن الكنيسة لن تصدر أحكاماً بالإعدام أو بالأشغال الشاقة. إن صفة الجريمة وطريقة معالجتها تتبدلان عندئذ حتماً، لا دفعة واحدة وفي الوقت الحاضر بطبيعة الحال، بل شيئاً فشيئاً وبسرعة كافية مع ذلك...

قال ميوسوف وهو يحدق إليه بنظرة نافذة:

- أأنت جاد فيما تقول؟

فتابع إيفان فيدوروفتش كلامه قائلاً:

- يوم تحتوي الكنيسة المجتمع بأسره فإنها سوف تحرم الخطأة والعصاة، ولكنها لن تقتل أحداً. قل لي: ما عسى يصير إليه المحروم، وأين عساه يعتصم؟ لسوف يكون عليه أن يقطع صلته لا بالبشر فحسب كما هو الحال اليوم، بل بالمسيح أيضًا . وستجعله جريمته عندئذ عدواً للإنسانية وعدواً لكنيسة المسيح. وإن الأمر لكذلك اليوم أيضًا، إذا نحن نظرنا في أعماق الأمور، ولكننا لا نعترف بهذا صراحةً. إن المجرم يجد اليوم، في حالات كثيرة جداً، سبيلاً إلى إرضاء ضميره، فهو يقول لنفسه: «صحيح أنني سرقت، ولكنني لم أناصب الكنيسة العداء... إنني لست عدو المسيح». هكذا يفكر المجرم في كثير من الأحيان في عصرنا هذا. أما يوم تحل الكنيسة محل الدولة فسوف يصعب عليه أن يفكر هذا التفكير وإلا كان ينكر سلطة كل كنيسة في هذا العالم، قائلاً: «البشر جميعاً على ضلال، هم جميعاً انحرفوا، إنهم الكنيسة الزائفة، وأنا وحدي أنا القاتل أو السارق أنا وحدي الكنيسة المسيحية الحق». وذلك موقف يصعب جداً اتخاذه، اللهم إلا بتضافر ظروف شاذة لا يعقل أن تتوافر. وانظر الآن من جهة أخرى إلى مفهوم الكنيسة للجريمة: أليس هذا المفهوم خليقة بأن يتغير من المفهوم الحالي، الوثني تقريباً، الذي يقضي بالبتر الميكانيكي لعضو المريض، كما يفعل اليوم لحماية المجتمع، وبأن يتجسد تجسداً تاماً وغير كاذب في فكرة خلق الإنسان خلقاً جديداً وبعثه وخلاصه...

قاطعه ميوسوف سائلاً:

- إلى ماذا تريد أن تخلص من هذا؟ لقد أصبحت مرة أخرى لا أفهمك. إنه حلم آخر. شيء غامض لا شكل له، بل لا سبيل إلى فهمه. عن أي حرمان تتكلم، ما هذا الحرمان؟ إنني أتساءل ألست تسخر منا وتضحك علينا لا أكثر من ذلك، يا إيفان فيدوروفتش؟

هنا انبرى الشيخ فجاة للكلام، فالتفت الجميع إليه بحركة واحدة، قال:

- ولكن هذا هو ما يحدث في الواقع الآن أيضًا . ذلك أنه إن لم توجد اليوم كنيسة للمسيح فإن المجرم لن يرتدع عن جريمته، لا ولن يعاقب بعد جريمته، وأقصد بالعقاب هنا العقاب الحقيقي لا العقاب الميكانيكي فحسب، كما قيل منذ هنيهة. فذلك العقاب لا يزيد على أن يهيج النفس في أكثر الحالات، أما العقاب الحق، العقاب الذي يخيف ويهدئ في آن واحد، العقاب الوحيد الناجح المجدي، فهو حكم الضمير على صاحبه.

قال ميوسوف يسأل باستطلاع حار عنيف:

- كيف هذا؟ هلا شرحته لنا؟

قال الشيخ:

- انظر. إن إرسال المحكومين إلى سجون الأشغال الشاقة، وما يضاف إليه قبل هذا الإرسال من تعذيب جسدي، إن ذلك كله لم يُصلح أحداً، وهو على وجه الخصوص لا يخيف المجرمين، باستثناء عدد قليل منهم. فعدد الجرائم لم ينقص، بل إنه ليزداد. لا تستطيع أن تعترض علي في هذه النقطة. يترتب عن ذلك أن هذه الأساليب لا تحمي المجتمع البتة. فالعضو الضار الذي يحذف من المجتمع بهذه الطريقة الميكانيكية فيرسل إلى مكان بعيد ويغيب عن الأنظار، ما يلبث أن يحل محله مجرم آخر أو مجرمان آخران. فإذا رأينا المجتمع مع ذلك محمياً حتى في الوقت الراهن، وإذا رأينا أن المجرم نفسه يملك اليوم أن يصلح نفسه وأن ينبعث إنسانة جديدة، فالفضل في ذلك إنما يرجع هنا أيضًا إلى قانون المسيح على نحو ما رسخ في قرارة ضميرنا. إن اعتراف المجرم بذنبه كابن من أبناء المجتمع المسيحي، أي كابن من أبناء الكنيسة، هو السبيل الوحيد إلى شعوره بأنه آثم في حق المجتمع أي في حق الكنيسة. فإزاء الكنيسة وحدها لا إزاء الدولة إنما يمكن أن يشعر المجرم الحديث بأنه مذنب. فإذا تمت ممارسة حق القضاء باسم المجتمع أي باسم الكنيسة، عرف المجتمع عندئذ من هم الذين يستحقون أن ينتهي حرمانهم ويستحقون أن يرجعوا إليه. إن الكنيسة التي لا تملك الآن أي سلطة قضائية فعّالة ولا تملك أن يكون لها تأثير أو نفوذ إلا بالإدانة الروحية، لا يهمها العقاب الفعلي الذي يتم إنزاله في المجرمين. إنها لا تطرد هؤلاء الجناة من حضنها، بل تظل تحدب عليهم حدب الأب على أبنائه، وأكثر من ذلك إنها تحاول أن تحافظ معهم على جميع الصلات التي تشد المؤمنين إلى الكنيسة وتربطهم بها؛ إنها تقبل أن يدخلوا الكنيسة ويشاركوا في الصلاة ولا تضن عليهم بتناول القربان المقدس. إنها لا تحرمهم من إحسانها، وتعاملهم كسبايا أكثر مما تعاملهم معاملة جناة. وما عسى يقع لهؤلاء المجرمين، يا رب، لو أن المجتمع المسيحي، أي لو أن الكنيسة نبذتهم كما نبذهم قانون الجزاء وفصلهم عن سائر البشر! ما عسى يحدث لو أن الكنيسة تعاقبهم هي أيضًا، فتحرمهم فورا كلما حكم عليهم قانون الدولة؟ من المستحيل تخيل انحدار إلى الدرك الأسفل من اليأس الكامل كالانحدار الذي يمكن أن يهوي إليه هؤلاء الجناة في مثل هذه الحالة، ولا سيما إذا كانوا من الروس، لأن الجناة الروس ما يزالون محافظين على إيمانهم! ومن ذا الذي يضمن أن لا يحدث عندئذ شيء رهيب، إلا وهو فقد الإيمان من قلوب الجناة اليائسة؟ ولكن الكنيسة تتصرف معهم تصرف أم حنون رؤوف، وهي تعزف عن معاقبتهم في الواقع، لأنها ترى أنهم، حتى دون أن تعاقبهم هي، قد نالتهم عدالة الدولة بعقاب قاس، فهم في حاجة إلى أحد تأخذه بهم شفقة على الأقل. وهي تمتنع عن معاقبتهم خاصة لأن عدالة الكنيسة هي العدالة الوحيدة القائمة على الحقيقة، فلا يمكنها والحالة هذه أن تتعاون معنوياً وعملياً مع أي قضاء آخر ولو على صورة تسوية مؤقتة. ولا سبيل إلى أي تنازل في هذه النقطة. إن المجرمين لا يشعرون في البلاد الأخرى بالندم والتوبة إلا نادرًا فيما يقال، لأن المذاهب الحديثة الرائجة هناك لا تستطيع إلا أن تعزز شعورهم بأن الجرائم التي ارتكبوها ليست جرائم، وإنما هي أعمال تمرد على القوى التي تضطهدهم ظلماً وعدوانًا، فالمجتمع ينبذهم من حضنه آلياً، ويغلبهم

على أمرهم بقوته الظافرة، وهو يشفع هذا الإبعاد للمجرمين (هذا على الأقل ما يقوله في أوروبا كتاب تلك البلاد) يشفعه بكره لهم ولا يحفل بمصيرهم وينساهم نسياناً تاماً مع أنهم إخوتنا على كل حال. فكل شيء يجري إذن دون أي عطف من الكنيسة، لأن الكنيسة أصبحت لا وجود لها في عدد من تلك البلاد التي لم يبق فيها إلا رجال الإكليروس ومباني دينية رائعة. أما الكنائس بالمعنى الحقيقي فقد سارت منذ زمن طويل في طريق يجب أن ينقلها من مرحلة يقال إنها دنيا، وهي مرحلة الجماعة الإكليركية، إلى المرحلة التي يُزعم أنها عليا وهي مرحلة الدولة، بغية أن تغرق فيها غرقًا كاملًا. تلك هي على الأقل حالة البلدان اللوثرية فيما يظهر. أما في روما فقد أقيمت الدولة مقام الكنيسة[50] منذ ألف سنة. لذلك لا يشعر المجرم هناك بأنه عضو في الكنيسة، فهو حين ينبذه المجتمع يهوي إلى قاع اليأس. فإذا اتفق له أن يعود بعد ذلك إلى المجتمع، فإنه في كثير من الأحيان يظل يشعر نحو هذا المجتمع بكره يبلغ من القوة أن المجرم هو الذي ينبذ المجتمع في هذه المرة. وفي وسعكم أن تتخيلوا إلى أين يؤدي هذا. قد يتراءى أن الأمور تجري على هذا النحو غالبًا في بلادنا أيضًا . ولكن الفرق بين بلادنا والبلاد الأخرى هو أن بلادنا ما يزال فيها، عدا المحاكم النظامية، كنيسة لا تفقد اتصالها أبداً بالمجرم، لأنها تعده ابنًا عزيزًا لها ما يزال جديرًا بالحب. هذا إلى أننا احتفظنا بالعدالة الإكليركية ولو فكريًا، ولئن أصبحت هذه العدالة الآن غير فعالة، فهي ما تزال موجودة للمستقبل ولو كحلم فقط، والمجرم نفسه يعترف بسلطتها في قرارة نفسه حتمًا. وإنه لصحيح كل الصحة أيضًا، كما قيل هذا منذ هنيهة، أنه إذا استطاعت عدالة الكنيسة أن تؤكد نفسها في الواقع بكل قوتها، أي إذا استحال المجتمع كله إلى كنيسة، فإن المحاكم الإكليركية ستساهم في إصلاح المجرمين مساهمة لا وجود لها الآن إطلاقًا، بل ربما نقص عدد الجرائم كذلك نقصًا كبيرًا. إن الكنيسة نفسها - وهذا أمر مؤكد - ستستطيع عندئذ أن تنظر إلى الشخص الذي سيرتكب الجريمة في المستقبل، وإلى الجريمة القادمة، نظرة مغايرة في كثير من الأحوال عن نظرتها إليهما اليوم، وسيكون في وسعها أن ترجع بالمنبوذين إليها، وأن تهدي الضّالّين، تمنع أولئك الذين ينوون أن يرتكبوا عملًا سيئًا عنه، وأن تُنهض أولئك الذين سقطوا.

وأضاف الشيخ يقول وهو يضحك ضحكة صغيرة:

- صحيح أن المجتمع المسيحي ما يزال حتى الآن غير مهيأ، وأنه غير باقٍ إلا بفضل الصالحين السبعة، ولكن هؤلاء لا يمكن أن يزولوا، والمجتمع المسيحي يقوم عليهم قيامه على أعمدة راسخة وطيدة بانتظار أن يتحول تحولًا كاملًا، فلا يبق مجتمعًا أي تنظيمًا إنسانيًا يشبه أن يكون وثنيًا حتى الآن، وإنما يصير كنيسة واحدة شاملة كلية تحكم الجميع. هذا ما يجب أن يكون وهذا ما سيكون، ولو في آخر الزمان، لأنه قد أريد وحُدّد منذ الأزل. وما ينبغي أن يقلقنا طول الانتظار وبطء الزمن، ما دام مفتاح العصور بيد الرب، وما دام الرب يرتب تعاقبها بحكمته وطيبته. وسابق علمه. ذلك أن ما يبدو أنه ما يزال بعيدًا جدًا في تقدير البشر قد يكون بحكم المشيئة الإلهية على عتبة باب ظهوره يوشك أن يعبرها. هذا ما سيكون، فلتكن مشيئة الربّ.

قال الأب بائيسي مؤيدًا في رصانة ووقار:

- فلتكن مشيئة الربّ!

قال ميوسوف بحرارة يغلب عليها استياء مكتوم:

- هذا غريب، غريب إلى أبعد حدود الغرابة!.

فسأله الأب يوسف قائلًا بحذر:

- ما هو الشيء الذي تراه في هذا الكلام غريبًا هذه الغرابة كلها؟ فهتف ميوسوف يقول منفجرًا على حين بغتة:

- شيء عجيب كل العجب. يزيلون الدول القائمة ليشيدوا في مكانها الكنيسة كدولة! ليس هذا عقيدة أولترامونتانية فحسب، بل هو تطرف في هذه العقيدة! إن البابا جريجوري السابع نفسه ما كان له أن يحلم بشيء من هذا القبيل[51]!.

قال الأب بائيسي بصوت خشن:

- الأمر نقيض ما ترى تمامًا! نحن لا نعتقد أن الكنيسة هي التي يجب أن تستحيل إلى دولة، فافهم رأينا حق فهمه. إن ذلك الحلم هو حلم روما حقًا، وهو ثالثة غوايات الشيطان! وإنما رأينا عكس هذا الرأي، فالدولة هي التي يجب أن تتحول إلى كنيسة، هي التي يجب أن ترتقي إلى حيث تصبح الكنيسة الكلية الشاملة على الأرض، وذلك نقيض ما تراه روما، نقيض العقيدة الأولترامونتانية، نقيض التأويل الذي تؤوله أنت، وهو بعينه الرسالة الكبرى التي تحملها الأرثوذكسية إلى الأرض. في سماء الشرق ستطلع هذه النجمة.

الزم ميوسوف صمتًا وقورًا. كان شخصه كله يعبر في هذه اللحظة عن شعور خارق بمهابته وكرامته. وارتسمت على شفتيه ابتسامة كبرياء تصطنع التواضع. وكان أليوشا يشهد هذه المناقشة ويتابع جميع تفاصيلها، خافق القلب. لقد هزت هذه المناقشة جميع جوراحه. ووقع بصره عرضًا عل راكيتين الذي لم يكن قد تحرك من مكانه والذي كان ما يزال واقفًا قرب الباب يسمع كل شيء بإصغاء، ويلاحظ كل شيء بانتباه، رغم أنه غاض بصره. ومع ذلك فإن أليوشا إذ لاحظ لون خديه أدرك أن راكيتين لم يكن أقل منه اضطرابًا لهذه المناقشة، وحزر الخواطر التي كانت تبث فيه هذا الاضطراب.

قال ميوسوف فجأة بلهجة فيها سلطة، وهيئة فيها تعاظم:

- اسمحوا لي أيها السادة أن أقص عليكم حكاية قصيرة. حين كنت في باريس منذ بضع سنين، بُعيّد الانقلاب الذي وقع في شهر ديسمبر[52]، حدث أن زرت في يوم من الأيام أحد معارفي، وهو شخصية ذات نفوذ، ذات نفوذ عظيم، كانت تتولى في ذلك الوقت وظائف حكومية. فالتقيت عند تلك الشخصية بسيد عجيب أمره. لم يكن هذا السيد من رجال المباحث بمعنى الكلمة، ولكن يظهر أنه كان يدير جهازًا كبيرًا من أجهزة الشرطة السياسية - ومعنى هذا أنه شخصية كبيرة في ذاتها. انتهزت الفرصة فدخلت في حديث مع هذا الرجل، تدفعني إلى ذلك رغبة قوية في الاطلاع. وإذ لم يكن عند رب الدار عندئذ بصفته زائرًا بل بصفته مرؤوسًا يقدم تقريرًا، فإنه وقد لاحظ حفاوة رئيسه بي، قد شرفني بأن تحدّث معي بنوع من الصراحة. طبعًا لم ينفتح لي إلا إلى حدّ، وكان أقرب إلى الملاطفة منه إلى المصارحة، وهي تلك الملاطفة المعهودة في الفرنسيين، ولا سيما مع الأجانب. ولكنني استطعت أن أرى ما يقصده. لقد دار الحديث على الاشتراكيين الثوريين، الذين كانوا يضطهدون في ذلك الوقت على كل حال. ولست أحب أن أتعرض الموضوع الحديث الذي دار بيني وبينه، أقتصر على أن أذكر لكم فكرة عجيبة جدا أفلتت من لسان هذا السيد الصغير على حين فجأة، قال يسر إلي:

الحق أننا لا نخشاهم كثيرًا، هؤلاء الاشتراكيين من الفوضويين والملحدين والثوريين. نحن نراقبهم عن كثب ونعرف أعمالهم وحركاتهم. غير أن بينهم رجالًا من طراز خاص، وإن لم يكن عددهم كبيرًا جدًا: أولئك هم المؤمنون، المسيحيون، والاشتراكيون في الوقت ذاته. نحن نخشى هؤلاء اكثر من أي أحد آخر. هؤلاء أناس خطرون جدًا! «إن رجلًا يجمع بين الاشتراكية والمسيحية معًا لهو أخطر كثيرًا من اشتراكي ملحد». لقد فجأتني هذه الفكرة كثيرًا آنذاك، وقد تذكرتها الآن هنا، أيها السادة، لا أدري لماذا...

سأله الأب بائيسي فجأة بغير لف أو دوران:

- هل تريد أن تقول إن هذه الفكرة تصدق علينا وإننا في نظرك اشتراكيون؟

ولكن قبل أن يهتدي بيتر الكسندروفتش إلى جواب يقوله، فُتح الباب وظهر دمتري فيدوروفتش بعد تأخر طويل جدًا. كان الجميع قد أوشك أن يكف عن توقع وصوله، حتى إن ظهوره المفاجئ هذا قد أحدث فيهم شيئًا من دهشة.

- 6 -لماذا يجب أن يعيش مثل هذا الرجل؟

إنَّ دمتري فيدوروفتش، وهو شاب في الثامنة والعشرين من عمره، متوسط القامة لطيف الوجه، يبدو في الواقع أكبر من سنه، نامي العضلات، فإذا رآه الرائي أدرك أن له قوة جسمية كبيرة، ومع ذلك فإن في قسمات وجهه شيئًا مرضيًا. هو نحيل المحيا خاسف الخدين، في لونه انعكاسات عليلة ضاربة إلى صفرة. وفي عينيه القاتمتين الواسعتين الجاحظتين تعبيرًا غامضًا مبهمًا، رغم أن نظرته تبدو حازمة واثقة، وحتى حين يخرج عن هدوئه ويتكلم هائجًا، فإن نظرته تبدو كأنها لا تطاوع حالته النفسية. وإنما هي تفصح في كثير من الأحيان عن عواطف مختلفة قد لا تتفق والظروف القائمة. «إن من الصعب على المرء أن يعرف ما يدور في فكره» كذلك كان يقول عنه محدثوه من حين إلى حين. وكان الناس إذ يلاحظون نظرته القائمة الواجمة يدهشهم أحياناً أن يروه ينفجر ضاحكًا على حين فجأة ضحكًا كبيرًا يدل على مشاعر فرحة مرحة يندفع فيها في نفس اللحظة التي تتجهم فيها عيناه. على أن ما يظهر في سحنته من مظهر المرض ليس فيه ما يدهش الآن أحدًا: إن جميع الناس يعرفون الحياة المضطربة القلقة التي يعيشها بمدينتنا في الآونة الأخيرة «لاهيًا قاصفًا مستهترًا»، أو هم قد سمعوا عن ذلك، وما من أحد يجهل أيضًا درجة الاهتياج المرضي الذي وصل إليه في خصوماته مع أبيه بصدد أمور تتعلق بالمال؛ حتى إن الناس في مدينتنا قد تناقلوا عن ذلك قصصًا وحكايات. والحق أنه بطبيعته غضوب، وهو «مشوش الذهن مندفعًا»، كما وصفه بذلك وصفًا معبرًا قاضي الصلح سيميون كاتشالنيكوف أثناء أحد الاجتماعات. ولقد كان في ذلك اليوم متأنقًا أناقة لا مأخذ عليها، يلبس صدرية مزورة وقفازين أسودين، ويحمل بيده قبعة عالية. وكما يفعل كل عسكري محال على الاستيداع منذ مدة قصيرة، فقد أطال شاربه وحلق لحيته، ودفع شعره القصير إلى أمام على الصدغين. وهو يمشي مشية عسكرية حازمة واسعة الخطى. توقف على العتبة لحظة قصيرة، وبعد أن أجال بصره على الحضور، اتجه نحو الشيخ قُدُمًا، لأنه أدرك أنه رب المنزل، فحيّاه منحنيًا له انحناءةً كبيرة، وطلب بركته، فنهض الشيخ وباركه، وقبل دمتري فيدوروفتش يد الشيخ باحترام، ثم قال مضطربًا اضطرابًا شديدًا بصوت يدل على الحنق والاستياء.

- أرجو أن تتفضلوا فتغفروا أنني جعلتكم تنتظرون هذه المدة الطويلة كلها. إن الخادم سمردياكوف الذي أرسله «باتيوشكا»[53] قد أجاب عن أسئلتي الملحة مرتين بلهجة الواثق أن الاجتماع قد حددت له الساعة الواحدة بعد الظهر. وها أنذا أعلم الآن أن...

قاطعة الشيخ قائلًا:

- اطمئن. ليس الأمر بذي بال. لقد تأخرت قليلًا، ولكن ليس لهذا التأخر من خطورة...

- أشكر لكم تسامحكم. ولقد كنت أعوّل على هذا التسامح لما أعرفه عنكم من طيبة...

قال دمتري فيدوروفتش ذلك وحيّا مرة أخرى، ثم التفت نحو أبيه «باتيوشكا» فجأة، فحياه تحية فيها ما كان في تحيته للشيخ من انحناء شديد واحترام عظيم. واضح أنه كان قد هيأ هذه التحية سلفًا، وأنه فعل ذلك صادقًا، لأنه يرى أن من واجبه أن يبرهن بهذه البادرة على احترامه وحسن نياته. وقد بوغت فيدور بافلوفتش وبهت، ولكنه لم يلبث أن ثاب إلى نفسه فإذا هو يهب واقفًا فيرد تحية ابنه بمثلها. لقد اكتسي وجهه على حين فجأة تعبيرًا رصينًا مهيبًا، فما زاده ذلك إلا خبثًا وشرًا. وبعد أن حيا دمتري فيدوروفتش سائر الحضور في الحجرة بانحناءة واحدة صامتة، اتجه نحو النافذة سائرًا بخطاه الواسعة الحازمة، وجلس قرب الأب بائيسي، على المقعد الوحيد الذي كان لا يزال خاليًا. مال بصدره إلى أمام، متهيئًا للإصغاء ومتابعة المناقشة التي قطع حبلها.

إن وصول دمتري فيدوروفتش لم يستغرق أكثر من دقيقتين، وكان لا بد أن تستأنف المناقشة بعد ذلك فورًا. ولكن ميوسوف لم ير في هذه المرة أن من واجبه أن يرد على السؤال الملح الذي طرحه الأب بائيسي والذي يكاد يكون مزعجًا.

قال بشيء من الإهمال الذي يُعرف به أبناء المجتمع الراقي:

- اسمحوا لي أن لا أتعرض لهذه النقطة. ثم إن المسألة معقدة جدًا من جهة أخرى. وأنا ألمح أن إيفان فيدوروفتش يبتسم وهو ينظر إلينا، فلعل لديه آراء أصيلة طريفة في هذا الموضوع أيضًا، فاتجهوا بالسؤال إليه إن شئتم فأجاب إيفان فيدوروفتش على الفور قائلًا:

- ليس لدي شيء خاص أقوله، إلا ملاحظة ثانوية. إن الليبراليين في أوروبا، وحتى هواة الليبرالية عندنا في روسيا، يخلطون في كثير من الأحيان، ومنذ زمن طويل جدًا، بين الأهداف القصوى التي ترمي إليها الاشتراكية وبين الغايات التي ترمي إليها المسيحية. وهذه النتيجة الغريبة العجيبة هي مع ذلك الصفة التي تتميز بها طريقتهم في التفكير. ويتضح من جهة أخرى أن هذا الخلط بين الاشتراكية والمسيحية لا ينفرد به الليبراليون وهواة الليبرالية، وإنما هو يحدث كثيرًا في أذهان رجال الشرطة، أقصد رجال الشرطة في البلاد الأجنبية طبعًا. وإن حكايتك الباريسية هي من هذه الناحية ذات دلالة يا بيتر ألكسندروفتش.

فكر بيتر ألكسندروفتش كلامه الأول قائلًا:

- أرجوكم مرة أخرى أن تعفوني من معالجة هذا الموضوع، وإنما أنا أؤثر أيها السادة أن أقص عليكم حكاية أخرى شائقة جدًا ومميزة جدًا؛ والحكاية في هذه المرة تتصل بإيفان فيدوروفتش.

منذ ما لا يزيد على خمسة أيام، في مجتمع يتألف خاصة من سيدات من هذه المدينة، أعلن صراحة أثناء مناقشة جرت بين الحضور أنه ما من شيء في هذا العالم يمكن أن يجبر البشر على أن يحبوا أقرانهم، وأنه ما من قانون طبيعي يفرض على الإنسان أن يحب الإنسانية، فإذا كان قد وجد وما يزال يوجد حب على هذه الأرض، فليس مرد ذلك إلى قانون طبيعي، بل إلى سبب واحد هو اعتقاد البشر بأنهم خالدون. حتى لقد أضاف إيفان فيدوروفتش إلى ذلك عابرًا، أن هذا هو في الواقع جوهر القانون الطبيعي كله، فإذا قُضي على اعتقاد البشر بخلودهم فسرعان ما ستغيض جميع ينابيع حبهم، بل وسرعان ما سيفقد البشر كل قدرة على مواصلة حياتهم في هذا العالم. أكثر من ذلك أنه لن يبقى هنالك شيء يعد منافيًا للأخلاق، وسيكون كل شيء مباحًا، حتى أكل لحوم البشر. بل لقد مضى إلى أبعد من هذا أيضًا فقال أخيرًا إن القانون الأخلاقي للطبيعة لا بد له أن يتغير فورًا في نظر كل فرد - في نظرنا نحن مثلًا - متى كان هذا الفرد لا يؤمن لا بالله ولا بخلوده، وان القانون الأخلاقي للطبيعة يأمر بنقيض ما سلّم به الدين من قبل فإذا بالأنانية التي تمضي إلى حد الجريمة لا تصبح مباحة للإنسان فحسب، بل تصبح كذلك ضرورية من حيث أنها المخرج الوحيد المعقول، بل والمخرج الوحيد النبيل له. ففي وسعكم إذًا أيها السادة أن تحكموا بهذه المفارقة عل الآراء الأخرى التي يراها عزيزنا الخيالي الكبير والسفسطائي العظيم إيفان فيدوروفتش، سواء آراؤه التي سبق أن أعلنها أو آراؤه التي لعله ما يزال ينوي أن يعلنها.

هتف دمتري فيدوروفتش فجأة على غير توقع:

- اسمح لي! هل ما سمعته منك هو «إن الجريمة يجب أن لا تعد مباحة فحسب، بل يجب أن تعدّ كذلك - في نظر كل ملحد - هي المخرج المعقول الذكي من وضعه؟».

قال الأب بائيسي:

- تمامًا. فقال دمتري فيدوروفتش:

- سأحفظ هذا.

وبعد أن نطق دمتري فيدوروفتش بهذه الكلمات صمت فجأة، كما تكلم فجأة. فنظر إليه جميع الحضور بكثير من الفضول.

واتجه الشيخ في تلك اللحظة إلى إيفان فيدوروفتش يسأله:

- هل يمكن أن يكون في تقديرك أن زوال اعتقاد الناس بخلود الروح ستكون له هذه النتائج؟

فأجابه إيفان فيدوروفتش:

- نعم، ذلك هو الرأي الذي ذهبت إليه، فعندي أنه لا وجود للفضيلة ما دام لا وجود للخلود.

- إنك سعيد إذا كنت تؤمن بذلك، أو لعلك شقي جدًا. فسأله إيفان فيدوروفتش مبتسمًا:

- ولماذا أكون شقيًا جدًا؟

فقال له الشيخ:

- لأن أغلب الظن عندي أنك لا تؤمن أنت نفسك لا بخلود روحك ولا بشيء مما كتبته عن الكنيسة وعن المسألة الإكليركية.

فقال إيفان فيدوروفتش يعترف هذا الاعتراف الغريب وقد احمر وجهه على حين فجأة:

- قد تكون على حق!.. ولكني لم أعبث إلا نصف عبث، ولم أمزح إلا نصف مزاح...

- أعلم أنك لم تمزح إلا نصف مزاح. فإن هذه المسألة لم تحل في قلبك حلًا حاسمًا بعد، وهي ما تزال تعذبك. إن الذين يعانون هذا العذاب يحبون أحيانًا أن يعبثوا بعذابهم، وذلك أيضًا نتيجة يأسهم. وهذا ما تفعله أنت. فإنك ليأسك تلهو الآن بكتابة مقالات في المجلات، أو بالاندفاع في مناقشات في الصالونات،

دون أن تكون مؤمنًا بجدلك نفسه، حتى إنك تسخر من هذا الجدل في سرك متألمًا... إن هذه المسألة لم تحسم في نفسك بعد. وذلك هو مصدر محنتك الكبيرة، لأن هذه المسألة تقتضي الحل حتمًا...
فمضى إيفان فيدوروفتش يسأل الشيخ أسئلة غريبة وقد حدّق مبتسمًا ابتسامة لا يعرف معناها:
- وهل من سبيل لي إلى حلّها؟ هل يمكنني أن أحلّها إيجابيًا؟
- إذا لم تتوصل إلى حسمها إيجابيًا، فلن تتوصل أبداً إلى حلها سلبيًا أيضًا، وذلك بسبب قانون في قلبك تعرفه حق المعرفة، وذلك هو بعينه ألمك. اشكر الله مع ذلك أنه وهب لك نفسة سامية نادرة على أن تعاني ألم كهذا الألم «إن الذكاء يطلب البحث عن الحقيقة في الأعالي، اطلبوا ما فوق، اهتموا بما فوق لأن سيرتنا نحن في السموات[54]. أسأل الرب أن يجد قلبك حلًا أثناء حياتك على هذه الأرض، وأن ترافقك بركته طوال طريقك!
قال الشيخ ذلك ورفع يده يريد أن يرسم، وهو في مكانه، إشارة الصليب على إيفان فيدوروفتش، ولكن إيفان نهض فجأة فاقترب من الشيخ وتلقى مباركته، ثم قبل يده وعاد يجلس في مكانه دون أن ينطق بكلمة واحدة. كان وجهه في تلك اللحظة يعبر عن صلابة وجد. إن هذه البادرة التي قام بها وإن تلك الكلمات التي تبادلها مع الشيخ والتي كانت لا تتوقع أبداً من إيفان فيدوروفتش، إن ذلك كله قد أحدث في جميع الحضور أثرًا قويًا، وفاجأهم بما يشتمل عليه من سر وما يشيع فيه من أبهة. ساد الصمت بضع لحظات، بينما كان وجه أليوشا يفصح عن اضطراب يوشك أن يكون جزعًا. ولكن ميوسوف رفع كتفيه مستهزئًا فجأة، ثم إذا بفيدور بافلوفتش يهب عن مقعده بسرعة فيقول للشيخ مشيرًا إلى إيفان فيدوروفتش.
- أيها الشيخ المقدس الرباني! هذا ابني، هذا فلذة كبدي، هذا ولدي الحبيب! إنه أكثر أبنائي احترامًا ؛ هو من نوع كارل مور[55] قليلًا إن شئت... أما ابني الذي وصل الآن، دمتري فيدوروفتش هذا الذي جئت أستعين بك عليه. فإنه أقلهم احتراما، إنه صنو فرانتس مور، إنك تعرف هذين البطلين من أبطال مسرحية شيللر «قطاع الطرق»، وأنا نفسي في هذه الحال Regierender Graf von Moor[56] اقضِ في الأمر أنقذنا فنحن في حاجة لا إلى دعواتك وصلواتك فحسب، بل إلى نبوءاتك أيضًا.
قال الشيخ بصوت ضعيف منهك:
- لا تتكلم كما يتكلم إنسان طائش العقل، دعك من التهريج، ولا تبدأ الحديث بإهانة أهلك!
كان واضحًا أن التعب يستولي على الشيخ، وأن قواه تبارحه شيئًا بعد شيء.
هتف دمتري فيدوروفتش واثبًا عن كرسيه بحركة استياء واستنكار، هتف يقول:
- هذه مهزلة كريهة! لقد كنت أوجس هذا وأنا آت إلى هنا. مغفرة أيها الأب المحترم! (كذلك قال دمتري فيدوروفتش للشيخ). أنا امرؤ ضئيل الحظ من التعليم، حتى إني أجهل اللقب الذي يجب أن أناديك به. لقد خدعوك، فكنت ضحية طيبة نفسك حين أذنت بأن تجمعنا هنا. إن أبي لا يسعى إلا إلى الفضيحة... أما هدفه من ذلك، فلا بد أنه يعرفه... إن في كل عمل يقوم به حسابًا يجريه. وأظن مع ذلك أنني أحزر الآن هدفه من ذلك...
صاح فيدور بافلوفتش هو أيضًا يقول:
- إنهم جميعا يتهمونني! وبيوتر ألكسندروفتش يتهمني أيضًا ... أضاف ذلك وهو يلتفت فجاة نحو ميوسوف، مع أن ميوسوف لم يخطر بباله أن يقاطعه، وتابع كلامه يقول مخاطبًا ميوسوف:
- نعم يا بيتر ألكسندروفتش! لقد اتهمتني. هم يأخذون علي أنني اختلست أموال أولادي، واغتنيت على حسابهم. أليس هناك محاكم؟ إنني ألقي عليكم هذا السؤال. هلا اتجهت إلى المحاكم يا دمتري فيدوروفتش فتقول لك عندئذ، بالاستناد إلى الإيصالات التي وقعتها، والرسائل التي أرسلتها، والاتفاقات التي أبرمتها، ما هو مقدار ميراثك، وما هو المبلغ الذي بددته، وكم بقي لك؟ لماذا يرفض بيتر ألكسندروفتش أن يفصح عن رأيه؟ ليس دمتري فيدوروفتش شخصًا غريبًا عنّا. سأقول لكم لماذا يرفض: لأنهم جميعًا يناصبونني العداء، مع أن دمتري فيدوروفتش ما يزال مدينًا لي بمال في آخر الحساب! هو المدين لي، وليس ديني عليه مبلغ زهيدًا بل هو ألوف الروبلات، أستطيع أن أثبت ذلك بوثائق في يدي! إن حياة القصف واللهو والتبذير الذي يعيشها تترجع أصداء إشاعتها في مدينتنا كلها! وهو منذ كان في الجيش قد تعود أن يرمي ألف روبل أو ألفين في سبيل أن يقضي على عفاف البنات الشريفات! هه... إنني أعرف هذا يا دمتري فيدوروفتش... إنني أعرف أدق التفاصيل الخفية، وأستطيع أن أبرهن على ذلك... فاعلم هذا إذًا أيها الأب المقدس: لقد أغوى دمتري فيدوروفتش أنبل فتاة من الفتيات، فتاة تنتمي إلى أسرة كريمة غنية كان أبوها رئيسًا، وهو كولونيل شهم شجاع مُنح لمزاياه وسامًا رفيعًا هو صليب القديسة آنا مع سيوف![57].
لقد أفسد دمتري فيدوروفتش طهارة تلك المخلوقة البريئة إذ خطبها، وها هي ذي يتيمة الآن، تقيم في مدينتنا، وهي خطيبته، بينما هو يتردد أمام بصرها على امرأة من النساء «الساحرات» يعرفها الناس عندنا حق المعرفة. ولكن هذه المرأة الساحرة، رغم أنها قد عاشت بما يشبه الزواج المدني مع رجل محترم جدًا، لها طبيعة مستقلة، هي قلعة حصينة لا يمكن الوصول إليها كزوجة شرعية تمامًا لأنها امرأة فاضلة، نعم فاضلة... أيها الآباء المبجلون! غير أن دمتري فيدوروفتش يريد أن يفتح هذا الحصن بمفتاح من ذهب، وذلك هو السبب في هجومه على الآن، لأنه يأمل أن ينتزع مني مالًا. وبانتظار ذلك أنفق على هذه الساحرة حتى هذه اللحظة ألوف الروبلات، وهو ما ينفك يستدين من أجلها مالًا بعد مال. إنه يستدين، وهل تعلمون ممن يستدين؟ تخيلوا! أأقول يا ميتيا؟
قال دمتري فيدوروفتش بصوت مدو:
- صه! انتظر حتى أخرج من هنا، لأنني لن أسمح لك بأن تدنس أثناء وجودي سمعة أنبل فتاة! إن تجرؤك وحده على الإلماح إليها إهانة لشرفها... لا لن أسمح بهذا!
كان دمتري فيدوروفتش يختنق غضبًا وحنقة.
قال فيدور بافلوفتش بما يشبه انهيار الأعصاب وهو يحاول أن يستدر من عينيه دموعًا:
- ميتيا، ميتيا ومباركة الأب لابنه، ما عساك فاعلًا بها؟ ما عسى يحدث لو لعنتك؟
فزار دمتري فيدوروفتش يقول وقد جن جنونه غيظًا.
- ممثل هزلي وقح!
فقال فيدور بافلوفتش:
- انظروا كيف يعامل أباه! فهل تتصورون معاملته للآخرين؟ اسمعوا هذا أيها السادة: في مدينتنا رجل فقير ولكنه محترم؛ هو نقيب محال على التقاعد. لقد نزلت بهذا الرجل مصائب، واضطر أن يستقيل من الجيش، غير أن كل شيء قد جرى مجرى رفيقًا، فلا تشهير به ولا حكم عليه، وظل شرفه سليمًا. وهذا الرجل يعيل أسرة كبيرة. فهل تعلمون ما صنع به دمتري فيدوروفتش منذ ثلاثة أسابيع؟ لقد أمسكه من لحيته في إحدى الخمارات، وجره إلى الشارع وهو ما يزال ممسكًا لحيته، وأخذ يضربه ضربًا مبرحًا على مرأى ومسمع من جمهرة الناس، كل ذلك لأني عهدت إلى هذا الرجل سرًا ببعض الأمور في قضية صغيرة.
قال دمتري فيدوروفتش. وقد أخذ جسمه كله يرتعش حنقًا:
- هذا كله كذب! هو حقيقة في الظاهر كذب في الباطن! إنني لا أحاول أن أسوغ هذا العمل الذي قمت به، بل إنني تصرفت مع هذا النقيب تصرف حيوان كاسر مفترس، وانني نادم على ما بدر مني كل الندم، وإنني أشعر بالخزي والعار من ذلك الغضب المسعور الذي أستبد بي. ولكن ذلك النقيب، ذلك الرجل الذي تقول إنك عهدت إليه ببعض الأعمال، إنما ذهب إلى تلك السيدة التي وصفتها منذ هنيهة بأنها ساحرة، فكلمها باسمك، وعرض عليها أن تشتري السندات التي وقعتها لك، وأن تلاحقني لدى القضاء، من أجل أن أودع السجن متى أصبحت أزعجك بمطالبي فيما يتعلق بتصفية حساباتنا. فكيف تجرؤ أن تأخذ عليّ اليوم أنني أميل إلى هذه السيدة على حين أنك أوعزت إليها أنت نفسك بأن تجتذبني إليها!. ثم إنها لا تجد أي حرج في أن تقص هذا علنًا، ولقد روته لي بنفسها، ساخرةً منك! ولئن كنت تريد أن تدخلني السجن فليس لهذا إلا سبب واحد على كل حال، هو أنك تغار مني، لأنك حاولت أن تزعج هذه المرأة بحبك! ذلك أمر أعرفه أيضًا هي التي روته لي ضاحكةً عليك، هل تسمع؟ ضاحكةً عليك، مستهزئةً بك! تلك هي، أيها المباركون، حقيقة هذا الرجل، تلك هي حقيقة هذا الأب الذي يظهر امتعاضه من سوء سلوك ابنه! أيها السادة الذين شهدتم هذا المشهد، اغفروا لي ما أظهرت من عنف ولكنني أوجست سلفًا، أن هذا العجوز الوقح إنما جمعكم كلكم هنا من أجل أن يحدث وقيعة فاضحة، أما أنا فلقد جئت على نية الصفح والمغفرة إذا مد إلي يده، وعلى نية نسيان الإساءة التي ألحقها بي، وعلى نية طلب الصفح والمغفرة كذلك. أما وأنه أهانني الآن ثم لم يكتف بذلك بل تجرأ على أن يهين أنبل فتاة وهي فتاة أتحاشى أن أذكر اسمها في غير طائل، لأنني أحترمها احترامًا دينيًا فقد قررت أن أفضح لعبته الحقيرة على رؤوس الأشهاد، رغم أنه أبي!.
لم يستطع دمتري فيدوروفتش أن يتابع كلامه. كانت عيناه تقدحان شرراً، وكان تنفسه صعباً. وكان جميع الحضور من جهة أخرى منفعلين، ونهضوا جميعاً

باستثناء الشيخ، من مقاعدهم في اضطراب. وقد تجهم وجها الراهبين الكاهنين، ولكنهما ينتظران قرار الشيخ. ولم يكن الشيخ قد تحرك. كان وجهه مصفراً اصفراراً شديداً، لا من انفعال، بل من ضعف مرده إلى المرض، إن ابتسامة ضارعة تطوف على شفتيه. وهو من حين إلى حين يهم أن يرفع يده ليهدئ روع هؤلاء الممسوسين، وكان يمكنه في الواقع أن يضع حداً لهذا المشهد بمجرد حركة، ولكن كان يبدو أنه ينتظر هو نفسه شيئاً ما، فكان يراقب المتحادثين بانتباه مشدود، كأنه يحاول أن يفهم مزيداً من الفهم، كأنه يحاول أن يدرك عنصراً في الموقف ما يزال خافياً عليه مستعصياً على فهمه. وأخيراً شعر بيتر ألكسندروفتش ميوسوف بأنه أُذل إذلالاً عميقاً، وأنه جُلّل بالخزي والعار. قال بحرارة:
- إننا جميعاً نتحمل قسطاً من تبعة هذه الفضيحة! كيف كان يمكنني أن أتنبأ بشيء من هذا حين جئت إلى هنا؟ غير أنني كنت أعرف مَنْ هذا الرجل... يجب أن ينتهي هذا الأمر فوراً! أيها الأب المبجَّل، ثق أنني لم أكن على علم دقيق بالتفاصيل التي كُشف عنها الآن. لقد كنت أرفض أن أصدِّقها، وإنما عرفتها في هذه اللحظة لأول مرة... أبٌ يغار من ابنه على امرأة سيئة الخلق، ويتفق مع هذه المخلوقة على زجّ ابنه في السجن... هؤلاء هم الناس الذين اضطررت أن أجيء معهم إليك... لقد غُرِّر بي، فأريد أن أصرّح علانية أني قد غُرِّر بي وخدعت كما خدع غيري...
أعول فيدور بافلوفتش يخاطب ابنه بصوت ليس مألوفاً فيه:
- دمتري فيدوروفتش! لو لم تكن ابني لناديتك إلى المبارزة فوراً... بالمسدس... على مسافة ثلاث خطوات. والأعين معصوبة... ثم كرر يقول وهو يقرع الأرض بقدميه:
- نعم، والأعين معصوبة!
إن الكذابين العريقين الذين ظلوا طوال حياتهم يمثِّلون يبلغون أحياناً من عمق تقمصهم للدور الذي يمثلونه أنهم يرتعشون انفعالاً ويبكون، رغم قدرتهم على أن يقولوا لأنفسهم في الوقت نفسه (أو بعد بضع دقائق): «أنت تكذب أيها الكاذب العريق! أنت تمثّل حتى في هذه اللحظة، رغم غضبك «المقدّس»، ورغم هذه الدقيقة «المقدسة» من الغضب».
قطب دمتري فيدوروفتش حاجبيه. وأظلم وجهه، ورشق أباه بنظرة ثابتة فيها احتقار لا يوصف. ثم قال بصوت رقيق مكظوم:
- ما كان أغباني حين اعتقدت أني سأعود إلى مدينتي التي رأيت فيها النور، بصحبة هذه الملاك، خطيبتي، لكي أجمِّل أيامه الأخيرة، فإذا أنا لا أرى فيه إلا رجلاً فاسقاً، فاجراً، وممثلاً دنيئاً خسيساً!
زأر العجوز يقول من جديد، وقد تقطعت أنفاسه وأخذ اللعاب يتدفق من فمه عند كل كلمة ينطق بها:
- إلى المبارزة! أما أنت يا بيتر ألكسندروفتش ميوسوف فاعلم أيها السيد أن أسرتك كلها لعلها لم تضم ولن تضم في يوم من الأيام امرأة أنبل ولا أشرف نعم ولا أشرف، هل فهمت؟
- من هذه المرأة التي وصفتها أنت في غير تحرج ولا حياء بأنها «مخلوقة»! وأما أنت يا دمتري فيدوروفتش، فقد هجرت خطيبتك في سبيل هذه «المخلوقة»، وبذلك اعترفت بأن هذه الفتاة التي هي خطيبتك لا ترقى إلى مستوى كعب حذائها. تلك هي المرأة التي سميتموها «مخلوقة»!
صاح الأب يوسف يقول فجأة:
- هذا خزي!
وانبرى الفتي كالجانوف الذي لم يفتح فمه بكلمة واحدة حتى ذلك الحين، انبرى يقول فجأة بصوته المراهق وهو يرتجف استياءً وامتعاضاً واستنكاراً:
- هذا خزي وعار! وكان الفتى قد احمرّ احمراراً شديداً.
وزأر دمتري فيدوروفتش وقد بلغ ذروة الغضب ورفع كتفيه عاليتين كل العلو حتى ليكاد يبدو من ذلك أحدب الظهر، زأر يقول في نوع من التخفف:
- لماذا يجب أن يعيش مثل هذا الرجل؟ هلاَّ قلتم لي، هلا قلتم لي هل يجوز أن ندع له أن يدنس الأرض برذائله مدة أطول؟
سأل دمتري فيدوروفتش هذا السؤال وهو ينظر إلى جميع الحضور واحداً بعد واحد، مومئاً إلى أبيه بيده. وكان يتكلم ببطء مقطّعاً ألفاظه.
هتف فيدور بافلوفتش يقول متهجماً على الأب يوسف:
- هل سمعتم أيها الرهبان، هل سمعتم ما يقوله قاتل أبيه؟ ذلك هو الجواب على قولك «هذا خزي وعار!» هلاَّ قلت لي أين الخزي والعار؟ إن هذه «المخلوقة». إن هذه «المرأة السيئة السلوك»، ربما كانت أقدس منكم أيها السادة الرهبان الكهنة الذين تظنون أنكم تظفرون في الدير بالسلامة والخلاص! صحيح أنها سقطت في شبابها ضحية بيئتها، ولكنها «أحبت كثيراً»، والمسيح نفسه قد غفر للمرأة التي أحبت كثيراً...[58].
قال الأب الوديع يوسف نافد الصبر:
- المسيح لم يغفر من أجل ذلك الحب...
- بل من أجل ذلك الحب، من أجل ذلك الحب نفسه أيها السادة الرهبان! تحسبون أنكم تحققون لأنفسكم السلامة والخلاص بأكل الكرنب الحامض، وتظنون أنفسكم بررة تقاة صالحين. تغتذون بالأسماك، تغتذون بسمكة صغيرة في اليوم، وتنوون أن ترشوا الله بأسماككم هذه!
- هذا لا يطاق، هذا لا يطاق!
كذلك أخذ الحضور يقولون في كل جهة من الصومعة.
غير أن هذا المشهد الذي بلغ أوج الغلظة والحطة قد انتهى على نحو غير متوقع إطلاقاً: نهض الشيخ فجأة، فهرع أليوشا الذي كاد يفقد صوابه من شدة خوفه على الشيخ من جهة وعلى أهله من جهة أخرى، هرع يسنده من ذراعه. اتجه الشيخ نحو دمتري فيدوروفتش، فلما وصل إليه هوى يركع على ركبتيه. اعتقد أليوشا أن الشيخ قد سقط على الأرض ضعفاً ووهناً، ولكن الأمر لم يكن كذلك. فحين صار الشيخ راكعاً على ركبتيه، انحنى يحيي دمتري فيدوروفتش عامداً، وبلغ من شدة انحنائه أن جبينه لامس الأرض. دُهش أليوشا دهشة عظيمة نسي معها أن يمسك الشيخ بعد ذلك حين عاد الشيخ ينهض. وهذه بسمة واهنة لا تكاد تُدرك، تحرِّك شفتي الشيخ. قال وهو ينحني لجميع ضيوفه في كل جهة من الجهات: - اعذروني، اعذروني جميعاً...
لبث دمتري فيدوروفتش جامداً من الذهول بضع لحظات: لقد ركع الشيخ أمامه، فما معنى هذا؟ وهتف بقول بعد لحظة: «يا رب!» - ثم أخفى وجهه بيديه، واندفع يخرج من الحجرة. اتجه سائر الزوار وراءه نحو الباب ناسين من شدة اضطرابهم أن يودّعوا صاحب الدار. واقترب الراهبان الكاهنان وحدهما من الشيخ يتلقيان مباركته.
- لماذا ركع ذلك الركوع؟ أيكون في هذا إشارة إلى شيء؟
بهذا دمدم فيدور بافلوفتش وقد هدأ روعه فجأة وحاول أن يجري الحديث بينه وبين صحبه دون أن يجازف مع ذلك فيخاطب واحداً بعينه منهم وهم يجتازون في تلك اللحظة نطاق الصومعة.
فأجاب ميوسوف فوراً يقول بلهجة غضبى:
- لست مسؤولاً عن ملجأ المجانين هذا وعن هؤلاء المجانين جميعاً، ولكنني في مقابل ذلك سأعفي نفسي بعد الآن من صحبتك يا فيدور بافلوفتش، وثق أن هذا سيكون إلى الأبد. أين ذلك الراهب الذي استقبلنا منذ قليل؟..
ولكن «ذلك الراهب»، وهو الذي كان قد دعاهم إلى الغداء عند كبير الرهبان، لم يدعهم ينتظرونه، فما إن هبطوا درجات مدخل صومعة الشيخ حتى كان قد اقترب منهم، كأنه كان ينتظرهم هنالك طول الوقت. قال له بيتر ألكسندروفتش دون أن يستطيع التحكم بحنقه والسيطرة على غضبه:
- أيها الأب المحترم، أرجو أن تنقل إلى الأب كبير الرهبان احترامي العميق، وأن ترجو سيادته أن يتفضل بأن يعذرني، أنا ميوسوف، عن اضطراري إلى التخلف حتماً، بسبب ظروف طارئة لم تكن في الحسبان، عن التشرف بتلبية دعوته إلى الغداء رغم رغبتي القوية المخلصة في تلبية هذه الدعوة الكريمة.
فأسرع فيدور بافلوفتش يتدخل قائلاً:
- آ... هذا أنا. الظروف الطارئة التي لم تكن في الحسبان هي أنا. اعلم أيها الأب الطيب أن بيتر ألكسندروفتش قد سئم صحبتي ولولا ذلك للبى الدعوة بغير تردد. ولكنك سوف تذهب إلى الدعوة يا بيتر ألكسندروفتش، ستتشرف بتناول طعام الغداء عند الأب كبير الرهبان، وأنا أتمنى لك شهية طيبة وطعاماً هنيئاً! أنا الذي سأمتنع عن حضور الوليمة لا أنت! أما أنا فأعود إلى منزلي، وآكل في داري، لأنني لن أستطيع أن أبلع شيئاً هنا، هل فهمت يا بيتر ألكسندروفتش، يا قريبي العزيز جداً؟
- أنا لست قريبك، ولم أكن قريبك في يوم من الأيام أيها الإنسان الدنيء!
- لقد تعمدت أن أقول لك قريبي لأزعجك، فأنا أعلم أنك تخجل من هذه القرابة وتنكرها. ولكنك قريبي مع ذلك، وفي وسعي أن أبرهن على هذا بتقويم القديسين

[59]. أما أنت يا إيفان فيدوروفتش فسأرسل إليك العربة لتعيدك إلى المنزل فيما بعد، فابق هنا إن شئت. إن اللياقة توجب عليك يا بيتر ألكسندروفتش أن تذهب إلى غداء الأب كبير الرهبان، ولو لتعتذر إليه عن الفضيحة التي شاركنا فيها أنا وأنت معاً...
- أصحيح أنك منصرف؟ أأنت لا تكذب؟
- كيف أجرؤ أن أحضر المأدبة بعد الذي حدث يا بيتر ألكسندروفتش؟ لقد اندفعت اندفاعاً طائشاً أيها السادة، لقد نسيت نفسي، فاغفروا لي ذلك. هذا إلى أنني مضطرب، وأشعر بالخزي أيضاً. أيها السادة، إن لبعض الناس قلباً كقلب الاسكندر الأكبر، وإن لبعضهم قلباً كقلب الكلب الصغير «فيدلكا». وأنا كالكلب «فيدلكا» فزعان! فكيف أجرؤ بعد الذي بدر مني أن أشارك في هذا الغداء وأن ألعق مرق الدير؟ إنني لا أستطيع ذلك، أشعر بالخزي، فاعذروني!
«الشيطان وحده يعلم أهو يقول الحقيقة أم يخدعني!».
- بهذا حدث ميوسوف نفسه وهو يتوقف عن السير ويتابع المهرّج الذي أخذ يبتعد، بنظرة فيها دهشة وحيرة. والتفت فيدور بافلوفتش إلى الوراء، فلما لاحظ أن ميوسوف يراقبه أرسل إليه قبلةً باليد.
قال ميوسوف يسأل إيفان فيدوروفتش باقتضاب: - أأنت ذاهب إلى الغداء؟ - ولِمَ لا أذهب؟ ثم إنه قد دعاني أمس دعوة خاصة.
- المصيبة إنني أشعر بأنني أكاد أكون مضطراً حقاً إلى حضور هذا الغداء اللعين، عل الأقل لنعتذر عن الفضيحة التي وقعت، ولنشرح أننا لا نتحمل تبعتها... ما رأيك؟
- تابع ميوسوف كلامه بلهجة هي تلك اللهجة المرة نفسها، دون أن يعبأ بحضور الراهب الصغير الذي كان يصغي إلى كلامه. فأجابه إيفان فيدوروفتش قائلاً: - صحيح. يجب أن نشرح أن التبعة لا تقع علينا نحن. وعلى كل حال، لن يكون أبي معنا.
- أبوك؟ ما كان ينقصنا إلا أن يكون معنا! يا للغداء اللعين!
ورغم ذلك مضى كلاهما إلى الغداء. كان الراهب الصغير يصغي إلى حديثهما صامتاً. واقتصر على أن قال لهما مرة واحدة وهم يجتازون الغابة الصغيرة إن الأب كبير الرهبان ينتظرهم منذ زمن طويل وإنهم تأخروا نصف ساعة. ولكن أحداً لم يجبه. نظر ميوسوف بحقد إلى إيفان فيدوروفتش، وقال يحدث نفسه:
«إنه يمضي إلى الغداء، كأن شيئاً لم يحدث! رأس عنيد، وضميرٌ كارامازوفي!».

-7-طالب اللاهوت الوصولي

قاد أليوشا شيخه إلى المهجع وأجلسه على السرير. هي حجرة صغيرة جداً لا تضم من الأثاث إلّا ما لا غنى عنه. السرير صغير ضيق من حديد، عليه قطعة من لباد تقوم مقام فراش. وفي ركن من الأركان، قرب الأيقونات، منضدة صغيرة عليها صليب وإنجيل. تهالك الشيخ على السرير منهوك القوى. كانت عيناه تلتمعان وكان تنفسه ثقيلاً. فلما جلس، ألقى على أليوشا نظرة طويلة منتبهة، كأنه يفكر في شيء، ثم قال له:
- اذهب يا عزيزي، اذهب. يكفي بورفيري لمساعدتي. أسرع. هم في حاجة إليك هناك. اذهب إلى الأب كبير الرهبان، واحضر ذلك الغداء لتخدم على المائدة.
فقال أليوشا بصوت متوسل ضارع:
- اسمح لي أن أبقى قربك!
- أنت هناك أَفْيَد. ليس بينهم هناك سلام. سوف تخدمهم، وقد يكون في حضورك خير لهم. إذا استيقظت الشياطين فاتلُ دعاءً. واعلم أيضاً يا بني (كان يحلو للشيخ أن يناديه بهذا) أن مكانك ليس هنا بعد اليوم. تذكر ما أقوله لك أيها الشاب: متى تفضل الرب فدعاني إليه، اترك أنت هذا الدير، واذهب، اذهب تماماً.
ارتعش أليوشا. فقال له الشيخ:
- فيم اضطرابك؟ مكانك ليس هنا الآن. إنني أبارك خدمتك العظيمة لله في الحياة الدنيا، سيكون عليك أن تتجول كثيراً. وسيكون عليك أن تتخذ لنفسك امرأة، يجب أن تتزوج. إن عليك أن تتألم كثيراً وأن تقاسي كثيراً قبل أن تستطيع العودة إلى هنا. لم تخلُ حياتك من الأثقال والأعباء، ولكنني لا أشك فيك، من أجل هذا إنما أرسلك. المسيح معك. فإذا صنته صانك. إن آلاماً كبيرة تنتظرك، ولكنك ستعرف السعادة في هذه الآلام. إليك نصيحتي، إليك وصيتي: ابحث عن الفرح في الآلام. اعمل، اعمل بغير هوادة. تذكر ما أقوله لك اليوم، ذلك أنني أعلم، ولو أتيح لي أن أتحدث إليك مرة أخرى، أن أيامي بل ساعاتي أصبحت بعد الآن معدودة.
عبّر وجه أليوشا مرة أخرى عن انفعال عنيف. وأخذ طرفا شفتيه يرتعشان. سأله الشيخ وهو يبتسم ابتسامة عذبة رقيقة:
- ما بك أيضاً؟ فليسكب أبناء هذه الدنيا دموعاً على موتاهم. أما نحن هنا فإننا نغتبط مع الأب الذي يبارحنا إلى العالم الآخر، نبتهج معه ونصلي له. دعني الآن. يجب عليّ أن أصلّي. هيّا أسرع. ابق قرب أخويك، لا قرب واحدٍ منهما، بل قربهما كليهما.
ورفع الشيخ يده ليباركه. كان يستحيل على أليوشا أن يعصي أمر الشيخ مهما تكن رغبته في البقاء معه قوية. وكان يحترق توقاً إلى سؤاله: «عمّا تدل عليه تحيته لأخيه دمتري ساجداً؟» وكان هذا السؤال على طرف لسانه، ولكنه لم يجرؤ أن ينطق به. إنه يعرف أن الشيخ كان سيشرح له هذا الأمر من تلقاء نفسه لو كان يقدّر أن ذلك في الإمكان. أما وأنه لم يفعل، فمعنى ذلك أنه لا يريد أن يفعل. غير أن تلك التحية قد أحدثت في نفس أليوشا تأثيراً قوياً جداً: كان أليوشا مقتنعاً بأن لهذه التحية معنى سرياً. إن هذه الحركة التي قام بها الشيخ تبدو له مثقلة بالسر، وربما كانت مثقلة بالهول. ولما خرج من نطاق الصّومعة حاثّاً خطاه من أجل أن يصل إلى الدير قبل ابتداء الغداء عند كبير الرهبان (من أجل أن يخدم على المائدة لا أكثر، طبعاً)، انقبض صدره فجأة وتوقف عن السير لحظة: لقد عادت تدوّي في نفسه كلمات الشيخ التي يعلن فيها أن نهايته قد قربت. إن ما يتنبأ به الشيخ بمثل هذه الدقة لا بد أن يقع. هذه في نظر أليوشا حقيقة مقدسة. فما عسى تصير إليه حاله وحيداً بعد موت الشيخ؟ كيف يعيش دون أن يراه ودون أن يسمعه؟ إلى أين عساه يذهب؟ يأمره الشيخ أن يمسك عن البكاء ويترك الدير. يا رب! إن أليوشا لم يشعر منذ زمن طويل بمثل الذي يشعر به الآن من حزن. أغذّ أليوشا خطاه وهو يقطع الغابة الصغيرة التي تفصل الصّومعة عن الدير، وإذ أحس بعجزه عن احتمال خواطره التي كان ثقلها يسحقه سحقاً، فقد أخذ يتأمل أشجار الصنوبر التي تبلغ أعمارها مئات السنين، والتي تنتصب قائمة على جهتي الممر في الغابة. ليست المسافة بعيدة؛ هي خمسمائة خطوة في أكثر تقدير؛ وفي مثل هذه الساعة من النهار يندر أن يصادف المرء فيها أحداً. ولكن ما إن بلغ أليوشا أول منعطف حتى لمح راكيتين على حين فجأة. كان يبدو على راكيتين أنه ينتظر شخصاً ما.
سأله أليوشا حين أدركه: - أتنتظرني أنا؟ فأجابه راكيتين ضاحكاً:
- حزرتَ. أنت ذاهب إلى الأب كبير الرهبان، أعلمُ ذلك. إن عنده وليمة غداء. هل تعرف أنه منذ اليوم الذي استقبل فيه الأسقف الذي كان يصحبه الجنرال باخاتوف هل تتذكر هذا؟ - لم يعدّ مائدة تبلغ ما تبلغه مائدة اليوم من عناية! لن أحضر انا الغداء، أما أنت فاذهب إليه وقدّم الطعام للضيوف. هناك سؤال يجب أن أطرحه عليك يا أليوشا: ما دلالة ذلك الحلم؟ لقد انتظرتك من أجل أن ألقي عليك هذا السؤال.
- أي حلم تعني؟
- تلك التحية الساجدة أمام أخيك دمتري فيدوروفتش. لقد بلغ من السجود له أن جبينه صدم الأرض!
- هل تقصد الأب زوسيما؟ - طبعاً أقصد الأب زوسيما. - صدم جبينه الأرض؟
- أيكون في هذا التعبير إخلال بواجب الاحترام؟ طيب... لنفرض أنني أخللت بواجب الاحترام. ولكن ما معنى ذلك الحلم؟
- أجهل معناه يا ميشا.
- كنت أعلم أنه لن يشرحه لك. وليس في الأمر شيء من سر طبعاً. هي تلك الحركات التقية الجوفاء نفسها تتكرر. ولكن الشيخ لم يمثل هذه التمثيلية بغير نيةٍ يبيتها. إن جميع الثرثارين في المدينة والإقليم سيتحدثون الآن في هذا الأمر وسيتساءلون: «ما دلالة هذا الحلم على المستقبل؟ بأي شيء يؤذن هذا الحلم؟» في رأيي إن الشيخ لا يعوزه نفاذ البصيرة. لقد أحسّ أن هناك جريمة سترتكب، لقد شم هذه الرائحة. إن الروائح في منزلكم تنذر بشر مستطير.
- أيّ جريمة تقصد؟
كان واضحاً أن راكيتين يحاول أن يجد السبيل إلى الإفصاح عما يدور في رأسه.
- في أسرتك إنما ستُرتكب هذه الجريمة. ستقع هذه الجريمة بين أخويك وذلك الثري أبيك. وبسبب ذلك إنما صدم الأب زوسيما الأرض بجبينه مسبقاً. فإذا وقع شيء في ذات يوم قال الناس: «لقد تنبأ به ذلك الشيخ القديس». ألا ما أسخفها من نبوءة أن يصدم المرء بجبينه الأرض! ولكن الناس سيدعون أن ذلك كان رمزاً أو مجازاً أو شيئاً لا يُعرف! وسيظلون يذكرون بغير انقطاع أنه تنبأ بالجريمة، واكتشف المجرم. إن البلداء لا يفعلون إلا هذا: يرسمون إشارة الصليب أمام حانة، ويرمون المعبد بالحجارة! ألا إن شيخك لشبههم: يطرد الصالح طرداً بالعصا، ويسجد أمام قاتل.
- أية جريمة تقصد؟ أي قاتل تعني؟ ماذا تقول؟
قال أليوشا ذلك وتوقف، فتوقف راكيتين أيضاً، وقال يسأل أليوشا:
- أي قاتل؟ أتزعم أنك تجهله؟ ألا إنني أراهن على أنك فكرت في هذا الأمر من قبل. وددت لو أعلم بهذه المناسبة. اسمع يا أليوشا: إنك تقول الحقيقة دائماً، رغم أنك جالس دائماً بين كرسيين: أفكرت في هذا الأمر من قبل أم أنت لم تفكر فيه؟
أجاب أليوشا بصوت خافت:
- فكرت فيه. فاضطرب راكيتين هو نفسه، وهتف قائلاً:
- ماذا؟ فكرت فيه؟ أهذا ممكن؟
فتمتم أليوشا يقول:
- أقصد أنني... لم أفكر فيه... ولكنني حين سمعتك تتكلم على هذا النحو الغريب منذ هنيهة، خيّل إليّ أنني فكرت فيه.
- أرأيت؟ (لقد عبّرت عن نفسك تعبيراً واضحاً). أرأيت؟ إنك حين رأيت كيف اشتبك أبوك وأخوك ميتيا اليوم قد خطرت ببالك الجريمة! لم يخطئ إذن ظني...
فقاطعه أليوشا يقول قلقاً:
- انتظر، انتظر! من أين أدركت أنت هذا كله؟.. ولماذا تهتم بالأمر هذا الاهتمام الشديد؟ وددت لو أعرف ذلك أولاً...
- هذان سؤالان مختلفان، ولكنهما سؤالان مشروعان، وسأجيبك عن كل واحد منهما على حدة. من أين أدركت هذا كله؟ إنني ما كان لي أن أدرك شيئاً لولا أنني اليوم، في لحظة معينة، قد نفذت فجأة ودفعة واحدة إلى سريرة أخيك دمتري فيدوروفتش كلها، فرأيته كما هو. لقد فهمته كله دفعة واحدة بفضل سمة من سمات طبعه. هناك بالنسبة إلى رجال من نوع أخيك، وهم رجال شرفاء في حقيقة أمرهم، ولكنهم متأججون بالشهوات، هناك حد يجب أن يتحاشى المرء تجاوزه في معاملتهم، وإلا أصبحوا لا يتورعون حتى عن قتل أبيهم! وأبوك رجل فاسق فاجر سكير عربيد لم يعرف القصد والاعتدال في شيء من الأشياء يوماً، فلن يسيطرا على نفسيهما، وسينجرف الاثنان...

- لا يا ميشا! إذا لم يكن ما تقصده إلا هذا، فأنت مخطئ، وأنا أسترد تفاؤلي، لن يمضي الأمر إلى هذا الحد.
- فلماذا أراك ترتعش هكذا؟ اسمع: إن أخاك ميتيا رجل شريف، أسلّم لك بذلك (هو غبي لكنه شريف)، غير أنه يحب الملذات. ذلك أساس طبيعته، وهو العنصر المسيطر في نفسه. وقد أخذ هذا عن أبيه الذي أورثه شهوانيته الخبيثة. إنني لأستغرب في بعض الأحيان حين أنظر إليك يا أليوشا. كيف استطعت أن تحافظ على طهارتك؟ إنك واحد من أسرة كارامازوف أيضاً! والميل الجامح إلى اللذة قد وصل إلى أوجه! فانظر إلى هؤلاء الشهوانيين الثلاثة الذين يرقب بعضهم بعضاً الآن ويتربص به مخفياً في كمه خنجراً. لقد تجابهوا هم الثلاثة أنفاً لأنف، ولعلك ستصبح رابعهم.
- أنت مخطئ في موضوع تلك المرأة. إن دمتري يحتقرها... كذلك قال أليوشا في تشنج. فأجابه راكيتين:
- من؟ جروشنكا؟ [60] لا يا صاحبي... لا... إنه لا يحتقرها البتة، طالما بدلها علناً بخطيبته. هناك شيء... شيء لا تستطيع الآن أن تدركه أيها الأخ! حين يتوله بعض الرجال بحب امرأة جميلة، ويعشقون جسدها، أو حتى جزءاً من جسدها (وهذا ما يفهمه الشهواني جيداً، يجب أن يكون المرء مترف الذوق ليفهم هذا)، فإنهم يصبحون مستعدين للتضحية بأولادهم في سبيلها. أن يبيعوا أباهم وأمهم وروسيا ووطنهم من أجلها. قد يكونون شرفاء فإذا هم يسرقون، وقد يكونون وديعين فإذا هم يقتلون، وقد يكونون أوفياء أمناء فإذا هم يغدرون. إن شاعرنا بوشكين الذي تغنّى بساقي المرأة قد مجّد ساقيها الصغيرتين في شعر [61] وهناك آخرون لا ينظمون شعراً ولكنهم لا يستطيعون أن ينظروا إلى هاتين الساقين الصغيرتين إلا ويعتريهم من ذلك اضطراب عنيف. وليست مفاتن المرأة ساقين فحسب... لا أيها الأخ، إن الاحتقار لا حيلة له في ذلك، هذا إذا سلمنا جدلاً بأنه يحتقر جروشنكا. قد يكون صحيحاً أنه يحتقرها، ولكنه لا يستطيع أن ينفصل عنها وأن يتحرر من أسرها.
أفلت لسان أليوشا يقول فجأة:
- أنا أفهم هذا! فقال راكيتين وقد ظهر عليه فرح خبيث:
- هه! لا بد أنك تفهمه فعلاً ما دمت قد اعترفت بذلك على هذا النحو منذ الكلمات الأولى التي نطقت بها. ولقد قلت قولك دون أن تريد ذلك، وإنما زلّ به لسانك. وهذا يجعل لاعترافك قيمة أكبر، فالموضوع ليس بالجديد عليك، ولا شك أنك فكرت إذاً في الشهوة! ذلك هو إذاً فتانا العف الذي احتفظ بطهارته! أنا أعلم يا أليوشا أنك إنسان رقيق القلب، أنا أعلم أنك قديس. ولكن مهما تكن فتى وديعاً هادئاً فإن الشيطان وحده يعلم ما الذي فكرت فيه، وما الذي أصبحت تعرفه منذ هذه السنّ! أنت فتى بكر طاهر ولكنك سبرت الأغوار السحيقة... إنني ألاحظك منذ زمن طويل. أنت واحد من أسرة كارامازوف... أنت واحد من هذه الأسرة تاماً كاملاً... ولا بد أن نؤمن بأن للعِرقِ والوراثة أثراً رغم كل شيء... أنت شهواني من جهة أبيك، بسيط من جهة أمك. ما لي أراك ترتعد فجأة؟ ربما لأنني أقول الحقيقة؟ هل تعلم ماذا حدث؟ لقد تضرعت إليّ جروشنكا قائلة: «جئني به (كانت تتكلم عنك)، فأخلع عنه ثوب الراهب الذي يرتديه». ليتك تعرف كم ألحّت: «جئني به، جئني به!» ولقد تساءلت ما الذي يجذبها فيك إلى هذا الحد؟... هي امرأة خارقة، صدقني!
قال أليوشا وهو يضحك ضحكة مصطنعة:
- بلغها تحيتي، وقل لها إنني لن أجيء. أكمل ما كنت تريد أن تقوله يا ميشا، سأفصح لك عن فكرتي بعد ذلك.
- ما حاجتي إلى مزيد من الكلام؟ إن كل شيء واضح. معروف من زمان. إذا كان فيك أنت إنسان شهواني، فما بالك بإيفان، أخيك من أبيك؟ إنه كارامازوف هو أيضاً... إن مشكلة آل كارامازوف جميعاً تكمن هنا: هم أناس شهوانيون، أناس طمّاعون، أناس بسطاء! إن أخاك إيفان يسلّي نفسه الآن بنشر مقالات لاهوتية من باب الهزل، خاضعاً في ذلك لحساب سخيف مجهول، وهو في حقيقته ملحد، وهو لا يخشى أن يعترف بهذه الحطة، أخوك الطيب إيفان! وعدا هذا يحاول أن يسلب أخاك ميتيا خطيبته، وسيظفر بذلك فيما يبدو. كيف؟ وزيادة على هذا يفعل ذلك بموافقة ميتيا نفسه، لأن ميتيا يتنازل له عن خطيبته، بغية أن يتحرر منها، وأن ينصرف إلى جروشكا بأقصى سرعة. وهذا كله، لاحظ ذلك إلى جانب نفسه النبيلة المبرأة من المنفعة! إن أمثال هؤلاء الرجال هم من أشد الناس خطراً! الشيطان وحده يعلم ماذا يجري في نفوسكم. إن أخاك نفسه يدرك حطته وصِغَرَ نفسه، وهو نفسه يندفع إليها! اسمع أيضاً: إن أباك، العجوز الصغير، قد وقف الآن يعترض طريق ميتيا. لقد أفقدته جروشنكا هذه صوابه، فمتى لمحها سال لعابه شبقاً. وبسببها وحدها إنما أثار منذ قليل تلك الجرسة في حجرة الشيخ، لأن ميوسوف قد سمح لنفسه بأن يصفها بأنها مخلوقة سيئة السلوك. إن أباك مجنون جنون قط بقطة... لقد استخدمها في الماضي بأجرٍ في شؤون حقيرة من شؤون الخمارات التي يديرها. فلما لاحظ ذات يوم أنها جميلة، اشتعل اشتعالَ نار في الهشيم على الفور، وهو منذ ذلك اليوم يكدّ ويجهد في ملاحقتها، ويحاصرها بعروضه، عروضه الخسيسة طبعاً... ولكن الأب سيصطدم على تلك الطريق بالابن. وأما جروشنكا فهي لمّا تعزم أمرها بعد، وإنما هي تمثل عليهما كليهما، وتتسلى بإلهاب نار غرامهما وتمحص أيهما أنفع لها وأجدى عليها. فأما الأب فإنها تستطيع أن تسحب منه مالاً ولكنه لن يتزوجها، وهي تعلم ذلك، حتى لقد يعود إلى بخله بعد أن يكسب المعركة فيوصد دونها خزنته. وذلك هو السبب في أنها لا تهمل ميتيا ولا ترى أن عليها أن تحفل به، فإن كان ميتيا لا يملك مالاً فإنه قادر على أن يتزوجها، على أن يتزوجها تماماً! يدع خطيبته ذات الجمال الذي لا يضاهى، يدع كاترينا إيفانوفنا ذات المحتد النبيل، ابنة الكولونيل، ليصبح زوج جروشنكا التي كانت في الماضي محظية تاجر عجوز، فلاح فاسق، اسمه سامسونوف، هو عمدة المدينة. ذلك كله ظرف يمكن أن يؤدي حقاً إلى جريمة. وهذا بعينه هو ما ينتظره أخوك إيفان، وهو يجني من ذلك فائدة من كل ناحية من النواحي. يظفر بكاترينا إيفانوفنا التي يتوق إليها، ويظفر ببائنتها التي تبلغ ستين ألف روبل، وذلك أمر لا يستخف به رجل صغير معدم مثله. لاحظ أيضاً أنه لا يكون في هذا كله قد أساء إلى ميتيا، وإنما يكون قد أحسن إليه إحساناً يعتز به... إنني أعلم من مصدر مطلع أن ميتيا، وقد كان منذ أسبوع في إحدى الخمارات ثملاً يقضي وقته مع نساء غجريات، قد صرح بصوت عالٍ أنه غير جدير بخطيبته كاتنكا [62]، وأن أخاه إيفان هو الجدير بها حقاً. أما كاترينا إيفانوفنا نفسها فمن المؤكد أنها لن تصمد مدة طويلة أمام رجل مغوٍ مثل إيفان فيدوروفتش، حتى إنها منذ الآن مترددة بين الاثنين. إلا أني لأتساءل ما الذي تجدونه أنتم جميعاً في إيفان هذا حتى تفتتنوا به هذا الافتتان، وحتى تكونوا أمامه في حالة تشبه أن تكون وجداً! صدقني إذا قلت لك إنه يسخر منكم ويضحك عليكم جميعاً.
سأله أليوشا بلهجة جافة وهو يقطب حاجبيه:
- من أين عرفت هذه الأشياء كلها؟ ولماذا تؤكدها هذا التأكيد القاطع؟
- ولماذا تسألني هذا السؤال بينما أنت تخاف جوابي؟ إنك تسلّم إذاً، في قرارة نفسك، بأنني على حق.
- أنت تحمل عداوة لإيفان! ليس إيفان بالرجل الذي يرضى أن يغريه بالمال.
- صحيح؟ طيب... وما قولك بجمال كاترينا إيفانوفنا؟ ليست المسألة مسألة مالٍ فحسب، رغم أن ستين ألف روبل مبلغ مغرٍ.
- إيفان يهدف إلى ما هو أسمى من ذلك لن يغتر بألوف الروبلات. إنه لا يسعى إلى المال والاطمئنان. ربما يتوق إلى الألم ويرنو إلى العذاب.
- ما هذا الحلم أيضاً؟ ألا إنهم جميعاً لمتشابهون، هؤلاء النبلاء! - اسمع يا ميشا! إن نفس إيفان عاصفة، وإن عقله مهموم. إن فكراً عظيماً يقطن فيه ويعذّبه. هو من أولئك الذين لا يسعون إلى الملايين، وإنما يتطلعون إلى حل مشكلات فكرهم.
صاح راكيتين يقول مفصحاً عن كره أصبح لا يخفي نفسه:
- ترهات لفظية، سرقات أدبية! إنك لم تزد على أن حوّرت أقاويل شيخك. أما إيفان فقد ألقى عليكم لغزاً!
قال راكيتين ذلك بحقد غير مكتوم حتى تبدل تعبير وجهه، وتقبضت شفتاه، وتابع كلامه:
- ولكنه لغز سخيف! ما من شيء فيه إلا ويمكن حزره بسهولة. يكفي أن تفكر قليلاً حتى تفهم كل شيء. إن مقالته مضحكة باطلة! أما النظريات التي عرضها منذ قليل فهي غبية بليدة! «لا وجود للفضيلة ما دام لا وجود للخلود، ويعني ذلك أن كل شيء مباح». (وقد صاح أخوك ميتنكا عندئذٍ يقول: «إنني سأحفظ هذا الكلام»، هل تتذكر؟) هذه نظرية تغري أناساً أوغاداً. مالي أصبح فظاً فأنطق بهاجر القول، هذه بلاهة! لا... ليسوا أناساً أوغاداً، بل مثقفين أدعياء يحملون في أنفسهم «أفكاراً عميقة عويصة»! ألا إنه لمتبجّح!
إن جوهر تفكيره هو ما يلي: «من جهة أولى يستحيل عدم الإنكار، ومن جهة أخرى يستحيل عدم الاعتراف!» ليست نظريته كلها، إلا سفاهة! إن الإنسانية ستجد في نفسها القدرة على أن تحيا للفضيلة، سواء أآمنت بخلود الروح أم لم تؤمن! لسوف تجدها في استلهام المعاني الحرية والمساواة والأخوة...
لقد أصبح راكيتين عاجزاً عن كبح جماح نفسه، فالتهب حماسة. وها هو ذا يثوب إلى رشده كأنه تذكر فجأة شيئاً ما.
قال وهو يبتسم ابتسامة مصطنعة متكلفة أكثر من الابتسامة السابقة:
- كفانا كلاماً في هذا الموضوع لماذا تضحك؟ أتحسبني وضيعاً؟
- لا... ليس يخطر ببالي أن أحسبك وضيعاً. أنت إنسان ذكي... ولكن دع عنك هذا... فقد ضحكت بغير سبب. أنا أفهم حق الفهم أن من الممكن أن تندفع هذا

الاندفاع يا ميشا. لقد أدركت من اللّهجة الجامحة والنبرة العنيفة في أقوالك أنك أنت أيضاً لست تشعر نحو كاترينا إيفانوفنا بعدم الاكتراث. وقد راودني هذا الظن منذ زمن طويل أيها الأخ. فذلك هو السبب في أنك تكره إيفان. هل تغار منه عليها؟
- لعلني أغار منه على بائنتها أيضاً؟ هه؟ أكمل كلامك يا أخي. - لا... لن أتكلم عن المال... لن أهينك.
- أصدق قولك ما دمت قد قلته. ولكن فليأخذكم الشيطان، أنتم جميعاً وأخاك إيفان.... ألا يمكنكم أن تفهموا إذن أن في وسع المرء أن يكرهه بصرف النظر عن كاترينا إيفانوفنا؟ هلاً قلت لي لماذا يجب علي أن أحبه؟ لقد قال عني سوءاً منذ أيام، أفلا يكون من حقي والحالة هذه أن أقول فيه سوءاً أنا أيضاً؟
- لم أسمعه يتحدث عنك يوماً، لا بخير ولا شر... إنه لا يهتم بك.
- أما أنا فقد قالوا لي إنه، منذ ثلاثة أيام، قد قال عني، في منزل كاترينا إيفانوفنا، كلاماً أهون منه الشنق. إنه يجهل من أنا، إنه يجهل خادمك المطيع! أما من منا يغار من الآخر، فهذا سؤال في رأي فيه! لقد تفضل فقال عني إنني إن لم أعتزم في مستقبل قريب جداً أن أصبح أرشمندريت ولم أقرر أن أترهب، فسأسافر حتماً إلى بطرسبرج، فأعمل هنالك في مجلة كبرى، كناقد طبعاً... وأبقى محرراً حوالي عشر سنين، ثم أصبح بعد ذلك صاحب المجلة، وأوجّه المجلة في اتجاه آخر، فأجعلها مجلة ليبرالية ذات ميول إلحادية مع صبغة اشتراكية، وحتى مع نوع من بريق الاشتراكية مراعياً رغم ذلك قواعد الحكمة والحذر... معنى هذا أنني سألعب على الحبلين، وسأخدع الناس! وبعد ذلك، حين أشارف على نهاية حياتي الصحفية، أكون قد جمعت في رأي أخيك رأسمالاً ضخماً رغم الصبغة الاشتراكية، فأستثمر رأس المال هذا بمعاونة يهودي صغير ما، إلى أن أبني عمارة فخمة في بطرسبرج، فأجعل طابقها الأرضي مقراً لتحرير المجلة، وأؤجر باقي العمارة شققاً. حتى لقد حدد أخوك المكان الذي سأبني فيه العمارة فقال إنني سأبنيها قرب جسر كاميني الذي سيقام فيما يقال عل نهر نيفا في بطرسبرج [63] بين حي ليتايني وحي فيبورج...
- ولكن هذا بعينه هو ما سيحدث يا ميشا نقطةً نقطة في أغلب الظن! كذلك هتف أليوشا يقول وقد أخذ يضحك ضحكاً فرحاً لم يستطع أن يمسك عنه.
- أنت أيضاً أصبحت ساخراً يا ألكسي فيدوروفتش.
- لا... لا.. تلك مزحة... سامحني! وإنما كنت أفكر في شيء آخر تماماً. ولكن قل لي: من قصّ عليك هذه التفاصيل، ومن أين جئت بها؟ إنك لم تكن حاضراً عند كاترينا إيفانوفنا فيما أتخيل، حين دار الحديث عنك!
- لم أكن حاضراً هناك، ولكن دمتري فيدوروفتش كان حاضراً. ومنه إنما سمعت هذا الكلام بأذنيّ. أو قل إن شئت إنه لم يذكره لي أنا، ولكنني سمعته على غير إرادة مني طبعاً، لأنني كنت في غرفة نوم جروشنكا، ولم أكن أستطيع الخروج من الغرفة، لأن دمتري فيدوروفتش كان جالساً في الغرفة المجاورة.
- صحيح... لقد نسيت إنها قريبتك... أليس كذلك؟ - قريبتي؟ جروشنكا قريبتي؟ أتُراك جُننت؟ أيكون عقلك مختلاً؟ كذلك صاح راكيتين وقد احمر احمراراً شديداً. - لماذا؟ ألستما قريبين؟ لقد سمعت أنكما قريبان...
- سمعت؟ أين سمعت هذا؟ إنكم معشر السادة كارامازوف، تصطنعون أوضاع من ينتمي إلى الطبقة النبيلة العريقة، على حين أن أباك كان مهرجاً على موائد الأغنياء، وهؤلاء كانوا يشرفونه أحياناً بوجبة يأكلها في المطبخ! أنا أعلم! أنني مجرد ابن قس، وهذا يجعلني في نظركم، أنتم النبلاء، إنساناً لا قيمة له، ولكن هل ذلك سبب كافٍ لتهينني بهذه الخفة وهذا الطيش إهانة لا داعي إليها؟ إن لي كرامتي وشرفي أنا أيضاً يا ألكسي فيدوروفتش! أنا لا يمكن أن أكون قريب جروشنكا، البنت المبذولة، فاعلم هذا!
كان راكيتين غاضباً مهتاجاً.
- معذرة... سامحني... أرجوك! لم يكن في وسعي أن أعرف هذا. ثم لماذا تصفها بأنها مبذولة؟ ألعلها... واحدة من تلك النساء؟
كذلك سأله أليوشا وهو يحمر على حين فجأة. ثم أردف يقول:
- أعود فأقول لك إنني قد ذُكر لي إنها قريبتك. وأنت تراها أحياناً كثيرة، وقد أكدت لي بنفسك أن ليس بينك وبينها علاقات حب... فهل كان يمكنني أن أتصور أنك تحتقرها إلى هذه الدرجة من الاحتقار؟ وهل هي تستحق هذا الاحتقار حقاً؟
- قد يكون ثمة أسباب تدعوني إلى التردد إليها. لن أقول لك أكثر من ذلك. أما القرابة مع جروشنكا فإن أخاك، أو ربما أباك، هو الذي سيفرض عليك هذه القرابة، يفرضها عليك أنت لا عليّ أنا... ها نحن وصلنا الآن. الأفضل أن تمضي رأساً إلى المطبخ. آه.. ولكن ما الذي يحدث؟ أنكون قد تأخرنا إلى هذا الحد من التأخر؟ لا يمكن أن يكونوا قد فرغوا من تناول الغداء مع ذلك! اللّهم إلا أن يكون الأخوان كارامازوف قد دبرا «مقلباً» كما عُهد فيهم! أكيد... هذا أبوك يبتعد، ووراءه إيفان فيدوروفتش. إنهما يهربان من عند الأب كبير الرهبان. وهذا هو الأب أسيدور على درجات المدخل يصيح لهما بكلام. إن أباك يصيح أيضاً، ملوِّحاً بيديه. إنه يقذف شتائم، فيما يبدو... انظر! هذا ميوسوف قد خرج راكباً عربته. هل تراه؟ وهذا ماكسيموف الإقطاعي يركض في تلك الجهة! ألا إنها لفضيحة حقاً! إذاً لم يتم الغداء... أتراهم ضربوا كبير الرهبان؟ اللّهم إلا أن يكونوا هم الذين ضُربوا! ما أجدرهم بذلك، وددت لو أرى ذلك!
لم يكن تعجّب راكيتين في غير محله. لقد وقعت فضيحة فعلاً... لم تكن في الحسبان... فضيحة لم يُسمع بمثلها من قبل... وقعت بمجرد «وحي وإلهام».

-8-فضيحة

حين وصل ميوسوف وإيفان فيدوروفتش إلى عند رئيس الدير، تغيرت حالة بيتر ألكسندروفتش النفسية تغيراً سريعاً، بتأثير طبيعته المهذبة المرهفة: لقد شعر فجأة بالخجل من حنقه. أحس في قرارة نفسه أنه كان عليه أن يحتقر ذلك الرجل السافل فيدور بافلوفتش مزيداً من الاحتقار، فما يفقد هدوءه في صومعة الشيخ بسببه، إلى حيث يفلت منه زمام سيطرته على نفسه. قال لنفسه وهو يصعد درجات المدخل إلى مسكن رئيس الدير: «مهما يكن من أمر، فإن الرهبان لا يتحملون تبعة شيء مما حدث، فما ينبغي أن أؤاخذهم.. وما داموا هم أيضاً أناساً محترمين (أحسب أن هذا الأب نيقولاي، رئيس الدير، يرجع إلى أصل نبيل هو أيضاً)، فلماذا لا أكون في معاملتهم لطيفاً رقيقاً مهذباً؟.. لن أتهجم على آرائهم، بل سأتظاهر بتأييدها، فأكسب مودتهم، وسأبرهن لهم أخيراً على أنني لا شيء يجمعني بهذا الرجل القاسي الغليظ، هذا المهرج، هذا التافه، وأني في هذه المغامرة كلها ضحية مثلهم جميعاً...».
أما حقوق قطع الأشجار في الغابة، وحقوق الصيد في النهر (وكان ميوسوف لا يعلم على وجه الدقة ما هو الجزء الذي كان يقوم عليه الخلاف من أراضيه)، فقد قرر أن يتنازل لهم عنها تنازلاً كاملاً نهائياً، وأن يعلن هذا التنازل في ذلك اليوم نفسه، لا سيما وأن قيمة ذلك كله زهيدة، وأن يضع حداً لكل الدعوى القديمة التي أقامها على الدير.
وقد تعززت نياته الطيبة هذه في نفسه مزيداً من التعزز حين دخلوا غرفة طعام رئيس الدير. والحق أن الغرفة لم تكن غرفة طعام، ذلك أن مسكن رئيس الدير كان لا يتجاوز غرفتين. ولئن كانت هاتان الغرفتان أوسع مساحة وأوفر راحة من غرف الشيخ، فإن الأثاث فيهما بسيط غاية البساطة أيضاً: هو أثاث من خشب الأكاجو منجَّد بالجلد من الطراز القديم البالي الذي كان رائجاً في العقود الأولى من هذا القرن. حتى إن الأرض لم تكن مطلية. ولكن كل شيء كان في مقابل ذلك يسطع نظافة، وكانت حافات النوافذ تزدان بأزهار ثمينة. على أن الشيء الذي كان يجذب الانتباه ويفتن البصر في تلك اللحظة خاصة إنما هو تلك المائدة المرتبة الحافلة، رغم أنها ليست على جانب عظيم من الترف: غطاء نظيف، ألوان لامعة، ثلاثة أصناف من الخبز أحسن خَبْزُها، زجاجتان من نبيذ، قمقمان مليئان بشراب العسل اللذيذ الذي صُنع في الدير، إبريق كبير من زجاج فيه شراب الكفاس الذي يُصنع بالدير واشتهر كثيراً في المنطقة كلها. ولم يكن على المائدة فودكا. وقد روى راكيتين فيما بعد أن وجبة الطعام في ذلك اليوم كانت تضم خمسة أطباق: حساء سمك مع فطائر سمك، فسمكاً مشوياً بطريقة خاصة يقال إنها رائعة، ثم كستليتات من سمك الحفش، فجيلاتي، فثماراً مسلوقة بالسكر، فبالوظة فاكهة [64]. كان راكيتين قد اطلع اطلاعاً دقيقاً على كل شيء. إنه لم يستطع أن يقاوم فضوله، فتسلل حتى إلى مطبخ رئيس الدير، وكان يدخله من حين إلى حين؛ ولقد كانت له علاقات في كل مكان على كل حال، وكان يعرف كيف يكلم الناس. إن له نفساً قلقة حسوداً. وكان لرضاه العظيم عن كفاءاته الكبرى ومقدراته العظيمة، يميل إلى تضخيمها والمبالغة فيها. وكان واثقاً من أنه سيصبح في المستقبل شخصاً مرموقاً، وأنه سيمثل في الحياة دوراً كبيراً. ولكن أليوشا الذي كان يحبه كثيراً كان يؤلمه أن يلاحظ أن صاحبه يفتقر إلى الاستقامة والشرف، حتى إنه لا يظهر عليه أن يخطر بباله لحظةً أنه كذلك بل بالعكس، فإن راكيتين، لثقته بأنه لا يسرق مالاً من دروج الناس، كان يعدُّ نفسه مثال الكمال الأخلاقي.
وما كان لأليوشا، ولا كان لأحد في العالم كله، أن يحمله على تغيير رأيه في هذه النقطة. ولأن راكيتين شخصية ثانوية فإنه لم يكن من الممكن أن يدعى إلى وليمة الغداء هذه، غير أن الأبوين يوسف وبائيسي قد دُعيا إليها، كما دعي كذلك راهب آخر. ففي اللحظة التي وصل فيها بيتر ألكسندروفتش بصحبة كالجانوف وإيفان فيدوروفتش كان هؤلاء ينتظرون في غرفة طعام رئيس الدير، وكان المالك ماكسيموف جالساً كذلك في أحد الأركان. استقبل الأب رئيس الدير ضيوفه متقدماً إليهم حتى وسط الغرفة. إنه شيخ فارع القامة نحيل الجسم، ما يزال قوي البنية، بشيب كثير في شعره الأسود، له وجه طويل صارم وقور. حيَّا ضيوفه صامتاً، ولكن هؤلاء اقتربوا في هذه المرة يتلقون مباركته، حتى أن ميوسوف جازف فأراد أن يقبّل يده، غير أن الرئيس سحب يده في الوقت المناسب... أما إيفان فيدوروفتش وكالجانوف فإنهما أقبلا بغير تردد، وتلقيا مباركة رئيس الدير على نحو طبيعي بل وشعبي، وطبعا على يده قبلةً كبيرة سُمع صوتها. بدأ بيتر ألكسندروفتش الكلام وهو يبتسم ابتسامته الودودة اللطيفة، ولكن بلهجة في جد ووقار واحترام:
- نعتذر إلى سيادتك أصدق الاعتذار عن أننا جئنا إلى هنا دون أن يصحبنا فيدور بافلوفتش الذي تفضلت بدعوته أيضاً. لقد اضطر أن يعدل عن حضور الوليمة، ولهذا أسبابه لقد سمح لنفسه، في صومعة الأب المبجَّل زوسيما، بأن يندفع في مناقشات عائلية مؤسفة مع ابنه، فقال كلاماً في غير محله... أي بدرت منه أقوال غير لائقة أبداً.. وهذا أمر لا أظن أن سيادتك قد علمت به (قال هذا وهو ينظر إلى الراهبين الكاهنين). وقد أدرك خطأه، وشعر بأسف شديد، وأحس بالخجل، ولم يستطع أن يغالب خَجَله فرجانا أنا وابنه إيفان فيدوروفتش أن نعرب لك عن عميق ألمه وشديد أسفه وصادق ندمه... وهو يأمل أن يصلح خطأه في المستقبل، ويرجوك أن تتكرم اليوم فتهب له مباركتك صافحاً عنه ناسياً ما بدر منه...
صمت ميوسوف. فبعد أن أنهى خطابه المسهب قد بلغ من شعوره بالرضى عن نفسه أنه لم يبق فيه أي أثر للحنق الذي ألمَّ به من قبل. أصبح يحب الإنسانية من جديد، حباً صادقاً لا تردد فيه. أصغى رئيس الدير إلى كلامه بوقار ورصانة، ثم أحني رأسه قليلاً، وقال يجيبه:
- يؤسفني غياب رفيقكم كل الأسف. فلعله كان يستعلم محبتنا أثناء هذه المأدبة، ولعلنا كنا سنشعر نحوه بمحبة. تفضلوا فاتخذوا أماكنكم إلى المائدة أيها السادة.
ووقف أمام الأيقونة، وأخذ يتلو صلواته بصوت عال، فخفض جميع الضيوف رؤوسهم باحترام، وتقدم المالك ماكسيموف إلى أمام ضاماً يديه إحداهما إلى الأخرى معبراً عن تقوى خاصة. وفي تلك اللحظة بعينها إنما أخرج فيدور بافلوفتش من جعبته آخر مكيدة. يجب أن نذكر أنه قد كان في نيته حقاً أن ينصرف. كان قد أدرك فعلاً أن من المستحيل أن يحضر مأدبة رئيس الدير بعد سلوكه الشائن في صومعة الشيخ، حتى لكأن شيئاً لم يكن، لا لأنه كان يشعر بخجل خاص من نفسه، أو لأنه كان يلوم نفسه، فربما كان عكس هذا هو الأصح! ومع ذلك فقد شعر أن حضور المأدبة سيكون خالياً من الاحتشام تماماً. ولكن ما كادت عربته المترجرجة تصل إلى أمام درجات مدخل الفندق، حتى أحسَّ بتردد مفاجئ، فتوقف في اللحظة التي كان يهم أن يركب فيها العربة. تذكر أقواله نفسها التي نطق بها عند الشيخ: «إنني أشعر كلما دخلت على بعض الناس أنني أسوأ من الآخرين، وأن الجميع يعدونني مهرِّجاً! فأقول لنفسي عندئذٍ: فليكن! سأقوم بدور المهرج، لأنكم جميعاً أكثر مني غباوة، وأخبث سريرة». تمنى في تلك اللحظة لو ينتقم من صحبه بحقارته. وتذكر فجأة بهذا الصدد، أنه سئل مرةً في الماضي عن السبب الذي يجعله يكره فلاناً من الناس، فأجاب في اندفاعة من اندفاعات تهريجه الوقح قائلاً: «لماذا؟ سأقول لكم. صحيح أنه لم يسئ إليّ أية إساءة. ولكنني ارتكبت أنا في حقه حقارة سافرة، ومنذ تلك اللحظة أصبحت أكرهه بسبب تلك الدناءة التي ارتكبتها في حقه». فلما راودت هذه الذكرى فيدور بافلوفتش ضحك ضحكة خبيثة صامتة، وأخذ يفكر بضع لحظات، والتمعت عيناه، وارتعشت شفتاه، ثم ما لبث أن اتخذ قراره فجأة: «سوف أتم ما بدأته». إن الشعور الخفي الذي خضع له فيدور بافلوفتش في ذلك الظرف يمكن التعبير عنه على النحو التالي: «لقد فاتني أوان رد الاعتبار إلى نفسي. فالأَوْلى ما دام الأمر كذلك أن أمضيَ إلى النهاية بكل صفاقة، وأن أهينهم مزيداً من الإهانة، وأن أريهم على الأقل أنني لا أخشاهم، ولا أحفل بهم!» وها هو ذا يأمر الحوذي بأن ينتظر، ويعود أدراجه إلى الدير مستحثاً خطاه ليمضي إلى عند كبير الرهبان رأساً. لم تكن في رأسه أية خطة واضحة معينة، ولكنه يعلم أنه أصبح لا يستطيع السيطرة على نفسه، وأن أي أمر تافه يمكن أن يدفعه فجأة إلى الحدود القصوى من الدناءة دون أن يتعرض مع ذلك للمضي إلى أبعد من ذلك، ودون أن ينجرف إلى ارتكاب جريمة أو إلى اقتراف أي عمل يمكن أن يودي به إلى المثول أمام المحاكم. إنه يعرف دائماً كيف يحجم في هذه الحال، بل كثيراً ما كانت تدهشه سيطرته على نفسه في هكذا ظروف. ولقد وصل إلى غرفة طعام رئيس الدير في اللحظة التي كانت فيها الصلاة قد انتهت فاقترب الضيوف من المائدة. وقف ساكناً على عتبة الغرفة، وطاف ببصره على الحضور، ثم أطلق ضحكة طويلة وقحة خبيثة بينما هو يتفرس في جميع الأشخاص الحاضرين وقد ظهرت في وجهه معاني التحدي والاستفزاز. وصاح يقول بصوت دوَّى في الغرفة كلها: - ها... لقد ظنوا أنني انصرفت... فها أنذا أعود!
اتجهت إليه جميع الأنظار خلال لحظةً في جو من صمت مطبق، ثم أدرك الجميع فجأة أنه سيحدث شيء كريه طائش، وأن فضيحة ستقع حتماً. ولم يلبث بيتر ألكسندروفتش أن انتقل من حالة المزاج المشرق والخلق الرضي إلى حالة غضب شديد وحنق مسعور. إن الغيظ الذي كان قد هدأ في نفسه وانطفأ في قلبه قد اشتعل في مثل لمح البصر سرعة، وانطلق يتدفق تدفقاً قوياً. صاح يقول:
- لا.... لن أطيق ذلك! إنني لا أستطيع الصبر على هذا إطلاقاً... بأي وجه من الوجوه وبأي حال من الأحوال!
ازدحم الدم في رأسه، وتعثرت كلماته واختلطت أقواله. ولكن الأمر لم يكن أمر فصاحة!... وها هو ذا يتناول قبعته.
قال فيدور بافلوفتش:
- ما الذي لا يستطيع أن يصبر عليه «بأي حال من الأحوال؟» أتأمرني بالدخول؟ أيها الأب المبجل أم تأمرني بالانصراف؟ أتقبلني ضيفاً مدعواً إلى مائدتك؟
فأجابه رئيس الدير: - أهلاً وسهلاً، تفضل بكل سرور. ثم أسرع يقول للحضور:

- أيها السادة، إنني أسمح لنفسي بأن أرجوكم من أعماق قلبي أن تنسوا خلافاتكم العابرة، وأن يلتئم شملكم حول هذه المائدة مصلّين لله بعاطفة المحبة ووفاق الأخوة...
فأعول ميوسوف يقول وقد خرج عن طوره:
- لا.. لا.. هذا مستحيل! فقال فيدور بافلوفتش:
- إذا كان هذا مستحيلاً بالنسبة إلى بيتر ألكسندروفتش، فهو مستحيل بالنسبة إليّ أيضاً. لن أبقى أنا ما لم يبق هو. فعلى هذه النية إنما جئت. لن أترك بيتر ألكسندروفتش بعد الآن: فإذا انصرفت أنت يا بيتر ألكسندروفتش انصرفت أنا أيضاً، وإذا بقيت أنت بقيت أنا. ذلك هو وفاق الأخوة! لقد جرحته جرحاً عميقاً حين ذكرت وفاق الأخوة هذا أيها الأب الرئيس. إنه ينكر القرابة التي بيننا! أليس كذلك يا فون سون؟ ها هو فون سون حاضر. نهارك سعيد يا فون سون!
تمتم المالك ماكسيموف يسأل مذهولاً:
- أأنا الذي... تسميني بهذا الاسم؟ فقال فيدور بافلوفتش:
- طبعاً أنت! من عسى يسمى بهذا الاسم غيرك؟ ألعلك تحسب أن الأب الرئيس هو الذي يجب أن يسمي بهذا الاسم؟
قال ماكسيموف:
- ولكنني لست فون سون، وإنما أنا ماكسيموف.
- بل أنت فون سون! هل تعرف يا صاحب القداسة من هو فون سون؟ إنه بطل دعوى قضائية شهيرة. لقد قُتل في ماخور أحسب أن هذا هو الاسم الذي تطلقونه على تلك الأماكن قُتل... وجرِّد من كل ما كان معه، ثم وضع في صندوق دون مراعاة لتقدمه في السن، ثم سُمِّر الصندوق، ثم شُحن طرداً بسيطاً مرقماً من بطرسبرج إلى موسكو بعربة الشحن. وبينما كان الصندوق يسمَّر كانت الراقصات الداعرات [65] يغنين ويرقصن على أنغام السنطور، أعني على أنغام البيانو. إن فون سون ذاك هو الذي ترونه الآن أمامكم. لقد بُعث بعد موته. أليس هذا صحيحاً يا فون سون؟ - ما هذا الكلام؟ ماذا جرى؟
هذا ما هتفت به جماعة الرهبان الكهنة من كل جهة. صاح بيتر ألكسندروفتش يقول متجهاً نحو كالجانوف: - هيا بنا!
فتدخل فيدور بافلوفتش يقول بصوت حاد موعوع وهو يتقدم إلى الأمام خطوة أخرى:
- لا.. لا.. اسمحوا لي.. تحملوا أن أنهي كلامي أولاً! لقد ادُّعي أنني تصرفت تصرفاً خالياً من الاحتشام في صومعة الشيخ منذ قليل. لماذا؟ لأنني أتيت على ذكر الأسماك الصغيرة! إن بيتر ألكسندروفتش، قريبي المحترم، يؤثر أن يكون في الكلام من الرِّفعة أكثر مما فيه من الصدق أما أنا بالعكس، أقول: فلتذهب الرفعة إلى الشيطان! أليس هذا صحيحاً يا فون سون؟ أيها الأب الرئيس المحترم! قد أكون مهرجاً، وإنني لأقدم نفسي مهرجاً، ولكنني فارس من فرسان الشرف، وأحب أن أفصح هنا عن رأي. نعم، أنا فارس من فرسان الشرف، على حين أن بيتر ألكسندروفتش هذا ليس إلا حزمةً من غرور جريح، ولا شيء غير هذا. لئن جئت إلى هذا الدير، فإنما على نية أن ألاحظ وأن أحكم. إن ابني ألكسي يحقق في هذا الدير خلاصه. وأنا أبوه. فمصيره يهمني، ومن واجبي أن أسهر عليه. لقد ظللت أصغي إلى ما كان يقال وأمثّل طوال الوقت وألاحظ، أما الآن فأحب أن أعرض عليكم الفصل الأخير من تمثيليتي! إنني أعرف كيف تجري الأمور عندنا. ما سقط لن ينهض. عندنا إن سقط شيء مرة فعليه ألا ينهض قروناً! ولكن لا... إنني أرغب أن أنهض! أيها الآباء المحترمون! إن آراءكم تثير في نفسي أعمق الاستياء! الاعتراف سرٌّ مقدس أشعر أنا نفسي تجاهه بتقوى شديدة، وعبادة خاشعة! ولكن الناس في تلك الصومعة يعترفون جاثين على ركبهم، متكلمين بصوت عالٍ. فهل الاعتراف بصوت عالٍ أمر جائز؟ إن آباء الكنيسة قد أمروا بأن يتم الاعتراف همساً في الأذن، وبهذا الشرط وحده إنما يبقى الاعتراف سراً مقدساً. تلك قاعدة قديمة محترمة. كيف تريدون مني مثلاً أن أروي بحضور جميع الناس أني فعلت كيت وكيت.
- هل تفهمون؟
- كيت وكيت... قد لا يكون من الحشمة أحياناً أن يروي المرء أموراً بعينها. تلك فضيحة أيها الآباء المبجَّلون! هذه الطريقة قد تؤدي بنا شيئاً بعد شيء إلى ملة الخليستي [66]... أما ابني ألكسي فقد قررت أن أصطحبه إلى منزلي...
هناك ملاحظة يجب علينا أن نذكرها هنا. كان فيدور بافلوفتش قد سمع في الماضي صدى ضعيفاً عن الخلافات الإكليركية، فهو يعرف على أي وتر يجب أن يضرب. إن وشايات خبيثة كانت قد انتشرت في الماضي، فوصلت حتى إلى الأسقفية (حدث هذا لا في ديرنا وحده بل حدث كذلك في أديرة أخرى دخلها نظام المشايخ). قيل فيما قيل إن الاحترام الذي يحاط به المشايخ فيه غلو كثير، وإنه لا داعي إليه، بل قيل أيضاً إنه يسيء إلى مهابة رؤساء الأديرة ويسيء إلى كرامتهم. وقيل خاصة إن المشايخ يسيئون استعمال سر الاعتراف وقيلت أيضاً أقاويل كثيرة من هذا النوع. كانت هذه الاتهامات سخيفة، ولذلك سقطت في وقتها من تلقاء نفسها عندنا، كما سقطت في كل مكان على كل حال. ولكن الشيطان الأحمق الذي ركب فيدور بافلوفتش وأخذ يهوي به متوتر الأعصاب إلى قاع الدناءة قد لقنه هذا الاتهام القديم الذي كان فيدور بافلوفتش لا يدرك منه كلمة واحدة على كل حال، حتى إنه لم يحسن صياغة هذا الاتهام صياغة مفهومة، لا سيما وأن أحداً لم يكن قد جثا على ركبتيه أمام الشيخ في ذلك اليوم، ولا اعترف بصوت عالٍ، ومعنى هذا أن فيدور بافلوفتش لم ير بعينيه شيئاً وإنما هو يردد ما كان قد سمعه، متذكراً أقاويل قديمة. لكنه وقد أخرج هذه الحماقة لم يلبث أن شعر بأنه قال كلاماً سخيفاً فأراد عندئذٍ أن يبرهن للآخرين، وأن يبرهن لنفسه خاصة، أن ما قاله ليس فيه شيء من سخف ورغم أنه كان يدرك إدراكاً كاملاً أن كل كلمة أخرى يقولها إنما تفاقم بشاعة كلامه وتجعله يتردى في الطيش والحماقة مزيداً من التردي. فإنه لم يستطع أن يتوقف على المنحدر، بل أخذ يهوي إلى القاع منكَّس الرأس. صرخ بيتر ألكسندروفتش يقول: - يا للحقارة!
فتدخل كبير الرهبان فجأة يقول:
- اسمح لي. جاء في كلام الأقدمين: «قد قيل عني سوء، وقد اتهمت بأشياء منكرة. فلما سمعت تلك الأقوال، قلت لنفسي: «إن المسيح هو الذي أرسل إليّ هذا الدواء لأشعر أنه يفرض عليّ هذه المحنة لأخلص نفسي من غرورها». لذلك يا ضيفنا العزيز نشكر لك كلامك أجزل الشكر!
قال كبير الرهبان ذلك وحيًّا فيدور بافلوفتش منحنياً له انحناءةً كبيرة.
- ته ته ته!... نفاق قديم وجمل مهترئة!... معروفةٌ هذه الجمل وهذه الحركات! لا تخدعني هذه التحيات الرسمية! «قبلة على الشفتين وطعنة في القلب» [67] تماماً كما ورد في كتاب شيللر «قطاع الطرق»! إنني أكره الكذب أيها الآباء، وأحب الحقيقة! ولكن الحقيقة ليست في أكل الأسماك الصغيرة، سبق أن قلت لكم ذلك! هلاَّ قلتم لي أيها الآباء لماذا تصومون؟ لماذا تنتظرون مكافأة في السماء على ما تحتملونه من حرمان؟ إلا أنني مستعد أنا أيضاً لأن أصوم راضياً في سبيل مكافأة من هذا النوع! دعك من هذا أيها الراهب المقدس، هيا مارس الفضيلة في الحياة وكن نافعاً للمجتمع، دون أن تلوذ بدير لتعيش على ما يقدمه غيرك وتنتظر مكافأة في الآخرة. لا شك أن هذا يكون أصعب وأشق... أنا أيضاً أجيد الكلام أيها الأب الرئيس.. قال ذلك ثم اقترب من المائدة وأضاف: - فلننظر ماذا أعدوا هنالك! يا سلام... خمر معتق، وشراب العسل اللذيذ الذي يباع في متجر الأخوة اليسايف [68] ، فليس الأمر أمر أسماك صغيرة في هذه المرة، أليس كذلك أيها الآباء الطيبون؟ هيه... هيه... ما أروع هذه الزجاجات التي أخرجوها! ومن ذا الذي أمد الدير بهذه الأشياء؟ من؟ الفلاح الروسي الطيب الشهم الذي يعمل ويكد ويجهد، ثم يدفع إلى الدير بالكوبيكات التي جنتها يداه المتشققتان، مهملاً أسرته ناسياً حاجات الدولة! ألا إنكم لتمصون دم الشعب، أيها الآباء المبجلون!
قال الأب يوسف:
- عيب ما تقول.
أما الأب بائيسي فقد أصرَّ على الصمت في عناد. وأسرع ميوسوف يخرج من الغرفة، وتبعه كالجانوف. قال فيدور بافلوفتش:
- إنني أتركَكم أيها الآباء الطيبون، تماماً كما فعل بيتر ألكسندروفتش! ولن أجيء بعد اليوم إليكم، فلو تضرعتم إليّ جاثين على ركبكم ما عدت قط! لقد أهديت إليكم ألف روبل، فأيقظ هذا شهوتكم وأسال لعابكم، أليس كذلك؟ هأ هأ... لا جدوى من هذا... لن أعطيكم بعد الآن شيئاً. ثم صاح وهو يضرب المائدة بقبضة يده، وقد عصفت به سورة عنف مقصود:
- لشبابي المنقضي وكل الإهانات التي قاسيتها إنما أنتقم الآن! إن هذا الدير الصغير قد لعب في حياتي دوراً! جعلني أسكب سيولاً من دموع مرة! أهجمَ عليَّ زوجتي الكليكوشا. أثقلتموني باللعنات في جميع مجالسكم السبعة [69]، وأسأتم إلى سمعتي في المنطقة كلها! كفى كفى أيها الآباء! إننا نعيش في عصر ليبرالي، إننا نعيش في عصر سفن البخار وسكك الحديد. لن أعطيكم لا ألف روبل ولا مائة روبل، ولا مائة كوبيك... لن أعطيكم شيئاً البتة!
ملاحظة أخرى: إن الدير لم يحتل في حياته مكاناً في يوم من الأيام، ولا جعله يسكب دموعاً مرة. ولكن الرجل قد بلغ من اندفاعه في التمثيل أنه أوشك أن يصدِّق هو نفسه، خلال لحظة قصيرة، الألم الذي كان يتظاهر به، حتى لقد كاد يبكي إشفاقاً على نفسه، ومع ذلك أحس في تلك اللحظة بالذات أنه قد آن له أن يعود أدراجه.

أما كبير الرهبان فإنه لم يردَّ على أكاذيبه الخبيثة التي نطق بها إلا بأن انحنى برأسه انحناءة خفيفة، وقال بصوت رصين:
- لقد قيل أيضاً: «افرح للإهانة الظالمة التي تُلحق بك على رؤوس الأشهاد، دون أن تضطرب، ودون أن تغضب ممن أهانك». وذلك ما سنفعله.
- ته ته ته... سفاسف وترهات! لكم ما تشاؤون أيها الآباء الطيبون أما أنا فذاهب. وسآخذ ابني ألكسي من هذا المكان إلى الأبد، بحكم ما لي عليه من سلطة الأب على ابنه. يا إيفان فيدوروفتش يا بني المطيع، هلاَّ تحملت أن آمرك بأن تتبعني! وأنت يا فون سون، ليس لك ما تفعله هنا أنت أيضاً! تعال إليّ بالمدينة في غير إبطاء! إن المرء ليتسلى هناك ويروِّح عن نفسه، وليست المسافة بعيدة. هي فرسخ صغير. وسأطعمك خنزيراً صغيراً بالبرغل بدلاً من أكل الصيام هنا. سوف تتغذّى عندي. وسيكون على المائدة كونياك وخمور لذيذة. عندي خمرة رائعة من فاكهة التوت. هيه! فون سون! لا تفوِّت فرصة سعادتك!
قال ذلك وخرج وهو يصرخ محركاً يديه. وفي تلك اللحظة إنما لمحه راكيتين منصرفاً، ودلَّ عليه أليوشا.
فلما رأى الأب ابنه صاح يقول له من بعيد:
- ألكسي! عد إلى البيت في هذا اليوم نفسه، عد نهائياً... خذ وسادتك وفراشك، ولتغب عن هذا المكان إلى الأبد!
توقف أليوشا مذهولاً، ينظر إلى المشهد بانتباه أخرس. كان فيدور بافلوفتش قد اتخذ مكانه في عربته، وكان إيفان فيدوروفتش يتهيأ لأن يتبعه مظلم الوجه صامتاً، حتى دون أن يلتفت إلى وراء ليودِّع أليوشا. وفي تلك اللحظة إنما وقع مشهد جديد لا يتصوره العقل، مشهد تهريجي عجيب، كان لا بد أن يختم حوادث ذلك النهار. إن المالك ماكسيموف قد ظهر فجأة أمام مصعد العربة. كان يلهث لهاثاً شديداً بعد أن ركض ركضاً سريعاً حتى لا يصل متأخراً. كان راكيتين وأليوشا قد رأياه يندفع راكضاً. وقد بلغ من شدة التعجل أنه وضع قدمه على مصعد العربة بينما كانت قدم إيفان فيدوروفتش اليسرى ما تزال عليها، وتمسك بهيكل العربة وأخذ يبذل جهوداً كبيرة ليثب إلى داخلها. صاح يقول بصوت نحيل وهو يقفز إلى العربة ويطلق ضحكة صغيرة فرحة، وقد أشرق وجهه وبدا عليه أنه مستعد لكل شيء:
- خذوني معكم! فهتف فيدور بافلوفتش يقول بلهجة المنتصر:
- ألم أقل إنه فون سون؟ إنه فون سون الأصلي رجع من عند الأموات! ماذا فعلت حتى خرجت من هناك؟ باي واجب من واجبات الأدب أخللت، وما الذي دعاك إلى العدول عن غدائهم؟ لا بد أن لك جبهة من تلك الجباه الفولاذية! إن لي جبهة أنا أيضاً، ولكن لا يسعني أيها الأخ إلا أن أعجب بجبهتك! هيا اقفز، اقفز بسرعة! دع له أن يمر يا فانيا ([70]).. سيكون هذا مضحكاً. سوف يجد مكاناً بين أقدامنا. أليس يريحك أن تقعد بين أقدامنا يا فون سون؟ أم الأفضل أن يجلس على المقعد بجانب الحوذي؟ اقفز إلى المقعد بجانب الحوذي يا فون سون!...
ولكن إيفان فيدوروفتش الذي كان قد استقر في العربة لم يلبث أن أرسل إلى صدر ماكسيموف ضربة قوية دون أن ينطق بكلمة واحدة، فإذا بماكسيموف يطير مترين. وكانت معجزة أنه لم يسقط.
وصرخ إيفان فيدوروفتش يأمر الحوذي بصوت غاضب: - تحرك! فسأله فيدور بافلوفتش:
- ما بك؟ لماذا ضربته؟ ولكن العربة كانت قد سارت. ولم يجب إيفان فيدوروفتش.
أردف فيدور بافلوفتش يقول بعد دقيقتين من صمت، وهو يختلس النظر إلى ابنه:
- عجيب أمرك! أنت الذي تخيلت هذه الزيارة للدير، ودفعتني إليها، وشجعتني عليها، فما لي أراك الآن غاضباً؟
فقاطعه إيفان فيدوروفتش يقول بصوت قاس:
- كفَّ عن قول هذه السخافات. أَوْلى بك الآن أن ترتاح. وصمت فيدور بافلوفتش من جديد، دقيقتين، ثم قال في تفخم: - قليل من الكونياك لن يضر الآن... ولكن إيفان فيدوروفتش لم يستجب. قال الأب:
- ستشرب معي قليلاً من الكونياك عندما نصل. وظل إيفان فيدوروفتش صامتاً. فأردف فيدور بافلوفتش يقول بعد أن ظل صامتاً دقيقتين لا أكثر:
- أما أليوشا فسأخرجه من الدير مع ذلك، رغم أن إخراجه قد لا يرضيك كثيراً أيها الابن المطيع جداً، كارل فون مور.
ولم يزد جواب إيفان فيدوروفتش على أن هزَّ كتفيه احتقاراً. ثم أشاح بوجهه، وأخذ يتأمل الطريق. ولم يتبادلا بعد ذلك كلمة واحدة إلى أن بلغا المنزل.

الباب الثالث: الشهوانيون

-1-في الخدمة

إن منزل فيدور بافلوفتش، رغم أنه بعيد جداً عن وسط المدينة، فلم يكن مع ذلك في أقصى الضاحية. هو مبنى أميل إلى القدم، لكنه حسن المظهر: طابق أرضي واحد، ذو عليّة، رمادي اللون، يغطيه سقف من صفيح أحمر قد أُحسن بناؤه، يضم خزائن مظلمة متعددة، وأركاناً منعزلة كثيرة، وسلالم صغيرة تباغتك هنا وهناك؛ الفئران فيه كثيرة، ولكن فيدور بافلوفتش لا يزعجه وجودها، حتى لقد كان يقول: «إن المرء لا يحس بالعزلة كثيراً في المساء، إذا كان هنالك فئران». ذلك أنه تعوَّد عند هبوط المساء أن يصرف خدمه الذين يسكنون في مبنى ملحق، فيحبس نفسه بالمنزل طيلة الليل. وكان ذلك المبنى الملحق، وهو مبنى واسع متين، يقع في الفناء، وهناك إنما كان فيدور بافلوفتش قد أقام مطبخه. صحيح أن المبنى الرئيسي كان يضم مطبخاً، غير أن فيدور بافلوفتش كان يمقت روائح الطبخ، فكان يؤتى إليه بطعامه من المبنى الملحق عبر الفناء شتاءً وصيفاً على السواء. ويمكن أن نقول على وجه العموم إن هذا المنزل قد تصوره بانيه على أساس أن يضم أسرة كبيرة العدد، وكان يمكن أن يسكنه عدد من السادة والخدم يساوي خمسة أضعاف العدد الذي يقيم فيه منهم الآن. ومع ذلك لم يكن يقطنه في الآونة التي جرت فيها حوادث هذه القصة إلا فيدور بافلوفتش وإيفان فيدوروفتش، ولم يكن الخدم الذين يعيشون في المبنى الملحق إلا ثلاثة: جريجوري العجوز، وامرأته العجوز مارفا، والخادم سمردياكوف، وهو رجل ما يزال شاباً. يحسن أن نذكر هنا بعض التفاصيل عن هؤلاء الخدم الثلاثة. الحق أنه ليس هناك أشياء كثيرة نضيفها إلى ما سبق أن قلناه عن جريجوري فاسيلفتش كوتوزوف الذي أسلفنا الكلام عليه قبل الآن بما فيه الكفاية. إنه رجل صلب العزيمة متشدد الرأي، يمضي إلى هدفه في عناد متى بدا له هذا الهدف حقيقة راسخة لا سبيل إلى جحودها (وذلك لأسباب كثيراً ما تدهشك قلة المنطق فيها). وفي وسعنا أن نقول عنه إنه رجل شريف نزيه. لقد ألحّت عليه امرأته مارفا اجناتفنا، رغم أنها كانت طوال حياتها خاضعة لإرادة زوجها خضوعاً أعمى، ألحَّت عليه إلحاحاً قوياً ولا سيما غداة تحرير الأقنان، أن يترك فيدور بافلوفتش فيسافر إلى موسكو فيفتتح هناك تجارة صغيرة (فلقد كانا يملكان شيئاً من المال ادخراه). ولكن جريجوري أيقن عندئذٍ يقيناً نهائياً أن امرأته تقوده إلى الخطأ والضلال، لأن «كل امرأة ناقصة العقل»، وأضاف إلى ذلك قوله إنه لا يليق بهما أن يتركا مولاهما القديم، مهما تكن عيوبه «لأن ذلك هو الواجب الذي يقع على عاتقهما الآن». وسأل الرجل زوجته مارفا قائلاً:

- هل تفهمين على الأقل ما يعني الواجب؟ وأن هناك واجباً لا يجوز التخلي عنه.

فأجابته مارفا تقول جازمة:

- أنا أعرف ما معنى الواجب، ولكنني لا أفهم أبداً ما هو الواجب الذي يلزمنا بالبقاء هنا.

فقال لها:

- سيان أن تفهمي وأن لا تفهمي. عليك بعد الآن أن تسكتي!

وكذلك كان. بقي جريجوري ومارفا. ولقد حدَّد لهما فيدور بافلوفتش أجراً ليس بالأجر المرتفع طبعاً، ولكنه كان يدفع لهما هذا الأجر في مواعيده بغير تأخير. وكان جريجوري يشعر من جهة أخرى أن له على مولاه نفوذاً لا يُنكر. كان جريجوري يحس ذلك، وكان على حق في إحساسه هذا: إن فيدور بافلوفتش المهرّج، الماكر، العنيد، الذي يعرف كيف يكون صلباً في «بعض شؤون الحياة» على حد تعبيره، كان ضعيفاً إلى أقصى درجات الضعف في «شؤون أخرى من شؤون الحياة». وكان يعرف أنواع ضعفه، وكان لمعرفته بها محاصراً بمخاوف شتى. كان يرى أن على المرء في بعض شؤون الحياة أن تكون أذناه دائماً بالمرصاد، وأن يستطيع الاعتماد على شخص موثوق تصبح الحياة بدونه صعبة جداً. وكان جريجوري شخصاً موثوقاً حقاً. حتى لقد اتفق لفيدور بافلوفتش مراراً (أثناء حياته) أن أوشك أن يُضرب، وأن يُضرب ضرباً مبرحاً يلحق به أذى شديداً، ولكن جريجوري كان ينقذه دائماً من المأزق، مع إزجاء النصح له بخطاب طويل وموعظة مستفيضة بعد كل مغامرة من تلك المغامرات. على أن الخوف من الضرب ما كان له أن يكفي وحده لإفقاد فيدور بافلوفتش شجاعته في بعض الأحيان. إن هناك ظروفاً أخطر من ذلك كثيراً، حالات دقيقة معقدة حين كان فيدور بافلوفتش لا يستطيع هو نفسه تفسير حاجته المفاجئة القوية الصارمة إلى الإحساس بأن إلى جانبه شخصاً قريباً منه مخلصاً له. تلك حالات تشبه أن تكون مرضاً: إنه وهو الفاجر إلى أقصى حدود الفجور، والقاسي في شهوانيته قسوة حشرة رهيبة، كان يحس في بعض لحظات من السكر بنوع من خوف روحي وتضعضع معنوي يرهقانه جسمياً إن صح التعبير، حتى لقد كان يصف ذلك أحياناً بقوله: «يبدو لي في تلك اللحظات أن روحي تندفع خارجة فترفرف في حلقي». ففي تلك اللحظات إنما كان يحب أن يوجد على مقربة منه، في المبنى الملحق على الأقل، إن لم يكن في غرفته نفسها، رجل موثوق مخلص، رجل يختلف عنه كل الاختلاف، رجل ليس فيه من الفجور والعهر شيء، لكنه رغم معرفته بأنواع استهتاره ورغم اطلاعه على أسراره، يغفرها له من باب الإخلاص ولا يعارضه فيها، ولا يلومه عليها خاصة، ولا يهدده بعقوبات مقبلة لا في هذا العالم ولا في العالم الآخر... رجلٌ يمكن أن يحميه عند الحاجة... ممَّن يحميه؟ من إنسان مجهول، ولكنه رهيب خطير.. كان لا بد له حتماً من أن يوجد على مقربة منه كائن «آخر»، مألوف له معروف عنده منذ زمن طويل، يمكن أن يعده صديقاً، حتى يستطيع أن يناديه إليه في لحظة من كآبة، وأن يستدعيه لا لشيء إلا أن يرى وجهه، وربما بادله عندئذٍ بضع كلمات في أي موضوع من المواضيع: فإذا أظهر له هذا الرجل شيئاً من لطف ولم يؤنبه أصبح حزنه أقل ثقلاً في قلبه، وإذا تجهَّم له وقسا عليه ثقلت كآبته مزيداً من الثقل. حتى لقد كان يتفق لفيدور بافلوفتش (في النادر القليل على كل حال) أن يذهب إلى جريجوري في المبنى الملحق، فيوقظه من نومه ليلاً، ليطلب إليه أن يلحق به. وكان الخادم يجيء عندئذٍ إلى مولاه الذي يأخذ يُجري معه حديثاً تافهاً يدور على تفاصيل لا قيمة لها ولا شأن، ثم ما يلبث أن يصرفه مازحاً وساخراً أحياناً، أما هو فيبصق ويعود إلى سريره فينام في هذه المرة نوماً هادئاً. ولقد مرَّ فيدور بافلوفتش بساعات كهذه الساعات عند وصول أليوشا إلى منزله. إن هذا الفتى قد «طعن قلبه»، لأنه «يعيش معه، ويرى كل شيء، ثم هو لا يُدين شيئاً من الأشياء». وأكثر من ذلك إن أليوشا قد حمل إلى حياة أبيه عنصراً لا عهد للأب بمثله من قبل، هو أن أليوشا لم يحتقره، هو العجوز، البتة، حتى لقد حنا عليه وشعر نحوه بعاطفة بسيطة تصدر عنه من تلقاء نفسها بغير افتعال، دون أن يكون أبوه جديراً بها. إن موقفاً كهذا الموقف خليق بأن يثير دهشة العجوز المستهتر الذي كان يعيش بغير أسرة ويركض وراء النساء ولا يسعى إلا إلى «الفواحش». ذلك موقف ما كان لهذا العجوز أن يتوقعه. وقد اعترف لنفسه بعد رحيل أليوشا أنه أدرك في ذاته أشياء لم يشأ أن يقبلها وأن يسلّم بها قبل ذلك.

سبق أن ذكرت في مطلع هذه القصة أن جريجوري كان يكره آديلائيدا إيفانوفنا زوجة فيدور بافلوفتش الأولى، أمَّ ابنه دمتري؛ وأنه في مقابل ذلك كان قد تعلّق بزوجة فيدور بافلوفتش الثانية، صوفيا إيفانوفنا، الكليكوشا، وتحيّز لها ضد كل من مولاه نفسه ومن كل مَنْ يمكن أن تسوِّل له نفسه أن يقول في حقها كلمة سوء، عن خبث أو عن طيش. وقد استحالت هذه المودة التي محضها تلك المرأة، في نفسه مع الزمن إلى عاطفة مقدسة بلغت من القوة أنه أصبح حتى بعد انقضاء عشرين عاماً على موتها لا يطيق أن يسمع من أي إنسان، كائناً من كان، أي إشارة تسيء إلى المتوفاة، فلو فعل أحد ذلك أمامه لهب يهاجم من هاجمها على الفور. وكان جريجوري في مظهره رجلاً بارداً رصيناً، قليل الكلام، فإذا تكلم تكلم عن دراية، شاعراً يوزن كل لفظ من ألفاظه ولا يُلقي الكلام على عوارضه. وكان يستحيل عليك أن تعرف من النظرة الأولى أهو يحب امرأته الخاضعة الطيِّعة أم هو لا يحبها. ولكن الحقيقة هي أنه كان يحبها، وكانت هي تعرف ذلك طبعاً ولم تكن مارفا اجناتفنا هذه بالمرأة الغبية، ولعلها كانت تملك من الذكاء أكثر مما كان يملك منه زوجها، ولقد كانت على كل حال أصدق منه حكماً وأصوب منه رأياً في شؤون الحياة العملية. ومع ذلك خضعت له منذ أن تزوجا، فلم تجحد سلطته عليها، وكانت تحترم احتراماً أعمى ما كان ينعم به من تفوق روحي. يجب أن نذكر أنهما كانا، طوال حياتهما، قلّما يتبادلان الكلام اللّهم إلا فيما يتعلق بالمسائل التي لا مهرب منها من مسائل الحياة الجارية. لقد تعود جريجوري الوقور المهيب أن يفكر في أموره وهمومه وحده، وقد بلغ من هذا أن امرأته أدركت نهائياً أنه في غير حاجة إلى نصائحها. وكانت تحس أن زوجها يقدر لها صمتها، وأنه يرى فيه دليلاً على ذكائها. ولم يضربها في حياته إلا مرة واحدة وكان ضرباً خفيفاً على كل حال. وإليكم كيف حدث هذا: أثناء السنة الأولى من زواج فيدور بافلوفتش بآديلائيدا إيفانوفنا، فإن نساء القرية وبناتها، ولم يكنَّ قد تحررن من القنانة في ذلك العهد، اجتمعن ذات يوم في فناء منزل السادة يغنين ويرقصن، فبينما كانت الفلاحات تغني أغنية «في المروج» [71] إذا بمارفا اجناتفنا التي كانت ما تزال في ريعان الشباب، تندفع فجأة إلى أمام جوقة المغنيات، فتأخذ ترقص رقصة «روسية» بأسلوب خاص ليس هو الذي تعودت الفلاحات أن ترقصه، وإنما هو الذي تعلمته أيام كانت ما تزال تعمل خادمة في منزل أسرة ميوسوف الثرية، فكانت ترقص على المسرح الذي أقامته تلك الأسرة في أملاكها والذي استدعت له من موسكو أستاذ باليه بعلم الرقص. رأي جريجوري زوجته

تندفع في ذلك الرقص، فما أن عادا إلى البيت بعد ساعة حتى أدَّبها التأديب الذي تستحقه وهو يشدها من شعرها. تلك هي المرة الوحيدة التي ضرب فيها جريجوري امرأته، ثم لم يتجدد شيء من هذا في حياتهما بعد ذلك. ثم إن مارفا اجناتفنا قد تابت منذ ذلك اليوم عن حبها هذا للرقص.
لم يهب الرب للزوجين أولاداً، إلا واحداً لم يعش طويلاً. ومع ذلك كان جريجوري يحب الأطفال، ولا يخفي هذا الحب، أي إنه كان يجاهر به في غير خجل. فلما هربت آديلائيدا إيفانوفنا احتضن الصغير دمتري فيدوروفتش الذي لم يكن قد تجاوز الثالثة من عمره، قرابة سنة، يعنى به متولياً بنفسه تمشيط شعره وغسل جسمه. وفي ما بعد اهتم أيضاً بإيفان فيدوروفتش و أليوشا، ونال صفعة لقاء ذلك، وتلك، على كل حال، تفاصيل سبق أن أتيت على ذكرها. أما ابنه هو، فإنه لم يذق إلا فرحة انتظاره مدة حبل أمه به. حتى إذا وُلد الطفل امتلأ قلب أبيه هولاً وحزناً. ذلك أن الصبي قد جاء إلى هذا العالم بست أصابع في كل يد، وقد بلغ جريجوري يومئذٍ من الانصعاق أنه أصر لا على أن يصمت فما ينطق بحرف إلى حين التعميد فحسب، بل أصر على أن ينزوي في الحديقة طوال تلك المدة ليغرق في الصمت مزيداً من الإغراق. كان ذلك في الربيع. وقد قضى الرجل الأيام الثلاثة التي سبقت التعميد يعزق الأرض في بستان الخضار. فلما حلّ اليوم الثالث الذي سيحتفل فيه بتعميد الصبي كانت فكرة جريجوري قد اختمرت في رأسه. فهذا هو يدخل على مسكن الخدم حيث اجتمع القس والمدعوون، وحيث جاء فيدور بافلوفتش أخيراً ليكون للصبي عرّابه، هذا هو يدخل فيقول فجأة: «الأفضل أن لا يُعمَّد الطفل البتة». لم يقل ذلك بقوة كبيرة، ولم يسترسل في الكلام، وإنما قاله وهو لا يكاد ينطق بألفاظه واضحةً، وقاله وهو يلقي على الكاهن نظرة قاتمة عنيدة. سأله الكاهن في دهشة ممزوجة بالمرح: - لماذا؟ فتمتم جريجوري يجيبه:
- لأنه... تنين...
- ماذا؟ أي تنين؟
صمت جريجوري بضع لحظات. ثم دمدم يقول مضطرباً أشد الاضطراب، ولكن وجهه كان يعبّر عن الحزم، وكان واضحاً أنه لا يريد أن يدخل في شروح أوسع، دمدم يقول:
- اختلط الأمر على الطبيعة...
ضحك الحضور، وتم تعميد الصبي المسكين مع ذلك طبعاً، صلّى جريجوري بحرارة وخشوع أمام جرن التعميد، ولكنه لم يغيِّر رأيه في الوليد. على أنه لم يخلق أية صعوبة بعد ذلك، وإنما اكتفى، خلال الأسبوعين اللذين عاشهما الطفل الضعيف الهزيل، بأن يصر على أن لا يراه، متظاهراً بأنه يجهل وجوده، قاضياً أكثر وقته خارج مسكنه. ولكن حين مات الصبي بعد أسبوعين بمرض التهاب الفم، تولى هو نفسه إرقاده في تابوته الصغير وتأمله طويلاً بحزن شديد. وحين أهيلت آخر مجرفة من التراب على الحفرة التي دفن فيها الصبي، وهي حفرة لم تكن عميقة، جثا على ركبتيه، وحيّا القبر منحنياً حتى الأرض. ومنذ ذلك اليوم، خلال سنين طويلة، لم يأتِ جريجوري على ذكر هذا الصبي مرة واحدة، كما أن مارفا اجناتفنا لم تذكره بحضور زوجها في يوم من الأيام. فإذا اتفق لها أن تكلمت مع أحد عن «صغيرها»، تكلمت هامسةً همساً حتى في غياب جريجوري فاسيلفتش. وفي رأي مارفا أجناتفنا إن هذه الجنازة هي أصل الاهتمامات الدينية التي أصبحت تُلاحَظ عند جريجوري الذي انصرف منذ ذلك الحين إلى دراسة «الأمور الإلهية»، فهو ينكبّ على قراءة كتاب سير الشهداء صامتاً معتزلاً في كثير من الأحيان، واضعاً على عينيه لهذه المناسبة في كل مرة نظارتيه المستديرتين الكبيرتين اللتين لهما إطار من فضة. كان يندر أن يقرأ جريجوري في هذا الكتاب جهراً، إلا في أيام الصيام الكبير. وكان يحب أن يقرأ «سفر أيوب»، خاصة، كما استطاع أن يحصل من مكان ما على كتاب يضم أفكار ومواعظ «أبينا حبيب الله، إسحاق السوري» [72]، فكان لا يني يقرأ هذا الكتاب ويعيد قراءته سنين طويلة، دون أن يفهم منه شيئاً تقريباً، ولكن لعل هذا بعينه هو ما كان يجعله يحب هذا الكتاب ويقدِّره مزيداً من التقدير. وقد عني في الآونة الأخيرة بآراء ملة الخليستس، فدرس عن كثب، هذه الحركة التي التقى ببعض المنضمين إليها في القرى المجاورة، فاهتزت نفسه من ذلك اهتزازاً واضحاً، ولكنه رأى أن الانضمام إلى العقائد الجديدة ليس بالأمر المستحسن. وطبيعي أن العكوف على «الأمور الإلهية»، قد أضفى على تعبير وجهه مزيداً من الرصانة والوقار.
لعل جريجوري كان ميالاً إلى الصوفية، وهذا حادث من أغرب ما يمكن أن يقع من حوادث، حادث لم يكن في الحسبان قط، يحدث كأنما على عمد، في تلك الآونة نفسها التي شهدت ميلاد ابنه ذي الأصابع الست وشهدت موته السريع، وهو حادث خلَّف في نفسه، كما أعرب عنه هو نفسه ذات مرة فيما بعد، «أثراً لا يندثر». إليكم ما حدث: في الليلة التي أعقبت دفن الصبي الصغير، استيقظت مارفا اجناتفنا فجأة على شعور بأنها تسمع بكاء يشبه بكاء رضيع. ذُعرت مارفا إجناتفنا، فأيقظت زوجها. وأصاخ الرجل بسمعه فقال إن الأصوات التي يسمعها هي أصوات أنين «كأنه أنين امرأة». ونهض فارتدى ملابسه. هي ليلة حلوة من ليالي شهر مايو. خرج جريجوري إلى درج المدخل، فأدرك إدراكاً واضحاً أن أصوات الشكوى كانت آتية من جهة الحديقة. ولكن الحديقة تغلق في الليل من جهة الفناء بقفل قوي، وليس يمكن الدخول إليها من ممر آخر، لأنها محاطة بسياج عالٍ متين. عاد جريجوري إلى بيته، فأشعل سراجاً، وتناول المفتاح واتجه نحو الحديقة دون أن ينطق بكلمة واحدة، غير عابئ بذعر امرأته الهستيري التي أكدت أنها تسمع سماعاً واضحاً أصوات بكاء طفل رضيع، وأن هذه الأصوات لا يمكن أن تكون إلا اصوات ابنهما يبكي ويناديها هذا النداء. وأدرك جريجوري عندئذٍ أن أصوات الشكوى آتية من الحمام المقام في الحديقة على مقربة من الباب الحديدي، وأنها أنّات امرأة ما في ذلك ريب. فلما فتح باب الحمام جمد في مكانه دهشةً من المنظر الذي رآه: إن معتوهة المدينة التي تجوب الشوارع كل يوم والتي يعرفها سكان مدينتنا حق المعرفة - وقد أطلقوا عليها لقب ليزافيتا سمردياشايا [73] - قد تسللت إلى الحمام، فولدت هناك ولداً. وكان الصغير راقداً قرب أمه التي تُحتضر. لم تنطق المعتوهة بكلمة واحدة، لسبب بسيط، هو أنها لا تعرف أن تتكلم. يحسن مع ذلك أن نوضح هذا كله على حدة فنتحدّث عن هذه المرأة بمزيد من التفصيل.

-2-ليزافيتا سمردياشايا

بثّ هذا الحادث في قلب جريجوري اضطراباً عميقاً، وذلك بسبب تفاصيل ذكَّره هذا الحادث بها، وعزَّز في نفسه شبهة أليمة مقزِّزة كانت قد ساورته من قبل. ليزافيتا سمردياشايا بنت قصيرة القامة جداً «لا يزيد طولها كثيراً عن ذراعين» كما أصبح يحلو لعجائز النسوة التقيات في مدينتنا بعد موتها أن يقلن. وكان وجه هذه المرأة الشابة التي تبلغ العشرين من العمر معافى عريضاً مورّداً، ولكنه يفصح عن العَتَه والبلاهة إفصاحاً تاماً: إن نظرتها جامدة، وهي نظرة رغم هدوئها، تشتمل على شيء يؤلم النفس. وكانت تسير حافية القدمين منذ ولدت، في الشتاء وفي الصيف لا يستر جسمها إلا قميص من قماش القنب. وكان شعرها الأسود تقريباً، الكثيف جداً، المتجعد كأنه جزائز شاة، يتكوم على رأسها كطاقية ضخمة؛ وهو عدا ذلك ملطخ دائماً، زاخر بالتراب وأوراق الأشجار والغصينات والنشارات، لأنها اعتادت أن تنام على الأرض في الغبار والوحل. وكان أبوها إيليا، وهو رجل بورجوازي مفلس مريض لا مأوى له قد أدمن الشراب، وأصبح منذ عدة سنين يعيش في دار رجل من أهل مدينتنا بمثابة عامل. أما أم ليزافيتا فكانت قد ماتت منذ زمن طويل. وكان إيليا، المريض الشرس يضرب ليزافيتا ضرباً مبرحاً بلا رحمة ولا شفقة إذا هي جاءت إلى الدار. على أن ليزافيتا كانت لا تجيء إلى الدار إلا نادراً، لأن جميع سكان المدينة كانوا يحسنون وفادتها من حيث هي امرأة «مجذوبة» يحبها الرب. وقد حاول سادة إيليا، كما حاول إيليا نفسه أيضاً، وكما حاول عدد كبير من المحسنين في مدينتنا ولا سيما رجال ونساء ممن يمارسون التجارة، حاولوا مراراً أن يكسوا ليزافيتا بما هو أقرب إلى الحشمة من قميص القنب وحده، فكانوا يدثرونها كل عام، في أوائل أيام البرد، بمعطف من جلد الخروف، وكانوا يلبسون قدميها حذاءين. فكانت ليزافيتا تدع لهم أن يفعلوا بها ذلك طائعة بغير احتجاج، ولكنها ما تلبث أن تبتعد عنهم، وتمضي إلى مكان ما بالمدينة، هو فناء الكاتدرائية في أغلب الأحيان، فتخلع عن جسمها جميع الثياب، اللفعة والتنورة والمعطف والحذائين فتدعها هنالك، ثم تمضي كما كانت، حافية القدمين لا يستر جسمها إلا قميص. وقد حدث مرة أن حاكم إقليمنا الجديد مرَّ بمدينتنا في جولة تفتيشية، فلما رأى ليزافيتا هذه صدم منظرُها أفضل عواطفه، ورغم أنه أدرك أن المرأة هي «بوروديفايا» [74]، وقد ذُكر له ذلك فوراً على كل حال، فقد أصر على أن منظر فتاة شابة تجوب الشوارع بقميص، شيءٌ يؤذي الأخلاق العامة، وأمر بوضع حد لهذه الفوضى. ولكن الحاكم انصرف من المدينة فلم يهتم أحد بعد انصرافه بليزافيتا وتُركت تعيش كما كانت تعيش. ومات أبوها أخيراً، فأصبحت يتيمة لا أب لها ولا أم، فكان من شأن ذلك أن جعلها أقرب إلى قلوب التقاة من سكان مدينتنا وأحب إلى نفوسهم، بل يبدو أن جميع الناس كانوا يحبونها حباً صادقاً، حتى الصغار الذين كانوا يمتنعون عن مشاكستها ويعفون عن تنكيدها، مع أن الأطفال في مدينتنا، ولا سيما أطفال المدارس

كانوا فئة عدوانية متحرشة مشاجرة. كانت ليزافيتا تدخل بيوتاً لا تعرفها، فما يخطر ببال أحد أن يطردها. بالعكس: كان كل واحد يسرع إلى تدليلها ويعطيها كوبيكاً، كانت تأخذ هذه الأعطيات الصغيرة من النقود، ولكنها ما تلبث أن تلقيها في صندوق الصدقات بكنيسة من الكنائس أو سجن من السجون. فإذا أعطاها أحد في السوق رغيفاً من أرغفة الخبز الطرية الصغيرة، لم يفتها أن تهبه لأول طفل تلقاه في طريقها أو هي تستوقف في الشارع سيدةً من أغنى سيدات مدينتنا فتعطيها الرغيف، فتقبله السيدة منها فرحةً. كانت لا تريد أن تتغذى إلا بخبز أسود وماء. وكانت في بعض الأحيان تدخل دكاناً من الدكاكين الحافلة بأجمل المعروضات فتجلس فيه: إن كل شيء في متناول يدها، البضاعة الثمينة والمال الوفير، ولكن أصحاب المتاجر لا يخطر ببالهم أن يراقبوها لثقتهم بأنها لن تسرق شيئاً في يوم من الأيام، ولن تمتد يدها إلى كوبيك واحد ولو صفت أمامها ألوف الروبلات ثم نُسيت. وقلما كانت تُرى في الكنيسة، ولكن كان يحلو لها أن تقضي ليالي باسرها مضطجعةً في فناء معبد من المعابد، حين لا تتسلل إلى بستان من بساتين الخضار من خلال سياج (ما تزال الأسيجة التي تقوم مقام الحواجز كثيرة في منطقتنا). وكانت تذهب إلى الدار - أعني دار أسياد أبيها المتوفى - مرة في الأسبوع تقريباً أثناء الصيف، وفي جميع الأيام أثناء الشتاء، ولكنها لا تذهب إلى هناك إلا لقضاء الليل، فهي تلوذ عندئذٍ في المدخل أو تقبع في حظيرة الماشية. والناس يستغربون كيف تستطيع ليزافيتا أن تتحمل هذا النوع من الحياة، ولكنها كانت قد تعودت ذلك، وهي رغم ضآلة جسمها قوية البنية جداً. صحيح أن بعض الأشخاص من فئة السادة والنبلاء في مدينتنا كانوا يؤكدون أن ليزافيتا إنما تتصرف هذا التصرف من باب الكِبَر. ولكن هذا التفسير يصعب على المرء أن يصدقه، لأن هذه الفتاة كانت لا تعرف حتى الكلام، فهي لا تزيد على أن تحرك لسانها من حين إلى حين بأصوات مبهمة لا تبين. فهل يمكن الحديث بصددها عن كبر؟

ففي ذات ليلة من ليالي شهر سبتمبر (وقد حدث هذا منذ زمن بعيد جداً)، ليلة مضيئة دافئة يغمرها القمر البدر بنوره، كانت عصبة فرحة مرحة من اللاهين العابثين في مدينتنا عائدين من النادي إلى بيوتهم بعد إفراط في الشراب والطعام، عبر أفنية الدور الخلفية. كان الوقت ساعةً متأخرة من الليل بالنسبة إلى عاداتنا، وكانت العصبة خمسة رفاق أو ستة. إن الشارع الصغير الذي يجتازونه الآن محفوف بسياج من الجهتين، ووراء السياج تمتد بساتين الخضار في المنازل المطلة على الشارع، والشارع يفضي إلى القناطر الضيقة الممدودة عرضاً على غديرنا الطويل الأسن الذي اعتاد الناس أن يسموه في بعض الأحيان نهراً. وإن العصبة لتسير فيما كانت ليزافيتا على حين فجأة نائمة قرب السياج بين نباتات القّراص والأرقطيون. توقف العابثون القاصفون يضحكون لهذا المشهد في قهقهة مجلجلة مدوية، وأخذوا يطلقون الأمازيح البذيئة في غير حياء. وفجأة خطرت ببال أحدهم فكرة عجيبة هي أن يطرح سؤالا من طبيعة خاصة جداً فقال: «هل يمكن أي إنسان أن يرى في هذه البهيمة امرأة، في هذه اللحظة نفسها مثلاً؟ إلخ...». فضج الجميع يظهرون اشمئزازاً متكبراً ونفوراً مستعلياً، مؤكدين أن ذلك غير وارد. ولكن فيدور بافلوفتش الذي كان أحد أفراد العصبة تقدم فوراً فقال إنه بالعكس، ذلك شيء يمكن فعله جداً، وإن في وسع المرء تماماً أن يعد هذه المخلوقة امرأة، بل وإن ذلك قد يكون فيه كثير من الإثارة اللذيذة، إلخ إلخ... يجب أن نذكر أن فيدور بافلوفتش كان في ذلك الأوان يغالي في إبراز دور المهرِّج الذي يمثله، ويسعى إلى انتهاز جميع المناسبات التي يتاح له فيها أن يلمع نجمه في هذا المجال وأن يسلّي السادة وأن يضحكهم، على قدم المساواة بينه وبينهم في الظاهر ولكن بروح العبودية الدنيئة لهم في حقيقة الأمر. وقد حدث هذا في الآونة التي كان قد تلقى فيها من بطرسبرج نبأ وفاة امرأته آديلائيد إيفانوفنا، فكان وقد وشح قبعته بشريط أسود يسترسل في السكر ويرتكب من الأعمال الفاجرة ما كان يثير الاشمئزاز ويبعث الإحساس بالفضيحة في نفوس كثير من الناس، حتى أشدهم انحلالاً وأكثرهم دعارة. طفقت العصبة الفرحة تضحك طبعاً لهذا التصريح الذي لم يكن في الحسبان. وقد مضى أحد العابثين إلى حد تشجيع فيدور بافلوفتش على أن يفعل، ولكن الآخرين أكدوا اشمئزازهم بقوة متزايدة، وإن فعلوا ذلك بمرح ما ينفك يشتد قوة. وأخيراً تابع الجميع طريقهم. وقد حلف فيدور بافلوفتش فيما بعد أنه انصرف مع الجماعة في وقت واحد. وقد يكون ما قاله صحيحاً، فإن أحداً لم يعرف حقيقة الأمر، لا ولن يعرفها أحد يوماً على وجه اليقين. غير أن ما حدث هو أن المدينة كلها أصبحت بعد خمسة أشهر أو سنة لا تتحدث إلا عن ليزافيتا التي صار واضحاً أنها حبلى، وأن المدينة تتحدث عن هذا الأمر باستياء صادق واستنكار عميق، وأن السؤال الذي تلقيه جميع الشفاه هو هذا السؤال: «من الآثم؟ من الجاني؟» وفي تلك اللحظة إنما انتشرت في مدينتنا شائعة غريبة تقول إن الآثم ليس إلا فيدور بافلوفتش نفسه. فكيف ولدت هذه الشائعة؟ إن العصبة الفرحة التي كانت عائدة من النادي في تلك الليلة لم يبق منها في مدينتنا إلا واحد هو رجل مسن، محترم جداً، برتبة مستشار دولة، متزوج وله ابنتان كبيرتان. ومن المحقق تماماً أنه لم يقصص شيئاً، حتى ولو كان هناك شيء. أما اللاهون الآخرون، وعددهم خمسة تقريباً، فكانوا قد بارحوا مدينتنا أثناء تلك المدة. ومع ذلك كانت الشائعة تنصب على فيدور بافلوفتش وتتهمه اتهاماً ملحاً عنيداً. والحق أن فيدور بافلوفتش لم يلق كثير بال إلى هذه الشائعة. ولو قد سئل عن الأمر يومئذٍ لامتنع عن الرد على هؤلاء العامة من الباعة وعلى أولئك الصغار من سكان المدينة. لقد أصبح فيدور بافلوفتش في ذلك الوقت متكبراً، فهو لا يصاحب إلا أنداده من الموظفين والسادة الذين كان يحلو له كثيراً أن يسلّيهم ويضحكهم. ولقد تحيز جريجوري لمولاه، ودافع عنه بقوة واقتناع، وهاجم تلك الأقاويل الكاذبة بكل ما أوتي من قوة، حتى لقد طفق يشتم الواشين ويقيم الأدلة حتى أقنع الكثيرين. كان جريجوري يؤكد قائلاً بلهجة جازمة «إن هذه البنت السيئة هي وحدها المسؤولة، وإن الجاني لا يمكن أن يكون أحدا غير قاطع الطريق كارب» (بهذا الاسم كان يسمى مجرم خطر معروف جداً عندنا، هرب في تلك الآونة من سجن الإقليم، واختبأ في مدينتنا). لقد بدا هذا الافتراض مقبولاً، لأن الناس يتذكرون مغامرات كارب هذا، ولم ينسوا أنه في تلك الليلة نفسها من ليالي الخريف قد حام في شوارع المدينة وسطا على ثلاثة مارة فنهبهم. على أن هذا الحادث وما أثاره من ثرثرات كثيرة لم يحرم المجذوبة المسكينة من عطف الناس عليها. بالعكس: أصبح الجميع منذ ذلك الحين يهتمون بها مزيداً من الاهتمام ويرعونها مزيداً من الرعاية حتى إن التاجرة كوندارتيفا وهي أرملة ثرية، قد قررت في نهاية شهر إبريل أن تضم الشقية إلى منزلها وأن تحتفظ بها عندها إلى أن تضع طفلها. وقد روقبت ليزافيتا بيقظة شديدة، ولكنها رغم هذه المراقبة المستمرة استطاعت في آخر يوم أن تهرب في المساء من عند السيدة كوندراتيفا لتلوذ بحديقة فيدور بافلوفتش. أما كيف استطاعت وهي في حالتها تلك أن تجتاز الحاجز العالي المتين، فتلك مسألة ظلت بغير حل إلى حد ما. فبعضهم يزعم أن هناك «أناساً» نقلوها إلى هناك نقلاً، وبعضهم يذهب إلى أن «قوى خفية سرية، قد أعانتها على اجتياز الحاجز. وأغلب الظن أن الأمر قد تم على نحو طبيعي تماماً، ولو بمهارة عظيمة: إن ليزافيتا، الماهرة في تسلق الأسيجة للتسلل إلى بساتين الخضار من أجل النوم هناك، لا بد أنها تسلقت سور حديقة فيدور بافلوفتش، ثم قفزت إلى الحديقة رغم حملها، فأذت نفسها بذلك طبعاً.

هرع جريجوري إلى مارفا اجناتفنا فكلفها بأن تمضي إلى ليزافيتا لتعنى بها، بينما ذهب هو يبحث عن قابلة عجوز من أهل المدينة تسكن من حسن الحظ بالقرب من بيته. ولقد أمكن إنقاذ الطفل. أما الأم فقد فاضت روحها عند الفجر. وأخذ جريجوري الطفل فحمله إلى مسكنه، وأجلس زوجته فوضع الوليد على ركبتيها وأسنده إلى صدرها، وقال لها: «إن اليتيم ابن الله، فهو قريب جميع البشر، وهذا يصدق علينا نحن الاثنين أكثر مما يصدق على غيرنا. إن صغيرنا الميت هو الذي أرسله إلينا. إن هذا الطفل قد ولد من أم صالحة وشيطان رجيم، فأطعميه، ولا تبكي بعد الآن». هكذا تولت مارفا اجناتفنا تربية الصغير. وقد عُمِّد وسُمي بافل، أما الاسم الأبوي الذي كان يجب أن يسمى به فقد تم الإجماع بغير كلام أو إيعاز، على أن يكون اسم «فيدوروفتش». ولم يعترض فيدور بافلوفتش أي اعتراض على ذلك، حتى لقد وجد الأمر مسلياً، ولكنه ظل فيما عدا ذلك ينكر إنكاراً قاطعاً أنه هو الفاعل. وأعجب أهل المدينة باحتضانه للقيط. واختار فيدور بافلوفتش فيما بعد للصبي اسم أسرة، فأسماه سمردياكوف مشتقاً من لقب أمه، ليزانيتا سمردياشايا. إن سمردياكوف هذا هو الذي أصبح فيما بعد الخادم الثاني لفيدور بافلوفتش، وكان يعيش في بداية هذه القصة بالمبنى الملحق الذي يقيم فيه العجوزان جريجوري ومارفا. وقد جُعل سمردياكوف طباخاً. قد يكون ضرورياً أن أتحدث عن سمردياكوف هذا بمزيد من الإفاضة، ولكنني أشعر بوخز في ضميري إذا أنا صرفت انتباه القراء مدةً طويلة إلى الحديث عن خدم مبتذلين، فهاأنذا أعود إذاً إلى سرد قصتي، آملاً أن تعرض لي من تلقاء نفسها فرصة الكلام مرة أخرى عن سمردياكوف في باقي الرواية.

- 3 - إعتراف قلب حار، شعرا

حين تلقى أليوشا الأمر الذي أصدره إليه أبوه صائحاً من عربته به عند مغادرته الدير، لبث جامداً في مكانه مدة من الوقت وقد استبدت به حيرة شديدة. على أن أليوشا لم يكن جامداً كتمثال، فذلك لم يحدث له أبداً. وبالعكس لقد استطاع، رغم الخواطر التي هزت نفسه وبثت فيها الاضطراب، أن ينزل إلى مطبخ كبير الرهبان فيسأل عما قام به أبوه من أعمال في غرفة الطعام. ثم مضي في طريقه إلى المدينة آملاً أن يهتدي أثناء الطريق إلى جواب عن الأسئلة التي كانت تدور في رأسه وتعذبه. ويجب أن أذكر فوراً أن الأقوال التي صاح بها أبوه والأمر الذي أصدره إليه بالعودة إلى المنزل « مع وسادته وفراشه»، إن ذلك كله لم يثر في نفس أليوشا شيئاً من خوف. فهو يدرك حق الإدراك أن هذا الأمر بالعودة إلى المنزل، الذي ألقاه إليه أبوه بذلك الصوت القوي وتلك الصيحة المتعمدة، إنما هو ثمرة «اندفاع» عابر، بل هو نتيجة رغبته في الاستعراض والتأثير.... وقد ذكَّره هذا بما حدث في مدينتنا منذ زمن قصير، حين احتفل أحد سكانها بعيد شفيعه، فلما أسرف في الشراب، غضب على حين فجأة غضباً شديداً واندفع اندفاعاً رهيباً، وذلك في منزله نفسه وبحضور ضيوفه، لأنه مُنع من أن يصب لنفسه مزيد من الفودكا، فإذا هو ياخذ يكسر الأطباق ويمزق ثيابه وثياب امرأته، ويحطم الأثاث، ثم انتهى الأمر إلى أن أخذ يهشم زجاج النوافذ، كل ذلك في سبيل الاستعراض والتأثير.. فلا شك أن شيئاً من هذا القبيل قد حدث لأبيه. وقد ثاب الرجل الذي احتفل بعيد شفيعه، ثاب إلى رشده في الغد، وبكى طبعاً على أطباقه وصحونه وأوانيه التي حطمها. كان أليوشا يعلم إذن أن أباه سيأذن له في الغداة أن يرجع إلى الدير، وربما أذن له بذلك قبل نهاية هذا النهار نفسه. ولقد كان واثقاً على كل حال من أن أباه لن يحب يوماً أن يحزنه، كان أليوشا مقتنعاً بأنه ليس هناك أحد حتى في العالم كله يمكن أن يريد يوماً ما أن يحزنه، وما من أحد يمكن أن يبلغ منه ذلك ولو أراد. تلك عند أليوشا بديهية واضحة وحقيقة ثابتة لا تقبل نقاشاً. لذلك سار قدماً لا يتردد ولا يلوي على شيء.

أما الخوف الذي كان يساوره في تلك اللحظة فهو خوف من نوع خاص يختلف عن ذلك كل الاختلاف، خوف يثقل عليه خاصة لأنه لا يستطيع هو نفسه أن يستبين طبيعته: إنه خوف من المرأة، بل هو خوف من امرأة بعينها هي كاترينا إيفانوفنا تلك التي توسلت إليه بكثير من الإلحاح، في البطاقة التي أرسلتها إليه مع السيدة خوخلاكوفا منذ بعض ساعات، أن يجيء إليها من أجل أمر ما. إن رجاءها ذلك، واضطراره إلى تلبية هذا الرجاء اضطراراً لا فكاك منه، إن ذلك كله قد ملأ نفسه منذ البداية بشعور غامض يعذبه وما ينفك يتفاقم طوال ذلك الصباح شيئاً بعد شيء حتى غدا ألماً واخزاً كاوياً، دون أن تستطيع كبته الأحداث التي تعاقبت بعد ذلك في الدير، والمشاهد والوقائع التي تلاحقت في مسكن كبير الرهبان إلخ... إلخ.. وما سيجيبها به. فليس المرأة بوجه عام هي ما كان يخشاه فيها. فإنه وإن تكن معرفته بالنساء قليلة ولا شك، قد عاش طول الوقت في صحبة النساء وحدهن تقريباً، منذ طفولته الأولى إلى حين دخوله الدير. وإنما هو خائف من هذه المرأة بعينها، من كاترينا إيفانوفنا بذاتها، ولقد خاف منها منذ اللحظة الأولى التي رآها فيها؛ وهو مع ذلك لم يلقها إلا مرة أو مرتين، وربما ثلاثاً، وبادلها بضع كلمات عرضاً في مناسبة من المناسبات. إن الصورة التي بقيت في خياله منها هي صورة فتاة بارعة الجمال، شديدة الكبرياء، قوية السطوة. ومع ذلك فليس جمالها هو ما كان يعذبه، وإنما كان يعذبه شيء آخر لم يستطع له تعليلاً، فكان جهله هذا يفاقم خوفه مزيداً من المفاقمة في تلك الساعة. لا شك أن هذه الفتاة تسعى إلى أنبل الأهداف. ذلك أمر يعرفه: إنها تحاول إنقاذ أخيه دمتري الذي أذنب في حقها، وهي لا ترغب في ذلك ولا تتمناه إلا شهامة منها. ولكن أليوشا، رغم ما في هذه العواطف من روعة ورفعة، لا يملك إلا أن يمجدهما ولا يملك إلا أن ينصفهما، لم يستطع أن يتغلب على القشعريرة التي سرت في ظهره كلما ازداد اقتراباً من منزل الفتاة.

وقدَّر أليوشا أن أخاه إيفان الذي توثقت الصداقة الحميمة بينه وبين كاترينا إيفانوفنا، قد لا يكون الآن عندها، لأنه لا بد أن يكون مع أبيه. أما دمتري فإن أليوشا أكبر ثقة بأنه لن يلقاه عندها أيضاً، وهو يوجس سبب ذلك. معنى هذا أن الحديث بينه وبينها سيجري في خلوة. ألا ليته يستطيع، على الأقل، أن يرى أخاه دمتري قبل هذا الحديث المحتوم.! خطر ببال أليوشا أن يسرع إلى أخيه بوثبة ليراه. تُرى أليس ممكناً أن يتناقش معه أولاً، دون أن يظهره على رسالتها طبعاً؟ ولكن دمتري يقيم في مكان بعيد، وأغلب الظن أنه ليس في منزله الآن. توقف أليوشا لحظة ليفكر، ثم عزم أمره أخيراً. رسم على نفسه إشارة الصليب بحركة سريعة، ولم يلبث أن ابتسم بدون سبب ظاهر، ثم اتجه يسير بخطى حازمة نحو منزل السيدة الرهيبة»..

«كان يعرف أين تقطن. ولكن الاتجاه إلى الشارع الكبير» ثم عبور الميدان، ثم... إلخ... كل ذلك يجعل الطريق إليها طويلاً. إن مدينتنا الصغيرة مبعثرة جداً، والمسافات فيها شاسعة أكثر الأحيان[75] . أضف إلى ذلك أن أباه كان ينتظره، فلعله لم ينس الأمر الذي ألقاه إليه، وقد ينفد صبره وتعود إليه نزواته، ولذلك كان على أليوشا أن يسرع لكي يصل إلى هناك ويعود إلى هنا في الوقت المناسب. وقرر بعد تقليب الأمر على وجوهه المختلفة هذه، أن يسلك الطرق المختصرة عبر الأفنية الخلفية، فهو يعرف كل هذه الطرق المختلفة في مدينتنا كما يعرف راحة كفه. كان عليه أن يقطع الشوارع قطعة، فيمر بأرضٍ بور، ويجتاز في أماكن شتى أسيجة تحيط بأملاك خاصة، ويعبر أفنية منازل أناس غرباء يعرفه كل واحد منهم، ويحييه عند مروره. فعلى هذا النحو يبلغ «الشارع الكبير» بنصف الوقت الذي يحتاج إليه لو سلك السبيل العادي. فلما اتبع أليوشا هذا الطريق المختصر وجد نفسه في لحظة من اللحظات قريبا من منزل أبيه على حدود بستان متاخم لبستانه، تابع لمنزل صغير عتيق بال متهالك ليس له من النوافذ إلا أربع. إن صاحب هذا المنزل هو، كما كان أليوشا يعرف ذلك، امرأة متواضعة من سكان المدينة، عجوز بساق واحدة، تسكن في المنزل مع ابنتها. وكانت ابنتها هذه قد عملت في الآونة الأخيرة بالعاصمة، خادمة متحضرة، لدى جنرالات في الغالب. ولكنها رجعت منذ ما يقرب من سنة، بسبب مرض أمها، فهي الآن تظهر في مدينتنا بأثواب أنيقة جداً. إلا أن العجوز وابنتها حلّت بهما مع ذلك فاقة شديدة وعوز كبير، حتى لقد كانتا تذهبان كل يوم إلى مطبخ فيدور بافلوفتش، من حيث هما جارتان، تلتمسان شيئاً من حساء وخبز تغدقه عليهما مارفا اجناتفنا راضية مسرورة. ولكن الفتاة رغم أنها تقتات من البر والإحسان لم تقبل أن تبيع أي ثوب من أثوابها التي كان بينها ثوب سابغ الذيل. وكان أليوشا قد عرف هذه النقطة الأخيرة بمصادفة محضة من صديقه راكيتين الذي كان على علم بكل شيء في المدينة حتماً، ثم لم يلبث أن نسيها طبعاً، ولكنه وقد بلغ الآن حديقة هذه الجارة تذكر الذيل السابغ هذا على حين فجأة، فإذا هو يرفع رأسه بعد أن كان مطرقاً إلى الأرض طوال المدة التي قضاها مفكراً متأملاً أثناء سيره... وعندئذٍ إنما وقع له لقاء لم يكن في حسبانه قط.

لقد لمح أخاه دمتري فيدوروفتش وراء سياج الحديقة، قاعداً على شيء من الأشياء مشرئباً برأسه متجاوزاً الحاجز بصدره، يومئ إليه بحركات عريضة من يده، ويناديه مهيباً به بالإشارات أن يجيء إليه، متحاشياً أن يصرخ، بل ومتجنباً أن يقول كلمة واحدة بصوت عالٍ، مخافة أن يُسمع. وهرع أليوشا إليه على الفور.

- من حسن الحظ أنك رفعت رأسك، وإلا لكنتُ اضطررت أن أصيح كذلك همس يقول دمتري فيدوروفتش لأخيه مسرعاً وقد بدا عليه فرح شديد برؤيته. ثم أضاف:

- تسلق من هنا... هيا أسرع! ما أروع أنك جئت. لقد كنت أفكر فيك...

سُرَّ أليوشا هو نفسه سروراً عظيماً أيضاً، رغم حيرته في كيفية اجتياز السياج. ولكن ميتيا رفعه من كوعه بيد قوية ليساعده على أن يقفز، فشمر أليوشا ثوبه الرهباني، ثم إذا هو يصير في داخل الحديقة بوثبة كوثبة صبي صغير من صبية المدينة الذين يسيرون حفاة الأقدام.

همس ميتيا يقول له بحماسة:

- والآن فلنسر!

فسأله أليوشا بصوت هامس أيضاً، وهو ينظر إلى جميع الجهات فيرى أنهما وحيدان في الحديقة تماماً:

- إلى أين؟

لم تكن الحديقة واسعة، ومع ذلك فإن المنزل الصغير الذي تملكه العجوز وابنتها يبعد خمسين خطوة على الأقل.

- نحن وحيدان، فلماذا تتكلم همساً؟

- لماذا أتكلم همساً؟ لا يعلم إلا الشيطان لماذا ؟

هكذا صاح دمتري فيدوروفتش بأعلى صوته، وتابع يقول:

- حقا... فعلاً... لماذا تكلمت همساً؟ انظر كيف تحلو السخافات للطبيعة في بعض الأحيان! أنا موجود هنا سراً، ويجب أن أكون كتوماً. سأشرح لك الأمر فيما بعد. إنني لشعوري بضرورة الحفاظ على السر، أخذت أهمس بغباوة، مع أن ذلك لا داعي إليه البتة. هيا... هيا إلى هناك ! وحتى نصل إياك أن تقول كلمة واحدة.

هل تعلم؟ وددت لو أقبلك.

المجد للخالق في الخلق

المجد للخالق في نفسي.[76]
لقد كنت أردد هذين البيتين من الشعر هنا، لحظة وصلت أنت...
إن الحديقة التي تبلغ مساحتها قرابة هكتار كانت خالية من الأشجار إلا في محيطها على طول الأسوار الأربعة؛ وهي أشجار تفاح وقيقب وزيزفون وبتولا. أما وسط الحديقة فلم يكن فيه إلا مرج أعشاب يعطي في كل صيف عشرات الكيلوغرامات من العلف. وكانت صاحبة البيت تؤجر هذه الحديقة منذ مطلع الربيع ببضع روبلات. وهناك شجيرات من توت العليق وعنب الشمال وعنب الثعلب متناثرة على طول الأسوار. وقد زُرع قرب المنزل الصغير شيء من خضار، ولكن ذلك لم يتم إلا منذ زمن قصير. قاد دمتري فيدوروفتش ضيفه إلى ركن من أنأى أركان الحديقة بعيد عن المنزل. فهناك، وسط أجمة كثيفة من أشجار الزيزفون وشجيرات عنب الثعلب الهرمة وأشجار البيلسان والغبيراء والبنفسج، يرى المرء بقايا كوخ قديم جداً، قد سوَّده الزمان ولواه، جدرانه مشبكة، ولكن سقفه ما يزال سليماً، فيمكن الاحتماء به إذا هطل مطر. لقد بني هذا الكوخ منذ زمن بعيد، منذ نصف قرن في ما يقال، بناه أحد المالكين السابقين، رجلٌ يسمى ألكسندر كارلوفتش فون شميدت، مُقدَّم محال على التقاعد. كل شيء في هذا الكوخ منخور مسوَّس: أرضاً خربة نتنة، أخشاب متزعزعة، رائحة عفنة رطبة. وفي داخلها كانت توجد مائدة خضراء من خشب، قد غاص نصفها في التراب، وأحاطت بها مقاعد هي أيضاً خضراء، وما يزال يمكن الجلوس عليها. كان أليوشا قد لاحظ فوراً حالة الحماسة التي كان عليها أخوه، فلما دخل الآن الكوخ رأى على المائدة زجاجة كونياك ممتلئ نصفها، وإلى جانبها قدح صغير.
قال ميتيا وهو ينفجر ضاحكا:
- هو كونياك يا عزيزي! لا شك أنك تقول لنفسك: «إنه ثمل من جديد». ألا فاطرد هذه الأشباح من خاطرك !
أكاذيب يروجها أناس لا أخلاق لهم
فلا تسمع لها أبداً. وبدد كل أوهامك...[77]
الا... إنني لا أسكر... ولكنني «أتلذذ»، كما يقول صديقك، ذلك الخنزير راكيتين.... الذي سيصبح في يوم من الأيام مستشار دولة، دون أن يكفَّ عن أن يتكلم كما يتكلم رجل من الأرياف. اجلس هنا. وددت لو أضمك إلى صدري، يا صغيري أليوشا، ضماً قوياً حتى لأكاد أحطمك، هل تعلم هذا؟ ذلك إنك في الواقع... في الوا... قع... (افهمني جيداً! افهمني جيداً!)... ذلك أنك في الواقع... الإنسان الوحيد... الذي أحبه في العالم!
نطق دمتري فيدوروفتش كلماته الأخيرة هذه بنوع من النشوة والوجد.
- أنت الكائن الوحيد الذي أحبه، أنت وكائن آخر، هو «مخلوقة دنيئة» عشقتها لأضيع وأهلك... ولكن العشق شيء آخر غير الحب. فإن من الممكن أن يكون الإنسان عاشقاً، مع شعوره بالكره. احفظ هذا الكلام! إنني أتكلم الآن في فرح ومرح! اجلس هنا، قربي، إلى هذه المائدة. وسأجلس أنا إلى جانب حتى أراك بشكل واضح وأنظر إليك وأتكلم طوال الوقت وستصمت أنت طول الوقت، بينما سأتكلم أنا، لأنه قد آن الأوان! بالمناسبة، أنا أرى أن الأفضل أن نتكلم هنا همساً... ذلك أن من الجائز... هل تعلم؟... من الجائز أن توجد هنا إذان لا نتوقع وجودها... سأشرح لك كل شيء. تابع كلامي... لماذا كنت أحرص على أن أراك بغير إبطاء، لماذا كنت في مثل تلك الحاجة القوية إليك خلال تلك الأيام كلها وفي هذه اللحظة بعينها (لقد ألقيت مرساتي هنا منذ خمسة أيام) لماذا ؟ لأنك الوحيد الذي يمكن أن أركن إليه ركوناً تاماً، لأنك الوحيد الذي يمكن أن أفضي إليه بكل شيء، ولأن هذا ضروري، ولأنك لا غنى لي عنك، ولأنني سأسقط غداً من السحب، ولأن غداً تنتهي الحياة وتبدأ. هل شعرت يوماً، في المنام مثلاً، بأنك تنحدر من جبل في هاوية؟ فاعلم أنني الآن أتدحرج إلى هاوية، وليس هذا حلماً. ولكنني لست خائفاً، وليس عليك أن تخاف من شيء أنت أيضاً. أقصد... أنا أشعر بخوف، ولكنه شعور عذب جداً، بل ليس شعوراً عذباً، وإنما هو شعور رائع.. لا يدري إلا الشيطان ماذا... فليكن ما يكون. روح قوية، روح ضعيفة، روح امرأة... ليس هذا بذي بال على كل حال! ألا فلمنجِّد الطبيعة: ما أكثر الشمس في كل مكان، ما أصفى السماء الآن! لا شيء إلا الخضرة... نحن في قلب الصيف، والساعة لم تكد تبلغ الرابعة بعد. صمت شامل مطبق إلى أين كنت ذاهباً؟
- كنت ذاهباً إلى أبينا، ولكنني كنت أنوي أن أمرَّ أولاً بكاترينا ايفانوفنا.
- إليها وإليه.؟ أوه... يا للمصادفة العجيبة!... هل تدري لماذا كنت أنتظرك فارغَ الصبر إلى ذلك الحد؟ هل تدري لماذا كنت ظامئاً إلى رؤيتك ظمأ الصحراء إلى المطر؟ هل تدري لماذا كنت أناديك من جميع مسام روحي وجسمي؟ هل تدري لماذا ؟ لأنني كنت أريد أن تذهب إلى الأب رسولاً مني، وأن تذهب بعد ذلك إلى كاترينا إيفانوفنا، بغية أن أصفِّي الأمر معه ومعها... كان لا بد لي أن أرسل إليهما ملاكاً. كان في وسعي أن أكلف بهذا أي إنسان، ولكنني كنت أريد ملاكاً. وها أنت ذا تذهب إليها وتذهب إلى الأب.
- هل كنت تريد أن ترسلني حقاً؟
كذلك سأله أليوشا بلهجة تنبئ عن ألم شديد. فقال له دمتري:
- إذاً كنت تعلم هذا. إنني أرى أنك قد فهمت كل شيء دفعة واحدة. عليك بالصمت خاصة، لا تقل كلمة واحدة الآن. لا تأسف على شيء، ولا تبك قط!
قال دمتري فيدوروفتش ذلك، ثم نهض، وفكَّر بضع لحظات واضعاً إبهامه على جبينه، ثم سأله:
- هي التي استدعتك، أليس كذلك؟ لا بد أنها كتبت إليك. أو فعلت شيئاً من هذا القبيل، وإلا لما ذهبت إليها من تلقاء نفسك فيما أظن؟
أجابه أليوشا وهو يخرج رسالتها من جيبه ويمدها إليه:
- هذه بطاقتها.
قرأ ميتيا البطاقة بنظرة سريعة، ثم قال له:
- وسلكتَ طرقاً مختصرة لتذهب إليها. أيتها الآلهة المحسنة.. شكراً على أنك وجّهته في هذا الطريق فقدتِ خطاه نحوي، كتلك السمكة الذهبية الصغيرة التي تروي الحكاية أنك أرسلتها إلى ذلك الصياد العجوز الغبي[78]. اسمع أليوشا ! إصغ إليّ يا أخي! لقد قررت الآن أن أقول لك كل شيء. لا بد لي من أن أفتح قلبي لإنسان ما. لقد سبق أن أفضيت بما في قلبي إلى ملاك في السماء، ولكنه لا بد لي من أن أبوح بسري إلى ملاك من ملائكة الأرض أيضاً. وأنت، أنت الملاك على هذه الأرض. ستصغي وتفهم، وتغفر لي... إن بي حاجة قوية إلى أن يغفر لي إنسان أعلى وأسمى. اسمع: إذا تحول اثنان عن جميع مشاغل الأرض وهمومها، واندفعا أو اندفع أحدهما على الأقل نحو المجهول، فإذا هو، في اللحظة التي يهم فيها أن يحلق أو يهلك، يلقى إنساناً آخر فيقول له: «قدّم لي هذه الخدمة، اعمل من أجلي هذا الأمر الذي لا يمكن أن يطلبه أحد من أحد أبداً، اللهم إلا وهو على فراش الموت...» فهل يمكن أن يرفض هذا الشخص الآخر طلبه.. إذا كان صديقه، إذا كان أخاه؟
فأجابه أليوشا:
- سأفعل ما تطلبه مني، ولكن قل ما هو، وقل بسرعة.
- بسرعة... هِمْ... لا تتعجل، يا أليوشا ! إنك تستعجل وتقلق. فلا داعي للاستعجال الآن. إن العالم يفتح الآن صفحة جديدة. إنها لخسارة كبيرة يا أليوشا أنك لا تستطيع أن ترقى إلى حيث تبلغ الانبهار! ولكن لماذا آخذ عليه هذا في الواقع؟ أعليك أنت أن ترتقي هكذا؟ يا لي من أحمق حين أقول:
كن نبيلاً يا أيها الإنسان![79].
من قائل هذا البيت من الشعر؟
قرر أليوشا أن يصبر. لقد أدرك أن كل ما يستطيع أن يقوم به من عمل قد يتركز الآن في هذا المكان بالذات. وفكّر ميتيا دقيقةً، متكئاً بكوعه على المائدة، واضعاً رأسه في راحة يده. صمت الاثنان كلاهما.
استأنف ميتيا كلامه يقول:
- أليوشا ! أنت وحدك تستطيع أن تسمعني دون أن تضحك! أريد أن أبدأ اعترافي... مرتلاً نشيد الفرح الذي كتبه شيللر إلى الفرح !. ولكنني لا أجيد اللغة الألمانية، ولا اعرف من النشيد إلا عنوانه: An die Freude. حذار خاصة أن يذهب بك الظن إلى أنني سكران. ليس السكر هو ما يجعلني أتكلم. الكونياك هو الكونياك، ولكن لا بد لي من زجاجتين على الأقل حتى أسكر:
سيلين ذو الوجه المزهر
قد أمتطي يوماً حماراً يتعثر[80].

وأنا لم أشرب إلا ربع زجاجة في أكثر تقدير، ثم إنني إن لم أكن سيلين، فأنا سيليون (قوي). أنا قوي لأنني اتخذت قراري، وقد اتخذته إلى الأبد! اغفر لي التلاعب بالألفاظ. وهناك، عدا هذا التلاعب، أمور كثيرة أخرى سيكون عليك أن تغفرها لي اليوم. اطمئن بالاً... إنني لا أهذر ولا أهرف... إنني أتكلم جاداً، وأمسُّ قلب الموضوع. لا يخطر ببالي أبداً أن أتيه في لف ودوران. انتظر... إني أحاول أن أتذكر...
ورفع دمتري فيدوروفتش رأسه مفكراً، ثم أخذ يتلو هذه الأبيات من الشعر بلهجة نافذة:

سكان الكهوف الخائفون الوجلون[81]
اختبأوا شبه عراة في المغاور
بينما كان البداة العتاة
يسلبون السهول والغابات
كان الصيادون المسلحون بالحراب والنبال
يبثون الذعر في قلب كل حي يتنفس
ويل لمن ترميه الأمواج الهائجة
على شاطئ اجنبي
من أعلى الأولمب الهادئ
هبطت سيريس الأم على الأرض
تبحث عن بروزربين.
ناصبتها الأرض العداء
لم يستقبلها احد
لم تجد مأوي لها في مكان
بحثت الآلهة عبثاً عن معبد
يمجد الوهيتها.
لا يرى احد في المآدب
ثمار الطبيعة مضيئة ساطعة
وعلى الهياكل الدامية
يتصاعد دخان القرابين المضحى بها.
تاملت سيريس المشهد الأليم
بنظرات تفيض حزناً واسى
في كل مكان يذل الإنسان
وعذابه شديد لا حدود له!..

وفجأة أخذ صدر ميتيا يعلو ويهبط من شدة الانتحاب. وأمسك يد أليوشا.
- أخي، صديقي! مذلٌّ هو الإنسان حتى اليوم. رهيب مصير الإنسان، شديدة آلام الإنسان لا تحسبنّ، أنني امرؤ فظ برتبة ضابط، لا يعنيه إلا أن يشرب الكونياك ويمارس الفجور. إنني في الواقع لا أفكر إلا في مصير البشر الذي يدعو إلى العطف والشفقة والرثاء، ذلك هو اهتمامي الوحيد تقريباً حين لا أكذب. فليساعدني الله كي لا أكذب ولا أتباهى في هذه اللحظة! إنني أفكر في هذا الإنسان لأني أنا نفسي إنسان مثله.

لا بد للإنسان[82]
من أجل أن تبعث نفسه بعثاً جديداً
وأن ترتفع بعد سقوط.
لا بد له أن يقطع للآلهة القديمة «أم الأرض»، عهداً إلى الأبد.

ولكن الصعوبة هي هذه: ما عساني أفعل من أجل أن أعاهد الأرض؟ أنا لا أقبل سطح الأرض، ولا أزرعها ولا أفتح جوفها؟ هل يجب أن أصبح فلاحاً أو راعياً صغيراً؟ إنني أسير دون أن أعرف أأنا أغوص في الوحل والعار، أم أنا أتقدم نحو الضياء والفرح؟ ذلك هو بعينه البلاء: إن كل شيء في هذا العالم لغز حين كان يتفق لي أن أغوص إلى القرارة من هوة الدناءة والعهر (ولم يحدث لي شيء غير هذا على كل حال)، فقد كنت في كل مرة أعيد قراءة تلك القصيدة التي تحدثنا عن سيريس وعن الإنسان. فهل أصلحني ذلك؟ كلا ثم كلا! لأني كارامازوف. فحين أسقط في الهوة أتدهور تدهوراً تاماً، رأسي في الأمام، وقدماي في الفضاء، حتى لقد أشعر عندئذٍ بسعادة من سقوطي على هذا النحو المذل المهين؛ وأعتبره شيئاً جميلاً. فإذا بلغت القرارة من هوة الدناءة والخسة، طفقت أترنم بنشيد. ألا فلأكن ملعوناً، ألا فلأكن منحطاً سافلاً ولكنني أريد، أنا أيضاً، أن أقبل ذيل الثوب الذي يتدثر به إلهي. لئن اتبعت الشيطان في الوقت ذاته يا رب، فإني، مع ذلك، أظل ابنك، وأحبك، وفي نفسي سبيل إلى الفرح الذي لولاه ما وجد الكون.

روح العالم التي خلقها الله[83] .
تغني الفرح إلى الأبد.
الفرح قائم في أعماق الحياة.
يحركها بقوة مستترة.
ينبت العشب من الأرض .
يحيل السديم شمساً
ينشر ضياءه الخير
في الفضاوات التي لا نهاية لها.
كل حي يبتهج
في حضن الطبيعة
جميع الكائنات، جميع الشعوب، تعيش به وحده.
يزين مصائبنا
يهب لنا أصدقاءً وازهاراً وثماراً
هو الشهوة في الحشرة...
وهو الله في الملاك

ولكن كفانا شعراً! لقد سكبت بضع عبرات، دعني أبكي قليلاً. أسلّم بك بأن في هذا حماقة وسخفاً. وربما ضحك الآخرون منه، أما أنت فلا... لقد رأيت شعلةً تومض في عينيك يا أليوشا. كفانا الآن شعراً. أريد أن أحدثك عن أولئك «الحشرات»، عن أولئك الذين وهب لهم الله الشهوة.
هو الشهوة في الحشرة.
أنا تلك الحشرة بعينها يا أخي! هذه الأبيات من الشعر إنما تستهدفني أنا خاصة. ونحن، آل كارامازوف، نحن جميعا سواء في هذه النقطة! فيك أيضاً تحيا هذه الحشرة، فيك أنت الملاك! إنها تُغلي دمك تُهبُّ العاصفة في نفسك. العاصفة! ذلك أن الشهوة أقوى من عاصفة، بل شر من عاصفة! الجمال شيء رهيب مخيف! هو رهيب لأنه لا يُحدّد... ولا يمكن تحديده لأن... الله ملأ الأرض ألغازاً وأسراراً. الجمال! هو الشطآن تتقارب، هو الأضداد تتحد ويحل بينها الوئام.

لست على جانب كبير من الثقافة يا أخي، ولكنني فكرت مليا في هذا الأمر. ما أكثر الأسرار والألغاز التي تضني الإنسان في هذا العالم! «ألا إن نفسي لتضطهد اضطهاداً حين تعيش تبين هذه الألغاز التي ما من سبيل لحلّها» حلّها كما تستطيع، ودبّر أمرك بحيث تخرج منها سالماً». الجمال! إن الشيء الذي لا أطيق احتماله هو أن أرى رجالاً متمتعين بفكرٍ سام وقلب رفيع، يتخذون مادونا في أول الأمر مثلاً أعلى يعبدونه، ثم يهوون إلى سدوم فيتخذونها هي مثلاً أعلى يمحضونه الحب والعبادة! غير أن ما هو أفظع من ذلك أيضاً أن ينذر الرجل نفسه لسدوم دون أن يستطيع التنكر لمادونا مثلاً أعلى، وأن يشعر بهذا المثل الأعلى مشتعلا في قلبه على الدوام، اشتعالاً صادقاً، كما كان يشتعل في سني الشباب التي تبرأت من الخطيئة. النفس الإنسانية واسعة، مسرفة في السعة... وددت لو أستطيع أن أضيقها... الشيطان وحده يعلم ما الذي يختبئ في قرارة هذا على كل حال. إن ما يبدو للعقل عاراً، هو للقلب جمال كامل. هل في سدوم جمال؟ ثق أن الجمال، في نظر أكثر الناس، لا وجود له إلا في الخطيئة والضياع. هل كنت تعرف هذا السر؟ أفظع ما في الجمال ليس أنه مخيف، بل إنه سر لا يُفهم. في الجمال، يصطرع الرحمن مع الشيطان.. وفي قلب الإنسان إنما تدور رحى هذا الصراع. لئن تكلمت على هذا كثيراً، فلأن بي منه عذاباً. استمع إليّ الآن. لقد وصلت إلى الحديث عن الوقائع.

- 4 -إعتراف قلب حار في حكايات

نعم لقد لهوت وعبثت وتلذذت هناك! ادّعى أبونا في هذا الصباح أنني كنت أرمي ألوف الروبلات من أجل أن أغوي البنات ! هذا كلام مقزّز وكذب وضيع... لم يحدث شيء من ذلك قط ! أما ما حدث فلم يُطلب مني شيء من مال من أجله. المال بالنسبة لي أمر ملحق، حمى غابرة، زينة لا أكثر. أحب سيدة في ذات يوم، فإذا أنا في الغداة أؤثر عليها بنتاً من بنات الشوارع. وأنا أنفق على هذه وتلك كلتيهما وألقي بالنقود دون حساب، والموسيقى تصدح، والصخب، والغجريات. وكنت أعطيهن هن أيضاً مالاً إذا اقتضى الأمر، ذلك أنهن يحرصن على هذا، بل يحببنه حباً قوياً (يجب أن أعترف بذلك) وهن يقبَلْنَه فرحات ممتنات. أحبتني نساء من المجتمع الراقي... لا جميعهن، بل عدد كاف منهن.... ولكن كانت تجذبني دائما قبل كل شيء الحواري الضيقة، والأزقة المسدودة المظلمة، البعيدة عن العمران. فهنالك المغامرة، هنالك الشيء الذي لا تتوقعه. هنالك الورود التي تنبت على الدمن. أقول ذلك الآن مجازاً يا أخي. أما في هذه المدينة فلم تكن هناك أزقة فعليّة بيد أنه كانت أزقة خُلُقية. لو كنت مثلي لفهمت قصدي. لقد أحببت المجون كما أحببت عاره. لقد أحببت القسوة: ألست بقّة، ألست حشرة خبيثة؟ إنني في كلمة واحدة: كارامازوف! إن مجتمع المدينة التي كنت أعيش فيها قد نظّم في ذات يوم نزهة جماعية. ركبنا سبع عربات ترويكا، كان ذلك في فصل الشتاء. ففي العربة التي كنت فيها أخذتُ، بفضل الظلمة، أشد على يد فتاة كانت جارتي، وأجبرتها على الاستسلام لقبلاتي. كانت طفلة. هي بنت موظف صغير. إنها فقيرة حلوة، عذبة، طيّعة، لطيفة... سمحت لي أن أتمتع بحريات كبيرة في الظلام! كانت المسكينة تتخيل أنني سأذهب من الغد إلى أبويها لأخطبها (كنت أقدّر خاصةً كخطيب ممكن). ولكنني لم أخاطبها حتى بكلمة واحدة بعد ذلك، وتجاهلتها تجاهلاً تاماً مدة خمسة أشهر. كنت أرى عينيها في أمسيات الرقص (وكانت حفلات الرقص كثيرة هناك) تتابعاني من ركن من الصالة، فألاحظ وميض الحنق الوديع الذي يشتعل في نظرتها. فكان هذا والله لا يزيد على أن يستثير متعة الحشرة في نفسي. وقد تزوجت موظفاً بعد خمسة أشهر، وسافرت دون أن تغفر لي وتصفح عني، ولعلها ظلت تحبني... وقد سعد الزوجان بعد ذلك. لاحظ أنني لم أقصص هذه الحكاية على أحد، وأنني لم أعرّض سمعة الفتاة لسوء. صحيح أن لي رغبات منحطة، وأنني أجد لذة في الانحدار إلى حضيض الخسة، ولكنني لست مجرّداً من الشرف... إن وجهك يتخضّب الآن بحمرة شديدة، وإن عينيك تلتمعان. طيب... لن أزعجك بعد الآن بسرد مثل هذه الحكايات

القذرة. ولكن ما ذكرته لك ليس إلا شيئاً قليلاً... هو زخرفات إضافية على طريقة بول دو كوك [84] ، ولكن الحشرة القاسية قد نمت في نفسي واستولت علي واستبدت بي. ما أكثر أمثال هذه الذكريات عندي... إن لي منها

ألبوماً» كاملاً فليمتعهن الله بالصحة أولئك العزيزات... ولقد كنت أحاول دائماً، حين أقطع صلتي بإحدى النساء، أن أتقي المشاكل والمشاهد. ثم إنني ما أفشيت سراً في حياتي قط، ولم أعرض سمعة إحداهن لسوء. ولكن كفاني ما قلته حتى الآن في هذا. أرجو أن لا يدور في خلدك أنني جئت بك إلى هنا لأقصَّ عليك هذه المبائس؟ هناك أمر أشق من هذه الأمور أحب أن أفضي به إليك. ولا يدهشك مع ذلك أنني لا استحي منك وأنني ربما ألتذ بانعدام الخجل في حضورك...

قاطعه أليوشا قائلا:

- أنت تقول هذا لأنك رأيت احمرار وجهي. إن وجهي لم يحمرّ بسبب حكاياتك، ولا بسبب سلوكك، بل لأنني مثلك...

- أنت؟ أنت مثلي؟ ألا إنك لتبالغ قليلاً...

قال أليوشا بحرارة:

- لا... لا أبالغ (كان واضحا أن هذه الفكرة قد شغلته منذ مدة طويلة). ليس بيننا إلا فرق في المقدار. نحن لا نقف على درجة واحدة من السلّم. فأنا ما زلت في أسفل، بينما وصلت أنت إلى أعلى، إلى الدرجة الثالثة عشرة مثلاً. هذا هو رأيي، ولكن الأمر واحد في الحقيقة، واحد تماماً... إن من وضع قدمه على الدرجة الأولى من السلم لا بد أن يبلغ ذروته.

- ففي رأيك إذن إن على المرء أن يتجنب وضع قدمه على الدرجة الأولى؟

- يجب على المرء أن يتجنب ذلك إذا استطاع.

- هل تستطيع هذا أنت؟

- يبدو أنني لا أستطيع.

- اسكت يا أليوشا، اسكت يا عزيزي الطيب. وددت لو أقبّل يدك، هكذا، حناناً وعطفاً. إن تلك الوغدة جروشنكا خبيرة في نفوس الناس. لقد أكدت لي ذات مرة أنها ستزدردك في يوم من الأيام لقمةً واحدة. ها أنذا أمسك عن الكلام فما أقول شيئاً بعد. دعنا من هذه العفونة، ولنصل إلى مأساتي الشخصية... التي ليست خيراً منها على كل حال، فهي معجونة بالخسّة والدناءة أيضاً. اسمع: لئن افترى أبونا عليّ حين تحدث عن فتيات بريئات لطخت شرفهن، فهذا لا ينفي أن ذلك عينه هو ما حدث في مأساتي، رغم أنه لم يحدث إلا مرة واحدة، أو قل أخيراً إنه لم يحدث قط. وأبونا العجوز الذي اتهمني بأفعال لا وجود لها، يجهل هذه القصة بالذات. إنني لم أحدث عنها إنساناً في يوم من الأيام. ستكون أنت أول من أطلعه عليها، بعد إيفان طبعاً. ذلك أن إيفان يعرف كل شيء، وقد عرفه قبلك بزمن طويل. ولكن إيفان قبر.

- إيفان قبر؟

- نعم. كان أليوشا يصغي إلى كلام أخيه بانتباه شديد.

- رغم أنني كنت ملازماً في تلك الكتيبة، وهي كتيبة ترابط على الحدود، فقد كنت تحت المراقبة بمعنى من المعاني، أشبه أن أكون منفياً. وقد استقبلني مجتمع المدينة الصغيرة التي فيها المعسكر استقبالاً ممتازاً واحتفى بي. كنت أنفق المال بغير حساب، وكانوا يظنونني غنياً، وكنت أنا أظن نفسي غنياً كذلك. يبدو على كل حال أنهم قد استلطفوني لسبب آخر أيضاً.. كانوا كثيرا ما يهزون رؤوسهم مستغربين، ولكنهم كانوا يحبونني حقا. وفجأة أخذ المقدم، وهو رجل طاعن في السن، يناصبني العداء، ويلتمس الفرص لمناكدتي ومشاكستي. غير أنني لم أكن بلا سند أعتمد عليه، وعدا ذلك كانت المدينة كلها تتحزب لي. ثم إنه كان من الصعب عليه أن يجد ما يستحق الشكوى مني وإلحاق الأذى بي. ولا شك في أنني كنت مخطئاً في حقه، لأنني تعمدت أن لا ألتزم ما ينبغي أن ألتزمه تجاهه من واجبات التوقير. لقد كنت أصطنع التكبر والاستعلاء. إن ذلك العجوز العنيد، الذي لم يكن امرءاً خبيثاً شريراً وكان رب أسرة طيب السريرة، كان قد تزوج مرتين، ولكن ماتت زوجتاه كلتاهما. فأما الأولى، وهي من بسطاء الناس أصلاً، فقد خلفت له بنتاً بسيطة كأمها كانت في ذلك الأوان تقترب من السنة الرابعة والعشرين من عمرها، كانت تعيش عند أبيها مع إحدى خالاتها. وكانت الخالة امرأة بسيطة النفس مذعنة الطبع. ولكن ابنة أختها، كبرى ابنتَيْ المقدم، كانت تجمع إلى بساطة الخلق كثيراً من الجرأة والإقدام. إنه ليسرني وأنا أستحضر ذكراها أن أطريها وأثني عليها: إنني يا صديقي لم ألق في حياتي امرأة تضارع تلك الفتاة جمال طبع. كان اسمها أجافيا... تصور... أجافيا إيفانوفنا. ولم تكن خالية من الحسن في الذوق الروسي: قامة طويلة ممتلئة قوية، عينان رائعتان، ولكن في تعبيرهما شيئاً من عامية. ولم تتزوج الفتاة، رغم أنها خطبت مرتين. لقد رفضت الخطبة الأولى والخطبة الثانية كلتيهما، دون أن تفقد بشاشتها وجذلها وصفاء مزاجها. وقد انعقدت الصلة بيني وبينها - لا على تلك الطريقة، لأن كل شيء قد ظل بيننا طاهراً بريئاً- وإنما أصبحنا صديقين لا أكثر. والواقع أنه كثيراً ما اتفق لي أن صادقت بعض النساء مصادقة خالصة شريفة. وكنت حين أتحدث معها أخرج على هذه الأمور أحياناً، من باب الصراحة، فما تزيد على أن تضحك. أعلم أن نساء كثيرات يحببن الصراحة... ولكن تلك كانت عدا ذلك فتاة، فكان هذا يسليني كثيرة. يجب أن أضيف إلى ذلك أنه لم يكن في وسع المرء أن يسميها آنسة. وكانت الفتاة وخالتها تعيشان في منزل الأب ذليلتين بإرادتهما، لا تضعان نفسيهما في مستوى سائر أفراد المجتمع. وكان الناس جميعا يحبون أجافيا حباً عظيماً ويحتاجون إليها، لأنها كانت تملك موهبة فذة في الخياطة، ولكنها لا تتقاضي عن خدماتها مالاً، وإنما هي تعمل لتكون نافعة للناس لا أكثر. على أنها كانت لا ترفض المال إذا أهدي إليها، أما المقدم فقد كان من نوع مختلف كل الاختلاف. لقد كان شخصية من أهم شخصيات المدينة. كان يعيش حياة عريضة، ويستقبل الضيوف في منزله كثيرة، ويقيم مأدب غداء، وينظم أمسيات رقص. وحين وصلتُ إلى المدينة والتحقت بالكتيبة لم يكن للمدينة الصغيرة من حديث غير الحديث عن ابنة المقدم الصغرى التي ستصل قريبا من العاصمة، والتي يقال إنها ذات جمال خارق نادر، والتي تركت منذ زمن قصير مدرسة داخلية ارستقراطية ببطرسبرج أتمت فيها دراستها. إن هذه الفتاة الأخرى ليست إلا كاترينا إيفانوفنا نفسها، بنت المقدم من زوجته الثانية التي ماتت هي أيضاً. كانت زوجته الثانية هذه تنتمي إلى أسرة كبيرة - أحسب أن أباها كان جنرالاً معروفاً - رغم أنها لم تحمل إلى زوجها، هي أيضاً، مهراً ضخماً... ذلك أمر عرفته من مصدر مطلع. لقد كان لها إذاً أقرباء، وربما كانت لها آمال في أكثر تقدير، أما المال فلم يكن عندها مال... على أن وصول طالبة بطرسبرج إلى المدينة (وقد جاءتها زائرةً فحسب) قد كان حدثاً من الأحداث ردّ إلى المدينة صباها إن صح التعبير. فهؤلاء أرقى سيدات مجتمعنا، وهن زوجتا «صاحبي سعادة»؛ وزوجة عقيد،

وسيدات أخرى كثيرات، هؤلاء هن يحطن بالفتاة ويحتفين بها ويتبارين في إقامة المآدب لها. لقد أصبحت الفتاة ملكة حفلاتنا الراقصة ونزهاتنا ورحلاتنا، حتى لقد أقيمت على شرفها حفلة تمثيلية رُصد ريعها لإعانة مربيات عجائز لا أدري مَنْ هن. لم أقل أنا شيئاً، بل بقيت بعيدا متنحياً، ألهو وأقصف على ما يشاء لي هواي. وفي تلك الآونة بعينها إنما اقترفت فضيحة من تلك الفضائح التي أثارت المدينة كلها. لقد لاحظت في ذات مساء، أثناء حفلة استقبال أقامها قائد الكتيبة، أنها كانت ترمقني بنظرها، ولكنني لم أقترب منها بل تظاهرت بالاستخفاف بهذه الفرصة التي عرضت لي للتعرف بها. وبعد ذلك بزمن قصير، قررت أثناء سهرة أخرى، أن أتجه إليها بالكلام. فلم تكد ترضى أن تتنازل فتنظر إليّ، وعبرت شفتاها عندئذٍ عن احتقار. قلت بين وبين نفسي عندئذٍ: «اصبري قليلاً... ساعرف كيف أثأر لنفسي! »، وكنت في ذلك الأوان شرس الطبع، شديد التهور... وكنت أعرف ذلك في نفسي.... وقد شعرت خاصة أن «كاتينكا» ليست واحدة من تلك الآنسات الساذجات الكثيرات بنات المدارس الداخلية، وإنما هي إنسانة قوية الطبع، ذات كبرياء وخيلاء، فاضلة طاهرة حقاً... والأمر الذي أشعرني بالمذلة خاصة أنها عدا ذلك ذكية مثقفة، على حين أنني لا ذكي ولا مثقف. العلك تظن أنني أردت أن أخطبها؟ أبداً. كل ما كنت أتمناه هو أن أستطيع، أنا الفتى البارز المرموق، أن أثار منها لنفسي، لأنها لم تعرف قيمتي ولم تحسّ بقدري. وبانتظار ذلك اندفعت ألهو وأقصف بغير قصد ولا اعتدال، حتى إن المقدم انتهى به الأمر إلى حبسي ثلاثة أيام. وفي تلك الآونة إنما أرسل إليّ أبونا ستة آلاف روبل بعد أن بعثت إليه بتنازل مكتوب عن جميع حقوقي الأخرى. لقد اعترفت في ذلك التنازل بأننا قد «صفينا حساباتنا»، وبأنني لن أطالبه في المستقبل بشيء البتة. ولقد كنت لا أفهم شيئاً من أمر هذه الحسابات آنذاك. ويجب أن أعترف لك يا أخي، أنني قبل مجيئي إلى هنا، وحتى الآونة الأخيرة، بل وحتى يومنا هذا الذي نحن فيه، لم أفهم قط شيئاً من أمر هذه الخلافات المالية بيني وبين أبينا. على كل حال، دعنا من هذه المسألة الآن... وإن لي إليها عودة. المهم أني بعد أن تلقيت المال بزمن قصير علمت علم اليقين، من رسالة بعث بها إليّ صديق، أمراً يمكن أن يهمني كثيراً، وهو أن المراجع العليا مستاءة من صاحبنا المقدم، وأنها تشتبه في أمره وتظن فيه سوء الإدارة وارتكاب المخالفات، أي إن أعداءه يدبرون له مكيدة خبيثة. وها هو ذا آمر الفرقة يصل على حين فجأة، فيقرع صاحبنا المقدم تقريعاً شديداً، وما هي إلا فترة قصيرة إذا به يتلقى أمراً بتقديم استقالته. لن أقص عليك تفاصيل هذه الحكاية. فإنما المهم أن هذا الرجل كان له في الواقع أعداء. وقد تنكرت له المدينة كلها فجأة، وأظهرت له ولأسرته فتوراً شديداً وصار الناس يتحاشونهم تحاشي مرضى مصابين بالطاعون. وفي تلك الاونة إنما ارتكبت فعلتي الأولى. ففي ذات يوم التقيت بأجافينا إيفانوفنا التي ظللت صديقاً لها:

- هل تعلمين أن الأموال التي في عهدة أبيك تنقص أربعة آلاف وخمسمائة روبل؟

فقالت لي أجافيا:

- كيف هذا؟ لماذا تقول هذا الكلام؟ لقد جاء الجنرال مفتشاً منذ مدة قصيرة، فكان المال كله كاملاً...

قلت لها:

- صحيح. يومذاك كان كاملاً، أما الآن فهو ناقص.

جزعت كثيراً وقالت:

- لا تخفني! من قال لك هذا الكلام؟

فأجبتها:

- اطمئني... لن أقول لأحد كلمة واحدة. أنت تعلمين أنني كالقبر صمتاً حين يجب الصمت. ولكنني أحب أن تعرفي أيضاً ما يلي «على كل حال»، كما يقال، إذا طولب أبوك بهذه الأربعة آلاف وخمسمائة روبل، فلم يستطع أن يردها فسيكون عليك حتى لا يمثل أمام المحاكمة وحتى لا يحكم عليه في آخر عمره بأن يصبح جندياً بسيطاً سيكون عليك أن تبعثي إلي، خفية، بأختك الطالبة. لقد تلقيت أخيراً مبلغاً ضخماً، سأعطيها منه أربعة آلاف وخمسماية روبلاً وسأحفظ السر حفظ شيء مقدس فلا يعرف أحداً شيئاً عن هذا الأمر في يوم حتى الأيام.

هتفت تقول:

- يا للوغد! (تلك هي الكلمة التي استعملتها) ألا إنك لوغد شرير! كيف تجرؤ أن....؟.

وتركتني مستاء أعنف الاستياء، وصحت أقول لها مرة أخرى إنني سأحافظ على السر محافظة تامة، وأكتمه كتماناً كاملاً. يجب أن أقول لك فوراً إن هاتين المرأتين، أجافيا وخالتها، قد تصرفتا في هذه القضية تصرف مَلاكَين. كانتا في الواقع تعبدان كاترينا المتكبرة عبادةً، تنمحيان أمامها امحاءً، وتسعيان بين يديها كخادمتين... ومع ذلك أسرعت أجافيا تقص الحادث على أختها، أي تروي لها حديثي معها. عرفت ذلك فيما بعد. لقد قالت لها كل شيء. وكان ذلك هو المطلوب بالنسبة لي طبعاً.

ففي ذات يوم وصل رائد جديد على حين فجأة ليستلم قيادة الكتيبة. وتمت الإجراءات المعتادة. فإذا بالمقدم العجوز يمرض بغتة، ويعلن أنه لا يستطيع مبارحة السرير، ولا يسلم أموال الدولة. وقد أكد طبيبنا كرافتشنكو أنه مريض حقاً، وأنه لا يتظاهر بالمرض تظاهراً. ولكنني كنت أعرف حقيقة الأمر، فقد اطلعت على تفاصيل المسألة سراً منذ زمن طويل: وهي أن المال يكون في الخزنة عند إجراء الحسابات في موعدها من كل سنة، ولكنه يختفي بعد ذلك دائما إلى حين، وذلك منذ أربع سنين. لقد كان المقدم يقرض هذا المبلغ رجلاً موثوقاً أميناً من تجار المدينة هو الأرمل العجوز تريفونوف ذو اللحية الطويلة والنظارتين الذهبيتين. فكان تريفونوف يمضي بالمبلغ إلى السوق فيعقد صفقات ويبرم أعمالاً حتى إذا عاد إلى المدينة رد المبلغ المقترض إلى المقدم مضيفاً إليه بعض الفوائد وبعض الهدايا. ولكن تريفونوف حين رجع هذه المرة من السوق لم يرد المبلغ (عرفت هذه التفاصيل بمصادفة محضة من ابنه القذر الذي هو وريثه والذي هو أفسد مخلوق في هذا العالم). ولم يرد تريفونوف المبلغ إذن. فلما هرع إليه المقدم يطالبه برد المال قال له تريفونوف: «أنا لم أقترض منك شيئاً، ولا كان في وسعي أن أقترض منك شيئاً على كل حال». فإذا بصاحبنا المقدم يرقد في فراشه، ويغطي رأسه بمنشفة، وتأخذ السيدات الثلاث تضع على يافوخه ثلجاً. وفجأة يصل إلى منزله فرّاش حاملاً دفتر الحسابات مع أمر برد أموال الدولة بغير إبطاء، في غضون ساعتين على أكثر تقديره. فيضع العجوز توقيعه على المذكرة المرسلة إليه، وقد رأيت بنفسي توقيعه في هذا الدفتر فيما بعد، ثم ينهض قائلاً إنه يريد أن يرتدي بزته العسكرية، فيمضي إلى غرفة نومه، فيتناول بندقية صيد بروحين، فيحشوها برصاص من رصاص الحرب، ويخلع حذاء قدمه اليمنى، ويضع فوهة البندقية على صدره، ويتلمس الزناد بإصبع قدمه. ولكن أجافيا التي ساورت فكرها شبهات، لأنها تذكرت الحديث الذي جرى بيني وبينها، كانت قد تسللت وراءه خلسةً ورأت في الوقت المناسب ما كان يريد أن يصنعه بنفسه، فهرعت إلى الغرفة وارتمت على أبيها من خلف وأمسكت ذراعيه، فانطلقت الرصاصة في اتجاه السقف لم تجرح أحداً. وهرعت المرأتان الأخريان أيضاً، فتمت السيطرة على العجوز، وانتُزعت منه البندقية. لقد رُوي لي هذا المشهد تفصيلا فيما بعد. وكنت في تلك اللحظة في مسكني. وكان الوقت بعد الغروب، فأنا أستعد للخروج. لقد ارتديت ثيابي، وصففت شعري، وعطّرت منديلي... وإني لأتناول قبعتي، إذا بالباب يُفتح فجأة، وإذا بكاترينا إيفانوفنا أمامي، في مسكني.

إن مصادفات غريبة تقع أحياناً.. لم يرها أحد من سكان المدينة آتية إليّ، فلم يعرف أحد بهذه الزيارة. كنت أسكن في شقة أجّرتنيها أرملتا موظفين صغيرين، طاعنتان في السن جداً، تخدماني باحترام، وتطيعان أوامري طاعة عمياء. أمرتهما أن لا تنطقا بحرف واحد في أمر هذه الزيارة، فكانتا خرساوين كخرس الشبوط. أدركت كل شيء من أول نظرة طبعاً. دخلت الفتاة، ونظرت إليّ وجها لوجه. كان في عينيها القاتمتين عزم وحزم، بل كان فيهما تحدٍ، غير أن شيئاً من تردد كان يلم بشفتيها ويطوف حول فمها.

- قالت لي أختي إنك ستعطيني أربعة آلاف وخمسمائة روبل إذا جئت أطلبها منك... بنفسي. فها أنذا جئت... هات المبلغ !..

لم تستطع أن تزيد على ذلك شيئاً، فقد اختنقت وجزعت وتكسر صوتها وارتجفت شفتاها، واختلج خداها. أتصغي إلي يا أليوشا أم تُراك نمت؟

قال أليوشا منفعلاً:

- ميتيا، أنا أعلم أنك ستقول لي الحقيقة كلها.

- سأقول لك الحقيقة، اطمئن. سأقول لك الحقيقة ولن أداري نفسي. إليك الحقيقة إذاً: الفكرة الأولى التي ساورتني هي فكرة جديرة بواحد من آل كارامازف. لقد اتفق لي في الماضي يا أخي أن لدغتني حشرة فرقدت في فراشي أسبوعين من الحمى. فاعلم أن حشرة أخرى قد لدغتني في تلك اللحظة في قلبي.... هي الحشرة المفترسة الكاسرة، هل تفهم؟ شقلتُ الفتاة ببصري. هل رأيتها؟ إنها جميلة جمالاً رائعاً، ولكن ليس وجهها هو الذي بدا لي جميلاً عندئذٍ: لقد كانت في تلك اللحظة جميلة بنبل نفسها وعظمة روحها بالقياس إليّ أنا الشقي، كانت جميلة بالتضحية التي تقدمها في سبيل أبيها بالقياس إليّ أنا البقة الحقيرة! وها هي ذي الآن تقع تحت سلطان هذه البقة، ها هي ذي الآن خاضعة خضوعاً كاملاً لي أنا، أنا الشقي، خاضعة كلها، روحاً وجسماً. كانت محاصرة... سأعترف لك بالحقيقة من غير لف ولا دوران: إن هذه الفكرة التي خطرت ببالي، إن فرحة الحشرة هذه التي نبتت في نفسي، قد استولت علي في أول الأمر استيلاءً تاماً وملأت قلبي إلى حيث أوشك أن ينفجر من فرط اللوعة. بدا لي أنه ليس ثمة مجال لمقاومة، وأنه لم يبق لي إلا أن أتصرف تصرف بقة، تصرف رتيلاء مفترسة، بغير شفقة ولا رحمة... وكادت تنقطع من ذلك أنفاسي. افهمني حق الفهم... إنه لبديهي أنني لو فعلتُ لمضيت أخطبها في اليوم التالي، لأختم هذه المغامرة بأناقة ونبل إن صح

التعبير، فما يعلم أحد بما جرى، ولا يستطيع أن يعلم. صحيح أن لي شهوات دنيئة، ولكنني مع ذلك رجل شريف. غير أنني في تلك اللحظة سمعت كأن صوتاً يهمس في أذني قائلاً «دعك من هذا... إن هذه المرأة لن تستقبلك إذا ذهبت تخطبها في الغد، وستكتفي بأن تأمر حوذيّها بأن يخرجك مطروداً، قائلة لك بذلك: افضح سمعتي، وشهّر بي في المدينة كلها، فأنا لا أخاف منك ! » ألقيت نظرة على الفتاة، فأدركت أن ذلك الصوت لم يكذّبني، فذلك بعينه ما سيحدث. لسوف أطرد شر طردة: إنني أقرأ هذا في عينيها حتى في هذه اللحظة، استولى عليّ حنق مسعور حين خطرت ببالي هذه الفكرة، فاشتهيت فجأة أن أقوم بأحقر وأسفل عمل ممكن، أن أقوم بعمل خليق بصاحب دكان: أنظر إليها مبتسماً وأدمرها تدميراً في مكانها، هنا، أمامي، قائلاً لها بلهجة لا يجيدها إلا صاحب دكان:
- أتحسبينني أعطيك أربعة آلاف؟ أنا قلت ما قلته مازحاً يا آنسة! ألا إنك قد برهنت إذاً على خفة وطيش حين حملت كلامي محمل الجد! مائتا روبل، معقول!... لو سألتني أن أعطيك مائتي روبل لفعلت، ولفعلت مسروراً... أما أربعة آلاف روبل يا آنسة، فذلك مبلغ أضخم من أن نُبذّره من أجل أمور تافهة كهذه. لقد أزعجت نفسك في غير طائل يا آنسة!
هل ترى يا أليوشا ؟ لو قد قلت لها هذا الكلام لضاع كل شيء طبعاً ! كانت ستهرب... ولكنني أكون قد ثارت لنفسي ثأراً رهيباً، وأكون قد أرضيت كرامتي الجريحة إرضاءً جهنمياً! كنت سأظل أبكي طوال حياتي بعد ذلك حسرةً وأسفاً، ولكنني لو قلت لها ذلك الكلام لاستطعت على الأقل أن أنتصر عليها في تلك اللحظة انتصاراً ساحقاً! صدقني إذا قلت لك إنني لم يتفق لي يوماً أن نظرت إلى أي امرأة في ظرف كهذا الظرف نظرةً فيها كره، أما في تلك المرة فقد لبثت ثلاث ثوان أو خمسة أتفرس فيها وأنا أشعر بكره رهيب.... أحلف لك... هو ذلك النوع من الكره الأهوج الطائش الذي لا تفصله عن الحب الجامح المجنون إلا شعرة! اقتربت من النافذة، ووضعت جبيني على زجاجها البارد... إنني أتذكر الآن أن ملامسة الزجاج المتجلد قد أحدثت لي إحساساً مثل حرق قوي. اطمئن: لم أبقها عندي طويلاً. التفتّ، واتجهت نحو منضدتي، ففتحت الدُرج وأخرجت منه الحوالة (كنت قد أودعتها معجمي الفرنسي)، وهي بمبلغ خمسة آلاف روبل تدفع «لحامله». أريتها الحوالة دون أن أنطق بكلمة واحدة، ثم طويتها وأعطيتها إياها. وبعد ذلك فتحت باب الممر بنفسي، ثم تراجعت خطوة إلى وراء، وحييتها منحنياً حتى الحزام، تحيةً فيها أعظم الاحترام... تستطيع أن تصدّق ذلك!... ارتعشت الفتاة من أخمص قدميها إلى قمة رأسها، وحدقت إليّ لحظة، وانكفأ لونها انكفاءً رهيباً، ثم إذا هي، على حين فجأة، دون أن تنطق بكلمة واحدة، ودون أن تظهر شيئاً من اندفاع، تنحني هي أيضاً، برفق وعمق، فما تزال تميل حتى يلامس جبينها الأرض، فتحييني ساجدة هذا السجود، لا على طريقة آنسة تعلمت في مدرسة داخلية، بل على الطريقة الروسية! ثم نهضت بوثبة واحدة، وولّت هاربة. وكنت حاملاً سيفي في تلك اللحظة فسللته ووددت لو أغمده في صدري. لماذا ؟ لا أدري! لو قد فعلت لكان هذا مني حماقة طبعاً، ولكن أحسب أن ذلك كان ثمرة الحماسة. هل تفهم أن من الممكن أن يقتل الإنسان نفسه في بعض لحظات الحماسة؟ على أنني لم أفعل شيئاً من ذلك، واكتفيت بأن قبّلت السيف، ثم أعدته إلى غمده. تلك تفاصيل لم يكن من الضروري أن أرويها لك على كل حال. ويُخَيّل إليّ أنني قد زخرفت دوري قليلاً حين وصفت لك الصراعات كلها، إنني قد أضفت عدة أشياء لأمجّد نفسي. لا ضير... لنسلّم بهذا... تباً لجميع الجواسيس على قلب الإنسان! تلك هي «حادثتي» مع كاترينا إيفانوفنا! اثنان يعرفانها الآن: أنت وأخي إيفان... ولا أحد يعرفها سواكما!
نهض دمتري فيدوروفتش، وسار بضع خطوات، مضطرباً اضطراباً شديداً، وأخرج منديله فجفف به جبينه. ثم عاد فجلس، لكنه لم يجلس في المكان الذي كان يجلس عليه حتى تلك اللحظة، وإنما جلس على المقعد المواجه، المستند إلى الجدار المعارض، فاضطر أليوشا أن يستدير حتى يقابله وجهاً لوجه.

- 5 -اعتراف قلب حار
«والقدمان في الفضاء»

قال أليوشا:
- الآن عرفت الجزء الأول من هذه المسالة.
- تفهم الجزء الأول، وهو دراما مُثّلت في مدينة أخرى أما الجزء الثاني فهو مأساة ستجري أحداثها هنا.
قال أليوشا:
- لم أفهم حتى الآن شيئاً من هذا الجزء الثاني.
- وهل تظن أنني، أنا نفسي، أفهم شيئاً منه؟
- لحظةً يا دمتري. هناك عنصر أساسي. قل لي: أنت خطيبها،
أليس كذلك؟ وما زلت خطيبها؟
- لم أخطبها فوراً، وإنما خطبتها بعد الحادث بثلاثة أشهر. قلت لنفسي غداة ذلك اليوم إن كل شيء قد انتهى، وإنه لن يكون لما وقع تتمة، فإن مضيت أخطبها كان ذلك حطة وصغاراً. وهي، من جهتها، لم تحرك ساكناً طوال الأسابيع الستة التي قضتها في المدينة بعد ذلك، ولا أشعرتني بوجودها، اللهم إلا مرة واحدة في الواقع: ففي اليوم الذي أعقب زيارتها جاءتني خادمتها وأعطتني حزمة دون أن تنطق بكلمة واحدة. قرأت على الحزمة عنواني. وفضضت الحزمة فوجدت فيها بقية الخمسة آلاف روبل. لقد كانت في حاجة إلى أربعة آلاف وخمسمائة فقط، فباعت السند بخسارة قدرها أكثر من مائتي روبل، ثم أرسلت إليّ الباقي وهو مائتان وستون روبلاً فيما أظن، ولكنني لا أتذكر مقدار المبلغ تذكراً واضحاً. لم يكن في الحزمة إلا المال... لم يكن فيه كلمة شرح واحدة. بحثت في داخل الحزمة عن أية إشارة ولو بالقلم الرصاص، فلم أظفر بشيء. ما العمل؟ اندفعت ألهو وأقصف مزيداً من اللّهو والقصف، وبلغت من ذلك حداً اضطر معه الرائد الجديد أن يقرّعني تقريعاً شديداً. أما المقدم فقد ردّ أموال الدولة كاملة لا تنقص كوبكاً واحداً، فدهش جميع الناس، لأنهم كانوا مقتنعين بأنه بدّد هذا المبلغ، وما لبث بعد رد المال أن مرض فلزم فراشه وظل راقداً حوالي ثلاثة أسابيع ثم أصيب بضمور دماغي على حين بغتة فمات بعد خمسة أيام. وقد شيعت جنازته تشييعاً عسكرياً لأن وقته لم يكن قد اتسع لتقديم الاستقالة التي طُلِبَ إليه أن يقدمها، وسافرت كاترينا إيفانوفنا إلى موسكو بعد دفن أبيها بعشرة أيام، تصحبها أختها وخالتها. وفي تلك اللحظة فقط (أنا ما رأيتهن ولا ودّعتهن في المحطة) إنما تلقيت بطاقة صغيرة من ورق أزرق هو ورق الرسائل الأنيق ذي الحافة المخرّمة الجميلة، وقد كتب على البطاقة سطر واحد بالقلم الرصاص:
«سأكتب إليك. انتظر رسالتي. ك ». ذلك كل شيء.
سأسرد لك التتمة مقتضباً. في موسكو تغير حالهن بين عشية وضحاها، تغيراً مفاجئاً لا يعرف المرء له مثيلاً إلا في الحكايات العربية. لقد فقدت قريبتُها الجنرالة ابنتي أختها على حين فجأة، وهما أقرب ورثتها إليها، فقدتهما مصابتين بالجدري الذي خطف الأولى ثم خطف الثانية بعد أيام قليلة، فاهتزت الجنرالة اهتزازاً عميقاً لهذا المصاب فاحتضنت كاترينا وفرحت برؤيتها كأنها ابنتها، وأصبحت كاترينا نجمتها الهادية، أنها الأمن والسلام في وحدتها الموحشة. استولت الجنرالة على كاترينا، وسرعان ما كتبت وصية جديدة لمصلحتها. على أن الوصية تخص المستقبل، أما الآن فقد وهبت لها ثمانين ألف روبل أعطتها إياها بغير إبطاء، بحجة أن هذا المبلغ مهر لها، من أجل أن تستطيع التصرف فيه على ما يشاء لها هواها. كانت الجنرالة امرأة هستيرية، وقد أتيح لي أن ألاحظها بعد ذلك في موسكو. في ذات يوم، تلقيت بالبريد أربعة آلاف وخمسمائة روبل، فاستغربت طبعاً وعقدت الدهشة لساني. وبعد تلقي المال بثلاثة أيام وصلتني الرسالة الموعودة. إن الرسالة معي الآن، فأنا أحملها دائماً، وسأحتفظ بها حتى الممات. هل تريد أن ترى الرسالة؟ اقرأها... إنني أحرص على أن تقرأها حتماً، إن كاترينا إيفانوفنا تعرض علي في هذه الرسالة أن تصبح خطيبتي، تعرض عليّ هذا بنفسها. كتبت تقول ما معناه: «إنني أشعر نحوك بحب لا حدود له. ليكن أنك لا تحبني، لا يهم، كل ما أطلبه منك هو أن توافق على أن تتزوجني. لا تخش شيئاً: فإنني لن أزعجك، ولن أكون إلا قطعة أثاث في منزلك، لن أكون إلا السجادة التي سوف تمشي عليها... إنني أريد أن أحبك إلى الأبد، إنني أتمنى لو أنقذك من نفسك.. » لا أستحق يا أليوشا أن أكرر هذه الأسطر التي كتبتها لي، لا أستحق أن أرددها بألفاظي القذرة، بهذه النبرة الحقيرة التي لازمتني طوال حياتي والتي لم أستطع التخلص منها في يوم من الأيام! لقد حطمت تلك الرسالة قلبي، فما يزال ينزف بتأثيرها حتى الآن. أتظن أنني مرح النفس في هذه الأيام، وأن وضعي لا يعذبني عذاباً شديداً؟ ولقد أسرعت أجيبها (لأنني كنت لا أستطيع أن أسافر إلى موسكو فوراً)، كاتباً لها من خلال الدموع. غير أن هناك شيئاً سأظل أشعر منه بالخزي والعار ما حييت. لقد ذكرت في رسالتي التي بعثت بها إليها أنها أصبحت تملك الآن ثروة طائلة، وأن لها بائنة ضخمة، أما أنا فلست إلا ضابطاً شحاذاً. نعم، لقد كلمتها عن المال، كلمتها هي عن المال! كان ينبغي لي أن أقبل هذا التفاوت بيني وبينها صامتاً، ولكن هذا الكلام قد أفلت مني رغم أنفي... وكتبت في الوقت نفسه إلى إيفان الذي كان يومئذٍ بموسكو. عرضت عليه الموقف عرضاً دقيقاً في حدود الإمكان - ضَمت الرسالة ست صفحات - وكلفت إيفان أن يذهب إليها. لماذا تنظر إليّ هكذا؟ ما بالك تحملق هذه الحملقة؟ نعم... لقد وقع إيفان في حبها، وما يزال يحبها، أنا أعرف ذلك... في رأيكم أنتم في رأي الناس أنني ارتكبت بهذا حماقة كبرى... ولكن من الممكن أن تكون الحماقة هي الآن سبيلنا الوحيد إلى الخلاص جميعاً! ألست ترى مدى ما تكنه له من تقدير، بل وما تحمله له من احترام؟ كيف يكون في وسعها إذا هي وازنت بيني وبينه، أن تحب رجلاً مثلي ولا سيما بعد كل ما حدث هنا؟
- أما أنا فأعتقد أنها لا تستطيع أن تحب إلا رجلاً مثلك أنت لا
مثله هو.
- هي؟ لا... إنها لا تحبني أنا، وإنما تحب نبل نفسها وشهامة
روحها...
ذلك ما أفلت من لسان دمتري فيدوروفتش مع شيء يشبه أن يكون كرهاً. ثم سرعان ما أخذ يضحك، ولكن عينيه سطعتا بعد بضع ثوان، واحمرّ وجهه، وضرب المائدة بقبضة يده ضربة عنيفة، وصاح يقول بغضب رهيب على نفسه، غضب رهيب لكنه صادق:
- أحلف لك يا أليوشا... صدّق أو لا تصدق... أحلف لك صادقاً صدق وجود الله وصدق أن يسوع المسيح ربّنا، أحلف لك أنني، مهما أكن قد سخرت منذ لحظة بعواطفها الرفيعة، أعلم حق العلم أن نفسي لا تعدل جزءاً من مليون جزء من نفسها، وأن لها من صدق ونبل القلب ما لا ينعم به إلا ملاك من ملائكة السماء! وأن يقيني من هذا هو بعينه ماساتي كلها!..أي ضير في أن يحب الإنسان العبارات الجميلة وأن يشوبَ أطهر اندفاعاته شيء من تمثيل؟ ألست أستعمل أنا عبارات مصطنعة؟ ومع ذلك فأنا صادق، صادق تماماً. أما إيفان فإنني أتخيل أنه في هذه الساعة يلعن الطبيعة ولا شك، يلعن الطبيعة هو الرجل الذكي ذلك الذكاء كله! من الذي تفضله المرأة؟ إنها تخص بإيثارها الإنسان النذل الذي برهن هنا، وهو خاطب يعرفه الجميع، على عجزه عن أن يتحكم بميله إلى الدعارة والفجور، وفي حضور خطيبته، هل تفهم؟ نعم... فهذا الرجل الذي هو أنا، يُؤْثَر، أما الآخر فيُبعَد... ولماذا ذلك كله؟ لأن فتاة من الفتيات تريد انسياقاً لنبلها أن تتحدى قدرها، وأن تقهر سعادتها! سخف! أنا طبعاً لم أطلع إيفان على خواطري هذه في يوم من الأيام، ولا هو اعترف أي اعتراف أو أشار أية إشارة حول هذا الأمر. ولكن يجب أن ينال كل واحد منا نصيبه، فأما الأفضل فيحتل المكان الذي يستحقه، وأما الآخر الذي لا يستحق ذلك المكان فيغوص في الأزقة المظلمة القذرة. إن هذا الآخر سيجد له مأوى في الأزقة الموبوءة العفنة التي يحبها، والتي تستهويه وتجذبه إليها، والتي يشعر فيها أنه في بيته، ليهلك هنالك في الحقارة المُقزّزة راضياً متلذذاً. إنني أسترسل الآن في عبارات جوفاء، وأقول ألفاظاً بالية أجمعها من هنا وهناك. ولكن الأمور ستجري هذا المجرى الذي أصفه. سأغطس أنا في الأزقة، وستزوج هي إيفان.
قاطعه أليوشا مرة أخرى يقول وقد اضطربت نفسه اضطراباً شديداً:
- لحظةً يا أخي! هنالك نقطة لم تشرحها لي مع ذلك حتى الآن: إنك خطيبها، أليس كذلك؟ أنت خطيبها رغم كل شيء... فكيف يخطر ببالك والحالة هذه أن تفصم خطبتك إذا كانت هي، خطيبتك، لا تريد ذلك؟
- أنا خطيبها، هذا صحيح. وقد احتفلنا بخطوبتنا وفقاً لجميع القواعد المقررة، ونلنا جميع المباركات المألوفة المعهودة. تم ذلك فور وصولي إلى موسكو وعلى أفضل صورة في كثير من الأبهة والأيقونات. وقد باركتنا الجنرالة، حتى لقد هنأت كاتيا - هل تصدق ذلك؟ - هنأتها قائلة لها: «أحسنت الاختيار يا بنيتي... إنني أرى قرارة نفس هذا الفتى». أما إيفان فقد ناصبته العداء - هل تتصور؟ - ولم ترض أن تهنئه... وقبل أن أترك موسكو جرت بيني وبين كاتيا أحاديث طويلة، فكشفت لها عن نفسي بنبل وإخلاص، ووصفت لها أخلاقي وصفاً دقيقاً صادقاً، فكانت تصغي إلى ما أقول بانتباه شديد.

فكان استحياء وكانت دموع
وكان كلام رقيق وديع
وكان كذلك كلامٌ فيه كبرياء وخيلاء. وأجبرتني على أن أقطع على نفسي عهداً لأصلحن حالي. قطعت لها على نفسي ذلك العهد. وها أنت ذا ترى...
- ماذا ؟
- لقد ناديتك اليوم، ودعوتك أن تجيء إلى هنا في هذا النهار - تذَّكر التاريخ! - من أجل أن أوفدك قبل حلول المساء إلى كاترينا إيفانوفنا، فتبلغها...
- أبلغها ماذا ؟
- إنني لن أذهب إليها بعد اليوم قط. وأنقل إليها تحيتي واحترامي.
- أهذا ممكن؟
- إن غير الممكن هو أن أذهب إليها بنفسي، ولذلك أرسلك إليها بدلاً مني، فكيف أستطيع أن أقول لها هذا الأمر؟
- وما الذي ستفعله بعد ذلك؟
- أضيِّع نفسي في الأزقة!
- هي إذن جروشنكا! ستذهب إلى جروشنكا؟
بهذا هتف أليوشا سائلا بلهجة مرة وهو يضم يديه إحداهما إلى الأخرى. وتابع كلامه:
- أيكون ما قاله راكيتين هذا صحيحاً؟ أعترف لك بأنني قد خطر ببالي أنك قد ترددت عليها، لكنني كنت آمل أن تكون قد سئمتها
- أتردد عليها وأنا خطيب؟ أتظن أن هذا ممكن ومقبول، على مرأى ومسمع من جميع الناس، لا سيما والخطيبة فتاة كتلك الفتاة؟ إن لي شيئاً من شرف رغم كل شيء. صحيح أنني منذ اللحظة التي بدأت أختلف فيها إلى جروشنكا قد فقدت صفة الخطيب وفقدت صفة الإنسان الشريف. ذلك أمر أفهمه كل الفهم. ما بالك تنظر إليّ هكذا؟ إعلم أنني حين ذهبت إليها أول مرة إنما ذهبت إليها لغرض واحد هو أن أضربها. كنت أعلم وأعلم الآن علم اليقين أن ذلك الضابط الذي يكلفه أبي بقضاء أعمال له، قد أعطى جروشنكا سنداً ممهوراً بإمضائي، لتطالب بملاحقتي فتضطرني بهذه الوسيلة أن أنسحب. لقد أرادوا تخويفي. لذلك قررت أن أضربها وكنت قد رأيتها مرة من بعيد، فلم تحدث في نفسي أثراً لأول وهلة، وكنت أعرف وجود صاحبها ذاك التاجر العجوز، الذي هو الآن مريض راقد في فراشه قد بارحته قواه، ولكنه سيترك لها مع ذلك بعد موته كنْزاً كبيراً؛ وكنت أعلم أيضاً أنها تحب المال حباً عظيماً، وتحاول أن تربح المزيد منه بالإقراض بِربا فاحش لا يعرف الشفقة ولا الرحمة، هذه الوغدة، هذه الحقيرة... فذهبت إليها لأضربها... فإذا أنا أؤخذ بها... كان الأمر صاعقة أو طاعوناً أو ما شئت فسمِّه... ولكنني قد أصبت وما أزال. وأنا أعلم أن كل شيء قد انتهى ولن أرى في الحياة بعد اليوم شيئاً سواها. دارت دورة الزمن. هذا هو حالي. وقد اتفق عرضاً في تلك اللحظة، كأنما على عمد وقصد، أن كان معي ثلاثة آلاف روبل، أنا الذي لست إلا شحاذاً... فذهبنا معاً إلى موكرويه التي تبعد عن هنا مسافة خمسة وعشرين فرسخاً، فاستدعيت هنالك غجراً، رجالاً ونساءً، وفتحت زجاجات شمبانيا، فأخذت أسقي جميع الفلاحين وجميع الفلاحات وجميع البنات، أسقي بسخاء، بوفرة... كنت لا أحسب ما أنفق من مال، فالألف يذهب وراء الألف، فما هي إلا ثلاثة أيام حتى خلا وفاضي فلم يبق معي شيء... فهل تظن أنني قد وصلت معها إلى شيء؟ أبداً... لم أنل منها شيئاً البتة لم ترني جسدها حتى عن بعد! إن في جسمها نوعا من تثنٍ... لن أقول لك إلا هذا... تراه في الساق أيضاً، وتراه حتى في الإصبع الصغير من قدمها اليسرى. لقد رأيت هذا الإصبع، وقبلته... ولكن ذلك كان كل شيء، أحلف لك! كانت تقول لي: «سأتزوجك إذا شئت، رغم فقرك - عِدْني بان لا تضربني، وبأن تدع لي أن أفعل في المستقبل ما يحلو لي، فربما قبلت عندئذٍ أن أصبح زوجتك». كانت تقول ذلك ضاحكة، وهي ما تزال تضحك إلى الآن!
نهض دمتري فيدوروفتش على حين فجأة وقد بدا عليه نوع من غضب مسعور. أصبح كالسكران دفعة واحدة. احتقنت عيناه دماً.
- وهل تريد أنت حقاً أن تتزوجها؟
- إذا وافقتْ تزوجتها فوراً؛ وإذا رفضت بقيت إلى جانبها ولو كناساً في فناء بيتها هل تعلم أنت... أنت...
توقف دمتري فيدوروفتش فجأة أمام أليوشا، فأمسكه من كتفيه، وأخذ يهزه بكل ما أوتي من قوة.
- هل تعلم، أيها الطفل البريء، هل تعلم أن هذا كله ليس إلا هذياناً، ليس إلا كلاماً يدل على جنون، وأن الأمر في الواقع أمر مأساة؟ اسمع يا أليوشا: قد أكون أحياناً رجلاً دنيئاً منحطاً تستبد به رغبات حقيرة وتضيعه شهوات سافلة، أما أن أكون لصاً، لصاً صغيراً يسرق من جيوب السترات في المداخل، فذلك ما لن يكونه دمتري كارامازوف أبداً! إلا فاعلم إذاً أنني لص صغير يسرق المال من المداخل ومن الجيوب! ففي ذلك الصباح الذي ذهبت فيه إلى جروشنكا لأضربها، كانت كاترينا إيفانوفنا قد استدعتني إلى منزلها سراً، وكلفتني (راجيةً أن أنفذ طلبها في الخفاء فما يعلم به أحد)، أن أذهب إلى مركز الإقليم فأرسل هناك بالبريد ثلاثة آلاف روبل إلى أختها أجافيا إيفانوفنا بموسكو. ذلك أنه كان يجب أن لا يطلع أحد من سكان مدينتنا على هذا الأمر. فهذه الثلاثة آلاف روبل هي التي كانت في جيبي حين ذهبت إلى جروشنكا، وبهذه الثلاثة آلاف روبل إنما مضيت أنا وجروشنكا إلى موكرويه. ولقد تظاهرت بعد ذلك بأنني ذهبت إلى مركز الإقليم، ولكنني لم أسلِّم كاترينا إيفانوفنا إيصال البريد، وإنما أكدت لها أنني أرسلت المال ووعدتها بأن آتيها بالإيصال في يوم آخر. ولم أعطها الإيصال طبعاً حتى هذه الساعة، متعللاً بالنسيان، فتخيل الآن أنك ذهبت إليها اليوم، فنقلت إليها تحيتي واحترامي، فسألتك « والمال؟»، فعندئذٍ تقول لها: «إنه شهواني وضيع ومخلوق حقير يستسلم لأهوائه. إنه لم يرسل نقودك آنذاك، بل بددها لأنه لم يستطع أن يكبح نفسه، كالحيوان». ولكن كان بوسعك أن تضيف: »ولكنه ليس لصا مع ذلك، هذه هي نقودك، الثلاثة آلاف، يردها إليك، فلترسليها بنفسك إلى أجافيا إيفانوفنا، أما هو فيبلغك تحياته ». فما عساك قائلاً لها اليوم إذا سألتك «والمال؟»..
- أنت شقي يا ميتيا... هذا أكيد! ولكن لا تبالغ! إن البلية أهون مما تظن. لا ندع لليأس أن يصعقك، لا تدع لنفسك أن تتحطم هذا التحطم!
- أتراك تظن أنني سأنتحر لأنني لن أستطيع أن أجد ثلاثة آلاف روبل أردها إليها؟ ألا إن البلية بعينها هي أنني لن أنتحر، فلست أملك من القوة ما يمكنني من الانتحار الآن. قد أفعله في المستقبل. أما الآن فإنني ذاهب إلى جروشنكا... وليكن ما يكون؟
- وما الذي ستفعله عندها؟
- أصبح زوجها. أنال هذا الشرف. فإذا جاء عشيقها يزورها انسحبت إلى الغرفة المجاورة. وسأنظف أحذية أصدقائها، وسأغلي الماء في السماور، وأكون صبياً عندها...
قال أليوشا فجأة بصوت مهيب:
- إن كاترينا إيفانوفنا ستفهم كل شيء، ستفهم مدى شقائك، وستغفر لك. إن لها ذكاءً فذاً. لا يمكن أن يكون أحد أشقى منك، وستدرك هي هذا.
فأجابه ميتيا يقول مكشراً:
- لن تغفر لي قط. هناك يا أخي أشياء لا يمكن أن تقبلها أية امرأة هل تعرف ما هو أفضل شيء يجب أن نعمله؟
- ماذا ؟
- أن نرد إليها الثلاثة آلاف روبل.
- ولكن من أين؟ اسمع: إنني أملك ألفي روبل، ولا شك أن إيفان سيعطي ألفا آخر، فيكون المجموع ثلاثة آلاف. خذها ورُدَّها إليها.
- ولكن متى تصبح هذه الآلاف الثلاثة في جيبك؟ إنك ما زلت إلى الآن قاصراً، ولا بد حتماً أن تذهب إليها موفداً مني، في هذا اليوم نفسه، بالمال أو بدون المال، لأنني لا أستطيع أن أماطل أكثر من ذلك. لقد بلغت الأمور حداً لا يمكن معه التأجيل. في غد سيكون الأوان قد فات، سيكون قد فات. سوف أرسلك إلى أبينا.
- إلى أبينا؟
- نعم، تذهب إليه قبل أن تذهب إليها، وتطلب منه هذه الثلاثة آلاف روبل.
- ما هذا الكلام يا ميتيا؟ إنه لن يعطيك المبلغ بحال من الأحوال.
- أقدّر ذلك. هل تعلم يا أليوشا ما هو اليأس؟
- أعلم.
- فاسمع إذن: إنني أعلم أن أبانا ليس مديناً لي بشيء من الناحية القانونية، فقد أخذت حقوقي كاملة. ولكنه مدين لي من الناحية الأخلاقية، أليس كذلك؟ لقد شق طريقه في الحياة بمبلغ الثمانية وعشرين ألف روبل التي خلفتها أمي، فجنى من استثمار هذا المبلغ مائة ألف. فليعطني من هذه الثمانية وعشرين ألفاً ثلاثة

آلاف فقط، فينقذ روحي من هذا الجحيم، وتُغفر له بذلك خطايا كثيرة في مقابل ذلك. وأقسم لك يميناً لا مين فيه أنني سأختفي متى ملكت هذه الآلاف الثلاثة، فما يرى وجهي بعدئذ ولا يسمع عني. هذه آخر فرصة أتيحها له ليتصرف تصرف أب. قل له إن الله نفسه هو الذي يهب له هذه الفرصة.
- أوه... ميتيا... إنه لن يعطيك المبلغ بحال من الأحوال.
- أعلم أنه سيرفض أن يعطي المبلغ. أنا من ذلك على يقين مطلق، اليوم أكثر من أي وقت مضى! بل إنني أعلم شيئاً آخر أيضاً: لقد أدرك منذ زمن قصير جداً، في الأيام الأخيرة، ربما أمس فقط. ولأول مرة، أدرك فعلاً (لاحظ كلمة فعلاً» هذه)، أن جروشنكا لا تمزح، لا تهزل، وأنها قد تريد أن تتزوجني حقا. إنه يعرف طبعها، إنه يعرف أية قطة هي! فهل يمكن علاوة على ذلك أن يعطيني مالاً ليمهد سبيلاً لهذه الفرصة، بينما هو مجنون بها هياماً؟ وليس هذا كل شيء، فسأقول لك المزيد: أنا أعلم أنه، منذ خمسة أيام، قد سحب من البنك ثلاثة آلاف روبل، وأبدلها أوراقاً نقدية من ذات المائة روبل، فوضعها في حزمة كبيرة مختومة، وربط الحزمة بشريط أحمر متصالب في الاتجاهين. ها أنت ذا تلاحظ أنني مطلع على أدق التفاصيل! وقد كتب على الحزمة هذه العبارة: «إلى ملاكي جروشنكا، إذا هي رضيت أن تجيء». كتب هذه العبارة بخط يده في كثير من العناية، وفعل ذلك كله سراً في الخفاء، فما من أحد يخطر بباله أن هذا المبلغ يوجد الآن عنده، ما من أحد يعرف هذا الأمر إلا الخادم سمردياكوف الذي يثق به ثقته بنفسه. وهو الآن ينتظر مجيء جروشنكا منذ ثلاثة أيام أو أربعة آملاً أن يجتذبها هذا المبلغ. لقد أبلغها أنه يضع هذا المبلغ تحت تصرفها، فأجابته بأنها «قد تعزم أمرها». ولكن إذا ذهبت إلى العجوز فكيف أستطيع أن أتزوجها بعد ذلك؟ فهل أدركت الآن لماذا أختبئ في هذا المكان مترقباً وما الذي أترصده؟
- أتترصدها هي؟
- نعم. إن هاتين العجوزين الشمطاوين، صاحبتي المنزل، قد أجّرتا فوما غرفةً من بيتهما الصغير، فوما هذا رجل من مدينتنا كان قد خدم جندياً، وهو لهما الآن بمثابة خادم وحارس في الليل، إنه في النهار بمضي إلى صيد ديوك الغابة فيجني من ذلك بعض الرزق. وأنا الآن مقيم عند فوما هذا. فلا هو ولا العجوزتان يعرفون السرَّ، أو يخطر ببالهما أنني هنا أترقب وأترصد.
- هل سمردياكوف وحده مطلع على الأمر؟
- وحده. ثم إنه سيبلغني مجيئها بإشارة سريعة إذا هي جاءت إلى العجوز.
- أهو الذي حدثك عن تلك الحزمة؟
- نعم، في الخفاء. وإيفان نفسه لا يعرف شيئاً عن المال وعن بقية الأمر. لقد قرر العجوز أن يرسل إيفان إلى تشرماشنيا يومين أو ثلاثة. لقد جاء إليه أحد المشترين يعرض عليه قطع أخشاب بمبلغ ثمانية آلاف روبل، فألحَّ العجوز على إيفان قائلاً له: «اذهب إلى هناك نيابةً عني. قدم لي هذه الخدمة». وإنما يهدف العجوز إلى أن لا يكون حاضراً حين تجيء جروشنكا.
- أهو ينتظر إذاً أن تجيء إليه جزوشنكا اليوم كما انتظر في الأيام الماضية؟
- لا... لن تجيء إليه اليوم. هنالك قرائن تثبت لي ذلك. لن تجيء اليوم حتماً ! (كذلك صاح ميتيا فجأة). وهذا رأي سمردياكوف أيضاً. ولا بد أن يكون الأب جالسا الآن إلى المائدة يسكر، وإلى
جانبه أخونا إيفان. اذهب إليه يا ألكسي، واطلب منه هذه الآلاف الثلاثة...
- ميتيا، عزيزي، ماذا دهاك؟
بهذا صاح أليوشا وهو ينهض فجأة، ويتفرس في دمتري فيدوروفتش الذي أصبح خروجه عن طوره واضحاً. حتى لقد خطر ببال أليوشا أن أخاه قد جُن.
قال دمتري فيدوروفتش ببطء فيه ما يشبه الأبهة والجلال وهو يحدق إلى أخيه هادئاً:
- اطمئن. ما زلت أملك عقلي كاملاً. إنني أعرف ما الذي أعمله حين أرسلك إلى أبينا. إنني أعتقد بحدوث معجزة.
- معجزة؟
- معجزة إلهية. إن الله يعرف ما بقلبي، ويعلم ما أنا فيه من يأس. إنه يرى ما يجري هنا.
فلن يرضى - أنا واثق من هذا - لن يرضى أن يتم هذا الأمر الفظيع. إنني أؤمن بالمعجزة يا أليوشا! إذهب إليه!
- سأذهب. هل ستنتظرني هنا؟
- سأنتظر. أنا أعلم أن الأمر سيستغرق زمناً، وانك لن تستطيع أن تنجح في مهمتك فوراً، وأنه لن يكفي أن تذهب إليه فتقول له:
«ها أنذا... هات المال!»، لا بد أنه في هذه اللحظة سكران. سأنتظر ما وجب الانتظار، سأنتظر ثلاث ساعات، أربعاً، خمساً، بل سبعاً بل إذا لزم. واعلم مع ذلك أن عليك أن تذهب في هذا اليوم نفسه، ولو في منتصف الليل، أن تذهب إلى كاترينا إيفانوفنا، بمال أو بغير مال، لتقول لها: «كلفني بأن أنقل إليك تحياته».
إنني أحرص حرصاً مطلقاً على أن تقول لها هذه العبارة: «كلفني بأن أنقل لك تحياته».
- ميتيا! فماذا لو جاءت جروشنكا غداً أو بعد غد... هذا إذا لم تجي اليوم؟
- جروشنكا؟ سأترصدها، ثم أسرع إلى منزل العجوز فأحول دون الأمر مهما يكن الثمن...
- فإذا حدث رغم كل شيء أن...
- إذا حدث؟ عندئذٍ سأقتل! لن أطيق الاحتمال.
- من تقتل؟
- أقتل العجوز. أما هي فلن أقتلها.
- أخي، أخي، ما هذا الكلام الذي تقوله؟
- لا أدري، أصبحت لا أدري... قد لا أَقْتُل، ولكن قد أُقْتَل... أخشى أن لا أطيق رؤية وجهه القذر الكريه في تلك اللحظة! إنني أكره جوزة عنقه، أكره أنفه، أكره عينيه، أكره ضحكته الصغيرة الوقحة. إنه يوقظ فيَّ اشمئزازاً جسمياً. ذلك ما أخشاه خاصة. قد لا أستطيع أن أسيطر على نفسي...
- أنا ذاهب إليه يا ميتيا. إنني مؤمن بأن الله سيفعل كل شيء حتى لا تقع هذه الفظاعة.
- وسأنتظرك أنا هنا آملاً أن تحدث معجزة. أما إذا لم تحدث المعجزة فـ...
اتجه أليوشا إلى منزل أبيه مطرقاً مفكراً.

- 6 - سمردياكوف

دخل أليوشا على أبيه فوجده ما يزال جالساً إلى المائدة فعلاً. ولقد قُدِّم الطعام في الصالون، كما جرت العادة بذلك، رغم أن بالمنزل غرفة طعام. الصالون أوسع حجرة في المنزل، وقد حرص صاحبه على أن يكون أثاثه قديماً من باب الأبهة والعظمة. إن الأثاث كله قديم جداً، أبيض اللون منجّد بقماش عتيق أحمر من حرير وقطن. وعلى الجدران بين النوافذ قد صُفَّت مرايا لها أطر مفخّمة من طراز بال، بيضاء اللون أيضاً، ولكنها مذهّبة. والحيطان المغطاة بالورق الأبيض المتشقق في مواضع كثيرة، مزدانة بلوحتين كبيرتين، إحداهما صورة أمير من الأمراء كان حاكماً للمنطقة قبل أكثر من ثلاثين عاماً مضت، والثانية صورة أسقف مات هو أيضاً منذ زمن بعيد جداً. وفي الركن الذي يواجه باب المدخل توجد عدة أيقونات تُشعل أمامها في المساء مصابيح زيت، لا من قبيل التقى بل لتظل الغرفة مضاءة أثناء الليل. ذلك أن فيدور بافلوفتش لا ينام إلا في ساعة متأخرة جداً، فهو يأوي إلى فراشه في الثالثة أو الرابعة من الصباح، ويقضي وقته قبل ذلك سائراً في الغرفة إلى غير نهاية، أو جالساً على مقعد من المقاعد يفكر طويلاً. لقد أصبح هذا عادة فيه. وكان في بعض الأحيان يبقى وحيداً أثناء الليل، بعد أن يصرف خدمه إلى المبنى الملحق. ولكنه في أكثر الأحيان يحتفظ بخادمه سمردياكوف الذي ينام في الدهليز على دكة. حين دخل أليوشا الغرفة كانت وجبة الطعام قد انتهت، وجيء بمربى وقهوة. إن فيدور بافلوفتش يجب أن يصيب شيئاً من الحلوى بعد الغداء، أثناء شرب قدح صغير من الكونياك. وكان إيفان فيدوروفتش بجانبه، يحتسي القهوة معه. وكان الخادمان جريجوري وسمردياكوف واقفَيْن قرب المائدة. وكان يبدو في تصرف السيدَيْن والخادمَيْن، على السواء، مرح غير مألوف وفرح غير معهود. كان فيدور بافلوفتش يضحك ملء حنجرته، وقد سمع أليوشا، منذ وصل الدهليز، النبرات الحادة التي تتصف بها هذه الضحكة والتي يعرفها في أبيه حق المعرفة من قبل؛ فاستنتج من هذه النبرات أن أباه ما يزال بعيداً عن حالة السكر، بل هو منشرح المزاج فحسب.

صرخ فيدور بافلوفتش يقول ضاحباً صاخباً وقد سرَّ فجأة أن يرى أليوشا:

- ها هو ذا! ها هو ذا! تعال معنا! اجلس. قهوة؟ إنها شراب صيامي، وهي ساخنة ولذيذة. لا أقدم إليك كونياكاً، فأنت صائم، بل ربما تريد؟ الأفضل أن أعطيك خمرة لذيذة، خمرة عظيمة! يا سمردياكوف، افتح الخزانة.... الخمرة على الرف الثاني يمنة، إليك المفاتيح. هيا أسرع!

حاول أليوشا أن يرفض شرب الخمرة، فقال له أبوه مشرق الوجه متهلل الأسارير:

- على كل حال سيؤتى بها إلينا نحن، ما دمت لا تريد أن تشربها.... بالمناسبة، هل تغديت؟

- تغديت، ولكن هل لي أن أشرب قليلاً من قهوة ساخنة؟

بهذا أجاب أليوشا الذي لم يكن قد أكل في الواقع إلا كسرة من خبز وقليلاً من شراب الكفاس في مطبخ كبير الرهبان.

قال الأب:

- مرحى! ألا إنك لفتى طيب! سوف يشرب قهوة. ألا يحسن تسخين القهوة؟ ولكن لا... إنها ما تزال تغلي. هي قهوة ممتازة، هل تعلم؟ لقد أعدها سمردياكوف. إن صاحبي سمردياكوف فنان في إعداد القهوة وتحضير أنواع الكوليبياكا[85]، وكذلك في طهي حساء السمك. هذا حق. يجب أن تجيء إلينا ذات يوم، فتذوق حساء السمك هذا، ولكن عليك أن تنبئني بمجيئك سلفاً. آ... صحيح... نسيت! ألم آمرك في هذا الصباح بأن تترك الدير مع وسادتك وفراشك وأن تعود إلى المنزل نهائياً؟ هل أتيت بفراشك؟ هأ هأ هأ...

أجابه أليوشا وهو يضحك أيضاً:

- لا، لم آت به.

- لقد أخفتك في هذا الصباح، هه؟ لقد روَّعتك، أليس كذلك؟

يا طائري الصغير، أنت تعلم أنني لا أستطيع أن أدخل الحزن إلى قلبك. إيفان، إيفان، إنني أشعر باضطراب شديد حين ينظر إلى عينيَّ هذه النظرة ضاحكاً. إن أحشائي لتأخذ تتحرك عندئذٍ... ذلك أنني أحبه، هذا الفتى! اقترب يا أليوشا، فإني أريد أن أمنحك بركتي الأبوية.

نهض أليوشا، ولكن أباه كان قد عدل عن رأيه، فقال له:

- لا بل حسبي اليوم أن أرسم عليك إشارة الصليب، هكذا... أجلس هنا... سوف تتسلى الآن، وذلك بصدد مسألة مألوفة عندك. سوف تضحك يا عزيزي. تخيل أن حمارة بلعام[86] قد أخذت تتكلم. هي تتكلم الآن، تتكلم... وما أفصحها!

ولم تكن حمارة بلعام التي يعنيها الأب إلا الخادم سمردياكوف. إن سمردياكوف، وهو شاب لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره، كان يبدو شديد التوحش دائم الصمت، ليس لأنه خجول، فهو في الواقع متكبر حتى ليظهر عليه أنه يحتقر جميع الناس، ولا بد أن نقول في هذه المناسبة: إن مارفا اجناتيفنا وجريجوري فاسيلفتش هما اللذان توليا تربيته، ولكنه قد «شب على نكران الجميل» كما كان يقول جريجوري عنه، صبياً متوحشاً ينظر إلى جميع الناس نظرة شزراء. كان أثناء طفولته يجد لذة كبيرة في أن يشنق قططاً ثم يدفنها بعد ذلك محتفلاً بدفنها احتفالاً كبيراً، فهو يندثر في هذه المناسبات ببطانية يتخذها بمثابة جبة كاهن، ويأخذ يرتل بعض الصلوات محركاً يديه فوق جثة القطة كمن يحمل مبخرة. وكان يسترسل في هذه اللعبة في خلوة تامة وخفاء كامل فلما فاجأه جريجوري في ذات يوم يمارس هذه الرياضة عاقبه بالسياط معاقبة شديدة. فانزوى الصبي يومئذٍ في ركن من الأركان، وصام عن الكلام أسبوعاً برمته. كان جريجوري يقول لمارتا أجناتيفنا: «إن هذا الصبي الشاذ لا يحبنا كلينا، وهو لا يحب أحداً على كل حال. ثم يضيف وهو يلتفت فجأة إلى سمردياكوف: «أأنت كائن إنساني؟ ما أنت بإنسان... لقد نشأت من رطوبة الحمامات، هذا أنت...» لم يغفر سمردياكوف الجريجوري تلك الأقوال في يوم من الأيام، كما اتضح ذلك فيما بعد. ولقد علّمه جريجوري القراءة، فلما تجاوز الصبي السنة الثانية عشرة من عمره، أراد جريجوري أن يعلمه «التاريخ المقدس». ولكن هذه المحاولة قد باءت بالفشل، ففي ذات يوم، أثناء الدرس الثاني أو الثالث أخذ الصبي يضحك على حين فجأة. سأله جريجوري وهو يرشقه بنظرة قاسية من وراء نظارتيه:

- ما بك؟

- لا شيء. إن الرب قد خلق الضياء في اليوم الأول، وفي اليوم الرابع خلق الشمس والقمر والنجوم. من أين جاء الضياء إذاً في اليوم الأول؟

بُهت جريجوري لحظة. وكان الصبي ينظر إلى معلمه نظرة ساخرة، حتى لقد كانت عيناه تعبران عن استعلاء. فلم يستطع جريجوري أن يكظم غيظه، فإذا هو يلطم تلميذه على وجهه لطمة قوية وهو يقول له صائحاً: «من أين؟ من هنا!» تلقى الصبي الصفعة دون أن يقول كلمة واحدة، ولكنه حرن وأمسك عن الكلام مرة أخرى بضعة أيام. وبعد ذلك الحادث بأسبوع إنما وقعت له أول نوبة من نوبات الصرع، وهو المرض الذي لم يبارحه بعد ذلك طوال حياته. فلما علم فيدور بافلوفتش بالأمر تبدل موقفه من الفتى تبدلاً كاملاً بعد أن كان حتى ذلك الحين لا يعبأ به ولا يكترث له، رغم أنه لم يقرّعه في يوم من الأيام، حتى لقد كان ينفحه كوبيكاً كلما لقيه، وكان يتفق له في حالات الكرم والطيبة التي يمر بها أن يرسل إلى الصبي من مائدته بعض الحلوى. ولكن فيدور بافلوفتش، بعد أن عرف بمرضه، أخذ يهتم به اهتماماً جاداً، حتى لقد استدعى طبيباً وأراد أن يعالجه. غير أن المرض استعصى على الشفاء، واتضح أنه لا برء منه. كانت نوبات الصرع توافي الصبي مرة في الشهر وسطياً، على تفاوت في طول المدة، واختلاف في قوة النوبة، فالنوبة خفيفة تارة، خطيرة كل الخطورة تارة أخرى. وقد حظر فيدور بافلوفتش على جريجوري أن ينزل في الصبي عقوبات جسمية حظراً صارماً، وسمح للصبي أن يأتي إليه من حين إلى حين، كما عارض في تعليم الصبي أي شيء خلال تلك الفترة. ومع ذلك حدث في ذات يوم أن فاجأ فيدور بافلوفتش الفتى الذي أصبح مراهقاً في نحو الخامسة عشرة من عمره، فاجأه قرب خزانة الكتب يقرأ عناوين المؤلفات من خلال زجاج الخزانة. كان فيدور بافلوفتش يملك عددا كبيراً من الكتب، كان يملك نحو مائة كتاب، ولكن أحداً لم يره قارئاً في يوم من الأيام. وسرعان ما بادر فيدور بافلوفتش فأعطى الفتى مفاتيح خزانة الكتب قائلاً له: «اقرأ ما يحلو لك أن تقرأه، وستكون بعد اليوم أمين مكتبتي.. ذلك خير من التسكع في فناء المنزل. تناول كتاباً وأجلس. اسمع، خذ هذا الكتاب أولاً». ومد فيدور بافلوفتش إليه كتاب «سهرات في المزرعة قرب ديكانكا»[87]

قرأ الفتى الكتاب، ولكن لم يظهر عليه أنه افتتن به، حتى أنه لم يبتسم مرة واحدة أثناء قراءته، بل إنه قطّب حين فرغ منه.

سأله فيدور بافلوفتش:

- هيه... كتاب مضحك أليس كذلك؟

فصمت سمردياكوف ولم يجب بشيء.

فألح فيدور بافلوفتش قائلاً:

- هلاً أجبت يا أهبل؟

فتأتأ سمردياكوف يقول وهو يطلق ضحكة صغيرة:
- هذا كله أكاذيب... أمور لم تحدث.
- شيطان يأخذك ! نفس خادم!... طيب خذ... اقرأ إذاً «التاريخ العام» من تأليف سماراجدوف[88]. ستجد هاهنا أحداثاً صادقة. اقرأ.
ولكن سمردياكوف لم يصل من الكتاب حتى إلى صفحته العاشرة، فقد رآه مملاً. وأُعيد إغلاق المكتبة. وبعد ذلك بقليل نقل جريجوري ومارفا إلى فيدور بافلوفتش أن الصبي أصبح يقف من الطعام موقفاً فيه حساسية شديدة وتأذٍ كبير يتفاقمان يوماً بعد يوم: أصبح حين يجلس إلى المائدة ليتناول حساءه يمسك الملعقة فيأخذ يقلب بها الحساء مرة بعد مرة فاحصاً مدققاً، ويميل على الطبق فيُمعن النظر فيه طويلاً، ثم يملأ ملعقة ويمضي بها نحو الضوء يتأملها ملياً. فكان جريجوري يسأله:
- هل وجدت في الحساء خنفسة؟
وتضيف مارفا ساخرة:
- أم لعلك وجدت فيها ذبابة ؟
ولكن الفتى العيوف المحب للنظافة لم يجب بشيء أبداً. وقد تصرف هذا التصرف نفسه إزاء جميع أنواع الطعام، سواء أكان خبزاً أم لحماً أم غير ذلك. إنه يرفع شوكته فيأخذ يمعن النظر في اللقمة طويلاً قبل أن يأكلها، كأنما هو يفحصها بمكروسكوب، ويظل يتردد برهة طويلة، إلى أن يعزم أمره فجأة فيضعها في فمه. فكان جريجوري ينظر إليه فيهمهم قائلاً: إنه يعد نفسه سيداً من السادة.
فلما أبلغ فيدور بافلوفتش بخصلة سمردياكوف الجديدة هذه، قرر فوراً أن الفتى يصلح أن يصبح طاهياً فأرسله إلى موسكو ليتعلم فيها المهنة. قضى سمردياكوف عدة سنين يتعلم الطهي في موسكو، ثم عاد منها وقد تغيرت سحنته تغيراً كبيراً. لقد دبت فيه الشيخوخة على نحو غريب، فتغضن وجهه تغضناً لا يتفق وسنِّه، واصفرّ وأصبح شبيهاً بخصيّ. أما من الناحية النفسية فإنه لم يكد يتغير: فهو ما يزال، كما كان من قبل، متوحشاً لا يشعر بحاجة إلى أن يعيش في صحبة الناس. ولقد لبث في موسكو كما عُرف ذلك فيما بعد كثير الصمت أيضاً. ولم تشغفه المدينة الكبيرة كثيراً، ولم يعرف منها إلا أماكن قليلة ظل يجهل كل ما عداها. وقد شهد في ذات مرة حفلة تمثيلية، فلم تخرجه هذه الحفلة عن صمته المطبق، ولا أبدلت استياءه رضى. غير أنه، في مقابل ذلك، قد عاد إلينا من موسكو شديد العناية بهندامه، فهو يرتدي ثياباً أنيقة وملابس داخلية نظيفة جداً، وهو ينظف ثيابه بالفرشاة مرتين في اليوم على الأقل، وهو يجد لذة خاصة في أن يدهن حذاءيه الأنيقين، المصنوعين من جلد العجل، بدهن إنجليزي خاص، ثم ما يزال يفركهما إلى أن تلمعا لمعان مرآة. وبرهن سمردياكوف على أنه طاهٍ عظيم. وحدَّد له فيدور بافلوفتش أجراً معلوماً، فكان ينفق كل أجره تقريباً في اقتناء الملابس وشراء العطور وما إلى ذلك. وكان يبدو مع ذلك أنه يحتقر النساء احتقاره للرجال. فهو يعاملهن برصانة، حتى لكأن وصولهن إليه مستحيل. وقد دهش فيدور بافلوفتش من هذه الظاهرة، وأخذ ينظر إليها نظرة خاصة، لأن له رأيه في هذا الموضوع. ذلك أن نوبات الصرع قد اشتدت وتكاثرت في ذلك الأوان، حتى أن مارفا أجناتيفنا اضطرت أن تقرر إعداد وجبات الطعام بنفسها في تلك الأيام، وذلك أمر لم يهتم به فيدور بافلوفتش، وإنما كان يقول للطاهي الجديد في بعض الأحيان، وهو يتفرّس في وجهه وينظر إليه نظرة اشتباه:
- إنني أتساءل لماذا تتكاثر عليك نوبات الصرع، أفلا يكون من المستحسن أن تتزوج؟ هل تريد أن أجد لك زوجة؟...
ولكن سمردياكوف لا يجيب عن هذه الأسئلة، ولا يزيد على أن يصفرّ وجهه حزناً وحسرة، فينصرف عند فيدور بافلوفتش عندئذٍ محركاً يده بحركة تعبّر عن العجز. المهم أن أمانة هذا الخادم لم تكن محل شبهة أو شك، كما أمكن أن يقتنع فيدور بافلوفتش بذلك مرة إلى الأبد، فهو لا يمكن أن يسطو على شيء، ولا يمكن أن يسرق مولاه يوماً. إن فيدور بافلوفتش، وقد استبدّ به السكر في ذات
يوم، قد أضاع في فناء منزله ثلاث أوراق نقدية ملونة[89] كان قد قبضها منذ قليل: سقطت الأوراق في الوحل، ثم لم يفتقدها فيدور بافلوفتش إلا في الغداة، ولكنه ما إن أخذ ينبش جيوبه كلها باحثاً عنها حتى لمحها على مكتبه. فمن أين جاءت إلى هنا؟ وعرف فيدور بافلوفتش أن سمردياكوف قد عثر عليها فحملها إلى مكتب مولاه منذ البارحة. قال فيدور بافلوفتش آنذاك لخادمه بلهجة جازمة:
«يميناً ما لقيت في حياتي أناساً مثلك». ثم أسرع يهدي إليه عشرة روبلات. يجب أن نضيف إلى هذا أن فيدور بافلوفتش لم يكن مقتنعاً بأمانة سمردياكوف فحسب، وإنما كان يحبه أيضاً، لا يدري أحد لماذا، رغم أن الفتى كان ينظر إليه نظرة شزراء كنظرته إلى الآخرين، وهو لا يكاد يفتح فمه بكلمة في حضوره يوماً. وكان الفتى لا يتكلم إلا نادراً على كل حال، فلو تساءل متسائل في ذلك الأوان، وهو ينظر إلى سمردياكوف، عمّا لعله يشغل بال الفتى، وعن الهموم التي يمكن أن تكون مسيطرة على فكره، لما استطاع أن يجد لهذا السؤال جواباً. ومع ذلك كان يتفق لسمردياكوف، سواء في المنزل، أو في الفناء، أو في الشارع، أن يتوقف على حين فجأة، فإذا هو يبدو عليه أن يسترسل في تفكير عميق خلال عشر دقائق أو أكثر. وأغلب الظن رغم هذا أنه لو نظر إليه في مثل تلك اللحظات عالم من علماء الفراسة لأدرك من دراسة نسمات وجهه أن ليس ثمة تفكير أو تأمل من أي نوع، وأن الأمر لا يعدو أن يكون استسلاماً لأحلام عابرة. إن هناك لوحة جميلة رسمها الرسام كرا مسكوي[90] وجعل عنوانها «المتأمل الحالم». إن اللوحة تمثل غابة في فصل الشتاء، وقد وقف على الممر الذي يقطعها، فلاح يرتدي قفطاناً ممزقاً وينتعل خفين باليين، فهو في عزلة تامة. لقد ضل الفلاح طريقه هناك، فهو يبدو في هذه الخلوة الكاملة مسترسلاً في التأمل. والحق أن الرجل لا يتأمل، وإنما هو غارق في «أحلام غامضة»، فلو لكزه أحد بكوعه في تلك اللحظة لانتفض فجأة كأنه يستيقظ من حلم، ناظراً حوله لا يفهم شيئاً مما جرى له، وسرعان ما يثوب إلى رشده، فلو سألته في تلك اللحظة عما كان يفكر فيه لما استطاع أن يجيبك بشيء. ولكن لا شك في أنه سيظل محتفظاً في قرارة نفسه بالمشاعر التي تجمعت له أثناء استرساله ذاك في أحلامه، وهي مشاعر عزيزة عليه، يجمّعها في نفسه طوال حياته على نحو لا يدركه بل ولا يشعر به. وهو لا يدري طبعاً لماذا يفعل ذلك. ولعل هذه المشاعر التي تراكمت في نفسه خلال سنين أن تدفعه ذات يوم إلى أن يهجر كل شيء على حين فجأة فيمضي إلى القدس حاجاً ينشد الخلاص، أو تدفعه، لا تدري لماذا، إلى أن يشعل النار في قريته فيحرقها. وقد يفعل الأمرين كليهما. إن هؤلاء الحالمين كُثُر في شعبنا. ولا شك أن سمردياكوف واحد منهم، فهو يراكم في نفسه مشاعر فوق مشاعر، مندفعاً إلى ذلك في حماسة وحميًّا، دون أن يعرف بعد لماذا يفعل ذلك.

- 7 - مجادلة

شرعت حمارة بلعام تتكلم فعلاً. وكانت المناسبة غريبة غرابة كافية: إن جريجوري، حين كان في الصباح عند التاجر لوكيانوف لشراء بعض الأشياء قد سمع قصة ذلك الجندي الروسي[91] الذي وقع في أيدي أفراد قبيلة مسلمة على حدود آسيا، فأرادوا إكراهه على إنكار المسيحية واعتناق الإسلام، وإلا عذبوه وقتلوه، فرفض أن يرتد عن دينه، وارتضى أن يستشهد في سبيل عقيدته، فسُلخ جلده حياً ومات وهو يمجِّد المسيح. كانت الصحف في ذلك اليوم تتحدث عن هذا الجندي، وعن تضحيته البطولية، وكان جريجوري قد روى ما سمعه أثناء الغداء. إن فيدور بافلوفتش يحب أن يمزح بعد الغداء عند تناول الحلوى، ولا يأنف أن يدخل في حديث لهذا الغرض ولو مع الخادم جريجوري. ثم إنه كان في ذلك اليوم هاشاً هشاشة خاصة، وكان مرح المزاج مبتهج النفس. فبعد أن أصغى إلى ما رواه جريجوري وهو يشرب قدح كونياك، قال إن من الواجب أن تبارك الكنيسة ذلك الجندي وأن تعده ولياً من الأولياء بغير إبطاء، وأن من المستحسن أن يُهدى جلده المسلوخ إلى دير من الأديرة، «بغية أن يجتذب الجماهير والمال». فقطب جريجوري حاجبيه عابساً، حين لاحظ أن مولاه استرسل في التجديف على عادته بدلاً من أن يتأثر.

وفي تلك اللحظة إنما سُمع سمردياكوف يُطلق ضحكة ساخرة من مكانه قرب الباب. كان الخادم الشاب قد سُمح له مراراً، حتى في السنوات الماضية، أن يشهد وجبات الطعام، أعني أن يشهد المناقشات التي تعقبها، ولكنه تعوَّد منذ وصول إيفان فيدوروفتش إلى مدينتنا أن لا يفوته حضور وجبة الغداء في يوم من الأيام تقريباً.

سأله فيدور بافلوفتش حين سمع ضحكه فأدرك على الفور أنه يسخر من جريجوري، سأله قائلاً:

- ما بك؟

فاندفع سمردياكوف يلقي خطاباً بصوت عالٍ وطريقة لم تكن في الحسبان، فيقول:

- بصدد تلك القصة. فأنا أرى أن فعل ذلك الجندي الجدير بالإطراء والثناء قد كان فعلاً بطولياً عظيماً ولا شك، ولكنني أرى أنه ما كان ليعد خاطئاً آثماً لو أنكر اسم المسيح في ذلك الظرف وتنازل عن تعميده إنقاذاً لحياته بهذه الوسيلة واحتفاظاً بها لحسنات تكفِّر، بعد سنين، عن لحظة الضعف والتخاذل تلك.

تدخَّل فيدور بافلوفتش قائلاً:

- ما كان ليعد خاطئاً آثماً؟ كيف هذا؟ أنت تكذب، وستذهب إلى جهنم رأساً بسبب ذلك وستُشوى كما يُشوى خروف.

وفي تلك اللحظة بعينها إنما وصل أليوشا فابتهج أبوه لوصوله ابتهاجاً قوياً، وقد سبق أن رأينا ذلك، وقال لأليوشا وهو يدعوه أن يجلس وأن يصغي إلى المناقشة:

- هذا موضوع مألوف لك. إنما هو موضوعك!

قال سمردياكوف مؤكداً:

- لا أوافق على موضوع الخروف المشوي. ولن يكون هناك عقاب بسبب ذلك، لا يجب أن يكون هناك عقاب إذا أردنا العدل والإنصاف.

- إذا أردنا العدل والإنصاف؟ ماذا تقول؟

كذلك صاح فيدور بافلوفتش بصوت فيه مزيد من المرح وهو يلكز ركبة أليوشا.

قال جريجوري فجأة، وهو يحدق إلى عيني سمردياكوف قائلاً بلهجة هادئة صابرة.

- أما عن قولك بأنني وغد، فأرجو يا جريجوري فاسيلفتش أن تتمهل قليلاً وتقضي في الأمر بنفسك: هب أن جلادي الجنس المسيحي قبضوا عليَّ ذات يوم وطالبوني بأن ألعن اسم الرب وأن أتنكر لتعميدي المقدس: إن العقل يجيز لي في هذه الحالة أن أفعل ذلك، ولن يكون في هذا إثم.

صاح فيدور بافلوفتش يقول:

- سبق أن قلت ذلك. فلا تكرر ما سبق أن قلته، وإنما عليك أن تبرهن على رأيك بالأدلة والحُجج!

ودمدم جريجوري يقول باحتقار:

- طاهي حساء !

فقال سمردياكوف:

- أما عن قولك بأنني طاهي حساء، فأرجو يا جريجوري فاسيلفتش أن تتمهل بعض التمهل أيضاً. لا تشتمني، وإنما فكِّر قليلاً: هب أنني قلت للذين يعذبونني: «ليكن لكم ما تريدون... إنني أرتد عن ديني المسيحي وأتنكر لإلهي الحق». أفلا تدينني المحكمة الإلهية في تلك اللحظة نفسها، وتكفرني على الفور صراحة؟ إذاً سأكون منذ تلك الدقيقة قد أُخرجت من الكنيسة المقدسة، وسأكون قد حُرمت منها كأي وثني، منذ تلك الدقيقة، بل منذ اللحظة التي نطقت فيها بتلك الكلمات، بل منذ اللحظة التي راودتني فيها نية النطق بهذه الكلمات، بحيث لا يمضي ربع ثانية إلا وأكون قد حُرمت من الكنيسة؟ أليس هذا صحيحاً يا جريجوري فاسيلفتش؟

كان واضحاً أن سمردياكوف يجد لذة في الاتجاه بكلامه إلى جريجوري، رغم أنه لا يجيب في الواقع إلا عن أسئلة فيدور بافلوفتش، وذلك أمر كان سمردياكوف يشعر به شعوراً تاماً، ولكنه يتخابث فيتظاهر بأن تلك الأسئلة إنما طرحها جريجوري.

هتف فيدور بافلوفتش فجأة يقول:

- إيفان! مِلْ عليَّ حتى أستطيع أن أهمس في أذنك بشيء. من أجلك إنما يقول هذا الكلام، وهو ينتظر استحسانك، فأمدحه إذن.

أظهر إيفان كثيراً من الاهتمام والجد في الإصغاء إلى هذه الملاحظة التي أسرَّ بها إليه أبوه. وعاد فيدور بافلوفتش يقول:

- اسكت الآن يا سمردياكوف. ثم أهاب بابنه إيفان مرة أخرى أن يميل عليه قائلاً له:

- هناك شيء آخر أريد أن أهمس به في أذنك.

فمال إيفان على أبيه من جديد مظهراً ذلك الجد نفسه الذي أظهره

في المرة الأولى. فقال له الأب:

- إنني لا أحبك أقل مما أحب أليوشا. لا يخطرن ببالك أنني لا أحبك. قليلاً من الكونياك؟

- بكل سرور.

وقال إيفان لنفسه وهو يتفرس في أبيه: «لقد سكر بعض السكر منذ الآن». وكان من جهة أخرى يرقب سمردياكوف بانتباه شديد.

وصاح جريجوري يقول فجأة:

- كافر! أنت ملعون منذ الآن. كيف تجرؤ أن تستمر في المناقشة أيها الوغد؟

فقاطعه فيدور بافلوفتش:

- لا تشتمه، يا جريجوري، لا تشتمه !

وقال سمردياكوف:

- مهلاً يا جريجوري فاسيلفتش اصبر عليَّ ولو لحظة قصيرة، واصغ إلى كلامي حتى النهاية، لأنني لم أتممه بعد. أعود فأقول إنني متى لعنني الله فوراً، يصبح شأني في تلك اللحظة بالذات، تلك اللحظة الحاسمة، شأن أي وثني، ويكون تعميدي قد أُلغي تبعاً لذلك، فلا يحسب له أي حساب، أليس هذا صحيحاً؟

فاستحثه فيدور بافلوفتش وهو يتلذذ ببلع جرعة من الكونياك، استحثه قائلاً:

- أوصلنا إلى النتيجة التي تريد أن تخلص إليها، أسرع يا بني.

فتابع سمردياكوف حديثه:

- فإذا لم أعد مسيحياً، فإنني لا أكذب على الذين يعذبونني ويسألونني: «أتعدّ نفسك مسيحياً أم لا؟»، ذلك أن الله نفسه يكون قد أخرجني من المسيحية بسبب نيتي وحدها قبل أن يتسع وقتي للإجابة عن سؤال معذبي بكلمة واحدة. فإذا كنت قد أُخرجت من المسيحية فكيف يمكن أن أُحاسب في العالم الآخر، وأي عدالة ترضى أن أحاسب في العالم الآخر كما يُحاسب مسيحي ارتدّ عن دينه، مع أنني أكون قد جُرِّدت من تعميدي بسبب نيتي وحدها حتى قبل أن أرتد عن

ديني بالقول؟ إنني بعد أن جردت من مسيحيتي، لا أكفر بالمسيح، لأنني لا يكون قد بقي لي دين أرتد عنه. هل يخطر ببال أحد يا جريجوري فاسيلفتش أن يلوم تترياً كافراً على أنه لم يولد مسيحياً؟ من ذا الذي يريد أن يعاقب مثل هذا التتري، حتى في السماء؟ ما من أحد يسلخ بقرة واحدة مرتين! وهب أن الله العلي القدير سيحاسب هذا التتري بعد موته: إنه لن يوقع فيه إلا عقاباً يسيراً (فمن غير المقبول أن لا يعاقَب البتة)، ذلك أن الله يقدر أن هذا التتري لم يأثم حين ولد كافراً من أبوين كافرين. إن الله لا يمكن أن يبطش بهذا التتري ويقول عنه إنه كان مسيحياً أيضاً. فإن عدّه مسيحياً كان هذا كذباً ظاهراً واضحاً، والله الذي هو رب السماوات والأرض لا يمكن أن يكذب ولو في كلمة واحدة من كلماته!

أصيب جريجوري بالبكم من شدة ذهوله، ونظر إلى الخطيب محملقاً. فهو رغم أنه لم يستطع أن يتابع المناقشة قد أدرك إدراكاً غامضاً بعض ما يشتمل عليه هذا الكلام المضطرب، فتجمد كرجل صدم الحائط بجبهته على حين فجأة. وأفرغ فيدور بافلوفتش في جوفه قدح الكونياك، وأطلق من صدره ضحكة حادة.

- أليوشا، أليوشا، ما رأيك؟ يا له من مجادل! لا شك أنه تعلم هذا لدى اليسوعيين، ألا ترى ذلك يا إيفان؟ اذهب أيها اليسوعي العفن، من ذا الذي لقّنك هذه الضلالات؟ غير أن ما تقوله كذب، كذب، كذب أيها المتحايل. اطمئن يا جريجوري، سوف نهدِّم آراءه، سوف نحيلها دخاناً، سوف نحيلها عدماً، حالاً بلا إبطاء! أجب عن هذا السؤال يا حمارة: لنفرض أنك على صواب في موقفك من معذبيك. إن هذا لا ينفي أنك أنكرت دينك في قرارة نفسك، وأصبحت في تلك اللحظة كافراً، كما تعترف بذلك أنت نفسك، فإذا كفرت فلن تكافأ على هذا في جهنم فيما أتخيل. فبماذا تجيب عن هذا السؤال أيها اليسوعي الظريف؟

- لا أنكر إنني أكون قد ارتددت عن ديني في قرارة نفسي، ولكن ليس في هذا أي إثم كبير، وإذا كان ثمة خطأ فهو خطأ عادي جداً.

- عادي؟ كيف؟

قال جريجوري بصوت صافر:

- أنت تكذب، أيها المل.... عون.

تابع سمردياكوف كلامه يقول بلهجة هادئة واثقة، شاعراً بانتصاره ولكن مصطنعاً هيئة الكرم والتسامح مع خصم طُرح أرضاً:

- اقض في الأمر بنفسك يا جريجوري فاسيلفتش: لقد جاء في الكتاب المقدس أن الذي يملك الإيمان الحق، ولو لم يملك منه إلا ذرة صغيرة، يستطيع أن يأمر الجبل قائلاً له: «اذهب أيها الجبل إلى البحر»، فإذا بالجبل يذهب إلى البحر فوراً عند أول أمر يصدر إليه[92].

فيا جريجوري فاسيلفتش، ما دمت تبلغ من عمر الإيمان ما يهب لك حق إهانتي بغير انقطاع، فحاول أن تأمر هذا الجبل القريب لا أن يذهب إلى البحر (فالبحر بعيد جداً) بل أن يتقدم قليلاً نحو ذلك الجدول الصغير النتن الذي يجري وراء حديقتنا. فلسوف ترى عندئذ أن الجبل لن ينصاع لأوامرك، وأن كل شيء سيبقى على ما كان، مهما يكن صراخك شديداً. فهذا يبرهن يا جريجوري فاسيلفتش على أنك أنت أيضاً لا تملك الإيمان الحق، على حين أنك لا تكف عن إهانة الناس بحجة أنهم لا يملكون الإيمان الحق. يجب أن نعترف على كل حال أنه ليس في زماننا هذا أحد، ليس أنت فقط، بل لا أحد على الإطلاق، سواء أكان أقوى الناس سلطاناً وأرفعهم منزلة أم كان أحقر فلاح من الفلاحين، يملك القدرة على أن يدحرج هذا الجبل إلى البحر ربما باستثناء رجل واحد أو رجلين اثنين في أكثر تقدير، ولكن هذين الرجلين لا بد أن يكونا مختبئين في صحراء ما من صحاري مصر، يحققان لنفسيهما هنالك الخلاص والسلام، فلا نستطيع أن نهتدي إليهما ونعثر عليهما مهما نبحث عنهما. فإذا كان الرجال الآخرون ليسوا بالمؤمنين حقاً، فكيف نسلّم بأن الرب سيلعنهم جميعاً، وبأنه سيحرم الإنسانية كلها إلا ذينك الرجلين في الصحراء، وبأنه لن يغفر لأحد وهو الغفور الرحيم؟ لذلك تراني آمل، إذا أنا شككت أن أحظى بمغفرة الرب، بعد أن أسكب دموع الندم والتوبة.

- قف! أنت تسلّم إذاً بأن هناك رجلين على الأقل في العالم يستطيعان أن يحركا الجبال! سجِّل هذا يا إيفان، سجل هذه النقطة ! هنا يتبدى الإنسان الروسي كله!

كذلك صرخ فيدور بافلوفتش بصوت حاد وهو في قمة الإعجاب.

فقال إيفان فيدوروفتش مؤمناً على رأي أبيه مبتسماً ابتسامة تأييد:

- ملاحظتك صحيحة تماماً. تلك سمة خاصة يتميز بها إيمان الشعب الروسي.

- أنت تشاطرني هذا الرأي ! لا بد إذاً أن أكون على صواب!

أليس كذلك يا أليوشا؟ ذلك هو الإيمان الروسي الحق، أليس كذلك؟

فقال أليوشا بلهجة جادة حاسمة:

- لا... إن إيمان سمردياكوف ليس روسياً البتة.

- لست أتكلم عن إيمانه، بل عن هذه السمة، عن فكرة ذينك الناسكين عن هذه السمة الصغيرة وحدها، أليس هذا سمة روسية خاصة؟

قال أليوشا يوافق مبتسماً:

- نعم هي سمة روسية، روسية جداً. قال فيدور بافلوفتش يخاطب سمر دياكوف:

- قولك هذا يساوي عشرة روبلات ذهبية يا حمارة، سأرسلها إليك في هذا اليوم نفسه. أما في كل ما عدا ذلك فقد كذبت، نعم كذبت، أعود فأكرر لك ذلك. ألا فاعلم أيها الغبي أن خفة العقل وحدها هي التي جعلتنا جميعاً غير مؤمنين، ذلك أن وقتنا لا يتسع للإيمان: فنحن أولاً منصرفون إلى أعمالنا التي تحتكرنا احتكاراً، والرب ثانياً قد ضنَّ علينا بالساعات فجعل يومنا أربعاً وعشرين ساعة فقط، فنحن لا نملك حتى الوقت اللازم لأن ننام نوماً كافياً. فأين لنا الوقت اللازم للندامة والتوبة؟ أما أنت فقد ارتددت عن دينك أمام معذبيك في اللحظة التي لا يمكن أن يكون في ذهنك خلالها، فكرة أخرى غير فكرة الإيمان والتي كان لا بد فيها من أن تؤكد إيمانك! ألم تجر الأمور على هذا النحو يا صديقي؟

- لقد جرت الأمور على هذا النحو حقاً. ولكنك تسلم أنت نفسك يا جريجوري فاسيلفتش، أن ذلك يجعل الخطيئة أهون شأناً ما دامت الأمور قد جرت على هذا النحو. لنفرض أنني اعتقدت، في ساعة المحنة، بما كان يجب أن أعتقد به: إنني لأرتكب عندئذٍ إثماً إذا أنا رفضت الاستشهاد في سبيل ديني، وارتضيت اعتناق دين محمد. ولكنني في مثل هذه الحالة لا أصل إلى الاستشهاد، إذ يكفيني أن أقول للجبل في تلك الدقيقة: «تحرك أيها الجبل فأسحق الجلاد»، فإذا بالجبل يرتمي على الجلاد فيخنقه بثقله كأنه خنفساء، وإذا أنا أمضي في سبيلي هادئاً أمدح الله وأمجده. فإذا راودتني هذه الأفكار لتحقيق هذه الغاية منادياً: «اسحق الجلادين أيها الجبل»، فإذا بالجبل لا يستجيب لندائي، أفلا يهاجمني الشك عندئذ لا محالة؟

هلاّ قلت لي كيف يمكنني في تلك الساعة الرهيبة من الخوف القاتل أن لا يراودني الشك؟ لقد علمت سلفاً أنني لن أظفر بملكوت السماوات كاملاً (لأن الجبل لم يطع أوامري، وذلك دليل على أن إيماني ليس محل ثقة هناك في السماء، ودليل على أنني لا أستطيع أن أتوقع مكافأة كبيرة في الحياة الآخرة). فأي جدوى إذاً في. أدع لهم أن يسلخوا من جلدي نصفه؟ ، فناديت الجبل مرة أخرى أهيب به أن يسحقهم، فإن الجبل لن يتحرك من مكانه رغم جميع صرخاتي. وفي تلك اللحظة يمكن أن لا يساورني الشك فحسب، وإنما يمكن أيضاً أن أفقد عقلي بسبب ذعري الشديد بحيث أصبح عاجزاً حتى عن التفكير. أفيكون إثمي والحالة هذه كبيراً إذا أنا أردت عندئذٍ، بعد أن لم أظفر بنفع لا من هنا ولا من هناك، وبعد أن لم أستطع أن أرجو مكافأة، أن أنقذ جلدي على الأقل؟ ذلك هو السبب وأنا واثق ثقة كاملة بالرحمة الإلهية، في أنني آمل أن تغفر لي السماء غفراناً كاملاً.

- 8 - أثناء شرب الكونياك

انتهت المجادلة، ولكن الأمر الغريب هو أن فيدور بافلوفتش الذي كان مرحاً في أول الأمر قد عبس واكفهرّ وجهه في النهاية. وها هو ذا، وقد بدا عليه الامتعاض واضحاً، يفرغ في جوفه قدحاً آخر من الكونياك، متجاوزاً الحدَّ الممكن تجاوزاً كبيراً. وصاح يقول للخادمين:
- انصرفوا، اخرجوا... أيها اليسوعيون! امض يا سمردياكوف. ستصلك العشرة دنانير الذهبية التي وعدتك بها، ولكن هيا انصرف! وهوّن عليك يا جريجوري، عد إلى مارفا فترد إليك هدوءك وتضعك في سريرك.
فما إن نفَّذ الخادمان أمره فانصرفا، حتى أضاف يقول بحدة وشراسة:
- إن هؤلاء الأوغاد لا يدعون لي شيئاً من راحة بعد الغداء، أنت الذي تجتذبه يا إيفان. ماذا فعلت حتى فتنته؟
كذلك سأل الأب ابنه إيفان. فأجابه هذا بقوله:
- لم أفعل شيئاً البتة. خطر له أن يظهر احتراماً نحوي لا أدري لماذا... هو خادم ووضيع... ولكنه واحد من أولئك الذين يندفعون إلى الصف الأمامي متى حانت الساعة.
- إلى الصف الأمامي؟
- سيكون هنالك آخرون، وسيكون هنالك أناس أفضل منه. ولكن سيجيء أيضاً أناس مثله. وأمثاله هم الذين سيؤكدون أنفسهم أولاً، ثم يجيء دور من هم أفضل منه.
- ومتى تحين تلك الساعة؟
- سوف تشتعل الأسهم النارية ثم ربما انطفأت فالشعب لا يحب بعد الإصغاء إلى هؤلاء المحرِّضين كثيراً.
- إن تلك الحمارة قد أخذت تفكر، ولا يدري إلا الشيطان إلى ماذا يمكن أن تؤدي أفكارها.
قال إيفان ماكراً ساخراً:
- إنه يجمِّع آراء ويراكم أفكاراً.
قال الأب:
- أنا أعلم تماماً أنه يكرهني كما يكره الآخرين، وكما يكرهك أنت أيضاً رغم ما تظنه من أنه يكنُّ لشخصك «الاحترام». أما شعوره نحو أليوشا فهو أسوأ من ذلك أيضاً: إنه يحتقره. ولكن يجب أن نعترف أنه في مقابل ذلك لا يسرق، وأنه ليس بنمَّام، فهو يعرف كيف يصمت، ولا يثرثر خارج المنزل عن ما يسمعه بالمنزل. وهو إلى هذا يجيد طهي أنواع الكولبياكا. أما فيما عدا ذلك، فشيطان يأخذه؟ أليس هذا صحيح؟ وهل يستحق منا عناء التحدث عنه طويلاً؟
- لا... لا يستحق طبعاً.
- أما فيما يتعلق بالأفكار التي يمكن أن تقوم في رأسه، فأنا من جهتي أعتقد على وجه العموم بأن الفلاح الروسي يستحق أن يُضرب ضرباً مبرحاً. لقد أكدت هذا الرأي دائماً. إن فلاحينا أوغاد لا يستحقون الشفقة. ويميناً إنه لمن الخير أنهم يضربون من حين إلى حين، في أيامنا أيضاً، هؤلاء الأوغاد... إن قوة روسيا في أشجار البتولا التي تؤخذ منها العصيّ فمتى قطعت الغابات ضاعت بلادنا. أنا شخصياً أحب العقل. ولا شك أننا قد كففنا عن ضرب الفلاحين لإفراطنا في حب العقل. ولكن الفلاحين مستمرون على جلد أنفسهم بأنفسهم[93]. وخيراً يفعلون: على قدر الفعل يكون الجزاء... أو شيئاً من هذا القبيل... على كل حال... ينالون الجزاء... أما روسيا فهي بلد قذر حقير... ليتك تعلم يا صديقي كم أكره روسيا... أو قل إنني لا أكره روسيا بل أكره هذه العيوب... وربما كرهت روسيا أيضا...
Tout cela c'est de la conchonnerie[94]،هل تعرف ما الذي أحبه أنا؟ أنا أحب الفكاهة.
- لقد شربت قدحاً آخر منذ هنيهة. أظن يكفيك.
- لا، مهلاً. سأشرب قدحاً، فقدحاً ثانية، ثم أتوقف بعد ذلك. ماذا كنت أريد أن أقول؟ قطعتَ سلسلة أفكاري.. ها.. نعم.. حين كنت ماراً بموكرويه سألت رجلاً عجوزاً فأجابني بما يلي: «نحن نحب كثيراً أن نحكم على البنات بالجلد، ونعهد بذلك إلى الشباب. فكثيراً ما يحدث أن نرى الفتى الذي جلد الفتاة بالأمس يجيئها اليوم خاطباً. وهكذا تنتفع البنات أيضاً من الأمر، كما يقال». ما رأيك في شبابنا أنصار المركيز دي ساد[95]؟ منظر ظريف على كل حال. ليتنا نذهب يوماً لرؤية المشهد، هه؟ مالك يا أليوشا تحَمّر؟ لا تخجل يا صغيري! يا لها من خسارة أنني لم أحضر مأدبة كبيرة الرهبان لأقص على الرهبان قصة بنات موكرويه هذه! لا تؤاخذني يا أليوشا على أنني أهنت صاحبك كبير الرهبان منذ قليل. فالغضب يستبد بي أحياناً... لا شك أنني أكون آثماً، ولا شك أنني ساعاقب، إذا كان الله موجوداً. ولكن إذا لم يكن الله موجوداً فإنه لا بد من أن يُعامَل آباؤك الرهبان بقسوة أكبر! إذا لم يكن الله موجوداً فإنه لقليل جداً أن نقطع رؤوسهم، لأنهم يعرقون التقدم! هل تصدقني يا إيفان إذا قلت لك إن هذا يعذب عواطفي؟ لا... أنت لن تصدقني... إنني أرى هذا في عينيك. أنت تظن كما يظن سائر الناس أنني مهرجاً لا أكثر. أليوشا، هل تصدق أنني لست مهرجاً فحسب؟
- أنا أعلم أنك لست مهرجاً فحسب.
- أصدقك. أعرف أنك تتكلم الآن مخلصاً. أنت تقول الحقيقة.. وعيناك لا تكذبان، أما إيفان فلا... هو رجل مزهو بنفسه... مع ذلك، لو كنت في مكانك لتركت هذا الدير وانتهيت منه... هذه الصوفية يجب اجتنابها تماماً من الأرض الروسية كلها في ذات يوم، لنردَّ الأغبياء إلى العقل، ونرجعهم إلى الرشاد. ما أكثر الفضة ما أكثر الذهب الذي يمكن أن تستردّه خزانة الدولة بهذه الطريقة!
سأل إيفان:
- لماذا نلغيها؟
- لماذا؟ لنعجّل انتصار الحقيقة في هذا العالم.
- أفلا تدري إذاً أنه إذا انتصرت الحقيقة فستكون أنت أول من يجرّدونه في البداية، ثم... يلغونه؟
- هة... بالفعل، قد تكون مصيباً، يا لي من حمارة! قال فيدور بافلوفتش ذلك، لطم جبينه بيده لطمة خفيفة على حين فجأة، وأضاف:
- إذن فلا نمسَّن ديرك بسوء يا أليوشا، ما دام الأمر كذلك. أما نحن، معشر الأذكياء، فلنستمر... نعيش في رخاء ونحتسي الكونياك! إن الله نفسه، يا عزيزي إيفان، هو الذي لا بد أنه أراد إقامة ذلك النظام. ولكن قل لي يا إيفان: هل الله موجود أم غير موجود؟ ولكن قف! إني أريد جواباً صادقاً، بجدّ لا هزل! لماذا تضحك من جديد؟
- أضحك لأنني تذكرت الفكرة التي عبرت عنها منذ برهة تعبيراً فكهاً في اعتقاد سمردياكوف بوجود ناسكَيْن قادرين على تحريك الجبال.
- هل يُذكّرك كلامي الذي أقوله الآن بسمردياكوف في هذه النقطة؟
- جداً.
- معنى هذا أنني أنا أيضاً روسى حقاً، أتصف بما يتصف به الروسي من خصائص تميزه. ولا بد أن تكون أنت أيضاً متصفاً بهذه الخصائص، مهما تكن فيلسوفاً. هل تريد أن أبرهن لك على ذلك بالوقائع؟ إنني أراهن على أنني سأستطيع ذلك منذ الغد. ومع ذلك أجبني: هل الله موجود أم لا؟ إيّاك أن تهزل فإنني أريد الآن أن تتكلم جاداً.
- لا.. لا يوجد إله.
- أليوشا، هل الله موجود؟
- الله موجود.
- سؤال آخر يا إيفان: هل هناك خلود؟ هل هناك أي خلود، ولو صغير، صغير جداً؟
- لا يوجد خلود كذلك.
- أياً كان؟
- أياً كان.

- أهو العدم المطلق إذاً؟ أم يوجد شيء ما؟ ربما يوجد شيء ما مع ذلك؟
- لا شيء إلا العدم الكامل.
- أليوشا، هل هناك خلود؟
- نعم هناك خلود.
- إذن يوجد إله ويوجد خلود؟
- نعم، يوجد إله ويوجد خلود والخلود يوجد في الإله.
- هِمْ... لا شك أن إيفان هو صاحب الرأي الصحيح. ومع ذلك ما أكثر التضحيات التي ضحاها الإنسان في سبيل هذا الاعتقاد، وما أكثر القوة التي أنفقها على هذا الأمل في غير طائل، منذ ألوف السنين !... فمن ذا الذي يضحك على الإنسانية هذا الضحك، من ذا الذي يسخر منها تلك السخرية! إنني ألقي عليك هذا السؤال يا إيفان آخر مرة، أريد جواباً قاطعاً جازماً: الله موجود أم لا؟ أسألك لآخر مرة!
- أجيبك لآخر مرة: لا!
- فمن ذا الذي يسخر إذن من البشر يا إيفان؟ فقال إيفان ضاحكاً بسخرية:
- قد يكون الشيطان.
- وهل الشيطان موجود؟
- لا... والشيطان أيضاً غير موجود.
- خسارة... لا يعلم أحد ماذا كان يمكن أن أصنع به، ذلك الذي اخترع الله أولَ من اخترعه! إن الشنق قليل عليه.
- لولا أن اختُرِع الله لما وُجدت المدنية.
- المدنية؟ لولا الله لما وُجدت المدنية؟
- بلى.... ولما وُجد الكونياك أيضاً! أحسب أنه قد آن مع ذلك أن ننتزع منك قارورة الكونياك هذه.
- لحظة، لحظة يا عزيزي ! كأساً صغيرة أخرى... لقد أسأتُ إلى أليوشا. الم تزعل مني يا ألكسي؟ ألم تغضب مني يا عزيزي الصغير أليوشا، يا بنيَّ الطيب الشهم؟
- لا... لست غاضباً أنا أعرف أفكارك. إن القلب فيك خير من الرأس.
- قلبي خير من رأسي؟ وهو الذي يقول هذا الكلام يا رب!
إيفان، هل تحب أليوشا؟
- أحبه.
- يجب أن تحبه (كان فيدور بافلوفتش في تلك اللحظة قد أخذ السكر منه مأخذه). اسمع يا أليوشا. لقد أسأت إلى شيخك في هذا الصباح. ولكنني كنت مهتاجاً اهتياجاً شديداً. ألا إن لهذا الشيخ شيئاً من ظرافة، ما رأيك يا إيفان؟
- صحيح.
- نعم نعم... Il ya du piron la'-dedans[96] ، إنه يسوعي، أقصد إنه روسي. وهو، ككل إنسان ذي عواطف رفيعة ومشاعر سامية لا بد أن يسوءه أحياناً في الخفاء أن يضطر إلى التظاهر.. أن يصطنع مظاهر قديس.
- لكنه يؤمن بالله.
- هو؟! أبداً. ألم تكن تعرف ذلك؟ ثم إنه يعترف بهذا هو نفسه لجميع الناس.... لا لجميع الناس طبعاً... بل للأذكياء ممن يزورونه. لقد قال جازماً قاطعاً وهو يتحدث إلى المحافظ شولتس: أنا أؤمن، ولكن لا أدري بماذا.
- أهذا ممكن؟
- تماماً. وأنا أحترمه مع ذلك. إن فيه عنصراً مفستوفيلسياً، أو قل إن هناك شيئاً بينه وبين «بطل من هذا الزمان»، آربينين[97] إذا صدقت ذاكرتي... أقصد أنه رجل شهواني. وهو يبلغ من الميل إلى النساء أنني أكون، حتى اليوم، قلقاً على زوجتي أو على ابنتي، إذا هما ذهبتا تعترفان له... فتخيل!.. هل تعلم أنه يتفق له أن يروي قصصاً من تلك القصص... منذ ثلاث سنين دعانا إلى احتساء الشاي عنده مع خمور (إن السيدات يرسلن إليه خموراً)، فأخذ يستحضر صورة من ماضيه... حتى إننا أمسكنا بطوننا حتى لا تنفجر من شدة الضحك... ولا سيما حين حدثنا عن تلك المرأة العاجزة التي شفاها... لقد قال لها: «لولا أن ساقيَّ مريضتان هذا المرض، لرقصت لكم رقصة من تلك الرقصات!» هه؟ ظريف، أليس كذلك؟ وقد أسرَّ إلينا يومئذٍ قوله: «كانت لي في حياتي مغامرات!» وقد سلب التاجر ديميدوف ستين ألف روبل.
- ماذا؟ سرقها؟
- استودعه الرجل المبلغ أمانة لما عرف به من صلاح وفضل. قال له: «احتفظ لي به عندك، لأن منزلي سيفتَّش في الغد». فاحتفظ الآخر بالمبلغ. قال له: «أنت قد وهبت المبلغ لمبرات الكنيسة». فقلت له أنا: «أنت وغد». فقال لي: «لا... لست وغداً، بل أنا واسع النظرة»... ولكن لا... لا... لقد أخطأت... لم يجر الحديث معه هو... لقد خلطت بينه وبين شخص آخر... دون أن ألاحظ ذلك. كاساً أخرى، كأساً أخيرة، يا إيفان، ثم ارفع قارورة الكونياك. لقد كذبت، لماذا لم توقفني عن الكلام يا إيفان؟ لماذا لم تقل لي إنني أكذب؟
- كنت أعرف أنك ستتوقف من تلقاء نفسك.
- غير صحيح! إنك لم تفعل ذلك بدافع الخبث، بدافع الخبث وحده. إنك تحتقرني. لقد جئت تعيش معي، ثم أنت تعاملني باحتقار حتى في منزلي.
- سأرحل إذاً. إن الكونياك قد شوش عقلك !
- لقد تضرعت إليك، باسم يسوع المسيح، أن تذهب إلى تشرماشنيا... يوماً أو يومين... ثم لم تفعل؟
- سأذهب غداً ما دمت تلح.
- لن تذهب. إنك تريد أن تراقبني هنا. تلك هي غايتك يا ذا النفس السوداء؛ لذلك لن تذهب !
لم تهدأ ثائرة العجوز. لقد وصل من نشوة الكحول إلى تلك المرحلة التي يشعر فيها بعض السكيرين الذين هم في العادة أناس مسالمون بحاجة مفاجئة إلى أن يغضبوا، وأن يظهروا ما هم قادرون عليه.
- مالك تتفرس فيَّ هكذا؟ يا لعينيك هاتين ما أقذرهما! إنك تنظر إليّ فأقرأ في نظرتك قولك: «أيها السكير الدنيء»! آه من هاتين العينين اللتين تفيضان شكاً وريبة واحتقاراً!.. أنت إنما جئت إلى عندي لغاية معينة في نفسك... ولا كذلك أليوشا... إنه ينظر إليّ بعينين تشرقان صراحة. أليوشا لا يحتقرني. يا ألكسي إياك أن تحب إيفان...
قال أليوشا بحزم مباغت:
- لا تغضب من أخي! اكفف عن إهانته.
- طيب، أظن أنني فعلاً... أف... ما أشد هذا الصداع! هذا الكونياك يا إيفان! هذه ثالث مرة أطلب إليك فيها أن ترفع هذا الكونياك.
قال فيدور بافلوفتش ذلك، ثم أطرق يفكر، واستطالت شفتاه بابتسامة ماكرة:
- لا تغضب يا إيفان من هذا العجوز المهووس. أنا أعرف أنك لا تحبني ومع ذلك لا تغضب مني. وليس هناك ما يوجب أن تحبني على كل حال... اذهب إلى تشر ماشنيا، وسألحق بك حاملاً إليك حلوى... وسأعرفك هناك ببنت من تلك المنطقة لاحظتها منذ زمن طويل. هي الآن فتاة صغيرة رثة بائسة. لا تخش الصبايا الرثات. لا تحتقرهن قط... فهنَّ لآلِئ في كثير من الأحيان؟
قال ذلك وقبّل يده قبلة مدوِّية. ثم أردف وقد انتعش فجأة كأن إثارة موضوعه المفضل قد ردته إلى الوعي للحظة.
- ما أنتم أيها الفتية إلا صبية، إلا خنزيران صغيران.... أنا لم توجد بالنسبة لي طوال حياتي امرأة قبيحة.... تلك هي مبادئي! أأنتم قادرون على أن تفهموا هذا؟ ولكن أنى لكم أن تفهموه! إن عروقكم ليس فيها بعد إلا لبن... ما أنتم إلا أفراخ! إن القاعدة التي ألتزمها في سلوكي هي أن في كل امرأة شيئاً خاصاً شائقاً لا يمكن أن يوجد في امرأة أخرى.. وإنما المهم أن يستطيع المرء اكتشافه... وذلك فن... ذلك فن يحتاج إلى موهبة! ما من امرأة أمكن أن تكون في نظري دميمة في يوم من الأيام. حسبها أن تكون امرأة.. هذا وحده نصف الأمر.. ولكن أنى لكم أن تفهموها حتى العوانس لا بد أن يكتشف المرء فيهن متى عرضت الفرصة أشياء يُذهله

أن يتصور أن هناك أناساً أغبياء تركوا لهن أن يَشِخْنَ دون أن يلاحظوهن! وأول شيء يجب أن يعمد إليه الرجل مع هاته الصغيرات الرثات الدميمات هو أن يدهشهن. بهذه الوسيلة إنما يجب الوصول إليهن. ألم تكن تعرف ذلك؟ يجب أن تبلغ بهن الدهشة حد النشوة، حدَّ التأثر، حدَّ الشعور بالخزي من أن سيداً أنيقاً أمكن أن يتوله حباً ببنت من الرعاع أمثالها. إلا أنه لشيء رائع أنه سيبقى في هذا العالم إلى الأبد سادة وخدم، ففي هذه الحالة سيظل هناك صغيرة رثّة ما، يحلو لها أن تُفْرِحَ سيدها ومولاها. تلك هي سعادة الحياة! انتظر... هل تعرف يا أليوشا؟ أنني قد بعثت الدهشة دائماً في نفس المرحومة أمك، ولكن بمعنى آخر. كنت أدعها مدة طويلة بلا ملاطفات ومداعبات، ثم إذا أنا في ذات يوم، في دقيقة من تلك الدقائق التي يتفق لي أن أعرفها، أسترسل فجأة في إظهار جميع أنواع العواطف، حتى لأزحف على ركبتيّ، واقبل قدميها الصغيرتين، فأنقلها في كل مرة - ما زلت أتذكر هذا كأنه حدث بالأمس - أنقلها في كل مرة إلى حالة نفسية خاصة، فإذا هي تأخذ تضحك... تأخذ تضحك ضحكاً فريداً من نوعه... ضحكاً واهناً رناناً في آن واحد، ضحكة عصبياً خاصاً. وكان ذلك على كل حال هو النوع الوحيد من الفرح الذي عرفته. وكنت أعلم أن مرضها إنما يبدأ عندها بهذه الطريقة نفسها، فهي تأخذ في الغداة تصرخ مثل كليكوشا، وذلك الضحك الخاص لم يكن يعبر في الواقع عن أي فرح. ومهما يكن ذلك خداعاً فهو فرح على كل حال. فهل رأيتم أنه لا بد من مهارة العثور في كل شيء على جانب مميز جذاب؟ وقد اتفق في ذات يوم أن بيليافسكي - وهو رجل غندور. غني جداً كان يسعى إليها واستطاع أخيراً أن يدخل بيتي - قد صفعني على وجهي في بيتي بحضورها فماذا حدث؟ لقد أوشكت هذه المرأة التي تشبه أن تكون حملاً، أوشكت أن تضربني بسبب هذه الصفعة! ليتكم سمعتم كيف أخذت تؤنبني وتقرعني:

«سمحت له أن يضربك؟ أن يضربك؟... ارتضيت أن تتلقى صفعة من هذا الشخص؟ لقد أردت أن تبيعني له... كيف تجرّأ أن يصفعك أمامي؟ لا أريد أن أراك بعد اليوم قط! هيا اطلبه للمبارزة.. أسرع.. هكذا أخذت تقول لي. أخذتها آنذاك إلى الدير لأهدئ روعها، ولكي يزجرها الرهبان هناك. ولكني أقسم لك يا أليوشا أمام الله أنني لم ألحق بها أذي في يوم من الأيام، لم ألحق أي أذى بصغيرتي العزيزة الكليكوشا!.. اللهم إلا مرة واحدة، أثناء السنة الأولى من حياتنا. وكانت في ذلك الأوان تسرف في الصلاة في رأيي، وتراعي أعياد السيدة العذراء مراعاة دقيقة، فتطردني إلى مكتبي للنوم بعيداً عنها. خطر ببالي مرة أن أطرد هذه الأفكار من ذهنها، فقلت لها: هل ترين هذه الأيقونة؟ سأمضي إليها الآن، فأرفعها من مكانها... إنك تعتقدين بأن هذه الصورة تحقق معجزات... طيب.. سأبصق عليها الآن أمامك، فلا يحدث لي شيء!..» يا إلهي! حين نظرت إليها عندئذٍ فرأيت تعبير وجهها، خيّل إليّ أنها ستقتلني فوراً. ولكنها لم تزد على أن نهضت ورفعت ذراعيها في الهواء، ثم غطت وجهها بيديها، وأخذت ترتعش من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، ثم هوت على الأرض منهارة انهياراً تاماً أليوشا، أليوشا؟ ما بك؟ ماذا دهاك يا صغيري؟

وثب العجوز عن مقعده مذعوراً. كان وجه أليوشا قد بدأ يتغير تعبيره شيئاً فشيئاً منذ أخذ العجوز يتحدث عن أمه. لقد أحمر في أول الأمر، واشتعلت عيناه، وأخذت شفتاه تختلجان... وكان العجوز السكران يقذف من فمه رذاذاً من لعاب أثناء كلامه دون أن يلاحظ شيئاً، إلى أن استولت على أليوشا تلك الحالة من الاضطراب الغريب: لقد صار أليوشا إلى تلك الحالة نفسها التي وصفها أبوه في كلامه عن الكليكوشا: نهض عن مكانه فجأة كما فعلت أمه في القصة التي رواها أبوه عنها، ورفع ذراعيه في الهواء، ثم غطى وجهه بيديه، ثم عاد يتهاوى على كرسيه ككتلة واحدة، وأخذ يرتجف جسمه كله ويهتز في نوبة هستيرية تصاحبها دموع صامتة. وقد دُهش العجوز دهشة خاصة من هذا التشابه الخارق الذي ظهر في تلك اللحظة بين أليوشا وأمه. فقال ينادي إيفان:

- إيفانا إيفان! هات ماء، أسرع! هو مثلها، مثل أمه تماماً

آنذاك ! رشَّ عليه ماء من فمك، فذلك ما كنت أفعله أنا بها.

ودمدم مخاطباً إيفان:

- هذا بسبب أمه، أمه...

- أمه؟ يختيّل إليّ أن أمه هي أمي أيضاً، ألا تقدّر ذلك؟

هكذا انفجر يقول إيفان على حين فجأة، في سورة من غضب شديد واحتقار هائل، فانتفض العجوز حين رأى نظرته الحانقة المسعورة. عندئذٍ حدث شيء عجيب، ولكنه لم يدم إلا بضع ثوان. يبدو أن العجوز قد نسي فعلاً أن أم أليوشا هي أم إيفان أيضاً، فها هو ذا يقول مدمدماً دون أن يفهم:

- أمك؟ كيف؟ ماذا تريد أن تقول؟ عن أي أم تتكلم؟ أتكون هي حقاً؟... آه... لعن الله الشيطان! نعم... هي أمك أيضاً! لعن الله الشيطان! يا لاختلال العقل هذا، الذي لم أعرف مثله في حياتي معذرة يا إيفان. لقد خيّل إليّ أن... ها ها ها!...

قال العجوز ذلك ثم توقف. وملأت وجهه ابتسامة بلهاء طويلة من ابتسامات السكيرين. وفي تلك اللحظة نفسها سمعت فجأة من الدهليز جلبة رهيبة. وضوضاء شديدة تقطعها صرخات حادة عنيفة. وانفتح الباب بما يشبه الإعصار، وظهر دمتري فيدوروفتش مندفعاً إلى الغرفة. ارتمى العجوز نحو إيفان وقد استولى عليه جزع هائل، وطفق يصبح وهو يتشبث بحافة رداء إيفان بكل ما أوتي من قوة:

- سيقتلني، سيقتلني... لا تتركني له.. لا تتركني!

- 9 - الشهوانيون

ما إن دخل دمتري فيدوروفتش الغرفة حتى هرع جريجوري وسمردياكوف في أثره. كانا قد حاولا في الدهليز أن يمنعاه بالقوة من الدخول (تنفيذاً للأوامر التي أصدرها إليهما فيدور بافلوفتش منذ بضعة أيام)، فلما صار دمتري فيدوروفتش في الصالون، فتوقف لحظة قصيرة ليعرف ما حوله. انتهز جريجوري هذه الفرصة فدار حول المائدة، ومضى إلى الباب الذي يوجد في آخر الصالون ويفضي إلى الغرف الداخلية فأغلق مصراعيه ووقف أمامه مصالباً عليه ذراعيه كأنه مستعد لأن يمنعه من الدخول منه إلى آخر رمق. فلما رآه دمتري لم يطلق صرخة حادة فحسب، بل قل زار زئيراً رهيباً وارتمى على الخادم العجوز، قائلاً:

- هي إذن هنا! خبأتموها هنا! ابتعد أيها الشقي! أراد دمتري أن يقصي جريجوري، ولكن جريجوري دفعه عنه، فجُنَّ جنون دمتري حنقاً، فرفع ذراعه وهوى على الخادم بضربة قوية، فسقط الخادم على الأرض كتلة واحدة، وقفز دمتري من فوقه، واقتحم الباب. أما سمردياكوف فقد ظل في الطرف الآخر من الصالون يشد نفسه إلى فيدور بافلوفتش شاحب الوجه مرتعد الجسم.

صرخ دمتري فيدوروفتش يقول:

- هي هنا حتماً. رأيتها تتجه إلى هذا المنزل منذ هنيهة، ولكنني لم أستطع أن أدركها. أين هي؟ أين هي؟

أحدثت هذه الصرخة «هي هنا!» في فيدور بافلوفتش أثراً خارقاً، فتبدد خوفه وزال جزعه دفعة واحدة، وزأر يقول وهو يندفع وراء دمتري فيدوروفتش:

- أوقفوه! أوقفوه!

وكان جريجوري قد نهض عن الأرض أثناء ذلك، ولكنه ما يزال طائش اللب. وأسرع إيفان فيدوروفتش وأليوشا يجريان وراء أبيهما ليصداه. وسُمعت في الغرفة الثالثة ضجة سقوط شيء وتناثر حطام: إنها زهرية كبيرة من الزجاج (ليست من أثمن الزهريات) كانت موضوعة على قاعدة من المرمر، فاصطدم بها دمتري فيدوروفتش أثناء جريه.

أعول العجوز من جديد يقول:

- أمسكوها النجدة!

وأدرك إيفان فيدوروفتش وأليوشا العجوز في تلك اللحظة، واستطاعا أن يرجعاه إلى الصالون بالقوة.

صرخ إيفان فيدوروفتش في غضب مخاطباً أباه:

- دعك من ملاحقته إنه سيقتلك هناك فعلاً؟

- بنيَّ فانيا، بني ليوشا[98]! جاءت إذن جروشنكا هي هنا. رآها بنفسه تجري نحو داري.

كان فيدور بافلوفتش يَشْرَقُ بالكلام. كان لا يتوقع أن تجيء جروشنكا في ذلك اليوم، فلما سمع أنها جاءت طاش عقله. كان جسمه كله يرتعد. وكأنه قد أصيب بالجنون.

قال له إيفان حانقاً:

- لقد رأيت بنفسك أنها لم تأت!

- لعلها دخلت من الباب الآخر.

- ولكن الباب الآخر مقفل، ومفتاحه في جيبك...

وفجأة ظهر دمتري مرة أخرى في الصالون. لقد وجد الباب الثاني مغلقاً بطبيعة الحال، لأن مفتاح ذلك الباب كان في جيب فيدور بافلوفتش، وكات النوافذ موصدة في جميع الحجرات من جهة أخرى، فما كان لجروشنكا إذن أن تستطيع دخول المنزل من أي مدخل ولا أن تغادره من أي مخرج.

أعول فيدور بافلوفتش حين رآه، قائلاً:

- اقبضوا عليه! لقد ذهب يسرق مالاً من غرفة نومي!

واستطاع فيدور بافلوفتش أن يتملص من يدي إيفان، فهجم ثانية على دمتري. ولكن دمتري رفع ذراعيه، وأمسك العجوز فجأة من خصلتي شعره الباقيتين على صدغيه، وشده منهما شداً قوياً ورماه على الأرض في قرقعة، واتسع وقته كذلك لأن يطرق وجه أبيه بكعب حذائه مرتين أو ثلاثاً وهو متمدد بين قدميه، فأطلق العجوز من صدره أنيناً حاداً. ولكن إيفان فيدوروفتش، رغم أنه لا يملك ما يملكه أخوه من قوة، طوق أخاه بكلتا ذراعيه واستطاع أن يبعده عن الأب، وعاونه أليوشا الضعيف على ذلك في حدود طاقته، ممسكاً دمتري من أمام.

صرخ إيفان يقول:

- أيها المجنون، لقد قتلته.

فصاح دمتري يقول وهو يختنق:

- هذا ما يستحقه! وإذا أخطأته هذه المرة، فسأعود مرة أخرى لأجهز عليه! ولن تحموه مني عندئذٍ !

وقال أليوشا بلهجة آمرة:

- اذهب يا دمتري! اخرج من هنا فوراً !

- ألكسي! قل لي الحقيقة كلها. أنت الإنسان الوحيد الذي أثق به وأطمئن إلى صدقه: أكانت هنا منذ قليل أم لا؟ لقد لمحتها متسللة على طول السياج في آخر الزقاق، متجهة نحو هذه الدار، فناديتها فولت هاربة...

- أحلف لك أنها لم تأت هنا، وأن أحداً هنا لم يكن ينتظرها إطلاقاً !

- ولكنني رأيتها بعيني... إذن هي... سوف أعرف حالاً أين هي الآن... إلى اللقاء يا ألكسي! لا تقل لايزوب[99] كلمة واحدة في أمر المال الآن. ومن كل بد اذهب فوراً إلى كاترينا إيفانوفنا. قل لها: «إنه يبلغك احترامه، احترامه، احترامه، يبلغك احترامه مودعاً!» وصِفْ لها هذا المشهد.

وكان إيفان وجريجوري قد أنهضا العجوز أثناء ذلك، وأجلساه على مقعد، كان وجهه دامياً، ولكنه ليس مغشياً عليه فهو يتابع أقوال دمتري وصيحاته بشراهة، وما يزال يسيطر عليه الشعور بأن جروشنكا مختبئة في مكان ما بالمنزل. وحين همَّ دمتري فيدوروفتش أن ينصرف رشق أباه بنظرة تفيض كرهاً وبغضاً، وقال له:

- لست نادماً على أنني سفحت دمك! حذار أيها العجوز إذا كان ما يزال لك أمل، فاحذر من أملي أنا! إنني ألعنك وأتبرأ منك!...

قال ذلك وخرج من الغرفة مسرعاً.

- هي هنا، هي هنا قطعاً ! سمردياكوف، سمردياكوف!

هكذا نادي العجوز بصوت محشرج لا يكاد يُسمع، وهو يومئ بإصبعه إلى الخادم.

فصاح إيفان بصوت حانق يقول:

- بل ليست هنا، ليست بالمنزل، أيها العجوز المعتوه.. ها هو ذا يغمى عليه. هاتوا ماء، أسرعوا، وهاتوا منشفة أسرع يا سمردياكوف!

مضى سمردياكوف بأقصى سرعة لإحضار ماء. وخلعوا عن العجوز ثيابه أخيراً، ونقلوه إلى غرفة نومه، وأرقدوه على سريره، وأحاطوا رأسه بمنشفة مبللة. فما إن لامس رأس العجوز مخدته، وقد أوهنه الكونياك وأضعفته الانفعالات العنيفة والضربات القوية، حتى أغمض عينيه ونام. وعاد إيفان فيدوروفتش وأليوشا إلى الصالون. ولم سمردياكوف حطام الزهرية المهشمة. ولبث جريجوري جامداً قرب المائدة، مظلمَ الوجه، خافض الرأس في عناد.

قال أليوشا لجريجوري:

- يحسن بك أنت أيضاً أن تلفّ رأسك بمنشفة مبللة وأن ترقد في فراشك. سنبقى هنا ونعتني به. لقد ضربك أخي ضربة قوية... على رأسك..

قال جريجوري بصوت مبحوح بطيء:

- تجرأ أن يضربني!

فقال إيفان فيدوروفتش وقد أعوج شدقاه:

- تجرأ؟ لم «يتجرأ» أن يضربك وحدك، بل ضرب أباه أيضاً!

- كنت أتولى غسله بنفسي... ثم هو يتجرأ عليَّ الآن فيضربني! كذلك ردد جريجوري. واستأنف إيفان كلامه مخاطباً أليوشا بصوت هامس:

- من يدري؟ لعله كان سيقتله لو لم أبعده عنه بالقوة. تكفي أيزوب ضربة أو ضربتان!
فهتف أليوشا يقول:
- حمانا الله من هذا! فاستأنف إيفان كلامه هامساً مرة أخرى، ملتوي الوجه من الحنق:
- حمانا الله من هذا؟ فليفترس أحد الأوغاد وغداً آخر! ذلك هو المصير الذي يستحقانه!
ارتعش أليوشا.
- طبعاً سأحول دون وقوع الجريمة كما فعلت منذ هنيهة. ابق هنا يا أليوشا. وسأخرج أنا إلى الفناء، فقد بدأت أشعر بصداع في رأسي.
عاد أليوشا إلى غرفة نوم أبيه، ولبث عند سريره قرابة ساعة، جالساً بين السرير والحاجز. ثم إذا بالعجوز يفتح عينيه فجأة، فيطيل النظر إلى أليوشا صامتاً، وهو يحاول أن يتذكر وأن يفهم، ثم إذا باضطراب خارق ينعكس على وجهه فيدمدم قائلاً بوجل وخوف:
- أليوشا، أين إيفان؟
- في الفناء. إن به صداعاً. ولكنه ساهر على حراستنا.
- ناولني المرآة. هي هناك، هل تراها؟ ناولنيها.
مد إليه أليوشا المرآة الصغيرة المدوَّرة ذات المسند المطوي التي كانت موضوعة على المنضدة. نظر العجوز في قسمات وجهه: كان أنفه قد تورم تورماً شديداً، وكانت فوق حاجبه الأيسر بقعة حمراء تدل على أن دماً قد نزف.
- ماذا دها إيفان؟ أليوشا. بني الطيب الشهم، أنت وحدك ابني!
إنني أخشى إيفان، أخشاه أكثر مما أخشى الآخر. أنا لا أخاف منك وحدك...
- لا تخف من إيفان أيضاً. صحيح أنه يغضب، ولكنه سيدافع عنك.
- أليوشا! والآخر، أين هو؟ ذهب إلى جروشنكا، أليس كذلك؟ يا ملاكي الطيب، قل لي الحقيقة كاملة: أجاءت جروشنكا إلى هنا أم لا؟
- لم يرها أحد هنا. تلك كذبة. إنها لم تجئ؟
- يريد دمتري أن يتزوجها، هل تعلم ذلك؟ أن يتزوجها؟
- لن توافق هي على هذا.
- لن توافق، لن توافق على أن تتزوجه، لن توافق على هذا أبداً !..
كذلك صاح العجوز جذلاً فرحاً، وقد انتعش دفعة واحدة على حين فجأة، كأنه ما من شيء يمكن أن يسره كما تسره في تلك الدقيقة هذه الفكرة التي عبَّر عنها أليوشا. ومن فرط حماسته، أمسك يد أليوشا فوضعها بقوة على قلبه، حتى لقد تلألأت دموع في عينيه.
خذ الأيقونة، أيقونة العذراء المقدسة، التي تكلمت عنها منذ برهة. إنني أهب لك هذه الأيقونة، انقلها إلى مسكنك. وإني لأعدك أيضاً بأن تعود إلى الدير. لا تؤاخذني يا أليوشا، فإنني ما أردت إلا المزاح. بي صداع يا أليوشا، يا عزيزي أليوشا... هدئ روعي، طمئن قلبي يا من أنت كالملاك، قل لي الحقيقة كلها!
- أفي أمر جروشنكا ثانية؟ أأنها جاءت إلى هنا؟
كذلك سأل أليوشا بلهجة مرة. فقال له أبوه.
- لا.. لا... إنني أصدقك. إليك ما أريده منك: اذهب إلى جروشنكا، أو دبر أمرك بحيث تراها، واسألها بأقصى سرعة ممكنة دون أن تضيع من الوقت دقيقة واحدة... حاول أن تعرف منها هي، أو أن تحزر من كلامها: أيّنا تفضل، هو أم أنا؟ هه؟ هل تستطيع أن تفعل هذا في سبيلي؟
دمدم أليوشا يقول مضطرباً:
- سأسألها عن ذلك إذا رأيتها.
- لا، إنها لن تقول لك شيئاً. إنها امرأة متقلبة. سوف تأخذ تُقَبّلك وتجيبك قائلة إنها تؤثرك أنت، إنها تريدك أنت! هي امرأة كذابة، امرأة قليلة الحياء. ما ينبغي أن تذهب إليها، ما ينبغي أبداً !
- ثم إن الذهاب إليها ليس بالأمر الحسن، يا ابتاه !
- قل لي: إلى أين كان يريد أن يرسلك حين صاح قائلاً لك لحظة انصرافه «اذهب إليها»؟
- إلى كاترينا إيفانوفنا.
- للحصول على مال؟ ليسألها مالاً؟
- لا... ليس الأمر أمر مال.
- أنا أعلم أنه لا يملك كوبيكاً واحداً. اسمع يا أليوشا. سأرتاح حتى صباح الغد، وسأفكر في جميع هذه الأمور. دعني الآن. قد تلقاها في طريقك... ولكن تعال إليّ غداً في ساعة مبكرة، تعال حتماً، هناك مسألة صغيرة أريد أن أحدثك فيها. هل تجيء؟
- أجيء.
- تظاهر بأنك تجيء من تلقاء نفسك لتسأل عن أخباري. لا تذكر لأحد أني رجوتك أن تجيء. ولا تقل كلمة واحدة لإيفان خاصة.
- طيب.
- إلى اللقاء يا ملاكي. لقد دافعت عني، فلن أنسى هذا أبداً... سأقول لك في الغد شيئاً... يجب أن أفكر في هذا الشيء مزيداً من التفكير...
- وكيف حالك الآن؟
- سأنهض منذ الغد فأخرج. سأكون في غد قد شُفيت سأكون قد أبللت تماماً...
وحين قطع أليوشا فناء المنزل وجد أخاه إيفان جالساً على دكة قرب الباب. كان إيفان بسبيل تدوين بعض الأشياء في دفتره الصغير بالقلم الرصاص. أبلغه أليوشا أن العجوز قد استيقظ واسترد شعوره وأضاف إلى ذلك أنه قد أذن له بالعودة إلى الدير لليل.
قال له إيفان ناهضاً وقد بدا في وجهه كثير من التودد والتحبب:
- أليوشا، أحب كثيراً أن أراك غداً في الصباح. فدُهش أليوشا من هذه البشاشة التي لم يألفها فيه. وأجابه:
- سأكون غداً عند السيدة خوخلاكوفا وابنتها. ومن الجائز أيضاً أن أذهب غداً إلى كاترينا إيفانوفنا إذا لم أجدها الآن في دارها...
- أأنت ذاهب إذن إلى كاترينا إيفانوفنا مع ذلك؟ لتنقل إليها «احترامه»؟
كذلك سأله إيفان وهو يبتسم على حين فجأة. اضطرب أليوشا وأردف إيفان يقول:
- أحسب إنني فهمت الموقف مما قاله لك منذ قليل، ومن ملاحظات أخرى سابقة. أغلب الظن أن دمتري رجاك أن تذهب إليها لتبلغها أنه يريد... أنه يريد... أقصد أنه يريد أن «يودعها»، أليس كذلك؟
سأله أليوشا:
- قل لي يا أخي! كيف ستنهي هذه الفظاعة بين دمتري وأبينا؟
- يستحيل التنبؤ بذلك. قد يسوِّي الأمر، وقد يهدأ الخلاف من تلقاء نفسه. إن هذه المرأة وحش كاسر. مهما يكن من أمر، يجب احتجاز العجوز في المنزل ومنع دمتري من الدخول إليه.
- اسمح لي بسؤال آخر يا أخي: هل يمكن فعلاً أن يكون من حق كل إنسان أن يعيِّن، حين ينظر إلى أقرانه البشر، أولئك الذين يستحقون أن يعيشوا وأولئك الذين يجب أن يزولوا؟
- ما جدوى أن نعالج هذا السؤال من وجهة نظر الاستحقاق؟ إن أكثر الناس لا يحسمون هذا السؤال في قلوبهم على هذا الأساس، وإنما هم يحسمونه مستلهمين اعتبارات مختلفة جداً عن هذا الاعتبار، اعتبارات أقرب كثيراً إلى الطبيعة. أما عن الحق فهل يمكن أن ننكر على إنسان من الناس حقَّ أن يتمنى ما يناسبه؟
- أن يتمنى موت إنسان آخر؟
- حتى ولو كان الموت، فماذا؟ ما ينبغي للمرء أن يكذب على نفسه... إن جميع الناس يعيشون على هذا النحو، وقد لا يكون من الممكن أن يعيشوا على غير هذا

النحو... أأنت تلقي عليَّ هذا السؤال بسبب فكرتي تلك عن الوغدين؟ فاسمح لي إذن أن ألقي عليك أنا أيضاً هذا السؤال: هل تعتقد أنني قادر، مثل دمتري، على أن أسفح دم أيزوب، أي أن أقتله؟ هه؟

- ما هذا الكلام يا إيفان؟ لم يخطر ببالي شيء من هذا في يوم من الأيام! وحتى دمتري، ما أظنه قادراً على أن...

قال إيفان ساخراً:

- أشكر لك هذه الثقة على الأقل. اعلم أنني سأدافع عنه في كل ظرف. أما عن أمنياتي مع ذلك، فإنني أحتفظ في هذا المجال بحريتي. إلى اللقاء. إلى الغد. لا تُدِنِّي ولا تحسبني مجرماً.

كذلك أضاف وهو يبتسم.

تصافح الأخوان بقوة كما لم يتصافحا قبل ذلك قط. وأحسَّ أليوشا أن أخاه قد خطا الخطوة الأولى نحوه لغاية في نفسه، وأنه يبيِّت نية من النيَّات حتماً.

- 10 - المرأتان معاً

خرج أليوشا من دار أبيه أشد حزناً مما كان حين دخلها. إنه يشعر باضطراب عميق في ذهنه. افكاره تتلاحق وتتبعثر بغير تسلسل ينظمها، وبغير رابطة تصل بعضها ببعض. ولكنه يدرك في الوقت نفسه أنه يخشى تجميع أفكاره المشتتة واستخلاص أية نتيجة من المشاعر المتناقضة المعذبة التي عاناها في هذا النهار. إن نوعاً من القلق يستبد بقلب أليوشا ويوشك أن يكون يأساً. وذلك أمر لا عهد له بمثله من قبل. هناك مسألة أساسية فاجعة مستعصية كانت تسيطر في فكره على سائر الهموم الأخرى كأنها الجبل ثقلاً: ما عسى يصير إليه هذا النزاع بين أبيه وأخيه دمتري على تلك المرأة الرهيبة؟ إنه شهد خطورة هذه المشكلة الآن، رأى الرجلين يواجه أحدهما الآخر. دمتري أحق الناس بالرثاء على كل حال، لأن شقاءه يبدو رهيباً وبلاءه يبدو مستعصياً لا دواء له ولا برأ منه، إن الكارثة التي لا شك في وقوعها كانت تتربص به. وهناك أشخاص آخرون تمسهم هذه المشكلة أكثر بكثير مما كان يتراءى لأليوشا حتى ذلك الحين. هذا كله كان يبدو غامضاً في نفس أليوشا، لا يفهم. من ذلك مثلاً أن أخاه إيفان قد خطا الخطوة الأولى نحوه متقرباً منه، ولقد طالما تمنى أليوشا هذا التقارب بينه وبين أخيه، ومع ذلك فإن خطوة أخيه هذه قد بثَّت في نفسه جزعاً لا يفهم له علة. وهاته النساء أيضاً؟ ما أغرب ما يحس به أليوشا الآن! حين كان ذاهباً إلى كاترينا إيفانوفنا منذ بضع ساعات، فإنه قد ملأته تلك الزيارة اضطراباً. وليس الأمر كذلك في هذه اللحظة، فإنه ماضٍ إليها بغير وجل البتة. أكثر من ذلك أنه يستعجل الآن رؤيتها كأنها تستطيع أن ترشده! على أن المهمة التي كُلّف بها تبدو له الآن أصعب: لقد عدل دمتري عدولاً نهائياً عن رد الثلاثة آلاف روبل. هو يرى الآن أن شرفه قد تلطخ إلى الأبد، وهو قد فقد كل أمل، فلن يتردد بعد اليوم عن أي سقوط. ثم إنه قد ألح على أليوشا أن يروي لكاترينا إيفانوفنا المشهد الذي جرى في دار أبيه.

حين وصل أليوشا إلى أمام مسكن كاترينا إيفانوفنا التي تشغل في «الشارع الكبير» منزلاً واسعاً فخماً، كانت الساعة قد بلغت السابعة، وكان الظلام قد أخذ يهبط. إن أليوشا يعلم أن كاترينا إيفانوفنا تعيش في هذا المنزل في صحبة قريبتين لها. فأما أولاهما فلا تمت إليها بقربي إلا من جهة أختها أجافيا إيفانوفنا، وهي بعينها تلك الإنسانة الخضوع الطيِّعة التي عنيت مع أجافيا تلك العناية كلها بكاترينا بعد خروجها من المدرسة الداخلية، وأما الثانية فهي سيدة من موسكو فارعة القامة شاعرة بخطورة شأنها وعلو منزلتها رغم أنها ليست على جانب كبير من الثراء. وكان يقال إن هاتين القريبتين كلتيهما تخضعان لكاترينا إيفانوفنا في كل شيء، ولا تعيشان قربها إلا مراعاةً للمواضعات الاجتماعية. أما كاترينا إيفانوفنا فهي لا تطيع إلا الجنرالة، المحسنة إليها، التي لبثت في موسكو بسبب حالتها الصحية، والتي كان على كاترينا إيفانوفنا أن تكتب إليها مرتين في الأسبوع لتطلعها على تفاصيل حياتها.

حين دخل أليوشا الدهليز ورجا الخادمة التي فتحت له الباب أن تبلغ أهل الدار وصوله، كان يبدو أن أهل الدار الجالسين في الصالون كانوا على علم بزيارته (لعلهم قد لمحوه من خلال النافذة). فقد سمع أليوشا حركة غامضة ووقع خطوات نساء يبتعدن بسرعة، وحفيف أثواب، كأن امرأتين أو ثلاثاً قد هرعن يبارحن الغرفة. استغرب أليوشا أن يُحدث وصوله كل هذا الاضطراب. ومع ذلك أدخل الصالون فوراً وهي غرفة واسعة يزدحم فيها أثاث كثير أنيق، على ذوق ليس فيه من ذوق الأرياف شيء. دواوين وصوفات وكنبات وموائد ومناضد، ولوحات تزين الجدران، ومزهريات ومصابيح تنتصب على الموائد، وأزهار كثيرة في كل ركن، بل وحوض أسماك قرب إحدى النوافذ. والغرفة مظلمة قليلاً في هذا الوقت من الغسق. ورأي أليوشا خماراً من حرير ملقى على ديوان لا شك أن أحداً كان جالساً عليه قبل لحظات، ورأى على المائدة الصغيرة القريبة من الديوان فنجانين ما يزال نصفهما ممتلئاً بالشوكولاته، وبسكويتاً وآنية من الكريستال فيها زبيب من زبيب كورنثيا وآنية أخرى فيها سكاكر. لا شك إذن في أن أهل الدار كانوا يقدمون حلوى لضيوف عندهم. فلما أدرك أليوشا أنه قد وصل أثناء زيارة شعر بحرج كبير. ولكن الستارة أزيحت في تلك اللحظة نفسها، ودخلت كاترينا إيفانوفنا الغرفة بخطى سريعة عجلى، مادةً إلى أليوشا يديها كلتيهما، مبتسمة له ابتسامة فرحة مبتهجة. وسرعان ما دخلت في أثرها خادمة تحمل شمعدانين مشتعلين وضعتهما على المنضدة.

- الحمد لله ! ها أنت ذا أخيراً ! لقد لبثت طول الوقت أضرع إلى الله أن تجيء. اجلس من فضلك؟

إن جمال كاترينا إيفانوفنا كان قد لفت نظر أليوشا حين أخذه أخوه دمتري إليها قبل ثلاثة أسابيع ليعرِّفها به لأنها أحبت كثيراً أن تعرفه. ولم يتحدثا أثناء تلك الزيارة كثيراً على كل حال. ذلك أن كاترينا إيفانوفنا قد لاحظت ما كان فيه أليوشا من حرج، فدارته في تلك المرة فلم تتجه بكلامها إلا إلى دمتري، وصمت أليوشا طوال الوقت، ولكنه لاحظ المرأة الشابة فأحسن ملاحظتها، وخطف ببصرِه ما رآه فيها من مظهر الإرادة المتسلطة والثقة بالنفس وانطلاق الحركات على كبرياء وخيلاء. كانت هذه السمات في طبعها واضحة، وأحسَّ أليوشا أنه لم يضخمها ولا بالغ في تصورها. وقد أعجب أشد الإعجاب بعينيها الواسعتين السوداوين الحادتين اللتين تتسقان اتساقاً تاماً مع لونها الشاحب الضارب قليلاً إلى الصفرة، ومع وجهها المستطيل بعض الاستطالة. ومع ذلك كان في عينيها، كما كان في رسم شفتيها الرائع، شيء يمكن أن يتوله به أخوه تولهاً جامحاً من غير شك، ولكنه لا يبدو أنه يوقظ في النفس حباً باقياً مستمراً. ولقد أعرب أليوشا لأخيه دمتري عن شعوره هذا بصراحة بدون لف ولا دوران تقريباً، حين أصرَّ دمتري، بعد انتهاء الزيارة، على أن لا يخفي عنه أخوه رأيه، وحين تضرع إليه أخوه أن يفصح له بصراحة عن حكمه على خطيبته. لقد قال له أليوشا يومئذٍ:

- سوف تكون سعيداً معها... ولكن سعادتك قد لا تكون هادئة.

- هذه هي الحقيقية يا أخي! إن النساء اللواتي هن من هذا النوع لا يتغيرن أبداً، ولا يذعنَّ للقدر. أأنت تعتقد إذا أنني لن أحبها إلى الأبد؟

أفصح أليوشا عن هذا الرأي وهو يحمر استياء في قرارة نفسه، من رضوخه لإلحاح أخيه وقبوله الإعراب عن أفكار «حمقاء» كهذه الأفكار. ذلك أن رأيه قد بدا له غبياً غباءً رهيباً منذ عبَّر عنه. ثم إنه قد شعر بخزي شديد من جزمه في الحكم على امرأة مثل هذا الجزم؛ وقد ازدادت دهشته الآن حين لاحظ منذ أول نظرة ألقاها على كاترينا إيفانوفنا التي هرعت تستقبله هاشة باشة، أنه لعله قد أخطأ في الحكم عليها خطأ فاحشاً في المرة الماضية. لقد كان وجهها في تلك اللحظة يشرق طيبة بسيطة خالية من أي تصنع، وكانت قسمات وجهها تعبِّر عن صراحة ملتهبة حارة. ولم يبق من «الكبرياء والخيلاء» اللتين خطفتا بصرِه من قبل إلا تعبير عن جرأة نبيلة وإيمان بنفسها قوي واضح. وأدرك أليوشا دفعة واحدة، من هيئة الفتاة ومن أولى الكلمات التي نطقت بها، أن مأساة وضعها إزاء رجل تحبه هذا الحب الحاد المندفع كله لم تكن خافيةٍ عنها، وأنها ربما كانت على علم بكل شيء، بكل شيء إطلاقاً. ورغم ذلك كان يشع منها كل هذا الضياء، وكان يشع منها كل هذا الأمل بالمستقبل. وشعر أليوشا فجأة بأنه مذنب في حقها، كأنما هو أساء إليها إساءة كبيرة، عن عمد. لقد غُلب أليوشا وانجذب فوراً، ولكنه لاحظ مع ذلك، منذ أولى الكلمات التي قالتها، أنها في حالة انفعال نفسي عنيف لعله لم يكن مألوفاً لها أو معهوداً فيها، وهو انفعال يكاد يشبه الحماسة.

قالت كاترينا إيفانوفنا:

- انتظرتك نافدة الصبر، لأنك الإنسان الوحيد الذي أستطيع أن أعرف منه الحقيقة كلها... أنت وحدك!

فتمتم أليوشا يقول وقد اضطربت أفكاره. واختلطت على حين فجأة:

- أنا جئت... أنا جئت... موفداً منه...

- آه... إذاً هو الذي أرسلك، لقد أوجست ذلك. الآن فهمت كل شيء، فهمت كل شيء!

بهذا هتفت كاترينا إيفانوفنا وقد اشتعلت عيناها فجأة، ثم تابعت كلامها تقول:

- لحظة يا ألكسي فيدوروفتش! وسترى أنني أحرص على أن أشرح لك أولاً لماذا انتظرتك فارغة الصبر. إنني ربما أعلم من الأمر أكثر مما تعلمه أنت نفسك. فلن أسألك إذاً معلومات، وإنما أنا أعتمد عليك في شيء آخر: إنني أريد أن تطلعني على رأيك، على شعورك، على آخر ما رأيته فيه ولاحظته عليه في الآونة الأخيرة. إنني أحرص على أن تذكُر بصراحة تامة، دون أية مداراة أو مراعاة، بل وبخشونة إذا لزمت الخشونة (بأكبر قدر من الخشونة) أن تذكر لي رأيك فيه وفي حالته الآن بعد لقائك معه اليوم. فلعل ذلك خير من أن أمضي أفاتحه أنا في الأمر، أنا التي أصبح لا يريد أن يراها. هل فهمت ما أريده منك؟ والآن قل لي: ما هي الرسالة التي كلفك بنقلها إليّ (كنت أتنبأ بأنه سيرسلك!) تكلم بلا تردد. قل كل شيء، ولا تخش أن تسيء إليّ!..

- لقد كلفني بأن... أنقل إليك احترامه.... وأن أقول لك إنه لن يجيء بعد اليوم... وأن احترامه...

- احترامه؟ أهذا ما قاله؟

- نعم.

- لعله استعمل هذه الكلمة عرضاً ومصادفةً، دون أن يريد ذلك، لأنه لم يجد كلمة أخرى؟

- بل لقد حرص حرصا على أن أستعمل كلمة «الاحترام»، هذه. حتى لقد ألح عليها ثلاث مرات، مخافة أن أنساها. تخضب وجه كاترينا إيفانوفنا بحمرة شديدة. وقالت:

- ساعدني الآن يا ألكسي فيدوروفتش، أنا في حاجة إلى مساعدتك. سأفتح لك أعماق فكري، وستقتصر أنت على أن تقول الي هل تعد رأيي صحيحا أم لا؟ اصغ

إليّ جيداً. لو كان قد كلفك عرضاً ومصادفةً بأن تبلغني «احترامه»، دون أن يلح على هذه الكلمة إلحاحاً خاصاً، فإن كل شيء يكون قد قيل... ويكون الأمر في هذه الحالة قد انتهى! أما وأنه قد ألح على هذه الكلمة إلحاحا خاصاً، وأنه رجاك رجاء خاصاً أن تستعمل تعبير «الاحترام»، هذا، فمعنى ذلك أنه كان في حالة اضطراب شديد، بل لعله كان خارجاً عن طوره! لقد اتخذ قرارة، ولكن قراره نفسه يبث الجزع في نفسه! إنه لم يتركني بخطى حازمة، وإنما هو أسرع يسقط في هاوية. إن إصراره على استعمال هذه الكلمة لا يمكن أن يفسر إلاّ على أنه تبجّح وتحدّ...
فقال أليوشا مؤيداً:
- هو كذلك، هو كذلك تماما. وهذا هو شعوري الآن أيضاً.
- فإذا صح هذا فإنه لم يضع بعد، وليس الأمر إذاً إلاّ أمر فعلٍ يدفع إليه اليأس. ولكني أستطيع أن أنقذه على الرغم من كل شيء. لحظة! ألم يكلمك في موضوع مال، في موضوع ثلاثة آلاف روبل؟
- طبعاً... حدثني في هذا الموضوع... بل إن هذا هو ما يرهقه أكثر من أي شيء آخر. قال إن شرفه قد تلطخ، وإن جميع الأمور تستوي لديه بعد الآن.
كذلك قال أليوشا بحرارة وكان يحس في تلك اللحظة بالأمل يملأ قلبه وبأنه قد يكون هنالك فعلاً مخرج لأخيه، وسبيل إلى خلاصه. ثم أضاف يقول وهو يضطرب على حين فجأة:
- أأنت إذن على علم... بما حدث لذلك المبلغ؟
- أنا أعلم بما حدث له، منذ زمن طويل. وعلماً أكيداً لقد أرسلت برقية إلى موسكو لأسأل هل وصل المال، فما لبثت أن عرفت الحقيقة منذ زمن طويل. إنه لم يرسل المبلغ، ولكنني لم أحدثه في الأمر، حتى لقد علمت في هذا الأسبوع الأخير مدى حاجته إلى المال... ولم يكن لي في هذا الشأن إلاّ هدف واحد: هو أن يعرف من الذي يستطيع أن يتجه إليه في مثل هذه الحالة، ومن هو خير صديق له ولكن لا... إنه لا يؤمن بأنني خير صديق له، لم أخطر بباله في هذا الظرف. هو لا يرى فيَّ إلاّ المرأة. إن هناك سؤالاً يعذبني منذ أسبوع: ما الذي يجب عليَّ أن أفعله حتى لا يشعر تجاهي بالخزي والعار من أنه أتلف تلك الثلاثة آلاف روبل؟ افهمني حق فهمي: فليشعر بالخجل أمام الآخرين أو أمام نفسه، ولكن ما ينبغي له أن يشعر بالخجل تجاهي! هل يخجل أمام الله من الإفضاء إليه بسرّه؟ فلماذا لا يعرف حتى الآن ما أنا قادرة على احتماله في سبيله؟ لماذا، نعم، لماذا يجهلني هذا الجهل كله؟ كيف يجرؤ أن يجهلني بعد كل ما جرى بيننا؟ إنني أريد أن أنقذه إلى الأبد. فلينسى أنني خطيبته، لينسى أن لي هذه الصفة ولكنه يخشى أمامي أن يحط من شرفه! هل خشي الاعتراف بالحقيقة لك أنت يا ألكسي فيدوروفتش؟ فلماذا لا أكون حتى الآن جديرة بمثل هذه الثقة؟
نطقت كاترينا إيفانوفنا بهذه الكلمات الأخيرة، بصوت متهدج باكٍ وانبجست الدموع من عينيها.
قال أليوشا بصوت متهدج أيضاً:
- علي أن أروي لك ما وقع بينه وبين أبينا منذ قليل.
- وقص عليها القصة، ذاكراً أن أخاه كان قد كلفه بأن يطلب له مالاً من فيدور بافلوفتش، ثم إذا هو يقتحم الغرفة على حين فجأة. وصف لها كيف ضرب أخوه أباه، وذكر لها أن أخاه قد ألح عليه، بعد ذلك، مرة أخرى، أن يجيء إليها ليبلغها «احترامه»...
- وختم أليوشا كلامه قائلاً وهو يخفض صوته:
- ثم ذهب إلى تلك المرأة...
- أتظن أنني لا أستطيع احتمال وجود تلك المرأة في حياته؟
أيحسب أني لن أطيق وجودها في حياته؟
ألقت كاترينا إيفانوفنا هذا السؤال، ثم قالت فجأة وهي تضحك ضحكاً عصبياً:
- ولكنه لن يتزوجها. هل يستطيع رجل من آل كارامازوف أن يلتهب قلبه بهوى من هذا النوع إلى الأبد؟ ذلك هوى وليس حبا. ثم إنه لن يتزوجها لأنها لن ترضى هي أن تتزوجه....
كذلك رددت كاترينا إيفانوفنا وهي تضحك من جديد تلك الضحكة الغريبة نفسها.
فقال أليوشا في حزن وهو يغض بصره:
- ولكنه هو قد يتزوجها.
- قلت لك إنه لن يتزوجها! إن هذه الفتاة ملاك حق، هل كنت تعرف ذلك؟ إنك تعرف ذلك؟
كذلك هتفت كاترينا إيفانوفنا بحرارة وحماسة قوية. وتابعت تقول:
- هي أروع إنسان يمكن أن يلقاه المرء في حياته! أنا أعرف مدى ما تتصف به من فتنة وإغراء، ولكنني أعرف أيضاً طيبتها وشهامتها ونبلها. لماذا تنظر إليّ هكذا يا ألكسي فيدوروفتش؟ لعل كلماتي تدهشك؟ أغلب ظني أنك لا تصدقني، أليس كذلك؟ يا آجرافينا ألكسندروفنا، يا ملاكي (كذلك نادت كاترينا إيفانوفنا وهي تنظر إلى الغرفة المجاورة)، تعالي إلينا! إنه فتى لطيف! إنه أليوشا.
هو على علم بكل ما يتصل بنا. تعالي! فأجاب صوت نسوي لطيف بل وحتى معسول قليلاً:
- إنما كنت أنتظر من وراء الستارة اللحظة التي تناديني فيها.
وأزيحت الستارة فإذا... بجروشنكا نفسها تظهر. اقتربت من المائدة ضاحكة وقد بدت في وجهها سعادة. أحسّ أليوشا في اللحظة الأولى شيئاً من التشنج في داخله. حدق إلى المرأة الشابة بنظرة عنيفة، دون أن يستطيع تحويل عينيه عنها. أهذه هي إذن تلك المرأة المخيفة؟ أهذه هي إذن ذلك «الوحش الكاسر» على حد التعبير الذي أفلت من أخيه إيفان قبل نصف ساعة؟ إن أليوشا لا يرى أمامه الآن إلاّ امرأة عادية بسيطة طيبة محببة، قد تعدها حسناء إن شئت، ولكنها شبيهة بجميع النساء الأخريات اللواتي يحسبن حسناوات ولكنهن «عاديات»! والحق أنها جميلة، بل جميلة جدا... لها ذلك الجمال الروسي الذي قد يوقظ في بعض الرجال حباً جامحاً وهوى قوياً. هي طويلة القامة، ولكنها أقل طولا من كاترينا إيفانوفنا (الطويلة جداً)، ويتميز جسمها الممتلئ بحركات لينة حلوة تشبه أن تكون صامتة، حركات تتصف تلوياتها وانعطافاتها بنفس الليونة المعسولة والرقة التي تظهر في تثنيات صوتها. اقتربت، ولكن مشيتها ليست صلبة حازمة كمشية كاترينا إيفانوفنا. إنها تمشي بلا جلبة ولا ضوضاء. تهالكت على مقعد من المقاعد، فكان لحفيف ثوبها الحريري الأسود الفاخر شيء من عذوبة ورقة في السمع أيضاً. وكان يلتف على جيدها الناصع البياض كالزبد، وعلى كتفيها العريضتين، شال ثمين من صوف أسود، يلتف التفافة منغمة. إنها في الثانية والعشرين من عمرها. وإن قسمات وجهها تدل على أنها في هذه السن تماما. لونها ناصع البياض، وخداها متوردان توردا خفيفاً عند الوجنتين، وكانت تقاطيع وجهها تبدو وكأنها عريضة أكثر مما ينبغي وفكها الأسفل بارز بعض البروز، وشفتها العليا دقيقة على حين أن شفتها السفلى الناتئة قليلاً تبدو أسمك من الشفة العليا مرتين حتى لكأنها منتفخة قليلا. ولكن شعرها الكستنائي الغزير الرائع وحاجبيها القائمين المخمليين، وعينيها الزرقاوين الرماديتين الفاتنتين، وأهدابها الطويلة، كل ذلك خليق بأن يجعل أقل الرجال اكتراثاً، وأشدهم ذهولا، ولو في وسط جمهور مضطرب متدافع أو في زحمة الشوارع يتوقف لحظة أمام هذا الوجه ويذكره طويلا. وقد أخذ أليوشا خاصة بما في هذا الوجه من تعبير عن براءة واضحة صريحة. إن لها نظرة طفل، وكأنها فرحة فرح صبية صغيرة لسبب مجهول. ولقد تقدمت من المائدة في الواقع «متهللة» الأسارير، كأنها تنتظر حادثاً وشيكاً، متعجلة حدوثه نافدة الصبر مطمئنة النفس كطفل. وكان في نظرتها ضياء يبهج القلب، ضياء أحس به أليوشا. وكان يشع منها شيء آخر لم يستطع أليوشا أن يستبينه جلياً في تلك اللحظة، ولكنه أثر فيه تأثيراً لا شعورياً، أعني تلك العذوبة وتلك الرقة في حركات جسمها الشبيهة بحركات القطة في رشاقتها الصامتة. ومع ذلك كانت قوية الجسم والبنية. إن كتفيها العريضتين ترتسمان تحت شالها؛ ومن ينظر إليها يدرك أن لها صدراً كاعباً ما يزال صدر فتاة مراهقة. إن جسدها يعد بأن يكتسب مع تقدمها في النضج اتساق جسد فينوس ميلو، مع أنه حتى الآن كانت نسبة مفرطة قليلاً وكان ذلك ملموساً. على أنها لو رآها خبير في جمال المرأة الروسية لتنبأ بأن هذه الرشاقة النضرة الربيعية في جسدها ستفقد انسجامها في نحو الثلاثين من عمرها، وأنها ستثقل وستسمن، وأن عضلات وجهها سترهل عندئذ، وأن غضوناً ستظهر عند عينيها وعلى جبينها في وقت مبكر، وأن بشرة وجهها ستخشوشن، وقد تصاب بداء الاحمرار، أي إن جمالها، بإيجاز، جمال عارض ليس له غد، كالجمال الذي يلاحظ كثيراً لدى النساء الروسيات. إن أليوشا لم يسترسل في أفكار من هذا النوع طبعاً، ولكنه، رغم افتتانه بالمرأة الشابة، قد تساءل وهو يحس إحساساً غامضاً بنوع من النفور وبنوع من الأسف، لماذا تجرّ هذه المرأة كلامها جراً، ولا تطلق صوتها في الحديث على سجيته طبيعياً وبغير تكلف؟ إن المرء ليشعر أنها تحسب الجمال في تلوين ألفاظها بنبرات الغناء المعسولة. والحق أن تلك عادة رديئة تدل على ذوق رديء وتربية وضيعة، وعلى الأفكار المبتذلة التي تكونت في ذهنها منذ طفولتها عن الآداب الاجتماعية. وقد بدا لأليوشا أن هناك تناقضاً لا يكاد يطاق بين هذا النطق المتصنع والتنغيم المفتعل وبين ما يظهر في وجهها من تعبير عن الفرح البريء والابتهاج الساذج وما

يشع في نظرتها الوديعة وداعة نظرة الطفل من سعادة هادئة عذبة. وقد أجلستها كاترينا إيفانوفنا على مقعد قبالة أليوشا وقامت بتقبيلها على شفتيها الباسمتين عدة مرات بحماسة وحرارة، حتى لكأنها هائمة بها غراماً...
قالت كاترينا إيفانوفنا مخاطبة أليوشا بفرح وافتان:
- إننا نلتقي اليوم لأول مرة يا ألكسي فيدوروفتش. كنت أتمنى أن أعرفها، أن أراها، وقد فكرت في أن أزورها، ولكنها جاءتني من تلقاء نفسها منذ عرفت برغبتي. وكنت على ثقة سلفا سأستطيع التفاهم معها على كل شيء، تفاهماً تاماً! قلبي أدرك ذلك... وقد حاولوا أن يثنوني عن. إنفاذ هذه النية، ولكنني كنت أتنبأ بالنتيجة السعيدة، فلم يخطئ ظني. لقد شرحت لي جروشنكا كل شي، وأطلعتني على جميع ما عقدت النية عليه. جاءتني إلى هنا تحمل إليّ السلام والفرح، كملاك طيب...
قالت جروشنكا بصوت منغم متباطئ، وهي تبتسم تلك الابتسامة الباشة السعيدة نفسها:
- الفضل لك يا آنستي العزيزة المحترمة، فقد ارتضيت صحبتي ولم تحتقريها.
- إياك أن تقولي أمامي مثل هذه الأشياء، أيتها الفاتنة، أيتها الساحرة! أأحتقر صحبتك أنت؟ دعيني أقبل هذه الشفة السفلى مرة أخرى. لكأنها متورمة قليلاً، فلأزدها تورماً! هذه قبلة.... هاتي قبله أخرى... وقبلة أخرى أيضاً.... انظر إليها كيف تضحك يا ألكسي فيدوروفتش! إن رؤية هذا الملاك تملا القلب بهجة وفرحة...
احمر أليوشا وأخذ يرتعش ارتعاشاً خفيفاً لا يُرى.
- أنت تدلليني يا آنستي اللطيفة، مع أنني قد لا أستحق ملاطفاتك ومداعباتك.
- أنت؟ دعك من هذا الكلام! فمن يستحق ذلك غيرك؟
كذلك صاحت كاترينا إيفانوفنا تقول من جديد بحرارة شديدة، ثم أردفت:
- اعلم يا ألكسي فيدوروفتش أنها فتاة جامحة الخيال، متسلطة القلب، ولكنها ذات كبرياء وكرامة! هي نبيلة الروح يا ألكسي فيدوروفتش، سامية النفس، هل تعلم ذلك؟ ولكنها كانت شقية عاثرة الحظ. لقد تعجلت فأرادت أن تضحي بكل شيء في سبيل رجل خسيس الطبع، أو ربما طائش العقل. كان ضابطاً هو أيضاً. أحبته ووهبت له كل شيء. حدث ذلك منذ زمن طويل، منذ خمس سنين. ثم هجرها، ونسيها، وتزوج. وقد توفيت امرأته فهو الآن أرمل، وقد كتب إليها يبلغها أنه آت إليها. اعلم يا ألكسي فيدوروفتش أن هذا هو الرجل الوحيد الذي أحبته فعلاً وما تزال تحبه! وسيجئ وستعود إلى جروشنكا سعادتها، لأنها لم تزد على أن تتألم وتتعذب خلال خمس سنين. من ذا الذي يجرؤ أن يلومها، من ذا الذي يستطيع أن يتباهى بأنه حظي بعطفها؟ هو ذلك العجوز وحده - التاجر - ولكنه كان لها أبا، كان لها صديقاً، كان لها حارساً. وجدها فريسة اليأس، قد هجرها الرجل الآخر، الرجل الذي محضته ذلك الحب كله... وقد فكرت في أن ترمي بنفسها إلى الماء، هل تعلم ذلك؟ فأنقذها ذلك العجوز، أنقذها!
عادت جروشنكا تقول بصوتها المتباطئ:
- أنت تدافعين عني بحرارة فيها غلو يا آنستي العزيزة، ولعلك في هذا تسرفين في التعجل.
- أأنا أدافع عنك؟ هل علينا نحن أن ندافع عنك في حقيقة الأمر؟ وكيف يمكن أن نجرؤ على ذلك أصلا؟ جروشنكا ملاكي، هاتي يدك الصغيرة! انظر إلى هذه اليد الجميلة يا ألكسي فيدوروفتش، انظر إلى هذه اليد الصغيرة البضة الرائعة! أنظر إليها! لقد حملت إلى السعادة، لقد ردتني إلى الحياة. سأقبلها، هذه اليد الصغيرة، وجهة وقفا... هكذا، وهكذا، ومرة أخرى!...
قبلت كاترينا إيفانوفنا يد جروشنكا ثلاث مرات فعلا، وهي في حالة تشبه أن تكون نشوة ووجداً... قبلت تلك اليد الرائعة حقا، وإن تكن مسرفة في البضاضة. وكانت جروشنكا قد مدت إليها ذراعها، وأخذت تلاحظ «الآنسة اللطيفة» ضاحكة ضحكتها العصبية الرنانة الفاتنة، مغتبطة اغتباطاً واضحاً بتقبيلها على هذا النحو. قال أليوشا لنفسه سراً: «لعلها تسرف في الحماسة»، واحمر وجهه. إن نوعاً من القلق كان يعتلج في قلبه طوال ذلك الوقت.
قالت جروشنكا:
- لا تخجليني يا آنستي اللطيفة بتقبيل يدي هذا التقبيل أمام ألكسي فيدوروفتش.
فأجابت كاترينا إيفانوفنا مدهوشة بعض الدهشة:
- أأنا خطر ببالي أن أخجلك؟ آه... يا عزيزتي إنك تسيئين فهمي كثيراً!
- وأنت أيضاً تسيئين فهمي فيما يخيّل إلي يا آنستي اللطيفة. أنا قد أكون أخبث كثيراً مما تقدرين. إن لي قلباً شريراً ذا نزوات. لقد اجتذبت دمتري فيدوروفتش المسكين إليّ آنذاك لغاية واحدة هي أن أسخر منه وأستهزئ به.
- ما قيمة هذا ما دمت ستنقذينه الآن؟ لقد قطعت على نفسك عهداً... سترديه إلى الصواب... ستقولين له إنك تحبين رجلا آخر، منذ زمن طويل، وإن هذا الرجل يريد أن يتزوجك الآن...
- آه.. كلا... أنا لم أقطع لك على نفسي هذا العهد. أنت قلت لي هذا الكلام كله، أما أنا فلم أعد بشيء.
قالت كاترينا إيفانوفنا في لين ورفق وقد بدت في وجهها صفرة خفيفة:
- إذاً فهمت الأمر على غير هذا النحو، وأحسب أنك وعدت...
- كلا يا ملاكي، كلا يا آنستي، أنا لم أعدك بشيء البتة.
كذلك قالت جروشنكا بصوت متساوٍ هادئ، وما تزال تبدو عليها هيئة السعادة والبراءة تلك. ثم أضافت تقول:
- فها أنت ذي ترين الآن، يا آنستي المحترمة، مدى ما يشتمل عليه سلوكي معك من خبث ونزوة. أنا أفعل ما يبرق في رأسي. قد أكون وعدتك بشيء منذ قليل، ولكني في هذه اللحظة أقول لنفسي:
«فماذا لو أعجبني من جديد ميتيا هذا»؟ ذلك أنه قد أعجبني جداً مرة في الماضي، بل لقد أعجبني طوال ساعة بكاملها! وقد أذهب الآن إليه لأقول له: تعال اسكن في منزلي نهائيا منذ الآن... هكذا أنا: متقلبة لا أستقر على حال...
قالت كاترينا إيفانوفنا بصوت ضعيف واهن:
- كنتِ منذ لحظات تتكلمين... بطريقة أخرى مختلفة تماما...
- كان ذلك منذ لحظات!.. ولكن لي قلبا حنوناً غبياً... فحين أتصور كل ما قاساه من آلام بسببي.. ثم ماذا لو أخذتني به شفقة على حين فجأة منذ أن أرجع إلى الدار؟ ما عسى يحدث عندئذ؟
- لم أكن أتوقع أن...
- أوه.. آنستي العزيزة! فما أطيبك وما أنبلك إذن بالقياس إلي؟ لا شك أنك ستكفين عن حبي الآن، أنا الحمقاء الغبية، بسبب سوء طبعي. هاتي يدك الصغيرة أنت أيضاً، أيتها الملاك (قالت ذلك راجية ضارعة بصوت رقيق ناعم، ثم أمسكت يدها كأنما بنوع من الإجلال). سآخذ يدك يا آنستي العزيزة وأقبلها، كما قبلت يدي. لقد قبلتني ثلاث مرات فيجب علي أن أقبلك ثلاثمائة مرة لأرد إليك دينك علي. ولندع الأمور على ما هي عليه الآن، ولنسلم أمرنا إلى الله! من يدري؟ قد أنتهي إلى الخضوع لإرادتك خضوعاً أعمى، فأفعل كل ما تأمرينني به. لندع الأمور تجري على مشيئة الله! فلا نقطع على أنفسنا عهوداً، ولا نقيد أنفسنا بوعود! ما أجمل يدك! أوه، ما أجملها يداً فاتنةً أخاذة! آنستي اللطيفة، إنك جميلة جمالاً لا يتصوره الخيال!
قالت جروشنكا ذلك ورفعت يد كاترينا إيفانوفنا إلى شفتيها، على تلك النية الغريبة حقا، وهي أن «ترد إليها دينها عليها». لم تسحب كاترينا إيفانوفنا يدها. كانت قد أصغت بأمل واهن إلى الوعد الذي وعدتها به جروشنكا، وهو أنها قد تخضع «لإرادتها خضوعاً أعمى». رغم أن الوعد قد قيل على نحو غريب أيضاً. وهي تحدق الآن إلى عينيها اللتين ما تزالان تعبران عن تلك البراءة نفسها، وعن تلك الثقة نفسها، وعن تلك السعادة المشعة نفسها... وبرق الأمل في قلب كاترينا إيفانوفنا فقالت في نفسها: «لعلها ساذجة مسرفة في السذاجة !» وفي أثناء ذلك الوقت، ترفع هذه اليد إلى فمها على هون وبطء. ولكنها بعد أن قربتها من شفتيها، لبثت بضع لحظات لا تقبلها، وكأنها تفكر في شيء ما، ثم قالت فجاة وهي تمط كلماتها بطيئة، وعلى أكثر ما يكون رقة ومعسولية:
- هل تعلمين يا ملاكي؟ لقد قررت فجأة أن لا أقبّل يدك الصغيرة.
ثم انطلقت تضحك ضحكة خفيفة مرحة. قالت لها كاترينا إيفانوفنا وهي تنتفض:
- كما تشائين... ولكن ماذا بك!

- لا شيء. عيشي بعد اليوم مع ذكرى تقبيلك يدي ورفضي تقبيل يدك!
وفجاة لمع في عينيها شيء ما وحدقت في كاترينا إيفانوفنا بإمعان بالغ.
- وقحة!
بهذا قذفتها كاترينا إيفانوفنا كأنها أدركت شيئاً في هذه اللحظة فقط. لقد تخضب وجهها بحمرة شديدة، ونهضت عن مكانها فجأة، فنهضت جروشنكا أيضاً ولكن بغير إسراع.
- بعد لحظة سأذكر لميتيا أنك قبلت يدي أما أنا فرفضت أن أفعل. أوه، كم سيضحك!
- سافلة! اخرجي من هنا!
- يا آنسة، ألا تستحين أن تتكلمي على هذا النحو؟ ألا تعلمين أنه لا يليق بك أن تستعملي مثل هذه الألفاظ يا آنستي العزيزة؟
- اخرجي من هنا أيتها المخلوقة التي تبيع نفسها!
- ها، ها! تبيع نفسها بالمال؟ أنسيتِ إذاً أنك حين كنت فتاة عذراء، كنت تذهبين في الظلام إلى منازل شباب لتبيعي جمالك؟ ثقي أنني على علم بهذا الأمر.
صرخت كاترينا إيفانوفنا صرخة قوية. وانقضت عليها، ولكن أليوشا أمسكها بكل ما أوتي من قوة قائلاً لها:
- إياك أن تقولي كلمة واحدة! لا تجيبيها بشيء، لا تنطقي بحرف، سوف تنصرف، سوف تذهب فورا؟
سمعت قريبتا كاترينا إيفانوفنا صرختها، فهرعتا إلى الغرفة وتبعهما الخادم، وأحطن بها جميعا.
قالت جروشنكا وهي ترفع شالها عن الديوان:
- أنا ذاهبة! أنا ذاهبة! أليوشا، يا عزيزي، رافقني!
فقال لها أليوشا متضرعاً ضاماً يديه إحداهما إلى الأخرى:
- اذهبي، اذهبي بسرعة!
- صغيري العزيز أليوشا، رافقني! سأقول لك أثناء الطريق شيئاً يسرك، يسرك كثيراً!.. من أجلك أنت يا ملاكي إنما مثلت هذه المهزلة. رافقني، يا طائري الصغير، ولن تندم على أنك فعلت.
تحول عنها أليوشا وهو يعقف يديه. وخرجت جروشنكا راكضة وهي تضحك ملء حلقها.
وأصيبت كاترينا إيفانوفنا بنوبة عصبية عنيفة، فأخذت تبكي منتحبة، وأخذت تخنقها تشنجات قوية. ومن حولها كان الجميع يتحركون ويضطربون.
قالت لها كبرى قريبتيها:
- لقد حذرتك... أردت أن أمنعك من الإقدام على هذه الخطوة.... أنت مسرفة في الاندفاع... كيف أمكنك أن تقرري القيام بهذا المسعى؟ أنت لا تعرفين أمثال هاته المخلوقات، وهذه أسوأهن كافة، فيما يؤكد الناس... أنت مسرفة في التشبث برأيك.
زأرت كاترينا إيفانوفنا:
- إنها نمرة! لماذا صددتني عنها يا ألكسي فيدوروفتش؟ لقد أردت أن أضربها، أن أضربها؟
أصبحت كاترينا إيفانوفنا لا تسيطر على نفسها بحضور أليوشا، ولعلها لم تشأ أن تكبح جماحها.
- إنها لا تستحق إلا الجلد بالسياط. يجب أن يجلدها جلاد على رؤوس الأشهاد!..
اتجه أليوشا نحو الباب. وهتفت كاترينا إيفانوفنا تقول فجأة:
- آه... يا رب! وهو! هو أيضاً! لم يخجل أن يكون حقيراً إلى هذا الحد، أن يكون بلا قلب! لقد قصّ على هذه المخلوقة ما جرى في ذلك اليوم المشؤوم، ذلك اليوم الملعون، الملعون إلى الأبد!
«أما ذهبت تبيعين جمالك يا آنستي العزيزة!»، هي تعلم اذن إن أخاك وغد دنيء يا ألكسي فيدوروفتش!
ود أليوشا لو يجيب، ولكن الكلمات لم تسعفه. كان قلبه ينصهر ألماً.
- اذهب يا ألكسي فيدوروفتش! إنني اشعر بالعار، أشعر بالرعب! عُد غداً... أضرع إليك جاثية أن تجيئني غداً. لا تؤاخذني، سامحني، اغفر لي. أصبحت لا أعرف ماذا أصنع بنفسي!
خرج أليوشا إلى الشارع يمشي كالمترنح ترنحاً. كان يود لو يبكي مثلها. وأدركته الخادمة راكضة بضع خطوات فقالت له:
- نسيت الآنسة أن تسلمك هذه الرسالة من السيدة خوخلاكوفا.
لقد احتفظت بها الآنسة لك منذ الغداء.
- تناول أليوشا الظرف الوردي الصغير، ودشه في جيبه دون أن يوليه انتباهاً.

-11-أخرى تعرّض نفسها للضياع

المسافة بين المدينة والدير لا تزيد كثيراً على فرسخ واحد. كان أليوشا يسير بخطى سريعة على الطريق الخالي في تلك الساعة. لقد هبط الليل تقريباً، فأصبح البصر لا يستبين الأشياء واضحة على بعد ثلاثين خطوة. وفي منتصف الطريق كان على أليوشا أن يجتاز تقاطع دروب. فها هو ذا شبح يظهر تحت شجرة صفصاف وحيدة عند ذلك التقاطع، فما إن يصل أليوشا إلى ذلك الموضع حتى يندفع الشبح هاجماً عليه قائلاً له بصوت صارخ مروع:

- مالك أو حياتك!

ارتعش أليوشا ارتعاشاً قوياً، ثم قال مدهوشا:

- كيف؟ أهذا أنت يا ميتيا؟

قال دمتري فيدوروفتش وهو يضحك:

- هأ هأ هأ! لم تكن تتوقع هذا، أليس كذلك؟ لقد تساءلت أين عساي أستطيع أن أترقبك؟ قرب منزلها؟ ثم تذكرت أن هناك ثلاث طرق مختلفة يمكن أن تسلكها حين تخرج من عندها؛ وبذلك قد يفوتني أن ألقاك. فقررت أخيراً أن أرابط هنا قائلاً لنفسي إنك لا بد أن تمر بهذا المكان، إذ ليس هناك طريق آخر يؤدي إلى الدير.

طيب... قل لي الحقيقة الآن، اسحقني كما تُسحق حشرة خبيثة... ولكن ماذا بك؟

- لا شيء يا أخي... هو الخوف وحده. آه يا دمتري! دم أبينا الذي سُفح منذ قليل... (قال أليوشا ذلك وأخذ يبكي. كان يود لو يبكي منذ مدة طويلة، وها هو ذا شيء ينفجر في نفسه في تلك اللحظة)... لقد أوشكت أن تقتله.. وقد لعنته... ثم ها أنت ذا الآن تمزح... وتتفكه.. قائلا: مالك أو حياتك!

- آه... هذا هو الأمر إذاً؟ لعل مزحتي لم تكن لائقة؟ لا تتفق والظرف القائم؟

- لا... ليس هذا ما أردت قوله...

- لحظة يا أخي. انظر من حولك. الظلام دامس، أليس كذلك؟ والغيوم تغطي السماء، والريح قد هبت. لقد رابطت هنا، تحت الشجرة، لأنتظرك... فإذا أنا أقول لنفسي فجأة، أقسم بالله: «فيم التأجيل يا هذا؟ ماذا تنتظر؟ هذه شجرة... ومعك منديل وعليك قميص... فلا شيء أسهل من أن تصنع منهما حبلاً أضف الحمالة إليه، ثم تكف عن إزعاج الآخرين، ولا تدنس الأرض بعد ذلك بحقارة حياتك ولا تثقلها بدناءة وجودك!»، في تلك اللحظة التي خطرت لي فيها هذه الفكرة، إنما سمعت وقع خطواتك على الطريق! يا رب! ومضت في رأسي عندئذ فكرة تشبه أن تكون إلهاماً مباغتاً، قلت لنفسي: «هناك إذاً إنسان أحبه حقا!» هذا هو، إنه أخي الصغير، الإنسان الوحيد الذي أحبه حقا... وشعرت نحوك في تلك اللحظة بحب يبلغ من القوة أنني وددت لو أرتمي عليك معانقاً؛ غير أن فكرة غبية خطرت في ذهني عندئذ. قلت لنفسي: «سأخيفه قليلاً لأسلّيه وأضحكه، لذلك صرخت أقول كغبي: «مالك أو حياتك!»

فاغفر لي هذه المزحة البلهاء، لقد فعلتها دون تفكير... أما عن حالتي النفسية فهي مقبولة... بئس هذه الأفكار كلها على كل حال!

قل: كيف جرت الأمور هناك؟ ماذا قالت لك؟ هيّا اعدمني، هيّا اسحقني، بلا مراعاة ولا مداراة! هل طاش صوابها؟

- لا... ليس هذا هو الأمر.. كان هناك شيء آخر يا ميتيا... كان هناك..

لقد وجدتهما كلتيهما هناك...

- كلتيهما؟ من هما؟

- كانت جروشنكا عند كاترينا إيفانوفنا:

جمد دمتري فيدوروفتش دهشة وذهولاً. ثم صرخ يقول:

- مستحيل! لا، إنك حلمت! جروشنكا عند كاترينا إيفانوفنا؟

قصّ أليوشا على أخيه كل ما جرى منذ وصوله إلى منزل كاترينا إيفانوفنا، قصّ عليه تفصيلاً. دامت روايته نحو عشر دقائق، ولا نستطيع أن نقول هل كان حديثه واضحة وضوحاً تاماً، ومتسقة اتساقاً كاملاً؛ لكنه استطاع أن يذكر، بدقة، الوقائع الأساسية التي جرت، والأقوال الهامة التي تبودلت، مستعينا على إيضاحها بمشاعره الخاصة التي وصفها وصفاً حياً، مركّزاً في بعض الأحيان على هذا الأمر أو ذاك من الأمور البارزة. أصغى أخوه إلى حديثه صامتاً وقد جمدت نظرته جموداً مرعباً. وشعر أليوشا، منذ الكلمات الأولى التي قالها، أن أخاه قد فهم كل شيء منذ الآن، وأنه أدرك دلالة الحادث إدراكاً صحيحاً. كان تعبير وجهه، كلما أوغل أليوشا في سرد القصة يصبح لا متجهماً بل رهيباً... فحاجباه يقطبان، وأسنانه تكز، وجمود نظرته يتفاقم مزيداً من التفاقم، ويصبح عنيداً مروعاً... ولكن ما كان أشد دهشة أليوشا حين رأى وجه أخيه الذي كان حتى ذلك الحين متوحشاً مهدداً، يتغير على حين فجأة تغيراً عجيباً محيراً. فقد انفرجت شفتاه بغتة، وانفجر يضحك مقهقهاً قهقهة صريحة لا تغالب ولا تقاوم، حتى أصبح جسمه يتلوي تلوياً من شدة الضحك، وظل على هذه الحال مدة طويلة لا يستطيع أن يقول كلمة. ثم صاح يقول بنوع من الحماسة المرضية التي كان يمكن أن تكون وقحة لولا أنها عفوية منطلقة على سجيتها:

- إذاً لم تقبل يدها.. هأ هأ.. رفضت أن تقبل يدها وانصرفت بكل بساطة... هأهأ.. والأخرى زأرت تقول عنها إنها لنمرة!

وقالت عنها كذلك إنها تستحق أن تجلد على رؤوس الأشهاد؟ طبعا.. أنا أيضاً أرى هذا الرأي.. إنها تستحق ذلك.. تستحقه منذ زمن طويل! أنا لا أعارض أيها الأخ أن تنزل فيها هذه العقوبة، ولكن يجب أن أشفى أولاً. إنني أفهمها هذه الملكة من ملكات الوقاحة! إن رفضها تقبيل اليد يعبر عن حقيقتها، إنها هي بعينها، هذه البنت الجهنمية! إنها ملكة جميع البنات الجهنميات اللواتي يمكن تصورهن في هذا العالم! ملكة جميع الأعمال الشيطانية التي يمكن أن تخرج من جوف جهنم! هذا كله مثير للإعجاب في نوعه! إنها في نوعها مدهشة إذن لقد هربت وعادت إلى منزلها.. أنا الآن سأذهب إليها، هه؟ لا تُدنِّ يا أليوشا! أنا أعلم حق العلم أن ذبحها قليل عليها...

قال أليوشا في حزن:

- وكاترينا إيفانوفنا؟

- إني أتصورها هي أيضاً، أراها رؤية كاملة، أنفذ إلى نفسها كما لم أنفذ إليها قبل الآن في يوم من الأيام! أكتشفها اكتشاف القارات الأربع أو قل القارات الخمس! ما هذه الخطوة التي اتخذتها! أن تلقى جروشنكا ولكن هذه هي، هي بعينها، هذه هي كاتنكا التي لم تتهيب، بعد خروجها من المدرسة الداخلية بزمن قصير، لم تتهيب لرغبتها الكريمة في إنقاذ أبيها، أن تذهب إلى بيت ضابط فظ غبي، معرضة نفسها لأسوأ الأذى وأبشع الإهانة! ولكن يا لتلك الكبرياء التي تفيض بها نفسها، يا لذلك الشمم الذي يملأ جوانب قلبها يا لهذا الميل إلى المخاطرة ولهذا التحدي للقدر، التحدي الذي لا حدود له! قلت إن خالتها أرادت أن تمنعها؟ هل تعلم أن خالتها هذه لا تقل عنها ميلاً إلى التسلط؟ إنها أخت جنرالة موسكو ولقد كانت في الماضي تتخذ أوضاعا فيها من الأبهة والعظمة أكثر مما في الأوضاع التي تتخذها جنرالة موسكو، ولكن زوجها اتهم بالاختلاس، فأقيل من منصبه، وفقد كل شيء، حتى أراضيه، فما لبثت زوجته المتكبرة أن خفضت جناحيها، وغيرت لهجتها، ولكنها لم تستطع أن ترتفع ثانية منذ ذلك الحين. إذاً لقد أرادت أن تمنع كاتيا من لقاء جروشنكا، ولكن تلك لم تنتصح بنصائحها. «أستطيع أن أتغلب على كل عقبة، لا شيء يمكن أن يصمد في وجهي، يكفي أن أشاء كي أسحر حتى جروشنكا». ذلك ما قالته كاترينا إيفانوفنا لنفسها، وآمنت به وازدهت بنفسها! فمن المذنب في هذه الحالة؟ لعلك تظن أنها كانت البادئة في تقبيل يد جروشنكا عن عمد ومكر؟ وبعد حساب وتفكير! أبدا... لقد كانت صادقة كل الصدق في تولهها بحبها، لا بحب جروشنكا الحقيقية، بل بحب حلمها هي بها، بحب الوهم الذي قام في ذهنها هي عنها. وذلك لأن الحلم حلمها والوهم وهمها... قل لي يا أليوشا: ماذا فعلت حتى استطعت أن تفلت من تلك النساء؟ أحسب أنك هربت تركض ركضاً، شامراً ثوبك الرهباني، هه؟ هأ هأ هأ...

- أخي! أظن أنك لم تدرك، بعد، مدى الإساءة الكبيرة التي ألحقتها بكاترينا إيفانوفنا حين حكيت لجروشنكا قصة زيارتها لك في ذلك اليوم المشؤوم!

لقد صرخت هذه المرأة في وجهها قائلة في غلظة وفظاظة: «ذهبت سراً تبيعين جمالك لشباب !» ليس هنالك إهانة أخطر من هذه الإهانة، يا أخي! لقد كان يعذب أليوشا تعذيبا خاصاً تصوره أن أخاه يبدو مغتبطاً لمذلة كاترينا إيفانوفنا، رغم أن من المستحيل أن يكون ذلك ما يشعر به في حقيقة الأمر.

- آه...

كذلك تأوه ديمتري فيدوروفتش في تلك اللحظة وقد اكفهر وجهه اكفهراراً رهيباً، ولطم جبهته بيده. لقد أدرك في تلك اللحظة فقط، هذا الجانب من جوانب الموقف، رغم أن أليوشا لم يفته أن ينقل إليه أثناء سرده لوقائع المشهد الذي حدث، منذ بضع لحظات، الأقوال المهينة والصرخة التي أطلقتها كاترينا إيفانوفنا حين قالت تخاطب أليوشا «إن أخاك وغد حقير!».

قال دمتري:
- من الجائز فعلاً أن أكون قد حدثت جروشنكا عن ذلك «اليوم المشؤوم»، على حد تعبير كاتيا... صحيح، لقد حدثتها عن ذلك... تذكرت الآن! وقع هذا أثناء تلك الرحلة إلى موكرويه... كنت ثملا.... وكانت الغجريات تغني... ولكنني رويت القصة باكياً معذب النفس، ضارعاً أمام صورة كاتيا، وفهمتني جروشنكا حق الفهم.. فهمت كل شيء... أتذكر الآن هذا... وأخذت تبكي هي نفسها.. شيطان يأخذ النساء هل من الممكن أن يكون الأمر غير ما هو الآن؟... لقد بكت في ذلك الحين، ثم ها هي ذي الآن... الآن «تسل خنجراً تطعن به القلب»!... هكذا هنَّ النساء!...
قال دمتري فيدورفتش ذلك، ثم خفض بصره، وأخذ يفكر. وقال بعد هنيهة بصوت قائم حزين.
- صحيح إنني وغد. لا شك في ذلك... سيان أن أكون قد بكيت وأن لا أكون قد بكيت.. ليس لهذا قيمة! ليس ينفي بكائي أنني وغد حقير! قل لهنَّ هناك إنني أقبل هذا النعت، إذا كان في ذلك تعزية لهن. وحسبنا الآن ما قلناه! وداعا! فيم المزيد من الثرثرة؟ وليس في الأمر ما يفرح.. ستسير أنت في طريقك، وأسير أنا في طريقي.. ثم إنني لا أريد أن أراك بعد الآن، اللهم إلاّ أن يكون ذلك في آخر نهاية! أستودعك الله يا ألكسي!
صافح دمتري فيدوروفتش أخاه أليوشا بقوة، ومضى يسير كأنه ينتزع نفسه فجأة من شيء ما، مضي يسير غاضاً بصره، دون أن يرفع رأسه. واتجه نحو المدينة بخطى سريعة. اتبعه أليوشا نظرة دون أن يستطيع أن يصدق أن أخاه مضي نهائيا.
- لحظة يا ألكسي! هناك اعتراف أخير...
قال دمتري فيدوروفتش ذلك، وقفل راجعاً على حين فجأة. وتابع يقول:
- هو اعتراف لك وحدك! انظر إلي يا أخي! أنعم النظر إلي! إن رجساً كريهاً يتهيأ هنا، هل ترى أين؟ هنا (قال دمتري كلمة «هنا» وهو يلطم صدره بقبضة يده وقد بدا في وجهه تعبير غريب، كأن الرجس الذي يشير إليه إنما يوجد مدفوناً في هذا المكان بعينه، مختبئا في جيب السترة أو في كيس معلق بالعنق). إنك تعرفني الآن: أنا وغد، وغد أصيل، وغد معترف بها إلا فلتعلم مع ذلك أنه لا شيء مما فعلته في الماضي ومما قد أفعله في الحاضر والمستقبل، يمكن أن يعادل في حقارته الدنيئة الكريهة ما أحمله في نفسي، في هذه اللحظة، هنا، في هذا الموضع، على صدري، من رجس يتحرك ويختمر ويمكنني أن أكبته... ذلك أنني حر أستطيع أن أوقفه وأستطيع أن أحققه، لاحظ هذا!.. ولكن ألاّ فلتعلم أنني سأحققه، وإنني لن أوقفه! لقد حكيت لك كل شيء منذ بضع ساعات، حكيت لك كل شيء إلا هذا الأمر وحده، لأنني استحيت أن أعترف به، نعم حتى أنا استحيت أن أعترف به! ما يزال في وقتي متسع لأن أتوقف، وإذا أنا توقفت عن الانحدار، فسأستطيع منذ الغد أن أسترد نصف كرامتي الضائعة، على الأقل... ولكنني لن أتوقف عن الانحدار! سأمضي في إنقاذ خطتي السوداء حتى النهاية، وأحبّ أن تكون شاهداً على قراري الذي اتخذته سلفاً وأنا في تمام وعيي! رعب وظلمات! لن أشرح لك شيئا، ستعرف كل شيء قريبا. زقاق عفن وامرأة جهنمية! وداعاً. لا تصل من أجلي، لا تدع لي... فأنا لا أستحق ذلك... ثم إن صلاتك من أجلي ودعاءك لي أمران نافلان لا حاجة بي إليهما، أؤكد لك هذا. والآن، انصرف!...
قال دمتري فيدوروفتش ذلك، ومضى في هذه المرة نهائياً. واستأنف أليوشا سيره في الطريق إلى الدير. «كيف هذا؟ ألن أراه بعد اليوم قط؟ ماذا يريد أن يقول؟» بهذا كان أليوشا يحدث نفسه دون أن يستطيع قبول هذه الفكرة، دعك من كلامه! سأذهب إليه غداً، وسأراه حتما، سأذهب إليه خصيصا. «كيف يمكنه أن يقول كلاماً كهذا؟»..
دار أليوشا حول الدير واجتاز غابة أشجار الصنوبر ليذهب إلى الصومعة رأساً. فتح له الباب، رغم أن القاعدة هي أن لا يسمح الأحد بالدخول في هذه الساعة المتأخرة. وانقبض صدر أليوشا حين دخل الحجرة. سال نفسه: لماذا؟ لماذا ابتعدت؟ لماذا أرسلني إلى الدنيا»؟ هنا مكان صمت وقداسة، أما هناك فيسود الأضطراب وتخيم الظلمات، هناك يتيه الإنسان ويضل، عم يهوي...
وجد في الصومعة الراهب المبتدئ بورفيري والراهب الكاهن بائيسي الذي ظل طوال النهار يجيء ساعة بعد ساعة يستطلع أخبار صحة الأب زوسيما. كانت حالة الأب زوسيما تتفاقم مزيداً من التفاقم، كما عرف أليوشا ذلك مذعوراً. حتى لقد ارتُئِي الاستغناء عن الحديث الذي اعتاد الأب زوسيما أن يجريه في المساء مع رهبان الدير. لقد جرت العادة أن يجتمع الرهبان كل مساء، بعد القداس، وقبل راحة الليل، في صومعة الشيخ، فكان كل واحد منهم يعترف له جهاراً بالخطايا التي ارتكبها أثناء النهار، وبالخواطر الآثمة التي ساورت ذهنه، وبالأحلام المحظورة التي رآها، وبالإغراءات المباغتة التي فاجأته، وحتى بالمشاجرات الداخلية إذا كان قد حدث شيء من ذلك. وكان بعضهم يجثون على ركبهم ليعلنوا أخطاءهم. وكان الشيخ يصغي إليهم، ويفصل في أمورهم، ويصالح بينهم ويرشدهم، ويعرض عليهم كفارات، ثم يباركهم جميعاً قبل أن يصرفهم فينفضوا عنه. وعلى هذه الطريقة في الاعتراف الديني إنما كان يعترض خصوم طريقة المشايخ، قائلين إنها تبتذل هذا السر من الأسرار المقدسة وأنها بدعة تفسد الدين وتدنس العقيدة، وتلك تهمة باطلة في واقع الأمر. حتى لقد حاول بعضهم أن يبرهن لسلطات الأسقفية أن هذا النوع من الاعتراف لا يقتصر شره على أنه لا يحقق الهدف الأخلاقي المنشود، وإنما هو يقصد أن يقود النفس إلى الخطيئة والغواية فعلا. وقالوا فيما قالوا إن عدداً كبيرة من الرهبان يكرهون أن يكشفوا عن أنفسهم للشيخ، وأنهم لا يذهبون إليه إلا لأن الآخرين يفعلون ذلك، فهم يخشون أن يتهموا بالتكبر والاستعلاء والتمرّد إذ هم امتنعوا عن الذهاب إلى الشيخ كسائر من عداهم. بل لقد حُكي فيما حكي أن هناك رهبانا كانوا يتفقون فيما بينهم أحيانا قبل أن يذهبوا إلى الاعتراف في المساء على أن يمثلوا أدواراً معينة: «سأقول للشيخ إنني غضبت منك، فتؤكد أنت ذلك، حتى يكون هنالك ما نقوله فنتخلص من هذه المهمة». وكان أليوشا يعرف أن ذلك يحدث فعلاً في بعض الأحيان. وكان لا يجهل أيضاً أن هناك رهبانا كانوا يستاءون استياء شديداً من أن رسائل أقربائهم التي ترد إليهم، إنما يستلمها الشيخ أولاً فيفضها ويطلع عليها قبل أن يطلع عليها أصحابها. الحق أن الأصل في هذا الأسلوب أنه يتبع برضى الرهبان أنفسهم، عن اندفاع روحي، وخضوع نفسي، وإذعان إرادي، تحقيقاً لأهداف السلامة، وغايات الإرشاد المخلص. ومع ذلك كان الرهبان في الواقع يرضخون لهذا الأمر في كثير من الأحيان، كما برهنت التجربة على ذلك رضوخاً لا يشتمل على كثير من الصدق، ويسلمون به تسليماً فيه مذلة مصطنعة وخشوع مفتعل. على أن القدامى والحكماء من أفراد هذه الرهبنة كانوا يصرون على رأيهم، فهم يرون أن «من دخل الدير نشداناً للخلاص والسلامة بنية صادقة فلا بد أن يجني فائدة روحية وأخلاقية كبرى من مراعاة هذه القواعد أو الكفارات المختلفة، وأن التقيد بهذه القواعد والكفارات لا بد أن يعود عليهم بنفع عظيم على طريق الخلاص، وأن أولئك الذين تثقل هذه الأمور عليهم ويتذمرون منها، ليسوا برهبان حقاً، وما كان ينبغي لهم أن يدخلوا الدير، لأن المكان الذي خلقوا له إنما هو الدنيا ؛ وأن هؤلاء لا يمكن أن يفلتوا من الخطيئة ولا أن ينجوا من الشيطان لا في الدنيا ولا في الكنيسة على السواء، فلا مجال والحالة لقولك إن هذا الاعتراف اليومي يحض على الخطيئة».
أسر الأب بائيسي إلى أليوشا بعد أن باركه، قائلاً بصوت خافت:
- إنه ضعيف جدا قد سيطر عليه الوسن فيصعب إيقاظه، والأولى أن لا يوقظ على كل حال. لقد فتح عينيه خمس دقائق، ورجانا أن تبلغ الرهبان بركته وأن نطلب منهم أن يصلوا في الليل من أجله. وفي نيته أن يتناول القربان المقدس غدا مرة أخرى. وقد تذكرك يا ألكسي، وأراد أن يعرف هل ذهبت، فأجبناه بأنك مضيت إلى المدينة، فقال: «لقد باركته من أجل أن يمضي إلى المدينة، فهناك مكانه الآن لا هنا». ذلك ما قاله عنك. وكان يتكلم عنك بمحبة واضحة، وكان ظاهراً أنه مهتم بمصيرك اهتماماً كبيراً. فهل تدرك هذا الشرف الذي تناله؟ ولكني أتساءل لماذا أمرك أن تعيش في الدنيا زمناً؟ معنى ذلك أنه يتنبأ بشيء عن قدرك! اعلم مع ذلك يا ألكسي أن غاية عودتك، إذا عدت إلى الدنيا، يجب أن تكون العيش بروح الخضوع للقاعدة التي ألزمك بها شيخك، لا العيش في جو الأفكار الطائشة والمباهج المبتذلة.
وخرج الأب بائيسي. فأما إن الشيخ بسبيل الانطفاء، فذلك أمر أصبح أليوشا لا يشك فيه، ولكن الشيخ يمكن أن يعيش يوم أو يومين. لذلك قرر أليوشا، بصلابة وحرارة أن لا يبارح الدير في الغد رغم الوعود التي قطعها على نفسه بالذهاب إلى أبيه، وبالذهاب إلى السيدتين خوخلاكوفا، الأم وابنتها، وبالذهاب إلى كاترينا إيفانوفنا، وكذلك رغم القرار الذي اتخذه هو نفسه بالذهاب إلى أخيه دمتري. فلن يترك الدير، وإنما يظل قرب شيخه حتى موته. وامتلأ قلبه بحب قوي للشيخ، ولام نفسه لوماً مراً على أنه في أثناء زيارته للمدينة قد نسي، ولو لحظة واحدة، ذلك الإنسان الذي تركه في الدير بين يدي الموت، والذي يحترمه أكثر مما يحترم أي إنسان في هذا العالم. ودخل أليوشا غرفة نوم الشيخ، فجثا على ركبتيه، وسجد أمام الشيخ النائم. كان الشيخ يرقد ساجياً بلا حركة، وكان تنفسه الضعيف جدا يجري مطردا منتظماً، رغم انه لا يكاد يدرَك. وكان وجهه ساكناً هادئاً.
فلمّا عاد أليوشا إلى الغرفة الأخرى - وهي الغرفة التي استقبل فيها الشيخ ضيوفه صباحاً - اضطجع، دون أن ينضو عنه ملابسه، وبعد أن خلع حذاءيه وحدهما، اضطجع على الديوان الصغير الضيق الصلب، المنجد بالجلد، الذي اعتاد منذ زمن طويل أن ينام عليه كل ليلة. كان أليوشا يكتفي بأن يضع تحت رأسه وسادة، مستغنياً منذ مدة طويلة عن وضع الفراش الذي كلمه أبوه عنه. وكان يكتفي بأن يخلع عنه ثوب الراهب ليتخذ منه غطاء يلتحفه. ومع ذلك جثا أليوشا على ركبتيه قبل أن ينام، ولبث يصلي زمنا طويلا. لم يدع الله في صلاته الحارة أن يهديه في اضطرابه لأن ظمأه الوحيد هو أن يظفر بمشاعر الحنان السعيد الذي عرفه من قبل والذي كان يغزو نفسه دائما بعد تلاوة الآيات التي تمجد الله... فتلك هي صلاة الليل كلها عادة... إن الفرح الذي يغمر قلبه في تلك اللحظات كان

يكفل له نوماً هادئاً مريحاً. وأنه ليصلي في ذلك المساء إذا هو يحس فجأة بوجود ذلك الظرف الصغير الوردي الذي أعطته إياه خادم كاترينا إيفانوفنا حين أدركته في الشارع. فاضطرب أليوشا، ولكنه أكمل صلاته، حتى إذا فرغ منها، فض الظرف بعد لحظات من تردد، ونظر إلى ذيل الرسالة فإذا هو يقرأ توقيع ليزا، بنت السيدة خوخلاكوفا، الصبية الصغيرة التي سخرت منه ذلك السخر كله في الصباح بحضور الشيخ. وأخذ أليوشا يقرأ رسالتها إليه:

ألكسي فيدوروفتش! أكتب إليك خفية، على غير علم من الجميع، ومن أمي أيضاً، وذلك عيب، أنا أعرف ذلك. ولكن أصبح يستحيل علي أن أعيش دون أن أبوح لك بما ولد في قلبي، ودون أن أطلعك على العاطفة التي تنتابني وهو ما يجب أن يجهله جميع الناس الآن، إلا نحن الاثنين. ولكن كيف أتدبر الأمر لأقول لك ما أتحرق شوقاً إلى قوله؟ يقال إن الورق لا يمكن أن يحمر خجلا وحياء... ولكنني أؤكد لك أن هذا القول خطأ، لأن الورق يحمر الآن أمامي مثلما أحمرُ أنا! عزيزي أليوشا، إنني أحبك، أحبك منذ طفولتي، منذ سني موسكو التي كنتَ فيها مختلفاً عنك الآن اختلافاً كبيراً. لقد أحببتك وسأحبك مدى عمري. اختارك قلبي لأشاطرك الحياة كلها، ولنختم أيامنا معاً في الشيخوخة. شريطة أن تترك الدير طبعا، أما عن السن، فإن في وسعنا أن ننتظر المدة التي يقتضيها القانون. وإلى أن يحين ذلك الأوان أكون أنا قد شفيت من مرضي شفاءً كاملاً، فاستطيع أن أمشي وأن أرقص. ذلك أمر لا ريب فيه.

ها أنت ذا ترى أنني فكرت في كل شيء. ومع ذلك هناك نقطة عجزت عن أن أستجمع فيها شتات فكري: ما عسى أن يكون رأيك فيَّ بعد أن تقرأ هذه الرسالة؟ أنا صبية شيطانة، أكثر من الضحك عادةً، حتى لقد أغضبتك في هذا الصباح. ولكنني أحلف لك أنني صليت منذ قليل أمام إيقونة العذراء المقدسة قبل أن أقرر الكتابة إليك، وإنني لأصلي حتى هذه الدقيقة، وأوشك أن أبكي!

هذا سري وضعته بين يديك. وإني لأتساءل كيف سأستطيع أن أنظر إليك غدا حين تجيء؟ أوه! ألكسي فيدوروفتش! ما عسى يحدث إذا أنا لم أملك أن أسيطر على نفسي فإذا أنا الحمقاء أنفجر ضاحكةً مقهقهة حين أراك. كما حدث لي هذا من قبل. لسوف تظنني عندئذ فتاة خبيثة ساخرة، ولن تصدق عندئذٍ ما عبرت لك عنه في رسالتي. لذلك أضرع إليك، يا صديقي العزيز، إذا كنت ترحمني بعض الرحمة

أن لا تنظر إلى عينَيّ كثيراً حين تجيء إلينا غداً، ذلك أنني قد يتملكني ضحك لا سبيل إلى مغالبته متى التقى نظري بنظرك، ولا سيما بسبب هذا الثوب الطويل التي ترتديه... حتى في هذه اللحظة، أشعر برعدة تسري في جسمي حين أتصور أن من الممكن أن يحدث شيء من ذلك. أستحلفك أن لا تنظر إلى البتة، خلال مدة من الوقت، حين تجيء إلينا غداً، وإنما تلتفت بنظرك نحو أمي أو نحو النافذة...

ها أنذا كتبت إليك رسالة حب، رباه، ما هذا الذي فعلته؟ آه يا أليوشا، لا تحتقرني! إذا كان ما أفعله مشيناً جداً وإذا كنت أحدث لك ضيقاً وألماً فاغفر لي! واعلم على كل حال أن سري الذي قد يضيع سمعتي - ربما إلى الأبد - هو الآن بين يديك..

سأبكي في هذا اليوم حتماً. وإلى اللقاء، بانتظار المقابلة المرعبة في الغد. ليزا.

حاشية: أليوشا، يجب أن تأتي قطعاً، قطعاً، قطعاً؛ ليزا!.

قرا أليوشا الرسالة مدهوشاً، وأعاد قراءتها مرتين، ثم فكر قليلاً، فإذا هو يضحك فجأة بغير صوت، شاعراً بسعادة ثم إذا هو يرتعد بعد ذلك حين تصوّر أن هذا الضحك قد يكون إثماً. ولكنه عاد يضحك ضحكاً هادئاً بعد لحظة، وقد غمرته تلك الهناءة الهادئة نفسها. وطوى الرسالة ببطء، وأعادها إلى الظرف، ورسم على نفسه إشارة الصليب، ورقد. وفجأة زال من نفسه كل اضطراب. «اللهم اشملهم برحمتك، اشمل برحمتك جميع أولئك الذين لقيتهم في هذا النهار، لأنهم أشقياء، لأن العاصفة تُهَمهم في نفوسهم. اللهم احرسهم وسدد خطاهما أنت سيد المصائر، وإن لك طرقا فأنقذهم يا رب بطرقك. أرسل إليهم السعادة لأنك أنت المحبة»!

بهذا تمتم أليوشا وهو يرسم إشارة الصليب، ثم نام نوماً هادئاً.

الباب الرابع: التمزّقات

-1-الأب فيرابونت

استيقظ أليوشا في ساعة مبكرة قبل أن يطلع الصباح. وكان الشيخ قد صحا فلا يستطيع النوم، وكان يشعر بوهن شديد وضعف هائل، ولكنه أصر على أن يبارح سريره وأن يجلس على مقعد. إنه كامل الوعي، وإن وجهه يبدو مضيئا حتى لكأنه فرح، رغم آثار التعب الشديد الظاهرة فيه. وإن نظرته مرحة باشة هاشة مشجعة.

قال لأليوشا: قد لا أعيش إلى آخر هذا اليوم.

ثم أعرب عن رغبته في أن يعترف وأن يتناول القربان المقدس فوراً. وكان الأب بائيسي هو الذي يقوم له بدور الكاهن في اعترافه. فبعد أن أتم الشيخ التناول بنوعيه، استعد للقيام «بالمسحة الأخيرة». فاجتمع الرهبان الكهنة في حجرته التي أخذت تمتلىء بالنساك شيئاً فشيئا. وكان النهار قد طلع حين أخذ الرهبان الذين يعيشون في الدير يتوافدون هم أيضاً. وبعد القداس أظهر الشيخ نيته في توديع الجميع، فأخذ يقبل كل واحد. وإذ كانت الحجرة ضيقة فقد كان الواصلون الأول يتركون المكان للواصلين بعدهم. ولبث أليوشا إلى جانب الشيخ زوسيما الذي كان قد جلس على مقعده من جديد. فكان الشيخ يتكلم ويعلم بقدر ما كانت تسمح له قواه، وكان صوته، رغم ما أصابه من ضعف شديد، ما يزال صلباً.

«انقضت سنين كثيرة وأنا أعلمكم حقائق الدين. انقضت سنين كثيرة وأنا أتكلم إذن بصوت عال! وقد بلغت من شدة التعود على مخاطبتكم وعلى البحث عن الحقيقة معكم حين أتحدث إليكم، أيها الآباء والأخوة الأعزة، أنني أصبحت لا أستطيع الاستغناء عن هذا الأمر ولو أردت، والكلام أصبح أسهل علي من الصمت في هذه اللحظة رغم ضعفي» (كذلك قال مازحا، وهو يجيل على الرهبان الذين يزدحمون حوله نظرة ودوداً حنوناً).

تذكر أليوشا فيما بعد بعض الأفكار التي عبّر عنها الشيخ في ذلك اليوم. ورغم أن الشيخ قد تكلم كلاماً واضحاً متميزاً، ورغم أن صوته ظل صلباً صلابة كافية، فإن أقواله لم يكن فيها تسلسل كثير. لقد عالج مسائل كثيرة، كأنه يريد أن يقول كل ما كان يزخر به قلبه، وأن يفصح مرة أخيرة، وهو على مقربة من الموت، عن أعمق خطرات نفسه، عن تلك الخطرات التي لا يتوصل المرء أثناء حياته أن ينقلها إلى الناس نقلا كاملا. وكان لا يفعل ذلك بنية تعليم الآخرين بقدر ما كان يفعله مدفوعة إليه بظمأ حار إلى إشراك كل ما حوله ومن حوله في الفرحة والحماسة اللتين كانتا تملآن نفسه، وإلى نشر حبه في العالم مرة أخيرة.

كان الشيخ يعلّم قائلاً وفقا لما تذكره أليوشا: «أحبوا بعضكم بعضاً أيها الآباء. أحبوا جميع أبناء الرب. لا تظنوا أنكم أقدس من الدنيويين لأنكم اخترتم أن تعيشوا في الدير، ولأنكم مسجونون داخل جدرانه. بالعكس: إن كل واحد من الذين جاءوا إلى هنا قد أحس واعترف هو نفسه، من مجرد اعتكافه في الدير، بأنه كان شراً من الإنسان العادي وأسوأ من جميع الدنيويين وجميع الناس عامة الذين بقوا في الجهة الأخرى... هذه الحقيقة يجب على كل راهب أن يتشربها تشرباً ما ينفك يزداد عمقا كلما طالت حياته في الدير. فلولا أن الأمر كان كذلك، لما كان ثمة أي سبب يبعث على الالتجاء إلى الدير. يجب على الراهب أن يدرك أنه ليس أسوأ من الدنيويين فحسب، بل إنه كذلك مذنب في حق جميع البشر الآخرين، مسؤول عن كل الشر الذي يقع على الأرض بفعل الأفراد أو بفعل الجماعات. فبهذا الشرط وحده إنما يتحقق الهدف من اعتزالنا في الدير. اعلموا أيها الأخوة الأعزة أن كلاً منا يتحمل حتماً المسؤولية عن جميع البشر وعن كل شيء على الأرض لا بسبب الخطيئة الأصلية المشتركة وحدها، بل إن كلا منا مسؤول عن جميع ذنوب المجتمع وعن أخطاء كل إنسان على هذه الأرض. إن الشعور بهذه الحقيقة هو الذي يتوج الحياة الرهبانية، كما يتوج من جهة أخرى حياة كل إنسان أيا كان. ذلك أن الرهبان لا يختلفون عن سائر البشر، كل ما هنالك أنهم يحاولون أن يصيروا إلى ما ينبغي لكل الناس أن يكونوا عليه. فإذا تحقق هذا الهدف تنفتح قلوبنا أخيراً للحب اللانهائي، الشامل، الذي لا يرتوي ظمأه قط. وعندئذ سوف يجد كل منكم في نفسه القدرة على غزو العالم كله بالحب، وعلى أن يكفر بدموعه عن خطايا الأرض...

ألا فلتصغوا جميعاً إلى صوت قلوبكم، ألا فلتعترفوا جميعاً بأخطائكم لأنفسكم في غير مهادنة. لا تخشوا خطاياكم وإن تكن واضحة لأبصاركم، شريطة أن تندموا على ارتكابها وأن تتوبوا عنها! ولكن إياكم أن تفرضوا على الرب شروطاً، إيّاكم والتسويات مع الرب. وأكرر لكم خاصة: إياكم والزهو والعلف. لا تتعالوا. لا تتعالوا على الصغار، ولا تتعالوا كذلك على الكبار. لا تكرهوا أولئك الذين ينبذونكم ويهينونكم ويهاجمونكم ويغتابونكم. ولا تكرهوا الملحدين، ودعاة الشر والماديين، لا تكرهوا حتى أسوأ هؤلاء وأخبثهم، ناهيكم عن أخيارهم، لأن بينهم أخياراً، في عصرنا هذا خاصة. اذكروهم في صلواتكم على النحو التالي: «أنقذ جميع الناس يا رب! أنقذ جميع الذين لا يصلي لهم أحد، وأولئك الذين يريدون أن يصلوا لك!» ولكن عليكم أن تبادروا فتضيفوا إلى ذلك فوراً: «اللهم إني لا أسألك هذا زهواً بنفسي، فإنني شر الناس طراً وأشقاهم قاطبة»... «أحبوا أبناء الرب، أحبوا الشعب، لا تسمحوا للغرباء أن يسلبوكم القطيع. فإذاً استسلمتم للكسل، وسيطر عليكم وهم الاكتفاء والتفوق، أو إذاً انسقتم إلى حب الرخاء والخيرات المادية (وذلك أسوأ وأنكى)، فإن رجالاً من جميع البلاد سيظهرون عندئذ ليسلبوكم قطيعكم. بشروا بالأناجيل في صفوف الشعب بغير كلال ولا ملال... إياكم والطمع، إياكم والتعلق بالذهب أو الفضة.... ازهدوا في امتلاك الذهب والفضة... آمنوا بالله، وارفعوا راية العقيدة بيد قوية صلبة، ارفعوها عالية، عالية...»

كان الشيخ يقول كلاما فيه من التقطع والتفكك أكثر مما يظهر منهما هنا في ما دونه بعد ذلك أليوشا. كان يتوقف عن الكلام من حين إلى حين، كأنما ليستجمع قواه، وكان يلهث لهاثاً واضحاً، ولكنه كان يشعر بنوع من الحماسة. وكان الحشد يصغي إليه في تأثر وخشوع، رغم أن أقواله بدت غريبة لبعضهم، غامضة لبعضهم الآخر... وقد تذكر المستمعون هذه المعاني التي عبر عنها الشيخ، تذكروها فيما بعد.

وقد تغيب أليوشا لحظات، فما كان أشد دهشته حين عاد فلاحظ اضطراباً شديداً قد استولى على جميع من كانوا في الصومعة ومن كانوا يحتشدون ويزدحمون وراء الباب. كان جميع الرهبان في حالة انتظار شديد يمازجه قلق لدى بعضهم، ويصطبغ بجلال وأبهة لدى بعضهم الآخر. كان يبدو عليهم جميعاً أنهم يرتقبون حدوث معجزة خارقة بعد موت الشيخ فوراً. قد تدل هذه الحالة النفسية على شيء من خفة وطيش، ولكنها غزت قلوب جميع الرهبان، حتى أكثرهم هدوءاً وأشدهم صرامة. وكان وجه الكاهن الراهب بائيسي يعبر عن خطورة خاصة.

لقد غاب أليوشا لحظة لأن راكيتين الذي عاد من المدينة حاملاً إليه من السيدة خوخلاكوفا رسالة غريبة بعض الغرابة، قد أرسل إليه أحد الرهبان يستدعيه خفية. إن هذه الرسالة تبلغ أليوشا خبراً طريفاً جاء الآن في أنسب وقت. يتذكر القارئ أن من بين نساء الشعب المؤمنات اللواتي جئن أمس إلى الشيخ ليحيينه وليتلقين بركته كانت هنالك امرأة عجوز من بلدتنا اسمها بروخوروفنا وهي أرملة صف ضابط. إن هذه المرأة قد سألت الشيخ هل في وسعها أن تطلب أقامة صلوات في الكنيسة على روح ابنها فاسيا الذي سافر بمهمة إلى منطقة نائية من سيبيريا تقع في جهة ايركوتسك، ثم لم تصلها أنباؤه منذ سنة، سألت هل في وسعها أن تطلب إقامة صلوات على روحه كما لو كان قد مات؟ وقد نهاها الشيخ عن هذا نهياً قاسياً، ووصف اللجوء إلى مثل هذه الصلوات بأنه شعوذة وسحر. ولكنه غفر لها بعد ذلك بسبب جهلها، وختم كلامه لها من باب المواساة قائلاً لها كأنه قد وهبت له القدرة على القراءة في كتاب «المستقبل» (هذه هي العبارة التي استعملتها السيدة خوخلاكوفا في رسالتها)، أن «ابنها فاسيا ما يزال على قيد الحياة حتما، وأنه عائد إليها قريبا، أو أنه سيكتب إليها على كل حال، وأن عليها أن ترجع إلى بيتها مطمئنة تنتظر أوبته. فما الذي حدث؟ (تابعت السيدة خوخلاكوفا بحماسة) حدث أن النبوءة قد تحققت كاملة، بل أكثر من ذلك؟ فإن المرأة العجوز ما إن رجعت أمس إلى مسكنها حتى أعطيت رسالة وصلت من سيبيريا أثناء غيبتها، وفي هذه الرسالة التي كتبها إليها فاسيا في طريق عودته، من «إيكاتيرنبورج»[100]. يبلغ الولد أمه أنه عائد إلى روسيا بصحبة موظف، وأنه «يأمل أن يستطيع تقبيل أمه» بعد ثلاثة أسابيع في أكثر تقدير.

إن السيدة خوخلاكوفا ترجو أليوشا ملحةً أن ينقل إلى علم كبير الرهبان وسائر أهل الدير نبا هذه «المعجزة الجديدة من معجزات النبوءة»، وتقول له هاتفة في ختام رسالتها: «يجب أن يعلم جميعهم هذا النبأ، يجب أن يعلمه جميعهم حتماً!» وكان واضحاً أنها قد كتبت هذه الأسطر متعجلة تعجلاً شديداً، وكان واضحاً أن كل كلمة من كلماتها تزخر بانفعال قوي وتأثر عميق. غير أن أليوشا لم يحتج إلى إبلاغ الرهبان النبأ، لأنهم كانوا قد اطلعوا عليه، لأن راكيتين، حين كلف أحد الرهبان باستدعاء أليوشا إليه، قد رجاه في هذه المناسبة نفسها أن «يبلغ الأب المحترم بائيسي، بكثير من الاحترام، أنه يود لو يراه حالا ليكلمه في أمر هام جدا يرى أن من واجبه أن يطلعه عليه في غير إبطاء، بسبب ما تتصف به الظروف الراهنة من خطورة خاصة، آملا في كثير من المذلة والتواضع أن تغفر له هذه الجرأة». ولما كان الراهب قد نقل هذه الرسالة إلى الأب بائيسي قبل أن يستدعي أليوشا، فإنه لم يبق على أليوشا بعد عودته إلى الصومعة وقراءة الرسالة إلا أن يطلع عليها الأب بائيسى بصفتها مجرد وثيقة تؤكد الخبر. أخذ هذا الرجل الصارم الرياب يقرأ الرسالة مقطبة حاجبيه، فلم يملك هو أيضاً حين اطلع على

رواية «هذه المعجزة» أن يمسك عن إظهار بعض العواطف التي هزت نفسه، فإذا نظرته تسطع، وإذا شفتاه تلينان قليلا، وإذا فمه يبتسم ابتسامة رزينة عميقة، وإذا لسانه فلت منه هذه العبارة على غير إرادة منه:
- سنرى معجزات أخرى كثيرة!
فردّد الرهبان الذين كانوا يحيطون به، رددوا يقولون:
- سنرى معجزات أخرى كثيرة!
ولكن الأب بائيسى قطب حاجبيه من جديد، ورجاهم أن يمتنعوا، الآن على الأقل، عن التعليق على هذا الحادث جهارة، وأن لا ينقلوه إلى أحد قبل الأوان:
- يحسن أن ننتظر معرفة تفاصيل أخرى أشد إقناعاً، لأن الدنيويين كثيرا ما يظهرون خفة وطيشاً في هذه الأمور.
ثم أضاف يقول بحذر كأنما ليهدىء ضميره:
- ثم إن هذا الحادث الذي أمامنا، قد يفسر تفسيراً لا شأن له بما هو فوق الطبيعة...
قال الأب بائيسى ذلك، ولكن هذا التحفظ لم ينقص من اقتناعه شيئا، وذلك ما أدركه الحضور إدراكا قوياً واضحاً. وسرعان ما انتقل نبأ «المعجزة» من فم إلى فم، فما هي إلا برهة قصيرة حتى عرفه جميع سكان الدير، وحتى عرفه كذلك كثير من الزائرين الذين جاؤوا إلى الدير لحضور الطقوس. وكان أشد الناس انبهاراً في الظاهر إنما هو راهب صغير من «سان سيلفستر» وصل أمس من دير أوبدورسك الصغير بالشمال الأقصى. كان بالأمس قد انتظر الشيخ واقفا إلى جانب السيدة خوخلاكوفا، فبعد أن حيا الشيخ سأله، بمناسبة «شفاء» ابنة تلك السيدة، سأله بانفعال: «ما هي القوة التي تتيح له أن يجسر على تحقيق مثل هذه الأمور؟»
فهذا الراهب يشعر الآن بحيرة شديدة، فهو لا يعرف ماذا يجب أن يصدق وبماذا يجب أن يؤمن. ذلك أنه في مساء أمس قد زار واحداً من رهبان الدير هو الأب فيرابونت، في الصومعة الخاصة التي يسكنها وراء خلايا النحل، وقد تأثر تأثراً عميقاً بالحديث الذي جرى بينه وبينه، حتى لقد شعر من هذا الحديث برعب، وساوره منه جزع. والأب فيرابونت إنما هو بعينه ذلك الراهب العجوز المنزوي الذي اشتهر بصيامه عن الطعام والكلام، والذي كان يعد، كما سبق أن ذكرنا ذلك من قبل، خصما للشيخ زوسيما، وكان يحارب نظام المشايخ خاصة، ويرى فيه بدعة طائشة ضارة. وانه لخصم خطر جداً رغم أنه لا يكاد يكلم أحداً من الناس، تقيداً بقاعدة الصمت. وكان يبدو خطراً بوجه خاص لأن رهبانا كثيرين كانوا يشاطرونه آراءه مشاطرة تامة، ولأن بين الزوار الدنيويين أناس كثيرين أيضاً كانوا يرون فيه زاهداً كبيراً ورجلا مقدساً، رغم تسليمهم بأنه رجل بسيط العقل دون شك. ولكن بساطة قوله هذه هي بعينها عنصر الجاذبية فيه. كان الأب فيرابونت لا يذهب إلى الشيخ زوسيما قط. ورغم أنه عاش في المَنسَك، فما من أحد كان يماحكه كثيراً في أمر مراعاة القواعد المتبعة في المنسك لأن تصرفه في هذه النقطة أيضاً كان تصرف رجل بسيط العقل. إنه في الخامسة والسبعين من عمره أو تزيد، وهو يعيش وراء خلايا النحل، عند زاوية الجدار، في صومعة قديمة جدا مبنية من خشب تشبه أن تكون أطلالا متداعية منذ الآن، وقد بنيت هذه الصومعة خلال القرن الماضي فيما يقال، لراهب آخر اشتهر هو أيضاً بكفارات الصيام عن الطعام والكلام: ذلك هو الأب يوحنا الذي عمر مائة وخمس سنوات، وعرف بأعمال قداسة ما يزال الناس في الدير وفي المنطقة المجاورة يذكرون عنها تفاصيل شيقة.
وقد استطاع الأب فيرابونت أن يظفر أخيراً، منذ سبع سنين، بسكنى هذه الصومعة المنزوية التي تكاد تكون خِربةً بسيطة ولكنها شبيهة جداً بمعبد صغير، لكثرة أيقونات النذور التي تملؤها، والتي تشتعل مصابيح النذور أيضاً أمامها بغير انقطاع. وقد لف الأب فيرابونت نوعاً من التكليف بأن يتولى صيانة هذه المصابيح الصغيرة وإشعالها. وكان طعامه، كما يقال (وهذا صحيح)، لا يزيد على رطلين من الخبز كل ثلاثة أيام في أكثر تقدير، يحمله إليه كل ثلاثة أيام، النخال الذي يسكن في المنحل أيضاً. فكان الأب فيرابونت، حتى مع هذا النحال الذي يخدمه، لا يتحدث إلا نادراً جداً. وهو لا يأكل طوال الأسبوع، إلا الأرطال الأربعة من الخبز، إضافة إلى لقم القربان المقدس التي كان كبير الرهبان يرسلها إلى هذا الراهب الناسك بعد الصلاة الثانية في أيام الآحاد. وكانت جرة الماء التي يشرب منها تُملا له كل يوم. وكان الأب فيرابونت لا يكاد يحضر القداس أبداً. وقد لاحظ زواره والمعجبون به أنه كثيرا ما كان يقضي أياماً بكاملها في الصلاة جاثياً على ركبتيه طول الوقت لا ينظر حوله يمنة ولا يسرة. فإذا اتفق له في مناسبة من المناسبات أن يكلمهم، كان كلامه لهم موجزاً مقتضباً غريباً، حتى ليكاد يكون فظا غليظة في جميع الأحيان. صحيح أنه كان يحدث، في القليل النادر، أن يندفع في مناقشات أطول، ولكنه كان في أكثر الأحيان يكتفي بإطلاق جملة عجيبة يكون وقعها في نفس زائره وقع لغز محير، ثم يرفض أن يعقب عليها بأي شرح رغم جميع التوسلات. ولم يكن الأب فيرابونت في رتبة كاهن، وإنما ظل راهباً بسيطاً. وقد راجت عنه في بعض الأوساط، وهي الأوساط الجاهلة والحق يقال، شائعة غريبة مفادها أن الأب فيرابونت على اتصال بالأرواح السماوية، فهو لا يتحدث إلا مع تلك الأرواح، وهو لهذا السبب يلزم الصمت مع البشر الفانين.
استطاع راهب أوبدورسك الصغير أن يهتدي إلى الطريق المفضي إلى المنحل، فاتجه متبعاً إشارات النحال، وهو راهب صموت متجهم أيضاً، نحو ركن الحائط الذي توجد عنده صومعة الأب فيرابونت. وقد أنذره النحال قائلاً: «ربما رضي أن يخاطبك ببضع كلمات، لأنك راهب حاج، ولكن قد لا تستطيع مع ذلك أن تنتزع منه كلمة واحدة».
اقترب الراهب الصغير من صومعة الناسك وهو يشعر برعب شديد، كما روى ذلك هو نفسه فيما بعد. وكان ذلك في ساعة متأخرة. إن الأب فيرابونت جالس في هذه المرة أمام باب مسكنه على دكة واطئة جداً وفوقه يسمع حفيف أغصان شجرة دردار كبيرة، والهواء أنعشته طراوة المساء.
سجد راهب أوبدورسك أمام الناسك المقدس، وطلب إليه أن يباركه. فقال له الأب فيرابونت:
- أتراك تريد أيها الراهب أن أسجد أنا أيضاً على الأرض أمامك؟ هيّا انهض!
نهض الراهب الصغير.
- ألا فلتحل عليك البركة. اجلس بجانبي. من أين أنت؟
دهش راهب أوبدورسك خاصة من أن الأب فيرابونت، رغم أنه طاعن في السن، ورغم الصيام القاسي الذي يفرضه على نفسه، ما يزال صحيح البنية قوي الجسم، وهو فارع الطول منتصب القامة، له وجه نحيل لكنه نضر سليم. إن المرء يشعر أنه ما يزال محتفظاً بقوة بدنية عظيمة. ولقد كانت بنية رجل رياضي على كل حال. ثم إنه على تقدمه في العمر لم يشب تماما، وما يزال شعر رأسه ولحيته، الذي كان في الماضي فاحم السواد، ما يزال غزيراً كثيفاً. وعيناه الشهباوتان كبيرتان ساطعتان، ولكنهما جاحظتان كثيرة، وتلك سمة تخطف البصر رأساً. وهو يتكلم مشدداً حرف «الواو» تشديداً قوياً. أما لباسه فعباءة طويلة ضاربة إلى حمرة من ذلك القماش الذي كان يسمى في الماضي «جوخ السجناء»، مع حبل طويل يتخذه حزاماً. والعنق والصدر عاريان. وتحت الثوب يُرى قميص من خيش يكاد يبدو أسود اللون لأن الأب فيرابونت لا يبدله طيلة شهور. وكان يقال إنه يثقل جسمه بسلاسل تزن ثلاثين رطلاً. وقدماه بلا جوربين، وإنما ينتعل حذاءين عتيقين قد تشوه شكلهما كل التشوه.
- أنا آت من دير القديس سيلفستر الصغير في أوبدورسك.
كذلك قال الزائر مجيباً بلهجة ذليلة وهو ينظر إلى الناسك بعينيه الصغيرتين الحادتين اللتين ما تزالان مرؤغتين قليلا.
- أنا أعرف صاحبك سيلفستر. لقد عشت عنده زمنا. كيف حاله؟ كيف صحته؟ اضطرب الراهب الصغير.
- يا لكم من رجال حمقى مجانين! كيف تصومون هناك؟
- طعامنا تحكمه القاعدة الرهبانية القديمة: ففي أثناء الصيام الكبير لا نطعم شيئاً في أيام الاثنين والأربعاء والجمعة. وفي أيام الثلاثاء والخميس يأكل الرهبان خبزاً أبيض وفاكهة مسلوقة بعسل، وتوتا برياً أو كرنباً مملحاً، مع شيء من طحين الشوفان مخلوط بالماء. وفي أيام السبت نأكل حساء بالكرنب وشعيرية بالحمص وبرغلاً خشناً، وذلك كله مطبوخ بالزيت. ويضاف إلى حساء الكرنب شيء من سمك مقدد وبرغل عادي في أيام الأحد. أما في الأسبوع المقدس فلا نأكل، من صباح الاثنين إلى مساء السبت، أي خلال ستة أيام، إلا خبزاً وماء وخضاراً نيئة - وحتى هذا يجب أن نلتزم فيه حدود القصد والاعتدال. ذلك أنه إذاً كان مباحاً لنا أن نأكل في ذلك الأوان، فيجب أن لا نفهم هذا بالمعنى الواسع، ولا أن نفعله كل يوم. ففي يوم الجمعة من الأسبوع المقدس نصوم صوماً كاملاً، وفي يوم السبت من هذا الاسبوع نمتنع عن الطعام حتى الساعة الثالثة، ثم يسمح لنا بعد هذه الساعة أن نصيب شيئاً من خبز وماء وأن نحتسي قدحاً واحداً من النبيذ؛ وفي يوم الخميس من الأسبوع المقدس يقدم إلينا طعام مطبوخ بغير زيت، وشيء من نبيذ، وبعض المآكل الناشفة. ذلك أن مجمع الأساقفة الذي انعقد في لاوديكيا[101] قد أقر النظام التالي في أمر يوم الخميس من الأسبوع المقدس: «لا يحسن قطع الصيام في يوم خميس آخر الأسبوع، حتى لا يفسد بذلك الصيام كله». ذلك هو صيامنا. وهو مع ذلك لا يعد شيئاً مذكوراً بالقياس إلى القاعدة التي فرضتها على نفسك يا أبانا المبجل (كذلك أضاف يقول الراهب الصغير الذي بدا أنه استرد شيئاً من رباطة جأشه)، لأنك لا تتغذى إلا بخبز وماء طوال السنة، حتى في يوم الفصح المقدس، ولأن مقدار الخبز الذي نأكله في يومين يكفيك أنت أسبوعا

كاملا إنه لمن المدهش حقا هذا التقشف العظيم.
سأله الأب فيرابونت على حين فجأة بطريقته الخاصة في نطق بعض الأحرف محوَّرة:
- وفطر الغابات؟
فكرر الراهب الصغير يقول مندهشاً:
- فطر الغابات؟
- طبعا! أنا أستطيع أن أستغني عن خبزهم، فما بي إليه حاجة قط: أذهب إلى الغابة إذا لزم ذلك، فأتغذى فيها بالفطر والثمار. الرهبان هنا، لا يستطيعون الاستغناء عن الخبز، فهم إذاً مشدودون إلى الشيطان. إن في زماننا هذا كفرة كريهين يؤكدون أن الصيام لا حاجة إليه. فتفكيرهم مشبع بالتكبر والصلف وقد تسللت إليه روح الشيطان.
قال الراهب الصغير متنهداً:
- ما أصدق هذا الكلام!
سأل الأب فيرابونت:
- هل رأيت الحب حين كنت عندهم؟
- عندهم؟ عند من؟
كذلك سأل الراهب الصغير في وجل واستحياء.
قال الأب فيرابونت:
- زرت كبير الرهبان في عيد الخمسين من السنة الماضية، ولكنني لم أعد إليه منذ ذلك الحين. رأيت عند أحد الرهبان جنّاً على صدره، ورأيت جنّاً يختبىء تحت ثياب راهب آخر فما تظهر منه إلا قرونه. لقد رأيت واحداً منهم يقبع في جيب راهب، فما يظهر منه إلا رأسه، فلاحظت عينيه الحادتين المتحركتين. كان خائفاً مني فيما يبدو. وبعض الرهبان يؤوون جنّاً في بطونهم بين أحشائهم النجسة. وبعضهم يحملونهم على رؤوسهم حول الأعناق يتشبث بها الجن دون أن يلاحظهم الرهبان أنفسهم.
سأله الراهب الصغير:
- وهل... وهبت لك القدرة على رؤيتهم؟
- قلت لك إنني أراهم. إن نظرتي تخترقهم اختراقاً. حين خرجت من عند كبير الرهبان، فاجأت واحداً منهم حاول أن يختبيء وراء الباب حين لمحني. كان هذا طويل القامة، يبلغ طوله متراً أو يزيد. وكان له ذيل ضخم بني، طويل جداً، قد انحشر في شق الباب في تلك اللحظة. ولم أكن غبياً فدفعت الباب بقوة سحقت ذيله، فأطلق من صدره أنيناً حاداً، فبينما كان يتخبط رسمت عليه إشارة الصليب ثلاث مرات، فإذا هو يفطس كما يفطس عنكبوت دِيسَ بالقدم، وقد تفسخت جثته منذ ذلك الحين عند زاوية الباب، فصار الهواء هنالك موبوءاً، ولكن هؤلاء الرهبان لا يرون شيئاً ولا يشمون شيئا! وقد انقضت سنة لم أعد خلالها إلى ذلك المكان. إني أسر إليك وحدك بها الأمر، لأنك غريب عن هذا الدير.
هتف الراهب الصغير يقول:
- رهيب ما تقوله!
ثم أضاف وقد ازدادت جرأته شيئاً بعد شيء:
- وددت لو أعرف أيها الاب العظيم المحترم المبجّل، هل صحيحة تلك الشائعة المجيدة التي راجت حتى بلغت أبعد المناطق النائية، وهي أنك على صلة مستمرة بالروح القدس؟
- الروح القدس يهبط إلى هنا أحياناً. ذلك يحدث.
- يهبط إلى هنا؟ في أي صورة؟
- في صورة طائر.
- الروح القدس يظهر لك في صورة حمامة؟
- يجب أن لا تخلط بين الروح القدس وبين روح القداسة. فأما روح القداسة فيمكن أن تتجلي في صور شتي، فتارة تظهر في صورة سنونو، وتارة تظهر في صورة حسُون أو في صورة قرقب أيضاً.
- فكيف تميزها عن قرقب عادي؟
- أعرفها لأنها تتكلم.
- كيف هذا؟ بأي لغة؟
- بلغة الإنسان.
- ماذا تقول لك؟
- في هذا الصباح مثلا أبلغتني أن زائراً غبياً سيزورني وسيزعجني بأسئلة خبيثة. هل تعرف أيها الراهب أنك تسرف في الاستطلاع؟
- أيها الأب المحترم جداً، المقدس جداً، إن كلماتك تبعث الرعب وتذهب بالصواب!
كذلك قال الراهب الصغير وهو يحرك رأسه. على أن شيئاً يسيراً من عدم التصديق قد ظهر في عينيه الخائفتين.
سأله الأب فيرابونت بعد صمت قائلاً:
- هل ترى هذه الشجرة؟
- أراها يا أبي المحترم.
- لا شك أنك تظنها شجرة دردار. أما أنا فأرى فيها شيئاً آخر.
وانتظر الراهب الصغير بضع لحظات يرتقب أن يقول له الأب فيرابونت ماذا يرى فيها، فلمّا لم يفعل الأب فيرابونت ذلك، قرر أن يسأله، فقال:
- فماذا ترى فيها؟
- يظهر لي هذا في الظلام. هل ترى هذين الغصنين؟ إنه المسيح يمد إلي ذراعيه حين يخيم الليل، ويبحث بهما عني. إنني أراه بوضوح، فارتعش عندئذ خوفاً. ذلك شيء مخيف، مخيف جدا يبث الزعر. أتعلم؟.
- لماذا الخوف ما دام هو المسيح؟
- قد يقبض علي ويرفعني إلى السماء.
- حيا؟
- ألم تسمع إذاً عن مار إيليا ومجده؟ سوف يحيطني المسيح بذراعيه ويأخذني...
رغم أن راهب أوبدورسك الصغير قد شعر باضطراب شديد وحيرة كبيرة حين رجع بعد هذا الحديث إلى الصومعة التي عُينت له والتي كان عليه أن يشارك فيها أحد رهبان الدير مدة إقامته، فقد كان في قرارة قلبه يشعر بأن الأب فيرابونت قد اجتذبه أكثر كثيراً مما اجتذبه الشيخ زوسيما. إن هذا الراهب الصغير، وهو من الأنصار المتحمسين للصيام الذي يحترمه أكثر مما يحترم سائر شعائر الرهبانية، قد اعتقد أن صائماً يملك من القوة ما يملكه الأب فيرابونت يمكن حقا أن يكون قد أوتي موهبة «رؤية المعجزة». صحيح أن الأقوال التي قالها الأب فيرابونت تبدو مفككة بعض التفكك، ولكن الرب وحده قادر على أن يعرف ما لعلها تشتمل عليه من دلالة عميقة. ثم إن جميع البسطاء المأخوذين بالمسيح إنما يقولون كلاماً أو يفعلون أفعالاً أبعث على الدهشة. أما قصة الجن الذي حشر ذيله الضخم في شق الباب وحق، فإن الراهب الصغير لم يصعب عليه أن يسلم بها، لا بالمعنى المجازي بل بالمعنى الحقيقي، وكان يشعر أنه مستعد لتصديقها بكل نفسه، وبفرح أيضاً. ثم إنه، عدا ذلك، كانت تراوده، حتى قبل وصوله إلى الدير، شكوك كثيرة حول نظام المشايخ، حتى لقد كان يشعر بعداوة لهذا النظام الذي لم يكن يعرفه إلاّ عن طريق السماع على كل حال، وكان يعده مع كثيرين غيره بدعة ضارة ضرراً صريحاً. وكان قد أتيح له بعد أن تعرف على الحالة في الدير أن يسمع دمدمات الاستنكار الخفية من بعض الرهبان ذوي العقول السطحية، الذين كانوا ينتقدون هذا النظام. وإذ كان بطبيعته امرءاً حشرياً يعرف كيف يتسلل

إلى كل مكان، فإن النبأ الباهر الخارق عن آخر «معجزة» حققها الأب زوسيما قد هز نفسه هزاً قوياً وبث فيها حيرة قصوى. وقد تذكر أليوشا فيما بعد أنه لمح، عدة مرات، في زحمة الرهبان المحتشدين قرب الشيخ أو في جوار الصومعة هذا الراهب الصغير الفضولي ينتقل من جماعة إلى جماعة، يصغي إلى كل شيء ويسأل كل واحد. ولكن أليوشا لم يهتم به في حينه، وإنما تذكر ما جرى فيما بعد... وهل كان بوسعه أن يلتفت إلى ذلك الراهب الصغير في ذلك اليوم؟!
فالأب زوسيما الذي خارت قواه من جديد، قد انتقل إلى سريره، فلمّا أغمض عينيه تذكر أليوشا فجأة، فطلب إحضاره، فهرع إليه أليوشا فوراً. ولم يكن إلى جانب الشيخ عندئذ إلا الأب بائيسى، والراهب الكاهن يوسف والراهب المبتدىء بورفيرى. فتح الشيخ عينيه المتعبتين بكثير من العناء، وحدق إلى أليوشا، ثم سأله فجأة:
- هل ينتظرك ذووك يا بنيّ المحبوب؟ فاضطرب أليوشا. وعاد الشيخ يسأله:
- أليسوا في حاجة إلى حضورك؟ هل وعدت أحداً بالعودة إليه اليوم؟
- وعدت أبي... وأخوي.... وآخرين أيضاً...
- ذلك ما قدرته. فاذهب إليهم حتماً. ولا تحزن. اعلم أنني لن أموت قبل أن أنطق آخر كلماتي على هذه الأرض بحضورك. إليك سأوجه آخر أقوالي يا بنيّ المحبوب، إليك سأعهد بها... إليك أنت يا بنيّ لأنك تحبني. أمض الآن إلى من ينتظرونك.
سارع أليوشا يطيع أمر الشيخ، رغم أنه قد شق على نفسه أن ينصرف في هذه اللحظة. ولكن الوعد الذي قطعه له الشيخ، وهو أن يسمعه آخر كلماته على هذه الأرض، ولا سيما ما ذكره الشيخ من أنه سيوجه هذه الكلمات إليه هو، وأنه سيعهد بها إليه على أنها وصيته الروحية، قد ملأ نفس أليوشا حماسة ونشوة. لذلك أسرع يغذّ خطاه حتى يستطيع أن يفرغ مما كان عليه أن ينجزه في المدينة وأن يعود إلى الدير بأقصى سرعة. وقد تحدث الأب بائيسي هو أيضاً إلى أليوشا عند انصرافه؛ وما قالة الأب بائيسى عندئذ قد أحدث في نفسه أثراً عميقاً غير متوقع. لقد توجه إليه الأب بائيسى، بعد أن خرجا من صومعة الشيخ، قائلاً:
- تذكر أيها الفتى (بهذا إنما بدأ الأب بائيسى كلامه دون أي تمهيد)، تذكر أن المعرفة العلمانية التي نمت نموا كبيرة وأصبحت قوة عظيمة، قد هجمت، في خلال هذا القرن خاصة، على كل ما تركته لنا النصوص المقدسة من حقائق سماوية. فعلماء هذا العالم، بعد أن قاموا بنقد قاس وحاقد لم يحتفظوا بشيء البتة مما كان يُعدُ مقدساً في القرون الماضية. لقد حللوا كل جزء على حدة، ولكن فاتهم إدراك الدين في مجموعه، وبلغوا من ذلك أن المرء تذهله فيهم هذه العماوة حقا. ذلك رغم أن الحقيقة هي في المجموع فلن يستطيعوا أن ينالوا منها، ولن، لا تقدر أبواب الجحيم أن تؤذيها أو تنتصر عليها. ألم تعش ذلك تسعة عشر قرنا؟ ألا تزال تعيش اليوم في خوالج نفوس الأفراد وجماهير الناس؟ ألا إنها لباقية، هذه الحقيقة، حتى في قلوب أولئك الملحدين الذين أرادوا أن يدمروها، باقية كما في الماضي. ذلك أن هؤلاء الذين جحدوا المسيح وتمردوا عليه ليسوا أنفسهم إلا صورة المسيح نفسها، وما يزالون يمثلون هذه الصورة لأنه استحال عليهم في الواقع، رغم الرغبة القوية التي اضطرمت في نفوسهم ورغم الجهود الكبيرة التي بذلها عقلهم، أن يقدموا مثلا أعلى آخر للإنسان وكرامته، أسمى من المثل الأعلى الذي قدمه إلينا المسيح في الزمان القديم. إن جميع المحاولات التي من هذا النوع لم تؤد إلى غير الحطة والغلظة. فاحفظ هذا جيداً أيها الفتى ما دام شيخك المحتضر قد أرسلك إلى العالم. فلعلك حين تتذكر في المستقبل هذا اليوم العظيم تفكر أيضاً في هذه الكلمات التي قلتها لك صادرة من أعماق قلبي لتضيء لك طريقك. ذلك لأنك شاب، ولأن مغريات العالم قوية، ولن تكفيك قواك وحدها للتغلب عليها دائماً. والآن امض أيها اليتيم.
وبعد أن قال الأب بائيسى هذا الكلام بارك أليوشا. وقد أدرك أليوشا فجأة، وهو يبتعد عن الدير ويتدبر هذه الأقوال التي لم يكن يتوقعها، أدرك فجأة أن هذا الراهب الذي كان إلى ذلك الحين صارماً تلك الصرامة كلها، قاسياً تلك القسوة كلها في معاملته، سيكون له بعد اليوم صديقاً جديداً وموجهاً روحياً يحمل له أعمق المودة والعطف - كأن الأب زوسيما هو الذي عهد إليه بهذه المهمة وهو يحتضر. قال أليوشا يحدث نفسه: «من يدري؟ لعلهما قد اتفقا على هذا». ألا تدل هذه الشروح العلمية النقية التي سمعها من فم الأب بائيسي، وهي شروح أدهشته في أول الأمر وأثارت استغرابه، ألا تدل أكثر مما يمكن أن يدل أي حديث آخر، على أن الأب بائيسي يضمر له عاطفة صادقة حارة؟ لقد أسرع الأب بائيسى يزود عقله الفتي بالأسلحة التي تسهل عليه مكافحة مغريات هذا العالم، وأراد بغير إبطاء أن يحصّن نفسه الفتية التي عُهد إليه بها بأقوى الدروع الروحية الأخلاقية.

-2- في منزل الأب

ذهب أليوشا أولاً إلى منزل أبيه. فتذكر وهو يقترب من المنزل أن أباه قد ألح عليه كثيراً بالأمس أن يتدبر أمره بحيث يدخل دون أن يراه إيفان. فتساءل فجأة: «لماذا؟ إذاً كان أبي يريد أن يبوح لي بشيء من الأشياء سراً، فهل هذا سبب كافي لأن أدخل المنزل سراً؟ أحسب أن أبي قد أساء التعبير من شدة اضطرابه أمس فلم يجد الكلمات المناسبة التي يفصح بها عن مراده». هذا ما قاله لنفسه. ومع ذلك شعر بارتياح شديد حين فتحت له مارفا اجناتفنا الباب الحديدي (كان جريجوري قد مرض فلزم سريره كما قالت مارفا)، فعلم منها، جوابا على سؤال ألقاه عليها، أن إيفان فيدوروفتش قد خرج من المنزل منذ ساعتين.

- وأبي؟

- نهض من فراشه، وهو يحتسي الآن قهوته. هكذا أجابته مارفا اجناتفنا بشيء من الجفاف والخشونة.

دخل أليوشا، فوجد أباه وحيداً إلى المائدة، منتعلا خفين، مرتدياً معطفاً عتيقاً. كان الأب بسبيل التدقيق في بعض الحسابات تزجية للوقت، دون أن يبدو عليه أنه مهتم فعلاً بهذا العمل الذي يقوم به. ولم يكن في المنزل أحد غيره (كان سمردياكوف قد خرج هو أيضاً لشراء بعض الأشياء من أجل إعداد طعام الغداء). كان الأب يتصفح حساباته إذاً، ولكن فكره منصرف إلى غير ذلك. وكان يبدو عليه التعب والضعف، رغم أنه صحا في ساعة مبكرة من الصباح وحاول أن يستجمع قواه. وقد عقد على جبينه الذي ظهرت فيه بقع أرجوانية كبيرة أثناء الليل، منديلاً أحمراً. وكانت على أنفه الذي تورّم كثيراً منذ البارحة، بقع مماثلة إن لم تكن واسعة كثيرة فهي تضفي على وجهه تعبيرا عن غضب حانق خبيث. وكان العجوز يعرف هذا على كل حال، فها هوذا يرشق أليوشا حين دخل، بنظرة فيها عداوة. وصاح يقول له بلهجة قاطعة:

- القهوة باردة، فلن أقدم لك منها شيئا. وأنا نفسي ألتزم اليوم حمية قاسية، فلا آكل إلاّ حساء بالسمك ولا أدعو إلى مائدتي أحداً.

لماذا جئت؟

قال أليوشا:

- أردت أن أسال عن صحتك.

- أعرف. ثم إنني أمرتك أنا نفسي بالأمس أن تزورني. تلك كلها سخافات! لقد أزعجت نفسك في غير طائل. إنني تنبأت بأنك ستسارع إلى المجيء...

قال الأب هذه العبارة الأخيرة بلهجة منفرة كريهة، ونهض في الوقت نفسه ليرى حالة أنفه في المرآة وقد بدا في وجهه الهم والقلق (لعله ينظر في أنفه للمرة الأربعين منذ هذا الصباح)؛ وفي هذه المناسبة عدل المنديل الأحمر الذي يلف جبينه وجهد أن يعقده على آنق طريقة. وقال بلهجة متكلفة:

- لقد اخترت اللون الأحمر، لأن الأبيض يذكر بالمستشفى.

هيه! ماذا وراءك من جديد؟ كيف حال شيخك؟

فأجاب أليوشا قائلا:

- حاله سيئة جداً، وقد يموت في هذا النهار.

ولكن الأب لم يصغ إلى جواب ابنه، وكان قد نسي السؤال الذي ألقاه عليه.

قال العجوز بدون تمهيد:

- خرج إيفان. إنه يهيء جميع المكائد لينتزع من ميتكا[102] خطيبته.ثم أضاف يقول بخبث وقد لوى شفتيه على ابتسامة مكشّرة:

- وذلك هو الهدف الوحيد الذي بقي من أجله هنا.

فسأله أليوشا:

- هل باح لك بهذا بنفسه؟

- طبعاً. قال لي ذلك منذ زمن طويل. ماذا كنت تظن إذاً؟

اعترف لي بهذا منذ ثلاثة أسابيع. ما أحسب أنه جاء إلى هنا ليذبحني خفيةً هو أيضًا. فلا بد أن يكون هنالك سبب يدفعه إلى المكوث في هذه المدينة.

سأله أليوشا مضطرباً اضطراباً شديداً:

- ولكن ما هذا الذي تقوله؟ لماذا تتكلم هكذا؟

- صحيح أنه لم يطلب مني مالاً، ولن أعطيه شيئاً على كل حال. إنّي أريد، يا ألكسي فيدوروفتش المحترم جداً، أن أعيش في هذا العالم أطول عمرٍ ممكن... ضع هذا في ذهنك!... لذلك سأكون في حاجةٍ كبيرةٍ إلى كل كوبيك مما أملك.

ثم أضاف وهو يذرع الغرفة، واضعاً يديه في جيبي معطفه الفضفاض المتّسخ المصنوع من نسيج صيفي خفيف أصفر اللون.

وكلما طعنت في السن وتقدمت بي الشيخوخة ازدادت حاجتي إلى المال. أنا الآن ما أزال رجلاً، فعمري لا يزيد على خمسة وخمسين عاماً، وأريد أن أعيش عشرين سنة أخرى دون أن أتنازل عن رجولتي. وإذ إنني سأشيخ طبعاً، فسأصبح منفّراً، فلا يأتين إليّ من تلقاء أنفسهنّ راضيات، فيصبح المال عندئذٍ ضرورةً لا بدّ منها. لذلك تراني الآن أجمع أكبر مقدار ممكن من الثروة لنفسي وحدها يا بني العزيز ألكسي فيدوروفتش... ضع هذا في بالك... ذلك أنّني أعزم عزماً قاطعاً - اعلم هذا أيضًا - على أن أسترسل في خلاعتي إلى آخر أيام عمري. إن الخلاعة تلطف الحياة: جميع الناس يعيبون الخلاعة، ولكنهم جميعا يتعاطونها. كل ما هنالك أنهم يتعاطونها سراً على حين أنّني أتعاطاها علانيةً. إن صراحتي وسذاجتي هما اللتان تعرضاني لهجوم ونقد تلك العصبة الفاسقة من الواعظين بالأخلاق. أما جنتك يا ألكسي فيدوروفتش فإنني لا أريدها لنفسي... اعلم هذا... وسيكون من غير الحشمة أن يذهب الإنسان اللائق إلى جنّتك، إذا وجدت هناك جنّة. وفي رأيي أنا أن المرء ينام ثم لا يستيقظ، ولا شيء بعد ذلك. صلّوا من أجلي بعد موتي إذا شئتم، وإن لم تشاؤوا فلا تصلّوا... شيطان يأخذكم... تلك هي فلسفتي كلها. لقد تكلم إيفان بالأمس فأحسن الكلام، رغم أننا كنا جميعا سكارى. إن إيفان إنسان متبجح. ليس هو بالعالم قط. بل إنه ليس على شيء من ثقافة حقيقية. إنه لا يزيد على أن يسكت، وأن يسخر من جميع الناس صامتاً. ذلك كلّ ما يعرف أن يفعله به إيفان هذا.

كان أليوشا يصغي إلى أبيه دون أن يقول كلمة واحدة. وتابع الأب كلامه قائلاً:

- لماذا لا يكلمني أبداً؟ إنه إذا كلمني كان يمثل تمثيلًا؟ إنه وغد حقير، أخوك إيفان هذا! أما جروشك[103] فسأتزوّجها متى حلا لي أن أتزوّجها. ما دمت أملك المال فيكفي أن أريد حتى أبلغ كل شيء يا ألكسي فيدوروفتش! وذلك بعينه هو ما يخشاه إيفان، إنه يراقبني حتى لا أتزوج، ويحض ميتيا على أن يتزوج جروشكا: هو يأمل أن يبعدني عن هذه المرأة بهذه الوسيلة (كأنني سأورثه مالاً حتى ولو لم أتزوج جروشكا) ومن جهة أخرى سيسلب ميتيا خطيبته الثرية إذا تسَنَّى لميتيا أن يتزوج جروشكا. ذلك هو الحساب الذي يجريه. إنه وغد، صاحبك إيفان هذا!

قال أليوشا:

- ما أشدّ اهتياجك اليوم! إنّ مردّ هذا إلى ما حدث لك بالأمس. فالأفضل أن ترقد في السرير.

أجاب الأب العجوز يقول وكأن هذه الفكرة قد ساورت ذهنه في هذه اللحظة وحدها:

- قد تكون على حق في ما تقول، إنك الآن تنصحني أن لا أغضب. ولكن لو سمح إيفان لنفسه بأن يقول لي ما قلته أنت، إذن لثارت ثائرتي. معك وحدك إنما أتيح لي أن أقضي لحظات لطيفة، وأن أكون طيّباً، لأنّني شرير في العادة.

قال أليوشا مبتسماً:

- ما أنت بشرير، إنك مخرب.

- اسمع يا أليوشا. لقد أردت اليوم أن أطلب اعتقال هذا اللص ميتيا، ولا أدري حتى الآن هل أعزم أمري على ذلك أخيراً. أنا لا أجهل أن «الموضة» الرائجة الآن هي أن يُعدّ احترام الأبناء آباءهم وهماً باطلاً وعادةً سخيفةً. ولكن القانون لا يجيز، حتى في عصرنا هذا، أن يجرٌ ابنٌ أباه العجوز من شعره، وأن يركل وجهه بكعب حذائه في عقر داره، وأن يتباهى كذلك أمام شهود بأنه سيعود ليجهز عليه فيما بعد. فلو شئت لرميته في السجن منذ هذا اليوم بسبب ما جرى بالأمس.

- وقد عدلت عن شكواه، أليس كذلك؟

- ثناني إيفان عن عزمي. على أنني لا أحفل برأي إيفان، وإنما خطر ببالي شيء آخر...

قال الأب ذلك ثم مال على أليوشا وتابع كلامه بلهجة البوح وهو يكاد يهمس همساً:
- لو اعتقل هذا الوغد، لعلمت هي بأنّني أودعته السجن، فهرولت تسعى إليه فوراً. أما إذا رُويَ لها اليوم أن هذا اللص قد أوشك أن يقتلني أنا الشيخ العجوز، فقد لا تهجره ولكنها ستعودني... ذلك هو طبعها الذي فطرت عليه: تحب أن تفعل نقيض ما ينتظر منها، بدافع حب المناقضة وحده! إنني أعرفها حق المعرفة! بالمناسبة، هل لك بقليل من الكونياك؟ اشرب هذه القهوة الباردة، سأضيف إليها ربع قدح من الكونياك فيطيب مذاقها.
- لا... شكراً... لا أريد... سآخذ هذا الرغيف من الخبز إذا سمحت بذلك.
قال أليوشا هذا وتناول رغيفاً صغيراً من خبز أبيض ثمنه ثلاثة كوبيكات، ودسَّه في جيب ثوبه. ثم أضاف يقول في خشية وهو يتفرس في وجه أبيه:
- أما الكونياك فلعلك تحسن صنعاً إذا عدت عنه أنت أيضًا.
قال الأب:
- أنت على حق. إن الكونياك يثيرني بدلاً من أن يهدّئني. لذلك لن أشرب إلا كأساً واحدةً... كأساً واحدةً... الكونياك هناك، في الخزانة الصغيرة...
وأدار مفتاح «الخزانة الصغيرة»، فملأ كاساً، وأفرغها في جوفه، ثم أقفل الخزانة من جديد، وردَّ المفتاح إلى جيبه.
- يكفيني هذا. كأس واحدة لن تقتلني.
قال أليوشا وهو يبتسم:
- ها قد عدت طيباً.

- طيّب؟ هِمْ... اعلم أنني أحبك أنت دون أن أشرب شيئاً من الكونياك... أمّا الأوغاد فإنني أعاملهم كوغد أيضًا! لم يذهب فانكا[104] إلى تشرماشنيا! لماذا؟ لأنه يريد أن يبقى هنا ليتجسس عليّ: إنّه يحب أن يعرف هل سأعطي جروشنكا مالاً كثيراً إذا هي جاءت. إنّهم جميعا أوغاد! أما إيفان فإنّني لا أعترف به ابناً لي. من أين جاء هذا الوَبَش؟ إن له نفساً غير نفوسنا؟ أيظن أنني سأورثه شيئاً من مال؟ إلا أنّني لن أكتب حتى وصيّة... اعلموا هذا!.. وأما ميتكا فلأسحقنه كما تُسحق خنفساء قذرة. إنه يتفق لي أن أسحق خنفساواتٍ في الليل، فتطق طقيقاً جافاً حين تفطس، فبهذه الطريقة سأسحقه، صاحبك ميتكا هذا... وإذا قلت صاحبك، فلأنك تحبه ولكن تعلقك به لا يقلقني... على حين أنه لو أخذ إيفان يحبه لخشيت عندئذ على نفسي. غير أن إيفان لا يحب أحداً. إنه ليس منا. إن أناساً مثل إيفان ليسوا بشراً مثلنا، هم تراب أثارته الريح.... تذهب الريح ويعود يتساقط التراب... لقد خطرت ببالي فكرة سخيفة أمس حين أمرتك بأن تجيء اليوم. أردت أن أكلفك بأن تسأل ميتكا: هل إذا أنا نقدته الآن ألف روبل أو حتى ألفين، هل يوافق هذا الشقي، هذا الشحاذ، هل يوافق عندئذ على أن يبارح هذه المدينة خمس سنين، بل خمساً وثلاثين سنة، بدون جروشنكا طبعاً، متنازلاً عنها إلى الأبد؟
تمتم أليوشا يقول:
- سوف.. سوف.. أسأله.. وإذا زدت المبلغ فجعلته ثلاثة آلاف، فمن الجائز أنه...
- خطأ! لا تكلمه في هذا الأمر الآن! لا تقل له كلمة واحدة، هل تسمع؟ لقد غيرت رأيي منذ الأمس. هي فكرة غبيّة خطرت ببالي. لن أعطه شيئاً، لن أعطيه كوبيكاً واحداً، لأنني في حاجة إلى هذا المال أنا نفسي (كذلك صرخ الأب العجوز وهو يحرك ذراعيه).
لسوف أعرف كيف أسحقه كما تُسحق خنفساء، بدون هذا. لا تقصص عليه شيئاً، وإلا فقد تراوده الآمال. ثم إنه ليس ثمة ما تفعله عندي. فاذهب الآن. ولكن قل لي: هل تريد خطيبته، هل تريد كاترينا إيفانوفنا تلك التي حرص أشد الحرص على أن يخفيها عنّي، هل تريد أن تتزوجه أم لا؟ لقد ذهبت أنت إليها بالأمس فيما أظن، أليس كذلك؟
- إنها لا تريد أن تتركه، مهما يحدث.
- هؤلاء هم الرجال الذين تحبهم بنات الصالونات الرقيقات هاته! إنّهن يحببن شباباً عابثين لاهين أوباشاً!، ثِق أنّ هاته الآنسات الشاحبات لا يساوين شيئاً. ما أكبر الفرق بينهن وبين... الخلاصة! آه، لو كان لي عمره ووجهي أيام شبابي (لقد كنت أجمل منه في الثامنة والعشرين من عمري).. إذا لكانت لي غزوات وانتصارات مثله.. ألا إنه لشقي! أما جروشنكا فلن ينالها، لن يحظى بها.. لأُمَرِّغَنَّه في الوحل!..
استعر حنق العجوز من جديد وهو ينطق بهذه الكلمات. ثم قال بلهجةٍ قاطعة:
- اذهب الآن. لا عمل لك اليوم هنا.
اقترب أليوشا من أبيه ليودعه، وقبّله في كتفه. فسأله الأب دهشاً:
- ماذا بك؟ سوف نلتقي بعد الآن. أم تُراك تقدر أننا لن نلتقي قطّ؟
- لم يخطر ببالي هذا. لقد قبلتك بغير نية، وعلى غير قصد.
- ولا خطر ببالي أنا أيضًا... إنما ألقيت عليك هذا السؤال سهواً وغفلة.
كذلك قال العجوز وهو ينظر إلى أليوشا. وفيما كان أليوشا يبتعد صرخ الأب يناديه:
- اسمع! اتسمعني؟ تعال إليّ في أقرب فرصة. سأذيقك ما أعده من حساء السمك، هو حساء خاص، لا كحساء اليوم! تعال حتما، هل فهمت؟ تعال غداً، هل سمعت؟ في الغد!
وحين أُغلق الباب وراء أليوشا، اقترب العجوز من الخزانة الصغيرة مرة أخرى فأفرغ في جوفه نصف كاس أخرى دفعة واحدة. ثم دمدم وهو يتنحنح:
- لن أشرب بعد!
ثم أقفل الخزانة، وردَّ المفتاح إلى جيبه، ومضى بعد ذلك إلى غرفة نومه، واضطجع على سريره وهو يشعر بأنه منهك مرهق. وسرعان ما نام.

-3-لقاء مع تلامذة

حدَّثَ أليوشا نفسه قائلا حين خرج من عند أبيه متجهاً نحو منزل «السيّدة خوخلاكوفا»: «الحمد لله على أنه لم يلق عليّ أسئلةً عن جروشنكا، فلو فعل لاضطررت أن أحدّثه عن مقابلة الأمس». وقد قدّر أليوشا، وهو يشعر بكثير من الشجن، أن الأهواء قد ازدادت استعاراً أثناء الليل، وأن الخصوم يستعدون للمواجهة والمجابهة بقوى غضة جديدة، وأنّ الصبح قد طلع عليهم وهم أقسى قلباً وأعتي نفساً. قال يحدّث نفسه: «الأب حانق سيئ المزاج وقد نبتت في رأسه فكرة لن يتخلى عنها... ودمتري؟ لا شك أنّ كرهه قد اشتد رسوخاً وإصراراً منذ أمس، وأنّه حانق سيئ المزاج أيضًا، ولا شك أنه أخذ يبيت أمراً... أوه! يجب عليّ حتماً أن أجده اليوم مهما كلف الأمر...»

ولكن أليوشا لم يتسع وقته للتفكير طويلاً. فقد وقعت له أثناء الطريق حادثة قد لا يكون لها في الظاهر شيء من خطورة الشأن، ولكنها أحدثت في نفسه أثراً قوياً جداً. كان قد اجتاز الميدان وانعطف إلى زقاق يؤدي إلى شارع «ميخائيلوفسكايا» الذي يوازي «الشارع الكبير»، ولكن تفصله عنه قناة صغيرة (إن مدينتنا تقطعها في جميع الاتجاهات قنوات صغيرة)، وأثناء سيره في هذا الزقاق إذا به يلمح تحت، قرب الجسر الصغير، عصبةً من التلاميذ هم جميعاً أطفال تتراوح أعمارهم بين التاسعة والثانية عشرة في أكثر تقدير. إنهم عائدون من المدرسة، يحملون على ظهورهم تلك الأكياس القاسية، ويحمل بعضهم على الجنب كيساً من جلد له سيور طويلة يضعونها فوق الكتف. بعضهم يرتدي دراعة، وبعضهم يرتدي معطفاً قصيراً، وبعضهم ينتعل جزمة عالية على ساقها أخاديد، من تلك الجزمات التي يحب انتعالها الأطفال الذين يدللهم آباؤهم الأغنياء. وكان الأطفال يتناقشون بحرارة، وكان يبدو أنهم أجمعوا أمرهم على شيء. إن أليوشا لا يمكن أن لا يحفل يوماً بمنظر الأطفال، فكذلك كان شأنه أيضًا في موسكو؛ ولئن كان يؤثر الصغار الذين تحوم أعمارهم حول السنة الثالثة، فإنّ التلاميذ الذين هم في العاشرة أو الحادية عشرة يعجبونه كثيراً أيضًا. لذلك أحبّ فجأةً، رغم الهموم التي كانت ترهق نفسه، أن ينضم إلى هؤلاء التلاميذ وأن يدخل معهم في حديث. فلما اقترب منهم متفرساً في وجوههم المتوردة المنتعشة لاحظ أن كلاً منهم يحمل بيده حصاةً، حتى إن بعضهم يحمل حصاتين اثنتين. ورأى في الجهة الأخرى من القناة، على مسافة ثلاثين خطوة من عصبة التلاميذ هذه تقريباً، طفلاً آخر واقفاً قرب سياج من أوتاد. إن هذا الطفل تلميذ هو أيضًا، يحمل كيسه على الجنب، وأغلب الظن أنه في العاشرة من عمره وربما كان أصغر من ذلك، كما يدل على هذا طول قامته. كان الصبي يراقب عصبة التلاميذ الستة، وهم رفاقه الذين خرج معهم من المدرسة لتوه، ولكنه كما يبدو، كان يعدهم أعداءه. إنه يبدو شاحب الوجه عليل الصحة، ولكن عينيه السوداوين تسطعان. تقدم أليوشا بضع خطوات أخرى، فلما لمح صبياً أشقر مجعد الشعر متورّد الوجه يرتدي دراعته السوداء، نظر إليه بانتباه وقال له:

- أيام كنت أحمل أنا كيساً مثل كيسك، كانت العادة أن نضعه في الجنب الأيسر، حتى تناله اليد اليمنى بسهولة أكبر. أما أنت فالكيس يتدلى عندك على الجهة اليمنى، فلا نستطيع إمساكه على وجه مريح.

وقد أبدى أليوشا هذه الملاحظة الجدية العمليّة بطريقة عفوية[105]، دون أن يعمد إلى أي حيلة. ومن المؤكد على كل حال إنه خير وسيلة لكسب ثقة طفل من الأطفال، ولكسب ثقة عصبة من الأطفال خاصة، هي أن تدخل في الحديث معهم على الوجه الذي عمد إليه أليوشا، أي أن تخاطبهم جادّاً في أمور محسوسة ملموسة جاعلاً نفسك واقفاً على قدم المساواة معهم. وكان أليوشا يدرك ذلك بغريزته.

- ولكنه أعسر!

كذلك أسرع يجيب أحد الصبية جريء الهيئة ظاهر الصحة يبدو في نحو الحادية عشرة من عمره. وأخذ الصبية الخمسة الآخرون يحدّقون إلى أليوشا.

وقال تلميذ ثالث:

- وهو يستعمل يده اليسرى أيضًا في قذف الحجارة.

وفي تلك اللحظة نفسها سقط حجر على عصبة الأطفال، فلامس الأعسر الصغير لكنه أخطأه رغم أنه قُذف بمهارة وقوة. إن ذلك الصبي المرابط في الجهة الأخرى من القناة هو الذي رمى الحجر.

هتف جميع الصبية يقولون دفعة واحدة:

- هيا يا سموروف.. سدِّد إليه.. ارمه بحجر!..

ولكن سموروف (الصبي الأعسر) لم ينتظر أن يشجعه رفاقه هذا التشجيع، وإنما بادر إلى الرد فوراً، فرمى الصبي الواقف في الجهة الأخرى من القناة بحجر، ولكنه لم يصبه، وإنما سقطت الحصاة على الأرض. وسرعان ما ردّ الصبي على ذلك، فرمى الجماعة بحجر ثان، ولكنه رمى هذه المرة مستهدفاً أليوشا، فأصابه في كتفه، فأوجعه وجعاً شديداً. وكانت جيوب الصبي ملأى بالحصى، فذلك ما يراه الرائي حتى على بعد ثلاثين خطوة، لأنها كانت بارزة من تحت المعطف.

صاح الصبية يقولون وهم يقهقهون:

- إنه كان يسدد إليك أنت، إليك أنت! لقد استهدفك خصيصاً. ألست من آل كارامازوف؟ ألست من آل كارامازوف؟ هيا بنا يا أولاد، فلنحكم التسديد إليه جميعا، جميعا في هذه المرة!

وطارت حجارة ست في آن واحد معاً. فأصابت إحداها الصبي في رأسه، فسقط، ولكنه لم يلبث أن نهض وأخذ يقصف حانقاً مسعوراً عصبة الصبية، فكانت الحجارة تطير بلا توقف في الاتجاهين، وكانت جيوب عدة أطفال حول أليوشا ملأى هي أيضًا بقذائف.

صاح أليوشا يقول لهم:

- ما هذا الذي تفعلونه؟ ألا تستحون ايها السادة؟ أستةٌ على واحد؟ سوف تقتلونه!

ووثب أليوشا إلى أمام، ووقف في مسار القذائف ليحمي بجسمه الصبي الواقف في الجهة الأخرى من القناة. فهدأ ثلاثة أطفال أو أربعة بضع لحظات.

وصرخ صبيٌّ يرتدي قميصا أحمر يقول بصوت حانق:

- هو الذي بدأ! إنه وغدٌ.. لقد جرح كراسوتكين في المدرسة بطعنة موس. وتدفق دم كراسوتكين غزيراً. ولم يشأ كراسوتكين أن يشكوه. ولكنه يستحق عقاباً...

- ماذا كان السبب؟ لا شك أنكم شاكستموه في البداية، أليس كذلك؟

صاح الأطفال يقولون:

- ها هو ذا قد ضربك مرة أخرى في الظهر. لقد عرفك. إنه يستهدفك أنت الآن ولا يستهدفنا نحن. هيًا بنا عليه يا أولادا لا تخطئه يا سموروف!

وعاد القصف ينتالي من الجهتين، أشدَّ هولاً في هذه المرة. فأصيب صدر الصبي الواقف في الجهة الأخرى من القناة، فأطلق صرخة ألم، وأخذ يبكي، ثم هرب راكضاً نحو قمة الرابية في اتجاه شارع ميخائيلوفسكايا، فأخذت عصبة الصبية تقول مولولة: «آه... خاف.. هرب.. جبان... خرقة مبللة؟»

وعاد الصبي الذي يرتدي دراعة، عاد يقول لأليوشا وقد اشتعلت عيناه بحمي:

- أنت لا تعرف حتى الآن أي سافل هو هذا الصبي يا كارامازوف. إن قتله قليل عليه. وكان واضحاً أن هذا الفتى هو أكبر أفراد العصابة سناً.

- ماذا تأخذون عليه؟ أهو واش مثلاً؟

تبادل الصبية نظرة تتسم بالسخرية. وتابع الصبي نفسه كلامه فقال:

- أأنت ذاهب في اتجاهه، نحو شارع ميخائيلوفسكايا؟ أدركه إذاً... انظرا لقد توقف... يبدو عليه أنه ينتظر... وهو يتفرس فيك.

وردد الصبية الآخرون يقولون جوقة واحدة:

- هو يتفرس فيك، يتفرس فيك.

- أدركه إذن... واسأله هل يحب ليفة الحمام! اسأله هذا السؤال، هذا السؤال بالذات.

ما إن سمع الصبية هذا الكلام حتى انفجروا ضاحكين. فنظر إليهم أليوشا ونظروا إليه صامتين.

وصرخ سموروف يقول له محذراً:

- إياك أن تذهب إليه، فلسوف يضربك... قال أليوشا:

- لن أكلمه، أيها السادة، عن ليفة الحمام، لأنني أظن أنكم تشاكسونه وتغيظونه بهذه الكلمة.. ولكني سأعرف منه لماذا تكرهونه هذا الكره...

فأجابه الصبية ضاحكين:

- اسأله إذا، اسأله!
عبر أليوشا الجسر الصغير، واتجه إلى قمة الرابية، ماراً قرب سياج الأوتاد، بحيث يصل إلى الصبي المغضوب عليه.
قال الأطفال يحذرونه مرة أخرى وهو يبتعد عنهم:
- انتبه! إنه لا يخاف منك، وسوف ينبجس فجأة ليطعنك خفية، كما فعل بكراسوتكين.
كان الصبي ينتظره دون أن يتحرّك من مكانه. فلما اقترب أليوشا كل الاقتراب رأى أمامه طفلاً في التاسعة من عمره على أكثر تقدير، ضعيفاً هزيلاً له وجه مستطيل تسطع فيه عينان واسعتان دكناوان ترشقانه بنظرات شريرة. إنه يرتدي معطفاً عتيقاً جدا أصبح صغيراً على قامته وجعل منظره مضحكاً؛ وذراعاه العاريتان تخرجان من الكمين المسرفين في القصر. وعلى السروال تُرى رقعة عند الركبة اليمنى. كان ثقب فاغر في حذاء القدم اليمنى، في مكان الإبهام، مطلياً بالحبر من قبيل الإخفاء. وجيبا المعطف منتفخان بما فيهما من حجارة.
وقف أليوشا على بعد خطوتين منه، وألقى عليه نظرة سائلة، فأدرك الصبي من نظرته فوراً أنه لا ينوي أن يضربه. فبدا عليه شيء من التأنس، حتى لقد بدأ هو الكلام:
- أنا واحد وهم ستة... ولكنني سأغلبهم دون أي مساعدة.
قال ذلك واشتعلت عيناه فجأة.
قال أليوشا:
- لا شك أن إحدى تلك الحجارة قد أوجعتك كثيراً. فهتف الصبي يقول:
- ولكنني أصبت سموروف في رأسه!
سأله أليوشا:
- هم يزعمون أنك تعرفني، وأنك رميتني بالحجر عامداً.
فلماذا؟
لم يجب الطفل وإنما ألقي على أليوشا نظرة قاتمة.
قال أليوشا ملحاً:
- أما أنا فلا أعرفك، فهل تعرفني أنت؟
فصرخ الصبيّ فجأة يقول بعصبية وببريق غاضب في عينيه ولكن دون أن يتحرك فكأنه ينتظر شيئاً ما:
- دعني وشأني!
قال أليوشا:
- طيب. سأنصرف. ولكن لاحظ أنني لا أعرفك ولم أشاكسك أبداً. وقد ذكروا لي كيف يشاكسونك، ولكني لا أنوي أن أفعل ذلك. استودعك الله!
ومضى أليوشا.
- راهب منافق! إنك ترتدي تحت مسوحك سروالاً!
بهذا الكلام قذف الصبي أليوشا وهو يتابعه بنظرة كارهة متحدية، ووقف وقفة متحدية أيضًا، لاعتقاده بأن أليوشا لا بد أن يهجم عليه الآن. ولكن أليوشا لم يزد أن التفت إلى وراء، فنظر إلى الصبي صامتاً، ثم ابتعد... ومع ذلك فإنه ما كاد يسير ثلاث خطوات حتى شعر بألم شديد في ظهره. لقد أصابه الصبي بأثقل حصاة كان يحملها في جيوبه؛ فالتفت أليوشا من جديد، فقال للصبي:
- آ... نهاجم من خلف؟ لقد صدق الصبية إذاً حين ذكروا أنك تهاجم خلسة!
غير أن الصبي وقد استبد به غيظ شديد فرماه في هذه المرة بحجرة على وجهه، فلولا أن أليوشا سارع يحمي وجهه بذراعه، إذن لأصيب وجهه، وهكذا أصاب الحجر كوعه.
هتف أليوشا يقول له:
- ألا تستحي؟ ماذا فعلت لك؟.
صمت الصبي جامداً في مكانه وقد لاح في وجهة التحدي والانتظار بأن أليوشا سيهجم عليه في هذه المرة، فلما أدرك أن أليوشا لا يخطر بباله، حتى بعد هذه الضربة، أن يهاجمه، استبدّ به حنق مسعور كوحش صغير مفترس، فوثب هو نفسه على أليوشا. وقبل أن يتسع وقت أليوشا للقيام بأية حركة ليدافع عن نفسه كان الولد الشقي قد خفض رأسه فأمسك ذراع أليوشا اليسرى بكلتا يديه، وعضّ اصبعه الأوسط عضة قاسية رهيبة، غارساً أسنانه في لحم الأصبع بكل ما أوتي من قوة مدة عشر ثوان.
صرخ أليوشا من شدّة الألم، وحاول أن يسحب أصبعه من بين أسنان الصبي. فلما أرخى الصبي أسنانه أخيراً، أسرع يهرب ثم وقف على مسافة من أليوشا هي المسافة السابقة نفسها. كانت العضّة قويّة، قريبة من الظفر، قد وصلت إلى العظم. انبجس الدم من أصبع أليوشا، فأخرج منديله وربط به الجرح ربطة قوية، فقضى في هذا التضميد دقيقة كاملة. وفي أثناء ذلك ظل الصبي واقفاً في مكانه ينتظر. وعندئذٍ رفع أليوشا رأسه، وألقى عليه نظرة هادئة وقال له:
- هل رأيت الجرح العميق الذي أحدثته في إصبعي؟ أحسب أنّ هذا كاف، ألا ترى هذا الرأي؟ فقل لي الآن: بماذا أسأت إليك؟
فنظر إليه الصبي مشدوهاً. وتابع أليوشا كلامه يقول بتلك اللهجة الهادئة نفسها:
- أنا لا أعرفك. وهذه أول مرة أراك فيها.. ومع ذلك فإنني لا أستطيع أن أتصوّر أنني لم أسئ إليك أيّة إساءةٍ، فلولا أنّني أسأت إليك لما عذبتني هذا التعذيب بغير سبب حتماً. فما هو الذنب الذي اقترفته في حقك، وما هو الشر الذي أنزلته فيك، قل لي...
ولكنّ الصبي، بدلاً من أن يجيب، أخذ يبكي بكاءً قوياً جداً على حين فجأة، ثم ولّى هارباً... وتبعه أليوشا بخطى بطيئة، متجها نحو شارع ميخائيلوفسكايا، وظل مدّة طويلة يرى أمامه الطفل الهارب لا يخفف من سرعته ولا يلتفت إلى وراء ولعله ما يزال يبكي، وعزم أليوشا عزماً قاطعاً على أن يسعى إلى رؤية الطفل متى أتيحت له لحظة من حرية، ليجلو هذا السرّ الذي أحدث في نفسه أثراً قوياً. أما الآن فإن وقته لا يتسع لهذا.

-4-في منزل أسرة خوخلاكوف

لم يلبث أليوشا أن وصل إلى منزل السيدة خوخلاكوفا وهو مبنى أنيق من حجر، مؤلف من طابقين، تملكه السيدة خوخلاكوفا.
إنه من أجمل مباني مدينتنا. ورغم أن السيدة خوخلاكوفا قد عاشت أكثر وقتها في مقاطعة أخرى تملك فيها ضيعة، وعاشت كذلك في موسكو حيث تملك بيتاً خاصاً، فقد احتفظت بالمنزل الذي تملكه في مدينتنا والذي ورثته عن آبائها وأجدادها. يجب أن نذكر مع ذلك أن ضيعتها في مدينتنا هي أوسع الضيعات الثلاث التي تملكها، ورغم هذا لم تكن السيدة خوخلاكوفا قد أقامت بمدينتنا إلا نادراً حتى الآن. هرعت السيدة خوخلاكوفا تستقبل أليوشا في غرفة المدخل، وسألته بسرعة عصبية:
- هل تلقيت، هل تلقيت رسالتي بشأن المعجزة الجديدة؟
- تلقيتها.
- هل نقلت النبأ، هل أطلعت الناس على الرسالة؟ لقد ردّ الشيخ إلى هذه المرأة ابنها!
قال أليوشا:
- سيموت الشيخ في هذا اليوم.
- أعلم، أعلم، لقد قيل لي هذا. آه... ما أشد رغبتي في التحدث إليك! ما أشد رغبتي في التحدث عن جميع هذه الأشياء إليك، أو إلى شخص آخر.. بل إليك إليك أنت! خسارة إنني لا أستطيع أن أزوره! إن المدينة كلّها مضطربة، جميع الناس ينتظرون.... ولكن هل تعلم أن كاترينا إيفانوفنا هي الآن عندنا؟
هتف أليوشا قائلا:
ـ صحيح؟ هذا حظ موفق! سأراها إذا عندكم. لقد أصرت أمس أن أزورها اليوم.

- أعرف هذا. أنا على علم بكل شيء. لقد رُوي لي ما حدث في منزلها بالأمس تفصيلا... عرفت كل فظاعات تلك.... المخلوقة Cest tragique[106]، لو كنت في مكانها... حقاً إنني لا أعرف ماذا كان يمكن أن أفعل في هذه الحالة! ولكن ما رأيك أيضًا في أخيك هذا الكريه دمتري فيدوروفتش؟ آه... يا رب!.. أصبحت لا أعرف ماذا أقول يا ألكسي فيدوروفتش: تصور أن أخاك موجود الآن هنا... لا أقصد أخاك ذاك نفسه، أخاك ذاك الرهيب الذي فعل ما فعل بالأمس، بل أخاك الآخر إيفان فيدوروفتش! هو الآن هنا يتحدث معها. إنّ حديثاً مهيباً يدور بينهما... ليتك تعلم ما يجري بينهما الآن! شيء فظيع، شيء فظيع، أؤكد لك... تمزق حقيقي! قصة لا يصدقها العقل، حكاية لا يتصورها الخيال: كل منهما يضيع نفسه الآن، لا يدري أحد لماذا! وهما يدركان ذلك، ويجدان فيه نوعا من لذة. أوه! لقد انتظرت وصولك... كنت أتحرق إلى أن أراك. يستحيل علي، يستحيل علي إطلاقا أن أشهد ذلك! سأقص عليك هذا فيما بعد. ولكن يجب عليّ الآن أن أقول الشيء الأساسي.. آه.. كدت أنسى أن ما عليَّ أن أقوله هو الشيء الأساسي، هل تستطيع أن تشرح لي لماذا أصيبت ليزا بنوبة عصبية منذ قليل؟ إنها ما كادت تعلم بنبأ وصولك حتى ألمت بها نوبة هستيريا!
- Maman، أنت المصابة بنوبة هستيريا الآن، لا أنا.
بهذا ارتفع صوت ليزا المزقزق، من خلال شق الباب، في الغرفة المجاورة.
إنّ شق الباب ضيق جداً والصوت يبدو متوتراً إلى أقصى حدود التوتر، حتى ليوشك أن ينكسر كما يحدث حين يحس المرء برغبة في الضحك لا سبيل إلى مقاومتها ثم هو يكظم ضحكته ويكبحها بكل ما أوتي من قوة. ولم يلبث أليوشا أن لاحظ هذا الشق، فأيقن ان ليزا تنظر إليه من خلاله، جالسةً على مقعدها المتحرك، ولكنه لا يستطيع أن يلمحها.
- أأنا مصابة بنوبة هستيريا. لو أصبت بنوبة هستيريا لما كان في هذا غرابة يا ليزا، لما كان فيه غرابة البتّة!.. إن نزواتك المستمرة الدائمة ستجعلني أصاب بهذه النوبة. ليتك تعلم يا ألكسي فيدوروفتش إلى أي حد هي مريضة! لقد لازمتها الحمى طوال الليل، حتى إنها كانت تئن!.. ولم أكد أملك القدرة على الانتظار حتى هذا الصباح لاستشارة الدكتور هرتسنشتوبه. وقد أكد الدكتور أنه لم يفهم من الأمر شيئا، وأن علينا أن نصبر، فنرى كيف ستتطور حالتها. إن هرتسنشتوبه هذا يجيء فيصرخ في كل مرة أنه لا يفهم من الأمر شيئاً! وما إن اقتربت أنت من المنزل حتى أطلقت صرخة وألمت بها نوبة، ثم طالبت بأن تنقل إلى غرفتها القديمة هنا...
- ولكنني، يا ماما، لم أكن أعرف أبداً أنهّ هنا. فأنا لم انتقل إلى هذه الغرفة بسببه هو.
- غير صحيح يا ليزا! لقد أسرعت يوليا تبلغك أن ألكسي فيدوروفتش قادم، وكنت قد كلفتها بأن ترابط هنا لترقب وصوله.
- ماما، يا حبيبتي! ليس هذا الذي تدعينه بالدعابة الفكهة. فإذا أردت أن تصلحي الخطأ وأن تقولي شيئاً يكون على جانب كبير من الذكاء فأبلغي ألكسي فيدوروفتش المحترم، الذي وصل منذ هنيهة أنه قد أخطأه الذكاء حين قرر أن يجيء إلينا اليوم بعد الذي حدث بالأمس، وبعد أن أصبح جميع الناس يسخرون منه ويضحكون عليه.
- ليزا، إنك تسرفين! ثقي أنّني سأتخذ في حقك إجراءات قاسية آخر الأمر. من ذا الذي يسخر منه أو يضحك عليه؟ إنّني من جهتي سعيدة جداً برؤيته. أنا في حاجةٍ إليه، أنا لا غنى لي عنه. آه يا ألكسي فيدوروفتش! ليتك تعرف مدى شقائي وتعاستي!
- ماذا بك يا ماما، يا ملاكي؟
- هي نزواتك يا ليزا، وتقلب مزاجك، ووطأة مرضك وهذه الليلة الرهيبة التي عانيت فيها الحمى، ثم هذا الطبيب الفظيع الأبدي هرتسنشوبه، هذا الطبيب الأبدي خاصة، هذا الطبيب الأبدي الأبدي، الأبدي! ثم كل شيء، نعم، كل شيء، كل شيء إطلاقا... وحتى هذه المعجزة!.. لا تستطيع أن تتصور يا عزيزي ألكسي فيدوروفتش مدى الاضطراب الذي أحدثته هذه المعجزة في نفسي! ثم هذه التراجيديا التي تجري الآن في الصالون والتي يستحيل عليَّ احتمالها، يستحيل، يستحيل كل الاستحالة... أؤكد لك ذلك منذ الآن. ولعلها كوميديا لا تراجيديا! قل لي: هل يعيش الأب زوسيما حتى الغد، حتى الغد على الأقل؟ آه... يا رب!... أصبحت لا أدري ماذا يقع لي. في كل لحظة أغمض عيني، فأرى أن كل شيء تافه، كل شيء تافه.
قاطعها أليوشا سائلاً:
- هل أستطيع أن أرجوك أن تعطيني خرقةً نظيفةً أعصب بها أصبعي؟ لقد جرحت جرحاً عميقاً يؤلمني الآن إيلاماً شديداً.
نزع أليوشا الضماد عن جرح العضّة، فكان المنديل أحمر من الدم، فأطلقت السيدة خوخلاكوفا صرخة وأغمضت عينيها وغضنت حاجبيها.
- يا رب ! يا لهذا من جرح! فظيع!..
ولكن ما إن لمحت ليزا اصبع أليوشا من شق الباب حتى فتحت الباب بدفعة قوية، وصاحت تقول بصوت آمرٍ صارم:
- ادخل إلى هنا، ادخل فوراً، لا محل الآن لتبادل أقوال سخيفة ! آه... يا رب ! كيف أمكنك أن تسكت عن هذا طوال هذه المدة؟ كان يمكن أن يفقد دمه يا ماما! كيف جرحت هكذا؟ هاتوا ماء قبل كلّ شيء، هاتوا ماءا!.. يجب أن نغسل الجرح أولاً ثم تغطّس أصبعك في الماء البارد تهدئةً للألم. لن يكون عليك إلاّ أن تبقي أصبعك مدة طويلة في الماء... أسرعي يا ماما، هاتوا ماء على الفور، وهاتوا طستاً ثم صاحت تقول في عصبيةٍ:
- هلا أسرعتم!
كانت ليزا مروّعة جداً، فقد أحدث جرح أليوشا في نفسها أثراً رهيباً.
هتفت السيدة خوخلاكوفا تقول:
- ألا يستحسن أن نستدعي الدكتور هرتسنشتوبه؟
- سوف تقتليني يا ماما! إن صاحبك هرتسنشتوبه سيجيء فيقول إنه لم يفهم من الأمر شيئاً! هاتوا ماء، هاتوا ماء! هاتي الماء بنفسك يا أماه، ناشدتك الله، أو قولي ليوليا أن تسرع! إن يوليا بطيئة دائماً، ولا تستطيع أن تقوم بما يجب القيام في حينه. أسرعي يا ماما، إنك تميتينني...
تدخل أليوشا يقول وقد أقلقه جزعهما:
- ولكن ليس هذا الجرح الصغير بشيء.
وهرعت يوليا في تلك اللحظة حاملة طستاً مملوءاً بالماء. فغطّس فيه أليوشا إصبعه.

- ماما! ناشدتك الله، هاتي لنا نسالة الكتان، وهاتي لنا أيضًا من ذلك السائل العكر الذي يحرق والذي يستعمل في مداواة الجروح... لقد نسيت اسمه!.. عندنا منه.. نعم، عندنا منه... أنت تعرفينها يا ماما... تلك القارورة الموجودة في غرفتك، في الخزانة، على اليمين.. ويوجد هنالك شاش أيضًا...
- ساجيء لك به، ولكن لا تصرخي ولا تضطربي يا ليزا. انظري كيف يحتمل ألكسي فيدوروفتش الألم صابراً! ولكن أين جرحت هكذا يا ألكسي فيدوروفتش؟
وخرجت السيدة خوخلاكوفا مسرعة. وذلك بعينه ما كانت تنتظره ليزا.
قالت لأليوشا متعجلة:
- أجب عن سؤالي أولاً: أين جرحت هذا الجرح؟ ثم نتكلم بعد ذلك في أمر آخر. هيه؟
وإذ أدرك أليوشا بفطرته أن الدقائق القليلة التي ستنقضي إلى حين وصول الأم ثمينة جداً في نظر ليزا، فقد روى لها قصة لقائه الغامض بالتلاميذ، في عجلة مقتضبة مسقطاً تفاصيل كثيرة، ولكنه روى لها القصة مع ذلك واضحة دقيقة. فبعد أن أصغت ليزا إلى روايته، ضمت يديها إحداهما إلى الأخرى، وصاحت تقول غاضبة، كان من حقها أن تؤنبه وتقرعه:
- كيف أمكنك أن تتدخل في أمر أولاد صغار وأنت فوق ذلك ترتدي مسوح راهب؟ ألا إنّك طفل صغير، ألا إنك لصبي غرّ أنت أيضًا... ومع ذلك اسأل عن هذا الولد الشقيّ، ثم حدثني بعد ذلك في أمره، فلا شك أن هناك سراً. شيء آخر الآن. قل لي أولاً يا ألكسي فيدوروفتش: هل أنت قادر رغم الألم على أن تتحدث في أمور تافهة حقاً، شريطة أن تتحدث فيها جاداً؟
- أنا قادر على ذلك كل القدرة. ثم إنني أصبحت لا أشعر بألم شديد في أصبعي.
- لأنك غطستها في الماء. يجب تغيير الماء حالاً، لأنه يدفأ بسرعة. يوليا! أسرعي إلى القبو فائتيني بقطعة من ثلج، وائتيني كذلك بطست آخر فيه ماء بارد. ها هي ذي قد مضت الآن فسأتحدث في أمري: هل لك أن ترد إليّ فورا، أيها العزيز ألكسي فيدوروفتش، الرسالة التي بعثت بها إليك أمس؟ هيا ردها إليّ بسرعة، لأن أمي قد تصل من لحظة لأخرى، وأنا لا اريد لأمي أن...
- ليست الرسالة معي.
- كذب! هي معك! كنت أتوقع هذا الرد. الرسالة معك، في هذا الجيب. ما كان أشد ندمي طوال الليل على هذه المزحة. رد إلى الرسالة فورًا! أعطنيها!
- تركتها هناك، في الدير.
- لا تحسبني طفلة صغيرةً، صغيرةً جداً، بعد مهزلة هذه الرسالة... إنها مهزلة خبيثة سيئة!.. أرجوك أن تغفر لي هذا الشذوذ الأحمق. أما الرسالة فيجب أن تأتيني بها حتماً، إذا هي لم تكن معك الآن، بل يجب أن تأتيني بها في هذا اليوم نفسه، حتماً، حتماً!
- أما أن آتيك بها اليوم فهذا مستحيل. ذلك أنني عائد إلى الدير، ولن أراك قبل انقضاء يومين أو ثلاثة وربما أربعة، لأن الأب زوسيما...
- أربعة أيام؟ هذا هراء! قل لي بصراحة: هل سخرت مني كثيراً؟
- لم أسخر البتة.
- لماذا؟
- لأنّني صدقت كل ما كتبته تصديقاً قاطعاً.
- أنت تهينني!
- أبداً. إنني بعد أن قرأت رسالتك قلت لنفسي فوراً: لتجرينّ الأمور على هذا النحو. فمتى مات الأب زوسيما، سأضطر إلى مغادرة الدير، وسأستأنف دراستي، وسأتقدم إلى الامتحانات. حتى إذا انقضت المدة القانونية تزوجنا. وسوف أحبك. فرغم أنني لم يتسع وقتي لأن أفكر في الأمر ملياً، قد قدّرت أنني لن أجد لنفسي زوجة أفضل منك، وقد أمرني الشيخ بأن أتزوج...
هتفت ليزا تقول وهي تتفجر ضاحكةً، بينما اشتعلت وجنتاها بحمرة شديدة:
- ولكنني دميمة، مقعدة ينقلونني في الكرسي!
- ساجرّ الكرسي المتنقل بنفسي إذا لزم الأمر. ولكنّني على يقين من أنك ستكونين قد شفيت أثناء هذه المدة.
قالت ليزا بعصبية:
- ألا إنك لمجنون! أنا إنما كنت أمزح، فإذا بك تبني على هذا المزاح مشاريع سخيفة مضحكة! آ... هذه ماما قد رجعت. أحسب أنها عادت في الوقت المناسب. ماما، أنت دائما تتأخرين هذه بوليا قد جاءت بقطعة الثلج!
- أوه! ليزا! لا تصرخي هذا الصراخ! أستحلفك بالله... إن هذا الصراخ يُطيِّشُ عقلي... ليس ذنبي أنك قد دسست الضمادات في غير الموضع الذي ذكرته لي.. لقد بحثت عنها في كل مكان فلم أظفر بها... إني لأتساءل ألم تفعلي هذا عامدةً.
- تماماً.... عامدة! لم يكن في وسعي أن أتنبأ أنه سيصل بجرح في إصبعه، ولو قد تنبأت بذلك لأخفيت الضمادات فعلاً! ماما، ملاكي الصغير، إنّك تقولين اليوم فكاهات ظريفة حقاً!
- ظريفة أو غير ظريفة! المهم أنّني أخذت أرى أنك لا تشفقين على ألكسي فيدوروفتش من جرحه، كما لا تشفقين على أحد من شيء على كل حال. ليتك تعلم يا عزيزي ألكسي فيدوروفتش مدى ما أقاسي من ألم وعذاب! ليست هذه التفاصيل الصغيرة هي التي تقتلني، ليس هذا الطبيب هرتسنشتوبه وحده هو الذي يرهقني... بل جملة الأمر... جملة الأمر... ذلك هو ما أصبحت لا أملك القدرة على احتماله.
قاطعتها ليزا تقول وهي تضحك مرحةً:
- كفى كلاماً عن هرتسنشتوبه يا ماما! ناوليني الشاش والسائل. هو غسول بسيط من محلول الرصاص يا ألكسي فيدوروفتش.. تذكرت الآن... ولكنه نافع جداً. اعلمي يا ماما أنه اقتتل في الشارع مع صبية صغار، وأن طفلاً قد عضّه في إصبعه! أليس هو نفسه صبياً صغيراً؟ ما رأيك يا ماما؟ هل يمكنه بعد هذا أن يتزوج؟ ذلك أنه ينوي أن يتزوج يا ماما.. تخيلي هذا... هل تتصورينه متزوجاً؟ شيء يميت من الضحك!.. أليس هذا فظيعاً؟
وكانت ليزا تضحك ضحكها العصبي بلا توقف، وهي تلقي على أليوشا نظرةً ماكرةً.
- ما هذا الذي تقولينه يا ليزا؟ كيف يمكنه أن يتزوج؟ دعيك من هذه السخافات! ثم إنّ هذا الأمر لا يعنيك... أما ذلك الصبي الذي عضّه، أفلا يمكن أن يكون مصاباً بداء الكلب؟
- ولكن يا ماما، هل يوجد أطفال مصابون بداء الكلب؟
- ما هذا السؤال يا ليزا؟ لكأنّني قلت إذاً سخافةً حمقاء! إنّ من الجائز أن يكون الصبي قد عضّه كلبٌ مصابٌ بداء الكلب، وأصبح مصاباً بداء الكلب، فإذا هو يعض بدوره كل من يقتربون منه! لقد ضمدت إصبعك تضميداً رائعاً يا ألكسي فيدوروفتش! ما كان لي أنا أن أتقن التضميد هذا الإتقان! أما تزال تشعر بوجع؟
- قليلاً جداً.
وسألته ليزا:
- ألا تخشى الماء؟
قالت الأم:
- لا تسرفي يا ليزا. لقد تعجلت أنا حين تكلمت عن داء كلب بصدد ذلك الصبي، فأخذت تستنتجين استنتاجات! يا ألكسي فيدوروفتش إن كاترينا إيفانوفنا، وقد علمت الآن أنك هنا، تصرّ على أن تراك حالاً... إنها تتحرق إلى التحدث إليك!
قالت ليزا:
- اذهبي إليها وحدك يا ماما! أمّا هو فإنه لا يستطيع أن يمضي إليها الآن، لأن أصبعه تؤلمه كثيراً..
فقاطعها أليوشا قائلاً:
- كلّا!.. إنّني لا أشعر الآن بوجع. في إمكاني أن أذهب إليها...
- ها!.. تذهب؟ أهكذا إذن؟ هكذا؟
- ولم لا؟ متى فرغت من الحديث معها عدت إلى هنا ثانيةً، فاستطعنا أن نتكلم ما شئت أن نتكلم. إنّي أحرص في الواقع حرصاً شديداً على أن أرى كاترينا إيفانوفنا بأقصى سرعة، لأنّني أريد أن أرجع إلى الدير في أقرب وقت.

- خذيه يا ماما، وقوديه إليها بسرعة! ويا ألكسي فيدوروفتش وفِّر على نفسك عناء العودة إلي بعد مقابلة كاترينا إيفانوفنا. ارجع إلى ديرك رأسا، فهنالك إنما يطيب لك المقام أكثر مما يطيب لك في أي مكان آخر! أما أنا فأحب أن أنام، لأنني قضيت في البارحة ليلة بيضاء.
هتفت السيدة خوخلاكوفا تقول:
- أنت تمزحين يا ليزا! ومع ذلك سأكون سعيدةً جداً إذا أنت استطعت أن تنامي قليلاً.
وتمتم أليوشا يقول:
- لا أدري ماذا فعلت حتى... وعلى كل حال، سأبقى معك ثلاث دقائق أخرى، بل وحتى خمس دقائق إذا كانت تحرصين على ذلك.
- وحتى خمس دقائق؟ ياه!.. خذيه يا ماما.. ماذا تنتظرين؟ إنه مخلوق عجيب، غول حقيقي!
- ليزا! أنت مجنونة! هيا بنا يا ألكسي فيدوروفتش! إنها اليوم شديدة النزوات، وأخشى أن نثير أعصابها... ما أشقى التعامل مع نساء عصبيات يا ألكسي فيدوروفتش! على كل حال، لعلّها شعرت حقاً بحاجة إلى النوم أثناء حديثكما. ماذا فعلت حتى استطعت أن تردّ إليها النعاس بهذه السرعة؟ ذلك توفيق في الواقع!..
- مرحى يا ماما! هاأنت ذي الآن تقولين كلاماً لطيفاً! أحب أن أُقبّلك.
- وأنا أيضًا يا ليزا!
كذلك قالت السيدة خوخلاكوفا لابنتها ثم أضافت تخاطب أليوشا وهما يخرجان من الغرفة:
- أصغ إلي يا ألكسي فيدوروفتش...
وراحت تكلمه متعجلةً بصوتٍ خافتٍ، فيه غموض وأهميّة:
- لا أريد أن أؤثر فيك... لن أزيح الحجاب قبل الأوان، ولكنّك سترى بعينك كل ما يجري الآن هناك، وستحكم عليه بعقلك. شيء رهيب. تمثيلية عجيبة!.. إنها تحب أخاك إيفان فيدوروفتش، ثم هي تحاول أن تقنع نفسها، بكل ما أوتيت من قوة، بأنها تحب أخاك دمتري فيدوروفتش. شيء فظيع! سأدخل معك، فإذا لم أُطرد بقيت لأرى خاتمة هذا كله.

-5-التمزُّق في الصالون

كان الحديث في الصالون يشارف على نهايته. إن كاترينا إيفانوفنا تبدو مضطربة اضطراباً شديداً، رغم أنّ في وجهها تعبيراً عن عزم وحسم. وحين دخل أليوشا والسيدة خوخلاكوفا كان إيفان فيدوروفتش ينهض استعداداً للانصراف. إنه شاحب الوجه. لاحظه أليوشا في قلق. ذلك أن أليوشا راحت تتضح له، في تلك اللحظة، شبهة كانت تعذبه منذ زمن طويل، ولغز مقلق كان يشغل باله. إنّ أشخاص كثيرين كانوا قد أكدوا له مراراً، منذ أكثر من شهر، أن أخاه إيفان يحب كاترينا إيفانوفنا، وأنهّ خاصةً ينوي أن «ينتزعها» من ميتيا فعلاً. ولم يستطع أليوشا حتى هذه الأيام الأخيرة أن يصدّق هذا الأمر، لأنّه كان يبدو له شاذاً فظيعاً، غير أن تلك المزاعم كانت تقلقه مع ذلك. إنّه يحب أخويه كليهما ويخشى أن يقوم بينهما تنافس كهذا التنافس وخصومة كهذه الخصومة. على أنّ دمتري فيدوروفتش قد قال له من تلقاء نفسه أمس إنّ التنافس بينه وبين الأخ إيفان يسعده ويبهجه، لأنّه ييسر عليه الأمر كثيراً. وكان أليوشا يتساءل: أي أمر؟ ألا انه يتيح له أن يتزوج جروشنكا؟ ولكن هذا، كما يعتقد أليوشا فعل يائس وحل رهيب. ثم إن أليوشا كان إلى أمس مقتنعاً اقتناعاً جازماً بأن كاترينا إيفانوفنا تحب أخاه دمتري حباً قوياً عارماً. ولكن هذا الاقتناع قد تزعزع في نفسه الليلة البارحة. يضاف إلى ذلك أنه كان يخيّل إليه، دون أن يعرف لماذا، أن كاترينا إيفانوفنا لا يمكن أن تحب رجلاً من نوع إيفان، وأنها إنما تحب دمتري كما هو، على علاته رغم ما في هذا الحب من أمور مستحيلة سخيفة! غير أنّ المشهد الذي جرى أمس مع جروشنكا قد أنبت في نفسه على حين فجأة شعوراً معارضاً لهذا الشعور تماما، لم يتّضح له على الفور. إنّ تعبير «التمزق» الذي استعملته السيدة خوخلاكوفا منذ لحظات قليلة قد جعل أليوشا ينتفض، لأنّه في تلك الليلة نفسها، أثناء «شبه النوم» الذي ينامه المرء عند الفجر، قد كرّر كلمة «حب التمزق» هذه عدة مرات، جوابا على أحلام لم تكد تتبدد. وكانت جميع أحلامه في الليلة البارحة إنما تدور على المشهد الذي وقع أمس في منزل كاترينا إيفانوفنا. فلما قالت له السيدة خوخلاكوفا جازمة إن كاترينا إيفانوفنا إنما تحب في الواقع إيفان، وأنها تكذب على نفسها عمداً، من باب اللعب، من قبيل الميل إلى «التمزق»، وتعذّب نفسها بحبها المصطنع لدمتري بسبب اندفاعة شكران غامضة غير مفهومة، اهتزّ أليوشا اهتزازاً قوياً واضطرب اضطرابا شديداً، وتساءل: «ألا يمكن أن تكون هذه هي الحقيقة رغم كلّ شيء؟» لكن إذا صح هذا فما هو وضع إيفان؟ لقد كان أليوشا يقدّر بفطرته وغريزته أن امرأة مثل كاترينا إيفانوفنا تشعر بحاجة إلى السيطرة والتسلط، وهي لا تستطيع أن تمارس هذه السيطرة وهذا التسلط إلا على رجل مثل دمتري، لا تستطيع أن تمارس هذا التسلط على شخصية من طراز إيفان. ذلك أن دمتري وحده قادر على الخضوع لسلطانها في آخر المطاف (لا على الفور طبعاً، بل بمرور الزمن)، وذلك «يحقق له الخير كله» (وهو ما يتمناه له أليوشا). فإيفان لن يقبل الرضوخ في يوم من الأيام، ولن يجعله الخضوع سعيداً بحال من الأحوال؛ أو هذا على الأقل ما كان أليوشا يقدّر على اساس الفكرة التي قامت في ذهنه عن إيفان.

هذه الترددات وهذه الخواطر قد ازدحمت في فكر أليوشا لحظة دخل الصالون. ثم هاجمته فكرة أخرى، فإذا هو يتساءل: «فماذا لو كانت لا تحب لا هذا ولا ذاك؟» ويحسن أن نلاحظ هنا أن أليوشا كان يشعر بخجل من خواطره هذه، وأنه قد لام نفسه عليها مراراً أثناء هذا الشهر الأخير حينما حدث أن خطرت بباله: «ما معرفتي أنا بالنساء وبالحب، وكيف أجيز لنفسي أن أطلق أحكاما من هذا القبيل؟» كذلك كان أليوشا يقول لنفسه مساء كلما اتفق له أن يسترسل في تأملات أو تخمينات في هذا المجال. ولكن كان يستحيل عليه من جهة أخرى أن لا يفكر في هذه المسائل، كان يدرك بغريزته، مثلاً، أنّ هذا التنافس بين أخويه الآن يجثم ثقيلاً على مصيريهما، وأنّه يحمل في طياته عواقب ضخمة. «فلتأكل السراطين بعضها بعضاً!» - كذلك قال إيفان بالأمس وهو يتحدث حانقاً عن أبيه وعن أخيه دمتري. معنى ذلك أنه يعدّ أخاه سرطاناً، ولعلّه يعدّه كذلك منذ زمن طويل. أفلا يمكن أن يكون قد أصبح بعده سرطاناً في اللحظة التي عرف فيها كاترينا إيفانوفنا؟ صحيح أنّ هذه الكلمة قد أفلتت من إيفان أمس على غير إرادة منه، ولكن هذا نفسه يجعلها أصدق دلالةً. فكيف يمكن والحالة هذه أن نأمل أن يحل السلام والوئام بينهما؟ أليس في هذا مزيد من أسباب العداء وعوامل الكره في داخل الأسرة؟ وتساءل أليوشا خاصةً أيهما في هذا النزاع أحقُّ بالشفقة عليه والرثاء له؟ وما الذي ينبغي أن يتمنّاه لكلٍ منهما؟ إنّه يحبّهما كليهما. ولكن ما الذي يمكن أن يتمناه لكل منهما وسط هذه التناقضات الرهيبة؟ أنه يحبهما كليهما. ولكن، وسط كل هذه التناقضات، أينَ توجد السعادة التي يتمناها لهما؟ لقد ارتبك عقل أليوشا أشدّ الارتباك بين خيوط هذا الظرف المعقد المتشابك المشوش. وهو إنسان ذو قلب لا يطيق الحيرة، لأن حبّه يتصف دائما بأنه حبّ فعالٌ. إنّه لا يعرف الحب الذي يقف ساكناً بغير حركة. فمتى أحبّ أصبح يحترق شوقاً إلى أن يبادر إلى المساعدة، وأن يعرف على وجه الدقة والوضوح ما هو خير وما هو ضرورة لكلّ من أخويه، حتى إذا تأكد من صحة غايته كان لا بد له، طبعاً، أن يساعد كلا منهما. ولكن كان كلّ شيء في حياتهما وتصرفهما اضطراباً واختلاطاً وإبهاماً، فأين يمكنه الاهتداء إلى غاية وهدف محوّر في ذلك كله؟ لقد ذكر أمامه تعبير «الميل إلى التمزق» أو «حب التمزق». فكيف يؤول هذا التعبير؟ يبدو أن الكلمة الأولى في هذا الاختلاط كانت تفوق فكره.

ما إن دخل أليوشا فرأته كاترينا إيفانوفنا، حتى أسرعت تقول لإيفان فيدوروفتش الذي وقف استعدادا للخروج، فرحة فرحاً واضحاً:

- لحظة أخرى! لا تنصرف فوراً. أحبّ أن أعرف رأي هذا الشاب الذي أمحضه ثقة مطلقة.

ثم أضافت تخاطب السيدة خوخلاكوفا:

- ابقي أنت أيضًا يا كاترينا أوسيبوفنا.

وأجلست أليوشا قربها بينما اتخذت السيدة خوخلاكوفا مجلسها أمامهما إلى جانب إيفان فيدوروفتش.

وبدأت تقول بحرارة، والدموع التي يدرك المرء أنها تهمّ أن تسيل من عينيها، تهدّج صوتها بانفعال صادق أليم:

- أنتم جميعاً أصدقائي، أنتم أصدقائي الوحيدون في هذا العالم.. يا أصدقائي الأخيار، الأعزاء...

أحسّ أليوشا في تلك اللحظة أن المرأة الشابّة قد غزت قلبه من جديد.

وتابعت كلامها تقول:

- لقد شهدت بالأمس ذلك المشهد يا ألكسي فيدوروفتش... شهدت ذلك المشهد الفظيع، ورأيت كيف تصرّفت أنا... أنت لم ترني في تلك اللحظة يا إيفان فيدوروفتش، أما هو فقد رآني. لا أدري ما الذي رآه فيّ من رأي في تلك الظروف. ولكنّني في مقابل ذلك أعلم علم اليقين أنني لو وُجِدتُ اليومَ في موقفٍ مماثلٍ لكان ردّي هو الردّ الذي بدر منّي أمس، مع تلك العواطف نفسها، وتلك الأقوال نفسها، وتلك الحركات نفسها. إنك تتذكر يا ألكسي فيدوروفتش الحركات التي بدرت منّي أمس، وقد اعتقدت أن من واجبك أن تثنيني... (احمرّ وجهها واشتعلت عيناها حين نطقت بهذه الكلمات). فاعلم يا ألكسي فيدوروفتش، وأنا أعلن لك هذا جازماً، أنّني عاجزة عن الاستسلام لأيّ شيء. واعلم أيضًا يا ألكسي فيدوروفتش أنني أصبحت لا أدري أأنا أحبّه هو الآن أم لا. إننّي الآن أشعر نحوه بشفقة، والشفقة علامة حبّ تافهةٍ مسكينةٍ حقيرةٍ وإذا ظللت أحبّه، إذا ظللت أحبّه رغم كلّ شيء، فلن أشفق عليه، وانمّا سأكرهه من غير شك...

أخذ صوتها يرتجف، والتمعت دموع صغيرة في أطراف أهدابها. واضطرب أليوشا. قال لنفسه: «هذه الفتاة إنسان مخلص صادق، و... قد أصبحت لا تحبّ دمتري!»

هتفت السيدة خوخلاكوفا تقول:

- هذا صحيح، صحيح كل الصحة!

- انتظري يا كاترينا أوسيبوفنا! أنا لم أقل بعد الشيء الأساسي، لم أذكر القرار الذي اتخذته الليلة ولن أتراجع عنه. إنني أوجس أن قراري هذا سيعود علي بعواقب رهيبة، ولكنني أعلم أنني لن أنكص على عقبي، لن أتقهقر إلى الوراء، مهما يحدث، بأي حال من الأحوال. لقد حسمت الأمر على مدى حياتي كلها. وإن صديقي المخلص الوفي، إنّ ناصحي النبيل الطيّب الذي يعرف قلبي معرفة عميقة، إن إيفان فيدوروفتش الصديق الوحيد الذي أنعم بصداقته في هذا العالم، يؤيّد رأيي تأييداً تاماً، ويطري قراري إطراءً كاملاً، ويشجّعني على المضيّ في ما عقدت عليه... وهو يعرف قراري.

قال إيفان فيدوروفتش بصوت خافت لكنه حازم:

- أنا أؤيد هذا القرار... هذا صحيح.

- أحبّ مع ذلك أن يقول لي أليوشا (أوه... اغفر لي يا ألكسي فيدوروفتش أنني سميتك أليوشا ببساطة)، أحب أن يقول لي ألكسي فيدوروفتش هو أيضًا، بحضور صديقي، أأنا على حق أم لا؟

وتابعت تقول بحماسة وهي تمسك بيدها الحارة يد أليوشا الباردة:

- أنا على يقين غريزي، يا أليوشا يا أخي العزيز (ذلك أنك أخي العزيز)... أنا أحس سلفاً أن قرارك وتأييدك سيعيدان السلام إلى نفسي رغم كلّ ما أقاسيه الآن من ألوان العذاب، وأنني سأقبل مصيري وأرتضي قدري بعد أن أسمع لكلامك... نعم، أنا أحس سلفاً!

قال أليوشا وقد تخضّب وجهه بحمرة قانية:
- لا أعرف موضوع سؤالك، ولكنني أعرف على اليقين أنّني أحبك بكل قلبي، وأحرص على سعادتك أكثر من حرصي على سعادتي...
ثم أسرع يضيف فجأة، لسبب ما:
- على أنّني لا أفهم في هذه الأمور شيئاً....
- في هذه الأمور، يا إيفان فيدوروفتش، المسألة الرئيسية الآن هي مسألة شرف وكرامة وواجب، وربّما شيء آخر أيضًا، شيء سام لا أستطيع أن أعرفه، ولكنه قد يكون حتى فوق الواجب. هو نداء أعلى أسمعه في قلبي، وقوة لا تقاوم تهيب بي أن ألبّيه. وأجمل فأقول إنني قد اتخذت قراري، وإليك هذا القرار: هَبْه تزوج هذه... المخلوقة (هنا أصبح صوتها مهيباً)، التي لن أغفر لها أبداً، أبداً... فإنني لن أتركه هو، حتّى في هذه الحالة! لن أتركه بعد اليوم، لن أتركه أبداً! (كذلك قالت بنوع من حماسة واهنة حزينة). لن أتعلّق بكتفه طبعاً، لن أحاصره بوجودي دائماً، لن أعذّبه بحضوري أبداً... بالعكس... سأسافر إلى مدينة أخرى، إلى مدينة نائيةٍ، إذا اقتضى الأمر ذلك، ولكنّي سأظلّ أهتمّ به من بعد، وأسهر عليه طوال حياتي بلا كلل. فإذا شقي مع الأخرى - وذلك أمر لن يتأخر كثيراً - فلن يكون عليه إلّا أن يعود إليّ، فيجد في صديقة مخلصة، أختاً حنوناً... أختاً لا أكثر... طبعاً.... ذلك أن كل شيء بيننا لن يتجاوز هذه الحدود أبداً. ويجب أن يعلم حينها أنني أخت له حقاً، أخت مخلصة ضحّت في سبيله بحياتها كلها. سوف أحسن التصرف بحيث يعرفني أخيراً، سوف أجبره على أن يعرفني، وسيصل من ذلك إلى الاعتماد عليّ بلا خجل! سأكون الإله الذي يصلي له: ذلك أقل ما يجب عليه لي تكفيراً عن خيانته وعما قاسيته أمس بسببها ويجب أن يعرف ويرى في جميع أيام حياته أني سأكون وفيةً له إلى الأبد ولعهدي له الذي قطعت على نفسي مرة وإلى الأبد، رغم أنّه لم يكن وفياً لي وخانني. سأكون... وسأجعل نفسي أداة لسعادته (أحسب أنني لا أجيد التعبير عمّا بنفسي)، سأجعل نفسي آلة تصنع له السعادة، وذلك طوال حياتي، طوال حياتي... ليرى هو هذا طوال حياته! ذلك هو قراري! إن إيفان فيدوروفتش يؤيدني تأييداً كاملاً.
كانت تلهث. لا شك أنّها كانت تتمنى أن تفصح عن نفسها إفصاحاً أرصن وأبرع وأكثر يسراً، غير أن كلماتها قد تدفقت سريعاً، مترجمة عواطفها بلغة فيها كثير من الانطلاق المباشر العنيف. إنّ المرء يحس، في جميع ما قالته، اندفاع شبابها وبقايا غضب الأمس وحاجتها إلى تأكيد عزّتها وكبريائها من جديد. وقد أدركت هي ذلك على حين فجأة، فأظلم وجهها وغار تعبير الطيبة من عينيها. ولاحظ أليوشا هذا، فأخذته بها شفقة. وتدخل إيفان في تلك اللحظة قائلاً:
- أنا لم أعبّر عن رأيي الشخصي. إنّ عواطف من هذا النوع كان يمكن أن تبدو، عند أي امرأة أخرى غيرك، عواطف مصطنعة هي ثمرة جهد إرادي شاق أليم معذب، أما عندك أنت فلا... لو تصرفت امرأة أخرى هذا التصرف لكانت على خطأ، أما أنت فلا... لست أدري كيف أعبّر عن شعوري، ولكنّني ألاحظ أنّك صادقة إلى أبعد حدود الصدق، فأستنتج من ذلك أنك على صواب...
فلم تستطع السيدة خوخلاكوفا أن تمنع نفسها من أن تقول:
- هي صادقة، ولكنها صادقة في هذه اللحظة وحدها... وما هي هذه اللحظة؟ إنّه قرار عابر سريع تأخذه تحت وطأة إهانة الأمس فحسب. ذلك هو معنى قرارها في هذه اللحظة!
كان واضحاً أن السيدة خوخلاكوفا لم تكن تريد أن تقحم نفسها في المناقشة، ولكنّها لم تستطع أن تكبح جماح نفسها، فأفلتت منها هذه الملاحظة السديدة تماما.
فقال إيفان بعنف مكظوم، وقد بدا عليه الاستياء والحنق من مقاطعته:
- صحيح... غير أن هذه اللحظة لا تكون لدى امرأة أخرى إلا اندفاعاً مؤقتاً مردّه إلى حادث الأمس، وإلى لحظة واحدة فعلاً، أما لدى امرأة لها طبع كطبع كاترينا إيفانوفنا فستدوم هذه اللحظة مدى الحياة. إنّ ما يمكن أن لا يكون من فتاة عادية إلا كلاماً في الهواء ووعداً ما يلبث أن ينسى، لا بدّ أن يصبح لدى فتاة مثل كاترينا إيفانوفنا واجباً باقياً والتزاماً مستمراً قد يكون قاسياً أليماً حزيناً، ولكنّه لا مفر منه ولا عدول عنه. إن كاترينا إيفانوفنا ستحيا على هذا الشعور بأنها قامت بواجبها! إنّ حياتك، يا كاترينا إيفانوفنا، ستنقضي بعد اليوم في تأمل أليم لعواطفك وبطولتك وشقائك. على أنّ هذا الشتاء ستخفّ وطأته مع الزمن، و سيستحيل شيئاً فشيئاً إلى رضى هادىء عذب عن أنك عرفت كيف تخلصين حتى النهاية لقرار حاسم فيه كبرياء... نعم فيه كبرياء بمعنى من المعاني، ولكن فيه يأس في الدرجة الأولى... وستنتصرين آخر الأمر... وسيملؤك هذا الشعور يومئذ بفرح هادىءٍ وغبطةٍ ناعمةٍ، وسيصالح بينك وبين كل ما عدا ذلك...
تكلّم إيفان بلهجةً نافذةً فيها غضب مكبوح. وكان واضحا أنّه يسخر وأنّه لا يريد أن يتخفى، ولعلّه كان يتمنّى أن تدرك سخريته.
هتفت السيدة خوخلاكوفا تقول:
- هذا كلّه خطأ، هذا كلّه زيف؟ فقالت عندئذ كاترينا إيفانوفنا وقد أخذت الدموع تسيل على خديها:
- ألكسي فيدوروفتش! هلا قلت رأيك أخيراً؛ إنّني أشعر بحاجة شديدة قاهرة إلى معرفة رأيك!
نهض أليوشا عن الديوان. وتابعت كاترينا إيفانوفنا كلامها قائلة من خلال دموعها:
- ليس هذا بشيء، ليس هذا بشيء البتّة. إنّه نتيجة للإرهاق العصبي وهذه الليلة التي قضيتها أرقة مسهّدة، ولكنني، بحضور صديقين مثلكما أنت وأخيك، أشعر بأنني قوية... ذلك لأنني أعلم... أنّكما لن تتركاني أبداً.
قال إيفان فيدوروفتش فجأة:
- آسف. قد أضطر أن أسافر إلى موسكو منذ الغد، وأن أتركك فترة طويلة...
- إلى موسكو؟ منذ الغد؟
قالت كاترينا إيفانوفنا ذلك وتقبض وجهها. ثم أردفت تهتف قائلة بصوت تغيّر فجأة، وقد كفت دموعها عن المسيل حتى أصبحت آثارها لا تُرى:
- ولكن... ولكن هذا يقع في حينه... يجيء في وقته! يا رب!
فما كان أشدّ دهشة أليوشا لهذا التغير المذهل الذي حدث في نفسها. إنّ الفتاة الشقية المهانة التي كانت تبكي عواطفها منذ برهة، وهي في حالة توتر ممزق، قد حلّت محلها الآن امرأة تسيطر على نفسها كل السيطرة، وتبدو راضية ذلك الرضى الذي يعقب فرحاً مباغتاً.
وسرعان ما استدركت تصحح موقفها وهي تبتسم ابتسامة مهذبة:
- أوه... لا يذهبن بك الظن إلى أنني ابتهجت لتركك... طبعاً لا... إن صديقاً مثلك لا يمكن أن يذهب به الظن هذا المذهب، بالعكس: إنني لأحزن أشدّ الحزن حين أتصوّر أنني سأفقدك (قالت ذلك واندفعت نحو إيفان فيدوروفتش، فأمسكت يديه وشدتهما بكثير من الحرارة). ولكنه حظ سعيد موفق أن تستطيع أن تشرح بنفسك لعمتي ولأختي آجافيا، في موسكو، الظرف الذي أنا فيه. حدّثهما عن فظاعة الأيام التي عشتها هنا، فأما مع آجافيا فبصراحة، وأما مع عمتي العزيزة فبشيء من المداراة. وإنّي لواثقة على كل حال من أنك ستجد بنفسك الصيغة المناسبة لاطلاعهما على حقيقة الأمور. لا تستطيع أن تتصور مدى ما عانيته أمس واليوم من عذاب وأنا أتساءل كيف أتدبر أمري لأكتب إليهما هذه الرسالة الرهيبة... ذلك أن من المستحيل على المرء أن يروي هذه الأشياء كتابةً... أما الآن فقد أصبح الأمر سهلاً: ستلقاهما بنفسك فتشرح لهما كل شيء! آه... ما أسعدني! هذا هو السبب الوحيد في ما رأيت من فرحي. صدقني. وإنك لتعلم أنت نفسك على كل حال، أنه ما من شيء يمكن أن يحل عندي محل صداقتك...
وختمت كاترينا إيفانوفنا كلامها قائلةً وهي تتجه نحو باب الغرفة:
- سأكتب الرسالة حالاً. فسألتها السيدة خوخلاكوفا بلهجة لاذعة حانقة:
- وأليوشا؟ أليوشا الذي كنت تحرصين ذلك الحرص كله على أن تعرفي رأيه؟
فتوقفت كاترينا إيفانوفنا وأجابتها قائلة:
- ما نسيته.
ثم سألتها بلهجة عتاب فيها مرارة حمية:
- ولكن لماذا، لماذا تظهرين لي الآن هذه العداوة كلها يا كاترينا أوسيبوفنا؟
ما زلت مصرة على ما قلته. إنني لا غنى لي عن معرفة رأيه. بل إنني أريد منه أكثر من هذا: أريد منه أن يتخذ لي قراراً! وسأتبع ما ينصحني به. فانظر يا ألكسي فيدوروفتش إلى أي مدى أنا في ظمأ إلى سماع كلامك... ولكن ماذا بك؟
صاح أليوشا يقول في ألم:
- ما كان لي أن أفكر في هذا في يوم من الأيام! ما كان لي أن أتخيّل هذا في يوم من الأيام.

- ماذا؟
- يسافر إلى موسكو ثم تهتفين قائلة: ما أسعد ذلك! لقد قلت هذا عامدةً! وما كدت تقولينه حتى استدركت تؤكدين له أنك لا تغتبطين لسفره، وأنك على عكس ذلك يحزنك... فقد صديقك. وهذا أيضًا قلته عامدةً... كما في المسرح... كما لو كنت تمثلين تمثيلاً..
- كما في المسرح؟ كيف؟ ماذا تريد أن تقول؟
كذلك هتفت كاترينا إيفانوفنا وقد بلغت أوج الدهشة. لقد احمر وجهها احمراراً شديداً، وقطبت حاجبيها.
واستأنف كلامه بأنفاس لاهثة:
- وفيما ترددين على مسامعه أنك حزينة لحرمانك من صديق عزيز، تصرحين له وجهاً لوجه أن سفره إلى موسكو يملؤك ارتياحاً.
- ماذا تقصد؟ ماذا تريد أن تستنتج؟ إنني لا أفهم.
- أنا نفسي لا أعرف تماما... لقد تراءت لي الحقيقة فجأة كأنما في ضوء برق... وتابع أليوشا كلامه يقول بصوت يختلج ألماً حتى ليوشك أن ينكسر:
- أنا أحس أنني أرتكب خطأ إذا عبّرت عن مشاعري، ولكنني سأقول بنفسي مع ذلك. إليك الضوء الذي رأيته: إنّك لا تحبين أخي دمتري... ولعلّك ما أحببته أبداً... حتى منذ البداية... ثم إن دمتري أيضًا لا يحبك... فيما أظنّ... لا هو يحبك الآن، ولا هو أحبّك منذ البداية... وإنما هو يقدرك ويحترمك فحسب... إنني أتساءل: ما الذي يجيز لي أن أكلمك هكذا... ولكن لا بد أن يعزم أحدًا أمره على أن يقول الحقيقة أخيراً... ما دام لا يريد أحد هنا أن يعترف بها...
صاحت كاترينا إيفانوفنا تقول بصوت فيه شيء من الهستيريا:
- أي حقيقة تعني؟ عن أي حقيقة تتكلم؟ فتمتم أليوشا يقول وهو يحس أنه يسقط من شاهق:
- إليك الحقيقة التي أتكلم عنها. استدعي دمتري - وأنا أعرف كيف يمكن العثور عليه عند الضرورة وليتناول يدك فيضعها في يد أخي إيفان. إنك لا تريدين على أن تعذبي إيفان، وذلك بسبب بسيط، هو أنك تحبينه... وأنت إنما تعذبيه لشغفك بالتمزق... لأنك تخيلت حباً مصطنعاً لدمتري... حباً لا تشعرين به البتّة... وتحاولين أن تقنعي نفسك به...
قال أليوشا ذلك ثم توقف عن الكلام فجأة وصمت؟
- ما أنت... ما أنت إلا أبله صغير... ما أنت إلا بسيط العقل.... ذلك أنت!
كذلك قالت كاترينا إيفانوفنا بصوتها القاطع الجازم، وقد شحُب وجهها شحوباً شديداً وظهر على شفتيها أنّهما تنعقفان غضباً مسعوراً. وأخذ إيفان فيدوروفتش يضحك في تلك اللحظة، ونهض من مكانه حاملاً قبّعته بيده. وقال يخاطب أليوشا وقد ظهر في وجهه تعبير لم يره فيه أليوشا قبل ذلك يوما، تعبير يفيض صدقاً كصدق المراهقين، ويفيض صراحة منطلقة على سجيتها:
- أنت مخطئ يا عزيزي أليوشا. فإن كاترينا إيفانوفنا ما أحبتني في يوم من الأيام! وكانت تعلم منذ البداية أنني أحبها، رغم أنني لم أحدثها في حبي قط. كانت تعلم ذلك، ولكنها لم تحبني. لا ولا كنت صديقها في ظرف من الظروف. إن هذه المرأة المتكبرة لم تكن في حاجة إلى صداقتي. وهي لم تحتفظ بي إلى جانبها إلا لتستطيع إرواء ظمئها إلى الانتقام، إلا لتثأر مني، نعم مني أنا، لجميع الإذلالات والإهانات التي أنزلها فيها دمتري منذ أول لقاء بينهما... ذلك أن ذكرى هذا اللقاء الأول قد بقيت في نفسها إهانةً أليمةً وجرحاً بالغاً. هذه هي كاترينا إيفانوفنا! أما أنا فلم يكن أمامي طوال الوقت سوى الإصغاء إليها متحدثةً عمّا تحمله من حب لدمتري. وسأنصرف الآن. ولكن اعلمي يا كاترينا إيفانوفنا أنك لا تحبين حقاً إلّا دمتري. وستحبّينه مزيداً من الحبّ على قدر ما سيذلك مزيداً من الإذلال. ذلك هو تمزّقك كلهّ فأنت إنما تحببه كما هو؛ أنت إنما تحبين فيه الرجل الذي يهينك. ولو أصلح نفسه في يوم من الأيام، إذا لأشحت وجهك عنه فوراً، وكففت عن حبه حتماً. ولكنك محتاجة إليه، كيما تستطيعي أن تتأملي منظر وفائك البطولي، وكيما يتاح لك أن تأخذي عليه خياناته. وذلك كله زهواً وتكبراً. إن ههنا جحيماً من مذلة تريدينها وتتحمليها، والكبرياء هي التي تدفعك إلى السعي وراء هذا الجحيم... إنني ما زلت في ريعان الشباب، ولقد أحببتك فأسرفت. والآن أدرك أنه ما كان عليّ أن أقول ذلك وأن ابتعادي صامتاً حفظ لكرامتي أنا، وأخف وطأة على جروحك أنت. ولكنّي سأسافر إلى مدينة نائية، ولن أعود بعدئذ أبداً. إننا نفترق إلى الأبد... لقد سئمت من أن أكون شاهداً على تمزقاتك النفسية... أحسب أنني لا أحسن التعبير الآن عما يعتلج في قلبي ويدور في خلدي. لقد قيل كلّ شيء... فوداعاً يا كاترينا إيفانوفنا. وليس من حقّك أن تؤاخذيني وأن تحقدي عليّ، لأن العقاب الذي أناله أنا أقسى كثيراً من العقاب الذي تنالينه أنت. حسبي عقاباً أنني لن أراك بعد اليوم أبداً. وداعاً! لا تمدّي إليّ يدك. لقد آلمتني إيلاماً فيه من الوعي والعمد ما يجعلني لا أستطيع أن أغفر لك في هذه اللحظة. سوف أغفر لك في المستقبل، أمّا الآن فلا داعي للمصافحة.

، begehr ich nicht ،Den Dank Dame[107] «بالشكر يا سيدتي لا أحفل»..
أضاف إيفان ينشد هذا البيت من الشعر وهو يبتسم ابتسامة يجبر نفسه عليها اجباراً، مبرهناً بهذا الاستشهاد، على نحو لم يكن في الحسبان، أنه يستطيع هو أيضًا أن يقرأ الشاعر شيللر في هوىً وشغف، وأن يحفظ أبياتا من شعره على ظهر القلب، وذلك أمر ما كان لأليوشا أن يتخيله من قبل. ثم خرج من الغرفة حتى دون أن يودع ربّة البيت.
صاح أليوشا يناديه بصوت تائهٍ، ضاماً يديه إحداهما إلى الأخرى:
إيفان، ارجع يا إيفان، ارجع!
ثم أضاف يقول بمرارة كأنما رسخ في نفسه يقين مباغت:
- لا... لا... إنه لن يعود... لن يعود أبداً. هي غلطتي، هي غلطتي أنا... إنني بما قلته سببت هذا كله! لقد قال إيفان أشياء شريرة ظالمة... ما كان ينبغي له... هذا ظلم!...
وكان أليوشا يصيح بهذه الأقوال مفككة، كمجنون.
وفي تلك اللحظة مضت كاترينا إيفانوفنا إلى الغرفة المجاورة.
وهمست السيدة خوخلاكوفا مبتهجة مسرعة تقول لأليوشا المستغرق في أسف ولوعة:
- ليس هناك ما تؤاخذ نفسك عليه. بالعكس: لقد تصرفت تصرفاً رائعاً كملاك. سأفعل كل ما يمكن أن أفعله حتى لا يسافر إيفان فيدوروفتش...
وقد أضافت هذه الجملة الأخيرة متحمسةً، وأشرق وجهها فرحاً، رغم ما كان فيه أليوشا من حزنٍ شديدٍ. ولكن كاترينا إيفانوفنا رجعت في تلك اللحظة من الغرفة الثانية حاملة ورقتين نقديتين كل منهما بمائة روبل.
وقالت تخاطب أليوشا مباشرة، بلهجة تبدو هادئة طبيعية إلى أقصى حد، كأن شيئا لم يحدث:
- لي عندك رجاء كبير يا ألكسي فيدوروفتش. منذ أسبوع... نعم، أحسب أن هذا وقع منذ أسبوع... ثار ديمتري فيدوروفتش ثورة عنيفة ظالمة، فأباح لنفسه ارتكاب فعلاً كريهاً. إن في هذه المدينة مكاناً مشبوهاً هو حانة من الحانات، التقى فيها، في ذلك اليوم، بضابط محال على التقاعد هو ذلك النقيب الركن الذي يستعين به أبوك في بعض شؤونه. وقد غضب ديمتري فيدوروفتش من هذا الرجل غضباً شديداً، لا أدري لماذا، فأمسكه من لحيته وجره إلى الشارع جراً سفيهاً على مرأى من جميع الناس، وأخذ يقوده في الشارع على هذا النحو خلال مدة طويلة. وقد ذكر الذين شهدوا الحادث أن ابن هذا النقيب الركن، وهو صبي يختلف إلى مدرسة المدينة، صبيّ صغير فيما يبدو، قد أخذ يركض إلى جانب أبيه باكياً منتحباً، متوسلاً إلى أخيك أن لا يؤذي أباه، متضرعاً إلى شهود الحادثة أن يتدخلوا لحماية أبيه، ولكنهم جميعاً كانوا يضحكون. معذرة يا ألكسي فيدوروفتش! ولكنني لا أستطيع إلّا أن أشعر باستياء شديد حين أتذكر هذه الفعلة المخزية التي فعلها أخوك... الفعلة المشينة التي لا يستطيع أن يقدم عليها أحد غير ديمتري فيدوروفتش في حنقه... وبأهوائه الجامحة! بل إنني لأعجز عن رواية هذه الحادثة على النحو المناسب، فذلك يفوق طاقتي... لذا تراني أتيه في سردها. وقد سألت عن الرجل الذي أهانه أخوك هذه الإهانة، فعرفت أنه يعيش في فقر مدقع وبؤس رهيب. إن اسمه هو سنيجيريف. لقد ارتكب خطيئة ما أثناء خدمته في الجيش، فسُرِّح... لا أدري تماماء وقد صار هو وأسرته البائسة، أولاده المرضى وامرأته المجنونة فيما يقال، صاروا أخيراً إلى حالة رهيبة من العوز والفاقة. إنه يعيش في هذه المدينة منذ مدة طويلة، وكان قد وجد وظيفة في مكتب من المكاتب فيما يبدو ولكنهم قطعوا عنه راتبه على حين فجأة. عندئذ خطرت أنت ببالي... أو قل إنني قدرت أن... لا أدري ماذا دهاني حتى صرت لا أعرف ماذا أقول... إن كلامي مضطرب. أردت أن أرجوك يا ألكسي فيدوروفتش، يا عزيزي الطيب ألكسي فيدوروفتش، أردت أن أرجوك أن تذهب إلى هذا الرجل متذرعاً بحجةٍ مناسبةٍ، متعللاً بعذرٍ لائق، فتراهم، أقصد ترى هذا الضابط... أوه... رباه! انني أخلط كلّ شيء... فتعطيه هذه المساعدة الطفيفة بطريقة لبقة، كريمة... كما لا يستطيع أحد أن يفعل ذلك مثلك على كل حال (احمر وجه أليوشا عند سماعه هذه الكلمات)، أن تعطيه هاتين المائتين من الروبلات. إنه سيقبل هذه

المساعدة حتماً... أقصد إن عليك أن تلح في سبيل أن يقبلها... هل فهمت ما أقصده؟ اللهم إلّا أن... ولكن لا.. يجب أن تشرح له أن الأمر ليس استرضاء له حتى لا يشكو أمره إلى القضاء (يبدو أنه ينوي أن يشكو أمره إلى القضاء في لحظة من اللحظات)، وإنما هو شعور بالمودة له، ورغبة في مد يد المساعدة إليه. وليعلم أيضًا أن هذا المبلغ هو منّي أنا، منّي أنا، أي من خطيبة ألكسي فيدوروفتش، لا من ديمتري فيدوروفتش نفسه... الخلاصة: ستعرف كيف تتصرف... كان يمكن أن أذهب إليه أنا، ولكني أعلم أنك ستتدبر الأمر خيراً مني. إنه يسكن في شارع أوزيورنايا عند امرأة من سكان المدينة اسمها كالميكوفا... قدّم لي هذه الخدمة يا ديمتري فيدوروفتش، أرجوك، أتوسل إليك... أشعر الآن بأني متعبة... أشعر بشيء من الإعياء... إلى اللقاء...
قالت ذلك واستدارت على عقبيها وبلغت من الإسراع إلى الاختفاء وراء الباب. إن وقت أليوشا لم يتسع حتى لقول كلمة واحدة. وكان أليوشا مع ذلك يرغب رغبة قوية في أن يكلمها. كان يريد أن يستغفرها، أن يتهم نفسه أمامها، أن يقول لها شيئا ما على الأقل، لأن قلبه كان يفيض في تلك اللحظة شعوراً بالحب، فلم يقدر على مبارحة الغرفة قبل تحقيق رغبته هذه. ولكن السيدة خوخلاكوفا أمسكته من يده وقادته إلى خارج الحجرة، ثم توقفت في الدهليز، كما فعلت ذلك قبل ذلك، من أجل أن تكلمه.
قالت له السيدة خوخلاكوفا بصوت خافت:
- إنها متكبرة تصارع نفسها، ولكنها طيبة، رائعة، كريمة، إلى أقصى الحدود! ليتك تعلم كم أحبها، ولا سيّما في بعض اللحظات، وكم يعاودني الشعور بالرضى من جديد، وكم ترتد إليّ السعادة بكل شيء! يجب علي يا ألكسي فيدوروفتش أن أبوح لك بشيء كنت تجهله حتى الآن. اعلم أننا جميعاً، جميعاً، أقصد أنا وخالتيها، أي جميعاً، وحتى ليزا، كنا نتمنى ونتوسّل إلى الله، منذ أكثر من شهر إلى الآن، أن تعزم أمرها أخيراً على أن تقطع صلتها بديمترى فيدوروفتش الذي تؤثره أنت، وذلك لأنه لا يريدها ولا يحبها، وأن تتزوج إيفان فيدوروفتش الذي هو على جانب عظيم من سعة الثقافة تميّز الطبع، والذي يحبها أكثر مما يحب أي شيء في هذا العالم. حتى لقد دبّرنا مؤامرة لبلوغ هذا المأرب وتحقيق هذا الهدف، ولعل ذلك أيضًا هو السبب في أنني لم أسافر بعد...
صاح أليوشا يقول:
- ولكنها عادت تبكي من شعورها بالمذلة!
- لا تصدّق دموع النساء يا ألكسي فيدوروفتش! أنا في هذه الحالات أتحيز للرجل على المرأة. أنا مع الرجال.
وهنا دوى صوت ليزا الرفيع الواهن من وراء الباب يهتف:
- ماما، إنك تفسدينه بالدلال، إنك تودين به إلى الهلاك!
وردّد أليوشا الحزين الذي لا سبيل إلى عزائه، ردّد يقول وهو يشعر بخزي شديد من غضبته، ويخفي وجهه بيديه خجلاً وحياءً:
- شيءٌ رهيبٌ! أنا سبب هذا كله! لقد اقترفت خطيئةً رهيبةً! فقالت له السيدة خوخلاكوفا:
- بالعكس: لقد تصرفت تصرف ملاك، تصرف ملاك... لن أمل من تكرار هذا.
وصاح صوت ليزا يقول مرة أخرى:
- كيف كان تصرفه تصرف ملاك؟
وتابع أليوشا كلامه قائلاً وكأنه لم يسمع سؤال ليزا:
- لقد تراءى لي فجأة، وأنا أنظر إليهما، تراءى لي فجأة أنها تحب إيفان، فأفلت مني ذلك الكلام الأحمق... ما عسى يحدث الآن؟
- عمن تتكلمان يا ماما؟ عمن تتكلمان؟ إنك تميتينني يا ماما! ألقي عليك أسئلة ولا تجيبين!
وفي تلك اللحظة دخلت الخادمة مسرعةً تقول:
- كاترينا إيفانوفنا في حالة سيئة... الآنسة تبكي... تتخبط كأنها في نوبة هستيريا...
وعادت ليزا تصيح قائلةً في هذه المرة بصوت قلق مروع:
- هلا قلت لي يا ماما أخيراً ما هي القضية؟ ماما، أنا التي سأصاب الآن بنوبة هستيرية، لا هي!
- هدّئي نفسك يا ليزا، ناشدتك الله ! إنك تقتلينني بهذا الصراخ! إن عمرك لا يسمح لك بعد أن تعرفي كل شيء كما يعرفه الكبار. سأجيء إليك بعد قليل فأطلعك على يمكن أن أطلعك عليه. أوه؟ رباه! رباه! أنا ذاهبة إليها، أنا ذاهبة إليها... نوبة عصبية... ولكن هذه علامة طيبة يا ألكسي فيدوروفتش! حسن جداً أن تنتابها نوبة من هذا النوع... ذلك ما يجب أن يحدث... أنا أقف دائماً ضد النساء في هذه المناسبات، ضد نوباتهن ودموعهن. يا يوليا، أمضي إليها فقولي لها إنني آتية إليها حالاً. على كل حال ليس عليها إلا أن تحمل نفسها تبعة خروج إيفان فيدوروفتش على ذلك النحو! ولكنه لن يسافر. ليزا، لا تصرخي، لا تصرخي، ناشدتك الله! صحيح أنك لا تصرخين. فأنا التي صرخت. سامحي أمك يا ليزا، ولكنني سعيدة، سعيدة جداً، سعيدة سعادة رهيبة! هل لاحظت يا ألكسي فيدوروفتش كم كان وجهه فتياً، أخوك إيفان، حين تكلم وحين خرج على ذلك النحو؟ إنّه يشعر بأنه مثقف جداً، عالم جداً، ثم ها هوذا يكشف فجأة عن أنه شاب حقاً، حار القلب، صادق النفس، يزخر بنضارة الفتوة، وهو قليل التجربة، قليل التجربة جداً. آه... ما أروع هذا، ما أجمله.... هو مثلك تماماً... وهذا البيت من الشعر الألماني الذي رواه، هذا أنت أيضًا... أنا ذاهبة إليها الآن، أنا ذاهبة إليها.. أسرع يا ألكسي فيدوروفتش، فقم بالمهمة التي عهدت بها إليك، ثم ارجع إلى هنا بأقصى سرعة. ليزا، ألست في حاجة إلى شيء؟ أستحلفك بالله أن لا تؤخري ألكسي فيدوروفتش، سيعود إليك بعد بضع لحظات...
وخرجت السيدة خوخلاكوفا أخيراً مسرعة. حاول أليوشا، قبل انصرافه، أن يدخل على ليزا، ولكنها هتفت تقول له:
- أبداً... مستحيل... لن أطيق الآن أن تجيء إلي!.. تكلم من خلف الباب. ما الذي جعلك تستحق أن توصف بأنك ملاك؟ هذا هو الأمر الوحيد الذي أحب أن أعرفه.
- هو قولي كلاماً سخيفاً غبياً يا ليزا! وداعاً!
صاحت ليزا تقول:
- لا أسمح لك أن تمضي هكذا.
- ليزا! إن بي حزنا كبيراً. سأعود بعد قليل. إن عذابي كبير، كبير جداً، صدقيني!
وخرج مسرعاً.

-6-التمزق في الخربة

نعم، كان حزنه كبيراً جداً قلّما شعر بمثله من قبل. لماذا تعجل فقال ذلك الكلام؟ لقد ارتكب «حماقةً»! وفي أي موضوع؟ في موضوع حب.... «أنا أعلم حق العلم أنني لا أفهم في هذا الأمر شيئاً، فكيف أمكن أن أشترك في تحليل شأن من هذه الشؤون؟»..

كذلك ردّد يسأل نفسه للمرة المائة وهو يحمر خجلاً وحسرةً. «ليس العار الذي أشعر به شيئاً يذكر، فهو العقاب الذي أستحقه وإنما الشقاء الحق هو أنني سأكون سبب كوارث جديدة... لقد أرسلني شيخي العالم لأوحد بين المختلفين وأصالح المتخاصمين، أفبهذه الطريقة يكون ذلك؟» وتذكر أليوشا في تلك اللحظة اليدين اللتين أراد أن يضع إحداهما في الأخرى، فازداد خزياً واضطراباً إلى أقصى حد. وأخيراً قال لنفسه مستنتجاً فجأةً دون أن يبتسم ساخراً من هذا الاستنتاج: «لئن كان تصرفي مخلصاً في تلك المناسبة، فيجب أن أبرهن في المستقبل على مزيد من الذكاء والتعقل»..

إنّ المهمة التي كلّفته كاترينا إيفانوفنا أن يقوم بها، تضطره أن يذهب إلى شارع أوزيورنايا. وأخوه ديمتري يسكن غير بعيد عن هناك، في زقاق جانبي، فقرر أليوشا أن يرى أخاه على أي حال قبل أن يمضي إلى الضابط المتقاعد، رغم إحساسه بأنه لن يجده في منزله. كان أليوشا يشعُر أن أخاه سيُحاول أن يتجنبه بعد اليوم، ولكنه أرَاد أن يعثُر عليه مَهْمَا كلف الأمر. والوقت يمضي في أثنَاء ذلك سريعًا. وصورة الشيخ المُحتضر لم تُبارح أليوشا لحظة واحدة مُنْذُ خرج من الدِّير، فهي تُلاحقه حيثُما يذهب.

هُناك نُقطة أشَارت إليها كاترينا إيفانوفنا، فأثَارت انتبَاهه إثارةً قوية. لقَدْ جَاءت على ذِكر ابن ذلك الضابط، تلمِيذ المدرسة الذِّي كان يركض إلى جانب أبيه باكيًا مُنتحبًا؛ وقَدْ قَال أليوشا لنفسه في تِلكَ اللَّحظَة: لابُد أن هذًا الولد هو الصَّبي الذِّي عضه في إصبعه، حين سأله فيم أسَاء إليه. وأصبح أليوشا الآن على مثل اليقِين من أنه هو ذلك الصَّبي نفسه، دُون أن يُدرك سبب هذًا اليقين إدراكًا واضحًا. وقَدْ صرفته هذه التأمُلات لَحظة عن هُمومِه الثقِيلة، وإذ استرد شجَاعته ورَبَاطة جأشِه قرر ألَّا «يجتر» الآن طويلًا فكرة تِلكَ المُصِيبة التي سببها، وألا يُرهق نفسه بحسراتٍ عقيمة، وإنما يعمل ويرى كيف ستجري الأمور. وقد سرَّى عنه هذًا القرار وخفف ما كان يشعُر به من حزنٍ ثقيل. ولاحظ عندئذ أنه جَائع، فلمَا دخل في الزقاق المُؤدي إلى حيثُ يسكُن دمتري، أخرج من جيبه رغيف الخُبز الصَّغير الذِّي أخذه من عند أبيه، وأكله، فاستردَّ شيئًا من قوته.

لم يكُن دمتري في المنزل. فلما سأل أليوشا أهل المنزل - وهُم نجَّار عجوز وامرأته وابنهما - أخذ هؤلاء يُلقون على أليوشا نظرات فيها شك وحذر.

قَال العجوز لأليوشا الذِّي ألح في السؤال عن أخيه:

- إنه لم يبت هُنا مُنْذُ ثلاثِ ليال، فلعله سَافر.

فبدا لأليوشا أن جواب العجوز تنفيذ لأوامر أصدرها إليه دمتري.

قَال أليوشا يسأل العجوز مرة أخرى، مُتعمدا أن يذكُر هذِه

المعلومات السرية:

- أتراه عِند جروشنكا؟ أم تراه مُختبئًا عن توماس مثلًا؟

ولكن أصحَاب الدَّار رشقُوه بنظرة تُشبه أن تكون مذعُورة. فقال أليوشا لنفسه: «هم يحبونه إذًا، ما داموا ينحازون إلى صفه. وهذا حسن جدًا».

قَفَلَ أليوشا راجعًا ووصل أخيرًا إلى شارع أوزيورنايا، أمَام منزل سَاكنة المدينة الصغيرة كالميكوفا، وهو خربة عتِيقة مُتداعية ليس لها إلَّا ثلاث نوافذ تُطل على الشَّارع، وفناؤها قذر جدًا رأى فيه أليوشا بقرة. إن الدخول من الفناء إلى المنزل يتم عبر حُجرة صغيرة تتصل من الجهة اليُمني بمسكن صَاحبة البيت العجوز وابنتها المُتقدمة في السنِ كثيرًا هي الأخرى. والمرأتان تبدوان صماوين، فقد اضطر أليوشا أن يُكرر لهما سؤاله عن الضابط عِدة مرات. وفهمت إحداهما أخيرًا أن أليوشا إنما يسأل عن الرَّجُل القَاطن في دارهما مُستأجرًا، فأومأت بإصبعها نحو الجهة الأخرى من حُجرة الدخول، مُشيرة إلى الغرفة التي هي أفضل غُرفة في الدَّار. إنه مُجرد منزل صغير من غرفة واحدة.

وضع أليوشا يده على قبضة البَاب وهمَّ أن يفتحه ولكنه لم يلبث أن أمسك عن فتح البَاب، ذلك أنه قَدْ ذُهل من الصمت المُطبق الذِّي يُخيم وراء الباب. لقَدْ كان يعرف مما قالته له كاترينا إيفانوفنا أن الضابط المُتقاعد له أسرة كبيرة العدد فقال لنفسه: «إنهم نَائمون، أو أنهم أحسوا بمقدِمي فهُم ينتظرون دخولي عليهم، فالأفضل أن أقرع البَاب». وقرع الباب فعلًا، فأُجيب، ولكن الجَواب لم يجيء رأسًا، وإنما تأخر نحو عشر ثوان.

قَال صوت عال حانق:

- من؟

ففتح أليوشا البَاب واجتاز العتبة، فإذا هو يجد نفسه في غُرفة واسعة، ولكنها مُزدحمة أشد الازدِحام بالأشخَاص وأنواع الأمتعة المنزلية. فعلى الشِّمال مدفأة روسية كبيرة؛ وفي تِلكَ الجهة نفسها حبل مشدود من أول الغُرفة حتى النافذة، قَدْ عُلقت عليه أنواع الملابس الداخلية؛ وعلى طول الجِدارين الجَانبيين يمتد سريران فوق كل منهما غطَاء مغزُول، فأما سرير الجهة اليُسرى فعليه أربع وسادات مُختلفة الأحجام قَدْ نُضد بعضها فوق بعض على شكل هرمٍ، وأما سرير الجهة اليُمنى فليس عليه إلَّا وسادة واحدة صغيرة، وفي ركن ضيق تفصله عن الغُرفة سِتارة مشدودة بحبل أيضًا قَدْ هيئت زاوية لسرير ثالث يتألف من دكة يُكمِّلها كُرسي، والسَّرير لا يُرى إلَّا جزء منه ؛ وتحت النافذة الوُسطى مائدة من خشب مستطيلة الشَّكل بسيطة كل البساطة، هي من نوع تِلكَ الموائد التي تُرى كثيرًا في بيوت الفلاحين. والنوافذ الثلاث ذات الألواح الزجاجية الضيقة، تبدو مُغبرة فلا يتسلل منها إلَّا ضوء قليل؛ ولقد كانت مُغلقة على كل حَال، فالغُرفة بسبب ذلك مُظلمة يشعر فيها المرء باختناق. وعلى المائدة ترى مقلاة فيها بقايا بيض، وقطعة خُبز مقضُومة، وإبريق خمر يتسع لنصف لتر، ولكنه يكاد يكون فارغًا. وقُرب السرير الأيسر تجلس على الكُرسي امرأة لها شيء من مظهر سيدة. إنها ترتدي ثوبًا من قماش الشيت، وهي ناحلة الوجه شاحبة اللون لها خدان خاسفَان جدًا يُنبئان بحالتها المَرَضية من أول وهلة. وقد فُوجئ أليوشا خاصةً بتعبير نظرة السيدة المسكينة الذِّي ينم عن تسَاؤلٍ وتعالٍ في آن واحد. وفيما كان أليوشا يُكلم رب المنزل، وإلى أن تدخلت هي في الحديثِ، لم تكُف عن تنقيل نظرة عينيها البُنيتين الواسعتين بين الرَّجُلين مُعبَّرة عن ذلك التساؤل نفسه، وذلك الاستعلاء نفسه. وإلى جانب السّيدة، على مسافة غير بعيدة عن النافذة اليُسرى تقف فتاة يمكن أن تُعد دميمة الوجه، ترتدي ثيابا فقيرة ولكنها مُحتشمة، لها شعر قليل الغَزارة يضرب لونه إلى حُمرة؛ وكانت تتفرس في أليوشا باشمئزاز. وعلى اليمين، قُرب السرير أيضًا، تجلس امرأة أخرى هي مخلُوقة بائسة، فتَاة في نحوِ العشرين من عُمرها، حدبَاء الظَّهر مُقعدة مُتيبسة السَّاقين، كما شَرح ذلك لأليوشا فيما بعد؛ وتُرى عُكازتاها في الزاوية بين السرير والجِدار. غير أن لها عينين رائعتين تُشعَان طيبة، وهي تُلقي على أليوشا نظرة مُتواضعة عذبة حلوة. وهذًا رَجُل في نحوِ الخَامسة والأربعين من عُمره قَدْ جلس إلى المائدة ينتهي من أكل بيضة مقلية. إنه قصِير القَامة، جاف الجلد، نحيل الجسم أعجف يضرب لونه إلى حُمرة هو أيضًا، تذكر لحيته الحَمراء المُتناثر شعرها بليفة حمام مُهترئة.

(إن هذًا التشبيه بين لحية الرَّجُل و«ليفة الحمام» على الأخص برقا في ذهن أليوشا رأسًا، كما تذكر ذلك فيما بعد). واضح أن هذًا الرَّجُل هو الذِّي صاح من وراء البَاب يسأل: من؟ ذلك أنه لم يكُن في الغُرفة رَجُل سواه. فلما رأى أليوشا نهض عن المائدة بحركة مُفاجئة، وبعد أن مسح فمه بمنشفة مُثقَّبة، تقدم نحو الزائر مُسرعًا.

قالت الفتاة الواقفة في الزَّاوية اليُسرى بصوتٍ عال:

- هذًا راهب يجمع الصدقات لديره. يمينا لقَدْ عرف إلى أين يجيء!

ولكن الرَّجُل الذِّي اقترب من أليوشا التفت إليها بسُرعة عسكرية، وأجابها يقول بصوت قلق متقطع:

- في هذِه المرة أخطأت يا بربارا نيكولايفنا! ليس الأمر ما تصورتِ. ثُمَّ استأنف كلامه يقول مُلتفتًا إلى أليوشا من جديد:

- هل لي أن أسألك ما الذِّي جعلني أستحق شرف زيارتك... في هذِه الأغوار الحَقِيرة؟

تفرس أليوشا في هذًا الرَّجُل الذِّي يراهُ أول مرة. إن في مظهره شيئًا من الحدة والتَّعجُل والحنق. لا شك أنه كان قَدْ شرب، ولكنه لا يبدو ثملًا. وفي وجهه تُرى وقَاحة قُصوى، ولكن يُرى في الوقت نفسه جُبن شديد، وهذان أمران يُدهش المرء اجتماعهما... إن هيئته هيئة إنسان اضطر زمنًا طويلًا إلى احتمال الذُّل وقَبُول الخُضُوع ولكنه يَهّب الآن فجأة ليُؤكد ذاته؛ أو قُل بتعبير أدق إن هيئته هيئة رَجُل يشعُر برغبة قوية في أن يضربك، ولكنه يخَاف خوفًا قويًا من أنك قَدْ تضربه. إن المرء يلمح في أقواله، وكذلك في نبرات صوته الحاد، نوعًا من سُخرية سخيفة مُبتذلة هي تَارة شريرة خبيثة، وتارة أخرى خائفة وجلة تُظهر ضعفها وتتحطم في بعض اللَّحظَات. لقَدْ ألقى سؤاله عن «الأغوار» وهو يرتعش من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، مُحملقًا عينيه، بالغًا من الاقتراب من أليوشا، حدّ أن أليوشا تراجع خُطوة إلى الوراء بغريزته. كان الرَّجُل يرتدي معطفًا حقيرًا مُهترئًا، قاتم اللون، مُرقعًا في مواضع كثيرة، مُتسخًا ببقع كبيرة. أما سرواله فهو فاتح اللون جدًا، عليه رسوم مُربعة الأشكال، وذلك نوع من السراويل أصبح مُنْذُ زمن طويل لا يُرى في أي مكان. والسروال من نسيجٍ رقيق، قَدْ تجعد أدنَاه وانشمر، فكأن لابسه صبي

طالت قامته وكبر جسمه فأصبح السروال صغيرًا قصيرًا عليه.
قَال أليوشا يُجيب على سؤال الضابط المُتقاعد: - أنا... أنا الكسي كارامازوف.
- لي شرف معرفة ذلك من قبل.
كذلك أجَاب الرَّجُل ليدُل على أنه لا يجهل شخصية الزائر. ثُمّ أضاف يقول:
- فاسمح لي أن أُقدم لك نفسي أنا أيضًا: النقيب الرُّكن سنيجيريف – س [108] ولكن هل لي أن أعرف الهدف الذِّي ترمي إليه من...
- لم أجيء لهدف مُعين. كل ما أردته هو أن أقول لك بضع كلمات باسمي... إذا كنت لا ترى في ذلك ضيرًا...
- في هذِّه الحالة، إليك هذًا الكُرسي! تفضل فاتخذ لنفسك مجلسًا... أليس هذًا ما يُقال في الكُوميديات الكلاسيكية: تفضل فاتخذ لنفسك مجلسًا»!
قَال النقيب الرُّكن ذلك وتناول كُرسيه بحركة مُباغتة عنيفة (هو كُرسي بسيط غير مُنجد، من كراسي الفلاحين)، فوضعه في وسط الغُرفة تقريبًا؛ ثُمّ تناول كُرسيًا آخر من ذلك النوع نفسه فجلس عليه أمَام أليوشا، ولكنه بلغ من تقريبه من كُرسي أليوشا أن رُكَب الرَّجُلين يحتك بعضها ببعض.
- اسمي نيكولاي إيليتش سنيجيريف، نعم، نقيب رُكن سَابق في سِلاح المدفعية بالجيش الروسي. وإنني لأظل ضابطًا رغم عيوبي ورذائلِ التي هوت بي إلى الحَضيض. ولقَدْ كان ينبغي أن أقول الرائد س، لا الرائد سنيجيريف، ذلك أنني في الشطر الثاني من حياتي قَدْ أخذت أستعمل «س». تِلكَ عادة ناشِئة عن الانحطاط.
قَال أليوشا وهو يبتسم ابتسامة مُحرجة:
- نعم. ولكن هل يتعود المرء هذِّه العادة عمدًا أم هو يتعودها على غير إرادة منه؟
- بل على غير إرادة منه، شهد الله! يمينًا ما كُنت أتكلم بهذه الطريقة في الماضي طوال حياتي. ثُمّ نهضت بعد سقوطي المُفاجئ وتعودت حرف «س». ذلك يحدث بتأثير قوة عليا، ولكني أراك تهتم بشؤون الحياة الحديثة، فهل لي أن أعرف السبب الذِّي جعلني أستحق شرف هذًا الاهتمام؟ إنني أعيش هنا في ظروف لا تؤهلني للقيام بواجبات الضيافة
قَال أليوشا:
- أنا إنما جئت... من أجل ذلك الأمر الذِّي...
فقاطعه الرَّجُل بلهفة سائلًا:
- أي أمر؟ فأجاب أليوشا وقد اضطرب قليلًا:
- أمر لقائك ذلك بأخي ديمتري فيدوروفتش...
- أي لقاء تعني؟ ها... ذلك اللقاء! هو إذًا موضوع الليفة؟
قَال الضابط المُتقاعد ذلك، وازداد اقترابًا من أليوشا حتى صدم في هذِّه المرة رُكبتيه. ودُقَّت شفتاه في تِلكَ اللحظة حتى لكأنهما خيط نحيل.
تمتم أليوشا يسأله:
- أية ليفة؟
فصاح من وراء الستارة صوت عرفه أليوشا فورًا إنه صوت الصبي الذِّي لقيه مُنذُ قليل، صَاح صوت الصبي يقول:
- بابا! لقَدْ جاء يشكوني أنَا. أنا الذِّي عضضت أصبعه!
وانزاحت الستارة فلمح أليوشا عدوه في الرُّكن تحت الأيقونات مُضطجعًا على السرير الذِّي يتألف من دكة وكُرسي. كان الصبي مُغطى بمعطفه الرث وبلحافٍ عتيق، كان واضحًا أنه مريض؛ وإذا صدق ما يدُل عليه بريق عينيه فلا بد أن تكون به حُمى. إنه يُحدق إلى أليوشا بغير خوف ولا وجل، واثقًا ثقة لم تظهر عليه في الشَّارع، كأنه يُريد أن يقول: «أنا الآن في بيتي، في بيتي، فلن تستطيع أن تصنع بي شيئًا»..
سأل الضابط المُتقاعد وهو ينتفض:
- عضك في إصبعك؟ أأنت من عضه في إصبعه؟
- نعم، أنا. كان يقتتل في الشارع مع أطفال آخرين بتراشُق الحجارة. وكان واحدًا وكانوا ستة. فاقتربت منه، فرماني أنا أيضًا بحجر، ثُمّ رماني بحجرٍ آخر مُستهدفًا رأسي، فلما سألته ماذا فعلت له، انقض عليّ فجأة فعضني في إصبعي، لا أدري لماذا؟
صاح الرائد يقول وهو يثب عن كُرسيه:
- لأجلدنّه، لأجلدنّه!
- ولكنني لم أجئ لأشكوه، ولا رويت لك الحادث لتُعاقبه... إنني لا أحب أن تُعاقبه قط. ثُمّ إنه مريض فيما يبدو.
- أصدَّقت حقًا أنني سأجلده؟ أصدَّقت أنني سأجلد عزيزي الطيب الشهم إيليوشا، هكذا، فورًا، لأسرك وأبهجك؟ أأنت تحرص على أن أفعل ذلك سريعًا؟
كذلك قَال النقيب الرُّكن مُلتفتًا نحو أليوشا بحركة تهديد كأنه يهم أن ينقض عليه. ثُمّ أضاف:
- يؤسفني، يا سيدي العزيز، ما نال إصبعك من أذى. ولكني أوثر على ضرب إيليوشا، إذا شئت، أن أبتر الآن أمامك أربعًا من أصابعي بهذه السكين، إرضاءً لك... أرجو أن يكون بتر أربع أصابع من أصابعي كافيًا لإرواء ظمئك إلى الانتقام، وأن تسمح لي بالإبقاء على الإصبع الخامسة...
قَال هذًا وتوقف عن الكلام فجأة كأنه اختنق، وكانت عضلات وجهه جميعًا ترتعش، وكانت نظرته تفيض تحديًا واستفزازًا. لقَدْ كان في حالة أشبه ما تكون بحالة المس والخبل عَاجزًا عن السيطرة على سلوكه.
قَال أليوشا بصوت خافت حزين، دون أن يتحرك عن كُرسيه:
- أحسب أنني فهمت الآن كل شيء. إن لابنك قلبًا طيبًا، فهو يُحب أباه، وقد هجم عليّ لأنني أخو الرَّجُل الذِّي أسَاء إليك... فهمت الآن... (كذلك ردد كلامه يقول مُطرقًا مُفكرًا)... ولكن أخي ديمترى فيدوروفتش نَادِم على فعلته... أنا أعرف ذلك... فإذا أذنت له أن يجيئك إلى هنا، أو من الأفضل أن يلقاك في ذلك المكان نفسه مرة أُخرى، فسيكون مُستعدًا لأن يعتذر إليك أمام جميع الناس... متى رغبت في ذلك...
- أهكذا إذًا؟ تُنتف لحية الإنسان، ثُمّ يُعتذر إليه... فينتهي كل شيء ويسوَّى كل شيء، أليس كذلك؟
- كلا... كلا! إنه مستعد لأن يفعل ما تطلبه منه، على النحو الذِّي يُرضيك!
- أمعني هذًا أن في وسعي أن أطلب من «سموّه» أن يجثو على ركبتيه في تِلكَ الحانة نفسها - حانة «العاصمة الكبرى» - أو حتى في الميدان العام، فإذا هو يُلبي طلبي إذًا صدق ما تقول؟
- نعم، هو مُستعد حتى لأن يجثو على ركبتيه.
- كلامك يهز قلبي، ويؤثر في نفسي، حتى ليكاد يُفجر الدموع من عيني! إنني ميال للعاطفية جدًا... فاسمح لي إذًا أن أُقدم إليك أنفسنا على أكمل وجه. هذِّه أُسرتي: بنتاي، وابني... هذِّه ذريتي المُحترمة. فمن ذلك الذِّي يُلاطفهم ويُداريهم، إذا أنا مُت؟ ومن ذا الذِّي يُمكن أن يُحبني، أنا الإنسان الشّقي، ما دمُت حيًا، من ذا الذِّي يُمكن أن يُحبني غيرهم؟ إن الرَّب قَدْ شَاءت رحمته أن يكون لأمثالي عزَاء كهذًا العزاء.. ذلك أنه لا بد لأمثالي أن يجدوا، هُم أيضًا، من يمكن أن يُحبهم...
- صحيح، هذِّه حقيقة كُبرى!
كذلك هتف يقول أليوشا. فصَاحت الفتاة الواقفة قُرب النافذة، وهي تلتفت نحو أبيها مُعبّرة بهيئتها عن ازدرَاء واشمئزاز، صاحت مُستَاءة تقول:
- دعك من هذًا التهريج! أيكفي أن يظهر معتوه ما حتى تُشهر بنا جميعًا! وتُظهرنا بمظهر أُناس مسَاكين؟
فأجابها أبوها بلهجة قَاسية صَارمة، ولكنه كان ينظر إليها مع ذلك نظرة تشجيع واستحسان:
- مهلًا يا بربارا نيكولايفنا... تذرعي بشيء من الصبر... دعيني أُكمل ما أريد أن أقوله... ثُمّ أضاف يقول مُلتفتًا إلى أليوشا:
- إن لها طبعًا صعبًا... يصدُق عليها قول الشاعر:
ليس في الطبيعة بأسرها ما يُرضيها ([109])
... لا تُريد هي أن ترضى ولكن اسمح لي أن أُقدمك إلى زوجتي: أرينا بتروفنا، سيدة مُقعدة، عمرها ثلاثة وأربعون عامًا، قادرة على استعمال ساقيها ولكن قليلًا جدً، هي من أصل وضيع. يا أرينا بتروفنا، هلاً بسطت أسارير وجهك! هذًا ألكسي فيدوروفتش كارامازوف. وأنت يا ألكسي فيدوروفتش، هلا نهضت! (قَال ذلك

وأمسك ذراع أليوشا بقوة لا يتوقع مثلها منه، وأنهضه عن كُرسيه وتابع كلامه)... أنني أقدمك إلى سيدة، فعليك أن تنهض... اسمعي يا عزيزتي، هذّا ليس نفس كارامازوف الذِّي... الذِّي... همّ... هذّا أخوه... شاب يشع فضائل وتزخر نفسه تواضعًا. اسمحي لي يا أرينا بتروفنا، اسمحي لي يا امرأتي الكريمة المُحترمة، اسمحي لي أن أُقبل يدك أولًا.
وقبل يد امرأته باحترام، بل وبحنان. فولت الفتاة الواقفة قُرب النَّافذة ظهرها للمشهد باستياء، غير أن وجه الزوجة الذِّي كان يُعبر عن تساؤل واستعلاء، هش وبش على حين فجأة.
قالت:
- تفضل فاجلس يا سيد تشرنومازوف! (110)
فقال زوجها مُصححًا:
- بل كارامازوف... اسمه كارامازوف.
ثم أضاف يقول لأليوشا همسًا:
- هي من أصل وضيع، وضيع جدًا.
قالت المرأة:
- طيب... كارامازوف... فليكن اسمه كارامازوف ما دُمت تحرص على ذلك. كارامازوف أو تشرنومازوف، الاسمان عندي واحد. تفضل بالجلوس يا سيدي. لماذا أنهضك؟ إنني مُقعدة، كما قَال لك ذلك. صحيح أن لي سَاقين، ولكنهما مُنتفختان انتفاخ قادوسين، أما باقي جسمي فهو يصِّح. كنت في الماضي سمينة جدًا، وها أنا ذا الآن نحيلة مثل إبره...
رد النقيب قوله:
- هي من أصل وضيع، من أصل وضيع جدًا.
فصاحت الفتاة الحدباء الظهر التي كانت إلى ذلك الحين صامتة على كُرسيها، صاحت فجأة تقول:
- بابا! آه يا بابا! وغطت وجهها بمنديلها. وقالت الفتاة الواقفة قُرب النافذة، بلهجة احتقار شديد:
- مُهرّج!
وقالت الأم وهي تمُد ذراعيها مُشيرةً إلى ابنتيها:
- أنظر، هذِّه أحوالنا كأنها سحائب. سحائب ثُمّ تنقشع. وتعود الموسيقى من جديد. في الماضي، حين كُنا في الجيش، كُنا نستقبل في كثير من الأحيان زيارات كزياراتك. أنا لا أقصد أن أجرح شعورك لكن يجب على الإنسان أن يُحب جميع الناس. إذًا وفي ذات يوم جاءت امرأة الشَّماس فقالت: «ألكسندر الكسندروفتش رَجُل ممتاز، أما ناستاسيا بتروفنا فهي نفثة من نفثات جهنم!» قُلت لها: «لكل امرئ أذواقه الخاصة. وما أنت إلَّا كُرة صغيرة، ولكنك كُرة عفنة نتنة». قالت: «سنعرف كيف نُؤدبك ونردُك إلى الصواب»، فأجبتها: يا سوداء من أباح لكِ حق المجيء إلى هنا لتُلقي درُوسًا؟» فقالت لي عندئذ: «أنا أجيئكم بهواء نقي، على حين أن الهواء الذِّي تنفثينه أنتِ موبوء يُفسد الجو»، فأجبتها: «إذا كان هوائي كريه الرائحة، فاذهبي واسألي أولئك السَّادة الضُباط». ومُنْذُ ذلك الحين بقي هذّا في قلبي لا يُبارحه. وهكذا حدث لي مُنْذُ قليل، إن رأيت، وأنا جالسة هنا، ذلك الجنرال الذِّي أتي يزورنا في عيد الفصح، فقلت له: «يا صاحب السعادة، هل من حق امرأة مرموقة أن تُدخل هواء نقيًا إلى منزلها؟». فقال لي: «هذّا صحيح، ليس الهواء هُنا نقيًا. يجب فتح الباب أو النافذة». هُم جميعًا سواء! لماذا يكرهون هوائي؟ إن الأموات ينشرون رائحة كريهة أكثر من رائحتي. قلت: «لن أُفسد الهواء الذِّي تستنشقونه؛ سأشتري لنفسي حذائين، ثُمّ أمضي، ما دام الأمر كذلك». يا أولادي، يا صغاري، لا تدينوا أمكم. يا نيكولاي إيليتش، يا زوجي الطيب، أأصبحت لا أُرضيك ولا أُعجبك؟ لم يبق لي إلَّا إيليوشا... فهو الذِّي ما يزال يُحبني. يعود من المدرسة، فيغمرني بمُلاطفاته. وقد جاءني أمس بتفاحة. ارحموني يا صغَاري، يا أولادي الذين أعبدهم، أشفقوا على أمكم المسكينة التي أصبحت الآن وحيدة. بماذا أُفسد الهواء الذِّي تستنشقونه؟
وأخذت المرأة التعيسة تبكي مُنتحبة على حين فجأة، فتسكُب سيولًا من دموع. أسرع إليها النقيب:
- عزيزتي، عزيزتي، حمامتي، هدئي روعك، أرجوك. لستِ وحيدة. فالجميع يحبونك، نحن جميعًا نعبدك!
قَال لها ذلك وغمر يديها بالقُبل، ثُمّ دغدغ خديها في رفق ولُطف. ثُمّ تناول منشفة فأخذ يُجفف وجهها الذِّي أغرقته الدموع. وتراءى لأليوشا في تِلكَ اللحظة أن دموعه لمعت في عيني الضابط السابق أيضًا. والتفت هذّا فجأة نحو أليوشا، فهتف يسأله مُشيرًا إلى المعتوهة المسكينة، وقد استبد به يأس شديد:
- هل رأيت وهل سمعت؟
فدمدم أليوشا يقول:
- رأيت وسمعت.
وصرخ الصبي وقد نهض عن سريره نصف نهوض وأخذ يُحدق إلى أبيه بعينيه المُلتهبتين، صرخ يقول:
- بابا! بابا! أتراك ستعقد الآن صلةً بهذا ال... اتركه عنك!
وهتفت بربارا نيكولايفنا تقُول من زاوية الغُرفة، وقد استبد بها في هذِّه المرة غضب شديد فقرعت الأرض بقدمها، هتفت تقول لأبيها:
- دعك من هذِّه التهريجات المُستمرة والتمثيليات الهزلية البلهاء التي لا تُؤدي إلى شيء!...
فقال الأب:
- حقًا إن لحنقك ما يسوّغه الآن يا بربارا نيكولايفنا، وسألبي أمرك على الفور. يا ألكسي فيدوروفتش، خُذ قُبعتك، وسآخذ أنا قُبعتي، فنخرج. أريد أن أُكلمك كلامًا جادًا، ولكنني أُريد قوله خارج هذِّه الحيطان. إن هذِّه الفتاة القَاعدة هُناك هي ابنتي نينا نيكولايفنا التي نسيت أن أُقدمها إليك. إنها ملاك تجسد وهبط على الأرض... هل في وسعك أن تفهم؟
وعادت بربارا نيكولايفنا تتكلم، فقالت مُستاءة:
- ها هوذا يرتجف ويضطرب كأن تشنُجات قَدْ هزته هزًا!
- أما هذِّه التي قرعت الأرض بقدمها ووصفتني بأنني مُهرج مُنْذُ هُنيهة، فهي أيضًا ملاك من السماء، وهي على حق إذ تُعاملني هذِّه المعاملة، فلنخرج يا ألكسي فيدوروفتش، يجب أن نفرُغ من هذّا الأمر...
قَال الرَّجُل ذلك، وأمسك ذراع أليوشا، وجرَّه إلى الشارع.

- 7 -وفي الهواء الطلق

قَال النقيب الرّكن:

- هنا يتنفس المرء، أما في مسكني فيختنق، بجميع معاني هذِّه الكلمة. سنمشي الهوينا. أرجو ألَّا تبعث أحاديثي السأم والضجر في نفسك.

قَال أليوشا:

- هناك أمر أُريد أنا أيضًا أن أُحدثك فيه... ولكنني لا أعرف من أين أبدًا.

- لقَدْ تصورت أن هُناك شيئًا تُريد أن تقوله لي. ولولا ذلك لما جئت إلى مسكني أبدًا. اللهم إلَّا أن يكون الهدف الوحيد من مجيئك هو أن تشكو إليِّ الصبي؟ ولكن هذًّا قليل الاحتمال!... وعلى ذكر هذًّا الصبي.. إنني لم أكن أستطيع أن أقول لك كل شيء هناك. فسأشرح لك الأمر الآن. لقَدْ كانت الليفة مُنْذُ أسبوع أكثف مما هي الآن... أعني بالليفة لحيتي... وأُولئك التلامذة هُم على الأخص سموا لحيتي ليفة... فمُنْذُ أسبوع أمسك أخوك ديمترى فيدوروفتش لحيتي هذِّه، في تِلكَ الحانة، وجرني إلى الميدان. وكان التلاميذ راجعين من المدرسة في تِلكَ اللحظة نفسها، وكان إيليوشا بينهم، فما إن رآني على هذِّه الحال حتى ارتمى عليِّ صارخًا: «بابا! بابا!»، وأمسكني بذراعيه الصغيرتين، وشدني بجمَاع قواه ليُخلصني وتشبث بي، صائحًا مُناشدًا المُعتدي بقوله: «دعه! هذًّا أبي، هذًّا أبي، اتركه، اغفر له!» نعم قَال هكذا: «اغفر له، وأمسك أيضًا ذراع أخيك، حتى لقَدْ قبل يده، يده تِلكَ نفسها التي كانت قَابضةً على لحيتي... ما زلت أتذكر كيف كان وجه الصبي في تِلكَ اللحظة. لم أنسه ولن أنساه ما حييت!

هتف أليوشا يقول مُنفعلًا:

- أحلف لك، أحلف لك أن أخي سيُعبّر لك عن ندمه أصدق التعبير وأكمله، ولو اضطر أن يجثُو أمامك على ركبتيه في ذلك الميدان نفسه... سأُجبره على أن يفعل ذلك، وإلا فلن يكون أخي!

- آ... آ... فهذا الاعتذار ليس حتى الآن إذًا إلَّا مشروع اعتذار؟ وهذه النية ليست صادرة عنه، بل عنك أنت، عن قلبك النبيل الحار. كان عليك أن تذكر لي هذًّا فورًا. أما وإن الأمر كذلك، فاسمح لي أن أصف لك روح الفروسية السامية ونبل الضباط التي أظهرها أخوك في ذلك الظرف. إنه بعد أن جرَّني من هذِّه الليفة، تركني وقال لي: «أنت ضابط، وأنا ضابط أيضًا، فإذا استطعت أن تعثر على رَجُل شريف يرضى أن يكون لك شاهدًا، فأرسله إليِّ: إنني أهب لك فُرصة استرداد اعتبارك بالسلاح، رغم أنك وغد!» هذًّا ما قاله أخوك، كفَارس حق! انصرفت بعد ذلك مع إيليوشا، ولكن هذًّا المشهد قَدْ استقر في نفس الصَّبي إلى الأبد، فهو لا يُبارح ذاكرته في لحظة من اللَّحظَات. كيف يمكن أن يخطُر ببالنا بعد الآن أن نستطيع المُحافظة على مركزنا كأُناس من النبلاء؟ واقض في الأمر بنفسك على كل حال، ما دُمت قَدْ رأيت مسكننا! مسكن جميل، أليس كذلك؟ ثلاث سيدات، إحداهن عاجزة ومجنونة، والثانية مُقعدة وحدباء، أما الثالثة فليست ساقاها مريضتين ولكنها أذكى مما يحتمله ظرفنا من ذكاء. إنها طالبة، وليس لها من حلم إلَّا أن تعود إلى بطرسبرج لتبحث عن حقوق المرأة الروسية على ضفاف نهر نيفا. ولن أقول شيئًا عن إيليوشا. إنه لم يتجاوز التاسعة من عمره، وهو وحيد ليس هناك أحد يحميه. فإذا مت أنا، فما الذِّي سيحدث لهذه الأغوار كلها؟ إنني أُلقي عليك هذًّا السؤال. إذا دعوت أخاك إلى المبارزة فقتلني، فما هو الوضع الذِّي سيصيرون إليه؟ من الذِّي سيعني بهم وسيهتم بأمرهم؟ والأنكى من ذلك ألَّا يقتلني، وإنما يُصيبيني بعاهة تُقعدني: لن أستطيع بعدئذ أن أعمل، بل أُصبح فما لا فائدة منه، عالة عليهم. من ذا الذِّي سيطعمني وسيطعمهم جميعًا عندئذ؟ وقَدْ أضطر أن أُخرج إيليوشا من المدرسة، وأن أُرسله إلى الشوارع كل يوم يستعطي الصدقات. ذلك ما يمكن أن تجره عليِّ مُبارزة من عواقب. هي كلمة سخيفة، لا أكثر...

هتف أليوشا يقول من جديد وقد التهبت نظرته نارًا:

- ليستغفرنَّك، ليرتمين على قدميك في وسط ذلك الميدان.

- خطر ببالي أن أشكوه إلى القضاء. ولكن يكفي أن نرجع إلى نصوص القوانين حتى نُدرك أن مقاضاته لن تثأر لي من الإهانة التي ألحقها بي. زد على ذلك أن أجرافينا ألكسندروفنا استدعتني وقالت ليِّ غاضبة أشد الغضب: «اعدل عن هذِّه الفكرة فلئن سمحت لنفسك بأن ترفع قضية، لأُرتِّبنَّ المسألة بحيث يتكشف لجميع الناس أنه إنما ضربك مُعاقبة لك على اختلاساتك، وستكون أنت المُلاحَق يومذاك!، والله يعلم هل ارتكبت أنا تِلكَ الاختلاسات بإرادتي، أم أني أُمرت بها فكنت أداة لا أكثرا إنني لم أفعل ما فعلت إلَّا بأوامر منها، وبأوامر من فيدور بافلوفتش! وقد أضافت تقول لي: واعلمْ عدا هذًّا أنني سأطردك من خدمتي عندئذ طردًا حاسمً، فما تجني مني بعد ذلك شيئًا. وسأقول كلمة لصاحبي التاجر (بهذا الاسم تُسمي عجوزها)، فيطردك هو أيضًا». فتساءلت حينذاك: ما عسى تصير إليه حالي إذا استغني التاجر عن خدماتي؟ ما عساني أصنع بعد ذلك في سبيل أن أكسب رزقي؟ ذلك أنه لم يكن قَدْ بقي لي إلَّا هذان بعد أن أصبح أبوك فيدور بافلوفتش لا يثق بي، لسبب آخر... حتى إن أباك يُفكر في جري إلى المحاكم مُستندًا إلى الإيصالات التي وقعتها بإمضائي. فلهذه الأسباب مُجتمعة، إنما ارتضيت السكوت. لقَدْ رأيت الظروف التي نعيش فيها بنفسك بنفسك. ولكن قُل لي الآن: هل أوجعتك كثيرًا عضة صغيري إيليوشا؟ إنني لم أجرؤ أن أُلقي عليك هذًّا السؤال في قصري أمامه؟

- نعم. أوجعتني كثيرًا. فقد كان مُنفعلًا جدًا. لقَدْ ثأر مني أنا للإساءة التي أُلحقت بك، لأنني واحد من آل كارامازوف. لقَدْ اتضحت المسألة الآن. ولكنك لم تر كيف اقتتل مع رفاق مدرسته بتراشق الحجارة. ذلك خطر جدًا، فمن الممكن أن يقتلوه. هؤلاء أطفال، لا يفكرون. رُبَّ حجر يُقذف بقوة فإذا هو يُصيب رأسه فيشُق جمجمته.

- أُصيب اليوم بحجر، ولكن لا على الرأس بل على الصدر. أصابه الحجر في موضع يعلو القلب قليلًا، فوصل إلى البيت مُزرقًا باكيًا، يئن أنينًا شديدًا، وها هو ذا الآن مريض.

- يظهر أنه هو الذِّي يُبادئ رفاقه الهجوم. إن غضبه مما أصابك لا يهدأ له أوار. والتلاميذ يزعمون أنه جرح الصبي كراسوتكين في جنبه بطعنة من موسى...

- قيل لي هذًّا. شيء خطر ومُزعج. إن كراسوتكين هذًّا هو ابن موظف من الموظفين، وأخشى أن يجر علينا هذًّا الحادث وبالًا...

تابع أليوشا كلامه الحار قائلًا:

- أنا أنصح بأن تخرجه من المدرسة إلى حين، إلى أن تهدأ نفسه... إلى أن يخفّ هذًّا الغضب الشديد الذِّي يتقد في قلبه...

قَال الضابط المُتقاعد مؤكدًا على كلامه:

- الغضب! الغضب! تِلكَ هي مشكلته. غضب كبير في كائن صغير. وأنت لم تعرفْ بعدُ كل شيء. فاسمح لي أن أوضح لك هذِّه القصة على الأخص. بعد ذلك الحادث أخذ جميع التلاميذ يناكدونه ويغيظونه، ويسمونه ليفة. إن الأطفال الذين هم في هذِّه السن لا تعرف قلوبهم الشفقة. هُم ملائكة إذا نظرت إلى كل واحد منهم على حدة، ولكنهم من اجتمعوا ولا سيما في المدرسة أصبحوا في كثير من الأحيان دُون رحمة وشفقة. لقَدْ أخذوا إذًا يُشاكسونه، فثار طبع إيليوشا الصغير النبيل. رب صبي آخر، رب ولد فاتر التعلُق بأبيه، كان يذعن ويستسلم ويرضخ، وكان يشعر بالخزي والعار من أبيه، أما هو فقد هبَّ وحيدًا ضد جميع الأطفال، يُدافع عن أبيه، يُدافع عن أبيه، ويُدافع عن الحقيقة أيضًا... نعم، عن الحقيقة... ما من أحد يعرف في الواقع، ما من أحد يعرف إلَّا الله وأنا، كم قاسي من ألم حين قبل يد أخيك متوسلًا إليه «أن يغفر لأبيه». فانظر كيف يعرف أطفالنا - أطفالنا نحن لا أطفالكم أنتم، أقصد أطفال الفقراء الهينين عليكم الكرام على أنفسهم.

- أنظر كيف يعرفون الحقيقة على هذِّه الأرض مُنْذُ السنة التاسعة من عمرهم. إن الأغنياء لا يستطيعون ذلك. هُم مَهْمَا يعيشوا لن يروا أعماق الهوة في يوم من الأيام! أما ابني إيليوشا فقد غاص إلى قرارة الحقيقة في تِلكَ اللحظة التي قبل فيها يد أخيك بالميدان... لقَدْ نفذت الحقيقة كلها إليه عندئذ، وسحقته إلى الأبد.

انتعش الضابط المُتقاعد وهو يقول هذًّا الكلام، وألمت به حماسة مُفاجئة وحمية قوية، حتى إنه ضرب بقبضة يده اليُمنى راحة يده اليُسرى كأنما ليوضح مزيدًا من التوضيح كيف سحقت «الحقيقة» ابنه إيليوشا.

وتابع الرَّجُل كلامه فقَال:

- وفي الليلة التالية انتابته حُمى، فظل يهذي طوال الوقت. ولم يُكلمني في الغداة، وإنما التزم صمتًا يُشبه أن يكون مُستمرًا، ولكنني لاحظت أنه كان يرقُبني ويرصُدني من الرُّكن الذِّي هو فيه، رغم ميله على النافذة وتظاهر بأنه يُهيئ واجباته المدرسية. لقَدْ أدركت أنه لم يكُن يُفكر في دروسه في تِلكَ اللحظة. حتى إذا جَاء اليوم التالي شربت فأصبحت لا أتذكر أشياء كثيرة... يا لي من شقي!... نعم لقَدْ شربت، من شدة ما استولى عليِّ الكرب واليأس. وأخذت زوجتي عندئذ تبكي - إنني أُحبها كثيرًا- ولكن ما العمل؟ لقَدْ أنفقت آخِر كوبيك أملكه لأسكر فأنسى بلواي. لا تحتقرني يا سيدي. السكارى في روسيا هُم أطيب الناس. إن أصحاب القلوب الحسَّاسة من الناس هم الذين يسكرون أكثر من غيرهم في بلادنا روسيا. ونمت، ولم أحفل بإيليوشا. وفي ذلك اليوم بعينه إنما أخذ الصبية يُعيِّرونه، صارخين: «يا ليفة! أُخرج أبوك من الحانة مشدودًا من لحيته، فأخذت تركض إلى جانبه تستغفر له!» وفي اليوم الثالث حين عاد من المدرسة، لاحظت أنه شاحب اللون، مروَّع الوجه. سألته:

ماذا بك؟، فلم يُجب. وكان يستحيل علينا التحدث في «القصر»، فلو قَدْ تحدثنا هناك لتدخلت الأم والبنات في الحديث... وكانت بناتي على علم بالقضية مُنْذُ أول يوم. كانت بربارا نيكولايفنا ما تنفك تُبدي استياءها وغضبها قائلة: «مهرجون! ما عسى يُنتظر منكم؟» قُلت لها: «أنتِ على حق، ما نحن بقادرين على غير ارتكاب الحماقات». وبذلك أرحت نفسي منها. وفي نحو المساء خرجت أتنزه مع الصغير. يجب أن أذكر لك أنني كنت قَدْ تعودت أن أقوم بنزهة مع ابني كل مساء. وكنا في العادة نسلُك هذَّا الطريق الذِّي نسير فيه الآن أنا وأنت: نخرج من البيت ونصل إلى تِلْكَ الصخرة الكبيرة التي تراها على الطريق قُرب السياج. إن البرية تبدأ هنا. المكان خال جميل. سرت في ذلك اليوم وابني إلى جانبي. يده في يدي، كالعادة. إن يده صغيرة، وأصابعه نحيلة باردة. إنه يشكو من داء في صدره، ابني هذَّا. قَال لي فجأة: «بابا! بابا!»، فسألته: «ماذا؟» ورأيت عينيه تلمعان كأنما تقدحان شررًا. قَال: في ذلك اليوم، كيف شَّك...» قلت: «ما العمل يا صغيري إيليوشا؟»، قَال: «لا تُصالحه يا بابا! لا تُصالحه أبدًا! الأولاد في المدرسة يدعون أنه أعطاك عشر روبلات تعويضًا لك عما فعله بك.. قلت له: «لا، لا يا صغيري إيليوشا، لن أقبل منه مالًا في يوم من الأيام». أخذ الصبي يرتجف جسمه كله، وقبض على يدي بيديه الصغيرتين، وغمرها بالقبل. ثُمّ عاد يقول: "بابا! اطلبه إلى المبارزة! فالأطفال في المدرسة يدعون أنك جبان، وأنك لن تطلبه إلي المبارزة، وإنما ستقبل منه عشر روبلات»، فشرحت له: «لا يمكنني أن أطلبه إلى المبارزة»، وأطلعته بإيجاز على الأسباب التي تعرفها، فأصغي إليّ بانتباه، ثُمّ هتف يقول وقد اشتعلت نظرته: «بابا! لا تُصالحه أبدًا. لأطلبنه أنا إلى المبارزة حين أكبر، فأقتله!» وأنا أبوه على كل حال... فاعتقدت أن من واجبي أن أقول له كلمة حق. قلت له: «إنه لإثم أن يقتل إنسان إنسانًا ولو في مُبارزة». فصاح عندئذ يقول: «بابا! سوف أُقاتله، حين أكبر، فألقيه على الأرض بعد أن أُسقط له سيفه بضربة من سيفي، ثُمّ أرتمي عليه وأُشهر سيفي فوق رأسه قائلا له: إنني أستطيع الآن أن أقتلك، ولكنني أعفو عنك، فذلك جزاؤك!» فانظر يا سيدي إلى الخواطر التي شغلت رأس الصغير طوال ذينك اليومين! لَقَدْ ظل يُفكر خفية ليل نهار في هذَّا الثأر الفروسي، ولا شك أن هذيانه في الليلة الأولى كان يدور حول هذَّا الثأر. ولكنه الآن يعود من المدرسة كل يوم مضروبًا، مضروبًا ضربًا قاسيًا. ولم أعلم بأمر اشتباكاته هذِّه مع رفاقه إلَّا أمس الأول. وأظن أنك على حق: يجب ألَّا يعود إلى هذِّه المدرسة. لَقَدْ خُفت عليه خوفًا شديدًا حين بلغني أنه واجه كل تلاميذ صفه وناصبهم العداء وأنه هو الذِّي تحداهم أولًا. إن الغضب يعصف في قلبه. لَقَدْ خرجنا نتنزه مرة أخرى في يوم من الأيام، فإذا هو يسألني: «بابا، هل الأغنياء أقوى من غيرهم إذًا في هذَّا العالم؟» فقلت له: «نعم يا إيليوشا، ليس هناك من هو أقوى من الرَّجُل الغني». فقال لي بعد ذلك: «بابا، سأصبح غنيًا أنا أيضًا في يوم من الأيام، وسأُصبح ضابطًا، أغلبُ الأعداء فيُكافئني القيصر، فأعود فما يجرؤ أحد بعدئذ أن...» وصمت بضع لحظات، ثُمّ أخذت شفتاه ترتجفان كما كانتا ترتجفان من قبل، وأضاف يقول: «بابا، يا لها من مدينة شريرة مدينتنا هذِّه يا بابا، أليست شريرة؟» قلت له: «نعم يا بني إيليوشا، ليست هذِّه المدينة مُحببة إلى القلب كثيرًا»، فقال: «فلماذا لا نتركها إلى مدينة أخرى طيبة، لا يعرفنا فيها أحد؟» قلت له: «سنُغادر هذِّه المدينة متي جمعت قليلًا من المال». لَقَدْ أسعدني أن أصرفه بذلك عن خواطره السوداء، وأخذنا نتحدث ونحلم بهذا الرحيل، ونُناقش تفاصيله. قلت له: «أسنشتري حُصانًا وعربة. تركب ماما والأختين على العربة ونغطيهما جيدًا، ونمشي نحن الاثنين إلى جانبهما. وقد أركبك أنت أيضًا من حين إلى حين، أما أنا فسأمشي على قدمي، لأن علينا أن نُراعي الحصان ونُحافظ عليه، فلا نركب جميعًا حين نرحل.» تحمس الصبي تحمسًا شديدً، وكانت فكرة امتلاك حصان يستطيع هو أن يركبه هي التي تُلهب حماسته أكثر من أي شيء آخر. إن الصبيان في روسيا يولدون برغبة أن يكونوا فُرسانًا كما تعلم. وقد ثرثرنا مُدة طويلة، قُلت لنفسي: «الحمد لله على أنني استطعت أن أُسري عنه وأُهدئ نفسه. حدث هذَّا في مساء أمس الأول. ولكن كل شيء تغير مساء أمس من جديد. لَقَدْ ذهب صباحًا من جديد إلى هذِّه المدرسة وعاد منها مُظلم الوجه مُكفهر الأسارير أكثر من أي يوم مضى. وفي المساء أمسكته من يده لنقوم بنزهتنا اليومية. كان مُصرًا على الصمت فما ينطق بكلمة. الريح تهب قليلًا، والسحب تغطي الشمس، والغسق يهبط. إن المرء يُحس قدوم الخريف. كُنا نسير دون أن نتكلم، وفي قلب كل منا حزن دفين. قلت له آملًا أن نستأنف حديث الليلة البارحة: «هها يجب علينا يا بُني أن نُفكر قريبًا في الإعداد لسفرنا». فلم يُجب. ولكنني شعرت بأصابعه الصغيرة ترتجف في يدي مُتشنجًا. قُلت لنفسي: «الحالة سيئة... لا شك أن هناك جديدًا». ومضينا إلى تِلْكَ الصخرة التي تراها هناك. جلست على الصخرة، كان في السماء طائرات كثيرة من طائرات الورق التي يُطلقها الأولاد. إنها تُهمهم في الفضاء وتقرقع. كان في السماء يومئذ ثلاثون طائرة من هذِّه الطائرات على الأقل. ذلك هو الفصل الذِّي تُطلق فيه هذِّه الطائرات في الفضاء. قلت له: «لَقَدْ آن لنا يا إيليوشا أن نُطلق طائرتنا نحن أيضًا، طائرة العام الماضي. سوف أتولى أنا إصلاحها. أين وضعتها؟» لم يُجب بشيء، وإنما أدار لي ظهره ناظرًا إلى جانب. وفجأة هبت علينا ريح مُثقلة بسحابة كبيرة من رمل... فإذا هو يرتمي عليِّ، ويُحيطني بذراعيه الصغيرتين، ويشدني إليه بجماع قواه. تعلم أن هذَّا النوع من الأطفال الصموتين المُعتزين بأنفسهم يستطيعون أن يكظموا غيظهم ويحبسوا دموعهم مُدة طويلة، ولكن حين ينفجر بكاؤهم أخيرًا، لأن عذابهم أصبح فوق طاقتهم، فإن عبراتهم تتدفق عندئذ كالسيول. فما هي إلَّا طُرفة عين حتى رطب وجهي كله بدموعه. كان ينتحب في تشنج، ويرتعد ارتعادًا قويًا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ويشد جسمي إليه وأنا جالس على الصخرة. قَال لي مُنتحبًا: «بابا! يا عزيزي، ما أشد ما أذلك، فأجهشت أبكي أنا أيضًا. وتعانقنا عناقًا شديدًا والدموع تهزنا كلينا. فكان ما ينفك يردد قوله: «بابا... حبيبي بابا!»، وكنت أجيبه: «بني... بني الطيب إيليوشا!» لم يرنا أحد في تِلْكَ اللحظة... لم يرنا إلَّا الرَّب من علياء سمائه... الأب الذِّي قَدْ يُنصفني. أشكر أخاك يا ألكسي فيدوروفتش. لا يا ألكسي فيدوروفتش، لن أجلد ابني لأسرَّك وأرضيك!

عاد الضابط المُتقاعد، حين ختم قصته، إلى سخريته المُميزة الحانقة الوضيعة. ومع ذلك أحسّ أليوشا أنه قَدْ حظي بشيء من ثقة هذَّا الرَّجُل، وأن هذَّا الرَّجُل ما كان له أن «يتحدث» إلى غيره بهذه الطريقة، وأن يقُص على غيره ما نصه عليه هو. وسُّر أليوشا من ذلك، كان يرتعش من شدة التأثر، وكانت دموعه تهم أن تسيل.

قَال أليوشا:

- أوها لشد ما أتمنى أن أُصالح ابنك! ليتك تستطيع أن تُهيئ..

فدمدم النقيب الرُّكن يقول:

- طبعًا... طبعًا... وتابع أليوشا كلامه يقول بحرارة:

- يجب عليّ الآن أن أُكلمك في شيء آخر. أصغ إليِّ. إنني مُكلف بأن أُفاتحك في أمر. إن أخي ذاك نفسه، إن ديمتري ذاك نفسه، قَدْ أهان خطيبته أيضًا، وهي فتاة نبيلة جدًا أغلب ظني أنك سمعت عنها، ومن حقي أن أُكلمك عن الإهانة التي ألحقها بها، بل إن ذلك واجبي أيضًا، لأن هذِّه الفتاة بعد أن علمت بالإساءة التي نالتك، وبعد أن عرفت حالتك البائسة... قَدْ كلفتني... قَدْ عهدت إليِّ مُنْذُ قليل بمعونة صغيرة طلبت مني أن أُقدمها إليك. اعلم أن هذِّه الفتاة هي التي تُرسل إليك المعونة لا أخي ديمتري الذِّي هجرها هي أيضًا... والمعونة ليست من ديمترى على كل حال، ولا مني أنا أخيه، ولا من شخص آخر، بل منها هي وحدها؛ وهي تتوسل إليك أن تقبل معونتها... ألم يذلكما كليكما شخص واحد بعينه ثُمّ إنها لم تتذكرك إلَّا بعد أن ألحقت بها الإهانة نفسها التي ألحقت بك (الإهانة نفسها بضخامتها)! فهي إذًا أُخت تُريد أن تُساعد أخاها.... لَقَدْ كلفتني أن أطلُب إليك قبول هاتين المائتين من الروبلات، معونة من أُخت لأخيها. ولن يعلم أحد بالأمر، ولن تروج أقاويل شريرة حول هذَّا الموضوع... إليك المائتي روبل... عليك أن تقبلها... أحلفُ لك... وإلَّا كان على البشر أن يعدوا أنفسهم أعداء على هذِّه الأرض! ولكن الأخوة موجودة في هذَّا العالم.. إن لك نفسًا نبيلة... فلسوف تفهم... لسوف تفهم حتمًا!

قَال أليوشا ذلك ومدَّ إلى الرَّجُل ورقتين نقديتين جديدتين كل الجدة، كل منهما بمائة روبل. وكانا في تِلْكَ اللحظة قَدْ وقفا قُرب الصخرة الكبيرة إلى جانب السياج، ولم يكن حواليهما أحد. بدا أن الورقتين النقديتين قَدْ أحدثتا في نفس الضابط المُتقاعد أثرًا خارقًا. ارتعش في أول لحظة، ولكن ارتعاشه كان من الدهشة خاصة. إنه لم يحلم بشيء من هذَّا، ولا كان يتوقع أن ينتهي الحديث بهذه الخاتمة. إنه لم يخطر بباله في لحظة من اللحظات، حتى ولا أثناء النوم، أن أحدًا يُمكن أن يهب إلى مساعدته، ولا سيما بمبلغ ضخم كهذا المبلغ. تناول الورقتين النقديتين ولبث قُرابة دقيقة لا يستطيع أن يتكلم. وطاف في وجهه تعبير جديد كل الجدة.

- أهذَّا لي، لي أنا، كل هذَّا المال؟ مائتا روبل؟ يا رب السماء! إنني لم أر مبلغًا ضخمًا كهذا المبلغ مُنْذُ أربع سنين! أوه! رباها وهي تُعطيني هذَّا المبلغ كما تُعطي أُخت أخاها؟ أهذا صحيح؟ أهذا صحيح؟

هتف أليوشا يقول:

- يمينًا ما قُلت لك إلَّا الحقيقة!

احمر وجه النقيب الرُّكن وقَال:

- قُل لي يا صديقي العزيز: لن أكون وغدًا إذا أنا قبلتها، هذِّه الروبلات المائتين، لن أكون جبانًا، أليس كذلك؟ أأكون وغدًا في نظرك؟ اصغ إليِّ يا ألكسي فيدوروفتش، أصغ إليِّ حتى النهاية (كذلك أضَاف يقول محمومًا وهو يلمس أليوشا بكلتا يديه في كل لحظة): إنك تُقنعني بقبول هذَّا المال، لأنه مُرسل إليِّ من «أخت» ولكن ألن تشعر نحوي باحتقار وازدراء، في قرارة نفسك، سرًا، إذا أنا أخذته؟ قُل.....

- يمينًا لا... أحلف لك على هذَّا بخلاصي! ثُمّ إن أحدًا لن يعلم بالأمر، لن يعلم به أحد قط إلَّا نحن، أعني أنا وأنت وهي وسيدة أخرى هي صديقتها الكبرى...

- لا تهمُني السيدة! دعني أقول لك كل شيء، يا ألكسي فيدوروفتش. إنني في لحظة كهذه اللَّحظة أشعر بحاجة إلى الإفصاح عن كل ما بنفسي.

- ثَمّ أضاف الرَّجُل البائس الذِّي أخذت تغزوه شيئًا فشيئًا حمية مُضطربة مُشوشة تُوشك أن تكون وحشية:
- إنك لا تستطيع حتى أن تتخيل قيمة هذِّه الروبلات المائتين بالنسبة إليِّ اليوم.
- كان يبدو على الضابط المُتقاعد أنه أُفقد الصواب، فهو يتكلم بتعجل قلق كأنه يخشى ألَّا يُسمح له بإتمام كلامه، وتابع يقول:
- إن هذًّا المبلغ ليس مالًا حلالًا ترسله إليّ «أخت»، مُحترمة مُبجلة فحسب، وإنما أنا أستطيع أن أستعين به أيضًا على مُداواة الأم المسكينة وعلى مُعالجة ابنتي الحبيبة، ملاكي الحدباء، نينوتشكا التي يُمكنني أن أداويها! لَقَدْ جاء إلينا الدكتور هرتسنشتوبه في ذات يوم، شهامةً منه ونُبلًا، ففحصهما كلتيهما خلال ساعة كاملة، فبعد أن قَال: «إنني لم أفهم من الأمر شيئًا»، ذكر أن الماء المعدني (الذِّي وصفه للأم العزيزة) قَدْ ينفعها كثيرًا، ويمكن شراؤه من الصيدلية في مدينتنا. وقد وصف لها أيضًا حمامات للرجلين بأملاح طبية. وسعر الماء المعدني ثلاثون كوبكة، وعليها أن تشرب منه قرابة أربعين زجاجة. لَقَدْ أخذت الوصفة من الطبيب، ووضعتها على الرف تحت الأيقونات، إذ لم أكن أستطيع أن أسمح لنفسي بهذا البذخ، وما تزال راقدة هُناك. وقد وصف كذلك لنينوتشكا حمامات ساخنة ببعض المحاليل، قائلًا إن عليها أن تستحم مرتين في اليوم، مرة في الصباح ومرة في المساء. فكيف يكون في وسعنا أن نتبع هذًّا العلاج في مسكننا الفقير، بغير خادم، بغير أحد يُساعدها، وليس عندنا لا ماء ولا حوض؟ إن نينوتشكا المسكينة تشكو من الروماتزم - لم أذكر لك هذًّا من قبل - وهي تشعر في الليل بآلام شديدة في كل الجانب الأيمن من جسمها ولكن هل تصدق؟ إن هذِّه الملاك تُغالب عذابها حتى لا تُقلقنا، وتُمسك عن التوجع والأنين حتى لا تُعكر علينا صفو نومنا. ونحن نأكل بقدر ما تتيح لنا مواردنا الضئيلة أن نأكل، وما يُصادف أن نلقاه. فهل تُصدق أنها تختار لنفسها في كل مرة أسوأ قطعة من الطعام، قطعة يتردد المرء أن يرميها لكلب؟ وكأن عينيها الملائكيتين تقولان حينذاك: «أنا لا أستحق حتى هذًّا. أنا أحرمكم من نصيبكم، وأنا عبء عليكم جميعًا». ونحن نُساعدها ما وسعنا أن نُساعدها، فيؤلمها أننا نُكلف أنفسنا عناء في سبيلها، وكأنها تقول: «أنا لا أستحق هذًّا! فما أنا إلَّا مُقعدة بلهاء لا فائدة منها»، أهي لا تستحق؟ هي؟ مع أنها هي التي تفتدينا عند الرب بطيبتها الملائكية ا إلَّا إن الحياة لتُصبح في بيتنا جحيمًا بدونها، وبدون الكلمات الحلوة الرقيقة العذبة التي تعرف كيف تقولها في اللحظة المناسبة لقَدْ استطاعت أن تلين حتى فاريا وإياك أن تظلم بربارا نيكولايفنا، إنها هي أيضًا ملاك.. هي ضحية... مظلومة هي أيضًا... لقَدْ وصلت إلينا هذًّا الصيف وفي جيبها ستة عشر روبلا كانت قَدْ كسبتها من إعطاء دروس خاصة، وقد ادخرت هذًّا المبلغ لتستطيع أن تدفع أجور سفرها حين عودتها إلى بطرسبرج، التي يجب أن تكون فيها في شهر سبتمبر (أيلول)، أي الآن. ولكننا أخذنا هذًّا المال وأنفقناه في سدَّ رمقنا. فبأي وسيلة يمكنها أن تعود الآن إلى بطرسبرج لإتمام دراستها. تِلكَ هي المسألة. ثُمّ إنها لن تستطيع أن تُسافر، لأنها تعمل في خدمتنا بالمنزل كما تعمل بهيمة مقرونة: تهتم بكل فرد من أفراد الأسرة، وتُصلح ما يحتاج إلى إصلاح، وترقع ما يجب ترقيعه، وتغسل الثياب، وتُنظف الأرض، وتُرقد الأم في سريرها، والأم ذات نزوات تبكي لأيسر سبب، فهي مجنونة!.. وها أنا ذا سأستطيع بهذِه الروبلات المائتين أن أستخدم خادمة... هل تفهم يا ألكسي فيدوروفتش؟ سأستطيع أن أُداوي المريضتين العزيزتين، وتستطيع الطالبة أن تملك ما تُسافر به إلى بطرسبرج، وسوف أشتري لحمة، فأحسَّن ما نصيبه عادةً من طعام. آه... يا رب السماء! ما أجمله من حلم!
أسعد أليوشا كثيرًا أنه استطاع أن يُفرح الرَّجُل المسكين هذًّا الفرح كله، وهنأ نفسه على أن الرَّجُل قَدْ ارتضى قبول هذِّه السعادة.
ولاحت للضابط المُتقاعد رؤية جديدة، فاستأنف كلامه يقول بسرعة محمومة جياشة:
- لحظة يا ألكسي فيدوروفتش، لحظة أُخرى! هل تعلم أنني أملك الآن أن أحقق أمنية إيليوشا؟ لسوف نشتري حصانًا وعربة. وسيكون الحِصان أكحل. إن إيليوشا يُصر على هذًّا اللون. وسنُسافر، كما وصفت له سفرنا أمس الأول. إنني أعرف في محافظة «ك» محاميًاً هو من أصدقاء الطفولة. وقد علمت من شخص موثُوق به أن صديقي هذًّا سيُعينني كاتبًا في مكتبه إذا أنا ذهبت إلى تِلكَ المحافظة. من يدري؟ قَدْ يستخدمني فعلًا... سأُقعد الأم إذًا في العربة، وسأُقعد عليها نينوتشكا أيضًا، ثُمّ يُمسك إيليوشا بزمام الحصان فيجره، وأسير أنا على قدمي إلى جانب العربة. وهكذا نرحل جميعًا... يا رب السماء! ليتني أستطيع أن أسترد ذلك المبلغ الصغير الذِّي يدين لي به أحدهم هنا، إذًا لملكت من المال ما يكفيني حتى لهذه الرحلة!
صاح أليوشا يقول:
- ستملك ما أنت في حاجة إليه! ستُرسل إليك كاترينا إيفانوفنا من المال كل ما ستحتاج إليه. وأنا أيضًا عندي بعض المال، هل تعلم ذلك؟ خُذ مني ما أنت في حاجة إليه، خُذه مني كما يأخذ أخ من أخيه، كما يأخذ صديق من صديقه. وسترده إليّ في المستقبل... (ذلك أنك ستغتني، هذًّا مؤكد!) صدقني إذا قُلت لك إن فكرة السفر إلى محافظة أُخرى هي خير فكرة يمكن تخيلها! إن فيها خلاصك، وخلاص ابنك خاصةً. وأؤكد لك أن الإسراع أفضل شيء. سافر قبل حلول الشتاء، سافر قبل اشتداد البرد. وستكتُب إلينا من هناك، وسنظل أخوة... ليس هذًّا حُلمًا، ليس هذًّا حُلمًا البتة!
ودَّ أليوشا لو يُعانقه وهو في غمرة الفرح هذِّه. ولكنه أمسك فجأة حين نظر إليه. لقَدْ مدّ الرَّجُل عنقه، وقدَّم فمه، شاحب اللون مُنقلب السحنة. إن شفتيه تختلجان، كأنما هو يهمس بشيء أو يُحاول أن يتكلم. ولكن لم يخرج من فمه أي صوت، وظل يُحرك شفتيه صامتًا. منظر غريب مُقلق.
سأله أليوشا وهو يرتعش دون أن يدري لماذا:
- ما بك؟
فتمتم الضابط المُتقاعد يقول بصوت مُتقطع، مُحدقًا إلى أليوشا بنظرة غريبة شاردة، وقد بدا كإنسان يهمّ أن يهوي في فراغ، بينما شفتاه تصطنعان ابتسامة:
- ألكسي فيدوروفتش.. إنني.. أ.. أ... نعم.. إني أ...
ثم قَال فجأة بهمس سريع، ولكن بلهجة جازمة ليس فيها الآن شيء من تقطع:
- هل تريد أن أُريك براعة صغيرة من براعاتي؟
- يراعة؟ - نعم، براعة من نوع براعة الحواة!
كذلك أجاب الضابط المُتقاعد في همس أيضًا. والتوى فمه إلى الجانب الأيسر، وضاقت عينه اليُسرى، وظل يُحدق في أليوشا دون أن يحول عنه عينيه، وكأنما انجذب إليه.
فهتف أليوشا مذعورًا كل الذعر:
- ولكن ماذا بك؟ أي براعة؟
فقال الضابط المتقاعد فجأة بصوت حاد:
- هذِّه.. هي براعة.. انظر!
قَال ذلك ثُمّ أراه الورقتين النقديتين اللتين ظل طوال الحديث يُمسكهما مشدودتين بين السبابة والإبهام من يُمناه، ثُمّ إذا هو يقبض عليهما فما يزال يدعكهما في قبضة يده بعنف وقوة حتى سحقهما سحقًا وقد أخذ منه الحِنق كل مأخذ.
ثم صرخ يقول لأليوشا بصوت ثاقب:
- فهل رأيت؟ هل رأيت هذِّه المرة؟
ثم رفع قبضة يده شاحب الوجه مُرتعد الجسم، فرمى الورقتين المسحوقتين على الرمل.
وعاد يعول من جديد قائلًا وهو يُشير إليهما بإصبعه:
- هل تراهما؟ إليك هما!...
ثم رفع قدمه اليُمنى، فأخذ يدوسهما بحنق مسعور وحشي، وهو يصرخ بصوت لاهث بعد كل دوسة عليهما:
- انظر ماذا أفعل بمالك، انظر ماذا أفعل به! انظر إليهما، ورقتيك...
ثم تراجع خطوة إلى الوراء، على حين فجأة، ووقف أمام أليوشا مُنتصب القامة. كان وجهه يُعبر عندئذ عن كبرياء لا توصف.
وهتف يقول وهو يمد ذراعه:
- قُل للذين أرسلوك أن ليفة الحمام لا تبيع شرفها!
ثم استدار فجأة، ومضى راكضًا. ولكنه ما إن قطع خمس خطوات حتى التفت نحو أليوشا، وحرك له يده مودعًا. ثُمّ ما إن قطع خمس خطوات أخرى حتى توقف مُلتفتًا نحو أليوشا مرة ثانية. كانت الابتسامة الساخرة قَدْ اختفت من وجهه وحلت محلها دموع. وبصوت مختلج تقطعه شهقَات انتحاب، صَاح يسأل أليوشا من خلال عبرات يُحاول أن يكظمها فتشطر كلماته شطرين:
- ماذا كان يُمكنني أن أقول لابني لو قبلت مالكم ثمّنًا لعارنا؟
قَال ذلك وانصرف راكضًا دون أن يلتفت مرة أخرى. تابعه أليوشا بنظره وهو يشعر بحزن عميق. وأدرك أليوشا أن هذًّا الرَّجُل لم يكن قَدْ خطر بباله، حتى آخِر

لحظة، أنه سيدعك الورقتين النقديتين وأنه سيرميهما. إنه الآن يركض، دون أن يلتفت إلى الوراء ولو مرة. كان أليوشا على يقين من أنه لن يلتفت. ولم يشأ أليوشا لا أن يُناديه، ولا أن يجري وراءه ليُدركه وكان يعرف السبب. حتى إذا غَاب الرَّجُل عن بصره، تناول الورقتين اللتين كانتا مدعوكتين مسحوقتين غائرتين في الرمل، ولكن دون أن يُصيبهما أي تمزق، وأخذ يبسطهما فيسمع قرقعتهما بين أصابعه كأنهما جديدتان. حتى إذا أزال عنهما ما نالهما من دعك، عاد فطواهما ودسهما في جيبه. ثُمّ سار في طريقه ليُبلغ كاترينا إيفانوفنا ثمّرة مسعاه في إنفاذ ما عهدت إليه بإنفاذه.

الباب الخامس: ما للأمر وما عليه[111]

- 1 -الخطوبة

إن السيدة خوخلاكوفا هي التي استقبلت أليوشا من جديد في الدهليز. كانت تبدو مُنهمكة جدًا، فقد وقع حادث خطير: إن نوبة الهستيريا التي أصابت كاترين إيفانوفنا قَدْ انتهت إلى إغماء أعقبه «ضعف فظيع وإعياء رهيب. لقَدْ رقدت كاترين إيفانوفنا، وأغمضت عينيها، وأخذت تهذي، وارتفعت حرارتها. واستدعي الدكتور هرتسنشتوبه والعمّتين، فوصلت العمّتان، ولكن الطبيب تأخر وصوله. الجميع مُحتشدون الآن في غرفتها. إنهم ينتظرون قلقين خائفين. ما عسى يحدث؟ إنها في غيبوبة. آمل ألّا تكون قَدْ أصابتها حمى دماغية!».

كانت هيئة السيدة خوخلاكوفا تدل على ذُعر حق. فهي تُصيح في كل لحظة قائلة لأليوشا من أجل أن تُطلعه على الواقع: «الأمر في هذِّه المرة خطير، خطير جدًا!»، كان كل ما جرى حتى ذلك الحين لم يكن على شيء من خطورة. كان أليوشا يُصغي إليها بمرارة. أراد أن ينهي إليها نتيجة المساعي التي قام بها، ولكنها كانت تقَاطعه مُنْذُ بدأ ينطق بأول كلمة قائلةً له: «ليس الآن» إن وقتها لا يتسع للاستماع إليه. وطلبت منه أن يتفضل فينتظر عند ليزا، واعدةً إياه أن تلحق به فيما بعد.

قالت له بما يُشبه الهمس في أذنه مُفضيةً إليه بسر:

- تصوّر يا عزيزي ألكسي فيدوروفتش! لقَدْ أدهشتني ليزا أشد الدهشة مُنْذُ قليل، ولكنها تبلغ من التأثير في قلبي أنني أغفر لها راضية. ما إن خرجت أنت حتى استبدّت بها ندامة صادقة جدًا، لأنها فيما تزعُم قَدْ سخِرت منك أمس واليوم. الحقيقة أنها لم تكن تسخر، فأنا أعرفها، وإنما هي مزحت مُزاحًا. ومع ذلك فقد بلغت من الأسف العميق أنها أوشكت أن تبكي، فما وسعني إلّا أن أُدهش. لم يتفق لها أن ندمت يومًا حين كانت تسخر مني، سخرية لا خُبث فيها على كل حال. وهي تسخر مني بغير انقطاع كما تعلم. أما الآن فالأمر خطير. لقَدْ أصبح كل شيء خطيرًا. إنها تحرص كثيرًا على رأيك يا ألكسي فيدوروفتش، وما ينبغي لك أن تُؤاخذها أو أن تستاء منها. أنا شخصيًا أتساهل معها وأرأف بها لأنها ذكية جدًا... ليتك تعلم كم هي لطيفة وذكية! ولقد ذكرت لي مُنْذُ هنيهة أنك كُنت صديق طفولتها، أنك كنت «صديق طفولتي الأكثر شأنًا». الصديق الأكثر شأنًا، هل تفهم؟ فأين مكاني أنا من نفسها إذن؟ إن لها في هذًا المجال عواطف عميقة وذكريات حيّه. وهُنالك خاصةً تِلكَ العبارات وتلك الكلمات التي تُجيد استعمالها، تِلكَ التراكيب التي لا يتوقعها المرء ذلك يخرج من فمها فجأة، ارتجالًا. قصة الصنوبر تِلكَ مثلًا. لقَدْ كان في حديقتنا شجرة صنوبر، أيام كانت ليزا صغيرة جدًا. أحسب أن هذِّه الشجرة ما تزال موجودة إلى الآن، فما ينبغي أن نتحدث عنها بصيغة الفعل الماضي، ليست الأشجار بشرًا يا ألكسي فيدوروفتش، إنها لا تتغير مدة طويلة. قالت ليزا مُنْذُ أيام: «ماما، إني أتذكر شجرة الصنوبر هذِّه كأنها حلم، أي sosna kak So sna». الحق أنها قالت لي ذلك بطريقة أخرى[112]. نسيت الآن كيف قالت لي ذلك. المهم أن كلمة الصنوبر كلمة سخيفة في ذاتها. ولكن ليزا بلغت من الطَّرافة والأصالة في لفظها أنني لا أستطيع أن أُقلدها. ثُمّ إن هذًا كله قَدْ خرج من رأسي. والآن، إلى اللقاء. إن هذِّه الأحداث قَدْ قلبت نفسي رأسًا على عقب، حتى لأخشى أن تذهب بعقلي. لقَدْ أوشكت يا عزيزي ألكسي فيدوروفتش أن أجئ مرتين في حياتي. فاضطروا إلى مُعالجتي. اذهب إلى ليزا، وواسها كما تُجيد أنت ذلك أيما إجادة.

ثم صرخت تُنادي ليزا وهي تقترب من الباب:

- ليزا! جئتك بألكسي فيدوروفتش الذِّي تظنين أنك أسأت إليه إساءة كبرى. إنه غير غاضب منكِ ولا عاتب عليك، أؤكد لكِ ذلك، بل إنه ليدهشه أن يكون قَدْ خطر ببالك هذًا الخاطر!

- شُكرًا ماما! أدخل يا ألكسي فيدوروفتش.

دخل أليوشا الغرفة. إن ليزا تبدو مُضطربة اضطرابًا شديدًا خجلي خجلًا قويًا، فقد احمر وجهها فجأة حتى الأذنين. كان واضحًا أنها تشعر بشيء من الخزي. وكما يحدُث دائمًا في مثل هذِّه الحالة، طفقت تتحدث في أمور لا شأن لها في نظرها، مُتظاهرة بأنها مهتمة بها في هذِّه اللحظة اهتمامًا كبيرً. قالت:

- حدثتني أمي مُنْذُ برهة يا ألكسي فيدوروفتش عن المائتي روبل، وعن المهمة التي كُلفت بها... لدى ذلك الضابط المسكين... وقد وصفت لي الإهانة الفظيعة التي أُلحقت به... رغم أن أمي لا تُحسن سرد قصة من القصص، وإنما هي تخلط الأمور بعضها ببعض، وتُسقط في جميع الأحيان تفاصيل هامة... لقَدْ تأثرت تأثرًا شديدًا، وبكيت. فقل إليِّ الآن: هل أعطيته المبلغ وكيف تصرف هذًا الإنسان الشقي المُعَذَّب؟

أجاب أليوشا مُتظاهرًا هو أيضًا بأن إخفاقه في إعطاء النقود هو ما يشغل باله:

- المشكلة هي أني لم أعطه المبلغ، تِلكَ قصة طويلة!

وأدركت ليزا مع ذلك أنه يُشيح عينيه في ضيقٍ وحرج، ويُحاول مثلها تمامًا أن يتحدث في أمور ليست بذات بال. وجلس أليوشا قُرب المائدة وأخذ يروي الحكاية، فما إن قَال بضع كلمات حتى زال ارتباكه تمامًا، وحتى أسر انتباه ليزا. كان يتكلم وهو تحت وطأة الانفعال الذِّي ما يزال قويًا في نفسه، والتأثير الهائل الذِّي تركه الحادث القريب فيه. وقد عرف كيف يروي القصة رواية أمينة صادقة، جذابة أخاذة. كان قَدْ اعتاد في الماضي، بموسكو، أن يجيء إلى ليزا أيام كانت ما تزال طفلة صغيرة، فيقُص عليها حادثًا وقع له مُنْذُ وقت قصير، أو يُحدثها عن قراءاته، أو يُثير أمامها ذكرى من ذكريات سنينه الأولى، فكان يتفق لهما في كثير من الأحيان أن يُلفقا أحلامًا مُشتركة أو أن يخترعان حكايات هي في الغالب مُضحكة خيالية غريبة. وها هما يستعيدان الآن جو موسكو، ويشعران في نفسيهما باستيقاظ مُناخ الحياة التي قضياها هُنالك قبل سنتين. اضطربت ليزا من رواية هذِّه القصة اضطرابا قويًا. لقَدْ عرف أليوشا كيف يرسم للصبي إيليوشا صورة حارة. فلما فرغ من سرد جميع تفاصيل المشهد، ووصف كيف داس ذاك الرَّجُل المسكين الورقتين النقديتين، هتفت ليزا تقول وقد استبد بها انفعال عنيف:

- ألم تعطه المال إذًا؟ أتركته ينصرف؟ أوه! يا رب كان عليك أن تلحق به وأن تُدركه وتتكلم معه...

- لا يا ليزا، لقَدْ كُنت على حق حين لم أُحاول أن أُدركه. ذلك أفضل...

قَال أليوشا ذلك وهو ينهض من كُرسيه، وأخذ يسير مهمومًا في الغرفة.

- هذًا أفضل؟ كيف يكون هذًا أفضل؟ لسوف يهلكون الآن فقرًا!

- لن يهلكوا، لأن هاتين المائتين من الروبلات ستصلهما على كل حال. سيقبلهما في الغد حتمًا.

ثم تابع كلامه يقول وهو ما يزال يسير في الغرفة مُطرقًا مُفكرًا:

- نعم... لن يُعارض في الغد... هذًا أكيد...

ولم يلبث أن توقف فجأة أمامها فقال:

- لقَدْ ارتكبت خطأ، ولكن هذًا الخطأ ستكون له ثُمّرات طيبة.

- أي خطأ؟ ولماذا تتصور أنه ستكون له ثُمّرات طيبة؟

- اسمعي. إن هذًا الرَّجُل له طبع ضعيف وجل. لقَدْ أرهقه القدر، ولكن له قلبًا طيبًا. حاولت أن أفهم لماذا شعر فجأةً بأنه أُهين فأخذ يدوس هاتين الورقتين النقديتين، ذلك أنه كان هو نفسه يجهل حتى آخر لحظة أنه سيتصرف هذًا التصرف، ثقي بهذا وأحسب أنني استشف الآن الأسباب الكثيرة التي جعلت شعوره يجرح... وكان ذلك أمرًا لا بد منه. هكذا... فهو أولًا قَدْ أسرف في إظهار ابتهاجه بهذا المال أمامي، ولم يكتم سعادته في اللحظة الأولى. فلا بد أنه شعر بعد ذلك بذلة من استجابته تِلكَ السريعة التي لم يستطع أن يُسيطر عليها. فلو أنه اغتبط اغتباطًا أقل، لو أنه امتنع عن إظهار هذًا الاغتباط، لو أنه اصطنع أوضاعًا واتخذ مظاهر كما يفعل كثير من الناس لأخذ المال، لقبل الوضع بسهولة أكبر، ولما رفض هذِّه المُساعدة. لقَدْ أسرف في الصدق والإخلاص، وذلك هو ما يجرح شعوره. آه يا ليزا! إنه إنسان طيب صادق، وهذا يُصعب الأمور دائمًا في مثل هذِّه الأحوال.. لقَدْ كان طوال مُدة حديثنا يتكلم بصوت ضعيف مُرهق معدود مُتعجل. وكان يضحك ضحكة صغيرة أيضًا... يضحك أو يبكي... لقَدْ كانت ضحكاته أقرب إلى البكاء... كان يبكي حماسة... حدثني عن ابنتيه... عن الوظيفة التي عُرضت عليه في مدينة أخرى... لقَدْ فتح لي قلبه، وأسرّ لي بذات نفسه، وأفاض في الإفصاح عن عواطفه فما لبث بعد ذلك أن شعر من ذلك بخزي وعار... ثُمّ إذا هو يشعر نحوي بكرهٍ على حين فجأة. إنه واحد من أُولئك الناس المساكين الذّين يسرفون في الإحساس بالخجل والعَار. لقَدْ شعر بالذُّل من أنه سارع يعدّني صديقًا، وأنه استسلم لي بغير مُقاومة. في بيته كان قَدْ هددني وتوعدني تقريبًا، ثُمّ ها هو ذا حين تلقى المال يُسارع فيوشك أن يرتمي على عُنقي. لقَدْ ودّ لو يُعانقني، وكانت يداه تُلامساني في كل

لحظة، فلهذه الأسباب جميعًا أحسَّ أنه أذل نفسه أمامي؛ ومما زاد الطين بلةً أنني ارتكبت تِلكَ الخطيئة، أنني اقترفت تِلكَ الغلطة الخطيرة: لقَدْ صرَّحت له فجأة بأنه سيُمنح مزيدًا من المال إذا كان ما يملكه لا يكفيه للهجرة إلى مدينة أخرى، حتى لقَدْ عرضت عليه أن أُسهم أنا في ذلك بمالي إسهامًا كبيرًا. ذاك ما فاجأه. لقَدْ تساءل: لماذا أُقحم نفسي في مساعدته أنا أيضًا؟ يجب أن تعلمي يا ليزا أن الذّين أمثاله لا يحبون أن يعتبر جميع الناس أنفسهم مُحسنين إليهم... سمعت هذًّا الرأي كثيرًا، ولا سيما من الشيخ زوسيما. لا أعرف كيف أُوضح هذِّه الحقيقة، ولكن أُتيح لي أن أُلاحظها بنفسي مرارًا. ثُمّ إنني لو كُنت في مكانهم لكان ردّي كردّهم أشعُر بذلك في ذات نفسي. يجب أن نتصور خاصةً أنه رغم جهله حتى آخر لحظة بأنه سيدوس المال أخيرًا، كان يشعر بذلك شعورًا غامضًا مُبهمًا. هذًّا أكيد. ولم تكن حماسته فائضة ذلك الفيض كله إلَّا لأنه كان يُحسّ هذًّا الإحساس الغامض... على كل حال، مَهْمَا تكن هذِّه الخاتمة داعية إلى الأسف والحسرة، فما ينبغي أن نقلق منها، بل إنني على يقين بأن ما حدث كان هو الأفضل، وأن الأمور هي الآن عليّ خير ما يرام...

- لماذا ليس هُناك ما هو أفضل منه، لماذا؟

كذلك هتفت ليزا وهي تُلقي على أليوشا نظرة دهشة. فقال أليوشا:

- لو أنه لم يدس الورقتين النقديتين بقدميه، لو أنه أخذ المال، إذًا لظل يبكي في بيته من الذّل بعد ساعة أو ساعتين، ذلك أمر محتُوم، ولندم على ما فعل ولجاءني مع الغد حانقًا ساخطًا ليرمي بهما في وجهي، أو ليدوسهما بقدميه كما فعل مُنْذُ قليل. أما وقَدْ صنع ما صنع، فسيشعر بَعْد الآن بالكرَامة والكبريَاء، والظفر، رغم علمه بأنه قَدْ ضيع نفسه بفعلته». يترتب على ذلك أنه لن يكون هُنالك شيء أسهل من رده إلى قبول هاتين المائتين من الروبلات في الغدِ، ما دام قَدْ برهن على تمسكه بالشرف برفضِ المال ودوسه... ذلك أنه حين أخذ يدوس الورقتين بقدميه لم يكُن يتنبأ أنني سأردهما إليه في الغداةِ من جديد. وهو في حاجة رهيبة إلى هذِّه المساعدة المالية، ومهما يبلغ من الشعور بالكبرياء، فإنه سيظل يُفكر طوال النهار في المعونة الكبيرة التي فقدها. وسيكون أمره في الليل أدهى، فإن الندم والحسرة سيقُضان مضجعه وسيعذبانه في أحلامه، فما أن يطلع الصُّبح حتى يكون ميالًا إلى المجيء إليّ مُعتذرًا. وفي تِلكَ اللحظة إنما سأذهب إليه أنا، فأقول له مُعترفًا: «أنت إنسان كريم وشهم، وقد برهنت على ذلك، فاقبل الآن هذًّا المال، واغفر لي وأعف عني». وسوف يقبل المال عندئذ، ما في ذلك ريب!

نطق أليوشا هذِّه الكلمات الأخيرة وهو فيما يُشبه النشوة. وصفقت ليزا يديها إحداهما بالأخرى، وقالت:

- هذًّا صحيح جدًا هذًّا واضح جدًا فهمت كل شيء فهمًا تامًا! أوه أليوشا، كيف تستطيع أن تعرف هذِّه الأشياء كُلها؟ ما تزال في ريعَان الشباب ثُمّ تُدرك ما يجري في النفس الإنسانية هذًّا الإدراك العميق.... ما كان لي أنا أن أستطيع ذلك...

تَابع أليوشا كلامه يقُول وهو في غمرة الحماسة:

- الأمر الأساسي الآن هو أن نُقنعه بأننا سنُعامله على قدم المُساواة رغم أنه يقبل أخذ المال منا. يجب أن يشعر بأننا لا نُعامله على قدم المساواة فحسب، بل على قدم التفوق أيضًا...

- على قدّم التفوق، هذًّا تعبير رائع يا ألكسي فيدوروفتش،

ولكن هل شرحته لي!

- أقصد... الحق أنني لم أُحسن الإفصَاح... لا... ليس

الأمر أمر قدم التفوق... ولكن سيان...

- طبعًا... سيان... أنت على حق! اغفر لي يا أليوشا، يا

عزيزي أليوشا... لقَدْ كنت حتى الآن لا أكَاد أحترمك كثيرًا، هل تعلم؟ أقصد... كُنت أحترمك، ولكن على قدم المساواة، أما بعد الآن فسأحترمك على قدم التفوق...

أردفت تقول فورًا بحرارة:

- لا تُؤاخذني يا صديقي العزيز إذا أنا تفكهت وتندرت قليلًا. أنا فتاة صغيرة تُحب أن تضحك، ولكن أنت، أنت... قُل لي يا ألكسي فيدوروفتش، ألَّا تظن أن في استدلالاتنا، أو قُل في استدلالاتك أنت - لا في استدلالاتنا نحن - شيئًا من الاستخفاف بهذًّا المسكين، شيئًا من الاحتقارِ له؟ ألَّا نضع أنفسنا فوقه بتشريح عواطفه هذًّا وباقتناعنا مُنْذُ الآن بأنه سيقبل أخذ المال؟

فأجاب أليوشا بلهجة جازمة، كأنه كان ينتظر هذًّا السؤال:

- لا يا ليزا، ليس في هذًّا شيء من احتقارٍ البتة. لقَدْ ألقيت على نفسي هذًّا السؤال ذاته وأنا عائد إلى هُنا. فكري قليلًا: كيف يُمكننا أن نحتقره ونُحن جميعًا مثله، كيف يُمكننا أن نحتقره والبشر جميعًا مثله؟ ذلك أننا لسنا خيرًا من هذ المسكين، وهبينا خيرًا منه الآن، فإننا لن نبقي خيرًا منه إن وُضعنا في ظرف كالظرف الذّي هو فيه... لا أستطيع أن أقطع برأي فيما يتصل بك أنتِ يا ليزا، ولكنني على يقين من أن نفسي صغيرة في كثير من النواحي. أما ذلك الضابط فليست نفسه صغيرة، بل بالعكس، مُرهفة جدًا... لا يا ليزا، صدّقيني، ليس في موقفنا هذًّا أي احتقار ولا ازدراء! هل تعرفين ماذا علمني شيخي مرة؟ قَال لي: يجب أن تُعامل أكثر الناس مُعاملتك أطفالًا وأن تُعامل بعض الناس مُعاملتك مرضى...

- قُل لي يا ألكسي فيدوروفتش، قُل يا صديقي! ما رأيك في أن نُنذر نفسينا أنا وأنت للاهتمام بالناس كما لو كانوا مرضى!

- أوافق يا ليزا، أتمنى. ولكنني لست مُتأهبًا بعد كل التأهب. إن صبري ينفد في بعض الأحيان فأضيق ذرعًا. وفي أحيان أخرى أراني غائبًا فما أُلاحظ شيئًا. أما أنت فشأنك شأن آخر.

- لا أُصدق من هذًّا الكلام شيئًا! آه يا ألكسي فيدوروفتش! ما أعظم سعادتي!

- ما أحلى أن أسمعك تقولين هذًّا يا ليزا.

- ألكسي فيدوروفتش، أنت طيب طيبة خارقة. ولكنك تتصرف في بعض اللحظات كمُتحذلق قليلًا... ومع ذلك، في واقع الأمر، فلست كذلك أبدًا... اقترب من الباب، في رفقٍ وهدوء، وتأكد من أن ماما ليست تتنصت علينا.

كذلك أضافت ليزا تقول بهمس سريع عصبي. فاتجه أليوشا نحو

الباب، فشقه قليلًا، ثُمّ عاد فقال إن أحدًا لا يتجسس عليهما.

وتابعت ليزا كلامها تقول وهي تزداد احمرارًا:

- اقترب مني يا أليوشا مزيدًا من الاقتراب... هات يدك... هكذًا... يجب أن أبوح لك بسرٍ كبير: إن الرسالة التي بعثت بها إليك أمس لم تكن مُزاحًا، بل جدًا...

قالت ذلك وغطت عينيها بيدها. كان واضحا أنها تشعر من هذًّا

الاعتراف بحياء شديد. وفجأة، أمسكت يد أليوشا فلثمتها ثلاث مرات بعنف وقوة وحرارة.

هتف أليوشا يقول:

- أوها ليزا! حسن منك هذًّا ولقد كنت مُقتنعًا كل الاقتناع بأنك كنت جادة في رسالتك.

- كنت مُقتنعًا؟ أهذا كلام؟

قالت ذلك وأقصت عنها يد أليوشا، ولكن دون أن تتركها، وقد احمر وجهها احمرارًا شديدًا مرة أخرى، وضحكت ضحكة خفيفة سعيدة.

- ألثم يده فيقول «حسن منك هذًّا»!

على أن هذًّا اللوم كان لا يخلو من ظُلم، فلقد كان أليوشا يشعر باضطراب شديد هو أيضًا.

تمتم يقول بخرافة، وهو يحمر أيضًا:

- لشد ما أحب أن أُرضيك يا ليزا، ولكنني لا أعرف كيف أصل

لهذا ولا كيف أتدبره.

- أليوشا، عزيزي، أنت فاترٍ ووقح. أليس هذًّا ما يمكن أن يتصوره المرء؟ لقَدْ تفضل فاختارني زوجة له ثُمّ ها هو ذا هادئ النفس! كان مُقتنعًا بأنني جادة في رسالتي، لا مؤاخذة! ولكن هذِّه وقاحة، وقاحة...

سألها أليوشا ضاحكًا: - أكان عيبًا إلى هذًّا الحد إذا أنني كنت مُقتنعًا بذلك؟

فقالت له ليزا وهي تُلقي عليه نظرة حنونة رقيقة سعيدة:

- أوه! أليوشا! بالعكس... كان ذلك منك حسنًا جدًا، حسنًا جدًا جدًا.

وكان أليوشا ما يزال مُمسكًا يدها بيده فما هي إلَّا لحظة حتى مال عليها فجأة فقبلها في فمها.

هتفت ليزا تسأله:
- ما هذًا أيضًا؟ ماذا دهاك؟
كان أليوشا قَدْ انذهل تمامًا. قَال:
- اغفري لي... إن كنت قَدْ أخطأت... لعلني... حقًا إنها لحماقة رهيبة... لقَدْ أُخذت على أنني بارد، لذلك... قبلتك... ولكني أُدرك الآن أن هذًا كان حماقة مني...
انفجرت ليزا ضاحكة، وأخفت وجهها بيديها. ثُمّ لم تملك أن تمنع نفسها من أن تقول له من خلال ضحكها:
- «وأنت في مسوح الراهب» ثُمّ توقفت عن الضحك فجأة، وقد اتخذ وجهها هيئة رصينة بل قاسية، وقالت:
- إن علينا أن ننتظر قليلًا فيما يتعلق بالقُبلات يا أليوشا. نحن لا نعرف حتى الآن كيف نفعل ذلك، لا أنا ولا أنت. لا بد لنا أن ننتظر زمنًا طويلًا أيضًا.
بهذا ختمت كلامها فجأة. ثُمّ أردفت بعد لحظة تقول:
- ولكن اشرح لي: ما الذِّي حملك على أن تختار بلهاء حقيرة مثلي هي فوق ذلك كسيحة، في حين أنك على هذًا الجانب العظيم من الذكاء والتعقل والفطنة؟ أوه! أليوشا، أنا سعيدة جدًا، لأنني لا أستحقك أبدًا!
- لا تقولي مثل هذًا الكلام يا ليزا. سوف أترك الدير تمامًا بعد بضعة أيام. فإذا عشت في الدنيا فسيكون عليّ أن أتزوج، أنا أعرف ذلك. ثُمّ إنه هو الذِّي أمرني بهذا. فأين عسى أجد امرأة خيرًا منك... ومن عسى يُريدني سواك؟ لقَدْ فكرت في كل شيء.. أنت أولًا تعرفينني مُنْذُ الطفولة. وأنت ثانيًا تملُكين مزايا كثيرة لا أملكها. نفسك أقرب إلى المرح من نفسي. وأنت خاصة أكثر براءة مني. فأنا قَدْ عرفت حتى الآن أشياء كثيرة... أوه! أنت لا تعلمين هذًا! أنا أيضًا كارامازوف! أي ضير في أن تضحكي وأن تمزحي دائمًا وأن تسخري حتى مني؟ بالعكس: اسخري ما شاء لك هواك أن تسخري.. إنني لأسعد بهذًا... إنك تضحكين كطفلة صغيرة، إنك شهيدة.
- شهيدة؟ ماذا تريد أن تقول؟
- نعم يا ليزا. انظري مثلًا في ذلك السؤال الذِّي ألقيته مُنْذُ لحظات حين قُلتِ: أليس في نفسنا شيء من احتقار لذلك الضابط المسكين الذِّي نُشرح قلبه؟ تِلكَ فكرة جديرة بالشهداء يا ليزا... لست أعرف كيف أفصح عما أريد أن أقول، غير أن من يشعر بمثل هذِه الأنواع من القلق قادر في رأيي على أن يتألم كثيرًا... لا شك أنك قلبت معاني كثيرة وأنت قاعدة على هذًا الكرسي...
قالت ليزا بصوت أوهنته السعادة:
- أليوشا، ناولني يدك! لماذا تسحبها دائمًا؟ قُل لي يا أليوشا: أي زي تنوي أن ترتدي حين تترك الدير؟ لا تضحك، ولا تغضب، ذلك أن هذًا الأمر يهمني كثيرًا.
- لم أفكر بعد في الزي الذِّي سأرتديه يا ليزا ولكنني أريد أن ألبس ما يرضيك.
قالت ليزا:
- أحب أن ترتدي سترة من مُخمل أزرق قاتم، وصديرة من بيكيه بيضاء، وقُبعة رمادية من جوخ طري... قُل لي الحقيقة: لقَدْ صدقت في مساء أمس أنني لا أحبك، حين تنكرتُ لرسالتي، أليس كذلك؟
- لا... لم أصدق.
- أوها إلّا إنك لفتي لا سبيل إلى إصلاحه! إنك لا تُطاق ولا تحتمل هل تعلم ذلك؟
- كنت أعرف أنك... تُحبينني، ولكنني تظاهرت بأنني أعتقد بأنك لا تُحبينني... وذلك لأجعلك... أكثر ارتياحًا...
- هذًا شر وأدهى! ولكن لا...
هذًا أدهى وأفضل معًا، في آن! إنني أحبك حبًا رهيبًا يا أليوشا! قلت لنفسي في هذًا الصباح وأنا أنتظر زيارتك: «سأطلب منه مرة ثانية أن يرد إليّ رسالتي، فإذا أخرجها من جيبه بلا مقاومة فمدَّها إليّ (كما يمكن توقع ذلك منه) فإنه يكون فتى أبله لا يحبني إطلاقًا ولا يشعر بشيء ولا يستحق حبي... وأكون أنا قَدْ هلكت».
غير أنك تركت الرسالة في الدير، فرد هذًا إليّ شيئًا من شجاعتي. إنك لم تحملها لأنك كنت تُحس سلفًا أنني قَدْ أطلبها منك، وأنت لا تريد أن تردها، أليس كذلك؟ قل! نعم؟
- أوه! ليزا! كلا... الرسالة معي الآن، ولقد كانت معي من قبل، هي هنا، في هذًا الجيب. انظري!
قَال أليوشا ذلك وأخرج الرسالة من جيبه ضاحكًا، وأظهرها عليها من بعيد، ثُمّ أضاف:
- اعلمي مع ذلك أنني لن أردها إليك. انظري إليها من بعيد.
- كيف هذًا؟ أكذبت إذًا حين طالبتك بها؟ أتكذب وأنت راهب؟
فقال أليوشا نعم أكذب وهو يضحك:
- مُسلمًا باتهامها! لقَدْ أبيت أن أقول الحقيقة حتى لا أرد إليك الرسالة.
- ثُمّ أضاف يقول بانفعال شديد وقد احمر وجهه من جديد: - هذِه الرسالة عزيزة عليّ إلى أقصى حد. سأحتفظ بها ما حييت، ولن يستطيع أحد أن ينتزعها مني!
كانت ليزا شاخصة إليه ببصرها مأخوذة مفتونة. ثُمّ قالت له هامسة:
- أليوشا! هيًّا انظر ألّا تتنصت علينا ماما وراء الباب؟
- طيب يا ليزا، سأنظر ما دُمتِ تُريدين ذلك. ولكن أليس الأفضل أن لا نحاول التثبت من هذًا؟ لماذا نظن في أمك هذًا الظن؟ لماذا نتصور أنها يمكن أن ترتكب سماجة كهذه؟
فقالت ليزا مستاءة وقد احمر وجهها احمرارًا شديدًا:
- أي سماجة؟ فيم الكلام عن السماجة؟ هل من السماجة أن تراقب أم ابنتها وأن تحاول سماع أحاديثها؟ إن من واجب الأم أن تفعل هذًا مع ابنتها. وليس في عملها ذاك أي إخلال بقواعد اللياقة وأصول الأدب. كن على يقين يا ألكسي فيدوروفتش من أنني حين سيكون لي ابنة أنا أيضًا، فلن يفوتني أن أتجسس عليها في كل مناسبة!
- صحيح؟ ولكن هذًا شر يا ليزا!
- لماذا يكون هذًا شرا؟ أي ضير فيه؟ لو قَدْ تجسست هذًا التجسس على حديث عادي يجري في المجتمع، إذًا لكان ذلك مني ضعة وحقارة بدون ريب. أما هنا فالأمر مختلف كل الاختلاف. هنا فتاة مُختليه بشاب... اسمع يا أليوشا: أحب أن أقول لك مُنْذُ الآن إنني سأراقبك أنا أيضًا متى تمت خطوبتنا، وسأفض بريدك، وأقرأ جميع رسائلك... اعلم هذًا. ها أنا ذا أُبلغك مُنْذُ الآن...
- موافق... ما دُمت تريدين ذلك... ولكن هذًا ليس حسنًا، صدقيني...
بهذا تمتم أليوشا. فقالت ليزا:
- أوه! هذًا الاحتقار! أليوشا، صديقي، لن نتشاجر مُنْذُ أول يوم. إنني أؤثر أن أعترف لك بالحقيقة: أنا أعرف أن التجسس على الناس معيب جدًا. لقَدْ أخطأت أنا طبعًا، وأصبت أنت. ولكنني سأراقبك مع ذلك.
فقال أليوشا ضاحكًا:
- راقبيني، راقبيني.. ولن تكتشفي أشياء كثيرة، أقول لك ذلك مُنْذُ الآن.
- أليوشا، هل ستطيعني؟ تِلكَ أيضًا مسألة يجب أن نسويها سلفًا.
- سأطيعك يا ليزا، سيسُرني جدًا أن أطيعك، ولكن ليس في الأمور الأساسية. في الشؤون الهامة، سأعمل بما يمليه عليّ ضميري، حتى ولو خالفتني.
- هذًا مفهوم، وأنا أيضًا، ألّا فاعلم يا أليوشا أنني مستعدة من جهتي لأن أطيعك لا في الشؤون الأساسية فحسب، بل في كل شيء، وفي كل وقت، مدى الحياة... أعاهدك على هذًا مُنْذُ الآن. وإذا خضعت لك، فإنني أخضع راضية سعيدة فرحة! (كذلك هتفت ليزا تقول بحرارة). وإني لأحلف لك أيضًا أنني لن أُراقبك أبدًا، لن أراقبك مرة واحدة، لا ولن أقرأ رسائلك قط، في يوم من الأيام. ذلك أنك على حق، وأنني على خطأ. أعرف أن رغبة رهيبة في مُراقبتك سوف تتأجج في نفسي، ولكنني سأحبس هذِه الرغبة، لأن هذًا معيب في نظرك. ستكون لي بمثابة العناية الإلهية... اسمع يا ألكسي فيدوروفتش: لماذا أنت حزين هذًا الحزن كله في هذِه الآونة الأخيرة، أمس واليوم؟ أنا أعرف أن هُناك أنواع من الهم والقلق تملأ جوانب نفسك، ولكني لاحظت فيك حزنًا خاصًا... أهو ألم سري؟
قَال أليوشا بصوت مكبوح:

- نعم يا ليزا، هو حُزن سري. إنني أرى أنك تُحبينني حقًا ما دُمت قَدْ أدركت ذلك.
سألته ليزا بلهجة فيها رجاء وضراعة:
- ما سبب حُزنك؟ هل أستطيع أن أعرفه؟
فأجابها أليوشا مُحرجًا:
- سأذكره لك يا ليزا... ولكن فيما بعد. إذا حدثتك الآن عن سبب حزني، فلن تفهمي. ثُمَ إنني لن أُحسن شرحه كما ينبغي
قالت ليزا:
- أحسب أن موضوع أخويك وأبيك هو الذِّي يُعذبك علاوة على آلام أخرى، أليس كذلك؟
قَال أليوشا حالمًا مُفكرًا:
- نعم، هناك أخواى أيضًا.
قالت ليزا فجأة:
- أنا لا أُحب أخاك إيفان يا أليوشا.
استقبل أليوشا هذًا التصريح بشيء من الدهشة، ولكنه تابع كلامه يقول:
- أخواي يسيران إلى الضياع، وكذلك أبي. وهُم يجرُّون إلى الشقاء كائنات أخرى. إنها «القوة الغامضة الخفية الكامنة في أفراد آل كارامازوف»، كما قَال الأب بائيسي في الآونة الأخيرة... هي قوة عارمة، أصيلة لا يُمكن السيطرة عليها، حتى إني لست واثقًا من أن روح الله تُحلق فوق هذِه القوة... ولكنني لا أعلم أنني واحد من آل كارامازوف، أنا أيضًا... أنا في الظاهر راهب. فهل أنا راهب حقًا يا ليزا؟ لَقَدْ قلت مُنْذُ هنيهة إنني راهب...
- نعم قُلت ذلك..
- راهب... ومع ذلك قَدْ لا أكون مؤمنًا بالله...
- أأنت لا تؤمن بالله؟ ماذا دهاك؟ - كذلك سألته ليزا مُحاذرة بصوت خافت. ولكن أليوشا لم يرد. إن هذًا القول الذِّي أفلت من لسانه يُعبِّر عن فكرة غامضة تثوي قرارة قلبه ولعله لا يستطيع هو نفسه أن يستبينها، ولكنها كانت تعذبه ما في ذلك ريب. وتابع أليوشا كلامه:
- وفوق ذلك كله، هذًا هو يموت... إن الإنسان الذِّي أعده خير إنسان في هذًا العالم سيُبارح الأرض. آه! ليزا! لو علمت مدى تعلقي بهذا الإنسان، ومدى شعوري بالارتباط به ارتباطًا لا انفصام له!... سوف أكون بعد اليوم وحيدًا... سأجيئ إليك كثيرًا يا ليزا... لن نفترق بعد الآن...
- نعم سيظل كل منا قُرب الآخر. سنكون مُتحدين مدى الحياة، مُتحدين إلى الأبد... أليوشا، قبِّلني الآن... أسمح لك الآن بأن تُقبلني.
قبلها أليوشا.
- والآن اذهب. كان المسيح معك! (قالت ذلك وهي ترسم عليه إشارة الصليب.) أدركه هو قبل أن يموت. الآن أفهم أنني أضعت لك وقتا ثمَينًا. سأصلي له ولك اليوم. أليوشا، سنكون سعيدين، سنكون سعيدين، أليس كذلك؟
- أعتقد يا ليزا
لم ير أليوشا، حين خرج من عند ليزا، أن من الضروري أن يذهب أولًا إلى السيدة خوخلاكوفا، وإنما تأهب لمغادرة المنزل دون أن يُودعها، ولكنه ما إن فتح باب البيت وخطا خطوة على السُّلَّم حتى انبجست السيدة خوخلاكوفا أمامه. فأدرك أليوشا فورًا أنها كانت تترقب انصرافه.
- هذًا فظيع يا ألكسي فيدوروفتش! هذِه أمور صبيانية، هذِه سخافات وحماقات. آمل ألا تحمل أقوال ابنتي على محمل الجد، وألا تُهدهد أوهامًا وأحلامًا! يا للحماقة! يا للحماقة! يا للحماقة! كذلك انهالت عليه مُرددة. فقال لها أليوشا:
- لا تقولي هذًا الكلام لها على الأقل، وإلا اضطربت اضطرابا شديدًا وساءت حالها كثيرًا.
- هذًا أخيرًا كلام مُتزن يُبرهن لي على أنك شاب عاقل. هل أفهم من كلامك هذًا أنك إنما وافقتها إشفاقًا على حالتها، حتى لا تُثير بمعارضتك حنقها؟
قَال أليوشا بلهجة قاطعة:
- لا، إطلاقًا بل كنت جادًا في حديثي معها كل الجد.
- لا شأن للجد هنا. هذًا شيء لا يمكن تصوره، لا يمكن تخيله! اعلم أولًا أني لن أستقبلك بعد اليوم في منزلي، واعلم ثانيًا أنني سأسافر من هذِه المدينة مُبتعدة بابنتي. هل فهمت؟
قَال أليوشا:
- لمَ هذا كله؟ إنما الأمر أمر مشروع ما يزال تحقيقه بعيداً جداً.
لا بد أن ننتظر سنة ونصفاً على الأقل.
- لعلك على حق يا ألكسي فيدوروفتش. فإلى ذلك الحين يتسع الوقت للتشاجر معها والانفصال عنها مائة مرة. آه... ما أشقاني! ما أشقاني! صحيح أن هذا كله صبيانيات، ولكنني صعقت حقاً. أنا الآن في موقف فاموسوف في آخر مشاهد المسرحية الهزيلة. أما تشاتسكي فأنت، وأما صوفيا فهي[113]. انظر إلى هذا التطابق. لقد رابطت على السلَم لأنتظرك. وفي تلك المسرحية الهزلية حدثت جميع المصائب على السلم أيضاً. سمعت كل شيء. وتجلدت تجلداً شديداً حتى أستطيع أن أسيطر على نفسي. هذا هو إذاً سر الأرق الرهيب في الليل وسر نوبات الهستيريا بالأمس! البنت عاشقة. ولم يبق للأم إلا أن تموت! هو قبري إذاً يهيّأ ! أجب عن سؤالي الثاني الآن وهو أهم: ما تلك الرسالة التي كتبتها إليك؟ أرنيها فوراً؟ اصرّ على ذلك فوراً !
- لا داعي لذلك، لا تلحّي، والأفضل من هذا أن تقولي لي كيف حال كاترين إيفانوفنا الآن؟. إنني أحرص على معرفة ذلك.
- ما زالت تهذي. لم تستردّ حواسها بعد. وعمّتاها معها، ما تنفكان تتفجعان وتئنان وتصطنعان مظاهر الأبهة. أما الدكتور هرتسنشتوبه فقد وصل، ولكنه بلغ من الذعر أنني أصبحت لا أعرف ماذا يجب علي أن أعمل لأهدىء روعه. حتى لقد خطر ببالي أن أستدعي طبيباً له. قد نقلوه إلى بيته في عربتي، ثم ها أنذا الآن أمام مشكلتك ومشكلة هذه الرسالة، تتمة للشقاء والبلاء! صحيح أن هناك سنة ونصف... ولكنني أستحلفك بكل ما هو عزيز عندك مقدس لديك، أستحلفك بشيخك المحتضر، أن تريني هذه الرسالة يا
ألكسي فيدوروفتش. أرني الرسالة، أرنيها أنا، أنا، أم ليزا! امسكها بأصابعك إذا شئت، فلن آخذها، وإنما أقرؤها من بعيد.
- لا يا كاترين أوسيبوفنا، لن أريك الرسالة. لا جدوى من الإلحاح. لن أريك الرسالة حتى لو أذنت لي هي بذلك. سأعود غداً، فإذا شئت ناقشنا جميع المشاكل. أما الآن فإلى اللقاء.
قال أليوشا ذلك، وهبط السلَم راكضاً، فخرج إلى الشارع.

- 2 -قيثارة سمردياكوف

كان يغذّ الخطى، فلم يكن لديه وقت. حين ودَع ليزا كانت قد برقت في ذهنه فكرة عن الطريقة التي يستطيع بها أن يفاجيءأخاه ديمتري الذي كان واضحاً أنه يحاول أن يتجنب لقاءه. الوقت متأخر. هي الساعة الثالثة بعد الظهر تقريباً. كان أليوشا يتمنى بكل كيانه أن يعود إلى الدير، إلى شيخه «العظيم» المحتضر، ولكن حاجته إلى رؤية أخيه ديمتري مرة أخرى قد تغلبت أخيراً على كل شيء؛ إن إحساسه بوشوك وقوع كارثة، بوشك حدوث أمر رهيب، يرسخ في نفسه مزيداً من الرسوخ كلما انقضت الساعات. أما ما هي تلك الكارثة التي ستقع، وما هو الذي يريد أن يقوله لأخيه ديمترى؟ فإن ذلك شيء قد لا يستطيع في تلك اللحظة أن يوضحه حتى لنفسه.

«اذا مات شيخي المحسن إلي أثناء غيابي، فلن ألوم نفسي في أقل تقدير، مدى الحياة، على أنني كان في وسعي أن أحول دون وقوع الشر ثم أهملت أن أفعل ذلك، وأغفلت واجبي وأسرعت أعود إلى مسكني بأقصى سرعة. وإني إذ أفعل الآن ما أفعل إنما أتبع أوامر معلمي.... ».

كانت خطته هي أن يعثر على ديمترى فجأة، متسللاً إلى الحديقة من خلال السياج الذي سبق أن تخطاه أمس داخلاً إلى الكوخ. وكان

يقول لنفسه: «فإن لم أجده، فسأختبيء هناك دون أن أنبيء لا أهل الدار ولا توما، ثم أنتظر هنالك حتى المساء إذا وجب الأمر. فإذا كان ينوي أن يترقب جروشنكا كما فعل أمس، فربما جاء إلى هذا الكوخ...» ولم يفكر أليوشا طويلاً في خطته بجميع تفاصيلها، ولكنه قرر أن يضعها موضع التنفيذ فوراً، ولو اقتضاه ذلك أن لا يرجع إلى الدير في ذلك اليوم...

وقد جرى كل شيء بغير عائق. تخطى السياج في موضع غير بعيد عن الموضع الذي تخطاه فيه أمس، وتسلل خفية إلى الكوخ. وكان يريد أن لا يلاحظ حضوره أحد. ذلك أن من الجائز أن يكون أهل الدار وتوما (في حالة وجوده بالدار) منحازين إلى صف دمتري، فقد يمنعونه إذاً من دخول الحديقة، أو قد يبلغون دمتري وصوله في الوقت المناسب، تنفيذاً لتعليمات دمتري نفسه. لم يكن في الكوخ أحد. جلس أليوشا في مكان الأمس وانتظر. ونظر إلى الكوخ فبدا له أكثر تداعياً مما في اليوم السابق، وأحدث في نفسه شعوراً بالشقاء. ولكن النهار كان مضيئاً مشمساً كما كان يوم زيارته الأولى. وعلى المائدة الخضراء تُرى علامة مستديرة خلَفها قدح الكونياك الذي لعله انسكب أمس. وساورت أليوشا خواطر تافهة لا صلة لها بالظروف الراهنة، كما يحدث عامة أثناء انتظار مضجر. تساءل مثلاً: لماذا جلس في المكان نفسه الذي جلس فيه بالأمس، ولم يجلس في مكان آخر. وتملكه شيئاً فشيئاً حزن كبير مردُه إلى غموض المجهول المثير للقلق. وبعد أن مكث هنالك قرابة ربع ساعة أو أقل من ذلك، سمع ألحان قيثارة تنطلق قريبة منه. لا شك أن أحدا كان متلبثاً في الغابة الصغيرة على مسافة عشرين خطوة في أكثر تقدير، أو أن أحداً وصل إلى ذلك المكان منذ برهة قصيرة. وتذكر أليوشا فجأة

أنه حين ترك أخاه أمس، وابتعد عن الكوخ قد لمح على اليسار قرب الحاجز دكة خضراء ريفية قديمة غائرة في الأدغال. فهنالك إذاً لا بد أن يكون قد جلس الواصل أو الواصلون. ولكن من عساه يكون أو من عساهم يكونون؟ وهذا رجل ينطلق في تلك اللحظة مغنياً أبياتاً من الشعر يرافقها عزف على القيثارة (إن الصوت صوت مترقق من طبقة التينور، عاميّ النبرات):

بقوة عظيمة لا تغلب... إلى الجميلة انجذب[114] .. رفقا بنا يا رب

بي وبها يا رب.. بي وبها يا رب.. بي وبها يا رب.

وصمت الصوت ذو التثنيات العامية. وهذا صوت امرأة لطيف وجل يُسمع عندئذ قائلاً في غنج ودلال:

- لماذا لا تجيء إلينا إلا نادراً يا بافل فيدوروفتش؟ أأنت تحتقر صحبتنا؟

فقال صوت الرجل في تأدب، بلهجة يدرك المرء فيها مع ذلك شيئاً من ارادة تأكيد الرصانة والوقار:

- لا... لا...

كان واضحاً أن الرجل مسيطر على الموقف، في حين أن المرأة تداعبه. قال أليوشا لنفسه: «ولكن هذا سمردياكوف! هذا صوته على الأقل. أما المرأة فأتخيل أنها ابنة صاحبة الدار، التي رجعت من موسكو في الآونة الأخيرة بثوب طويل الذيل، والتي تجيء كل يوم إلى مارفا أجناتفنا التماساً لشيء من حساء...»

وعاد صوت المرأة يقول:

- إنني أعبد الأشعار، ولا سيما إذا كانت متسقة متناغمة. لماذا توقفت عن الغناء؟ فاستأنف صوت الرجل صداحه:

تاج الملوك هين في نفسي

ما دمت أحظى بصديقة أنسي

رفقا بنا يا رب

بي وبها يا رب

بي وبها يا رب

بي وبها يا رب

قال صوت المرأة:

- غنيتها في المرة الماضية خيراً مما تغنيها الآن. كنت في المرة الماضية تقول: «صديقة أنسي العذبة»، فكان ذلك أرق عاطفة. هل نسيت؟

فقال سمردياكوف بلهجة قاطعة:

- ما الأشعار إلا سخف وحماقة !

- أوه! لا... أنا أحب الأشعار كثيراً.

- الشعر هزل لا جد. إقضي في الأمر بنفسك: من ذا الذي يتكلم في هذا العالم مقفياً؟ ولو أخذ جميع الناس يتكلمون شعراً، حتى بأمر صادر عن السلطات مثلاً، لما وجدوا أشياء كثيرة يقولونها. لا... صدقيني يا ماريا كوندراتيفنا: ما الشعر إلا كذب وتصنع؟

فاستأنف صوت المرأة كلامه قائلاً وقد ازداد غنجة ودلالاً:

- ما أذكاك! كيف تفعل من أجل أن تكون على هذا الجانب

العظيم من الثقافة؟

- كان يمكن أن أفعل أكثر من ذلك، وأن أصبح أوسع ثقافة وأغزر علماً، لو أن القدر لم يحاربني منذ المهد. كان يمكنني أن أقتل في مبارزة بالمسدس ذلك الذي

قد يصفني بأنني امرؤ جلف لأنني ليس لي أب، ولأن أمي امرأة نتنة[115] . لقد قذف أحدهم هذا الكلام في وجهي ذات يوم بموسكو، حيث شاع سر مولدي بفضل جريجوري فاسيلفتش. إن جريجوري فاسيلفتش يعيب علي تمردى على ميلادي. وقد قال في معرض حديثه عن أمي: «لقد مزقت لها أحشاءها». إنني أسلم بذلك، ولكنني كنت أؤثر أن أقتل في بطنها على أن أجيء إلى هذا العالم. إن الناس يتناقلون في السوق (وقد ظنت أمك، لقلة لباقتها، أن من واجبها أن تقول لي ذلك أيضاً) إن أمي كانت مصابة بداء تلبد الشعر، وإن طولها كان لا يزيد على خمس أقدام. وكانت أمك تمط أحرف المد وهي تكلمني، فلماذا كانت تفعل ذلك مع أن من السهل جداً على المرء أن يتكلم كما يتكلم سائر الناس؟ لأنها كانت تحب أن تظهر عاطفيتها ولكن هذه العاطفية تفوح منها رائحة الفلاح (الموجيك). هل يستطيع الفلاح الروسي أن يشعر بعواطف كما يشعر بها رجل مثقف؟ إنه أجهل من أن يشعر بأي شيء. إنني حين أسمع أحرف المدّ تمُطُ هذا المط أتمنى لو ألطم رأسي بجدار. وذلك أمر أعرفه في نفسي منذ طفولتي! أوه! إنني أكره روسيا كلها يا ماريا كوندراتفنا.

- لو كنت ضابطاً أو من سلاح الفرسان لما فكرت هذا التفكير، بل لجرّدت سيفك دفاعاً عن روسيا.

- لا أحب أن أكون من سلاح الفرسان يا ماريا كوندراتفنا، بل عكس ذلك أرغب في إلغاء الجيش واختفاء الجنود.

- فمن يدافع عنا إذاً؛ إذا هاجمنا العدو؟

- لا داعي إلى الدفاع. في عام 1812 غزا إمبراطور الفرنسيين، نابوليون الأول، وهو أبو الإمبراطور الحالي[116] ، غزا روسيا، فلو قد تم للفرنسيين هؤلاء الاستيلاء عليها آنذاك لكان ذلك حظ عظيماً؛ لأن أمة ذكية تُخضع لنفسها عندئذ أمة غبية، وتلحقها بها. فلو قد تم تحقيق ذلك إذاً لكان عندنا الآن نظام مختلف عن نظامنا كل الاختلاف.

- كأنهم خير منا!... ألا إنني لأرفض أن أستبدل بشاب واحد من شباننا الحسان ثلاثة فتيان من الإنجليز...
كذلك هتفت تقول ماريا كوندراتفنا بأرق صوت وأعذب نغمة. ولا بد أنها كانت تلقي على صاحبها عندئذ نظرات تفيض دلالاً. قال الرجل: - المسألة مسألة ذوق!
- هيئتك أنت نفسك هيئة أجنبي، أجنبي نبيل جداً. أعترف لك بهذا وأنا أحمرَ خجلاً
- هل تريدين أن أقول لك الحقيقة؟ إنهم جميعاً سواسية من ناحية التحلل من الأخلاق، أجانب كانوا أم روساً. هم جميعاً أوباش، مع فارق واحد هو أنهم هناك ينتعلون أحذية ملمعة، في حين أن أهلنا الحفاة هنا قانعون ببؤسهم النتن، لا يجدون فيه ضيراً. إن الشعب الروسي يستحق أن يُجلد. لقد صدق فيدور بافلوفتش أمس حين قال هذا الكلام، رغم أنه مجنون، هو وأبناؤه جميعاً.
- ولكن سبق لك أن قلت إنك تحترم إيفان فيدوروفتش احتراماً كبيراً.
- ذلك لم يمنعه من أن يصفني بأنني خادم نذل. هو يتخيل أنني واحد من أولئك المتمردين. ولكنه مخطيء. لو ملكت قدراً كافياً من المال، إذاً لسافرت منذ زمن طويل. أما ديمترى فيدوروفتش فهو شر من خادم، سواء بسلوكه وقلة ذكائه أو ببؤسه وشقائه. هذا رجل لا يصلح لشيء. ومع ذلك يحترمه جميع الناس. أنا أعلم أنني لست إلا طباخاً فاشلاً، ولكن لو أوتيت شيئاً من حظ فسوف أفتتح «مقهى ومطعماً» بموسكو، في شارع بترونكا. إنني أجيد إعداد أطباق حسب الطلب، وما من أحد من زملائي قادر على ذلك، إلا الأجانب. وديمترى فيدوروفتش هذا ليس إلا مفلساً، ومع ذلك لو طلب إلى المبارزة أنبل أبناء أحد الكونتات، لرضي هذا أن يبارزه. فيم هو ينازعني؟ إنه أقل مني ذكاء! وما أكثر ما أتلف من مال في سبيل حماقات وترهات!
قالت ماريا كوندراتفنا فجأة:
- لا بد أن مشهد المبارزة جميل جداً.
- لماذا؟
- إنها الخطر والشجاعة، لا سيما حين يتواجه ضباط شبان بمسدسات في سبيل سيدة! ما أروعه من منظر! لو كانت تُقبل فتيات في مشاهدة مبارزة، لوهبت أي شيء في سبيل أن أشهد مبارزة.
- المبارزة ممتعة حين يسدد المرء بنفسه، أما حين يكون الآخر هو الذي يسدد إليك، فالأمر يصبح عندئذ سخيفا، وربما تهربين يا ماريا كوندراتفنا.
- أتهرب أنت في مثل هذه الحالة؟
لم يتنازل سمردياكوف فيجيب عن سؤالها. وبعد برهة من الوقت شمع لحن آخر تعزفه القيثارة وصوت مترقق من طبقة التينور يصدح مغنياً:
سأرحل مهما أكابد
فإني سئمت العذابا.
سيبهجني أن أعيش بعيداً
امتّع نفسي وأحيا سعيداً
حياة العواصم.
فلا شيء يمسكني ها هنا
ولست بباك عليك أيضاً
ولست بباك على أي شيء.
وفي تلك اللحظة حدث شيء ليس في الحسبان: لقد عطس أليوشا فجأة. فسرعان ما صمتت الأصوات. فنهض أليوشا عن مكانه واتجه نحو الدكة. الرجل هو سمردياكوف فعلاً، بثيابه الفاخرة، وحذاءيه الملمّعين. وشعره المدهَن حتى لكأنه مجعّد. كان قد وضع القيثارة على الدكة. والمرأة الشابة هي ماريا كوندراتفنا بنت صاحبة الدار. إنها ترتدي فستاناً أزرقاً فاتحاً ذا ذيل طويل جداً. وكان يمكن أن تبدو الفتاة الشابة جميلة لولا ذلك النمش البشع في وجهها المسرف في الاستدارة.
سأل أليوشا بلهجة هادئة وهو يحاول أن يسبغ على سؤاله مظهر سؤال بسيط لا قيمة له:
- هل سيأتي أخي ديمتري إلى هنا بعد قليل؟
فنهض سمردياكوف بدون تعجل، وكذلك فعلت ماريا كوندراتفنا.
- آنّى لي أن أعرف ما يفعله ديمترى فيدوروفتش؟ إنني لم أكلف بحراسته فيما أعلم...
كذلك أجاب سمردياكوف مقطّعا ألفاظه دون أن يرفع صوته، وبلهجة الاستخفاف.
فقال أليوشا شارحاً:
- إنما سألتك بكل بساطة لتجيبني إذا كنت تعلم.
- أنا أجهل أين يمكن أن يكون الآن، ولا أحرص على أن أعرف...
- لكن أخي أسر إلي أنك تطلعه على كل ما يحدث في الدار، وأنك وعدته بإبلاغه عن مجيء آجرافينا ألكسندروفنا.
فرفع سمر دياكوف بصره إلى أليوشا ببطء دون أن يضطرب. ثم قال وهو يحدق إلى أليوشا ويتفرس فيه:
- هل يمكنني أن أسألك أنا أيضاً كيف فعلت حتى استطعت أن تدخل إلى هنا رغم أن باب المدخل مقفل بالمفتاح منذ أكثر من ساعة؟
قال أليوشا - مررت بالزقاق وتخطيت السياج لأصل إلى الكوخ رأساً. ثم أضاف يقول مخاطباً ماريا كوندراتفنا:
أرجو أن لا تؤاخذيني على عدم تحرجي. لقد كنت أحرص على أن أرى أخي بأقصى سرعة.
فأجابت ماريا كوندراتفنا تقول بصوت ممطوط وقد بدا واضحاً أن اعتذار أليوشا إليها قد سرها كثيراً:
- كيف أؤاخذك؟ إن ديمترى فيدوروفتش يسلك هذا الطريق نفسه لبلوغ الكوخ، فكثيراً ما لا نلاحظ وصوله إلا بعد أن يكون قد استقر فيه.
- لا بد لي أن أراه حتماً. إنني أبحث عنه في كل مكان. ألا تستطيعين أن تقولي لي أين يمكنني أن أعثر عليه الآن؟ إن الأمر أمر مسألة تهمه كثيراً..
فتمتمت ماريا كوندراتفنا تقول:
- إنه لا يطلعنا على تنقلاته. واستأنف سمردياكوف كلامه فقال:
- أجيء إلى هنا زائراً، فإذا هو يلاحقني حتى إلى هذا المكان ليسألني عن أخبار سيدي. لقد طالبني مراراً بأن أذكر له مإذا يفعل أبوه، ومن يدخل الدار ومن يخرج منها، وكل ما يمكنني أن أطلع عليه من أمور أخرى. حتى لقد هددني بالقتل مرتين!
سأل أليوشا من مدهوشاً:
- بالقتل؟ كيف يمكن هذا؟
- إنه، بما له من طبع خاص، لا يتورع عن شيء... ولقد أتيح لك أن ترى ذلك بنفسك أمس على كل حال. لقد أنذرني بأن عاقبتي ستكون وخيمة إذا أنا تركت لأجرافينا ألكسندروفنا أن تدخل وأن تقضي ليلة في الدار. إنني أخافه وأخشاه، ولولا أنه يثير في نفسي هذا الجزع كله إذاً لابلغت عنه سلطات المدينة. الله وحده يعلم ما يمكن أن يفعله ديمترى فيدوروفتش!
وأضافت ماريا كوندراتفنا تقول:
- وقد صرح له منذ أيام:
«سأسحقك بالهاون سحقاً».
قال أليوشا:
- لئن تكلم عن الهاون، فليس الأمر بالجد... ليتني أستطيع أن أعثر عليه الآن، إذاً لقلت له كلمة عن هذه التهديدات أيضاً...
قال سمردياكوف وكأنه قد غير رأيه فجأة:
- إليك المعلومات الوحيدة التي أستطيع أن أنهيها إليك. إنني أجيء إلى هنا كصديق قديم، ولم لا أزور جيراناً؟ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن إيفان فيدوروفتش قد أرسلني في ساعة مبكرة من هذا الصباح إلى أخيك في «شارع أوزيورنايا». لقد كلفني، دون أن يحملني رسالة مكتوبة، بأن أعلم ديمترى

فيدوروفتش جهاراً أنه يرجوه ملحاً أن يجيء لتناول طعام الغداء معه في الحانة التي تقع في الميدان. لم أجد ديمترى فيدوروفتش في مسكنه. كانت الساعة هي الثامنة صباحاً. وقالت لي صاحبتا المنزل «إن ديمترى فيدوروفتش قد خرج». أنا مستعد لأن أحلف أنهما متواطئتان معه. من الجائز جداً أن يكون أخوك ديمترى فيدوروفتش الآن في تلك الحانة مع إيفان فيدوروفتش، لأن إيفان فيدوروفتش لم يرجع إلى المنزل للغداء. أما فيدرو بافلوفتش فقد تغدى وحيداً منذ ساعة، ولا بد أنه الآن يُقيل. أتوسل إليك مع ذلك أن لا تحدث أخاك عني، وأن لا تقول له إنني ذكرت لك هذه المعلومات لأنه قادر على أن يقتلني بلا أي سبب إذا هو عرف بالأمر.

سأله أليوشا كأنما ليتأكد من الأمر مزيداً من التأكد:

- هل ضرب أخي إيفان موعداً اليوم لدمتري في الحانة؟

- تماماً.

- أهي حانة «العاصمة الكبرى» التي تقع في الميدان؟

- هي نفسها.

فهتف أليوشا يقول وقد ألم به انفعال شديد:

- جائز جداً! شكرا يا سمردياكوف. هذه معلومات ثمينة.

سأذهب إلى هناك فوراً.

قال سمردياكوف ملحاً:

- إياك أن تفضحني!

- اطمئن. سأتظاهر بأنني دخلت الحانة مصادفة.

وبينما كان أليوشا يتجه نحو السياج، هتفت ماريا كوندراتفنا قائلة:

- إلى أين أنت ذاهب؟ سأفتح لك باب البستان.

- لا داعي إلى ذلك. من هنا أقرب. سأتخطى السياج.

أحدث هذا النبأ في أليوشا أثراً قوياً. وأسرع متجهاً إلى الحانة. ليس من الحشمة طبعاً أن يدخل أليوشا الحانة وهو في مسوح راهب. ولكن أليوشا قد قرر أن يسأل عن أخويه دون أن يدخل الصالة، وأن يستدعيهما إليه على السلّم. وإنه ليقترب من مبنى الحانة إذا بنافذة من نوافذها قد فتحت، وها هو أخوه إيفان نفسه يناديه من فوق سائلاً:

- هل تستطيع أن تجيئني إلى هنا يا أليوشا؟ فتسدي إلي معروفاً.

- طبعاً. ولكنني أتحرج من الدخول بثوبي هذا.

- أنا في حجرة خاصة. تعال إلى سلَم المدخل، فألقاك هناك...

وبعد دقيقة، كان أليوشا يجلس إلى جانب أخيه. لقد كان إيفان وحيداً، وكان يتناول غداءه.

لم يكن إيفان يحتلّ حجرة خاصة بمعنى الكلمة. وإنما كان جالساً قرب النافذة في ركن تعزله عن الصالة حواجز. فالأشخاص الذين يجلسون في هذا المكان الخاص لا يراهم روّاد الحانة الآخرون. هي قاعة مدخل تفضي إلى الصالات التي بعدها، قد نصب «بوفيه» أمام جدارها الجانبي. والخدم يجتازون هذه القاعة في كل لحظة. ولم يكن في القاعة حينذاك إلا زبون واحد هو ضابط محال على التقاعد يجلس في الركن ويحتسي الشاي. ليست كذلك الصالات الأخرى فهي تزخر بما تزخر بها أمثال هذه الأماكن عادة من نداءات عالية، وصرخات فرحة، وقرقعات الزجاجات التي تفتح، وطقطقات الكرات على مائدة البلياردو، مع أصوات أرغن تشق هذه الجلبة كلها. كان أليوشا يعلم أن أخاه إيفان لا يكاد يرتاد هذه الحانة أبداً، لأنه لا يحب جو الأماكن التي من هذا النوع على وجه العموم. فقال أليوشا لنفسه: «فإنما هو جاء إذاً ليلقى ديمترى». ولكن ديمتري لم يحضر.
هتف إيفان وكان يبدو سعيداً بحضور أليوشا:
- هل تريد أن آمر لك بحساء السمك؟ يخيل إلي أنك لا تتغذى بالشاي وحده!
وكان إيفان قد فرغ من تناول طعامه، فهو الآن يحتسي فنجاناً من الشاي. أجابه أليوشا مبتهجاً مرحاً:
- هات حساء السمك، واطلب لي كذلك شاياً، فإنني جائع.
- فما قولك إذاً بشيء من مربب الكرز؟ إن عندهم هنا مربّب كرز. وعهدي بك أنك كنت تحب هذا المربب في الماضي حين كنت صغيراً وكنا نعيش كلانا عند أسرة بولينوف. أما تزال تتذكر هذا؟
- أأنت تتذكره إذاً يا إيفان؟ موافق على المربب، فإنني ما أزال أحبه كما كنت أحبه في الماضي.
نادي إيفان الخادم وأمر بطبق من حساء السمك، وبشاي، وبمربب كرز.
- إنني أتذكر كل شيء، أتذكر طفولتك يا أليوشا حتى الحادية عشرة من عمرك. وكنت أنا عندئذ في الخامسة عشرة. ما كان يمكن أن تنعقد أواصر رفقة بين أخوين في ذلك العمر إذا كانت تفصل بينهما أربع سنوات. ولست على يقين من أنني أحببتك في ذلك الأوان. وبعد سفري إلى موسكو لم تخطر ببالي قط أثناء السنين الأولى. حتى إذا جئت بعد ذلك إلى موسكو أنت أيضاً، لم أصادفك إلا مرة واحدة لا أدري أين ! وها أنذا أعيش هنا منذ أكثر من ثلاثة أشهر، دون أن يتاح لنا أن نتبادل حديثاً حقيقياً مرة واحدة. وإني مسافر غداً، لذلك تساءلت منذ لحظات: «ترى أين يمكن أن أجده لأودّعه!» وإذا بك تمر من هنا.
- أكنت تتوق جداً إلى رؤيتي إذاً؟
- نعم، جداً. إنني أود أن أعرفك مرة وإلى الأبد، وأن تعرفني كذلك مزيداً من المعرفة. ثم نفترق بعد ذلك. إن أفضل لحظة للتعارف هي في رأيي اللحظة التي تسبق الفراق. لقد راقبت تعبير نظراتك خلال هذه الأشهر الثلاثة. كان في عينيك انتظار دائم وتوقع مستمر، وهذا ما لا أطيقه. لذلك لم أحاول أن أقترب منك. ولكنني تعلمت أن أحترمك. قلت لنفسي: «ما يزال الرجل الصغير ثابتاً على مواقعه». إنني أمزح قليلاً، ولكنني أتكلم الآن جاداً. أنت فتى ثابت جداً، أليس هذا صحيحاً؟ إني أحب أمثال هؤلاء الثابتين أيا كان ما يثبتون عليه، حتى لو كانوا صبية صغاراً مثلك. لهذا أصبحت نظراتك التي تعبّر عن الانتظار والتوقع لا تسوءني ولا تنفرني، حتى لقد أصبحت محببة إلي... يبدو لي أنك تحبني لسبب ما يا أليوشا، أليس كذلك؟
- أحبك يا إيفان. ديمتري يصفك بأنك «قبر»، أما أنا فأقول إنك لغز. ولم أستطيع أن أحل هذا اللغز حتى الآن. هناك نقطة مع ذلك أحسب أنني أبصرتها واضحة في نفسك، ولكن منذ هذا الصباح فحسب!
سأله إيفان ضاحكاً:
- فما هي؟
ضحك أليوشا هو أيضاً وسأله:
- ألن تغضب؟
- طبعا لا؟
- إذاً فاعلم أنني اكتشفت أنك شاب شبيه سائر الشباب الذين هم في الثالثة والعشرين من أعمارهم، تزخر فتوة ونضارة وعفوية مثلهم، ويعوزك النضج كما يعوزهم، أي... هل كدّرك قولي هذا كثيراً؟
فصاح إيفان في مرح بحماس:
- بالعكس! بل أدهشني صدق رأيك، وهو يتفق ورأيي. لقد كنت منذ لقائنا عندها في هذا الصباح أفكر في هذا الجانب من طبيعتي، في عدم نضجي هذا في الثالثة والعشرين، فإذا أنت تقع على هذه الحقيقة دفعة واحدة! هل تعلم بماذا كنت أحدث نفسي قبل وصولك؟ كنت أقول لنفسي: مهما تخيّب الحياة ظني، ومهما أفقد إيماني بالمرأة التي أحبها، ومهما أفقد إيماني بحكمة نظام الكون ومهما أقتنع، بالعكس، بأن الكون سديم ملعون لعله خاضع لمشيئة الشيطان فلن يغير هذا من الأمر شيئاً...، قد أغوص في جميع وهاد اليأس الإنساني، ثم أظل أحب الحياة مع ذلك ورغم كل شيء. أود لو أعب كأس الحياة متلذذاً حتى الثمالة، وقد لا أستطيع تركه قبل أن أفرغه! ولكن حين أبلغ الثلاثين من العمر فقد أرمي الكأس قبل نفاده، ثم أمضي... إلى أين؟ لا أدري بعد... أما حتى ذلك الحين، أي إلى أن أبلغ الثلاثين، فإن شبابي سينتصر على كل شيء - أنا واثق من هذا - سينتصر على خيبة الأمل وعلى مشاعر الضيق بالحياة. لقد تساءلت مراراً: «هل في هذا العالم يأس يمكن أن يخنق في نفسي هذا الظمأ إلى الحياة، هذا الظمأ المسعور الذي قد لا يكون لائقاً؟» وانتهيت إلى الاعتقاد بأنه ربما لا يوجد مثل هذا اليأس، ولكن حتى الثلاثين من عمري فحسب، ثم أزهد وأعف من تلقاء نفسي بعد ذلك... فيما أظن... إن الواعظين بالأخلاق، المصدورين الفتيان الحزاني، وكذلك الشعراء، يحلو لهم أن يصفوا بالجبن والضعة هذا الحب الحارّ للحياة. ويجب أن نعترف على كل حال أن من السمات الخاصة بال كارامازوف الظمأ إلى الحياة هذا بأي ثمن. لا بد أن يكون هذا الظمأ قائماً فيك أنت أيضاً. ولكن لماذا يوصف بالجبن والضعة؟ إن القوة الجاذبة المركزية قوية إلى درجة فظيعة في كوكبنا السيار هذا يا أليوشا. الحياة حلوة،
وإني لأحيا ولو على خلاف كل منطق. أنا لا أؤمن بحكمة نظام الكون. لنسلم بهذا. ولكنني أحب وريقات الأشجار الطريات النديات حين تطلع في الربيع، وأحب السماء الزرقاء، وأحب أيضاً دون أن أدري لماذا - هل تصدق ذلك؟ - أحب أيضاً بعض البشر وتهزني الحماسة لأعمال البطولة الإنسانية التي انقطعتُ مع ذلك عن الإيمان بها منذ زمن طويل، ولكنني ما زلت أقدّسها بحكم عادة عزيزة على نفسي أثيرة في قلبي. جاؤوك بحساء السمك. كله هنيئاً مريئاً. إنهم يحسنون إعداده هنا. أنوي أن أسافر إلى أوروبا يا أليوشا. سأسافر إلى هناك من هنا رأساً. وإني لأعلم مع ذلك أنني لن أجد هنالك إلا مقبرة، ولكنها أعزّ مقبرة، تلك هي المسألة! ولكنني شديد الارتباط بذكرى هؤلاء الموتى. إن كل حجر يذكرني بحياة حارة ماضية وبسورة جامحة من سورات الإيمان بالحياة والبطولة وبقيمة العمل، وبالحقيقة، وبالكفاح، وبالعلم أيضاً. أوه؟ أنا أعلم سلفاً أنني سأرتمي على ركبتيّ جائياً أمام هذه الحجارة، وأنني سأبكي على أحجار القبور هذه، وأغمرها بالقبل، مع شعوري في قرارة قلبي بأن ذلك ماض تصرّم ولن يعود. على أنني لن أبكي من كرب ويأس، بل من سعادة الشعور بانسكاب دموعي. سيسكرني حزني وحناني. إنني أحب وريقات الأشجار الطريات في الربيع، أحب السماء الزرقاء. تلك هي المسألة... ليس الأمر أمر عقل ومنطق. إن حب الحياة ينبجس من أرحامي، وإن قوى شبابي التي لم تضعف ولم يمسسها سوء هي التي أحبها. أأنت تفهم شيئاً من هذه المعميّات يا صغيري أليوشا؟ هه؟
ألقى إيفان هذا السؤال وهو يضحك فجاة. فأجابه أليوشا بقوله:
- أفهمها جداً يا إيفان، أفهمها أكثر مما يجب! من قرارة الأرحام إنما ينبع حب الحياة؛ لقد أجدت التعبير عن هذه الحقيقة. وإني لأبتهج لك كثيراً حين أراك راغباً في الحياة رغبة قوية هذه القوة.
كذلك هتف يقول أليوشا ثم أضاف:
- وعندي أن على كل إنسان في هذا العالم أن يتعلّم حب الحياة قبل كل شيء.
- حب الحياة أكثر من حب مغزاها؟
- نعم، حب الحياة، دون اكتراث بالمنطق، كما قلت أنت. وبهذا وحده إنما يصل الإنسان إلى اكتشاف معنى الحياة. أنا من جهتي أفكر في هذا منذ زمن طويل. لقد ملكت نصف الحقيقة ما دمت تحب الحياة، ولم يبق عليك إلا أن تملك نصفها الآخر حتى تحقق لنفسك الخلاص والسلامة.
- أأنت تهتم بخلاصي وسلامتي؟ ما كنت أحسب أنني بسبيل الضياع والهلاك. وما هو النصف الثاني في رأيك؟
- النصف الثاني هو بعث أولئك الموتى أصحابك الذين لعلهم لم يبرحوا الحياة. اعطني الشاي.. إنني سعيد جداً بحديثنا هذا يا إيفان.

- ألاحظ فعلاً أنك تحمست قليلاً. ما أكثر ما أحب اعترافات الصدق هذه التي يقولها... رهبان مبتدئون مثلك! إنك رجل ثابت يا أليوشا. هل صحيح أنك تفكر في ترك الدير؟
- صحيح. إن شيخي أمرني بالذهاب إلى الدنيا.
- سوف نلتقي إذاً، سوف نلتقي إذاً في هذه الدنيا قبل حلول الثلاثين، قبل أن أرمي الكاس. أبونا لا يريد أن يعدل عن التمتع بالحياة قبل أن يبلغ السبعين، وحتى يحلم أن يعيش ثمانين عاماً، كما يقول ذلك هو نفسه. إنه جاد في هذا كل الجد، مهما يكن مهرجاً. إنه يتهالك على اللذة، ويحسب أنه مقيم عليها إقامته على صخرة وطيدة... صحيح أن الإنسان لا يبقى له بعد الثلاثين شيء غير اللذة... ولكن الحياة على هذا الطراز حتى السبعين شيء معيب مقيت. فالأفضل أن يمسك المرء حين يبلغ الثلاثين. وبذلك يستطيع أن يحافظ على «مظهر نبل» [117] في أقل تقدير، كاذباً على نفسه، هل رأيت دمتري اليوم؟
- لا... ولكنني رأيت سمردياكوف.
وقص أليوشا على أخيه بسرعة تفاصيل لقائه بالخادم. فكان إيفان يصغي إليه وقد اكتسى وجهه تعبيراً عن الهمّ والقلق على حين فجأة، حتى إنه استوضح أليوشا بعض النقاط. وأضاف أليوشا قوله:
- وقد ألحّ سمردياكوف على أن لا أذكر لدمتري شيئاً مما أسرَ به إليّ. فقطب إيفان حاجبيه، ووجم يفكر لحظة.
سأله أليوشا:
- أبسبب سمردياكوف ألم بك هذا الانزعاج؟
- نعم، بسببه. شيطان يأخذه على كل حال!...
ثم أضاف يقول كأنما على مضض:
- حقا لقد كنت أرغب في أن أرى دمتري، ولكن لم تبق بي حاجة إلى ذلك الآن...
- هل تنوي أن تسافر بمثل هذه السرعة فعلاً؟
- نعم.
فسأله أليوشا قلقاً:
- ما عسى يصير إليه حال دمتري والأب؟ ترى كيف ينتهي هذا الأمر كله؟
- إنك ما تفتأ تعود إلى هذا الموضوع! فيم يعنيني نزاعهما؟ أأنا حارس لأخيك دمتري؟
كذلك أجاب إيفان بلهجة حانقة، ولكنه لم يلبث أن تدارك نفسه، فابتسم ابتسامة مرة وقال:
- ذلك جواب قابيل لله عن أخيه الذي قتله، أليس هذا ما خطر ببالك في هذه اللحظة؟ إلى جهنم على كل حال!.. أنا لا أستطيع أن أبقى هنا حارساً لهما! لقد أنهيت أعمالي، وسأسافر. أتراك تتخيل أنني غيور من دمتري، وأنني حاولت خلال هذه الأشهر الثلاثة المنصرمة أن أنتزع منه جميلته كاترينا إيفانوفنا؟ دعك من هذا! لقد كانت لي أنا شؤوني وأعمالي. وقد أنجزتها فسأسافر. أنجزتها في هذا الصباح، وكنت أنت شاهداً عليها.
- هل تعني ذلك الحديث الذي جرى بينك وبين كاترينا إيفانوفنا؟
- نعم. لقد قطعت صلتي بها دفعة واحدة. ثم ماذا؟ فيم يهمني دمتري؟ إنه لا شأن له بهذا الأمر، كانت علاقاتي بكاترينا إيفانوفنا شأناً خاصاً بي. ثم إنك تعرف أنت نفسك أن دمتري قد تصرف في هذا الأمر كله تصرف متواطئ معي. أنا لم أطلب منه شيئاً، وإنما هو تركها لي من تلقاء نفسه، وزاد على ذلك فبارك. لكأنها تمثيلية. أف... ليتك تعلم يا أليوشا مدى شعوري بالتخفف الآن! حين كنت أتناول طعامي منذ قليل هنا، اشتهيتُ أن أطلب شيئاً من الشمبانيا احتفالاً بأول ساعة من ساعات حريتي التي عادت إلى حين أفكر في هذا الأمر... آه... لقد دام هذا نصف سنة، وها أنذا أتحرر دفعة واحدة. حتى أمس. ما كنت لأتخيل أنني أستطيع أن أقطع الصلة بمثل هذه السهولة متى شئت!
- أعن حبك تتكلم يا إيفان؟
- عن الحب أتكلم إن شئت أن تستعمل هذا التعبير. لقد عشقت آنسة من الآنسات، فتاة هي طالبة في مدرسة داخلية؛ فتألمت، وجعلتني هي أتألم. وكنت أحسب أنني مشدود إليها... ثم إذا بكل شيء يتبدد في طرفة عين. في هذا الصباح كنت أكلّمها مستهاماً، حتى إذا صرت في الشارع انطلقت أضحك ضحكاً مجلجلاً، هل تصدق هذا؟ تلك هي الحقيقة بعينها مع ذلك.
- أنت حتى في هذه اللحظة تتكلم في الأمر بمرح وحبور.
كذلك قال أليوشا وهو يتفرس في وجه أخيه الهادئ المطمئن الذي لاح فيه فجأة المرح حقاً.
- كيف كان يمكنني أن أحزر أنني لا أحبها البتة؟ هأهأ! ومع ذلك فهذه هي الحقيقة. أنا لا أحبها وضح هذا الآن. ولكن ما أكثر ما كانت تعجبني! في هذا الصباح نفسه، حين أجريت معها ذلك الحديث، كنت لا أملّ ولا أكلّ من الإعجاب بها! وحتى في هذه اللحظة تعجبني كثيراً، هل تصدق؟ ورغم هذا فما كان أسهل علي أن أتركها! أتحسبني أقول هذا الكلام تباهياً وتبجحاً؟
- لا... ولكن لعله لم يكن بالحب حقاً؟ قال إيفان ضاحكاً:
- يا صغيري أليوشا، لا تندفع في إصدار آراء في الحب! ذلك لا يناسب حالتك. إنني أفكر في اندفاعك هذا الصباح يا بني! أي.. قد نسيت أن حينها... ومع ذلك ما أشد ما آلمتني وعذبتني! لقد اضطررت أن أحتمل جميع تلك التمزقات. أوه! كانت تعلم حق العلم أنني أحبها! وكانت تحبني أنا لا دمتري (قال ذلك مرحاً)، ولم يكن دمتري إلا عذراً لها تتخذه في سبيل أن تعذب نفسها. إن كل ما قلته لها هو الحق، هو الحق إطلاقاً. ولكن في حقيقة الأمر - وهذا هو الشيء الأساسي - هي تحتاج إلى خمسة عشر عاماً أو إلى عشرين عاماً أخرى من أجل أن تدرك أخيراً أنها لا تحب دمتري البتة، ولا تحب أحداً سواي رغم أنها تؤلمني وتعذبني. وقد لا تدرك هذه الحقيقة في يوم من الأيام على كل حال، رغم درس هذا الصباح! فليكن، ها قد نهضت فمضيت بلا رجعة! بالمناسبة، ما الذي صارت إليه؟ ماذا حدث بعد انصرافي؟
أطلعه أليوشا على النوبة العصبية التي ألمت بها، وذكر له أنها ما تزال مغشيا عليها في أغلب الظن، وأنها ما تزال تهذي.
- لعل خوخلاكوفا قد بالغت؟
- لا أظن.
- يجب أن أذهب لأستطلع أنباءها. على كل حال، لا أحد يموت من نوبة عصبية. فلتكن نوبة عصبية، إن الرب قد شاء كرمه أن يهب للنساء هذه النعمة: النوبات العصبية. لا... لن أذهب إليها! فيم استئناف الأمر؟
- زعمت لها منذ قليل أنها لم تحببك يوماً.
- زعمت ذلك عامداً يا أليوشا! سأطلب شيئاً من الشمبانيا فنشرب احتفالاً باستردادي حريتي. ليتك تعلم مدى ما أشعر به من سعادة !
أجابه أليوشا بحرارة قائلاً:
- أخي، الأفضل أن لا نشرب. ثم إنني أحس بالحزن الشديد.
- أنت حزين منذ زمن طويل، لقد لاحظت أنا هذا.
- أنت مصرّ على أن تسافر غداً في الصباح؟
- لماذا في الصباح؟ أنا لم أقل إنني مسافر في الصباح... على أنني قد أفعل. ها أنت ذا ترى أنني أصبت غدائي هنا حتى لا أخلو إلى العجوز على مائدة واحدة، فإلى هذا الحد يثير العجوز اشمئزازي.... كان يمكن أن أسافر منذ زمن بعيد لأتحرر من وجوده. ولكن لماذا يقلقك سفري هذا الإقلاق؟ ما يزال أمامنا وقت طويل، ما يزال أمامنا أبدّ تقريباً...!
- أيكون أمامنا أبدّ وأنت مسافر غداً؟
قال إيفان ضاحكاً:
- فيم يهمنا هذا السفر؟ سيكون لنا من الوقت متسع لأن نتحدث عما يهمنا نحن الاثنين، لأن نتحدث عما جمعنا في هذا المكان. لماذا تنظر إلي بهذه الدهشة؟ ما هو الأمر الذي جئنا من أجله إلى هنا؟ أجب! أنحن هنا من أجل أن نتحدث عن حبي لكاترينا إيفانوفنا والعجوز ودمتري؟ عن ظروف الحياة في الخارج؟ عن

أحوال روسيا المتردّية؟ عن الإمبراطور نابليون؟ أنحن هنا من أجل أن نتحدث في هذه الأمور؟
- لا... طبعاً...
- ها أنت ذا تدرك بنفسك إذاً ما يجمعنا هنا. هنالك أناس آخرون يتناقشون في مثل هذه الشؤون، أما نحن، نحن الأغرار البسطاء، فنريد أن نحل أولاً المشاكل الأزلية، الميتافيزقيا. ذلك هو همنا. إن جميع شباب روسيا يتناقشون الآن في المسائل السرمدية وينهمكون في هذا الآن بالذات حين بدأ الشيوخ فجأة يدرسون المسائل العلمية، ما الذي كان يدفعك طوال هذه الأشهر الثلاثة إلى أن تنظر إلي نظرة فيها ذلك التعبير عن الانتظار؟ كنت تريد أن تسألني: «أنا مؤمن أم ملحد؟» ذلك ما كان يثوي في أعماق نظرتك منذ ثلاثة أشهر، أليس هذا صحيحا يا ألكسي فيدوروفتش؟
أجاب أليوشا مبتسماً:
- جائز جداً.
ولكنك في هذه اللحظة لا تسخر مني يا أخي، أليس كذلك؟
- أأنا أسخر، أنا؟ ألا إنني لا أحب أن أشجي قلب أخي الصغير الذي يبدو أنه انتظر مني أشياء كثيرة طوال هذه الأشهر الثلاثة. أليوشا، انظر إلي جيداً. ألست، أنا أيضاً، فتي صغيراً مثلك، مع فارق واحد هو أنني لست راهباً مبتدئاً؟ كيف يتصرف اليوم شبابنا الروس أو بعضهم على الأقل؟ إنهم يلتقون في خمارة تفوح منها رائحة كريهة كهذه الخمارة، ويجلسون إلى مائدة... لقد عاشوا دون أن يتعارفوا حتى الآن، وسيجهل بعضهم بعضاً في خلال أربعين عاما أخرى، متى خرجوا من الخمارة! فما الذي يتناقشون فيه أثناء هذه اللحظات القصار التي تتيحها لهم مصادفة اللقاء في الحانة؟ يتناقشون في الكون وسر الكون حتماً. هم يتساءلون: هل الله موجود، وهل هناك خلود؟ والذين أصبحوا منهم لا يؤمنون بوجود الله، يتناقشون في الاشتراكية والفوضوية، وفي إعادة بناء الإنسانية على أسس جديدة والفريقان كلاهما سواء. فالمشكلات التي يعالجها هؤلاء، هي المشكلات التي يعالجها أولئك، ولكنهم يعالجونها من الجهة المعارضة. إن عددهم لا يحصى في بلادنا، هؤلاء الشبان الروس، الذين يفيضون أصالة وطرافة والذين أصبحوا الآن لا يجيدون أن يناقشوا إلا المسائل السرمدية. ألست متفقاً معي في هذا الرأي؟
أجاب أليوشا أخاه وهو ينظر إليه نظرة مشفوعة بابتسامة رقيقة عذبة، كأنما ليشجعه على أن يفصح عن أعماق فكره مزيداً من الإفصاح:
- حتماً. إن المسائل المتصلة بوجود الله وخلود النفس أو هذه المسائل نفسها التي تعالج من الجهة المعارضة كما قلت، هي في نظر الروس الحقيقيين ذات خطورة حيوية، ومن الخير جداً أن تكون كذلك.
- اعلم يا أليوشا أنه ليس من الذكاء أبداً في بعض الأحيان أن تكون شخصاً روسياً، واعلم على كل حال أن هذه الأمور التي تشغل بال الشبان في روسيا هي أغبى ما يمكن أن يتصوره الخيال من أمور. غير أن بين هؤلاء المراهقين الروس واحداً أحبه كثيراً هو أليوشا.
قال أليوشا ضاحكاً:
- هذه نتيجة بلغت في استخلاصها غاية اللطف.
- بماذا تريد أن نبدأ؟ إنني أترك لك الخيار. هل تريد أن نتكلم عن الله وأن نتساءل أهو موجود أم لا؟ قل...
- ابدأ من حيث تؤثر أن تبدأ، ولو بمعالجة تلك المسائل التي وصفتها بأنها تعالج من «الجهة المعارضة». ألم تؤكد أمس، في منزل أبينا، أن الله غير موجود؟
كذلك سأل أليوشا أخاه، وهو يحدق إليه متفرساً فيه.
- تعمدت أن أقول ذلك بالأمس لدى العجوز لأناكدك وأغيظك، ورأيت لهيباً ينبجس في عينيك. أما الآن فأنا أشعر بأنني على أتم الاستعداد لأن أناقش هذا الأمر معك، ولسوف أناقشه جاداً لا هازلاً. إنني أحب كثيراً أن أتفاهم معك يا أليوشا، لأنني ليس لي أصدقاء. إنني أحاول أن أقترب منك.
قال إيفان ذلك ثم أضاف يسأل أخاه ضاحكاً:
- هل تتصور أنني ربما سلَمت، أنا أيضاً، بوجود الله؟ هذا يدهشك، أليس كذلك؟
- نعم، طبعاً، اللهم إلا أن تكون مازحاً من جديد.
- «مازحا؟» لقد أخذوا على ذلك بالأمس، عند شيخك ولكنهم أخطأوا. اسمع يا عزيزي: إن عجوزاً آثماً عاش في القرن الثامن عشر قد قال إنه إذا كان الله غير موجود فيجب اختراعه s'il n' extistait pas Dieu, il faudrait l ' inventer[118] . والحق أن الإنسان قد اخترع الله. وليس أغرب ما في الأمر ولا أهمه أن الله موجود في الواقع، بل المدهش في هذه الفكرة، فكرة ضرورة وجود الله، قد أمكن أن تنبت في دماغ حيوان يبلغ ما يبلغه الإنسان من توحش وشر، ذلك أن هذه الفكرة فكرة مقدسة تؤثر في القلب، وهي في الوقت نفسه حكيمة عاقلة. الحق أن هذه الفكرة تشرّف الإنسان. أما أنا فقد قررت منذ أمد طويل أن لا أتساءل هل الله هو الذي خلق الإنسان، أم الإنسان هو الذي خلق الله. فسأعفي نفسي إذاً من فحص البديهيات التي يستند إليها شبابنا الروس في هذه الأيام والتي يستمدونها في حقيقة الأمر كما هي من الافتراضات التي يفترضها الناس في البلاد الأوروبية الأخرى. ذلك أن ما هو افتراضٌ لا أكثر، في نظر هؤلاء الأجانب، سرعان ما يصبح بديهية في نظر مراهقينا، بل وفي نظر أساتذتهم الذين ليسوا أفضل من المراهقين سداد رأي وصدق حكم في كثير من الأحيان. فسأترك جانباً جميع الافتراضات إذاً، وأتساءل ما هي غايتنا الآن على وجه الدقة؟ أما أنا فإنما يهمني أن أشرح لك آرائي بأقصى سرعة ممكنة، يهمني أن أفهمك أي إنسان أنا، ما هو إيماني، وأين أضع أملي؟ أليس هذا بصحيح؟ لذلك سأقول لك فوراً إنني أسلم بوجود الله فوراً وبكل بساطة. ولكنني أحب أن تلاحظ ما يلي: إذا كان الله موجوداً، وإذا كان قد خلق الأرض فعلاً، فهو إنما اتبع في هذا الخلق، كما أصبحنا نعرف ذلك اليوم حق المعرفة، قوانين هندسة إقليدس، ولم يهب العقل الإنساني إلا فكرة الأبعاد الثلاثية للمكان. ومع ذلك فقد وُجد وما يزال يوجد إلى يومنا هذا أناس من أشهر علماء الهندسة ومن الفلاسفة يشكون في أن يكون الوجود وأن يكون الخلق كله بوجه أعم، مستنداً إلى قوانين هندسة إقليدس وحدها؛ حتى ليتجاسرون على الأمل بأن الخطين المستقيمين المتوازيين اللذين ترى هندسة إقليدس أنهما لا يمكن أن يلتقيا على الأرض، يمكن في الواقع أن يتلاقيا في نقطة موجودة في اللانهاية[119] . ولقد قلت لنفسي يا عزيزي: إذا كنت عاجزاً عن فهم حتى هذه الحقيقة، فكيف أستطيع أن أعرف شيئاً عن الله؟ إنني أعترف في كثير من التواضع أنني لا أملك المواهب اللازمة للقطع برأيي في مسائل من هذا النوع، لأن عقلي إقليدسي قد خلق خلق للأرض، ومن العبث الذي لا طائل تحته أن نشغل أنفسنا بأمور ليست من هذا العالم، وإنك لتحسن صنعاً أنت نفسك يا أليوشا إذا أنت لم تفكر في هذه الأمور، وإذا أنت لم تتساءل خاصة هل الله موجود أم هو غير موجود! هذه عناصر لا سبيل لعقلنا إلى إدراكها، لأن عقلنا قد خُلق لمعرفة مكان ليس له إلا ثلاثة أبعاد. ذلك هو السبب في أنني لست أسلم عن طيب خاطر بوجود الله وكفى، ولكنني أسلم أيضاً بحكمته العليا وبغاياته، رغم أن من المستحيل علينا أن ندرك هذه الغايات. إنني أؤمن بحكمة نظام الكون وبمغزى الحياة، وأؤمن بانسجام أبدي علينا أن نذوب فيه جميعاً ذات يوم فيما يبدو، أؤمن «بالكلمة» التي يتجه إليها الكون، «الكلمة التي هي الله»، وهلمَ جرا إلى غير نهاية. لقد قيل في هذا المجال كلام كثير مسرف في الكثرة. ولكنني على طريق الصواب، ألا ترى هذا الرأي؟ فاعلم إذاً الآن، ختاماً لكل ما قلته، أنني لا أقبل العالم على نحو ما خلقه الله، ولا أستطيع الموافقة على قبوله رغم علمي بوجوده. لست أرفض الله... افهمني جيداً... وإنما أنا أرفض العالم الذي خلقه ولا أستطيع الموافقة على قبوله. وها أنذا أشرح لك ما أريد قوله: إنني أؤمن إيماناً جازماً، كإيمان طفل، بأن آلام هذا العالم ستخف شيئاً بعد شيء وستزول آخر الأمر، وأن هذه المهزلة الحقيرة، مهزلة التناقضات الإنسانية ستتبدد تبدد سراب باطل، تبدّد شيء تافه اخترعه ذهن إنساني ضعيف وصغير، وستتبدد تبدد الذرة في ذهن اقليدس. أؤمن بأن حقيقة عليا ستنبثق أخيراً في خاتمة المطاف من هذه الحياة، حين يتأكد الانسجام الأبدي، فإذا هي تبلغ من السمو والنقاء أنها تهدىء جميع القلوب، وتسكن جميع أنواع الغضب، وتكفر عن جميع جرائم الإنسانية، وتفدي كل الدم الذي سُفح على الأرض. وهذه الحقيقة لن تتيح العفو عن جميع الأخطاء الإنسانية فحسب، كائنة ما كانت تلك الأخطاء، وإنما هي ستسوّغها فوق ذلك. لنسلّم بهذا كله! ولكن حتى في هذه الحالة، فإنني لن أقبل الأمر ولن أريد أن أقبله! إلا فلتلتق الخطوط المستقيمة المتوازية ولأرى ذلك، فأعترف بأنها التقت، ولكنني لن أقبل ذلك. تلك طبيعتي يا أليوشا، وتلك أحاسيسي ووجهة نظري بالعالم. لقد حدّثتك حديثاً جاداً كل الجد في هذه المرة. تعمدت أن أبدأ حديثنا على أغبى نحو ممكن، ولكنني قدته إلى حيث أبلغ اعترافاً كاملاً صادقاً، لأن ذلك وحده يهمك. ليس الحديث عن الله هو ما كنت تريد أن تسمعه مني، وإنما كنت تريد أن تعرف ما يدور في نفس أخ تحبه. فها أنت عَرَفت.
أنهى إيفان كلامه المطنب الطويل بفيض من عاطفة كان يبدو غير متوقع منه.
سأل أليوشا أخاه وهو ينظر إليه متأملاً:
- قل لي: لماذا تعمدت أن تبدأ الحديث بيننا «على أغبى نحو ممكن»؟

فأجابه إيفان بقوله:
- أولا لأنني أحببت أن أجاري عادات الناس: فإن الأحاديث حول هذا الموضوع في روسيا غبية دائماً. وثانياً لأن المرء يكون أقرب إلى الحقيقة حين يكون غبياً. إن الغباء يمضي نحو الهدف رأساً. الغباء بساطة وإيجاز، أما الذكاء فمكر ومخاتلة. إن الفكر الذكي فاجر فاسد، أما الغباء فمستقيم شريف. لقد شرحت لك يأسي، وعلى قدر ما يكون الشرح غبياً، يكون الأمر أفضل في نظري.
سأله أليوشا مرة أخرى:
- أتقول لي لماذا ترفض «قبول العالم»؟
- طبعاً أقول لك. ليس هذا بسرّ. وأنا إنما بدأت هذه المناقشة لأصل منها إلى ذلك. يا أخي الحبيب ! لست أريد بحال من الأحوال أن أفسدك وأصرفك عن إيمانك، أو أن أحوّلك عن اعتقاداتك... بالعكس... قد أتمنى أنا نفسي أن أُشفى وأبرأ بالاتصال بك.
بهذا أجابه إيفان، وهو يبتسم ابتسامة بريئة كمراهق خجول. لم يره أليوشا يبتسم هذه الابتسامة في يوم من الأيام.

- 4 -التمرد

بدأ إيفان كلامه يقول:
- يجب أن أعترف لك بهذا الأمر: إني لم أستطع في يوم من الأيام أن أفهم أن يحب المرء الناس القريبين منه. ففي رأيي إن أقرب الناس إلينا يستحيل علينا أن نحبهم، بل قد نستطيع أن نحب، البعيدين عنا. لقد قرأت في موضع ما أن رجلاً اسمه «يوحنا الرحيم» [120] (هو قديس من القديسين) قد تضرّع إليه في ذات يوم مشرد جائع مرتعد من شدة البرد أن ينجده ويدفئه. فأضجعه على سريره وأحاطه بذارعيه ونفخ في فمه النتن المتقيح المصاب بمرض رهيب. إنني أعتقد اعتقاداً قاطعاً بأن اندفاعة هذا القديس مصطنعاً فهو لا يقوم بهذا العمل بدافع الحب ومن تلقاء نفسه، وانما هو يلزم نفسه به إلزاماً باسم حب لا يشعر به، فكأنه قد قام بهذا الفعل بدافع التكفير عن ذنبه. إننا لا نستطيع أن نحب إنساناً إلا إذا ظل مختفياً عن نظرنا. فمتى لمحنا وجهه تبدد الحب.
قال أليوشا:
- هذه ملاحظة طالما ردّدها الشيخ زوسيما. كان يقول إن وجه الإنسان يخلق في كثير من الأحيان حاجزاً يحول دون الحب لدى أولئك الذين لما يتعلموا بعد أن يحبوا. ومع ذلك فإن في الإنسانية كثيراً من المحبة، إن هناك محبة تكاد تشبه محبة المسيح... أنا أعرف ذلك بتجربة يا إيفان...
- جائز. أما أنا فلم أستطع أن ألاحظ ذلك ولا أن أفهمه، وما أكثر الناس الذين يشبهونني من هذه الناحية! وإنما السؤال هو: هل يرجع هذا إلى خبث القلب الإنساني أم هو قانون طبيعي. وإني
لأرى أن محبة المسيح للناس معجزة لا يمكن أن تتحقق على هذه الأرض. إن المسيح إله ونحن بشر. لنفرض مثلاً أنني قادر على أن أتألم كثيراً. إن من الصعب على شخص آخر غيري أن يعرف عمق الألم الذي أعانيه، وذلك لسبب بسيط هو أنه ليس أنا بل آخر. يعزّ على المرء دائماً أن يسلّم بألم غيره (كما لو كان ذلك رتبة ولقباً!). فهل تعلم لماذا يعز عليه أن يسلّم بألمي؟ ربما لأن رائحة فمي كريهة، أو لأن وجهي غبي، أو لأنني دست على قدمه في يوم من الأيام. على أن الآلام أنواع: فهناك آلام تخفض قيمتي أو تنقص قدري، كالجوع مثلاً؛ فالمحسن يمكن أن يصدقني فيما يتعلق بهذا النوع من الآلام، أما إذا كان الألم أرفع من ذلك، إذا كان ألماً من أجل فكرة مثلاً، فإنه يرفض أن يصدقه، إلا في أحوال نادرة قليلة. وهو لا يصدقه لأنه حين ينظر إلي يرى فجأة أن رأسي ليس ذلك الرأس الذي لا بد أن يكون في نظره رأس من يتألم في سبيل قضية رفيعة تلك الرفعة كلها. وهو عندئذ يأبى أن يتعاطف معي أي تعاطف، دون أن يكون في موقفه هذا شيء من روح الشر على كل
حال. إن على الشحاذين ولا سيما حين تكون نفوسهم نبيلة، أن يظلوا مختبئين عن الأنظار، وأن لا يطلبوا الإحسان إلا بإعلانات ينشرونها في الجرائد. إن من الممكن أن يحب الإنسان الإنسان حباً مجرداً، وأن يحبه في بعض الأحيان فعلاً، ولكن من بُعد. أما من
قرب فذلك يشبه أن يكون مستحيلاً. لو كانت الأمور تجري كما تجري على المسرح، في باليه نرى فيه الشحاذين يظهرون لابسين أسمالاً من حرير ومغطّين بتخاريم ممزقة، ويطلبون الصدقة راقصين برشاقة، فقد نعجب بهم عندئذ، نعجب بهم ولكن دون أن نحبهم. حسبنا الآن ما قلناه حول هذا الموضوع. كل ما أردته هو أن اطلعك على وجهة نظري. لقد كان في نيتي أن أحدثك عن آلام الإنسانية عامة، ولكنني أحسب أن من الأفضل أن نقتصر على آلام الأطفال وحدهم. ولئن كانت حجتي ستفقد من ذلك تسعة أعشار دلالتها، فإنني أظل أحسب أن هذا أفضل. لسوف تكون المناقشة أقل مؤاتاة لي بطبيعة الحال. ولكن الأطفال يمتازون على الأقل بأن المرء يستطيع أن يحبهم من قرب، مهما تكن وساختهم ودمامتهم (وإن كنت أعتقد أن وجه طفل لا يمكن أبدا أن يكون دميماً)؛ ثم إنني لا أحب أن أتكلم عن الكبار، ليس لأنهم يبعثون على الاشمئزاز ولا يستحقون الحب فحسب بل لأنهم يتمتعون من جهة أخرى بتعويض: فهم قد أكلوا التفاحة وعرفوا الخير والشر وأصبحوا ((شبيهين بالآلهة))، وما يزالون يأكلون منها... أما الأطفال فإنهم لمّا يذوقوا تلك الثمرة، فبراءتهم ما تزال سليمة لم يمسّها سوء. هل تحب الأطفال يا أليوشا؟ إني أعلم أنك تحبهم، ولسوف تفهم إذاً لماذا لن أحدثك إلا عنهم. إذا اتفق للأطفال أن يتألموا ألما قاسياً في هذا العالم، فذلك لا يمكن إلا أن يكون بذنب آبائهم الذين أكلوا التفاحة، ومن أجل أن يكفّروا عن تلك الخطيئة. ألا إن هذا فهم ليس من هذا العالم، وسيظل قلب الإنسان على هذه الأرض عاجزاً عن إدراكه. إن من الظلم أن يعذب أبرياء - أبرياء إلى هذه الدرجة من البراءة - الذنب اقترفه غيرهم. أنا أيضاً أحب الأطفال كثيراً يا
أليوشا، تخيل هذا... سجّل هذا! إن القساة الضواري أصحاب الأهواء الجامحة، من أمثال آل كارامازوف، كثيرا ما يحبون الأطفال، فالأطفال يختلفون عن الكبار اختلافاً عظيماً ما ظلوا صغاراً لما يتجاوزوا السابعة من أعمارهم، حتى لكأنهم ينتمون إلى نوع آخر لأن طبيعتهم ليست كطبيعتنا. إنني أعرف حالة لص من اللصوص كان سجيناً في أحد السجون. لقد اتفق لهذا اللص أثناء اقتراف
جرائمه أن قتل أسراً بكاملها في المنازل التي تسلل إليها ليلاً ليسرقها، ولم يوفر الأطفال كذلك... ومع ذلك استبدت بهذا الرجل أثناء وجوده في السجن عاطفة قوية نحو الصغار، فكان يقضي وقته ناظراً من خلال الكوة إلى الصبية يلهون ويتسلون في ساحة السجن، واستطاع أخيراً أن يكسب مودة واحد منهم، فكان هذا يجيء يتحدث معه بغير تخلف واقفاً تحت الكوة... لا شك في أنك تتساءل يا أليوشا لماذا أقص عليك هذا كله؟ إن بي صداعاً، وها أنذا أشعر بحزن شديد على حين فجأة.
قال أليوشا قلقاً:
- إنك تتكلم بطريقة عجيبة غريبة، كأنك لا تملك وعيك كله. وتابع إيفان كلامه يقول وكأنه لم يسمع ملاحظة أخيه:
- بالمناسبة... لقد قص علي بلغاري في الآونة الأخيرة بموسكو أن الأتراك والشراكسة يعمدون في بلاده بلغاريا إلى أنواع شديدة من القسوة بغية إرهاب الشعوب السلافية التي يخشون أن تثور عليهم ثورة عامة شاملة: فهم يحرقون القرى، وينهبون الأرزاق ويذبحون السكان، ويغتصبون النساء والأطفال، ويسمّرون بعض السجناء من أذانهم بسياج فيدعونهم هنالك طول الليل ثم يعودون إليهم في الصباح ليشنقوهم. أمور تفوق الخيال. يقال أحيانا إن الإنسان
«حيوان كاسر». ألا إن في هذا القول إهانة للحيوانات لا داعي إليها: فالحيوانات لا تبلغ مبلغ البشر في القسوة أبداً، وهي لا تتفنن في قسوتها تفنن الإنسان. النمر يكتفي بتمزيق فريسته والتهامها. إنه لا يمضي إلى أبعد من ذلك، ولا يخطر بباله يوماً أن يسمر أحداً من أذنيه بسياج، ولو قدر على ذلك. وأولئك الأتراك يتسلّون خاصة بتعذيب الأطفال تعذيباً سادياً. إنهم تارة ينتزعون بالخناجر صغاراً من ارحام أمهاتهم وتارة أخرى يرمون رضاعاً إلى فوق ويتلقفونهم بالحراب على مرأى من أمهاتهم اللواتي يعدُ حضورهن أهم عنصر من عناصر هذه المتعة. ولقد حفظت ذاكرتي على الخصوص مشهداً وصف لي: أم ترتجف جزعاً وهلعاً وفي يديها طفل رضيع؛ وأتراك يحيطون بها ويتخيلون لعبة صغيرة. إنهم يلاعبون وجه الطفل ويلاطفونه ويسلونه ويضحكونه. والطفل سعيد فها هوذا يضحك ويمدّ إليهم ذراعيه. وفي تلك اللحظة يصوّب إليه أحد الأتراك مسدسه، فينفجر الطفل ضاحكاً، ويمد يديه الصغيرتين ليتناول المسدس، فيضغط الفنان عندئذ على الزناد فينطلق الرصاص ويهشم جمجمة الصبي... أليس هذا فناً في الواقع؟
- أخي، إلى مإذاا تريد أن تنتهي؟
- أعتقد أنه إذا لم يكن الشيطان موجوداً، وإذا كان الإنسان قد خلقه، فلا شك في أن الإنسان قد خلقه على صورته هو.
- كما خلق الله إذاً.
- إنك تجيد قلب الألفاظ كما يقول بولونيوس في «هاملت».
كذلك قال إيفان ضاحكاً، وتابع كلامه يقول:
- هذه حرب شريفة، وأنا أقبلها. ألا فاعترف مع ذلك أن جميل إلهك هذا إذا كان الإنسان قد خلقه على صورته. لقد سألتني إلى أين أريد أن أنتهي؟ إنني أمرؤ يجمع بعض الوقائع ويقتطف ويجمع قصصاً معينة من الجرائد أو من أحاديث الناس أو من أي مصدر ثم يدونها على الفور. تخيل هذا. لقد جمعت منذ الآن حصاداً كبيراً من هذه الوقائع. والأتراك يحتلون في هذه الوقائع مكاناً كبيراً بطبيعة الحال، ولكن الأتراك أجانب. وأنا أملك كذلك وقائع كثيرة عن حالات روسية صرفة وقائع البلاد الأخرى وتفوق حتى الوقائع التركية. في بلادنا روسيا إنما يُعمد خاصة إلى السوط والعصا... هذا اختصاص قومي لنا إن صح التعبير. نحن لا نسمّر الناس من اذانهم، لأننا أوروبيون رغم كل شيء. ولكننا في مقابل ذلك نملك السياط والعصي، وما من أحد يستطيع أن ينتزعها منا. يظهر أن الناس في البلاد الأجنبية قد عدلت عن هذه الأساليب. فإما أن الأخلاق أو العادات هنالك أصبحت طيبة أو أقرب إلى اللين، وإما أن القوانين النافذة هنالك أصبحت لا تجيز للإنسان أن يجلد أخاه الإنسان. على أن الإنسان قد وجد هنالك ما يعوض به ما افتقده تعويضاً يتصف كذلك بطابع قومي خاص فيبدو للوهلة الأولى مستحيلاً في بلادنا. على أن هنالك علامات تدل، والحق يقال، على أن أساليب التعويض هذه قد أخذت تتسرّب إلى روسيا منذ زمن، ولا سيما بفضل الحركة

الدينية التي تنتشر في الآفاق العليا من مجتمعنا. إن عندي نشرة شائقة [121] مترجمة عن الفرنسية تروي قصة إعدام مجرم في مدينة جنيف هو قاتل شاب اسمه ريشار في الثالثة والعشرين من عمره، فيما أظن، قد ندم على فعلته واعتنق المسيحية قبل أن يصعد إلى المقصلة. إن الواقعة حديثة قد وقعت منذ حوالي خمس سنين. وريشار هذا زنيم كان أبواه قد أهدياه وهو في السادسة من عمره إلى رعاة جبليين ربّوه بغية أن يعمل لهم بعد ذلك. شبّ الصبي كحيوان صغير متوحش. والرعاة الذين تبنوه لم يعلموه شيئاً، وأرسلوه يحرس القطعان منذ بلغ السنة السابعة من عمره دون أن يلبسوه ودون أن يطعموه تقريباً، وذلك في جميع الفصول والأجواء. وكانوا يعاملونه هذه المعاملة دون أن يشعرهم ضميرهم بأي عذاب، لأن الصبي كان قد «أهدي» إليهم كما يهدى شيء من الأشياء، فهم لذلك لا يعتقدون أن من واجبهم أن يطعموه لقاء ما يقوم به من عمل. وقد روى ريشار هذا أمام المحكمة أنه كان يشتهي خلال هذه السنين (كالابن الضال الذي يحدثنا عنه الإنجيل) أن يأكل حتى تلك العجينة التي كانت تعلف بها الخنازير المسمنة للبيع. ولكن لم يكن يُسمح له بذلك، وكان يُضرب إذا سرق بعضها من المذود. هكذا عاش ريشار سني طفولته وشبابه إلى الساعة التي شبّ فيها عن الطوق وشعر بأنه أصبح قوياً، فترك الرعاة وأخذ يسرق. وأصبح هذا المتوحش يجني رزقه في جنيف من العمل بالمياومة، ولكنه كان ينفق ما يجنيه في السكر ويعيش حياة كريهة مستهجنة. وانتهى به الأمر إلى قتل رجل عجوز في سبيل أن يسلبه ما معه. وقد اعتُقل وحوكم وحّكم عليه بالإعدام. إن الناس ليسوا عاطفيين هناك. وسرعان ما وجد نفسه في السجن محاطاً بقسس وأعضاء جمعيات مسيحية مختلفة، وسيدات من مترئسات الأعمال الخيرية، الخ؛ فإذا هو أثناء مدة اعتقاله يعلَم القراءة والكتابة ويفسَر له الإنجيل ويوعظ، ويُرد إلى الصواب، ويُلام ويقرَع، ويؤنب ويوبخ، وتشرح له العقيدة ويلقن التعاليم المسيحية فيعلن جهاراً في ذات يوم أنه نادم على فعلته وأنه تاب وأناب. وقد وجّه إلى المحكمة رسالة يصف فيها نفسه بأنه كان شيطاناً رجيماً، وأضاف إلى ذلك قوله إن الرب قد أدركه أخيراً برحمته فهداه إلى الحق وأتم عليه نعمته. وقد اهتزت المدينة كلها للأمر، فإذا جنيف الفاضلة الخيرة العاقلة الحكيمة تغلي وتفور، وإذا جميع الناس في المجتمع الراقي، إذا جميع «الأخيار» يريدون أن يزوروه في سجنه: حضنوه وعانقوه وقبَلوه، وقالوا له: «أنت أخونا وقد أدركتك نعمة الله!»، فكان ريشار يبكي حناناً ويكرر قوله: نعم لقد أدركتني نعمة الله ! كنت أثناء طفولتي وشبابي أحسد الخنازير على طعامها، وها هو ذا الرب يرسل إلي الآن نعمته. سأموت في صلح مع الله!»، فيجيبه الآخرون: «نعم ما تقول يا ريشار، ستموت متصالحاً مع الرب. لقد سفكت دماً فيجب أن تموت متصالحاً مع الرب. صحيح أنك لم تكن مذنباً إذ جهلت الله أيام كنت تحسد الخنازير على علفها وأيام كنت تُضرب إذا أنت سرقت بعض هذا العلف (وأنت مخطيء في ذلك على كل حال لأن السرقة حرام)، ولكنك سفكت دماً فلا بد أن تموت». وحان اليوم الأخير. فكان ريشار، وقد ضعف ضعفاً شديداً، ما ينفك يردد بغير كلال ولا ملال: «هذا أسعد يوم في حياتي، فإنني ذاهب إلى ملكوت الرب!»، وكان القسس والقضاة والسيدات رئيسات الجمعيات الخيرية يرددون بعده متنافسين «نعم نعم... هذا أسعد يوم في حياتك، لأنك ذاهب إلى ملكوت الرب!» وقد رافق هذا الجمهور ريشار إلى المقصلة، فبعضهم يتبع عربة العار التي تقل الجاني راكباً وبعضهم يتبعها سائراً. ووقف الجميع أمام المقصلة، وأخذ الصياح بتعالى من كل مكان: «مت أيها الأخ، مت في صلح مع الله، لأن نعمة الله قد أدركتك !» ودُفع ريشار إلى المقصلة تغمره القبلات، وأضجع عليها، وقطع رأسه قطعاً أخوياً جداً لأن نعمة الله قد أدركته. أليس هذا شيئاً يتميز بطابع خاص؟ لقد ترجمت هذه النشرة عن اللغة الفرنسية... ترجمها أشخاص ينتمون إلى الأوساط اللوثرية والجمعيات الخيرية من أعلى طبقات المجتمع الروسي، أرسلوا منها أعداداً ضخمة إلى جميع الصحف لتوزع مجاناً في سبيل تثقيف شعبنا. إن حالة ريشار هذا شائقة بما تتصف به من طابع قومي. فنحن في بلادنا، والحق يقال، لا نقطع رأس رجل لأنه أصبح أخانا ولأن نعمة الله قد أدركته. ولكن عندنا شيئاً خاصاً بنا لا بأس به هو أيضاً. نحن في روسيا نضرب ضرباً قاسياً مبرحاً، وقد أصبح هذا نوعاً من تقليد تاريخي ومتعة مألوفة طبيعية مشروعة. لقد صوّر نكراسوف، في إحدى قصائده، شقاء حصان كان فلاح من الفلاحين يضربه بالسوط على العينين، على «عينيه الوديعتين»

[122] .. من ذا الذي لم يشهد في يوم من الأيام منظراً كهذا المنظر الشائع كثيراً، الروسي جداً إن جاز التعبير؟ إن ذلك الحيوان المسكين الضعيف الذي كان يجر عربة مثقلة بأحمال فوق طاقته قد غاص في الوحل ثم لم يستطع أن يتخلص منه. فأخذ الفلاح يضربه ثم يضربه... وبلغ من شدة حنقه وهو يرفع سوطه في الهواء ويهوي به على الحيوان أنه أصبح لا يشعر بما يفعل، فهو فيما هو فيه من سكر وحشي بضراوته المستيقظة يضاعف ضرباته بمزيد من القسوة قائلاً: «أصبحت لا تقوى على جر العربة، ولكنك ستجرها رغم أنفك... سأجبرك على ذلك أيها الحيوان القذر مت إن شئت، ولكن عليك أن تجر العربة !» وأخذ الحيوان يتخبط، فما كان من الفلاح وقد استبد به غضب أعمى إلا أن أخذ يجلده على عينيه اللتين تتضرعان طالبتين الرأفة والرحمة... على «عينيه الوديعتين» العزلاوين اللتين لا تملكان ما تدفعان به عن نفسهما الأذى. واستطاع الحيوان باندفاعة مستميتة قصوى أن يتخلصّ من الوحل فيقف على قوائمه فيستأنف سيره مرتعشاً مجللاً بالخزي والعار، لا يكاد يستطيع أن يتنفس، يتقدم بخطى متقطعة مقهورة تبعث الشفقة في القلب. إن أشعار نكراسوف هذه تحدث في النفس أثراً رهيباً. والأمر مع ذلك أمر حيوان، ونحن نعلم أن الرب قد وهب لنا الخيول لنضربها، أو هذا على الأقل ما تعلمناه من التتر الذين أورثونا السوط هدية تذكرنا بهم. ولكن البشر يضربون أيضاً. إنني أعرف حالة سيد مرموق مثقف تعاون مع زوجته في ضرب ابنته الصغيرة وهي طفلة في السابعة من عمرها [123]. لقد دوَنت الواقعة بجميع تفاصيلها. كان للعصي أشواك، فسُر الأب من ذلك أعظم السرور. قال: «لتشعرين بالعقوبة شعوراً أقوى»... وأخذ يضرب ابنته. هناك أشخاص - وأنا أعلم ذلك علم اليقين - يسكرون من الضربات التي يكيلونها، ويبلغون من النشوة بها حدٌ اللذة الجسدية ويتمتعون بالضرب تمتعاً وحشياً متزايداً. ضُربت الصبية دقيقة، فخمس دقائق، فعشر دقائق، ضرباً ما ينفك يزداد قوة وضراوة. والصبية تصرخ وتبكي، ثم تقول مختنقة الصوت بدموعها: «بابا، بابا، بابا الحبيب !» وبمصادفة شيطانية غير لائقة، رفعت القضية إلى المحكمة. واستعان الأبوان بمحام. إن الشعب الروسي يقول منذ زمن طويل: «المحامي ضمير يؤجر نفسه». وأخذ المحامي يصيح مدافعاً عن موكله أمام المحكمة: «أب أدب ابنته. فما هذا إلا حادث عادي شائع من حوادث الحياة العائلية. ومن عار هذا العصر الذي نعيش فيه أنه ظن أن هذه القضية يجب أن ترفع إلى المحكمة!»، وقد تأثر المحلُفون أشد التأثر بأقوال المحامي، فمضوا يتداولون في الأمر، ثم عادوا يعلنون حكمهم بالبراءة. وضج الجمهور فرحاً حين سمع الحكم ببراءة الجلاد. إنني لم أشهد المحاكمة، وإلا لاقترحت إنشاء صندوق إعانة، تكريماً لهذا الأب الجلاد!.. هذه لوحة جميلة يا أليوشا، غير أنني أملك لوحات أخرى ربما كانت أجمل منها، وهي تتعلق خاصة بالأطفال من الروس. إليك قصة بنية في الخامسة من عمرها، غضب منها أهلها، وهم «أناس محترمون، موظفون مثقفون، نشأوا نشأة كريمة وأحسنت تربيتهم». أؤكد لك جازماً يا أليوشا أن هناك أناساً يشعرون بميل خاص إلى تعذيب الأطفال، الأطفال وحدهم دون سواهم. إن هؤلاء الجلادين يبرهنون في تعاملهم مع سائر البشر على كثير من الدماثة والليونة، كما يليق ذلك بأوروبيين متعلمين إنسانيين متنورين. ولكنهم في مقابل ذلك يجدون لذة كبيرة في تعذيب الأطفال، مع حبهم لهم على طريقتهم الخاصة. إن منظر هذه الكائنات الصغيرة العزلاء التي لا تحسن الدفاع عن نفسها، ولا تعرف كيف تشتكي ولا إلى أين تلجأ ولا بمإذا تعتصم، مع ما تتصف به هذه الكائنات من ثقة ملائكية، يملك القدرة على إيقاظ القسوة الغريزية في نفوس أولئك المعذّبين. لا شك أن في قرارة كل إنسان وحشا نائماً، وحشاً ضارياً مسعوراً يلتذ بسماع صرخات ضحيته، فينطلق عندئذ انطلاقاً كاملاً بكل قسوته التي ضاعفها الفجور وضاعفها كل ما يولده الفجور من أمراض كالنقرس والتهاب الكبد وما إلى ذلك. ولنعد إلى أهل تلك البنية. لقد أنزل الأبوان المثقّفان في ابنتهما المسكينة أنواعاً من التعذيب لا يتصورها الخيال. كانا يضربانها ويجلدانها ويدوسانها بدون أي سبب، حتى انهدّ جسم البنية المسكينة وامتلا بقعاً زرقاء. وشيئاً فشيئاً توصلا إلى صور من القسوة فيها كثير من التفنن. من ذلك أنهما أثناء الليالي الباردة كانا يحبسان الطفلة في
المرحاض، بحجة أنها كانت لا تطلب الخروج لقضاء حاجتها في حينها (كان طفلاً في الخامسة من عمره يستطيع دائماً أن يستيقظ من نومه الهاديء العميق في الوقت المناسب للذهاب إلى المرحاض)، وكانا يلطخان لها وجهها بغائطها نفسه «لتعليمها»، ويجبرانها على أن تبلع غائطها، وكانت أمها، أمها نفسها، هي التي تكرهها على ذلك! وكانت هذه الأم تستطيع أن تنام بعدئذ نوماً هادئاً دون أن تهزها صرخات طفلتها السجينة في ذلك المكان الموبوء! فهل تستطيع أن تتخيل يا أليوشا ذلك الكائن الصغير الذي ما يزال عاجزاً عن أن يفهم ما يجري له، هل تستطيع أن تتخيله لاطماً صدره المختنق بيديه الصغيرتين في غياهب الظلام والبرد ضارعاً إلى «الرب الرحيم» بدموع شقية بريئة أن يحميه؟ هل تستطيع أن تفهم علة وجود عالم سخيف هذا السخف، باطل هذا البطلان مستحيل هذه الاستحالة.. قل لي يا صديقي ويا أخي... هي تستطيع أن تدرك علة وجود هذا العالم أنت يا من تتهيأ لأن تكون راهباً ينذر حياته للرب تقياً متعبداً؟ يزعم بعضهم أن الوجود على هذه الأرض لا يمكن تصوره خالياً من الألم ومن الظلم اللذين يستطيعان وحدهما أن يهبا للإنسان معرفة الخير والشر! ألا بئست تلك المعرفة إذا كان ثمنها هذا الثمن! إن كل ما في العالم من علم لا يكفي للتكفير عن دموع تلك الطفلة التي تتوسل إلى «الرب الرحيم» أن ينجدها. لن أقول شيئاً عن الآلام التي يعانيها الكبار. فإن الكبار قد أكلوا الثمرة المحرَمة، فليجنوا جزاء ما فعلوا، وليأخذهم الشيطان جميعاً إذا كان الشيطان ما يزال يتابع أعمالهم ويهتم بأمرهم... أما الأطفال، أما الصغار الأبرياء، فما ذنبهم؟ ألاحظ أنني أعذبك بهذا الحديث يا أليوشا. إن في وجهك حزناً وشقاء. سأمسك عن الكلام إن شئت.
تمتم أليوشا يقول:

- لا... إنني أحب أن أتألم أنا أيضاً.
- لن أقصّ عليك إلا قصة واحدة أخرى، لأنها شائقة جداً، ولأنها تتسم بطابع مميّز حقا. لقد قرأتها منذ زمن قصير في مجلة «الأرشيف»، أو مجلة «الماضي الروسي» [124]، لا أتذكر على وجه الدقة... يجب التحقق من ذلك.... لقد وقعت هذه القصة في أحلك عهود نظام القنانة عند بداية هذا القرن. عاش محرر الشعب [125]! كان يعيش في ذلك الزمان جنرال له علاقات رفيعة ويملك أطياناً واسعة. هو واحد من أولئك الرجال (وقد أصبحوا قلة قليلة نادرة حتى في ذلك الزمان) الذين يعتقدون حين يُحالون على التقاعد أنهم بما قدموا للدولة من خدمات قد أصبح لهم على أقنانهم حق الحياة والموت. لقد وُجد أمثال هؤلاء الرجال في الماضي. كان ذلك الجنرال يعيش في ضيعته التي يعمرها ألفان من الأقنان. وكان يصطنع الأبهة والعظمة، وينظر نظرة استعلاء إلى جيرانه المتواضعين، متظاهراً بأنه يعدهم مهرّجين أو طفيليين. وكان يملك بضع مئات من كلاب الصيد لها ما يقرب من مائة خادم يجرون وراءها على خيولهم، لابسين زياً واحداً. ففي ذات يوم كان قن صغير هو صبي في الثامنة من عمره يتسلى برمي الأحجار. فإذا هو يصيب بإحداها الكلب الأثير لدى الجنرال، سهواً وغفلة. وسأل الجنرال مستطلعاً: «لماذا يعرج هذا الكلب الذي هو خير كلابي؟» فقيل له إنه قد جرُح بحصى رماها ذلك الصبي، قال الجنرال وهو يتفرس في الصبي: «أأنت السبب إذاً؟» ثم أضاف: «احبسوه!»، انتُزع الصبي من أمه، وأُلقي في زنزانة مظلمة ضيقة لبث فيها طوال الليل. وفي ساعة مبكرة من صباح الغد تهيأ الجنرال للذهاب إلى الصيد في احتفال عظيم. إنه يمتطي صهوة جواده وقد أحاط به طفيليوه وكلابه وخدمه الذين يجرون وراء الكلاب ومطاردو الفرائس، وقد امتطوا صهوات خيولهم جميعاً. وأمر الجنرال بجمع الخدم في الحوش لتلقينهم درساً، وجُعلت أم الصبي الجاني في أول صف من صفوفهم. وأخرج الصبي من زنزانته. كان ذلك في صباح كالح بارد يملؤه الضباب من أصباح الخريف، صباح يبشر بصيد وافر. وأمر الجنرال بأن تُخلع عن الصغير ثيابه فخُلعت حتى صار عارياً كل العري. إن الصبي يرتعش مصفراً من الخوف، ولا يجرؤ أن يفتح فاه... قال الجنرال آمرا: «اجعلوه يركض !»، فأخذ المطاردون يدفعون الصبي قائلين له: «أركض، اركض!»، فأطاع الصبي أمرهم وأخذ يركض... فإذا بالجنرال يعول صائحاً: «عليه!» مهيباً بكلابه أن تطارده، فانطلقت الكلاب تمزق جسم الصبي على مرأى من أمه!.. أحسب أن الجنرال قد حُجر عليه بعدئذ. فما رأيك؟ أما كان يستحق أن يعدم رمياً بالرصاص؟ ألم يكن من الضروري إعدامه تهدئة للضمير الأخلاقي؟ هلا! أجبت يا أليوشا !
قال أليوشا بصوت خافت وهو يرفع عينيه نحو أخيه ويرسم على شفتيه المرتعشتين ابتسامة ضعيفة:
- نعم كان يجب رميه بالرصاص.
فاندفع إيفان يقول بنوع من الحماسة:
- مرحى! ما دمت تقر بذلك أنت بنفسك، فلا بد... هاه... يا لرسول المحبة! ذلك إذاً هو الشيطان الذي تؤويه في قلبك يا أليوشا كارامازوف!
قال أليوشا:
- لقد قلتُ سخافة، ولكن... صاح إيفان:
- ولكن... هذا هو الأمر: «ولكن»... أليس كذلك؟ ألا فاعلم أيها الراهب المبتدىء أن السخافات لازمة لوجود هذا العالم. إن الكون يقوم على سخافات بدونها قد لا يوجد شيء وقد لا يحدث شيء. نحن نعلم ما نعلم!
- ماذا تعلم!
- لست أفهم شيئاً (كذلك استأنف إيفان كلامه قائلاً في هذيان)، ولقد أصبحت لا أريد الآن أن أفهم شيئاً. أريد أن أكتفي بالوقائع وأن أقتصر عليها. لقد قررت منذ زمن طويل أن لا أحاول تأويلها. فلو حاولت أن أفهم إذاً لتشوهت الوقائع فوراً، وأنا أحرص على أن أبقى في الواقع لا أخرج منه...
صاح أليوشا يقول بمرارة:
- لماذا تعذبني هذا التعذيب؟ هلا قلت لي أخيراً..
- طبعاً سأقول لك. ذلك ما كنت أريد الوصول إليه منذ البداية.
أنت عزيز في نفسي يا أليوشا، ولا أريد أن أتنازل عنك لصاحبك زوسيما بدون كفاح.
قال إيفان ذلك وصمت لحظة، وفجأة أصبح وجهه حزيناً جداً، ثم أردف يقول:
- أصغ إلي الآن. لقد اخترت لأمثلتي أطفالاً حتى يكون برهاني أكثر إقناعاً. ولن أقول شيئاً عن سائر الدموع الإنسانية التي تتبلل بها الأرض من... إنني أضيّق موضوع مناقشتنا عامداً. ما أنا إلا حشرة صغيرة من الحشرات. وإني لأعترف ذليلاً كل الذل بعجزي
عن فهم نظام هذا العالم. هل يجب أن نؤمن بأن البشر مذنبون ومسؤولون وحدهم عن شرورهم؟ لقد وُهبت لهم الجنة، ولكنهم آثروا أن ينالوا حريتهم وسرقوا النار من السماء وهم يعلمون سلفاً أنهم بذلك يجلبون لأنفسهم الشقاء، فلا داعي
إلى أن نشفق عليهم ونرثي لحالهم. ولكن عقلي، عقلي البائس الإقليدسي الأرضي يؤكد لي، على عكس ذلك، أن العذاب موجود دون أن يكون هنالك مذنبون، وأن جميع الأفعال الإنسانية ينحدر بعضها من بعض بالضرورة، وأن كل شيء ينقضي آخر الأمر، وأن التوازن يقوم مرة أخرى من تلقاء نفسه. ذلك على الأقل وهَم أنشأه عقلي الإقليدسي، أعرف هذا... وأنا لا أقبل أن أحيا وفقاً لهذا الوهم! فيم يهمني أن أعلم أنه ليس هناك مذنبون؟ إنني في حاجة إلى قصاص وعدل، وإلا دمرت نفسي. وهذا القصاص الذي أطالب به، أنا لا أريده في «لا نهاية» لا يمكن الوصول إليها، وفي «أبدية» تفوقني، وانما أنا أريد أن أراه على هذه الأرض، أن أراه بعيني. لقد آمنت، وأريد أن أشهد انتصار الحقيقة! فإذا كنت ميتاً ساعة انتصارها فلأبعث حياً؛ لسوف يسيء إلي كثيراً أن يتحقق هذا المجد للإنسان في غيابي. هل تألمت أنا من أجل أن أمهد الطريق بخطاياي وآلامي لانسجام مقبل لن ينتفع به إلا آخرون؟ إنني أريد أن أرى الوعلة بعيني مستلقية أمام الأسد في هدوء وسلام، وأن أرى الضحية مرتدة إلى الحياة تعانق قاتلها. أريد أن أكون حاضراً حين ينكشف فجأة سر هذا العالم للجميع. إن هذه الرغبة هي القاعدة التي تقوم عليها جميع الأديان، وأنا امرؤ مؤمن. ولكن الأطفال... ما ذنب الأطفال؟ كيف نسوّغ عذاب الأطفال عندئذ؟ تلك مشكلة لا أجد إلى حلها سبيلاً. أعود فأقول لك للمرة المائة:
إن هناك في هذا العالم مشكلات كثيرة، ولكنني اخترت هذه المشكلة، مشكلة الأطفال، لانها تتيح لي أن أعبّر عما يشغل بالي ويقض مضجعي تعبيراً أوضح. قل لي: إذا كان على البشر أن يتألموا من أجل أن يمهّدوا بألمهم للانسجام الأبدي الكلي، فلماذا يجب أن يتألم الأطفال أيضاً؟ لماذا حُبس الأطفال في هذه الدائرة، لماذا يجب عليهم هم أيضاً أن يساهموا في الانسجام بعذابهم؟ ذلك أمر لا سبيل إلى فهمه إطلاقاً. لماذا أصبحوا هم أيضاً مادة لتسميد الانسجام القادم لأناس آخرين؟ قد أسلّم عند الاقتضاء بتضامن البشر في الخطيئة وتضامنهم في التكفير عنها ولكن الأطفال لم يشاركوا في الخطيئة فإن قيل إنهم يحملون في أجسادهم خطايا آبائهم وإنهم متضامنون إذاً مع آبائهم في هذه الخطايا قلت: هذه حقيقة لن تكون من هذا العالم على كل حال ولا يمكن أن يدركها عقل! رُبّ مازح خبيث يعترض بقوله إن الطفل سيشتد ساعده وسيقارف الخطيئة متى حان الوقت ولكنني أقول إن ذلك الصبي الذي ما يزال في الثامنة من عمره لما يشتد ساعده بعدُ وقد مزقته الكلاب! آه يا أليوشا أن يكون في نيتي أن أجدّف! إنني أتخيل كيف سيتهلل الكون فرحة حين ستدوي أصوات السماء والأرض جميعاً منشدة نشيد الشكر معاً وحين سيهتف جميع الأحياء وجميع من كانوا أحياء قائلين: «أنت على حق يا رب وقد فهمنا طرقك!» سوف تعانق الأم عندئذ الجلاد الذي أمر الكلاب بتمزيق ابنها وسوف يقول الثلاثة عندئذ من خلال دموع الحنان:«أنت على حق يا رب»، ستنجلي عندئذ جميع الأسرار وسيكون ذلك اليوم يوم تمجيد المعرفة. ولكن ذلك بعينه هو العقدة لأنني لا أستطيع أن أقبل حلاً كهذا الحل. وأنا أسارع إلى اتخاذ إجراءات ما زلت في هذا العالم. قد يحدث يا أليوشا حين أشهد ذلك الانتصار النهائي للحقيقة أو حين أبعث حياً لأشهد ذلك الانتصار أن أصيح أنا أيضاً مع الجميع إذ أرى الأم والجلاد والطفل يتعانقون ويتصالحون: «أنت على حق يا رب!» ولكنني لا أريد أن أفعل ذلك عندئذ، وأحرص على أن أحمي نفسي سلفاً من ذلك الاستسلام ولهذا السبب تراني أتنازل تنازلاً حاسماً عن الانسجام الأعلى. إن هذا الانسجام لا يعدل في رأيي دمعة واحدة من دموع ذلك الطفل المعذب حتى الموت الذي كان يلطم صدره بقبضتي يديه في مكان موبوء ويضرع إلى الله الرحيم من خلال دموعه التي لا يكفّر عنها شيء!. نعم ما من انسجام مقبل سيكفر عن تلك الدموع ولا بد من التكفير عنها وإلا فلا يمكن أن يقوم انسجام ولكن بماذا يمكن التكفير عنها؟ ما الذي يمكن أن يمحوها؟ أهو القصاص الذي سينزل بالجاني؟ فيم يهمني هذا القصاص؟ إنني لا أريده! فيم يهمني تعذيب الجلادين في الجحيم، إذ لن تغير من الأمر شيئاً إذا كان الأطفال قد عذّبوا حتى الموت؟ وأين عسى أن يكون الانسجام إذا كان ثمة جحيم؟ إنني أحب أن أغفر وأن أصالح. إنني أتمنى أن لا يبقى في الكون عذاب. فإذا كانت آلام الأطفال أمراً لا بد منه لإكمال مقدار الألم الذي سيكون فدية للحقيقة فإنني أعلن جازما أن الحقيقة لا تستحق أن يدفع ثمنها باهظاً إلى هذا الحد... إنني لا أريد أخيراً أن تصالح الأم الجلاد الذي أمر كلابه بتمزيق جسد ابنها! ليس من حقها أن تغفر له. لها أن تتغاضى عن ألمها هي إذا شاءت، وعن عذاب الأم العظيم الذي قاسته، لها أن لا تحقد على الجاني، ولكن ليس لها أن

تعفو عن التعذيب الذي نال ابنها حتى ولو عفا عنه ابنها! فإذا كان الأمر كذلك، إذا لم يكن من حق الضحايا أن تغفر فأين الانسجام؟ هل في الكون فرد في وسعه ويجب عليه ومن حقه أن يغفر؟ إنني لا أريد هذا الانسجام بل أرفضه حباً بالإنسانية. إنني أفضل أن تبقى آلام هذا العالم بغير تكفير. إني أؤثر أن يظل ألمي بغير فدية وأن يظل استيائي متأججاً بغير ارتواء ولو كنت على خطأ. إن الثمن المطلوب للانسجام باهظ جداً وهو فوق ما نطيق أن ندفع من ثمن، إن بطاقة الدخول غالية مسرفة في الغلاء. لذلك أسارع فأردُ بطاقتي. إنني أشعر بأن علي أن أردها بأقصى سرعة إذا اعتبرتُ نفسي إنساناً شريفاً، وذلك ما أفعله. إني لا أجحد الرب يا إيفان فيدوروفتش وإنما أقتصر على أن أعيد إليه بطاقتي بكثير من الاحترام.
قال أليوشا بصوت رقيق وهو يخفض عينيه:
- هذا تمرد.
فقال إيفان بلهجة نافذة مؤثرة:
- تمرد؟ لا أحب أن تحكم عليّ أنت هذا الحكم. إن من المستحيل على المرء أن يحيا في تمرد، وأنا امرؤ يحرص على أن يحيا. أجبني عن سؤال ولكن أجبني بصراحة. فإنني أحرص على جواب صريح عن هذا السؤال: لو كنت مهندس المصائر الإنسانية وأحببت أن تبني عالماً تجد فيه الإنسانية السعادة والهدوء والأمن أخيراً أفتشرع في هذا العمل إذا علمت أنه لن يتحقق إلا إذا كان العذاب ثمنه، ولو لم يكن إلا عذاب إنسان واحد صغير بريء هو مثلاً تلك الطفلة التي كانت تلطم صدرها بقبضتي يديها؟ لو كان البناء لا يمكن أن يقوم إلا على تلك الدموع التي لا فدية لها تذرفها تلك البنية الصغيرة، لو كان ذلك ضرورة لا مناص منها ولا يمكن أن يتحقق الهدف بدونها أفتظل توافق على أن تكون مهندس الكون في تِلكَ الشروط؟
أجاب أليوشا بصوت خافت:
- لا... لا أوافق.
- وهل في وسعك أن تُسلّم عدا ذلك بأن يقبل البشر الذِّين تبنِي لهم هذّا العالم أن يُصبحوا سُعداء على حسَاب آلام ودِمَاء طفل بريء وأن يعرفوا السَّعَادة إلى الأبد بعد أن يقبلوا ذلك؟
- لا.... لا أستطيع أن أُسلم بهذّا.
كذلك قَال أليوشا ثُمّ صاح يقول فجأة وقد سطعت عيناه:
- أخي لقَدْ سألتني مُنْذُ لحظة هل في الكون كائن في وسعِه ويجب عليه ومن حقه أن يغفر؟ إن هذّا الكائن موجود يستطيع أن يغفر كل شيء وأن يغفر لجميع النَّاس لأنه وهب هو نفسه دمه البرِيء للإنسانية بأسرها. لقَدْ نسيته أنت وهو هو الذّي يقوم عليه البناء كله وهو الذّي سيهتفون له: «أنت على حق يا رب فلقَدْ أدركت طرقك.»
- آه... إنك تتكلم عن ذلك المُبرأ وحده من الخطِيئة، وعن دمه! لا يا أليوشا أنا ما نسيته وإنه ليُدهشني أن تنتظر هذّه المُدة الطويلة قبل أن تستشهد به فأمثالك في العادة يُبرزون هذّه الحُجة مُنْذُ بداية المُناقشة، اسمع يا أليوشا هل تعلم أنني نظمت قصيدة في ذات مرة؟ لا تسخر مني لقَدْ فعلت ذلك مُنْذُ سنة فإذا وافقت على أن تُضيع في صُحبتي عشر دقائق أُخرى قُلت لك هذّه القصيدة.
- كتبت قصيدة؟
- لا لم أكتبها (كذلك أجاب إيفان ضاحكًا) ولا كُنت قادرًا في يوم من الأيام على أن أُسطّر بيتين من الشعر ولكنني تخيلت هذّه القصيدة وحفظتها في فكري. لقَدْ تصوّرتها وأنا في نوع من ثورة النفس وستكون أنت أوّلَ قُرائي أو قُل أوّل المُستمعين إليّ. ولماذا يجب على المُؤلّف أن يتنازل عن المُستمع الوحيد الذّي يملك أن يتلو عليه ما ألف (كذلك أضاف إيفان مُبتسمًا) أأقول قصيدة أم لا؟
أجاب أليوشا:
- إنني أُصغي إليك باهتمام وشوق.
- عنوان القصيدة «المُفتش الأكبر». هي قصة خيالية ولكن أود أن أقُصها عليك.

-5- المُفتش الأكبر

بدأ إيفان كلامه يقول:
- لا بد من مُقدمة. هذًا من التقاليد الأدبيّة (قَال إيفان ذلك ضاحكًا). ألست مُؤلفًا أنا أيضًا؟ إن الأحداث تجري في القرن السَّادس عشر. ولقد كان رائجًا في ذلك الزمان إدخَال القوى السَّماوية في القصائد، كما لا بد أنك تعلَّمت ذلك في المدرسة. يكفي أن أُذكّرك، حتى دون أن استشهد بمثال دانتي، بأن موظفي المحاكم والرُّهبان في الأديرة في فرنسا كانوا يُقدمون تمثيليات تظهر فيها العَذراء والملائكة والقدِيسون، ويظهر فيها المسيح، ويظهر فيها حتى الله نفسه. تمثيليات ساذجة وقد وصف فكتور هوجو في روايته «Notre Dame de Paris»[126] تمثيلية أخلاقية مجانية مُثلت للشعب في قاعة دار البلدية في عهد لويس الحَادي عشر احتفالًا بميلاد ابنه البكر[127]، وكان عنوان التمثيلية هو «الحُكم الصائب للعذراء مريم المُقدسة النعمة»[128]، وفيها نرى العذراء تظهر بنفسها لإصدار الحُكم السديد. وعندنا في موسكو[129]، قبل عهد بُطرس الأكبر، كانت تمثيليات من هذًا النوع تُمثّل من حين إلى حين، وكانت تُستوحى من التوراة خاصة. وعدا هذٍه التمثيليات، فقد انتشرت في العالم طَائفة من الأقَاصيص أو «القصائد» يظهر فيها القديسون وتظهر فيها الملائكة والقوى السماوية كلها، تبعًا للحاجات. وفي أديرتنا كانت تُترجم وكانت تُنسخ أشياء كثيرة، بل لقَدْ كانت تُؤلف قصائد في بعض الأحيان، حتى في عهد الاحتلال التتري. فكذلك على سبِيل المثَال، أحتفظ بقصيدة رهبانية (مُترجمة عن اليونانية طبعًا) عنوانها: «درب الآلام للعذرَاء»، مليئة بلوحات تكَاد تبلُغ في جُرأتها وجسارتها لوحات دانتي. ففي تِلكَ القصائد تذهب العذراء إلى المُعذبين في الجحيم يقُودها رئيس الملائكة ميخائيل، فترى الخطأة وترى ما يُقاسون من عذاب أليم، وترى بينهم على وجه الخصوص طائفة عجيبة من الخطأة تتخبط في بحيرة مُشتعلة، فالذين يغوصون في هذٍه البُحيرة منهم لا يرجعون بعد ذلك إلى سطحها قط، ويُقال عنهم «إن الله قَدْ نسيهم»، وذلك تعبير عميق زاخر بالقوة، وقد استبدت بالعذراء شفقة قوية، فسقطت باكية أمام عرش الرّب تضرع إليه أن يعفو عن مُعذبي الجحيم، وأن يغفر لهم جميعًا بغير تمييز. إن حديثها مع الرّب شائق جدًا، فهي تتضرع إليه وتُلحّ وتأبى أن تنصرف، فإذا أومأ الرّب إلى قدمي ويدي ابنها المثقُوبة بالمسامير وسألها: «كيف أعفو عن هؤلاء الجلادين»، أمرت جميع القديسين والشهداء والملائكة أن يركعوا معها وأن يسألوا العفو عن جميع الخَطَأة بغير استثناء. واستطاعت أخيرًا أن تحصل على أن ينقطع عذاب جهنم كلّ سنة بين الجمعة الحزينة وعيد الخمسين، وأن يُسارع المعذبون عندئذ إلى أن ينشدوا من قرارة الجحيم نشيد العرفان بالجميل: «أنت على حق يا رب، وعادل حُكمك». إن قصيدتي أنا كَان يُمكن أن تكون من هذًا النوع لو أنني عشت في ذلك العصر. إن الرّب يظهر في قصتي، ولكنه لا ينطق بكلمة واحدة، ولا يزيد على أن يجتاز المسرح، لقَدْ انقضى خمسة عشر قرنًا مُنْذُ أن وعد بأن يعود إلى مملكته، مُنْذُ أن كتب رسوله: «سأعود قريبًا»[130] «أما اليوم والساعة فإن الابن نفسه لا يعرفهما، وإنما يعرفهما أبي الذّي في السماوات»، على حد الأقوال التي نطق بها هو نفسه أثناء مروره بالأرض. ولكن الإنسانية ما تزَال تنتظره بإيمان واحد وحماسة لم تتغير، بل إن الإيمان قَدْ قوي واشتد، لأن خمسة عشر قرنًا قَدْ انقضت مُنْذُ أن كفت السماوات عن بذل رهائن للبشر.

صدق صوت قلبك أيها الإنسان

إن السماوات لا تبذُل ضمانات[131].

فلا إيمان إلَّا بما يقوله القلب! صحيح أن المُعجزات كَانت كثيرة في ذلك العصر. فلقَدْ كان هُنالك قديسون يَبرئُون المرضى بمُعجِزات فوق الطبيعة، وإذا صدق ما يُروى في سِيَّر بعض الصالحين، فإن ملكة السماوات قَدْ ظهرت لهم بشخصها. ولكن الشّيطان لم ينم، وأخذت الإنسانية تشُك في صدق هذٍه المعجزات.

وظهرت عندئذ هرطقة جديدة رهيبة في شمال ألمانيا[132] فإذا بكوكبٍ كبير «شبيه بشعلة» (هو الكنيسة طبعًا) «يسقُط على نبع المياه فتُصبح المياه مُرة». لقَدْ كان أولَئكَ المجدّفون الهراطقة ينكرون المُعجزات. فازداد إيمانُ المؤمنِين، واشتدت حمَاستهم. وأخذت الإنسانية ترفع أعيُنها الدامعة إلى الرّب مُنتظرِة مجيئه، مُحبة إياه بقلبٍ حار، مُؤمّلة فيه، ظَامئة إلى التألم من أجله والموت في سبيله، كما حدث في الماضي... إن صلوات البشر ترتفع إلى السماوات حارة مُنْذُ قرون طويلة قائلة له: «تفضل بالمجيء إلينا يا رب»، لذلك أراد الرّب برحمته الواسعة، أن يعود إلى أولَئكَ الذّين يضرعون إليه هذٍه الضراعة. لقَدْ ظهر حتى ذلك الحين لبعض الصَّالحين والشُّهداء والقديسين النُّساك كما تُروى سِيرة حياتهم. وفي بلادنا روسيا تغنّي الشاعر تيوتشيف به في هذٍه الأبيات (وكان يُؤمن إيمانًا عميقًا بما يقول(:

أيتها الأرض التي ولد فيها ملك السماوات[133].

لقَدْ طاف في كل جهة من جهاتك في صورة عبد

مُنحنيًا تحت ثقل صليبه، يهب لك بركته الواسعة.

ذلك كله صحيح، أؤكد لك. لقَدْ قرر الرّب أن يظهر، في هذٍه المرة لا لأفراد من القديسين، بل للشعب بأسره، لجمهرة الناس المغمُورين الذِّين يتألمون في خطاياهم وعَارهم ولكنهم يحبونه بقلوبٍ ساذجة كقلوب الأطفال. أحداث قصيدتي تجري في إسبانيا، بمدينة إشبيلية، في أحلك عهود «التفتيش»، حين كانت أكوام الحطب تشتعل لإحراق المُتهمين كل يوم في جميع أرجاء إسبانيا تمجيدًا للرّب:

في نيران رائعة[134].

كان يحرق الزنادقة الأشرار.

لم يكُن يقصد في هذٍه المرة أن يرجع إلى الأرض ذلك الرجوع الذّي سيكون، حسب وعده في الكتب الدينية، في آخِر الدهور، فيتجلى فجأة بكل مجده السمَاوي «كبرق يسطع من الشرق إلى الغرب»[135].

فكل ما كان يريده هو أن يقضي بضعِ لحظات عابرة بين أبنائه في تِلكَ الأمَاكن نفسها التي تزفُر فيها النيران المُوقدة لإحراق الهراطقة. لقَدْ أراد بدافع من رحمته اللانهائية أن يظهر مرة أخرى بين النَّاس في الصورة الإنسانية التي اتخذها قبل ذلك بخمسة عشر قرنًا خلال حياته الأرضية التي دامت ثلاثة وثلاثين عامًا. فهكذا نزل إلى الشوارع المُلتهبة من المدينة الجنوبية التي تم فيها أمس، بأمر الكاردينال، المُفتش الأكبر، إحراقُ حوالي مائة من الزنَادقة، تمجيدًا لله، بمُعاونة الأهالي[136]، وبحضور الملك ورجال البلاط والفُرسان وأمراء الكَنيسة والسيدات الحسناوات والجماهير الغفيرة من أبناء المُجتمع وأهالي إشبيلية. وقد ظهر الرّب خفية بدون ضوضاء، ولكن الأمر الغَريب هو أن جميع الناس سُرعان ما عرفوه. وها هنا مادة لأجمل أجزاء القصيدة: لماذا عرفه الناس جميعًا؟ لقَدْ انجذب إليه الجمهور بقوة لا تُقاوم، وأحاط به، واحتشد حوله، وتابع خطواته. فسار هو بين الجمهور صامتًا وهو يبتسم ابتسامة عطف لا نهاية له. إن شمس المحبة تتقد في قلبه، ومن عينيه تشعّ أشعة الضياء والتنوير والقوة فتنتشر في المُؤمنين وتُشعل المحبة فيهم، وهو يمدّ ذراعيه نحو الشعب ليُباركه. إن مُلامسته، وحتى مُلامسة ثيابه، تملك القدرة على إبراء المرضى. فهذا شيخ من الجمهور، أعمى مُنْذُ طفولته، يهتف قائلًا على حين فجأة: «رُدّ إليّ البصر يا رب حتى أستطيع أن أتأملك» فما هي إلَّا لحظة حتى سقطت الغشاوة عن عينيه، فإذا هو يرى الرّب. وبكى الشعب تأثرًا، وأغرق بالقُبلات الأرض التي مشي عليها. وأخذ الأطفال يرمون الأزهار أمامه مُنشدين: «المجد لله» وتعالت الصيحات من كل جانب تقول في حماسة: «إنه هو، إنه هو، لا يمكن إلَّا أن يكون إياه». ووقف في الساحة أمام كاتدرائية إشبيلية لحظة كان يؤتي إلى المعبد، بين عبرات الحضور، بتابوتٍ أبيض صغِير مفتُوح يرقُد فيه جُثمان بنية في السابعة من عمرها هي البنت الوحيدة لرجل من عيون سكان المدينة. إن الطفلة الميتة مُغطاة بالأزهار. صَاح الجمهور يقول للأم المحزونة: «سيُحيي لك ابنتك». وكان كاهن الكنيسة قَدْ تقدم نحو التابوت، فظهرت عليه الحيرة وقطب حاجبيه. فأجهشت أم البنية الميتة باكية وارتمت على قدمي المسيح وضرعت إليه وهي تمُدّ نحوه ذراعيها قائلة: «إذا كنت أنت هو حقًا، فأحيي ابنتي!» توقف الموكب، ووضع التابوت على البلاطات عند قدميه. فألقى على جُثمان البنت نظرة تفيض بالعطف، وتحركت شفتاه في رفق تقولان مرة أخرى «قومي أيتها البنية»[137] فما أن نطق بهذٍه الكلمات حتى انتصبت الطفلة في التابوت، وجلست مُبتسمة، ونظرت حولها بعنين مُحملقتين مدهُوشتين. إنها تُمسك بيدها باقة من ورود بيضَاء كانت قَدْ وُضعت على جُثمانها. اضطرب الجمهور وصَاح وبكى. وفي تِلكَ

اللحظة نفسها ظهر الكاردينال المُفتش الأكبر في السَّاحة أمَام الكاتدرائية. إنه شيخ في نحو السنة التسعين من عمره، طويل الجسم، منتصب القامة، معرُوق الوجه، غَائر العينين، غير أن في عينيه شُعلة تسطع. إنه لا يرتدي الآن ثوب الكاردينالية الأرجواني الفخم الذِّي ظهر به للشعب في الليلة البارحة حين كان يُرمى إلى النيران أعداء الكنيسة الرومانية. وإنما هو يلبس في هذِّه اللحظة ثوب الراهب، المصنوع من خشن الصُّوف. وعلى مسافة منه يتبعه معاونوه العَابسون وعبيده وحرس «القداسة». وقف الكاردينال أمام الجمهور وتأمله من بعيد. لقَدْ رأى كُل شيء، رأى التابوت عند قدمي المسيح، ورأى البنية تُبعث حية، فأظلم وجهه واكفهر. إنه يُقطّب حاجبيه الكثيفين الأبيضين، وإن بريقًا مُتوحشًا كاسرًا يُومض في عينيه. وها هو ذا هو يُشير إلى المسيح بسبابته آمرًا الحرس بأن يعتقلوه. إن هذًا الرَّجُل الذِّي عرف كيف يروّض شعبًا مُرتجفًا وأن يُخضعه لجميع إراداته يبلغ من القوة أن الجمهور سُرعان ما أسرع يبتعد أمام الحرس، فإذا بهؤلاء، وسط صمت الموت الذِّي خيّم على حين فجأة، يضعون أيديهم على المسيح ويقتادونه. وسجد الجمهور بحركة واحدة أمام المُفتش الأكبر الذِّي بارك الجمهور صامتًا وانصرف. أُخذ السجين إلى المبنى العتيق الذِّي تقع فيه المحكمة المُقدسة، وحُبِس في زنزانة مُظلمة ضيقة مُقببة. انقضى النهار، وهبط الليل.

هي ليلة من ليالي إشبيلية تِلكَ الحالكة الخَانقة الحارة. «الهواء مُعطر بعبق أشجار الرّند والليمون»[138]. وفجأة، في الظُّلمات، فُتح باب الزنزانة الحديدي، وتقدم المُفتش الأكبر العجوز يسير في الممر ببطء حاملًا بيده مصباحًا.

هو وحده، وما إن يدلف حتى يُغلق الباب خلفه فورًا. وقف لحظة على عتبة الزنزانة وتفرس في وجه السجين طويلًا. ثُمّ اقترب منه آخِر الأمر بخُطى خافتة، ووضع المصباح على المنضدة وقال له:

-«أهذا أنت إذن؟ أهذا أنت؟«

- ولكنه حين لم يتلق جوابًا أسرع يُضيف:

- اسكت! لا تقل شيئًا! وما عساك تقول لي؟ إنني أعرف سلفًا كل ما قَدْ تقوله لي. وبأي حق تُريد أن تُضيف أي شيء إلى ما سبق أن قلته؟ لماذا تجيء اليوم تزرع الاضطراب في حياتنا؟ ذلك أنك إنما جئت لتُعرقل عملنا، وأنت لا تجهل ذلك. فهل تعلم مع هذًا ما الذِّي سيقع غدًا؟ إنني لا أعرفك. ولا أُريد أن أعرفك. أأنت هو حقًا، أم لست إلّا طيفه؟ سيان... لأنني سأحكم عليك بالإعدام وسآمُر بإحراقك مثلما آمُر بإحراق أسوأ الزنادقة. إن ذلك الجمهور نفسه الذِّي كان يُقبل قدميك مُنذُ بضع ساعَات، سيهرع غدًا، بإشارة بسيطة مني، فيرى لهيب النَّار، هل تعلم ذلك؟ - ألقى عليه الكاردينال هذًا السؤال ثُمّ أضاف يقول شارد الفكر، نافذ النظرة، مُتأملا دون أن يُحول بصره عن سجينه لحظة واحدة:

- لا شك أنك تعلم ذلك

قَال أليوشا الذِّي كان إلى ذلك الحين يُصغي إلى أخيه صامتًا، قَال وهو يبتسم:

- لست أفهم جيدًا يا إيفان. أهذه تهاويل مُضطربة أنشأها خيالك الذِّي لا يعرف الحدود، أم تُريد أن تقول إنها خطأ من أخطاء الشيخ وقد خدعه ظنه، وأن لُبسة ما قَدْ أظلّته؟

قَال إيفان ضاحكًا:

- لنُسلّم بأن افتراضك الأخير صحيح، وبأن هناك لُبسة ما دامت واقعية هذًا العصر قَدْ دمغتك أنت أيضًا إلى حد لا تستطيع معه أن تقبل تهاويل خيالية. لنفرض أن هناك لُبسة ما، إذا كنت تحرص على ذلك.

ثُمّ أردف إيفان يقول وهو يضحك مرة أخرى:

- يجب ألّا ننسى أن هذًا العجوز هو في التسعين من عمره، وأن من الجائز أن يكون قَدْ جُنّ مُنذُ زمن طويل في عُزلته المُستعلية. ولعل منظر السجين قَدْ أدهشه. ولعل هذًا كله لم يكُن أيضًا إلّا هذيان رَجُل عجوز قَدْ أهاجه إحراق المائة زنديق الذِّين أُحرقوا في الليلة البارحة، أو هلوسة من تِلكَ الهلوسات التي تسبق الموت في بعض الأحيان. وإنه ليستوي على كل حال أن يكون الأمر أمر تهاويل خيالية أو أمر qui pro quo[139] (لُبسة)، المُهم أن هذًا الشيخ سيقول في هذِّه المرة، وهو في التسعين من العمر، سيقول ما في قلبه وما فكر فيه صامتًا طوال حياته.

- والسجين؟ أهو صامت؟ أهو ينظر إلى زائره دون أن يفتح فمه بكلمة؟

قَال إيفان شارحًا وهو مازال يضحك:

- على هذًا النحو إنما يجب أن تجري الأمور. ألم يُفهمه الشيخ العجوز أنه ليس من حقه أن يُضيف شيئًا إلى ما سبق أن قاله في الماضي؟ بل إن هذًا في رأيي سمة من السمات الأساسية للكاثوليكية الرومانية: «لقَدْ عهدت برسالتك إلى البابا، ومن اختصاص البابا أن يُقرر بعد الآن. فلا تأت إلينا لتُعرقل عملنا، وتبُث القلق والاضطراب في حياتنا بغير طائل، لا تأت الآن لا تأت قبل الساعة المُحدّدة على كل حال». فهذا ما لا يقوله فحسب، بل يكتبه صانعو الكنيسة الرومانية، أو هذًا ما يقوله ويكتبه اليسوعين على الأقل. لقَدْ قرأت هذًا بنفسي في كُتب لاهوتييهم. إن العجوز قَدْ ألقى عليه هذًا السؤال: «هل من حقك أن تكشف لنا ولو عن سر واحد من أسرار العالم الذِّي جئت منه؟«.

- ثُمّ لم ينتظر جوابه، بل أضاف يقول فورًا:

- لا... ليس من حقك أن تفعل هذًا... ولا حتى أن تُضيف شيئًا إلى ما سبق أن قُلت في الماضي، وذلك حتى تحرم البشر من تِلكَ الحرية التي كُنت تُقدرها قدرًا عظيمًا حين عشت على الأرض. إن كل قول جديد قَدْ تأتي به سيُسيئ إلى حُرية الإيمان، لأنه سوف يبدو مُعجزة من المعجزات، وقد كانت حُرية إيمانهم أعز شيء لديك آنذاك مُنذُ خمسة عشر قرنًا. ألم تكن تُردد على مسامعهم مرارًا: «أُريد أن أجعلكم أحرارًا»؟ وأضاف العجوز يقول وهو يرسُم على شفتيه ابتسامة مُفكرة على حين فجأة: - ولقد رأيتهم بعينيك، هؤلاء البشر «الأحرار»... إن هذِّه الحرية هي من صُنعنا، وقد كلفتنا جهودًا لا نهاية لها - كذلك أضاف العجوز وهي يُلقي على السجين نظرة قاسية - ولكننا أتممنا عملنا أخيرًا باسمك. لقَدْ اضطررنا خلال خمسة عشر قرنًا أن نظل نتحرك جاهدين بهذه الحُرية، ولكن الأمر انتهى الآن، انتهى تمامًا. ألّا تظن أنه انتهى إلى الأبد؟ إنك تنظُر إليّ بوداعة ولين ورفق، فلا شك أنك تُقدّر أنك إن أظهرت استياءك كُنت تُشرفني تشريفًا لا أستحقه! ألّا فاعلم إذًا أن البشر هم في هذًا اليوم بعينه أشدّ اقتناعًا منهم في أي وقت مضى بحريتهم الكاملة، ومع ذلك فالواقع أنهم تنازلوا عنها ووضعوها عند أقدامنا بكثيرٍ من الطاعة. ذلك هو عملنا. أهذه هي الحرية التي كنت تُنشدها لهم؟«

قاطعه أليوشا مرة أخرى قائلًا:

- مرة أخرى أصبحت لا أفهم. أهو يسخر؟ أهو يتهكم؟

- كلا... إنه لا يسخر ولا يتهكم أبدًا: إنه يتباهى، لنفسه ولصحبه، بأنهم أوقفوا نموّ الحرية، وأنهم فعلوا ذلك من أجل أن يجعلوا الناس بذلك سُعداء. «ذلك أننا الآن، للمرة الأولى، نستطيع أن نحلم للإنسانية بالسعادة (إنه يتكلم طبعًا باسم محاكم التفتيش). إن الإنسان محمول بطبيعته على العصيان والتمرد. ولكن هل يستطيع المتمردون أن يكونوا سُعداء؟ لقَدْ نُبهت إلى هذًا ولم تعوزك النصائح والتحذيرات، ولكنك لم تشأ أن تحسب حسابها، ونبذت الطريق الوحيدة التي كان يمكن أن تقود البشر إلى السعادة. ومن حُسن الحظ أنك حين بارحت هذِّه الأرض عهدت إلينا بمُهمة إتمام رسالتك. لقَدْ كلفتنا بأن نوجّه الإنسانيّة وأن نُرشدها بذلت لنا وعدك، وأقمت سُلطتنا على كلمتك، ووهبت لنا حق العقد والحل، ولن تستطيع طبعًا أن تنتزع منا هذًا الحق بعد الآن. فلماذا جئت تُعرقل عملنا في هذًا العالم؟.»

قَال أليوشا سائلًا:

- ماذا كان يعني بقوله إن النصائح والتحذيرات لم تعوزه؟

وأجاب إيفان:

- ذلك هو العنصر الأساسي في التفكير الذِّي كان العجوز يُريد أن يُعرب عنه.

تابع العجوز يقول: «إن الروح الرهيب الذكي، روح الدمار والعدم، قَدْ خاطبك في الصحراء»[140]. وتروي الكُتب المُقدسة أنه «كان يغويك» أليس كذلك؟ هل نستطيع في الواقع أن نتخيل حقائق أكبر من الحقائق التي عرضها لك في أسئلته الثلاثة؟ لقَدْ رفضت أنت تِلكَ الحقائق آنئذ، والكُتب المُقدسة تصفها بأنها «غوايات». ومع ذلك، لئن وُجدت على هذِّه الأرض في يوم من الأيام مُعجزة كُبرى، مُعجزة صادقة، فإن تِلكَ المعجزة إنما تحققت في ذلك اليوم بعينه، في يوم تِلكَ الغوايات الثلاث. لقَدْ كانت تِلكَ الأسئلة مُعجزة من المعجزات لمجرد أنها أُلقيت. لنتصور، على سبيل الافتراض وحده، أن الأسئلة الثلاثة التي ألقاها الروح الرهيب قَدْ تبددت دون أن تترك أثرًا في الكُتب المُقدسة، وأن علينا أن نعثر عليها اليوم وأن نُعيد بناءها وأن نكتشفها من جديد حتى نضُمها إلى النصوص

المُقدسة. لنتصور أننا جمعنا لتحقيق هذّا الهدف جميع حُكماء الأرض - رؤساء الدول وأمراء الكنيسة والعُلماء والفلاسفة والشُّعراء - وقُلنا لهم: أوجدوا لنا، تخيلوا لنا ثلاثة أسئلة لا تكون على مستوى الحدث فحسب، بل تُلخص بالإضافة إلى ذلك، في ثلاث جُمل إنسانية بسيطة، كل مُستقبل العالم والإنسانيّة، فهل تظن أن كل حكمة الأرض المجتمعة في هؤلاء الرجال تقدر على أن تتصور ولو من بعيد شيئًا يُشبه بقوته وعمقه، تِلكَ الأسئلة الثلاثة التي ألقاها عليك في الصحراء ذلك الروح القوي الذكي؟ إن تِلكَ الأسئلة الثلاثة وتلك الحادثة المُعجزة، أعني كون الأسئلة قَدْ أُلقيت، تشهد بأن الأمر لم يكُن أمر عقل إنساني عادي، بل أمر فكر خالد مُطلق. ذلك أنها تضم في ذاتها، تشتمل في ذاتها على كل التاريخ المقبل للإنسانية، وتقدم رموزًا ثلاثة تتركز فيها جميع تناقُضات الطبيعة الإنسانية، التي لا سبيل إلى حلها. إن تِلكَ الحقائق لم تكن ظاهرة آنئذ ظهورًا واضحًا، لأن التطور الذِّي تطوره العالم بعدئذ لم يكُن معروفًا، أما الآن، بعد انقضاء خمسة عشر قرنًا، فإننا نرى أن كل ما تضمنته في تِلكَ الأسئلة الثلاثة قَدْ تحقق تحققًا يبلغ من الكمال والتمام درجة أننا لا نستطيع معها أن نُضيف أو أن نحذف شيئًا بعد اليوم.

فاحكم في الأمر بنفسك: من ذا الذِّي كان على حق، أأنت أم سائلك؟ تذكر السؤال الأول من تِلكَ الأسئلة الثلاثة، لا نصّه بل معناه العام: «تُريد أن تمضي إلى الناس، وأنت تمضي إليهم خالي اليدين إلَّا من وعد بحرية لا يستطيعون بحكم ما فطروا عليه من بساطة وحِطة أن يفهموه، عدا أنهم بالإضافة إلى ذلك يخشونه ويخافون منه، لأنه ليس هناك ولم يكُن هناك في يوم من الأيام حالة لا يُطيقها البشر والمجتمع مثلما لا يُطيقان الحرية. هل ترى هذّه الحجارة في الصحراء الوعرة المُحرقة؟ حولها إلى خُبز تهرع إليك الإنسانية كقطيع جائع، وتُصبح شاكرة لك مُطيعة إياك، ولكنها ستظل ترتجف خوفًا من أن تسحب يدك وأن تُحرم هي من خُبزك». غير أنك لم تشأ أن تحرم الإنسان من الحرية، فرفضت العرض قائلًا لنفسك لا حُرية صادقة حيث تُشترى الطاعة بالخبز. لقَدْ أجبت بقولك: ليس بالخُبز وحده يحيا الإنسان. أكنت تجهل إذًا أن روح الأرض سيثُور عليك باسم هذّا الخبز الأرضي نفسه، وأنه سيُقاتلك ويغلبك؟ وأن الجميع سيتبعونه قائلين: «من ذا الذِّي يستطيع أن يقيس نفسه بهذا الوحش الذِّي وهب لنا نار السماء؟» لسوف تنقضي قرون، فيأتي يوم تُنادي فيه الحكمة الإنسانية ويُنادي فيه العلم الإنساني بأن الشر لا وجود له، وأن الخطيئة تبعًا لذلك لا وجود لها، مُؤكدين أن هُناك جائعين فحسب. «أطعمهم تجعلهم فاضلين!» بهذه الصيحة إنما سيحملون الراية ضدّك وسيقوّضون معبدك. وسيقيمون في مكانه مبنى آخر، هو «بُرج بابل» ثانٍ مهدّد. صحيح أن البناء لن يتم، كما لم يتم في المرة الأولى، ولكن كان في وسعك مع ذلك أن تُوفر على الإنسانية آلام هذّه المحاولة الجديدة وأن نختصر من عذابها ألف سنة. ذلك أن البشر إنما سيتجهون إلينا نحنُ بعد أن يُجهدوا في بناء برجهم مدة ألف سنة! سيجِيئُون باحثين عنا كما فعلوا في الماضي، وسيجدوننا في الأقبية التي نكون قَدْ لجأنا إليها (لأننا سنُضطهد وسنُعذّب من جديد)، سيجِيئون قائلين لنا: «أطعمُونا، لأن الذِّين وعدونا بنار السماء قَدْ خدعونا». وسنُنهي عندئذ بناء البرج، لأن الذِّين سيُطعمون البشر يستطيعون وحدهم أن يتموا هذّا العمل حتى النهاية. وسوف نُطعمهم نحن ولا أحد سوانا، وسوف نُطعمهم باسمك، كاذبين عليهم بأننا نفعل ذلك باسمك، ونستمد قوتنا منك. بدوننا لن يستطيعوا أن يطعموا أنفسهم أبدًا! لن يهب لهم العلم خبزًا ما ظلوا أحرارًا، ولكنهم سينتهون إلى أن يرموا حريتهم على أقدامنا قائلين: «استعبدونا ولكن أطعمونا». سيُدركون هم أنفسهم أن الحرية لا تتفق وخبز الأرض، ولا تُتيح أن يُصيب كل منهم من هذّا الخبز كفايته، لأنهم لن يتوصلوا إلى اقتسامه بالعدل في يوم من الأيام. وسيقتنعون كذلك باستحالة أن يكونوا أحرارًا، لأنهم ضِعاف فاسدون صِغار النفوس سريعون إلى التمرد والعصيان. لقَدْ وعدتهم بخبز السماء، ولكنني أسألك مرة أخرى: هل يُقاس خبز السماء بخبز الأرض في نظر هؤلاء البشر الذِّين سيظلون إلى الأبد فاسدين عاقّين؟ إذا كانت ألوف من الناس أو كانت عشرات ألوف من الناس مُستعدة لأن تتبعك في سبيل خُبز السماء فماذا تفعل الملايين والمليارات من الكائنات التي لن تُحس بأنها قادرة على أن تتنازل عن خُبز الأرض في سبيل خُبز السماء؟ أتُراك لا تعطف إلَّا على بضع عشرات من ألوف النفوس الكبيرة القوية، وهل يجب على ملايين البشر، هل يجب على الجموع التي لا نهاية لعددها، كرمل البحر، هل يجب على هؤلاء الذِّين هم ضِعاف ولكنهم يحبونك أيضًا، ألَّا يكونوا إلَّا مادة للكبار والأقوياء؟ إننا نحن نرى غير هذّا الرأي، وإن الضِّعاف هم أيضًا أعزة على قلوبنا، إنهم شريرون عُصاة، ولكن هؤلاء أنفسهم هم الذِّين يُصبحون في آخِر الأمر أكثر الناس طاعة وخضوعًا. سوف يُعجبون بنا ويعدوننا آلهة، لأننا نكون قَدْ رضينا، حين صرنا قادة لهم، أن نحمل عنهم عبء الحرية وأن نسيطر عليهم، فإلى هذّا الحد ستكون هذّه الحرية قَدْ أصبحت كريهة في نظرهم بتقدم الزمن! وسوف نوهمهم مع ذلك بأنهم هكذا يُطيعونك أنت وبأننا نحكمهم باسمك. سوف نكذب عليهم في هذّه النقطة أيضًا، لأننا لن نسمح لك بعد الآن بأن تتدخل في شؤوننا. وسيكون هذّا الكذب الضروري عذابنا. ذلك ما كان يعنيه السؤال الأول في الصحراء، وقد رفضت نداء الروح الجبار باسم الحرية التي وضعتها في أعلى منزلة، وفضلتها على كل شيء. ولقد كان ذلك السؤال يخفي مع ذلك كل سرّ العالم. فلو قَدْ رضيت أن تُعطي الخبز، إذا للبّيت ما تنتظره الإنسانية انتظارًا مُنْذُ عهود سحيقة، ولهدّأت القلق الذِّي يُعذّب الفرد ويُعذّب الجماعة كليهما: «من نُطيع؟» فلا رغبة أقوى ولا همّ أبقى لدى الإنسان الذِّي أصبح حرًا من همّ العثور على سيد يعبده بأقصى سرعة. ولكن الإنسان يتطلع إلى الخضوع لحقيقة مُؤكدة لا تُجحد، حقيقة يحترمها جميع الناس برضى إجماعي. إن حاجة هذّه المخلوقات الضعيفة ليست إلى اكتشاف قوة يُمكن أن يُطيعها هذّا الفرد أو ذاك من الأفراد، وإنما إلى اكتشاف حقيقة عُليا يُمكن أن يُؤمن بها الجميع، ويُمكن أن ينحني لها الناس كافة. فهذه الحاجة إلى الاشتراك في العبادة هي بعينها الهمّ الرئيسي الذِّي يُعذّب كل فرد ويُعذّب الإنسانية جُملة، مُنْذُ أقدم عهود التاريخ. فباسم هذّا التطلع إلى العبادة الجماعية المُشتركة إنما أفنت الشعوب بعضها بعضًا خلال الأحقاب. كانت الشعوب تصنع آلهة ثُمّ تأخذ تتشاتم: «اتركوا آلهتكم وتعالوا اعبدوا آلهتنا. وإلا فالموت لكم ولآلهتكم!» وسيبقى الحال على هذّا المنوال إلى نهاية العالم، وحتى بعد زوال الآلهة سيظلون يسجدون لأصنام جديدة. ولقَدْ كُنت تعلم هذّا السرّ الأساسي من أسرار الطبيعة الإنسانية، فليس يمكن أن تجهل هذّا السر، ولكنّك رفضت الراية الوحيدة التي تملك قوة جذب مُطلق والتي قُدّمت لك لتؤدي بجميع البشر إلى الانحناء أمامك بغير تردد - أعني راية الخُبز الأرضي- لقَدْ أقصيت هذّه الراية باسم الحرية وباسم الخبز السماوي. فانظر إذًا فيما صنعت بعد ذلك! انظر فيما فعلت باسم الحرية! أعود فأقول لك إنه لا قلق أرسخ في قلب الإنسان من قلق الحاجة إلى العثور على من يستطيع أن يُضحّي له سريعًا بالحرية التي وُهِبت له، هو المخلوق التعِيس مُنْذُ ولد. ولكن لا سبيل إلى التصرف في حُرية البشر إلَّا بتهدئة ضميرهم. ولقد كان في وسعك أن تتخذ الخبز راية لا تُخطئ. أطعم الإنسان يُطعمك، فليس هناك في هذّا العلم ما هو أعزّ على الجحود أكثر من الخبز. ولكن إذا استولي غيرك عندئذ على ضمير البشر تركوك وعدلوا حتى عن خُبزك ليتبعوا ذلك الذِّي يكون قَدْ أغوي نفوسهم وأخضعها. في ذلك كان رأيك صحيحًا. إن سر الوجود الإنساني ومُبرره ليس في إرادة الحياة، بل في الحاجة إلى معرفة السبب الذِّي يدعو الإنسان إلى الحياة. فالإنسان ما لم يكُن على يقين من هدف حياته، لا يقبل أن يُوجد في العالم بل يُؤثر أن يُدمّر نفسه، ولو ملك الخبز وافرًا كل الوفرة. تِلكَ هي الطبيعة الإنسانية. ولكن ما الذِّي حدث؟ حدث أنك بدلًا من أن تُسيطر على الحرية الإنسانية أردت لها مزيدًا من النمو! فهل نسيت إذًا أن الإنسان يُؤثر هدوء نفسه بل ويُؤثر الموت على أن تكون له ملكة حُرية الاختيار في معرفة الخير والشر؟ لا شيء يخلب اللُّب للوهلة الأولى أكثر من حُرية الضمير، ولكن لا شيء في الواقع يُعذّب الإنسان أكثر مما تُعذّبه هذّه الحرية. فبدلًا من أن تحمل للإنسانية الأُسس الراسخة الثابتة الباقية لتهدئة ضميرها، وبدلًا من أن تُوفّر لها هذّه الأسس إلى الأبد، عرضت عليها ما في هذّا العالم من أمور سرية غامضة خارقة تفوق طاقة القوى الإنسانية، وكنت في عملك هذّا كأنك لا تُحب البشر إطلاقًا، أنت الذِّي إنما جئت مع ذلك لتُضحي من أجلهم بالحياة! إنك بدلًا من أن تُسيطر على الحرية الإنسانية وسّعتها، وبذلك أثقلت، بآلامها على ملكوت الإنسان النفسي. أردت من البشر أن يمنحوك حبهم أحرارًا، وأن يتبعوك بإرادتهم، مفتُونين بشخصك. ألغيت القانون القديم الذِّي كان وطيدًا راسخًا، فأصبح على الإنسان أن يُميّز الخير والشر نفسه، مُستلهمًا حكم قلبه، غير مُسترشد في تردده إلَّا بصورتك أمام عينيه. أفلم تتنبأ إذًا بأن البشر سينوؤون بهذّا الرهيب، حمل حُرية الإرادة، فإذا هم آخِر الأمر ينبذون في يوم من الأيام صورتك ويشكون في حقيقتك وتعاليمك؟ لسوف ينادون في النهاية بأن الحقيقة لم تكُن فيك، فمن المستحيل إلقاؤهم إلى اضطراب أشد وعذاب أرهب من الاضطراب والعذاب الذِّين ألقيتهم إليهما حين تركت لهم كل هذّه الأنواع من القلق، وكل هذّا العدد من المشكلات التي لا سبيل إلى حلّها. لقَدْ زوّدتهم أنت نفسك الأسلحة اللازمة لتهديد مملكتك، فليس لك أن تتهم أحدًا بتدميرها. فهل هذّا ما عُرض عليك مع ذلك؟ ليس على الأرض إلَّا قوى ثلاث تستطيع وحدها أن تتغلب إلى الأبد على ضمير هؤلاء المتمردين الضِّعاف، وأن تفعل ذلك من أجل سعادتهم، وهذه القوى هي: المعجزة، والسر، والهيبة. ولقد رفضت هذّه القوى الثلاث جميعًا وعلّمت البشر بقدوتك أن يحتقروها. فحين نقلك الروح الرهيب الداهية إبليس إلى سطح المعبد وقال لك: «إذا أردت أن تتأكد أنك ابن الرّب فألق بنفسك في الفضاء، لأنه كُتب أن الملائكة ستتلقفه وتسنده فلا يقع ولا يتحطم، وعندئذ نعلم أنك ابن الله وتُبرهن على قوة إيمانك بأبيك»[141]، ولكنك رفضت هذّا العرض ولم تُلق بنفسك في الفضاء. صحيح أنك تصرفت في تِلكَ اللحظة تصرفًا فيه ما في تصرف الله من عظمة وجلال، ولكن هل تتصور أن البشر، وهم جنس ضعيف مُتمرد، يملكون من القوة الروحية ما يملكه إله؟ لقَدْ فهمت في تِلكَ اللحظة أنه بخطوة واحدة، بمجرد حركة بسيطة هي أن تهم بالقاء نفسك في الفضاء كانت ستعني إغراء الرّب، فلو قمت بها لكُنت، بطلب المعجزة، تبُرهن على قلّة إيمانك، فإذا حُرمت من الإيمان تهشمت أسوأ تهشُم على الأرض التي جئت لتُخلصها وتُنقذها، ويُـهلل الروح المحتال الذِّي كان يغريك جذلًا وطربًا. ولكنني أعود فأسألك: هل أمثالك كثيرٌ في هذّا العالم؟ هل وقع في وهمك لحظة واحدة أن البشر يُمكن أن يكونوا هم أيضًا فوق إغراء من هذّا النوع؟ هل في طبيعة البشر أن يتنازلوا

عن المعجزة وأن يعتمدوا على حُكم القلب الحر وحده في الساعات العصيبة من الحياة، أمام المشكلات الخطيرة الأليمة التي تُعرض للنفس؟ لقَدْ كنت تعلم أن موقفك البطولي سيُحفظ بالكتب المُقدسة إلى آخِر العصور وأبعد حدود الأرض، وكُنت تأمل أن يقتدي البشر بك فيقبلوا أن يظلوا وحيدين مع الله لا يطلبون معجزة من المعجزات. ولكنك لم تُقدّر أن الإنسان متى جحد أسرع بجحد الرّب، لأن ظمأه هو إلى العجائب لا إلى الرّب، وأنه لكونه لا يستطيع أن يحيا بغير مُعجزات، سيخلق بنفسه معجزات، فيهوي، ولو كان مُتمردًا وكافرًا ومُلحدًا، إلى خُرافات سخيفة وتنطلي عليه أباطيل السحرة وخُزعبلاتهم. إنك لم تنزل عن الصليب حين دعاك الجمهور إلى ذلك صائحًا من باب الاستهزاء: «انزل عن الصليب فنُصدق أنك أنت». إنك لم تنزل، لأنك مرة أُخرى لم تشأ أن تستعبد البشر بالمعجزة، وإنما أردت أن يجيئوا إليك بتأثير الإيمان الحُر لا بتأثير الإيمان الذِّي تلده العجائب. كنت تريد أن يهبوا لك محبتهم أحرارًا لا أن ينصاعُوا لك عبيدًا أذهلهم جبروتك. هنا أيضًا أسرفت في تقدير البشر وأنزلتهم منزلة أعلى من منزلتهم، ذلك أن البشر عبيد، رغم أنهم مفطورون على التمرد. انظر فيما حولك: ماذا أصبح البشر بعد انقضاء خمسة عشر قرنًا؟ ما عدد أُولَئكَ الذِّين رفعتهم إلى مستواك؟ أحلف لك أن الإنسان أضعف وأسوأ مما ظننت؟ هل يستطيع هو الوضِيع أن يُحقق ما حققته أنت؟ إنك حين احترمته ذلك الاحترام كله قَدْ تصرفت تصرف من فقد عطفه عليه، لأنك سألته فوق ما يُطيق، أنت الذِّي أحببته أكثر من نفسك! فلو أنك قدّرته أقل مما قدّرته إذًا لطلبت منه أقل مما طلبت، ولكان موقفك عندئذ أقرب إلى المحبة، لأن العبء عليه يكون عندئذ أقل ثقلًا. إن الإنسان ضعيف وضِيع. لا يهمني أن يكون الآن قَدْ ثار في كل مكان على سلطتنا، وأنه يرى في عصيانه هذًّا مجدًا يعتز به. ذلك غرور طفل، ذلك غرور تلميذ. إن البشر يشبهون تلامذة صغارًا ثاروا في المدرسة وطردوا مُعلمهم. ولكن فرحتهم لن تدوم، وستُكلفهم ثمنًا باهظًا. سوف يهدمون المعابد، وسوف يجري الدم سيولًا على الأرض. وسوف يُدركون عندئذ، سوف يُدرك هؤلاء الصبية الأغبياء، أنهم إن خُلقوا عُصاة مُتمردين، فليس يُتيح لهم ضعفهم أن يعيشوا زمنًا طويلًا في التمرد والعصيان، وسيعترفون وهم يسكبون دموعًا باطلة أن الذِّي وهب لهم روح العُصاة قَدْ غرر بهم وسخِر منهم. سيقولون هذًّا محزونين مكروبين، سيكون هذًّا القول تجديفًا يجعلهم أعظم شقاء أيضًا، لأن الطبيعة الإنسانية لا تحتمل التجذيف، ولا بد أن تثأر لنفسها منه آخِر الأمر. القلق، الاضطراب، العذاب، ذلك هو المصير الذِّي كُتب على البشر الآن، بعد أن تحملت أنت كل ما تحملته في الماضي من أجل أن تهب لهم الحرية! إن رسولك الكبير [142] روى أنه أبصر، في رؤيا، جميع المُشركين في البعث الأول، فرأى اثنا عشر ألفًا من كل سبط. لقَدْ كانوا، مهما يكثُر عددهم، أقرب إلى آلهة منهم إلى بشر. قاسوا ما قاسيت وعاشوا عشرات السنين في الصحراء القاحلة، وأضناهم الجوع، واقتاتوا بالجراد والجذور. صحيح أن في وسعك أن تعتز بأبناء الحُرية هؤلاء الذِّين وهبوا لك محبتهم أحرارًا، وارتضوا طائعين مُختارين أن يضحوا في سبيلك بأنفسهم في صورة رائعة. ولكن تذكر أن هؤلاء ليسوا إلّا بضعة آلاف، أنهم أشبه بآلهة منهم ببشر. والآخرون؟ ما ذنب الآخرين إذا هم لم يستطيعوا أن يحتملوا ما احتمله هؤلاء الأقوياء من مِحن؟ هل تأثم النفس الضعيفة حين لا تعرف كيف تسمو إلى فضائل مُخيفة إلى هذًّا الحد؟ أتراك جئت إلى هذِّه الصفوة ومن أجل هذِّه الصفوة وحدها؟ أنت لا تُفكّر إلّا فيها ولا يخطُر ببالك ما عداها؟ إذا كان الأمر كذلك فهو سرّ يفوق ما نملُك من قدرة على الفهم، ومن حقنا في هذِّه الحالة نحن أيضًا أن نلجأ إلى السر، وأن نعلّم الجماهير أن الأمر الأساسي ليس هو المحبة ولا هو أن يقرر قلبهم تقريرًا حُرًا، وإنما هو السر الذِّي لا سبيل إلى معرفته والذي يجب عليهم أن يخضعوا له خضوعًا أعمى ولو عارضهم في ذلك ضميرهم. وهذا بعينه هو ما فعلناه. أصلحنا خطأ الذِّي ارتكبته حين عدلت ذلك العدول البطولي عن المعجزة، فبنينا عملك على ما هو فوق الطبيعة بنيناه مأثرتك، فبنيناها على المعجزة، والسر، والهيبة. وابتهج الناس إذ رأوا أنفسهم يُقادون من جديد كما يُقاد قطيع، ورأوا أنفسهم يتحررون من تِلكَ الهبة المشؤومة التي وهبتها لهم فكانت مصدر أنواع من العذاب قاسوها. قل: هل كنا على صواب حين فعلنا وعلّمنا على هذًّا النحو؟ هل يمكن أن يُؤخذ علينا حقًّا أننا لم نُحب الإنسانية حُبًا كافيًا، بينما نحن اعترفنا بوهنها في كثير من الإذعان والتسليم، وخففنا عنها الحِمل في كثير من المحبة والإلحاح حتى لقَدْ أبحنا لها أن ترتكب الخطيئة لعلمنا بضعف طبيعتها، شريطة أن تستأذنا في ذلك كل مرة؟ فلماذا تجيء الآن لتُعرقل عملنا؟ مالك تُحدّق إليّ هكذا صامتًا بعينيك الرقيقتين النفاذتين؟ أحرى بك أن تغضب. إنني لا أُريد محبتك، لأنني أنا نفسي لا أُحبك. ولستُ أحاول أن أخفي عنك ذلك لأني أعلم من ذا الذِّي أُخاطب، أليس كذلك؟ ثُمّ إنك تعرف كل ما قَدْ أقوله لك، أقرأ ذلك في عينيك. ففيم المواربة والحالة هذِّه؟ إن سرنا لن يخفي عنك فلعل ما تريده إذًا هو أن تسمع هذًّا السر من فمي؟ ليكن لك ما تريد ألّا فاعلم أننا لسنا معك، بل معه هو. ذلك هو سرّنا. إننا مُنْذُ زمن طويل قَدْ كففنا عن أن نكون معك، وتحيّزنا له هو. فمُنْذُ ثمانية قرون قبلنا منه ما سبق أن رفضته أنت مُستاء، أعني الهبة الأخيرة التي عرضها عليك وهو يُشير لك إلى ممالك الأرض [143]: لقَدْ قبلنا أن نأخذ من يديه روما وسيف القيصر، وأصدرنا قرارًا بأن نكون لهذا العالم ملوكه الوحيدين، رغم أننا لم نُنجز إلى الآن عملنا. ولكن من المُذنب في هذًّا؟ إن هذًّا المشروع ما يزال في أوله، ولكنه بُدئ. ولابُد من الصبر طويلًا قبل أن نصل به إلى غايته، ولابد من آلام كبيرة في هذِّه الحياة الدنيا، ولكننا سنبلُغ هدفنا وسنُصبح سادة الكون. وسيُتاح لنا عندئذ أن نُفكر في سعادة شاملة تنعم بها الإنسانية. لقَدْ كان في وسعك أن تقبل سيف القيصر حتى آنذاك، فلماذا رفضت تِلكَ الهبة الأخيرة؟ لو اتبعت الوصية الثالثة التي نصحك بها الروح القوي، إذًا لكان في وسعك أن تحقق كل ما يتمناه الإنسان، وهو أن يعرف: من يُطيع، وإلى من يعهد بقيادة ضميره، وبأي وسيلة يوحّد جميع البشر في مُجتمع كمجتمع النمل، واحد كبير مُنظم. ذلك أن الحاجة إلى الوحدة الشاملة هو ثالث عذابات النفس الإنسانية وآخِرها. إن الإنسانية قَدْ حاولت في جميع الأزمان أن تُنظم نفسها على أساس شامل. إن هناك أممًا كثيرة عظيمة كان لها تاريخ مجيد، ولكن شقاءها كان كبيرًا على مقدار نُبلها، لأنها أحست أكثر من غيرها من الشعوب بالحاجة إلى التوحيد الشامل للبشر. إن الغُزاة الكِبار، من أمثال تيمورلنك وجنكيز خان، الذِّي مروا على الأرض مرور إعصار مُخرب وعاصفة مُدمرة، كانوا يتوقون إلى أن يصبحوا سادة العالم بأسره، ولكن شوقًا عميقًا واحدًا إلى توحيد جميع الشعوب كان يُحركهم دون أن يشعروا بذلك. فلو أنك قبلت دنيا القياصرة ومقامهم، لكان في وسعك أن تبني المملكة الشاملة وأن تكفل السلام الشامل للإنسانية إلى الأبد. على من يقع عبء حكم البشر إن لم يقع على أُولَئكَ الذِّين يحكمون ضمائر البشر والذين يملكون خبزهم؟ لقَدْ أخذنا سيف القيصر إذًا، وإذا فعلنا ذلك فقد أنكرناك أنت لنتبعه هو. ستنقضي قرون طويلة من عربدة العقل البشري الحُر والعلم البشري وأكل لحوم البشر، ذلك أنهم ما داموا قَدْ شرعوا في بناء برج بابل بدوننا لابد أن ينحدروا حتمًا إلى أكل لحوم البشر. ولكن «الوحش» سيجيئ بعد ذلك إلينا زاحفًا، وسيُلعق أرجلنا التي سيُبلّلها بدموعه الدامية. وسوف نركبه، ونرفع نحو السماوات كأسًا نُقشت عليه هذِّه الكلمة: «السر!» ويومئذ إنما سيحل ملكوت السلام والسعادة للإنسانية. إنك فخور بصفوتك المختارة، ولكن الصفوة وحدها معك، أما نحن فسوف نعرف كيف نحمل الطمأنينة إلى جميع النفوس. وحتى بين أبناء هذِّه الصفوة المختارة، حتى بين هؤلاء الأقوياء، ما أكثر الذِّين كانوا يتطلعون إلى خدمتك، فانتظروك عبثًا، ثُمّ سئموا من هذًّا الصبر الطويل العقِيم، فوقفوا قوى فكرهم وحمَاسة قلبهم على غايات أخرى، وانتهى بهم الأمر إلى رفع راية حريتهم عليك! ألست أنت الذِّي أعطيتهم راية الحرية هذِّه؟ أما نحن الذِّين نهُشّ على البشر بعصانا، فإن البشر سيكونون سُعداء معنا، وسيعزفون عن التمرد علينا. ولن يُبيد بعضهم بعضًا كما يفعلون الآن في كل مكان بفضل الحرية التي تركتها لهم. وسوف نعرف كيف نُقنعهم من جهة أخرى بأنهم لن يكونوا أحرارًا إلّا متى تنازلوا عن استعمال حريتهم لصالحنا وخضعوا لنا. هل ما نقوله لهم هو الحقيقة أم هو كذب؟ إنهم لن يلبثوا أن يدركوا أنه هو الحقيقة، لأنهم سيتذكرون أموال العبودية والآلام التي قادتهم إليها حُريتك. إن الحرية والعقل المُتحرر، والعلم، إن كل ذلك سيؤدي بهم إلى غياهب وأدغال وسيضعهم أمام اضطراب وألغاز لا سبيل إلى حلها، زاخرة بالمعجزات المُحيِّرة. وأما العُصاة العنيفين منهم فسيدمرون أنفسهم بأنفسهم، وأما العُصاة الضِّعاف فسيقتُل بعضهم بعضًا. أما الباقون، بجمهرة الكبرى من الضِّعاف والأشقياء فإنهم سيزحفون على أقدامنا قائلين لنا: «أنتم على حق. إننا نعترف بهذا الآن، لأنكم كنتم وحدكم تملكون أسراره. نحن نعود إليكم. أنقذونا من أنفسنا!» وحين سيتلقون الخُبز من أيدينا، سيرون حق الرؤية أنهم هم الذِّين أنتجوه بعملهم، وأننا أخذناه منهم لنوزعه بعد ذلك بدون أية مُعجزة. سيفهمون أننا لم نقلب حجارة إلى خبز، ولكنهم سيغتبطون بأنه أُطعموا، وسيغتبطون أكثر من ذلك بأنهم أُطعموا على أيدينا: لن ينسوا قط أن الخبز الذِّي صنعوه كان، بدوننا، يتحول في أيديهم إلى حجارة، حتى إذا رجعوا إلينا تحولت الحجارة خبزًا لهم. سيعرفون كيف يقدّرون بعد الآن قيمة الخضوع النهائي! لم يكُن من الممكن أن تكون حياتهم إلّا شقاء، ما ظلوا لا يفهمون ذلك. فمن ذا الذِّي ساهم أكثر من غيره في قلة الفهم تِلكَ؟ من الذِّي خرّب تلاحم القطيع وبعثره في طرق مجهولة؟ ولكن القطيع سيتجمع من جديد، وسيعود إلى طواعيته، إلى الأبد في هذِّه المرة. وسوف نهب عندئذ لهذه الكائنات الضعيفة سعادة مُتواضعة وادعة هي السعادة الوحيدة التي تُناسبهم. سنعلمهم أخيرًا ألّا يزهوا بأنفسهم، لأنك قَدْ رفعتهم فجعلتهم بذلك مُتكبرين. سنُبرهن لهم على أنهم لا قوة لهم، وأنهم أطفال يُرثى لحالهم، ولكن سعادة الأطفال هذِّه هي أعذب سعادة. سوف يُصبحون خجولين، وسوف ينظرون إلينا نظرتهم إلى حُماة يحمونهم، وسوف يتراصون حولنا خائفين كما تتراص أفراخ الدجاجة حول أمها. سوف يُدهشهم ويُرعبهم أن يلاحظوا قوتنا، فخورين بأن لهم سادة يبلغون هذًّا المبلغ من القوة والذكاء، سادة عرفوا كيف يسيطرون على هذًّا القطيع البشري الهائج والذي لا يُحصى عدده. سوف يرتعشون خوفًا أمام غضبنا... سوف تتخدر عقولهم وتدمع أعينهم كالنساء والأطفال. ولكنهم، بإشارة منا، سوف ينتقلون بالسهولة نفسها إلى الفرح والمرح والغبطة، ضاحكين بهناءة، مُغنين كالصبية الصغار. وسنُجبرهم على العمل طبعًا، ولكننا سنهيئ لهم في ساعات فراغهم حياة أشبه باللعب، فيها أغان وجوقات وحتى رقصات بريئة. أوه! وسنسمح لهم أيضًا بأن يأثموا ما داموا ضِعافًا إلى هذًّا الحد من الضعف، وسيحبوننا كالأطفال بسبب تسامحنا. سنقول لهم إن كل خطيئة يُمكن التكفير عنها إذا هي أُرتكبت

بموافقتنا. سنُبيح لهم أن يأثموا لأننا نحبهم، أما العقاب فسنأخذه على عاتقنا، لا بأس... لسوف يحبوننا على أننا مُخلصون لهم، لأننا سوف نقبل أن نكون مسؤولين عن خطاياهم وذنوبهم أمام الرّب. ولن يكتموا عنا سرًّا. سنُبيح لهم أو نحظر عليهم، تبعًا لدرجة طاعتهم، أن يعيشوا مع نسائهم أو خليلاتهم، وأن ينسلوا أو ألَّا ينسلوا، وسيخضعون لتوجيهاتنا فرحين. سيفضون إلينا بأخفي ما يُضطرم في ضميرهم من أنواع العذاب. وسنفصل في جميع الحالات، وسيرتضون حلولنا سعداء، لأنها ستُحررهم من القلق العظيم والعذاب الرهيب الذّي يُعانيه المرء متى كان عليه أن يتخذ قرارًا ذاتيًا حرًا. وسيكون جميع الناس سعداء، جميع هؤلاء الملايين من البشر، باستثناء بضع مئات من الألوف الذّين سيقودونهم: سنكون وحدنا أشقياء، نحن الذّين نملك السرّ. سيكون في هذّا العالم مئات الملايين من الأطفال السُّعداء. لن يكون فيه إلّا مائة ألف من الأشقياء هم الذّين أخذوا على عاتقهم تحمل عذاب المعرفة، معرفة الخير والشر. وسوف يموت أُولَئكَ موتًا غامضًا ينطفئون باسمك وادعين مُسالمين، فلا يجدون في الحياة الآخرة إلّا العدم. ولكننا سنعرف كيف نحتفظ بسر الموت، ومن أجل سعادتهم سيتلألأ أمام أبصارهم جمال المكافآت السماوية والحياة الأبدية. لئن كان بعد القبر حياة أخرى فلا شك أن هؤلاء ليسوا من ستُوهب لهم تِلكَ الحياة الأخرى. إن النبوءات تزعم أنك ستعود في يوم من الأيام لتُحقق نصرًا جديدًا على الشر، وأنك ستظهر مُحاطًا بمن اصطفيت من أصحاب النفوس القوية المُتكبرة الذّين أنقذتهم. لسوف نُجيب عندئذ بأن هؤلاء إنما أنقذوا أنفسهم وحدها، أما نحن فقد جئتنا بالخلاص للناس كافة. يُقال إن الزانية الدنيئة التي تركب «الوحش»[144] وتحمل بيديها كأس السر، سيُجلّلها الخزي والعار ذات يوم وإن الضِّعاف سيثُورون من جديد فيمزقون الدّين الكاذب رداءها الكاذب الفخم ويعرّون جسدها «النجس». ولكنني سأنهض عندئذ فأشير لك إلى تِلكَ المليارات من الأطفال السعداء الذّين يجهلون كل خطيئة، ونحن الذّين نكون قَدْ أخذنا على عاتقنا أخطاءهم لنُحقق سعادتهم، سوف نُمثل أمامك ونقول لك: «احكم علينا إذا كنت تستطيع، إذا كنت تجرؤ». ألّا فاعلم أنني لا أخشاك. ألّا فاعلم أنني عشت أنا أيضًا في الصحراء أقتات بالجراد وجذور النبات، وأنني باركت الحُرية التي وهبتها للبشر. وكنت أتهيأ لأن أدخل سلك صفوتك المختارة، وأن أكون واحدًا من الأقوياء المُتكبرين الذّين يتألف منهم جيش أتباعك الصغير، وكنت أحترق شوقًا إلى أن «أُكمل عددهم». ولكنني رجعت إلى صوابي في الوقت المناسب، فأصبحت لا أريد أن أخدم عقيدة طائشة. لقَدْ عُدت عن الخطأ والضلال وانضممت إلى صف أُولَئكَ الذّين يعملون في إصلاح مأثرتك. تركت صفوف المتكبرين، وانضممت إلى الوديعين لأعاون في تحقيق سعادتهم. إن ما أعلنه لك اليوم سيتحقق، وإن مملكتنا ستُبنى في هذّا العالم. أعود فأكرر لك: إنك سترى غدًا هذّا القطيع الطيّع يُسرع بإشارة مني إلى إضرام ألسنة اللّهيب التي ستُحرق بها مزيدًا من الإضرام بإضافة فحم مُتقد إلى النار. ذلك أنني سآمر بحرقك لأُعاقبك على أنك جئت تُعرقل عملنا. لئن وُجد أحد يستحق أن يهلك في النار فهو أنت. غدًا ستُحرق. أنهي كلامي[145].

صمت إيفان. كان قَدْ تحمس أثناء الكلام، فختم قصته بنوع من الاندفاع الجامع حتى إذا فرغ من حديثه ظهرت على شفتيه ابتسامة على حين فجأة.
وقد أصغى إليه أليوشا صامتًا، ولكنه في أواخر الحديث حاول مرارًا، وقد استبدّ به اضطراب داخلي عنيف، أن يُقاطع أخاه. ومع ذلك فقد كبح جماح نفسه حتى النهاية، وها هو ذا الآن يدع لنفسه أن تنفجر تعبيرًا عن استيائه. صاح وهو يكاد يثب عن مقعده وقد احمر وجهه احمرارًا شديدًا:
- ولكن... هذّا سخافة!... إن قصيدتك تمدح المسيح في الواقع بدلًا من أن تُخزيه كما كنت تُريد فيما يبدو. من ذا الذّي يقبل تأويلك هذّا للحرية؟ أهكذا يجب أن تُفهم الحرية؟ إن الكنيسة الأرثوذكسية لا تتصوّر الحرية أبدًا على طريقتك هذّه... إنك تعرض تصوّر الذّين يدينون بالكاثوليكية الرومانية، بل إن هذّا التصوّر ليس تصوّر جميع الكاثوليكيين - ذلك خطأ! - وإنما هو تصوّر أشرارهم فحسب، هو تصوّر أعضاء محاكم التفتيش واليسوعيين!... ثُمّ إن صاحبك المُفتش الأكبر رَجُل لا صلة له بالواقع، وإنما هو شخصية خيالية لا يمكن وجودها. ما هي خطايا البشر التي يدّعي أنه أخذها على عاتقه؟ أين رأيت حملة السر هؤلاء الذّين يُزْعَمُ أنهم ارتضوا لا أدري أي عذاب في سبيل سعادة الإنسانية؟ أين وُجد هؤلاء؟ إننا نعرف اليسوعيين. لقَدْ قيل فيهم سوء كثير، ولكن هل هم يشبهون حقًا الصورة التي ترسمها لهم؟ إنهم ليسوا كذلك البتة... كل ما هُنالك أنهم يمثلون جيش الكنيسة الرومانية من أجل أن يغزوا في المستقبل ملكوت الأرض الشامل الآتي التي سيرأسها حِبر روما برتبة إمبراطور... ذلك هو مثلهم الأعلى، وهو لا يشتمل على سر ولا على ذلك الحزن النبيل الذّي لا يُفهم... إنه الظمأ إلى السيطرة والتسلط، إنه شهوة الفوز بخيرات الأرض الحقيرة، إنه الرغبة في استعباد الناس... إنهم يحلمون بالعودة إلى نوع من نظام القنانة يكونون فيه هم المالكين والمنتفعين... ذلك هو طموحهم كله! ولعلهم لا يؤمنون حتى بالله... ليس صاحبك المفتش وليس عذابه إلّا خيالا محضًا...
قَال إيفان ضاحكًا:
- لحظة، لحظة... لماذا تتحمس؟ ثمرة من ثمرات خيالي؟ لا أُعارض في هذّا، ذلك كله خيال طبعًا. ولكنني أرجو أن تسمح لي بإلقاء هذّا السؤال: هل تعتقد حقًا بأن الحركة الكاثوليكية في القرون الأخيرة لم تستلهم إلّا الظمأ إلى السلطة وإلّا شهوة الخيرات المادية الحقيرة؟ لا شك أن الأب بائيسي هو الذّي قَال لك هذّا الكلام!
- بالعكس! إن الأب بائيسي قَدْ قَال لي في يوم من الأيام كلامًا يُشبه كلامك تقريبًا...
- كذلك قَال أليوشا، ولكنه ما لبث أن أسرع يقول مُستدركًا:
- أعني... إنه لم يقُل ما قُلته أنت بعينه البتة....
قَال إيفان:
- اسمع، اسمع. هذّا اعتراف له شأنه رغم قولك «لا يُشبه البتة»! كيف تستطيع أن تُصدّق أن أُولَئكَ المفتشين وأولئك اليسوعيين الذّين تتكلم عنهم قَدْ اتحدوا وتنظموا لا لشيء إلّا لامتلاك الخيرات الماديّة الحقيرة؟ لماذا لا يكون قَدْ وجد بينهم في يوم من الأيام ولو إنسان واحد من الصفوة المُختارة يُعذّبه ألم نبيل ويستبدّ به حب الإنسانية؟ افرض أنه قَدْ وُجد ذات يوم، في عداد هؤلاء الطامعين الظامئين إلى المباهج الأرضية السافلة رَجُل واحد، رَجُل واحد شبيه بصاحبي المُفتش الأكبر عاش في الصحراء مثله واقتات بالجراد وجذور النبات وأضنى جسده وأماته في سبيل الوصول إلى الحرية وإلى الكمال. تخيل أن هذّا الرّجُل قَدْ أحبّ الإنسانية طوال حياته واقتنع أخيرًا بأن السعادة النفسية التي حُريّة الروحي الإرادة إنما هي وهم باطل ما دامت حياة ملايين البشر الآخرين، وهم مخلوقات إلهية مثله، ليست إلّا سخرية لاذعة مُرة، وأنهم لن يستطيعوا أبدًا أن يتصرفوا بحريتهم، وأن هؤلاء العُصاة المساكين لن يكونوا في يوم من الأيام عمالقة قادرين على إكمال بناء البرج... أي أنهم لن يصلوا في يوم من الأيام إلى حريتهم، وأن حُلم الانسجام والتناسق الذّي حلم به المثالي الكبير لم يخلق لهذا النوع من الأوز!... تخيل أن هذّا الرّجُل قَدْ أدرك ذلك، فعاد إلى صوابه، وانضم إلى الناس الأذكياء... أهذا في رأيك افتراض مُستحيل؟
قَال أليوشا فيما يُشبه الحدة:
- إلى من انضم؟ من هم هؤلاء الناس الأذكياء؟ انهم لا ذكاء لهم البتة، وليس عندهم سر ولا ما يُشبه السر! هؤلاء زنادقة... ذلك سرّهم كله! إن صاحبك المُفتش لا يؤمن بالله... ذلك سرّه كله!
- لنُسلّم بهذا. لقَدْ فهمت أخيرًا. صحيح، أنه أصبح لا يؤمن بالله، ذلك كل سرّه. لكن أليس هذّا عذابًا بالنسبة إلى رَجُل مثله ضيّع حياته كلها في مأثرة الصحراء ثُمّ لم يستطع أن يبرأ من حبه الإنسانية؟ لقَدْ رأى في أواخر أيامه بوضوح أن النصائح التي أسداها الروح الرهيب الكبير تستطيع وحدها أن تُنظم على نحو مقبول بعض الشيء حياة العُصاة الضِّعاف، حياة هذّه «المخلوقات الناقصة التي كانت للخالق تجربة، وظفرت بالحياة سهوًا وغفلة». فلما اقتنع بهذه الحقيقة أدرك أن من الواجب اتباع الطريق الذّي نصح به الروح الذكي، الروح الرهيب، روح الموت والخراب. وإذا كان منطقيًا مع نفسه، فقد أقرّ ضرورة الكذب على الناس وتضليلهم وخداعهم، بُغية السير بهم إلى الموت وإلى العدم سيرًا واعيًا، ولكن مع ترك أوهامهم لهم طوال الطريق، حتى لا يكتشفوا إلى أين يُسار بهم. فبهذه الطريقة يستطيع هؤلاء العميان المساكين أن يتوهموا على الأقل أثناء رحلتهم على الأرض أنهم سُعداء. لاحظ أنه يرى نفسه مُضطرًا إلى مُقارنة هذّا الكذب باسم ذلك الذّي كان مثلًا أعلى له والذي آمن به إيمانًا مشبوبًا طوال حياته. أفليس هذّا عذابًا؟ إلّا إنه لو اتفق أن وُجد على مرّ العصور رَجُل واحد من هذّا النوع بين صفوف هذّا الجيش «الظامئ إلى السيطرة وإلى اللذات الماديّة الدنيئة»، لكان في هذّا ما تُخلق منه مأساة حقة! أكثر من ذلك، يكفي أن تُوجد شخصية واحدة من هذّا النوع على رأس الكنيسة حتى تُوهب للكاثوليكية الرومانية روح وحتى تنفخ فكرة موجّهة في فرقها الكثيرة وجماعاتها المُتعددة وكهنتها ويسوعييها، فكرة عليا. أقول لك بصراحة: إنني على يقين من أن رجالًا من هذّا النوع قَدْ وُجدوا في جميع الأزمان بين قادة الكاثوليكية الرومانية، وربما وُجد منهم بين الباباوات أنفسهم. ومهما يكن من أمر، فإن ذلك العجوز اللعين الذّي يُصرّ ذلك الإصرار كله على حبّ الإنسانية على طريقته يمكن أن يُوجد في أيامنا هذّه، مع عدد من أمثاله، وألّا يكون وجوده هذّا مع أمثاله نتيجة مُصادفة، بل ثمرة تفاهم واتفاق، وأن يكون نوعًا من جمعية سرية أُنشئت مُنْذُ زمن طويل للمُحافظة على السر وإخفائه عن أنظار الضُّعفاء والبؤساء، وتأمين سعادتهم بذلك. لابد أن يكون الأمر كذلك حتما. هذّا أمر لا مناص منه ويبدو لي من جهة أخرى أن الماسونيين لابد أن يكون لهم هم أيضًا سرّ من هذّا النوع يقوم عليه تنظيمهم[146]. ولعلّ هذّا هو السبب فيما يحمله لهم الكاثوليكيين من كُره وبُغض، فهم يرون فيهم

منافسين لهم يُسيئون إلى وحدة الفكرة، بينما يجب ألّا يكون هناك إلّا قطيعٍ واحد وراعٍ واحد... ولكني ألاحظ أنني في دفاعي عن فكرتي أظهر بمظهر مؤلف عاجز عن احتمال نقدك. كفى هذًا...
لم يستطع أليوشا أن يمنع نفسه عن أن يسأله في تِلكَ اللحظة:
- أتُراك تنتمي إلى الماسونيين؟
ثُمَ أضاف يقول:
- أنت لا تؤمن بالله.
ولكنه أضاف هذّه العبارة بلهجة تنُم عن حزن عميق في هذّه المرة. حتى لقَدْ بدا له أن أخاه ينظر إليه وقد لاح في وجهه السخر.
وسأله فجأة وهو خافض عينيه:
- كيف تنهي قصيدتك؟ أهي تقف عند هذًا الحد؟
- خطر ببالي أن أختمها على النحو التالي: صمت كبير المفتشين ينتظر من سجينه ردًا. إن صمت السجين قَدْ ثقل على نفسه. لقَدْ اقتصر أسيره طوال مُدة كلامه على أن يُحدّق إليه بنظرة رقيقة نافذة، عازمًا عزمًا واضحًا على ألّا يدخل في مُناقشة معه. كان العجوز يرغب في أن يُجيبه السجين ولو بكلمات لاذعة أو رهيبة. ولكن السجين لم ينطق بكلمة واحدة. وهذا هو يقترب من العجوز فجأة فيطبع قبلة رقيقة على شفتيه الشاحبتين شحوب شفتي من بلغ من عمره التسعين. كان ذلك كل جوابه. ارتعش العجوز، واختلج شيء ما في طرفي فمه. واتجه نحو الباب ففتحه وقال لسجينه: «اذهب الآن، ولا تعُد بعد اليوم أبدًا، أبدًا!»، وأومأ له بيده إلى «الشوارع المُظلمة المُقفرة من المدينة»[147]. وانصرف السجين.
- والعجوز؟
- حرقت القُبلة قلبه، ولكنه لم يعدُل عن فكرته.
- التي هي فكرتك أيضًا، أليس كذلك؟
بهذا صاح أليوشا يقول في مرارة. فأخذ إيفان يضحك. وقال:
- ما بك يا أليوشا؟ ما هذًا كله بجد. هي قصيدة سخيفة ألفها طالب بليد لم يكُن في يوم من أيام حياته قادرًا على أن يُسطر بيتين من الشعر. فلماذا تُوليها هذًا الشأن كله؟ أتُراك ستظن أنني ذاهب إلى الخارج لأنضم إلى هؤلاء اليسوعيين ولأنخرط في صفوف أولَئكَ الذّين يدعون «إصلاح ما قام به المسيح؟» فيم يعنيني هذًا كله؟ لقَدْ سبق أن قُلت لك إن كل ما يعنيني هو أن أديم ابتهاجي إلى الثلاثين من العمر ثُم أرمي الكأس!
هتف أليوشا يقول مُمتلئًا مرارة:
- ووريقات الربيع الغضة، ماذا أنت صانع بها؟ والقبور العزيزة عليك، والسماء الزرقاء، والمرأة التي تُحب؟ كيف ستعيش إذًا، وأين ستجد القدرة على أن تظل تُحب؟ إنك بهذه الأفكار الجُهنمية في رأسك وفي قلبك لن تستطيع ذلك! بل بلى... إنك مُسافر إلى الخارج لتنضم إليهم، وإلا فستقتُل نفسك... إنك لن تصمُد!
قَال إيفان ببطء وهو يبتسم ابتسامة باردة:
- في نفسي قوة ستُتيح لي أن أصمد لكل شيء!
- أي قوة؟
- قوة آل كارامازوف... قوة الحِطة والخِسّة في آل كارامازوف!
- ماذا إذًا، أتغرق في العُهر والفُجور، أتخنق الروح في حضيض الجسد؟ أهذا ما تُفكر فيه؟
- ربما... ولكنني سأعرف كيف أتحاشى ذلك حتى الثلاثين من العمر. وبعدئذ...
- ستعرف كيف تتحاشى ذلك؟ كيف؟ هذًا مُستبعد ما دامت أفكارك هي هذّه الأفكار.
- بل سأعرف كيف سأتحاشاه، وذلك على طريقة آل كارامازوف أيضًا.
- أتعني القول بأن «كل شيء مُباح». كل شيء مُباح متى اتفق مع المصلحة، أليس كذلك؟
قطب إيفان حاجبيه وشحب لونه شُحوبًا غريبًا. وقال:
- آه! أأنت تُلمح إلى الفكرة التي عبرت عنها أمس عند شيخك، فكانت أن أثارت استياء ذلك الشهم ميوسوف... تِلكَ الفكرة التي تلقفها دمتري فصاغها تِلكَ الصياغة الساذجة المفرطة في السذاجة؟ أضاف إيفان ذلك وهو يبتسم ابتسامة مُتكلفة)... ليكن! هو كذلك على وجه الإجمال! «كل شيء مُباح»! قلت ذلك ولن أنقضه. أما صياغة ميتيا فليست رديئة هي الأخرى.
نظر إليه أليوشا صامتًا.
واستأنف إيفان كلامه يقول بانفعال مُباغت:
- كنت أُحدِّث نفسي يا أخي بأنني سأحتفظ حين أُسافر بإنسان واحد يُحبني على الأقل، ولكنني أُلاحظ الآن أن ليس لي في قلبك مكان يا عزيزي المُعتزل. أنا لن أُنكر فكرتي القائلة بأن «كل شيء مُباح»، ولكنك أنت ستُنكرني بسبب هذّه الفكرة، إذا صدق فهمي، أليس كذلك؟
نهض أليوشا واقترب من أخيه، وطبع على فمه قبلة رقيقة دون أن يقول شيئًا.
هتف إيفان يقول في حماسة:
- هذًا سطو أدبي! لقَدْ سرقت الفكرة من قصيدتي! شكرًا شكرًا على كل حال. انهض يا أليوشا. آن أوان الانصراف، لي ولك على السواء.
خرج الأخوان ولكنهما توقفا على درجات باب الحانة. قَال إيفان بصوت جازم:
- اسمع يا أليوشا... إذا بقي في نفسي من الحياة ما يكفي لأن أُحبّ وريقات الربيع النضرة، فسيكون هذًا بفضل ذكراك. سوف يكفيني في ساعات الكمد واليأس أن أتذكر أنك ما تزال تحيا في مكان ما حتى أسترد حُبّ الحياة. هل يُرضيك هذًا؟ عُدّه تصريح حُبّ إن شئت. والآن.... إن طريقينا يفترقان. ستمضي أنت يُمنة، وسأمضي أنا يُسرة. كفى ثرثارات، هل فهمت؟ وحتى إذا لم أُسافر غدًا (وأنا أعتقد أنني سأسافر)، فالتقينا مرة أخرى، فلا تعُد إلى هذّه المسائل التي ناقشناها اليوم، أرجوك. حذارِ من كلمة واحدة في هذًا الموضوع. ولا تُكلمني أيضًا عن دمتري في المستقبل، إنني أطلب منك هذًا جازمًا قاطعًا. والأفضل ألّا تُكلمني بعد الآن قط (كذلك أضاف يقول بعصبية مُباغتة). لقَدْ استنفدنا كل ما كان علينا أن نقوله، أليس هذًا صحيحًا؟ وفي مُقابل ذلك فإنني أقطع لك هذًا الوعد: حين سأُقرر في الثلاثين من العمر أن «أرمي الكأس»، فسوف أجيء لأراك مرة أخرى أينما كنت... سآتي ولو من أمريكا... سأجيئ إليك فنتناقش من جديد... في وسعك أن تُعوّل على هذًا. سأقوم برحلة خاصة لهذا الغرض. سيشوقني أن أراك عندئذ وأن أعرف ما الذّي صرت إليه. ذلك عهد أقطعه على نفسي. وقد لا نلتقي قبل انقضاء سبع سنين أو عشر سنين. اذهب الآن. أسرع إلى صاحبك الأب سيرافيكوس[148]. لأنه يحتضر. فاذا مات في غيابك فقد تحقد عليَّ لأنني أخّرتك. إلى اللقاء. قبلني أيضًا... هكذا... والآن اذهب...
تركه إيفان وسار في طريقه دون أن يلتفت. إن هذًا الانصراف المباغت يذكّر بالطريقة التي تركه بها أخوه دمتري أمس، رغم أن الظروف مُختلفة بعضها عن بعض كل الاختلاف. مسّ هذًا التشابه الغريب فكر أليوشا مسًّا خاطفًا جدًا، فشعر فجأة بحزن وإرهاق. لبث في مكانه بعض الوقت يُتابع ببصره أخاه الذّي كان يبتعد. لاحظ، دون أن يعرف لماذا لاحظ ذلك في تِلكَ اللحظة، أن مشية إيفان كانت مُتمايلة بعض التمايل وأن كتفه اليُمنى تُرى من الظهر أخفض من الكتف الأخرى. إنه لم يلاحظ هذًا يوما من قبل. وأخيرًا استدار هو أيضًا واتجه نحو الدير مُسرعا يكاد يركض ركضًا. كان الظلام قَدْ هبط. شعر أليوشا بخوف غامض يجتاحه. لقَدْ نبت في نفسه إحساس لم يستطع أن يستبين طبيعته. هبت الريح كما هبت في الليلة البارحة. وغمرته أشجار الصنوبر التي تبلغ السنة المائة من أعمارها، غمرته بحفيف شجي حزين حين دخل غابة المنسك. كان يركض الأب سيرافيكوس. أين تراه وجد هذًا الاسم؟ كذلك تساءل أليوشا - إيفان، أخي المسكين، متى عسى أراك؟... هذًا هو المنسك. آه... يا رب! نعم نعم، سوف يُنقذني الأب سيرافيكوس سوف يُنقذني منه إلى الأبد!
سوف يتساءل أليوشا مرارًا أثناء حياته، في دهشة عميقة، كيف أمكنه في ذلك اليوم، بعد أن ترك أخاه إيفان. أن ينسى نسيانًا تامًا أخاه دمتري، مع أنه كان قَدْ عزم عزمًا أكيدًا قبل ذلك ببضع ساعات على أن يعثر عليه مهما كلف الأمر، ولو اضطر في سبيل ذلك أن يعدُل عن الذهاب إلى الدير في تِلكَ الليلة.

-6-حيث لا سبيل إلى الفهم بعد

اتجه إيفان فيدرورفتش، بعد أن ودّع أليوشا، إلى مسكنه أي إلى منزل أبيه فيدور بافلوفتش. ولكن الشيء الغريب هو أنه شعر فجأة بحزن لا يُطاق، يغزو نفسه ويزداد على قدر اقترابه من بيته. وليس الحزن الذِّي يشعر به هو الذِّي يدهشه، وإنما يدهشه أنه لا يستطيع أن يحدد له سببًا. لقَدْ سبق له كثيرًا في الماضي أن أحس بحزنٍ يستولي على نفسه، ولا غرابة في أن يكون حزينًا في هذِّه اللحظة التي يتهيأ فيها للسفر، بعد أن قطع فجأة صلته بكل ما يشده إلى هذِّه المدينة، أن ينعطف انعطافًا شديدًا ويسير في اتجاه جديد يجهله كل الجهل. سوف يكون وحيدًا من جديد، وحيدًا كل الوحدة كما كان من قبل، مع آماله العريضة الواسعة، دون أن يعرف علامَ يعقدها، مع انتظاره من الحياة لأشياء كثيرة، لعلها مُسرفة في الكثرة، دون أن يرى هذِّه الآمال وحتى هذِّه الأشواق رؤية واضحة. غير أن الشيء الذِّي يعذبه في هذِّه اللحظة ليس هو تِلكَ الخشية من مُستقبل غير مُحدد، رغم أن هذِّه الخشية قائمة في نفسه، تساءل قائلًا «أتراه هو الاشمئزاز الذِّي يوقظه في نفسي منزل أبي؟ لكأنني قَدْ بلغت من كره هذًّا المنزل أنني لا أستطيع التغلب على التقزز من الذهاب إليه رغم علمي بأنني أجتاز عتبته آخر مرة... ولكن لا... لا... ليس هذًّا سبب الإرهاق الذِّي أشعر به الآن. أهو إذًا وداع أليوشا والحديث الذِّي جرى بيننا؟ لقَدْ أصررت على الصمت سنين طويلة، لا أتنازل أن أفتح فمي بكلمة الإنسان، ثُمّ ها أنا ذا أخرج جميع تِلكَ السخافات «دفعة واحدة». صحيح أن من الجائز أن يشعر لقلة تجربته وشدة غروره، غرور المراهق، بشيء من الحسرة والأسف على أنه لم يستطع أن يُعبّر عن نفسه كما كان يتمنّى أن يُعبّر، ولا سيما أمام إنسان كأليوشا ينتظر منه في قرارة نفسه أشياء كثيرة. لا شك أن في نفسه الآن شيئًا من الحسرة والأسف، ذلك لا بد منه... ولكن ليس هذًّا ما يُثقِلُ صدره الآن ويخنقه خنقًا... هناك شيء آخر... ولكن ما هو؟ «إن غمًّا يملأ جوانب نفسي حتى ليكاد يُثير غثياني، ولست أصل إلى معرفة ما يعوزني ومعرفة ما أريد، لعل الأفضل ألَّا أُفكر في هذًّا الأمر».

حاول إيفان فيدوروفتش أن «لا يُفكر في هذًّا الأمر»، ولكنه لم يفلح. إن الغمّ الذِّي يشعر به يتميز بهذا الطابع المثير وهو أن مصدره علة خارجية عرضية طارئة. إن إيفان يُحسّ ذلك إحساسًا واضحًا. إن الأمر أمر شيء أو شخص - لا يدري إيفان على وجه الدقة - لا يُطاق وجوده في نظر إيفان. أن إيفان يحسّ بضيق شبيه بالضيق الذِّي يثيره في النفس أحيانًا، أثناء العمل أو أثناء حديث حار، وجود شيء مُزعج لم يره المرء رؤية واعية بعد، ولكنه يغتاظ منه وحتى يتعذب به، إلى أن يخطر بباله أخيرًا أن يُزيح سبب هذًّا الانزعاج الذِّي كثيرًا ما يكون سببا تافهًا مُضحكًا: شيئًا ليس في مكانه، منديلًا ساقطًا على الأرض، كتابًا نُسي وضعه في المكتبة، الخ. بلغ إيفان منزل أبيه أخيرًا، مُعتكر المزاج جدًا، مُهتاج الأعصاب اهتياجًا شديدًا. وحين أصبح على مسافة خمس عشرة خطوة من باب الحديقة الحديدي ألقي نظرة على البوابة فأدرك على حين فجأة ما كان يخنقه ويعذّبه طوال الطريق. كان الخادم سمردياكوف جالسًا على دكّة قُرب البوابة يتمتع بطراوة الجو في المساء. فما إن لمحه إيفان فيدرورفتش حتى أدرك أن صورة هذًّا الخادم كانت قَدْ لازمت خياله على غير علّم منه، فكان يضيق ذرعًا بها ولا يُطيقها. لقَدْ اتضح كل شيء. فحين كان أليوشا يحدثه، في الحانة عن اجتماعه بالخادم، شعر إيفان وكأن شيئًا كئيبًا وكريهًا ينغرز فجأة في قلبه مُثيرًا فيه ردة فعل غاضبة وخانقة على الفور. ولقد انقطع عن التفكير في سمردياكوف أثناء الحديث الذِّي أعقب ذلك، غير أن غيظًا ثقيلًا قَدْ بقي في قلبه، فلما ترك أليوشا واتجه إلى منزل أبيه استيقظ فيه ذلك الإحساس بالانزعاج دون أن يستطيع الاهتداء إلى أصله. تساءل إيفان مُحتدًا: «كيف يُمكن أن يُقلقني هذًّا الجرو الغبي مثل هذًّا الإقلاق؟».

والواقع أن إيفان فيدرورفتش كان قَدْ كره هذًّا الرَّجُل مُنْذُ زمن، ولا سيما في الأيام الأخيرة. وكان يُدرك هو نفسه أن العداوة التي يشعر بها نحو هذًّا الإنسان تشبه أن تكون بغضًا ومقتًا. ولعل عداوته قَدْ استفحلت واحتدت لأن موقف إيفان فيدروفتش من الخادم كان عند وصوله إلى مدينتنا يختلف عن هذًّا الموقف كل الاختلاف. لقَدْ أظهر إيفان فيدروفتش في ذلك الوقت شيئًا من الاهتمام الخاص بالخادم، حتى لقَدْ عدّه شخصًا طريفًا كل الطرافة، وشجعه على أن يتحدث إليه، دون أن يفوته مع ذلك ما كان في أحاديث هذًّا الرَّجُل من بعض التفكك، أو قَل من بعض القلق في عقله، وكان إيفان يتساءل: تُرى ما الذِّي يهزّ فكر هذًّا «المُتأمل» على هذًّا النحو بغير انقطاع؟ لقَدْ عالجا موضوعات فلسفية، وناقشا، فيما ناقشا، مسألة الضياء من أين جاء في أول يوم من أيام خلق العالم ما دامت الشمس والنجوم والقمر لم تُخلق إلَّا في اليوم الرابع من أيام الخلق؟ وتساءلا: كيف يُمكن تأويل هذِّه الآية من التوراة؟ ولكن إيفان فيدوروفتش لم يلبث أن لاحظ أن سمردياكوف لا يعبأ بالشمس والنجوم والقمر كثيرًا وأن مسائل الشمس والنجوم والقمر لا تعنيه كثيرًا وإن تكن جذابة. كان واضحًا أن ما يشغل باله ويملأ رأسه هو غير هذًّا تمامًا. وشيئًا فشيئًا ظهرت أنانيته وظهر غروره، يُفاقمهما أنه سريع التأذي على ادعاء وتبجح. فهذه الخصال لم تُعجب إيفان، وولّدت نفوره منه وكرهه له، وبعد ذلك، حين انبثقت المشاجرات العائلية المعقدة بظهور جروشنكا، وقامت المنازعات بين دمتري وأبيه، أُتيح لإيفان أن يتحدث عن هذِّه المصاعب مع الخادم، فكان يستحيل عليه، رغم أن سمردياكوف كان يتكلم عن هذِّه المشكلات دائمًا بانفعال شديد، أن يُدرك ماذا كان يُريد الخادم أن يقول، وما هو الشيء الذِّي يتمناه هو نفسه. إن ما يلمحه المرء في رغباته من بعد عن المنطق والرشاد، على نحو غامض، يُثير الدهشة والاستغراب. كان سمردياكوف يستوضح كثيرًا، ويُلقي بعض الأسئلة مُواربًا، لغرض في نفسه من غير شك، ولكن دون أن يفصح عن هذًّا الغرض، وكان يصمت فجأة في بعض الأحيان أو ينتقل إلى موضوع آخر في وسط الكلام. ولكن إيفان إنما أصبح يحنق منه خاصة أن سمردياكوف قَدْ أخذ يرفع الكُلفة بينه وبينه، فهو يُخاطبه في غير تحرُّج، وهو يُمعن في ذلك مزيدًا من الإمعان يومًا بعد يوم. وقد ولّد هذًّا الموقف في نفس إيفان نفورًا شديدًا وعداوة حاسمة وكراهية قاطعة. ليس معنى ذلك أن سمردياكوف يُجيز لنفسه ألَّا يكون مُؤدبًا مُهذبًا مع إيفان. بالعكس: لقَدْ كان يصطنع في مخاطبته كثيرًا من الاحترام. ومع ذلك فقد انتهت الأمور بالخادم إلى حيث اعتقد، لا ندري لماذا، أنه مُتضامن مع إيفان فيدوروفتش. فهو يتحدث إليه بطريقة خاصة، كأن بين الرجلين تفاهمًا مُضمرًا سريًا، وتواطؤًا قائمًا مُنْذُ زمن طويل، وروابط لا يعرفها أحد غيرهما ولا يفهمها من يُحيط بهما. ولقد لبث إيفان فيدوروفتش مدة طويلة لا يفهم السبب الحقيقي الذِّي يُثير حنقه المتزايد، ثُمّ لم يدركه إلَّا مُنْذُ بضعة أيام. أراد إيفان، وقد استبد به الاشمئزاز والغضب، أن يجتاز الباب دون أن يبدو عليه أنه رأى سمردياكوف. ولكن سمردياكوف نهض عن دكته، فأدرك إيفان من وضعه أنه يُريد أن يُحدثه حديثًا خاصًا. نظر إليه إيفان وتوقف. وما أشد ما أحنقه توقفه هذًّا! لقَدْ كان ينوي مُنْذُ لحظات قليلة أن يمرّ دون توقف، فلما رأى نفسه يتوقف شعر بغيظ شديد! وأخذ ينظر بكراهية حاقدة إلى هذًّا الوجه الهزيل الذِّي يُشبه وجوه الخصيان، وإلى هذًّا الشعر المُصفف بكثير من العناية على الصدغين، والى تِلكَ الذؤابة المنتصبة على الرأس. وكانت عين سمردياكوف اليُسرى الضيقة قليلًا، تغمز غمزة ماكرة، فكأنها تقول: «قف، لن أدعك تمر. إلَّا ترى أن هناك كلامًا يجب أن نتبادله نحن معشر الأذكياء؟».

ارتعد إيفان غضبًا، وتمنى لو يصيح قائلًا: «امض أيها الجرو! أأنا من يكون صاحبًا لرجلٍ أبله من نوعك؟» فما كان أشد دهشته حين رأى نفسه يُخاطبه بطريقة تختلف عن هذِّه الطريقة كل الاختلاف:

- أما يزال أبي نائمًا أم أنه استيقظ؟

كذلك سأله برقة فيها إذعان وتسليم أدهشاه هو نفسه، وعلى هذًّا النحو نفسه الذِّي لم يكُن في الحسبان أيضًا، رأى نفسه يجلس على الدكة. وقد تذكر فيما بعد أن ذلك كاد يُرعبه في اللحظة الأولى. كان سمردياكوف واقفًا أمامه، جاعلًا يديه وراء ظهره، ينظر إليه نظرة فيها ثقة بل وفيها صرامة. وقال دون تعجُل (كأنه يريد أن يقول: «لست أنا، بل أنت الذِّي تُبادرني بالكلام»):

- إنه ما يزال يرتاح.

- وأردف سمردياكوف يقول بعد صمت، وهو يغض عينيه في تصنع، ويقدم رجله اليُمنى، ويهز رأس حذائه الملمّع:

- هل تعلم أنك تُدهشني يا سيدي؟

فأجابه إيفان فيدوروفتش بلهجة خشنة قاسية، وهو يُحاول أن يسيطر على نفسه، قائلًا:

- ما الذِّي يُدهشك؟

ولكن إيفان شعر في الوقت نفسه، على اشمئزاز وتقزز، إن في نفسه استطلاعًا قويًا لن ينصرف قبل أن يُرضيه.

واستأنف سمردياكوف كلامه قائلًا وهو يرفع عينيه، ويبتسم في أُلفة:

- لماذا لم تُسافر يا سيدي إلى تشرماشنيا؟ [149] .

وكانت عينه اليُسرى كأنها تقول: «ما دُمت ذكيًا هذًّا الذكاء كله فيجب أن تفهم سبب ابتسامتي؟»..

قَال إيفان فيدوروفتش مُتعجبًا:

- لأي غرض أذهب إلى تشرماشنيا؟

فصمت من جديد، ثُمّ أجابه أخيرًا:
- لقَدْ رجاك فيدور بافلوفتش أن تُسافر إليها في كثير من الإلحاح.
كان سمردياكوف يتكلم ببطء كأنه لا يُولي جوابه هذًا أي اهتمام. فكأنه يقول له: «إنني أُجيبك بأي شيء، بأول جواب يخطُر على بالي، لا لهدف إلّا أن أقول شيئًا ما.»
صاح إيفان فيدوروفتش غاضبًا، مُنتقلًا من الإذعان إلى الغلظة بدون تدرّج:
- ما هذِّه الأساليب الغامضة الملتوية. هلا تكلمت بوضوح؟ ماذا تُريد؟
رد سمردياكوف قدمه اليُمنى نحو قدمه اليُسرى، ونصب قامته، ولكنه لم يتخلّ عن هدوئه، وظل يبتسم.
- ليس هناك أي شيء هام.... وإنما تكلمت هكذا، بغير هدف أو غاية...
وساد صمت من جديد. صمت الرجلان كلاهما قُرابة دقيقة. أدرك إيفان فيدوروفتش أن عليه أن ينهض وأن يغضب. وكان سمردياكوف واقفًا أمامه وقد بدا على وجهه كأنه يقول له: «سنرى الآن هل تغضب أو لا تغضب؟» ذلك ما شعر به إيفان فيدوروفتش على الأقل. وهمّ أخيرًا أن ينهض. ففتح سمردياكوف عندئذ فمه كأنه قَدْ انتظر هذِّه اللحظة ليتكلم. قَال في بطء، بصوت جازم، وهو يقطّع كلامه:
- إنني في وضع رهيب يا إيفان فيدوروفتش، وأنا أتساءل كيف يُمكنني أن أخرج من المأزق.
ثُمّ تنهّد تنهدة كبيرة. عاد إيفان يجلس. واستأنف سمردياكوف كلامه فقال:
- لكأنهما فقدا كلاهما العقل. إنهما يتصرفان تصرف أطفال صغار. إنني أتكلم عن أبيك وعن أخيك دمتري فيدوروفتش. سوف يأخذ فيدور بافلوفتش يُعذبني بأسئلته متى نهض من فراشه، سوف يسألني في كل لحظة: «هيه؟ ألم تجيء؟ لماذا لم تجيء؟» وسوف تستمر هذِّه الأسئلة إلى منتصف الليل، وإلى ما بعد منتصف الليل. وإذا لم تجيء آجرافينا الكسندروفنا (وفي رأيي أنها لا تنوي أن تجيء أبدًا)، فسوف يستأنف أسئلته في صباح الغد مُتهجمًا عليّ: «لماذا لم تجيء؟ متى تجيء؟»، كأنني أنا المذنب. ومن الجانب الآخر، فالقصة نفسها: فمتى هبط الغسق، بل وقبل هبوط الغسق، يأخذ أخوك دمتري بالاستعداد فيَكمن في مكان قريب مُسلّحًا، ويقول لي: «انتبه أيها الوغد! حذار أيها الطاهي؟ لئن تركتها تدخل دون أن تُنبئني، لأقتلنك أنت أول من أقتل!» حتى إذا انقضى الليل عاد يُعذبني بأسئلته كأبيك: «ألم تجئ بعد؟ هل تجئ قريبًا؟» لكأنه يعدّني، هو أيضًا، مسؤولًا عن سلوك هذِّه السيدة! الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ، وغضبهما كليهما يزداد من ساعة إلى ساعة. والخوف يُحاصرني حتى لأفكر في قتل نفسي تخلصًا من هذًا المأزق. إنني لا أتوقع منهما أي خير يا سيدي!
قَال إيفان مُنزعجًا:
- ما كان ينبغي لك أن تحشر نفسك في هذًا الأمر!
لماذا ارتضيت أن تكون لدمتري فيدوروفتش مُخبرًا؟
- كيف كان يُمكنني أن أبقى بعيدًا. إنني لم أحشر نفسي في الأمر، إذا شئت أن تعرف ذلك. كنت أصمت ولا أجرؤ أن أرد، ولكن أخاك ألحّ وأكرهني على أن أكون خادمه ليتشاردا[150] في هذِّه القضية. وهو مُنْذُ ذلك الحين ما ينفك يُكرر على مسامعي قوله: «لأقتلنك أيها الوغد، لأقتلنك إذا تركتها تمُرّ!» أنا على يقين من أنني سأُصاب غدًا بنوبة طويلة.
- أي نوبة طويلة! ماذا تقصد؟
- نوبة صرع، طويلة، طويلة جدًا. ربما دامت بضع ساعات، وربما استمرت إلى الغد. لقَدْ سبق أن أُصبت بنوبة امتدت ثلاثة أيام. سقطت آنذاك من الشونة. تمرّ النوبة، ثُمّ تعود من جديد وبقيت ثلاثة أيام لا أُفيق من الإغماء يحدث لي هذًا فجأة. وفي تِلكَ المرة استدعى فيدور بافلوفتش الطبيب، استدعى ذلك الدكتور هرتسنشوبه، فوصف لي ثلجًا على الجبين ودواء آخر... وكدت أموت.
- يُقال إن نوبات الصرع لا يمكن التنبؤ بها ولا بموعدها. فكيف تزعم أنك ستُصاب غدًا بنوبة؟
كذلك سأله إيفان باستطلاع يُمازجه غيظ. فقال سمردياكوف:
- صحيح... لا يمكن التنبؤ بها.
- ثُمّ إنك عند تِلكَ النوبة الطويلة قَدْ سقطت من طابق الشونة.
- ذلك أنني أصعد إلى ذلك الطابق كل يوم، ومن الجائز جدًا أن أسقط منه في الغد أيضًا. وإذا لم أسقط من طابق الشونة، فقد أسقط في القبو، لأنني أذهب إلى القبو كل يوم أيضًا للقيام بالخدمة.
تفرّس فيه إيفان فيدوروفتش طويلًا.
ثُمّ قَال بصوت خافت ولكن مع شيء من التهديد:
- يبدو أنك تُدبرّ أمرًا. ما الذِّي تريد أن تصل إليه؟ أتراك ستتظاهر غدًا بنوبة تدوم ثلاثة أيام، هه؟
كان سمردياكوف قَدْ أغمض عينيه، وعاد يهز رأس حذائه. وها هو ذا الآن يُرجع رجله اليُمنى وقدم رجله اليُسرى ويرفع رأسه ويقول بعد ضحكة صغيرة:
- هبني دبّرت لهم «مقلبًا» من هذًا النوع. إن هناك أسبابًا وجيهة تدفعني إلى أن أفعل ذلك. لما كان من السهل على المرء أن يتظاهر بالصرع إذا كان يملك بعض التجربة، فسيكون من حقي تمامًا أن ألجأ إلى هذِّه الوسيلة إنقاذًا لحياتي. حين أكون مريضًا فحتى إذا حدث أن قررت آجرافينا الكسندروفنا أن تجيء إلى أبيك، فلن يستطيع أخوك أن يسأل رجلا مريضًا: «لماذا لم تُبلغني؟» سوف يستحي هو نفسه أن يفعل ذلك.
هتف إيفان فيدوروفتش يقول وقد تقبض وجهه غضبًا:
- شيطان يأخذك! لماذا تخاف على جلدك أيها الجبان؟ ليست تهديدات دمتري إلّا كلامًا في الهواء! إنه لن يقتلك. قَدْ يقتل، ولكنه لن يقتلك أنت على كل حال!
- بلى! سيقتلني كذبابة، وسيقتلني قبل أن يقتل أي إنسان آخر؟ هناك مع ذلك شيء أخشاه أكثر من هذًا أيضًا: هو أن أتهم بالتواطؤ معه إذا هو أقدم على ارتكاب عمل طائش مجنون في حق أبيك.
- لماذا تُتهم أنت في هذِّه الحالة؟
- سيُظن أنني شريك لأنني أطلعته على تِلكَ الإشارات السرية.
- أي إشارات تعني؟ من أطلعت عليها؟ سُحقًا لأساليبك المختالة هذِّه! هلاّ قلت كلامًا واضحًا آخِر الأمر؟
بدأ سمردياكوف يقول مقطعًا كلامه قائلًا بهدوء مُتحذلق كأنما ليضفي على نفسه قيمة:
- يجب أن أعترف لك بأن هناك سرًا بيني وبين فيدور بافلوفتش. فمنذ بضعة أيام، كما لعلك تعلم ذلك (وقد لا تعلم على كل حال)، تعود فيدور بافلوفتش أن يقفل الباب على نفسه بالمفتاح، مُنْذُ يهبط الليل، ومنذ يهبط الغسق أحيانًا. إنك في الآونة الأخيرة تصعد إلى جناحك في ساعة مُبكرة، وأمس مثلًا لم تخرج قط، لذلك فلعلك لم تُلاحظ شدة اعتصامه بغرفته الآن، ومدى حرصه على إحكام إغلاقها. إنه لا يفتح الباب حتى لجريجوري فاميلفتش إذا هو لم يتعرف صوته على وجه اليقين. ولكن جريجوري فاسيلفتش لا يجيء، لذلك أنا وحدي أخدمه الآن في غرفته. هذًا ما قرر أن يعمد إليه مُنْذُ اندفع في تِلكَ المغامرة مع آجرافينا ألكسندروفنا. وتنفيذًا لأوامره، فإنني أترك المنزل أنا أيضًا متى حل الظلام، وأمضي أقضي الليل في المُلحقات، مُلزمًا بالسهر إلى مُنتصف الليل على كل حال، لأتربص وأخرج إلى الفناء من حين إلى حين بُغية أن أرى إن جاءت آجرافينا ألكسندروفنا. ذلك أنه ينتظرها مُنْذُ عدة أيام بإلحاح هو كالجنون. إنه يفكر على النحو التالي: لا شك أنها تخاف منه، من دمتري فيدوروفتش (وهو يسميه ميتكا) لذلك ستُؤثر أن تجيء في الليل مارةً من خلف الفناء. وأنا مُكلّف إذا بانتظارها كل مساء إلى منتصف الليل وإلى ما بعد منتصف الليل. قَال لي: «متى ظهرت كان عليك أن تسرع إليّ، فتقرع بابي أو النافذة المُطلة على الحديقة قرعتين أولًا، قرعتين غير قويتين جدًا، هكذا: طق، طق، ثُمّ ثلاث قرعات أكثر تقاربًا: طق، طق، طق، فأعلم عندئذ أنها جاءت، فأفتح الباب برفق وهدوء». ثُمّ شرح لي بعد ذلك إشارة أخرى استعملها حين يحدث شيء مُفاجئ: أقرع في أول الأمر قرعتين مُتقاربتين: طق طق، وبعد بُرهة أقرع قرعة ثالثة أقوى، فيفهم عندئذ أنه وقع حادث مُفاجئ وأنني أريد أن أكلمه، فيفتح لي الباب، فأدخل إليه وأروي له ما وقع. هذًا إذا لم تجيء آجرافينا ألكسندروفنا وإنما أوفدت رسولًا برسالة، أو إذا ظهر دمتري فيدوروفتش على مقربة من المنزل، فبذلك أستطيع إبلاغه فورًا. إنه يخاف دمتري فيدوروفتش خوفًا رهيبًا وقد أمرني بأن عليّ، إذا حدث أن كانت آجرافينا ألكسندروفنا في المنزل مُختليه به، فظهر دمتري فيدوروفتش على مقربة من المنزل، أن أبلغه ذلك فورًا بقرع الباب أو النافذة ثلاث قرعات. لقَدْ علّمني إذًا إشارتين: الأولى تتألف من خمس قرعات ومعناها أن «آجرافينا ألكسندروفنا جاءت»، والثانية تتألف من ثلاث قرعات ومعناها أنني «أريد أن أكلمه حالًا».

وقد جرب هاتين الإشارتين أمامي مرارًا لأتعلمها. لأن لًا أحد في العالم يعرف هاتين الإشارتين، إلّا أنا وهو، فإنه متى سمع الإشارة يفتح الباب فورًا بلا تردد، وبدون أن يُلقي أي سؤال (لأنه يخاف أن يسمع صوته). والمشكلة الآن هي أن دمتري فيدوروفتش أصبح يعرف هاتين الإشارتين.
- من أين عرفهما؟ أأنت كشفت له إذًا عنهما؟ فكيف تجرأت أن تفعل؟
- كيف تجرأت؟ فعلت ذلك بسبب الخوف طبعًا! وهل من سبيل إلى الصمت معه؟ كان لا ينفك يُكرر على مسامعي في كل يوم قوله: «أنت تكذب! أنت تُخفي عني شيئًا. لأحطمنّ ساقيك!» وعندئذ أطلعته على هاتين الإشارتين السريتين ليرى على الأقل أنني أُطيعه ولا أعصي أمره، وأن ليس عليه بعد الآن أن يتخيل أني أخفي عنه الحقيقة ما دمت أبوح له بهذه التفاصيل السرية.
- إذاً كنت تقدر أنه ينوي أن يستخدم هاتين الإشارتين ليدخل، فعليك أن تمنعه من الدخول الأمر بسيط.
- إذا اتفق أن كنت في تِلكَ اللحظة بعينها فاقدًا وعيي بسبب نوبة صرع؟ كيف أستطيع عندئذ أن أمنعه من الدخول، هذًا إذا كنت أملك الجرأة على اعتراضه وأنا أعرف ما يكون عليه في تِلكَ الحالة من ضراوة وعنف!
- سحقًا لك ولنوبة الصرع التي تتكلم عنها هذِه! كيف علمت أن نوبة صرع ستُصيبك غدًا؟ أتراك تضحك عليّ؟
- وهل أجرؤ أن أضحك عليك يا سيدي؟ هل تظن أن بي رغبة في الضحك وأنا فيما أنا فيه من فزع؟ إن الخوف بعينه هو الذِّي سيُحدث لي هذِه النوبة.
- يا للشيطان... إذا كنت أنت مريضًا، أمكن أن يتولى الحراسة جريجوري، أخطره سلفًا وسوف يمنعه هو من الدخول.
- ولكنني ممنوع من اطلاع جريجوري فاسيلفتش على هاتين الإشارتين إلّا بإذن من السيد. أما عن إمكان أن يسمع جريجوري فاسلفتش مجيئه وأن يمنعه من الدخول فيجب أن أقول لك إنه مريض مُنْذُ أمس، وإن مارفا اجناتفنا تنوي أن تُداويه في الغد. على هذًا اتفقنا اليوم. وإن لها في مُداواة زوجها طريقة غريبة جدًا: إنها تعرف منقوعًا من العقاقير تحتفظ به في بيتها دائمًا لمثل هذِه الحالات، وهو سائل قوي جدًا تعرف سرّه فيما يبدو وتصنعه من أعشاب تغليها في الماء وتداوي به زوجها ثلاث مرات في العام تقريبًا حين تُداهمه آلام الظهر ويُصبح شبه مشلول. إنها تُبلل بهذا السائل منشفة تأخذ تُدلك بها ظهره على طوله خلال نصف ساعة إلى أن ينتفخ الجلد ويحمر، حتى إذا فرغت من ذلك جرّعته ما يبقى في الزجاجة من هذًا السائل بعد أن تتلو دعاءً معينًا. ولكنها تبقي لنفسها من السائل مقدارًا قليلًا تشربه مع زوجها انتهازًا للفرصة. ويجب أن أقول لك أيضًا إنهما، بسبب عدم تعودهما الشراب، ما يكادان يحسوان هذًا السائل حتى يسقطا كلاهما حيث يكونان، فيناما نومًا عميقًا خلال مدة طويلة. فإذ استيقظا شعر جريجوري فاسيلفتش كل مرة بأنه شفى من مرضه، أما مارفا اجناتفنا فلا بد أن يُصيبها صداع. فإذا نفذا في الغد عزمهما على استعمال هذًا الدواء، فإنهما لن يسمعا شيئًا، لأنهما سيناماِن، ولن يمنعا دمتري فيدوروفتش من دخول المنزل.
صاح إيفان فيدوروفتش يقول:
- ما هذا الهراء! كل شيء يحدث في آن واحد كما لو كان مدبّرًا! أنت تصاب بنوبة الصرع، وهما يفقدان الوعي!
ثم أضاف يسأله فجأة مقطباً حاجبيه فيما يشبه التهديد:
- أتراك رتبت هذا التصادف بالمكر والحيلة؟
- كيف يمكنني أن أفعل ذلك... وعلام أفعل؟ كل شيء رهن بإرادة دمتري فيدوروفتش وحده، وبما يعزم عليه ويقرره... فإذا كان ينوي أن يوقع مصيبة فسيفعل؟ وإذا لم يكن ينوي فلست أنا من سيجره من يده ليدفعه إلى أبيه دفعاً، فيما أتخيل، أليس كذلك؟
عاد إيفان فيدوروفتش يقول وقد اصفرّ وجهه غضباً:
- لست أرى لماذا يمكن أن يجيء دمتري إلى هنا، وأن يتسلل تسللاً، إذا كانت آجرافينا الكسندروفنا لا تفكر في المجيء إلى أبي، كما قلت هذا بنفسك. لقد أكدت لي أنت هذا منذ لحظة، وكنت أنا على يقين منذ حللت في هذا المنزل أن العجوز تراوده أوهام، لأن هذه المخلوقة لن تجيء إليه في يوم من الأيام. فهلا قلت لي ما هي الغاية التي يمكن أن يقتحم دمتري منزل العجوز في سبيلها إذا لم تأت هي؟ تكلم... إنني أريد أن أعرف حقيقة ما يجول في خاطرك.
- إنك تعرف هذه الغاية حق المعرفة، وليس لما يجول في خاطري شأن فيها البتة. سوف يقتحم أخوك منزل أبيه بدافع الشر وحده أو وسوسته وسوء ظنّه. سوف يتساءل عما يجري في المنزل، وسيحب من فرط نفاذ صبره أن يفتش جميع الغرف كما فعل أمس ليتأكد من أنها ليست مختبئة في إحداها. وهو يعلم حق العلم من جهة أخرى أن فيدور بافلوفتش قد أعدّ ظرفاً كبيراً يحوي ثلاثة آلاف روبل، قد ختمه بثلاثة أختام وربطه بشريط معقود، وكتب عليه بخط يده: «إلى ملاكي جروشنكا، إذا هي رضيت أن تجيء»، وأضاف إلى هذه العبارة بعد ثلاثة أيام: «إلى حمامتي الصغيرة الغالية». وهذا ما يثير قلقاً في نفسي.
صرخ إيفان فيدوروفتش يقول خارجاً عن طوره:
- هذا سُخف! لن يسرق دمتري مالاً، ولن يقتل أباه لهذا السبب! لقد كان يمكن أن يقتله أمس، كمجنون مهتاج، بسبب جروشنكا، ولكنه لن يجيء إلى هنا ليسرق!
- إنه الآن في حاجة ملحّة إلى المال، إنه في ضيق شديد، صدقني يا إيفان فيدوروفتش. لا تستطيع أن تتصور مدى رغبته في الحصول على مال (هكذا شرح سمردياكوف بهدوء كبير). أضف إلى ذلك أنه يعد هذه الآلاف الثلاثة حقاً له. لقد أكد لي ذلك أمس. قال: «إن أبي ما يزال مديناً لي بثلاثة آلاف روبل تماماً». ويجب أن لا يغيب عن بالك يا إيفان فيدوروفتش، لأن هذه هي الحقيقة بعينها، إن آجرافينا ألكسندروفنا تستطيع أن تحمل فيدور بافلوفتش على زواجها متى رغبت في ذلك أيسر رغبة. لقد أسرفت أنا في التعجل حين أكدت أنها لن تجيء إلى هنا، مع أنها قادرة جداً على أن تسدّد إلى هدف بعيد أن تداور في سبيل أن تصبح سيدة حقة. لقد قال لها صاحبها التاجر سامسونوف، وأنا أعرف ذلك من مصدر مطلع موثوق، قال لها بصراحة تامة إن هذا سيكون حلاً ذكياً، وكان يضحك وهو يقول هذا الكلام. ليست جروشنكا امرأة غبية، ثق من ذلك! لن تبلغ من الحماقة أن تتزوج رجلاً فقيراً مثل دمتري فيدوروفتش. فما قولك والحالة هذه يا إيفان فيدوروفتش؟ ولعلك تقدّر أن دمتري فدوروفتش، إذا أصبحت آجرافينا ألكسندروفنا زوجة أبيه، لن ينال روبلاً واحداً من ميراث أبيه بعد وفاته، لا هو ولا أنت ولا أخوك ألكسي. ذلك أن أجرافينا ألكسندروفنا لن تقبل هذا الزواج إلا في سبيل أن تنقل إلى اسمها كل ثروة أبيك، جميع ممتلكاته وأمواله. أما إذا حدث مكروه لأبيك فمات قبل أن يتم هذا الزواج، فإن كلاً منكم سينال على الفور أربعين الف روبل، بالتمام والكمال. حتى دمتري سينال هذا المبلغ رغم أن أباه يكرهه، وذلك لأن فيدور بفلوفتش لم يكتب حتى الآن وصيته... وهذه التفاصيل كلها يعرفها دمتري معرفة جيدة...
تقلّص وجه إيفان، وألمّت به اختلاجة، واحمرّ على حين فجأة، وقال مقاطعاً سمردياكوف وهو يتنفس تنفساً ثقيلاً:
- قل لي: لماذا كنت تريد أن تراني مسافراً إلى تشرماشنيا؟ ما هي الغاية التي تسعى إليها؟ لا يعلم إلا الله ما سيحدث بعد سفري في هذا المنزل!
فأجاب سمردياكوف يقول بلهجة هادئة متروّية، وهو يحدق إلى إيفان فيدوروفتش مترقباً آثار كلامه فيه:
- هذا صحيح تماماً.
قال إيفان يسأله وهو يبذل جهداً كبيراً من أجل أن يكظم غيظه ويسيطر على نفسه:
- صحيح تماماً؟ ما معنى هذا؟
- لئن قلت هذا الكلام، فلأنني أشفق عليك وأرثي لحالك. اسمح لي أن أقول لك لو كنت في مكانك لآثرت أن أسافر فوراً على أن أجد نفسي مقحماً في قضية من هذا النوع...
كذلك أجاب سمردياكوف بلهجة طلقة ليس فيها شيء من تحرّج، دون أن يحوّل بصره عن إيفان فيدروفوفتش الذي كانت عيناه تقدحان شرراً. وأعقب ذلك صمت.
ثم قال إيفان بعد لحظة وهو ينهض فجأة عن الدكة:
- يبدو أنك أبله كبير... لكنك أيضاً وغد رهيب!
وكان يهمّ أن يجتاز الباب الحديدي، ولكنه توقف فجأة والتفت نحو سمردياكوف. وحدث عندئذ شيء غريب: لقد عض إيفان فيدوروفتش على شفتيه متشنجاً، وقبض يديه، فكان على وشك أن يهجم على الخادم بعد لحظة دون شك، فأدرك سمردياكوف ذلك فوراً، فارتجف، وارتد بجسده إلى وراء. وانقضت هذه اللحظة دون أن يصاب سمردياكوف بأذى. واتجه إيفان فيدوروفتش نحو الباب حائر الهيئة دون أن ينطق بكلمة. ثم صاح بعد ذلك يقول بصوت قوي، مقطّعاً ألفاظه، وقد فاضت نفسه حنقاً:
- سأسافر غداً إلى موسكو، إذا كنت تحرص على أن تعرف ذلك. غداً، في الصباح الباكر! هذا كل شيء!
وقد أدهشه فيما بعد أن يكون قد شعر في ذلك الظرف بالحاجة إلى أن يخبر سمردياكوف بأنه مسافر.
أجاب سمردياكوف يقول وكأنه كان يتوقع أن يفضي إليه إيفان هذا السر:

- هذه فكرة عظيمة، هذا أفضل الحلول! ولكنك تظل معرّضاً للاستدعاء من موسكو ببرقية إذا حدث هنا شيء.
فتوقف إيفان فيدوروفتش مرة ثانية والتفت نحو سمردياكوف التفاتة سريعة. فإذا بسمردياكوف يتغيّر فجأة. تبددت الإلفة التي كان يصطنعها وتبدد الإهمال الذي كان يظهره، في لمح البصر وعبَّر وجهه عندئذ عن انتباه شديد، كما عبّر عن انتظار ذليل خاضع، وكأن عينيه المحدّقتين إلى إيفان بإلحاح غريب تسألانه: «ألن تقول شيئاً آخر؟ ألن تضيف كلمة واحدة؟» فوعوع إيفان فيدوروفتش يقول رافعاً صوته بدون سبب ظاهر:
- ألن أستدعى من تشرماشنيا أيضاً إذا حدث شيء؟
فتمتم سمردياكوف يقول بما يشبه الهمس، وكأنه ضائع الفكر شارد اللب ولكنه لا ينقطع عن التحديق إلى إيفان فيدوروفتش بإلحاح:
- طبعاً... إذا حدث شيء... فستستدعى... من تشرماشنيا...
- الفرق الوحيد هو أن موسكو بعيدة، أما تشرماشنيا فهي قريبة.
هل النفقات التي لا داعي إليها هي التي تقلقك، أم أنت تحب أن توفر عليّ رحلة طويلة فتنصحني بأن أسافر إلى تشرماشنيا بدلاً من أن أسافر إلى موسكو؟
- هو كذلك تماماً...
هكذا تمتم سمردياكوف يقول بصمت مرتعش وهو يبتسم ابتسامة خبيثة. وكان متوتراً أو مستعداً للارتداد بجسده إلى وراء. فما كان أشد دهشته حين رأى إيفان فيدوروفتش وهو ينفجر ضاحكاً على حين فجأة، ويتجه بسرعة نحو الباب وهو ما يزال يضحك.
ولكن لو رآه ملاحظ يقظ منتبه في تلك اللحظة لأدرك أنه لم يكن يضحك هذا الضحك عن مرح وفرح. ثم إنه هو نفسه ما كان ليستطيع أن يقول ما الذي كان يشعر به حينذاك.
وكانت مشيته متقطعة، وكان في حركاته شيء يشبه أن يكون حركات آلة.

-7-يلذ للمرء أحيانا أن يتحدث مع رجل ذكي

إن الحالة النفسية الغريبة التي كان فيها إيفان قد ظهرت في أقواله أيضاً. فإنه ما إن دخل المنزل فلمح فيدور بافلوفتش في الصالون حتى صاح يقول له من بعيد وهو يلوّح بيده: «أنا صاعد إلى غرفتي رأساً. لن آتي إليك. إلى اللقاء» ومرّ بسرعة محاولاً أن لا ينظر إلى أبيه. لعل منظر العجوز كان في نظره عندئذ لا يطاق، ولكن إظهاره هذه الكراهية بغير تحرّج قد أدهش حتى فيدور بافلوفتش نفسه. وكان واضحاً أن هناك شيئاً مستعجلاً يريد الأب أن يفضي به إلى ابنه، لذلك هبّ إلى لقائه، ولكنه بعد الكلمات اللطيفة التي سمعها من إيفان فيدوروفتش توقف حيث كان، دون أن ينطق بكلمة، وتابعه بنظرة ساخرة بينما كان يصعد السلم ويغيب في الطابق الأعلى.

وظهر في تلك اللحظة سمردياكوف الذي دخل إلى البيت إثر إيفان فيدوروفتش، فسأله العجوز فوراً:

- ماذا به اليوم؟

فقال سمردياكوف متهرباً:

- من يدري؟ إنه متعكر المزاج جداً.

- شيطان يأخذه إذاً! ألا فليتعكر مزاجه إذا كان ذلك يسره أما أنت فهيئ السماور ثم انصرف. أسرع! أما من جديد حتى الآن؟

قال العجوز ذلك وبدأ الاستجواب الذي كان سمردياكوف قد اشتكى منه لإيفان فيدوروفتش منذ قليل. إنه يلقي عليه السؤال تلو السؤال عن المرأة التي ينتظر زيارتها. ولا داعي إلى تكرار هذه الأسئلة هنا. وبعد نصف ساعة كان المنزل قد أحكم إقفاله بالمفتاح، وخلا العجوز إلى جنونه، فأخذ يسير في غرفته طولاً وعرضاً، منتظراً على نار كنار الحمى أن يسمع القرعات الخمس المتفق عليها، كإشارة على وصول جروشنكا وهو ينظر من خلال النوافذ من حين إلى حين، فلا يرى في الخارج إلا الظلام.

انقضى شطر من الليل، ولكن إيفان فيدوروفتش لم ينم بعد. كان يفكّر ويتأمّل. ولم يرقد على فراشه تلك الليلة إلا في نحو الساعة الثانية. لن نحلل مجرى الخواطر التي دارت في رأسه، لأن قراءة ما كان يعتمل في نفسه عندئذ لم يحن حينها، وسيأتي دورها فيما بعد. ثم إن وصف ما كان يجيش في قرارة قلبه ليس بالأمر السهل، لأنه لم يكن خواطر بل كان شيئاً غامضاً، كان شيئاً مضطرباً مسرفاً في الاضطراب خاصة. وكان يشعر هو نفسه بأنه قد فقد السيطرة على فكره. هذا عدا رغبات غريبة غير متوقعة تقريباً كانت تعذبه في بعض اللحظات. من ذلك مثلاً أنه عند منتصف الليل قد شعر فجأة برغبة قوية لا تقهر في أن ينزل وأن يخرج وأن يذهب إلى الملحقات بغية أن يضرب سمردياكوف ضرباً مبرحاً. لماذا؟ لو سألته هذا السؤال لما استطاع أن يذكّر سبباً واحداً على وجه الدقة اللّهم إلا أنه أصبح يكره هذا الخادم كرهاً شديداً، كما لو كان قد ناله بأفدح الأذى وأشد الإهانة. ومن جهة أخرى فقد وافته في أثناء تلك الليلة نوبات خوف مذلٍ لا تفسير له، بلغ من إدخال الاضطراب في نفسه أنه أحسّ بشلل مفاجئ في قواه الجسمية. وكان يشعر في الوقت نفسه بصداع ودوار. واستولى عليه بغض غامض، كما لو كان ينوي الانتقام من أحدٍ ما. إنه يشعر بعداوة حتى لأليوشا، حين يتذكر الحديث الذي جرى بينه وبينه في النهار. وكان يبدو له في لحظات أخرى أنه يكره ذاته نفسها، أما كاترينا إيفانوفنا فكأنه نسيها. وقد أدهشته قلة الاكتراث هذه فيما بعد، لا سيما وأنه كان أمس في الصباح، قد أعلن للمرأة الشابة صاخباً أنه مسافر غداً إلى موسكو، قد سمع صوتاً يدمدم في قرارة نفسه (إنه يتذكر هذا تذكراً واضحاً) قائلاً له: «كذبت! لن تسافر! لن تستطيع فراقها بمثل هذه السهولة التي تتباهى بها الآن». ومن بين ذكريات تلك الليلة ذكرى صغيرة ستظل تنبجس في خياله كثيراً أثناء السنوات اللاحقة، فتملؤه اشمئزازاً وتقززاً. لقد ظل يتذكر بوضوح كيف أنه نهض عن أريكته عدة مرات ففتح الباب بدون ضوضاء، كأنه يخشى أن يكون هناك من يسترق السمع ويتلصص عليه وخرج إلى فسحة السلم، وأصاخ بسمعه يتجسس على حركات فيدور بافلوفتش الذي كان يمشي في غرف الطابق الأرضي. كان يتنصّت على حركاته بفضول غريب منحبس الأنفاس خافق القلب، لا يدري هو نفسه لماذا يتصرَّف هذا التصرُّف، ولأي سبب يصيخ بسمعه إليه دقائق طويلة. لقد ظل طوال حياته بعد ذلك يصف سلوكه ذاك في تلك الليلة بأنه «سلوك حقير»، معتقداً في دخيلة نفسه أن ذلك الفضول الغريب الذي كان يحركه حينذاك هو أكبر دناءة انحدر إليها في حياته كلها. كان لا يشعر في تلك اللحظات بأي عداوة خاصة نحو فيدور بافلوفتش نفسه، وإنما كان يريد أن يعرف ما يعمله فحسب، محاولاً أن يتصور، بفضول قوي، كيف يمشي أبوه في غرفته محموماً من نفاذ الصبر، وكيف يقترب من النوافذ المظلمة لينظر إلى الخارج، وكيف يتوقف بعد ذلك في وسط الحجرة منتظراً على أحر من الجمر أن يسمع الإشارة المتفق عليها. لقد خرج إيفان فيدوروفتش إلى فسحة السلّم على هذا النحو مرتين. فلما عاد الهدوء يخيم على كل شيء، وأوى فيدرو بافلوفتش إلى فراشه، في نحو الساعة الثانية من الصباح، قرر أن يرقد هو أيضاً، عازماً عزماً قوياً على أن ينام بأقصى سرعة، لأنه كان يحسّ بأنه مهدود القوى. وسرعان ما غرق فعلاً في نوم عميق لم تتخلله أحلام. واستيقظ في الصباح مبكراً، في نحو الساعة السابعة، وكان النهار قد طلع. فما إن فتح عينيه حتى أحسّ في نفسه بسيل خارق من القوة، فأدهشه ذلك كثيراً. وبسرعة نهض عن سريره بوثبة واحدة، ولبس ثيابه، وأخرج حقيبته، وأخذ يجمع أمتعته لا يضيع لحظة واحدة. وكانت الغسّالة قد جاءته بغسيله أمس. ابتسم إيفان فيدوروفتش راضياً حين لاحظ أن كل شيء يسير على خير حال، وأن سفره المفاجئ لايصطدم بأي عقبة غير متوقّعة. ولقد كان هذا السفر مفاجئاً حقاً، فرغم أنه قد أعلنه أمس (لكاترينا إيفانوفنا، ولأليوشا، ثم لسمردياكوف)، فإنه لم يفكّر فيه البتة حين رقد على سريره (إنه يتذكر ذلك الآن)، ولم يكن يتنبأ بأن أول حركة سيقوم بها حين ينهض هي أن يجمع أمتعته تهيؤاً للرحيل. وسرعان ما امتلأت حقيبته وامتلأ كيس السفر. فلمّا أزفت الساعة التاسعة جاءته مارفا أجناتفنا تلقي عليه سؤالها المألوف: «أين تريد أن تتناول الشاي، هنا أم تحت؟» فنزل إيفان فيدوروفتش إلى الطابق الأرضي. كان يلوح عليه أنه يكاد يكون فرحاً رغم أن شيئاً من التعجّل العصبي كان بادياً في حركاته وفي أقواله. وبعد أن سلّم على أبيه متودداً حتى لقد سأله عن صحته خاصة، أعلن، قبل أن يجيبه أبوه عن سؤاله، أنه مسافر إلى موسكو بعد ساعة، نهائياً، ورجا أن يؤمر بإعداد الخيل. لم يُظْهِر العجوز أي دهشة لإعلان ابنه سفره ونسي حتى أن يعبّر عما اصطلح الناس على التعبير عنه في مثل هذه الأحوال من أسف. وفي مقابل ذلك لم يفته أن يقلق فجأة على أمر من أموره الخاصة، ورأى أن ينتهز الفرصة ليكلّمه فيه. قال:

- أوه! كان ينبغي أن تبلغني أمس... لا بأس على كل حال... سيتسع الوقت لحل هذه المسألة الآن. أرجو أن تقدم لي هذه الخدمة يا بنيّ الشهم: توقف في تشرماشنيا عابراً. لن يكون عليك، حين تصل إلى محطة فولفيا، إلا أن تعرج شمالاً مسافة اثني عشر فرسخاً في أكثر تقدير، فإذا أنت في تشرماشنيا.

- معذرة، صدِّقني لا أستطيع. إن المسافة من هنا إلى محطة القطار ثمانون فرسخاً، وقطار موسكو يسافر في الساعة السابعة مساء، فلا يكاد يتسع وقتي لإدراكه.

- تسافر في قطار الغد أو غداة الغد. أما اليوم فاذهب إلى تشرماشنيا. أيصعب عليك إلى هذا الحد أن تقدِّم هذه الخدمة الصغيرة لأبيك؟ لولا أنني مضطر إلى البقاء هنا لأسباب قاهرة لذهبت إلى تشرماشنيا بنفسي منذ زمن طويل. الأمر هناك مستعجل وهام جداً، ولكنني لا أستطيع الابتعاد عن المنزل الآن... إن لي في تشرماشنيا غابة من حصتين في أراضي بيجينشوفو ودياتشكينو. والتاجران ماسلوف وابنه لا يعرضان عليّ إلا ثمانية آلاف روبل ثمناً لأشجارها المعدة للقطع، على حين أن مشترياً آخر كان مستعداً في العام الماضي لأن يدفع لي اثني عشر ألف روبل بكل سرور. لم يكن ذلك المشتري من هذه المنطقة، وهذا هو تفسير الأمر، فما من سبيل إلى العثور على مشترٍ من أهل المنطقة، لأن آل ماسلوف الذين يملكون مئات ألوف الروبلات يسيطرون على المقاطعة ويفرضون عليها إرادتهم فرض القانون. إنهم «كولاك» [151] وما من أحد يجرؤ أن يقف في وجههم وأن يصمد لهم. ولكن القس من قرية ايلينسكويه كتب لي يوم الخميس الماضي يقول إن رجلاً اسمه جورستكين قد جاء يعرض شراء الأشجار، والرجل تاجر هو أيضاً، وأنا أعرفه، إنه من مدينة بوجريبوفور، وهو لا يخشى آل ماسلوف لأنه ليس من سكان المنطقة إنه يعرض أحد عشر ألف روبل ثمناً للأشجار المعدة للقطع، فهمت؟ وقد ذكر لي القس أنه الآن في تشرماشنيا إلى حين، وأنه سيبارحها بعد أسبوع. عليك أن تذهب إليه لتناقش الأمر معه...

- ما عليك إلا أن تكتب للقس، فيتم لك الصفقة!

- إنه لا يفهم في هذه الأمور شيئاً، ذلك هو المزعج. إن هذا القس رجل أعمى في الشؤون العملية. إن له قلباً من ذهب، وإنني لمستعد أن أودعه عشرين ألف روبل بدون وصل. ولكنه قصير النظر حتى لقد يخدعه صوص. ما هو من هذه الناحية برجل. وهو مع ذلك عالم كبير، هل تتصور هذا؟ إن هيئة جورستكين هذا هي هيئة فلاح، وهو يرتدي قميصاً أزرق، لكنه وغد كبير من سوء حظنا جميعاً! إنه يكذب كما يتنفس. حتى لقد يراكم الكذب بعضه فوق بعض لا لشيء إلا لذة الكذب! لقد روي منذ ثلاث سنين، مثلاً، أن امرأته ماتت، وأنه تزوج أخرى. فهل تتصور أنه كان يكذب؟ نعم لقد كان يكذب. حتى أن امرأته لم تكن في خطر الموت. وهي ما تزال حية وما تزال تضربه مرة كل ثلاثة أيام. فيجب أن تعرف أولاً أكان صادقاً أم كان كاذباً حين عرض أحد عشر ألف روبل ثمناً للأشجار.

- إنك لتعلم جيداً أنني أنا أيضاً لا أفهم في هذه الأمور شيئاً. ففيم يمكنني أن أنفعك؟
- لحظة. انتظر. يمكنك أن تنفعني، لأنني سأطلعك على العلائم التي تستطيع الاعتماد عليها لتعرف حقيقة ما يدور في نفس جورستكين. إنني أعرفه منذ عهد بعيد. عليك أن تنظر إلى لحيته فتنفذ إلى خفايا سريرته. إن له لحية صغيرة حمراء مبعثرة، فإذا أخذت هذه اللحية ترتعش بينما هو غاضب أثناء الكلام، فاعلم أنه يقول صدقاً ويريد أن يتم الصفقة، أما إذا رأيته يلاعب لحيته بيده اليسرى وهو يبتسم، فاعلم أنه يراوغ ويمكر ويحاول أن يغشّ. لا تحاول أن تقرأ في عينيه، فليس في وسعك أن تعرف بهذه الوسيلة شيئاً. إنه وغد لئيم، وما عيناه إلا ماء عكر. وإنما يجب عليك أن تنظر إلى لحيته. سوف أعطيك رسالة، فما يكون عليك إلا أن تناوله الرسالة. وليس اسمه الحقيقي جورستكين وإنما اسمه في الواقع لياجافي[152]. ولكن إياك أن تخاطبه باسم لياجافي، والا استاء استياء رهيباً. ومتى تم الاتفاق ورأيت الأمور تجري مجرى حسناً، فأبلغني ذلك فوراً. يكفي أن تكتب إليّ في هذه الحالة هذه العبارة: «ليس يكذب». حاول أن تصرّ على الثمن الذي ذكرته لك، وهو أحد عشر ألف روبل. ولا مانع أن تتنازل عن ألف روبل إذا اقتضى الأمر، ولكن لا تتنازل عن أكثر من ذلك. احكم بنفسك: من ثمانية آلاف إلى أحد عشر ألفاً... الفرق ثلاثة آلاف. هذا مال يهبط عليّ من السماء لأن المشترين نادرون في هذه الأيام. وأنا في حاجة ماسة إلى هذا المبلغ، لا تتصور مدى حاجتي إليه. فمتى أبلغتني أن الأمر جد، وثبتُ إلى هناك لأتمّ الصفقة بنفسي. سوف أستطيع أن أجد لهذا متسعاً من الوقت. أما أن أذهب إلى هناك منذ الآن، فليس ينفعني هذا في شيء، لأن من الجائز أن يكون القس قد استرسل مع خياله. هيه؟ اتفقنا؟ أتذهب أم لا؟
- لا يتسع وقتي، فلا تحرجني!
- أرجوك، اصنع هذا الجميل لأبيك! سأذكره لك ما حييت. أأنتم جميعاً إذاً بغير قلب؟ ما قيمة يوم أو يومين زيادة؟ إلى أين تنوي أن تسافر؟ إلى البندقية؟ إن البندقية لن تهوي إلى قاع البحر خلال هذين اليومين! كان يمكن أن أرسل أليوشا، ولكن أليوشا لا يفهم في هذه الأمور شيئاً. ولئن اتجهت إليك فلأنك ذكي، أنا أعرف ذلك. ما أنت بتاجر، ولكنك ترى رؤية واضحة. المطلوب هو أن نعرف أهذا الرجل جاد فيما يقول أم غير جاد. أعود فأكرر أنه يكفي النظر إلى لحيته، فاذا ارتعشت كان يقول صدقاً.
صاح إيفان يقول وهو يضحك ضحكة خبيثة:
- سوف يكون الذنب ذنبك أخيراً إذا أنا ذهبت إلى تشرماشنيا هذه اللعينة.
تظاهر فيدور بافلوفتش بأنه لم يلاحظ النبرة المعادية في كلام ابنه، ولكنه تشبث بهذه الضحكة على الفور فقال:
- إذاً وافقت، وافقت على أن تذهب إلى تشرماشنيا، سأكتب الرسالة الصغيرة حالاً.
- لا أدري بعد أأذهب أم لا أذهب. سأقرر ذلك أثناء الطريق.
- لماذا أثناء الطريق؟ قرر حالاً! بادرة طيبة يا عزيزي! فإذا سوّي الأمر وتمّت الصفقة، كتبت إليّ سطرين تودعهما القس، فيبادر إلى إرسالهما إليّ بغير إبطاء. ولك بعد ذلك أن تسافر إلى البندقية، فلن أمنعك. وسيعيدك القس إلى محطة فولوفيا بعربته...
تهلل العجوز فرحاً. وأسرع يكتب إلى التاجر رسالة قصيرة. ثم أمر بإعداد العربة. وجيء للرجلين بوجبة خفيفة باردة، وجيء لهما بكونياك. إن عادة فيدور بافلوفتش أن يصبح في لحظات السعادة منطلقاً كثير الكلام والحركة، ولكن كان يبدو في هذه المرة أنه يحاول السيطرة على نفسه. وقد تحاشى أيضاً أن يجيء على ذكر دمتري فيدوروفتش. ولم يكن يلوح عليه من جهة أخرى أنه متأثراً لفراق ابنه، وكان صامتاً كأنه أصبح لا يجد ما يقوله. فوجيء إيفان بذلك، ومع ذلك فإن العجوز حين شيّع ابنه إلى درجات المدخل بدا متأثراً بعض التأثر وتظاهر بأنه يريد أن يقبّله. ولكن إيفان أسرع يمد إليه يده، راغباً في تحاشي القبلات رغبة لا تخفى على الناظر. أدرك أبوه ذلك، فلجم اندفاعته، وأخذ يقول مردداً من على درجات المدخل:
- كان الله في رعايتك، كان الله في رعايتك! سوف تأتي لرؤيتي في يوم من الأيام، أليس كذلك؟ أهلاً وسهلاً بك في منزلي دائماً. اذهب، وليكن المسيح معك!
ركب إيفان فيدوروفتش العربة. وصاح أبوه يقول له مرة أخيرة:
- في أمان الله يا إيفان. لا تؤاخذ أباك!
وكان الخدم قد خرجوا للوداع. كان هناك سمردياكوف ومارفا وجريجوري. أعطى إيفان فيدوروفتش كلاً منهم عشرة روبلات. وحين استقر إيفان في العربة أسرع سمردياكوف يرتب الأغطية. فقال له إيفان فيدوروفتش وهو يضحك ضحكة عصبية صغيرة:
- أرأيت؟ ها أنذا ذاهب إلى تشرماشنيا أخيراً...
وكما حدث بالأمس، تساءل إيفان لماذا شعر بالحاجة إلى أن يبلغ سمردياكوف ذلك، ولقد ظل يتذكر هذا الأمر كثيراً في المستقبل.
- صحيح إذاً أنه يلذ للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكي، كما يقول الناس.
هكذا أجاب سمردياكوف بصوت جازم وهو يغرس في إيفان فيدوروفتش نظرة نافذة.
تحركت العربة، وانطلقت تعدو. كان المسافر في البداية في حالة نفسية مضطربة، وكان ينظر إلى ما حوله بشراهة، متأملاً الحقول والروابي والأشجار. ومرّ سرب من الأوز البري فوقه، محلقاً في السماء الصافية. إذا به يشعر بسعادة خفيفة على حين فجأة. فخاطب الحوذي، واهتم اهتماماً قوياً بجواب أجابه الحوذي، ومع ذلك رأى بعد بضعة لحظات أنه لم يسمع ما قيل له، وأنه، والحق يقال، لم يدرك ما أراد هذا الفلاح أن يقول له، ولكنه صمت راضياً: فالهواء نقي طري، منعش والسماء صافية لا غيوم فيها. وفي لحظة ما خطر بباله أليوشا وكاترينا إيفانوفنا. ولكنه ابتسم ابتسامة رقيقة، وزفر زفرة خفيفة على الطيفين العزيزين فغابا، وحدّث نفسه قائلاً: «سوف أعود إليهما في حينه». وقطع المسافة إلى المحطة الأولى من محطات العربات سريعاً. فأبدلت خيله، واستأنف طريقه إلى فولوفيا. سأل إيفان نفسه فجأة «لماذا قال لي إنه يلذ للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكي؟ ماذا كان يعني بذلك؟» وراح يفكّر في هذا السؤال «ثم ما كانت حاجتي إلى إبلاغه أنني ذاهب إلى تشرماشنيا؟»... ووصلت العربة أخيراً إلى فولوفيا، فنزل إيفان. أحاط به أصحاب العربات، فناقشهم وساوَمهم، وانتهى إلى تحديد أجر إيصاله بخيول خاصة إلى تشرماشنيا التي تبعد مسافة اثني عشر فرسخاً في طريق زراعي. أمر بأن تُقرن الخيل، ثم دخل إلى المحطة، فألقى نظرة على قاعة المحطة، ثم إذا به يخرج فيقف على درجات الباب
ويقول:
- لن أذهب إلى تشرماشنيا. قولوا لي يا شباب: هل يمكنني أن أدرك قطار الساعة السابعة؟
- ستدركه. هل نقرن الخيل؟
- اقرنوها فوراً. هل منكم أحد يذهب إلى المدينة غداً؟
- طبعاً. متري ذاهب إليها.
- هل لي منك بجميل تصنعه لي يا متري؟ اذهب إلى أبي فيدور بافلوفتش كارامازوف، وقل له إنني لم أذهب إلى تشرماشنيا. هل تستطيع أن تفعل ذلك؟
- لم لا؟ إنني أعرف فيدور بافلوفتش منذ زمن طويل.
- خذ هذه مكافأة، لأن من الجائز أن لا يعطيك شيئاً...
قال إيفان ذلك وهو يضحك فرحاً. فأجابه متري وهو يضحك أيضاً:
- طبعاً. أنا أعرف أنه لن يعطيني شيئاً. شكراً يا سيدي. سأذهب إليه حتماً...
في الساعة السابعة من المساء، استقر إيفان في حافلة القطار الذي أقله سريعاً إلى موسكو. «ألا فليبتعد عني الماضي! لقد قطعت صلتي إلى الأبد بالعالم الذي عشت فيه، ولا أريد بعد اليوم أن أتذكره! ألا فليختف هذا الماضي من نفسي! ألا فلينقطع عن الوصول إلى مسمعي أي نداء من الحياة التي أبارحها! إنني أسافر لا ألوي على شيء ولا التفت إلى وراء! هيّا إلى عالم جديد، إلى أمكنة مجهولة!» بهذا كان يحدّث نفسه. ولكنه بدلاً من أن يشعر بالفرح، أحسّ بمضض شديد يقبض صدره، وامتلأ قلبه بحزن أليم لم يشعر بمثله من قبل. ظل طوال الليل يفكّر ويتأمل، وسط قرقعة القطار الذي كان يجري بسرعة كبيرة. وعند الفجر، بينما كان القطار يقترب من موسكو، خرج إيفان من خدره فجأة، ودمدم يقول:
- أنا وغد!
أما فيدور بافلوفتش فقد شعر بسعادة كبيرة بعد أن ودّع ابنه، وظل خلال ساعتين في حالة قريبة من الهناءة والغبطة، يفرغ في جوفه قدحاً من الكونياك بين الفينة والفينة. غير أن حادثاً مؤسفاً ومزعجاً قد حدث في المنزل بعد ذلك، فإذا هو يبدِّل الحالة النفسية التي كان عليها العجوز تبديلاً كاملاً، وإذا هو يغرقه في اضطراب شديد. إن سمردياكوف الذي ذهب إلى القبو لغرض ما قد سقط من على أول درجة، وتدحرج إلى أسفل الدرج. ومن حسن الحظ أن مارفا أجناتفنا

كانت في فناء المنزل عندئذ، فعرفت حالاً هذه النازلة التي وقعت. إنها لم تدرك ضجة السقوط، ولكنها سمعت تلك الصرخة الغريبة الخاصة التي تعرفها منذ عهد بعيد، أعني الصرخة التي تنطلق من صدر المريض بالصرع عند أول نوبة. لقد كان يستحيل أن يعرف أحد هل وافت النوبة سمردياكوف حين وضع قدمه على السلم فكان لا بد أن يتدحرج إلى آخر الدرجات لأنه أغمي عليه، أم أن السقوط والارتجاج اللذين نشآ عن السقوط هما اللذان سببا له نوبة الصرع. المهم على كل حال أن سمردياكوف وُجد في قاع القبو تهزّه تشنّجات قوية ويخرج من فمه زبد. وقد ظُن في أول الأمر أنه قد جُرح حين سقط، وأن ساقه أو ذراعه قد كسرت، ولكن تبيّن أن «الله قد سلّمه» على حد تعبير مارفا اجناتفنا، فلم يُصب بأي أذى. ومع ذلك كان نقله من القبو عملاً شاقاً. وقد أمكن نقله أخيراً بفضل الجيران الذين هرعوا يساعدون. وحضر فيدور بافلوفتش مهمة النقل بل وساعد في حمل المريض، وهو يشعر بقلق شديد واضطراب عظيم. ظل سمردياكوف غائباً عن وعيه. وكانت التشنجات تنقطع أحياناً ولكنها ما تلبث أن تعود بعد قليل. وأجمع الرأي على أن الأمور ستجري في هذه المرة كما جرت في السنة الماضية حين سقط سمردياكوف من طابق الشونة. وتذكروا أن الدكتور مرتسنشوبه قد وصف له حينذاك ثلج يوضع على جبينه، وكان ما يزال في القبو بعض الثلج، فتولّت مارفا أجناتفنا أمر العناية بالمريض، حتى إذا كان المساء استدعى فيدور بافلوفتش الدكتور هرتسنشوبه، فلم يلبث الدكتور أن جاء، وبعد أن فحص المريض فحصاً دقيقاً (وهو أكثر أطباء المنطقة دقة وأشدهم عناية، كما أنه من أحق الناس بالاحترام، وقد طعن في السن كثيراً)، أعلن أن النوبة خطيرة يمكن أن «تعرّض الحياة للخطر»، وأضاف إلى ذلك أنه لم يفهم الحالة كثيراً بعد، ولكنه سيرجع من الغد، فيصف دواء جديداً إذا اتضح أن الإجراءات السابقة لم تنفع المريض. وأُرقد سمردياكوف في ملحقات المنزل، في غرفة تتاخم غرفة جريجوري ومارفا أجناتفنا. وفي أثناء ذلك النهار عرف فيدور بافلوفتش سلسلة متصلة من المكدِّرات والمنغِّصات، أولها وجبة الطعام التي أعدتها مارفا أجنافتا والتي كان حساؤها، إذا قيس بحساء سمردياكوف، ليس أفضل كثيراً من «ماء الغسيل»، أما لحم دجاجتها فكان من القسوة بحيث لا يمكن مضغه، وحين لام رب المنزل مارفا أجناتفنا على ذلك لوماً مراً وإن يكن مسوّغاً، أجابت بأن الدجاجة عجوز جداً، كما أنها هي مارفا لم تُدرّب لتكون طباخة! وفي المساء حلّ بفيدور بافلوفتش مكدّر جديد: أُبلغ أن جريجوري، وهو مريض منذ يومين، قد لزم سريره وأن وجع الظهر الذي يعاني منه قد جمّده تماماً. وأسرع فيدور بافلوفتش يحتسي شايه، وسجن نفسه في المنزل وحيداً. إنه في حالة ترقّب مهموم مغموم، وإنه لمضطرب اضطراباً شديداً. فهو يعتقد أن جروشنكا ستأتي في هذا المساء نفسه، وهو يكاد يكون من ذلك على يقين، لأن سمردياكوف قد أكّد له في ساعة مبكّرة من الصباح «أنها وعدت بالمجيء هذه المرة». كان قلب العجوز الفاسق يخفق خفقانا يكاد يحطم صدره، وهو يمشي بلا توقف خلال غرفة المقفرة، مصيخا بسمعه إلى كل ركن من الأركان، ذلك أن عليه أن يكون يقظاً كل اليقظة، لأن من الجائز أن يرقب دمتري فيدوروفتش مرور المرأة الشابة، فمتى قُرعت النافذة (وكان سمردياكوف قد أكّد لفيدور بافلوفتش، منذ يومين، أنه قد ذكر لها أين ومتى يجب عليها أن تقرع) كان عليه أن يهرع إلى الباب لا يضيّع لحظة واحدة، ولا يجعلها تنتظر في غير داع إلى انتظار، لأنها قد تخاف في الظلام فتهرب لا سمح الله! كان فيدور بافلوفتش قلقاً إذن، ولكن نفسه لم يهدهدها في يوم من الأيام أمل أعذب من هذا الأمل: ألم يكن في وسعه أن يؤكد بما يشبه اليقين أنها ستأتي أخيراً في ذلك اليوم؟!

الباب السادس: الراهب الروسي

-1-الشيخ زوسيما وضيوفه

دخل أليوشا صومعة الشيخ قلقاً قد هدَّ قلبه الألم، ولكنه توقف على العتبة وقد استبدَّت به دهشة قوية: فإنه بدلاً من أن يرى المريض المحتضر الذي لعله غاب عن وعيه، رأى الشيخ جالساً في مقعده. صحيح أن وجه الشيخ مرهق من الضعف، ولكن هذا الوجه ما يزال يعبر عن الشجاعة والمرح. وقد تحلّق حوله زوار كان يحادثهم وديعاً هادئاً رابط الجأش فرحاً. والحق أنه لم ينهض إلا قبل وصول أليوشا بربع ساعة. أما الزوار فكانوا قد اجتمعوا في الصومعة منذ زمن طويل، منتظرين صحوة الشيخ، لأن الأب بائيسى كان قد أكد لهم أن «المعلم سينهض حتماً من أجل أن يتحدث مرة أخرى إلى أحبة قلبه، كما أعلن ذلك هو نفسه ووعد به في هذا الصباح». إن الأب بائيسي يؤمن بهذا الوعد، ويؤمن بكل ما قد يقوله الشيخ المحتضر، وقد بلغ من قوة إيمانه أنه لو رأى الشيخ هامداً لا يتحرك ولا يتنفس، لما صدَّق أن الشيخ مات، ما دام قد وعده بأنه سينهض مرة أخرى ليودّعه، أو لتوقع أن يرتد الشيخ إلى الحياة برّاً بوعده. وقد صرَّح له الشيخ زوسيما بوضوح كبير في الصباح، قبل أن ينام: «إنني لن أموت إلا بعد أن أسعد مرة أخرى بالتحدث إلى أعزتي، وبعد أن أرى من جديد تلك الوجوه التي أحببتها، وبعد أن أفتح قلبي لهؤلاء جميعاً مرة أخرى». والذين اجتمعوا لسماع ذلك الحديث الذي يغلب على الظن أنه آخر حديث، إنما كانوا أقدم أصدقاء الشيخ وأشدهم إخلاصاً له. إنهم أربعة: الراهبان الكاهنان يوسف وبائيسي، والأب ميخائل، رئيس رهبان المنسك، وهو راهب كاهن أيضاً، ما يزال شاباً بعض الشباب، متواضع الأصل، ليس على جانب كبير من العلم، ولكنه صلب النفس، قوي الإيمان بسيط ساذج، ولئن كان قاسي المظهر، فإن في قلبه حساسية عميقة يحاول أن يكبتها حياء وخجلاً. أما الزائر الرابع فهو الأخ آنفيم، وهو راهب قصير، طاعن في السن شديد التواضع، قد خرج من بيئة فلاحين فقراء، لا يكاد يعرف القراءة والكتابة، رقيق دائماً، صموت يندر أن يكلّم أحداً. وهو خاضع مذعن أكثر من أي إنسان آخر، وكأن عظمة الوجود الرهيبة التي لا يستطيع فكره أن يرقى إليها قد روّعته إلى الأبد. لقد كان الأب زوسيما يحب هذا الراهب الذي يبدو مرتجفاً حباً كثيراً، وقد أظهر له خلال حياته كلها احتراماً عظيماً، رغم أنه ليس في هذا العالم إلا قلة من الناس كان يمكن أن يخاطبها أقل مما يخاطب هذا الراهب المتواضع. ولقد عاش في صحبته مع ذلك سنين كثيرة، لأنه طاف معه جميع أرجاء روسيا المقدسة. حدث ذلك منذ زمن بعيد، منذ ما يقرب من أربعين عاماً، أيام كان زوسيما يبدأ حياة الرهبنة بين جدران دير مغمور فقير في مقاطعة كوستروما. فبعد أن دخل زوسيما ذلك الدير بزمن كثير، كُلّف بان يرافق الأخ آنفيم في جولاته لجمع الصدقات لهذا الدير الفقير. كان هؤلاء الزوار جالسين في حجرة الشيخ الثانية، أعني الحجرة التي كان يتخذها مهجعاً له، والتي كانت كما ذكرنا ضيقة جداً، تبلغ من الضيق حدّ أن الرهبان الأربعة (والراهب المبتدئ بورفير الذي ظل واقفاً) لم يكادوا يجدون فيها متسعاً لهم. لقد جاؤوا بكراسيّهم من الغرفة الأخرى وصفوها حول مقعد الشيخ. كان الغسق يهبط، وكانت تضيء الغرفة مصابيح الزيت والشموع الموقدة أمام الأيقونات. فلمّا لمح الشيخ أليوشا الذي لبث واقفاً على عتبة الباب من شدة اضطرابه، ابتسم له ابتسامة فرحة ومدّ إليه يده قائلاً له:

- طاب يومك يا بنيّ الطيب، يا عزيزي أليوشا الوديع. أجئت إذاً؟ لقد كنت أعلم أنك ستجيء.

فاقترب أليوشا منه، وانحنى له حتى الأرض، وأجهش باكياً. كأن شيء ما يتمزق في قلبه، وكانت نفسه منقبضة انقباضاً شديداً، فهو يتمنى أن ينفجر ناشجاً.

قال الشيخ مبتسماً وهو يضع يده اليمنى على رأس أليوشا:

- ما بك؟ لم يحن وقت البكاء عليّ بعد. ها أنت ذا تراني أتحدث جالساً في هدوء. ومن يدري؟ فقد أعيش عشرين عاماً أخرى كما تمنّت لي ذلك بالأمس تلك المرأة الطيبة العزيزة التي جاءت من فيشيجوريي وكانت تحمل بين ذراعيها صغيرتها ليزافيتا. أسأل الله أن يحرس الأم والبنية! (رسم الشيخ إشارة الصليب وهو ينطق بهذه الكلمات). هل حملت عطاءها يا بوفيري إلى حيث قلت لك أن تحمله؟

كان الشيخ يشير إلى مبلغ الستين كوبك التي تصدقت بها أمس تلك المرأة الفرحة المعجبة بالشيخ من أجل أن يهبها «لمن هو أفقر منها». إن الصدقات التي من هذا النوع إنما يتصدق بها أصحابها في العادة على أثر نذر ينذرونه أحراراً فلا بد لهم من اقتطاعه من حصيلة عملهم. وقد أمر الشيخ في ذلك المساء نفسه بأن يحمل بورفيري هذا المبلغ الزهيد إلى امرأة فقيرة من ساكنات المدينة، هي أرملة لها ولدان قد احترق منزلها في الآونة الأخيرة فأصبحت منذ ذلك الحين تستعطي لتعيش. أسرع بورفيري يقول إنه نفذ الأمر فأعطى المرأة الفقيرة ذلك المبلغ قائلاً إنه من «محسنة لم تشأ أن تذكر اسمها».

تابع الشيخ كلامه يقول لأليوشا:

- انهض يا صديقي العزيز لأراك قليلاً. هل ذهبت إلى ذويك، وهل رأيت أخاك؟

دُهش أليوشا من سؤال الشيخ عن أحد أخويه بمثل هذا الإلحاح. ولكن أي الأخوين يقصد؟ هل يُستنتج من ذلك أن الشيخ إنما أرسله إلى المدينة أمس واليوم بسبب هذا الأخ؟

أجاب أليوشا قائلاً:

- رأيت أحد أخوي.

- أقصد أخاك الأكبر، أخاك ذاك الرهيب الذي سجدت له أمس.

- ذاك لم أره إلا أمس، ولم أستطع أن ألقاه اليوم.

- حاول أن تهتدي إليه بسرعة. عد إلى المدينة من الغد لرؤيته. دع كل شيء، ولكن رتب أمورك لإدراكه. ربما كان لا يزال في الوقت متسع لتجنب مصيبة. لقد انحنيت أمس للآلام الكبرى التي تنتظره.

وصمت الشيخ فجأة، وشرد فكره كأنه يحلم. لقد كانت أقواله غريبة. وهذا هو الأب يوسف الذي شهد بالأمس تحية الشيخ لدمتري يبادل الأب بائيسي نظرة. ولم يستطع أليوشا أن يتمالك نفسه، فصاح يقول وقد استولى عليه انفعال شديد:

- أبي ومعلمي! إن ما قلته الآن يبدو غامضاً مسرفاً في الغموض... ما هي الآلام التي تنتظره؟

- لا تحاول أن تعرف ذلك. لقد تراءى لي بالأمس أنني أدرك شيئاً رهيباً... لقد قرأت مصيره في نظرته. رأيت في لحظة معينة تعبيراً خاصاً في عينيه... تعبيراً أرعشني بسبب المصير الذي يهيئ هذا الإنسان له نفسه. سبق لي مرة أو مرتين في الماضي أن لاحظت ذلك التعبير في نظرة الناس انعكاساً لمصيرهم المقبل، فتحقق ذاك المصير واأسفاه! ولقد أرسلتك إليه يا أليوشا آملاً أن تستطيع كلمتك الأخوية أن تساعده بعض المساعدة. ولكن مصيرنا جميعاً هو بين يدي الرب. «إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها، ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير» [153] احفظ هذه الحقيقة. أما أنت يا أليوشا فاعلم أنني كثيراً ما باركتك في فكري بسبب تعبير وجهك (كذلك أضاف الشيخ يقول وهو يبتسم ابتسامة عذبة وديعة). إليك رأيي فيك: سوف تترك الدير، وسوف تعيش في العالم كراهب. سيكون لك أعداء كثيرون، ولكنهم سيحبونك هم أيضاً. إن الحياة تخبئ لك آلاماً كثيرة، ولكنك بهذه الآلام انما ستسعد وستبارك الوجود. وستحمل الآخرين أيضاً على أن يباركوه، وذلك هو الشيء الأساسي. ذلك هو رأيي فيك وحكمي عليك.

التفت الشيخ إلى زواره فقال يخاطبهم وهو يبتسم ابتسامة ودوداً:

- يا آبائي ومعلميّ، إنني لم أقل إلى الآن حتى لهذا الفتى لماذا يستعذب قلبي وجهه. فسأسِرّ اليكم الآن بهذا. كنت أرى في قسماته ذكرى الماضي ونذير المستقبل. ففي فجر حياتي، حين كنت لا أزال في سن الطفولة، كان لي أخ أكبر مات أمام عينيّ في ريعان شبابه ولمّا يكمل السنة السابعة عشرة من عمره. ولقد رسخ في اعتقادي أثناء حياتي، شيئاً بعد شيء، أن هذا الأخ كان له في تحديد مصيري دور حاسم. وقد كان لي نذيراً وإشارة من الملأ الأعلى، ويقيني أنني لولاه لما سرت في طريق الرهبنة ولا اخترت الدرب الذي قادني إلى السعادة هذا. إن هذا التجلي الأول للعناية الإلهية قد حدث في فجر أيامي، وها أنذا أرى تكرره في خاتمة المطاف من طريقي. إنه الشيء بارز، يا آبائي ومعلميّ، أن ألكسي الذي لا يشبه أخي ذاك كثيراً بوجهه - فإنه ليس له منه إلا بعض السمات الخارجية - قد بدا لي شبيهاً به كل الشبه من الناحية الروحية لله ولطالما حسبته ذلك الأخ المراهق نفسه الذي كان لي في الماضي وقد آب إليّ الآن أوبة سرية في أواخر أيامي ذكرى من الماضي ونداء إلى التأمل، حتى لقد دهشت أنا نفسي في بعض الأحيان من غرابة هذه الظاهرة ودهشت من غرابة الحلم الذي كان يغرقني فيه. هل تسمعني يا بورفير؟ (كذلك قال يخاطب الراهب المبتدئ المكلف بخدمته). كم من مرة لاحظت فيك تعبيراً عن الحزن لأنني أحبّ ألكسي أكثر مما أحبك. فها أنت ذا تعرف سبب

ذلك الآن. ولكن اعلم أنني أحبك كثيراً أنت أيضاً. ولطالما أحزنني حزنك. يا ضيوفي الأعزاء، اسمحوا لي أن أحدثكم عن أخي الفتى ذاك، لأنني لم أعرف في حياتي طيفاً أحبّ من طيفه إلى قلبي، ولا أشد تأثيراً في نفسي، ولا أصدق نبوءة في كل شأن من شؤوني. إن قلبي ممتلئ به في هذه اللحظة، لأني أرى فيه حياتي مرة أخرى رؤية كاملة كأنني أعيشها من جديد...

يجب أن أنبه القارئ هنا إلى أن هذا الحديث الأخير الذي أجراه الشيخ مع أصدقائه الذين تحلّقوا حوله في آخر يوم من أيام حياته قد حُفظ بعضه مكتوباً. ذلك أن ألكسي فيدوروفتس كارامازوف قد سجّله بعد موت الشيخ بقليل. لا أستطيع أن أقطع على وجه اليقين بأن ما رواه ألكسي هو نص ذلك الحديث تماماً، وأن ألكسي لم يضف إلى النص فقرات استمدها من أحاديث سابقة لمعلّمه. ويجب أن نلاحظ من جهة أخرى أن ما سجّله الكسي يوهم بأن الشيخ قد ألقى خطاباً متصلاً حتى يروي قصة حياته لزواره، مع أن الشهادات تجمع على أن الأمور جرت في الواقع مجرى آخر يختلف عن هذا المجرى بعض الاختلاف في ذلك المساء. فالحديث قد كان عاماً، ورغم أن أصدقاء الشيخ لم يقاطعوه كثيراً، فقد تدخلوا في الحديث يضيفون كلمة شخصية، وملاحظات شخصية، وربما مسارّات عن حياتهم هم. ثم إنه لم يكن من الممكن أن يتكلم الشيخ بلا توقف، لأن أنفاسه كانت تتقطع أحياناً، ولأن صوته كان يضعف على حين فجأة، ولقد اضطر مراراً أن يمضي إلى سريره يستريح عليه مفتوح العينين بينما ضيوفه في أماكنهم لم يبارحوها. ولقد تخللت الحديث، مرة أو مرتين، قراءة آيات في الأناجيل قرأها الأب بائيسى جهراً. ويجب أن نذكر أن أحداً من الحضور لم يتنبأ بأن الشيخ سيموت في تلك الليلة نفسها، لا سيما وأنه قد بدا عليه في ذلك المساء الأخير أنه قد استرد قوة جديدة على أثر نومه أثناء النهار، وهذه القوة التي استردها على هذا النحو قد شدت ازره وعززت عزيمته طوال الحديث الذي أجراه مع أصدقائه. كان ذلك أشبه بوقدة أخيرة من الحياة أذكت روحه إذكاء قوياً، ولكنها أذكتها وقتاً قصيراً جداً، لأن روحه فاضت دفعة واحدة على حين فجأة... وعن هذا سأتكلم في ما بعد على كل حال. أما الآن فحسبي أن أقول إنني آثرت أن أسقط التفاصيل من هذا الحديث، وأن أقتصر على ما رواه الشيخ، معتمداً على المخطوطة التي خلفها ألكسي فيدوروفتش كارامازوف. فذلك أقرب إلى الإيجاز وأبعد عن الإملال، رغم أن أليوشا، كما سبق أن قلت ذلك، قد ضمّن ما دوّنه فقرات كثيرة استمدها من أحاديث سابقة له مع الشيخ..

-2- مقتطفات من حياة المرحوم الكاهن الراهب الشيخ زوسيما

جمعها ودوّنها نقلاً عنه ألكسي فيدوروفتش كارامازوف

وقائع من سيرة حياة

أ) الفتى أخو الشيخ زوسيما:

آبائي ومعلميّ الأحبة! ولدت بمدينة ف... في مقاطعة نائية بشمال روسيا. كان أبي من طبقة النبلاء، ولكنه من صغار النبلاء، ولم يكن يحتل رتبة عالية في سلّم رتب الدولة. وقد مات ولمّا أتجاوز السنة الثانية من عمري، فليس في ذهني أي ذكرى عنه. وقد ترك لأمي منزلاً من خشب، ليس بالكبير، وترك لها رأس مال متواضعاً، ولكنه كاف لأن تعيش مع أولادها في منجى من العوز. كنا ولدين. أخي الأكبر، مارسيل، وأنا، زينوفي. كان أخي أكبر مني بثمانية أعوام، وكان جامح الطبع شديد النزق، ولكنه كان طيب القلب، لا يسخر من الآخرين قط، وكان كثير الصمت إلى حد غريب، ولا سيما مع ذويه، أي معي ومع أمي ومع الخدم. وكان في المدرسة مجداً مجتهداً ويبرهن عن ذكاء قوي ومع ذلك كان لا يألف رفاقه في المدرسة كثيراً، ولكنه لا يشاجرهم أيضاً. تلك هي على الأقل الذكرى التي حفظتها أمي عنه. وقبل نهايته بستة أشهر، بينما كان يدخل السنة الثامنة عشر من عمره، توثقت الصلة بينه وبين رجل كان يعيش في مدينتنا حياة اعتزال، رجل يشبه أن يكون منفياً سياسياً، لأنه أجبر على أن يغادر موسكو بأمر سامٍ، وأن يحدد إقامته في مدينتنا بسبب آرائه الليبرالية ودعوته إلى الحرية. كان هذا الرجل عالماً كبيراً وفيلسوفاً تقدره الأوساط الجامعية تقديراً كبيراً. وقد أحبّ أخي مارسيل، لا أدري لماذا، فكان يستقبله كثيراً في منزله. فقضى أخي عند هذا الرجل سهرات طويلة، على مدى فصل الشتاء كله إلى أن استدعي الرجل إلى سان بطرسبرج ليُعهد إليه بمنصب رسمي، لأنه كان ذا صلات مع جهات عليا. كان هذا في وقت الصيام الكبير، وقد رفض أخي أن يصوم، مستهزئاً بالعبادات متهكماً عليها، حتى لقد قال: «هذه سخافات وأباطيل، لأن الله لا وجود له»، فما كان أشد رعبنا جميعاً من هذا الكلام، أنا وأمي والخدم! لقد شعرت حين سمعت قوله ذاك بهول رهيب، رغم أنني لم أكن قد تجاوزت السنة التاسعة من عمري في ذلك الحين. وكان جميع خدمنا، وهم أربعة فحسب، أقناناً اشتريناهم باسم رجل من مالكي الأطيان كنا على صلة به. وما زلت أتذكر اليوم الذي باعت أمي فيه إحدى خادماتنا، وهي الطباخة العجوز العرجاء آفيميا، بستين روبلاً ورقاً، واستخدمت بدلاً منها خادماً ليست من الأقنان. وها هو ذا أخي يُصاب بمرض أثناء الأسبوع السادس من الصيام الكبير. لقد كان أخي ضعيف البنية كثير المرض، عنده قابليّة للإصابة بالسل. إنه قصير القد نحيل القامة هزيل الجسم، ولكنه وسيم الطلعة جميل الوجه. تُرى هل أصابه برد؟ المهم أن الطبيب الذي كان يعالجه قد أسرّ إلى أمي خفية أن مارسيل مصاب بسل يتفاقم تفاقماً سريعاً وأنه لن يعيش إلى آخر الربيع. فأخذت أمي تبكي وتضرعت إلى مارسيل محاذرة (حتى لا تروّعه خاصة) أن يصوم ويتناول القربان المقدس في عيد الفصح. ذلك أنه لم يكن قد اضطر بعدُ إلى ملازمة الفراش. فأجابها أخي غاضباً وحقّر الكنيسة وأهانها وشتمها ولكنه أطرق مستغرقاً في التفكير. لقد أدرك على الفور خطورة حالته حين رأى إلحاح أمي عليه أن يذهب إلى كنيسة ليصوم ويتناول القربان المقدس ما دام لا يزال يملك من القوة ما يسمح له بذلك. ثم إنه كان يعرف أنه مريض منذ زمن طويل، حتى لقد قال لنا منذ ما يقرب من عام، بينما كنا على المائدة أنا وهو وأمي: «إنني لن أعيش زمناً طويلاً، وقد لا أكون معكم بعد سنة». وها قد تحقق ما كان يوجسه. انقضت ثلاثة أيام ودخلنا أسبوع الآلام. فإذا بأخي يذهب إلى الكنيسة منذ صباح الثلاثاء قائلاً لأمي: «إنني أذهب إلى الكنيسة من أجلك أنت يا أماه، وذلك حتى تطمئني بالاً وتهدئي نفساً». فبكت أمي، فرحاً في أول الأمر، وحزناً وألماً بعد ذلك. وحدثت نفسها قائلة: «لا شك أن نهايته قريبة ما دام قد حدث هذا التبدل فيه». ولم يتح له أن يكثر من الذهاب إلى الكنيسة، لأنه اضطر إلى ملازمة الفراش، فصار يعترف ويتناول في المنزل. لقد جاء الفصح متأخراً في ذلك العام. الأيام صافية مضيئة، والهواء عبق معطّر. أذكر أن أخي كان يسعل في جميع الليالي، ولا يكاد ينام. حتى إذا طلع الصباح ارتدى ملابسه وحاول أن يجلس على أريكة. وفي هذه الصورة إنما أراه الآن: جالساً، وديعاً، رقيقاً، مبتسماً، مريضاً جداً ولكنه مرح جداً، سعيد جداً في الظاهر. لقد تبدّلت نفسه تبدلاً كبيراً، فبدا لي هذا التبدل خارقاً. قالت له الخادم العجوز يوماً:

«اسمح لي يا بنيّ العزيز أن أشعل شمعة أمام الأيقونة في غرفتك». ما كان لأخي أن يرضى بهذا من قبل، وربما نفخ على الشمعة فأطفأها. ولكنه قال يومئذ للخادم العجوز: «اشعلي يا عزيزتي، اشعلي! ألا ما كان أشد شذوذي حين كنت أمنعك من ذلك! أنت تصلين لله حين تشعلين شمعة أمام الأيقونة، وأنا أيضاً أصلي لله حين أنظر إليك، لأن مرآك يبهج قلبي، ونحن كلانا يصلي إذاً لإله واحد». بدت لنا تلك الأقوال غريبة حينذاك. وكانت أمي لا تنفك تبكي خفية، وتجفف دموعها قبل أن تدنو منه، محاولة أن تصطنع هيئة فرحة. فكان يقول لها في بعض الأحيان: «لا تبكي يا أماه، يا ملاكي الصغير، فلسوف أعيش زمناً طويلاً، ولسوف أبتهج معكم، فجميلة هي الحياة، وزاخرة بالسعادة والفرح!».

وكانت أمي تقول له محتجّة: «أين البهجة، وأنت مصاب بالحمى في كل ليلة، وتسعل حتى ليكاد ينفجر صدرك؟»، فيعود يقول لها: «لا تبكي يا أماه، فالحياة جنة نحن فيها جميعاً، ولكننا لا نريد أن نعترف بذلك، فلو ارتضينا أن نسلّم بذلك لأصبحت الحياة جنة منذ اليوم». كانت هذه الأقوال تدهشنا، لأنه كان يتكلم مقتنعاً بما يقوله اقتناعاً راسخاً. وكنا نتأثر من هذا الكلام تأثراً قوياً، فتترقرق في أعيننا الدموع. وكان يزورنا بعض الأصحاب فإذا هو يقول لهم: «يا أعزائي، يا أصدقائي الطيبين، ماذا فعلت حتى أستحق حبكم؟ كيف تستطيعون أن تحبوا شاباً مثلي؟ ولماذا لم أعرف من قبل كيف أنهم عاطفتكم وكيف أقدرها؟» وكان يكرر للخدم دائماً قوله: «لماذا تخدمونني؟ يا أصدقائي الأعزاء الطيبين؟ ما الذي يجعلني أستحق أن تخدموني؟ إذا منّ عليّ الله فأبقاني حياً، فلأخدمنّكم أنا، لأن علينا أن يخدم بعضنا بعضاً في هذه الحياة الدنيا». فكانت أمي تهز رأسها حين تسمعه يتكلم على هذا النحو، فتقول له: «إن المرض هو الذي يوحي إليك بهذه الأفكار يا بنيّ»، فيجيبها قائلاً: «أماه، يا فرحة حياتي! أنا أعلم أنه لا بد أن يكون هناك سادة وخدم، ولكنني أتمنى أن أكون خادم خدمي، وأن أخدمهم كما يخدمونني، وأحب أن تعلمي أيضاً، أن كلاً منا مذنب في حق الآخرين ومسؤول عن جميع آلامهم. وأنا أكبر ذنباً من سائر الناس». لم تستطع أمي أن تمنع نفسها من الضحك حين قال لها هذا الكلام. وكانت تبكي وتضحك في آن واحد. سألته: «هلاّ قلت لي كيف تكون أكبر ذنباً من سائر الناس؟ إن العالم مليء باللصوص والقتلة، أما أنت فإن وقتك لم يتسع حتى لارتكاب ذنب ومقارفة إثم! فكيف يمكنك أن تتهم نفسك هذا الاتهام؟» قال أخي: «يا أماه! يا حملي الوديع! (ذلك أنه كان يجد عندئذ ألفاظاً للملاطفة لا تخطر بالبال)، يا فرحتي الكبيرة، يا حمامتي اللطيفة! أؤكد لك أن كل إنسان في هذه الحياة الدنيا مرتكب جميع الذنوب، في حق جميع الناس. لا أدري كيف أشرح لك هذا الأمر، ولكنني أحسّه، أحسّه إحساساً قوياً عنيفاً إلى حدّ العذاب. كيف رضينا أن نعيش حتى الآن غاضبين بغير انقطاع، لا نفهم من الحياة شيئاً؟» وكان يستيقظ كل يوم وقد ازداد قلبه رقة وحناناً، وطفحت نفسه فرحاً ومحبة. وكان الطبيب العجوز الألماني آيزنشمدت، يعوده أحياناً. فسأله أخي ذات يوم ضاحكاً: «هيه يا دكتور! أأعيش إلى الغد؟» فأجابه الطبيب: «ستعيش لا إلى الغد فحسب، وإنما ستعيش أياماً وأشهراً بل سنين». فهتف عندئذ يقول: «ما خير أن يعيش المرء أشهراً وسنين؟ إن يوماً واحداً لكاف من أجل أن يعرف الإنسان كل سعادة هذا العالم. يا أصدقائي الأعزاء! ما بالنا نتشاجر ونتباهى ويحقد بعضنا على بعض لإساءة نالته. ألا فلنخرج إلى الحديقة فنبتهج ويحب بعضنا بعضاً! ألا فليتغن كل منا بفضائل أخيه! ألا فلنتعانق ونبارك الحياة!» قال الطبيب لأمي حين شيّعته إلى درج الباب: «لن يعيش ابنك طويلاً. لقد اختلّ من المرض عقله». وكانت غرفته تطل على الحديقة الظليلة المليئة بالأشجار الكبيرة التي نبتت على فروعها البراعم، وكانت أوائل عصافير الربيع التي وصلت منذ زمن قصير تزقزق وتغرد تحت نوافذه، فكان يتأملها طويلاً ويعجب بها كثيراً، حتى لقد أخذ في ذات يوم يستغفرها هي أيضاً قائلاً لها: «أيتها العصافير التي خلقها الله، أيتها الطيور الصغيرة، اغفري لي أنت أيضاً، لأنني أذنبت في حقك». وبدا لنا هذا أمراً لا سبيل إلى فهمه قط، وكان هو يبكي عطفاً وحناناً. وقال فرحاً: «نعم، لقد كانت عظمة الله مبسوطة أمامي: الطيور والأشجار والمراعي والسماوات. إلا أنا، فقد كنت أعيش في الخزي والعار، مسيئاً إلى شرف الخليقة، ولم أكن أرى جمال الحياة وسناءها». فكانت أمي تقول له باكية: «إنك تتهم نفسك بخطايا كثيرة، فيقول لها: «أماه يا فرحة نفسي، إنني من سعادة لا من حزن أبكي. وددت لو أكون مذنباً في حق العصافير الصغيرة! لا أستطيع أن أشرح لك هذا، لأنني لا أعرف كيف أحبها. ألا فلأكن مذنباً في حق الجميع، وإذن فسيغفر لي الجميع أيضاً. تلك هي الجنة. ألست الآن في الجنة؟».

وكان يقول أشياء أخرى أصبحت لا أتذكرها. دخلت ذات يوم إلى غرفته وكان وحده. كان ذلك في المساء، والجو صاح مضيء، والشمس الغاربة تغرق الغرفة بأشعتها المائلة. فلمّا رآني أشار إليّ أن أقترب، ثم وضع يديه على كتفي وتأملني طويلاً متفرساً في عيني، وقد بدا في وجهه حب وحنان. وانقضت على ذلك دقيقة دون أن ينطق بكلمة ثم أسبل يديه وقال لي: «هيّا العب الآن وابتهج! إنني أريد أن تحيا عني!»، خرجت ومضيت ألعب، ولكنني كثيراً ما فكرت أثناء حياتي، والدموع في عينيّ، في هذا الأمر الذي أصدره إليّ، وهو أن أحل محله في هذا العالم. وفي مرات كثيرة بعد ذلك عبّر عن عواطف رائعة سامية رفيعة، لم نكن نفهمها كثيراً في ذلك الحين. وانطفأ في الأسبوع الثالث بعد عيد الفصح، واعياً كل الوعي، صاحياً كل الصحو، ورغم أنه أصبح لا يتكلم في أواخر أيامه، فقد ظل على ما كان عليه حتى ساعته الأخيرة، ينظر إلينا سعيداً فرحاً مبتسماً، ويبحث عنا وينادينا بعينيه. وقد تكلم الناس عن موته كثيراً في مدينتنا. وأثّر هذا الحادث

في نفسي ولكن بدون إفراط، وإن أكن قد ذرفت دموعاً سخية يوم الجنازة. لقد كنت صغيراً جداً، كنت طفلاً، ولكن ذكرى هذا الأخ ستظل قائمة في أعماق قلبي، لتنتصب أمامي متى آن الأوان، نداء من الملأ الأعلى. هكذا جرت الأمور فعلاً.

ب) أثر الكتاب المقدس في حياة الأب زوسيما:

بقيت وحيداً مع أمي. ولم يلبث أصدقاء طيبون أن قالوا لها إنها تحسن صنعاً، بعد أن لم يبقَ لها إلا ابن واحد، وما هي محرومة من الموارد، أن ترسل هذا الابن إلى بطرسبرج للدراسة، على غرار ما تفعل أسر نبيلة أخرى، وأكد هؤلاء الأصدقاء أنها، إذا هي احتفظت بابنها إلى جانبها في مدينة صغيرة، تعرّضه للحرمان من مستقبل لامع. وأقنعوا أمي أخيراً بأن تسجلني في «المدرسة الحربية» ببطرسبرج، لأكون في المستقبل ضابطاً من ضباط الحرس الإمبراطوري. وقد ترددت أمي كثيراً في العزم على فراق ابنها الأخير، ولكنها اتخذت قرارها أخيراً وهي تبكي، فألحقتني بالمدرسة الحربية معتقدة أنها بذلك تؤمّن سعادتي. ثم لم أرها منذ ذلك الحين، لأنها ماتت بعد ثلاث سنين، وهي في أثناء تلك الفترة لم تنقطع عن البكاء حزناً على ابنها الفقيد، ولا انقطعت عن الارتعاد قلقاً على مصير ابنها الباقي. وقد احتفظ خيالي بذكريات مضيئة عن المنزل الذي عشت فيه مع أمي، لأن أصفى مشاعر القلب الإنساني هي المشاعر التي يكون قد أحسّها المرء في سني طفولته في بيت أبويه. الأمر كذلك دائماً متى كان الحب والوفاق مسيطرين على حياة الأسرة. ولكن ذكريات الطفولة يمكن أن تكون ذكريات سعيدة حتى في الأسر الممزقة متى كانت النفس قادرة على أن ترى وأن تجني من عناصر الوجود ما هو طيب نبيل. ولقد ارتبطت سيرة القديسين بذكريات طفولتي، لأنني كنت أهتم بها أثناء طفولتي اهتماماً كبيراً. كنت أملك كتاباً فيه صورة جميلة عنوانه: «مائة وأربع قصص مستمدة من التوراة والإنجيل»[154]، وفي هذا الكتاب إنما تعلمت القراءة. وما يزال هذا الكتاب عندي حتى الآن. هو هناك، على الرف، وأنا أحافظ عليه محافظتي على أثر ثمين جداً من آثار الماضي. على أنني أتذكر أن التجلي الروحي الأول الذي شعرت به إنما كان قبل تعلمي القراءة، ولم أكن قد تجاوزت الثامنة من عمري حينذاك. لقد قادتني أمي إلى الكنيسة للصلاة في يوم الاثنين من «أسبوع آلام السيد المسيح» (لا أدري الآن أين كان أخي حينذاك). النهار صحو، والشمس ساطعة، وما زلت أرى حتى هذه اللحظة، كأن الأمر قد وقع أمس، ما زلت أرى أدخنة البخور تتصاعد بطيئة نحو القبة، وفي أعلى الكنيسة كانت أشعة الشمس تنفذ من نافذة ضيقة هابطة نحونا، فكانت أدخنة البخور كأنها تندفع لاستقبالها أمواجاً متسقة، ثم تنصهر في الضياء الذهبي أخيراً. كنت أتأمل هذا المشهد معجباً، وأحسست أن بذرة «كلمة الرب» تُغرس في نفسي. وتقدم مراهق إلى وسط المعبد. كان يحمل كتاباً كبيراً يبلغ من الثقل أن الفتى كان يبدو أنه ينوء بحمله. وضع الفتى الكتاب على منضدة الترتيل، ثم فتحه وأخذ يقرأ. فهمت في ذلك اليوم، لأول مرة في حياتي، ما يُقرأ في الكنيسة: كان يعيش في أرض عوص[155] رجل تقي صالح يملك من الثروات كذا وكذا ومن النوق كذا، ومن الخراف والحمير كذا وكذا. وكان أولاده سعداء فرحين، وكان يحبهم كثيراً، ويصلي من أجلهم للرب. هل ارتكب هؤلاء الأولاد خطيئة ما في سعادتهم؟ ذلك أن إبليس مَثُلَ يوماً أمام الرب مع أبناء الله وقال له إنه طاف الأرض كلها وما تحت الأرض فسأله الرب: «هل رأيت عبدي أيوب؟» وتباهى الرب أمام إبليس بقداسة عبده العظيم أيوب. ولكن إبليس ضحك وأجاب: «مكنّي منه فترى أنه سيعصيك وسيلعن اسمك». فمكّن الرب إبليس من عبده الأمين الذي كان يحبه الرب كثيراً، فضرب الشيطان قطعانه، وضرب أولاده، ودمر ثرواته، وأرسل إليه جميع المصائب دفعة واحدة، كأن صاعقة من عند الله قد نزلت على داره. مزّق أيوب ثيابه، وارتمى على الأرض صائحاً: «لقد خرجت من بطن أمي عارياً، وعارياً سأعود إلى الأرض. وهب الرب لي كل شيء، والرب استردّ ما وهب. تبارك اسم الرب، الآن وفي كل حين!» يا آبائي ومعلميّ، سامحوني إذا رأيتموني أسكب العبرات في هذه اللحظة. إن طفولتي تنبثق الآن أمامي، حتى ليخيل إليّ أنني أتنفس كما كنت أتنفس في طفولتي بذلك الصدر الصغير، صدر الطفل الذي لم يتجاوز السنة الثامنة من عمره. إن ذلك الانفعال هو نفسه الذي أحسست به يومذاك يغزوني في هذه اللحظة، فإذا أنا مدهوش مفتون كما كنت مدهوشاً مفتوناً في ذلك اليوم البعيد بالكنيسة. لقد أحدثت تلك النوق تأثيراً قوياً في خيالي، وأذهلتني قصّة الشيطان الذي كلّم الرب، وشدهني قرار الرب أن يمكّن الشيطان من عبده الأمين، وكذلك هتاف العبد مخاطباً ربه: «تبارك اسمك، رغم أنك تعاقبني». ثم تصاعدت في الكنيسة أغنية رقيقة جداً: «سمع الله لصلاتي». وارتفعت أدخنة البخور، وركع المصلون! ومنذ ذلك الحين أصبحت لا أستطيع أن أقرأ تلك القصة المقدسة - قد حدث لي هذا أمس أيضاً - إلا وتنسكب الدموع من عيني. ما أروع العظمة والسرّ الخارقين اللذين ينبعان من هذا النص! لقد اتفق لي أن سمعت نقداً لهذا النص من أناس يقبّحون الدين ويثلبونه، أناس أعماهم غرورهم وصَلَفهم فهم يسخرون مما لا يفهمون، قالو: كيف يمكّن الربّ الشيطان من قديسه الأثير، فيستهزئ الشيطان بالقديس، ويخطف أولاده، ويرسل إليه الأمراض، ويغطي جسمه بالقروح، حتى صار يزيح القيح عن قروحه بشقفة من فخار؟ أكل هذا من أجل أن يتباهى الرب أمام الشيطان قائلاً: «انظر ماذا يستطيع أن يتحمله واحد من أوليائي الصالحين في سبيل محبتي!؟» لقد غاب عن هؤلاء الناقدين أن عظمة هذه القصة إنما هي في هذا السر الذي يتأكد فيها! إن الظاهرة العَرَضية للحياة الأرضية تلامس في هذه القصة الحقيقة الأبدية التي لا ندركها. فمن خلال ما يبدو لنا على أنه واقع الأرض، يتجلى فعل حقيقة أبدية تفوق هذا الواقع. إن الخالق في هذه القصة يتصرف كما تصرف في الأيام الأولى من الخلق حين قال إنه أبدع فيما صنع. إنه ينظر إلى أيوب فيبهجه أنه خلقه، وأيوب الذي يمجِّد الرب لا يخدم الرب وحده بل يخدم الخليقة أيضاً، من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل، فذلك هو ما يسّر له. رباه ما أروعه سفراً، وما أروعها تعاليم! ما أعظم الكتاب المقدس، وما أكبر تلك القوة المعجزة التي توقظها في الإنسان! لكأنه صورة الكون والإنسان نفسه. كل شيء قد قيل فيه وأعلن لقرون. ما أعظم الأسرار التي يكشف عنها ويحلها! إن الرب يردّ السعادة إلى أيوب، ويهب له ثروات جديدة، وتنقضي أعوام فيولد له أولاد آخرون يحبهم أيضاً. رباه! قد يتسائل متسائل: «فكيف استطاع أن يحبهم وقد غاب أبناؤه الأول إلى غير رجعة؟ هل يمكن أن يشعر بأنه سعيد حقاً بين أولاده الجدد، مهما يكونوا أحبةً في قلبه، إذا هو تذكر أولئك الذين غابوا إلى الأبد؟» الحق أنه كان يستطيع أن يشعر بالسعادة، لأن الآلام القديمة تهدأ بمرور الزمن، ويطامنها سرّ الطبيعة الإنسانية الكبير، وتستحيل شيئاً فشيئاً إلى أفراح ساجية. إن الدم الذي يغلي في سن الشباب يفسح المجال في الشيخوخة لهدوء ساكن. إنني أبارك في جميع الأيام طلوع الشمس، وإن قلبي ليبتهج بشروقها كما كان يبتهج به في الماضي، ولكنني أؤثر اليوم مجد الكوكب الغارب وأشعته المائلة التي توقظ في نفسي ذكريات بعيدة عذبة، وتحيي أطياف الماضي الحبيبة من حياة طويلة مباركة. ففوق هذه الذكريات تحلّق الحقيقة الإلهية التي تهدئ وتصالح وتبرئ! سوف أموت، أنا أعرف ذلك وأفهمه، ولكني أحسّ في كل يوم يوهب لي بأن الحياة ماتزال توهب لي وأن حياتي الأرضية تندفع نحو حياة جديدة، أبدية، لا نهاية لها، ولكنها منذ الآن قريبة يملأ الإحساس بها نفسي إعجاباً، ويبكي قلبي فرحاً ويشع عقلي... يا أصدقائي ومعلميّ! لقد سمعت من يقول، سمعت ذلك مراراً وأسمعه الآن أكثر من أي وقت مضى، إن الكهنة، ولا سيما كهنة الأرياف يشكون مرّ الشكوى من أن راتبهم غير كافٍ، ومن أن منزلتهم الاجتماعية وضيعة، قائلين بل كاتبين - وقد قرأت ذلك بعينيّ - أنهم أصبحوا عاجزين عن شرح الإنجيل للشعب، بسبب قلة رزقهم. «إذا جاء لوثريون أو هراطقة فأضلوا رعايانا، فليفعلوا ذلك، لأننا لا نجني من الرزق ما يكفينا». هكذا يقولون. يا عدالة السماء! إلا أنني لأسأل الرب أن يربي راتبهم هذا الذي يحرصون عليه ذلك الحرص كله (لأن شكواهم لا تخلو من حق) ولكنني أقول مخلصاً: من المسؤول عن هذا الوضع إن لم نكن نحن المسؤولين عنه إلى حد ما؟ إنني أسلم بأن القس في الريف مثقل بأعباء العمل، وليس في وقته من الفراغ ما يمكّنه من الاهتمام بالشعب. ولكنني أرى أن وظيفته وعمله لا يشغلانه إلى الحد الذي يعجز فيه عن أن يقف على الرب ولو ساعة من وقته في الأسبوع. ثم إنه لا يعمل طوال السنة بلا انقطاع. ألا فليجمع في داره، مرةً في الأسبوع، ساعة المساء، ألا فليجمع الأطفال في أول الأمر، إذا بآبائهم يعلمون ذلك فيجيئون هم أيضاً، لا حاجة إلى أن يكون هناك مكان خاص يُعقد فيه هذا الاجتماع. ما على القس إلا أن يجمع الناس في منزله الفقير نفسه، وليس له أن يخاف، فإنهم لن يفسدوا مسكنه! ما ساعة في الأسبوع؟ ألا فليفتح التوراة المقدسة فيقرأ لهم فيها بغير فصاحة مصطنعة! فليقرأ قراءة بسيطة طبيعية، مبتهجاً بأن الناس يسمعونه ويفهمونه، ممتلئاً بحب النص المقدس. وفي وسعه أن يتوقف عن القراءة من حين إلى حين ليشرح معنى كلمة لا يعرف معناها أبناء الشعب. وليكن على يقين من أنهم سيفهمون بسرعة. لأن الروح الأرثوذكسية تحسّ الحقيقة إحساساً سريعاً، إن القصص التي تروي حياة إبراهيم وسارة، وإسحق وربيكا، ويعقوب الذي ذهب إلى عند لابان[156]، وقال بعد أن اصطرع مع الرب في الحلم: «هذا مكان رهيب»، إن هذه القصص ستمضي قدماً إلى العقل النقي، عقل البسطاء الذين لم تفسدهم الحياة بعد. يجب أن نقص عليهم، وعلى الأطفال خاصةً، قصة الفتى الجميل الفتان يوسف[157]، النبي الكبير، مفسّر الأحلام، كيف باعه إخوته ثم زعموا لأبيهم أن ذئباً أكله، وأظهروا أباهم على ثيابه الملطخة بالدم تدليلاً على صدق قولهم، وكيف سافر إخوته بعد ذلك إلى مصر التماساً للخبز، وكان يوسف قد أصبح فيها عظيماً من عظماء رجال فرعون، ولكنهم لم يعرفوه، فاضطهدهم، واتهمهم وحبس بنيامين الفتى رغم ما يكنه لهم من حب: «إنني أحبكم، وإنني لأعذبكم وأنا أحبكم». ذلك أنه لم يستطع أن ينسى اليوم الذي باعه فيه إخوته لأناسٍ من تجار العبيد، في سهل مقفر، قرب بئر، بينما كان يضرع إليهم باكياً عاقفاً ذراعيه ان لا يتركوه للعبودية في أرض غريبة. فلمّا رآهم بعد ذلك العدد الكبير من السنين أحسّ بحبه لهم ينبعث في قلبه، ولكنه عذبهم بسبب تلك الذكرى المرة، وتركهم أخيراً وانصرف، لأنه لم يعد قادراً على أن يحتمل الشكاة التي تصدر عن قلبه هو نفسه. وارتمى على سريره وأجهش باكياً، ثم جفف وجهه وعاد إليهم هادئ النفس مشرق المحيا وقال لهم: «يا إخوتي، أنا يوسف أخوكم». وليقرأ القس للناس تتمة القصة: كيف سرّ يعقوب حين عرف أن ابنه لم يمت، وكيف سافر هو أيضاً إلى مصر، هاجراً الأرض التي وُلد فيها، ومات على تراب غير تراب وطنه، تاركاً في وصيته أكبر وعد سيتحقق للإنسانية على مدى العصور، كاشفاً عن السر الذي كتمه طول حياته في

قلبه المتواضع الوجل، ألا وهو الوعد الذي يبشر الإنسانية بأنه سيولد من نسله في يوم من الأيام إنسان هو أمل العالم، وهو للإنسانية مخلّصها وفاديها [158] ! يا آبائي ومعلميّ! اغفروا لي إنني أذكركم، كتلميذ صغير، بأشياء تعرفونها منذ زمن طويل، ويمكنكم أن تعلّمونيها بأحسن مما أفعل فناً وعلماً، لقد اندفعت مع الحماسة. واغفروا لي دموعي، لأنني أحبّ هذا السفر. وإذا استطاع القس أن يبكي هو أيضاً أثناء القراءة، فلسوف يرى مدى أثر ذلك في نفوس سامعيه قوة انفعال وعمق عاطفة. ألا إن بذرة لتكفي مهما تكن صغيرة. فإذا بُذرت في قلب البسطاء، لم تفن بعد ذلك يوماً، وإنما هي تعيش في نفوسهم وتظل تثمر طوال حياتهم، من أعماق ظلمات ضلالاتهم وخطاياهم، نبعاً من ضياء، وذكرى عظيمة. لا حاجة إلى شروح طويلة واستطرادات متعالمة يتيه في شعابها الفكر. إن أبناء الشعب يفهمون الأمور ببساطة كبيرة. أتظنون أنهم عاجزون عن ذلك؟ قوموا إذاً بهذه التجربة، اقرأوا لهم تلك القصة الجميلة المؤثرة، قصة أستير الرائعة وفاستي المتكبرة [159] ، أو اقرأوا لهم تلك القصة الرائعة عن مغامرة يونس في جوف الحوت [160] . ولا تنسوا كذلك رموز الرب، ولا سيما رموز الإنجيل كما وردت في كتاب القديس لوقا [161] (وذلك ما كنت أفعله دائماً)، اقرأوا لهم من أعمال الرسل دعوة شاؤول [162] (هذا لا بد منه، لا بد منه) واقرأوا لهم في كتاب الشهداء حياة ألكسي ولي الله، وكذلك حياة كبرى الشهيدات مريم القبطية [163] . فلسوف ترون مدى تأثير هذه القصص البسيطة في قلوبهم! تكفي ساعة في الأسبوع، ساعة واحدة، رغم قلة الراتب. فإذا ارتضى القس بذل هذا الجهد لم يلبث أن يدرك أن لشعبنا نفساً كريمة تعترف بالجميل. لسوف يرد إليه الفلاح معروفه مضاعفاً مائة مرة. لسوف يتذكر نشاط القس وقراءاته المؤثرة، فإذا هو يهبّ من تلقاء نفسه إلى مساعدته في أعماله في الحقل أو المنزل. ولسوف يمحضه احتراماً متزايداً، وهذه المزايا، مجتمعة، تساوي زيادة في الدخل، ذلك حل يبلغ من السهولة في الواقع أن المرء يستحي أحياناً أن يقترحه، مخافة أن يُضحَك عليه. ومع ذلك فهذه هي الحقيقة! إن من لا يؤمن بالله لا يؤمن بشعبه أيضاً. ولكن الذي لا يشك في شعبه، لن يلبث أن تتجلى له قداسة روح الشعب، ولو لم تخطر على باله يوماً قبل ذلك. إن مثقفينا الملحدين، الذين أصبحوا غرباء عن الأرض التي أنبتتهم، لن ينقذهم ولن يردهم إلى طريق الرشاد إلا شعبنا الذي ستتأكد قوته الروحية في يوم من الأيام. ما قيمة أقوال المسيح إذا لم تسندها قوة القدوة؟ ألا إن الشعب ليهلك ويفنى ما لم تنجده الكلمة الإلهية، لأن الشعب ظامىء إلى هذه الكلمة، وإلى مثل أعلى أخلاقي رفيع.

في أثناء شبابي، منذ أكثر من أربعين عاماً، طفت أرجاء روسيا بصحبة الأب آنفيم نجمع المعونات لديرنا الفقير. ففي ذات يوم، توقفنا ليلاً عند شاطىء نهر كبير من الأنهار الصالحة للملاحة، بين الصيادين. فجلس إلى جانبنا فتى مليح الوجه هو فلاح في نحو الثامنة عشرة من عمره كان يتعجل الالتحاق بعمله في الغد، لأنه قد استؤجر لجر سفينة تجارية. كان الفتى ينظر أمامه حالماً بعينيه الصافيتين الحلوتين. الليلة ساجية حارة، هي ليلة مشرقة مضيئة من ليالي شهر تموز/ يوليو. ومن النهر العريض تتصاعد أبخرة تحمل إلينا طراوة منعشة. وتنبجس سمكة إلى سطح الماء من حين إلى حين، فتتلاطم الأمواج تلاطماً خفيفاً. سكتت العصافير، فكأن الطبيعة كلها تصلي الله صامتةً في هذه الهدأة التي ترين من حولنا على الأرض والسماء. ونحن وحدنا لم ننم، أنا وهذا الفتى. تحدثنا عن جمال خلق الله وعن سره، عن الأعشاب والنمل والحشرات والنحل، عن جميع هذه المخلوقات التي تعرف طريقها جميعاً في هذا العالم، دون أن يكون لها ذكاء، فإذا هي بهذه المعرفة المعجزة متشهد بعَظَمَة صنع الله وتساهم في كل لحظة بعملها المتواضع، في تحقيق الغايات العليا للخالق. فلاحظت أن هذا الشاب اللطيف المحبب قد تأثر تأثراً قوياً وأن نفسه التهبت حماسة وحمياً. وأسرَّ إليّ بأنه يحب الغابات وطيورها، لأنه كان هو نفسه صائد طيور ويعرف تغريد جميع أنواعها، ويعرف كذلك وسائل اجتذابها. قال لي: «لا شيء أروع من الغابة، وكل شيء في الطبيعة جميل على كل حال» فأجبته قائلاً: «هذا صحيح. كل شيء في خليقة الله رائع ومؤثر، لأن كل شيء فيها حق. انظر إلى الحصان مثلاً، هذا الحيوان النبيل المتعلق بالإنسان ذلك التعلق كله، أو انظر إلى الثور الخاضع المطرق الذي يطعم الإنسان ويعمل من أجله. ما أعذب هذه الحيوانات الأليفة، ما أكرم عاطفتها نحو أصحابها الذين كثيراً ما يضربونها بغير شفقة، ما ألطف الوداعة والثقة اللتين تتجليان في نظراتها! أليس هذا جميلاً؟ إنه لأمر مؤثر في النفس أن نتذكر أن هذه الحيوانات هي بلا خطيئة، لأن كل ما في الكون بريء كامل إلا الإنسان. لقد كان المسيح مع الحيوانات، قبل أن يجيء ليخلصنا». فسألني هذا الفتى:

«هل تعتقد حقا أن المسيح معها أيضاً؟» فأجبته قائلاً:

«وكيف لا يكون الأمر كذلك، ما دامت الكلمة للجميع. إن كل مخلوق، إن كل من تنفس، حتى أحقر ورقة من أوراق الأشجار، يشهد بعَظَمة الخالق ويسبح بحمده. إن كل شيء في الطبيعة يندفع نحو المسيح، ويناديه على غير شعور، لأنه يملك هذه الفضيلة السرية، وهي أنه بغير خطيئة. انظر في الغابة إلى الدب، المخيف الضاري دون أن يكون مسؤولاً عن ذلك!» قلت له هذا وقصصت عليه أن دباً اقترب ذات يوم من قديس عظيم [164] كان يعيش معتزلاً في صومعة صغيرة وسط الغابة. فأشفق الناسك على الوحش الجائع، فهبَّ إلى لقائه بغير وجل، ومدَّ إليه قطعة من خبز كأنما يقول له: «كُلْ في سلام، وليكن المسيح معك»، فابتعد الوحش الضاري طائعاً دون أن يلحق بالقديس أي أذى. تأثر الفتى تأثراً شديداً من أن الدب انصرف دون أن يهجم على القديس ومن أن المسيح كان معه. وصاح يقول: «ما أروع هذا! ما أروع كل شيء إذاً في خلق الله!» وظل مطرقاً مفكراً خلال مدة طويلة، غارقاً في تأملات لطيفة وأحلام عذبة. رأيت أنه فهمني. ثم استلقى قريباً منا ونام بريئاً هادئاً. بارك الرب في الشباب! صلّيت من أجله قبل أن أنام أنا أيضاً. ربِّ ابعث السلام والأمن والضياء إلى جميع مخلوقاتك!

ج) ذكريات سني الشباب التي عاشها الشيخ زوسيما في العالم. المبارزة:

لبثت في المدرسة الحربية ببطرسبرج زمناً طويلاً يقرب من ثماني سنين. إن التربية التي تلقيتها في تلك المدرسة قد كبتت في نفسي كثيراً من مشاعر الطفولة، ولكنني لم أنس تلك المشاعر حقاً. وفي مقابل ذلك أكسبتني هذه التربية أفكاراً وعادات جديدة جعلت مني إنساناً يكاد يكون متوحشاً، إنساناً قاسياً أحمق. وبتعلم اللغة الفرنسية تزينت بآداب المجتمع وطُليت بطلاء من حضارة، أما الجنود الذين كانوا يخدموننا فقد كنا جميعاً، وأنا أيضاً، نعدُّهم بهائم؛ ولعلني كنت أسبق من غيري في ذلك، لأنني كنت في كل أمر من الأمور أكثر تأثراً بالبيئة من سائر رفاقي. ولما أصبحنا ضباطاً كنا مستعدين لأن نبذل دمنا في سبيل شرف كتيبتنا، ولكننا كنا نجهل كل الجهل ما هو الشرف حقاً. ما من أحد منا كان يملك أية فكرة عنه، فلو قيل لنا ما هو الشرف حقاً لرفعنا أكتافنا استخفافاً واحتقاراً ولكنت أنا أوّل من تصرف هذا التصرف. وكنا نكاد نعتز بما ننهمك فيه من سكر ومجون، وما نندفع فيه من وقاحة واستهتار. ونكاد نعدّه مجداً. ليس معنى هذا أننا كنا في قرارة أنفسنا أشراراً. فلقد كان في هؤلاء الشباب خير طبيعي فطري، ولكنهم كانوا يسلكون سلوكاً سيئاً، وكنت أنا في ذلك شراً من سائر رفاقي. وفي تلك الفترة استلمت ثروتي، فأخذت أعيش على ما يريد لي هواي وخيالي وعلى ما يشدّ من رغبات ونزوات، مندفعاً اندفاع الشباب بغير أي تحفظ أو قصد. لقد مخرت ناشراً جميع أشرعتي. ولكن الشيء الغريب هو أنني كنت أقرأ في كثير من الأحيان، حتى لقد كنت أجد في القراءة لذة ومتعة. ومع ذلك لم أفتح التوراة يوماً غير أنني لم أفارقها، وإنما كنت أحتفظ بها قريبةً مني في تنقلاتي، كأنما أنا أنوي أن أقرأها «في يوم من الأيام وساعة من الساعات، في شهر من الأشهر وسنة من السنين». وبعد أربع سنين من الخدمة، وجدت نفسي في مدينة ك... التي كانت كتيبتنا تعسكر فيها. إن المجتمع في هذه المدينة كبير العدد متنوع الملأ. وكان أكثر هؤلاء أناساً أغنياء لطافاً يعيشون حياة فرح وبهجة. وقد أحسنوا استقبالي لأنني مرح بطبيعتي. يضاف إلى ذلك أنهم كانوا يعدونني ثرياً، وذلك أمر يقدره المجتمع قدراً عظيماً. وهنا إنما حدث لي حادث كان له أثر حاسم في مصيري. فقد تولهت بحب فتاة جميلة ذكية نبيلة الخلق يتمتع أهلها باحترام كبير، فهم ينعمون بالثراء، ولهم صلات عالية. وقد أحسن أهلها وفادتي. وأحسست أن الفتاة ليست غير مكترثة بوجودي، فالتهب خيالي من ذلك التهاباً شديداً. ولقد أدركت فيما بعد أنني لم أكن أحبها فعلاً، وإنما كنت مفتتناً بذكائها وسمو طبعها ورفعة خلقها، وتلك أمور ما كان لها إلا أن تؤثر في نفسي. وقد منعتني أنانيتي من خطبتها آنذاك، إذ صعب عليَّ أن أتنازل في مثل تلك السن من ريعان الشباب ومع توفر المال عمَّا في حياة العازب الحرة المتحللة من الإغراءات. لذلك اقتصرت على بعض التلميحات الخفية، وأرجأت الخطوة الحاسمة إلى ما بعد. وفي أثناء ذلك تلقيت أمراً عسكرياً بالسفر مدة شهرين إلى مقاطعة أخرى. فلمّا عدت عرفت أن الفتاة تزوجت في غيابي. لقد تزوجت رجلاً غنياً من أصحاب الأملاك في ضواحي المدينة، وهو أكبر مني سناً ولكنه ما يزال شاباً، كما أن له صلات في العاصمة وفي المجتمع الراقي، وذلك ما لم يكن لي مثله. ثم إنه عدا هذا رجل لطيف محبب جداً مثقف جداً، على حين أن ثقافتي أنا كانت ناقصة نقصاً كبيراً. وقد بلغت من الاضطراب لهذا الحادث ما جعلني أتصور أنني فاقد بسببه صوابي. وكان أنكى ما آلمني أنني علمت أن الرجل خطيب الفتاة منذ زمن طويل. ولقد حدث أن قابلته فعلاً في منزل أهلها مراراً كثيرة دون أن يخطر ببالي شيء، من شدة ما أعماني غروري. وقد أحنقني هذا الأمر وأغاظني أكثر من أي شيء عداه. تساءلت: كيف؟ أيعلم ذلك جميع الناس إلا أنا؟ وشعرت من ذلك بحقد شديد. لقد شعرت بالدم يصعد إلى جبهتي حين تذكرت تصريحات الحب التي أوشكت أن أقولها لها مراراً. إن الفتاة لم توقفني بل تركتني أتكلم دون أن تنبئني بأنها مخطوبة. فاستنتجت من ذلك أنها كانت تسخر مني وتضحك عليَّ. وقد فهمت فيما بعد أن الأمر لم يكن كذلك قط وتذكرت أنها، على خلاف ما توهمت، كانت تقاطعني في كل مرة مازحةً، وتغير موضوع الحديث، غير أنني عجزت في ذلك الحين عن أن أحكم في الأمر حكماً سليماً، فكنت أحترق توقاً إلى الانتقام. وإني لأتذكر الآن، بغير قليل من الدهشة، أن ذلك الغضب وذلك التوق إلى الانتقام اللذين شعرت بهما كانا شاقين على نفسي، لأن خفة طبعي كانت لا تتيح لي أن أظل حاقداً على الناس مدة طويلة. فصرت أحرِّض استيائي وحنقي تحريضاً مصطنعاً حتى أصل أخيراً إلى اندفاع أخرق سخيف. ارتقبت فرصةً أنتقم فيها لنفسي، واستطعت في ذات مساء، بينما كنا في مجتمع غفير، أن أهين «غريبى» في أمر لا علاقة له في الظاهر بشخصي. سخرت من رأيه في موضوع حدث كان قد وقع وهزَّ أفكار الناس كثيراً في ذلك العهد[165] - كنا في عام ١٨٢٦ - وكانت سخرياتي - في رأي الحضور - مُحكمة حاذقة فكهة - ثم طلبت منه أن يصفي حسابه معي بمبارزتي، وبلغت من الفظاظة والغلظة أثناء ذلك أنه لم يملك إلا أن يقبل التحدي رغم كل ما بيني وبينه من مسافة، فأنا أولاً أصغر منه سناً، وأنا ثانياً ضابط صغير لا قيمة له في حين أنه يحتل هو مركزاً اجتماعياً عالياً جداً. وقد علمت فيما بعد أن شيئاً من الغيرة قد دفعه إلى قبول التحدي. فمن جهة أولى كان هو قبل ذلك الحين، أثناء خطوبته، قد ساءته ملازمتي لخطيبته؛ وهو من جهة ثانية يخشى الآن، إذا علمت زوجته بأنه تحمل إهاناتي دون أن يبارزني، أن تحتقره على غير إرادة منها، وأن يتزعزع من ذلك حبها له، ولم ألبث أن عثرت على شاهدٍ لي بغير عناء، وهو رفيق من رفاقي كان ملازماً في كتيبتي نفسها. ولقد كانت المبارزات رائجة جداً بين الضباط في ذلك الزمان، رغم أنها محظورة محرَّمة، وهذا يدل على مدى ترسخ الأحكام الاجتماعية الباطلة في النفس الإنسانية. كنا في أواخر شهر يونيو/حزيران، وحُدِّد الغد موعداً للقاء، في الساعة السابعة من الصباح، على أرض مهجورة خارج المدينة، ووقع لي في ذلك المساء حادث لا أستطيع إلا أن أعده تدخلاً من القدر. فحين عدت إلى مسكني في ساعة متأخرة من الليل مهتاجاً اهتياجاً شديداً، ثرت على الجندي الذي يخدمني، واسمه آفاناسي، ثورة شديدة، وصفعته بكل قوتي مرتين، حتى أخذ الدم يسيل من وجهه. إن آفاناسي يخدمني منذ زمن غير طويل، ولقد سبق أن ضربته من قبل، ولكنني لم أضربه بقسوة وحشية كهذه المرة. صدِّقوني يا أصدقائي الأعزاء إذا قلت لكم: إنني ما زلت إلى اليوم، بعد أكثر من أربعين عاماً، لا أستطيع أن أتذكر سلوكي حينذاك إلا وأشعر بخزي وألم عميقين. وقد رقدت فنمت زهاء ثلاث ساعات. فلمّا استيقظت كان الصبح قد تنفس. فأسرعت أرتدي ملابسي لأن النوم قد طار من عيني، واقتربت من النافذة ففتحتها. إن النافذة تطل على الحديقة. وقد أخذت الشمس تطلع في الأفق. والجو جميل دافيء، والعصافير تغرد. سألت نفسي: «لماذا هذا الإحساس الغريب في نفسي بالخزي والعار والاشمئزاز؟ ألأنني سأسفح دم إنسان؟ لا... يبدو أن هذا ليس هو السبب. أأكون إذاً خائفاً من الموت أخشى أن أُقتل؟ لا، لا، ليس هذا هو السبب، ليس هذا هو السبب أبداً...» وفجأة أدركت علة ذلك الضيق الذي كنت أشعر به: لقد كنت أحسّ بعذاب في ضميري لأنني ضربت آفاناسي في الليلة البارحة! تراءى لي المشهد بجميع تفاصيله على حين بغتة: كان آفاناسي واقفاً أمامي، منتصب القامة، مرفوع الرأس، جاعلاً يديه على درزة سرواله، وأنا أهوي على وجهه بالصفعة تلو الصفعة بكل ما أوتيت من قوة. وكان هو يحدِّق أمامه كأنه في استعراض عسكري، ولا يجرؤ أن يرفع ذراعه ليحمي وجهه رغم أنه يرتجف عند كل صفعة. انظروا إلى أي حالة يمكن أن يُردَّ الكائن الإنساني! كيف يستطيع إنسان أن يرضى ضرب أخيه الإنسان؟ يا لها من جريمة! شعرت كأن ابرة تنفذ في جسمي. إنني أرى الآن كيف كنت واقفاً أمام النافذة مشدوهاً مصعوقاً. كانت الشمس في الخارج تتلألأ، وكانت عصافير صغيرة تغرِّد ببراءة، مسبحةٌ بحمد الرب... وها أنذا أخفي وجهي بيديَّ على حين فجأة، وأرتمي على سريري ناشجاً منتحباً. لقد عاودتني في تلك اللحظة ذكرى أخي مارسيل، وخطرت ببالي الكلمات التي قالها للخدم قبل موته بقليل: «يا أصدقائي الطيبين، ماذا فعلت حتى أستحق أن تخدموني؟ ما الذي يجعلني جديراً بعاطفتكم؟» وقلت لنفسي: «ما الذي يجعلني أنا أيضاً جديراً بأن يخدمني قريني الإنسان؟» وحاصرت هذه الفكرة عقلي فجأة. فأخذت أتساءل: «لماذا يجب على إنسان شبيه بي، إنسان خُلق مثلي على صورة الله، أن يكون خادمي؟ ما الذي جعلني جديراً بذلك؟» لقد طرحت على نفسي هذا السؤال لأول مرة في حياتي. «أماه، يا حَمَلي الوديع، إن كل إنسان مرتكب جميع الذنوب في حق جميع الناس... البشر لا يعرفون هذا... ولو ارتضوا أن يعترفوا به لأصبحت الأرض جنة منذ الآن!» تساءلت من خلال دموعي: «أيجوز حقاً يا رب أن أكون مرتكباً جميع الذنوب، وأن أكون أكبر الناس إثماً؟ إني إذاً لأسوأ الناس طراً!» وتراءت لي الحقيقة فجأة في ضياء باهر! ما الذي كنت أريد أن أفعله؟ أن أقتل انساناً طيباً ذكياً نبيل الخلق لم يمسسني بسوء ولم يلحق بي أذى، وأن أحرم زوجته من السعادة إلى الأبد في الوقت نفسه، فأسلمها للعذاب وأدمِّر روحها! وكنت أثناء استسلامي لهذه التأملات راقداً على سريري، دافناً وجهي في الوسائد، لا ألاحظ أن الوقت كان ينقضي، وها هوذا رفيقي الملازم يظهر في غرفتي فجأة حاملاً إلي المسدسات. قال لي: «أنهضت من نومك؟ أحسنت... ما يزال في الوقت متسع. هيّا بنا!» اضطربت، وزاغ لبي، لكنني تبعته؛ وفيما كنا نوشك أن نركب العربة التي كانت تنتظر أمام المنزل، عدلت عن الركوب فجأة، وقلت لرفيقي شارحاً: «انتظرني لحظة، أنا عائد إلى البيت لأجيء بمحفظة نقودي التي تركتها فيه». وأسرعت قدماً إلى الغرفة الصغيرة التي يسكنها خادمي الجندي. قلت له: «آفاناسي! لقد صفعتك على وجهك مرتين أمس. سامحني!» ارتعش حين سمع كلامي كأنه قد خاف. وشعرت عندئذ أن ذلك ليس كافياً، وأن بادرتي لا تتناسب والأذى الذي ألحقته به، فإذا أنا أخضع فجأة لاندفاعة مباغتة فأرتمي على قدميه بملابسي الفخمة حتى لامست جبهتي الأرض، وأقول له صائحاً. «سامحني يا آفاناسي!» بدا آفاناسي مصعوقاً، وأخذ يقول: «يا صاحب النبالة... يا أبتاه... يا مولاي... كيف يمكنك أن... أنا لست جديراً بهذا...» وأخذ يبكي هو نفسه، كما بكيت أنا منذ قليل، دافناً وجهه في يديه. واستدار نحو النافذة، مرتعشاً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، غارقاً بدموعه. وهرعت ألحق برفيقي الملازم الذي كان ينتظرني في العربة. صحت أقول للحوذي: «سِرْ»، وأضفت مخاطباً رفيقي: «هل تريد أن ترى الغالب؟ إنه أمامك!» كنت أشعر بحماسة شديدة، وظللت أضحك بغير انقطاع أثناء الطريق، وأتكلم بلا توقف، أخبط في الكلام خبط عشواء... لا أتذكر ماذا قلت. وكان رفيقي ينظر إليّ راضياً مرتاحاً. قال لي: «أرى أنك شجاع! لسوف تشرِّف بزَّتنا العسكرية». ووصلنا إلى أرض المعركة، حيث كنا نُنتظر. وضعنا أنا وخصمي على بعد اثنتي عشرة قدماً. وكان عليه هو أن يطلق النار أولاً. وقابلته جذلاً فرحاً، وأنا أنظر إلى عينيه مباشرة

فأشعر أن قلبي يفيض حباً له. لم تطرف عيني. كنت واثقاً مما سأفعله. أطلق النار. خدشت الرصاصة خدي خدشاً خفيفاً. ولامست أذني ملامسة. صحت أقول: «الحمد لله! إنك لم تقتل أخاك!» ثم تناولت مسدسي فرميته ورائي في اتجاه الغابة. ثم التفت نحو خصمي وقلت له: «سيدي! اغفر لي إنني أسأت إليك بغير سبب لطيشي وخفتي، ثم أجبرتك على أن تطلق عليَّ النار. أنني لا أساويك ولا أعدلك، فأنت خيرٌ مني عشر مرات، وربما أكثر من ذلك. قل هذا عن لساني للإنسان الذي تقدره أكثر من أي إنسان آخر في هذا العالم». فما إن نطقت بهذه الكلمات حتى أخذ الثلاثة يصرخون. قال خصمي وقد بدا عليه حتى شيء من الغضب: «ما معنى هذا؟ ما كان ينبغي أن تزعجني إذا لم تكن تنوي أن تقاتل؟» فأجبته قائلاً بمرحٍ: «لقد كنت حتى الأمس غبياً أحمقاً، ولكني صرت ذكياً عاقلاً بعد ذاك».

فقال: «أما أنك كنت بالأمس غبياً أحمقاً، فهذا أمر أسلّم به ؛ وأما أنك أصبحت ذكياً عاقلاً، فهذا ما لا يبدو صحيحاً إذا نحن نظرنا إلى سلوكك.«

قلت وأنا أصفق بيديَّ: «مرحى! إنني أوافقك على ما تقول. لقد استحققت أن أسمع هذا الكلام!»

قال ملحاً: «أأنت عازم على أن تطلق النار يا سيدي أم لا؟» فأجبته: «لن أفعل. ولك أن تطلق مرةً ثانية إذا كنت تحرص على ذلك، ولكنك تحسن صنعاً إذا أنت لم تطلق».

اضطرب الشاهدان، ولا سيما صاحبي: «كيف تجرؤ على أن تلطخ شرف كتيبتنا بالعار؟ أتطلب الصفح وأنت على أرض المعركة؟ آه... ليتني تنبأت بهذا!».

كففت في هذه المرة عن الضحك، وقلت لهم جميعاً وأنا أنظر في أعينهم: «سادتي! أعجيبٌ إلى هذا الحد حقاً أن يوجد في أيامنا هذا؛ رجل يستطيع أن يندم على خطيئة إرتكبها، وأن يعترف بها أمام الناس، فصاح صاحبي يقول من جديد «لا... ولكن هذا لا يكون على أرض القتال»

فإستأنفت كلامي قائلاً: «أهذا ما يدهشكم إذا؟ لقد كان يجب عليَّ في الواقع أن أعتذر إليه منذ وصلت قبل أن يطلق على النار، وذلك لأجنبه إرتكاب خطيئة قاتلة. ولكن من المؤسف أننا قد نظمنا حياتنا على تصورات تبلغ من السخف أنه كان يستحيل علي أن أفعل ذلك، إن صحّ التعبير فإنني ما كنت لأستطيع أن أتكلم آملاً أن أفهم حق فهمي إلا بعد أن أطلق عليّ النار من على بعد إثنتي عشرة قدماً وإلا لكان يمكن أن تعدوني جباناً غير جدير بأن يسمع كلامي إذا أنا إعتذرت له منذ وصولي قبل أن يطلق». ثم هتفت فجأة أقول مندفعاً بكل نفسي: «أيها السادة تأملوا خلق الله من حولكم: السماء الصافية والهواء النقي والعشب الطري والطيور المغرد. إن الطبيعة تنبسط أمامكم رائعة بغير خطيئة. ونحن وحدنا معشر الكافرين والأغبياء، لا نستطيع أن نرى أن الحياة جنة. يكفي أن نعقد النية على أن نعرف هذه الحقيقة حتى تحل هذه الجنة فوراً بكل سنائها وبهائها وجمالها. ألا فلنتعانق ولنبك...» كنت أريد أن أتابع كلامي، ولكنني أمسكت وقد إنقطعت أنفاسي. وأنا أوشك أن أبكي شعرت بإنفعال شديد لذيذ يتدفق صباً وكان قلبي يفيض سعادة لا عهد لي بمثلها من قبل. قال خصمي: «كلامك فيه عقل وتقي... لا شك في أنك إنسان طريف جداً». فأجبته ضاحكاً: «إسخر مني الآن، ولكنك ستطريني في المستقبل». قال بل أنا مستعد لأن أثني عليك منذ الآن. إسمح لي أن أمد إليك يدي، لأنك فيما يبدو لي إنسان صادق جداً».

قلت: «لا... لا تمدد لي يدك الآن وإنما تمدها في المستقبل، بعد أن أصلح نفسي وأستحق تقديرك يومئذٍ تصافحني وتكون على حق إذا صافحتني». وعدنا إلى المنزل. كان شاهدي حانقاً فهو لا ينفك يقرّعني في العربة. أما أنا فكنت أقبله. وما أن علم رفاقي بما حدث حتى إجتمعوا ليحكموا عليّ. قال بعضهم

«لقد لطخ شرف بزتنا العسكرية بالعار. فعليه أن يستقيل». ودافع بعضهم الآخر عني قائلاً: «ولكنه صمد أمام إطلاق النار عليه دون أن يختلج». فقال الآخرون: غير أنه جبن بعد ذلك وخاف إستئناف تبادل الرصاص فاعتذر على أرض المعركة». فأجاب المدافعون عني قائلين: «لو أنه خاف لأطلق النار عليه من مسدسه أولاً قبل أن يعتذر، أما وأنه قد رمى مسدسه في الغابة محشواً بالرصاص فهذا دليل أن الأمر ليس كذلك، وإنما هو شيء أخر جديد طريف. وكنت أصغي إليهم، فتملؤني أقوالهم فرحاً ثم قلت لهم آخر الأمر: «يا أصدقائي ورفاقي الأعزة! لا يقلقنكم أمر إستقالتي، فقد أرسلتها إلى المكتب منذ هذا الصباح، وسأدخل الدير متى قبلت الإستقالة». فما إن سمعوا هذه الكلمات حتى إنفجروا يضحكون ضحكة صاخبة: «كان ينبغي أن تقول هذا من قبل. الآن إتضح كل شيء. ليس يحاكم راهب». كان رفاقي يضحكون ولكن بغير خبث؛ إنهم يضحكون وهم يشعرون نحوي بشيء من العطف والحنان. ومنذ تلك اللحظة أصبحوا جميعا يظهرون لي المحبة والمودة، حتى أعتاهم إتهاماً لي وأقساهم حكماً علي. واحتفلوا بي في الكتيبة طوال الشهر الذي إنقضى بين تقديمي الإستقالة وإحالتي على التقاعد. كانوا يقولون: «هذا راهبنا». وأصبح كل واحد منهم يخاطبني بأقوال فيها محبة وعطف، محاولاً أن يصرفني عما عزمت عليه، بل ومشفقاً عليّ: «لماذا تفسد حياتك هذا الإفساد؟» «لا بل إنه شجاع. لقد جابه إطلاق النار عليه وكان في وسعه أن يرد ولكن لا شك أنه رأى في منامه حلماً أثناء الليلة التي سبقت يوم النزال فقرر أن يدخل الدير». وكان الأمر كذلك في المدينة أيضاً. لقد كان الناس في الماضي يحسنون إستقبالي وكفى. أما بعد ذلك الحادث فقد أصبحوا يهتمون بي جميعاً. إنهمرت علي دعواتهم إلى ولائم يقيمونها لي. صحيح أنهم يسخرون قليلاً من قراري، ولكنهم يحبونني. ويجب أن أذكر أن السلطات قد غضت الطرف عن حادثة مبارزتنا، رغم أن هذه المبارزة أصبحت مدار حديث الناس جميعاً وذلك لأن خصمي يمت إلى جنرالنا بقربى قريبة. ثم إنه ما من دم قد سفح، بل كان الأمر أشبه بمزحة! وقد إستقلت... لذلك عدّت المغامرة أشبه بمزحة فعلاً. وقد تجرأت فقررت أن أعبر عن آرائي بغير تحرج، رغم سخريات أبناء المجتمع الراقي التي لم تكن سخريات خبيثة شريرة والحق يقال، بل كانت سخريات بريئة طيبة. وكانت تجري تلك الأحاديث عادة في المساء، بحضور السيدات، لأن إهتمام النساء بي كان أكبر من إهتمام الرجال، فكان يحلو لهن أن يصغين إلى كلامي، وكن يجبرن رجالهن على أن يصغوا إلي كما يصغين هنّ.

كنت أسأل بلهجة ساخرة: «كيف تزعم أنني مرتكب جميع الذنوب في حق جميع الناس؟ أأنا الذي إقترف أخطاءك مثلاً؟»

وكنت أجيبهم بقولي: «لا تستطيعون أن تدركوا هذه الحقيقة اليوم، لأن المجتمع قد سار منذ زمن بعيد في طريق خطأ، فرفع إلى مصاف الحقائق ضلالات بيّنة، وطلب من أعضائه أن يتبنوا هذه الأحكام. هذا

أنا مثلاً: لقد أردت مرة في حياتي أن أتصرف تصرفاً صادقاً، فإذا أنا أصبح في نظركم أشبه برجل بسيط العقل أو أبله. ومهما تحبوني، فإنكم تظلون تسخرون مني»..

قالت سيدة المنزل ضاحكة: كيف يمكن أن لا يحب فتى مثلك؟

كان الجمع غفيراً جداً في ذلك المساء، ولمحت فجأة بين السيدات الحاضرات تلك المرأة التي أردت بسببها أن أبارز والتي كنت أحلم أن تكون خطيبتي قبل ذلك بقليل. لم أكن قد لاحظت وصولها. وها هي ذي تنهض وتدنو مني وتمد إلي يدها وتقول لي:

«إسمح لي أن أقول لك إنني أول من لا يخطر بباله لحظة أن يسخر منك. بالعكس: إنني لأحرص على أن أعرب لك عن شكري متأثرة أصدق التأثر وأن أعبر لك عن تقديري وإحترامي للسلوك الذي سلكته في ذلك الظرف»..

وجاء إلي زوجها أيضاً وتبعه سائر المدعوين. كادوا يقبلونني جميعاً. إجتاح الفرح نفسي ولاحظت خاصةً بين الأشخاص الذين أظهروا لي مودتهم وعاطفتهم سيداً متقدماً في السن بعض الشيء، كنت أعرف اسمه منذ زمن، ولكنني لم أقدم اليه، فلم أخاطبه قبل ذلك المساء بكلمة واحدة.

د) -الزائر الغامض:

كان يشغل منصباً هاماً في مدينتنا منذ سنين كثيرة. إنه شخص مرموق، غني، يتمتع بإحترام عام، إشتهر ببره وإحسانه، فقد وهب لملجأ الفقراء ولمأوي الأيتام مبالغ ضخمة. وكان عدا ذلك يقوم بأعمال البر، متخفياً متكتماً حتى إن ذلك لم يعرف إلا بعد موته. إنه في نحو الخمسين من عمره، وهو قليل الكلام ويوشك مظهره أن يكون صارماً. وقد تزوج منذ عشر سنين فحسب، وإمرأته ما تزال شابة، وله منها ثلاثة أولاد كانوا صغاراً في ذلك الحين. في غد ذلك المساء الذي جرى فيه الحديث، كنت في منزلي فإذا بالباب يفتح فجأة وإذ بي أرى هذا السيد يدخل علي.

يحسن أن أذكر هنا أنني كنت قد غيرت مسكني. فإنني بعد إحالتي على التقاعد قد استأجرت غرفة في دار إمرأة عجوز هي أرملة موظف من الموظفين، فكانت خادمة هذه العجوز تقوم على خدمتي. والحق أنني ما تركت منزلي القديم إلا لأنني في يوم المبارزة نفسه، ما إن رجعت إلى منزلي في ذلك الصباح حتى صرفت آفاناسي وأرسلته إلى الثكنة، لأنني أصبحت لا أجرؤ أن أنظر إليه بعد الذي حدث بيننا. انظروا إلى مدى هيمنة الأفكار السائدة على إنسان من أبناء المجتمع لم يتهيأ للحياة الروحية الأخلاقية. إن هذا الإنسان يمكن أن يحمر خجلاً حتى من أنبل الأفعال وأجدرها بالإحترام.

قال لي هذا السيد: «لقد أتيح لي أن أسمعك عدة مرات في منازل عدد من الأصدقاء، فكنت أصغي إلى كلامك بإهتمام عظيم في كل مرة. وإنني لأحب أن أحظى بمعرفتك لأتحدث معك بمزيد من التفصيل. «فهل تم علي بهذا الفضل؟» أجبته قائلاً: ذلك يسرني أعظم السرور، وهو لي شرف كبيرة. ومع ذلك فقد شعرت بشيء من الخوف. فمن النظرة الأولى أذهلني هذا الرجل وجعلني أحسن بالخوف. صحيح أنني كنت قد ألفت أن يكون لي مستمعون كثيرون، وأن هؤلاء المستمعين كانوا في كثير من الأحيان يصغون إلى كلامي بإستطلاع وإهتمام، ولكن ما من أحد منهم قد واجهني حتى ذلك الحين بهيئة فيها هذا الجد كله وهذا النفاذ كله. أضف إلى ذلك أن الرجل قد جاء إلى بيتي بنفسه. قال لي بعد أن جلس: «لقد تبينت فيك قوة خلقية كبيرة، لأنك لم تخش أن تخدم الحقيقة في ظروف تعضك لإحتقار الجميع». فأجبته: «لعلك تقدرني فوق قدري في هذه القضية». فقال: «لا... فإن القيام بعمل كهذا العمل أصعب مما تظن». وتابع يقول: «لقد أثر سلوكك في نفسي تأثيراً قوياً، وهذا هو السبب الوحيد الذي دفعني إلى زيارتك. أحب لو أسألك أن تصف لي ما لم تر ذلك فضولاً مني في غير محله - ما شعرت به لحظة قررت أن تعتذر إليه على أرض القتال، إذا كنت تتذكر مشاعرك. أرجو أن لا نعزو سؤالي هذا إلى طيش مني، فهناك غايات خفية تدفعني إلى إلقاء هذا السؤال عليك، وسأشرحها لك إذا شاء الله أن يقرب بيننا».

كنت أثناء إسترساله في هذا الكلام أنظر إليه بإنتباه، فشعرت فجأة بإطمئنان إليه وبثقة عميقة به حتى لقد أحسست أنا أيضا بحب إستطلاع قوي، لأنني قدرت أن في نفسه سرة خاصة. قلت له:

«قبل أن أذكر لك ما شعرت به لحظة إعتذاري إلى خصمي على أرض المعركة، أحسب أن من المفيد أن أروي لك كيف تسلسلت الأحداث منذ البداية تسلسلا لا يعرفه أحد إلى الآن». وأطلعته على ما وقع لي مع آفاناسي، ورويت له كيف أنني سجدت أمامه، وقلت أختم كلامي: لاتستطيع أن تفهم بعد هذا أن موقفي في لحظة المبارزة كان سهلاً، لأنني كنت قد رجعت إلى الإحساس بالحقيقة وأنا في منزلي، فلما سرت في هذا الطريق لم يكن علي إلا أن أتابع المضي فيه ؛ وسلوكي بعد ذلك لا ينصف بأنه لم يكلفني أي عناء فحسب، بل كان إلى ذلك مصحوباً بإحساس بالسعادة والفرح»..

أصغى الرجل إلى كلامي بإنتباه، وقال وفي نظرته إلي مودة كبيرة وحب عظيم: «هذا كله شائق جداً، وسأعود إليك لأتحدث معك مراراً». وأصبح يجيء إلى كل مساء تقريباً. وكان يمكن أن تتوثق بيننا عرى الصداقة، لو أنه حدثني عن نفسه أيضاً. ولكنه لم يكن يفضي إلي بشيء عن حياته، وكان لا يزيد على أن يسألني عن حياتي أنا. ومع ذلك فقد أحببته كثيراً وفتحت له قلبي كله قائلا لنفسي إنني في غير حاجة البتة إلى معرفة سره وحسبي أن أعلم أنه رجل صادق مستقيم. وأرضاني أن أرى رجلاً أكبر مني سناً، رجلاً يبلغ هذا المبلغ من الجد ثم هو لا يحتقر صحبة شاب مثلي، بل يجيء إليه في منزله... وقد تعلمت منه أشياء هامة كثيرة، لأنه كان على جانب كبير من الذكاء. قال لي فجأةً ذات يوم: «أما أن الحياة جنة، فذلك ما أفكر فيه منذ زمن طويل». ثم أضاف فجأة: «بل إنني لا أفكر إلا في هذا». ونظر إلي مبتسماً. «حتى إنني أشد إقتناعا بذلك منك، لأسباب ستعرفها فيما بعد». كذلك أضاف يقول بعد قليل. وقدرت وأنا أصغي إليه أنه ربما كان يريد أن يفضي إلي ببعض أسراره. وإستأنف كلامه قائلاً «إن كلاً منا يحمل في نفسه جنة مدفونة. إن هذه الجنة قائمة في نفسي وإن تكن مختبئة. وحسبي أن أريد، حتى أجعلها تنبجس منذ اليوم فأحتفظ بها طوال حياتي». كان يتكلم بشيء من الحماسة والتأثر؛ وفي نظرته الغامضة رأيت ما يشبه أن يكون سؤالاً مستترة. وتابع كلامه يقول: «إنه لصحيح كل الصحة أن كل إنسان مرتكب كل الذنوب في حق كل الناس، هذا عدا خطاياه الخاصة. تلك حقيقة كبري عبرت عنها، ولا يسعني إلا أن يدهشني أنك إستطعت أن تكتشفها كاملة، دفعة واحدة. ومن المحقق أن ملكوت السموات سيكون واقعاً لا حلما فحسب، في اليوم الذي تفهم الإنسانية فيه هذه الحقيقة». فهتفت أقول بمرارة: متى يحدث هذا؟ هل يجيء ذلك اليوم حقاً؟ أليس ذلك أم لا أكثر؟» - «أنت لا تؤمن بهذا إذاً؟ أتبشر بالحقيقة ثم تستسلم للشك؟ ألا فاعلم أن ما تسميه أملاً سيتحقق لا محالة. كن من ذلك على ثقة على أن هذا لن يتحقق اليوم، لأن لكل فعل ميقاته وظروف تحققه. لا بد أن تتغير الإنسانية تغيراً نفسياً وأخلاقياً. لن يكون من الممكن أن يتبدل العالم ما لم يكتسب البشر روحاً جديدة، وما لم يتجهوا في طريق جديد. لن يكون على الأرض أخوة ما لم يشعر المرء بأنه أخ لكل إنسان حقاً. لن يستطيع البشر في يوم من الأيام أن يقتسموا ثرواتهم بالعدل لا عن طريق العلم ولا عن طريق المنفعة. إن كل واحد سيجد نصيبه أصغر مما يستحق أن يكون له من نصيب؛ وإن الحسد والحقد سيسودان فيدفعان البشر إلى أن يفني بعضهم بعضا. تسألني متى يتحقق ملكوت السموات على الأرض. فاعلم أنه سيتحقق في يوم من الأيام، ولكن ذلك لن يكون قبل إنتهاء عهد عزلة الإنسانية».

«أية عزلة تعني؟» كذلك سألته. «العزلة التي تسود في جميع الميادين، ولا سيما في عصرنا هذا. إن عهد العزلة هذا لم ينته بعد، لم يحن حينه. إن كل إنسان في هذا العصر يجهد في سبيل أن يتذوق الحياة كاملة ساعياً في سبيل ذاته، مبتعداً عن أقرانه. ولكن هيهات أن تؤدي هذه الجهود إلى تذوق الحياة كاملة، فهي لا تقود إلا إلى فناء النفس فناءً كاملاً، لأن الإنسان بدلا من أن يتفهم ذاته تفهما كاملا يستغرق في عزلة تامة. لقد انحل المجتمع في عصرنا إلى أفراد يعيش كل منهم في جحره كوحش، ويهرب بعضهم من بعض، ولا يفكرون إلا في أن يخفوا ثرواتهم بعضهم عن بعض. وهم يصلون من ذلك إلى أن يكره بعضهم بعضاً وإلى أن يصبحوا جديرين بالكره هم أيضاً. إن الإنسان يكدس الخيرات في العزلة، وتسره القوة التي يحسب أنه يملكها بذلك، قائلا لنفسه إن أيامه قد أصبحت بذلك مؤمنة مضمونة ؛ إنه لا يرى لحماقته، أنه كلما أوغل في التكديس كان يغوص في عجز قاتل. ذلك أنه يتعود أن لا يعتمد إلا على نفسه، ويفقد إيمانه بالتعاون، وينسى في عزلته القوانين التي تحكم الإنسانية حقا، وينتهي من ذلك إلى أن يرتعد في كل يوم خوفاً على ماله الذي أصبح فقدانه يحرمه من كل شيء. لقد غاب عن ذهن البشر تماما في أيامنا هذه أن الأمن الحقيقي للإنسان في الحياة لا يتحقق بجهده الفردي المنعزل، وإنما بإتحاد الجهود البشرية العامة وتناسق الأعمال الفردية. إن عهد العزلة الرهيب هذا سينتهي حتماً في يوم من الأيام، وسيفهم البشر دفعة واحدة مدى تناقض العزلة مع طبيعتهم الحقيقية، وستهب على الإنسانية يومئذ نفحة جديدة، وستساءل مدهوشة يومئذ: كيف أمكنها أن تعيش طوال هذه المدة في ظلمات الضلالة لا ترى النور؟ وعندئذ سوف تظهر علامة إبن الإنسان في السموات... وإنما المهم أن نحافظ على علمه إلى أن يجيء ذلك الحين، وأن نحاول، ولو بالقدوة الفردية، أن نخلص النفس من عزلتها بزرع المحبة الأخوية حتى لو كنا في منزلة البسطاء. ما ينبغي أن ندع لهذه الفكرة العظيمة أن تموت... حتى لو اتهمنا بالغباء»

هكذا كانت تنقضي ليالينا في أحاديث مشبوبة متحمسة. وأصبحت أهمل مجتمع المدينة شيئا بعد شيء، وأصبحت لا ألبي دعوات الناس إلا لماما. ثم إن الحماسة لشخصي كانت قد بدأت تزول. لقد خفت بريق «موضتي». ولست أقول ذلك لائماً ولا عاتباً لأن الناس ظلوا يحبونني ويحسنون وفادتي. ولكن يجب أن نعترف بأن الموضة» تلعب في المجتمع دوراً كبيراً. أما زائري الغامض فقد أصبحت أحمل له مع مرور الزمن إعجاباً شديداً. كنت أشعر أمام ذكائه بنشوة قوية ووجد عظيم، وكنت أحس أنه ينضج مشروعاً سرياً، أو يتهيأ لعمل كبير. ولعله قدّر في أنني لا أتدخل فيما لا يعنيني فضولاً، فإنني لم أحاول، لا على نحو مباشر ولا على نحو غير مباشر، أن أستدرجه إلى حيث يسير إلي بشيء من أمره. ولكنني لاحظت أخيراً أن سره يثقل على صدره، وأنه يحترق شوقاً إلى أن يفتح لي قلبه، أو ذلك هو على الأقل ما شعرت به شعوراً واضحاً كل الوضوح بعد شهر. قال لي يوماً: «هل تعلم أن الناس في المدينة يثرثرون كثيراً عنا، وأنهم يدهشون لزياراتي المتكررة لك؟ لا ضير على كل حال، فإن كل شيء سيتضح قريباً.. وكان يتفق له في بعض الأحيان أن ينتابه إضطراب شديد، وكان في مثل تلك اللحظات ينهض في الغالب لينصرف. وكان في مناسبات أخرى يطيل التحديق إلي، ويلقي علي نظرات نافذة فأقول لنفسي عندئذ: ها... سيتكلم»، ولكنه ما يلبث أن يغير الحديث، ويتطرق إلى موضوعات لا قيمة لها، أو يقول أشياء معادة مكرورة. وكان يشكو من صداع في كثير من الأحيان. وفي يوم من الأيام، بعد أن تكلم بكثير من الحرارة، رأيته يصفر على حين فجأة، ورأيت وجهه يتقلص، ورأيته يتفرس في تفرساً غريباً. قلت له قلقاً:

- ماذا بك؟ أأنت مريض؟

ذلك أنه كان قد شكا من صداع منذ قليل.

فقال:

أنا.... هل تعلم؟ أنا.... أنا قاتل.

وإبتسم بعد أن أفلتت منه هذه الكلمة ولكن وجهه كان قد أصبح شاحباً إلى درجة البياض. «ما هذه الإبتسامة؟» برق هذا السؤال في ذهني ونفذ إلى قلبي قبل أن يتسع وقتي لأن أرد بشيء. ولكنني شحبت أنا أيضاً.
صحت أسأله:
- ماذا تعني؟
فاستأنف كلامه يقول وهو يبتسم إبتسامة حزينة:
- ها أنت ذا ترى كم كلفني هذا الإعتراف الأول من عناء. ولقد تم الإعتراف الآن، وستكون متابعته أسهل وأيسر... فهيا أتابع...
لبثت زمناً طويلاً لا أصدق ما كان يقوله لي ولم أستطع أن أصل إلى التصديق إلا شيئاً فشيئاً، بعد أن رجع إلي ثلاث أمسيات متتاليات، فروى لي القصة بجميع تفاصيلها. ظننته في أول الأمر مجنوناً، ثم أدركت الحقيقة أخيراً بمرارة قوية ودهشة عميقة. لقد إرتكب هذا الرجل فعلاً جريمة قتل رهيبة منذ أربعة عشر عاماً: قتل إمرأة شابة غنية، جميلة جداً، كانت أرملة رجل من مالكي الأطيان، وكان لها في مدينتنا دار تقيم فيها من حين إلى حين. لقد إفتتن هذا الرجل بها إفتتاناً شديداً وتوله بها تولهاً مشبوباً وصارحها ذات يوم بحبه وحاول أن يقنعها بزواجه. ولكنها كانت تحب رجلاً آخر هو ضابط في الجيش عالي الرتبة واسع الشهرة كان عندئذ في حملة حربية وكان عليه أن يعود إليها قريباً. لذلك رفضت عرض صاحبي ورجته أن لا يجيء إليها بعد ذلك اليوم أبداً. فلما صرفته بهذه الخشونة وأصبح لا يستطيع أن يزوها، تسلل ذات ليلة إلى منزلها الذي كان يعرف ترتيبه، ماراً بالحديقة والسطح، متهوراً أشد التهور، معرضاً نفسه لأن يكتشف. ولكن الحظ واتاه، كما يحدث هذا كثيراً في الجرائم الجريئة، فنفذ إلى دارها من كوة في السطح، ثم هبط السلم المؤدي من طابق السقف إلى شقة السيدة. كان يعلم أن الباب الذي يوجد في أسفل هذا السلم يظل مفتوحاً في كثير من الأحيان بسبب إهمال الخدم. وعلى هذا إنما كان يعول صاحبنا، فصدق حسابه. فلما صار في الشقة إتجه في الظلام إلى غرفة نوم السيدة التي كان يشتعل فيها سراج. وشاءت المصادفة أن تكون وصيفتا السيدة قد خرجتا في ذلك المساء دون أن تستأذناها وذلك لحضور حفلة صغيرة تقيمها صديقة لهما تحتفل بعيد شفيعتها وتسكن غير بعيد. أما الخدم والخادمات فقد كانوا ينامون في الملفات أو في المطبخ بالطابق الأدنى. فلما رأى المرأة الشابة نائمة إضطرم هواه وإستعر، فإذا بغيرة حانقة ظامئة إلى الإنتقام تشب في قلبه، وإذا هو يقترب من السيدة كالسكران، ويغمد في قلبها سكينة وهو لا يدرك ماذا يفعل.
لم يتسع وقت السيدة لإطلاق صرخة. ورتب الرجل أموره بمكر شيطاني وحيل رهيبة من أجل أن تقع الشبهات كلها على الخدم. لم يرض أن يستولي على محفظة القتيلة وإنما فتح أدراج خزانتها مستعيناً بمفاتيح وجدها تحت وسادتها، فإختار من محتويات هذه الأدراج أشياء هي ما يمكن أن يسرقه خادم جاهل. لم يمد يده إلى السندات والصكوك والأوراق التي لها قيمة كبيرة، وإنما سرق الأموال النقدية، وسرق الحلي الذهبية مسترشداً بحجمها ووزنها، محتقراً التحف الصغيرة الحجم التي يفوق ثمنها ثمن الحلي الذهبية أضعافاً مضاعفة. وسرق كذلك كتذكار عنها بعض الأشياء وسوف نتحدث عنها فيما بعد. حتى إذا أتم جريمته على هذا النحو، خرج من الدار متبعاً نفس الطريق الذي إتبعه في الدخول. ولم يخطر ببال أحد على الإطلاق، لا في الغد حين إكتشفت الجريمة ولا في أية لحظة من لحظات حياته، أن يشك فيه بإعتباره الجاني الحقيقي. وكان الناس يجهلون حبه للمرأة القتيل على كل حال، لأنه كان شديد الصمت قليل الكلام، ولم يكن له أصدقاء يمكن أن يسر إليهم بشؤونه. كان الناس يعدونه أحد معارف القتيل لا أكثر، حتى إنهم كانوا لا يعدونه من معارفها المقربين، لأنهم لم يروه في منزلها خلال الأسبوعين الأخيرين قبل وقوع المأساة. وإنصبت الشبهات رأسا على خادم قن إسمه بيتر وكانت جميع الظروف تشير إليه وتتهمه. كان هذا الخادم لا يجهل أن المتوفاة - التي لم تكن تخفي ما عقدت نيتها عليه تريد أن تدخله في قائمة الفلاحين الذين ستقدمهم للخدمة العسكرية أو لأنه عازب، وثانية لأنه سيئ السلوك. وقد سمعه الناس في إحدى الخمارات يطلق أقوالاً يهدد فيها مولاته بالقتل وهو في حالة سكر شديد وحنق قوي.
وقبل وقوع الجريمة بيومين كان قد هرب من الدار وإختفى في المدينة في أماكن مجهولة. وفي غداة الجريمة، وجد على الطريق، غير بعيد عن المدينة فاقد الوعي من شدة السكر، في جيبه سكين ويده اليمنى ملطخة بدم. وقد فسر هو ذلك بأن أنفه زف ولكن لم يصدق. وإعترفت الوصيفتان بأنهما غابتا عن المنزل فعلاً وأقرتا بأن باب الدار ظل مفتوحاً عن لهو وغفلة حتى عودتهما. وجاءت تفاصيل أخرى مؤيدة لقرائن الإتهام هذه فاعتقل الخادم البريء، وأودع السجن، وكان سيمثل أمام القضاء لولا أنه أصيب بحمى حارة بعد أسبوع، ثم مات في المستشفى قبل أن يفيق من غيبوبته. وأغلق التحقيق، ولم يبق إلا تسليم الأمر لله... وظل جميع الناس، القضاة ورجال السلطة وأبناء المجتمع في المدينة، مقتنعين بأن الجريمة لا يمكن أن يكون قد إرتكبها أحد غير الخادم المتوفي. وعندئذ إنما بدأ العقاب.
وقد أسر إلي الزائر الغامض، الذي أصبح في ذلك الحين صديقة، أنه لم يعرف عذاب الضمير في الآونة الأولى إطلاقاً. صحيح أنه تألم زمناً طويلاً ولكن ألمه كان حسرة على أنه قتل المرأة التي يحبها وعلى أنه فقد إلى الأبد كل أمل في أن يسعد بقربها وكانت نار الحب ما تزال تكوي عروقه. أما إنه سفح دماً وقتل إنسانة بريئة فذلك أمر لم يزعجه كثيراً آنذاك، ولم يكن يفكر هو فيه إلا نادراً. كان إذا تصور أن تلك المرأة كان يمكن أن تصبح زوجة رجل آخر غيره لا يطيق أن يحتمل هذا التصور وكان لهذا السبب موقناً بأنه كان يستحيل عليه أن يتصرف إلا كما تصرف. وقد هزه إعتقال الخادم في أول الأمر ولكن مرض المتهم ووفاته لم يلبثا أن رد إليه هدوءه وطمأنينته، إذ كان واضحاً (هذا ما كان يقوله لنفسه) أن الخادم لم يمت بسبب إعتقاله أو بسبب خوفه وإنما مات بسبب البرد الذي أصابه أثناء هروبه حين بات ليلة بكاملها على الأرض الرطبة فاقد الوعي من السكر. أما المال والأشياء المسروقة فإنه لم يأبه لها قط لأنه (هذا ما كان يقوله لنفسه أيضا) لم يسرقها طمعاً بل تمويهاً. ثم إن قيمة هذه الأشياء المسروقة لم تكن كبيرة جداً وسرعان ما وهب لمأوى الفقراء الذي أنشئ في المدينة في الآونة الأخيرة مبلغاً يساوي قيمة الأشياء المسروقة بل يفوقه كثيراً. وقد فعل ذلك ليهدئ ضميره في موضوع السرقة ومما يستحق الذكر أنه إستطاع أن يهدئه فعلاً خلال مدة طويلة من الزمن كما أسر هو إلي بذلك. وإندفع يزاول نشاط مهنته إندفاعاً قوياً فغرق في هذا النشاط وإستطاع أن يحصل على أن يعهد إليه بمهمة صعبة متعبة شغلته خلال سنتين وإذ كان رجلاً جم النشاط فائض القوى فقد أمكنه أن ينسى الجريمة التي إرتكبها نسياناً يشبه أن يكون كاملاً. وكان إذا راودته ذكراها يبادر إلى طرد هذه الذكرى. وقد إنصرف أيضاً إلى البر والإحسان فدعم وأنشأ أعمالاً خيرية كثيرة في مدينتنا، وذاع صيته في العاصمتين فإنتخب عضواً في الجمعيات الخيرية بموسكو وبطرسبرج. غير أن قلقاً أليماً قد إستيقظ في نفسه بمرور الزمن وأخذت ذكرى الماضي تحاصره محاصرة ما تنفك تزداد إلحاحاً وما تنفك تنقص إندفاعه في العمل. وتعرف في تلك الفترة إلى إمرأة شابة جميلة ذكية، أعجبته كثيرة فقرر أن يتزوجها، آملاً أن يستطيع هذا الزواج أن يطرد كآبته ويبدد قلقه كان يقول لنفسه إنه إذا دخل حياة جديدة وأصبح ينهض، في همة ونشاط، بواجباته نحو إمرأته وأولاده، فإنه سيستطيع أن يتخلص من شبح الماضي الذي يحاصره تخلصاً تاماً. ولكن ما كان يتوقعه لم يتحقق، وإنما تحقق نقيضه.
فإنه منذ الشهر الأول من حياته الزوجية شعر بهذه الفكرة تعذبه وتقض مضجعه. صحيح أن زوجتي تحبني. «ولكن كيف عساها تتصرف إذا هي عرفت الحقيقة؟» وحين أسرت إليه أول مرة أنها ستصبح أما إضطرب وقال لنفسه: «أأهب الحياة أنا الذي إنتزعت الحياة؟» ثم لما ظهر الأولاد، أصبحت تهاجمه وتلازمه أسئلة أخرى: «كيف أجرؤ أن أحبهم وأن أربيهم وأنشئهم كأنني أستاذ يعلم الفضيلة، في حين أنني سفحت دماً؟»، وكان أولاده على غاية من الظرف والجمال، ولكنه كان إذا إشتهى أن يلاعبهم يقول لنفسه: ألست جديراً بأن أتأمل وجوههم الحلوة الطاهرة التي تتلألأ فيها براءة نفوسهم». وأخيراً إنبجس أمام ضميره طيف المرأة التي قتلها، إنبجس وعيداً مرعباً كأنه نداء الدم المسفوح يهيب إلى الإنتقام وأصبحت توافيه في الليل كوابيس مرهقة. ومع ذلك إستطاع بفضل قوة قلبه وثبات جنانه أن يحتمل هذا العذاب زمناً طويلاً وإستطاع أن يقبله قائلاً لنفسه إنه سيكفر بآلامه الخفية عن خطيئته. ولكن أمله هذا قد خاب أيضاً. فإن القلق الداخلي ما إنفك يزداد ويتفاقم. والناس في المجتمع يحترمونه تقديراً لبره وإحسانه، مع تهيبهم قوة طبعه وإنغلاق نفسه ولكنه كان يزداد شعوراً بالإرهاق كلما إزداد شعورة بإحترام الناس له وقد إعترف لي بأنه فكر في الإنتحار غير مرة. غير أن قراراً آخر قد أخذ ينضج في نفسه، قراراً بدا في أول الأمر حلماً طائشاً مجنوناً ولكنه ما زال يستولي على وجدانه ويترسخ في ضميره حتى أصبح لا يستطيع أن يصرف عنه فكره. كان يقول لنفسه: «يجب أن أنهض وأعلن أمام جميع الناس أنني قاتل وأسلم نفسي للقضاء». وظل ثلاث سنين يحمل في خياله هذا الحلم الذي يعاوده في صور جديدة وجديدة بغير إنقطاع. وإنتهى إلى الاقتناع بأنه سيشفي روحه وسيسترد أمنه الداخلي إلى الأبد، إذا هو إعترف بجريمته. ولكن ما إن تأصل هذا الإقتناع فيه حتى غزا الرعب قلبه، فأصبح يقول لنفسه: «كيف أفعل مثل هذا؟» وفي ذلك الحين إنما وقعت المبارزة بيني وبين ذلك الرجل.
قال لي الزائر:
- حين نظرت إليك وجدت في نفسي القوة على أن أعزم أمري
وأتخذ قراري.
نظرت إليه فهتفت أسأله وأنا أضم يدي إحداهما إلى الأخرى:
- هل يمكن حقا أن يكون حادث تافه كهذا الحادث قد ولد في نفسك عزيمة كهذه العزيمة؟

فأجابني قائلاً:
- إن هذه العزيمة كانت تنضج في نفسي خلال ثلاث سنين، ولم
تزد مبارزتك على أن أخرجتها إلى النور. إنني إزاء المثل الذي ضربته أنت قد إستحييت من ضعفي وحسدتك:
كذلك قال بلهجة تشبه أن تكون قاسية.
قلت: - لن يصدقوك، فبعد أربعة عشر عاماً...
- عندي براهين، براهين رهيبة، لا يمكن دحضها... سأقدم هذه البراهين.
بكيت وعانقته. وقال لي بعد ذلك كأنه يخاطب إنساناً يتعلق به مصيره:
- أجبني مع ذلك عن سؤال. سؤال واحد: ما الذي سيحدث في هذه الحالة لزوجتي وأولادي؟ قد تموت زوجتي حزناً. أما أولادي فإنهم لن تسقط عنهم نبالتهم ولن يحرموا من أموالهم، ولكنهم سيظلون إلى الأبد أولاد سجين محكوم عليه بالأشغال الشاقة. وأية ذكرى سيحفظونها عني؟
صمت فلم أقل شيئا. وأردف يقول:
- سيكون علي أن أنفصل عنهم وأن أتركهم إلى الأبد! إلى الأبد حقا!
لم أجب بشيء، وكنت أتلو صلاة بصوت خافت. ونهضت أخيراً وقد إمتلأت نفسي رعباً وفزعاً.
سألني وهو ينظر إلي:
- هيه ماذا؟
قلت:
- إذهب وإعترف بجريمتك أمام جميع الناس وسلم نفسك للقضاء. كل شيء سينقضي وتبقى الحقيقة وحدها. وسيفهم أولادك حين يكبرون مدى ما إحتجت إليه من نبل وسمو روحي في سبيل إتخاذ هذا القرار.
تركني في ذلك المساء وقد بدا عليه واضحاً أنه قد قرر أن يعترف بجريمته.
ولكنه ظل خلال الأسبوعين اللذين أعقبا ذلك، يجيء إلي كل مساء تقريباً ويستعد كل يوم لتحقيق ما عقد النية عليه، حتى إذا جاء الغد جبن في آخر لحظة عن تحقيق عزمه. وكان تردده يقلقني ويعذبني. إنه يبدو في بعض الأحيان ثابت الجنان صلب العزيمة، فها هو ذا يقول في رقة وحنان:
- أنا أدري أنني سأعرف الجنة متى إعترفت بجريمتي. لقد عشت أربعة عشر عاما في الجحيم. أريد أن أتألم. سأقبل المحنة وسأستأنف الحياة. الكذب لا يؤدي إلا إلى الظلمات، وهو يسد الطريق نحو الضياء إلى الأبد! أنا الآن لا أجرؤ أن أحب حتى أولادي فكيف بالناس! سيفهم أولادي... آه يا رب! سيفهمون ما قاسيت ولن يدينوني! لا يظهر الرب في القوة، بل في العدل.
- سيفهمون القرار الذي إتخذته، وسيستحسنونه جميعاً، إن لم يكن فوراً ففي المستقبل حتماً. إنك بهذا العمل تخدم الحقيقة، تخدم حقيقة أعلى من الواقع الأرضي...
إنصرف بعد ذلك وقد رضيت نفسه واشتد إزره، ولكنني رأيته في الغد عائداً إلي وقد شحب وجهه وتشعنت هيئته، فقال لي بلهجة فيها سخرية:
- كلما دخلت عليك أحسست أنك تتفرس في كمن يقول لنفسه: لم يقرر بعد. صبرك ولا تتسرع في إحتقاري إن إنفاذ هذا الأمر أصعب مما تظن. ومن يدري؟ فقد أعدل عنه أخيراً، أحسب أنك لن تمضي تشي بيا
والحق أنني لم أكن أتفرس فيه مستطلعاً، فلقد كنت لا أكاد أجرؤ أن أنظر إليه. كانت هذه المسألة الداخلية تمرضني، وكنت أهم أن أبكي في كل حين، حتى أوشك أن أحرم النوم. قال يوماً حين وصل إلي:
- تركت إمرأتي منذ هنيهة. هل تستطيع أن تفهم ما معنى هذه الكلمة: «إمرأتي؟... لقد صاح أولادي يقولون لي حين خرجت من المنزل «عد بسرعة يا بابا لتقرأ معنا في مجلة الأطفال[166].
لا... إنك لا تستطيع أن تفهم هذا! إن شقاء غيرنا يبدو لنا خفيفاً».
وسطعت عيناه وإختلجت شفتاه. وضرب المائدة فجاة بقبضة يده ضربة بلغت من القوة أن الأشياء التي كانت عليها أخذت تهتز. إن هذه البادرة تبدو أمرة خارقة من رجل يبلغ ما يبلغه هو من وداعة ورقة في العادة.
هتف يقول:
- أهذا ضروري فعلاً ؟ أهو مفيد حقا أن أشي بنفسي؟ ما الداعي إلى هذا الإعتراف ولم يحكم على أحد بسبب جريمتي، ولم يرسل بريء إلى السجن بدلاً عني وقد مات ذلك الخادم من مرض؟ أما الدم المسفوح فإنني أكفر عنه بألامي وعذابي. ثم إنهم لن يصدقوني، وسيبعدون الأدلة التي يمكن أن أقدمها. ففيم أشي بنفسي؟ هلا قلت لي فيم أشي بنفسي! إنني مستعد لأن أتألم طوال حياتي من تلك الجريمة في نفسي، شريطة أن لا أجر زوجتي وأولادي معي إلى الشقاء. هل من العدل أن أجبرهم على مشاركتي في العقاب؟ ألا ترى أننا قد ضللنا طريق الرشاد؟ أين الحقيقة؟ وهل هؤلاء الناس جميعاً قادرون حقا على أن يدركوا الحقيقة، وعلى أن يقدرونها ويحترمونها كما يجب أن تقدر وتحترم؟
قلت أخاطب نفسي «ربا! إنه يهتم بتقدير الناس في مثل هذه اللحظه» وإجتاحت نفسي عندئذ شفقة شديدة عليه حتى بدا لي أنني مستعد لأن أشاطره مصيره لو كان ذلك يخفف عذابه. لقد إنقلبت سحنته إنقلابة رهيبة. وما كان أشد إنصعاني حين أدركت لا بعقلي في هذه المرة، بل بروحي وقلبي، مدى ما يكلفه مثل هذا القرار من ثمن باهظ
هتف يقول:
- قرّر مصيري؟
فأجبته هامساً:
- إذهب وأعلن عن جريمتك وسلم نفسك للقضاء!
كان صوتي واهناً ضعيفاً، غير أن فيه حزمة وصلابة. ثم تناولت الكتاب المقدس من على المائدة - في ترجمته الروسية - ودللته على هذه الفقرة من إنجيل يوحنا، الإصحاح 12، الآية 24: «الحق الحق أقول لكم: إن لم تقع حبة القمح في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها. ولكن إن ماتت فهي تأتي بثمر كثير». وكنت قد وقعت على هذه الآية قبل زيارته بلحظات.
قرأ الآية وقال:
- هذه هي الحقيقة.
ولكنه إبتسم بعد ذلك بمرارة، وصمت لحظة ثم قال:
- ما أكثر ما يجد المرء في هذه الكتب؟ ما أسهل ما يوضع تحت أنفك كلام كهذا الكلام! فمن ذا الذي كتب هذا كله؟ هل يمكن أن يكون الذين كتبوه بشراً؟
قلت:
- نعم ولكنهم كتبوه بوحي من الروح القدس.
عاد يقول مبتسماً مرة أخرى، ولكن إبتسامته في هذه المرة يكاد يكون فيها كره:
- ما أسهل عليك أن تثرثر!
فتحت الإنجيل على موضع آخر، وأريته الآية 31 من الإصحاح 10 «الرسالة إلى العبرانيين».
«فقرأ: مخيف هو الوقوع في يدي الله الحي»[167].
قرأ ثم رمى الكتاب وأخذ جسمه كله يرتعد. قال:
- هذه الآية رهيبة. يجب أن أعترف لك بأنك أحسنت إختيارها للمناسبة.
ونهض قائلاً:
- الوداع. أغلب الظن أنني لن أجيء إليك بعد اليوم... سنلتقي في الجنة. لقد «وقعت إذاً في يدي الرب الحي» مدة أربعة عشر عاماً. يظهر أن علي أن أسمي هذه

الفترة من حياتي هكذا. غداً سأضرع إلى تينك اليدين أن تتركاني...
وددت لو أعانقه وأقبله، ولكنني لم أجرؤ. كانت قسمات وجهه منقبضة وكانت نظرته ثقيلة. خرج. تساءلت: «إلى أين يمضي هذا الإنسان الآن يا رب!»، وارتميت جاثياً على ركبتي أمام أيقونة العذراء. صليت باكياً لأم الرب التي تخف إلى الشفاعة والحماية. إنقضت نصف ساعة دون أن أكف عن الدعاء والبكاء، أوشك الليل أن ينتصف. هذا باب الغرفة يفتح فجأة، وهذا صاحبي يظهر من جديد. أذهلتني رؤيته.
سألته:
- من أين جئت؟
- نسيت... أظن أنني نسيت عندك شيئاً... هو منديل في أغلب الظن. وهبني لم أنس شيئاً، دعني أجلس...
- اجلس أنت أيضاً.
أطعته. ولبثنا على هذه الحال بضع دقائق لا نتكلم. كان يحدّق إلي. وفجأة، ضحك ضحكة صغيرة... أتذكر ذلك... ثم نهض، واقترب مني، وعانقني وقبلني... وقال يخاطبي في هذه المرة بصيغة المفرد:
- تذكر مجيئي الثاني إليك هذه الليلة. لا تنس ذلك. فهمت؟ تلك أول مرة يخاطبي فيا بصيغة المفرد. ثم خرج. قلت لنفسي: «إنه فاعل غداً»..
لم يخطئ ظني. كنت أجهل في ذلك المساء أنه يحتفل غداً بعيد ميلاده. إني لم أخرج منذ حين إلا لماماً، فلم يذكر لي أحد ذلك. كان يقيم في كل سنة حفلة كبيرة في منزله يدعو إليها كل أبناء المجتمع الراقي من أهل المدينة. وكذلك فعل في هذه السنة. حتى إذا إنتهى العشاء تقدم إلى وسط الصالة، ممسكاً بيده ورقة كتب عليها إعترافاته موجهة إلى رؤسائه. كان رؤساؤه حاضرين الحفلة. قرأ تصريحه بصوت عال، ذاكراً جميع تفاصيل الجريمة التي إرتكبها منذ أربعة عشر عاماً. وختم قراءته قائلاً: «أنا شيطان رجيم. وقد قررت أن أبعد نفسي عن المجتمع. لقد مستني النعمة الإلهية. أريد أن أتألم». ثم وضع على المنضدة جميع الأدلة التي إحتفظ بها خلال تلك السنين، والتي يأمل أن يبرهن بها الآن على قيامه بجريمته: حلي المرأة الثقيل، التي سرقها تمويهاً ودفعاً للشبهات، والصليب والنيشان الذي يضم صورة خطيب المرأة القتيل ودفترة ورسالتين، فأما الرسالة الأولى فهي من الخطيب يبلغ فيها خطيبته أنه آت قريباً، وأما الثانية فهي جواب لم تتم كتابته وقد تركته على منضدتها لترسله إلى خطيبها في الغد. ماذا كان هدفه من أخذ هاتين الرسالتين؟ وماذا كان الدافع الذي دفعه بعد ذلك إلى أن يحتفظ خلال تلك السنين كلها بهذه الأدلة التي تتهمه وتعرضه للخطر بدلاً من أن يتلفها؟ مهما يكن من أمر، فإليكم ما حدث: هل الحضور من إعترافاته، وإنتابهم جزع، ولكنهم رفضوا أن يصدقوا هذه الإعترافات. صحيح أنهم أصغوا إليه بكثير من الإنتباه والإستطلاع، ولكنهم إنما أصغوا إليه إصغاءهم إلى إنسان مريض. بعد بضعة أيام كانت المدينة كلها مجمعة على أن المسكين قد فقد عقله. ولئن لم يكن في وسع رؤسائه ورجال السلطة أن لا يتابعوا الأمر، فلقد أرتأوا أخيراً أنه لا مجال لتحريك القضاء. ذلك أن الرسالتين والأشياء التي قدمها إن كانت تبعث على التفكير، فلا يمكن أن يبنى عليها وحدها إتهام، حتى ولو ثبت أنها للقتيلة، فمن الممكن أن تكون القتيلة قد عهدت إليه بها كصديق. وقد علمت فيما بعد أن أصدقاء الضحية وأقرباءها قد تعرفوا إلى هذه الأشياء، فلم يبق حول ذلك شك. ولكن القضية لم تحرك رغم هذا فقد علم بعد خمسة أيام أن المسكين قد مرض وأن حياته في خطر. لا أستطيع أن أقول ماذا كان مرضه. وقد تحدث الناس عن إضطرابات قلبية. ومهما يكن من أمر، فإن الأطباء قد فحصوا حالته العقلية أيضاً وذلك بإلحاح من إمرأته، فانتهوا إلى أنه مصاب ببداية جنون. ولم أكشف عن إعترافاته لي طبعاً، رغم أن جميع الناس قد حاصروني بالأسئلة. وحين أردت أن أزوره مع ذلك أغلق دوني بابه، وكانت إمرأته خاصة هي التي حالت بيني وبينه. قالت لي «أنت الذي أدخلت الإضطراب والإختلال إلى عقله! لقد كان دائماً قاتم المزاج، وأصبح إضطرابه النفسي وسلوكه الغريب يقلقاننا منذ عام، فجئت أنت فأجهزت على عقله! أنت الذي حشوت رأسه بهذه الأفكار! إنه منذ شهر لا يكاد يخرج من عندك!» ولم يكن هذا شأن إمرأته وحدها هل تصدقون هذا. لقد هاجمتني المدينة كلها عندئذ وأغرقتني لومة وتقريعة. «هذه خطيئتك !» هذا ما كان يقول لي الناس في كل مكان. وكنت أصمت فلا أجيب، وكنت في قرارة نفسي سعيدة. ذلك أني أدركت أن الرب قد أشفق على الرجل الذي أدان نفسه وأراد أن يلقى جزاءه. أما جنونه المزعوم، فما كان لي أن أصدقه. وسمح لي أخيراً بأن أراه، لأنه أعرب هو نفسه عن هذه الرغبة ملحاً من أجل أن يودعني. فحين دخلت عليه أدركت منذ اللحظة الأولى أن ساعاته لا أيامه معدودات. كان واهناً ضعيفاً أصفر الوجه مرتعش اليدين يتنفس بكثير من العناء. ولكن نظرته تعبر عن الفرح والهدوء. قال لي:
- إنتصرت الحقيقة! إنني أنتظرك منذ مدة طويلة، لماذا تأخرت في المجيء؟ أخفيت عنه أنني منعت من الإقتراب منه.
- لقد أشفق علي الرب فناداني إليه. أنا أعلم أنني سأموت، ولكن روحي قد عرفت السعادة والسلام والطمأنية أخيراً، لأول مرة بعد تلك السنين الطويلة كلها. لقد وجدت الجنة في نفسي منذ تكلمت مستوحي ضميري. أصبحت لا أخشى أن أحب أولادي وأن أقبلهم. إن الناس ترفض أن تصدقني! ما من أحد يريد أن يسلم بأنني قاتل، لا زوجتي ولا قضائي. وأولادي لن يصدقوا هذا هم أيضاً. وفي هذا أرى رأفة الله بأولادي. سوف أموت، ولكن إسمي سيظل في نظرهم طاهراً لم يدس ولم يلطخ. إنني أشعر بالله الآن، وإن قلبي لمبتهج كأنني في الجنة... لقد قمت بواجبي...
لم يستطع أن يكمل كلامه، فقد إنتابه إختناق، غير أنه شد على يدي بحرارة، ونظر إلي صامتاً وقد سطعت عيناه بلهيب. لم نتمكن من إطالة حديثنا، لأن إمرأته تشق الباب بغير إنقطاع. وإتسع وقته مع ذلك لأن يدمدم قائلاً:
- هل تتذكر أنني جئت إليك للمرة الثانية، عند منتصف الليل؟
لقد أوصيتك عندئذ بأن لا تنسى ذلك... فهل تعلم ماذا كان هدفي حين جئت إليك في تلك الساعة؟ كان هدفي أن أقتلك! إرتعشت.
- فبعد أن تركتك، لبثت أطوف في الشوارع على غير هدى زمناً طويلاً أصارع نفسي، فإذا أنا أشعر فجأة بكره لك بلغ من القوة أنني أحسست أن قلبي يوشك أن ينفجر. قلت لنفسي «بسببه وحده إنما أنا مضطر إلى الإعتراف الآن. لقد أصبح قاضي، ولن أستطيع أن أفلت من العقاب غداً لأنه يعلم كل شيء. ليس معنى هذا أنني كنت أخشى أن تشي بي. (إن هذه الفكرة لم تخطر ببالي في لحظة من اللحظات) ولكنني كنت أقول لنفسي: «لن أستطيع أن أنظر إليه بعد ذلك إذا أنا لم أسلم نفسي للسلطات». وسيان أن تكون في هذه المدينة أو أن تكون في أقصى الأرض، أصبحت لا أطيق أن أتصور أنك تعيش في مكان ما عالماً بأمري حاكماً على مدينة إياي. فأخذت أكرهك، كما لو كنت علة شقائي، كما لو كنت مسؤولاً عما أنا فيه. ورجعت إليك متذكراً أن عندك على المائدة خنجراً. وجلست، ودعوتك أن تجلس أنت أيضاً، ولبثت دقيقة طويلة أفكر وأنا أحدق إليك. بديهي أن حياتي كانت ستتحطم على أي حال لو قتلتك، وأنني كنت سأنتهي نهاية شقية، سواء إعترفت بالجريمة السابقة أم لم أعترف. ولكن ذلك لم يخطر ببالي في تلك اللحظة، إنني لم أكن أهتم بالعواقب. كنت أكرهك، وكانت تحرقني رغبة قوية في أن أثار منك لكل ما كنت قد قاسيته من عذاب. أما ماعدا ذلك فكان لا يعنيني. ثم إنتصر الرب في تلك الدقيقة على الشيطان في قلبي. ولكن إعلم أن الموت لم يقترب منك في يوم من الأيام كما إقترب منك في تلك الليلة.
مات الرجل بعد أسبوع. وشيعت المدينة كلها جثمانه إلى المقبرة. وألقى الكاهن كلمات مؤثرة. وإنتحب المنتحبون حزناً عليه، وإشتكوا مر الشكوى من المرض الذي أماته، وبعد الجنازة قاموا عليّ. وأصبحوا منذ ذلك الحين لا يدعونني إلى منازلهم. غير أن عدداً من الأشخاص، كانوا قلة في أول الأمر ثم تكاثروا بعد ذلك، قد إنتهوا إلى الإقتناع بصدق إعترافاته، فكانوا يجيئون إلي في كثير من الأحيان يزعجونني بأسئلتهم عنه، وقد إمتلأت نفوسهم فضولاً شديداً وفرحاً خفيفاً. إن الإنسان يحلو له أن يرى رجلاً صالحاً يسقط ويتلطخ شرفه. أبي أن أتكلم مع ذلك، ثم لم ألبث أن بارحت تلك المدينة مبارحو تامة. وبعد خمسة أشهر منّ عليّ الرب فوجهني في طريق اليقين والنور، وباركت اليد الخفية التي قادت خطاي نحو الهدف. أما صاحبي ذاك ميخائيل، خادم الرب، الذي كان عاثر الخط وتألم كثيراً، فقد ذكرته في صلواتي كل يوم منذ ذلك الحين وما زلت أذكره فيها حتى هذه الساعة.

-3-بعض التعاليم التي عبر عنها الأب زوسيما في أحاديثه

هـ) حديث عن الراهب الروسي والدور الذي يمكن أن يقوم به:

ما الراهب يا إخوتي ومعلمي؟ إن بعض الناس في الأوساط المثقفة ينطقون بهذه الكلمة في أيامنا هذه ساخرين، وإن بعضهم الآخر يعدها مسبة وإهانة. وسوء الفهم هذا ما ينفك يتفاقم بمرور الزمن. صحيح أن بين الرهبان - يجب علي أن أعترف بهذه الحقيقة واأسفاه! - كسالى وفجرة وفاسقين. فأولئك أناس أشقياء إرتموا في الأديرة. والمتنورون من أبناء المجتمع يدلّون علينا قائلين «رجال واهنون، لا خير فيكم ولا نفع منكم، طفيليون ومتسولون لا شرف لكم». ولكن ما أكثر المتواضعين الوادعين بيننا مع ذلك ما أكثر الذين لا يطمحون إلا إلى أن يصلوا للرب صلاة حارة في عزلتهم الهادئة! إن الناس لا يلقون بالاً إلى هؤلاء كما يلقون بالاً إلى أولئك، حتى إنهم لا يأتون على ذكرهم ولا يتكلمون عنهم البتة. ألا ما أشد الدهشة التي سيشعر بها أولئك الثالبون المشعون إذا هم علموا أن روسيا المقدسة إنما سينقذها مرة أخرى في يوم من الأيام هؤلاء الرهبان المتواضعون الظامئون إلى العزلة والصلاة! إن هؤلاء الرجال يستعدون صامتين «لليوم والساعة، للشهر والسنة» التي سيحين حينها. هم الآن يسهرون على صورة المسيح، محاولين بكثير من التقى والخشوع في حياتهم المغمورة، أن يحافظوا على ما لهذه الصورة من سناء ونقاء، فهم يعيشون في الحقيقة الإلهية وفقاً لتعاليم آباء الكنيسة والرسل والشهداء. حتى إذا دقت الساعة أظهروا هذه الحقيقة مقابل حقيقة العالم المترنحة. إن هناك فكرة عظيمة إنها النجمة التي ستطلع يوماً من المشرق.
ذلكم هو رأيي في الرهبان. أأكون على ضلال، أيكون حكمي قائماً على زهو غرور؟ إنظروا إلى العلمانيين، هؤلاء الذين يعيشون في المجتمع ويعدون أنفسهم أعلى من رجال الدين: ألم يدنسوا نفوسهم ويخونوا الحقيقة الإلهية، هم الذين خلقوا على صورة الرب؟ إنهم يملكون العلم، ولكن العلم لا يعرف إلا ما تدركه الحواس. أما الكون الروحي، أما العنصر الأسمى في الطبيعة الإنسانية، فقد رفضوه ونبذوه وطرحوه ودانوه، شاعرين بنوع من فرح الإنتصار، بل وبنوع من الكره. إن العالم يعتز بالحرية ولاسيما في أيامنا هذه، ولكن ما الذي تؤدي إليه هذه الحرية، وما الذي نراه يتأكد بإسمها؟ عبودية النفوس والإنتحار الأخلاقي.. يقول الناس: إن لك حاجات فعليك أن تسعى إلى إشباعها، لأن حقوقك لا تقل عن حقوق الأغنياء والكبار.«لا تخش رغباتك، بل أكثر عددها». تلك هي عقيدة هذه الأيام. هكذا يتصور الناس الحرية. فما الذي يؤدي إليه هذا الحق المزعوم في إتباع المرء لرغباته؟ إنه يؤدي لدى الأغنياء إلى العزلة والإنتحار النفسي ويؤدي لدى الفقراء إلى الحسد والقتل. ذلك أن الناس قد أعطوا حقوقاً ولكنهم لم يعلموا بعد وسائل تحقيق الغلبة لها ووسائل إشباع حاجاتهم. يزعم بعضهم أن التطور الطبيعي يقود الإنسانية نحو مزيد من الإتحاد، فإزالة المسافات بالمكتشفات الحديثة ونقل الأفكار عبر الأثير ينميان الإحساس بالأخوة والتضامن. واحسرتاه! لا تدعوا لهذه الأوهام حول إتحاد الناس أن تخدعكم! ما من وفاق يمكن أن يقوم على أسس من هذا النوع. إننا إذا تصورنا الحرية على أنها قدرة الفرد على إكثار حاجاته وإشباعها بسرعة، كنا نشوّه طبيعة الإنسان ونثير فيه رغبات باطلة حمقاء ونخلق له عادات وأحلاماً سخيفة لا سبيل إلى تحقيقها. إن الناس لا يعيشون اليوم إلا في الحسد إشباعاً لشهواتهم أو إرضاءً لغرورهم. إن إقامة الحفلات والخروج في النزهات والتمتع بالمآدب وإقتناء العربات الفاخرة وإكتساب الألقاب وإمتلاك الخدم الأقنان، إن ذلك كله يبدو لأبناء المجتمع ضرورة لا غنى لهم عنها، وحاجة لا يبالون أن يضحوا بحياتهم وشرفهم وأن يتخلوا عن حب الإنسان أخاه الإنسان حتى ليؤثروا أن ينتحروا إذا لم يتمكنوا من إشباعها. وهذا يصدق أيضاً على من لا يملكون ثراءً طائلاً. أما الفقراء فإنهم يخنقون عن طريق الخمرة والسكر، إلى حين، ما يشعرون به من حسد وما يدركونه من إستحالة إرضاء رغباتهم. ولكن سيأتي يوم يسكرون فيه بدم لا بخمر. فإلى هذا إنما يدفعون. إني لألقي عليكم هذا السؤال: هل هؤلاء رجال أحرار؟ لقد عرفت في الماضي واحداً من المناضلين في سبيل الفكرة. وقد أسر إلى هذا الرجل في ذات يوم أنه حين حرم من التدخين في السجن بلغ ألمه من هذا الحرمان أنه أوشك أن يخون «فكرته» في سبيل التدخين. ومثل هذا الرجل يزعم أنه يريد أن يناضل في سبيل الإنسانية. هل نصدق أن رجلاً كهذا الرجل يمكن أن يمضي بعيداً في بذل الجهد؟ إنه عاجز إلا عن إندفاعات مؤقتة وعمل مباشر، أما الثبات والإستمرار فلا طاقة له بهما. فهل غريب بعد هذا أن
البشر لم يجدوا الحرية بل العبودية، وأنهم بدلا من أن يخدموا الإنسانية وأن يوخدوها قد سقطوا إلى العزلة»، كما قال لي في شبابي «زائري الغامض» ومعلمي ذاك؟ لهذا نرى العالم الآن بسبيل أن يفقد اليوم حس الإخلاص للإنسانية، حس الوحدة الإنسانية والأخوة الإنسانية، ويبلغ من ذلك أن هذه الأشواق الكبرى أصبحت لا تثير إلا إبتسامات.. وأن للإنسان فعلاً أن يتحرر من عاداته المكتسبة وماذا يمكن أن يصير إليه الإنسان الذي إستعبدته حاجاته، إذا كان قد تعلم أن يرضي الشهوات الكثيرة التي يخلقها هو نفسه؟ إن إنساناً هذا شأنه إنما يعيش في عزلة روحية. وهل تعنيه الجماعة في هذه الحالة؟ ذلك ما وصل إليه البشر، جمعوا ثروات فوق ثروات، أما الفرح فقد تناقص في قلوبهم.
وليست كذلك الطريق التي يسير فيها الراهب. كثيرا ما يسخر الناس من الطاعة والصيام والصلاة، مع أن الطاعة والصيام والصلاة هي في الواقع السبيل الوحيد إلى بلوغ الحرية الحقيقية. إنني حين أضحي بحاجاتي الزائدة وحين أسيطر بالطاعة على إرادتي المزهوة الأنانية، إنما أرتفع بعون الله إلى الحرية الروحية التي تهب لي الفرح النفسي والروحي! أيهما أكثر تأهباً للنضال في سبيل فكرة عظيمة، الغني الذي يعيش في عزلته الروحية أم ذلك الراهب الذي تحرز من إستبداد العادات والأشياء والحاجات المادية؟ إن بعض الناس يأخذون على الرهبان أنهم معتكفون، فهم يقولون لهم «لقد إعتزلتم العالم لتضمنوا سلامتكم وراء جدران دير ونسيتم تضامنكم مع البشر إخوتكم، ونسبتم واجب خدمة الإنسانية». لسوف نرى من الذي سيخدم قضية الأخوة الإنسانية خيراً من غيره، إلا أنهم هم الذين يعيشون في العزلة لا نحن ولكنهم لا يدركون ذلك. ومن بيئتنا إنما خرج منذ أقدم العصور أولئك الرجال الذين ناضلوا في سبيل سعادة الشعب. فلماذا لا يكون الأمر على هذا النحو اليوم؟ لسوف يرى هؤلاء الرهبان المتواضعون الذين يلتزمون قواعد الصيام والصمت، لسوف يرون في يوم من الأيام يهبون للقيام بعظائم الأعمال. إن الشعب هو الذي سينقذ روسيا وإن الرهبان الروس قد ظلوا متحدين بشعبهم إتحاداً قوياً في جميع الأزمان. إذا كان الشعب في العزلة فنحن في العزلة أيضاً. إن إبن الشعب يؤمن بما نؤمن به نحن. أما مثقفونا الملحدون فإنهم لن يصلوا إلى شيء في روسيا ولو صدقت قلوبهم وكانوا ينهمون بذكاء عبقري تذكروا هذا، إن الشعب سيقوم أخيراً على الملحدين وسيغلبهم. سوف تسترد روسيا العظيمة وحدتها الروحية في الأرثوذكسية. إسهروا على الشعب، وصونوا طهارة روحه. ربوه في صمت. تلك هي رسالتنا أيها الرهبان، لأن هذا الشعب يحمل في نفسه الله.

و) حديث عن السادة والخدم:

هل يمكن أن يصبحوا إخوة في الروح؟

إنه لصحيح، واأسفاه، إن الشعب يعيش في الخطيئة هو أيضاً. إن عوامل الإنحلال والتفسخ تتابع عملها وإن الشر ينتشر ساعة بعد ساعة، لأن العدوى تأتي من الطبقات العليا، فإذا بالصغار والفقراء يقعون في العزلة هم أيضاً. إننا نرى ظهور المحتكرين والمستغلين. والتجار يزدادون ظمأ إلى مظاهر المجد التبجيل. إنهم يريدون أن يعدوا مثقفين، مع أنهم لا يملكون أي ثقافة في الواقع. وهم يحسبون أنهم يصلون إلى ذلك بإظهار إحتقارهم للعادات القديمة. ويبلغون في هذا حد الشعور بالخجل والعار من إيمان آبائهم. إنهم يختلفون إلى مجتمع الأمراء، مع أنهم ليسوا إلا فلاحين متدهورين. إن الإدمان على الخمر يهلك روح شعبنا الذي لا يستطيع الفكاك منه. ما أشد قسوة حياة المرأة وحتى حياة الأطفال في الأسر! إن الإسراف في شرب الخمرة هو سبب ذلك. لقد رأيت أطفالاً يعملون في المصانع وهم لمّا يكادوا يبلغون العاشرة من أعمارهم، إنهم ضعاف هزيلون مقوسو الظهور قد فسدت أخلاقهم منذ الآن. القاعات الخانقة الموبوء الهواء، ضجة الآلات، العمل الذي لا تتخلله راحة كافية، الأحاديث البذيئة التي يسمعها الطفل في هذه البيئة، المشروبات الكحولية، ذلك كله لا يخلق مناخاً صالحاً لنفس الطفل. إن الأطفال في حاجة إلى الشمس، والألعاب، والقدوة الحسنة، وحد أدنى من العاطفة والحنان! يجب أن تنتهي هذه الحالة أيها الرهبان، وأن يتخلص الأطفال من العذاب! أمضوا إلى الناس وعظوهم حتى تزول هذه الشرور بأقصى سرعة. ولكن الله سينقذ روسيا رغم كل شيء. ذلك أن إبن الشعب إن تدهور وأصبح لا يشعر بالقدرة على العدول عن هذه الخطايا الرهيبة، فإنه يعلم على الأقل أن سوء سلوكه هذا يلعنه الرب، وأنه يخطئ إذ ينقاد للشر. إن شعبنا لم يفقد إيمانه بالخير. إنه مؤمن بالله، وهو يبكي ندماً على خطاياه بدموع صادقة. وليس هذا حال أبناء المجتمع الراقي واأسفاه! فهؤلاء يدعون إقامة العدالة بمعونه عقلهم وحده، مستغنين عن المسيح بعد اليوم. حتى لقد نادوا منذ الآن بأنه لا توجد خطيئة، ولا جريمة. ولا شك أنهم من وجهة نظرهم على حق. فإذا لم يكن هنالك إله، لم يكن هنالك خطيئة! في أوروبا تثور الشعوب على الأغنياء وتريد أن تقاتلهم بالقوة، وقادتها تقودها في كل مكان إلى إراقة الدماء قائلة لها إن غضبها حق وعدل. ألا إن «الغضب ملعون لأنه قاس»[168]. إن روسيا سيخلصها الرب كما سبق أن خلصها مراراً في الماضي. وسيأتي الخلاص مما يملكه الشعب من روح الإذعان لمشيئة الله ومن إيمان بوجود الله. فيا آبائي ومعلمي، صونوا إيمان شعبنا لأن ما أبشركم به الآن ليس حلماً من الأحلام. لطالما شهدت أثناء حياتي كلها مما يتمتع به شعبنا الروسي العظيم من كرامة صادقة ونبل كبير. لقد رأيت هذا بنفسي، وكنت شاهداً عليه، وفي وسعي أن أؤكده لكم، رغم الخطايا الكثيرة والمبائس الشديدة التي يعيش فيها. إن شعبنا لا تلازمه روح الذل والفقراء لم يصبحوا عبيداً حتى بعد قرنين من الرق، حافظ الشعب على مسلك الحرية دون أي غطرسة مع ذلك، ولم تعصف بنفسه روح الحسد والانتقام. لسان حال الشعب يقول: «أنت غني، وأنت في مرتبة عالية، وأنت ذكي، وأنت صاحب موهبة. إنني أعلم ذلك، وأسأل الله أن يباركك! إني أحترمك، ولكني لا أنسى أنني أنا أيضاً إنسان. وإذا احترمتك دون أن أحسدك، فإنني أؤكد أمامك كرامتي الإنسانية». لئن كانوا لا يقولون هذا الكلام (لأنهم لا يحسنون التعبير عما بأنفسهم) فإن هذا الموقف النفسي يتجلى في سلوكهم. رأيت ذلك وكنت شاهداً عليه. صدقوني إذا قلت لكم إن الروس تزخر نفوسهم بالحقيقة النبيلة على قدر ما يكونون فقراء. ذلك أن الذين إغتنوا منهم قد أصبحوا محتكرين ومستغلين وفسدت أخلاق أكثرهم وهذا أمر سأل عنه نحن أنفسنا بعض الشيء بسبب إهمالنا وضعف نشاطنا وهمتنا! ولكن الرب سينقذ ذويه لأن روسيا عظيمة بإذعانها المشيئة الله. إنني أحلم بمستقبلنا، فيبدو لي أحياناً أنني أراه سيأتي يوم يشعر فيه أفسد أغنيائنا أخيراً بالخجل والعار من ثرواته أمام الفقير، وسيبرهن الفقير يومذاك بعد أن يرى ندم الغني ومذلته على حسن الفهم هو أيضاً فيتنازل أمامه مستجيباً بالتعاطف لتوبته النبيلة. صدقوني أن هذا ما سيكون لأن هذا هو ما يقودنا إليه التطور. لن يكون هناك مساواة إلا في الشعور بكرامة الإنسان الروحية وهذه حقيقة ستكون مفهومة في بلادنا. لسوف تسود الأخوة متى أصبح البشر أخوة بالقلب وبدون هذه الأخوة لا يمكن أن يكون هناك قسماة عادلة. ألا فلنحتفظ في أنفسنا بصورة المسيح حتى تشرق على العالم في يوم من الأيام درة تشع ضياء... آمين آمين!

يا آبائي ومعلمي، لقد إتفق لي في الماضي أن عانيت تجربة تهز النفس هزة. حينما كنت أجوب روسيا التقيت في مدينة ك...، وهي مركز مقاطعة بخادمي الجندي آفانسي الذي لم أكن قد رأيته منذ ثماني سنين أي منذ اليوم الذي صرفته فيه. لقد لمحني مصادفةً في السوق فعرفني فهرع إلي وقد إستخفه الفرح «أهذا أنت يا مولاي، أنت، أنت؟ هل يمكن حقاً أن تكون أنت؟» وقادني إلى منزله. كان قد شرح من الجندية وتزوج وأنجب طفلين، وهو يعيش مع أسرته من تجارة صغيرة على بسطة. إن مسكنه ضيق ولكنه نظيف مضيء. فلما أجلسني، سخن السماور وإستدعى إمرأته، كأن زيارتي عيد له. وقدم إلي ولديه قائلاً «باركهما يا أبانا». فأجبته «أنا من يباركهما؟ ما أنا إلا راهب متواضع. سأدعو الله لهما. أما أنت يا آناناسي بافلوفتش، فإنني ما كففت عن الدعاء لك كل يوم منذ ذلك الحادث الذي وقع بيننا، لأن كل شيء قد بدأ يومذاك وكنت أنت سببة له». شرحت له ما وسعني أن أشرح. فكان ينظر إلي مدهوشاً، لا يستطيع أن يفهم أن مولاه القديم، الضابط موجود الآن أمامه بمسوح راهب بسيط. حتى لقد أخذ يبكي. سألته «لماذا تبكي يا من لم أنسه قط؟ ألا إن الأفضل أن تسر وتفرح يا عزيزي لأن الطريق الذي إخترته لنفسي طريق جميل مضيء». كان لا يتكلم وإنما هو يتنهد تنهداً ويهز رأسه بعطف قوي وتأثر شديد. وسألني «ماذا صنعت بثرونك؟» فأجبته «وهبتها للدير الذي نعيش فيه حياة مشتركة». ودعتهم بعد أن شربنا الشاي، فإذا هو يعطيني خمسين كوبيكا للدير وإذا هو يدس في يدي خمسين كوبيكة أخرى خلسة وهو يقول «هذه لك أنت. فما دمت راهباً تضرب في الأرض فقد تنفعك في الطريق». قبلت صدقته وحييته وحييت إمرأته وإنصرفت مبتهج القلب، أحدث نفسي قائلاً «لا شك أنه مثلي في هذه اللحظة، يتنهد تارة ويبتسم تارة أخرى، هازة رأسه متسائلاً كيف جمع الرب بيننا من جديد». ولم أره منذ ذلك الحين. لقد كنت سيده وكان خادمي، ولكننا حين تعانقنا أثناء لقائنا بمحبة وحنان روحي قد أعدنا إقامة الوحدة الإنسانية الكبرى بيننا. لطالما فكرت في هذا الأمر بعد ذلك، وإني لأتساءل اليوم «لماذا لا يكون من الممكن أن يتحقق الإتحاد بين الروس على هذه الطريقة البسيطة الصادقة نفسها في يوم من الأيام متى آن الأوان؟» إنني أعتقد بأن هذا الإتحاد العظيم سيتم وأن ساعته إقتربت إني لأضيف ما يلي في موضوع الخدم كان يتفق لي في السنين الأولى من شبابي أن أغضب على الخدم «سكبت الطباخة الحساء ساخناً مفرطاً في السخونة ؛ الخادم لم ينظف ثيابي بالفرشاة». ولكن فكرة أخي العزيز الذي سمعته في طفولتي يقولها قد بعثت في نفسي نوراً «أنا جدير بأن يخدمني الإنسان؟ هل يحق لي أن أعده أدنى مني لأنه فقير جاهل؟» وقد أدهشني بعد ذلك أن أفكار بسيطة هذه البساطة واضحة هذا الوضوح لا تعرض لعقولنا إلا متأخرة. إن الحياة تصبح اليوم مستحيلة ما لم يكن هناك سادة وخدم. فلا أقل من أن نجعل سلوكنا يشعرهم بأنهم أحرار روحياً أكثر مما لو كانوا لا يخدموننا. لماذا لا نصبح خدماً لخدمنا؟ إنهم إذا لاحظوا أننا لا نتكبر عليهم أي تكبر سيتحررون من الشك فينا ومن محاذرتنا. لماذا لا نعدهم أقرباء ولا نستقبلهم في أسرنا مبتهجين بوجودهم بيننا؟ إن هذا الموقف يمكن إتخاذه منذ الآن، ويمكن أن يكون قاعدة للإتحاد الرائع الذي سيتحقق للإنسانية في المستقبل، يوم يشعر الإنسان أنه ليس في حاجة إلى أن يكون له خدم، ويوم لا يحاول أن لا يرد أقرانه البشر خدمة له كما يفعل الآن، وإنما يتطلع بكل نفسه إلى أن يصبح خادماً لجميع الناس عملاً بروح الإنجيل. أتظنون أنه حلم باطل أن يراودنا الأمل في أن نرى البشر أخيراً ينشدون السعادة في مآثر التنوير والرحمة في السمو النفسي وممارسة المحبة، بدلاً من السعي إلى الملذات المتوحشة في النهم والفجور وحب الظهور وفي ذلك الظمأ الحاسد إلى الإرتفاع فوق الآخرين؟ أما أنا فإنني أؤمن إيمانا راسخاً بأن هذا ليس أملاً باطلاً، وأن الزمان الذي سيتحقق فيه هذا الأمل قد اقترب. إن الناس يرفعون أكنافهم ويسألونكم «ساخرين متى يأتي هذا الزمان، وهل ما نراه الآن في العالم يسمح بمثل هذه التنبؤات؟» إنني أعتقد بأننا سنحقق هذا العمل العظيم بمعونة المسيح. ما أكثر الأفكار التي بدت في الماضي مستحيلة التحقيق، والتي غدت قبل عشر سنين أفكاراً طائشة لا تعقل، ثم إذا هي تنتصر فجأة على الأرض وتنتشر في كل مكان، لأن ساعة تحققها الساحرة قد دقت وكانت خافية مستمرة. ذلكم ما سيكون في بلادنا، وسيشرق نور شعبنا على الإنسانية وسيهتف جميع البشر عندئذ قائلين «إن الحجر الذي رماه البناؤون ورفضوه قد أصبح حجر الزاوية في البناء». أما الساخرون المستهزئون فإننا نستطيع أن نلقي عليهم بدورنا هذا السؤال: إذا كانت جميع أشواقنا أضغاث أحلام، فهلا قلتم لنا متى تقدرون أن تشيدوا بناءكم وأن تنظموا أنفسكم على العدل بمعونة العقل وحده مع رفض المسيح؟» قد يجيبون بأنهم هم الذين سيقيمون الوحدة الإنسانية ولكن السذج منهم هم الذين يؤمنون بهذا الكلام، حتى ليمكن أن يدهش المرء من هذه السذاجة. الحق أن في أفكارهم من الخيال الباطل ما ليس في أفكارنا نحن. إنهم يأملون أن يقيموا العدل في هذا العالم ولكنهم وقد رفضوا المسيح سوف ينتهي بهم الأمر إلى سفك الدم في كل مكان، لأن العنف يستدعي العنف ومن يشهر السيف يهلك بالسيف. ما لم نؤمن بوعد المسيح، فإن البشر سيبيد بعضهم بعضاً، إلى أن لا يبقى منهم على قيد الحياة إلا إثنان. وهذان الإثنان سيكونان عاجزين من غطرستهما عن التفاهم، فإذا بأحدهم يقتل الثاني آخر الأمر ثم يقتل نفسه. ذلكم ما سيحدث إذا لم يتحقق وعد يسوع بوقف المذبحة حباً بالمسالمين الوديعين. حين كنت ما أزال أرتدي البزة العسكرية بعد المبارزة، تحدثت في المجتمع كثيراً عن الخدم، فكان السامعون يدهشون من كلامي ويسألون «هل علينا أن ندعو خدمنا إلى الجلوس على أريكة وأن نقدم إليهم الشاي؟» وقد أجبت عن هذا السؤال مرة بقولي إنني أتذكر هذا «لم لا؟ ولو من حين إلى حين» فسخر الحضور مني آنذاك. ألا إن سؤالهم يدل على خفة عقولهم. إن إجابتي لم تكن واضحة جداً... أنا أسلم بهذا... ولكن يخيل إلي اليوم أنه قد كان فيها شيء من حقيقة.

لا تنس أن تصلّي أيها الشاب. فإذا كانت صلاتك صادقة صاحبها في كل مرة شعور جديد، وولد هذا الشعور الجديد فكرة جديدة كنت تجهلها إلى ذلك الحين، فكرة ستشد أزرك وتقوي عزيمتك بعد ذلك. وستدرك عندئذ أن الصلاة تربية للنفس. تذكر أيضاً أن تردد كل مساء وكلما إستطعت إلى ذلك سبيلاً «هب رحمتك يا رب لكل الذين يمثلون أمامك الآن». ذلك أن ألوفة من البشر يبارحون الأرض في كل ساعة، في كل دقيقة، وتمضي أرواحهم تمثل أمام الخالق. ما أكثر الذين قضوا منهم نحبهم في العزلة، بعيدين عن نظر أي صديق، ممتلئي القلب مرارة وحزناً، لأن أحداً لن يأسف على رحيلهم حتى إن حياتهم ستكون قد إنقضت دون أن يراها أحد. لن يعلم أحد غداً أنهم عاشوا. فإذا بصلاتك تصعد فجأة إلى الرب من الطرف الأقصى من الأرض تدعو لروح من الأرواح، رغم أنك لم تعرف هذه الروح، ولا هي تعرف من أنت. لسوف تتأثر هذه الروح من ذلك تأثراً عظيماً حين تمثل جزعة أمام الإله العلي القدير. سوف تعلم أن أحداً يصلي لله من أجلها هي أيضاً، سوف تعلم أن على الأرض إنسانة واحدة على الأقل يحبها. وسينظر الرب عندئذ إليكما بمزيد من التسامح، لأنك قد أشفقت على ذلك الميت، وسيكون الرب أكثر رحمة به، لأن حبه أوسع من حبك، وإحسانه أعظم من إحسانك. وسيعفو الله عنه بسببك.
يا إخوتي، لا تحتقروا البشر لخطاياهم، أحبوهم رغم خطاياهم، فبذلك تعرفون المحبة العظمى التي هي على صورة محبة الرب. أحبوا خلق الله جملة، وأحبوا كل ذرة من الرمل على حدة، وكل ورقة شجرة، وكل شعاع ضوء! أحبوا الحيوانات، أحبوا النباتات، أحبوا كل موجود. إنكم حين تحبون الخليقة تنفذون إلى السر الالهي الذي تضمه، والمعرفة التي تحصلون عليها بهذا ستنمو بعد ذلك، ثم ما تنفك تكبر في كل يوم، فإذا حبكم يعم الكون بأسره، ويصبح شاملاً. أحبوا البهائم لأن الرب قد وهب لها بذرة فكر وأودع في قلبها فرحة بريئاً. لا تعكروا هناءها، لا تعذبوها، لا تحرموها من الفرح، لا تخالفوا إرادة الخالق. أيها الإنسان، لا يحملنّك كبرياؤك على التعالي على الحيوانات، فهي بلا خطيئة أما أنت فإنك مع عظمتك تدنس الأرض بوجودك وتخلف أثرة نجسة حيث تمر ذلك شأننا جميعاً واأسفاه! ذلك شأننا جميعاً، بغير إستثناء تقريبا! أحبوا الأطفال خاصة، لأنهم بلا خطيئة أيضاً، لأنهم أشبه بالملائكة ؛ إنهم يعيشون لفرحة قلوبنا وتطهير نفوسنا، كقدوة مضيئة إلى جانبنا. ويلّ للذين يسيئون إلى الأطفال! لقد علمني الأب آنفيم أن أحبهم. كان هذا الراهب المتواضع، وبالكوبيكات التي توهب لنا أثناء طوافنا، يشتري حلوى يوزعها على الأطفال. كان لا يستطيع أن يراهم دون أن تهتز نفسه إهتزازاً عميقاً. كذلك كان هذا الإنسان.
إنّ شكاً يراودنا في بعض الأحيان، ولا سيما حين نرى الخطيئة فنتساءل عندئذ «أنرد بالقوة أم بالحب المتواضع؟» عليك دائماً بالرفق واللين. فمتى إخترت الرفق واللين إلى الأبد، إستطعت أن تستولي على العالم بأسره. إن الحب المتواضع قوة هائلة، أقوى من سائر القوى، ليس لها مثيل في العالم. راقب سلوكك في كل ساعة وفي كل دقيقة من اليوم، حتى تشع الطهارة منك. قد تمر قرب طفل وقد عصف بك الغضب ونفسك مستاءة فتفلت من لسانك كلمة سيئة لعلك لم تلاحظ وجود الطفل ولكن الطفل راك والصورة النجسة الخبيثة التي تركتها له ستبقى في قرارة قلبه البريء. أنت لم يخطر ببالك ذلك، ولكنك قد بذرت بذور الشر في هذا الكائن الصغير، وقد تطلع هذه البذرة السيئة يوما فتجلب له الشقاء. كل ذلك لأنك لم تراقب نفسك بحضور الطفل ولأنك توانيت عن تعهد الحب اليقظ الفعال في نفسك. الحب يا إخوتي معلم كبير، ولكن يجب أن نعرف كيف نملكه. إنه لا يكتب بسهولة ؛ وإنما يحصل عليه الإنسان بثمن باهظ، بجهد متصل وفي زمن طويل. ذلك أن المقصود ليس هو أن تحب مؤقتاً ومصادفةً، بل أن تحب حباً مستمراً مطرداً. إن أي إنسان، حتى المجرم، يمكن أن يشعر بحب طارئ عابر. لقد كان أخي يستغفر العصافير، وقد يبدو هذا سخيفاً من أول نظرة، ومع ذلك كان أخي على حق، لأن الحياة أشبه ببحر محيط تختلط فيه وتتمازج فيه جميع الأمواج. إن ضربة تقع على مكان من الأمكنة تترجع آثارها في أقصى الطرف الآخر من الأرض. هل إستغفار العصافير أحمق إلى هذا الحد؟ لو كنت خيراً مما أنت الآن، لشعر العصفور بمزيد من الأمن والطمأنينة في قربك. إن الطفل وكل حيوان آخر سيكون أسعد حالاً وأهدأ بالاً قربك إذا توافرت في قلبك ولو قطرة واحدة أخرى من الطيبة. أعود فأقول، إن الكون أشبه ببحر جميع أجزائه متصلة. فمتى أدركت هذه الحقيقة إستغفرت العصافير أنت أيضاً. إذا أدركت هذه الحقيقة تملكك حب شامل يملأ قلبك سعادة ووجداً فإذا أنت تسألها، تسأل العصافير، أن تغفر لك خطاياك. فتعهد بالتنمية والإذكاء هذا الوجد، مهما يبدو للناس دون أن تخشى أن تعد مجنوناً.
يا أصدقائي اسألوا الرب أن يهب لكم الفرح. كونوا فرحين كالأطفال، كالعصافير الصغيرة في السماء. لا تدعوا للإضطراب أن يستولي عليكم، ولا لخطايا البشر أن تصرفكم رؤيتها عن جهودكم لا تخشوا من خطاياهم أن تجعل عملكم عقيماً أو أن لا تسمح له بالظهور. لا تقولوا قط «إن الخطيئة في هذا العالم قوية وإن الرجس قوي وإن البيئة الخبيثة قوية، على حين أننا معزولون لا حول لنا ولا قوة ولا سلطان، وإن البيئة الشريرة ستدمرنا قبل أن نستطيع القيام بعمل صالح».
لا تدعوا لهذا اليأس يا أبنائي أن يستولي عليكم. وليس هنالك إلا سبيل واحد ينفع المرء في حماية نفسه من اليأس، ألا وهو أن يعد نفسه مسؤولاً عن جميع خطايا البشر. وتلك هي الحقيقة يا أصدقائي. فمتى إعترفتم إعترافاً مخلصاً بأنكم مسؤولون عن كل شيء وعن جميع الناس، أدركتم أن الأمر هو كذلك حقاً، وأن ذنبكم ليس وهماً صوره لكم الخيال. وعندها ستبذلون الجهد للتكفير أما إذا ألقيتم على عاتق غيركم ما هو في الواقع نتيجة كسلكم وتوانيكم وضعفكم، إنتهيتم إلى السقوط في هوة التكبر الشيطاني، وأخذتم تدمدمون متمردين على إرادة الله. سأقول لكم رأيي في التكبر الشيطاني: إنه لعسير علينا أن ننفذ إلى دلالته الحقيقية أثناء حياتنا الأرضية ونحن لهذا مبالون بطبيعتنا إلى الوقوع في الخطأ، فإذا نحن نتكبر تكبر الشيطان ظانين أننا بذلك نكبر ونحقق عملاً رائعاً جديراً بالإعجاب. إن المعنى الحقيقي لكثير من عواطفنا القوية واندفاعات قلوبنا يفوق إدراكنا أثناء حياتنا الأرضية على كل حال. فلا تستسلموا للإغراء ولا تظنوا أن الجهل يمكن أن يكون لكم مسوّغاً. على أن القاضي الأعلى سيحاسبكم عما كان في وسعكم أن تعرفوه، لا عما يفوق عقولكم. ستدركون هذا في حينه، وستكفون عندئذ عن المناقشة بحضور الحقيقة التي ستعرفونها. لقد كتب علينا أن نضرب في الأرض، وما لم تكن صورة المسيح الغالية نصب أعيننا، فسنهلك بسبب أخطائنا كما هلك النوع الإنساني قبل الطوفان. هناك أشياء كثيرة تبقى خافية عنا في هذا العالم، ولكننا في مقابل ذلك قد أوتينا الإحساس بالصلة الحية التي تربطنا بعالم آخر، عالم أعلى وأفضل: والجذور العميقة لعواطفنا وأفكارنا إنما تمتد في العوالم الأخرى لا في الأرض على كل حال. لذلك يعلم الفلاسفة أن ماهية الأشياء لا يمكن إدراكها في هذه الحياة الدنيا. لقد أخذ الرب بذوراً من العوالم الأخرى فنثرها على الأرض عالم الغيب ليزرع حديقته، فنبت كل ما كان يمكن أن ينبت، ولكن الموجودات التي نبتت على هذه الأرض لا تحيا ولا تبقى حية إلا بوعي الصلة التي تربطها بالعالم الآخر السري. حتى إذا ضعف هذا الوعي في نفسك أو زال، مات عندئذ ما يكون قد طلع فيها، فلا تكترث بعد ذلك بالحياة أو هي تكره الحياة. ذلكم هو رأيي على الأقل.

تذكر خاصة أنه ليس من حقك أن تحكم على قرينك كائناً من كان. ما من أحد يستطيع أن يجعل نفسه قاضياً على مجرم قبل أن يدرك أنه وهو القاضي لا يقل إجراماً عن الجاني الماثل أمامه وأنه ربما كان هو المسؤول الأول عن الخطأ الذي إرتكبه هذا الرجل. حتى إذا أدرك ذلك إستطاع أن يحكم. قد يبدو هذا الرأي باطلاً ومع ذلك فهذه هي الحقيقة. فلو قد إستطعت أن أكون عادلاً على الدوام لكان من الجائز أن لا يرتكب هذا الرجل جريمته. فإذا أمكنك أن تلقي على عاتقك جناية الجاني الماثل أمامك وأن تجعل حكمك في قلبك فافعل ذلك بغير تردد واقبل أن تتألم نيابة عنه. أما الجاني فدعه ينصرف دون أن توجه إليه لوماً. إستلهم هذه القاعدة في السلوك ما وسعك ذلك ولو نصّبك القانون قاضياً له لأن المذنب سينصرف بعد ذلك ليدين نفسه إدانة أقسى من إدانتك إياه. وإذا ظهر لك أنه لم يحس رفقك به وإذا رد على حبك بالسخرية، فلا تدع لموقفه هذا أن يغضبك فإنما يدل هذا الموقف على أن ساعته لم تدق بعد وأنها ستحين في المستقبل. وهبها لن تحين أبداً، فلا تهتم كثيراً بذلك لأن شخصاً آخر سيعترف يوماً بذنبه وسيتألم منه وسيدركه وسيدين نفسه بنفسه فإذا بالحقيقة تتأكد رغم كل شيء. صدق ما أقوله لك صدقه تصديقاً جازماً قاطعاً، لأن هذا هو الأساس الحق الذي يقوم عليه الأمل ويقوم عليه إيمان القديسين.

لا تقعد عن العمل ولا تدع لهمتك أن تفتر. فإذا تذكرت بعد أن رقدت في سريرك لتنام «أنك أغفلت القيام بواجب من الواجبات» فإنهض فوراً لتدارك هذا النسيان. وإذا رأيت نفسك محاطاً بأناس أشرار لا يحسون، ويرفضون أن يسمعوا لك، فارتم على أقدامهم وإستغفرهم، لأنك أنت أيضاً تحمل ذنب إعراضهم عن طاعتك وعنادهم في الحقيقة. وإذا شعرت بأنك عاجز عن أن تخاطب الأشرار بالحسنى، فاخدمهم صامتاً متواضعاً دون أن تيأس قط. وإذا هجرك جميع الناس وطردوك شر طردة فإسجد على الأرض حين تصبح وحيداً واغمرها بقبلاتك. إسق الأرض بدموعك، فتحمل هذه الدموع ثماراً، ولو لم يرك أو يسمعك في عزلتك أحد. حافظ على إيمانك حتى النهاية، ولو كان عليك أن تبقى الإنسان الوحيد الذي يحافظ عليه. إذا تنكر سائر الناس لعقيدتهم، فثابر أنت على المضي في طريق التضحية وإستمر في تمجيد الله يا أخر مؤمن فقد يلقاك مؤمن آخر، فتصبحا إثنين، وهذا كافٍ لعودة الكون حياً بالحب. سوف تتعانقان عندئذ وقد إمتلأت نفساكما عاطفة، وسوف تسبحان بحمد الله فإذا الحقيقة تتأكد بكما رغم أنكما لستما إلا اثنين.

إذا إتفق أن أثمت، فأخذ الندم على إرتكابك الخطايا أو خطيئة عارضة يعذبك ويرهقك إرهاقاً شديداً، فليبهجك أن تتذكر أن هناك إنساناً صالحاً لم يرتكب إثماً، وقل لنفسك مغتبطاً سعيداً. لئن وقعت أنا في الشر، إن ثمة إنساناً غيري قد ظل طاهراً لم يتلوث.

وإذا ملأك خبث البشر إستياءً وألماً عنيفاً رغم ذلك، حتى صرت تتمنى معاقبة المجرمين إنتقاماً فصن نفسك من هذه العاطفة بكل ما تملك من قوة، وابحث لنفسك عن آلام مباشرة كأنك مسؤول عن جرائم هؤلاء الناس. إقبل هذه الآلام وتحملها. فذلك يهدئ قلبك ويطمئن نفسك. سوف تدرك أنك آثم فعلاً، لأنك كنت تستطيع أن تهدئ هؤلاء الناس بالقدوة، ولو كان عليك أن تبقى الإنسان الوحيد الذي يعيش بلا خطيئة، ثم لم تفعل... فلو أنك إتبعت طريق النور هذا في حياتك، لإستطاع آخرون أن يروا طريقهم بنور طهارتك، ولأمكن الإنسان الذي تتهمه اليوم بالجريمة أن يبقى شريفاً طاهراً. قد يحدث مع ذلك أن تكون أنت قدوة حسنة ثم يرفض الآخرون الخلاص الذي يأتيهم من نورك، فلا يتزعزعن إيمانك حينذاك، ولا يراودنك شك في قوة نور السماء وفي أن الحقيقة السماوية منتصرة آخر الأمر. اعلم أن البشر سينقذون غداً إن لم يمكن إنقاذهم اليوم. وإذا لم يمكن إنقاذهم أثناء حياتهم، فسينقذ أبناؤهم من بعدهم، لأن نورك لن يزول وسيبقى حتى بعد مبارحتك هذا العالم. قد يزول الرجل الصالح، ولكن نوره بان لا يزول. ثم إن الناس يقبلون الخلاص كذلك بعد موت ذلك الذي أراد أن يخلصهم. إن البشر لا يعترفون بأنبيائهم بل يضربونهم ويقتلونهم، ولكن البشر في مقابل ذلك يحبون شهداءهم ويقدسون أولئك الذين إستشهدوا بأيديهم. ففي المستقبل وفي الإنسانية بمجموعها إنما يجب عليك أن تفكر حين تبذل ما تبذل من جهود. لا تنتظر ثواباً على الخير الذي تعمل، الأن نصيبك في هذا العالم كبير حتى بدون هذا الثواب لسوف تعرف نفسك الفرح الحق الذي لا يوهب إلا للصالحين. لا تخش العظماء ولا الأقوياء. كن عاقلاً حكيماً كريماً على نفسك في كل ظرف. التزم القصد والإعتدال. إعلم أن هناك آجالاً تفرض نفسها علينا، وتقيد بهذه الآجال. لذ بالصلاة في العزلة. تعلم كيف تحب الإرتماء على الأرض وتقبيلها. قبل الأرض بغير كلال. وأحبها بكل نفسك. إنشر حبك على كل ما يوجد. إندفع في الحب واسع إلى حماسية القلب. إسق الأرض بدموع فرحك، وأحب هذه الدموع. لا يخجلنك وجدك. قدر هذا الوجد، لأن الله مصدره، فهو هبة كبرى لا توهب في هذه الحياة الدنيا للمصطفين.

يا آبائي ومعلميّ، لقد تساءلت «ما الجحيم؟» فأجبت «هو عذاب الإنسان من أنه أصبح لا يستطيع أن يحب». فذات مرة في الوجود اللانهائي الذي لا يقاس بزمان أو مكان أتيحت للكاهن الروحي بظهوره على الأرض، القدرة على أن يقول «أنا موجود وأنا أحب». مرة واحدة، مرة واحدة فقط وهبت لهذا الكائن الحي لحظة الحب الفعال الحي، وقد وهبت له الحياة لهذه الغاية مع ما تشتمل عليه الحياة من أزمان وآجال. وهذا الكائن السعيد الذي أغدقت عليه هذه النعمة قد رفض النعمة التي لا توصف، ولم يقدرها حق قدرها، ولم يتمتع بها، بل إستخف بها وآثر أن تخلو نفسه من الحس. إن هذا الكائن يرى إبراهيم بعد أن يبارح الأرض، ويتحدث مع إبراهيم، كما ورد في أمثولة الغني ولازار والفتى الشرير [169] . إنه يرى الجنة ويعلم أنه سيمثل أمام الرب؛ وإذا كان يعذبه شيء فإنما يعذبه أنه سيمثل أمام الخالق دون أن يكون قد أحب، وأنه سيسير إلى جانب مخلوقات محبة إحتقر هو حبها. ذلك أنه الآن يرى ويدرك، فيقول لنفسه «أنا الآن أعلم، ورغم أنني اليوم ظامئ إلى الحب فلن يكون لحبي قيمة ولن تكون فيه تضحية، لأن حياتي الأرضية قد إنتهت، ولن يأتي إبراهيم فيهدى بقطرة من ماء الحياة أي باعطائي حياة أرضية جديدة فعالة شبيهة بالسابقة ظمئي إلى الحب الروحي الذي يحرق الآن نفسي بعد أن أزدريته على الأرض لن تكون بعد اليوم حياة، لن يكون بعد اليوم وقت! إنني أتمنى الآن أن أضحي بوجودي في سبيل غيري، ولكن فات الأوان لأن الحياة التي كان يمكن أن أضحي بها قد إنقضت إلى غير رجعة، فالهوة تفصل بين حياتي الماضية وبين وجودي الآن». كثيراً ما يتكلم الناس عن نار الجحيم وهم يفهمونها بالمعنى المادي. إنني لا أريد أن أبحث هذا السر الذي يملأ نفسي رعباً وهولاً، ولكنني أتصور أن هذه النيران لو كانت محسوسة مادية إذاً لابتهج بها المعذبون، لأن الألم الجسدي يتيح لهم عندئذ أن ينسوا، ولو للحظة قصيرة، العذاب الروحي الرهيب. ثم إن تخليصهم من عذاب نفوسهم مستحيل، لأنه عذاب داخلي لا خارجي، فلا يمكن يناله تأثير الآخرين وهبنا إستطعنا أن نجدهم من هذا العذاب، فإن شقاءهم سيزداد من ذلك فيما يخيل إلي. هب العادلين في الجنة غفروا لهم حين رأوا آلامهم، وهبهم نادوهم إليهم بحب لا نهاية له ؛ إنهم سيضاعفون بذلك آلامهم لأنهم سيوقظون فيهم مزيداً من الظمأ الحار إلى الحب المتبادل والعرفان، في وقت أصبحوا فيه عاجزين عن ذلك إلى الأبد. على أنني أتصور، خاشع النفس ذليلاً، إن شعورهم بهذا العجز سيخفف عنهم آخر الأمر بعض التخفيف، وإليكم كيف يكون ذلك إنهم حين يقبلون حب الصالحين من دون أن يكونوا قادرين على أن يردوه بمثله، سيجدون في التسليم بهذا التفاوت بينهم وبينهم وفي الوضع الذي سيمليه عليهم الشعور الصادق بأنهم دونهم، سيجدون في ذلك معادلاً أو صورة للحب الفعال الذي إزدروه على الأرض وسيصبحون قادرين عندئذ على فعل يذكر بفعل الحب الفعال هذا... يؤسفني، يا آبائي وأصدقائي ومعلمي، أن لا أستطيع التعبير عما بنفسي بمزيد من الوضوح. ولكن ويل للذين أنهوا حياتهم على هذه الأرض بأنفسهم، ويل للمنتحرين [170] ! أحسب أنه ليس هناك من يفوق هؤلاء شقاء! يقال إن الدعاء لمن قتل نفسه بإرادته إثم، ويبدو أن الكنيسة تطرد من حضنها في الظاهر ذلك الذي قتل نفسه بإرادته. ولكنني أشعر مع ذلك، في سريرة نفسي، أنه يجوز الدعاء للمنتحرين أيضاً، لأن المسيح لن يسوءه إفراط في الحب. لقد دعوت طوال حياتي لهؤلاء، أعترف لكم بهذا الآن يا آبائي ومعلمي، وما زلت أدعو لهم كل يوم.

لا شك أن في الجحيم أيضاً معذبين أصروا على صلفهم وضراوتهم وظلوا لا يتأثرون بالحقيقة رغم أنهم أصبحوا يعرفونها ويرونها ساطعة كل السطوع. إن بينهم أناساً رهيبين قد اتحدوا بالشيطان وانضموا كليةً إلى عصيانه المتكبر. إنهم يقبلون الجحيم بفرح مظلم ولا يستطيعون أن يشبعوا منه. أولئك يتعذبون ويريدون أن يتعذبوا. فقد لعنوا أنفسهم بأنفسهم إذ لعنوا الله والحياة. إنهم يقتاتون بكرههم المتكبر الصلف إقتيات الجائعين في الصحراء بدمائهم يمتصونها. إن غليلهم لن يشفي يوما، وهم يرفضون المغفرة إلى الأبد، لاعنين الرب الذي يناديهم. إنهم لا يستطيعون إلا أن يشعروا بحنق مسعور حين يتأملون الإله الحي، ويتمنون أن لا يوجد، ويودون لو يفنى الخالق نفسه مع الخليقة كلها. هؤلاء سيظلون يحترقون إلى الأبد بنيران كرههم منادين الموت والعدم في غير طائل. ولكن لن يوهب لهم أن يموتوا...

هنا تنتهي مخطوطة ألكسي فيدوروفتش كارامازوف. وأعود فأقول هذا عمل غير مكتمل، هذه أجزاء متفرقة. فالإشارات التي تتصل بحياة الشيخ زوسيما مثلاً لا تتناول إلا الفترة الأولى من شباب الشيخ. وإن شذرات من تعاليمه ومن الآراء التي أطلقها في عهود مختلفة وبتأثير مناسبات شتى، قد جمعت هنا وهرت كما يرى القارىء ذلك واضحة. والأقوال التي نطق بها الشيخ في الساعات الأخيرة من حياته لم تنقل نقلا كاملاً وإنما عرضت عرضاً موجزاً فيما يظهر، تعبر عن روح ذلك الحديث الأخير وتبرز عناصره الأساسية مزيداً من الإبراز بمعونة أقوال أخرى إستمدها ألكسي فيدوروفتش من تعاليم شيخه السابقة. وقد وافت الشيخ منيته على نحو لم يكن في الحسبان حقة. فرغم أن جميع الأشخاص الذين إجتمعوا حوله في ذلك المساء قد أدركوا أن وفاته قريبة، فإن أحداً منهم لم يتنبأ بأنها ستوافيه على هذا النحو المباغت. وكما سبق أن قلت فإن أصدقاءه قد إعتقدوا حين رأوا ما رأوا من شجاعته وميله إلى الكلام طوال تلك الليلة أن صحته تحسنت تحسناً ملحوظاً وإن يكن عابراً مؤقتاً، ولا شيء كان يسمح لأحد، إلى ما قبل موته بخمس دقائق (كما روي هذا بدهشة فيما بعد)، أن يتنبأ بأن وفاته وشيكة. ولكن بدا عليه فجأة أنه يحس بألم شديد في صدره، وإصفر وجهه، وشد يده شداً قوياً على قلبه. نهض جميع الحضور وهرعوا إليه. وظل هو رغم الألم ينظر إليهم مبتسماً. وترك نفسه ينزلق برفق عن كرسيه، فجثا على ركبتيه، ثم سجد جاعلاً وجهه على الأرض، وبسط ذراعيه بنوع من الوجد والجذل. وقبل الأرض بعدئذ، ولفظ روحه على نحو ما أورد هو نفسه في تعاليمه، مصلياً في إندفاعة عظمى من فرح هادىء مطمئن. إنتشر نبأ وفاته في المنسك والدير. وقام أصدقاؤه والأشخاص المختصون بتكفينه بما توجبه الطقوس القديمة، ثم إجتمع أعضاء الرهبنة في الكنيسة. وقد عرف موت الشيخ في المدينة قبل أن يطلع الفجر، كما أكد الناس ذلك فيما بعد. ومهما يكن من أمر، فقد تحدث الملأ عن موته في كل مكان منذ الساعات الأولى من الصباح، وإزدحم في الدير جمع غفير من المواطنين. سنعود إلى الكلام عن هذا في الكتاب التالي، وحسبنا أن نشير هنا، مستبقين تتمة هذه القصة، أن حادثاً غير منتظر قد وقع قبل نهاية النهار، فأحدث في نفوس سكان الدير وفي نفوس سكان المدينة على السواء أثراً يبلغ من الغرابة ومن الإقلاق ومن الغموض أن ذكراه ما تزال حتى يومنا هذا بعد إنقضاء العدد الكبير كله من السنين، ما تزال حية في أذهان جميع الذين عاشوا تلك الساعات المضطربة القلقة...

الباب السابع: أليوشا

-1-رائحة الجثة

أعدّ جثمان الراهب الكاهن الأب زوسيما للدفن وفقاً للطقوس المقررة. وقد جرت العادة، كما هو معروف، بأن لا يُغسل رفات الرهبان والنساك. يقول كتاب الطقوس في هذا الصدد: «إذا نادي الرب راهباً إليه، فعلى الأخ المكلف بزينة المتوفي أن يدلكه بماء فاتر، بعد أن يرسم إشارة الصليب، بإسفنجة على جبينه وصدره ويديه وقدميه وركبتيه، وهذا كل شيء». وقد تولى الأب بائيسي القيام بهذه المهمة بنفسه. فلما فرغ من تدليك جسمه ألبسه مسوح الرهبنة، وكفَّنه بالجبة بعد أن شقها قليلاً بحيث يجعلها في صورة صليب، كما تأمر الطقوس بذلك. ووضع على رأسه بعدئذٍ قلنسوة مزينة بصليب ذي ثمانية أفرغ، تاركاً القلنسوة تسفر عن الوجه، مغطياً الوجه ببرقع أسود؛ ووضع صورة المخلّص بين يدي المتوفي. حتى إذا انتهى تكفين الجثمان على هذا النحو شجي عند الصباح في تابوت سبق إعداده منذ زمن طويل. وأريد أن يُترك التابوت طوال النهار في الصومعة (الحجرة الكبيرة الأولى التي اعتاد الشيخ الراحل أن يستقبل فيها الرهبان والزوار الدنيويين). وإذ إن المتوفى في رتبة الراهب الكاهن، فقد كان على الرهبان الكهنة وعلى الشمامسة أن يقرأوا أمام رفاته الإنجيل لا المزامير. فشرع الأب يوسف في القراءة بعد قداس الجنازة فوراً. أما الأب بائيسي الذي أعرب عن رغبته في أن يقرأ أثناء بقية النهار وأثناء الليلة التالية، فقد كان في تلك الآونة مشغولاً جداً ومهموماً جداً (مثلما كان الأب رئيس الدير) من ذلك الاضطراب الشديد، الخارق، «غير اللائق»، المشوب بنوع من انتظار محموم، الذي استولى على الرهبان وعلى جموع الناس الغفيرة التي هرعت من المدينة ومن الفنادق المجاورة للدير. كان ذلك الاضطراب ما ينفك يزداد قوة وظهوراً، فاضطر الأب بائيسي ورئيس الدير إلى بذل جميع جهودهما في سبيل أن يهدئة النفوس المهتاجة ما أمكنت التهدئة. وبعد أن طلع النهار تماماً أخذ يفد من المدينة أشخاص يصطحبون مرضى، مرضى من الأطفال خاصة، كأنهم كانوا ينتظرون هذه اللحظة آملين أن يروا ظهور معجزة الشفاء الفوري التي لا بد في اعتقادهم من أن تقع بلا إبطاء. في تلك اللحظة إنما تجلى مدى تعوّد الناس على اعتبار الشيخ، حتى في أثناء حياته، قديساً صادقاً عظيماً. ولم يكن جميع الوافدين من المدينة ينتمون إلى عامة الناس. وبدا للأب بائيسي أن هذا التوقع العظيم الذي يتوقعه المؤمنون والذي يتجلى بهذا القدر من التسرع ونفاد الصبر وهذا القدر من الصراحة حتى لكأنه مطلب من المطالب، بدا للأب بائيسي أن هذا التوقع فيه شيء من الغواية الأكيدة ومن مجافاة الأدب والحشمة؛ ورغم أن الأب بائيسي قد تنبأ بهذه الغواية منذ زمن طويل، إلا أنها في الواقع فاقت كل توقعات الأب بائيسى. فكان يتجه إلى الرهبان المتحمسين فيقول لهم: «إن انتظار معجزة كبيرة مباشرة دليل على عواطف طائشة يفهم صدورها عن دنيويين ولكنها لا تليق بنا نحن الرهبان». وكان هؤلاء لا يسمعون له كثيراً، وذلك أمر لاحظه الأب بائيسي قلقاً. ومع هذا كان الأب بائيسي هو نفسه (تلك حقيقة يجب أن نعترف بها إذا أردنا الصدق)، رغم استيائه الشديد من مظاهر نفاد الصبر هذه التي يرى فيها باطلاً وخفّة وطيشاً، كان هو نفسه يحسّ في قرارة ضميره بهذا الانتظار نفسه الذي يشعر به المضطربون المهتاجون، وكان لا بد له أن يعترف لنفسه بذلك. على أن رؤية بعض الأشخاص قد ساءته كثيراً، لأن وجودهم قد أيقظ في نفسه شكوكاً غامضة لم تنشأ، والحق يقال، إلا من إحساسات مبهمة، من ذلك أنه شعر بنفور داخلي شديد (سرعان ما لام نفسه عليه) حين لمح بين الجمهور المحتشد في صومعة الشيخ، حين لمح راكيتين وراهب أوبدورسك القادم من مكان بعيد والذي طالت إقامته في الدير. لقد بدا الرجلان كلاهما مشبوهين في نظر الأب بائيسى، رغم أن هناك أشخاصاً آخرين كانوا مشبوهين مثلهما أيضاً. وكان راهب أوبدروسك يتميز بكثرة ذهابه وإيابه. فهو يُرى في كل مكان مستطلعاً سائلاً أو مصغياً أو هامساً على نحو سري. وكان وجهه يعبر عن نفاد الصبر نفاداً شديداً وفيه شيء يشبه أن يكون حنقاً لأن الحادث الذي يتوقع الناس أن يحدث قد تأخر حدوثه. أما راكيتين فقد عُلم فيما بعد أنه إن جاء إلى الدير في ساعة مبكرة هذا التبكير من الصباح، فلأن السيدة خوخلاكوفا هي التي طلبت منه ذلك. إن هذه المرأة التي تنصف بالطيبة ولكن تعوزها قوة الطبع، قد أحست بفضول شديد يقرصها قرصاً حين علمت بموت الشيخ عند استيقاظها من النوم، وبسبب شدة فضولها، ولمعرفتها بأن مجيئها إلى الدير لن يكون مقبولاً، فقد أسرعت توفد راكيتين موصية إياه بأن يلاحظ كل شيء وأن ينبئها حالاً، في رسالة يبعث بها إليها كل نصف ساعة، بكل ما قد يحدث. كانت السيدة خوخلاكوفا تعد راكيتين شاباً شديد التقى قوى الإيمان، فإلى هذا الحد كان راكيتين بارعاً في الحظوة برضى الناس حاذقاً في اتخاذ المظاهر التي تطابق رغباتهم متى وجد في ذلك مصلحة له. بدأ النهار صاحياً مضيئاً. والكثير من الحجاج الذين وصلوا إلى الدير يزدحمون حول القبور المتواجدة بالقرب من الهيكل والمنتشرة في أراضي الدير كلها. وحين طاف الأب بائيسي في أنحاء الدير، تذكر أليوشا فجأة، وتذكر أنه لم يره منذ مدة طويلة، منذ الليل على كل حال. فما إن خطر بباله هذا حتى لمحه في ركن ناء قرب السياج جالساً على حجر قبر راهب مات منذ سنين وعُرف أثناء حياته بشدّة تعبّده وقسوة كفّاراته. كان أليوشا قد أدار ظهره للصومعة واتجه بوجهه نحو السياج، وكأنه يختبئ وراء شاهدة القبر. فلما اقترب الأب بائيسي رأي أليوشا وهو يبكي بكاء مراً وإن يكن صامتاً، فجسمه كان يهزه الانتحاب ووجهه مدفون بين راحتيه. لبث الأب بائيسي واقفاً قربه بضع لحظات. وقال له أخيراً بصوت متأثر:

- هدى روعك يا بني. ما بك؟ عليك أن تبتهج لا أن تبكي. أفتجهل أن هذا اليوم هو أجمل وأعظم من جميع الأيام التي وُهِبَ له أن يعرفها؟ أنسيت أين هو في هذه اللحظة؟ هلاّ فكرت في هذا!

رفع أليوشا عينيه، فرأى الأب بائيسي وجهه محتقناً بالدموع كوجه طفل؛ ثم تحول أليوشا دون أن ينطق بكلمة وأخفى وجهه في يديه من جديد. قال الأب بائيسى مطرقاً مفكراً:

- قد تكون على حق مع ذلك! إبكِ في سلام يا بني لأن المسيح هو الذي يرسل إليك هذه الدموع.

ثم أضاف بصوت خافت كأنه يخاطب نفسه: «ستساهم انتحاباتك المؤثرة في تهدئة روعك، وستبعث الفرح في قلبك الطيب». ثم ابتعد ممتلئ النفس عطفاً على أليوشا وحباً له. والحق أنه سارع ينصرف لأنه أحسّ أنه يوشك هو نفسه أن ينفجر ناشجاً وهو ينظر إلى الفتى. كان الوقت ينقضي، وكانت صلوات الجنازة وقداساتها تتعاقب وفقاً للنظام المقرر. وحل الأب بائيسى محل الأب يوسف قرب التابوت، وأخذ في قراءة الإنجيل. ولكن قبل أن تدق الساعة الثالثة بعد الظهر وقع الحادث المقلق الذي أشرت إليه في ختام الباب السابق. وقد جاء هذا الحادث على غير ما يتوقع جميع الناس، وجاء مخالفاً مخالفة مذهلة لما كانوا يأملونه، وبلغ من ذلك أن ذكراه وذكرى جميع التفاصيل المثيرة التي رافقته قد ظلت حية إلى أيامنا هذه في أذهان سكان مدينتنا وسكان المنطقة المجاورة كما سبق أن قلت. وأحب أن أسوق هنا ملاحظة خاصة بي: إنني لأكاد أشعر بالقرف حين أتكلم عن هذا الحادث الذي لا بد أن يهز النفوس رغم أنه في حقيقة الأمر طبيعي ويمكن فهمه جداً؛ وكان في وسعي أن أسكت عنه حتما لولا أنه قد أحدث تأثيراً قوياً جداً - في اتجاه محدد تحديداً معيناً - في نفس وقلب البطل الرئيسي، وإن يكن البطل المقبل، الذي تدور عليه أحداث هذه القصة، أعني أليوشا. لقد اضطرب اليوشا من هذا الحادث اضطراباً رهيباً، وإلى هذا العهد إنما يرجع انعطاف حياته النفسية، لأن عقله الذي أوشك أن يهزه الحادث، قد خرج من الأزمة وصار ثابتاً منذ ذلك الحين إلى الأبد، متجهاً نحو هدف معين محدد.

وها أنذا أصل إلى الوقائع: حين أُرقد جثمان الشيخ في تابوت بعد تكفينه قبيل الفجر، ووضع التابوت في الغرفة الأولى من صومعة الشيخ - وهي حجرة الاستقبال - فإن أحد الأشخاص الحاضرين سأل إلا يستحسن فتح النوافذ. إن هذا السؤال الذي ألقاه صاحبه كسؤال عابر وهو لا يشعر بما يشبه الخجل عليه، قد ظل بغير جواب ولم يكد ينتبه إليه أحد. والذين سمعوه رأوا أن فكرة صدور رائحة تفسخ من جثمان ميت كهذا الميت تبلغ من السخف أنها لا تستحق غير أسف إن لم تكن ابتسامة ساخرة إزاء ما يتصف به صاحب السؤال من قلة الإيمان وشدة الطيش؛ لأن ما يُنتظر هو نقيض هذا تماماً. ولكن الذي حدث هو أن الأشخاص الذين دخلوا الحجرة ابتداء من الظهر قد أخذوا يلاحظون ملاحظات كتموها في أول الأمر عن غيرهم واحتفظوا بها لأنفسهم، خشية أن ينقلوا إلى الآخرين شعور يعنّ لهم لا يكادون يصدّقونه غير أن الظاهرة التي كانت غامضة في البداية قد تأكدت في نحو الساعة الثالثة بعد الظهر تأكداً بلغ من الوضوح أنه أصبح يستحيل الشك فيها، فإذا الخبر ينتشر في المنسك على الفور، وإذا هو يشيع بين المتدفقين من أنواع الحجاج، وإذا هو يصل إلى الدير في الوقت نفسه فيغرق الرهبان في دهشة شديدة وحزن مبرح؛ وفي نهاية الأمر، بعد فترة قصيرة من الزمن انتقل النبأ من الدير إلى المدينة فأحدث اضطراباً في الناس، المؤمنين منهم وغير المؤمنين على السواء، لقد ابتهج غير المؤمنين. وأما المؤمنون فمنهم من كان ابتهاجه أشد من ابتهاج غير المؤمنين أيضاً، لأن الإنسان «يحلو له أن يرى سقوط الرجل الصالح وتلطخ شرفه بالعار» كما قال المتوفى في أحد أحاديثه. وما وقع هو أن رائحة تفسخ قد صدرت عن التابوت خفيفة في أول الأمر، ثم ما زالت تشتد وتشتد ساعة بعد ساعة؛ فما حانت الساعة الثالثة بعد الظهر حتى أصبحت واضحة كل الوضوح، وما فتئت تشتد بعد ذلك. عبثاً تحاولون أن تجدوا في حوليات ديرنا ذكرى اضطراب فاضح عنيف كالاضطراب الذي استولى على الرهبان منذ أن غرف الحادث، والذي ما كان يمكن تصوره في أي ظرف آخر من الظروف. وبعد انقضاء عدد كبير من السنين ظل حتى أعقل الرهبان وأحصفهم يشعرون بدهشة شديدة وروع هائل حين يتذكرون تفاصيل وقائع ذلك النهار، متسائلين كيف أمكن

للاضطراب أن يبلغ هذا المدى آنذاك. كثيراً ما حدث في الماضي أن رهباناً عُرفوا باستقامة الحياة وطهارتها، أن شيوخاً قد ماتوا أتقياء أنقياء، ثم لوحظ مع ذلك صدور رائحة تفسخ من توابيتهم المتواضعة، كما يحدث هذا لجميع الموتى، ولكن الأمر لم يصدم عندئذٍ أحداً بل ولا أدهش أحداً. صحيح أن الأذهان تحتفظ عندنا في الدير بذكرى رهبان متوفين منذ زمن طويل، يتناقل الناس عنهم أن بقاياهم لم تظهر عليها أي علامة من علامات التفسخ؛ وقد أحدث ذلك في نفوس الرهبان أثراً غامضاً، فكانوا يتحدثون عنه معجبين، وكانوا يحرصون أشد الحرص على حفظ ذكرى هذه الوقائع المعجزة التي تشهد بالقداسة؛ وكانوا يقدّرون أن مزيداً من المجد سيتحقق في المستقبل القبور هؤلاء الأخبار المختارين في الساعة التي يشاء فيها الله ذلك. فهكذا كان شأن القديس أيوب مثلاً، الذي عاش مائة وخمس سنين والذي بقيت ذكراه حيةٌ في ديرنا. لقد كان أيوب ناسكاً كبيراً، اشتهر بفرائض الصمت والصيام التي كان يلزم بها نفسه؛ وقد مات منذ زمن بعيد، في السنين الأولى من القرن التاسع عشر؛ وأصبح قبره الآن محل تعظيم خاص، فسكان الدير يقودون الحجاج الذين يزورون الدير لأول مرة إلى هذا القبر، مشيرين بكلام يحمل معاني السر والإعجاب إلى الآمال الكبيرة المعقودة على مثوى ذلك الرجل الصالح (على ذلك القبر إنما لمح الأب بائيسي، في الصباح، أليوشا). وعدا ذلك الراهب الذي توفي منذ سنين كثيراً، هناك راهب آخر مات منذ عهد غير بعيد كثيرة، وخلف في الدير ذكرى كهذه الذكرى. إنه الشيخ العظيم الراهب الكاهن الأب فارسونوفي الذي خلفه الأب زوسيما، والذي كان يعدّه جميع الحجاج الذين يزورون الدير متنبئاً. إن الناس يروون عن كل من هذين الراهبين أن الناظر إليه في تابوته كان لا يشعر إلا بأنه نائم نوماً، وأنه دُفن دون أن يفسد جثمانه ؛ بل إن نوراً كان يشعّ من وجهه. حتى إن بعض الناس ذهبوا إلى حد القول في إلحاح وإصرار إن رفاته كان ينشر روائح عطرة. ومع ذلك، رغم هذه الذكريات الموحية، فإن من العسير على المرء أن يدرك السبب الذي دفع الرهبان في ذلك اليوم إلى أن يقفوا موقفاً يبلغ هذا المبلغ من الخفة والطيش والسخف والعداوة إزاء تابوت الشيخ زوسيما. أما أنا فأعتقد أن الأسباب كثيرة متنوعة، ولكنها تعمل جميعاً في آن واحد وفي اتجاه واحد. ويحسن أن نذكر، من بين هذه الأسباب، المعاداة الشديدة لنظام المشايخ هذا الذي كان يعد بدعة مشؤومة، وهي عداوة قد ترسخت عميقة في نفوس عدد كبير من الرهبان. وهناك سبب آخر لعله أهم الأسباب، هو الحسد الذي كانت تثيره قداسة الشيخ التي بلغت أثناء حياته من الرسوخ أنه كان يبدو من غير الجائز أن يناقش أحد فيها. فلئن عرف الشيخ الراحل كيف يكسب محبة عدد كبير من الرهبان برقة روحه لا بمعجزاته، ولئن أحاط به أناس أخلصوا له كل الإخلاص، فلقد خلق من حوله، رغم ذلك وربما بسبب ذلك، حُسّاداً كثيرين أصبحوا أعداء ألداء شيئاً بعد شيء، فبعضهم يخفي هذه العداوة وبعضهم يعلنها. ولقد كان له أعداء من هذا النوع لا في صفوف رهبان الدير فحسب، بل بين العلمانيين أيضاً. إنه لم يسئ يوماً إلى أحد، ولكن الناس كانوا يتساءلون: «لماذا يعد قديساً عظيماً»؟. وكان هذا السؤال كافياً بترديده المستمر إلى أن يخلق من حوله بغضاً لا تنطفئ جذوته.

ذلكم في رأيي هو السبب الذي جعل كثيراً من الرهبان يبتهجون ابتهاجاً شديداً حين علموا أن جسمه يصدر رائحة تفسخ، وأن هذه الرائحة قد بدأت تصدر عن الجسم بعد برهة قصيرة، لأنه لم ينقض على موته يوم. أما الرهبان المؤمنون بالشيخ المخلصون له، الذين ظلوا يقدسونه إلى ذلك الحين، فقد أحسّ بعضهم بحادثة التفسخ هذه نوعاً من إساءة نالتهم هم أنفسهم، وإهانة لحقت بهم شخصياً. إليكم كيف جرت الأمور على وجه الدقة.

منذ اللحظة التي ظهرت فيها أولى علائم التفسخ، أصبح من اليسير على المرء أن يحزر، من هيئة الرهبان الذين كانوا يدخلون صومعة المنوفي، الهدف الذي دخلوا من أجله. كانوا يدخلون فيمكثون بضع لحظات ثم يسرعون خارجين ليؤكدوا النبأ لمن كانوا يزدحمون أمام الباب؛ فبعض هؤلاء يهزون رؤوسهم بحزن وأسى، وبعضهم لا يكلفون أنفسهم حتى عناء إخفاء الفرح الخبيث الذي يسطع في نظراتهم الكارهة. ولم يخطر ببال أحد أن يؤاخذهم، وما من صوت ارتفع يدافع عن الشيخ، وذلك أمر يثير الدهشة في الواقع، لأن المعجبين بالشيخ كانوا أكثرية الدير رغم كل شيء. ولكن يظهر أن الرب كان قد قدر في هذه المرة أن يسمح للأقلية بالانتصار إلى حين. ولم يلبث أن تدفق إلى الصومعة رجال علمانيون ينتمي أكثرهم إلى الأوساط المثقفة. أما أبناء الشعب فقد كانوا قليلين بين الداخلين، رغم أن عددا كبيرة منهم قد تجمهر على أبواب المنسك. ومهما يكن من أمر فمما لا شك فيه أن سيل الزوار العلمانيين قد ازداد ازدياداً ضخمة بعد الساعة الثالثة على أثر شيوع النبأ الفاضح. وهناك أشخاص ما كان لهم أن يجيئوا بمناسبة وفاة الشيخ، ولكنهم هرعوا إلى الدير مع ذلك وليس لهم من هدف إلا أن يتحققوا من صدق النبأ بأنفسهم، وكان بينهم رجال من كبار الموظفين. يجب أن نذكر مع ذلك أن سلوك المستطلعين الفضوليين لمّا يعكر جو الحشمة صراحة حتى ذلك الحين، فما زال الأب بائيسي يستطيع أن يتلو آيات الإنجيل بلهجة واضحة ثابتة وهيئة قاسية دون أن يبدو عليه أنه يلاحظ شيئاً، رغم أنه قد لاحظ منذ بعض الوقت أن شيئاً خارقاً يحدث. ولكن ها هي ذي ملاحظات قد أخذت تصل إلى مسامعه. إن أصحابها يهمسون بها همساً أول الأمر، غير أنها ما تنفكّ تلح وتتجرأ فإذا هو يسمع هذه الملاحظة بوضوح: «يبدو أن حكم الله لا يؤيد دائماً حكم البشر». إن الذي جازف فقال هذه الكلمات أول القائلين هو رجل علماني متقدم في السن موظف من المدينة بعد على جانب كبير من التقى والورع. على أن هذا الرجل لم يزد على أن كرر جهراً ما كان الرهبان يسر به بعضهم إلى بعض همساً في الآذان منذ وهلة طويلة. إن هؤلاء الرهبان لم ينتظروا طويلاً من أجل أن يفصحوا عن هذه الفكرة التي تعبر عن تبدد الآمال والأنكى من ذلك أن هذه الفكرة كانت ترافقها مشاعر النصر والظفر التي كانت تزداد قوة ووضوحاً من دقيقة إلى دقيقة. وما لبثت مراعاة اللباقة أن زالت فكأن الجميع أصبحوا يحسون أن من حقهم أن لا يقيموا لها وزناً بعد الآن. «كيف أمكن أن يحدث هذا؟» كذلك كان يتساءل بعض الرهبان وهم يصطنعون في أول الأمر هيئة الحزن والأسى. «لقد كان جسمه صغيراً هزيلاً معروقاً، كله عظام، فمن أين يمكن أن تأتي هذه الرائحة؟» كان رهبان آخرون يسارعون إلى الجواب قائلين: «معني ذلك أن الرب قد أراد أن يدل على عدم رضاه». وكانت آراؤهم هذه تُقبل فوراً بغير نقاش، لأنه إذا كان التفسخ ظاهرة طبيعية تحدث دائماً بعد وفاة خاطئ، فإنها لا تحدث في العادة إلا بعد أربع وعشرين ساعة على الأقل، ولا تظهر بمثل هذه السرعة. أما وأن «تفسخ الشيخ قد سبق الطبيعة» فلا بد أن نرى في ذلك عملاً من أعمال الله وإشارة آتية من السماء. ذلك برهان كان يبدو مفحماً. ولقد حاول الراهب الكاهن يوسف، أمين مكتبة الدير الذي كان صفيّ الشيخ وأثيره وكان رجلاً دمثاً لطيفاً، حاول أن يسوق بعض الحجج والأدلة جواباً على تلك الأقوال المسيئة. قال فيما قال: إن هذه الآراء لا يؤخذ بها في كل مكان وإن ما يقال من أن أجساد الصالحين لا تتفسخ ليس من صلب العقيدة الأورثوذكسية وإنما هو مجرد ظن»..

ففي مراكز الأورثوذكسية الصافية النقية مثل جبل آثوس لا يقام كبير وزن لرائحة الجثة ولا يعد عدم التفسخ علامة نهائية على مجد القديس وإنما يعتمد هنالك على لون العظام بعد أن تثوي الأجساد زمناً طويلاً في الأرض وبعد أن تكون قد تفسخت في التراب تفسخاً تاماً «فإذا صارت العظام بمضي الزمن إلى صفرة كصفرة الشمع كان ذلك دليلاً قاطعاً على أن الرب قد مجّد المتوفى أما إذا أصبحت العظام سوداء استُدل من ذلك على أن الرب قد حكم على المتوفى بأنه لا يستحق ذلك الشرف، ذلك هو الأساس الذي يُبنى عليه الرأي في جبل آثوس وهو مكان مقدس جداً حافظت فيه الأورثوذكسية في كل الأزمان على صفائها ونقائها». بذلك ختم الأب يوسف كلامه ولكن أقوال هذا الراهب المتواضع لم تحدث أي صدى ولم تزد على أن أثارت في أكثر تقدير ملاحظات ساخرة، فقال بعض الرهبان: «تلك بدع العلماء لا نريد أن نسمعها». وأضاف آخرون: «سوف نبقى أوفياء للتقاليد أمناء عليها والبدع كثيرة في زماننا هذا أفينبغي لنا أن نقلدها جميعاً؟». وقالت طائفة ثالثة في استهزاء: «لا يقل ما كان عندنا من قديسين عما كان عند رهبان آثوس وقد نسي هؤلاء كل شيء إبان الحكم التركي وفسدت الأورثوذكسية عندهم منذ زمن طويل. يضاف إلى ذلك أنهم لا يملكون حتى نواقيس». انصرف الأب يوسف حزيناً. ثم إنه لم يعبر عن رأيه بكثير من الجزم والقطع بل عبر عنه متردداً كأنه ليس مقتنعاً به كل الاقتناع هو نفسه. وكان يرى وقد استولى عليه الاضطراب إذ رأى أن شيئاً غير لائق يبدأ وأن العصيان يرفع رأسه. وصمتت جميع الأصوات الرزينة شيئاً بعد شيء على أثر هزيمة الأب يوسف حتى لقد حدث أن أولئك الذين كانوا قد أحبوا الشيخ الراحل وكانوا قد خضعوا لنظام المشايخ بطاعة وحماسة، ذعروا من شيء ما على حين فجأة وأصبحوا لا يكادون يجرؤون حين يلتقون على أن يتبادلوا نظرة خجلى. أما خصوم هذا النظام الذين يصفونه بأنه بدعة مفسدة فقد شعروا بانتصار وراحوا يختالون تباهياً وها هم يقولون فرحين فرحاً خبيثاً: «عند موت الأب فارسونوفي لم يشعر المرء برائحة تفسخ بل كانت جثته تنشر روائح عطرة. على أنه لم يستحق نعم الرب بصفته شيخاً وإنما استحقها بفضل طهارة حياته لأنه كان رجلاً صالحاً».

وانطلقت الألسن من عقالها فهي لا تتردد الآن عن انتقاد الشيخ المتوفي بل وعن اتهامه فهؤلاء بعض الرهبان الأغبياء يقولون: «كانت تعاليمه خطأ. كان يُزعَمُ أن الحياة فرح عظيم لا خضوع وينبوع دموع». وهؤلاء رهبان آخرون يقولون بمزيد من الغباء: «كان رجلاً عصرياً. كان لا يؤمن بنار جهنم» وهؤلاء حساد يقولون: «لم يكن يتقيد بالصيام تقيداً شديداً. كان يسمح لنفسه بأكل الحلوى وكان يتناول مع الشاي مربى الكرز. كان يتلذذ بذلك. كثيراً ما كانت سيدات ترسل إليه حلوى ومربي. أيليق بناسك أن يشرب شاياً؟» وهؤلاء أشد الرهبان شماتة يقولون بقسوة: «كان متكبراً. كان يظن نفسه قديساً. كان الناس يجثون أمامه وكان هو يقبل آيات الاحترام هذه ويعدها واجباً له على الآخرين». وهؤلاء ألد أعداء نظام المشايخ يضيفون بصوت خافت ولهجة شرسة: «كان يمتهن حرمة سر الاعتراف». إن أكثر هؤلاء الأعداء الألداء النظام المشايخ هم بين الرهبان أكبرهم سناً وأشدهم تقشفاً وأعظمهم تقيداً بكفارات الصيام والصمت. كانوا أثناء حياة الشيخ قد انتهوا إلى الإذعان والرضوخ ولكنهم يطلقون الآن الأحقادهم أعنتها وذلك أمر يثير القلق كثيراً لأن لآرائهم تأثيراً قوياً في الرهبان الشبان الذين لم يصلب عودهم بعد. كان راهب أوبدورسك، الراهب الصغير الوافد من القديس سيلفستر، يصيخ بسمعه إلى هذه الأقوال كلها منتبهاً انتباهاً شديداً متنهداً تنهداً عميقاً، هازاً رأسه، قائلاً لنفسه: «يبدو أن الأب فيرابونت كان على حق أمس». وهذا هو الأب فيرابونت يظهر هو نفسه على حين فجأة كأنما ليكمل اضطراب النفوس وبلبلة الأفكار.

سبق أن قلت إنه كان لا يترك إلا نادراً صومعته الخشبية الواقعة في جانب المنحل وإنه كان يغيب عن الكنيسة فترات طويلة، ولكن سكان الدير كانوا يغضون البصر عن إخلاله هذا بالنظام، بحجة أنه من المجاذيب والحق أنهم كانوا يعدون أنفسهم مضطرين أخلاقياً، إن صح التعبير، إلى غض الطرف عن شذوذ سلوكه فإنه ليكاد يبدو غير لائق أن يطالب ناسك كبير مثله يلزم نفسه بالصيام والصمت مدداً طويلة ذلك الطول كله ويقضي أياماً وليالي في الصلاة والتهجد (لقد كان يتفق له أن ينام على ركبتيه)، أن يطالب بالخضوع للطقوس العامة والشعائر المتبعة إذا هو أراد أن يتحلل منها فلو أراد أن يزعجه لقال الرهبان: «إنه أقدس منا جميعاً وهو يفرض على نفسه كفارات أقوى كثيراً مما نلزم به أنفسنا من فرائض فإذا لم يأتِ إلى الكنيسة فلا شك أن هنالك أسباباً تدفعه إلى ذلك. إن له فرائضه الخاصة التي يوجبها على نفسه». لذلك كان يُترك هذا الأب المعتزل العجوز وشأنه تحاشياً لاحتجاجات الرهبان واضطرابهم وكان معروفاً لدى الناس أن الأب فيرابونت يكره الشيخ زوسيما. ولم تلبث الشائعة التي تقول: «إن حكم الله لا يؤيد حكم البشر دائماً وإنه قد سبق الطبيعة في تفسخ جثمان الشيخ»، لم تلبث هذه الشائعة أن وصلت إلى حجرته النائية المنعزلة وأغلب الظن أن راهب أوبدورسك الذي زاره البارحة وخرج من عنده مذعوراً كان من أوائل الذين نقلوا إليه النبأ. وقد ذكرت أيضاً أن الأب بائيسي الذي ظل يتابع قراءة الإنجيل أمام التابوت ثابت الجنان بغير اضطراب والذي كان لا يمكن أن يرى وأن يسمع من مكانه هذا ما كان يجري خارج الغرفة، قد حزر مع ذلك في قرارة نفسه الشيء الأساسي مما كان يجري خارج الغرفة لأنه يعرف الروح المسيطرة على بيئته حق معرفتها. لم يدع الأب بائيسي لنفسه أن يضطرب وانتظر ما سيحدث دون أن يرتاع متنبئاً بعواقب هذا الاضطراب وراسماً مآل الأحداث في فكره بما أوتي من بصيرة نافذة، غير أن ضجة خارقة آتية من المدخل قد شدت انتباهه على حين فجأة، وهي ضجة تنافي اللياقة بكل وضوح. انفتح الباب على مصراعيه وظهر الأب فيرابونت في العتبة. إن عدداً كبيراً من الرهبان بينهم بعض العلمانيين كانوا يسيرون وراء الأب فيرابونت ولكنهم آثروا أن يتوقفوا في أسفل درجات المدخل فهم يُرون من الغرفة. لقد قرروا أن لا يدخلوا الغرفة وفضلوا أن يشاهدوا من بعد ما سيقوله الأب فيرابونت وما سيفعله. ذلك أنهم كانوا يتنبأون بأن الأب فيرابونت لم يجيء عبثاً وإنهم ليشعرون بشيء من الارتياع رغم جرأتهم وجسارتهم. توقف الأب فيرابونت في العتبة ورفع ذراعيه فرأيت عندئذٍ من تحت ذراعه اليمنى العينان الحادنان المستطلعنان عينا راهب أوبدورسك الصغيرتان الذي لم يصطبر فاجتاز درجات المدخل وراء الأب فيرابونت بدافع فضوله الشديد، أما الآخرون فقد تراجعوا قليلاً وهم يشعرون بخوف مفاجئ حين انفتح الباب مقرقعاً. صرخ الأب فيرابونت بقوة وهو رافع ذراعيه قائلاً:

- سأطرده طرداً!

وأسرع يرسم إشارات الصليب كبيرة وهو يتجه إلى جدران الغرفة الأربعة جداراً بعد جدار. ورسم إشارة الصليب كذلك أمام كل زاوية من زوايا الغرفة

وسرعان ما أدرك جميع الذين تبعوا الأب فيرابونت دلالة هذه الحركة فلقد كانوا يعرفون أنه يفعل هذا دائماً في أي مكان يذهب إليه ولا يرضى أن يقول كلمة أو أن يجلس قبل أن يطرد الشيطان وكان يردد كلما رسم إشارة الصليب:

- ابتعد أيها الشيطان! أخرج من هنا! غوروا أيها الأبالسة! هكذا كان يزأر الشيخ فيرابونت.

وكان يرتدي ثوباً خشناً يزنره حبل، وكان صدره الأشيب الشعر يظهر من شق قميصه المصنوع من الخيش أمّا قدماه فكانتا حافيتين تماماً وإذا حرك ذراعيه سُمع صليل السلاسل الحديدية الثقيلة التي كان يحملها على جسمه. توقف الأب بائيسى عن القراءة تقدم نحو الأب فيرابونت هادئاً على وضع انتظار وسأله أخيراً وهو يلقي عليه نظرة قاسية:

- لماذا جئت إلى هنا أيها الأب المحترم؟ لماذا تشوَّش النظام؟ لماذا تريد أن تبث الفوضى في الرعية الوادعة؟

صرخ الأب فيربونت يقول منقلب السحنة:

- لماذا جئت؟ تسأل لماذا جئت؟ فماذا تظن إذاً؟ لقد جئت الأطرد ضيوفكم، لأطرد الشياطين النجسة! أردت أن أرى هل استضفتم شياطين كثيرة في غيابي. سأطردهم جميعاً بالمكنسة.

أجابه الأب بائيسى هادئة دون أن يشعر بالخوف:

- تحسب أنك تطرد الشيطان مع أنك ربما كنت تخدمه! من ذا الذي يستطيع أن يقول عن نفسه إنه قديس؟ أتراك أنت أيها الأب المحترم؟

قال الأب فيرابونت مرعداً:

- أنا لست بقديس قط! أنا رجل دنس! ولكنني لا أستريح على مقاعد وثيرة ولا أحاول أن أحمل الناس على عبادتي كإله. الناس في أيامنا هذه يستهزئون بالدين المقدس. إن صاحبكم المتوفي، هذا القديس (كذلك أضاف يقول ملتفتاً نحو الناس المحتشدين عند المدخل مشيراً بإصبعه إلى تابوت الشيخ) كان لا يؤمن بوجود الشياطين لقد كان يصف لمن منهم الشياطين أدوية تنظف الأمعاء فهل عجب بعد هذا أن تتكاثر الشياطين عندكم تكاثر العنكبوت في زوايا الجدران؟ أما قديسكم فإنه يتفسخ الآن وتلك في نظرنا إشارة من السماء.

والحق أن في حياة الأب زوسيما حادثة من هذا النوع فإن راهباً من الرهبان قد رأى الشيطان في منامه عدة مرات ثم أخذت هذه الرؤى تحاصره في اليقظة أيضاً ففاتح الشيخ بذلك فنصحه الشيخ بأن يكثر من الصلاة والصيام. فلما لم تنفعه هذه الوسيلة وصف له دواء ونصحه في الوقت نفسه بأن لا ينقطع عن الصلاة والصيام. وقد شُدِه من هذا عدد كبير من الرهبان وأخذوا يتحدثون فيه هازِّين رؤوسهم استياءً واستنكاراً. وكان الأب فيرابونت أشدهم ثورة حين أسرع الوشاة يبلغونه بما فعله الشيخ من أمر يعد «خارقاً» في حالة من هذا النوع.

قال الشيخ بائيسى بلهجة آمرة:

- ابتعد أيها الأب. إن الحكم لله لا للبشر وأن «الإشارة الآتية إلينا من السماء» يمكن أن يكون لها معنى يفوق عقلنا فلا تستطيع أنت ولا أستطيع أنا ولا يستطيع أحد هنا أن يجازف فيؤولها. ابتعد أيها الأب وكفاك تشويشاً للرعية!

كذلك ردد الأب بائيسى ملحاً.

واستأنف الراهب المتعصب المندفع كلامه وكأنه فقد كل سيطرة له على نفسه:

- كان لا يعتقد بفرائض الصيام كما يليق براهب من رتبته. ذلك هو سبب الإشارة السماوية، هذا واضح وضوح النهار ومن الإثم أن تحاول إنكار ذلك. كان يتنعم بالحلوى التي كانت تملأ بها جيوب السيدات اللواتي يزرنه. كان يملأ بطنه بالشاي ويحشوه بالحلوى أما عقله فقد كان يفيض كبرياء وزهوة. ذلك هو سبب عاره.

أجاب الأب بائيسى رافعا صوته هو أيضاً:

- أقوالك طائشة! إنني لأعجب بقسوة صيامك وشدة تقاك ولكنك ترسل الكلام جزافاً بغير روية كشاب علماني يعوزه النضج والتأمل والتدبر.

وختم الأب بائيسى كلامه قائلاً بصوت مجلجل:

- اخرج من هنا يا أب، آمرك بأن تخرج!

قال الأب فيرابونت مرتبكاً بعض الارتباك ولكن دون أن يهدأ غضبه:

- سأمضي! طيب... أنتم رجال علماء. أنتم بكبرياء عقلكم المسعورة ترتفعون فوق بَسَاطتي. لقد جئت إلى الدير أمياً. والقليل الذي كنت أعرفه في الماضي نسيته منذ ذلك الحين. لقد شاءت رحمة الرب نفسه أن تصونني أنا الضعيف من دنس عقلكم... ظل الأب بائيسى هادئاً ينتظر التتمة بصلابة وثبات.

صمت الأب فيرابونت لحظة ثم إذا بوجهه يظلم على حين فجأة وإذا به يحمل يده اليمنى إلى خده ويقول مرتلاً وهو ينظر إلى تابوت الشيخ:

- غدا ينشدون له النشيد العظيم ربنا هب لنا من لدنك عوناً واحمنا» أما حين سأفطس أنا فسيكتفون بتلاوة آيات بسيطة قائلين كانت حياته هادئة وادعة[171].

كذلك قال بصوت تخالطه الدموع والأسى. ثم صرخ يقول كمن جن جنونه:

- ضيعتكم الكبرياء والزهو! ما هذا المكان إلا عدم!

واستدار على عقبيه وهو يحرُك ذراعه وهرول يهبط درجات السلم. ظهر التردد على الجمهور الذي كان ينتظره تحت ثم تبعه بعضهم فوراً وتريث آخرون إذ رأوا أن باب الغرفة قد ظل مفتوحاً وأن الأب بائيسي الذي شيع الأب فيرابونت إلى درجات المدخل كان يلاحظهم صامتاً ولكن العجوز المندفع المتحمس لم يكن قد أفرغ كل ما في جعبته فها هو ذا يتوقف بعد أن سار عشرين خطوة ويلتفت نحو الشمس الغاربة رامياً ذراعيه في الهواء ثم يتهاوى على الأرض كأن قوة خفية قد حصدته:

- انتصر ربي! تغلب المسيح عند غياب الشمس.

كذلك زار يقول بصوت مسعور وهو يمد ذراعيه نحو الشمس. ثم سقط ووجهه إلى الأرض وأخذ يبكي بكاء طفل بصوت عال مهتز الجسم محركاً ذراعيه كأنما ليعانق الأرض. هرع الجميع إليه وسُمع صراخ وسُمع بكاء عطف... فاستولى على الجميع تهيج. وهتفوا يقولون من كل جهة من الجهات بغير تحفُّظ:

- هذا هو القديس الحق. هذا هو الصالح الحق.
وأضاف آخرون يقولون بحنق شديد:
- إليه إنما يجب أن تسند المشيخة.
فبادرت أصوات أخرى تقول على الفور:
- لن يقبل أن يصبح شيخاً. سيرفض هو نفسه. لن يرضى أن ينضم إلى هذه البدعة اللعينة. ما هو بمن سيقلد جنونهم.
لا يدري أحد بماذا كان يمكن أن ينتهي هذا كله لو أن الناقوس لم تدوّ أصواته في تلك اللحظة منادية الرهبان إلى القداس. رسم الجميع إشارة الصليب ونهض الأب فيرابونت ورسم إشارة الصليب واتجه نحو صومعنه دون أن يلتفت وهو لا يزال يطلق صرخات صارت مضطربة لا اتساق فيها. تبعته قلة قليلة من الرهبان ولكن أكثر الرهبان تفرقوا مسرعين إلى العبادة. وعهد الأب بائيسي إلى الأب يوسف بإتمام القراءة وابتعد هو أيضا ضابطاً درجات السلم. إن الصرخات المحمومة التي أطلقها المتعصبون لم تستطع أن تهزه كثيراً ومع ذلك شعر بحزن خاص يغزو قلبه فجأة فدهش ووقف يتساءل: «ما مصدر هذا العناء الذي يرهقني؟». فما كان أشدّ دهشته حين أدرك فوراً أن سبب ذلك إنما هو حادث يبدو تافهاً لا قيمة له: فبين صفوف الجمهور الذي كان يضطرب منذ هنيهة عند مدخل الغرفة لاحظ الأب بائيسى وجود أليوشا فشعر من ذلك بما يشبه ألماً يطعن قلبه. إنه يتذكر هذا الآن. تساءل الأب بائيسي مدهوشاً دهشة قوية: «هل يمكن حقاً أن يكون هذا الشاب قد احتل كل هذا المكان في نفسي؟». وفيما هو يتساءل هذا التساؤل مر أليوشا غير بعيد عنه. كان يغذّ الخطى ولكنه لم يكن متجهاً نحو الكنيسة. التقت نظراتهما فسرعان ما أشاح أليوشا عينيه وخفضهما نحو الأرض وأدرك الأب بائيسي من النظر إلى هيئة الفتي وحدها ما كان يجري في نفسه من تبدل كبير.
هتف الأب بائيسي يسأله:
- أتراك تركت لنفسك أن تهتز وتضطرب أنت أيضاً؟
ثم أضاف يقول بمرارة:
- أتراك انضممت إلى صف الذين يشكون؟
توقّف أليوشا وألقى على الأب بائيسى نظرة مترددة ثم أشاح عينيه وأطرق إلى الأرض من جديد. لقد وقف مواربأ ليتحاشى نظرة محدثه وجهاً لوجه. وكان الأب بائيسى يرقبه بانتباه.
قال الأب بائيسى:
- إلى أين أنت ذاهب؟ هذه ساعة القداس. ولكن أليوشا ظل لا يجيب. وتابع الأب بائيسي أسئلته:
- ألعلك تترك الدير؟ أبدون أن تنبئنا؟ أبدون أن تتلقى المباركة؟
فإذا بأليوشا يبتسم على حين فجأة ابتسامة ساخرة متصنّعة ويشخص ببصره إلى الراهب الذي كان يسأله. إن هناك شيئاً غريباً بل غريباً جداً في النظرة التي ألقاها في تلك اللحظة على الرجل الذي عهد به إليه أثناء موته مرشده الروحي المتوفى، معلم قلبه وفكره، شيخه المحبوب. ها هو ذا يحرك يده فجأة دون أن يجيب، كمن أصبح لا يهمه أن يتقيد بدلائل الاحترام. ثم اتجه نحو مخرج المنسك بخطى سريعة.
ودمدم الأب بائيسي يقول بصوت خافت وهو يتابعه بنظره مدهوشاً دهشة أليمة:
- ستعود ثانية.

لا شك في أن الأب بائيسي لم يخطئ حين قدر أن «ابنه العزيز» سيعود؛ حتى لقد فهم فيما يبدو (لا فهماً كاملاً والحق يقال، لكنه فهم فيه كثير من نفاذ البصيرة) الحالة النفسية التي كان عليها أليوشا. ولكن يجب عليَّ أن أعترف مع ذلك بأنني لو أردت أن أشرح على وجه الدقة معنى تلك الدقيقة الغريبة المبهمة من الحياة الداخلية التي عاشها بطلي الذي أحبه كثيراً والذي ما يزال في ريعان الشباب، لكان ذلك الآن صعباً عليَّ كل الصعوبة. إنني أستطيع طبعا أن أجيب عن ذلك السؤال المرير الذي ألقاه عليه الأب بائيسي «أتراك انضممت إلى صف الذين يشكون؟»، أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال واثقاً: «لا، إنه لم يكن يشك ! ». وأكثر من ذلك إن اضطرابه كان يعبّر عن نقيض هذا تماماً: لئن شعر بقلق فذلك لأن إيمانه كان كبيرة. لقد قلق أليوشا قلقاً شديداً، وبلغ قلقه من الإيلام أنه ظل بعد سنين طويلة يعدُ ذلك اليوم المشؤوم أزخر أيام حياته بالألم والحزن. ولو سئلت: «هل يمكن حقاً أن يشعر بكل ذلك الحزن والقلق لا لشيء إلا لأن جثمان شيخه قد فسد قبل الأوان بدلا من أن يحقق معجزات شفاء؟1، الأجبت بغير تردد: «نعم، ذلك بعينه هو سبب حزنه». ولكنني أرجو القارئ مع ذلك أن لا يتسرع كثيراً فيستهزئ بصفاء قلب بطلي. لست ميل من جهتي إلى أن ألتمس له سماحة القارئ، أو أن أنتحل لإيمانه الساذج عذراً من شبابه أو من قلة ما حصّل سابقاً من تقدم في العلوم إلخ إلخ، بل أقف الموقف المضاد فأقول بغير تردد: إنني أشعر نحو بساطة قلبه باحترام كبير. صحيح أن شباباً غيره، شباباً أشد حذراً في اندفاعات قلبهم، شباباً يحبون حباً حاراً، غير أنهم يحبون بغير هوى شديد، شباباً يحسنون التحكم بحركات قلبهم في ذكاء واثق مستقيم لكنه مع ذلك مسرف في التعقل إذا قيس بأعمارهم (وهو تبعاً لذلك ضئيل القيمة)، واضح أن شباباً كهؤلاء كان يمكن أن يتقوا الاضطراب الذي وقع فيه بطلي. ولكن لأن ينساق المرء أحياناً مع اندفاع قد يكون طائشاً ولكنه مستلهم من حب كبير، فذلك في رأيي أنبل وأكرم من أن يكون عاجزاً عن ذلك الاندفاع. وهذا يصدق خاصة على الشباب، لأن الشاب الذي يفرط في التروي لا يوحي بثقة عميقة وليس له قيمة كبيرة. ذلك رأيي أنا على الأقل. رب أناس رصينين يعترضون قائلين:

«إلى أين نصير إذا آمن جميع الشباب بمثل هذه الآراء. ليس صاحبك اليوشا بمن تضرب به مثلاً أو تقدمه قدوة». وإني لأجيب هؤلاء قائلاً: لقد كان أليوشا يؤمن إيماناً مقدساً لا يتزعزع، ولكن ليس يخطر ببالي أن ألتمس له بسبب ذلك أعذاراً.

ومع ذلك.... مهما أؤكد (وربما كنت في هذا التأكيد مفرطة في التسرع) إنني لن أحاول أن أسوّغ سلوك بطلي أو أن ألتمس له الأعذار، فإنني أراني مضطراً، رغم كل شيء، إلى أن أقدم بعض الإيضاحات تسهيلاً لفهم قصتي. إليكم ما أريد أن أقوله: ليس غياب المعجزة هو ما أسلم أليوشا للاضطراب. إن أليوشا لم ينتظر، نافد الصبر، ظهور ظاهرة فوق الطبيعة، عن خفّة وطيش. إنه لم يكن في حاجة إلى ذلك لثبوت صدق اعتقاده ثبوت مظفراً (لا هذا على كل حال)، ولا ليتاح لفكرة قائمة في ذهنه أن تنتصر بمزيد من السهولة على رأي يعارضها. أبداً! إن ما كان يعنيه في هذا الأمر قبل كل شيء آخر، بل ودون كل شيء آخر، إنما هو مصير إنسان، مصير هذا الإنسان وحده، أعني شخص الشيخ الذي كان أليوشا يحبه، شخص الرجل الصالح الذي كان أليوشا يعجب به ويبجله. إن ما كان في قلبه الفتيّ النقيّ من قدرة على حب «جميع الأشياء وجميع الناس» قد تركز في تلك الفترة، وأثناء السنة الماضية، على إنسان واحد هو شيخه الحبيب الذي مات الآن والذي قد أصبح - ربما في ذلك شيء من الإفراط - القطب الوحيد الذي يجتذب أعمق عواطفه. صحيح أن هذا الشيخ ظل يجد في نظره أرفع مثل أعلى إنساني، خلال مدة بلغت من الطول أن قوى طبيعته الشابة وأشواق نفسه كان لا بد أن تتجه إلى الشيخ وحده حتى لتنسية في بعض الأحيان «جميع الأشياء وجميع الناس» (سوف يتذكر فيما بعد أنه في ذلك اليوم الحزين قد نسي نسياناً تاماً أخاه دمتري الذي كان يرغب أمس في رؤيته، رغبة حارة قوية ؛ كما أن القرار الذي اتخذه أمس والذي يحرص عليه أشد الحرص، وهو أن يرد المائتي روبل إلى والد أليوشا، قد غاب عن ذهنه تماماً). ولكنني أعود فأقول مرة أخرى: ليست المعجزات هي ما كان أليوشا في حاجة إليه، وإنما كان أليوشا في حاجة إلى «عدالة عليا»، وهذه العدالة العليا قد أوذيت في نظره إيذاءً شديداً. فهذا لا غيره هو ما كان يؤلم قلب أليوشا إيلاماً قاسياً. لقد كان هذا طعنة موجعة رهيبة. ليس بالأمر المهم أن تكون هذه «العدالة» قد تترجمت في ذهنه، بتأثير البيئة الطبيعي، توقعاً لمعجزة لا بد أن تتحقق قرب جثمان قائده الروحي الذي كان يحبّه ويبكيه. ولكن هذه المعجزة هي ما يأمله جميع الناس في الدير، وحتى «أولئك الذين كان أليوشا يعترف بتفوقهم العقلي عليه، كالأب بائيسي مثلاً. لذلك لم يتردد اليوشا في أن يعبّر عن أمله على نحو ما كانوا يعبرون، دون أن تشوشه شكوك أو تأملات. وقد نضج هذا التوقع في نفسه خلال سنة كاملة عاشها في الدير حتى أصبحت طبيعية كعادة. ولكن ظمأه كان إلى عدالة لا إلى معجزات فقط ! وهذا هو الإنسان الذي كان في عاطفة أليوشا فوق جميع البشر في العالم بأسره يتجلل بالعار فجأة ويسقط في الخزي بدلاً من أن ينال المجد الذي يستحقه! لماذا؟ من هو القاضي الذي اتخذ هذا القرار وأصدر هذا الحكم؟ من الذي يمكن أن يكون قد اتخذ هذا القرار حقاً؟ تلك هي الأسئلة التي داهمت نفسه البريئة التي تعوزها الخبرة والتجربة وأخذت تسومها سوء العذاب. كان لا يطيق، دون أن يشعر بالمذلة ودون أن يعصف به الغضب، أن يرى أصلح الصالحين فريسة استهزاء شرير وتهكم خبيث يصبه عليه جمهور طائش هو دونه كثيراً. كان يمكن أن يقبل أن لا تحدث أي معجزة وأن لا يقع أي شيء خارق للطبيعة، تلبية لما يتوقعه جميع الناس، ولكن لماذا يجلل الشيخ بالخزي والعار، لماذا هذا التفسخ الذي يحدث قبل الأوان، ويسبق الطبيعة، كما كان يقول الرهبان الأشرار؟ لماذا هيأ لهؤلاء الأشرار فرصة أن يروا في هذا التفسخ «إشارة» يسارعون الآن إلى تأويلها كما يحبون ويشتهون وراء الأب فيرابونت؟ ومن ذا الذي خولهم الحق في أن يعمدوا إلى استدلالات من هذا النوع؟ أين العناية الإلهية في هذا كله وأين يد الله؟ لماذا امتنع الرب عن التدخل في «اللحظة التي كان فيها تدخله ألزم ما يكون وأوجب ما يكون» (في رأي أليوشا) حتى لكأنه استسلم هو نفسه أمام قوى الطبيعة العمياء التي لا ترحم؟

ذلك ما كان ينزف منه قلب أليوشا. كان في تلك الساعة، كما سبق أن قلت، لا يفكر إلا في ذلك الإنسان الذي هو أحبّ إنسان إلى قلبه في العالم، وهذا الإنسان هو من جلّل بالخزي والعار الآن، وغُصّت قيمته وأنزل إلى الدرك الأسفل. إنني أسلم بأن هذا الفتى قد برهن، حين كان يطرح هذه الأسئلة، على أنه طائش العقل مخطئ الرأي، ولكنني أعود فأقول مرة ثالثة (ولتتهموني بخفة العقل أيضاً إذا شئتم) إنني ليسعدني أن أليوشا قد أعوزه التعقّل في تلك الساعة من حياته، لأن العقل يستيقظ دائماً في وقت مناسب لدى الإنسان الذي لم يحرم من الذكاء، فإذا لم يتغلب عليه الحب في مثل هذه اللحظة في قلب فتى، فمتى عساه ينتصر؟ على أنني لا أستطيع أن أصمت عن عاطفة أخرى غامضة مضطربة قد مست نفس أليوشا مساً عابراً في تلك الدقيقة الحرجة الأليمة من حياته. ولعل كلمة «عاطفة» ليست هي الكلمة المناسبة. هو شعور شاق مرتبط بذكرى الحديث الذي قام أمس بينه وبين أخيه إيفان والذي يعاود فكره الآن بالذات بالحاح محاصر. لست أعني قط أن عناصر إيمانه الأساسية، الفطرية إن صح التعبير، قد أصابها أي تزعزع... لا... إنه يحب إلهه الآن كما كان يحبه من قبل، وإنه ما يزال يؤمن بإلهه إيمانا راسخا وإن كان يتذمر في بعض اللحظات. ولكن ذلك الإحساس الغامض المؤلم الخبيث المرتبط بذكرى ذلك الحديث مع إيفان قد استيقظ الآن في نفسه من جديد، وأخذ يحاول الخروج إلى سطح شعوره بقوة ما تنفكّ تتزايد. هبط المساء أثناء ذلك، وخيّم الظلام. وهذا راكيتين الذي كان يجتاز غابة الصنوبر ليذهب من المنسك إلى الدير يلمع أليوشا على حين فجأة، مستلقية تحت شجرة، جاعلاً وجهه إلى الأرض، ساكناً لا يتحرك فكأنه نائم. اقترب راكيتين منه وناداه:

- أهذا أنت يا ألكسي؟ أيمكن حقاً أن...

كذلك قال راكيتين مدهوشاً، ولكنه أمسك فجأة عن الكلام قبل أن يتم جملته. كان يريد أن يقول: «أيمكن حقاً أن تصير من ذلك إلى هذه الحال؟» لم يرفع أليوشا عينيه نحو راكيتين، ولكن راكيتين أدرك من حركة جسم أليوشا، أن أليوشا قد سمعه. استأنف راكيتين يقول وقد أخذت الدهشة التي يعبر عنها وجهه تستحيل شيئاً فشيئاً إلى ابتسامة ساخرة:

- ماذا بك؟ ماذا دهاك؟ اسمع يا أليوشا! إنني أبحث عنك منذ أكثر من ساعتين في كل مكان. لقد اختفيت من هناك بغتة. فماذا تصنع هنا؟ ما هذه السخافات؟ انظر إليّ على الأقل...

رفع أليوشا رأسه، وجلس مسنداً ظهره إلى الشجرة. لم يكن يبكي، ولكن الألم كان يُقرأ في قسمات وجهه، وكان في عينيه حنق على أنه لم يكن ينظر إلى راكيتين وإنما هو يحدّق إلى شيء آخر.

قال راكيتين:

- هل تعلم أن وجهك قد تغير تماماً؟ لم يبق فيه أثر من تلك الوداعة التي كنت توصف بها. أتراك غاضباً من أحد؟ هل أساء إليك أحد؟

قال أليوشا فجأة دون أن ينظر إليه أيضاً، قال وهو يحرك يده بإشارة تعبر عن التململ والتبرّم:

- انصرف، دعني وشأني!

قال راكيتين:

- ياه! أهكذا أصبحنا الآن إذاً؟ نغضب ونصرخ كسائر الناس! عجيب! من ذا الذي يمكن أن يصدق صدور هذا عن مثل هذا الملاك؟ طيب يا أليوشا... أريد أن أقول لك إنك أدهشتني... أقول لك هذا صادقاً كل الصدق. لقد أصبحتُ منذ زمن طويل لا أدهش من شيء هنا. على أنني كنت أظنك إنساناً مثقفاً...

أخيراً رفع أليوشا إليه عينيه، غير أن في نظرته الآن ذهولاً فكأنه لم يفهم جيداً ما قاله صاحبه. وعاد راكيتين يهتف قائلاً وقد استبدَّت به دهشة شديدة من جديد:
- أكل هذا لأن صاحبك العجوز قد تفسخ؟ أكنت تظن حقاً إذاً أنه كان سيحقق معجزات؟
فصرخ أليوشا يقول بصوت جانق:
- كنت أظن، وما زلت أظن، وأريد أن أظن، وسأظل أظن !.... أيكفيك هذا الآن؟
- ولكنني لا أريد شيئاً يا عزيزي! عجيب! إن صبياً في الثالثة عشرة من عمره لا يؤمن بهذه الأمور في أيامنا هذه. لك ما تشاء على كل حال... ها أنت ذا إذاً غاضب من الله، ثائر عليه ثورة معلنة! كموظف لم يحصل على ما كان يطالب به، أو حُرِمَ من وسام في احتفال! هذا أنتم!...
تفترّس أليوشا في راكيتين طويلاً، وهو مغمض عينيه نصف إغماض، وومض في عينيه برق... غير أن هذا ليس الآن حنقاً وغيظاً من راكيتين. ثم قال وهو يبتسم ابتسامة واهنة:
- لست ثائرة على إلهي، ولكنني «أرفض قبول الخليقة» ذلك كل شيء.
فكر راكيتين لحظة في هذا الجواب ثم سأله:
- ترفض؟ ماذا تعني؟ ما هذا الكلام الغريب. أيضاً !
لم يجب أليوشا. فأضاف راكيتين:
- كفانا كلاماً في ترهات. لنفكر في الأمور الهامة: هل أكلت اليوم؟
- لا أتذكر... يبدو أنني أكلت...
- تدل هيئتك على أنك في حاجة إلى استرداد قواك. إن منظرك يثير الشفقة عليك. قيل لي إنك لم تنم طول الليل. إنكم قد عقدتم اجتماعاً كبيراً. ثم حدث ذلك الهرج كله... أظن أن ما أكلته هو جزء صغير من الخبز المقدس. إن في جيبي بعض المقانق، حملته احتياطاً حين جئت إلى هنا من المدينة. ولكنك لا تأكل المقانق، أليس كذلك؟
- هات المقانق.
- هيه هيه... هذا أمر جديد... هذه ثورة أصولية، ثورة بمتاريس! هِم... ما هذا بقليل أيها الأخ، هل تعلم؟ طيب... تعال معي إلى بيتي... أنا أيضاً في حاجة إلى قليل من الفودكا... إنني مرهق... أنت لا تشرب الخمرة، أليس كذلك؟ اللّهمَ إلا أن...
- سأشرب فودكا.
قال راكيتين وهو ينظر إلى صاحبه مدهوشاً:
- هكذا!... هذا كثير... المقانق سلمنا بها... والفودكا أيضا؟ هذه أمور عظيمة حقاً. يجب أن لا تفوَّت الفرصة. هيا بنا!
نهض أليوشا دون أن ينطق بكلمة، وتبع راكيتين:
- لو علم أخوك إيفان بهذا الدهش. بالمناسبة: لقد سافر إيفان فيدوروفتش إلى موسكو هذا الصباح، هل كنت تعرف ذلك؟
قال أليوشا بغير اكتراث:
- أعرف.
وانبثقت صورة دمتري فجأة في خياله، ولكنها لم تلبث فيه إلا لحظة قصيرة. لقد أحسّ إحساساً غامضاً بوجود أمر مستعجل لا يحتمل أي إبطاء، هو إلزام أخلاقي، هو واجب رهيب يجب أن يقوم به، ولكن هذه الذكرى لم تُخرجه من خَدَره؛ لقد اجتازت فكره من دون أن تبلغ قلبه ثم لم تلبث أن بارحته. ومع ذلك فإن هذه الواقعة ستعاود ذاكرته كثيراً فيما بعد.
- لقد نعتني أخوك اللطيف إيفان ذات مرة بقوله: «تافه ليبرالي لا موهبة له». أما أنت فقد أسمعتني في يوم من الأيام «أنني أفتقر إلى الاستقامة». طيب! سأرى ما قيمة مواهبكم واستقامتكم أنتم (أضاف راكيتين قوله هذا هامساً كأنه يخاطب نفسه).
ثم أردف يقول بصوت عال:
- لنتحاش المرور بالدير ولنتجه رأساً إلى المدينة مجتازين الممر الضيق... هِم! وسأثب لحظة إلى منزل السيدة خوفلاكوفا أثناء الطريق. تصوّر أنني قصصت عليها تفصيلاً كل ما جرى هنا، فإذا هي تجيبني فوراً في بطاقة كتبت عليها بقلم الرصاص هذه السيدة تعشق كتابة البطاقات): «إنها ما كان لها أن تتوقع من عجوز مبجل كالشيخ زوسيما.... أن يصدر عنه... مثل هذا السلوك!...». هذا ما كتبته بالحرف: «السلوك»! هي أيضاً حاقدة عليه شخصياً بسبب ما وقع. هذا أنتم! انتظر!
قال راكيتين ذلك، ثم صاح فجأة وقد توقف عن السير، وأمسك أليوشا من كتفه فأوقفه أيضاً، وحدق إليه بعينين متفرستين:
- هل تعلم يا أليوشا؟
لقد استبدَّت براكيتين في تلك اللحظة فكرة جديدة انبثقت في ذهنه على حين فجأة؛ وكان واضحاً رغم هيئته الضاحكة أنه ما زال لا يجرؤ أن يعبر عنها من فرط ما يصعب عليه أن يصدق ما كان عليه أليوشا من حالة نفسية هي في نظر راكيتين خارقة غير متوقعة.
وعزم أمره أخيراً فقال بصوت متردد:
- هل تعلم يا أليوشا أين يجب علينا أن نذهب كلانا أولاً؟
- نذهب إلى حيث تشاء. يستوي عندي كل شيء.
فقال راكيتين وهو يرتجف في لهفة وخشية:
- لنذهب إلى جروشنكا إذا أردت ! هل توافق؟
فأجاب أليوشا هادئاً بغير تردد:
- لنذهب إلى جروشنكا؟
كاد راكيتين أن يثب إلى وراء من فرط ما بدت له هذه الموافقة السريعة الهادئة مستغربة. وصاح يقول مذهولاً:
- هكذا؟ عظيم!
ولكنه لم يلبث أن تاب إلى نفسه فأمسك أليوشا من ذراعه بقوة، وأسرع يجره على الممر الضيق، خشية أن يتراجع أليوشا عن قراره. وسارا صامتين، لأن راكيتين يتحاشى الآن أن يفتح فمه مخافة أن يعكر ما كان عليه اليوشا من حسن الاستعداد والقبول. غير أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يدمدم بعد لحظة قائلاً:
- ما أعظم ما ستشعر به جروشنكا من سرور برؤيتك! أوه! لسوف تكون سعيدة!
ولكنه سرعان ما صمت.
على أن راكيتين كان يجذب أليوشا إلى منزل جروشنكا ليس ليسرّها. إن راكيتين رجل جاد، فهو لا يحاول أمرة من الأمور دون أن يرى فيه نفعاً له. ولقد كان في تلك اللحظة يخضع لباعثين اثنين. فأما الباعث الأول فهو أنه يحب أن ينتقم: «إنه يريد أن يشهد تدنس الرجل الصالح»، إنه يريد أن يرى «سقوط» أليوشا من «القداسة إلى الاثم»، وذلك أمر كان راكيتين يتلذذ به منذ الآن. وأما الباعث الثاني فهو هدف مادي سيحقق له ربحاً كبيراً، وسنأتي على ذكره فيما بعد.
قال راكيتين في سره وهو يشعر بفرح خبيث: «إذن لقد جاءت دقيقة كهذه الدقيقة في حياته. ويجب أن لا تفوت هذه الدقيقة» لأنها تعدنا بمنافع كثيرة.

-3-البصلة

تقيم جروشنكا في قلب المدينة المزدحم قرب «ميدان الكنيسة» في منزل موروزوفا، وهي أرملة تاجر أجّرت جروشنكا جناحاً غير كبير مبنياً من خشب في فناء منزلها؛ والمنزل القديم من حجر، وهو واسع ذو طابقين، لكنه متسخ وليس في مظهره ما يلفت. وصاحبته العجوز تعيش فيه وحيدة مع قريبتين لها طاعنتين في السن هما أيضاً؛ وهي تملك من الثراء ما كان يمكن أن يعفيها من تأجير جناح الفناء، والناس في المدينة يعلمون جميعاً أنها لم تقبل سكنى جروشنكا في جناحها (منذ أربع سنين) إلا إرضاءً لقريبها التاجر سامسونوف الذي لا يخفي رعايته لجروشنكا. والناس في المدينة يؤكدون أن العجوز الغيور على الشابة، إنما أراد في أول الأمر حين أسكن أثيرته في منزل موروزوفا، أن يجعلها تحت إشراف العجوز اليقظة التي كلفها بأن تراقب سلوكها. ولكن سرعان ما ظهر أن هذا السلوك ليس في حاجة إلى أن يراقب، وقد أصبحت العجوز آخر الأمر لا تهتم بجروشنكا، ولا تراها إلا نادراً، ولا تزعجها، كما كانت تفعل، بالسؤال تلو السؤال من باب البحث والتقصّي. لقد انقضت الآن أربع سنين على اليوم الذي جاء فيه التاجر العجوز إلى هذا المنزل بالصبية الخجول التي لا يزيد عمرها على ثمانية عشر عاماً، والتي لقيها في مركز الإقليم وكانت عندئذٍ نحيلة الجسم ضعيفة البنية كثيرة الوجوم حزينة النفس. إن مياهاً كثيرة قد جرت منذ ذلك اليوم. وكان الناس في مدينتنا لا يعرفون إلا أشياء قليلة عن ماضي الفتاة، وأن ما يرددونه من معلومات عنها تعوزه الدقة والوضوح، ولم تزدد هذه المعلومات بعد ذلك كثيراً، حتى في الآونة الأخيرة التي أصبح فيها أمر «الحسناء الرائعة» التي تحولت إليها أجرافينا الكسندروفنا خلال أربع سنين، يهم عددا كبيرة من الأشخاص عندنا. كان يقال إن ضابطاً مجهولاً قد أغراها وأغواها في السنة السابعة عشرة من عمرها، ثم لم يلبث أن هجرها وسافر وتزوج غيرها، فتركت الصبية الشقية للعار والبؤس. وكان يُزعم أيضاً أن جروشنكا، رغم أن التاجر العجوز يعيلها، فهي تنتمي إلى أسرة محترمة من رجال الدين، وأنها بنت شماس، أو كانت تقال أشياء من هذا القبيل. المهم أن اليتيمة الحسّاسة المذلّة المسكينة قد استحالت في غضون أربع سنين إلى حسناء روسية بضة الجسم، حمراء الخدين، جريئة جسور، لا تخلو من كبرياء ووقاحة، تعرف قيمة المال، شرهة إليه، بخيلة حذرة في آن واحد. وكان يقال أيضاً إنها استطاعت خلال هذه المدة القصيرة أن تجمع رأس مالاً صغيراً، بوسائل ليست شريفة دائماً. على أن هناك أمراً يجمع الناس عليه: هو أن جروشنكا امرأة يستحيل نيلها، فما من رجل واحد باستثناء حاميها العجوز، استطاع أن يتباهي بأنه حظي منها بشيء خلال تلك السنين الأربع. والأمر محقق لا ريب فيه، ذلك أن رجالاً كثيرين قد سعوا إلى الحظوة بنعمها، ولا سيما في السنتين الأخيرتين، فلم يظفر أحد منهم بطائل. وباءت جميع محاولاتهم بالإخفاق، حتى إن بعضهم قد اضطر إلى الانسحاب وهو موضع هزء وتهكم بسبب ما تتصف به الشابة من عزيمة صلبة وروح ساخرة. وقد عُرف أيضاً أنها أصبحت تهتم بالأعمال، ولا سيما منذ سنة، وأنها تبذل فيها مقدرات كبيرة وتبرهن فيها على كفاءات عظيمة، حتى إن كثيراً من الناس أصبحوا يصفونها بقولهم: «يهودية». ليس معنى هذا أنها كانت تقرض بالربا، ولكن عُرف مثلاً أنها كانت تشتري بالاشتراك مع فيدور بافلوفتش كارامازوف سندات قديمة بعشر قيمتها ثم تتوصل بعد ذلك إلى تحصيل قيمتها كاملة، أي تتقاضى مبالغ تساوي عشرة أضعاف ما دفعت. وكان العجوز سامسونوف الذي تورمت ساقاه وأصبحتا عاجزين عن الحركة منذ عام، رجلاً أرمل يضطهد أبناءها الراشدين ويسومهم سوء العذاب، ولكنه يملك عدة مئات من ألوف الروبلات؛ ومع ما ينصف به من بخل وقسوة لا ترحم، فقد وقع تحت تأثير الفتاة التي كان لا يمنّ عليها في أول الأمر إلا بما «يسدّ الرمق» أو بما يوجبه «الصيام الكبير» على حد تعبير الساخرين المستهزئين، إلى أن استطاعت جروشنكا أن تتحرر، ولا سيما بفضل ما أوحته إليه من ثقة عظيمة بوفائها له. إن هذا العجوز، وهو رجل من كبار رجال الأعمال (ولقد توفي منذ زمن طويل) كان له طبع خاص أهمُ ملامحه البخل والقسوة الشديدة. فرغم ما كان لجروشنكا من تأثير كبير عليه - حتى أصبح لا يستطيع الاستغناء عنها في غضون السنتين الأخيرتين - فإنه لم يترك لها مالاً كثيراً؛ ولولا قد هددته جروشنكا بالقطيعة لما تزحزح عن موقفه في هذا المجال. على أنه قد أعطاها أثناء حياته مبلغاً غير كبير من المال، فلما علم الناس في المدينة بذلك دهشوا جميعاً. قال لها وهو يعطيها ثمانية آلاف روبل: «أنت امرأة ذكية، فسوف تعرفين كيف تربين هذا المبلغ باستثماره. ولكن اعلمي أنني، عدا ما أنفقه عليك لإعالتك التي سأستمر في تأمينها، لن أعطيك شيئا أثناء حياتي، ولن أوصي لك بشيء في وصيتي بعد مماتي». وقد تمسك الرجل بقوله: مات تاركاً كل ثروته لأبنائه الذين عاملهم أثناء حياته، هم وزوجاتهم وأولادهم، معاملة الخدم. أما جروشنكا فقد أبي حتى إن يأتي على ذكرها في وصيته. هذه التفاصيل كلها قد عُرفت فيما بعد. ولكن الرجل قد ساعد جروشنكا في مقابل ذلك بنصائحه في استثمار «رأس مالها الشخصي الصغير»، ودلّها مراراً على أعمال رابحة وصفقات نافعة. فلما تعرف فيدور بافلوفتش على جروشنكا بمناسبة صفقة طارئة، ولما انتهى به الأمر على نحو لم يكن في حسبانه هو نفسه إلى الهيام بها هياماً أفقده كل عقله تقريباً، فإن العجوز سامسونوف الذي كان مريضاً جداً وكان يشارف على نهايته، لم يزد على أن ضحك من ذلك. إن من الأمور البارزة أن جروشنكا كانت صريحة مع العجوز صراحة تامة طوال مدة العلاقة بينهما؛ ويبدو أن العجوز كان هو الإنسان الوحيد الذي تعامله جروشنكا هذه المعاملة وتصارحه هذه المصارحة. ولكن حين توله دمتري فيدوروفيتش آخر الأمر هو أيضاً بجروشنكا انقطع حاميها العجوز عن الضحك؛ بل لقد نبّه المرأة الشابة ناصحاً محذراً، فقال لها بلهجة جادة قاسية: «إذا كان عليك أن تختاري بين الاثنين، الأب وابنه، فاختاري الأب، ولكن على شرط أن يتعهد الوغد العجوز بزواجك وأن يهب لك مبلغاً مناسباً قبل الزواج. أما النقيب فدعيه، فلا فائدة منه». بهذا خاطب العجوز المحب لملذات الحياة صاحبته جروشنكا بينما كان يحسّ بقرب نهايته، ولقد مات فعلاً بعد ذلك بخمسة أشهر، ولنذكر عابرين أن أحداً من الناس لم يكن يعرف على وجه الدقة ماذا كان موقف جروشنكا من كارامازوف الأب وكارامازوف الابن، رغم أن أشخاصاً كثيرين كانوا في ذلك الوقت على علم بالمنافسة الغريبة الفظيعة بين الأب وابنه على الفوز بحظوة المرأة الشابة. أما خادمتا جروشنكا فقد شهدتا في الدعوى (بعد الكارثة التي سنتحدث عنها فيما بعد) أن آجرافينا ألكسندروفنا لم تكن تستقبل دمتري فيدوروفتش إلا خوفاً، لأنه كان قد «هدد بقتلها». إن لجروشنكا خادمتين: إحداهما طباخة هرمة جداً كانت في الماضي تخدم أسرتها وهي الآن مريضة وتكاد تكون صماء، والثانية فتاة لطيفة في العشرين من عمرها كانت بمثابة وصيفة لها، وهي حفيدة الطباخة العجوز. وكانت جروشنكا تعيش حياة فقيرة في مسكن بسيط متواضع جداً. إنها تشغل في الجناح ثلاث غرف أثاثها قديم من الخشب الماهوجني، استأجرته جروشنكا من مالكة المنزل أيضاً، وهو من طراز أثاث عام 1820. حين وصل راكيتين وأليوشا إلى مسكن جروشنكا كان الظلام قد خيّم، ولكن الغرف لم تشعل فيها الأضواء بعد. كانت جروشنكا مضطجعة في الصالون على أريكة كبيرة ثقيلة لها مسند من خشب الماهوجني، قد غُطيت بجلد صلب، نال منها الزمن فاهترأت وتثقّبت في عدة مواضع. إن المرأة الشابة مسندة رأسها على وسادتين بيضاوين وثيرتين أخذتهما من سريرها؛ مستلقية على ظهرها، ساكنة، جاعلة ذرعيها تحت رأسها، مرتدية ثوبا من حرير أسود - كأنها تنتظر زيارة أحد - ملفعة شعرها بقبّعة رائعة من تخريم تليق بها جداً، ملقية على كتفيها وشاحاً من تخريم أيضاً قد ثبتته بدبوس حلية كبيرة من ذهب. واضح أنها كانت تنتظر أحداً، لأن وضعها كان يدل على نفاد صبر واكتئاب. وكان وجهها يبدو شاحباً، وكانت عيناها تسطعان، وكانت شفتاها تحترقان، بينما كان طرف قدمها اليمنى يلطم ذراع الأريكة لطماً موقعاً ينم عن تململ الانتظار. فما إن دخل أليوشا وراكيتين مسكنها حتى استولى عليها اضطراب شديد. لقد سمعاها، وهما في الممشى، تثب عن أريكتها وتقف على قدميها وتصيح بلهجة فيها ذعر وهلع:

- من هنا؟

وها هي ذي الخادمة الشابة التي فتحت لهما الباب تقول لسيدتها على الفور:

- ليس هو. هما شخصان آخران.

دمدم راكيتين يقول وهو يمسك أليوشا من ذراعيه ليقوده إلى الصالون:

- ماذا دهاها؟

كانت جروشنكا واقفة قرب الأريكة وهي ما تزال مذعورة بعض الشيء. إن ضفيرة كثيفة من شعرها الكستنائي قد خرجت من تحت قبعتها وتهدلت على كتفها اليمنى، ولكن جروشنكا لم تنتبه إليها أول الأمر ولم ترفعها إلا بعد أن تفرست في القادمين وعرفتهما.

قالت جروشنكا:

- هه! أهذا أنت يا راكيتا؟ لقد روعتني! ومن هذا الذي جئتني به؟ يا لها من مفاجأة!

كذلك صاحت جروشنكا حين عرفت أليوشا.

قال راكيتين وهو يصطنع هيئة منطلقة حرة، هيئة رجل يشعر أن بينه وبين ربة المنزل من الحميمية ما يجيز له أن يصدر الأوامر نيابة عنها:

- هلا أمرت بإشعال الشموع.

- طبعاً، طبعاً... الشموع.... الشموع! فينيا[172]، ائته بشمعة!... لقد اخترت اللحظة المناسبة لتجيئني به!

كذلك هتفت تقول جروشنكا مرة أخرى وهي تومئ برأسها إلى أليوشا. ثم التفتت نحو المرآة، فتناولت الضفيرة المتهدلة بكلتا يديها، وأسرعت تثبتها على رأسها.

كان يبدو عليها أنها غير راضية. قال راكيتين مستاء:

- لعلني جئت في غير الأوان المناسب؟
فقالت جروشنكا وهي تبتسم لأليوشا:
- كلا... ولكنك روّعتني يا راكيتا، هذا كل شيء. لا تخف مني يا عزيزي الطيب أليوشا. ليتك تعرف مدى سعادتي برؤيتك، أنا التي لم أكن أتوقع مجيئك. أما أنت يا راكيتا فقد روعتني منذ هنيهة، لأنني ظننت أن مبنيا هو الذي كان يريد أن يقتحم بابي. لقد خدعته في هذا المساء، وأجبرته على أن يحلف لي بأنه يصدقني، بينما كنت أكذب عليه. ذلك أنني زعمت له أنني سأقضي السهرة كلها عند عجوزي كوزما كوزمتش أساعده في إجراء حساباته إلى ساعة متأخرة من الليل. إنه يعلم أنني أذهب إلى كوزما كوزمتش مرة كل أسبوع التنظيم دفاتره، نغلق علينا باب الغرفة، فيأخذ هو بإجراء عمليات الجمع مستعينة بعداد، وأخذ أنا بتسجيل ما يمليه عليّ من أرقام، لأنني الإنسان الوحيد الذي يوليه ثقته. إن ميتيا يعتقد بأنني الآن عند العجوز، على حين أنني قابعة هنا في انتظار رسالة. كيف سمحت لكم فينيا بالدخول! فينيا! فينيا! أسرعي إلى الباب الكبير، وألقي نظرة على الخارج لتتأكدي من أن النقيب لا يحوم حول المنزل. جائز أن يكون قد اختبأ ليتجسس علي. إني أخاف منه خوفاً قاتلاً!
- ليس هناك أحد يا أجرافينا الكسندروفنا، فلقد درت حول المنزل منذ لحظة، وأنا أنظر من شق الباب من حين إلى حين، لأني أرتعد من الخوف أنا أيضاً.
- هل درف النوافذ مغلقة يا فينيا؟ يجب إسدال الستائر هكذا (قالت هذا وأسدلت الستائر الكثيفة بنفسها) وإلا سيقتحم مسكني حين يلاحظ نورة في النوافذ. أنني خائفة من أخيك خوفاً رهيباً في هذا اليوم يا أليوشا.
كانت جروشنكا تتكلم بصوت عال رغم قلقها وخوفها، وكان يلاحظ فيها شيء من حماسة.
سألها راكيتين:
- لماذا تخافين ميتيا كل هذا الخوف في هذا المساء؟ ما عهدتك وجلة معه، فإنما أنت تسيّرينه بعصا في العادة.
- قلت لك إنني أنتظر رسالة، رسالة ثمينة، فما ينبغي أن يجيء ميتيا الآن. ثم إنه لم يصدقني حين زعمت له إنني ذاهبة إلى كوزما كوزمتش، لقد أحسست بذلك. لا بد أنه أختبأ في مكان ما في حديقة فيدور بافلوفتش ليترصدني. فهو في هذه الحالة لن يجيء إلى هنا. هذا أفضل. أما كوزما كوزمتش فقد ذهبت إليه فعلاً، وقد رافقني مبنيا حتى باب منزله، وزعمت له أنني سأبقى هناك إلى نصف الليل، ورجوته ملحة أن يجيء ليصحبني في العودة إلى بيتي. عندئذٍ تركني، فمكثت عند العجوز عشر دقائق، ثم رجعت إلى البيت راكضة. أوف! ما أشد ما كنت أخشى أن ألقاه في الطريق!
- لأي مناسبة تزينت هذه الزينة كلها! إنها لقبعة رائعة هذه القبعة
التي أرى...
- ما أشد فضولك يا راكيتا! قلت لك إنني أنتظر رسالة، فمتى وصلت الرسالة أسرعت أخرج لأطير من هنا فما يؤخرني أحد منكم. لقد تزينت استعداداً للحظة المناسبة.
- إلى أين تطيرين؟
- تحب أن تعلم ذلك؟ الإكثار من العلم ضرر يا عزيزي !
- ياه! أنت فرحة جداً. ما رأيتك على هذه الحال في يوم من الأيام. لقد تجملّت وتزينَت كأنها ذاهبة إلى حفلة رقص !
كذلك قال راكيتين وهو ينظر إلى جروشنكا. قالت له:
- ماذا تعرف أنت عن حفلات الرقص؟
- وأنت؟ هل تعرفين عنها أكثر مما أعرف؟
- أنا؟ شهدت حفلة رقص مرة واحدة في حياتي. حدث ذلك منذ ثلاث سنين، حين زوّج كوزما كوزمتش ابنه. كنت أشاهد الحفلة من أعلى الشرفة. على أنني لن ألهو بمناقشتك يا راكيتا بينما عندي ضيف نادر هذه الندرة، ضيف هو أمير حقاً! يا أليوشا، يا ملاكي الصغير إنني لا أصدق عينيّ! كيف أمكن أن يجيء إلى بيتي؟ الحق إنني لم أتوقع ولا كنت أحلم أن أراك في منزلي ! لم أصدق في يوم من الأيام أن من الممكن أن تجيئني، أعترف لك بذلك ! صحيح إن هذه اللحظة ليست مناسبة، ومع ذلك فأنا سعيدة كل السعادة برؤيتك! اجلس على هذه الأريكة... يا عزيزي، يا شمساً مضيئة! إنني مذهولة... ليتك قد خطر ببالك يا راكيتا أن تجيئني به أمس، أو أمس الأول.. لا بأس على كل حال... أنا سعيدة رغم كل شيء!... بل ربما كان مجيئه اليوم، في مثل هذه اللحظة، خيرة من المجيء أول أمس...
جلست جروشنكا على الأريكة قرب أليوشا بخفة ونشاط وحرارة وأخذت تنظر إليه في نشوة ووجد. كانت تشعر حقا بسعادة لرؤيته، ولم تكذب حين أكدت له ذلك. كانت عيناها تسطعان، وكانت تضحك، ولكن بمرح فيه كثير من اللطف والكياسة. لم يكن اليوشا يتوقع أن يرى في وجهها مثل هذا التعبير عن الطيبة... إنه لم يرها حتى الأمس إلا نادراً، وكان رأيه فيها رأياً فظيعاً. كانت ثورتها المتوحشة على كاترينا إيفانوفنا بالأمس قد هزت كيانه من الأساس، لذلك أدهشه الآن أشد الدهشة أن يرى فيها إنساناً مختلفاً كل الاختلاف. إنه رغم الحزن الشديد الذي يرهقه لم يستطع أن يمنع نفسه عن التحديق إلى المرأة الشابة والتفرس فيها. كانت حركاتها وآدابها قد تغيرت عما كانت عليه بالأمس وتحسنت تحسناً ملحوظاً: ليس في صوتها الآن تلك النبرات المفرطة في اللطف المنافق، كما كانت حركاتها خالية من التكلف وأصبحت الآن سريعة بسيطة مباشرة واثقة. هي الآن تشع طيبة، وتنطلق على سجيتها رغم ما يبدو من أنها مضطربة اضطراباً شديداً.
قالت مدمدمة:
- رباه ! يا لها من عجائب في يوم واحد! إنني أتساءل يا أليوشا لماذا أنا سعيدة برؤيتك هذه السعادة كلها؟ أؤكد لك إنني أجهل أنا نفسي سبب هذه السعادة.
قال راكيتين وهو يبتسم ابتسامة صغيرة:
- أأنت تجهلينه إلى هذا الحد من الجهل؟ لقد خرقت أذنيّ من طول ما سألتني ملحّة أن آتي به إليك، فلا بد أن يكون لك في ذلك هدف.
- كان لي هدف حقاً، ولكن لم يبق لي هدف الآن. فات الأوان فلأقدم إليكما شيئاً من الطعام والشراب. لقد أصبحت طيبة يا راكيتا، هل تعلم ذلك؟ هلا جلست يا راكيتا؟ لماذا تظل واقفاً؟ ها... أأنت جلست إذاً؟ لا خوف على راكيتا من أن ينسى نفسه! ها هوذا قد اتخذ له مكاناً في قبالتنا يا أليوشا، مستاء من أنني لم أدعه إلى الجلوس قبل أن أدعوك أنت. إنه سريع التأذي. - هذا ما أضافته ضاحكة. - لا تزعل يا راكيتا؟ أنا اليوم طيبة جداً! ولكن أنت يا صغيري أليوشا، لماذا تبدو حزيناً هذا الحزن كله؟ ألعلك خائف مني؟
قالت له ذلك ونظرت في عينيه وهي تبتسم ابتسامة لاهية.
قال راكيتين بصوت أجش:
- هو حزين لأنه أُغفل في الترقيات.
- أي ترقيات؟
- انتشرت من شيخه رائحة تفسخ.
- انتشرت رائحة تفسخ؟ ما هذه السخافات التي تقولها؟ لا شك أنك تريد أن تقول حقارة ما. أنت تغمز وتلمز أنا أعرفك اسكت أيها الأبله!
ثم قالت لأليوشا:
- هل تسمح لي يا أليوشا بأن أقعد على ركبتيك.. هكذا؟ قالت ذلك ثم قعدت على ركبتيه بوثبة واحدة وهي تضحك وتلامسه ملامسة رقيقة كقطة صغيرة. ثم أحاطت عنقه بذراعها اليمنى في عطف وحنان. وأردفت تقول:
- سأعرف كيف أدخل البهجة إلى قلبك يا فتاي الصغير التقي. حقاً... هل تسمح لي بأن أبقى على ركبتيك؟ ألا تغضب؟ إذا شئت قمتُ.
صمت أليوشا ولم يجرؤ أن يتحرك. لقد سمع قولها: «إذا شئت قمتُ»، ولكنه لم يجب وشعر كأنه مشلول. ومع ذلك لم يحسّ بما يمكن أن يتخيله رجل مثل راكيتين الذي كان يتأمله بشهوة. إن الألم العميق الذي يملأ قلبه قد جمّد أحاسيسه، ولو كان يستطيع أن يرى ما بنفسه رؤية واضحة لأدرك أنه كان في تلك اللحظة محصناً تحصيناً قوياً من جميع الفتن وجميع الإغراءات الممكنة. ومع ذلك، رغم ذهوله عن حاله ورغم الألم الذي كان يرهقه، فقد أدهشه شعور جديد غريب نبت في نفسه: وهو أن هذه المرأة، هذه المرأة «الرهيبة» لا تخيفه الآن كما كانت تخيفه من قبل، ولا تبعث في نفسه ذلك الذعر الذي كان يحسه حتى ذلك الحين متى خطرت بباله المرأة! ونادراً ما كانت المرأة تخطر بباله. بل إن ما يحدث الآن هو عكس ذلك تماماً: إن هذه المرأة الشابة التي كان يخشاها أكثر مما يخشى سائر النساء، والتي تحيطه بذراعيها جالسة على ركبتيه، توقظ في نفسه شعوراً مختلفاً عن ذلك الشعور كل الاختلاف، شعوراً فريداً غير متوقع، شعوراً هو استطلاع قوي خاص صادق، إنه لا يشعر بأي خوف، لا يشعر بأي أثر من آثار جزعه الماضي، وهذا أهم شيء كان يدهشه بالرغم منه.
هتف راكيتين يقول:

- كفاك كلاماً في ترهات. خير من هذا أن تسقينا شيئاً من الشمبانيا. لقد وعدتني بذلك، هل تتذكرين؟
- صحيح. وعدتك بذلك. لقد قطعت له على نفسي عهداً يا أليوشا لاسقينَّه شمبانيا يوم يجيئني بك. هل تفهم؟ هذا علاوة على شيء آخر. هلموا بنا، سأشرب أنا نفسي شمبانيا. فينيا، فينيا، هاتينا بتلك الزجاجة التي تركها ميتيا، اسرعي! سأسقيكم شمبانيا مهما أكن بخيلة! ما هذا من أجلك، يا راكيتا، فما أنت إلا خيارة فاسدة، بل من أجله هو، من أجل أميري! سأشرب معكما، رغم أن فكري في مكان آخر. أريد أن أقصف!
عاد راكيتين يسألها مستطلعاً ملحاً، وهو يبذل جهداً كبيراً في سبيل أن يظهر بمظهر من لا يلاحظ السخريات التي تصبها عليه:
- ما هذه اللحظة المهمة لك؟ ما هذه الرسالة التي تنتظرينها؟ هل الأمر سر؟
فقالت جروشنكا وقد عاودها قلقها فجأة:
- ليس الأمر سراً، ثم إنك على علم به.
وأدارت رأسها نحو راكيتين وابتعدت قليلاً عن أليوشا مع بقائها قاعدة على ركبتيه محيطة بذراعها عنقه، وقالت:
- سيصل ضابطي يا راكيتين، ضابطي الجميل في الطريق إلى هنا!
- أعرف أنه سيصل، ولكنني كنت أظن أنه ما يزال بعيداً.
- هو الآن في موكرويه، وسيبعث إلي من هناك رسولاً. ذكر لي ذلك في رسالة تلقيتها منذ حين. فأنا أنتظر الآن هذا الرسول.
- غريب! لماذا في موكرويه؟
- شرح هذا يطول. يكفيك الآن ما علمت.
- وميتيا هل يعلم بالأمر؟
- لا يعلمه طبعاً. ولا يشتبه في شيء لو علم لقتلني. ولكنني أصبحت لا أخاف منه. إنني لا أعبا بخنجره. اسكت يا راكيتا. لا تحدثني بعد الآن عن دمتري فيدوروفتش. لقد أساء إليّ كثيراً أو جعل قلبي يتألم. لا أحب الآن أن أفكر في هذه الأشياء. أحبّ أن أفكر في أليوشا، أريد أن أنظر إليه... ابتسم لي يا ملاكي، كن أكثر فرحاً، شاركني سعادتي، ابتسم لما قلت من سخافات... آ... ها هو ذا يبتسم أخيراً... لقد ابتسم لي! ما أجمل هذه الوداعة في نظرته. هل تعلم يا أليوشا؟ لقد كنت أعتقد أنك سوف تزعل مني بسبب تلك القصة التي حدثت في ذلك اليوم عند الآنسة. لقد تصرفت نحوها تصرف وحش خبيث! هذا صحيح. ولكنني مسرورة رغم كل شيء بما حدث. كان هذا سيئاً من جهة حسناً من جهة ثانية.
- ابتسمت جروشنكا مفكرة ثم وجمت على حين فجأة وطاف بابتسامتها شيء من القسوة - روي لي ميتيا كيف صرخت تقول بعد انصرافي: «هذه البنت تستحق أن تجلد على مرأى من الناس». لقد اسأت إليها كثيراً. هي استدعتني وأرادت أن تسيطر عليّ. كانت تظن أنها ستغريني بفنجان من الشوكولاته... لا... لا... حسن ما حدث. كل ما أخشاه هو أن تكون أنت قد زعلت مني...
بهذا اختمتت كلامها وهي تضحك ضحكة خفيفة.
قال راكيتين مدهوشاً دهشة عميقة:
- يبدو أنها تخشى رأيك حقاً يا أليوشا! إنها تخاف منك، من فرخ مثلك!
- هو في نظرك فرخ لأنك... لا ضمير لك! أما أنا فأحبه بكل نفسي هل فهمت؟ هل تصدقني يا أليوشا إذا قلت لك إني أحبك بكل نفسي صادقة مخلصة؟
- يا للخلاعة! هذا تصريح بحب يا أليوشا، تصريح بحبّك أنت!
- لم لا يكون كذلك ما دمت أحبه؟
- وصاحبك الضابط؟ والرسالة الثمينة من موكرويه؟
- هذان أمران مختلفان.
- ذلك ما تقوله النساء دائما في مثل هذه الحالة.
أجابته جروشنكا بقوة وحرارة:
- لا تحنقني يا راكيتا. هذان أمران مختلفان. أنا أحبّ أليوشا حباً آخر. صحيح أنني قد رسمت خططاً شريرة بشأنك يا أليوشا، لأنني منحطة عنيفة قاسية. ولكنني كنت في لحظات أخرى أعدك بمثابة ضمير لي، وكثيراً ما كنت أحدث نفسي قائلة: «لا بد أنه يحتقرني بسبب سلوكي». وقد قلت لنفسي هذا الكلام أمس الأول حين رجعت من عند الآنسة. لقد لاحظتك منذ زمن طويل يا أليوشا. إن ميتيا يعلم هذا. لقد ذكرت ذلك له. وهو يفهمني. هل تصدق يا أليوشا أنه يتفق لي أحياناً حين أنظر إليك أن أشعر بالخجل فجأة، بالخجل من نفسي... فلا أدري في الواقع ولا أتذكر لماذا بدأت أفكر فيك ومنذ متى...
دخلت فينيا في تلك اللحظة، ووضعت على المائدة صينية عليها زجاجة شمبانيا مفتوحة وثلاث كؤوس ملأى.
هتف راكيتين يقول:
- وصلت الشمبانيا! أنت مهتاجة كثيراً يا أجرافينا ألسكندروفنا، حتى أصبحت لا تسيطرين على نفسك. ومتى أفرغت هذه الكأس فسوف ترقصين، ترالالا! - أضاف قائلا وهو يتفرس في الشمبانيا - أوف! إن الشمبانيا لم تقدم وفقا للأصول. إن الزجاجة فاترة والسدادة منزوعة، والخادم العجوز قد ملأت الكؤوس في المطبخ. لا بأس... سنشربها على كل حال.
واقترب راكيتين من المائدة، فتناول كأساً، وافرغها في جوفه دفعة واحدة ثم ملأها من جديد، وقال وهو يمر على شفتيه بلسانه:
- لا يتمتع المرء بالشمبانيا كل يوم. جاء دورك يا أليوشا. ألا فلنر مقدرتك! أي نخب نشرب؟ ربما نخب أبواب الجنة؟ تناولي هذه الكأس يا جروشا واشربي معنا نخب أبواب الجنة !
- أبواب الجنة؟ ماذا تعني؟
وتناولت جروشنكا كأساً، وكذلك فعل أليوشا فجرع جرعة ووضع الكأس على المائدة وقال مبتسم ابتسامة عذبة:
- أؤثر أن لا أشرب.
فصاح راكيتين قائلاً:
- فماذا كان تباهيك إذاً؟
وقالت جروشنكا:
- لن أشرب أنا إذاً. ثم إنني ليست بي رغبة في الشراب. تستطيع أن تفرغ الزجاجة وحدك إذا شئت يا راكيتا. وإذا قرر أليوشا أن يشرب شربت أنا أيضاً.
قال راكيتين ساخراً:
- يا للعواطف الرقيقة! بينما ما تزالين تجلسين على ركبتيه. إن له هو عذراً على الأقل، فقد حلت به مصيبة، فهو حزين النفس أما أنت فأي عذر يمكن أن تنتحلي؟ لقد تمرد هو على إلهه وأراد أن يأكل مقانق.
- ماذا وقع له؟
- مات شيخه هذه الليلة... الأب زوسيما... ذلك القديس.
- ماذا؟ الشيخ زوسيما مات؟ رباه! لم أكن أعرف ذلك؟
قالت جروشنكا هذا صائحة، ورسمت على نفسها إشارة الصليب بتقي وورع. وأردفت تقول منفعلة على حين فجأة كالمذعورة:
- آه... يا رب! وأجلس على ركبتيه في مثل هذا اليوم؟
ثم أسرعت تنهض، ومضت تجلس على الأريكة. حدّق إليها أليوشا بنظرة طويلة دهشة، وانبسطت أسارير وجهه قليلاً، وقال يخاطب راكيتين بصوت قوي حازم:
- لا تضايقني بموضوع ثورتي المزعومة على الله يا راكيتين إنني لا أحبّ أن أغضب منك، ومن أجل هذا أرجوك أن تبرهن على نبل النفس أنت أيضاً. لقد فقدت كنزاً لم تملكه أنت في يوم من الأيام، لذلك لا تستطيع أن تدينني. خير لك أن تنظر إليها: هل رأيت كم دارتني ورعتني؟ لقد جئت إلى هنا لأقابل إنسانة شريرة، الألقى روحاً خبيثة، وكنت أتمنى ذلك أنا نفسي، لأنني كنت في تلك اللحظة وغداً شريراً. ثم إذا أنا ألقي أختة صادقة، جوهرة ثمينة، نفساً صافية محبة... دارت مشاعري، وأحاطتني بالرعاية. عنك أتكلم يا أجرافينا ألكسندروفنا. لقد أعدت الحياة إلى نفسي.
أخذت شفتا أليوشا تختلج وصمت مختنقاً.

قال راكيتين وهو يضحك ساخرة:
- لكأنها أنقذتك ! ألا فاعلم إذا أنها كانت تنوي أن تبلعك !
قالت جروشنكا مندفعة:
- كفي يا راكيتين. واسكتا كلاكما الآن. سأقول أنا كل شيء لا تقل شيئاً يا أليوشا، لأن أقوالك تشعرني بالخزي والخجل. أنا في الحق خبيثة لا طيبة كما تظن. أما أنت يا راكيتا فأريد أن تسكت لأنك تكذب. صحيح أنني نويت في السابق تلك النية الدنيئة وهي أن أبلعه لقمة واحدة، ولكن مع ذلك تكذب، لأن هذا قد مضى الآن... لا أريد أن أسمع صوتك يا راكيتا!
كانت جروشنكا تتكلم مضطربة اضطراباً شديداً.
قال راكيتين بصوت صافر وهو ينظر إليهما مدهوشاً:
- لقد فقدا كلاهما العقل. لكأنهما مجنونان! أتراني وقعت في مستشفى للمجانين؟ أصبحا عاطفيين، وما هي إلا لحظة حتى يطفقا باكيين.
قاطعته جروشنكا تقول:
- سوف أبكي، نعم سوف أبكي. لقد دعاني أخته، لن أنسى هذا ما حييت! اعلم يا راكيتا أنني مهما أكن شريرة، فقد وهبت بصلة.
- أي بصلة؟ حقا لقد فقدا العقل.
كان راكيتين يستغرب اندفاعاتهما الحماسية، ويحس بالإهانة، رغم أنه كان يمكن أن يدرك أن الظروف التي جمعت هذين الإنسانين قد هزّت نفسَيهما هزاً شديداً نادراً ما يقع مثله. ولكن راكيتين، السريع جداً إلى إدراك كل ما يمسه، يجد عناء في فهم عواطف الآخرين وإحساساتهم أولاً لأنه قليل الخبرة بحكم شبابه، وثانياً لأنه على جانب عظيم من الأنانية.
التفتت جروشنكا نحو أليوشا وهي تضحك ضحكة عصبية وقالت له:
- ها قد رأيت يا أليوشا أنني تباهيت أمام راكيتا بأنني قدمت بصلة. ولكنني سأتكلم معك صادقة مخلصة بغير تفاخر. الأمر أمر أسطورة: هي قصة جميلة[173] قصتها عليّ في طفولتي ماتريونا التي تعمل عندي اليوم طباخة. إليك القصة: كان هناك في الماضي امرأة عجوز شريرة جداً ؛ فلما ماتت هذه العجوز وكانت لا تملك أي فضيلة أمسكتها الشياطين وألقتها في بحيرة من نار. وعندئذٍ أخذ حارسها الملاك يفكر. تساءل: «ماذا أستطيع أن أفعل لإنقاذها؟ ألا يمكنني أن أكتشف فضيلة أذكرها عنها للرب!»، فإذا هو يتذكر حادثة جرت لهذه المرأة في حياتها، فقال للرب: «لقد انتزعت من حديقتها بصلة في ذات يوم ووهبتها لشحاذه». فقال الرب للملاك الحارس: «خذ هذه البصلة، ومدّها إلى هذه المرأة في بحيرة النار، ومرها أن تتشبث بها، ثم شدها لتخرجها من اللّهب. فإذا استطعت أن تخرجها ذهبت إلى الجنة، أما إذا تقطعت البصلة فستبقى المرأة حيث هي». أسرع الملاك إلى المرأة ومد إليها البصلة وقال لها: «تمسكي بهذه البصلة فأخرجك من النار». وأخذ يشد بحذر، وكاد يخرج المرأة من بحيرة النيران حين لاحظ المذنبون الآخرون أنه كان بسبيل انقاذها، فتمسكوا بها بغية أن يخرجوا من البحيرة معها، ولكن العجوز كانت شريرة جداً، فركلتهم بقدميها وهي تصرخ: «إنما يراد إنقاذي أنا لا إنقاذكم أنتم. هذه البصلة بصلتي أنا لا بصلتكم أنتم». فما أن نطقت العجوز بهذه الكلمات حتى تقطعت البصلة، فسقطت المرأة العجوز في البحيرة من جديد. وما تزال تحترق في النار حتى الآن. أما الملاك فقد انصرف باكياً.
إنني أحفظ هذه الأسطورة عن ظهر القلب؛ احتفظت بها لأنني شبيهة بتلك المرأة العجوز الشريرة. لقد تباهيت أمام راكيتا بأنني وهبت بصلة. أما لك أنت فأقول إنني إن كنت قد وهبت بصلة مرة في حياتي فذلك كل ما فعلته، وليست تتعدى فضيلتي هذه الحدود. فلا تمدحني إذاً يا أليوشا، ولا تظن أنني طيبة. أنا شريرة، شريرة جداً، وإنني لأمتلئ بشعور الخزي والعار حين أسمعك تكيل لي المديح. وها أنذا أعترف لك بكل شيء يا أليوشا: لقد بلغت من فرط الرغبة في أن أراك عندي أنني كنت لا أعرف ما عساي فاعلة لأحض راكيتين على أن يجيئني بك. ووعدته أخيراً بأن أعطيه خمسة وعشرين روبلاً إذا هو اصطحبك إلى منزلي. لحظة يا راكيتا!
أسرعت جروشنكا تقترب من المنضدة، ففتحت درجاً، وتناولت محفظة نقودها، وأخرجت منها ورقة بخمسة وعشرين روبلاً.
هتف راكيتين يقول مرتبكاً ارتباكاً شديداً:
- ما هذا السخف؟ كان ذلك هزلاً لا جداً!
- خذ المال يا راكيتا! أنا مدينة لك به ! لن ترفضه! لقد ألححت عليّ لأعطيك هذا المبلغ.
ورمت إليه الورقة.
قال راكيتين بصوت أجش وبدا عليه الارتباك ولكنه حاول أن يسيطر على ارتباكه وخجله:
- لن أرفضه. إنما وجد الأغبياء في هذا العالم لمصلحة الأذكياء.
قالت جروشنكا:
- والآن أسعدني بسكوتك يا راكيتا. إن ما سأقوله الآن لا يصلح لأذنيك. اجلس هناك، في الركن، ولا تقل بعد هذه اللحظة شيئاً. أنت لا تحبنا فما عليك إلا أن تلزم الصمت.
قال راكيتين بلهجة معادية دون أن يحاول إخفاء غضبه:
- وفيم أحبكما؟ ودس الورقة النقدية في جيبه، ولكنه شعر بحرج شديد أمام أليبوشا. كان يقدر أن يتقاضى مكافأته فيما بعد، على غير علم من أليوشا، فإذا بالعار الذي يشعر به الآن يجعله خبيثاً شرساً. كان قد رأى أن من الحذق حتى ذلك الحين ألا يستفز جروشنكا رغم كل السخريات التي كانت تصبها عليه. بدا واضحاً أن لها عليه سلطاناً، ولكنه بدأ يغضب الآن. قال:
- لا يحب المرء بغير باعث على الحب، فما الذي يجعلكما تستحقان حبي؟
- أحب بغير سبب، مثل أليوشا!
- من قال لك إن أليوشا يحبك؟ ماذا صنع من أجلك حتى تعامليه هذه المعاملة؟
كانت جروشنكا في وسط الغرفة، وكانت تتكلم متحمسة بصوت تداخله في بعض اللحظات نبرات هسترية.
- اسكت يا راكيتا! إنك لا تفهم في هذه الأمور شيئاً. ثم إني لا أريد بعد الآن أن ترفع الكلفة بيني وبينك وأن تخاطبني بصيغة المفرد. إني أمنعك أن تفعل هذا في المستقبل. من أجاز لك أن ترفع الكلفة إلى هذه الدرجة؟ ابق في ركنك واسكت، لأنني أعدك بمثابة خادم لي. والآن يا أليوشا، سأقول لك الحقيقة كاملة، لتعلم إنني إنسانة شريرة سيئة! لك إنما أعترف هذا الاعتراف، لا لراكيتا! لقد أردت ضياعك يا أليوشا، أقول لك هذا لأنه هو الحقيقة بعينها؟ ولقد تصورت لهذا الأمر خطة راسخة، وكنت أبلغ من شدة الحرص عليه أنني حرضت راكيتا بالمال على أن يجيئني بك. ما هو السبب الذي دفعني إلى أن أريد ضياعك؟ إنك لم تلاحظ شيئاً، ولم يخطر ببالك شيء، وكنت تشيح بوجهك عني. كنت إذا لقيتني تغض طرفك. أما أنا فقد نظرت إليك أكثر من مائة مرة، وسألت كل من أعرفه عنك. انطبعت ملامح وجهك في قلبي. كنت أقول لنفسي:
«إنه يحتقرني. إنه يأبى حتى إن يرفع عينيه إليّ». وشعرت من ذلك بغيظ بلغ من فرط القوة أنني دهشت أنا نفسي. قلت:«لماذا الخوف من هذا الصبي الغر؟ لأكلنه لقمة واحدة، ولأضحكن بعد ذلك كثيراً». إن نوعا من الحنق المسعور قد اضطرم في نفسي غضبة منك وحقداً عليك. صدقني، لا يستطيع أحد أن يأخذ علي شيئاً في هذه المدينة، لن يجرؤ أحد أن يشتبه في أجرافينا ألكسندروفنا فيسيء فيها الظن إذا هي استقبلت رجلاً في بيتها. ليس في حياتي إلا ذلك العجوز الذي ارتبطت به وبعته نفسي. لقد جمع الشيطان بيننا. غير أن ذلك العجوز هو الرجل الوحيد الذي حظي بي. ومع ذلك كنت مستعدة لأن أشذ عن هذه القاعدة من أجلك. كنت أتهيأ لأن أبلعك، لأستطيع أن أضحك ما شئت أن أضحك بعد ذلك. فانظر مدى ما أتصف به من خبث وشر أنا التي دعوتني أختك. وهذا صاحبي الذي غشني وأغواني يبلغني أنه قادم، وأنا أنتظر رسالة منه. هل تعلم ماذا كان هذا الرجل في حياتي؟ لقد جاء بي كوزما إلى هنا منذ خمس سنين. كنت أعيش في أول الأمر هاربة من الناس أخشى أن يراني أحد وأن يسمعني أحد. كنت هزيلة الجسم غبية العقل، وكنت لا أكف عن البكاء في ليل ولا نهار. كنت أبقى مؤرقة مسهدة ليالي برمتها أحدث نفسي قائلة:«أين هو في هذه الساعة، الرجل الذي أغواني؟ لا شك أنه يضحك علي ويسخر مني مع امرأة أخرى. آه... ليتني أستطيع أن ألقاه يوماً! ليدفعن عندئذٍ ثمن ما جنت يداه!». وكنت أبكي على وسادتي في الظلمات وأحلم بالثأر والانتقام. كنت أستثير ألمي عامدة لأملأ نفسي كرهاً وحقداً. كنت أصرخ في الليل قائلة:«لسوف يرى! لسوف يرى! ليندم على ما فعل!». ثم أدركت فجأة عجزي. وأصبحت إذا تصورت أنه يسخر مني ويضحك علي، أو إذا تصورت أنه قد نسيني نسياناً تاماً - وهكذا أبكي - أسقط عن سريري على الأرض وأظل أتدحرج منتحبة مرتجفة بكل جسمي حتى مطلع

الفجر. فإذا أشرق الصباح نهضت وأنا أشد ضراوة من كلب، نهضت وأنا مستعدة لأن أؤذي الدنيا كلها ثم أخذت أجمع المال، وأصبحت بلا رحمة، وسمنت. تعقلاً؟ ماذا تظن؟ هل تظن أني هدأت بالاً وتعقلت؟ أتغيرت نفسي؟ لا... ما من أحد يرى ما أعاني، ما من أحد في الكون بأسره يتصور ما أقاسي:ما يزال يحدث لي حتى اليوم، كما كان يحدث لي منذ خمس سنين، حين كنت صبية يافعة. أشد على أسناني في سريري ليلاً، أستمر في البكاء إلى الصباح، مرددة قولي:ليدفع ثمن ما جنت يداه! هل تسمعني؟ فاحكم على الآن:لقد وصلتني منه منذ شهر رسالة أولى يبلغني فيها أنه ترمّل، وأنه يريد أن يراني، وأنه يأمل أن يصل قريباً. صعقت في الوهلة الأولى وحطمني الانفعال. ثم قلت لنفسي فجأة:«سيعود، ولن يكون عليه إلا أن يصفر حتى أهرول إليه ككلب، مجللة بالخزي، مطعونة القلب، طالبة الصفح والغفران!». وتساءلت عندئذٍ:«أأكون جبانة وطيعة إلى هذه الدرجة؟ أأرضى أن أذل نفسي هذا الإذلال؟». وقد استبد بي من الغضب على نفسي طوال هذا الشهر، من خشية أن أسقط في مثل ذلك الجبن، ما جعلني أصبح أخبث نفساً وأميل إلى الشر مما كنت كذلك خلال السنوات الخمس الماضيات. هل أدركت يا أليوشا مدى ما تتصف به نفسي من سوء وشر وعنف؟ إنني أذكر لك الحقيقة كلها. لقد اتخذت دمتري سلوى لنفسي حتى لا أركض إلى لقاء الآخر. اسكت يا راكيتا! ما أنت من يحكم علي! وما أنت من أكلم! كنت قبل وصولك يا أليوشا راقدة على الأريكة أفكر في قدري، ولن تعرف قط ما كان يجري في قلبي. قل للآنسة يا أليوشا ألا تأخذ على المشهد الذي وقع أمس الأول... ما من أحد في العالم يستطيع أن يفهم ما أعاني الآن... ما من أحد يستطيع تصور هذه الحالة النفسية ربما أحمل خنجري معي حين أذهب إلى هناك... إنني لم أعزم أمري بعد...

بعد أن أفضت جروشنكا بهذا الاعتراف الذي يرثى لها لم تستطع أن تتمالك نفسها، فإذا هي تنقطع عن الكلام، وتغطي وجهها بيديها، وتتهالك على الأريكة، وتأخذ تنتحب على الوسادة كطفل صغير. نهض أليوشا واقترب من راكيتين، وقال له:

- لا تزعل يا ميشا! لقد أهانتك ولكن ما ينبغي لك أن تغضب منها. هل سمعت قصتها الآن؟ على المرء أن يعامل النفس الإنسانية بالتسامح والرحمة، وألا يشاركها في تحمل هذا العناء وهذا العذاب...

قال أليوشا هذا الكلام باندفاعة من قلبه لا سبيل إلى مقاومتها. كان يشعر بحاجته إلى إطلاق انفعاله حراً لا يعوقه عائق؛ ولئن خاطب بهذا الكلام راكيتين، فلقد كان يمكن أن يتحدث وحيداً لو لم يكن راكيتين هناك. ولكن راكيتين ألقي عليه نظرة باردة ساخرة، فتوقف أليوشا عن الكلام. قال راكيتين وهو يبتسم ابتسامة كارهة حاقدة:

- شيخك هو الذي حشا رأسك بهذه الأفكار، فتريد أن تقدمها إليّ بدورك الآن يا أليوشا، يا راهباً صغيراً!

- لا تستهزئ يا راكيتين، دع السخريات، ولا تقل سوءاً في الشيخ الراحل! إنه خير من جميع البشر الذين عاشوا على هذه الأرض.

كذلك صاح أليوشا والدموع في صوته. ثم تابع كلامه يقول:

- لا أقول لك هذا الكلام قاضياً بل متهماً هو شر المتهمين طراً. ما أنا أمام هذه المرأة؟ لقد جئت إلى بيتها عاقدة نيتي على الضياع، قائلاً لنفسي في جبن وخطة «ليكن هذا... ليكن هذا... »، فإذا هي، هي التي تألمت خلال خمس سنين، تغفر كل شيء، وتنسى كل شيء، وتبكي ما إن سمعت لأول مرة كلمة مودة صادقة! إن الرجل الذي أساء إليها كل تلك الإساءة، وألحق بها كل ذلك الأذى، قد عاد وأومأ إليها، فإذا هي تغفر له على الفور، فرحة سعيدة مستعجلة لقاءه. أما الخنجر فثق أنها لن تحمله! لا... لا... أنا لا أساويها، أنا لا أعدلها. لا أدري يا ميشا هل أنت طيب نبيل كطيبتها ونبلها، أما أنا فلست كذلك بحال من الأحوال. هذا درس تلقنته اليوم... إن هذه المرأة أعظم منا بالحب... هل كنت تعرف ما روته لنا الآن؟ إنك لم تكن تعرفه حتماً. وإلا لأدركت كل شيء منذ زمن طويل... وتلك الأخرى التي آذتها هي أمس الأول، يجب عليها أن تغفر لها هي أيضاً! سوف تغفر لها متى علمت، وستعلم... إن هذه النفس لم تسترد هدوءها وطمأنينتها بعد، فينبغي أن تدارى وأن تراعى... لعل فيها كنوزاً لا تخطر ببال...

صمت أليوشا منقطع الأنفاس. وكان راكيتين ينظر إليه مدهوشاً رغم حنقه. ما كان ليتوقع مثل هذا الكلام الطويل من الراهب الوديع البسيط.

قال راكيتين صائحاً وهو يضحك ضحكة وقحة:

- يا للمحامي البارع! أتراك وقعت في حبها؟ يا أجرافينا ألكسندروفنا، إن صاحبنا الصائم قد توله بحبك، وهام غراماً بك. هنيئاً لك بالنصر!

أنهضت جروشنكا رأسها عن الوسادة، وألقت على أليوشا نظرة حنونة أشرق بها وجهها المحتقن بالدموع على حين فجأة.

- لا تكترث له يا أليوشا، يا ملاكي. أنت ترى ما هو، فلا داعي إلى مناقشته.

كذلك قالت جروشنكا، ثم التفتت نحو راكيتين وقالت له:

- كنت أنوى يا ميخائيل اوسيبوفتش أن أعتذر إليك عن الكلمات الجارحة التي قلتها لك، ولكنني أعدل عن ذلك الآن.

وعادت تخاطب أليوشا فقالت له وفي وجهها فرح:

- أليوشا، اجلس هنا، بجانبي، هكذا، قريباً مني. قل لي يا أليوشا (تناولت يده ونظرت في عينيه مبتسمة)، قل لي:أما زلت أحبه؟ أما زلت أحب الآخر؟ أقصد الرجل الذي أغواني... لقد كنت قبل مجيئك ألقي على نفسي هذا السؤال في الظلام، محاولة أن أقرأ في أعماق قلبي:أما زلت أحبه؟ أضئ طريقي يا أليوشا. هذه ساعة اتخاذ القرار. إنني أوكل أمري إليك. هل يجب علي أن أغفر له؟

قال أليوشا مبتسماً:

- ولكنك غفرت له وانتهى الأمر؟ فدمدمت جروشنكا واجمة مفكرة:

- صحيح. لقد غفرت له. ما أجبن قلبي؟ ثم هتفت تقول:

- إني أشرب نخب هذا السافل الكبير، قلبي!

وتناولت من المائدة كأس شمبانيا، وأفرغته في جوفها دفعة واحدة، ثم ألقته طائراً على الأرض. تحطمت الكأس، ورنت شظاياها. ومرة أخرى ظهر في طرفي فمها شيء من قسوة. قالت بصوت مثقل بتهديدات غامضة وهي تخفض عينيها كأنها تخاطب نفسها:

- لعلني لم أغفر له بعد. قلبي يتهيأ للمغفرة، وسأحاول أن أقاومه. آه، يا أليوشا! ما كان أعظم تلذذي بالدموع التي سكبتها طوال خمس سنين. إن عذابي هو ما أحب. إنني أحب ألمي، ولا أحبه هوا

قال راكيتين بصوت خفيض:

- لست أتمنى أن أكون إياه!

- لن تكون إياه أبدا يا راكيتا، أبداً... أنت ستنظف لي حذائي. ذلك ما تصلح له أنت في أكثر تقدير. النساء اللواتي هن من نوعي لم يخلقن لك، وربما لم يخلق له أيضاً على كل حال...

قال راكيتين ساخراً:

- ولا له أيضاً؟ فلمن تزينت إذاً؟

- لا تأخذ على تزيني يا راكيتا! أنت لا تعرف قلبي بعد! سأنزع ثوبي وزينتي إذا عن لي هذا، سأرميها فوراً هل تفهمني (كذلك صرخت بصوت حاد)، أنت لا تعرف يا راكيتا الهدف الذي من أجله تزينت. من يدري؟ ربما ذهبت إليه ووقفت أمامه فقلت له:«انظر! انظر ماذا أصبحت!». لقد تركني وأنا في السابعة عشرة من عمري ناحلة مصدورة بكاءة. سأجلس قربه، أغريه وأغويه، وأضرم نار الهوى في قلبه، أقول له:«هيه! أرأيت ماذا أصبحت؟ لكن اللجام أفلت من يديك يا محترم. إن المسافة بعيدة بين الكأس والشفتين!». ربما كان هذا هو السبب في أنني تزينت يا راكيتا (بهذا ختمت جروشنكا كلامها لراكيتين وهي تضحك ضحكة خبيثة). أنا عنيفة يا أليوشا، أنا شريرة. سوف أنزع ثوبي، وأشوه نفسي، وأحرق وجهي وأخدده بطعنات موسي لأدمر جمالي ثم أمضي أتسول. ليس يتوقف إلا علي أنا أن أبقى هنا في هذا المساء، فلا أذهب لا إلى هذا ولا إلى ذاك. وإذا شئت رددت منذ الغد إلى كوزما كوزمنش جميع الهدايا التي أهداها إلي، والمال الذي أعطانيه، ثم أمضي أعمل طوال حياتي لأجني رزقي عاملة بسيطة. هل تظن أنني لن أفعل شيئاً من هذا يا راكيتا؟ هل تظن أنني لا أجرؤ على ذلك؟ بل سأفعله، سأفعله. لا تستفزني وإلا فعلته فوراً!... أما الآخر، فسأطرده، سأمد له لساني استهزاء، سأنسل من بين أصابعه!

قالت هذه الكلمات الأخيرة بصوت ثاقب، يوشك أن يكون هستيرياً، ثم لم تتمالك نفسها فإذا هي تدفن وجهها في يديها من جديد، وتتهالك على الوسادة ناشجة منتحبة. فنهض راكيتين من مكانه فجأة وقال:

- آن أوان الانصراف. لقد تأخرنا، وسوف تغلق أبواب الدير.

فانتفضت جروشنكا وصاحت تسأل أليوشا بدهشة أليمة:

- أتمضي الآن يا أليوشا؟ أتعبث بي إذا هذا العبث؟ لقد بثثت الاضطراب في نفسي، وعريت أعصابي، ثم تتركني لأبقى وحيدة، وحيدة كما كنت من قبل، في هذه

الظلمة!
قال راكيتين بصوت ساخر:
- لن يقضي الليلة عندك على كل حال! اللهم إلا أن يكون راغباً في ذلك حريصاً عليه! وفي هذه الحالة سأعرف كيف أعود وحدي.
فصرخت جروشنكا تقول في غضب:
- اسكت أنت أيها النفس الخبيثة! إنك لم تعرف في يوم من الأيام كيف تكلمني كما كلمني هو اليوم.
فقال راكيتين يسألها حانقاً:
- ما هي الأشياء الخارقة التي قالها لك؟
- لا أعرف، لا أتذكر كلماته، ولكن كلماته مضت إلى قلبي رأساً، وهزت نفسي هزة قوية... لقد أخذته بي شفقة ورحمة، كان الإنسان الوحيد الذي رثى لحالي! لماذا لم تأت من قبل يا ملاكي؟
(كذلك سألت أليوشا وهي تجثو على ركبتيها أمامه فيما يشبه الوجد). لقد انتظرت إنساناً مثلك طوال حياتي. كنت أعلم، كنت أحس أنني سألتقي في يوم من الأيام بإنسان مثلك يعرف كيف يغفر لي. كنت واثقة من أن أحداً سيحبني آخر الأمر أنا أيضاً، أنا الوقحة، لغرض آخر غير عادي...
سألها أليوشا وهو يبتسم ابتسامة فيها حنان ورقة، ويميل عليها ويتناول يدها بلطف:
ماذا فعلت من أجلك حتى استحق هذا؟ أنا إنما قدمت إليك بصلة، بصلة حقيرة، هذا كل شيء، هذا كل شيء.
وتوقف أليوشا عن الكلام وطفق يبكي. وفي تلك اللحظة سمعت ضجة في الممر. إن أحداً قد دخل إلى البيت. نهضت جروشنكا مذعورة ذعراً شديداً. وأسرعت فينيا إلى الغرفة تهتف فرحة لاهثة:
- سيدتي، عزيزتي، سيدتي الطيبة وصل الرسول! لقد أرسلت من موكرويه عربة تستقلينها، ومضى الحوذي تيموثي يبدل الخيل. هناك رسالة لك يا سيدتي، رسالة، رسالة... هذه هي!
كانت فينيا تمسك الرسالة بيدها وتلوح بها في الهواء وهي تتكلم. انتزعت جروشنكا الرسالة منها وأدنتها من الشمعة. هي بطاقة قصيرة جداً لا تضم إلا بضعة أسطر قرأتها جروشنكا بلمحة عين. ثم صاحت تقول وقد شحب وجهها شحوباً شديداً وتقبض بابتسامة أليمة:
- لقد صفر لي. لقد دعاني. ازحفي أيتها الكلبة الصغيرة!
وظلت مترددة خلال هنيه قصيرة، ثم ازدحم الدم في وجنتيها فاحمرتا حتى صارتا بلون الأرجوان، وهتفت تقول على حين فجأة:
- سأذهب! انتهت تلك السنون الخمس من حياتي. وداعاً وداعاً؟ وداعاً لك أنت أيضاً يا أليوشا. فقد تقرر مصيري. اذهبوا، انصرفوا الآن جميعاً، ولتغيبوا عن عيني إلى الأبد!... إن جروشنكا تبدأ حياة جديدة. لا تحمل لي حقداً، أنت أيضاً يا راكيتا. من يدري؟ قد أكون ذاهبة إلى الموت! آه... كأنني سكرى...
ثم لم تحفل بهما وركضت إلى غرفة نومها. قال راكيتين بزعل:
- لا تهتم بنا الآن... لقد طردنا... فلننصرف قبل أن تبدأ صراخها. مللت من الدموع والصراخ...
انقاد أليوشا انقياداً آلياً. كانت العربة في فناء المنزل. وخيول تُحل، وأناس منهمكون على ضوء مصباح. وكانوا يدخلون عبر الباب المفتوح أفراسه جديدة. وما إن هبط أليوشا وراكيتين درجات المدخل حتى فتحت نافذة غرفة النوم، فإذا جروشنكا تصيح قائلة بصوت رنان:
- عزيزي أليوشا، أبلغ أخاك دمتري تحيتي، وقل له ألا يحقد على هذه الوغدة، أنا. كرر على مسامعه هذه الكلمات عن لساني:
«وهبت جروشنكا نفسها لرجل سافل، لا لك أنت الشهم»؛ قل له أيضاً إنني أحببته ساعة، ساعة واحدة، فليتذكر تلك الساعة مدى الحياة، إن جروشنكا هي التي تأمره بذلك. ختمت جروشنكا كلامها شبه باكية وأسرعت تغلق النافذة.
غمغم راكيتين وهو يضحك ساخراً:
- هم... هم... تغمد سكيناً في قلبه، في قلب أخيك ميتيا ثم هي تريد أن يتذكرها مدى الحياة. يا للسادية!
لم يجب أليوشا. وكان يبدو عليه أنه لم يسمع. إنه يسير إلى جانب رفيقه بخطى حثيثة. ولقد كان في الواقع ذاهلاً يمشي كآلة. شعر راكيتين بألم شديد كأن أحدا قد غرز أصبعه في جرح له لم يلتئم. ليست هذه هي الخاتمة التي كان يأملها للقاء بين أليوشا وجروشنكا. لقد جرى كل شيء على غير ما كان يتنبأ؛ ولم يتحقق ما تمنى بكثير من الحرارة أن يتحقق. قال وهو يحاول أن يسيطر على اعتكار مزاجه:
- صاحبها الضابط البولندي. على أنه ليس الآن بضابط. لقد عمل زمناً في إدارة الجمارك في سيبيريا على الحدود الصينية. هو طرح حقير ما في ذلك ريب. يقال إنه طرد من وظيفته، علم الآن أن جروشنكا قد جمعت بعض المال، فها هو ذا يعود... هذه هي المعجزة كلها!
ما يزال أليوشا صامتاً. كأنه لم يسمع شيئاً. ولم يطق راكيتين صبراً، فقال وهو يضحك ضحكاً ساخراً خبيثاً:
- هيه! هل هديتها إلى الحق، هذه الخاطئة؟ هل رددت المرأة الضالة إلى سبيل الرشاد؟ هل طردت الشياطين السبعة من روحها. هه؟ هذه هي المعجزة التي انتظرها الناس طويلاً منذ هذا الصباح... لقد تحققت!
قال أليوشا متألماً:
- اسكت يا راكيتين!
- أبسبب هذه الروبلات الخمسة والعشرين إنما تحتقرني الآن؟ أتراني بعت صديقاً حميماً؟ ما أنت بيسوع المسيح فيما أعلم ولا أنا بيهوذا الإسخريوطي؟
- أؤكد لك أنني لم أكن أفكر في هذا الأمر. أنت الذي تذكرني به الآن.
كذلك قال أليوشا، فغضب راكيتين في هذه المرة غضباً كاملاً، وأعول يقول:
- شيطان يأخذكم جميعاً! إني لأتساءل ما كانت حاجتي إلى الارتباط بك! لا أريد أن أعرفك بعد الآن. امض في سبيلك وحدك!
انعطف فجأة فسار في شارع، آخر وترك أليوشا وحيدة في الليل.
خرج أليوشا من المدينة واتجه إلى الدير عبر الحقول.

-4- عرس قانا

حين وصل أليوشا إلى الصومعة كان الوقت متأخراً جداً بالنسبة إلى الأنظمة المتبعة في الدير، وسمح له الراهب البواب أن يدخل من ممر خفي. كانت الساعة التاسعة قد دقت، وكان كل شيء يستريح بعد نهار مضطرب ذلك الاضطراب كله. تسلل أليوشا وجلاً إلى الغرفة التي شجي فيها تابوت الشيخ. كان الأب بائيسي وحيداً في الغرفة ما يزال يقرأ الإنجيل. وكان الراهب المبتدئ بورفيري الذي أتعبه الحديث الطويل في الليلة البارحة وأتعبته انفعالات النهار، ينام في الغرفة المجاورة على الأرض نوماً عميقاً يتيحه له شبابه. ولم يلفت الأب بائيسى رأسه رغم أنه سمع دخول أليوشا. اتجه أليوشا إلى الركن الذي يقع على يمين الباب، وجثا على ركبتيه، وأخذ يصلي. كانت نفسه طافحة، غير أن مختلف المشاعر تختلط الآن في نفسه اختلاطاً مبهماً دون أن تكون لأحدها غلبة، وإنما هي تتعاقب ويطرد بعضها بعضا في حركة مطردة هادئة. وشعر أليوشا بانفعال رقيق عذب يجتاح نفسه، فكان العجيب في الأمر أنه لم يستغرب ذلك الانفعال. إنه يرى أمامه التابوت الذي يضم جثمان الراحل المحبوب، يراه من جديد، ولكن الشفقة الأليمة المعذبة التي كات تجثم على صدره طوال الصباح قد زالت. إنه حين وصل قد ركع أمام التابوت ركوعه أمام شيء مقدس، غير أن فرحاً عذباً يملأ الآن روحه ويفيض من قلبه. كانت إحدى نوافذ الغرفة قد تُركت مفتوحة، فمنها يدخل إلى الغرفة هواء طري منعش. قال أليوشا يحدث نفسه:«لا بد أن الرائحة قد اشتدت ما داموا قد قرروا فتح النافذة». غير أن فكرة رائحة التفسخ التي أثارت في نفسه عند الصباح ذلك الاضطراب كله وذلك الأسى كله، والتي كانت تبدو له رهيبة فظيعة مخلة بالكرامة، أصبحت الآن لا تزعجه ولا تشعره بشيء من الحرج. أخذ أليوشا يصلي صامتاً. ولكنه لاحظ بعد برهة أنه يصلي صلاة آلية. إن نتفاً متناثرة من أفكار تلامس ذهنه ملامسة وتومض في خياله كشرارات ثم ما تلبث أن تنطفئ ليحل محلها غيرها. ولكن شيئاً كاملاً صلباً مهدئاً قد ملك عليه، وأدرك هو ذلك. وقد أخذ في بعض اللحظات يصلي بحرارة وحماسة، شاعراً بحاجة قوية عنيفة إلى أن يشكر وإن يحب... ولكن فكره ما يلبث أن ينصرف إلى شيء آخر، فإذا هو يغرق في أحلام غامضة مبهمة تنسيه الصلاة وتنسيه التأمل الذي قطع الصلاة. أصاخ بسمعه في لحظة من اللحظات إلى قراءة الأب بائيسى، فإذا هو ينحدر شيئاً فشيئاً إلى وسن هادي رقيق لأنه كان متعباً جداً. «وفي اليوم الثالث كان عرس قانا الجليل وكانت أم يسوع هناك. ودُعي أيضاً يسوع وتلاميذه إلى العرس».

«عرس؟ ما العرس؟ - وثارت في فكره زوبعة من الخواطر. هي أيضاً سعيدة... ذهبت إلى احتفال... لم تحمل الخنجر... ما كان ذلك منها إلا قولاً طائشاً... يجب أن نغفر الأقوال الطائشة، لأنها تهدئ النفس... وبدونها يصبح ألم الإنسان أشد من أن يطاق... غاب راكيتين في زقاق... لسوف يغيب في أزقة ما ظل لا يفكر إلا في الإهانات التي تناله هو... أما الطريق فهي عريضة مشرقة ومضيئة، مستقيمة وطاهرة... نقية نقاء البلور... والشمس هي التي تسطع في نهايتها... ها؟ ماذا يقرأ الآن؟».

«ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له:ليس لهم خمر».

ها... نعم، لم أتابع القراءة، مع أنني كنت لا أحب أن تفوتني هذه الفقرة، إنني أحبها كثيراً:عرس قانا، المعجزة الأولى... كانت تلك معجزة، معجزة إلهية محببة. لم يجئ يسوع للحزن، بل للفرح... أفرح قلب الناس بتلك المعجزة الأولى. «الذي يحب البشر، يحب فرحهم أيضاً..... ذلك ما كان يردده الشيخ الراحل بغير انقطاع... ذلك تعليم من تعاليمه الرئيسية... «لا يستطيع الإنسان أن يحيا بغير فرح»، كذلك يقول ميتيا... نعم يا ميتيا...

«كل ما هو حق وجميل يشيع منه الغفران الشامل»... إنه هو الذي كان يقول هذا أيضاً...

«قال لها يسوع:مالي ولك يا امرأة! لم تأت ساعتي بعد. قالت أمه للخدام:مهما قال لكم فافعلوه!»،

«افعلوا... كان ذلك لفرح أناس فقراء، فقراء مغمورين، فقراء جداً، جداً... لا شك أنهم كانوا في فقر مدقع ما دام الخمر قد أعوزهم حتى لعرس... يؤكد المؤرخون أن الأهالي الذين كانوا يعيشون في ذلك العصر على ضفاف بحيرة طبرية وفي المناطق المجاورة لها كانوا أفقر الناس في هذا العالم... هذه امرأة عليا كانت في العرس، هي أم يسوع، تشعر في قلبها بأنه لم ينزل إلى الأرض إلا لهدف واحد هو أن يقوم بتضحيته الهائلة، وأن نفسه قادرة على أن تشارك في الفرح البسيط الساذج الذي يحسه هؤلاء الناس المتواضعون المبرأون من المكر، الذين دعوه بمحبة إلى حضور عرسهم الذي لا تألق فيه. قال لها يسوع وهو يبتسم ابتسامة رقيقة:«لم تأت ساعتي بعد» (لا شك أنه ابتسم في تلك اللحظة ابتسامة لا نهاية لرقتها وعذوبتها)... أجاء إذاً إلى الأرض ليزيد الخمر في أعراس الفقراء؟ ومع ذلك لم يتردد، ولبي رجاءها... آ... ما يزال يقرأ:

«قال لهم يسوع املأوا الأجران ماء، فملأوها إلى فوق. ثم قال لهم استقوا الآن وقدموا إلى رئيس السُقاة فقدموا، فلما ذاق رئيس السُّقاة الماء المتحول خمرة ولم يكن يعلم من أين هي بينما الخدام الذين كانوا قد أستقوا الماء علموا، دعا العريس وقال له:كل إنسان يضع الخمر الجيدة أولاً فمتى سكروا وضع الرديئة، أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة إلى الآن».

«ولكن ما هذا؟ ما معنى هذا؟ لماذا تتسع الغرفة فجأة؟... آ. حقاً... هو الزواج... هذا عرس. طبعاً... هؤلاء هم المدعوون... وهذان هما العريسان، الجمهور الفرح... ولكن أين هو إذاً ذلك الساقي الحكيم جداً؟ وهذا، من هذا؟ من هذا؟ الغرفة تتسع مزيداً من الاتساع... من ذا الذي ينهض على المائدة الكبرى هناك؟ كيف هو؟ أيكون هو أيضاً هنا؟... كنت أحسب أنه في تابوته... بلى! إنه هو بعينه... نهض... رآني... ها هو ذا يقبل علي... رباه!».

واقترب فعلا من أليوشا، الشيخ الناحل المخدد الوجه بغضون صغيرة، كان فرحاً، وكان يضحك ضحكاً رقيقاً حلواً. لقد اختفى التابوت. والشيخ يرتدي الملابس التي كان يرتديها أمس أثناء ذلك الحديث الأخير مع المدعوين. إن وجهه يشرق مودة ومحبة، وإن عينيه تلتمعان. كيف أمكن أن يكون هنا، في الحفلة؟ أدُعيّ إذاً إلى عرس قانا؟ كذلك تساءل أليوشا. فسمع صوتاً مألوفاً لطيفاً يقول له من فوقه:

- نعم يا بني، لقد دُعيت أنا أيضاً، دعيت ونوديت. لماذا تختبئ في ذلك الركن؟ لا يكاد يراك أحد. تعال، وكن منا... هو صوته، صوت الشيخ زوسيما... لا شك أنه الشيخ، ما دام يناديه. ومد الشيخ يده إلى أليوشا الراكع، فنهض أليوشا. وتابع الشيخ المعروق كلامه قائلاً:

- إننا نبتهج! نشرب الخمرة الجديدة... إنها خمرة فرح جديد، فرح عظيم جداً... هل ترى جميع هؤلاء المدعوين؟ هذا هو الخطيب، وهذه هي الخطيبة، وهذا هو الساقي الحكيم جداً، يذوق الخمرة المدهشة. لماذا تنظر إلى مدهوشاً هكذا؟ لقد وهبت بصلة فقُبلت في هذه الحفلة. كثيرون هنا هم الذين لم يهبوا إلا بصلة، بصلة صغيرة جداً... كيف الأحوال عندنا؟ أنت أيضاً، يا بني الطيب الوادع، لا بد أنك وهبت اليوم بصلة لجائعة مسكينة. ابدأ مهمتك، واجه عملك، يا صغيري اللطيف! هل تراه هو؟ هل ترى يسوع، شمسنا؟

دمدم أليوشا هامساً يقول:

- أنا خائف... لا أجرؤ أن أنظر إليه.

- لا تخف منه. هو مخيف بعظمته التي ترفعه فوقنا، هو مخيف بالعلو الذي هبط منه إلينا، ولكن لطفه لا نهاية له. لقد جعل نفسه شبيهاً بنا، وذلك حباً فينا ليشاركنا فرحتنا، وأحال الماء خمراً حتى لا تنقطع سعادة الضيوف. وهو ينتظر مدعوين آخرين، وما ينفك يدعو منهم المزيد إلى الأبد. انظر ها هم يجيئون بالخمرة الرائعة، ها هم يحملون الأواني...

كان قلب أليوشا يحترق احتراقاً وقد امتلأ بشيء ما يماثل الألم، وانبجست من عينيه دموع حماسة... ومن ذراعيه، وأطلق صرخة، واستيقظ من نومه...

التابوت ما يزال في مكانه، والنافذة ما تزال مفتوحة؛ وصوت الأب بائيسي ما يزال يسمع وقوراً هادئاً وهو يقرأ الإنجيل ببطء. ولكن أليوشا لم يصغ إليه. كان قد نام على ركبتيه. والغريب أنه الآن واقف على قدميه. وها هو ذا يتقدم فجأة، كأن قوة خفية تدفعه دفعاً، فإذا هو يصبح قرب التابوت بعد ثلاث خطوات سريعة، حتى لقد لامس بكتفه الأب بائيسى دون أن يلحظ ذلك. رفع الأب بائيسى عينيه وألقى على أليوشا نظرة قصيرة، ولكنه سرعان ما استأنف قراءته، إذ أدرك أن الفتى كان في حالة غريبة. وقف أليوشا أمام التابوت نصف دقيقة:تأمل التابوت، تأمل المتوفي الساكن الذي غطي وجهه ببرقع، ووضعت على صدره أيقونة، ولُفع رأسه بقلنسوة يزينها صليب ذو ثمانية أفرع. لقد سمع أليوشا صوته قبل بضع لحظات، وما يزال هذا الصوت يترجع في أذنيه. إن أليوشا يصغي وينتظر... أتراه يسمعه من جديد؟ وفجأة، استدار أليوشا وخرج من الغرفة.

لم يتوقف عند درجات الباب بل هبطها مسرعاً. كانت نفسه التي تطفح حماسة، في حاجة إلى فضاء وحرية. هذه قبة السماء تعلوه ممتدة في جميع الجهات إلى غير نهاية، مزدحمة بنجوم تسطع أشعتها سطوعاً هادئاً. إن المجرة، التي لا تكاد تُرى بعد، تمتد إلى الأفق. وإن ليلة طرية هادئة صامتة ساجية، يبدو أنها تلف الأرض بأكملها. والأبراج البيضاء والقبب المذهبة من الكاتدرائية تبرز على قاع لازوردى. وأزهار الخريف الغنية تبدو نائمة في أحواضها التي تحف بالمنزل. إن سكينة الأرض تتحد بسكينة السماء، وإن سر الأرض يندمج مع سر النجوم... تأمل أليوشا هذا المنظر، فإذا هو يتهالك على الأرض فجأة كمن خارت قواه.

لم يعرف أليوشا لماذا عانق الأرض، ولماذا شعر بمثل هذه الحاجة إلى أن يغمرها بالقبل. كان يقبلها باكياً، فيرويها بدموعه، حالفاً بكثير من الحماسة ليحبها

على الدوام، ليحبنها أبد الدهر... «اسق الأرض دموع الفرح، وأحبب دموعك»، كذلك قال له صوت في أعماق نفسه. لماذا هذه العبرات؟ كان أليوشا يبكي من الحماسة، حتى لقد كان يبكي لهذه النجوم التي تنظر إليه من قرارة اللانهاية، ولم «يكن يشعر بخجل من هذا الوجد الذي ملأ نفسه». كأن عوالم الله الكثيرة قد اتصلت فجأة بنفسه فكانت نفسه تهتز وقلبه يمتلئ غبطة وفرحاً من شعوره بنشوء «هذا الاتصال بينه وبين الملأ الأعلى» من هذا الاتصال. كان يشتهي أن يغفر كل شيء لجميع الناس، وأن يستغفر أيضاً لجميع الناس، وعن كل شيء. ومرة أخرى قال صوت في أعماق نفسه:«إن آخرين سيسألون لي اللطف». وشعر في الوقت نفسه بإحساس واضح جداً، إحساس يشبه أن يكون جسمياً، أن شيئاً ما لا يتزعزع مثل قبة السماء ينفذ إلى نفسه وأن فكرة ما تبزغ في روحه لتحكمها إلى الأبد. كان أليوشا قد سقط على الأرض فتى واهناً ضعيفاً، ولكنه حين نهض الآن أحسّ بأنه مناضل جسور على مدى ما بقي له من أيام في هذه الحياة. واختلط وعيه لهذا التبدل المفاجئ الذي وقع له، اختلط بحماسته، فإذا هو في حالة نفسية جعلته لا ينسى تلك الدقيقة في يوم من الأيام. وقد ظل يؤكد بعد ذلك باقتناع عميق «أن أحداً قد زار نفسه في تلك اللحظة».

وبعد ثلاثة أيام ترك الدير متبعاً وصية الشيخ الراحل الذي «أرسله إلى العالم».

الباب الثامن:ميتيا

-1-كوزما سامسونوف

إن دمتري فيدوروفتش الذي «أمرت» جروشنكا، وهي تطير نحو حياة جديدة، بأن يُبلغ سلاماً أخيراً، مع المطالبة بأن يحفظ إلى الأبد ذكرى ساعة قصيرة من حبٍ وهبته له، كان يجتاز هو أيضاً، رغم جهله بما كان يحدث للمرأة الشابة، كان يجتاز فترة عصيبة من الاضطراب الشديد والقلق الرهيب. إنه يعيش منذ يومين في حالة نفسية لا سبيل إلى وصفها، حتى ليكاد يصاب باحتقان في الدماغ على حد التعبير الذي استعمله هو فيما بعد. لم يستطع أليوشا أن يعثر عليه حين بحث عنه في الصباح؛ ولا هو جاء على الموعد الذي كان قد ضربه لأخيه إيفان في الحانة. وقد صمت أصحاب الشقة التي كان يقيم فيها، تنفيذاً لأوامره. وظل هو خلال يومين يضرب في الأرض على غير هدى وبغير راحة «مصارعاً قدره ساعياً إلى خلاصه»، كما صرح بذلك فيما بعد. حتى لقد غاب عن المدينة بضع ساعات بسبب أمر مستعجل، رغم أنه كان يرى أن ترك جروشنكا ولو للحظة بلا رقابة أمر رهيب. وقد اتضح هذا الأمّر فيما بعد بكل تفاصيله. أما الآن فنتذكر أهم وقائع هذين اليومين الرهيبين اللذين سبقا سقوط الكارثة على حياته ذلك السقوط القاسي المفاجئ. صحيح أن جروشنكا قد أحبته خلال ساعة من الزمن حباً صادقاً، ولكنها أيضاً عذّبته أحياناً بقسوة لا رحمة فيها. وأنكى ما في الأمر أنه لم يستطع أن يفهم عواطفها الحقيقية فهماً واضحاً. لم يكن له أي أمل في أن يكتشف هذه العواطف لا بالملاطفات ولا بالقوة. ولو قد حاول ذلك؛ لعاندته في جميع الأحوال ولتركته غاضباً حانقاً. كان هو يشعر بذلك شعوراً كاملاً. وكان يدرك أنها تجتاز هي نفسها في تلك الساعة أزمة عصيبة لأنها تتخبط في حيرة شديدة، فهي توشك أن تعزم أمرها دائما ثم تتردد كّل مرة في آخر لحظة؛ وكان يقدّر بقلب متألم - وليس يخلو تقديره هذا من حق - أنها كانت في بعض الأحيان تكرهه وتكره غرامه بها. لعله لم يكن مخطئاً في هذا ولكن السبب الحقيقي للقلق الذي تعانيه جروشنكا كان يفوته. وكانت المسألة التي تعذبه إنما ترتد في الواقع إلى هذا الاختيار بين شخصين لا ثالث لهما:«أما هو ميتيا، وأما فيدور بافلوفتش». وهنا يحسن أن نوضح النقطة التفصيلية التالية:كان ميتيا مقتنعاً اقتناعاً مطلقاً بأن فيدور بافلوفتش مستعد لأن يتزوج جروشنكا (ولعله عرض عليها ذلك)، وكان لا يتخيل في لحظة من اللحظات أن العجوز الفاسق قد خطر بباله أن يصل إلى تحقيق أغراضه دون أن يضحي بشيء إلا بثلاثة آلاف روبل. هكذا كان يفكر دمتري على أساس ما يظن أنه يعرفه من طبع جروشنكا. لذلك كان من الممكن أن يقدر أن ما تعانيه المرأة الشابة من قلق وتردد إنما يرجع إلى أنها لا تدري من تختار منهما، جاهلة أيهما أنفع لها وأجدى. أما أن يعود في القريب ذلك «الضابط»، ذلك الرجل المشؤوم الذي احتل هذا المكان كله في نفاد الصبر وحياة جروشنكا والذي كانت جروشنكا تنتظر وصوله بذلك القدر كله من الاضطراب وشدة الخوف، فإن دمتري لم يخطر بباله هذا الأمر مرة واحدة خلال تلك الأيام، مهما يبدو ذلك غريباً. صحيح أن جروشنكا أصبحت في الأيام الأخيرة لا تكلمه في هذا الأمر، ولكن دمتري كان يعلم أن الرجل الذي أغواها قد كتب إليها، لأنها أطلعته على الرسالة التي تلقتها منه منذ شهر، وكان يعرف بعض ما تضمنته هذه الرسالة. لقد أطلعته جروشنكا على الرسالة بدافع القسوة، فما كان أشد دهشتها حين رأت أنه لم يول الرسالة أي اهتمام ولا اكترث لها. إنه لمن العسير أن نشرح السبب الذي جعل دمتري لا يحفل بالرسالة ولا يقيم لها وزناً كبيراً. لعل ذلك يرجع، ببساطة، إلى أنه قد بلغ من شدة رزوحه تحت وطأة هول تنافسه مع أبيه على هذه المرأة أنه كان يستحيل عليه أن يتخيل مصيبة أكبر من تلك المصيبة وشقاء أعظم من ذلك الشقاء، في تلك الفترة على الأقل. أضف إلى ذلك أنه كان لا يتصور أن من الممكن أن يعود خطيب بعد غياب خمس سنين، وأنه كان لا يتصور خاصة أن سيعود قريباً. هذا إلى أن رسالة «الضابط» لم تتضمن إشارة إلى مجيئه إلا بكلمات غامضة:لم تكن الرسالة تحتوي إلا على أمور عامة ومناجيات غائمة وتصريحات عاطفية. يجب نذكر أن جروشنكا قد أخفت عنه الأسطر الأخيرة التي يشير فيها كاتب الرسالة إلى عودته القريبة بشيء من الوضوح. وكان دمتري يتذكر فيما بعد أنه لاحظ أن المرأة الشابة، حين أطلعته على الرسالة، قد أظهرت على غير إرادة منها احتقارها للرجل الذي كتب إليها الرسالة من سيبيريا. ولم تفض جروشنكا إلى دمتري بعد ذلك بأي شيء عن الاتصالات التي تمت بينها وبين ذلك المنافس الجديد، إلى أن نسي دمتري وجوده شيئاً بعد شيء. فكان لا يشغله إلا اعتقاده بأن الصدام الحاسم بينه وبين فيدور بافلوفتش يبدو وشيكاً مهما يحدث من أمر، فلا بد أن تحل هذه المسألة على أي حال من الأحوال قبل سائر المسائل. وكان ينتظر كل لحظة على أحر من الجمر قلقاً، أن تتخذ جروشنكا قرارها، وكان يقدر أنها ستتخذ هذا القرار فجأة بما يشبه الوحي أو الإلهام، فتقول له ذات يوم:«خذني، أنا لك إلى الأبد»، وينتهي كل شيء، فيقبض عندئذٍ عليها، ويمضي بها إلى آخر العالم.

نعم... ليأخّذنها عندئذٍ فوراً إلى أبعد مكان ممكن، ليأخذنها إلى أقصى روسيا إن لم يأخذها إلى أقصى الأرض؛ وسوف يتزوجها ويستقر معها incognito لا يعرفهما أحد بعد ذلك لا هنا ولا هناك ولا في أي مكان. ولسوف تبدأ عندئذٍ حياة جديدة!

كذلك كان دمتري يحلم متحمساً بالحياة الجديدة، الحياة «الفاضلة» («الفاضلة حتماً»). لقد كان في ظمأ شديد إلى هذا التجديد، إلى هذا الانبعاث، لأنه كان يتألم تألماً قوياً من الحمأة الحقيرة التي تردى إليها وغاص فيها بإرادته؛ وكان، ككثير من الرجال في مثل هذه الحالة، يؤمن بالخلاص عن طريق تغيير البيئة:فلا يرى هؤلاء الناس ولا يعيش في هذا الوسط بعد الآن. كان يتصور أنه متى ترك هذا المحيط تغير كل شيء بين عشية وضحاها، وبدأت حياة جديدة على أسس جديدة. ذلك كان أمله، وإلى هذه الغاية إنما كانت تتجه أحلامه.

غير أن هذا الحل لا يمكن أن يتحقق إلا إذا اتخذت جروشنكا القرار الأول، القرار السعيد أن نختاره هو دون غيره. وهناك قرار ثان ما يزال من الممكن أن تتخذه جروشنكا، هناك حل آخر رهيب يمكن أن يتحقق، هو أن تقول له مثلا على حين فجأة:«اغرب عني، فلقد اتفقت الآن مع فيدور بافلوفيتش اتفاقاً نهائياً وقررت أن أتزوجه، فلا حاجة بي إليك بعد اليوم». ففي هذه الحالة... في هذه الحالة... لقد كان ميتيا لا يعرف هو نفسه ما قد يحدث عندئذٍ، ولقد ظل لا يعرف ذلك إلى آخر دقيقة... علينا أن نذكر هذه الحقيقة تبرئةً له. إنه لم يعقد نيته على شيء، ولم يفكر في ارتكاب جريمة. كان لا يزيد على أن يراقب ويتجسس، ويتعذب بغير انقطاع، ولكنه لا يتصور إلا الحل الأول ولا يتنبأ إلا بالخاتمة السعيدة، ويطرد من ذهنه كل فكرة أخرى. على أن هناك صعوبة أخرى كانت تنجبس عندئذٍ وتجعله قلقاً مهموماً مغموماً؛ ذلك أن عقبة جديدة تقف عثرة في طريقه حتى حين يتحقق الحل الأول السعيد، عقبةٌ خارجية طبعاً، ولكنها عقبة رهيبة يستحيل تذليلها على كل حال.

هب جروشنكا قالت له:«أنا لك، خذني»، فما عساه يفعل من أجل أن يرحل معها؟ أين يجد المال اللازم للسفر؟ إن الأموال التي هيأتها له دفعات فيدور بافلوفتش والتي كانت تتدفق عليه بلا انقطاع كل هذه السنين قد نفدت نفاداً تاماً. صحيح أن جروشنكا تملك مالاً، ولكن ميتيا كان يشعر عندئذٍ على حين فجأة بكبرياء شديدة تستيقظ في نفسه. لقد كان يحرص أشد الحرص على أن يتحمل هو نفقات الرحيل، وأن يبدأ معها حياة جديدة بماله، ويرفض أن يعيش عالة عليها. كان لا يطيق أن يتصور أن يأخذ من مالها شيئاً، وكان إذا تصّور ذلك يبلغ من شدة الألم حدّ الاشمئزاز من نفسه. لن أحاول أن أشرح هنا هذه الحالة النفسية بمزيد من التفصيل ولا أن أحلّلها، وحسبي أن أقرر أن هذه كانت عاطفته، وأن هذا كان شعوره آنذاك. جائز جداً أن يكون هذا الموقف قد أملاه عليه، على غير شعور منه، ما قاساه ضميره من عذاب خفي منذ أن استولى على المبلغ الذي ائتمنته عليه كاترينا إيفانوفنا. لقد كان دمتري يقول لنفسه آنذاك، كما اعترف بهذا فيما بعد:«أنا وغد حقير في نظر الأولى، وسأصبح وغداً حقيراً في نظر الثانية. إذا علمت جروشنكا بالأمر، فلن ترضى بنذل مثلي». ولكن أين عساه يجد المال اللازم والحالة هذه؟ أين عساه يجد المال الذي يحتاج إليه هذا الاحتياج الفاجع كله، والذي بدونه سيضيع كل شيء ولن يتحقق هدفه. «أكل هذا بسبب مسألة مالية حقيرة؟... يا للشقاء».

سأستبق الآن القصة فأشير إلى أن دمتري ربما كان يعلم أين يمكنه أن يجد هذا المبلغ، وربما كان لا يجهل في أي مكان يوجد هذا المبلغ. ولن أدخل الآن في سرد التفاصيل التي ستعرض في حينها. غير أنني سأبين، على نحو قد لا يكون واضحاً وضوحاً كافياً (ولكن لا ضير!)، ماذا كانت الصعوبة الكبرى في نظره:لقد كان يرى أن عليه، حتى يستطيع أن يأخذ المبلغ المخبأ في مكان ما، حتى يكون من حقه أن يستولي على هذا المبلغ، كان يرى أن عليه أولاً أن يرد الثلاثة آلاف روبل التي يدين بها لكاترينا إيفانوفنا. «وإلا لم أكن إلا لصاً، ووغداً حقيراً، لا أريد أن أبدأ حياة جديدة وأنا وغد». كذلك كان يقول ميتيا لنفسه، ولهذا قرر أن يقلب العالم رأساً على عقب إذا لزم الأمر، من أجل أن يستطيع رد المبلغ إلى كاترينا إيفانوفنا. وقرر أن يفعل ذلك مهما يكن الأمر وقبل كل شيء آخر. وقد اختمر هذا القرار في نفسه في الأيام الأخيرة، أثناء الساعات التي أعقبت لقاءه أليوشا مساء في الطريق، بعد أن علم من أخيه بأمر الإهانة التي ألحقتها جروشنكا بكاترينا إيفانوفنا، فاعترف بأنه وغد حقير وأمر أخاه بأن ينقل كلماته هذه إلى كاترينا إيفانوفنا «إذا كان ذلك يمكن أن يخفف عنها». ولقد شعر أثناء تلك الليلة، وهو على ما هو عليه من اضطراب شديد، بأنه يحسن صنعاً «إذا هو قتل أحداً وسلبه ما معه في سبيل أن يرد إلى كاتيا مالها». قال يخاطب عندئذٍ نفسه:«ألا فلأصبح قاتلاً

ولصاً في نظر ضحيتي وفي نظر جميع الناس، ألا فلأرسَل إلى الأشغال الشاقة بسيبيريا، في سبيل ألا تستطيع كاتيا أن تقول عني أنني لم أخنها فحسب، وإنما سرقتها أيضاً وسطوت على مالها لأهرب مع جروشنكا وأبدأ بذلك حياة جديدة. لا أطيق أن تقول عني كاتيا هذا الكلام!». ذلك ما كان يحدث به ميتيا نفسه وهو يكز أسنانه، وكان من حقه فعلاً أن يخشى أن يصاب باحتقان في دماغه. ولكنه كان، حتى تلك اللحظة على الأقل، ما يزال يكافح...

والأمر الغريب أنه كان من الممكن أن يبدو له أن الهدف الذي يسعى إليه لا يمكن تحقيقه وأنه لم يبق له إلا أن ييأس، فمن أين يمكنه الحصول على مثل هذا المبلغ الكبير من المال بينما هو لا يملك شيئاً ويتخبط في بؤس أسود؟ ومع ذلك ظل يأمل حتى النهاية، واثقاً من أنه سيعثر على مبلغ الثلاثة آلاف روبل هذا، وأن هذا المبلغ سيهبط عليه من السماء عند الحاجة. فكذلك يفكر على وجه العموم أولئك الذين لم يعرفوا في حياتهم إلا تبديد ما ورثوا، مثل دمتري فيدوروفيتش، والذين يجهلون كل شيء عن طريقة جنى الرزق وتحصيل المال. إن مشاريع خيالية عجيبة تغلي وتفور في ذهنه منذ أن ترك أليوشا قبل يومين، وقد اختلطت في عقله أبسط المعاني واضطربت أيسر الأفكار، فبدأ مساعيه بمشروع هو أعجب ما يمكن أن يتخيله الخيال من مشاريع، ومن الجائز على كل حال أن تكون أشد الأفكار شذوذاً وأعمقها إيغالاً في عالم الأوهام هي التي تفرض نفسها أكثر من غيرها على أناس من نوعه في ظروف كظروفه، وتبدو لهم سهلة التحقيق. لقد قرر دمتري أن يذهب إلى التاجر سامسونوف، حامي جروشنكا، ليعرض عليه «مشروعاً» ويحصل منه فوراً على الثلاثة آلاف روبل سلفةً تحت الحساب. كان دمتري لا يخامره شك في قيمة مشروعه من الناحية التجارية، وإنما كان يتساءل كيف عسى يستقبل العجوز المشروع كله وليس جانبه التجاري فقط. وكان دمتري يعرف بأمر العجوز، ولكنه لم يتعرف عليه ولم يكلمه يوماً حتى ذلك الحين. وكان مقتنعاً منذ زمن طويل سواء كان على خطأ أم صواب، بأن هذا العجوز الفاسق الذي وضع إحدى قدميه في القبر منذ الآن، لن يعارض في أن تبنى جروشنكا لنفسها حياة شريفة «بتزوج رجل يستحق الثقة». كان يعتقد أيضاً أن العجوز لن يرى أي ضير في هذا، بل لعله يتمناه ويساعد في تحقيقه إذا توفرت الفرصة. وكان يعتقد أيضاً، على أساس شائعات غامضة وعلى أساس أقوال أفلتت من جروشنكا، أن سامسونوف يؤثره على فيدور بافلوفتش زوجاً للمرأة الشابة في المستقبل. ربما كان بعض قرائي يرون أن حسابة بهذا الحساب من جانب دمتري، وما عقد عليه النية من استلام خطيبته من يدي حاميها إن صح التعبير، يدلان على أن دمتري فيدوروفتش يفتقر إلى رقة الشعور وأناقة السلوك، وأن نفسه تخلو من وساوس الضمير. ولكنني أجيب على هذا بقولي إن ميتيا كان يرى أن ماضي جروشنكا قد دفن إلى الأبد. لقد كان شقاءه وسقوطه يوقظان في نفسه شفقة عظيمة ورحمة لا حدود لها. لقد دفعته حرارة الهوى إلى الاعتقاد بأن جروشنكا ستبعث بعثاً جديداً وتصبح امرأة جديدة متى صارحته بحبها وقررت أن تتزوجه، وأنه سُيبعث هو نفسه بعثاً جديداً، فيصير رجلاً مبرأً من كل إثم، ولا يتميز إلا بالفضائل:لسوف يغفر كل منهما لصاحبه أخطاءه، ويعيشان حياة جديدة كل الجدة. أما كوزما سامسونوف فكان دمتري يرى أنه قد لعب في حياة جروشنكا الماضية التي انتهت الآن، دوراً مشؤوماً ولا شك، بينما لم تحبه جروشنكا في يوم من الأيام. وكان دمتري يرى أيضاً أن كوزما:وهذا هو الأمر الأساسي قد «انتهى» هو أيضاً، فلا يُحسب بعد الآن. أضف إلى ذلك أنه لم يكن يستطيع كثيراً في اللحظة الراهنة أن يرى في هذا العجوز رجلاً، فلقد كان معلوماً في المدينة أن كوزما ليس اليوم إلا خرقاً بالية، وكان الناس لا يجهلون أنه لم تبق له بجروشنكا إلا علاقات أبوية إن صح التعبير، وذلك منذ زمن غير قصير، منذ ما يقرب من عام. صحيح أن موقف ميتيا هذا فيه كثير من السذاجة، ولكن ميتيا كان على جانب عظيم من السذاجة حقاً رغم جميع عيوبه. فكذلك كان يظن لبساطته أن العجوز كوزما الذي يشعر بأنه يوشك أن يبارح هذا العالم، كان يحس بندامة صادقة على سلوكه مع جروشنكا؛ وأن جروشنكا ليس لها في هذا العالم في هذه اللحظة صديق أشد إخلاصاً وأكثر تنزهاً من هذا العجوز الذي أصبح الآن لا يخشى منه أذى.

ففي غداة الحديث الذي جرى بين ميتيا وأليوشا على الطريق، ذهب ميتيا الذي لم يغمض له جفن طوال الليل، ذهب إلى منزل سامسونوف في الساعة العاشرة من الصباح، وطلب أن يبلغ العجوز عن مجيئه. المنزل مبنى حزين المظهر، عظيم الاتساع، من طابقين، وله ملحقات كثيرة وجناح في الفناء. إن الطابق الأول يسكنه ابنا التاجر المتزوجان، وأخته الطاعنة في السن، وابنته التي لم تتزوج. أما الجناح الذي في الفناء فيسكنه اثنان من مستخدميه في تجارته، أحدهما ذو عائلة كبيرة.

إن أولاد سامسونوف ومستخدميه تضيق بهم مساكنهم، بينما الطابق الأعلى وقف على سامسونوف وحده، الذي كان يرفض حتى إن تشاركه فيه ابنته. ومع ذلك كانت ابنته هذه تعتني به وترعاه، وكان عليها، في ساعة محددة، وكلما ناداها، أن تذهب إليه وأن تصعد السلم رغم ضيق التنفس الذي تشكو منه منذ زمن طويل. إن الطابق الأعلى الذي يسكنه العجوز يتألف من حجرات واسعة متتابعة، مؤثثة على الطراز الذي كان يحبه التجار في الماضي، قد اصطفت على طول جدرانها مقاعد ثقيلة وثيرة وغير وثيرة من الخشب، وغلقت في سقوفها ثريات من الكريستال مجللة بأغطية، ووضعت بين نوافذها مرايا قاتمة. إن هذه الحجرات خالية من السكان الآن، لأن العجوز المريض أصبح لا يغادر غرفة نومه الصغيرة التي تقع في آخر الطابق والتي تخدمه فيها خادم عجوز تقمط رأسها دائماً بمنديل، و«صبى» ينام على دكة في الدهليز. وقد أصبحت ساقاه المتورمتان لا تكادان تتيحان له أن يمشي، فهو يكتفي بأن ينهض عن كرسيه من حين إلى حين ليسير بمساعدة الخادم العجوز بضع خطوات في الغرفة. وهو قاسي الطبع متجهم المزاج لا يتكلم إلا قليلاً حتى مع هذه الخادم. فلما أبلغ زيارة «النقيب»، رفض أن يستقبله في أول الأمر؛ ولكن ميتيا ألحَّ أن يراه، فسأل العجوز الصبي هل يبدو على الزائر أنه سكران أو هل يظهر عليه أنه يسعى إلى فضيحة. فقال الغلام:«ما هو بسكران، ولكنه لا يريد أن ينصرف». فرفض العجوزُ مرة أخرى أن يستقبل الزائر. ولكن ميتيا كان قد تنبأ بالأمر، وتزود سلفةً بقلم وورقة. فها هو ذا يكتب على الورقة بخط واضح «إن القضية قضية مستعجلة تتصل بأجرافينا الكسندروفنا»، ويرسل الورقة إلى التاجر العجوز. فكَّر سامسونوف بضع لحظات، ثم أمر الصبي بإدخال الزائر إلى الصالون، وأسرع يرسل الخادم العجوز في الوقت نفسه إلى ابنه الأصغر آمراً إياه أن يصعد إليه فوراً، فسرعان ما حضر الابن دون أن ينطق بكلمة.

إنه رجل طويل القامة عريض الجسم قوي قوة هرقلية، حليق اللحية، يرتدي الزي الألماني (أما سامسونوف نفسه فكان يرتدي قفطانا وكانت له لحية). إن جميع أفراد الأسرة يرتعدون خوفاً أمام الأب. ولقد استدعى العجوز ابنه القوى هذا لا خوفاً من النقيب، فإنه لا تعوزه الشجاعة، ولكن ليكون هناك شاهد إذا لزم أن يكون هناك شاهد. وها هوذا يتسند على ابنه وعلى الصبي فيظهر أخيراً في عتبة الصالون كتلة مائجة. وربما كان ينبغي أن نسلِّم بأنه كان يشعر بكثير من الاستطلاع والفضول. إن الصالون الذي كان ميتيا ينتظر فيه هو غرفة واسعة كالحة، من شأن مظهرها وحده أن يقبض الصدر ويهيج النفس للحزن، وهي مزدانة بثلاث ثريات كبيرة مجللة بأغطية، لها نافذتان ومنصة في القسم الأعلى من الجدران المصنوعة من مقلد المرمر. كان ميتيا جالساً على كرسي قرب الباب ينتظر أن يتقرر مصيره وهو في حالة عصبية شديدة. فلما ظهر العجوز في الباب المقابل له على مسافة عشرين متراً، نهض فجأة وتقدم نحوه بخطى واسعة حازمة هي خطى جندي. لقد كان حسن الهندام، يرتدي بدلة معقودة الأزرار، ويحمل بيديه قبعةً مدوَّرة، ويلبس قفازين سوداوين، تماماً كما كان قبل ثلاثة أيام في الدير عند الشيخ أثناء لقائه بفيدور بافلوفتش وأخويه. انتظره العجوز واقفاً، رصين المظهر وقور الهيئة، وشعر ميتيا أنه تفرس فيه وفحصه بانتباه حين كان يتقدم منه. وقد خطف بصره ما كان قد أصاب وجه كوزما كوزميتش من تورم شديد منذ زمن. إن شفة كوزما السفلى، وهي شفة سميكة، تتدلى الآن تدلياً. انحنى سامسونوف أمام ضيفه صامتاً رصيناً، وأشار له إلى مقعد أمام كنبة جلس عليها هو بتهالك بطيء مستندة إلى ابنه مطلقة من صدره بعض الأنين. فسرعان ما شعر ميتيا أمام هذه الجهود الأليمة التي يبذلها العجوز، بعذاب الضمير من أنه، وهو الشاب التافه، قد أجاز لنفسه أن يزعج شخصية مرموقة كهذه الشخصية الكبيرة.

قال العجوز بعد أن استقر أخيراً على الكنبة:

- ماذا تريد مني يا سيدي؟

وقد ألقى هذا السؤال بصوت بطيء قاس، مجزئاً مقاطع كلماته ولكنه ألقاه بلهجة مؤدبة مهذبة.

ارتعش ميتيا، وأراد أن ينهض، ولكنه عاد يجلس فوراً، وبدأ شروحه متكلماً بصوت عال وبسرعة كبيرة وعصبية شديدة، مكثراً من الحركات والإشارات، لأنه كان في حالة اهتياج عظيم. فمن رآه أحس أنه أمام رجل طريقه مسدود يحاول أن يجد مخرجاً من مأزقه وأنه مستعد لأن يلقي نفسه في الماء إذا أخفق. ولا شك أن العجوز سامسونوف قد لاحظ ذلك من أول نظرة، ولكن وجهه ظل بارداً هادئاً رصيناً مغلقاً كأنه وجه تمثال.

«لا شك أن كوزما كوزميتش المحترم جداً قد سمع عن منازعاتي مع أبي فيدور بافلوفتش كارامازوف الذي سلبني ميراثي من أمي المرحومة... إن المدينة كلها تلغط في هذا الأمر منذ زمن طويل، لأن الناس هنا قد تعودوا أن يهتموا بما لا يعنيهم... ولا شك أنك علمت من جروشنكا - معذرة، أردت أن أقول اجرافينا الكساندروفنا التي أحترمها وأبجلها إلى أبعد حد... » بهذه الكلمات بدأ ميتيا حديثه، ولكنه لم يكمل فكرته فارتبك. على أنني لن أنقل هنا أقواله كلمة كلمة، وحسبي أن ألخص مضمونها الأساسي. لقد ذكر دمتري أنه استشار عن عمد منذ ثلاثة أشهر محامياً (كان ميتيا يتعَمد أن يستعمل في شروحه تعابير رائجة في البيئة التي ينتمي إليها

(سامسوفوف) قال:«ذهبت إلى بافل بافلوفتش كورنيبلودوف الشهير الذي لعلك تعرفه يا كوزما كوزمينش... هو إنسان واسع المعرفة... له ذكاء يشبه أن يكون

ذكاء رجل دولة. إنه يعرفك أيضاً. وقد أثنى عليك ثناء عظيماً... » هنا ارتبك ميتيا من جديد ولم يكمل فكرته أيضاً ولكن انقطاع الأفكار لم يمنعه في كل مرة من أن ينتقل إلى فكرة جديدة بدون تدرج. عاد يقول إن كورنيبلودوف هذا، بعد أن أصغى إلى شروح ميتيا، ونظر في الأوراق التي وضعها بين يديه (لم تكن شروح ميتيا بصدد هذه الأوراق واضحاً، وإنما هو مر على هذا الجزء من حديثه مروراً سريعاً)، رأى، فيما يتعلق بقرية تشرماشنيا، وهي القرية التي كان يجب أن تؤول إليه حسب وصية أمه، رأى أنه من الممكن أن ترفع الدعوى على العجوز النذل، وأن هذه الدعوى يمكن أن تضع العجوز في مأزق صعب... «لأن جميع الطرق ليست مسدودة، ولأن القضاء يعرف كيف يجد الطريق التي تؤدي إلى الهدف»؛ أي إن من الممكن الحصول بهذه الوسيلة من فيدور بافلوفتش على مبلغ يصل إلى ستة أو سبعة آلاف روبل من قبيل التعويض، لأن تشرماشنيا تساوي في الواقع خمسة وعشرين ألف روبل، أو ثمانية وعشرين ألف روبل. وحتى ثلاثين ألف روبل، ثلاثين ألف روبل يا كوزما كوزمتش، مع أنني لم أستطع أن أخذ من هذا الرجل القاسي إلا سبعة عشر ألف روبل، تصور! ولكنني آثرت ألا أرفع دعوى، لأنني لا أفهم في شؤون المحاكمات شيئاً... فلما وصل إلى هذه المدينة وجدتُ الدعوى قد رفعت ضدي (هنا ارتبك ميتيا أيضاً وأسرع يقفز إلى موضوع آخر)... هل تقبل، وفق هذه الشروط، يا كوزما كوزمينش المحترم، أن أتنازل لك عن جيمع حقوقي عند هذا الشيطان الرجيم، على أن تدفع لي في مقابل ذلك ثلاثة آلاف روبل فحسب؟... إنك لا تجازف بشيء على الإطلاق، أؤكد لك ذلك صادقاً، وأحلف لك عليه بشرفي... بالعكس:لسوف تُردُّ إليك هذه الثلاثة آلاف ستة أو سبعة... وإنما المهم أن تتم هذه الصفقة كلها «اليوم». إنني مستعد لأن أوقع عقداً مسجلاً لدى كاتب بالعدل، أو شيئاً من هذا القبيل... أي إنني مستعد لكل شيء. أعطيك الأوراق التي ستحتاج إليها، وأتنازل لك عن جميع الحقوق التي تريدها... نبرم العقد فوراً، في هذا الصباح إن كان ذلك ممكناً... ثم تعطيني الثلاثة آلاف روبل... أنت الذي تعد أغنى رجل في هذه المدينة... وبذلك تنقذني وتهب لي فرصة تحقيق مشروع سام جداً نبيل جدا في الواقع... فإنني أضمر عواطف رقيقة لإنسانة تعرفها أنت وتسهر عليها وترعاها رعاية الأب ابنته؛ وما كان لي أن أجيء إليك لولا علمي بأنك قد أصبحت لها بمثابة الأب حقاً. وإذا شئنا الدقة في التعبير وجب إن نقول إن رجالاً ثلاثة يتصادمون هنا، لأن القدر قوة هائلة رهيبة يا كوزما كوزميتش. فلنكن واقعيين يا كوزما كوزميتش، لنكن واقعيين! وإذ إنك أصبحت منذ زمن طويل لا تحسب في عداد المتصادمين، فلم يبق هنالك إلا خصمان يتنازعان. إنني أعبر عما بنفسي تعبيراً أخرق، أنا أعرف ذلك، ولكنني لست بأديب. لم يبق هنالك إلا أنا من جهة، وذلك الشيطان الرجيم من جهة أخرى. فاختر الآن:أتختارني أنا أم تختار ذلك الشيطان؟ كل شيء متوقف عليك منذ الآن. إنك تملك في يديك مصائر ثلاثة أشخاص، فلتفصل في الأمر. اعذرني إذا رأيتني أرتبك ولا أحسن التعبير:ولكنك ستفهمني ولا شك. أرى من نظرات عينيك المحترمتين أنك ستفهمني، فإن لم تفهمني فلن يبقى لي إلا أن ألقي نفسي في الماء، هذا هو الأمر»...
قطع ميتيا حديثه الغريب الأخرق فجأة بعد أن نطق بجملته السخيفة تلك:«هذا هو الأمر» ونهض عن مكانه بوثبة واحدة ينتظر الرد على عرضه السخيف. لقد أحست على حين بغتة وهو يختم تلك الجملة، أن كل شيء قد ضاع إلى غير رجعة، وأنه قد ارتكب على وجه الخصوص حماقة كبرى. خطر بباله فجأة «غريب! كنت حين وصولي أحس أن الفكرة رائعة، فإذا هي لا تسفر في النهاية إلا عن غباء» وكان العجوز أثناء تدفق ميتيا في الكلام، يحافظ على هدوء وضعه، ويلاحظ محدثه وقد لاح في عينيه تعبير بارد برودة الثلج. فلما أنهى ميتيا كلامه، جعله العجوز ينتظر الجواب دقيقة، ثم قال له بلهجة حازمة:
- متأسف يا سيدي! إنني لا أتعاطى أعمالاً من هذا النوع.
أحس ميتيا بساقيه تنثنيان، وتمتم يقول وهو يبتسم ابتسامة يُرثى لها:
- ولكن يا كوزما كوزميتش، ما عسى أصير إليه في مثل هذه الحالة؟ لقد هلكتُ إذاً، إلا تصدَّق ذلك؟
- آسف... لبث ميتيا جامداً ساكن النظرة، ولكنه لاحظ عندئذٍ شيئاً من الانفراج في عضلات وجه سامسونوف، فارتعش وعاوده الأمل فجأة. قال العجوز في بطء:
- أنا يا سيدي لم أتعود تعاطي أعمال كهذه، فإنني أكره الدعاوى وأمقت المحامين... ومع ذلك في وسعي أن أدلك إذا شئت، على شخص يمكنك أن تتجه إليه وتتكل عليه...
فدمدم ميتيا يقول:
- من هو؟ آه... يا رب! إنك تردُّ إليّ الحياة يا كوزما كوزميتش!
- ليس هذا الرجل من هنا، وليس يقيم الآن في هذه المدينة أيضاً. إنه فلاح يتعاطى تجارة الخشب.
يُلقب ب. «لياجافي». وهو يتفاوض منذ سنة مع فيدور بافلوفتش على ثمن الغابة في قريتك تلك نفسها تشرماشنيا، ولكنهما لم يتفقا على الثمن كم لعلك تعلم ذلك. وقد جاء إلى المنطقة من جديد، وهو يسكن الآن عند القس في قرية ايلنسكي التي تبعد اثني عشر فرسخاً عن محطة فولوفيا. وقد كتب إلي في موضوع الغابة هذه مستنصح. هذا وإن فيدور بافلوفتش يعتزم الذهاب إليه. فإذا استبقت فيدور بافلوفتش وعرضت على لياجافي ما عرضته على الآن، فمن الجائز أن...
فقاطعه ميتيا قائلاً بحماسة:
- ولكن هذه فكرة عبقرية! ذلك هو الرجل الذي أنا في حاجة إليه؛ هذه الصفقة صفقته! إنه يساوم على السعر، ويطلب منه مبلغ باهظاً ثمناً لأشجار يقطعها، فإذا هو يجد بين يديه أوراقاً تجعله مالكاً للقرية بأسرها! ها ها ها!
انفجر ميتيا يضحك ضحكته الصغيرة الجافة على نحو لم يكن في حسبان العجوز، فارتعش العجوز قليلاً.
واستأنف ميتيا كلامه قائلاً وهو يغلي ويفور حماسةً:
- كيف أشكر لك جميلك يا كوزما كوزميتش؟
فقال سامسونوف وهو يحني رأسه:لا داعي إلى الشكر.
- أوه! إنك لا تعلم... لقد أنقذتني من اليأس. قلبي هو الذي هداني إليك... والآن، إلى ذلك القس!
- لا داعي إلى الشكر.
- إنني ذاهب إلى هناك! سأركض إلى هناك ركضاً! لقد أسرفت في إزعاجك والاستفادة من لطفك وكياستك، بينما أنت مريض متألّم. أوه! لن أنسى جميلك ما حييت. إن روسياً هو الذي يعدك بذلك، رو... سيا...
- طيب.
أراد ميتيا أن يمسك يد العجوز ليصافحها شاكراً ممتناً، ولكن وميضا خبيثاً لاح في عيني العجوز في تلك اللحظة، فأمسك فوراً، وأرخى يده، غير أنه سرعان ما لام نفسه على سوء ظنه، وقال لنفسه:«لا بد أن يكون متعباً...»، وهتف يقول بصوت مدو:
- هذا من أجلها يا كوزما كوزمينش، هذا في سبيلها! أنت تفهم أن كل ذلك من أجلها؟
ثم حيَّا العجوز بانحناء، واستدار، واتجه نحو الباب بخطى واسعة سريعة دون أن يلتفت بعد ذلك. كان ينبض حماسة. قال لنفسه:
«ظننت أن كل شيء قد ضاع. ولكن ملاكي الحارس أنقذني. فحين يدلني رجل خبير من رجال الأعمال على هذا الطريق (ما أنبل نفسه، وما أعظم مهابته!)، فمعنى ذلك أني ربحت القضية... ماينبغي أن أضيع دقيقة واحدة. سأذهب إلى هناك حالا. ثم أعود قبل الليل... أو في الليل... أصبح الأمر في جيبي! ذلك أن العجوز لايمكن أن يكون قد سخر مني على كل حال!». بذلك كان ميتيا يحدث نفسه وهو يتجه إلى بيته. ولم يكن يمكنه في الواقع أن يتصور إلا أحد أمرين لا ثالث لهما:فإما أن رجل الأعمال المحنك الذي كان على علم بالموقف وكان عدا ذلك يعرف لياجافي هذا - يا له من اسم غريب! - قد قدم له نصيحة لا شك في فائدتها، وإما أن العجوز قد سخر منه وضحك عليه! ويا للأسف! فقد كان هذا الافتراض الثاني هو الصحيح. لقد اعترف العجوز سامسونوف ضاحكاً بعد وقوع الكارثة بزمن طويل أنه سخر من «النقيب»، إن سامسونوف إنسان سيئ الطوية قاسي القلب ساخر النفس، الكره عنده حالة مرضية. ترى هل فعل ذلك بسبب ما رآه عند ميتيا من حماسة شديدة واعتقاد ساذج بأنه، هو سامسونوف، يمكن أن تنطلي عليه هذه العروض الخداعة تصدر عن مبذر و«سلة مثقوبة» من هذا النوع؛ أم أنه فعل ذلك بسبب ما شعر به من غيرة على جروشنكا التي جاء هذا «الولد الطائش الفاجر» يسأله المال باسمها من أجل مشروع سخيف مضحك؟ لا أدري أي الدافعين فعل في نفس الشيخ حين كان ميتيا يقف أمامه شاعراً بانثناء ساقيه هاتفاً في غباء أنه هلك! المهم أن سامسونوف إنما ألقى عليه في تلك اللحظة نظرات خبيثة وقرر أن يضحك عليه ويسخر منه. وما إن انصرف ميتيا حتى التفت كوزما كوزمتش إلى ابنه، وقد شحب لونه من شدة الغضب، فأمره بأن يفعل كل ما يجب فعله حتى لا يستطيع هذا المتشرد أن يظهر في منزله مرةً أخرى في المستقبل وأن لا يُسمح له بدخول الفناء، وإلا...
ولم يكمل كوزما كوزمتش تهديده، ولكن ابنه ارتعد خوفاً، رغم أنه سبق أن رآه غاضباً مرات كثيرة. وظل العجوز بعد ذلك ساعة كاملة فريسة حنق شديد يرتعش منه جسمه كله. حتى إذا جاء المساء أحسّ بألم ووهن، فأمر أن يرسل إليه «الممّرض».

كان على ميتيا أن يرحل إلى لياجافي «يجب الإسراع» كذلك كان يردد ولكنه لم يكن قد بقي معه مال لاستئجار خيول. إن في جيبه بضعة قروش، فذلك كل ما بقي له من سني الثراء التي عاشها! لكنه تذكر أن عنده في البيت ساعة قديمة من فضة، متعطلة منذ زمن طويل. فحملها إلى تاجر ساعات يهودي، له دكان في السوق، فاشتراها منه هذا التاجر بستة روبلات. هتف ميتيا يقول لنفسه متحمسا:«لم أكن آمل أن أحصل على هذا المبلغ كله!» (أصبحت حماسة ميتيا لا تفتر!)، وعاد إلى مسكنه بالمبلغ مسرعاً، وأكمله باقتراض ثلاثة روبلات من أصحاب الدار التي يقيم فيها. ولقد قبل أصحاب الدار أن يقرضوه راضين مسرورين، رغم أنهم كانوا هم أنفسهم في عسر، وذلك لأنهم يحبونه كثيراً. وأبلغهم ميتيا، وهو على ما هو عليه من حماسة وفرح طافح، أن مصيره سيتقرر، وشرح لهم، ببضع كلمات سريعة جداً، «الخطة» التي عرضها للتو على سامسونوف والقرار الذي اتخذه سامسونوف، والآمال التي أشرقت في نفسه، إلخ. وكان هؤلاء الناس الطيبون على علم سابق ببعض أسراره، وهذا هو السبب في أنهم كانوا يعدّونه واحداً منهم، فهو سيد لا يتكبر ولا يتعالى. فما إن جمع ميتيا تسعة روبلات على هذا النحو، أمر بخيول الأجرة للذهاب إلى محطة فولوفيا. ولكن هذا أفضى إلى واقعة ثابتة وهي:«في عشية الحادثة، قبل الظهر، لم يكن ميتيا يملك قرشاً واحداً حتى لقد اضطر، من أجل الحصول على شيء من المال، أن يبيع ساعته وأن يستدين ثلاثة روبلات من أصحاب الدار، وذلك كله تشهد به شهود».

إنني أذكر هنا هذا الظرف الذي لن تظهر خطورة شأنه إلا فيما بعد. كان ميتيا، أثناء انطلاق الخيول به إلى فولوفيا بسرعة، مشرق الآمال متهلل النفس. كان يتنبأ فرحاً بأن «جميع هذه الشؤون ستسوّى أخيراً». ومع ذلك كان يقلق ويرتعش خوفاً في بعض اللحظات حين يتساءل ما عسى تصير إليه جروشنكا أثناء غيابه. هبها قررت في ذلك اليوم نفسه أن تذهب إلى فيدور بافلوفتش؟ إنه بسبب هذا الافتراض إنما قرر أن لا ينبئها بأمر سفره، كما أنه أمر أصحاب داره أن لا يكشفوا لأحد عن المكان الذي سافر إليه إذا هم سئلوا عن ذلك. «يجب أن أعود قبل هبوط الليل، مهما كلف الأمر، مهما كلف الأمر». كذلك كان يكرر لنفسه بينما كانت العربة تنطلق به إلى فولوفيا مسرعة وتهزه هزة قوية. وكان يحدث نفسه مستغرقاً في أحلامه:«أما لياجافي هذا، فسوف أعود به معي، لإبرام العقد». «ولكن حلمه لن يتحقق على ما رسم له من خطط» وأسفاه! ..

فهو أولاً قد وصل متأخراً، لأنه سلك، ابتداء من فولوفيا، طريقاً من تلك الطرق التي تصل بين القرى الصغيرة، فلم يقطع اثني عشر فرسخاً بل ثمانية عشر. ثم إن قس ايلنسكي لم يكن في بيته لأنه كان قد ذهب إلى قرية مجاورة. فلما عثر عليه ميتيا أخيراً في تلك القرية التي تابع طريقه إليها بخيوله المكدودة المنهوكة، كان الليل قد أوشك أن يهبط. وسرعان ما ذكر له هذا الكاهن، وهو رجل لطيف خجول المظهر، أن لياجافي قد نزل عنده فعلاً في أول الأمر، ولكنه يقيم الآن في سوخوي بوسيولوك، وإنه سيبيت هذه الليلة في بيت حارس الأحراج لأن له أعمالاً مرتبطة بشراء الغابة هناك. فتوسل إليه ميتيا أن يصحبه فوراً إلى لياجافي وأن «ينقذه» بذلك، فتردد القس في أول الأمر، لكنه وافق أخيراً على أن يرافقه حتى سوخوى بوسيولوك، وكان واضحاً أن الفضول هو الذي دفعه إلى هذه الموافقة. ومن سوء الحظ أنه نصح بقطع الطريق سيراً على الأقدام، لأن المسافة لا تزيد على فرسخ واحد أو «أكثر قليلاً». وكان طبيعية أن يقبل ميتيا هذا الاقتراح، فأخذ يسير بخطى مديدة على عادته في السير، فكان الكاهن العاثر الحظ مضطراً إلى أن يماشيه شبه راكض. إن هذا الكاهن رجل ليس طاعناً في السن وشديد الحذر. وسرعان ما أطلعه ميتيا على مشاريعه عرضها له بحرارة وسأله بعض النصائح في أمر لياجافي، بالحاح عصبي، وظل يتكلم على هذا النحو طوال الطريق. فكان القس يصغي إلى كلامه بانتباه، ولكنه كان ضنيناً بالأجوبة، يقتصر على أن يكرر في الجواب على أسئلة ميتيا الملحة:«لا أعلم، مع الأسف. أنى لي أن أعلم!». لما حدثه ميتيا عن نزاعه مع أبيه في موضوع الميراث، ذعر القس، لأنه كان مرتبطاً بفيدور بافلوفتش من بعض النواحي فيما يبدو؛ ومع ذلك سأل ميتيا في دهشة عن سبب إطلاقه اسم لياجاني على هذا الفلاح جورسكين، وذكر له أن هذا الفلاح لا يسميه أحد بهذا الاسم رغم أنه اسمه فعلاً، لأنه يستاء استياء شديداً من مناداته بهذا الاسم، وإنه لا غنى عن مخاطبته باسم جورسكين «وإلا فلن تفلح معه في شيء، بل ولن يسمع لك». بهذه العبارة ختم القس كلامه، فدهش ميتيا قليلاً، وأجاب بأن هذا الاسم هو الاسم الذي ذكره له سامسونوف نفسه. فلما سمع الكاهن ذلك أسرع يغير الحديث. ولعله كان يحسن صنعاً لو أفصح لميتيا عن الشك الذي راوده والشبهة التي خطرت بباله:لئن أرسله سامسونوف إلى هذا الفلاح مطلقاً عليه اسم لياجافي، فمن الجائز جداً أن يكون قد فعل ذلك سخراً به وضحكاً عليه؛ ولا بد أن يكون في الأمر شيء «يعرج» على كل حال. ولكن ميتيا لم يكن في وقته متسع للتوقّف عند «مثل هذه السفاسف». فهو يغذّ السير ويمشي بخطى مديدة، ولم يدرك أن المسافة التي قطعها ليست فرسخاً ولا فرسخاً ونصف فرسخ، بل ثلاثة فراسخ على الأقل، لم يدرك ذلك إلا حين وصل إلى سوخوى بوسيولوك. ومع ذلك كبح جماح غضبه وسيطر على حنقه. ودخل الرجلان الدار التي كان حارس الأحراج، وهو رجل يعرفه القس، يشغل نصفها، بينما كان نصفها الثاني الذي كان أفضل من الأول عناية وصيانة والذي يفصله عن النصف الأول دهليز، موضوعاً تحت تصرف جورسكين؛ ومضى الرجلان إلى جورسكين رأساً وأشعلا شمعة. كانت الغرفة مدفأة تدفئاً شديداً، وعلى مائدة من خشب الصنوبر يرى سماور منطفئة وصينية وفناجين وزجاجة «روم» فارغة وإبريق ما يزال فيه بقايا فودكا، وكسرات خبز. أما لياجافي فكان مستلقياً على دكة، قد لف سترته واتخذها وسادة، وكان يشخر شخيراً ثقيلاً. نظر إليه ميتيا متحيراً، ثم قال في قلق:

- يجب إيقاظه طبعاً! إن القضية التي جئت من أجلها ملحة، وأنا في عجلة من أمري، لأن علي أن أرجع في هذا اليوم نفسه.

صمت القس والحارس ولم يقولا رأيهما. واقترب ميتيا من النائم وأخذ يحاول إيقاظه، فكان يهزه هزة قوية، ولكنه لم يظفر بشيء؛ فحدث ميتيا نفسه «هو سكران، فماذا عساي أصنع؟ ما عساي أفعل؟ يا رب!» وإذ بلغ الذروة من نفاد الصبر، شد الشاخر من ذراعيه، ثم شده من ساقيه، ثم هز رأسه، ثم أنهضه قليلاً وحاول يجلسه على الدكة، فلم يستطع أن ينتزع منه بعد جهود طويلة إلا بضع دمدمات تتخللها شتائم مقذعة غير واضحة. قال القس أخيراً:

- خير لك أن تنتظر، فما هو في حالة تمكنه من النهوض والمناقشة.

وقال الحارس:

- لقد ظل يشرب طوال النهار. فصاح ميتيا يقول:

- آه! يا رب! لو علمتما مدى حاجتي إليه، وفي أي ظرف يائس أنا!...

قال القس:

- لا حيلة في الأمر، لا بد من الانتظار إلى صباح غد.

- إلى غد؟ رحماك! هذا مستحيل!

واشتد به الكرب فأراد أن يهز السكران من جديد، ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك، لأنه أدرك أن جهوده عبث لا فائدة منه. وقد صمت القس فأصبح لا يقول شيئاً، أما الحارس فكان شديد النعاس فسكت كذلك كالح الوجه عابس الهيئة.

قال ميتيا وقد بلغ أوج الحيرة والاضطراب:

- إن الحياة تهيئ للإنسان في بعض الأحيان مهازل فاجعة مبكيه! وكانت قطرات من العرق تسيل على وجهه. وانتهز القس لحظة هدوء فأوضح كيف أن إيقاظ النائم لن ينفع في شيء، لأنه لن يكون قادراً على المناقشة وهو فيما هو فيه من سكر شديد وختم كلامه قائلاً: «وما دام الأمر الذي جئت من أجله هاماً، فالأفضل أن ترجئه إلى الصباح».

فوافق ميتيا على هذا الاقتراح وهو يباعد بين ذراعيه معبراً عن العجز وقال:

- طيب يا أبتي. سأبقى هنا مع الشمعة أرقب اللحظة المؤاتية، فمتى استيقظ كلمته.

وأضاف يقول ملتفتاً نحو الحارس:

- وسأدفع لك ثمن الشمعة، وسأدفع لك أيضاً أجر قضاء الليلة هنا. سوف تتذكر دمتري كارامازوف.

ثم عاد يخاطب القس فسأله:

- أما أنت يا أبي فلا أعرف الآن أين ستنام أنت؟ فأجابه القس بقوله:

- الأمر بسيط، أعود إلى بيتي. وأضاف يقول مومئاً إلى الحارس:

- سآخذ فرسه. والآن نعمت مساء. أرجو لك التوفيق كله.

وذلك ما كان. عاد القس إلى بيته على الفرس، سعيداً بخلاصه من ميتيا. وكان في أثناء الطريق يحرك رأسه قلقاً بعض القلق، متسائلاً ألا يحسن به أن يبلغ فيدور بافلوفتش أمر هذه القضية العجيبة منذ الغد، قائلا لنفسه:«إنه إذا علم بالأمر لسوء الحظ، فقد يغضب مني فيمنع عني خيراته». أما الحارس فقد حك رأسه وعاد إلى غرفته دون أن ينطق بكلمة. جلس ميتيا على الدكة مترقباً اللحظة المؤاتية كما قال، وقد هبط عليه حزن عميق رهيب شمله كضباب كثيف. كان

يحاول أن يفكر، ولكن أفكاره كانت تتهرب بسبب ما هو عليه من إرهاق وكَرَب.
إن الشمعة تذوب ببطء؛ وهذا جدجد يغني في مكان ما؛ والهواء قد أصبح خانقاً في الغرفة المدفأة تدفئة زائدة. وفجأة تراءت لخيال ميتيا حديقة أبيه، والممر الذي يقع خلف الحديقة، وتراءى له باب يُفتح خلسةً في المنزل، وتراءت له جروشنكا تتسلل من الباب... فإذا هو يثب عن الدكة واقفاً!...
دمدم وهو يصرف بأسنانه:
- يا للمأساة!
ثم دنا من النائم بخطوات آلية، وأخذ يتفرس في وجهه. إنه فلاح نحيل ما يزال شاباً، شديد استطالة الوجه، مضفور الشعر الكستنائي، الذقنه لحية طويلة رقيقة، يرتدي قميصاً من القطن وصدرية سوداء تتدلى من جيبها سلسلة ساعة من فضة. تأمل ميتيا وجهه، فشعر بكره شديد لهذا الرجل، وأحنقته ضفائره خاصة، لا يدري لماذا؟ وبدا له أنه أمر لا يطاق، أمر مذل مهين أن يكون عليه، هو ميتيا الذي جاء لأمر مستعجل هام ضحى في سبيله بالكثير وترك من أجله الكثير، أن يكون عليه أن ينتظر هنا ممزق القلب هما، بينما هذا الكسلان الذي يتوقف عليه مصيري في هذه الساعة يغط في النوم ويشخر كأن شيئاً لم يكن، وكأنه على كوكب آخر.
صاح ميتيا يقول:«آه... يا لسخرية القدر!» وطاش صوابه فهجم فجأة على الفلاح السكران مرة أخرى يريد أن يوقظه. وبغضب مسعور راح يهزه بكل ما أوتي من قوة، إنه الآن حاقد عليه، وها هو ذا يصدمه، بل ها هو ذا يضربه. ولكن جميع جهوده ذهبت سدى! فلما رأى بعد خمس دقائق من الجهود الضائعة أنه لا سبيل إلى إيقاظه، عاد إلى مكانه وجلس شاعراً بعجز ويأس وهو يكرر قوله:
- يا للسخف! يا للغباء! ثم إذا هو يضيف إلى ذلك دون أن يعرف لماذا:
- يا للذل أيضاً! يا للعار! وأخذ يشعر بصداع رهيب في رأسه. وتساءل لحظة:«أأعدل؟، أأرجع؟» ولكنه أجاب يقول:«بل سأنتظر إلى الصباح. سأبقى خصيصاً، خصيصاً وإلا فلماذا قد جئت إلى هنا؟ ثم ما عساي أفعل لأرحل بغير خيل؟ أوه! ما أسخف هذا كله»..
وكان صُداع رأسه ما ينفك يشتد أثناء ذلك. وظل ساكناً جامداً دون أن يلاحظ النعاس الذي كان يستولي عليه شيئاً بعد شيء، ونام آخر الأمر جالساً. لا بد أنه نام على هذه الحال ساعتين أو أكثر، فلما استيقظ كان يشعر بصداع فظيع لا يطاق، حتى ليوشك ميتيا من فرط شدته أن يصرخ. كان صدغاه يطنان طنيناً، وكان يحس بوجع في رقبته. فلما فتح عينيه لم يستطع أن يسترد حواسه، وانقضت برهة طويلة قبل أن يفهم ما به، ثم أدرك في نهاية الأمر أن الغرفة المدفأة تدفئة زائدة تمتلئ برائحة قوية هي رائحة فحم محترق، وأنه كاد يموت اختناقاً. وكان السكران ما يزال يشخر ويغط في نومه على الدكة. وكانت الشمعة التي انصهرت انصهاراً تاماً تهم أن تنطفئ. صرخ ميتيا وأسرع إلى غرفة الحارس مترنح الخطى. فسرعان ما استيقظ الحارس، ولكن لم يبد عليه أنه انفعل كثيراً حين علم بما حدث، وإنما مضى يتخذ الإجراءات اللازمة ببروداً وقلة اكتراث، فدهش ميتيا من ذلك حتى كاد ينفجر غضباً. وصاح يقول مضطرباً اضطراباً شديداً:
- لقد مات، مات... فماذا بعد؟
فُتح الباب، وفتحت نافذة، ودخل الهواء إلى الغرفة، ونظفت مدخنة المدفأة. ومضى ميتيا فجاء بدلو ماء فأغطس فيه رأسه، ثم تناول خرقة فبللها بالماء ووضعها على جبين لياجافي. فكان الحارس ينظر إليه أثناء ذلك هادئاً هدوءاً يوشك أن يشتمل على احتقار؛ وقال بلهجة متجهمة بعد أن اكتفى بفتح نافذة:«هذا كاف». ثم رجع إلى غرفته ينام، تاركاً لميتيا سراجاً مشتعلاً. ظل ميتا يعتني قرابة نصف ساعة بالسكران الذي كان يستنشق غاز الفحم السام، وظل يجدّد له الكمادات المبتلة مرة بعد مرة، وقرر أن يستمر على هذه الحال حتى الصباح. ولكنه جلس ليستريح لحظة قصيرة، منهوك القوى، فسرعان ما أغمض عينيه، واضطجع على الدكة دون أن يلاحظ ذلك، ولم يلبث أن نام على الفور نوماً ثقيلاً.
فلما استيقظ كانت الساعة التاسعة تقريباً، والشمس تسطع من خلال نافذتَي الغرفة الصغيرتين؛ والفلاح المضفور الشعر قد ارتدى ثيابه كاملة، وجلس إلى المائدة التي كان عليها سماور جديد وإبريق فودكا جديد قد أفرغ أكثر من نصفه منذ الآن (كان الإبريق الأول فارغاً ليس فيه قطرة واحدة)، فنهض ميتيا بوثبة واحدة، وأدرك منذ النظرة الأولى أن الفلاح اللعين قد سكر من جديد، وأن سكره سيكون في هذه المرة عميقاً لا برء منه ولا علاج له. ظل ميتيا يحق إلى الفلاح دقيقة محملق العينين. أما الفلاح فكان يلاحظ ميتيا صامتاً، بشيء من الخبث والمكر، بل بثقة مستخفّة محتقرة فيما بدا لميتيا.
قال له ميتيا:
- معذرة... أعتقد. لا بد أن حارس الحراج قد أخبرك... أنا الملازم دمتري كارامازوف، ابن العجوز كارامازوف الذي تفاوضه في أمر ثمن أشجار الغابة...
فأجابه الفلاح يقول بيقين هادئ وثقة كاملة مقطعاً كلامه:
- أنت تكذب! هذا غير صحيح!
- كيف؟ أنا أكذب؟ إنك تعرف فيدور بافلوفتش مع ذلك! فقال الفلاح رخوَ الفم:
- أنا أجهل من هو فيدور بافلوفتش!
- كيف هذا؟ لقد ساومته على ثمن أشجار الغابة. هلا استيقظت أخيراً؟ هل ثبت إلى رشدك؟ إن الأب بافل إيلنسكي هو الذي جاء بي إلى هنا... ولقد كتبت أنت إلى سامسونوف، فأرسلني سامسونوف إليك.
كذلك قال ميتيا لاهثاً مختنقاً. فعاد لياجافي يقول له مقطعاً كلامه:
- أنت... تك... ذب. فأحس ميتيا بقشعريرة باردة في ظهره.
- أرجوك! ليس الأمر مزاحاً. لعلك سكران قليلاً. حاول أن تتكلم جاداً... افهمني... أو... أو... أصبحت لا أفهم!
- أنت هذه هي مهنتك!
- أرجوك، أتوسل إليك! أنا كارامازوف، دمتري كارامازوف، وقد جئت أعرض عليك صفقة... صفقة رابحة... رابحة جداً لك... صفقة تتعلق بهذه الغابة نفسها...
أخذ الفلاح يلاعب لحيته بوقار ورصانة. ثم قال:
- هذا كذب! لا شك أنك تواطأت على جريمة وتريد أن توقع بي. أنت نذل، نعم نذل.
قال ميتيا محتجاً وهو يعقف ذراعيه كمداً ويأساً:
- أؤكد لك أنك مخطئ!
عندئذٍ أغمض الفلاح عينيه نصف أغماض ماكر، وهو ما يزال يلاعب لحيته. ثم قال:
- أود أن تقول لي ما هو القانون الذي يجيز للناس أن يقترفوا النذالات. هل تسمعني؟ أنت نذل، هل تفهم؟.
تقهقر ميتيا وقد أظلمت نفسه إظلاماً شديداً. وعندئذٍ برقت في ذهنه فكرة مفاجئة، «كأن أحداً ضربه على جبينه»، كما روى هو ذلك فيما بعد. لقد اتضح كل شيء في فكره الآن. كان ذلك إلهاماً مباغتاً، فأدركت كل شيء. تساءل ميتيا، مذهولاً، كيف أمكن أن يُساق، هو الرجل الذكي رغم كل شيء، كيف أمكن أن يُساق إلى وضع سخيف هذا السخف، وكيف أمكن أن يندفع في مغامرة كهذه المغامرة، وأن يستمر فيها قرابة أربع وعشرين ساعة، وأن يشغل نفسه بلياجافي هذا واضعاً على جبينه كمادات مبللة... «إنه سكران، سكران سكراً فظيعاً، وسيظل يشرب على هذا النحو أسبوعاً بكامله... فعلام أنتظر مزيداً من الانتظار؟ وماذا إذا كان سامسونوف قد سخر مني وضحك على بإرسالي إلى هنا؟ وماذا إذا هي... أثناء هذه المدة... قد... آه. يا رب! ماذا صنعت بنفسي؟»..
كان الفلاح ينظر إليه ضاحكاً. فلو قد كان ميتيا في ظرف غير هذا الظرف إذاً لانقض على هذا الأبله حانقاً فصرعه، ولكنه كان يشعر في تلك اللحظة أنه ضعيف كطفل. فها هو ذا يتجه نحو الدكة بخطى بطيئة، فيرتدي معطفه، ويخرج من الغرفة دون أن يقول كلمة واحدة. ولم يجد الحارس في الغرفة الأخرى، فتناول من جيبه خمسين كوبيكا فوضعها على المنضدة ثمناً للشمعة وأجرة للمبيت وتعويضاً على الإزعاج. وخرج من العزبة، فوجد نفسه في قلب الغابة دون أن يكون هناك شيء يمكن أن يستهديه في معرفة طريقه؛ فسار على غير هدى، لأنه لم يتذكر حتى الجهة التي جاء منها، فلم يعرف أيتجه يمنة أم يتجه يسرة وهو يخرج من منزل الحارس. إنه لم يلاحظ الطريق حين كان يسير مع القس في الليلة البارحة من شدة تعجله. وهو الآن لا يشعر بأية رغبة في الانتقام، حتى ولا من سامسونوف. إنه يسير في ممر الغابة الضيق، خاوي الرأس فاقد الأمل، كأنه يبحث عن فكرة ضائعة، ولا يهمه أن يعرف إلى أين كان ذاهباً. إن في وسع طفل صغير أن يقلبه على الأرض في تلك اللحظة بسهولة، من فرط ما كان يعاني من إرهاق جسمي ونفسي معاً. ومع ذلك خرج أخيراً من الغابة، فوجد نفسه فجأة أمام حقول محصودة عارية تنبسط على مدى البصر. قال في نفسه وهو ما يزال يسير قدمه دون أن يلوي على شيء:«كان اليأس والموت قد مرّا بهذا المكان»
.وأنقذه مسافرون. إن عربة تنقل تاجراً عجوزا كانت تسير على الطريق الذي يصل بين قرى صغيرة. فلما بلغته العربة سأل حوذيها عن الدرب، فاتفق أن كان

الحوذي ذاهباً إلى فولوفيا أيضاً. وسرعان ما تم الاتفاق بينه وبين الحوذي، فركب ميتيا إلى جانب المسافر العجوز. وبعد ثلاث ساعات وصلت العربة إلى محطة فولوفي، فلاحظ ميتيا على حين فجأة، بعد أن أمر بخيل تقله إلى المدينة، أنه يكاد يموت جوعاً؛ فبينما كانت الخيل تقرن، أمر لنفسه بطبق من عجة التهمة التهاماً مع قطعة كبيرة من الخبز، ثم انقض على سجق وجده جاهزاً، وشرب ثلاث أقداح صغيرة من الفودكا. حتى إذا استرد بذلك قواه، شعر بتجدد شجاعته، واستعاد صفاء نفسه. الخيل تجري، وميتيا يحض الحوذي على مزيد من السرعة، ويهيئ في الوقت نفسه «خطة جديدة، خطة «لا تخطى» في هذه المرة، من أجل الحصول على هذا المبلغ اللعين» قبل نهاية ذلك اليوم. هتف يقول مشمئزاً اشمئزازاً عميقاً:«كيف يمكن أن يهوي مصير إنسان بسبب هذه الثلاث آلاف روبل الحقيرة؟ لأجدها في هذا اليوم نفسه!». وكان يمكن أن يجعله هذا التصميم سعيداً مرحاً، لولا أن التفكير في جروشنكا كان يحاصره. كان يفكر فيما الذي يمكن أن يحدث لها. كانت هذه الأفكار تطعنه في كل لحظة كشفرة مسنونة. ووصلت العربة أخيراً، فأسرع ميتيا إلى جروشنكا رأسا.

-3-مناجم الذهب

عن هذه الزيارة إنما تحدثت جروشنكا إلى راكيتين مذعورة. كان قد سَّرها، وهي تنتظر «الرسالة»، أن ميتيا لم يظهر منذ يومين، وكانت تقول لنفسها إنه قد لا يجيء قبل رحيلها بإذن الله، ولكنه ظهر على حين فجأة. والقاري يعرف التتمة، يعرف كيف تعللت له بضرورة ذهابها إلى كوزما سامسونوف حالاً، لبعض الحسابات، وكيف رجته أن يرافقها، وكيف استقطعته على نفسه وعداً، حين تركته أمام منزل التاجر العجوز، بأن يجيء في منتصف الليل لاصطحابها إلى منزلها.
وقد سعد ميتيا بهذه التسوية، قال لنفسه:«ما دامت ستقضي السهرة عند كوزما، فلن تذهب إلى فيدور بافلوفتش»، ولم يلبث أن أضاف يحدث نفسه قائلاً:«اللهم إلا أن تكون كاذبة». ولكنه كان يعتقد بأنها صادقة. إنه ينتمي إلى تلك الفئة من الغيورين الذين يتخيلون أفظع الأشياء متى ابتعدوا عن المرأة المحبوبة، ويعانون عذاباً رهيباً من تصور «خيانتها» لهم أثناء غيابهم. ولكن ميتيا كان متى التقى بجروشنكا مرة أخرى قلقاً بائساً معذب النفس من يقينه بأنها خانته، لا يلبث أن يسترد روحه حين يرى وجهها الضاحك الرقيق المرح، فإذا هو يطرد كل شكوكه، ويشعر بالخجل من غيرته، ويلوم نفسه على قلة الثقة. بعد أن قام ميتيا بمرافقة جروشنكا إلى منزل سامسونوف أسرع يعود إلى بيته. إن هناك مسائل كثيرة بقي عليه أن يحلها قبل حلول الغد! وكان يشعر على الأقل بأن حملاً ثقيلاً قد انزاح الآن عن صدره. غير أنه لم يلبث أن قال لنفسه: «ينبغي لي أن أسأل سمردياكوف، بأقصى سرعة ممكنة، هل حدث شيء في الليلة البارحة، هل ذهبت جروشنكا إلى فيدور بافلوفتش أمس؟». هكذا اشتعلت الغيرة في قلبه المعذب من جديد، قبل أن يتسع وقته للعودة إلى بيته.
الغيرة! «ليس عطيل غيوراً، إنه وَثوق»، كذلك قال بوشكين. إن هذه الملاحظة البسيطة تشهد بعمق عبقرية شاعرنا العظيم. إن ما عاناه عطيل من قلق النفس واضطراب الأفكار ناشئ عن أنه فقد إيمانه بمثله الأعلى. ولكن عطيل ما كان له أبداً أن يرضى لنفسه هوان المرابطة في مكان ما من أجل أن يتجسس ويترصد ويترقب: إنه أكثر ميلاً إلى الثقة من أن يفعل ذلك. بالعكس: كان لا بد من دفعه ومن تقديم البراهين له، ومن تحريضه بالأدلة الدامغة لحمله على تصوّر الخيانة. ليس كذلك الغيور الحق. لا يستطيع المرء أن يتخيل مدى ما يمكن أن يهوي إليه الغيور من درك الدناءة والحطة دون أن يشعر بأي خجل من ذلك. وليس معنى هذا أن الغيورين أناس يتصفون بحقارة النفس حتماً. لا... ربّ رجل نبيل القلب نقيّ الفكر محبّ مخلص العاطفة، يرتضي مع ذلك أن يختبئ تحت السرير، وأن يرشي أناساً قذرين، وأن يستخدم أحط أنواع التجسس. وما كان لعطيل أبداً أن يذعن للخيانة - أقول يذعن للخيانة ولا أقول يغفرها - رغم أن له نفساً رقيقة بريئة كنفس طفل صغير. وليس كذلك الغيور الحق! ما من شيء إلا ويمكن أن يذعن له الغيور وما من شيء إلا ويمكن أن يغفره عند الحاجة. إن الغيورين أسرع الناس إلى الغفران، والنساء يعرفن هذا! هم قادرون مثلاً على أن يمسحوا خيانة مشهودة (بعد أن يثوروا ثورة عنيفة في البداية طبعاً)، وقبلات وعناقات رأوها بأعينهم، شريطة أن يستطيعوا أن يقنعوا أنفسهم أن «هذه آخر مرة» وأن الغريم سيغيب وأنه سيرحل إلى بلد في آخر العالم، أو أنهم سيمضون هم أنفسهم بحبيبتهم إلى منطقة نائية لا يستطيع الخصم الكريه أن يدركها فيها يوماً. ثم لا تدوم المصالحة أكثر من ساعة طبعاً، ذلك أنهم، ولو اختفى الخصم، ما يلبثون أن يكتشفوا خصماً جديداً منذ الغد، فإذا هم يستأنفون عذاب أنفسهم بسبب هذه «الخيانة» الجديدة. رب متسائل يتساءل: ما هي قيمة حب يقتضي هذه الاحتياطات كلها، ويتطلب هذه المراقبة الدائمة المتصلة. وهل المرأة التي يعتقدون أنها تخونهم تستحقّ منهم هذا الحب كله. إن هذا السؤال بعينه هو ما لا يلقيه الغيورون الحقيقيون على أنفسهم، مع أن منهم أناساً لهم نفوس سامية رفيعة. وهناك أمر جدير بالملاحظة أيضاً: إن ذوي العواطف النبيلة من هؤلاء الغيورين يستطيعون، وهم مختبئون في ركن من الأركان للتجسس والتنصت، يستطيعون أن يفهموا تماماً، «لنبل قلوبهم»، أنهم ينحدرون إلى الخزي والعار، ولكنهم مع ذلك لا يشعرون بشيء من عذاب الضمير، ما ظلوا مختبئين في أوكارهم على الأقل.
ما إن رأى ميتيا صاحبته جروشنكا حتى شعر بغيرته تتبدد وتزول، وحتى عاد وَثوقاً كريماً سمحاً خلال بضع لحظات، بل لقد مضى في هذا إلى حد احتقار نفسه بسبب تلك الشكوك الأثيمة التي ساورته وذلك يدل على أن حبه لتلك المرأة كان فيه عنصر أسمى كثيراً مما كان يظن هو نفسه، وأن الشهوانية «وتثنيات جسدها» التي حدث عنها أخاه أليوشا، ليست جوهر ذلك الحب، ولكن ما إن غابت جروشنكا عن عينيه حتى عاد يتصور فيها جميع حقارات الخيانة ودناءاتها، دون أن يشعر أثناء ذلك بأي ندم أو عذاب ضمير.
استبدت به الغيرة إذاً من جديد. وكان عليه أن يستعجل على كل حال. كان عليه قبل كل شيء أن يجد قليلاً من المال لسدّ حاجاته المباشرة: إن الروبلات التسعة التي جمعها في الليلة البارحة كانت قد نفدت كلها تقريباً في تلك الرحلة؛ والمرء لا يستطيع أن يفعل شيئاً حين لا يكون في جيبه قرش واحد كما يعلم ذلك جميع الناس. ولقد فكَّر ميتيا، أثناء وضعه خطته الجديدة في العربة، فكَّر في الوسيلة التي تمكنه من الحصول على بضعة روبلات بلا إبطاء. إنه يملك خراطيش ومسدسين رائعين من المسدسات التي تستعمل في المبارزات، ولم يكن قد رهنهما حتى الآن، لأنه يحرص عليهما حرصاً أكثر من حرصه على الأشياء الأخرى. وكان قد تعرف منذ زمن طويل، في حانة «العاصمة الكبرى»، بموظف شاب عازب غني كان فيما يقال في الحانة أيضاً يهوى جمع الأسلحة على اختلاف أنواعها هوى شديداً. فهو يشتري مسدسات وبنادق وخناجر يعلقها على جدران غرفته، ويدعو ضيوفه إلى مشاهدتها ويعتز بها ويشرح لهم نظام كل مسدس وطريقة حشوه بالرصاص، وطريقة التصويب به، إلخ. ذهب ميتيا إلى هذا الموظف الشاب دون تفكير كثير، وعرض عليه أن يستودعه مسدّسَيْه رهناً على قرضٍ قدره عشرة روبلات، فسرَّ الموظف سروراً عظيماً، وحاول إقناع ميتيا بأن يبيعه هذين السلاحين، ولكن ميتيا رفض التخلي عنهما، فدفع له الموظف عندئذٍ عشرة روبلات قائلاً إنه لن يتقاضى فوائد عن هذا القرض بحال من الأحوال. وافترق الرجلان صديقين. وأسرع ميتيا إلى جناحه الذي يقع خلف منزل فيدور بافلوفتش بغية أن يلقى سمردياكوف. وهكذا أثبتَ ميتيا من جديد واقعة وهي أنه قبل حدوث الحادث الذي سنتحدث عنه طويلاً فيما بعد، قبل حدوث ذلك الحادث بثلاث ساعات أو أربع لم يكن في جيبه كوبيك واحد، فقرر أن يرهن في سبيل الحصول على عشر روبلات مسدسين كان يحرص عليهما أشد الحرص، ثم إذا هو بعد ذلك ببضع ساعات يملك ألوف الروبلات... ولكنني أسبق بهذا تتمة القصة فلأعد إلى حيث كنت.
علم ميتيا في منزل ماريا كوندراتيفنا (جارة فيدور بافلوفتش) بنبأ مرض سمردياكوف فاضطرب اضطراباً شديداً وقلق قلقاً عظيماً. أصغى إلى قصة سقوطه في القبو، ونوبة الصرع، ووصول الطبيب، وهموم فيدور بافلوفتش. وأُبلغ أيضاً نبأ سفر إيفان فيدوروفتش إلى موسكو في مطلع الصباح، فبدا عليه اهتمام شديد بهذه الواقعة التفصيلية. قال يحدّث نفسه: «لا بد أن إيفان قد مرَّ بفولوفيا قبلي». غير أن مرض سمردياكوف قد أحدث في نفسه قلقاً كبيراً ومخاوف خطيرة. كان يحدث نفسه قائلاً: «ما العمل الآن؟ من عساي أكلف بمراقبة المنزل واطلاعي على ما يجري؟» فأخذ يسأل المرأتين بإلحاح: «ألم تلاحظا شيئاً في مساء أمس؟». وأدركت المرأتان فوراً ما الذي يحاول أن يعرفه فطمأنتاه ما وسعهما أن تطمئناه. قالتا له مؤكدتين: لم يجئ أحد. وقد أمضى إيفان فيدوروفتش الليلة كما اعتاد أن يمضيها، و«جرى كل شيء على ما يجب». وجم ميتيا مفكراً. لا بد من حراسة في هذه الليلة أيضاً. الأمر واضح، ولكن أين يرابط؟ أيرابط هنا في الحديقة، أم يرابط أمام منزل سامسونوف؟ وقرر أخيراً أن يراقب المكانين كليهما، وفقاً لما توجبه الظروف، أما الآن... كل ما في الأمر أنه كان عليه أن ينفذ «الخطة» الجدية، الأكيدة في هذه المرة، التي رسمها في العربة. إن هذا المشروع لا يمكن تأجيله. فقرر ميتيا أن يقف على هذا المشروع ساعة من الزمن وقال يحدث نفسه: «بعد ساعة واحدة أكون قد علمت كل شيء وسوَّيت كل شيء، ثم أذهب إلى منزل سامسونوف أسأل أما تزال جروشنكا عنده، ثم أعود إلى هنا فوراً لأبقى حتى الساعة الحادية عشرة، وبعد ذلك أذهب إلى منزل سامسونوف ثانية لأصحبها إلى بيتها». هذا ما قرر ميتيا أن ينفذه وعلى هذا النحو حلّ الأمور.
وأسرع إلى بيته فاغتسل ومشط شعره ونظف ثيابه بالفرشاة، وارتدى ملابسه وذهب إلى السيدة خوخلاكوفا. فهناك كانت «خطته»، واحزناه! كان ميتيا قد قرر أن يقترض الثلاثة آلاف روبل من تلك السيدة. حتى لقد راوده على حين فجأة يقينٌ عجيب خارق من أنها لن تمنع عنه هذا المبلغ. رب متسائل يتساءل: إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يخطر بباله أن يتجه قبل هذا الوقت إلى هذه المرأة التي تنتمي إلى بيئته على الأقل، ولماذا آثر أن يتجه إلى سامسونوف الذي يجهل ميتيا طبيعة تفكيره ولا يعرف بأي لغة يخاطبه؟ يحسن أن نذكر هنا أن ميتيا كان قد انقطع منذ شهر عن التردد إلى منزل هذه السيدة التي كان لا يعرفها كثيراً على كل حال. وكان يعلم عدا ذلك أنها لا تطيقه، ذلك أنها قد ناصبته العداء منذ البداية في الواقع، لسبب بسيط هو أنه كان خطيب كاترينا إيفانوفنا. لقد كانت تتمنى أن تقطع كاترينا إيفانوفنا صلتها به لتتزوج إيفان فيدوروفتش «الشاب المثقف، اللطيف، الذي يملك روح الفروسية ويتمتع بآداب راقية»، على حين أن آداب ميتيا بدت لها كريهة مقيتة. ثم إن ميتيا قد سخر منها مراراً كثيرة وقال عنها ذات مرة «إنها كثيرة الحركة والكلام بمقدار ما هي قليلة الثقافة». ولكن فكرة قد ومضت في ذهنه وميض البرق، في الصباح، فقال لنفسه: «ما دامت تكره أن أتزوج كاترينا إيفانوفنا وما دام هذا الزواج يثير حنقها إلى هذا الحد (كان لا يجهل أن استياء السيدة خوخلاكوفا من هذا الزواج يبلغ حد الهستريا)، فلا يمكن أن ترفض إقراضي هذه الثلاثة آلاف روبل التي ستتيح لي أن أفصم علاقتي بكاتيا، وأن أرحل من هنا إلى الأبد». وكان ميتيا يقول لنفسه أيضاً: «إن نساء المجتمع المدللات لا يبخلن بشيء في سبيل نزواتهن. عدا ذلك فهي غنية جداً». إن «الخطة» التي وضعها لاقتراض هذا المبلغ من السيدة خوخلاكوفا لا تختلف عن خطة البارحة: سوف يعرض عليها أن يتنازل لها عن حقوقه في قرية تشرماشنيا، ولكنه لا ينوي في هذه المرة أن يبسط الأمر على أنه صفقة تجارية، ولا يهدف إلى إغراء هذه السيدة، كما حاول إغراء سامسونوف، بأنها ستربح ستة آلاف أو سبعة

آلاف روبل؛ وإنما يكون التنازل عن الحقوق، في هذه الخطة الجديدة، بمثابة ضمانة سخية للقرض الذي سيُتفق عليه. وكان كلما ازداد تفكيرا في هذا المشروع ازداد حماسةً له، وذلك ما يحدث له دائما حين يتخذ قراراً جديداً. إنه يتحمس في البداية لكل مشروع جديد من مشاريعه. ومع ذلك شعر، وهو يصعد درجات من منزل آل خوخولاكوف، بقشعريرة في ظهره، واجتاحت نفسه عندئذٍ عاطفة قلق رهيب وخوف شديد: لقد أدرك في تلك اللحظة، بيقين رياضي، أنه يقامر بآخر ورقة يملكها. فإذا لم تفلح هذه المحاولة، فلا أمل بعد ذلك، «اللهم إلا أن أذبح أحداً وأسلبه ثلاث آلاف روبل، وبدون ذلك فلا مخرج لي...». كذلك قال ميتيا لنفسه. وكانت الساعة السابعة والنصف حين شدَّ الجرس.
بدا كل شيء يجري على ما يحب ويشتهي في أول الأمر: فما إن أُبلغت السيدة خوخلاكوفا عن وصوله حتى أمرت بإدخاله. فدُهش ميتيا من سرعة استقباله، وقال لنفسه: «لكأنها كانت تنتظرني». وما كاد يدخل الصالون حتى هرعت إليه وأعلنت له فجأة أنها كانت تنتظره...
- كنت أنتظرك، كنت أنتظرك! لا شيء كان يسمح لي بأن أتنبأ بزيارتك، أعتقد أنك تقدر ذلك بسهولة، ومع هذا كنت أنتظرك. فأعجب بما أملك من صدق غريزة المرأة يا دمتري فيدوروفتش، لأنني كنت واثقة، منذ هذا الصباح، بأنك ستزورني.
قال ميتيا وهو يجلس بخراقة:
- حقاً إن هذا يثير الدهشة... يثير أكبر الدهشة ولكنني جئت من أجل قضية خطيرة، خطيرة خطورة رهيبة... بالنسبة إليَّ، طبعاً... يا سيدتي... بالنسبة إليَّ وحدي... لذلك أسارع ف...
- أعرف أن السبب الذي دفعك إلى المجيء سبب خطير يا دمتري فيدوروفتش. وليست المسألة هنا مسألة تنبؤات لأنني أكره ذلك وذلك الإيمان الرجعي بالمعجزات (هل علمت بما جرى للشيخ زوسيما؟)... وإنما الأمر حساب رياضي: كان لا بد أن تجيء إليَّ حتماً بعد كل ما جرى مع كاترينا إيفانوفنا، لم يكن في وسعك أن لا تجيء. هذه رياضيات...
- أو فلنقل هذا واقعية يا سيدتي. لنكن واقعيين هذه حياة... اسمحي لي أن أبسط لك بإيجاز...
- الواقعية... قلتها يا دمتري فيدوروفتش! أنا من أنصار الواقعية بعد اليوم!... لقد تلقيت درساً قاسياً وقد شفيت من مرض الإيمان بالمعجزات. أنت لا تجهل طبعاً أن الشيخ زوسيما قد مات؟
قال ميتيا بشيء من الدهشة:
- لم أكن أعلم شيئاً عن ذلك.
وطافت بخياله صورة أليوشا. قالت السيدة خوخلاكوفا:
- مات هذه الليلة... تصور أن...
قاطعها ميتيا قائلاً:
- سيدتي، أنا لا أعرف إلا شيئاً واحداً: هو أنني في وضع عصيب للغاية وأن كل شيء سينهار إذا أنت لم تساعديني، وسأكون أنا أول من ينهار. اغفري لي خشونة لغتي، ولكنني في قلق محموم؛ إن بي حمى حقاً...
- أعرف ذلك، أعرف ذلك، أعرف أن بك حمى. أنا مطلعة على كل شيء، وما كان يمكن أن تكون حالتك النفسية غير ما هي عليه. كل ما قد تقوله لي الآن، أنا أعرفه سلفاً. إنني أفكر في مصيرك منذ زمن طويل يا دمتري فيدوروفتش. كنت ألاحظ حياتك، وأدرسها... هه! أنا طبيبة نفوس، خبيرةٌ جداً... صدقني يا دمتري فيدوروفتش!
عاد ميتيا يقول وهو يبذل جهداً من أجل أن يبدو لطيفاً محبباً:
- سيدتي، لا شك عندي في أنك طبيبة خبيرة. ولكنني أنا أيضاً مريض خبير. إنني مقتنع اقتناعاً قوياً بأنك ستساعدينني في اتقاء هلاك كبير، ما دمت قد اهتممت بمصيري ذلك الاهتمام كله. فاسمحي لي أن أبسط لك أخيراً الخطة التي تجرأت أن أجيء لأبسطها لك... وأن أقول لك بهذه المناسبة نفسها إنني آمل منك... لقد جئت يا سيدتي من أجل أن...
- لا تشرح.... هذا أمر ثانوي! لن تكون أول شخص أساعده يا دمتري فيدوروفتش! لا شك أنك سمعت عن ابنة عمي بلمسوفا.
كان زوجها الذي تدمرت حالته المالية قد انهار انهياراً على حد التعبير الصادق الذي استعملته أنت منذ هنيهة. فنصحتها بتعاطي تربية الخيول، فأصبحت حالتها اليوم مزدهرة ازدهاراً عظيماً. هل تفهم في شؤون تربية الخيول يا دمتري فيدورفتش؟
صاح ميتيا يقول نافد الصبر ثائر الأعصاب، حتى لقد همَّ أن ينهض:
- لا يا سيدتي، أبداً... لا أفهم في هذا المجال شيئاً! أتوسل إليك يا سيدتي أن تصغي إليَّ لحظة. دعيني أتكلم دقيقتين فحسب، لأعرض لك مشروعي. ثم إنني لا أملك إلا وقتاً قصيراً جداً، أنا مستعجل غاية الاستعجال (كذلك أعول ميتيا يقول بصوت هستيري، إذ حزر أنها ستقاطعه، وأمل أن يستطيع منعها من مقاطعته برفع صوته). لقد جئت إليك لأنني قد بلغت ذروة اليأس، وأردت أن أرجوك أن تسلفيني ثلاثة آلاف روبل، ولكن بضمانة قوية وطيدة يا سيدتي، بشروط موثوقة تماماً. وها أنذا أشرح لك الموضوع...
قالت السيدة خوخلاكوفا وهي تحرك ذراعيها كأنما تطرد الشروح التي همَّ بها ميتيا:
- تشرح فيما بعد، فيما بعد... ستقول لي هذا كله فيما بعد. ثم إنني أعرف سلفاً كل ما قد تذكره لي، سبق أن قلت لك هذا. أنت في حاجة إلى مال، أنت تطلب ثلاثة آلاف روبل، ولكنني سأعطيك أكثر من ذلك، أكثر كثيراً، لأنني أريد أن أنقذك يا دمتري فيدورفتش. ولكنني أطالبك في مقابل ذلك بأن تطيعني.
وثب ميتيا من مقعده من جديد، قائلاً بانفعال شديد:
- آه! سيدتي! هل يمكن أن تكوني طيبة إلى هذا الحد؟! آه! لقد أنقذتني! يا رب! لقد انتزعت إنساناً من ميتة عنيفة يا سيدتي، من ميتة انتحارٍ بطلقة مسدس... لسوف أظل شاكراً لك إلى الأبد...
عادت السيدة خوخلاكوفا تقول، وهي تنظر بابتسامة مشرقة إلى وجه ميتيا المتحمس:
- لأعطينك أكثر كثيراً من ثلاثة آلاف روبل!
- أكثر كثيراً؟ لست في حاجة إلى كل هذا. ليس بي حاجة إلا إلى هذه الثلاثة آلاف الشقية! وأريد من جهتي أن أعطيك ضمانة لهذا القرض، وأن أعبر لك عن شكر لا حدود له. إن المشروع الذي أحبّ أن أبسطه لك هو...
فقاطعته السيدة خوخلاكوفا التي كان وجهها يشرق بفرحة الإحسان المتواضعة:
- كفى! أنا أنفذ ما أقول ولا أنكث عهداً. لقد وعدتك بأن أنقذك، وسأفعل. سأخرجك من مأزقك كما أخرجت بلمسوفا. ما رأيك في مناجم الذهب يا دمتري فيدوروفتش؟
- مناجم الذهب يا سيدتي؟ لم أفكر في هذا الأمر يوماً حتى الآن...
- أما أنا فقد فكرت فيه من أجلك! لقد وزنت جميع جوانب المسألة. إنني ألاحظك منذ شهر لهذا الغرض. ظللت أفحصك أكثر من مائة مرة عابراً، فكنت أقول لنفسي في كل مرة: «هذا رجل نشيط فعّال يمكن أن ينجح في مناجم الذهب»، حتى لقد أنعمت النظر في مشيتك، فاستنتجت أنك ستكتشف مناجم كثيرة.
لم يملك ميتيا إلا أن يسأل السيدة خوخلاكوفا مبتسماً:
- استنتجت ذلك من مشيتي يا سيدتي؟
فأجابت السيدة خوخلاكوفا:
- نعم، من مشيتك أيضاً. هل تستطيع أن تنكر يا دمتري فيدوروفتش أن في الإمكان معرفة طبع الشخص من مشيته؟ إن العلوم الطبيعية تعلمنا هذا. آه... ما أكثر ما أصبحت واقعية الآن! فمنذ ذلك اليوم، منذ تلك القصة التي حدثت في الدير والتي هزتنا هزاً قوياً، أصبحت لا أؤمن إلا بالواقعية با ال... وا... قعيّة، وأصبحت أريد أن أقف حياتي على نشاط عملي. لقد شفيت من الغيبيّة إلى الأبد. «كفى!»، كما قال تورجينيف[174].
- ولكن ماذا عن تلك الثلاثة آلاف روبل التي تفضلت فوعدتني بها كريمة سخية...
قاطعته السيدة خوخلاكوفا بقوة وحرارة:
- ستحصل عليها، تستطيع أن تعدها في جيبك منذ الآن. لا ثلاثة آلاف، بل ثلاثة ملايين، وخلال فترة وجيزة يا دمتري فيدوروفتش! إليك المشروع الذي أقترحه

عليك: تكتشف مناجم ذهب فتثرى ثراء عظيماً وتصبح من أصحاب الملايين؛ ثم تعود إلينا رجلاً كبيراً من رجال العمل والفعل، تصبح رجلاً محركاً لغيرك من الناس، تنقذنا من خَدَرنا وكَسَلنا وتقودنا نحو الخير. أمعقول أن نترك جميع هذه المبادرات لهؤلاء اليهود؟ ستبني عمارات، وستخلق صناعات، وستساعد الفقراء، وسيغمرك هؤلاء الفقراء بالدعوات والبركات... إننا نعيش في عصر السكك الحديدية يا دمتري فيدورفتش. وستعلم وزارة الخزانة، التي تتخبط في مصاعب ضخمة، ستعلم بوجودك وتعتمد عليك. إن سقوط عملتنا الورقية قد حرمني من النوم[175] ! ذلك جانب من طبيعتي لا يعرفه الناس كثيراً...

قاطعها ميتيا قائلاً وهو يوجس قلقاً شديداً:

- سيدتي! سيدتي! من الممكن أن أتبع نصيحتك، وهي نصيحة سديدة جداً في الواقع... سأتبع نصيحتك في ما بعد سأذهب إلى مناجم الذهب هذه... وسأعود مرة أخرى لنتحدث في أمرها... بل سنتحدث عنها مراراً كثيرة... أما الآن... فلنتكلم في تلك الثلاثة آلاف روبل التي تكرمت ف... آه! إن هذا المبلغ سيخرجني من جميع المصاعب! ليتني أستطيع الحصول عليه في هذا اليوم... ذلك أنني، كما ترين، لا أملك وقتاً أضيّعه... ولا ساعة...

قاطعته السيدة خوخلاكوفا تسأله بلهجة قاطعة:

- كفى، كفى! أجبني: أتذهب إلى مناجم الذهب أم لا؟ هل عزمت أمرك؟ أريد جوابا واضحاً دقيقاً!

- سأذهب يا سيدتي فيما بعد. سأذهب إلى حيث تريدين يا سيدتي! أما الآن...

صاحت السيدة خوخلاكوفا تقول:

- انتظر!

وثبت واقفة وهرعت نحو مكتبها الأنيق ذي الأدراج الكثيرة، فأخذت تفتحها درجاً درجاً بسرعة، باحثة فيها عن شيء ما.

قال ميتيا محدثاً نفسه وقد كاد ينشق قلبه: «الثلاثة آلاف! فوراً وبدون ضمانة، بدون رهن، بدون وصل... ما أنبلها! آه! إنها امرأة رائعة! ولكن ليتها كانت أقل ثرثرة...».

وهتفت السيدة خوخلاكوفا تقول بحماسة عائدة إليه:

- هاك... هاك ما كنت أبحث عنه.

هو أيقونة صغيرة جداً من فضة، ذات حبل، كالأيقونات التي تحمل أحياناً تحت القميص مع الصليب.

وشرحت السيدة خوخلاكوفا قائلة في إجلال:

- هذه الأيقونة من كييف. لقد لمست هذه الصورة رفات القديسة باربرا، الشهيدة العظيمة. فاسمح لي أن أعلقها لك بنفسي، لتباركك في حياتك الجديدة، ومشاريعك المقبلة.

قالت له ذلك، ووضعت الأيقونة حول عنقه، وجهدت أن تدسها تحت قميصه. أحنى ميتيا رأسه متحيراً، وأخذ يساعدها، وأفلح أخيراً في أن يدس الصورة تحت الياقة ورباط العنق وأن يضعها على صدره.

عندئذٍ قالت السيدة خوخلاكوفا وهي تجلس على مقعدها في مهابة:

- والآن هلُمَّ إلى مناجم الذهب.

قال ميتيا:

- سيدتي! أنا متأثر جداً... لا أدري كيف أشكر لك هذه العواطف الكريمة وهذه المشاعر النبيلة... ولكن ليتك تعلمين مدى استعجالي!... إن ذلك المبلغ الذي أنتظره من كرمك وأنا ممتلئ القلب بالأمل.. آه... ما أطيبك، ما أعظم عطفك عليَّ! (بهذا هتف ميتيا على حين فجأة في حماسة).. اسمحي لي أن أعترف لك... بأمر تعرفينه منذ زمن طويل على كل حال... إنني أحبّ امرأة في هذه المدينة... لقد خنت كاتيا... أقصد كاترينا إيفانوفنا. واأسفاه! كان سلوكي معها خالياً من الإنسانية والشرف... تولهت هنا بامرأة أخرى... امرأة لعلك تحتقرينها، فأنت على علم بالأمر... ولكن يستحيل عليَّ أن أتركها، يستحيل! لذلك كانت هذه الثلاثة آلاف روبل...

قاطعته السيدة خوخلاكوفا قائلة بلهجة قاطعة:

- دعك من كل شيء. دع النساء خاصةً! مناجم الذهب، ذلك هو هدفك بعد اليوم، ولا شأن للنساء هناك! فيما بعد، حين ترجع غنياً مجللاً بالمجد، تختار واحدة من بنات أرقى مجتمع: فتاةً عصرية، مثقفة، متحررة من الآراء المتخلفة. وفي ذلك الحين ستكون مشكلة المرأة، هذه المشكلة التي يتحدث الناس عنها كثيراً في هذه الأيام، ستكون قد حُلَّت، وستظهر في روسيا امرأة جديدة...

قال ميتيا وهو يضم يديه إحداهما إلى الأخرى في هيئة المتوسل:

- ولكن يا سيدتي ليس هذا، ليس هذا ما...

- بل هو هذا، هو هذا يا دمتري فيدورفتش! هو هذا ولا شيء سواه! هذا هو ما تسعى إليه دون أن تعرف أنت نفسك ذلك. إنني مطلعة اطلاعاً واسعاً على مشكلة المرأة. إن نهضة المرأة، وحتى وصولها إلى الحياة السياسية في المستقبل القريب، هو مثلي الأعلى. إن لي ابنةً يا دمتري فيدوروفتش، والناس لا يعرفونني كثيراً في هذا المجال. لقد كتبت في هذا إلى شيدرين[176] . إن هذا الكاتب قد كشف لي أموراً كثيرة، كثيرةً جداً، لا تخطر على البال، عن رسالة المرأة، فوجهت إليه في العام الماضي كتاباً لم أذكر فيه اسمي، كتاباً من سطرين: «أعانقك وأقبلك يا كاتبي، يا عزيزي المفكّر الكبير، باسم المرأة العصرية. استمر»! وذيلت الكتاب بهذا التوقيع: «أم». خطر ببالي أن أوقع: «أم عصرية»، ولكنني اكتفيت، بعد تردد، بكلمة الأم، لأن فيها جمالاً أخلاقياً أعظم يا دمتري فيدوروفتش؛ هذا عدا أن كلمة «عصرية» كان يمكن أن تذكره بمجلته «المعاصر»، وأن توقظ في نفسه ذكريات أليمة بسبب الرقابة التي تسود الآن[177] ... ولكن ماذا بك؟ يا رب! ماذا جرى لك؟

كان ميتيا قد وثب عن مقعده. وها هو ذا يضم يديه إحداهما إلى الأخرى أمامها صائحاً بضراعة عاجزة:

- سيدتي! لسوف تبكينني إذا تأخرت مزيداً من التأخر عن تنفيذ ما تكرمت فوعدتني به...

- ابك يا دمتري فيدوروفتش، ابك! لا تخشَ أن تبكي إن هذه العواطف تشرّفك... ما يزال طريقك طويلاً! ستحسن الدموع إليك. سوف تعود يوماً وسوف تكون سعيداً. ستجيء إليّ من أعماق سيبيريا خصيصاً لأشاركك فرحتك...

أعول ميتيا فجأة هذه المرّة:

- اسمحي لي أخيراً أن أقول كلمة. أرجوك مرةً أخيرة أن تجيبيني: هل يمكنني أن أتلقى هذا المبلغ منك اليوم؟ وإلا ففي أي يوم تأمرين أن أجيء لأخذه؟

- عن أي مبلغ تتكلم يا دمتري فيدوروفتش؟

- عن الثلاثة آلاف روبل التي تكرمت فوعدتني بها.. منذ قليل...

- ماذا؟ ثلاثة آلاف روبل؟ آه... لا... أنا لا أملك هذا المبلغ.

كذلك قالت السيدة خوخلاكوفا بدهشة هادئة.

صعق ميتيا، وقال:

- كيف هذا؟ حتى لقد قلت منذ هنيهة قصيرة إنني أستطيع أن أعد هذا المبلغ موجوداً في جيبي.

- آه... لا... لا شك أنك أسأت فهمي يا دمتري فيدوروفتش. إنك لم تفهمني لا، لا، لقد قلت ذلك الكلام بصدد مناجم الذهب. صحيح أنني وعدتك بأكثر كثيراً من ثلاثة آلاف روبل، تذكرت هذا الآن، ولكنني كنت لا أفكر عندئذٍ إلا في مناجم الذهب.

صاح ميتيا يقول بغباء:

- والمبلغ؟ والثلاثة آلاف روبل؟

- إذا كنت قد جئت من أجل اقتراض مال، فيجب أن أذكر لك أنني لا أملك مالاً. إنني الآن خالية الوفاض تماماً يا دمتري فيدوروفتش. حتى إنني في شجار مع وكيلي، وقد اضطررت أن أقترض خمسمائة روبل من ميوسوف منذ بضعة أيام. لا، لا، لا أملك شيئاً من المال، واعلم عدا ذلك يا دمتري فيدوروفتش أنني لو كنت أملك مالاً لما أسلفتك أيضاً، أولاً لأنني لا أقرض أحداً قط، فالدين خصام دائماً؛ وإذا أقرضت غيرك، فلا أقرضك أنت، لأنني أريد لك الخير، وأريد أن

أنقذك، وما أنت في حاجة إلا إلى شيء واحد: المناجم، المناجم، المناجم!
زأر ميتيا يقول:
- آ... يا للشيطان! شيطان يأخذ المناجم!
وهوى بقبضة يده على المنضدة يضربها بكل ما أوتي من قوة.
- آي... آي...
كذلك صاحت السيدة خوخلاكوفا مرتاعة وهي تهرب إلى آخر الصالون.
بصق ميتيا من فرط حنقه. وبخطى سريعة، اجتاز الغرفة، وخرج من المنزل، وأوغل في الشارع المظلم. إنه يسير الآن كمجنون، ويلطم صدره بقبضة يده، على ذلك الموضع نفسه الذي لطمه منذ يومين بحضور أليوشا حين لقيه مساء في الطريق المظلم. لماذا يلطم صدره هذا اللطم على هذا الموضع نفسه، وماذا كان معنى هذه الحركة؟ ذلك سر لم يفصح عنه لأحد، حتى ولا لأليوشا في تلك الساعة، ولكنه كان يعلم أن هذا السر ينطوي على ما هو أكبر من العار بالنسبة له، ينطوي على هلاكه وانتحاره، وذلك ما سيحدث حتماً إذا هو لم يحصل على هذه الثلاثة آلاف روبل ليرد إلى كاترينا إيفانوفنا مالها، ولينزع عن صدره، «عن هذا الموضع بعينه من صدره»، الخزي الذي يخنقه، الحمل الذي يبهظه، والذي يرهق ضميره أشد الإرهاق. إن هذا كله سيتضح مزيداً من الاتضاح للقارئ فيما بعد. والآن وقد انهار آخر أمل من آمال هذا الرجل القوي الجسم، فإنه ما إن ابتعد بضع خطوات عن منزل خوخلاكوفا حتى انفجر يبكي على حين فجأة ناشجاً كطفل صغير. وها هو ذا يمسح دموعه بقبضتي يديه دون أن يلاحظ ذلك. وعلى هذه الحال من الاضطراب إنما وصل إلى الميدان، حيث أحسّ بغتةً أنه قد صدم شيئاً ما، وسرعان ما سمع أناتٍ شاكية صادرة عن عجوز كاد يقلبها.
- يا رب! كاد يقتلني! هلّا نظرت أين تسير أيها الوغد!
صاح ميتيا يقول وهو يتفرس وجه المرأة العجوز في الظلام:
- كيف؟ أهذا أنت؟
لقد عرف ميتيا في هذه المرأة العجوز، خادمةَ كوزما كوزمتش الطاعنة في السن التي لاحظها في منزله الليلة البارحة.
سألته العجوز بصوت أصبح لطيفاً على حين فجأة:
- ومن أنت يا بني؟ لا أستطيع أن أميّزك في هذا الظلام...
- أنت في خدمة كوزما كوزمتش، أليس كذلك؟
- هذا صحيح يا بني، وأنا عائدة الآن من بروخورتش... ولكن لماذا لا أستطيع أن أعرفك؟
قال ميتيا في اضطراب شديد:
قولي لي يا أماه: هل اجرافينا ألكسندروفنا عندكم الآن؟ لقد أوصلتها إلى منزلكم منذ قليل.
- لقد جاءت يا بني فمكثت لحظة ثم انصرفت.
فصرخ ميتيا:
- انصرفت؟ كيف هذا؟ متى ذهبت؟
- لم تمكث عندنا إلا دقيقة، قصّت خلالها على كوزما كوزمتش قصة مضحكة ثم لم تلبث أن انصرفت.
زأر ميتيا يقول:
- أنت تكذبين أيتها العجوز اللعينة.
فصاحت المرأة تقول مذعورة:
- آي.... آي...
ولكن ميتيا كان قد غاب. أسرع يركض نحو منزل آل موروزوف. كانت جروشنكا قد سافرت منذ ربع ساعة إلى موكرويه، وكانت فينيا في المطبخ مع جدتها ماتريونا الطباخة، حين ظهر «النقيب» فجأة في المنزل. فلما رأته أطلقت صرخات ارتياع وجزع.
أعول ميتيا يسألها:
- ها... تصرخين؟ أين هي؟
ولكن قبل أن يتسع وقت فينيا، التي صعقها الذعر، لأن تنطق بكلمة واحدة، ارتمى ميتيا على قدميها قائلاً لها:
- فينيا، قولي لي، أناشدك بيسوع المسيح، إلى أين ذهبت؟
- لا أدري يا سيدي، لست على علم بشيء أيها العزيز دمتري فيدوروفتش. ولو قتلتني لما استطعت أن أقول لك أكثر من هذا. ثم إنك قد خرجت معها منذ قليل....
كذلك أكدت فينيا متدفقة في كلامها.
قال ميتيا:
- ولكنها عادت.
- لا، لا، يا عزيزي دمتري فيدوروفتش، لم تعد، أحلف لك بالله أنها لم تعد!
صرخ ميتيا يقول:
- تكذبين! وإني لأحزر من ذعرك وحده إلى أين ذهبت.
وخرج من المنزل راكضاً. فما كان أسعد فينيا المذعورة بأنها تخلصت منه بمثل هذه السهولة. فلقد أدركت حق الإدراك أنه كان سيسومها سوء العذاب، لولا استعجاله الشديد. على أنه قد فاجأ فينيا وماتريونا العجوز، حين انصرافه، بحركة لم تكن في الحسبان: كان هناك على المائدة هاون نحاسي وفيه مدق نحاسي، ولكن المدقّ ليس كبيراً. فبينما كان ميتيا يضع يده على قبضة الباب راكضاً ليخرج، مد يده الأخرى فتناول المدق اختطافاً ودسَّه في جيب سترته.
هتفت فينيا تقول وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى:
- رباه! سيقتل أحداً.

- 4 -في الظلام

إلى أين كان يركض؟ ذلك سؤال يُحزر جوابه: «أين عساها تكون إن لم تكن عند فيدور بافلوفتش؟ لا شك أنها ذهبت إليه رأساً بعد أن غادرت منزل سامسونوف. الحيلة واضحة، والكذب مفضوح!». كانت هذه الأفكار تغلي في رأس ميتيا. وتحاشى أن يمر بفناء ماريا كوندراتيفنا. قال لنفسه: «يجب أن لا تراني بحال من الأحوال... يجب ألّا أنبهها.. وإلا أبلغت فوراً أنني هنا... لسوف تخونني حتماً. لا شك في أنها متواطئة معهم. وكذلك سمردياكوف. لقد اشتُروا جميعاً!». لذلك سلك طريقا آخر: دار دورة طويلة، فمرَّ بالشارع الصغير متحاشياً منزل فيدور بافلوفتش، واجتاز شارع دمتريفسكايا، وعبر الجسر الضيق الصغير، فوصل بذلك إلى مكان خال غير مأهول يقع خلف المنزل. إن هذا المكان يحدُّه سياج بستان مجاور من جهة، ويحده من الجهة الأخرى السور العالي المتين الذي يحيط بحديقة فيدور بافلوفتش. واختار ميتيا لتخطي ذلك السور الموضع الذي يُروى أن اليزافيتا سمردياشايا قد تخطت السور منه في الماضي. قال ميتيا لنفسه لا يدري إلا الله لماذا: «إذا استطاعت تلك أن تتخطاه فكيف لا أفلح أنا في تخطيه؟». واستطاع فعلاً من أول وثبة، أن يتشبث بذروة السور بيده، وأن يرتفع بعد ذلك باندفاعة قوية، فإذا هو يصبح في أعلى السور، فيركب عليه ركوبه على حصان. إن حمّامات المنزل قريبة جداً من ذلك المكان، ومنه تُرى نوافذ الدار المضاءة. قال ميتيا يحدث نفسه: «طبعاً... إن في غرفة نوم العجوز نوراً. معنى هذا أنها عنده!». ووثب بعد ذلك إلى الحديقة. ورغم علمه بأن جريجوري مريض، وبأن مرض سمردياكوف قد لا يكون تمارضاً، وأن أحداً من المنزل لا يمكن إذاً أن يسمعه في هذه اللحظة، فقد لطا متجمعاً على نفسه بدافع الغريزة، وجمد لا يتحرك، وأصاخ بسمعه. إن صمتاً كصمت الموت يخيم على المكان وما حوله. لا نأمة، ولا نسمة... هدوء مطلق، كأنما عن قصد وعمد.

«الصمت وحده يهمهم» [178] خطر هذا البيت من الشعر ببال ميتيا. وقال يحدث نفسه: «آمل أن لا أكون قد سُمعتُ لحظةَ قفزت! ولكن يظهر أنني لم أُسمع». وبعد أن لبث على هذه الحال دقيقة لا يتحرك، تسلل بخطى وئيدة خلال الحديقة، سائراً على العشب حتى يخنق كل ضجة. كان يتحاشى الأشجار والأدغال، ويتقدم بطيئاً، ولا يضع قدمه إلا محاذراً، ويصيخ بسمعه إلى كل خطوة يخطوها. فلم يصل إلى النافذة المضاءة إلا بعد خمس دقائق. وتذكر أن تحت النوافذ أشجار بيلسان ورباط كثيفة تمتد أغصانها إلى علو كافٍ. وكان الباب الذي يفضي من الحديقة إلى داخل المنزل على الجهة اليسرى من الواجهة مغلقاً، فانتبه ميتيا إلى ذلك انتباهاً خاصاً وسجله في ذهنه عند مروره. ووصل أخيراً إلى الشجيرات فاختبأ وراءها حابساً أنفاسه. قال لنفسه: «يجب أن أتلبث هنا بضع لحظات، فلعلهم قد سمعوا صوت وقع خطواتي، فأخذوا يصيخون بأسماعهم... فليطمأنوا... أرجو أن لا أسعل أو أعطس...».
وانتظر دقيقتين، خافق القلب خفقاناً شديداً، حتى لتكاد تنقطع من ذلك أنفاسه. ثم قال لنفسه: «إن دقات قلبي لن تهدأ، فلا يمكنني أن أنتظر مزيداً من الانتظار». كان ميتيا مختبئاً في ظل مجموعة الأشجار التي ينير الضوء الآتي من النافذة جانبها الأمامي، ورأى نفسه يدمدم قائلاً دون أن يعرف لماذا: «ما أشد الاحمرار في أثمار أشجار الرباط هذه!». ثم أخذ يدنو من النافذة بخطى بطيئة لم يُسمع صوتها، حتى إذا بلغها انتصب واقفاً على رؤوس الأصابع. بدت له غرفة نوم فيدور بافلوفتش كلها. إنها غرفة صغيرة، تنقسم قسمين بحاجز أحمر، كان فيدور بافلوفتش يسميه «الصيني». قال ميتيا لنفسه: «الحاجز الصيني... لا شك أن جروشنكا تختبئ وراءه». وأخذ ميتيا ينعم النظر في أبيه. كان الأب يلبس ثوباً جديداً للمنزل من حرير مخطط ما رآه عليه ميتيا من قبل، ويشد على خصره حزاماً من حرير أيضاً ينتهي بعقد؛ وتحت ياقة الثوب يُرى قميص أنيق نظيف جداً مصنوع من نسيج رقيق ناعم وله أزرار من ذهب؛ وكان فيدور بافلوفتش يضع على رأسه الضماد المصنوع من قماش أحمر الذي سبق أن رآه أليوشا. قال ميتيا لنفسه: «لقد تجمّل وتزيّن». وكان أبوه واقفاً قرب النافذة واجماً شارد اللب. وها هو ذا يرفع رأسه على حين فجأة مصيخاً بسمعه كأنما لينصت؛ فلما لم يسمع شيئاً اقترب من المائدة فصبَّ نصف قدح من الكونياك وأفرغه في جوفه، ثم تنفس تنفساً عميقاً ملء رئتيه. وفكَّر بضع لحظات، ثم اتجه نحو المرآة بخطى ذاهلة، فأزاح بيده اليمنى الضماد الأحمر الذي يخفي جبينه، وأخذ ينعم النظر في الندبات والبقع الزرق التي لم تختف بعد. قال ميتيا لنفسه: «أغلب الظن أنه وحيد ليس عنده أحد». وفي تلك اللحظة ابتعد فيدور بافلوفتش عن المرآة، والتفت فجأة نحو النافذة، وأخذ ينظر إلى الخارج. فما كان من ميتيا إلا أن ارتمى في الظلام بوثبة واحدة.
وقال ميتيا لنفسه: «من الجائز أيضاً أن تكون مختبئة وراء الحاجز، وربما كانت نائمة». فما أن تراءى له هذا الافتراض حتى شعر بطعنة تنفذ في قلبه. وابتعد فيدور بافلوفتش عن النافذة. «لا شك أنه يترقبها هي إذ ينظر من النافذة إلى الخارج. فليست إذاً عنده! وإلا فما له وللظلمات يمعن النظر فيها متفرساً مستطلعاً! واضح أن نفاد الصبر يحرقه حرقاً». وعاد ميتيا يقترب، وأخذ يرصد أباه. كان العجوز قد جلس إلى المائدة، وكان واضحاً عليه أنه خائب الرجاء يائس النفس. ووضع كوعيه أخيراً على المائدة، وأسند خده إلى راحة يده اليمنى. فكان ميتيا يفحصه بنوع من النهم.
وقال يكرر لنفسه من جديد: «وحيد! إنه وحيد! فلو كانت معه، لكان وجهه وجهاً آخر. ويا للغرابة: لقد أحسَّ ميتيا فجأة حين أدرك أن جروشنكا ليست هناك، بنوع من خيبة الأمل عجيب لا يُفهم، فقال يشرح لنفسه: «إن هذا الشعور من الاهتياج لا يرجع إلى أنني لا أراها، وإنما يرجع إلى أنني لا أملك أي وسيلة للتأكد على وجه اليقين من أنها مع العجوز أو أنها ليست معه». وقد تذكر ميتيا فيما بعد أن فكره في تلك اللحظة كان على جانب عظيم من الصحو والصفاء، فلا تفوته شاردة ولا واردة، حتى ليدرك أدق تفاصيل الموقف. ولكن القلق كان يجتاح نفسه بمزيد من القوة شيئاً بعد شيء، لأنه ليس من أمره على يقين. حتى أصبح لا يطيق هذا الوضع تساءل: «أهي هنا أم لا؟». واشتعل حنقه. وها هو ذا يعزم أمره على حين فجأة، فيمد ذراعه، وينقر على إطار النافذة نقرات الإشارة التي اتفق العجوز عليها مع سمردياكوف وهي: نقرتان متباعدتان، فثلاث نقرات متقاربة، دلالةً على أن «جروشنكا قد وصلت». فانتفض العجوز، ورفع رأسه، ووثب من مكانه، واندفع نحو النافذة. فارتمى ميتيا في الظلام. فتح فيدور بافلوفتش النافذة وأطل منها برأسه. وهمس يسأل بصوت مترجف:
- أهذا أنت يا جروشنكا؟ أنت؟ أين أنت يا ملاكي؟ أين أنت يا روحي، يا ملاكي؟ أين أنت؟
وكان يختنق من فرط الانفعال.
قال ميتيا لنفسه: «إنه وحيد».
واستأنف العجوز يسأل:
- أين أنت إذاً؟
وكان الأب وهو يرسل هذا السؤال يميل برأسه من النافذة حتى الكتفين ناظراً إلى جميع الجهات. وها هو ذا يضيف قوله:
- تعالي! لقد أعددت لك مفاجأة حلوة. تعالي فأريك المفاجأة.
قال ميتيا في سره: «هي الظرف الذي يضم الثلاثة آلاف روبل».
- ولكن أين أنت إذاً؟ لعلك قرب الباب؟ سأفتح لك الباب...
وكاد يسقط وهو يبرز بكل جسمه من النافذة ليرى المرأة الشابة في الظلام من جهة الباب الذي يفضي إلى الحديقة على اليمين. ولو قد اتسع الوقت لحظة أخرى إذاً لأسرع إلى الباب حتماً دون أن ينتظر جواب جروشنكا. كان ميتيا يرقبه من جانب بغير حركة. كان يراه من جانب فكان وجهه الكريه المقيت، وكانت جوزة عنقه الرخوة، وكان أنفه المعقوف، وكانت شفتاه اللتان تبتسمان بانتظار شيق، كان ذلك كله يبرز في ضوء ساطع يسقط عليه موارباً من المصباح الموجود في الجهة اليسرى من الغرفة. فإذا بكره عنيف فظيع يغلي في قلب ميتيا فجأة، فيقول في نفسه: «هذا هو، هذا هو غريمي، هذا هو جلّادي، هذا هو عدوّ حياتي!». إنها سورة الحنق المباغت المسعور الحاقد الظامئ إلى الانتقام، الذي تحدث عنه إلى أليوشا بما يشبه التنبؤ أثناء حديثهما في الجناح قبل أربعة أيام جواباً على سؤال أليوشا له: «كيف يمكن أن يخطر ببالك أن تقتل أباك؟».
لقد أجابه يومئذٍ قائلاً:
لا أدري، أصبحت لا أدري. قد لا أقتل، ولكن من الممكن أن أقتل... أخشى أن يصبح في نظري كريهاً على حين فجأة بوجهه المقيت في تلك اللحظة. إنني أكره جوزة عنقه، وأنفه، وعينيه، وضحكته الصغيرة المستهترة. إنه يثير فيَّ تقززاً جسمياً. ذلك هو ما أخشاه خاصة. قد لا أستطيع أن أكبح جماح نفسي».
وأصبح التقزز الجسمي الذي يحسّ به ميتيا لا حدود له. فإذا هو، دون أن يدرك ماذا يفعل، يخرج من جيبه مِدقَّ الهاون على حين فجأة...
سوف يقول فيما بعد «إن الله كان ساهراً عليه في تلك الدقيقة». ففي تلك اللحظة نفسها استيقظ جريجوري فاسيلفتش في سريره الذي كان قد اضطجع عليه مريضاً. كان قد لجأ في المساء إلى استعمال الدواء الذي ذكره سمردياكوف في حديثه مع إيفان فيدوروفتش، أي دلَّك جسمه بمعاونة امرأته بخليط من الفودكا ومغليِّ أعشاب قوي ثم شرب ما تبقى من هذا الخليط، بينما كانت مارفا اجناتيفنا تقرأ عليه دعاءً سرياً بصوت خافت. ثم رقد وذاقت مارفا اجناتيفنا الدواء أيضاً، ولكنها لم تلبث أن نامت إلى جانب زوجها نوماً عميقاً على الفور، لأنها لم تألف شرب الكحول، ولم تتعوده. أما جريجوري فقد استيقظ من نومه في

وسط الليل على غير توقع، وفكَّر لحظة، ثم إذا هو يجلس على سريره رغم أنه أحسّ بألم شديد في المنطقة الحقوية. فلما فكر من جديد، نهض وأسرع يرتدي ثيابه. من الجائز أن يكون قد شعر بعذاب الضمير لأنه نام بينما بقي البيت بغير حارس يحرسه «في فترة خطرة إلى هذا الحد». وكان سمردياكوف الذي صرعته النوبة، راقداً بلا حراك في الغرفة الصغيرة المجاورة. ولم تتحرك مارفا اجناتيفنا، فقال جريجوري لنفسه وهو يلقي نظرةً عليها:
«قد أضعفها الدواء» ثم خرج إلى درجات الباب وهو يئنّ. كان لا يستهدف إلا أن يلقي نظرة على الخارج، لأنه كان لا يحسّ أنه قادر على المشي، بسبب الألم الشديد الذي كان يشعر به في ظهره والساق اليمنى. ولكنه تذكر في تلك اللحظة نفسها أنه لم يقفل باب الحديقة في المساء. إن جريجوري رجل دقيق المواعيد منظم السلوك، لا ينحرف أبداً عن القواعد التي فرضها على نفسه ولا عن العادات التي أخذ نفسه بها خلال سنين أبداً. وها هو ذا يهبط درجات الباب عارجاً متلوياً من الألم، ويتجه إلى الحديقة. وكان باب الحديقة مفتوحاً حقاً. ودلف إلى الحديقة بصورة آلية. أتراه لاحظ شيئاً يثير الانتباه أو سمع صوتاً لا يُتوقع؟ فلما لفت رأسه فجأة نحو اليسار، رأى النافذة في غرفة نوم مولاه مفتوحة، ولم ير أحداً عليها؛ فتساءل: «كيف تكون النافذة مفتوحة ولسنا في فصل الصيف؟»، ولمح في تلك اللحظة نفسها ظلاً يتحرك في الحديقة على مسافة أربعين خطوة منه. كان هذا ظلاً يتحرك في الحديقة على مسافة أربعين خطوةً منه. كان هناك رجل يهرب في الظلام. صاح جريجوري يقول: «رباه!»، ثم نسي فجأة ألمه، واندفع يركض ليقطع على الهارب طريق الفرار، فسلك أقصر طريق، لأنه يعرف الحديقة أكثر مما يعرفها الرجل الذي يطارده. لقد اتجه الهارب نحو الحمّامات، فدار حولها، ثم اندفع صوب الحائط. وكان جريجوري يركض بأقصى سرعة دون أن يغيب الرجل عن بصره، فوصل إلى السور في اللحظة التي كان فيها الرجل المجهول يتسلق السور؛ وها هو ذا يطلق صرخة قوية وقد خرج عن طوره، ويمسك إحدى ساقي الرجل بكلتا يديه.
لم يخطئه حدسه؛ عرف الرجل: إنه ذلك «الشيطان الرجيم قاتل أبيه».
زأر العجوز يقول:
- يا قاتل أبيه!
ولكنه لم يستطع أن يقول أكثر من ذلك: فها هو ذا يهوي على الأرض مجندلاً. قفز ميتيا إلى الحديقة من جديد ومال على العجوز الذي جندله. وكان ميتيا يمسك المدق النحاسي بيده، فرماه على العشب ذاهلاً. سقط المدق على مسافة خطوتين من جريجوري، لا بين الحشائش، بل في الممر، أي في أبرز موضع يُرى. ولبث ميتيا بضع لحظات يتأمل جسم الخادم العجوز الدامي الرأس، ومدَّ يده يجس الرأس. لقد تذكر ميتيا فيما بعد، تذكراً واضحاً، أنه شعر في تلك اللحظة بحاجة قوية لا تقاوم، إلى «التأكد تأكداً كاملاً»: هل كُسرت جمجمة جريجورى أم أن الأمر لا يعدو أن يكون قد أغمي عليه بسبب الضربة التي أصابت رأسه. ولكن الدم الحار كان يتدفق فيغرق أصابع ميتيا المرتجفة. وتذكر ميتيا فيما بعد أنه أخرج من جيبه منديلاً نظيفاً كان قد تزود به حين ذهب إلى خوخلاكوفا، فوضعه على وجه جريجورى، محاولاً بغباء أن يقطع سيلان الدم على جبينه وخديه. وسرعان ما ابتل المنديل بالدم. فتساءل ميتيا فجأة وقد ثاب إلى رشده: «رباه! لماذا أفعل ذلك؟ ما بقائي هنا؟ وكيف يمكنني أن أعرف الآن هل كُسرت الجمجمة أم لا؟ ثم أضاف يقول يائساً:
«وما جدوى هذا على كل حال؟ ما وقع فقد وقع.. فقد كان العجوز متهوراً فنال ما يستحق!» بهذا ختم ميتيا كلامه بصوت عالٍ، ثم اندفع نحو السور، فتسلقه، وقفز إلى الشارع الضيق، وانصرف راكضاً. وكان لا يزال يمسك بيده اليمنى منديله المبلل بالدم، فدسَّه في جيب سترته الخلفي دون أن يهدئ سرعة ركضه. كان يعدو عدواً شديداً يوشك أن يقطع أنفاسه؛ ولسوف يتذكر عدة مارة صادفوه في الشوارع أنهم رأوا في تلك الليلة رجلاً يهرب في الظلام طائش العقل.
اتجه ميتيا من جديد إلى منزل آل موروزوف. كانت فينيا قد أسرعت، بعد انصرافه، إلى البواب نازار إيفانوفتش فتوسلت إليه «باسم يسوع المسيح أن لا يدع للنقيب أن يدخل المنزل مرة أخرى، لا في هذا المساء ولا في الغد»، فوعدها البواب بأن يلبي رجاءها، ولكنه اضطر أن يذهب إلى مالكة المنزل التي استدعته إليها لسوء الحظ في هذه اللحظة في الطابق الأعلى، فعهد بمراقبة الفناء إلى ابن أخيه الذي التقى به في طريقه إلى السيدة، وهو فتى في العشرين من عمره كان قد وصل من الريف مؤخراً، ونسي أن يوصيه بما كان يجب أن يوصيه به بشأن النقيب، فلما وصل دمتري طرق الباب، ففتح له الشاب الفلاح فعرفه، لأن ميتيا كان قد أعطاه «بقشيشاً» مرات كثيرة، وتركه يدخل، حتى لقد أسرع يبلغه، وهو يبتسم ابتسامة تودد، أن «اجرافينا ألكسندروفنا ليست في بيتها». فسأله ميتيا بحرارة وهو يتوقف:
- فأين هي يا بروخور؟
فقال له الشاب:
- سافرت إلى موكرويه منذ أكثر من ساعتين، وتولى تيموثي قيادة الخيل.
صاح ميتيا يسأله:
- ماذا ذهبت تصنع هناك؟
- لا أدري يا سيدي. ضابط استدعاها وأرسل إليها عربةً تقلها. كان ميتيا قد تركه وركض كالمجنون باحثاً عن فينيا.

- 5 -قرار مفاجئ

كانت فينيا في المطبخ مع جدتها، وكانت المرأتان تستعدان للنوم. وقد اعتمدتا على يقظة نازير إيفانوفتش، فأهملتا مرة أخرى إقفال الباب بالمفتاح. اقتحم ميتيا الغرفة، وارتمى على فينيا، فقبض على عنقها، وزأر يسألها خارجاً عن طوره:

- قولي لي حالاً، مع من هي في موكرويه الآن؟

فأطلقت المرأتان صرخة حادة. وصاحت فينيا تقول بسرعة وقد استحوذ عليها هلع رهيب:

- سأقول كل شيء يا دمتري فيدوروفتش العزيز، سأتكلم، لن أخفي شيئاً. لقد ذهبت إلى لقاء ضابطها في موكرويه.

صرخ ميتيا يسألها:

- أي ضابط؟

فأسرعت تجيبه:

- الضابط الذي عرفته في الماضي، منذ خمس سنين... الضابط الذي تركها وسافر.

أعتق ميتيا عنق فينيا. ولبث أمامها لحظة لا ينطق بكلمة، وقد اصطبغ وجهه بصفرة كصفرة الموت، وعبّرت نظرته عن أنه أدرك الحقيقة فوراً، وأنه فهم كل تفاصيل الأمر وحزر كل شيء دفعة واحدة. ولكن فينيا المسكينة لم يخطر ببالها في تلك اللحظة أن تلاحظه لتعلم هل أدرك الحقيقة فعلاً أم هو لم يدركها. لقد ظلت جالسةً على صندوق كما كانت حين وصول ميتيا، ولبثت ترتعش جامدةً على ذلك الوضع نفسه مادَّةً ذراعيها كأنما لتحمي نفسها. وكانت عيناها اللتان اتسعت حدقتاهما من الجزع تحدقان إلى ميتيا الذي كانت يداه حمراوين من الدم، وكان ميتيا أثناء الطريق قد اضطر أن يمسح بيديه العرق الذي كان يتصبب من وجهه، فكانت بقع الدم تُرى كذلك على جبينه وعلى خده اليمنى. وأوشكت فينيا أن تصاب بنوبة عصبية. وكانت العجوز الطباخة التي وثبت عن مكانها تنظر كمن طاش صوابه، نصف مجنونة من شدة الهلع. وقف ميتيا دقيقة ثم تهالك بحركة آلية على كرسي قرب فينيا.

كان ميتيا لا يفكر. إنه الآن أقرب إلى أن يكون خائفاً مذهولاً. كان كل شيء قد اتضح: إنه ذلك الضابط. وكان ميتيا على علم بوجود هذا الضابط مع ذلك وكان لا يجهل أنه كتب إلى جروشنكا منذ شهر، وقد عرف ذلك من جروشنكا نفسها. فخلال شهر إذاً، خلال شهر كامل، ظلت هذه المؤامرة تدبر من وراء ظهره، إلى أن وصل الخصم الجديد، دون أن يكون ميتيا قد اهتم بهذا الأمر أو قلق منه يوماً. كيف أمكنه أن لا يفكر في هذا الضابط يوماً، ولماذا نسيه نسياناً تاماً بعد أن عرف بوجوده؟ كان هذا السؤال يبعث في نفسه خوفاً ورعباً كأنه رأى أمامه شيئاً فظيعاً يجعله يشعر بقشعريرة في ظهره.

وها هو ذا ميتيا يخاطب فينيا على حين فجأة برقة وكياسة، كطفل طيب خجول، كأنه نسي تماماً أنه داهمها وقسا عليها منذ لحظات. أخذ يلقي عليها أسئلة واضحة دقيقة يُستغرب صدورها عن رجل في مثل حالته فكانت فينيا تجيبه عن كل سؤال باستعداد عظيم وسرعة كبيرة، رغم أنها لم تستطع أن تحوّل بصرها المذعور عن يديه الداميتين، حتى لقد بدا عليها أنها تحرص على أن تكشف له عن «الحقيقة كلها». ولاح شيئاً فشيئاً أنها تجد مسرة في أن تكشف له عن جميع التفاصيل، لا بقصد إيلامه، بل عن رغبة صادقة منها في أن تكون نافعة له، قصّت عليه أحداث النهار تفصيلاً، وذكرت له زيارة راكيتين وأليوشا، وحكت له كيف أنها كُلّفت بالترقب والترصد، وروت له سفر جروشنكا، وردَّدت على مسامعه التحيات التي حرصت المرأة الشابة على أن تكلف أليوشا من النافذة بأن ينقلها إليه، بغية «أن يتذكر على مدى حياته الساعة التي أحبته فيها». فلما وصلت فينيا إلى هذه التحيات ابتسم ميتيا، واحمر خداه الشاحبان. فسألته فينيا فوراً وهي لا تحس بأي خوف من إظهار حب استطلاعها هذه المرّة:

- لماذا أرى يديك ملوثتين بالدم يا دمتري فيدوروفتش؟

فأجابها ميتيا ذاهلاً:

- آ... نعم... صحيح.

وألقى على يديه نظرة ذاهلة. ولكنه سرعان ما نسي السؤال الذي أُلقي عليه، وغرق في الصمت. لقد انقضى قرابة عشرين دقيقة على وجوده هنا، إن الرعب الذي اجتاحه قبل بضع لحظات قد تبدد الآن، وبدا على ميتيا أن قراراً حازماً لا رجعة عنه قد استولى عليه وحلَّ محل ذلك الرعب. وها هو ذا ينهض فجأة ويبتسم حالمَ النظرة شارد الفكر.

سألته فينيا وهي تشير إلى يديه:

- ماذا وقع لك يا سيدي؟

وكانت فينيا تتكلم بلهجة فيها عطف وشفقة، كأن ميتيا ليس له أحد أقرب منها إليه في لحظة الشقاء هذه التي يمر بها.

نظر ميتيا مرة أخرى إلى يديه. ثم أجابها وهو ينظر إليها نظرة غريبة:

- وهو دمٌ يا فينيا... دم إنساني... الله وحده يعرف لماذا سُفح هذا الدم... ولكن اعلمي يا فينيا أنه يوجد هنالك سور عالٍ (وكان ميتيا ينظر إليها في تلك اللحظة نظرة من يلقي عليها «فزورة»)، سور رهيب... وغداً، عند الفجر، «حين تبدأ الشمس مسيرتها»، سيقفز ميتيا ذلك السور... إنك لا تفهمين يا فينيا أي سور أعني... لا ضير... ستعرفين ذلك غداً، وستفهمين عندئذٍ كل شيء... أما الآن، فوداعاً! لن أكون عقبةً في طريق سعادتها، سأعرف كيف أمَّحي... عيشي واسعدي يا فرحتي، يا حياتي... لقد أحببتني ساعة، ولسوف تتذكرين ميتنكا كارامازوف طوال حياتك... تعرفين أنها كانت تناديني ميتنكا!

قال ميتيا هذه الكلمات وخرج من المطبخ فظهر على فينيا أن انصرافه هذا قد أرعبها أكثر مما أرعبها وصوله حين اقتحم الغرفة وهجم عليها.

وبعد عشر دقائق تماماً كان دمتري فيدوروفتش يمثل أمام بيتر ايلتش برخوتين، الموظف الشاب الذي استودعه المسدسين رهناً. كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف، وكان بيتر ايلتش قد احتسى الشاي، وارتدى سترته ليمضي يلعب البلياردو قليلاً في حانة «العاصمة الكبرى». وصل إليه ميتيا في اللحظة التي كان يهم فيها أن يخرج. فما أن رأى الشاب بقع الدم على وجهه حتى صرخ مدهوشاً:

- رباه! ماذا وقع لك؟

أجاب ميتيا في سرعة:

- لا شيء جئت أردُّ إليك مالك واسترد المسدسين. شكراً لقد قدّمت لي خدمة كبيرة. أنا مستعجل جداً يا بيتر ايلتش، أسرع أرجوك. كانت دهشة بيتر ايلتش ما تنفك تزداد: ذلك أنه رأى في يدي ميتيا كدسة أوراق نقدية، وأغرب ما في الأمر أن ميتيا كان يمسك كدسة الأوراق النقدية كما لا يمسكها أحد: كان قابضاً عليها بيده اليمنى التي يقدمها إلى أمام كأنما ليعرضها. وقد صرّح الخادم الشاب الذي التقى بميتيا في المدخل، صرَّح فيما بعد أن دمتري فيدوروفتش قد دخل المنزل وهو على هذه الحال، وأن أغلب الظن إذاً أنه كان في الشارع أيضاً يحمل حزمة الأوراق النقدية بيده على هذه الصورة بحيث يراها الناس بسهولة.

كان ميتيا يشد على الأوراق النقدية (وهي من فئة المائة روبل) بأصابعه المدماة. وقد ذكر بيتر ايلتش للأشخاص الذين سألوه فيما بعد عن المبلغ هل هو ضخم، ذكر أن من الصعب تقديره بالنظر وحده، وأن من الجائز أن يبلغ ألفي روبل وربما ثلاثة آلاف روبل، غير أن الكدسة كانت كبيرة على كل حال، كانت «سميكة جدا». أما دمتري فيدوروفتش فلقد كان، كما ورد في الشهادة التي أدلى بها هذا الموظف الشاب فيما بعد، «في حالة غير طبيعية، ولكنه لم يكن ثملاً، وإنما كان شديد الاندفاع، عميق الذهول، رغم أن منظره يُشعر في الوقت نفسه بأنه كان يركز ذهنه على فكرة تشغله، فهو يبدو مفكراً باحثاً عن حل لا يفلح في الوصول إليه. وكان عدا ذلك مستعجلاً جداً، وكان يجيب بأجوبة قصيرة، وجُمَل غريبة. وكان يمكن أن يُظن في بعض اللحظات أنه فرح لا حزين».

صاح بيتر ايلتش يسأل من جديد وهو يتفرس في زائره مذهولاً:

- ولكن ماذا بك؟ ماذا فعلت حتى تلطخت بالدم هذا التلطخ كله؟ أتراك سقطت على الأرض؟ انظر إلى نفسك في المرآة.

قال له ذلك وأمسكه من كوعه وقاده نحو مرآة. فلما رأى ميتيا وجهه دامياً ارتعش وقطب حاجبيه. ودمدم يقول حانقاً:

- اللعنة! لم يكن ينقص إلا هذا...

وأسرع ينقل الأوراق المالية من يده اليمنى إلى يده اليسرى، وأخرج منديله من جيبه بحركة متشنجة. كان هذا المنديل (الذي استعمله ميتيا في مسح رأس ووجه جريجوري) ملطخاً بالدم، وكانت طياته قد التصقت بعضها ببعض التصاقاً قوياً فلم يفلح ميتيا في فضها، فرمى المنديل على الأرض غاضباً وهو يسأل بيتر ايلتش قائلاً:

- اللعنة! أليس عندك خرقة... أمسح بها؟

- أنت تلوثت بالدم تلوثاً فحسب؟ ألست جريحاً إذاً؟ إذا كان الأمر كذلك فتعال اغتسل. سأعطيك طشت ماء.
- أأغتسل؟ طيب... ولكن أين أضع هذا؟
قال ذلك ذاهلاً وهو يشير إلى حزمة الأوراق المالية، سائلاً بيتر ايلتش بنظراته كأن بيتر ايلتش هو الذي يقع على عاتقه أن يقرر ماذا يفعل ميتيا بماله. قال بيتر ايلتش:
- ضع المال في جيبك... أو ضعه على المائدة هنا... فلن يأخذه أحد.
- في جيبي؟ طبعاً في جيبي... عظيم...
ثم صاح يقول فجأة كأنه يخرج من ذهوله:
- هذا كله سخيف!... لا... يجب أن نسوّي تلك المسألة أولاً... هات المسدسين.. إليك المال... إنني في حاجة ماسة إلى المسدسين... وأنا مستعجل جداً.. ليس هناك لحظة أستطيع أن أضيعها.
قال ذلك ومدَّ إلى الموظف ورقةً بمائة روبل كانت أولى أوراق الحزمة. فقال له بيتر ايلتش:
- لا أستطيع أن أبدّلها لك... أليس معك نقود صغيرة؟
فأجابه ميتيا:
- لا...
نظر ميتيا إلى كدسة الأوراق من جديد، وجس ورقتين أخريين أو ثلاث ورقات أخرى كأنه غير متأكد من صحة جوابه، ثم أضاف
- لا.... ليس عندي أوراق صغيرة... هي جميعاً واحدة.
قال ذلك ونظر إلى بيتر ايلتش نظرة متسائلة.
سأله الموظف الشاب:
- من أين جاءتك هذه الثروة كلها؟
ثم أضاف يقول:
- انتظر! سأرسل الصبي إلى مخزن آل بلوتنيكوف. إنهم يغلقون متجرهم في ساعة متأخرة وربما سيبدلون لنا هذه الورقة. هيه! ميشا!
كذلك نادى الصبي وهو يفتح الباب.
هتف ميتيا يقول فيما يشبه الإلهام المباغت:
- متجر آل بلوتنيكوف [179] ؟ فكرة رائعة...
ثم قال يخاطب الصبي الذي دخل الغرفة في تلك اللحظة:
- اركض يا ميشا إلى متجر آل بلوتنيكوف، وقل لهم إن دمتري فيدوروفتش يبلغكم تحياته، وإنه سيجيء إليكم بنفسه بعد قليل...
وقل لهم أيضاً هذا: أن يحضروا شمبانيا بانتظار وصولي إليهم... نعم... ثلاث دستات شمبانيا... وليحزموها كما فعلوا في المرة الأخيرة حين سافرت إلى موكرويه. لقد طلبت يومئذٍ أربع دستات (كذلك أضاف يقول فجأة وهو يلتفت إلى بيتر ايلتش). وهم يعلمون على كل حال، يا ميشا... لا تهتم بشيء (هكذا استأنف كلامه مخاطباً الصبي)... ها نعم! قل لهم أيضاً أن يضيفوا جبناً، وفطائر ستراسبورجية، وأسماكاً مدخنة، وشرائح من فخذ الخنزير، وكافياراً، أي شيئاً من كل ما عندهم في مخزنهم، بحيث يكون ثمن المجموع مائة أو مائة وعشرين روبلاً كما في المرة السابقة... وقل لهم كذلك أن لا ينسوا الملبّس والسكاكر الذوابة، وبطيختين أو ثلاثاً... لا بل تكفي بطيخة واحدة... ولكن لا بد في مقابل ذلك من شوكولاتة وسكر شعير، وفاكهة مربية وكارامل لين، تماماً كالمرة الماضية؛ فيكون الثمن مع الشمبانيا حوالي ثلاثمائة روبل... تماماً كالمرة السابقة... هل ستتذكر يا ميشا؟ أليس اسمه ميشا؟ (وجَّه هذا السؤال إلى بيتر ايلتش).
قال بيتر ايلتش الذي كان يصغي إليه ويلاحظه قلقاً:
- لحظة!... من الأفضل أن تذهب بنفسك وتأمرهم بإعداد الأشياء. لا شك أن الصبي سيخطئ.
- سيخطئ، سيخطئ طبعاً! أوه! ميشا! كنت أريد أن أقبّلك منذ الآن شكراً لك... اسمع: إذا لم تخطئ في تنفيذ المهمة، فلك مني عشرة روبلات. هيا أسرع.... لا تنسى الشمبانيا خاصةً، يجب أن يحضروا كثيراً من الشمبانيا... وكذلك من الكونياك... ومن الخمر... تماماً كالمرة السابقة. هم يعرفون ما طلبته في المرة السابقة.
قاطعه بيتر ايلتش قائلاً وقد نفد صبره:
- هلّا تركتني أتكلم آخر الأمر؟ أعود فأقول لك : حسبُ الصبي أن يجيئنا بالنقود، وأن يوصيهم بأن لا يغلقوا متجرهم قبل وصولك. وستذهب إليهم فوراً، فتعمل ما يجب بنفسك. أعطني هذه الورقة... والآن هيَّا يا ميشا، وأسرع... فهمت؟
يبدو أن الموظف كان حريصاً على أن يسرع في صرف ميشا الذي كان ينظر محملق العينين إلى الزائر الذي تلطخت يداه وتلطخ وجهه بالدم وحملت أصابعه المرتعشة حزمة من الأوراق المالية. كان الغلام واقفاً أمام ميتيا فاغر الفم دهشةً وخوفاً، ولعله لم يفهم شيئاً مما كان يقال له.
فلما انصرف الغلام قال بيتر ايلتش بلهجة جافة:
- والآن تعال اغتسل. ضع المال على المائدة أو ضعه في جيبك... هكذا... تعال... اخلع عنك هذه السترة.
وساعده في خلع السترة، فإذا هو يصيح فجأة من جديد قائلاً:
- انظر... السترة أيضاً ملوثة بالدم.
- ليست هي... ليست السترة الكمُ وحده اتسخ قليلاً في هذا الموضع... وهنا أيضاً.... ذلك لأنني هنا إنما دسست المنديل، فنضح الدم... ولا بد أنني قعدت عليه عند فينيا، فرشح الدم من الجيب.
كذلك راح ميتيا يشرح الأمر في سورة من ثقة عجيبة. فقطب بيتر ايلتش حاجبيه. وقال متذمراً:
- ها أنت ذا دبرت أمرك! أغلب الظن أنك اقتتلت مع أحد.
وابتدأ التنظيف. تناول بيتر ايلتش جرّةً وأخذ يسكب الماء. فكان ميتيا من فرط تعجله لا يحسن غسل يديه بالصابون (كانت يداه ترتعشان؛ تذكر بيتر ايلتش ذلك فيما بعد)، فأمره الموظف الشاب بأن يعيد الكرة فيغسل يديه من جديد. كان الموظف في تلك اللحظة يسيطر على ميتيا، وكان سلطانه عليه يقوى شيئاً بعد شيء. يحسن أن نشير هنا إلى أن هذا الشاب لم يكن وجلاً أو خجول الطبع.
- انظر: لقد نسيت أن تنظف ما تحت الأظافر. نظف وجهك الآن جيداً. أكثر من هذا! هنا على الصدغين، وقرب الأذن أيضاً... هل تنوي أن تنصرف لابساً هذا القميص؟ وإلى أين تريد أن تذهب؟ ألا ترى: إن حاشية الكم اليمنى ملطخة بالدم.
فقال ميتيا وهو يفحص حاشية الكم:
- حقاً! إنها ملطخة.
- بدّل إذاً ملابسك الداخلية.
- لا يتسع وقتي. سأدبّر هذا الأمر: اثنِ طرف الكم نحو الداخل، فلا يُرى من تحت البدلة. وهكذا...
كذلك واصل ميتيا كلامه بتلك الثقة نفسها، وهو يجفف وجهه ويديه بمنشفة ويرتدي سترته.
- قل لي الآن ما وقع لك؟ هل اقتتلت مع أحد؟ مع من اقتتلت؟ أفي الحانة، كما حدث هذا من قبل؟ أتراك اقتتلت مرة أخرى مع ذلك النقيب نفسه الذي جررته إلى الشارع وأخذت تضربه ضرباً مبرحاً؟ (ذكر بيتر ايلتش ذلك المشهد بلهجة لائمة). من ذا ضربت اليوم... أم تراك قتلت أحداً؟
- سخافات!
- سخافات؟ ماذا تعني؟
قال ميتيا:
- دعك من هذا الأمر.

ثم استدرك يقول مبتسماً:
- دست امرأة عجوزاً في الميدان.
- دست امرأة عجوزاً؟
- بل رجلاً عجوزاً.
كذلك صاح ميتيا ضاحكاً، وصارخاً كأنه يكلّم رجلاً أطرش.
وكان يسدد نظراته إلى عيني بيتر ايلتش.
- آه... اللعنة... رجل عجوز... امرأة عجوز!... أصبحت لا أفهم... أتراك قتلت أحداً؟
- لا بل تصالحنا. تضاربنا في أول الأمر ثم تصالحنا بعد ذلك. حدث ذلك هناك. وافترقنا صديقين. ثم إنه غبي أبله... أوه! لقد غفر لي وعفا عني... لا بد أن يكون قد صفح عني في هذه الساعة... ولو قد نهض، لما أمكن أن يغفر لي... هه... غامزاً... فليذهب الأبله إلى الشيطان! هل تسمعني يا بيتر ايلتش؟ فليذهب إلى الشيطان! لا أريد أن أهتم به بعد الآن، لا أريد أن يخطر ببالي في هذه اللحظة! كذلك صاح ميتيا يقول بلهجة قاطعة. قال بيتر ايلتش:
- لا أحب أن أتدخّل... ولكن أي لذة تجد في التشاجر مع أول قادم؟... وفي سبيل ترهات وسفاسف، كما حدث مع ذلك النقيب؟ تقتتل ثم تمضي تلهو وتقصف، ذلك طبعك حقاً! ثلاث دستات شمبانيا! ما أكثر هذا!
- أعطني المسدسين بسرعة. أنا مستعجل جداً، أحلف لك! كنت أود لو أثرثر معك يا عزيزي، ولكن ليس في وقتي متسع. ثم فيم الثرثرة؟ لقد فات أوان الكلام. آه!... ولكن! أموالي، أين وضعتها؟
كذلك هتف يقول وهو يفتش جيوبه واحداً بعد آخر.
- أموالك على المائدة.... هناك... وضعتها على المائدة بنفسك. هل نسيت؟ لكأن المال ليس له أي شأن عندك حقاً! أما مسدساك فهاكهما. إني لأستغرب أن تكون قد رهنتهما لاقتراض عشر روبلات عند العصر، ثم إذا بك تقبض بيديك الآن على ألوف. كم معك على وجه الدقة؟ ألفان، ربما ثلاثة آلاف؟
أجاب ميتيا ضاحكاً:
- ثلاثة آلاف.
ودسّ الحزمة في جيب سرواله.
- سوف تضيعها هكذا. أتراك اكتشفت منجم ذهب؟
صاح ميتيا يقول بصوت قوي وهو ينفجر بضحك صاخب مجلجل:
- مناجم، مناجم ذهب! هل تهمك المناجم يا بروختين؟ إنني أعرف هنا سيدة تعطيك ثلاثة آلاف روبل على الفور إذا أنت مضيت باحثاً عن المناجم. لقد أعطتني أنا ثلاثة آلاف روبل، فإلى هذا المدى يذهب جنونها بالمناجم! هل تعرف السيدة خوخلاكوفا؟
- أعرفها بالنظر، وبالسمعة أيضاً. أهي التي أعطتك الثلاثة آلاف روبل؟ أعطتكها هكذا؟
كذلك سأله بيتر ايلتش وقد بدا في وجهه أنه لم يصدق ما يقوله ميتيا.
- إذا كنت لا تصدّق ما أقول اذهب إليها غداً منذ الفجر، ساعةَ طلوع الشمس حين يرتقي فيبوس قبة السماء مسبّحاً بحمد الرب ممجداً عظمته بشبابه الخالد. اذهب إليها فاسألها ألم تعطني ثلاثة آلاف روبل، وسوف تعلم.
- لا أتدخل في علاقاتك. وما دمت تؤكد ذلك جازماً فلا بد أن يكون صحيحاً.... ولكنك ما إن استلمت المبلغ حتى أخذت تلهو وتقصف وتبدد، بدلاً من أن تذهب إلى سيبيريا!... إلى أين تنوي أن تذهب في هذه الساعة؟
- إلى موكرويه.
- إلى موكرويه؟ ليلاً؟
قال ميتيا فجأة:
- كان العالم ملك يميني، فأصبحت لا أملك الآن شيئاً!
- لا تملك شيئاً؟ وهذه الثلاثة آلاف روبل؟
- لا قيمة لها عندي! ألا فليذهب المال إلى الشيطان... وإنما أنا أتكلم عن طبع النساء...
طبع النساء سريع التصديق
وقلبهنّ كثير التقلب فاسد [180].
أوليس هو الذي قال هذا، وأنا أوافقه في الرأي كل الموافقة.
- لا أفهمك.
- أظن أنك تحسبني ثملاً؟
- لا لست ثملاً، ولكن ربما أسوأ من ذلك.
- روحي هي السكرى يا بيتر ايلتش، ولكن في هذا الآن...
- ماذا تفعل؟ أتحشو مسدسك؟
- نعم أحشوه.
كان ميتيا قد فتح علبة المسدسين فعلاً، فبعد أن سكب باروداً في خرطوشة، دسَّ الخرطوشة في المسدس؛ وقبل أن يضع الرصاصة في السبطانة، أمسكها بين أصبعين وأخذ يمعن النظر إليها في ضوء الشمعة.
سأله بيتر ايلتش الذي كان يراقبه بفضول قلق:
- لماذا تنظر إلى الرصاصة؟
- هي نزوة لا أكثر: أتخيّل.... لو كنت تنوي أن تُسكن هذه الرصاصة في دماغك، أفما كنت تنظر إليها حين تحشو المسدس؟
- أنظر إليها؟ لماذا؟
- ما دامت ستنفذ في جمجمتي أنا، فإنه ليهمني أن أرى هيئتها... هذه سخافات أقولها على كل حال، سخافات لا أكثر.
ثم أضاف يقول وهو يدخل الرصاصة ويرسّخها بالمشاقة:
- انتهى! ما هذا كله إلا سخافات يا عزيزي بيتر ايلتش، سخافات لا أكثر... ليتك تعلم مدى ما في هذا كله من غباء. أعطني ورقة بسرعة!
- هذه ورقة.
- بل أريد ورقاً نظيفاً أكتب عليه. هذا يصلح على كل حال.
وتناول ميتيا ريشةً من على المنضدة، فكتب على الورقة سطرين بسرعة، وطوى الورقة أربعة أرباع، ودسَّها في أحد جيوب صديريته. وبعد ذلك أعاد المسدسين إلى العلبة، وأقفل العلبة بالمفتاح واحتفظ بها في يده. ثم ألقى نظرة على بيتر ايلتش، وهو يبتسم ابتسامة حالمة. وقال:
- والآن نمضي.
- إلى أين؟ قف! ألعلك تفكر فعلاً في إرسال هذه الرصاصة إلى رأسك؟
كذلك سأله بيتر ايلتش، وقد اشتد قلقه.
- سخافات! ألا فاعلم أنني أريد أن أحيا، لأنني أحبّ الحياة! إنني أحبّ فيبوس وضفائره الذهبية وحرارته أكثر من أن يخطر ببالي الانتحار.. قل لي يا عزيزي بيتر ايلتش: هل تستطيع أنت أن تمّحى؟
- أن أمّحي؟ ماذا تعني؟
- نعم أن تمّحى، أن تزول من الدرب. أن تخلي الطريق للإنسان الذي تحبه والإنسان الذي تكرهه؟ وأن تحب حتى ذلك الذي كان عليك أن تكرهه... أن تبتعد

عن طريقهما قائلاً: «هيَّا اذهبا، وليحرسكما الله، أما أنا فسوف...».
- سوف... ماذا؟
- لا شيء! فلنمض...
- أظن أنه عليّ أبلغ بعضهم ليمنعوك من السفر. ماذا عساك فاعلاً في موكرويه؟
كذلك قال بيتر ايلتش وهو يتفرس في ميتيا. فأجابه ميتيا:
- في موكرويه امرأة... امرأة... ها أنت ذا عرفت الآن ما فيه الكفاية يا بيتر ايلتش! حسبك هذا!
- اسمع لي: أنت إنسان متوحش، ولكنك كنت دائماً محبباً إلى قلبي. فأنا الآن شديد القلق عليك...
- شكراً يا أخي! تقول إنني متوحش. يا للمتوحشين! ذلك ما كنت أدعيه دائماً: متوحشون، متوحشون... آ... هذا ميشا قد عاد. كنت قد نسيته.
وصل ميشا لاهثاً يحمل النقود. فذكر أن آل بلوتنيكوف قد «هبوا يتحركون»، فهم يحملون الزجاجات ويهيئون السمك ويجلبون الشاي، وإن كل شيء سيكون قد تم إعداده بعد بضع دقائق. تناول ميتيا ورقة مالية بعشرة روبلات، فمدَّها إلى بيتر ايلتش، ورمى للصبي ورقة أخرى بتلك القيمة نفسها.
صاح بيتر ايلتش:
- إياك! لا أسمح لك بذلك في داري. فإن ذلك سيفسده. أعد هذا المال إلى جيبك. ضعه هنا... لماذا تبدده؟ قد تحتاج إليه في القريب فتعود إليّ منذ الغد لتستدين عشرة روبلات... لا تدسّ جميع هذه الأوراق في جيب السروال، وإلا ضاعت منك!
- هيه يا صديقي! ليتنا نذهب إلى موكرويه معاً. ما رأيك؟
- ما ذهابي أنا إلى هناك؟
- اسمع! سنفتح إحدى الزجاجات لنشرب تمجيداً للحياة. إنني في حاجة إلى شرب شيء من الشمبانيا. أود أن أشرب معك خصيصاً. أظن أننا لم نشرب معاً في يوم من الأيام! وأنا أحرص على هذا وأصرّ عليه.
- لك ما تشاء! فلنذهب إذاً إلى الحانة. لقد كنت أنوي أن أذهب إلى هناك.
- ليس في وقتي متسع لأذهب إلى الحانة. سنشرب عند آل بلوتنيكوف، في الحجرة التي وراء الدكان. سألقي عليك «فزورة»، هل توافق؟
- ألقها.
أخرج ميتيا من جيب صديريته الورقة التي كان قد طواها ووضعها فيها، ففض الورقة وأطلع عليها الموظف الشاب. فقرأ هذا الجملة التالية التي كتبها عليها ميتيا بأحرف كبيرة: «إنني أعاقب نفسي مكفراً عن حياتي كلها، وأقبل هذا العقاب»..
قال بيتر ايلتش بعد أن قرأ الورقة:
- أحسب حقاً أن عليَّ أن أبلغ بعض أقاربك! سأقوم بهذا.
- لن يتَّسع وقتك يا عزيزي! هلمَّ نشرب.
يقع متجر آل بلوتنيكوف في ناصية الشارع بعد بيت واحد من دار بيتر ايلتش. إنه أكبر «بقالة» في المدينة، وهو متجر مزدهر أصحابه من أغنياء التجار؛ وفي هذا المتجر يباع كل شيء، كما في المخازن الكبرى بالعاصمة: خمور من «أقبية الأخوة يليسييف»، فاكهة، سيجار، شاي، سكر، بن، إلخ. وفيه يعمل ثلاثة مستخدمين مقيمين، وغلامان متجولان يحملان السلع إلى منازل الزبائن. لقد أصيب إقليمنا بفقر شديد، وغادره أثرياء المالكين، وبارت التجارة فيه، ولكن مخازن البقالة ظلت مزدهرة، حتى ليمكن القول إنها تزداد ازدهاراً سنةً بعد سنة: إن السلع التي من هذا النوع لا تعدم من يشتريها في كل زمان. كان آل بلوتنيكوف ينتظرون وصول ميتيا إلى مخزنهم نافدي الصبر، لأنهم يتذكرون ما اشتراه منذ بضعة أسابيع من سلع كثيرة، إذ ابتاع، دفعةً واحدة، من الخمور والبضائع ما بلغت قيمته بضع مئات من الروبلات عداً ونقداً (وما كان لهم بطبيعة الحال أن يبيعوه شيئاً بالدين)؛ وهم لم ينسوا أيضاً أنه كان يحمل بيده، كما في هذه المرة، حزمة أوراق مالية ضخمة، وأنه كان يرميها لهم من دون حساب ومن دون أن يساوم ومن دون أن يفكّر في فائدة تلك السلع الكثيرة التي اشتراها. وقد رُوي بعد ذلك في المدينة كلها أنه حين ذهب إلى موكرويه بصحبة جروشنكا، «قد أنفق في ليلة واحدة وفي النهار الذي أعقب تلك الليلة مبلغ الثلاثة آلاف روبل كله، ثم عاد من ذلك القصف بغير قرش واحد في جيبه، كما ولدته أمه تماماً». فقد استأجر فرقة من الغجر (كانوا يعسكرون أيامئذٍ على مقربة من بلدتنا)، فرتب هؤلاء أمرهم بحيث يسلبونه مئات ومئات من الروبلات، ويشربون أعداداً كبيرة من زجاجات الخمرة الغالية، مستغلين سكره. وقد روى الناس أيضاً، في معرض السخر من ميتيا، أنه قدم شمبانيا لفلاحين قذرين، وأنه أشبع بنات الحي فطائر ستراسبورجية وأنواعاً من الحلوى. وكان الناس يتندرون أيضاً، ولا سيما في الحانة (ولكن ليس بحضور ميتيا، وإلا تعرضوا للمخاطر)، كانوا يتندّرون بتلك الواقعة التي ذكرها هو نفسه على رؤوس الأشهاد، وهي أنه لم يحظ من جروشنكا، من قبيل المكافأة له على تلك الرحلة، «إلا بقبلةٍ على قدمها، ولا شيء غير ذلك».
حين اقترب ميتيا وبيتر ايلتش من البقالة وجدا على بابها مركبة «ترويكا» مجهزة تماماً، مزينة العدة بأجراس ومفارش وغطاء مريح، وعربةً مزوَّدة بسجادة. وكان الحوذي آندريه ينتظر ميتيا متربعاً على مقعده وكان في الدكان منذ ذلك الحين صندوق خشبي كبير قد ملئ تقريباً بالسلع التي أمر بها ميتيا، وكان أصحاب المتجر لا ينتظرون إلا وصول ميتيا لتسمير الصندوق ووضعه في العربة. دهش بيتر ايلتش، فسأل ميتيا:
- من أين جاءت مركبة الترويكا هذه؟
فأجابه ميتيا:
- لقد التقيت بآندريه حين كنت آتياً إليك، فأمرته بأن ينتظرني مع الخيول أمام البقالة. فلقد كان عليَّ أن لا أضيّع وقتاً. إن تيموثي هو الذي قادني في المرة السابقة، ولكنه سافر في هذا المساء مع ساحرة، من دون أن يحفل بي... هل سنتأخر كثيراً يا آندريه؟
أسرع آندريه يجيب:
- لن يسبقونا إلا ساعة واحدة في أكثر تقدير... بل أقل من ذلك!... ساعة قصيرة! لقد قرنت خيول تيموثي بنفسي، وأنا أعرف سرعتها. لأقودنَّك بسرعة غير تلك السرعة يا دمتري فيدوروفتش! أنَّى لهم أن يقاسوا بنا! لن يصلوا قبلنا إلا بساعة.
كذلك قال آندريه مؤكداً بحرارة. وهو رجل ما يزال شاباً، أحمر الشعر جان الجلد، يرتدي قميصاً ويحمل قفطانه على ذراعه اليسرى.
- لك مني خمسون روبلاً «بقشيشاً» إذا لم نتأخر أكثر من ساعة!
- اعتمد عليَّ يا دمتري فيدوروفتش. ساعة؟ بل سيكون من حقّهم أن يعتزّوا ويفتخروا إذا هم سبقونا بنصف ساعة.
أخذ ميتيا يتحرّك في المتجر باضطراب وكان يصدر أوامره بشكل غريب غير منتظم، متنقلاً من طلب إلى طلب آخر قبل إنهاء الطلب الأول. فرأى بيتر ايلتش أن من واجبه أن يتدخل محاولاً تخفيف اندفاعه والحدّ من جنونه.
قال ميتيا آمراً:
- أريد أن يكون الثمن أربعمائة روبل على الأقل، تماماً كالمرة السابقة. أربع دستات شمبانيا، لا أريد أن تنقص زجاجة واحدة!
صرخ بيتر ايلتش:
- قف! ما عساك صانعاً بكل هذا العدد من زجاجات الشمبانيا؟ ماذا يحتوي هذا الصندوق الخشبي؟ لا يمكن أن يكون فيه ما يساوي ثمنه أربعمائة روبل.
أسرع المستخدمون يشرحون له، بلهجة متلطفة، أن هذا الصندوق الأول لا يحتوي إلا ست زجاجات من الشمبانيا، وأنه يحتوي كذلك «الأشياء الضرورية جداً» كالمقبلات، والملبس، والحلوى، إلخ... أما «الغلات» الأساسية فستحزم على حدة، ثم ترسل كالمرة السابقة على ترويكا أخرى تصل بعد دمتري فيدوروفتش بأقل من ساعة».
قال ميتيا ملحاً:
- بعد ساعة واحدة، لا أكثر من ذلك. وستضعون فيها أكبر قدر ممكن من الملبّس والكاراميل. إن البنات هناك يعشقن الكاتو والكاراميل.
قاطعه بيتر ايلتش يقول شبه غاضب:
- أوافق على الكاراميل! ولكن ما عساك صانعاً بأربع دستات من زجاجات الشمبانيا؟ تكفيك دستة واحدة وتزيد!
وأخذ بيتر ايلتش يساوم، وطلب أن يرى الفاتورة، وتحرّك كثيراً، ثم لم يستطع آخر الأمر أن ينقذ إلا مائة روبل، فتقرر أن لا يزيد ثمن البضائع المشتراة على ثلاثمائة روبل.

ثم صاح بيتر ايلتش يقول وقد ثاب إلى رشده:
- شيطان يأخذكم! أنا ما لي ولهذا كله! بدّد مالك كما تشاء، ما دمت قد كسبته بغير جهد!
فقال له ميتيا وهو يجره إلى الغرفة التي تقع خلف الدكان:
- هدّئ روعك يا صاحبي المدبّر! سيأتوننا الآن بزجاجة ترطب حلقينا! لنسافر معاً يا بيتر ايلتش. لماذا لا تسافر معي؟ أنت شاب شهم، وإنني لأحب أمثالك من الرجال.
جلس ميتيا على مقعد أمام مائدة صغيرة مغطاة بمفرش قذر للغاية. وجلس بيتر ايلتش قبالته، وجيئا بالشمبانيا. واقتُرحت عليهما محارات «من نوع فاخر وصلت مؤخراً»، فقال بيتر ايلتش رافضاً الاقتراح في غضب:
- دعوني من محاراتكم، فإنني لا أحبّ المحار.
وقال ميتيا:
- لا يتسع وقتنا لأكل المحار، ثم إنني لا أشتهي أن آكل محاراً.
ثم التفت يقول لبيتر ايلتش وقد تحمس على حين فجأة:
- اسمع يا صديقي، إنني كنت أكره كل هذه الفوضى دائماً.
- ومن ذا الذي لا يشمئز منها؟ ثلاث دستات من زجاجات الشمبانيا... ولمن؟ لفلاحين؟ ألا إن هذا ليثير غضب أي رجل ويبعث على الغثيان!
- ليس هذا ما أعنيه. فإنما أنا أقصد الفوضى التي تشوّش النظام الأعلى، نظام النفس، ونظام الروح، لقد أعوزني دائماً ذلك النظام... ليس في نفسي انسجام... ولكن انتهى الآن كل شيء، فعلام الندم والأسف؟ فات الأوان! لا بأس!... لم تكن حياتي كلها إلا فوضى طويلة، وقد آن لي أن أدخل عليها شيئاً من النظام. إنني أستعمل استعارات وكنايات رديئة، هه؟
- بل قل إنك تخرَف!...
قال ميتيا:
المجد للخالق في الخلق
المجد للخالق في نفسي [181].
لقد نظمت هذا البيت من الشعر في الماضي، انبجس مني في ذات يوم انبجاس دمعة.. لم يكن هو اليوم الذي جررت فيه النقيب من لحيته!
- لماذا تتكلم عن ذلك النقيب؟
- لماذا؟ لماذا؟ آه... ما كل شيء إلا دخان! كل شيء يتبدد! كل شيء يزول آخر الأمر!
- اسمع! إن مسدسيك يقلقاني...
- ما المسدسات إلا دخان! اشرب، وكفَّ عن قول هذه السخافات! إنني أحبّ الحياة... إنني أسرف في حب الحياة، حتى لأخجل من ذلك. كفى! فلنشرب يا عزيزي، فلنشرب نخب الحياة، نخب الحياة! لماذا أنا معجب بنفسي! إنني حقير، ولكنني راض عن نفسي! ومع ذلك يعذبني شعور بأنني حقير ولكنني راض عن نفسي. إنني أبارك الخليقة، وإنني مستعد لأن أسبّح بحمد الخالق، وأن أتغنّى بعظمته، ولكن.. يجب أولاً سحق حشرة خبيثة حتى لا تسمم حياة الآخرين... هيه يا أخي! فلنشرب نخب الحياة! أي شيء أفضل من الحياة؟ لا شيء أفضل من الحياة، لا شيء! المجد للحياة، والمجد لملكتي، ملكة الملكات!
- لك ما تشاء! فلنشرب نخب الحياة، ولنشرب نخب ملكة قلبك.
وأفرغ كل من الرجلين كأساً. كان ميتيا، المهذار المتحمس يبدو حزيناً، كأن هماً ثقيلاً يجثم على صدره وليس يستطيع طرده.
- ها... ها هو ذا ميشا، ها هو ذا غلامك ميشا قد دخل! تعال إلى هنا أيها الصبي الطيب! اشرب كأساً معنا، تمجيداً لفيبوس وضفائره الشقراء، تمجيداً للشمس التي ستطلع غداً...
قال بيتر ايلتش محتجاً حانقاً:
- أأنت مجنون؟ أتسقه شمبانيا؟
فقال ميتيا:
- اسمح له بأن يشرب مرة واحدة! لسوف يسُرني هذا.
- آه... ما دمت تصرّ أفرغ ميشا قدحاً، وسلّم ثم انصرف.
قال ميتيا:
- هكذا سيتذكرني مدة أطول على الأقل... إنني أحبّ المرأة، أحبّ المرأة! ما المرأة؟ هي ملكة الأرض.. إنني أحسّ بحزن يا بيتر إيلتش، أحسّ بحزن رهيب هل تتذكر ما قاله هملت: «أشعر بحزن يا هوراسيو، أشعر بحزن شديد... وأسفاه! مسكين يوريك ذلك!» [182] لعلني أنا يوريك! إنني في هذه اللحظة بعينها يوريك. وبعد ذلك سأكون الجمجمة.
كان بيتر ايلتش يصغي إليه صامتاً، وصمت ميتيا أيضاً.
ثم اتجه بالكلام فجأة إلى المستخدم يسأله شارد اللّب وقد رأى في الركن كلباً صغيراً جميلاً طويل الشعر متدلّي الأذنين أسود العينين:
- لمن هذا الكلب؟
أجاب المستخدم:
- هو لبربارا ألكسييفنا، صاحبة المتجر. نسيته هنا منذ قليل.
سيكون علينا أن نذهب به إليها.
قال ميتيا حالماً:
- رأيت في الماضي كلباً يشبهه كل الشبه... كان ذلك في الكتيبة... ولكن ذلك الكلب كان مكسور الساق... بالمناسبة يا بيتر ايلتش، كنت أريد أن أطرح عليك سؤالاً: هل اتفق لك أن سرقت في حياتك؟
- يا لها من فكرة!
- افهمني! أقصد السرقة الحقيقية... أن تأخذ مالاً من جيب شخص آخر، لا من الدولة، فجميع الناس يسرقون الدولة... هذا شيء معروف، وأنت أيضاً تسرق الدولة، لا شك عندي في ذلك...
- سحقاً لك...
- هل سرقت مع ذلك؟ من جيب، أو من محفظة؟...
- سرقت في طفولتي قطعة نقدية بعشرين كوبيكا من أمي.. كان عمري تسع سنين. أخذت القطعة النقدية من على المائدة، دون يراني أحد، وأخفيتها في قبضة يدي.
- وبعد ذلك؟
- لا شيء. احتفظت بها ثلاثة أيام، ثم شعرت بالخجل والعار، فرددتها معترفاً بالسرقة.
- ثم؟
- جُلدت كما أستحق. ولكن لماذا هذه الأسئلة؟ أتراك سرقت؟
قال ميتيا وهو يغمز غمزة ماكرة:
- سرقت!
- فسأله بيتر ايلتش قلقاً:
- ماذا سرقت؟

- سرقت عشرين كوبيكا من أبي. كان عمري تسع سنين. ثم رددتها بعد ثلاثة أيام.
قال ميتيا ذلك ثم نهض فجأة.
صرخ الحوذي أندريه يقول من باب المتجر:
- آن أوان السفر يا دمتري فيدوروفتش.
- هل كل شيء جاهز؟ هيّا بنا!
قال ميتيا ذلك، وأخذ يتحرك هنا وهناك. وأضاف يقول:
- بضعة أسطر أخرى وأتم القصيدة[183]! كأس من الفودكا لأندريه بسرعة! واعطوه أيضاً كأس كونياك! أما العلبة (علبة المسدسات)، فضعوها تحت مقعدي. استودعك الله يا بيتر ايلتش، ما ينبغي لك أن تؤاخذني.
- ولكنك ستعود غداً؟
- نعم نعم، سأعود.
قال مستخدم وهو يهرع إلى ميتيا:
- هل تتكرم بتصفية الحساب الآن؟
- آ... نعم... الحساب... طبعاً!
أخرج ميتيا من جيبه حزمة الأوراق المالية، فسلَّ منها ثلاث ورقات من فئة المائة روبل، ورماها على البسطة بإهمال، ثم خرج مسرعاً من الغرفة، فرافقه جميع مستخدمي المتجر، وشيّعوه متمنين له رحلة سعيدة وهم ينحنون له انحناء كبيراً. وكان أندريه قد أفرغ كأساً من الكونياك، فها هو ذا يسعل لينظف حلقه، ثم يصعد إلى مكانه من العربة. ولكن بينما كان ميتيا يهم أن يستقر في العربة، انبجست فينيا راكضة لاهثة، فضمت يديها إحداهما إلى الأخرى، وجثت على ركبتيها أمامه، وهتفت تتوسل إليه قائلة:
- سيدي العزيز دمتري فيدوروفتش، ملاكي، لا تصب سيدتي بسوء، لا تنلها بأذى! ألاّ ما كان أغباني حين قصصت عليك كل شيء! ولا تسئ إليه هو أيضاً، القديم... لأنه عرفها قبلك. وهو ينوي أن يتزوج أجرافينا ألكسندروفنا، لقد جاء من سيبريا لهذا الغرض.... سيدي العزيز دمتري فيدوروفتش، لا تحطم حياتهما! لا تسفح دم أخيك الإنسان.
دمدم بيتر ايلتش يخاطب نفسه: «آ... هذا بيت القصيد في الحكاية كلها... ستُحدث مشاجرة هناك. استبان الآن كل شيء. أصبح كل شيء واضحاً»...
ثم هتف يقول بصوت عالٍ:
- دمتري فيدوروفتش! أعد إليّ هذين المسدسين في الحال إذا كنت رجلاً. هل تسمع يا دمتري؟
فأجابه ميتيا:
- المسدسين؟ لحظة يا عزيزي... سأرميهما أثناء الطريق في غدير. وانهضي أنت يا فينيا. لا تركعي أمامي. إن ميتيا لن يقتل، إن ميتيا، هذا الرجل الغبي، لن يحطم حياة أحد بعد الآن.
ثم صاح يقول بعد أن استقر في المركبة:
- اسمعي يا فينيا، لقد أهنتك منذ قليل، فأرجو أن تغفري لي.
اغفري لهذا الشقي البائس... على أنه يستوي أن تغفري وأن لا تغفري... لم يبق لهذا قيمة... هيَّا يا آندريه، طر بسرعة.
رفع أندريه سوطه معلناً الانطلاق. فجلجلت الأجراس.
استودعك الله يا بيتر ايلتش، لك مني آخر دمعة!...
قال بيتر ايلتش يخاطب نفسه وهو يتابع بنظره مركبة الترويكا التي أخذت تبتعد: «ليس بسكران، ولكن ما أشد الغباء في أقواله». وقد أراد بيتر ايلتش أن يبقى في المتجر ليراقب شحن الخمور والمؤونات على عربة أخرى، لأنه كان يحسّ أنهم سيغشون ميتيا. ولكنه شعر بحنق على نفسه فجأة لاهتمامه بهذه التفاصيل، وبصق من شدة غضبه، واتجه نحو الحانة ليلعب البلياردو قليلاً كما كان ينوي ذلك.
وقال في نفسه أثناء الطريق: «إنه رجل غبي، ولكنه طيب. أما ذلك الضابط، أما صاحب جروشنكا «القديم» ذاك، فقد سبق أن سمعت عنه. هل عاد إذاً... ولكن ما يثير قلقي هو المسدسان... آ... اللعنة... أنا مربيه؟ فليحل الرجلان نزاعهما... ولن يحدث شيء على كل حال. سيصرخان كثيراً، وسيسكران، وسيقتتلان، ثم يتصالحان. ليسوا جادين، لا هؤلاء ولا أولئك... كلمات جوفاء!
«سوف اتنحى عن طريقهما... «إني أعاقب نفسي»... دعنا من هذا! لن يفعل من ذلك شيئاً. لقد ردّد أقوالاً من هذا النوع مائة مرة في الحانة حين كان ثملاً. وهو في هذه المرة لم يشرب. «نفسي سكرى...»؛ إن جميع أمثاله من القاصفين يحبون العبارات الرنانة الطنانة. أأنا مربيه أخيراً؟ لقد تشاجر على عادته، فدمي وجهه. ولكن من ذا الذي تشاجر معه؟ سأعرف هذا في الحانة حتماً. وذلك المنديل المدمَّى؟... لقد تركه على الأرض في غرفتي... ولكن لا قيمة لهذا كله على كل حال!».
وصل بيتر ايلتش إلى الحانة معتكر المزاج جداً، وأخذ يلعب البلياردو فوراً. وأشرق مزاجه أثناء اللعب شيئاً بعد شيء، وشرع في اللعب مرة أخرى، وأخذ يقص فجأة على أحد ملاعبيه أن دمتري كارامازوف أصبح يملك مبلغاً كبيراً من المال مرة أخرى، وأنه رأى في يديه بأم عينه ثلاثة آلاف روبل. وأضاف أن ميتيا قد سافر في هذه المرة أيضاً إلى موكرويه ليقصف فيها مع جروشنكا. أصغى السامعون إلى هذه الأنباء بفضول شديد، وسرعان ما أخذوا يتناقشون بحرارة، دون مزاح، ويتكلمون بلهجة فيها جد عجيب. حتى لقد انقطع لعب البلياردو.
- ثلاثة آلاف روبل؟ من أين جاء بها؟
أخذ الحضور يمطرون بيتر ايلتش بوابل من الأسئلة. ولم يصدقوا حكاية مناجم الذهب التي اقترحتها السيدة خوخلاكوفا.
- أليس من الممكن أن يكون قد سرق أباه العجوز؟
- ثلاثة آلاف روبل! هذا أمر يثير الاشتباه!
- لقد تباهى في هذا المكان نفسه بأنه سيقتل العجوز، وسمعه جميع الناس، حتى لقد تحدث في تلك المناسبة نفسها عن ثلاثة آلاف روبل...
كان بيتر ايلتش يصغي، وأصبحت أجوبته موجزة مقتضبة على حين فجأة. حتى لكأنه صار يتهرب من الكلام ولم ينطق بكلمة واحدة عن الدم الذي رآه على وجه ميتيا ويديه، رغم أنه كان ينوي أن يتحدث عن ذلك حين ذهب إلى الحانة. وبدأ لعب البلياردو مرة ثالثة، وانصرف الحديث عن ميتيا، حتى إذا انتهت اللعبة الثالثة، أعلن بيتر ايلتش أنه لا يحب أن يلعب مزيداً من اللعب. ثم وضع عصا البلياردو، وخرج حتى من دون أن يتعشى، خلافاً لما كان ينتوية. فلمّا وصل إلى الميدان توقف لحظة، وتساءل مدهوشاً منزعجاً كيف أمكن أن يخطر بباله أن يذهب إلى دار فيدور بافلوفتش ليعرف هل وقع له شيء. «سأوقظ جميع الناس، وأحدث فضيحة، مع أن هذا كله ليس إلا تخيلا! وما شأني أنا؟ أأنا خادمهم؟».
واتجه إلى منزله معتكر المزاج حانقاً. وفجأة خطرت بباله فينيا. قال لنفسه في حسرة: «اللعنة! إن فينيا هي الشخص الذي كان يجب أن أسأله، ولو فعلتُ لقالت لي كل شيء!». وشعر عندئذٍ برغبة قوية في أن يكلمها، وبلغت عنده هذه الرغبة من القوة أنه انعطف فجأة، وهو في منتصف الطريق إلى داره، فاتجه نحو منزل آل موروزوف الذي تقيم فيه جروشنكا. فلمّا وصل إلى الباب طرقه، فإذا بالطرقات التي تراجعت في صمت الليل ترده فجأة إلى الواقع، وإذا بحنقه يشتد لأنه يقوم بعمل غير لائق. قال في نفسه وهو يشعر بجرج يوشك أن يكون أليماً: «سوف أحدث فضيحة». ولكنه لم ينصرف، بل استأنف طرق الباب، بكل ما أوتي من قوة في هذه المرة. دوَّت طرقات الباب في الشارع كله. فردَّد يقول: «لا ضير! لسوف أظل أطرق الباب إلى أن يفتحوا!»، بينما كان سخطه على نفسه يزداد لدى كل طرقة جديدة. لكنه كان يستأنف الطرق بمزيد من القوة.

-6- ها أنذا!

كان دمتري فيدوروفتش يطير إلى موكرويه بسرعة عظيمة. إن المسافة تزيد قليلاً على عشرين فرسخاً. ومن الممكن، بفضل سرعة عدو خيول آندريه، قطع هذه المسافة بساعة وربع ساعة. وأنعشت السرعة فكر ميتيا. كان الهواء عليلاً بارداً، وكانت نجوم كبيرة تتلألأ في سماء بلا سحب. في تلك الليلة، وربما في تلك الساعة، إنما تهالك أليوشا على الأرض، «حالفاً بحرارة ليحبنَّها إلى الأبد». كان ميتيا يشعر بضيق شديد، ولكن نفسه، رغم ثقل الهموم التي تعذبها، كانت لا تنصرف في تلك اللحظة إلا إلى ملكته التي يتعجل لقاءها ليتأملها مرة أخيرة. حسبي أن أقرر ما يلي: لم يخطر ببال ميتيا أن يناضل للاحتفاظ بهذه المرأة. ربما لن تصدقوا كلامي إذا قلت إن هذا الغيور لم يكن يشعر بأية عاطفة من عواطف الغيرة نحو القادم الجديد، نحو ذلك الغريم الذي لم يكن في حسبانه، نحو هذا «الضابط» الذي ظهر في حياته بتلك المفاجأة. لو حاول أي إنسان آخر أن يحلّ محله لأسرع ميتيا يردَّ بحنق غيور، ولتلطخت يداه بالدم من جديد. أما تجاه هذا الإنسان الذي هو «أول رجل» في حياة جروشنكا فإن ميتيا كان لا يشعر بأية غيرة، ولا بأي عداوة، أثناء ما كانت مركبة الترويكا تقله إلى موكرويه. ولم يكن قد رأى ذلك الرجل بعد. «الأمر واضح. إنهما على حق. هو أول حب في حياتهما، هو الرجل الذي لم تستطع أن تنساه يوماً خلال خمس سنين. معنى هذا أنها لم تنقطع عن حبه طوال تلك المدة. أما أنا، فماذا جئت أعمل في حياتها؟ ما أنا عندها؟ ابتعد يا ميتيا! تنحَّ عن طريقهما! ثم ما قيمة هذا كله اليوم، ما دام مصيري قد تقرر، ما دام كل شيء سينتهي بالنسبة إليَّ، حتى ولو لم يكن هو هناك، حتى ولو لم يجئ ذلك الضابط؟».

بهذه العبارات تقريباً إنما كان يمكن أن يعبِّر ميتيا عن المشاعر التي كانت تجيش في نفسه، لو كان قادراً على التفكير في تلك الآونة. ولكن ميتيا لم يكن يفكر، إن القرار الذي اتخذه؛ اتخذه على حين فجأة، دون أي تفكير، فإذا هو يقبله دفعةً واحدة مع جميع النتائج التي تترتب عليه، بعد ما كشفت له عنه فينيا من أمور. ومع ذلك ما يزال ميتيا يشعر بضيق واختناق واضطراب أليم: إن قراره لم يردَّ السكينة والطمأنينة إلى نفسه. إن أشياء كثيرة تربطه بذلك الماضي الذي كان يعذبه. وبدا له الأمر غريباً.

كان يقول لنفسه في بعض اللحظات: «ما أغرب هذا» كان قد نطق بحكم نهائي على مصيره، كان قد كتب على ورقة قوله: «إني أعاقب نفسي، وأنا أقبل هذا العقاب، وإن هذه الورقة موجودة الآن في جيبه، معَّدة لأن تستعمل؛ وإن مسدسه محشو، وهو يعلم حق العلم ما الذي سيفعله في صباح الغد، حين يطلع «فيبوس ذو الضفائر الذهبية» فيدفئ الأرض من جديد بأولى أشعته. ومع ذلك.. لم يكن ميتيا يستطيع أن ينفصل عن ماضيه الذي يحاصره ويعذبه. فكان يشعر بذلك متألماً: لا سبيل إلى النسيان، وكان الشعور بهذه الاستحالة يملأه كمداً ويأساً. ولقد أوشك في لحظة من اللحظات، أثناء هذه الرحلة، أن يأمر أندريه بالتوقف، وأن يخرج من العربة، ويسلّ مسدسه المحشو ويطلق رصاصة على نفسه ويَفْرَغ من الأمر كله دون أن ينتظر الغد. ولكن هذه النية لم تلبث أن تبددت، كما تنطفئ شرارة طائرة. وكانت مركبة الترويكا «تنهب به الأرض نهباً»، فكلما اقتربت به من غايته، كانت صورة تلك المرأة تنفذ فيه مزيداً من النفاذ بقوة طاغية مستبدة مستأثرة، طاردة جميع أشباح الرعب التي تملأ قلبه. أوه! ما أشد رغبته في أن يلقي نظرة عليها، ولو من بعيد، عابرة... «إنها في هذه الساعة معه، وسأراها هي وحبيبها الأول، وسأتأملهما، ذلك هو كل ما أتمناه الآن!» لم يشعر نحو هذه المرأة - التي لعبت في مصيره هذا الدور الكبير - في يوم من الأيام بمثل الحب الذي يشعر به الآن، لم يشعر نحوها في يوم من الأيام بمثل ما يشعر به الآن من عاطفة رقيقة جديدة مفاجئة حتى بالنسبة له، من عاطفة الخضوع والمذلّة التي تدفعه إلى أن يريد نسيان ذاته، والتضحية بنفسه في سبيلها. هتف يقول فجأة وقد استبدَّت به حماسة تشبه أن تكون هذيان:

سأتنحّى من طريقها سأختفي.

العربة تعدو منذ قرابة ساعة. ميتيا صامت. وآندري، وهو فلاح مهذار في العادة، لا يتكلم أيضاً، كأنه يخاف خوفاً غامضاً من أن يقطع الصمت. فهو لا يزيد على أن يحرِّض بصوته أحصنته الكمت النحاف السريعي العدو. وفجأة هتف ميتيا يقول بقلق شديد:

- آندري! ماذا لو وجدناهم نائمين؟

في تلك اللحظة إنما خطر بباله هذا الاحتمال الذي لم يكن قد ساوره قبل ذلك.

- جائز جداً أن يكونوا في هذه الساعة راقدين يا دمتري فيدوروفتش.

قطب ميتيا حاجبيه حانقاً متألماً. ماذا؟ أيجيء حاملاً هذه العواطف... ثم يكونون نائمين نوماً هادئاً.. هي أيضاً.. ربما إلى جانبه! وغلى الغضب في قلب ميتيا.

صرخ يقول خارجاً عن طوره:

- أجلد يا آندري! مزيداً من الإسراع، مزيداً من الإسراع أيضاً.

قال أندريه بعد صمت:

- ما أحسب أنهم ناموا. لقد أسرَّ لي تيموثي أن جمعاً غفيراً قد اجتمع هذا المساء في موكرويه...

- في محطة العربات؟

- بل في نزل آل بلاستونوف، وهو محطة عربات أيضاً.

- أعرف. أتقول جمع غفير؟ كيف هذا؟ من هؤلاء؟ من أين جاؤوا!

كذلك هتف ميتيا يسأل الحوذي وقد شدهه هذا النبأ الذي لم يكن يتوقعه.

- إنهم جميعاً من السادة على ما قال تيموثي: اثنان منهم جاءا من المدينة ولا أدري من هما، واثنان من هنا كما قال تيموثي ولم يذكر لي مَنْ هما، ثم اثنان آخران هما مسافران عابران فيما يظهر، ثم شخص آخر أيضاً إذا صح فهمي. وهم يلعبون بالورق، على ما يدّعي تيموثي.

- بالورق؟

- نعم. وما داموا قد أخذوا يلعبون بالورق، فلا يعقل أن يكونوا قد ناموا. إن الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة الآن.

صرخ ميتيا يقول من جديد بعصبية:

- أسرع، أسرع مزيداً من الإسراع.

استأنف أندريه كلامه بعد صمت فقال:

- قل لي يا سيدي. هناك أمر أحبّ أن أسألك عنه، ولكني أخشى أن أغضبك.

- ما هو هذا الأمر؟

- إن فيدوسيا ماركوفنا قد ارتمت على قدميك منذ قليل متوسلة إليك ألا تلحق أذى بمولاتها وبشخص آخر... فيا سيدي، ما دمت أنا أقودك إلى هناك، فإن ضميري... لا تؤاخذني يا سيدي... إذا كنت غبياً فيما أقول...

فأمسكه ميتيا من كتفيه فجأة، وسأله وهو فريسة اضطراب نفسي شديد:

- أنت حوذي، أليس كذلك؟ أنت حوذي؟

- نعم، حوذي...

- فأنت تعلم إذاً ما معنى التنحي عن الطريق، وإخلائه. هل يستطيع حوذي أن يمضي، رافضاً أن يمر الآخرون؟ هل يستطيع أن يقول لغيره: لسوف أدوسك ولا أتخلى لك عن الطريق؟ إنه لا يستطيع ذلك، أليس هذا صحيحاً؟ ليس لحوذي أن يدوس المارَّة... لا يجوز للمرء أن يدوس أحداً، لا يحق لأحد أن يحطم حياة غيره. ومن يدمِّر حياة شخص آخر، فإنه لا يبقى عليه إلا أن يعاقب نفسه بنفسه بعد ذلك... إذا هو دمر حياة أحد، فليمض... فلينل العقاب!

تكلم ميتيا جيَّاش النفس، شديد الاندفاع، ورغم أن أندريه دُهش من أقواله، فإنه لم يقطع الحديث قال:

- صحيح جداً ما تقوله يا سيدي دمتري فيدوروفتش. أنت على حق، ما ينبغي لأحد أن يدوس البشر، ولا أن يعذبهم؛ وما ينبغي له أن يدوس الحيوانات أيضاً ولا أن يعذبها، فالحيوانات مخلوقات كسائر مخلوقات الله، انظر الخيول مثلاً. إن من الناس مَنْ يضربونها بغير طائل، ويستحثونها أكثر مما تحتمل. إن بعض الحوذيين في بلادنا لا يعرفون القصد والاعتدال، وهم بذلك يسيرون كالمسعورين لا أدري إلى أين وكيف...

قاطعه ميتيا قائلاً وهو يضحك ضحكته الصغيرة الجافة:

- لعلهم يفعلون هذا ليصلوا إلى جهنم بسرعة أكبر. قل لي يا آندري: إنك إنسان طيب القلب بسيط النفس (وأمسكه من كتفيه مرة أخرى) هل تعتقد أن دمتري فيدوروفتش كارامازف سيذهب إلى جهنم؟

- لا أدري يا سيدي الطيب، ذلك متوقف عليك أنت... اسمع يا سيدي: حين مات ابن الله على الصليب، نزل رأساً إلى جهنم فخلّص جميع الخاطئين الذين كانوا يقاسون فيها عذاب السعير. وقد تشكى الجحيم عندئذٍ، مخافة ألا يستقبل خاطئين بعد ذلك. فقال الرب للجحيم: «اطمئني يا جهنم، فإنك ستستقبلين بعد الآن شخصيات كبيرة: ستستقبلين أمراء وقضاة عظاماً وأغنياء، وستمتلئين من جديد كما كنت ممتلئة في الماضي، إلى اليوم الذي أرجع فيه إلى هذا العالم». إن هذا الكلام هو الحقيقة، لأن الرب قاله...

- هذه أسطورة شعبية جميلة. أجلد الحصان الأيسر يا آندري! استأنف أندريه كلامه وهو يفرقع بسوطه فوق الحصان الأيسر؛ قال:

- أولئك هم الناس الذين أعدت لهم جهنم. أما أنت يا سيدي فنحن نعدك طفلاً... ذلك هو رأينا نحن... مهما تكن عنيفاً غضوباً... وإنك لعنيف غضوب ما في ذلك ريب... فإن الرب سيغفر لك لأنك إنسان بسيط.

- وأنت يا آندريه، هل تغفر لي؟

- ليس هناك ما أغفره لك يا سيدي، فإنك لم تسئ إليّ.

- إني أسألك هل تستطيع أن تغفر لي نيابة عن الجميع، أن تغفر لي أنت، في هذه اللحظة، على هذا الطريق؟ هل تغفر لي باسم الجميع؟ أجبني يا ابن الشعب!

- سيدي! لقد بدأت أخاف... إنك تتكلم كلاماً غريباً جداً...

كان ميتيا قد أصبح لا يصغي إليه، فهو الآن يصلي صلاة حارة، مدمدماً بنوع من حماسة عنيفة وحشية:

- يا رب! اقبلني رغم حطتي، ولكن لا تحكم عليّ. اللّهم اسمح لي أن أجيء إليك دون أن أمثل أمام محكمتك... لا تحكم عليّ، ما دمت قد حكمت على نفسي بنفسي... لا تحكم عليّ، لأنني أحبك يا رب! اللّهم إني خبيث دنيء، ولكني أحبك. وحتى في الجحيم، إذا أنت أرسلتني إلى الجحيم، سأظل أحبك، وسأظل أهتف لك بحبي إلى الأبد، ولكن دع لي أن أحبّ حبي الأرضي حتى النهاية... اسمح لي أن أظل أحبّ، في هذه الحياة الدنيا، خمس ساعات أخرى، إلى أن تطلع شمسك الدافئة... إنني أحبّ ملكة قلبي، ولا أملك أن أمتنع عن حبها اللّهم إنك تراني كلي في هذه اللحظة. سوف أهرع إليها، فأرتمي عند قدميها، وأقول لها:

لقد كنت على حق حين نبذتني، وداعاً... انسي ضحيتك، ولا تدعي لذكراي أن تعذّبك يوماً!

صاح أندريه يقول وهو يومئ إلى القرية بسوطه الممدود في آخر ذراعه:

- هذه موكرويه!

من خلال ليل شاحب، كانت تُرى رؤية ضعيفة، كتلة مظلمة، هي كتلة منازل القرية المبعثرة على رقعة واسعة. إن سكان قرية موكرويه يبلغ عددهم ألفي نسمة. ولكن كل شيء كان الآن غارقاً في النوم. وليس يرى الناظر إلا بضعة أنوار تخترق الظلام هنا وهناك. صرخ ميتيا يقول محموماً:

- أسرع، أسرع مزيداً من الإسراع. أنا قادم!

فقال أندريه وهو يشير بسوطه إلى نزل آل بلاستونوف، الذي يقع عند مدخل القرية، والذي كانت نوافذه الست المطلة على الشارع مضاءة إضاءة قوية:

- لم يناموا بعد.

فكرر ميتيا كلام الحوذي فرحاناً:

- لم يناموا بعد! اجر بالعربة جرياً سريعاً يا آندريه، حتى ترن جلاجلها فيكون لدخولي ضجة وجلبة. ألاّ فليعلم الجميع من الواصل! هو أنا... ها أندا قادم!

كذلك صرخ ميتيا وقد بلغ ذروة الاهتياج.

استحث أندريه أحصنته المكدودة، فوصلت العربة إلى باب النزل مقرقعة قرقعة قوية، وهنالك استوقف الحوذي أحصنته وقد أوشكت أن تموت تعباً. وثب ميتيا من العربية في اللحظة التي كان فيها صاحب النزل ذاهباً ليأوي إلى فراشه فلمّا سمع قرقعة العربة ظهر على عتبة الباب يريد أن يرى من عسى يصل في مثل هذه الساعة بمثل هذه الجلبة. هتف ميتيا يسأله:

- أهذا أنت يا تريفون بوريستش؟

مال صاحب النزل إلى أمام ليستطيع أن يميز في الظلام ملامح وجه القادم، ثم نزل درجات المدخل راكضاً، وهرع إلى الزائر بحماسة مجاملة، وهو يقول:

- أهذا أنت يا عزيزي دمتري فيدوروفتش؟ ما أعظم فرحي برؤيتك من جديد!

إن تريفون بوريستش هذا فلاح قوي البنية مربوع الجسم متوسط طول القامة ضخم الوجه، تعبّر قسماته في العادة عن قسوة وغيظ، ولا سيما حين يكلم فلاحي موكرويه، ولكنه يملك قدرة فذة على تغيير سحنته فوراً، وعلى اصطناع هيئة المجاملة الشديدة والملاطفة المفرطة متى آنس منفعة وربحاً. إنه يرتدي ثياباً على الزي الروسي، فقميصه مقلوب الياقة، وصدريته مطرزة. ورغم أنه قد جمع كثيراً من المال، كان لا يحيا إلا لجمع المزيد من الثراء، وتحقيق المزيد من الارتفاع. إن أكثر من نصف فلاحي موكرويه مدينون له، واقعون في شباكه، خاضعون لتسلطه. كان يستأجر الأراضي من مُلاكي المنطقة، وكان يشتري بعض هذه الأراضي أيضاً، فيجبر الفلاحين على العمل فيها سداداً لما له عليهم من ديون لا يصلون إلى التخلص منها أبداً. وهو أرمل له أربع بنات كبيرات، إحداهن مات عنها زوجها فهي تعيش عند أبيها مع طفلين صغيرين، ويعاملها أبوها معاملة خادمة؛ والثانية زوجة موظف من الموظفين بلغ مرتبة الناسخ، فالداخل إلى المنزل يستطيع أن يرى على دار إحدى غرفه بين صور عائلية صورة فوتوغرافية صغيرة لهذا الخادم من خدم الدولة بلباسه الرسمي الذي يزدان كتفاه بشارات القصب[184] . أما البنتان الأخريان، فهما في أيام الأعياد الكنسية أو أثناء الزيارات تختالان بأثواب زرقاء أو خضراء مشدودة على الجسم من الخلف، ذات أذيال طويلة على آخر «موضة»، ولكنهما تنهضان في الغداة منذ الفجر كسائر الأيام، لتكنسا الغرف ولتحملا القاذورات وتنقلا الماء، وتنظفا الغرف بعد رحيل النزلاء الذين شغلوها. وكان تريفون بوريستش، رغم المال الكثير الذي جمعه، يبتهج كثيراً لكل فرصة تمكّنه من استلاب أموال مبذر من المبذرين. وهو يتذكر أنه سلب دمتري فيدوروفتش، منذ أقل من شهر، مائتي روبل إن لم يكن ثلاثمائة روبل، في يوم واحد، حين تلبث هذا في نزله ليقصف مع جروشنكا. لذلك استقبله هذه المرة بفرح فائض، مدركاً من طريقة وصول المركبة إلى الباب على هذا النحو الصاخب، أن الفريسة ستكون سهلة من جديد.

- عزيزي دمتري فيدوروفتش، ها أنت ذا عندنا من جديد!

فقاطعه ميتيا يسأله:

- لحظة يا تريفون بوريستش. قل لي الأمر الأساسي أولاً: أهي هنا؟

فسأله صاحب المنزل الذي فهم ما يعنيه ميتيا حق الفهم وكان يحدق إليه بنظرة نافذة:

- أجرافين ألكسندروفنا؟ هي هنا...!

- مع من؟ مع من؟

- مع نزلاء عابرين... موظف لا شك أنه من أصل بولندي.. يظهر هذا من لهجته... إنه هو الذي أرسل خيلاً لتجيء بها إلى هنا... وشخص آخر هو صاحب البولندي، أو رفيق رحلته فحسب، لا أدري.. وهما كلاهما يرتديان ملابس مدنية..

- هل يقصفون؟ هل يملكون مالاً؟

- يقصفون؟ دعك من هذا الكلام! هم صغيرو الشأن..

- صغيرو الشأن؟ والآخرون؟

- هناك سيدان من المدينة... كانا عائدين من تشرنايا، فتوقفا هنا لقضاء الليل. أحدهما شاب هو قريب السيد ميوسوف فيما يبدو، ولكنني نسيت اسمه... أما الثاني فأحسب أنك تعرفه أيضاً: إنه الملّاك ماكسيموف الذي ذهب يحج إلى ديرنا فيما يدّعي، وهو الآن يرافق ذلك الفتى قريب السيد ميوسوف في الطريق..

- أهذا كل شيء؟

- نعم، ليس هناك أحد عدا هؤلاء.

- اسكت يا تريفون بوريستش. شيء واحد يهمني: ما حالها وماذا تفعل هي الآن؟

- وصلت منذ وقت غير طويل، وهي الآن معهم.

- أهي مرحة؟ أهي تضحك؟

- لا... إنها لا تضحك كثيراً كما لاحظت. حتى لقد بدا لي أنها حزينة. وكانت تمشط شعر الشاب.

- شعر الضابط، ذلك البولندي؟

- دعك من هذا الكلام ليس البولندي شاباً ولا هو ضابط. أنا لم أقصد البولندي، بل الشاب... قريب ميوسوف ما لي نسيت اسمه.

- لعل اسمه كالجانوف؟
- تماماً، كالجانوف.
- طيب، سوف أري. قلت إنهم يلعبون بالورق أليس كذلك؟
- كفوا عن اللعب. لقد تناولوا الشاي، وأمر الموظف بخمور.
- لحظة يا تريفون بوريستش! سأحكم على الموقف بنفسي.
أجبني الآن عن الشيء الأساسي: هل في القرية غجر؟
- لم يبق غجر يا دمتري فيدوروفتش! لقد طردتهم السلطات. غير أن عندنا في مقابل ذلك يهوداً يعزفون على الرباب والكمان. هم الآن في روجدستنفسكايا، ولكن يمكن استدعاؤهم فيجيئون حتماً.
- استدعهم حالاً ويجب كذلك إيقاظ البنات، كما في المرة السابقة، ولا سيما ماريا تلك، ثم ستيبانيدا وايرينا. سأدفع للجوقة مائتي روبل.
- بهذا المبلغ أوقظ لك أهل القرية بكاملها، ولو كانوا نائمين كالأموات. ولكن هل يستحق هؤلاء الفلاحون وهاته البنات أن يُدفع لهم مبلغ ضخم كهذا المبلغ؟ هؤلاء الأوغاد لا يستحقون هذه الملاطفات! لم يخلق فلاحونا لتدخين السيجار وقد قدمت لهم سيجاراً. هؤلاء أناس نتنون. أما البنات فهن جميعاً قذرات وسخات. إني لأوثر أن أرسل إليك بناتي، ولو بالمجان، على أن أدعك تبعثر هذا المال كله. إن بناتي نائمات الآن، ولكني سأوقظهن، سأوقظهن ركلاً بقدمي إذا اقتضى الأمر، وسأجبرهن على أن يغنين لك. لا أستطيع أن أتصور كيف قدمت شمبانيا لأولئك الفلاحين! ذلك أمر يبعث على الشفقة!
عبثاً كان تريفون بوريستش يشفق الآن على ميتيا، إذ إنه هو نفسه أخفى عنه نصف دستة زجاجات شمبانيا آنذاك وحين وجد تحت المائدة ورقة بمائة روبل رفعها وشد عليها قبضته. وهكذا بقيت في قبضته.
- تريفون بوريستش! ألاَ تتذكر أنني أنفقت هنا أكثر من ألف روبل في المرة الماضية؟
- كيف لا أتذكر؟ بل لقد أنفقت هنا ثلاثة آلاف روبل يا ضيفي العزيز.
- إذاً فاعلم أنني أملك الآن مثل ذلك المبلغ نفسه. انظر!
قال ميتيا ذلك وأخرج حزمة الأوراق المالية وأدناها من أنف صاحب المنزل. ثم أضاف قوله:
- اسمع الآن وحاول أن تفهم: بعد ساعة سيصل خمر ومقبلات وفطائر وسكاكر. فاحمل هذا كله فوراً إلى فوق. أما ذلك الصندوق الخشبي الموجود تحت مقعد أندريه فيجب أن تنقله إلى هناك أيضاً، فتفتحه وتقدم الشمبانيا حالاً. ولكن لا تنس الأمر الأساسي هو البنات، البنات! وأريد حتماً أن تجيء ماريا تلك!...
واتجه ميتيا إلى العربة فأخرج من تحت مقعده علبة المسدسين.
- سأدفع لك دينك عليَّ يا أندريه، إليك خمسة عشر روبلاً، أجرّ العربة، وإليك خمسين أخرى «بقشيشاً»... مكافأة لك على إخلاصك، وتقديراً لاستعدادك... تذكر البارين كارامازوف.
قال أندريه بلهجة متردداً:
- لا أجرؤ يا بارين[185]... إنني أقبل خمسة روبلات مكافأة، لا أكثر من ذلك. مستحيل... هذا تريفون بوريستش شاهد عليَّ. اغفر لي حماقتي...
سأله ميتيا وهو يشقله بنظره:
- ممَّ تخاف!
ثم صرخ يقول متذمراً وهو يلقي إليه خمسة روبلات:
- أنت وشأنك! اذهب إلى الشيطان! والآن يا تريفون بوريستش خذني برفق وهدوء إلى موضع أستطيع منه أولاً أن أتفحصهم جميعاً على مهل دون أن يروني. أين هم الآن؟ أظن أنهم في الغرفة الزرقاء، أليس كذلك؟
ألقي تريفون بروبستش على ميتيا نظرة قلقة، ولكنه أطاعه صاغراً فقاده في حذر خلال دهليز، ودخل غرفة كبيرة تتاخم الغرفة التي كان فيها النزلاء، فأبعد الشمعة التي كانت تضيء تلك الغرفة؛ ثم أدخل ميتيا إلى الغرفة المظلمة بغير ضجة، وتركه في ركن معتم جداً يسهل عليه منه أن يتفحص المتحادثين دون أن يُرى. غير أن ميتيا لم يمكث مدة طويلة ليتأملهم: فما إن رآها حتى أخذ قلبه يخفق خفقاناً شديداً يكاد ينفجر منه صدره، واضطرب بصره فلا يكاد يرى. كانت جالسة في جانب على مقعد قرب المائدة، وكان الشاب كالجانوف يجلس قريباً منها على الكنبة، وهو فتى حسن الهيئة وسيم الطلعة. كانت جروشنكا ممسكة يده وكأنها تضحك، بينما كان هو ممتعض الوجه لا ينظر إليها ويناقش ماكسيموف، وكان ماكسيموف هذا يجلس إلى الطرف الآخر من المائدة قبالة جروشنكا ويضحك ضحكاً عالياً أما هو فقد كان جالساً على الكنبة نصف مضطجع، وكان يدخِّن غليوناً، وعلى كرسي جنب الكنبة قرب الجدار، لاحظ ميتيا رجلاً آخر لا يعرفه. إن الشخص المسترخي على الكنبة، يبدو رجلاً بدين الجسم عريض الوجه، قصير القامة في أغلب الظن بدا لميتيا أنه غاضب من أمر ما، أما الثاني فهو طويل جداً. على أن ميتيا لم يتسع وقته لأن يرى أكثر من ذلك. لقد انقطعت أنفاسه، ولم يستطع أن يمكث زمناً أطول، فوضع العلبة على المنضدة ودخل الغرفة الزرقاء التي كان يجلس فيها المتحادثون وهو يشعر ببرودة في ظهره. رأته جروشنكا أول من رآه، فصاحت مذعورة:
- آي...

-7-الصديق القديم الذي لا يمكن جحوده

تقدم ميتيا من المائدة بخطى كبيرة سريعة وبدأ كلامه بصوت قوي جداً، بصوت يكاد يكون صراخاً، ولكنه يتلعثم عند كل كلمة:
- أيها السادة... أنا... لا... لا شيء... لا تخافوا، لن أفعل شيئاً... (ثم قال ملتفتاً نحو جروشنكا التي مالت على كالجانوف وتشبثت بذراعه... لا شيء... أنا... أنا هنا عابر كذلك... سأمكث حتى الصباح فقط... يا سادتي، هل تأذنون لمسافر ضل طريقه في هذا المكان... أن يجالسكم، حتى الصباح فحسب، ولآخر مرة... في هذه الغرفة نفسها؟
وجَّه ميتيا هذا السؤال إلى الرجل القصير السمين الذي كان يدخِّن على الكنبة. فما كان من هذا إلا أن أقصى الغليون عن شفتيه بوقار، وأجاب بصوت قاس:
- أيها البان[186]، هذا اجتماع خاص، وفي النزل حجرات أخرى. فتدخل كالجانوف فجأة يقول:
- أهذا أنت يا دمتري فيدوروفتش؟ فلماذا هذه الكلفة كلها؟
اجلس هنا... أهلاً بك!
فأجابه ميتيا مسرعاً فرحاً:
- يومك سعيد أيها الصديق العزيز، أيها الصديق الذي لا نظير له. لقد شعرت نحوك دائماً بكثير من الاحترام.
ومدَّ إليه يده من فوق المائدة.
قال كالجانوف ضاحكاً:
- أوه! يا لها من قبضة قوية! لقد أوشك أن يحطِّم أصابعي.
فقالت جروشنكا مرحة وهي تبتسم وجلة:
- هذه طريقته في المصافحة دائماً...
لقد أدركت جروشنكا من النظر في هيئته أنه لن يعمد إلى شيء من العنف. وكانت تتفحصه باستطلاع قوي تداخله بقية من قلق. إن شيئاً ما في تعبير وجه ميتيا قد خطف بصرها وأسر انتباهها، لا سيما وأن دخوله على هذا النحو وكلامه على هذا الشكل قد بدا لها غريباً.
وانبرى الملَّاك ماكسيموف بدوره، فقال بصوته المتعاذب:
- مرحباً! يا ديمتري فيدوروفتش!
فاندفع ميتيا نحوه قائلاً:
- أهذا أنت؟ ما أسعدني برؤيتك! أيها السادة! أيها السادة! أنا... (وقد توجه بكلامه من جديد إلى السيد الذي يدخن الغليون، وكان واضحاً أنه يعده أهم شخص

في هذا الجمع)... أنا قد أسرعت إلى هنا، لأقضي ليلتي الأخيرة، لأقضي ساعاتي الأخيرة في هذه الحجرة، في هذه الغرفة نفسها.. التي أتيح لي فيها، أنا أيضاً، أن أعبد ملكتي! (ثم هتف يقول في بحماسة) اغفر لي يا باني. لقد أسرعت إلى هنا وحلفت اليمين... أوه! لا تخش شيئاً، لأن هذه الليلة هي ليلتي الأخيرة! فلنشرب أيها السيد، فلنشرب نخب صداقتنا سوف يجيئوننا بخمر. ولقد حملت معي هذا (قال ذلك وهو يخرج من جيبه كدسة الأوراق المالية، لا يدري أحد لماذا)... اسمح لي أيها السيد... إنني أريد موسيقى، أريد صخباً، أريد حركة، تماماً كالمرة الماضية. إن دودة الأرض، إن دودة الأرض التي لا نفع لها ولا فائدة منه ستكف قريباً عن الزحف على الأرض... لسوف تختفي وتزول... أريد أن أستحضر في ليلتي الأخيرة هذه ذكرى أجمل يوم من أيام حياتي!...
كان ميتيا يختنق اختناقاً. أراد أن يقول أشياء أخرى كثيرة، ولكنه لم يستطع أن يفصح عن ذات نفسه إلا بصيحات غريبة عجيبة. لبث البولندي جامداً لا يتحرك، منقلاً؟ بصره بين ميتيا وكدسة الأوراق وجروشنكا، وقد ظهرت عليه حيرة شديدة وبلبلة كبيرة. قال:
- إذا وافقت ملكتي...
قالت جروشنكا مقاطعة على حين فجأة:
- ما أسخفكما كليكما بهذه الطريقة في الكلام! أأنا ملكة؟ إنكما لتضحكاني اجلس هنا يا ميتيا. ماذا كنت تعني حين قلت إن هذه الليلة هي آخر لياليك؟ لا تروِّعني، أرجوك. لن تروِّعني، أليس كذلك؟ إذا كففت عن تخويفي فسوف أكون سعيدة بمجيئك...
هتف ميتيا يقول رافعاً ذراعيه في الهواء:
- أنا؟ أنا أروِّعك؟ أوه... اعبري... اعبري... لن أكون عقبةً في طريقكما...
وما إن قال ذلك حتى ارتمى فجأة على كرسي وأجهش يبكي، محوِّلاً رأسه نحو الجدار، شاداً بيديه ظهر الكرسي كأنه يعانقه. ذلك ما فعله ميتيا على نحو لم يكن يتوقعه أحد، ولا كان يتوقعه هو نفسه.
سألته جروشنكا بلهجة العتب:
- ما هذا؟ ما هذا؟ ماذا تفعل؟ ذلك هو سلوكه حين يأتي إليَّ. يأخذ يقول على حين فجأة، حتى لقد انفجر ناشجاً منتحباً في ذات مرة... وها هو ذا يعيد الآن الكرة. ألاَ تستحي؟ لماذا البكاء؟
ثم أضافت تقول بلهجة ملغزة، وهي تشدد كلماتها بشيء من الحنق:
- لو كان هنالك ما يدعوك إلى البكاء على الأقل...
قال ميتيا:
- أنا... أنا لا أبكي.. هيه! يومكم سعيد جميعاً!
واستدار فجأة على كرسيه وانفجر ضاحكاً. ليست ضحكته الآن تلك الضحكة الجافة المعهودة فيه، ولكنها ضحكة تشبه أن تكون صامتة، ضحكة عصبية، ممتدة، مشدودة، متوترة، كانت تهز جسمه كله.
قالت جروشنكا ملحة:
- تعود ثانية... هلاَّ كنت أكثر مرحاً، أكثر مرحاً! إنني سعيدة جداً بمجيئك يا ميتيا، سعيدة جداً جداً، هل تسمعني؟
ثم قالت بلهجة آمرة وهي تتجه بكلامها إلى جميع الحضور في ظاهر الأمر، وإن كان كلامها منصرفاً إلى الشخص المضطجع على الكنبة في الواقع:
- أريد أن يبقى معنا؟ أريد ذلك، أريد ذلك! فإذا كان عليه أن ينصرف، انصرفت أنا أيضاً.
أضافت جروشنكا هذه العبارة الأخيرة وقدحت عيناها شرراً. قال «البان» وهو يلثم يد جروشنكا بلطف ورقة:
- رغبات ملكتي هي عندي أوامر.
ثم التفت إلى ميتيا محبياً متردداً وقال:
- تفضل فاجلس معنا يا سيدي!
وهمَّ ميتيا أن يثب عن مكانه ليلقي خطاباً جديداً كما ظهر ذلك في هيئته، ولكنه لم يلبث أن عَدَلَ عن هذا، اكتفى بأن قال:
- لنشرب، باني!
وضحك الجميع.
هتفت جروشنكا تقول بعصبية:
- يا رب السماء! تصورت أنه سيلقي علينا خطاباً آخر... ثم أضافت تخاطب ميتيا بلهجة الاستبداد:
- اسمع يا ميتيا، كفَّ عن الوثوب عن كرسيك، والزم مكانك هادئاً. أما الشمبانيا فقد أحسنت إذ جئت بها. سيحلو لي أن أشرب شمبانيا، لأنني أكره الخمور الأخرى. وإنني ليسرني خاصة أنك قد خطر ببالك أن تأتي، فلقد كنا هنا في ضجر رهيب خانق... أرى أنك تنوي أن تقصف وأن تبدد من جديد؟... خبئ أوراقك المالية هذه في جيبك. من أين جئت بكل هذا المال؟
وها هو ذا ميتيا الذي كان لا يزال يشد بين أصابعه الأوراق المالية التي تجعدت والتي كان حجمها الكبير قد خطف أبصار الحضور ولا سيما «البانين» البولنديين، ها هو ذا ميتيا يسرع فيدس الكدسة في جيبه وقد اضطرب واحمر وجهه. وظهر عندئذٍ صاحب النزل حاملاً على صينية زجاجة شمبانيا مفتوحة وأقداحاً. فأمسك ميتيا الزجاجة، ولكنه من فرط ارتباكه كان يبدو أنه أصبح لا يعرف ماذا يصنع بها، فهبَّ كالجانوف إلى نجدته، فتناول الزجاجة بيديه وملأ الأقداح.
قال ميتيا يأمر صاحب النزل:
- هات زجاجة أخرى، هات زجاجة أخرى!
ونسي أن يقرع كأسه بكأس «البان» بعد أن دعاه إلى شرب الكأس نخبَ الصداقة، فها هو ذا يفرغ كأسه في جوفه دون أن ينتظر أن يرفع الآخرون كؤوسهم. وسرعان ما تغير تعبير وجهه. إن الهيئة التراجيدية الفخمة التي كانت له عند دخوله قد استحالت الآن هيئة تشبه أن تكون هيئة طفل. بدا عليه الإذعان والتضاؤل. فهو ينظر إلى الحضور بفرح خجول تتخلّله في كل لحظة ضحكات صغيرة عصبية تذكّر بالكلب الصغير المذنب الذي يحسّ بسعادة وامتنان حين يرى أصحابه قد غفروا له وأخذوا يلاعبونه من جديد. لكأنه نسي كل شيء عن الماضي، فهو يتفحص المتحادثين واحداً بعد واحد، بنوع من الإعجاب، ويبتسم ابتساماً بريئاً ساذجاً. أما جروشنكا فكان يتفرس فيها بغير انقطاع ضاحكاً، حتى لقد قرّب كرسيَّه من مقعدها. وشيئا فشيئاً أخذ يلاحظ الرجلين البولنديين أيضاً، رغم أنه لم يدرك بعد وزنهما، فأما البان الأول فقد أدهشه بمظهره الرزين الرصين، ولهجته البولندية، وغليونه خاصة. قال ميتيا لنفسه: «هل من ضير في أن يدخن وأن يحب الغليون!». ولم يصدمه في أول الأمر ما لاحظه في وجه هذا السيد الذي يقارب عمره الأربعين، من غضون وأخاديد، ولا ضايقه أنفه الصغير الذي يمتد تحته شاربان رقيقان نحيلان مشمّعان يضفيان على وجهه لا أدري أي نوع من الاستخفاف والوقاحة؛ لا ولا أزعجته الباروكة البشعة المصنوعة في سيبيريا والممشوطة مشطاً غبياً من خلَف إلى أمام على الصدغين. قال ميتيا لنفسه وهو فيما هو فيه من غبطة وهناءة: «باروكة؟ لمَ لا؟». وأما البولندي الآخر الذي يجلس قرب الجدار ويبدو أصغر سناً من «البان» ذي الغليون، فقد كان ينظر إلى الجمع بوقاحة مستفِزَّة، ويتابع حديثهم محتفظاً لنفسه بصمت فيه ازدراء واحتقار. إن الشيء الوحيد الذي خطف بصر ميتيا فيه إنما هو فرط طوله الذي يؤلف مع قصر رفيقه ابن وطنه تناقضاً واضحاً وتضاداً بارزاً قال ميتيا لنفسه: «لو نهض لكان طوله قريباً من مترين!» وقد اعتقد ميتيا أيضاً أن «البان» الطويل لا بد أن يكون مرتبطاً بصاحب الغليون ارتباط حارس بسيده، فالقصير هو الذي يأمر العملاق في أغلب الظن. وبدا ذلك كله لميتيا طبيعياً سعيداً كل السعادة. لم يبق في الكلب الصغير أثر من خصومة أو تنافس. ولم يكن قد أدرك بعدُ المعنى الحقيقي لموقف جروشنكا، واللّهجة الملغزة التي كانت تقول بها بعض عباراتها. فكل ما عرفه متأثراً في قرارة قلبه أشد التأثر، هو أنها لطيفة معه وأنها «عفت» عنه وأنها أذنت له أن يجلس إلى جانبها. وقد أصبح لا يملك نفسه إعجاباً بها وهي تحسو بضع جرعات من الشمبانيا. ولكن الصمت الذي كان يخيِّم على الجمع لم يلبث أن الفت انتباهه فجأة، فأجال على الحضور نظرة سائلة، فكان عينيه تقولان: «ما بالنا لا نفعل شيئاً؟ ما الذي يمنعنا عن أن نتحدث ونلهو ونتسلّى أيها السادة؟».
قال كالجانوف في تلك اللحظة، وكأنه قد حزر ما جال في خاطره، قال مشيراً إلى ماكسيموف:
- انظر إلى هذا! إنه لا يني يكذب، وقد أضحكنا كثيراً.
فحدق ميتيا إلى الرجلين واحدة بعد آخر. وسأل وهو يضحك ضحكته الصغيرة الجافة، كأن ذلك قد أبهجه كثيراً:

- يكذب؟ هأ هأ...
- نعم، تصوّر أنه يدّعي أن جميع ضباطنا في سلاح الفرسان قد تزوجوا نساءً بولنديات بين عامي 1820 و1830؛ هذا سخف، أليس كذلك؟
قال ميتيا بالغاً أوج السرور:
- بولنديات؟
كان كالجانوف يدرك حق الإدراك نوع العلاقات القائمة بين ميتيا وجروشنكا، وكان يحزر أيضاً دور «السيد» البولندي، ولكن لم يكن يبدو عليه أنه مهتم بذلك كثيراً، لانشغاله بالجدال مع ماكسيموف وحده دون ما عداه. لقد قادته هو وماكسيموف المصادفة إلى هذا النزل الذي التقى فيه بالرجلين البولنديين اللذين لا يعرفهما حتى الآن. أما جروشنكا فقد سبق أن رآها بل لقد ذهب إلى بيتها في ذات يوم مع أحد أصدقائه، ولم تعجبه حينذاك؛ ولكنها تنظر إليه هنا بعينين تفيضان رقة وحناناً. وقد ظل لا يبالي بها في ظاهر الأمر رغم أنها قد أخذت تلاطفه متلامسة قبل وصول ميتيا. إنه فتى في العشرين من عمره على أكثر تقدير، شديد الأناقة، جميل الوجه، شاحب اللون، له شعر أشقر رائع، وعينان زرقاوان أخاذتان تعبران عن ذكاء، وتعبران في بعض اللحظات عن عمق، فلا يتفق ذلك مع سنّه الغضة، لا سيما وأن مظهره وحتى أقواله تُشعر في بعض الأحيان بأنه طفل. على أن هذا لم يكن يضايقه قط، رغم شعوره القوي به. كان يبدو على وجه العموم إنساناً متفرداً، وربما بدا في بعض الأحوال صاحب نزوات، ولكن ذلك لا يخرجه أبداً عن لطفه وعذوبته. وكان تعبير وجهه يتجمد في بعض الأحيان فيكتسي شيئاً يشبه العناد: فهو عندئذٍ ينظر إلى محدثه ويصغي إليه، ولكنه يكون غارقاً في أفكاره هو، يتابعها في إصرار لا يحيد عنه. وهو تارة رخو متوانٍ، وهو تارة أخرى حاد مندفع إلى أقصى الحدود، يضطرب لأيسر الأمور ويهتاج لأتفه الأسباب.
تابع كالجانوف كلامه قائلاً وهو يجر كلماته جراً كسولاً يظل طبيعياً لا احتيال فيه ولا غطرسة:
- تصوّر أنني أطوِّف هذا الرجل معي منذ أربعة أيام، منذ اللحظة التي دفعه فيها أخوك إلى خارج العربة فسقط، كما تتذكر ذلك حتماً. لقد اهتممت بأمره عندئذٍ، وأخذته معي إلى الريف. ولكنه لا ينقطع عن الكذب. إنه يكذب بلا توقف، حتى أخذ كذبه يضايقني ويزعجني. وإني أنوي أن أعيده إلى داره...
قال البولندي ذو الغليون مخاطبا ماكسيموف:
- إن هذا الرجل لم يعرف في حياته نساءً بولنديات، وهو يروي أشياء كاذبة.
كان البولندي ذو الغليون يجيد اللغة الروسية إجادة تامة، وكان على كل حال يجيدها أكثر مما يتراءى لمن يسمعه. ولكنه يصرّ على أن ينطق بها نطقاً رديئاً، فهو يشوّه الألفاظ ويدسّ في جُمله كلمات بولندية.
أجاب ماكسيموف يقول بضحكة ساخرة:
- ولكنني تزوجت أنا نفسي امرأة بولندية.
فسرعان ما تدخل كالجانوف قائلاً:
- ليست هذه هي المسألة، هل خدمت في سلاح الفرسان؟ ذلك أنك عن سلاح الفرسان إنما تتكلم! هل لك هيئة ضابط من سلاح الفرسان؟
هتف ميتيا يقول مرحاً، وكان يصغي إلى الحديث بنهم وشراهة:
- هذا هو الأمر! هل له هيئة ضابط من سلاح الفرسان؟ فارس جميل...
وكانت عينا ميتيا السائلتان تتنقلان بين المتحادثين واحداً بعد آخر، كأنه ينتظر منهم أن يكشفوا عن حقائق مدهشة. لا يدري إلا الله ما هي؟
قال ماكسيموف وهو يلتفت إلى ميتيا:
- لا... لقد أسأت فهمي. فإنما أنا أقصد أولئك الفتيات البولنديات... وهنَّ فتانات في الواقع ولكنّهن يفقدن صوابهنّ متى رقصن رقصة مازوركا مع أحد فرساننا الرمّاحين... يكفي أن ترقص إحداهن مع الفارس رقصة مازوركا، حتى تثب بعد ذلك فوراً على ركبتيه، كقطة صغيرة بيضاء... ويكون البان أبوها والباني أمها حاضرين، فلا يجدان في ذلك بأساً ولا يحتجّان... بل هما يأذنان ويستحسنان ويشجعان... وفي الغد يمضي الفارس يطلب يد الفتاة... يمضي يخطب الحسناء... هأ هأ...
كذلك ختم ماكسيموف كلامه ضاحكاً.
- بان وغد!
هكذا جمجم يقول البولندي الطويل، الجالس على كرسي قرب الحائط، وأنزل إحدى ساقيه المتصالبتين عن الأخرى، ليصالبهما في الاتجاه المعاكس من جديد. لاحظ ميتيا عندئذٍ جزمته الضخمة المشمعة التي كان نعلها السميك وسخاً جداً. يجب أن نذكر على كل حال أن الرجلين البولنديين كان مظهرهما مهملاً، ولم تكن ثيابهما نظيفة نظافة لا مأخذ عليها.
تدخلت جروشنكا تقول بلهجة حانقة:
- لماذا يكون وغداً؟ أنا لا أحبّ الإهانات!
فقال البولندي ذو الغليون وهو يلتفت نحو جروشنكا:
- باني أجريبينا! لا بد أن هذا البان قد رأى بنات وضيعات لا سيدات من الطبقة النبيلة!
فأكّد الرجل العملاق على كلام صاحبه قائلاً:
- تستطيعين أن تكوني من ذلك على يقين.
قالت جروشنكا متجهمة الأسارير:
- كفى! دعوه يتكلم! بماذا أساء إليكم؟ إن المرء ليتسلى مع أمثاله على الأقل!
فأجاب البان البولندي ذو الباروكة، يقول بوقار:
- لست أمنعه من الكلام يا سيدتي.
وألقى نظرة طويلة على جروشنكا، ثم صمت وتنشق نفساً من غليونه برصانة ورزانة.
قال كالجانوف متحمساً وكأن الأمر أمر مناقشة هامة جداً:
- معذرة! أحسب أن «السيد» على حق. ما دام ماكسيموف لم يعش في بولندا فبأي حق يقول هذا الكلام عن تلك البلاد؟ إنك لم تتزوج في بولندا مع ذلك، هه؟
قال ماكسيموف شارحاً:
- لا... وإنما تزوجت في إقليم سمولنسك. إن أحد الفرسان هو الذي جاء إلى ذلك الإقليم بزوجتي... أعني بمن أصبحت زوجتي فيما بعد... جاء بها إلى ذلك الإقليم تصحبها السيدة أمها، وخالة من خالاتها، وقريبة أخرى لها ابن كبير. لقد جاءت هذه السيدات من بولندا، فهنَّ بولنديات حقاً.. وقد تنازل لي الفارس عنها. كان هذا الفارس فتىً أخاذاً... كان في نيته أن يتزوجها هو نفسه في أول الأمر، ولكنه تركها أخيراً لأنها كانت عرجاء.
هتف كالجانوف يسأله:
- كيف؟ تزوجت عرجاء؟
- نعم، كانت تعرج. وقد تآمرا كلاهما على خداعي. كنت أنا أظن أنها تتواثب تواثباً جميلاً، وكنت أعزو ذلك إلى فرحتها...
- إلى فرحتها بتزوجك؟
كذلك سأله كالجانوف بصوت رنان طفولي.
- نعم، إلى فرحتها بتزوجي. ولكن اتضح لي أن الأمر لم يكن كذلك البتة. فبعد زواجنا، بل في مساء الحفلة نفسه، اعترفت لي بالحقيقة، واعتذرت اعتذاراً مؤثرة: يظهر أنها قد أرادت أثناء طفولتها أن تقفز فوق غدير، فانكسرت عندئذٍ ساقها! هأهأ!
انطلق كالجانوف عندئذٍ في ضحك كضحك الأطفال تماماً، وكاد ينقلب على الكنبة. وضحكت جروشنكا أيضاً. أما ميتيا فقد شعر أنه في ذروة الغبطة والهناءة والسعادة.
صاح كالجانوف يقول مخاطباً ميتيا:
- هل تدري أنه ذكر الآن الحقيقة؟ إنه لم يكذب في هذه المرة! اعلم أنه تزوج مرتين... وهو عن زوجته الأولى إنما تحدث الآن، أما الثانية فقد هربت... هل تعلم هذا؟ وهي ما تزال حية. أكنت تجهل ذلك؟

قال ميتيا مندهشاً وهو يلتفت بقوة إلى ماسكيموف:
- غير معقول!
فقال ماكسيموف مؤكداً بتواضع:
- بل لقد هربت فعلاً. نعم... حدث لي هذا المكروه! سافرت مع رجل فرنسي. وأسوأ ما في الأمر أنها كانت قد سجلت على اسمها قريتنا والأراضي التي تتبعها. قالت لي: «أنت رجل مثقف، وسوف تستطيع تدبير أمرك وحدك». على هذا النحو إنما تركتني. وقد نبهني أسقف محترم جداً في ذات يوم إلى أن إحدى زوجتي كانت ساقها عرجاء، وأن الثانية كانت ساقها خفيفة... ها هأ!...
صاح كالجانوف يقول في حماسة:
- هل تسمعون؟ هل تسمعون؟ إذا كذب - وهذا ما يحدث له أحياناً كثيرة - فهو لا يكذب إلا ليسلينا. ليس في هذا شيء من حطة، ليس فيه شيء من حطة! أليس كذلك؟ إنه يعجبني أحياناً، هل تعلمون؟ هو دنيء جداً، ولكن دناءته طبيعية، أليس كذلك؟ ما رأيكم؟ غيره ينحطون طمعاً في منفعة، أو سعياً إلى ربح، أما هو فيفعل ذلك مجاناً، يفعل ذلك مدفوعاً إليه بطبيعته المنزهة عن الغرض. تصوروا مثلاً أنه يدّعي أن جوجول إنما وصفه هو في كتابه «النفوس الميتة»[187]. لقد تشاجرنا أمس حول هذا الموضوع طوال الطريق. إنكم تذكرون أن كتاب جوجول هذا يحدثنا عن ملاك اسمه ماكسيموف، جلده رجل اسمه نوزدريوف، فحوكم هذا الرجل «بتهمة توجيه إساءة شخصية بالسياط، في حالة سكر، إلى الملاك ماكسيموف». هل تذكرون؟ إن صاحبنا ماكسيموف لا يتورع أن يؤكد الآن أنه هو الذي جلد بالسياط ذلك الجلد الذي يحدثنا عنه كتاب جوجول، فهل هذا ممكن؟ فكروا قليلاً! إن تشتشيكوف قد سافر في بداية العشرينيات، فالتاريخ إذاً غير مطابق أبداً. إنه ليستحيل استحالة مادية أن يكون ماسكيموفُنا نحن قد جُلد منذ زمن بعيد كل ذلك البعد. يستحيل، أليس كذلك؟
لقد تحمس كالجانوف تحمساً صادقاً، رغم أن من الصعب على المرء أن يفهم لماذا يولي هذه المسألة كل هذا الاهتمام، ولماذا يقيم لها كل هذا الوزن! وتحيّز له ميتيا باقتناع تام، ثم صاح يقول وهو يضحك ضحكاً مدوياً:
- ولكن ما دام يعترف بأنه جُلد...
فقاطعه ماكسيموف مصححاً:
- الحق أن ما وقع لي لم يكن هو الجلد تماماً، بل كان شيئاً من هذا القبيل.
- كيف هذا؟ شيء من هذا القبيل؟ إما أنك جُلدت وإما أنك لم تُجلد، ولا وسط بين الأمرين!
سأل البان البولندي ذو الغليون صاحبه البولندي الطويل، باللغة البولندية بهيئة من يشعر بالملل:
- كم الساعة الآن؟
فرفع البولندي الطويل كتفيه، لم يكن مع أحد من الرجلين البولنديين ساعة.
تدخلت جروشنكا تقول بلهجة هجومية:
- هل أضجركم هذا الحديث؟ دعوا الآخرين يتكلمون! لماذا تمنعونهم من أن يتسلوا ويسرّوا عن أنفسهم؟
كان يبدو على جروشنكا أن مزاجها متأهب للمشاجرة، فدُهش ميتيا من هذا ولأول مرة. أجاب السيد البولندي بشيء من العصبية قائلاً باللغة البولندية:
- سيدتي! أنا لم أقل شيئاً، ولا أنوي أن أزعج أحداً.
فهتفت جروشنكا متجهة بالكلام إلى ماكسيموف:
طيب. حدّثنا الآن. مالي أراكم تسكتون جميعاً على حين فجأة!
استأنف ماكسيموف كلامه وقد سرَّه الاهتمام به، وأخذ يقول مصطنعاً اللطف والدلال:
- ليس هناك ما أقصه! ما هذا كله إلا هراء! ثم إن جوجول قد موَّه أكثر الأسماء في هذه القصة، وأبدلها بتسميات رمزية. من ذلك أن نوزدريوف قد كان اسمه الحقيقي نوسوف[188]، كما أن كوفشينيكوف كان اسمه الحقيقي شكفورنيف، والاسمان مختلفان كل الاختلاف. أما فينارادى فكان اسمه فعلاً فيناردي، ولكنه كان روسياً لا إيطالياً: فيناردي بتروف. وكانت الآنسة فيناردي فتاة أخاذة فتانة... ليتكم رأيتموها! ليتكم رأيتم ساقيها المغمدتين في سروالها الضيق تحت تنورتها القصيرة اللامعة!... وما كان أروع دورانها!... ولكنها لم تدر إلا خلال أربع دقائق، لا خلال أربع ساعات. لقد فتنت ألبابنا جميعاً يومئذٍ....
صاح كالجانوف يسأله:
- ولكن لماذا جلدوك؟ هلاّ قلت لنا لماذا جلدوك؟ ذلك هو الأمر الذي يعنينا!
أجاب ماكسيموف:
- جلدوني بسبب بيرون.
فسأله ميتيا:
- أي بيرون؟
- الكاتب الفرنسي الشهير بيرون. كنا جماعة كبيرة في كاباريه وكنا قد شربنا قدراً لا بأس به من الخمر. حدث ذلك في أثناء تلك السهرة نفسها. دعوْني، فما لبثت أن كِلْت لهم أبياتاً شعرية لاذعة. قلت لهم: «أهذا أنت... بوالو؟ يا للزي الغريب المضحك!»[189] فأجاب بوالو بأنه ذهب إلى حفلة تنكرية، وكان بوالو يقصد بذلك الحمامات... هأهأ!... ولكنهم عدوا هذا تعريضاً بهم. وعندئذٍ أسرعت أكيل لهم أبياتاً جديدة معروفة في الأوساط المثقفة، وكانت في الحق كاوية:
أنت سافو وأنا فاوون - ذلك أمر مر
ولكن أكبر مصائبي
إنك تجهلين طريق البحر[190]
فازداد استياؤهم وأخذوا يهينوني إهانات ليست لائقة. فأردت عندئذٍ، لسوء حظي، أن أصلح ما بدر مني من خراقة؛ ومن أجل أن أسوِّي الأمر قصصت عليهم حكاية عن الشاعر بيرون التي لا يعرفها إلا المثقفون جداً. فذكرت لهم كيف أن هذا الشاعر، حين لم ينتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية، أراد أن ينتقم لنفسه، فنظم بيتين لشاهدة قبره، فقال:
هنا يرقد بيرون، الذي لم يكن شيئاً ذا بال حتى ولا عضواً في الأكاديمية.
فما كان منهم إلا أن هجموا عليَّ فجلدوني.
- عجيب! لماذا؟ لأي سبب؟
- ليعاقبوني على سعة اطلاعي.
وأضاف ماسكيموف يختم كلامه، مصطنعاً هيئة الوداعة والحكمة، قائلاً:
- ما أكثر الأسباب التي يُجلد من أجلها إنسان!
قاطعته جروشنكا قائلة:
- كفى! لقد ضقت ذرعاً بهذه الحكايات المضجرة! لا أريد أن أسمعه بعد الآن. لقد توقعت شيئاً أدعى إلى البهجة وأبعث على الضحك!
فسرعان ما وجم ميتيا وكف عن الضحك. ونهض البان البولندي الطويل، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا واضعاً يديه وراء ظهره، وقد بدا عليه الكبر والتعالي، كرجل أوقعته المقادير في صحبة أناس يزدريهم فهو يشعر بملل وسأم.
قالت جروشنكا وهي تنظر إليه باحتقار:
- ما أبلد مشيته هذه!
فازداد انفعال ميتيا، لا سيما وأن البان الجالس على الكنبة كان يتفرس فيه بغير لطف أو وداعة فيما خيل إليه. فصاح ميتيا يقول:
فلنشرب أيها البان. (ثم التفت إلى البولندي الآخر وتابع كلامه). وأنت أيضاً... فلنشرب، فلنشرب أيها الباني!
وتناول ثلاث كؤوس وملأها شمبانيا. وهتف يقول:

- فلنشرب نخب بولندا! فلنشرب نخب بلادكم بولندا! فلنشرب نخب الأرض البولندية!
فأجابه البان ذو الغليون قائلاً باللغة البولندية بوقار متلطف وهو يرفع كأسه:
- بكل سرور يا باني! فلنشرب!
فقال ميتيا مهتماً:
- والسيد الآخر أيضاً. هلاَّ قلتم لي اسمه خذ كأساً يا سيدي.
قال السيد ذو الغليون:
- اسمه السيد فروبلفسكي.
واقترب السيد فروبلفسكي من المائدة متمايلاً، وتناول كأساً، ولكنه ظل واقفاً.
هتف ميتيا وهو يرفع كأسه:
- فلنشرب نخب بولندا يا باني! هورا!
وأفرغ الثلاثة كؤوسهم. ولم يلبث ميتيا أن تناول الزجاجة فملأ الكؤوس الثلاث من جديد. وقال:
- والآن فلنشرب نخب روسيا أيها السادة! علينا أن نتآخى!
قالت جروشنكا:
- املا لي أنا أيضاً كأساً. أريد أن أشرب كأس روسيا.
وقال كالجانوف:
- وأنا كذلك!
وزاد ماسكيموف فقال بضحكة قصيرة:
- وأنا أيضاً! إنني أحرص على أن أشرب نخب جدتنا العجوز روسيا. هيء هيء!..
هتف ميتا يقول:
- فلنشرب جميعاً! فلنشرب جميعاً! هات زجاجات أخرى يا ريِّس!
جيء بالزجاجات الثلاث الباقية. وملأ ميتيا الكؤوس. وصاح يقول من جديد.
- نخب روسيا؟ هورا!
فشرب الجميع إلا البولنديين. أفرغت جروشنكا كأسها دفعة واحدة. أما البولنديان فلم يمسَّا كأسيهما.
هتف ميتيا يقول:
- ماذا؟ أهكذا أنتم؟
فتناول البان فروبلفسكي كأسه، ورفعه، وقال بصوت عالٍ:
- إنني أشرب نخب روسيا بحدودها السابقة على سنة 1772![191] فهتف البان الآخر قائلاً باللغة البولندية: - عظيم!
وأفرغ الاثنان كأسيهما. فلم يملك ميتيا إلا أن يقول:
- ألا ما أغباكما!
فوقف البانان وحدّقا في ميتيا كديكين، وقالا له بلهجة التهديد:
- أيها... البان!
وكان يبدو على البان فروبلفسكي أنه خارج عن طوره؛ وها هو ذا يصرخ قائلاً في استياء باللغة البولندية:
- هل محظور على المرء أن يحب بلاده؟
وهنا انفجرت جروشنكا نقول بلهجة آمرة وهي تقرع الأرض بقدمها:
- سكوت! كفاكم شجاراً! لا أريد هذه المناقشات!
قالت جروشنكا ذلك وقد التهب وجهها وسطعت عيناها. كانت الشمبانيا قد فعلت فعلها. خاف ميتيا. وأسرع يقول:
- «معذرة أيها السيدان»! أنا المذنب. لن أكرر. يا فروبلفسكي، يا بان فروبلفسكي، لن أكرر ذلك بعد الآن سأجلس ساكناً.
فقاطعته جروشنكا قائلة بانزعاج حانق:
- لينك تسكت أنت على الأقل! أبله!
جلس جميع الحضور، وخيَّم الصمت، وأخذوا ينظرون بعضهم إلى بعض في حرج.
لم يدرك ميتيا شيئاً عن اندفاع جروشنكا، فاستأنف يقول:
- أنا سبب هذا كله أيها السادة! يجب ألا نبقى عاطلين هكذا... ألا نستطيع أن نتخيل شيئاً... فنسترد مرحنا وانطلاقنا؟...
قال كالجانوف بإهمال ودون اكتراث:
- حقاً إن المرء ليضجر هنا ضجراً رهيباً.
فقال ماكسيموف مقترحاً:
- ما رأيكم في لعبة بالورق كما فعلنا منذ قليل؟ هيء هيء!
فقال ميتيا مؤيداً مستحسناً:
- لعبة بالورق؟ فكرة عظيمة! هذا إذا وافق هذان السيدان... فقال السيد ذو الغليون بلهجة تنم عن اعتكار المزاج، قال باللغة البولندية:
- بوزنو الوقت متأخر.
فقال فروبلفسكي مؤمناً:
- هو على حق.
فسألت جروشنكا:
- بوزنو؟ ما معنى هذه الكلمة؟
فأجابها السيد الجالس على الكنبة:
- معناها: الوقت متأخر. فقالت جروشنكا بصوت حاد وقد نفد صبرها:
- الوقت دائماً متأخر في نظر هذين السيدين، وكل شيء مستحيل في نظرهم. إنهما لا يجيدان إلا الضجر والسأم، ويريدان أن يحرما الآخرين من البهجة والمسرة.
إنهما، إلى أن جئت يا ميتيا، لم يفعلا طوال الوقت شيئاً غير الصمت، متخذين هيئة التعالي تجاهي.
فهتف الجالس على الكنبة يقول باللغة البولندية:
- إلهتي! ما قلته صحيح تماماً. لقد أصبحت حزيناً منذ لاحظت أنك مستاءة غير راضية.
وأضاف يقول لميتيا بغير تمهل:
- أنا مستعد.
فأجابه ميتا، وقد أدرك ريبتهما:
- افتح اللعب يا سيدي.
قال ميتيا ذلك وأخرج حزمة الأوراق المالية من جيبه فسلَّ منها ورقتين بمائتي روبل ووضعهما على المائدة. وقال:
- أريد يا سيدي أن أخسر مالاً كثيراً معك. خذ الورق، وكن أنت الخازن.
قال البان القصير بلهجة جادة مشدداً كلماته:

- يجب أن نلعب بورق صاحب النزل.
فقال السيد فروبلفسكي باللغة البولندية مؤيداً:
- ذلك أفضل حقاً!
قال ميتيا، وقد أدرك ريبتهما:
- تفضلون ورق صاحب النزل؟ طيب أيها السادة! أنا فاهم.
سنأخذ ورق صاحب النزل. أنتم على حق.
وقال يأمر صاحب النزل:
- هات ورقاً.
فجاء صاحب النزل برزمة ورق مختومة، وأعلن لميتيا أن البنات قد تجمعن، وأن اليهود الذين يعزفون على الرباب والكمان سيصلون بعد هنيهة، ولكن العربة التي تحمل المؤن قد تأخرت. فنهض ميتيا وأسرع إلى الغرفة المجاورة ليتخذ الإجراءات اللازمة. لم يكن في الغرفة إلا ثلاث بنات، ولم تكن ماريا قد ظهرت بعد. وكان ميتيا لا يعرف في الواقع ما هي الإجراءات التي كان عليه أن يتخذها، حتى لقد تساءل لماذا جاء إلى هذه الغرفة. ومن أجل أن يخرج من ارتباكه أمر بأن يؤتى بالصندوق الذي يحتوي السكاكر، وأن يوزَّع على البنات كارامل. وأضاف يقول متعجلاً: «وقدِّموا فودكا لأندريه لأنني جرحت شعوره منذ قليل». وشعر ميتيا في تلك اللحظة بأن أحداً يضع يده على كتفه. التفت فرأى ماكسيموف الذي كان قد تبعه إلى الغرفة. همس الملاك يقول له:
- هل تستطيع أن تسلفني خمسة روبلات؟ إنني أحبّ أن ألعب أيضاً! هيء هيء...
- عظيم! عظيم! خذ هذه الروبلات العشرة! إليك عشرة روبلات!
وأخرج ميتيا حزمة الأوراق المالية من جيبه مرة أخرى، فتناول منها ورقة بعشرة روبلات، وقال له:
- وما عليك إذا خسرتها إلا أن تطلب المزيد. سأعطيك غيرها أيضاً...
همس ماكسيموف يقول فرحاً كل الفرح:
- طيب! هذا يكفي.
وأسرع يعود إلى القاعة الأخرى. ولم يتأخر ميتيا عن اللحاق به، واعتذر للجمع عن تغيبه، وكان البولنديان، الجالسان الآن إلى المائدة، قد فضا الورق قبل وصوله وقد أصبح وجهاهما أقل جهامة وأكثر بشاشة حتى ليمكن أن يوصفا باللطف والدماثة. وها هو ذا السيد القصير، الذي أشعل غليوناً جديداً، يستعد لخلط الورق بوقار. هتف فروبلفسكي يقول:
- مكانكم يا سادة!
فقال كالجانوف:
- وأنا لن ألعب. فقد سبق أن خسرت معهما خمسين روبلا.
فقال البان ذو الغليون:
- إن البان لم يحالفه الحظ في المرة السابقة، ولكن قد يتدارك الآن ما فاته...
سأل ميتيا متحمساً:
- كم الخزنة؟
- يمكن أن تكون مائة روبل، ويمكن أن تكون مائتين، فذلك متوقف على المبلغ الذي تحطه.
فقال ميتيا وهو ينفجر ضاحكاً:
- مليون!
- لا شك أن النقيب يعرف قصة البان بدوفيسوتسكي[192] ؟
- أي بودفيسوتسكي؟
- حدث في ذات مرة في فارصوفيا أن تكدست جميع الأموال الموضوعة عند الخازن. فأقبل بودفيسوتسكي، فرأى ألوف القطع الذهبية، فحطّ على الخزنة كلها. سأله الخازن عندئذٍ أهو يريد أن يلعب بذهب أم هو يريد أن يلعب اعتماداً على عهد الشرف. فقال بدوفيسوتسكي: «بل اعتماداً على عهد الشرف»، فقال الخازن «حسناً»، وقطع، فلمّ بودفيسوتسكي القطع الذهبية. فإذا بالخازن يقول له: «لحظة أيها البان». وفتح الدرج وناول بودفيسوتسكي مليوناً وهو يقول له: «خذ. هذا ما ربحته». لقد كانت الخزنة مليوناً. قال بودفيسوتسكي متردداً: «كنت أجهل هذا» فقال له الخازن: «يا سيد بودفيسوتسكي؛ أنت لعبت بالاعتماد على عهد الشرف... وأنا كذلك». فأخذ بودفيسوتسكي المليون ودسَّه في جيبه.
هتف كالجانوف يقول:
- هذا غير صحيح!
فقال السيد ذو الغليون، يخاطبه باللغة البولندية:
- يا سيد كالجانوف، ما هكذا يتكلم المرء في صحبة أناس محترمين!
فصاح ميتيا قائلاً:
- لا تحاول أن تقنعنا بأن بولندياً قد أعطى مليوناً على هذا النحو!
ولكن ميتيا لم يلبث أن ثاب إلى نفسه فاستدرك يقول:
- معذرة يا بان! ها أنا ذا أخطئ من جديد! إن البولنديين يمكن أن يعطوا مليوناً بسهولة، تنفيذاً لعهد الشرف، صوناً للشرف البولندي: أنا أسلّم بهذا أرى أنني أنا أيضاً سأتكلم البولندية آخر الأمر... هأهأها! أحط عشرة روبلات على الولد.
فقال ماكسيموف وهو يضحك ضحكة صغيرة ويقدم ورقة البنت:
- وأنا أقامر بروبل صغير على البنت، البنت الجميلة، بنت الكوبة، على «الباني البولندية» هيء هيء....
قال ماكسيموف ذلك واقترب من المائدة اقتراباً شديداً، كأنه يريد أن يخفي ما سيفعله، ورسم تحت المائدة إشارة الصليب في تعجل.
ربح ميتيا، وربح الروبل الصغير أيضاً.
صاح ميتيا
- أضاعف.
وتمتم ماكسيموف يقول بسعادة كبيرة وقد طار لبه فرحاً بربحه الروبل:
- وأنا ألعب مرة أخرى بروبل، روبل فقط، روبل طيب، روبل صغير!
صرخ ميتيا:
- خسرت! أضاعف حطتي على السبعة.
- وخسرت السبعة أيضاً.
قال كالجانوف فجأة:
- كفّ عن اللعب.
فعاد ميتيا يقول من دون أن يضطرب:
- أضاعف.
وظل ميتيا يضاعف، وظل يخسر في كل مرة، ولكن الروبلات الصغيرة التي كان يحطها ماكسيموف ظلت تربح.
صرخ ميتيا حانقاً:
- أضاعف أيضاً.

فقال له «السيد» ذو الغليون:
- خسرت حتى الآن مائتي روبل. فهل تريد أن تقامر بمائتي روبل دفعة واحدة؟
- كيف؟ خسرت مائتي روبل؟ لا بأس! أضاعف مع ذلك! ألعب بمائتي روبل دفعة واحدة!
قال ميتيا ذلك وأخرج من جيبه ورقتين بمائتي روبل، وهمّ أن يلقيهما على البنت، فإذا بكالجانوف يضع يده عليها فيغطيها. قال كالجانوف صائحاً بصوت رنان:
- يكفي هذا!
فسأله ميتيا وهو ينظر إليه مندهشاً:
- ماذا بك؟
- يكفي هذا. لن أدعك تستمر.
- لماذا؟
- هكذا! دعهما وامض. هذا أفضل. صدقني سوف أمنعك من متابعة هذا اللعب.
كان ميتيا يتفرس فيه دون أن يفهم.
وتدخلت جروشنكا قائلة بنبرة غريبة في صوتها:
- دع اللعب يا ميتيا. ربما كان على حق. ثم إنك قد خسرت ما فيه الكفاية.
نهض السيدان البولنديان من مقعديهما في هيئة من أُهين.
قال السيد القصير يخاطب كالجانوف بالبولندية وهو يحدِّق إليه تحديقاً قاسياً:
- أتراك تمزح؟
وصرخ البان الطويل يقول لكالجانوف بصوت راعد:
- كيف تجرؤ أن تقول ذلك؟
فغضبت جروشنكا وصرخت:
- لا أسمح بالصراخ هنا. لكأنكم ديكة حانقة!
كان ميتيا ينقل بصره بينهم واحداً بعد واحد. وفجأة لفت انتباهه في هيئة جروشنكا تعبير غريب. وفي تلك اللحظة نفسها ومضت في ذهنه فكرة جديدة عجيبة.
بدأ البان القصير يتكلم فقال وقد احمر وجهه غضباً:
- سيدتي أجريبينا
ولكن ميتيا لم يدعه يكمل كلامه. فقد اقترب منه، وضرب بيده على كتفه وقال له:
- كلمتين أيها السيد النبيل!
فسأله هذا بالبولندية:
- ماذا تريد؟
فأجابه ميتيا:
- تعال معي إلى الغرفة المجاورة. أريد أن أكلمك على انفراد، وما سأقوله لك سيسرك كثيراً. سترى أن ما سأقوله لك يرضيك.
بدت الدهشة على السيد القصير، ونظر إلى ميتا في خشية. ومع ذلك رضي أن يتبعه، ولكنه اشترط أن يصحبه البان فروبلفسكي.
هتف ميتيا قائلاً:
- حارسك؟ فليأت هو أيضاً... ثم إن حضوره ضروري. هيّا بنا أيها السيدان!
سألته جروشنكا قلقة:
- إلى أين تذهبون؟
فأجابها ميتيا:
- سنعود بعد لحظة.
من رأى ميتيا في تلك اللحظة أحسَّ أن فيه عزماً وتصميماً وجرأة وحماسة مباغتة. إن تعبير وجهه الآن يختلف كل الاختلاف عن تعبير وجهه ساعة وصوله. قاد ميتيا الرجلين البولنديين إلى غرفة تقع على اليمين، ليست هي الغرفة التي كانت تجمع فيها جوقة البنات وتُهيَّأ فيها المائدة للقاصفين، ولكنها غرفة نوم ملأى بالحقائب والصناديق، وفيها سريران كبيران على كل منهما جبل من وسائد. وكان في الغرفة شمعة مشتعلة فوق منضدة صغيرة في الركن. جلس البان ذو الغليون وميتيا متقابلين، ووقف البان العملاق فروبلفسكي في جانب، واضعاً يديه وراء ظهره. إن الرجلين البولنديين يرقبان ميتيا عابسَيْن، ولكن كان واضحاً أنهما يشعران برغبة قوية في معرفة ما يريد أن يقوله.
تمتم السيد ذو الغليون يقول بالبولندية:
- ما الخدمة التي يمكنني أن أقدمها للبان؟
- اسمع يا باني. لن أكثر في الكلام. خذ المال (قال ميتيا ذلك وأخرج من جيبه حزمة الأوراق المالية)، خذ المال... هل تريد ثلاثة آلاف روبل؟ خذها وانصرف!
حدق البان إلى ميتيا بنظرة فاحصة، مغرقاً عينيه في عينيه. وسأله بالبولندية:
- ثلاثة آلاف روبل يا باني؟
وتبادل وصاحبه فروبلفسكي نظرة خاطفة.
قال له ميتيا:
- نعم، ثلاثة آلاف! اسمع يا باني: إنني ألاحظ أنك رجل عاقل. خذ هذه الثلاثة آلاف روبل واذهب من هنا، ولكن لا تنس أن تصطحب صاحبك فروبلفسكي، هل فهمت؟ على أنني اشترط أن تذهب فوراً، في هذه الدقيقة نفسها، وإلى الأبد. تخرج من هذا الباب إلى الأبد. ماذا تركت في الغرفة الأخرى؟ معطفاً؟ فراءً؟ سأجيئك به. وسآمر بإعداد عربة ترويكا لك فوراً.. وأتمنى لك سفراً سعيداً يا باني. هيه، ما رأيك؟
كان ميتيا ينتظر الجواب وهو ممتلئ ثقة. كان لا يراوده شك في أن الرجل سيقبل هذا العرض، واتخذ وجه البان ذي الغليون هيئة تنم عن غاية العزم والتصميم. وقال يسأل ميتيا:
- أين المال يا باني؟
- إليك تفصيل الأمر فيما يتعلق بالمال: أدفع لك الآن خمسمائة روبل سلفة ونفقات سفر. أما الباقي، وهو ألفان وخمسمائة، فسأدفعه لك غداً في المدينة، أحلف لك بشرفي. سأجيئك بهذا المبلغ من تحت الأرض إذا لزم ذلك! (هكذا صاح ميتيا).
تبادل البولنديان نظرة. وأصبح وجه البان ذي الغليون أقل تشجيعاً مما كان منذ قليل. قال ميتيا:
- بل أعطيك سبعمائة روبل، لا خمسمائة، كدفعة أولى... أعطيك إياها حالاً، في هذه اللحظة نفسها (كذلك أسرع يقول ميتيا الذي أحسَّ بنذير سوء). ما بك يا باني؟ ألاّ تصدقني؟ لست أستطيع أن أنقدك ثلاثة آلاف دفعة واحدة على كل حال. ذلك أنك قد تأخذ المبلغ الآن ثم تعود إليها غداً... ثم إنني لا أحمل الآن هذا المبلغ، وإنما هو مخبأ في مسكني بالمدينة (كذلك تمتم يقول ميتيا الذي كانت شجاعته تهبط عند كل كلمة جديدة، والذي أصبح يرتعش منذ ذلك الحين خوفاً من الإخفاق) أحلف لك أن هذا المال في بيتي، مخبأ...
وفي مدى لحظة قصيرة، اجتاح وجه البان ذي الغليون تعبير عن إنفة خارقة وشمم هائل، فسأل ميتيا في سخرية (باللغة البولندية):
- أهذا كل ما تريده؟ يا للعار!
ثم بصق للتعبير عن اشمئزازه بمزيد من القوة. وبصق فروبلفسكي أيضاً.
قال ميتيا وقد شعر باليأس يغزوه، وأدرك أن كل شيء قد ضاع، قال:
- أنت تبصق أيها البان لأنك تأمل أن تسلب جروشنكا مبلغاً أكبر! ألاّ إنكما لديكين مخصيين!

فقال البان ذو الغليون، وقد احمرّ احمراراً شديدة (قال باللغة البولندية أيضاً):
- إنك تهينني إلى أقصى حدود الإهانة.
ثم أسرع يتجه نحو الباب، في هيئة رجل مستاء لا يريد أن يسمع المزيد من الكلام. وسار فروبلفسكي وراءه متمايلاً. وتبعهما ميتيا حائراً وقد أسقط في يده. كان يخشى غضب جروشنكا، لأنه أوجس أن البولندي سيفضح الأمر. وذلك ما حدث فعلاً. فقد دخل البان ذو الغليون القاعة، فوقف أمام جروشنكا وقفة مسرحية، وهتف يقول لها باللغة البولندية:
- لقد أُهنت إلى أقصى حدود الإهانة يا باني أجريبينا!
فإذا بجروشنكا تصيح في وجهه حانقة وكأن أحداً مس لها أشد المواضع إيلاماً:
- باللغة الروسية، تكلم باللغة الروسية! لا أريد بعد الآن أن أسمع كلمة بولندية واحدة! لقد كنت تعرف الروسية في الماضي، ولا يمكن أن تكون قد نسيتها في خمس سنين!
وكانت جروشنكا محمرَّة الوجه غضباً.
- سيدتي أجريبينا...
- اسمي اجرافينا... أنا جروشنكا... تكلم بالروسية إذا كنت تريد أن أسمع لك!
جُرحت كبرياء البان فتنحنح، وأسرع يقول في تنفخ وفخفخة، متعمد اً تشويه الكلمات:
- أيتها الباني أجرافينا! لقد جئت وأنا أنوي أن أنسى الماضي وأن أغفر، جئت وأنا أنوي مسح ما حدث حتى هذا اليوم....
فقاطعته جروشنكا قائلة وهي تشب من مكانها:
- جئت لماذا؟ لتغفر؟ أتريد أن تغفر لي أنا؟
نعم يا باني، كنت أريد أن أغفر لك. إن لي نفساً رحبة وقلباً سمحاً. ولكن سلوك خليلك قد أدهشني. فمنذ هنيهة، في الغرفة المجاورة، أراد البان ميتيا أن يعطيني ثلاثة آلاف روبل لأسافر. فبصقت في وجهه.
صرخت جروشنكا تسأله بهستيرية:
- ماذا؟ هل تجرّأ أن يقدم لك مالاً من أجلي؟ أصحيح هذا يا ميتيا؟ كيف تجرّأت؟ أأنا امرأة تباع وتُشترى؟
قال ميتيا في أنين:
- أيها الباني، أيها الباني، إنها طاهرة كملاك، ولم أكن خليلها في يوم من الأيام. لقد كذبتَ في هذا الأمر...
زأرت جروشنكا تقول:
- كيف تجرؤ أن تدافع عني أمامه؟ لئن حافظتُ على طهارتي، فإنني لم أفعل ذلك تمسكاً بالفضيلة أو لأنني كنت أشعر بخوف من كوزما، بل ليكون من حقي أن أكون متعالية معه وأن أصرخ في وجه هذا الرجل حين ألقاه: أنت شقي تعس! هل يمكن حقاً أن يكون قد رفض المال الذي عرضته عليه؟
فصاح ميتيا يقول:
- إنه لم يرفض... لقد رضي... ولكنه أراد أن أنقده الثلاثة آلاف روبل دفعةً واحدة، أما أنا فقد عرضت عليه قسطاً أول هو سبعمائة روبل.
قالت جروشنكا:
- اتضح الآن كل شيء: لقد علم أنني أملك مالاً، فأراد أن يتزوجني؟
صرخ البان يقول:
- يا باني أجريبينا، أنا فارس، أنا بولندي نبيل، لا شقي تعيس. لقد كنت أريد أن أتخذك حليلةً لي، ولكنني أرى الآن أمامي امرأة تختلف كل الاختلاف عن المرأة التي عرفتها، أرى أمامي الآن امرأة راكبة رأسها ولا ترعوي...
صرخت جروشنكا تقول وقد خرجت عن طورها:
- اذهب! عد من حيث جئت! لآمرنَّ بطردك، فيضعك على الباب! ألا ما كان أشد بلاهتي حين عذّبت نفسي خلال هذه السنين الخمس بسببه!... لا... إنني لم أعذّب نفسي هذا التعذيب بسببه، وإنما عذبت نفسي غضباً وحنقاً؛ ليس هذا هو الرجل الذي أحببته أوه! إنه لم يكن هكذا! أغلب الظن أنه أبوه! أين صنعت لنفسك هذه الباروكة المضحكة؟ لقد كان ذلك صقر اً ، أما هذا فدجاجة مبتلة! كان ذاك يضحكني وينشدني الأغاني... ألا ما كان أغباني إذ لبثت أبكي طوال خمس سنين، وما كان أحطني، وما كان أجبنني!
قالت جروشنكا ذلك وتهالكت على مقعدها من جديد، وغطت وجهها بيديها. وفي تلك اللحظة، ترجّعت في الغرفة التي تقع على الشمال أصوات جوقة بنات موكرويه اللواتي اجتمع شملهن أخير اً . لقد أخذن يغنين أغنية راقصة شيطانية.
فصاح فروبلفسكي على حين فجأة يقول:
- هذا محل دعارة! يا ريّس، اطرد هاته النساء الخليعات !
كان صاحب النزل يلقي على القاعة نظرات استطلاع من حين إلى حين، فلما سمع الصراخ فأدرك أن نزلاءه قد أخذوا يتشاجرون أسرع إليهم. وقال يسأل فروبلفسكي بلهجة فظة غير متوقعة:
- هيه! أنت! ما لك تصيح هذا الصياح بحلقك العريض كله؟
فزار فروبلفسكي يقول له:
- وغد!
- وغد؟ أنا وغد؟ هلا قلت لي بأي ورق لعبت منذ قليل؟ لقد جئتك بحزمة مختومة، فأخفيتها، ولعبت بورق مغشوش! هل تعلم أنني أستطيع أن أرسلك إلى سيبريا بسبب هذا الغش؟ إن اللعب بورق مزيف يشبه صنع نقود مزيفة...
واقترب صاحب النزل من الكنبة، فأغطس يده بين الوسادة والظهر، فسحب حزمة الورق المختومة، وقال:
- هذا ورقي، لم يمسَّ!
ورفع حزمة الورق بين أصابعه يُظهر عليها جميع الحضور، وهو يقول:
- لقد رأيته من ركني لحظة دسَّ هذه الحزمة في الشق، وبدّلها بورقٍ من عنده! أنت وغد صغير لا بان...
وقال عندئذٍ كالجانوف:
- وأنا فاجأت «السيد» يغش مرتين.
صاحت جروشنكا تقول وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى:
- يا للعار! آه... يا للعار!... رباه! كيف أمكن أن يتغير هذا الرجل إلى هذا الحد؟...
وكانت جروشنكا قد تخضَّب وجهها بحمرة شديدة من فرط شعورها بالذل والخجل.
قال ميتيا:
- لقد اشتبهت في أنهما يغشان!
فما إن نطق ميتيا بهذه الكلمات حتى التفت السيد فروبلفسكي إلى جروشنكا مغتاظاً مضطرباً، وصرخ يقول لها وهو يمد قبضة ذراعه نحوها:
- مومس!
ولكن ميتيا انقضّ عليه في تلك اللحظة نفسها، فأمسك بجسمه كله، ورفعه، ونقله بطرفة عين إلى الغرفة التي تقع على اليمين، الغرفة التي قادهما إليها منذ لحظات. وسرعان ما عاد إلى القاعة لاهثاً من الجهد والانفعال، فقال للقوم:
- رميته على الأرض! الغشاش يتخبط، ولكنه لن يسارع إلى الرجوع.
وأغلق ميتيا أحد مصراعي الباب، وترك المصراع الثاني مفتوحاً، واتجه إلى «السيد» ذي الغليون يسأله:
- هل تتنازل، أيها السيد النبيل، فتلحق بصاحبك؟ بشيرا شام.

فهتف تريفون بوريستش يقول:
- ولكن يا دمتري فيدوروفتش، استردَّ منه المال الذي خسرته في اللعب، على الأقل... لقد سرقاك !
قال كالجانوف:
- أنا أترك لهما روبلاتي الخمسين!
فصاح ميتيا:
- وأنا أتنازل عن روبلاتي المائتين! لن أستردها بحال من الأحوال فليحتفظا بها عزاءً لهما!
- مرحى ميتيا، عظيم!
كذلك صاحت تقول جروشنكا بصوت فيه شيء من الشر. فاتجه السيد ذو الغليون نحو الباب، وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة من فرط الحنق، ولكنه لم يفقد شيئاً من رصانته. ومع ذلك فإنه قبل أن يخرج من القاعة، توقف والتفت نحو جروشنكا وقال لها (بالبولندية):
- باني، إذا كنت تريدين أن تتبعيني، فتعالي! وإلا... فوداعاً...
ثم اجتاز الباب عابس الوجه مختنق الصدر غضباً وخزياً.
ذلك الرجل رجل لا يخجل ولا يهزّه. فإنه بعد كل ما حدث ظل يأمل أن تتبعه «الباني»، لأنه يقدر نفسه قدر اً عظيماً.
أغلق ميتيا الباب خلفه.
وقال له كالجانوف ناصحاً:
- أقفل الباب عليهما بالمفتاح.
ولكن القفل صرَّ من داخل الغرفة. لقد سارعا هما إلى إقفال الباب بالمفتاح.
هتفت جروشنكا تقول بلهجة حاقدة:
- عظيم! هذا أقلّ ما يستحقانه !

- 8 - هذيان

ما إن مضى البولنديان حتى شمل القاعة مرحٌ عام، وحتى بدأ احتفال يشبه أن يكون مجوناً وكانت جروشنكا أول المطالبين بخمر قالت: «أريد أن أشرب، أريد أن أسكر تماماً، كالمرة السابقة، هل تتذكر يا ميتيا، يومَ تعارفنا؟» وكانت حالة ميتيا النفسية أشبه بهذيان، لأنه كان يتنبأ «بسعادته». وكانت جروشنكا، مع ذلك، ما تنفكّ تصرفه في كل لحظة، قائلةً له: «اذهب إليهم، سرِّ عن نفسك، مرهم بأن يرقصوا، حتى يكون هنالك انطلاق ومرح. أريد قصفاً عنيفاً حار اً ، كالمرة السابقة، كالمرة السابقة تماماً». كانت جروشنكا مهتاجة جائشة النفس. وكان ميتيا يتحرك هنا وهناك ليطيعها وينفذ أوامرها. تجمع أفراد الجوقة في الغرفة المجاورة. إن هذه القاعة التي تجمعوا فيها صغيرة مسرفة في الصغر، تقسمها إلى قسمين ستارة من نسيج قطني تخفي وراءها سرير اً ضخماً ذا حشوة رخوة كبيرة فوقها كدسة من وسائد. وإن في سائر الغرف الأربع الأخرى «النظيفة» سرر اً على كل حال. استقرت جروشنكا أمام الباب، حيث أتاها ميتيا بمقعد تجلس عليه. ذلك هو المكان الذي شغلته «في ذلك اليوم»، أثناء احتفالهما الأول في الليل، تتأمل منه الرقصات وتسمع الغناء. إن البنات اللواتي اشتركن في ذلك الاحتفال قد جئن اليوم من أنفسهن. ولم يلبث اليهود أن وصلوا مع آلات الرباب والكمان. وأعلن أخير اً أن عربة الترويكا التي طال انتظارها قد وصلت هي أيضاً تحمل المؤن والخمور. شُغل ميتيا كثير اً ، وراح يتحرك هنا وهناك. كان أناس من أهل القرية يقفون أمام العتبة من حين إلى حين ليلقوا نظرةً على الغرفة. لقد أوقظ الفلاحون والفلاحات في وسط الليل، متوقعين وليمة عجيبة كوليمة الشهر الماضي. إن ميتيا يحيّي الوافدين الجدد بالتحيات، ويعانق الأصحاب القدامى، ويثير ذكريات سابقة، ويفتح الزجاجات، ويقدم الشراب لكل قادم. والبنات وحدهن يقدرن الشمبانيا، أما الفلاحون فيؤثرون خمر الروم والكونياك، ويفضلون «البنش» خاصة. أصدر ميتيا أوامره بإعداد شوكولاته للبنات، وبأن تظل ثلاثة سماورات يغلي ماؤها بدون انقطاع لتحضير الشاي والبنش. يجب أن يكون هنالك شراب للجميع. يجب أن يستطيع كل قادم أن يسكر ما شاء له هواه أن يسكر. الخلاصة: قامت الدنيا وقعدت، وأخذ الناس يشربون بفوضى لا يلجمهم شيء. ولكن ميتيا كان يحسّ في هذا السديم المضطرب بارتياح، ويزداد انتعاشاً ونشاطاً على قدر ازدياد الفوضى والسخف في هذه السهرة. فلو خطر ببال أول فلاح واصل أن يسأله مالاً في تلك اللحظة، إذاً لأخرج الحزمة من جيبه ووزَّع الأوراق المالية على الحضور دون عد. ولعل هذا هو السبب الذي جعل صاحب النزل لا يكف عن الحوم حوله لحمايته في أغلب الظن. وقد عزم تريفون بوريستش على أن لا ينام في هذه الليلة، لذلك لم يشرب هو نفسه إلا قليلاً جداً (اكتفى بكأس بنش واحد)؛ ولكنه كان يسهر على مصالح ميتيا بمزيد من الانتباه، ولو على طريقته الخاصة ؛ فهو يتدخل متى وجب أن يتدخل، بلهجة متعاذبة لينة، ليوقف ميتيا عند حدود لا يتعداها، محاولاً أن يحول بينه وبين أن يقدم للفلاحين الحفاة «سيجار اً وخمور الراين كما فعل في المرة الماضية»، أو أن يوزِّع عليهم شيئاً من المال خاصةً، لا سمح الله! كان يسوءه أن يرى البنات تشرب خمور اً وتقضم ملبّساً، فيقول: «وسخات ! وسخات ! لأطردهن ركلاً بالقدمين، ولأحملهنّ على أن يشكرن لي هذا الشرف. ذلك ما هن به جديرات !». وتذكر ميتيا الحوذي أندريه من جديد، فأرسل إليه شيئاً من البنش. وكان يردد قائلاً بصوت ضعيف دامع: «لقد أسأت إليه منذ قليل». ورفض كالجانوف في أول الأمر أن يشرب، ولم ترضه جوقة البنات ولكن مرحه اشتد اشتداد اً جنونياً بعد أن شرب الكأس الثانية من الشمبانيا، فكان يتنقّل بين الغرف ضاحكاً مادحاً كل شيء، الأغاني والموسيقى. وكان ماكسيموف الذي بلغ أوج السكر والغبطة منذ ذلك الحين، لا يتركه لحظة واحدة. وكانت جروشنكا، التي ثملت قليلاً هي أيضاً، ما تنفكّ تقول لميتيا وهي تومئ إلى كالجانوف «ما ألطفه فتى! ما أحلاه وما أعذبه !»، فكان ميتيا يسرع عندئذٍ إلى كالجانوف فيعانقه ويقبله بحماسة؛ وكان يقبّل ماكسيموف في هذه المناسبة. آه... ما كان أعظم السعادة التي يوجس ميتيا أنه سينالها! صحيح أن جروشنكا لم تكن قد وعدته بشيء بعد، وأنها كات تتعمد تجنب أي شرح الآن، ولكنها كانت تنظر إليه خلسةً من حين إلى حين وقد فاضت عيناها رقة وحناناً. وها هي ذي تمسك يده على حين فجأة، فتجذبه إليها بقوة، وتقول له وهي جالسة على مقعد أمام الباب:

- ما كان أغرب هيئتك حين دخلت علينا منذ قليل! أوه! لقد خفت عندئذٍ خوفاً شديداً. كيف خطر ببالك أن تتنازل عني لذلك الرجل؟ هل يمكن أن يكون ذلك قد خطر ببالك حقاً؟

دمدم ميتيا يقول وقد طاش عقله من فرط السعادة:

- لم أشأ أن أفسد سعادتك.

ولكن جروشنكا لم تصغ إلى جوابه. وصرفته عنها من جديد قائلة له:

- اذهب، اذهب، سرِّ عن نفسك لاهياً معهم. وليس لك أن تتشكى، فسأناديك بعد قليل.

انصرف ميتيا، واستأنفت جروشنكا تأمل الرقصات والإصغاء إلى الأغنيات. ولكنها لم تصرف عن ميتيا نظراتها. فلما انقضى على ذلك ربع ساعة أومأت له فهرع إليها. قالت:

- اجلس بجانبي الآن، واقصص عليَّ كيف علمت أمس أنني هنا. من أولُ من قال لك ذلك؟

أخذ ميتيا يقص عليها بحرارة، ولكن بفوضى، فليس في سرده تسلسل كثير. والشيء الغريب أنه كان في بعض الأحيان يتوقف عن الكلام ويقطب حاجبيه. قالت له جروشنكا:

- ما بك؟

فأجابها:

- لا شيء... لقد تركت في المدينة مريضاً. أرجو أن يشفى... إني لأهب من عمري عشرة أعوام في سبيل أن يشفى!

- لا تفكر بعد الآن في ذلك المريض. قل لي: هل صحيح أنك كنت تريد أن تنتحر في غد أيها الأحمق؟ لماذا؟

ثم دمدمت تقول له بلغة منتفخة قليلاً:

- أحبّ أمثالك، المجانين قليلاً. أأنت مستعد إذاً لأن تجازف بكل شيء في سبيلي؟ أكان في نيتك إذاً أن تنتحر من أجلي غد اً يا عزيزي الطيب الأبله؟ ألا فاعلم إذاً أن من الأفضل لك أن تنتظر...

قد أقول لك في الغد كلمة صغيرة... لا اليوم... بل غداً! آ... لا شك أنك تؤثر أن أقولها لك اليوم؟ لا.... لا أريد أن أقولها اليوم... اذهب، اذهب الآن، سلِّ نفسك!

ولكنها نادته في لحظة من اللحظات مندهشة قلقة، وسألته:

- مالي أراك حزيناً هذا الحزن كله؟ إنني ألاحظ أنك مهموم.

وسدّدت إليه نظرة نافذة، وأردفت تقول:

- نعم، ألاحظ ذلك واضحاً. مهما تضحك وتمزح مع الفلاحين، فإنني أدرك أن هناك شيئاً يعذبك. كن فرحاً! أريد ذلك ! أنا فرحة، فعليك أن تفرح أنت أيضاً... تصوّر أنني أحبّ أحد اً هنا. احزر مَنْ هو؟... أوه! انظر إليه! لقد غفا فتاي الصغير... إنه ثمل، عزيزي!

كانت تعني كالجانوف. لقد غفا كالجانوف بضع لحظات على الكنبة بتأثير الكحول. على أن الخمر وحدها ما كانت لتكفي أن تغرقه في النوم. وإنما الحقيقة أنه شعر فجأةً بحزن ثقيل في وسط هذا الاحتفال، دون سبب معيَّن واضح، وذلك ما عبَّر عنه بقوله إنه «ضجر». وكانت أغاني البنات قد أصبحت تثير فيه الاشمئزاز، لأنها كانت تزداد فسقاً ودعارة بتأثير الخمر شيئاً بعد شيء، وكذلك كان شأن الرقصات: لقد خطر ببال بنتين من البنات أن تتنكرا دُبَّيْن، وأخذت سيتبانيدا، وهي امرأة قوية الجسم خلية البال، «تعرضهما» وفي يدها هراوة، قائلةً في صراخ: «بحيوية أكثر يا ماريا، وإلا هويت عليك بالهراوة !» وأخذ الدبان يتدحرجان أخير اً على أرض الغرفة تدحرجاً خالياً من الحشمة كل الخلو حقاً، فكان جمهور الفلاحين والفلاحات الذي يشاهد المنظر ينفجر ضحكه المجلجل! قالت جروشنكا بلهجة الحكمة وهيئة الغبطة: «دعوهم يلهون على ما يشاء لهم هواهم، ذلك من حقهم مرة. إن هذه الفرصة لا تعرض لهم كثير اً ، فلينتهزوها!» وكان كالجانوف ينظر إلى المشهد شاعر اً بأنه اتسخ؛ وابتعد وهو يقول: «ما أكثر الابتذال في هذا الفرح الشعبي! إنهم يلعبون ألعابهم الربيعية منتظرين طلوع الشمس في الليل الصيفي».

وكانت قد آذته أغنية «جديدة» إيذاءً خاصاً. هي أغنية تتردد فيها لازمة بإيقاع راقص جريء؛ وهي تروي قصة سيد مسافر يسأل البنات[193].

سأل السيد البنات:

أتحببنني؟ أتحببنني؟

ولكن البنات رأين أنه لن يكون زوجاً صالحاً.

سيضربني السيد ولن أحبه.
واتفق أن مرّ عندئذٍ غجري:
سأل الغجري البنات:
أتحبينني؟ أتحبينني؟
ولكنه لم يعجب أكثر من السيد:
سيكون الغجري لصاً ولن تكون هذه هي السعادة.
ومرّ رجال آخرون كثيرون، حتى لقد مرّ جندي:
سأل الجندي البنات:
أتحبينني؟ أتحبينني؟
ولكن البنات نبذنَهُ باحتقار:
سيحمل الجندي الكيس وأنا خلفه...
وكان البيت الثاني بذيئاً بذاءة صريحة، وكانت البنات تغنيه دون أن تحمر خجلاً، فتثير في الجمهور حماسة عظيمة، وتقدم أخيراً تاجر:
سأل التاجر البنات:
أتحبينني؟ أتحبينني؟
فأحبته البنات، لأن:
التاجر سيجني ثروة كبيرة ويجعلني أميرة...
غضب كالجانوف فصاح يقول بصوت عالٍ:
- هذه أغنية حديثة جداً. تُرى من مؤلفها؟ ليس ينقصها في الواقع إلا متعهدو سكك حديدية ويهود. فلو سألوا البنات لاحرزوا النصر!
كان كالجانوف كمن أُهين تقريباً، وقال فجأة إنه ضجر، واضطجع على الكنبة فسرعان ما غفا. وهذا وجهه الجميل، الشاحب شحوباً خفيفاً، ينزلق على الوسادة قليلاً.
قالت جروشنكا وهي تقود ميتيا إليه:
- انظر ما ألطفه! كنت منذ قليل أسلّي نفسي بملاعبة شعره. إن شعره غزير كثيف، وهو أشبه بخيوط الحرير نعومةً...
ومالت جروشنكا على كالجانوف في حنان، وقبّلت جبينه. ففتح كالجانوف عينيه فجأة، ونظر إليها، ثم نهض نصف نهوض، وسألها وقد بدا عليه انشغال البال: أين ذهب ماكسيموف؟
فقالت جروشنكا ضاحكة:
- انظروا عمن يسأل. ماكسيموف هو الذي يعوزه! هلّا بقيت معي بضع لحظات! يا ميتيا، ابحث له عن ماكسيموف وجئه به.
كان ماكسيموف قد أصبح لا يترك البنات، ولا يبتعد عنهن من حين إلى حين إلا ليصب قدحاً من الخمر. وقد شرب أيضاً فنجانين من الشوكولاته. وتلوّن خداه، واصطبغ أنفه بحمرة قانية، بينما عيناه المخضّلتان الرطبتان تنظران حوله في عاطفة وحنان. وسرعان ما هرع ماكسيموف يعلن أنه سيرقص رقصة «سابوتيير» على «لحنٍ موسيقيّ معروف». وقال شارحاً:
- لقد علموني في طفولتي هذه الرقصات الراقية الرفيعة.
قالت جروشنكا:
- اذهب معه يا ميتيا أما أنا فسأنظر إلى رقصته من هنا.
فهتف كالجانوف يقول في سذاجة، مبعد ا الفرصة التي عرضتها له جروشنكا وهي أن ينفرد بها:
- سأمضي أنا أيضاً. إني أريد أن أراه عن كثب حتماً.
وتبعوا ماكسيموف. وعرض ماكسيموف رقصته، فلم تثر حماسة أحد إلا ميتيا. هي رقصة قوامها قفزات وتلوّيات، ورفع السيقان إلى فوق وجعل النعال عاليةً في الهواء، فكان ماكسيموف يقرع نعله بيده في كل مرة. استاء كالجانوف، ولكن ميتيا قبّل الراقص قائلاً له:
- شكراً لك يا صاحبي الطيب. يخيَّل إليَّ أنك تعبت. أأنت تنظر إلى السكاكر؟ أتريد واحدة؟ أم لعلك تحب أن تدخن سيجاراً؟
- بل سيجارة.
- ألا تريد أن تشرب شيئاً؟
- شربت خموراً. أليس عندكم سكاكر بالشوكولاته؟
- ما أكثر ما عندنا على المائدة. اختر ما يحلو لك يا حمامتي!
- ليس هذه، أريدها سكاكر بالفانيليا... أريد سكاكر الشيوخ العجائز تلك! هئ هئ!...
- ليس عندنا منها يا أخي!
ومال العجوز فجأة على أذن ميتيا فسأله موشوشاً:
- قل لي: أما من سبيل... أليس هناك وسيلة... انظر إلى هذه البنية، إلى ماريا اللطيفة هذه، هئ هئ، كم أود لو أتعرف عليها... إذا كنت ترى، بما لك من شهامة وأريحية، أن الأمر ممكن...
- ما هذا الكلام! أوه! أرجو أن تكون هازلاً!
- لا أريد بأحد شر ا .
كذلك دمدم يقول ماكسيموف باكتئاب. فقال له ميتيا:
- طيب... طيب... هنا يا أخي غناء ورقص، ولكن ذلك هو كل شيء. على كل حال... إذا كنت تحرص هذا الحرص كله.. عجيب! عليك قبل كل شيء أن تأكل وتشرب وتمرح. ألعلّك في حاجة إلى مال؟
أجابه ماكسيموف مبتسماً:
- ربما أحتاج إلى شيء من المال. فيما بعد.
- طيب...
كان رأس ميتيا ناراً مشتعلة. خرج إلى الدهليز وصعد إلى الرواق الذي يمتد على جزء من المبنى من جهة الفناء. أحسن إليه الهواء الطري. توقف وحيد ا في ركن مظلم، وإذ به يضع رأسه بين يديه فجأة. إن خواطره المتفرقة المتبعثرة، وإحساساته الغامضة المبهمة، قد اتّحدت الآن وترتّبت وتوضّحت، فخرج منها على حين فجأة ضياء رهيب! ومرّت في ذهنه فكرة: «إذا كنت أريد أن أطلق رصاصة في رأسي، فلماذا لا أفعل ذلك حالاً؟ أمضي فأجيء بمسدسي وأنهي الأمر في هذا المكان نفسه، في هذا الركن المظلم القذر ذاته؟» ولبث يتردد دقيقة طويلة. إنه منذ ساعات قليلة، حين كانت عربة الترويكا تقله إلى موكرويه، كان قد خلف وراءه عار ا هو عار السرقة وسفك الدم... ولكن ما كان أسهل اتخاذ القرار الوحيد الممكن حينذاك! لقد كان اتخاذ هذا القرار أسهل منه الآن، أسهل كثيراً ! كل شيء كان يبدو عندئذٍ ضائعاً: كان قد فقد تلك المرأة، قد تنازل عنها... أصبحت لا وجود لها... وكان تنفيذ الحكم الذي أصدره على نفسه هيناً يسيراً . لقد خضع لذلك الحكم خضوعه لقدر لا رادّ له، لقضاء أعلى لا اعتراض عليه. ما كان حاجته إلى البقاء حياً بعد أن وقع ما وقع؟ لم يكن قد بقي شيء يشده إلى هذا العالم ويربطه به. أما الآن فقد اختلفت الحال. إن إحدى حلقات القدر وأحد أشباح الخوف قد تبدد الآن دخاناً ! إن صديقها القديم الذي لا يمكن جحوده أو التنكر له، قد اختفى دون أن يخلف أثر ا ! إن ذلك الشبح المرعب قد استحال ظلاً تافهاً مضحكاً. لقد أُخْرجَ من الغرفة كطفل، وأقفل عليه الباب بالمفتاح! ولن يرجع أبداً. إنها تشعر بالعار من هذا الرجل؛ وقد استطاع ميتيا أن يقرأ في عينيها من ذا تحب في الواقع. الآن إنما يمكن أن تكون الحياة جميلة، جميلة جداً... ولكن الحياة مستحيلة بعد أن وقع ما وقع، مستحيلة! يا لها من لعنة ! اللّهم ردَّ الحياة إلى ذلك الذي صرعتُه قرب السور! اللّهم امنع عني هذي الكأس واجعل الكارثة تمرّ دون أن ترميني! «اللهم إنك قد صنعت معجزات لأناس غيري كانوا مذنبين مثلي، فهب لي من لدنك معجزة من تلك المعجزات!... ولكن ماذا إذا كان

العجوز لم يمت! لأمحونَّ عندئذٍ عار الإثم الآخر، فأرد المال المسروق، أعيده إلى صاحبه، ولو اضطررت أن أمضي باحثاً عن المال تحت الأرض... لن يبقى عندئذٍ أثر من آثار ذلك العار... إلا في قرارة قلبي حيث سيعيش إلى الأبد. لا، لا، هذا مستحيل. هذه أحلام جبان، أحلام لا سبيل إلى تحقيقها... يا للعذاب !».

ومع ذلك ساوره شعاع من أمل بعد هذه الأفكار، شعاع ضعيف في ظلام الليل. انتزع نفسه من تأمله القاتم، وأسرع ينزل إلى غرف الطابق الأرضي، أسرع إليها من جديد، إلى تلك التي تحكم قلبه إلى الأبد. تساءل: «ألا تساوي ساعة واحدة من حبها، ألا تساوي دقيقة واحدة من حبها حياةً بأكملها، ولو كان ثمنها عذاباً وعار اً ». استولت هذه الفكرة الغريبة على ميتيا، وطردت من نفسه سائر الهموم والمشاغل. قال يحدث نفسه: «أراها، أراها أيضاً، أسمعها، أنقطع عن التفكير في أي شيء، أنسى كل ما عداها، ولو ليلةً واحدة، ساعة واحدة، دقيقة واحدة!». وفيما كان ينزل من الشرفة لمح تريفون بوريستش عند مدخل الدهليز. كان تريفون بوريستش حزين الهيئة منزعجاً، وبدا لميتيا أنه كان يبحث عنه.

- أتبحث عني أنا يا تريفون بوريستش؟

فأسرع صاحب النزل يجيبه:

- لا... ليس أنت... ثم علام أبحث عنك؟ ولكن... أين كنت؟

- مالي أراك مظلم الوجه؟ أتراك غاضباً؟ اصبر علينا قليلاً، وسندعك تنام. كم الساعة الآن؟

- هي الثالثة أو تزيد.

- سننصرف.

- لا، لا... في وسعكم أن تبقوا ما شئتم أن تبقوا....

تساءل ميتيا وهو يسرع إلى القاعة التي كانت ترقص فيها البنات: «ماذا حدث له؟». ولكن جروشنكا لم تكن هناك. لا ولا كانت في الغرفة الزرقاء. وكان كالجانوف ينام على الكنبة نوماً هادئاً. ألقى ميتيا عندئذٍ نظرة خلف الستائر، فإذا هو يجدها هناك. كانت جالسةً في ركن، على صندوق، مسندةً رأسها ويديها إلى حافة السرير، تبكي بكاءً مر اً ، محاولة أن تخنق نشيجها، جاهدةً أن لا ينفجر انتحابها وأن لا تلفت الانتباه إليها. لمحت ميتيا، فأومأت إليه أن يقترب، وأمسكت يده فضغطتها بيدها ضغطاً قوياً. وقالت هامسة:

- أوه! ميتيا، ميتيا، لقد أحببت هذا الرجل مع ذلك! أحببته كثير اً خلال هذه السنين الخمس! ترى أأحببته أم كنت أحبّ حقدي؟ لا بل أحببته هو؟ أوه! نعم، هو، هو! أكذب إذا زعمت أنني ما أحببت إلا حقدي ! أوه يا ميتيا! لم يكن عمري حينذاك إلا سبعة عشر عاماً، وكان يُظهر لي كثير اً من اللطف والأنس والوداعة، وكان يغني لي أغنيات وكان مرحاً... أم تراه لم يظهر لي فتاناً إلى ذلك الحد إلا لأنني كنت غبية، إلا لأنني كنت طفلة غرة؟... أما اليوم... رباه! إنه ليس هو، إنه ليس ذلك الرجل نفسه! لقد تغير وجهه أيضاً، فهو لا يشبهه البتة. أنكرته حين رأيته أول وهلة. لقد كنت أتساءل طوال الطريق، وأنا آتية إلى هنا مع تيموثي: «كيف أتصرف حين ألقاه؟ ماذا أقول له؟ كيف ينظر كل منا إلى الآخر؟...» وانهارت نفسي... كأنما صُبَّ على رأسي سطلاً من قاذورات. تكلم كما يتكلم معلم مدرسة. اتخذ أوضاع التعالي، واصطنع هيئة الوقار، فأرتج عليَّ وخرست! لم يتح لي أن أقول كلمة واحدة. حسبت في البداية أن وجود ذلك البولندي الطويل يحرجه. كنت جالسة هناك، أمامه، أتساءل لماذا أصبحتُ على حين فجأة لا أجد كلمة أقولها له. إن زوجته، إن تلك المرأة الأخرى هي التي أثرت فيه تأثيراً سيئاً... تلك المرأة التي من أجلها تركني ثم تزوجها بعد ذلك... لقد بدلته تبديلاً كاملاً... يا للعار يا ميتيا! إني لأشعر الآن بالعار من حياتي كلها! لعنت تلك السنون الخمس، إلى الأبد.

وتدفقت دموعها من جديد، ولكنها لم تترك يد ميتيا، بل ضغطتها في يدها مزيداً من الضغط.

- ميتيا، حمامتي، لا تذهب، انتظر لحظة سأقول لك كلمة صغيرة (هكذا دمدمت تقول وهي ترفع إليه بصرها). اسمع. قل لي أنت: من هو الرجل الذي أحبه؟ إنني أحبّ رجلاً هنا. فمن هو ذلك الرجل؟ قل لي هذا أنت!

وأضاءت ابتسامة في وجهها المحتقن من الدموع، والتمعت عيناها في الظلام. وتابعت تقول:

- منذ قليل دخل صقر، فتوقف قلبي عن الخفقان. وقال لي قلبي: «أيتها الغبية، هذا هو، هذا هو الرجل الذي تحبين!» لقد دخلت أنت فأضأت كل شيء. تساءلت: «ولكن ممَّ هو خائف؟». ذلك أنك كنت خائفاً، وقد بلغت من الخوف أنك لم تستطع حتى أن تتكلم. قلت في سري: «ليس خائفاً منهم مع ذلك. أنت لا يمكن أن ترتجف أمام شخص آخر، إنني أعرف ذلك حق المعرفة. وقلت لنفسي عندئذٍ: «إنه خائف مني، مني أنا وحدي»؛ إذ لا شك أن فينيا قد روت لك - أليس كذلك أيها الأحمق؟ - كيف أنني هتفت أقول لأليوشا، من النافذة، إنني قد أحببت ميتنكا مدة ساعة، وإنني ذاهبة الآن... لأحب رجلاً آخر! أوه! ميتيا، ميتيا، كيف أمكنني أن أصدق أنني أستطيع أن أحبّ رجلاً آخر بعدك؟ ما كان أغباني! اغفر لي يا ميتيا؟ هل ستغفر لي؟ هل تحبني؟ هل تحبني؟

نهضت جروشنكا بهمة وقوة، ووضعت يديها على كتفيه. أصبح ميتيا أخرس من فرط السعادة، فكان لا يزيد على أن ينظر إلى عينيها، ووجهها، وابتسامتها... ثم عانقها فجأة وغمرها بالقبلات.

- هل ستغفر لي أنني عذبتك؟ لقد عذبتكم جميعاً، من فرط غضبي وحسرتي! وبدافع الشر وحده جعلت العجوز مجنوناً بحبي... هل تتذكر كيف حطمت في بيتي قدحاً، في ذات يوم، بعد أن شربت؟ لقد تعلمت أنا هذه الحركة، فحطمت اليوم قدحاً وأنا أشرب «نخب قلبي الحقير!». ميتيا، صقري، لماذا لا تقبّلني؟ لقد قبلتني مرةً ثم أمسكت. إنك تنظر إليّ، وتصغي إليّ.... ما قيمة الإصغاء إليّ؟ قبلني، بمزيد من القوة، بمزيد من القوة، هكذا، ما دمت تحبني!... لأكونن بعد اليوم عبدة لك، مدى الحياة! ما أحلى أن أكون عبدة... قبلني أيضاً! اضربني! عذبني! افعل بي ما شئت.... لأنني أستحق أن تعذبني... لا... انتظر! لنؤجل هذا! لا أريد الآن.

قالت له ذلك ودفعته عنها فجأة. وأردفت تقول:

- اذهب يا ميتيا، سأشرب الآن خمر اً ، أريد أن أسكر، وسأرقص بعد ذلك، أريد هذا، أريد هذا !

وتخلصت من عناقه وغابت وراء الستائر. تبعها ميتيا. كان كالسكران. «ما قيمة ما سيحدث فيما بعد، ما قيمة ما سيحدث فيما بعد؟ دقيقة كهذه الدقيقة خير من الكون كله». بهذا حدَّث ميتيا نفسه. شربت جروشنكا كأساً أخرى من الشمبانيا سرعان ما صعدت إلى رأسها. جلست على المقعد، في مكانها السابق، وهي تبتسم ابتسامة غبطة وهناءة وسعادة. احمرَّ خداها، احترقت شفتاها. اضطرب نظرها وفي عينيها الساطعتين، كان يُقرأ نداء محموم جامح. كالجانوف نفسه اضطرب من ذلك، كأن شيئاً قد لسع قلبه، فاقترب منها. سألته:

- هل أحسست بالقبلة التي وهبتها لك حين كنت نائماً؟ أوه! أحسّ أني سكرى... وأنت؟ ألم تسكر؟ لماذا لا يشرب ميتيا؟ ميتيا، يجب أن تشرب! أنا شربت وأنت لا تشرب.

- أنا؟ أنا سكران بغير شراب. سكران بك... ولكنني أريد أن أسكر بالخمر أيضاً.

وأفرغ ميتيا في جوفه كاساً أخرى، فإذا بهذه الكأس الأخيرة تفجّر السكر فيه دفعةً واحدة، على حين أن الكؤوس السابقة لم تحدث أثر اً فقد كان صاحياً وأدرك هذا إدراكاً واضحاً... شيء غريب! أخذ كل شيء يدور في رأسه منذ تلك اللحظة، فكأنه في حالة هذيان. إنه الآن يمشي، ويضحك، ويكلم كل من يلقاه، دون أن يعي. وفي قلبه كانت تضطرم طوال الوقت عاطفة كاوية ثابتة «تحرقه حرقاً كجمرة» كما قال فيما بعد. وكان يقترب من جروشنكا، ويجلس إلى جانبها، وينظر إليها، ويسمع لكلامها... أما جروشنكا فقد أصبحت تتدفق في هذرها تدفقاً رهيباً؛ وهي تنادي الناس إليها، وتستدعي بنتاً من بنات الجوقة، حتى إذا دنت البنت منها أخذت تقبلها ثم تصرفها أو رسمت عليها إشارة الصليب، حتى لتوشك أن تجهش باكية. وكان يفرحها ويضحكها «العجوز الصغير»، خاصةً (هكذا كانت تسمي ماكسيموف). إنه يهرع إليها في كل لحظة ليقبّل يدها. لاثماً كل أصبع من «أصابعها الصغيرة العزيزة»، واحدةً بعد أخرى. وانتهى به الأمر إلى أن أخذ يرقص من جديد على لحن قديم دندنه بصوته. وقد رقص بحماسة خاصة على اللازمة التي كانت تتكرر:

الخنزير الصغير، كريو - كريو

العجل الصغير، مو - مو

البطة الصغيرة، قوا - قوا

الأوزة الصغيرة، جا - جا

والدجاجة الصغيرة تمشي في الدهليز

منادية صغارها: تيوروي - ريو - ريو

قالت جروشنا:

- هلّا أعطيته شيئا يا ميتيا! اهد إليه هدية. إنه فقير. أوه! رباه! يا لهؤلاء الأشقياء جميعاً، يا لهؤلاء المذلّين جميعاً!... هل تعلم يا ميتيا؟ أريد أن أدخل الدير! بلى! سأدخل الدير ذات يوم. لقد كلمني اليوم أليوشا بطريقة لن أنساها ما حييت، لن أنساها ما حييت. أما الآن فلنمرح! اليوم سرور وغد اً دير! أود أن أقوم بأعمال جنونية! ولسوف يغفر لي الرب. أي ضير في أن أتسلى أيها الناس الطيبون؟ لو كنت أنا الله، إذاً لغفرت لجميع الناس، ولقلت لهم: «يا أعزائي الخاطئين، قد عفوت عنكم منذ اليوم». ولسوف أمضي أطلب الغفران من الجميع قائلة لهم: «أيها الناس الطيبون، اغفروا لامرأة مسكينة حمقاء غبية !». ذلك ما سأقوله لهم. أنا وحش مفترس نعم. ولكنني أريد أن أصلّي. لقد وهبتُ بصلة أنا أيضاً. إنني، أنا الشقية، أريد أن أصلّي! دعهم يرقصون يا ميتيا، لا تعكّرسعادتهم! جميع الناس طيبون، جميعهم بغير استثناء! آه! ما أحلى أن يحيا المرء في هذا العالم ! نحن شريرون، ولكن الحياة جميلة جداً.. فينا الخير والشر، الخير والشر في آن واحد... قولوا لي أنتم جميعاً! يجب أن أسألكم هذا السؤال! اقتربوا وقولوا لي: لماذا أنا طيبة إلى هذه الدرجة؟ إنني طيبة فعلاً، فقولوا لي، اشرحوا لي: لماذا أنا طيبة إلى هذه الدرجة؟

بهذا الكلام كانت تدمدم جروشنكا، مغرقة في السكر مزيداً من الإغراق شيئاً بعد شيء، إلى أن أعلنت أخير اً أنها تريد أن ترقص هي نفسها، ونهضت عن كرسيها مترنحة.

- ميتيا، امنعني من أن أشرب أكثر مما شربت. إذا طلبت خمر اً فلا تعطني! لا يحمل الكحول إلى النفس السكينة والهدوء، إن كل شيء يدور الآن أمامي، والمدفأة أيضاً! أريد أن أرقص... فلينظر إليّ الجميع، وليعجبوا برقصي... أرقص جيد اً...

كان هذا من جروشنكا عزماً أكيد اً وقرار اً حاسماً. أخرجت منديلاً صغير اً أبيض من نسيج ناعم رقيق، وأمسكته من أحد أطرافه بيدها اليمنى لتلوّح به أثناء الرقص. تحرك ميتيا هنا وهناك. صمتت البنات، وتهيأن لأن يصدحن بلحن يرافق الرقص جوقةً واحدة عند أول إشارة. وحين علم ماكسيموف بأن جروشنكا سترقص، راح يطلق صرخات متتابعة من فرط حماسته، وأخذ يتواثب أمامها، وطفق يدندن:

ساقاها دقيقتان ووركاها مدوران ولكن ذيلها كالبوق، أبعدته جروشنكا عنها بحركة من منديلها، قائلة:

- شت! لماذا لا يجيئون يا ميتيا؟ فليهرعوا جميعاً... لرؤيتي... ونادهما هما أيضاً، ناد المحبوسين... لماذا حبستهما؟ قل لهما إنني أريد أن أرقص. فليجيئا هما أيضاً، ليعجبا بي!

اتجه ميتيا نحو الباب المقفل بالمفتاح، مترنّح الخطى من السكر، وأخذ يقرع الباب بقبضة يده ليلفت انتباه البولنديين.

- هيه! أنتما... اخرجا... إنها سترقص وهي تناديكما.

فصاح أحد البولنديين يجيبه بالبولندية:

- ما جداك (شقي)!

فأجابه ميتيا:

- أنت الشقي ما أنت إلا شقي حقير صغير... ذلك أنت!

قال كالجانوف وقد ثمل هو أيضاً، قال بلهجة تتكلف الحكمة:

- هلا كففتم عن إهانة بولندا؟

- اسكت أيها الفتى الصغير! إنني إذ وصفته بأنه شقي، لم أهن بولندا كلها. ليس متعجرفٌ محتالٌ تافه كلَّ بولندي. صمتاً أيها الطفل اللطيف، عليك أن تأكل ملبسة.

قالت جروشنكا وهي تتقدم إلى أمام لترقص:

- يا للأشرار! أليس فيهم شيء من إنسانية؟ لماذا يرفضون أن يتصالحوا؟

غنت الجوقة لحناً شعبياً راقصاً. رفعت جروشنكا رأسها، وفتحت شفتيها، وابتسمت، ولوَّحت بمنديلها، ثم توقفت فجأة وهي تتمايل تمايلاً قوياً في وسط الغرفة، وتشعر بارتباك شديد. وأنَّت تقول بصوت أليم:

- أحس بوهن.. معذرة. إنني ضعيفة جد اً... لا أستطيع... لا تؤاخذوني...

وحيَّت الجوقة بانحناء، ثم حيَّت جميع الحضور وهي تنحني إلى جهات الغرفة الأربع جهة بعد جهة، وتردد قولها:

- لا تؤاخذوني.. لا تؤاخذوني!

قالت بعض الأصوات في الجمهور:

- أسرفت في الشراب، السيدة الشابة!... هي سكرى، السيدة اللطيفة...

وقال ماكسيموف يشرح للبنات ضاحكاً:

- السيدة ثملة قليلاً.

ودمدمت جروشنكا تقول بصوت منطفئ:

- ميتيا... خذني من هنا... انقلني من هنا.

فهرع ميتيا إليها، فتناولها بذراعيه، وأسرع يركض بحمله الثمين إلى ما وراء الستائر. قال كالجانوف لنفسه: «في هذه المرة، آن أوان الانصراف»، وغادر الغرفة الزرقاء مغلقاً الباب وراءه. وتتابع الاحتفال بصخب ما ينفك يشتد. وضع ميتيا صاحبته جروشنكا على السرير، وقبّلها قبلة محمومة على الفم. دمدمت تقول بصوت ضارع:

- لا تلمسني، لا تلمسني، أنا لست لك بعد... قلتُ إنني سأكون لك، ولكن لا تلمسني... ارحمني، اشفق عليَّ... لا تفعل شيئاً الآن، بينما هم لا يزالون هنا. ما ينبغي هذا.. إنه هناك... على بعد خطوتين هذا فظيع...

قال ميتيا متعثر اً في كلامه:

- إنني أطيعك... لم يخطر ببالي هذا... أنا أمامك في نشوة ووجد. نعم، هذا فظيع هنا. يا للمكان الموبوء!

ودون أن يدع عناقها، تهالك على قدميه، قرب السرير.

قالت جروشنكا بصوت رخو:

- أنا واثقة منك، أعرف أنك متوحش، ولكن نفسك نبيلة. يجب أن يجري كل شيء بشرف بعد الآن... أريد أن يكون كل شيء طاهر اً... وأن نكون شرفاء أيضاً... لا بهائم، بل بشر اً طيبين أنقياء طاهرين... خذني إلى مكان بعيد، بعيد جداً عن هنا، هل تسمع؟ لا أريد بعد الآن أن أعيش هنا... أريد أن أسافر إلى مكان بعيد... بعيد جداً.

قال ميتيا مؤيداً وهو يشدها إلى قلبه:

- بالطبع، سنسافر... سآخذك... سأطير بك!... إنني مستعد لأن أهب حياتي كلها في سبيل سنة واحدة من السعادة معك شريطة أن أعلم ماذا جرى لذلك الدم...

سألته جروشنكا مندهشة:

- أي دم؟

فأجابها ميتيا وهو يصرف بأسنانه:

- لا شيء... إنك تريدين يا جروشنكا أن نكون شرفاء، ولكنني أنا لص. لقد سرقت مال كاتنكا!... يا للعار!... يا للعار!

- كاتنكا؟ الآنسة؟ لا... لم تسرق شيئاً! ردَّ إليها مالها. خذ مالي أنا... ما بك؟ إن كل ما أملكه أنا هو الآن لك. ما حاجتنا إلى المال؟ سوف نبدده على كل حال في القصف واللّهو. إن أمثالنا لا يحسنون الاحتفاظ بالمال. إنني لأؤثر أن نحرث الأرض معاً. أريد أنا أن أعمل في الأرض بهاتين اليدين اللتين تراهما. إن من واجبنا أن نعمل، هل تسمع؟ أليوشا هو الذي شرح لي ذلك. لن أكون خليلتك، بل حليلتك، زوجتك الوفية، عبدتك المخلصة... سأتعب وأجهد في سبيلك... سوف نذهب إلى الآنسة، فننحني لها بتحية عظيمة حتى تغفر لنا قبل رحيلنا. وإذا لم تغفر، فسنرحل مع ذلك. أما المال فسترده إليها. إن عليك أن تحبني أنا... لا أريد أن تحبها هي!... إنني أمنعك من أن تحبها... وإلا فلأخنقنّها... لأفقأنَّ عينيها بإبرة طويلة...

- أنت من أحب، أنت وحدك، وسأظل أحبك في سيبيريا أيضاً.

- لماذا تتكلم عن سيبيريا؟ لا بأس! سنسافر إلى سيبيريا إذا كنت ترغب في ذلك... يستوي الأمر عندي... إن في وسعنا أن نعمل هناك كما في أي مكان آخر... إن في تلك البلاد ثلجاً كثير اً .. وأنا أعشق أن أركب الزلاجات التي تنزلق على الثلج سريعة مجلجلةً أجراسُها. هل تسمع؟ لكأن جرساً يرن في مكان ما. من أين يأتي رنين هذا الجرس؟... لا شك أنهم مسافرون قد وصلوا إلى النزل... انقطع الصوت الآن.
وأغمضت جروشنكا عينيها، متعبة إلى أقصى حدود التعب، وغفت بضع لحظات. كان جرس قد رنَّ فعلاً في بعيد ثم صمت. مال ميتيا برأسه على صدر جروشنكا. لم يكن قد انتبه إلى صوت الجرس وإلى انقطاع رنينه فجأة؛ لا ولا لاحظ أن الأغاني قد توقفت وأن الصخب الذي كان يسيطر على النزل حتى ذلك الحين قد حلَّ محله فجأة صمت كصمت الموت. وفتحت جروشنكا عينيها بعد دقيقة. قالت:
- ماذا يجري؟ أأنا نمت؟ نعم... ذلك الجرس... لقد نمت وحلمت بأنني محمولة على زلاجة فوق الثلج... كان الجرس يرن، وكنت أنا نائمة. كنت مسافرة مع رجل عزيز على قلبي، معك أنت. وكنا ذاهبين إلى مكان بعيد، بعيد جداً... وكنت أقبلك وأشد جسمي إلى جسمك، لأنني كنت أحسّ ببرد فيما يبدو... وكان الثلج يسطع... ما كان أعجبه من إحساس... الثلج الباهر، وضياء القمر.... لكأن ذلك لم يكن على الأرض... واستيقظت، فإذا أنا أراك، يا حبيبي، قريباً مني... ما أحلى هذا!...
ردَّد ميتيا كلامها قائلاً وهو يلثم ثوبها وعنقها ويديها:
- نعم، قريباً منك كل القرب.
وأحس فجأة بإحساس غريب: خيّل إليه إنها تنظر إلى أمام، ولكن عينيها بدلاً من أن تستريحا على وجهه، تتطلعان إلى ما وراء رأسه، في جمود عجيب. عبَّرت قسمات جروشنكا عن الدهشة أولاً، ثم عن الخوف.
ودمدمت تقول:
- ميتيا! من ذا يرقبنا من وراء الستائر ؟
التفت ميتيا فإذا هو يلمح شخصاً يبدو أنه يرصدهما مبعداً الستائر ؛ حتى لقد أحسَّ أن هناك عدة أشخاص يقفون هناك. فنهض من مكانه بسرعة وقوة، واتجه نحو ذلك الشخص الفضولي. فإذا هو يسمع صوتاً يقول:
- هل تتفضّل معنا أيها السيد؟
كان المنادي المجهول يتكلم بصوت مخفوض ولكنه جازم قاطع.
خرج ميتيا من وراء الستائر، فإذا هو يتجمد في مكانه. كانت القاعة ملأى بالناس، ولكن هؤلاء الناس ليسوا أولئك الذين كانوا يلهون ويقصفون منذ قليل. لقد احتل الغرفة أشخاص جدد. شعر ميتيا برعدة تسري في ظهره كله فارتجف. إن ميتيا يعرف هؤلاء الأشخاص جميعاً، وها هو ذا يتعرفهم الآن دفعة واحدة. إن الرجل العجوز السمين الطويل الذي يرتدي معطفاً ويضع على رأسه قبعة ذات شارة، هو رئيس الشرطة ميخائيل ماكاروفتش. وهذا الشاب الذي يوحي مظهره بأنه مصدور والذي يتأنق في ملبسه تأنقاً عظيماً ويلتمع حذاؤه دائماً إنما هو وكيل النيابة. «إنه يملك ساعة من ذهب قيمتها أربعمائة روبل. لقد أرانيها في ذات يوم» لأعجب بها. أما ذلك الشاب الآخر القصير القامة الذي يضع على عينيه نظارتين... فلم يتذكر ميتيا اسمه، ولكنه يعرفه أيضاً وقد سبق أن رآه: إنه قاضي التحقيق الذي تخرج من «مدرسة الحقوق» ووصل إلى المدينة منذ مدة غير طويلة، وهذا موظف الشرطة مافريكي مافريكفتش الذي يعرفه ميتيا منذ زمن بعيد. ولكن ماذا جاء يفعل هنا هؤلاء الرجال الآخرون الذين يحملون على صدورهم صفائح معدنية؟[194] وهذان الفلاحان؟... وبعد هؤلاء جميعاً، لمح ميتيا، عند فرجة باب المدخل، كالجانوف وتريفون بوريستش.
قال ميتيا:
- ماذا أيها السادة؟ ماذا جرى؟
ولكنه لم يلبث أن هتف يقول فجأة بملء صوته، كأنما تدفعه إلى ذلك قوة لا سبيل إلى مقاومتها:
- ف... همت!
تقدم الشاب ذو النظارتين من ميتيا وقال له بصوت وقور وبشيء من السرعة:
- كنا نريد... الخلاصة... أرجوك أن تجلس هنا، على الكنبة... ثمة حاجة ملحة إلى أن توضح لنا الأمر.
صرخ ميتيا خارجاً عن طوره:
- العجوز... والدم المسفوح... ف.... همت!
وكأنما انهارت قواه على حين فجأة، فتهالك على كرسيّ كان هناك.
فإذا برئيس الشرطة العجوز يزأر فجأة وهو يقترب من ميتيا:
- آ... فهمت؟ فهمت؟ يا قاتل أبيه! أيها الشيطان! إن دم أبيك يتهمك!
كان رئيس الشرطة أحمر الوجه من شدة الغضب، وكان جسمه كله يرتجف.
فصاح الشاب القصير القامة:
- ولكن ليس بهذه الطريقة يا ميخائيل ماكاروفتش. يجب أن أكون أنا وحدي أول المتكلمين... ما كنت أتوقع منك سلوكاً كهذا السلوك.
فاستأنف رئيس الشرطة كلامه قائلاً:
- هذا هذيان.... هذا مشهد هذيان أيها السادة. انظروا إليه...
تضرج بدم أبيه ثم هو يقضي السهرة لاهياً عابثاً ماجناً في صحبة بنت من بنات الهوى... هذا هذيان، هذا هذيان...
أسرع وكيل النيابة يهمس في أذن رجل الشرطة العجوز قائلاً:
- أرجوك وألحّ في الرجاء أن تسيطر على انفعالاتك يا عزيزي ميخائيل ماكاروفتش، وإلا اضطررت أن أتخذ إجراءات من أجل أن...
ولكن قاضي التحقيق الصغير لم يدع له أن يتم جملته، فها هو ذا يتجه إلى ميتيا، ويعلن له بوقار، وبصوت عالٍ صارم:
- أيها السيد الملازم المتقاعد كارامازوف، إن من واجبي أن أبلغك أنك متهم بمقتل أبيك فيدور بافلوفتش كارامازوف، الذي قُتل في هذه الليلة...
وأضاف قاضي التحقيق بضع كلمات أيضاً. وتدخل وكيل النيابة قائلاً شيئاً بعد ذلك، فيما تراءى لميتيا.... ذلك أن ميتيا، رغم أنه قد جهد أن يصغي، أصبح لا يفهم شيئاً، وإنما هو يتفرس وجوههم مجنون العينين....

الباب التاسع: التحقيق التمهيدي

- 1 -البدايات الموفّقة للموظف برخوتين

إن بيتر ايلتش برخوتين الذي تركناه يطرق طرقات ما تنفكّ تزداد وتقوى، على الباب السميك لمنزل الأرملة موروزوفا، قد توصل طبعاً إلى أن يحملهم على أن يفتحوا له. وحين سمعت فينيا هذا الصخب أمام باب الدخول، وكانت لم تفق بعد من الذعر الذي أصابها قبل ساعتين، ولا عزمت أمرها على أن تنام، من شدة اضطرابها و«كثرة أفكارها»، حين سمعت فينيا هذا الصخب استبد بها هلع قاتل مرة أخرى: ذلك أنها ظنت أن دمتري فيدوروفتش قد عاد (رغم أنها رأته يسافر على عربة ترويكا). فمَنْ غيره يمكن أن يطرق الباب «بمثل هذا العنف»؟. وهرعت إلى البواب الذي أيقظته الضجة وهمَّ أن يفتح الباب، فتوسلت إليه أن لا يسمح لأحد بالدخول. ومع ذلك سأل البوابُ الطارقَ عن اسمه من خلال الباب، فلما عرف صفته، وعرف أنه يريد أن يكلّم فيدوسيا ماركوفنا في أمر هام جد اً ، قرر أن يفتح له. مضى بيتر ايلتش رأساً إلى المطبخ ليرى فينيا التي أصرَّت، من باب «تجنب الشك»، أن يحضر البواب المقابلة. أخذ الموظف يلقي الأسئلة على المرأة، فسرعان ما وقع على أمرٍ أساسي: هو أن دمتري فيدوروفتش حين مضى يبحث عن جروشنكا قد أخذ مدقَّ الهاون، وأنه رجع بعد ذلك دامي اليدين ولم يكن المدقّ معه. «كان الدم يسيل ويتساقط قطرات كبيرة على الأرض». كذلك هتفت تقول فينيا التي اخترع خيالها المضطرب هذا الوصف التفصيلي الرهيب اختراعاً على غير شعور منها. وكان بيتر ايلتش قد رأى الدم في يدي ميتيا بنفسه على كل حال، وإن لم يكن يسيل، وقد ساعده على غسل يديه. ولم يكن يهمُّ بيتر ايلتش أن يتساءل على كل حال: أجفَّ الدم بسرعة أم لا، وإنما كان يهمه أن يعرف: ماذا فعل دمتري فيدوروفتش بمدق الهاون هذا، وإلى عند من ذهب؟ هل يمكن أن يُستدل من ذلك على وجه اليقين أنه ذهب إلى منزل أبيه، وعلى أي شيء يستند هذا الاستدلال؟ لذلك ألحَّ بيتر ايلتش على هذه النقطة إلحاحاً خاصاً ؛ ثم انتهى إلى الاقتناع التام تقريباً، رغم أن فينيا لم تقدم إليه أية قرينة واضحة دقيقة، بأن دمتري فيدوروفتش لا يمكن أن يكون قد ذهب إلا إلى منزل أبيه وأن شيئاً ما لا بد أن يكون قد حدث هنالك حتماً. أضافت فينيا تقول متأثرةً أشد التأثر: «حين رجع، قصصت عليه كل شيء، ثم سألته بعد ذلك لماذا أرى يديه داميتين»، فأجاب بأن هذا دم إنسان، وبأنه قد قتل إنساناً منذ برهة. «اعترف لي بذلك في هذا المكان نفسه في هذا المطبخ، ثم ولَّى هارباً كمجنون. أخذت أفكر بعد انصرافه: إلى أين يركض هذا الركض؟ لا شك أنه ينوي أن يسافر إلى موكرويه ليقتل الآنسة المسكينة، فاندفعت ألاحقه، لأتوسل إليه أن لا يسيء إلى مولاتي؛ وكنت آمل أن أجده في مسكنه، ولكنني لمحته أمام متجر آل بلوتنيكوف وهو يهم أن يسافر، وكانت يداه عندئذٍ نظيفتين» (لقد لاحظت فينيا هذا الأمر التفصيلي وحفظته). وقد أكدت جدة فينيا العجوز أقوال حفيدتها على نحو ما استطاعت أن تفعل. وبعد أن ألقى بيتر ايلتش بضعة أسئلة أخرى خرج من المنزل وهو أشد اضطراباً وقلقاً مما كان عند وصوله إليه.

ربما بدا أن أبسط شيء الآن هو أن يذهب بيتر ايلتش إلى منزل فيدور بافلوفتش مستطلعاً هل حدث له شيء، وأن لا يبلغ رئيس الشرطة إلا بعد ذلك، مستند اً إلى معلومات ثابتة. وهذا ما خطر ببال بيتر ايليتش في أول الأمر فعلاً. ولكن الليل حالك الظلام، وأبواب منزل كارامازوف لا بد أن تكون سميكة، فسيكون عليه إذاً أن يطرق من جديد، وأن يُحدِثَ ضجّةً وصَخَباً وهو لا يعرف فيدور بافلوفتش إلا معرفة سطحية. فما عسى يحدث إذا قيل له، بعد أن يفتح له الباب، إن شيئاً لم يقع؟ إن فيدور بافلوفتش الساخر لن يفوته أن يروي للمدينة كلها في الغد، من باب التندر، أن الموظف برخوتين، الذي ليس بينه وبينه صلة ولا معرفة، قد اقتحم منزله عند منتصف الليل ليسأله هل قتله أحد. ليكونن هذا فضيحة! وبيتر ايلتش لا يرهب شيئاً في هذا العالم كما يرهب الفضيحة ! غير أن العاطفة التي كانت تدفعه إلى العمل والحركة قد بلغت من القوة أنه بعد أن قرع الأرض بقدمه غاضباً وشتم نفسه، أسرع يتخذ قراراً جديد اً : هو أن يذهب لا إلى دار فيدور بافلوفتش بل إلى السيدة خوخلاكوفا. سوف يسألها هل صحيح أنها أعطت دمتري فيدوروفتش ثلاثة آلاف روبل منذ بضع ساعات، فإذا أجابته بالنفي ذهب إلى رئيس الشرطة لا يلوي على شي ولا يمر بمنزل فيدور بافلوفتش؛ وإلا أرجأ مساعيه إلى الغد ورجع إلى بيته. واضح أن بيتر ايليتش حين يذهب في الساعة الحادية عشرة من الليل إلى سيدة من سيدات المجتمع لا يعرفها، وقد يحملها على النهوض من سريرها ليلقي عليها سؤالاً قد يبدو في مثل هذه الظروف غريباً سخيفاً يعرضه لإحداث فضيحة أكبر من فضيحة ذهابه إلى فيدور بافلوفتش. غير أن تناقضات من هذا النوع قد يرتكبها، في ظروف كهذا الظرف، أشخاص هم أكثر الناس برودة نفس ورويّة تفكير. فما بالك وقد فقد بيتر ايلتش في تلك اللحظة كل برودته وكل رويته! لسوف يظل يتذكر طوال حياته كيف أن قلقاً لا سبيل إلى التغلب عليه قد اجتاح نفسه شيئاً بعد شيء، ثم استحال أخير اً إلى عذاب حاد دفعه في تلك الليلة إلى أن يتحرك ويتدخل، على غير إرادة منه تقريباً. والحق أنه قد استاء وغضب أثناء الطريق، وقرَّع نفسه على أنه سيزعج هذه السيدة، ولكنه حلف «ليسيرنَّ إلى آخر الشوط، مهما كلّف الأمر»، وردد ذلك عشر مرات وهو يصرف بأسنانه. وقد برَّ بيمينه، فمضى إلى آخر الشوط فعلاً.

كانت الساعة هي الحادية عشرة تماماً حين دخل منزل السيدة خوخلاكوفا. لقد فُتح له الباب بغير مشقة، ولكن البواب لم يستطع أن يقول له على وجه اليقين أَرَقدت السيدة أم لا، واكتفى بأن ذكر له أنها تتهيأ للنوم عادةً في مثل هذه الساعة. وأضاف يقول: «اصعد إلى فوق، واعلن عن نفسك، فإذا شاءت استقبلتك، فكل شيء رهن بإرادتها». صعد بيتر ايلتش إلى الطابق الأول. وهنالك أخذت تتعقد الأمور. رفض الخادم أن يبلغ السيدة خوخلاكوفا وصوله، ونادى الخادمة. فرجاها بيتر ايلتش، بأدب ولكن بإلحاح، أن تبلغ السيدة خوخلاكوفا أن الموظف برخوتين يريد أن يكلمها حالاً، وأنه ما كان له أن يزعجها لولا أن الأمر الذي يريد أن يكلمها فيه هو على جانب عظيم من الخطورة حقاً ! «انقلي إليها هذه الكلمات نقلاً دقيقاً». بذلك أوصى برخوتين الخادمة حين مضت تبلغ مولاتها. انتظر بيتر ايلتش في الدهليز. وكانت السيدة خوخلاكوفا في غرفة نومها، ولكنها لم تكن قد نامت بعد. لقد هزتها زيارة ميتيا، وهي تتنبأ بأنها لن تنجو في هذه الليلة من الصداع الشديد الذي يلم بها عادة في أعقاب انفعالات من هذا النوع. فلما سمعت ما قالته لها خادمتها دُهشت، ومع ذلك أمرت خادمتها، بلهجة حانقة، أن تصرف هذا الزائر رغم أن مجيء «الموظف برخوتين» إليها في مثل هذه الساعة، على غير توقع، قد أثار فيها فضولاً قوياً. ولكن بيتر اليتش عَنَدَ في هذه المرة عناد بغل. فلما علم أن السيدة خوخلاكوفا ترفض استقباله، طفق يلحُّ من جديد إلحاحاً شديد اً على أن تنقل الخادمة إلى مولاتها أقواله حرفاً حرفاً: وهي أنه جاء «لأمر يبلغ من خطورة الشأن أن السيدة قد تندم إذا هي لم تستقبله». وقد روى فيما بعد أنه أحسّ في تلك الدقيقة أنه «يسقط في هاوية». تفرَّست فيه الخادمة مندهشة، وأسرعت تقوم بالواجب الذي عهد إليها أن تقوم به.

ذُهلت السيدة خوخلاكوفا، وفكرت بضع لحظات، وسألت عن مظهر الزائر، فقيل لها أنه «حسن الهندام، شاب، مهذب جد اً ». يجب أن نذكر هنا عابرين أن بيتر ايلتش فتي جميل جداً، وإنه كان شاعر اً بذلك. عندئذٍ قررت السيدة خوخلاكوفا أن تسمع له. وإذ كانت بثوب المنزل، والخفين، فقد ألقت على كتفيها شالاً أسود. وأُدخل الموظف إلى الصالون، حيث استُقبل ميتيا قبل بضع ساعات. تقدّمت ربة المنزل بوجه متجهم مستجوب، وسألته دون أن تدعوه إلى الجلوس: «ماذا تريد مني أيها السيد؟».

فبدأ برخوتين كلامه قائلاً:

- لقد جازفت فجئت أزعجك في أمر يتعلق بصديقنا المشترك دمتري فيدوروفتش كارامازوف...

ولكن ما إن نطق بهذا الاسم حتى ارتسم على وجه السيدة خوخلاكوفا حنق شديد، فهمَّت أن تصرخ، ولكنها أمسكت، وقاطعت محدثها قائلة له بلهجة عنيفة هائجة:

- إلى متى، إلى متى أظل أُعذَّب بسبب هذا الإنسان الفظيع؟ كيف تجرأت أيها السيد، كيف سمحت لنفسك أن تزعج سيدة لا تعرفها، أن تجيء تضايقها في منزلها، في مثل هذه الساعة... متحدثاً إليها عن شخص أراد منذ ثلاثة ساعات، في هذا الصالون نفسه، في هذا المكان نفسه، أن يقتلها... وقرع الأرض بقدمه، ثم خرج بطريقة ما كان لأحد يسمح لنفسه بمثلها في منزل محترم! اعلم أيها السيد أنني سأقدم شكوى ضدك... أنني لن أسكت لك عن هذه الوقاحة... وأرجوك أن تخرج من مسكني فور اً ... أنا أم... وأنا... أنا...حالاً...

- أراد أن يقتلك؟ أأراد أن يقتلك أنت أيضا؟

- هل قتل إذا أحد اً ؟

كذلك سألت السيدة خوخلاكوفا بحرارة. فأجابها برخوتين بصلابة:

- إذا وافقت على أن تسمعي لي، ولو نصف دقيقة، يا سيدتي، شرحت لك كل شيء في بعض كلمات. في هذا اليوم، في الساعة الخامسة بعد ظهر هذا اليوم، جاء

إليّ السيد كارامازوف رجاني رجاء الصديق أن أقرضه عشر روبلات. وأنا أعلم علم اليقين أنه كان في تلك اللحظة خالي الوفاض؛ وفي هذا اليوم نفسه، في الساعة التاسعة، رجع إليّ ممسكاً بيديه حزمةً من أوراق مالية تقدر بألفي روبل أو بثلاثة آلاف روبل. وكانت يداه ووجهه ملطخة بالدماء، وكان يتصرف تصرف مجنون. فلما سألته من أين أتى بهذا المال كله، أجابني إجابةً واضحة دقيقة بأنه قد استلمه منك قبل لحظات، وبأنك قد أعطيتِهِ ثلاثة آلاف روبل من أجل أن يسافر باحثاً عن مناجم الذهب فيما زعم...
ظهرت على وجه السيدة خوخلاكوفا علائم انفعال شديد عنيف أليم. وصاحت تقول وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى:
- يا رب السماء! لقد قتل أباه العجوز... أنا لم أعطه مالاً قط، لم أعطه مالاً قط... آه... اركض، اركض بسرعة، لا تقل كلمة واحدة أخرى، لا تضيع الوقت! أنقذ أباه، أسرع إلى نجدته، أنقذه!
- اغفري لي إلحاحي يا سيدتي. أنت تؤكدين أنك لم تعطه مالاً، فهل ذكرياتك واضحة في هذه النقطة؟
- لم أعطه شيئاً، لم أعطه كوبكاً واحد اً . رفضت أن أقرضه، لأنه لم يقدر نواياي حق قدرها. وانصرف كمجنون مسعور قارعاً الأرض بقدمه. وقد هجم عليّ، ولكنني استطعت أن أقفز جانباً... وإني لأسر إليك أيضاً، لأنني قررت أن لا أكتمك شيئاً بعد الآن، أنه قد بصق عليّ، هل تستطيع أن تتخيل هذا؟ ولكن لماذا نحن واقفان؟ اجلس... أرجوك... معذرة... أنا.... لا بل اركض، اركض بسرعة. واجبك أن تنقذ العجوز المسكين من ميتة فظيعة.
- ولكن ما دام قد قتله...
- آ... نعم... رباه هذا صحيح! فماذا نفعل الآن؟ هل في ذهنك فكرة عما يجب أن نفعله؟
ومع ذلك أجلست بيتر ايلتش وجلست أمامه. بسّط لها بيتر ايلتش، بإيجاز ولكن بوضوح، لبَّ القضية، في حدود ما شهده بنفسه في ذلك اليوم على الأقل. وروى لها أيضاً أنه زار فينيا، وما ذكرته له عن مدق الهاون. فكان من شأن هذه التفاصيل أن هزَّت السيدة المضطربة هز اً عنيفاً فلم تستطع أن تحبس، أثناء هذه القصة، صرخات الارتياع والهول حتى إنها وضعت يديها أمام عينيها عدة مرات...
- فظيع... رهيب... تصوّر مع ذلك أنني أوجست بالنبوءة كلَّ شيء. لقد أوتيت موهبة عجيبة في التنبؤ. وما أتنبأ به يتحقق لا محالة. كم من مرة قلت لنفسي وأنا أنظر إلى هذا الرجل الكريه: «سيقتلني هذا الرجل أخير اً في ذات يوم». وذلك ما وقع.. أقصد أنه إذا كان لم يقتلني بل قتل أباه، فإنما يرجع الفضل في ذلك إلى تدخل العناية الإلهية. لا شك أن الله قد حماني ونجّاني في ذلك الحين. أضف إلى ذلك أنه لم يجرؤ أن يقتلني لأنني كنت قد علّقت في عنقه، هنا في هذا المكان نفسه، الأيقونة المقدسة لشهيدة عظيمة... ولم يكن يخطر ببالي عندئذٍ أنني ألامس الموت ملامسة قريبة في تلك اللحظة. اقتربت منه، ومسسته تقريباً، فمدَّ لي عنقه... يجب أن أقول لك يا بيتر ايليتش (معذرة، أليس اسمك بيتر ايليتش؟)، يجب أن أقول لك آه... رباه! إنني كنت لا أؤمن بالمعجزات حتى الآن، ولكنني أشعر باضطراب شديد حين أتذكر أن تلك الأيقونة التي علقتها في عنقه قد أنقذتني بمعجزة من ميتة فظيعة! إنني أحسّ بأنني متأهبة للإيمان من جديد بكل شيء.... لا شك أنك تعرف قصة الأب زوسيما تلك، أليس كذلك؟ أراني أتيه، فلا أعرف ماذا أقول.. تصوّر أنه، رغم تلك الأيقونة، قد بصق عليّ... بصق فحسب، صحيح هذا، ولم يقتلني... واضح الآن إلى أين مضى مسرعاً! ماذا يجب أن نقرر الآن، ما الذي يجب أن نعمله، قل لي؟
نهض بيتر ايليتش معلناً أنه سيذهب حالاً إلى رئيس الشرطة ليطلعه على الأمر، فيتولى رئيس الشرطة عمل ما يجب عمله.
- إنه رجل ممتاز، ممتاز، أنا أعرفه. ميخائيل ماكاروفتش: ذلك هو بعينه الرجل الذي يجب إبلاغه الأمر. ما أفطنك يا بيتر ايلتش. فكرتك رائعة، وما كان لها أن تخطر ببالي أنا، لو كنت في مكانك.
قال بيتر ايليتش، وهو ما يزال واقفاً، محاولاً أن يتخلص بأسرع وقت من هذه المرأة المهذار التي لا تدع له فرصة التفوه بكلمة واحدة ليستأذن بالانصراف، قال:
- لا سيما وأنني أعرفه أنا أيضاً معرفة شخصية.
تابعت السيدة خوخلاكوفا تقول من دون أن تيأس:
- اسمع اسمع، يجب أن تجيء إليِ حتماً لتطلعني على ما تكون قد علمته... على الوقائع التي أمكن أن تعرف... وكذلك على العقوبة التي سيُحكم بها. أظن أن الحكم بالإعدام لا وجود له عندنا، أليس كذلك؟ تعال إليّ حتماً، ولو في الساعة الثالثة من الصباح، أو في الساعة الرابعة، أو حتى في الساعة الرابعة والنصف. اطلب إيقاظي، وليجرّوني من السرير جرَّ اً إذا تطلّب الأمر، أو إذا أنا أصررت على النوم... رباه! أنَّى لي أن أرقد بعد كل هذا؟ تراودني فكرة: ما رأيك في أن أرافقك إلى عند رئيس الشرطة؟
- لا... لا داعي إلى هذا. ولكن إذا وافقت، في مقابل ذلك، أن تكتبي لي، بخط يدك، تصريحاً في ثلاثة أسطر تشهدين فيه بأنك لم تعطِ دمتري فيدوروفتش مالاً قط، فأعتقد أن هذا يمكن أن يفيدنا... عند الاقتضاء.
صاحت السيدة خوخلاكوفا تقول واثبةً عن مكانها بحماسة، متجهة إلى مكتبها الصغير:
- طبعاً! طبعاً! هل تعلم أنك تدهشني بسداد رأيك، ونفاذ بصيرتك وبما تبرهن عليه في هذا المجال من حذق ومهارة! أأنت تعمل موظفاً في مدينتنا؟ ما أسعدني إذ أعرف أن موظفين أفذاذ مثلك يعملون في مدينتنا أنا معجبة بك أشدّ الإعجاب...
وفيما كانت السيدة خوخلاكوفا تتكلم، خطَّت بسرعة، على ورقة رسائل، الأسطر التالية، بأحرف كبيرة:
«لم أقرض دمتري فيدوروفتش كارامازوف، العاثر الحظ، ثلاثة آلاف روبل أبداً (ذلك أنه الآن شقي عاثر الحظ). لم أقرضه كوبيكاً واحد اً ، لا اليوم، ولا في أية لحظة أخرى، أبداً أبداً. أحلف على هذا بكل ما هو عندي مقدس في هذا العالم. خوخلاكوفا»
ثم التفتت بقوة نحو بيتر ايليتش فقالت له:
- إليك تصريحي. فأسرع الآن. يجب إنقاذ هذا الرجل. هذا عمل نبيل تقوم به.
ورسمت عليه إشارة الصليب ثلاث مرات، ثم شيعته إلى الدهليز.
- ما أعظم شكري لك! لا تستطيع أن تتصور مدى امتناني لأنك جئت إليّ أولاً! خسارة أنني لم أعرفك قبل الآن! لسوف يسعدني في المستقبل أن أستقبلك في منزلي. إنه ليسرني أنك تعمل هنا موظفاً دقيقاً هذه الدقة، حصيفاً هذه الحصافة خاصةً... عليهم أن يقدروك حق قدرك. ويفهموك آخر الأمر... واعلم على كل حال أنني مستعدة من جهتي لأن أبذل كل ما في وسعي من أجلك... أوه ! إنني أحبّ الشباب، إنني مغرمة بالشباب حقاً! الشبيبة في أيامنا هذه هم قوة بلدنا الشقية روسيا! أنتم أملها... أنتم مَعْقِد رجائنا هيَّا، هيَّا، أسرع...
ولكن بيتر ايليتش كان قد نزل إلى الشارع، وإلا لحبسته زمناً آخر. يجب أن نقول من جهة أخرى إن السيدة خوخلاكوفا قد أحدثت في نفسه أثراً طيباً خفَّف عنه ما كان يشعر به من قلق لتدخله في قضية مزعجة. إنكم تعلمون أن الأذواق في هذا العالم مختلفة متنوعة. قال بيتر ايلتش لنفسه راضياً مسرور اً : «ليست متقدمة في
السن كثير اً . كان يمكن بسهولة أن أحسبها ابنتها».
أما السيدة خوخلاكوفا فقد افتتنت به افتتاناً. «ما أروع هذا الحذق وهذه الدقة في شاب، ذلك عدا آدابه الكيّسة ومظهره اللطيف الجذاب! تلك مزايا نادرة في هذه الأيام! يدعون أن شبابنا اليوم لا قيمة له. فهذا مثال يبرهن على نقيض ما يدعون»، إلخ، إلخ. وقد انتهت السيدة خوخلاكوفا من ذلك إلى نسيان «الحادث الفظيع»، ولم تتذكر إلا على سريرها أنها «لامست الموت ملامسة قريبة». فدمدمت تقول: «شيء رهيب، شيء رهيب»، ثم لم تلبث أن نامت نوماً عميقاً هادئاً. على أنني ما كان لي أن أسهب في ذكر هذه التفاصيل الثانوية، لولا أن هذا اللقاء العجيب الذي يتم بين رجل شاب وأرملة ما تزال نضرة، وهو اللقاء الذي وصفته الآن، إنما كان نقطة انطلاق في حياة هذا الموظف الدقيق المنظم. إن الناس في مدينتنا ما يزالون حتى يومنا هذا يتكلمون عن هذا مندهشين، وربما عرضت لنا فرصة أن نقول بضع كلمات عنه في نهاية هذه القصة الطويلة التي نكتبها عن الإخوة كارامازوف.

- 2 -التبليغ

إن رئيس شرطتنا ميخائيل ماكاروفتش ماكاروف، وهو مقدم محال على التقاعد ويحمل رتبة «مستشار القصر»، رجل أرمل يمتاز بأنه على جانب عظيم من الشهامة والطيبة. لقد جاء إلى مدينتنا منذ ثلاث سنين واستطاع أن يكسب مودة جميع الناس له، ولا سيما لِما أوتي من موهبة فذة في «جمع وجوه المدينة بمنزله». يظهر أنه ما كان ليستطيع أن يعيش يوماً واحد اً دون أن يستقبل في داره عدداً من الأصدقاء. كان لا يخلو بيته يوماً من ضيف على العشاء، ولو كان عدد الضيوف شخصاً أو شخصين؛ وما كان ليجلس إلى المائدة في منزله بغير مدعوين. وكان يتفق له في بعض الأحيان أن يولم ولائم كبيرة، متعللاً بحجج كثيرة متنوعة، حجج قد لا تخطر بالبال. ولئن لم تكن أصناف الطعام فاخرة فقد كانت دائماً وافرة. ومع ذلك كانت فطائر السمك التي تقدَّم في بيته شهيرة ورائعة. وقد لا تكون أنواع الخمور أجود الأنواع، ولكن كثرتها تنوب عن جودتها على كل حال. إن الغرفة الأولى من مسكنه قد هيئت قاعةً للعب البلياردو، وأُثّثت تأثيثاً أنيقاً، وازدانت جدرانها بصور مؤطرة بأطر سوداء لخيول سباق إنجليزية، وتلك هي كما تعلمون الزينة المألوفة التي تزيّن كلَّ قاعة بلياردو في منزل رجل عازب. وكان لعب الورق يدور كلَّ مساء في منزل ميخائيل ماكاروفتش، وإن يكن عدد اللاعبين يقتصر أحياناً على الأشخاص الجالسين على منضدة واحدة. على أن الاستقبالات التي تحضرها صفوة المجتمع من مدينتنا في منزله كانت كثيرة، وكانت الأمهات تصطحب إليها بناتها، لأنها كان يُرقص فيها. وكان ميخائيل ماكاروفتش يعيش حياة عائلية رغم أنه أرمل، في صحبة ابنته التي ترمّلت هي أيضاً منذ مدة طويلة، وفي صحبة حفيدتيه اللتين بلغتا مبلغ الرشد وأنهتا تحصيلهما. لم تكن الفتاتان دميمتين البتة، وكانتا بما تنعمان به من مرح الطبع وحسن المزاج تجتذبان شباب المجتمع في مدينتنا، رغم أنه كان معروفاً أنهما لا تملكان مهر اً . ولم يكن ميخائيل ماكاروفتش لامع الذكاء، ومع ذلك كان يقوم بمهام عمله كما يمكن أن يقوم بها رجل آخر. وإذا أردنا أن نقول الحقيقة وجب أن نذكر أنه كان ضئيل الحظ من الثقافة، وكان قليل الاهتمام بالحدود الدقيقة التي تقف عندها صلاحياته الإدارية. كان معنى بعض الإصلاحات [195] التي تحققت في النظام الجديد يغيب عنه، وكثيراً ما كان يفسر هذه الإصلاحات تفسير اً يشتمل على أخطاء فادحة مذهلة، لا لعجز منه بل لقلة اكتراث، فإنه لم يكن يجد في وقته متسعاً لدراستها دراسة عميقة. وكان يحب أن يقول عن نفسه: «إن لي أيها السادة روح رجل عسكري لا رجل مدني». ورغم أنه كان من ملاكي الأراضي، فإن ما علق بهذه من معلومات تتعلق بالإصلاح الزراعي قد ظلت غامضة مبهمة، وكانت هذه المعلومات تكتمل سنة بعد سنة، على غير إرادة منه إن صح التعبير، فإنما هي تكتمل بالتجربة الناشئة عن الممارسة العملية. كان بيتر ايليتش يعلم أنه سيلتقي عند رئيس الشرطة في ذلك المساء بضيوف، ولكن كان يجهل من عسى يكون عنده من هؤلاء الضيوف. ومن المصادفات أن ميخائيل ماكاروفتش كان في ذلك المساء يلعب بالورق مع النائب العام وطبيب المنطقة (الدكتور الشاب فارفنسكي الذي وصل من بطرسبرج مؤخر اً وكان من أوائل متخرجي أكاديمية الطب). فأما النائب العام ايبوليت كيريلوفتش - وكان يسمى نائباً من قبيل المجاملة، لأنه لم يكن في الواقع إلا وكيل نيابة – فهو رجل على حدّة، ما يزال شاباً، لم يكد يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره، فيه استعداد للإصابة بمرض السل، متزوج من امرأة سمينة كانت عاقر اً . إنه شديد الشعور بكرامته وكبريائه، سريع الغضب والحنق، ولكنه يملك مزايا واضحة من حُسن الذكاء ونُبل القلب. يبدو أن آفة طبعه الأساسية ناشئة عن أنه مبالغ في تقدير قيمته، فهذا التباين بين كفاءاته الواقعية وبين رأيه في نفسه كان يخلق له حالة قلق مستمر، وكانت له مطامح عليا، بل ومطامح فنية، وكان يعتز خاصة بمقدرته في علم النفس، فهو يعتقد أنه أوتي مواهب خاصةً في النفاذ إلى أسرار النفس الإنسانية، وفي اكتشاف البواعث العميقة لدى المجرمين. وكان لهذا السبب يعتقد أنه مجهول القيمة، وكان يعيش على قناعة تامة بأنه لم يقدّر حق قدره، إن هناك أعداء يكيدون له ويعرقلون تقدمه في وظيفته. وكان في ساعات حزنه ويأسه يمضي إلى حد التهديد بالانتقال إلى صف المعارضة، فيعمل محامياً أمام المحاكم الجنائية. وقد استثارته قضية مقتل الأب كارامازوف واستنهضت همته، فحدَّث نفسه قائلاً: «هذه قضية قد تشتهر في روسيا كلها». ولكن أراني أستبق تتمة القصة.

وفي الغرفة المجاورة كان قاضي التحقيق الشاب نيقولاي بارفينوفتش نيلودوف، الذي وصل إلى مدينتنا منذ شهرين من بطرسبرج، يثرثر مع الفتاتين. لقد دُهش الناس بمدينتنا، فيما بعد، من وجود هؤلاء الأشخاص بأعينهم مجتمعين في مساء وقوع «الجريمة» نفسه، في منزل أحد ممثلي السلطة التنفيذية، كأنما هم اتفقوا على ذلك. والحق أن تعليل هذه المصادفة طبيعي جداً: إن زوجة ايبوليت كيريلوفتش تشكو منذ يومين من آلام شديدة في الأسنان ؛ فكان وكيل النيابة المسكين لا يفكر إلا في الهروب من المنزل حتى لا يسمع أنينها. وإلى أين يمكن أن يذهب إذا هو لم يذهب إلى ميخائيل ماكاروفتش أما الطبيب فإنه، بحكم مهنته، كان لا يستطيع أن يقضي سهرته إلا لاعباً بالورق ولذلك كان وجوده في منزل رئيس الشرطة أمر لا بدّ منه. أما نيقولاي بارفينوفتش نيلودوف، فلقد كان ينوي منذ ثلاثة أيام أن يزور ميخائيل ماكاروفتش في ذلك المساء، وأن يجيء إليه «بما يشبه المصادفة»، بغية أن يفاجئ بعد ذلك كبرى الفتاتين، أولغا ميخائيلوفنا، بأنه عالم بسرّها: وهو أن ذلك اليوم هو يوم عيد ميلادها، وأنها أرادت أن تخفي الأمر عن المجتمع حتى لا تقيم حفلة رقص في منزلها. وكان نيقولاي بارفينوفتش يتصور أمازيح كثيرة سيقوم بها في تلك المناسبة، وكان يتلذّذ سلفاً بهذه الأمازيح كالإشارة إلى أنها تخشى أن تعلن عن سنها، وكالتهديد بإذاعة الأمر في المدينة كلها غد اً ، إلخ. إن هذا الشاب الفتان «عفريت» كبير، حتى إن سيداتنا قد لقبنه بهذا اللقب، وكان هذا يملؤه رضى وارتياحاً فيما يبدو. كان ينتمي من جهة أخرى إلى أسرة ممتازة، وكان جمَّ الكياسة رفيع المشاعر. ورغم أنه كان بطبيعته محباً للمباهج مقبلاً على الملذات، فقد كان كذلك على براءة وكان لا يخلّ بالمواضعات المقررة ولا يسيء إلى الآداب الاجتماعية. وهو قصير القامة، ضعيف البنية، رقيق مرهف، تزين أصابعه النحيلة الشاحبة خواتم كبيرة كثيرة. وكان في قيامه بأعمال وظيفته رصيناً رصانة عظيمة، قوي الشعور بخطورة الواجبات الملقاة على عاتقه. وكان يمتاز خاصةً بمهارته في أن يحيّر القتلة وغيرهم من المجرمين من أبناء الشعب البسيط أثناء استجواباته، وكثيراً ما كان يثير فيهم الدهشة إن لم يثر فيهم الاحترام.

حين وصل بيتر ايليتش إلى منزل رئيس الشرطة صعقه فعلاً أن يعرف أن جميع الحضور كانوا على علم بالأمر. كان اللاعبون بالورق قد كفوا عن اللعب، وأخذوا يتناقشون في الحادث بحرارة، وقوفاً. لقد هرع نيقولاي بارفينوفتش من الغرفة المجاورة عابس الوجه وهو يوشك أن يكون مستعد اً للهجوم. وما كان أشدَّ ذهول بيتر ايلتش حين علم بالنبأ الرهيب: وهو أن العجوز فيدور بافلوفتش قد قُتِلَ في منزله فعلاً هذا المساء.... قُتل وسُرق. وقد عرفت الجريمة في الظروف التالية:

لا شك في أن مارفا اجناتيفنا، زوجة جريجوري، كانت نائمة نوماً عميقاً في اللحظة التي ضُرب فيها زوجها بمدق الهاون قرب السور. وكان يمكن أن تستمر في نومها وقتاً طويلاً أيضاً. ولكن شاءت المصادفة أن تستيقظ فجأة، وأغلب الظن أنها استيقظت بسبب الصرخة الرهيبة التي أطلقها سمردياكوف الذي يرقد في الغرفة الصغيرة المجاورة مغشياً عليه غائباً عن وعيه. إنها تعرف هذه الصرخة حق المعرفة، فبهذه الصرخة إنما تبدأ نوبات الصرع لدى سمردياكوف. وقد أرعبتها هذه الصرخة طوال حياتها، وخلَّفت في نفسها أثر اً مَرَضياً، ولم تستطع أن تعتادها في يوم من الأيام. نهضت مارفا اجناتيفنا منتفضة وهي ما تزال نصف نائمة وأسرعت إلى الغرفة التي يرقد فيها سمردياكوف، على غير شعور منها تقريباً. كان الظلام حالكاً، فلا يُرى شيء، وإنما يُسمع الشخير الرهيب يخرج من صدر المريض الذي يتخبط. أخذت مارفا اجناتيفنا تصرخ هي أيضاً، منادية زوجها، ولكنها أوجست فجأة أن زوجها لم يكن إلى جانبها في السرير حين استيقظت من نومها، فأسرعت إلى السرير وأخذت تجس الغطاء، فأيقنت أن الفراش ليس عليه أحد. تساءلت؛ فإلى أين ذهب؟ وهرعت إلى درجات المدخل وأخذت تناديه وجلى، ولكنها لم تتلق جواباً بالطبع ثم خيل إليها أنها تدرك في سكون الليل أنات مخنوقة كأنها آتية من الحديقة. فأصاخت بسمعها، فتكررت الأنات. فأدركت أنها آتية من الحديقة فعلاً. أخذت تقول في نفسها مضطربة: «رباه ! يشبه هذا ما حدث في الماضي يوم موت اليزافيتا سمردياشايا !». وهبطت الدرجات خائفة، فلاحظت أن باب الحديقة مفتوح، فقالت لنفسها: «لا شك أن زوجي الطيب هناك»، فلما اقتربت من باب الحديقة سمعت في هذه المرة زوجها جريجوري نفسه يناديها بصوت ضعيف محتضر مروّع: «مارفا، مارفا!». فهمست متلعثمة ؛ «نجّنا من الشر يا رب !» واندفعت في الاتجاه الذي كان يصدر عنه النداء. وهكذا اكتشفت جريجوري. ومع ذلك لم تجده قرب السور، في المكان الذي صُرع فيه، بل على بعد عشرين خطوة من ذلك المكان. وقد عُرِف فيما بعد أن جريجوري، حين أفاق من إغمائه وثاب إلى رشده، جرَّ نفسه على الأرض مدة طويلة، فأغمي عليه أثناء ذلك عدة مرات، ولكنه كان يصحو ثم يستأنف زحفه. وسرعان ما لاحظت مارفا أنه كان مضرجاً بدمائه، فأخذت تصرخ. وكان جريجوري يتمتم بصوت واهن جملاً مضطربة لا تسلسل فيها، قائلاً: «قتل... قتل أباه... لماذا تصرخين يا امرأة غبية؟ هلمي! اركضي! نادي !». ولكن مارفا اجناتيفنا لم يهدأ روعها ولم تنقطع عن إطلاق صرخاتها الوحشية. فلما لاحظت فجأة أن نافذة غرفة مولاها مفتوحة ومضاءة، أسرعت إلى هناك تنادي فيدور بافلوفتش. وإذ لم تسمع جواباً نظرت من النافذة، رأت عندئذٍ مشهد اً فظيعاً: رأت فيدور بافلوفتش راقد اً على الأرض على ظهره جثةً هامدة؛ وكان الرداء المنزلي والقميص الأبيض مضَرَّجَيْن بالدم على الصدر. وأنارت الشمعة الموضوعة على الطاولة بقع الدم ووجه فيدور بافلوفيتش إنارة ساطعة. بلغت مارفا اجناتيفنا ذروة الهلع، فاندفعت عندئذٍ إلى خارج الحديقة، ففتحت الباب الكبير، وهرعت إلى عند جارتها ماريا كوندراتيفنا. كانت المرأتان، الأم وابنتها، نائمتين حينذاك، ولكنهما لقوة الطرقات العنيفة على النافذة، ولشدة الصرخات الحادة التي كانت

تطلقها مارفا اجناتيفنا، استيقظتا من نومهما واقتربنا من النافذة. فقصّت عليهما العجوز ما نزل بدارهم من شقاء وقصّت ذلك بأقوال مضطربة مشوشة تقطعها صرخات حادة. ومن المصادفات أن توما الجوَّال كان يبيت في المنزل في تلك الليلة. فسرعان ما أوقظ من نومه، وخفَّ الجميع إلى مكان الجريمة. وتذكرت ماريا كوندراتيفنا أثناء الطريق أنها قد سمعت في نحو الساعة التاسعة من المساء، عويلاً حاد اً رهيباً صادر اً من الحديقة. لقد كان ذلك هو الصرخة التي أطلقها جريجوري لحظة أمسك بيديه إحدى ساقي ميتيا الراكب السور، قائلا: «يا قاتل أبيه».
قالت ماريا كوندراتيفنا شارحةً: «إن أحد اً قد صرخ عندئذٍ صراخاً قوياً جداً ثم صمت فجأة». ووصل الثلاثة إلى قرب جريجوري. أنهضته المرأتان بمعاونة فوما، ونقلوه إلى الغرفة. وأشعلوا شمعة ولاحظوا أن سمردياكوف ما يزال يتخبط في تشنجاته وقد جحظت عيناه وخرج الزبد من فمه. غسلوا رأس جريجوري بماء ممزوج بخل، فجعله ذلك يصحو تماماً، وسرعان ما ألقوا عليه هذا السؤال: «أقُتل مولاه أم لا؟». وذهبت المرأتان عندئذٍ بصحبة توما إلى غرفة فيدور بافلوفتش. فلما اجتازوا الحديقة لاحظوا أن النافذة لم تكن وحدها مفتوحة، وإنما كان باب المسكن مفتوحاً أيضاً، مع أن فيدور بافلوفتش قد أصبح منذ أسبوع يحكم إقفال الباب بالمفتاح كل ليلة، ولا يسمح حتى لجريجوري بأن يدخل عليه لأي سبب من الأسباب، وبأي عذر من الأعذار. فلما رأت المرأتان وفوما هذا الباب مفتوحاً ترددوا عن الدخول إلى غرفة السيد «خشية المضاعفات»، وعادوا إلى غرفتهم، فطلب جريجوري إبلاغ رئيس الشرطة بالحادث فور اً.
فتولت ماريا كوندراتيفنا القيام بهذه المهمة، فأهاج وصولها ضيوف ميخائيل ماكاروفتش، وأقامهم وأقعدهم. لقد وصلت إلى منزل رئيس الشرطة قبل وصول بيتر ايليتش بخمس دقائق لا أكثر، وهكذا مَثَل بيتر ايليتش أمام هؤلاء الرجال لا مثول إنسان يريد أن ينقل إليهم شكوكه و استدلالته، بل مثول شاهد عيان، فلم تزد التفاصيل التي ذكرها على أن عززت ما كانوا قد تصوروه من فروض عن شخص القاتل (الحق أن بيتر ايليتش نفسه قد ظل إلى آخر لحظة يشك في أن يكون ميتيا هو القاتل).
وقرروا أن يتحركوا بنشاط. وعُهد إلى مفوض الشرطة المساعد بأن يجد أربعة أشخاص ليكونوا شُهوداً، وتم القيام بالتحريات الأولى في مكان الجريمة بمنزل فيدور بافلوفتش، وفقاً للأصول القضائية التي لا داعي إلى وصفها هنا. وقد أصر طبيب المجلس المحلي، وهو طبيب مبتدئ وممتلئ همة وحماسة ونشاطاً، أصرَّ على أن يصحب رئيس الشرطة ووكيل النيابة وقاضي التحقيق. وسأقتصر هنا على تلخيص ما شاهدوه: لقد صُرع فيدور بافلوفتش، وكسرت جمجمته، ولكن ما هو السلاح الذي استعمل في قتله؟ لعله ذلك السلاح نفسه الذي استعمله القاتل بعد ذلك في ضرب جريجوري.
واكتشفت أداة الجريمة أخير اً بفضل ما استطاع جريجوري أن يذكره لهم على نحو متسق، ولو بصوت واهن متقطع، بعد أن أُسعف الإسعافات الطبية التي تتطلبها حالته. وأخذوا يستكشفون الأرضَ التي تجاور السور مستعينين بمصباح، فلم يلقوا عناءً في العثور على مدق الهاون النحاسي. وجدوه ملقىً وسط الممر الذي يشق الحديقة، في موضع يلفت الأنظار على الفور. ولم تكن الغرفة التي يرقد فيها فيدور بافلوفتش في حالة فوضى، ولكنهم اكتشفوا على الأرض وراء الحاجز ظرفاً ملقى قرب السرير. وكان ظرفاً كبير اً مصنوعاً من ورق سميك، وقد كتب عليه ما يلي: «هدية صغيرة من ثلاثة آلاف روبل أهديها إلى ملاكي جروشنكا إذا هي رضيت أن تجيء». وفي أسفل الظرف كتبت عبارة أخرى أغلب الظن أن فيدور بافلوفتش أضافها بعد ذلك هو نفسه: «إلى حمامتي». وكان الظرف الذي ختم بالشمع الأحمر ثلاثة أختام كبيرة قد فضَّ وأفرغ مما فيه: لقد سُرق المال الذي كان يضمه الظرف. واكتشفوا كذلك على أرض الغرفة الشريط الوردي اللون الذي كان يلف الظرف. وقد أحدثت أقوال بيتر ايليتش أثر اً عميقاً في وكيل النيابة وقاضي التحقيق وهزتهما هز اً قوياً، لا سيما بسبب ما ذكره لهما من أن دمتري فيدوروفتش كان يبدو عازماً عزماً مطلقاً على أن ينتحر قبل طلوع الفجر؛ وأن دمتري فيدوروفتش قد أفهمه ذلك نفسه، حين حشا أحد المسدسين بالرصاص أمامه، وحين كتب بطاقة صغيرة ودسَّها في جيبه، إلخ، حتى إذا قال له بيتر ايليتش الذي لم يشأ أن يصدق قراره أنه سيبلغ البعض ما عزم عليه حتى يمنعوه من إنفاذه، أجابه ميتيا بلهجة ساخرة: «لن يتسع وقتك لهذا». معنى هذا كله أن من الواجب الوصول إلى موكرويه على عجل، حتى يفاجأ القاتل قبل أن ينفّذ ما عقد النية عليه. كان وكيل النيابة يردد قوله مضطرباً اضطراباً شديد اً: «القضية واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار. ذلك بعينه هو ما يفعله جميع هؤلاء العابثين القاصفين الأشقياء حين يقعون في الجريمة. غد اً أنتحر، أما الليلة فألهو وأتسلى». وازداد اهتياج وكيل النيابة حين سمع تفاصيل ما حدث في المتجر حين اشترى ميتيا الشمبانيا وأنواع الحلوى. «هل تتذكرون، أيها السادة، ذلك الشاب الذي قتل التاجر اولسوفيف ليسلبه ماله؟ إنه بعد أن استولى على ألف وخمسمائة روبل كانت مع ضحيته، فكَّر قبل كل شيء في أن يصفف شعره متموجاً عند حلاق، ثم أسرع إلى البغايا حتى دون أن يكلف نفسه عناء إخفاء المال، فكان يمسكه بيديه تقريباً، مثل هذا القاتل الجديد تماماً». على أن التحقيق وتفتيش منزل فيدور بافلوفتش والإجراءات القانونية الشكلية، كل ذلك قد استغرق وقتاً، لذلك تقرر أن يوفد إلى موكرويه، على جناح السرعة وقبل ساعتين من وصولهم، موظف الشرطة مافريكي مافريكيفتش شمرستوف الذي جاء إلى المدينة في الصباح لقبض مرتبه. أصدرت إليه تعليمات بأن يذهب إلى موكرويه، منتحلاً عذر اً من الأعذار بحيث لا يلفت الانتباه، وأن يراقب المجرم في الخفاء دون أن يغيب عن بصره، إلى حين وصول السلطات. وكان على موظف الشرطة هذا أن يجمع الشهود والشرطيين وإلخ. نفَّذ مافريكي مافريكيفتش الأوامر التي تلقاها، ولزم التخفي، واقتصر على أن ذكر لتريفون بوريستش الذي يعرفه منذ عهد بعيد بعض الإيضاحات عن الأسباب الحقيقية لمجيئه. وفي ذلك الوقت إنما التقى ميتيا بصاحب النزل في أسفل السلم المفضي إلى الشرفة، فلاحظ تغير اً غريباً في تعبير وجهه وطريقة كلامه. وعلى هذا النحو لم يستطع أحد، لا ميتيا ولا سائر الضيوف، أن يخطر ببالهم أنهم مراقبون. أما علبة المسدس فقد أسرع تريفون بوريستش يخفيها في مكان مأمون على الفور. ولم تصل السلطات إلى موكرويه إلا في الساعة الخامسة، عندَ طلوع الفجر. استقل وكيل النيابة، ورئيس الشرطة، وقاضي التحقيق، وحاشيتهم، عربتي ترويكا ومركبتين. ومكث الطبيب في منزل فيدور بافلوفتش، ليباشر تشريح جثة القتيل منذ الصباح. ولكنه كان مهتماً اهتماماً خاصا بحالة سمردياكوف. «إن نوبات الصرع التي تبلغ هذه الدرجة من الشدة وتدوم مثل هذه المدة مستمرةً يومين، هي حالات نادرة كل الندرة، حالات يهتم بها العلم ويكبَ على دراستها». كذلك قال الطبيب لصحبه مهتاجاً حين سافروا إلى موكرويه؛ وقد مازحه صحبه وهنأوه على ما أوتي من فرصة مؤاتية وحظ نادر. وقد تذكر وكيل النيابة وقاضي التحقيق تذكراً واضحاً، أن سمودياكوف سيموت قبل طلوع الفجر فيما أكده الطبيب الشاب بلهجة حازمة قاطعة.
بعد هذه الشروح التي كانت طويلة بعض الطول، ولكنها كانت ضرورية ولا غنى عنها، سنستأنف الآن قصتنا من حيث قطعناها في نهاية الباب السابق.

-3-محن نفس
المحنة الأولى

كان ميتيا يتصفح وجوه محدثيه، مجنون العينين، ولا يفهم ما يُقال له. وها هو ذا ينهض فجأة، فيرفع ذراعيه إلى السماء ويهتف قائلاً بصوت قوي:

- لست القاتل! أنا لم أسفح ذلك الدم! لم أسفح دم أبي... كنت أريد أن أقتله، ولكنني لم أفعل. لست أنا القاتل! فما إن قال ميتيا هذه الكلمات حتى اندفعت جروشنكا من وراء الستائر وسقطت عندَ قدمي رئيس الشرطة، وأعولت تقول بصوت ممزَّق، وهي تبكي بكاء غزيراً وتمد ذراعيها نحو الحضور:
- أنا المذنبة، أنا الشقية المذنبة. بسببي إنما قتل! أنا التي قدته إلى ذلك من كثرة ما عذبته... ولقد عذبت العجوز المسكين الراحل أيضاً، بدافع الشرّ الذي في نفسي... أنا سبب كل شيء، أنا، أنا وحدي. أنا القاتلة في حقيقة الأمر.
- أما إنك القاتلة فهذا صحيح لا شك فيه ! مجرمة كبيرة، أنت امرأة فاسقة ملعونة! أنت المسؤولة عن هذه الجريمة.
كذلك صاح يقول رئيس الشرطة وهو يلوّح بقبضة يده مهدِّداً.
ولكن سرعان ما حُمل رئيس الشرطة على السكوت، حتى إن وكيل النيابة أحاطه بذراعيه ليتحكم به ويسيطر عليه، قائلاً له بصوت عال وهو يكاد يختنق غيظاً:
- لقد أحدثت فوضى يا ميخائيل ماكاروفتش، هذا لا يجوز! إنك تشوش التحقيق وتفسد كل شيء.
وقال نيقولاي بارفينوفتش مضطرباً بدوره اضطراباً شديداً:
- يجب اتخاذ إجراءات... حالاً... يجب اتخاذ إجراءات، وإلا فلن نفلح أبداً.
واستأنفت جروشنكا كلامها فقالت بحرارة وحماسة وهي ما تزال جاثية على ركبتيها:
- احكموا علينا معاً. اعدمونا معاً، أنا مستعدة لأن أشاركه العقوبة القصوى!
فهتف ميتيا يقول وهو يرتمي على الأرض فيجثو إلى جانب جروشنكا ويعانقها:
- جروشا، حياتي، روحي، دمي، قديستي! لا تصدقوا ما تقوله، إنها ليست مذنبة في شيء، إنها لا تشارك أي مشاركة في المسؤولية عن هذا الدم المسفوح، إنها لم تفعل شيئاً!
تذكر ميتيا فيما بعد أن عدة رجال قد فصلوه بالقوة عن جروشنكا التي أقصيت عن الغرفة، وأنه في اللحظة التي ثاب فيها إلى وعيه، وجد نفسه جالساً أمام المائدة. وكان يقف إلى جانبه ووراءه رجال يضعون على صدورهم صفائح من معدن. وفي الجهة الأخرى من المائدة، كان قاضي التحقيق نيقولاي بارفينوفتش الذي جلس على الكنبة، يلح عليه أن يشرب قليلا من الماء من الكأس الموضوعة على المائدة، قائلاً له بلهجة مهذبة جداً:
- اشرب الماء ينعشك ويهدئك. لا تخش شيئاً.
خطفت انتباهَ ميتيا، على حين فجأة، الخواتمُ الكبيرة التي كانت في أصابع قاضي التحقيق، إن أحد هذه الخواتم يزدان بالجمشت، والثاني يزدان بحجر أصفر واضح شفاف قوي السطوع. سوف يظل ميتيا يتذكر خلال زمن طويل مدى ما أحدثته هذه الخواتم في نفسه من افتتان حتى إنه طوال الساعات الرهيبة التي استغرقها الاستجواب لم يستطع أن يحول بصره عنها، ولم ينقطع عن النظر إليها وهو فيما هو فيه من ظروف لا تتفق مع اهتمام تافه هذه التفاهة. وإلى يسار ميتيا، في المكان الذي كان يشغله ماكسيموف في بداية السهرة، كان يجلس وكيل النيابة؛ وإلى يمين ميتيا، في المكان الذي جلست فيه جروشنكا بضع ساعات قبل ذلك، كان يجلس شاب زاهي اللون، يرتدي سترة عتيقة جداً مما يلبسه الصيادون، وأمامه محبرة وورقة. ولقد اتضح فيما بعد أنه كاتب قاضي التحقيق. أما رئيس الشرطة فقد كان واقفاً قرب النافذة، في الطرف الآخر من الغرفة، على مقربة من كالجانوف الذي كان جالسًا على كرسي.
كرر قاضي التحقيق يقول بلطف ورقة للمرة العاشرة:
-اشرب ماء.
فصاح ميتيا يقول، وهو يثبت على قاضي التحقيق نظرته الجامدة جموداً رهيباً في عينيه الجاحظتين:
- شربت يا سادتي شربت... والآن فاسحقوني، اعدموني، قرروا مصيري؟
سأله القاضي بصوت لطيف رقيق ولكنه ملح:
- أأنت تصر إذاً على أنك بريء من مقتل أبيك ؟
- بريء! لقد سفحت الدم، سفحت دم العجوز الآخر، ولكنني دم أسفح دم أبي.. آه... لشد ما يؤسفني ما فعلت. لقد قتلت ذلك العجوز المسكين، صرعته. غير أنه يشق عليَّ أن أصبح بسبب هذه الجناية مسؤولاً عن جريمة أخرى، جريمة فظيعة لم أرتكبها... ذلك اتهام رهيب يسقط عليَّ سقوط الصاعقة! ولكن من ذا الذي قتل أبي؟ من هو القاتل؟ من عسى يكون القاتل إذا لمَ أكن أنا؟ هذا جنون... هذه سخافة... مستحيل...
بدأ قاضي التحقيق يقول:
- أتسأل مَن القاتل؟ سأقول لك...
ولكن وكيل النيابة ايبوليت كيريلوفتش سارع يسكته بنظرة منه، ثم قال مخاطباً ميتيا:
- تخطئ إذا قلقت على مصير الخادم العجوز جريجورى فاسيليف. اعلم أن هذا الخادم لم يمت، وأنه أفاق من إغمائه واسترد وعيه. حتى إن الطبيب يرى أنه ليس في خطر رغم الضربة الفظيعة التي شهد هو واعترفت أنت بأنك أصبته بها.
هتف ميتيا فجأة يقول وهو يضم يديه إحداهما إلى الأخرى وقد
أشرق وجهه فرحاً:
- أهو حي؟ اللّهم إني أحمدك على هذه المعجزة العظيمة التي نهبها لي، لي أنا الخاطئ المجرم؛ اللّهمّ إني أحمدك على أنك استجبت لدعائي... ذلك أن دعائي هو الذي قُبل... لقد لبثت أدعو طوال الليل أن لا يموت.
ورسم ميتيا إشارة الصليب ثلاث مرات وهو يكاد يختنق انفعالاً. استأنف وكيل النيابة كلامه قائلاً:
- من جريجوري هذا نفسه إنما حصلنا على معلومات خطيرة جداً في شأنك...
ولكن ميتيا قاطعه ووثب عن كرسيه قائلاً:
- دقيقة واحدة أيها السادة! اسمحوا لي بدقيقة واحدة، دقيقة واحدة، أناشدكم الله... أريد أن أكلمها هي...
فصرخ نيقولاي بارفينوفتش يقول له بصوت حاد، ناهضاً عن مقعده على حين فجأة هو أيضاً:
- آسف! ذلك مستحيل استحالة مطلقة الآن.
وأمسك الرجال الذين يضعون على صدورهم صفائح معدن، أمسكوا ميتيا، فسرعان ما عاد يجلس دون احتجاج، وقال:
- هذا يؤسفني أسفاً عميقاً يا سادتي، لأنني لم أكن أريد أن أراها إلا لحظة قصيرة... لأبلغها أن ذلك الدم قد مُحِي من حياتي، ذلك الدم الذي عذبني طوال هذه الليلة، وإنني لست قاتلاً! إنها خطيبتي أيها السادة، هل تعرفون هذا؟ (هكذا صاح يقول فجأة في حماسة وإجلال وهو ينقل بصره على محدثيه). أوه! شكراً لكم أيها السادة! لقد رددتموني إلى الحياة في طرفة عين! إن ذلك العجوز كان يحملني بذراعيه أيها السادة، وكان يغسلني في جرن حين كنت في السنة الثالثة من عمري وتركني الجميع. كان لي بمثابة أب!
همَّ القاضي أن يتكلم قائلاً:
- هكذا، فأنت...
ولكن ميتيا قاطعه وهو يضع كوعيه على المائدة ويغطي وجهه بيديه:
- اسمحوا لي بدقيقة تفكير أيها السادة، دقيقة واحدة. دعوني أتنفس لحظة. لأحاول أن أرى بوضوح، إن هذا الأمر قد هزني هزاً قوياً... قلب نفسيتي رأساً على عقب... ليس يُقرع إنسان كما يقرع طبل أيها السادة!
دمدم نيقولاي بارفينوفتش يقول له:

- عليك أن تشرب جرعة أخرى من الماء.
أبعد ميتيا يديه عن وجهه وأخذ يضحك. إن في نظرته الآن الثقة والحماسة، وقد تبدل تعبير وجهه في طرفة عين. وتغير موقفه كذلك، فهو يتكلم بلهجة غير اللهجة التي كان يتكلم بها من قبل. هو يحسّ الآن أنّه عاد نداً لهؤلاء الرجال الذين يعرفهم والذين كان يمكن أن يجتمع بهم، البارحة، في سهرة تضم علية القوم، فكأن شيئاً لم يكن. يحسن أن نشير هنا إلى أن ميتيا كان قد استُقبل استقبالاً حاراً جداً بمنزل رئيس الشرطة، في بداية إقامته بمدينتنا، ولكنه انقطع عن التردد إلى هذا المنزل بعد ذلك، ولا سيما خلال الشهر الأخير. وأصبح رئيس الشرطة، منذ زمن، يقطب حاجبيه حين يرى ميتيا في الشارع، ولا يرد على تحيته إلا من باب الأدب، وقد لاحظ ميتيا هذا. أما وكيل النيابة فقد كانت معرفة ميتيا به أقل من ذلك أيضاً، رغم أن ميتيا قد زار زوجته، وهي امرأة عصبية ذات نزوات وهواجس، عدة زيارات مجاملة واحترام ؛ كان يذهب إليها دون أن يعرف لماذا، وكانت تستقبله بكثير من البشاشة والمودة، بل وكانت تبدي شيئاً من الاهتمام به حتى الآونة الأخيرة. وأما قاضي التحقيق، فلم تكن بينه وبين ميتيا معرفة جيدة، واقتصر كل شيء بينهما على حديث أو حديثين تبادلا خلالهما كلاماً عن جنس النساء.
قال ميتيا ضاحكاً ضحكة مرحة:
- أرى يا نيقولاي بارفينوفتش أنك قاضٍ بارع جداً، ولكن أحسب مع ذلك أن عليَّ أن أساعدك. أوه! لقد عادت الحياة إليَّ أيها السادة... لا تؤاخذوني إذا أنا كلمتكم بغير كلفة. ثم إنني ثمل قليلاً، أعترف لكم بذلك صراحة. أظن يا نيقولاي بارفينوفتش أنني قد سبق لي أن سُررت وشرفت بلقائك، عند ميوسوف، قريبي... لست أدعي المساواة بكم الآن أيها السادة، فأنا أعرف موقفي أمامكم حق المعرفة... هناك تهمة رهيبة تجثم عليَّ... طبعاً... إذا كان جريجوري قد شهد عليَّ... فلا بد أنكم ترون أن القرائن قوية في الظاهر... أنا موضع شبهة خطيرة! فظيع! فظيع! إنني أفهم هذا حق الفهم، ثقوا من ذلك! ولكن فلنصل إلى الوقائع أيها السادة! إنني مستعد... وسنوضح الأمور في بضع دقائق يا سادتي، ما دمت بريئاً... اصغوا إليَّ، اصغوا إليَّ! ما دمت أعلم أنني لم أرتكب هذه الجريمة، فسوف نبدد سوء التفاهم في طرفة عين، أليس كذلك أيها السادة؟
كان ميتيا يتكلم متعجلاً متدفقاً على نحو عصبي، وبنوع من الإصرار العنيد على أن يعد محدثيه كأنهم خير أصدقائه.
قال نيقولاي بارفينوفتش بلهجة رصينة: - سنسجل الآن إذاً أنك تنكر إنكاراً قاطعاً التهمة الموجهة إليك.
ثم التفت نحو الكاتب، وأملى عليه بصوت خافت ما يجب تسجيله.
- آ.... أأنتم تسجلون أقوالي؟ أتريدون تدوينها؟ طيب... اكتبوا إذا شئتم... أوافق على هذا.... لا أرى في هذا ضيراً أيها السادة... ولكن... لحظة من فضلكم! أريد أن تكتبوا كما يلي:
"ارتكب جرم استعمال العنف، فضرب عجوزاً مسكيناً ضرباً شديداً، وهو يعترف بذلك" ثم إنني في أعماق نفسي، في قرارة ضميري أعترف بذنبي... ولكن لا داعي إلى كتابة هذا (هكذا قال ملتفتاً إلى الكاتب)... تلك حياتي الخاصة التي لا شأن لكم بها أيها السادة، هذه أغوار قلبي... أما قتل أبي فأنا بريء منه! تلك تهمة حمقاء!
ذلك افتراض سخيف... سأبرهن لكم على هذا، فتقتنعون اقتناعاً تاماً. سوف تضحكون أيها السادة، سوف تضحكون أنتم أنفسكم من الشكوك التي راودتكم، سوف تنفجرون ضاحكين.
تدخل قاضي التحقيق فقال وكأنه يريد أن يضرب بهدوئه هو مثلاً لميتيا المندفع المضطرب:
- هدىء نفسك يا دمتري فيدوروفتش ! أحب أن أرجوك، قبل أن نتابع الاستجواب، أن تؤكد لي - إذا كنت توافق على ذلك - أنك لم تكن تحب فيدور بافلوفتش كثيراً، وأن مشاجرات كثيرة كانت تقع بينكما. لقد صرحت أنت نفسك، منذ ربع ساعة، في هذا المكان نفسه، إذا لم يخطئ ظني، أنك كنت تنوي أن تقتله. لقد صحت تقول: «كنت أريد أن أقتله ولكنني لم أقتله».
- أقلت أنا هذا؟ أوه! جائز أيها السادة! نعم... واأسفاه ! لقد تمنيت أن أقتله، وراودتني نفسي على هذا مراراً... واأسفاه؟ واأسفاه !
- كنت تنوي إذاً أن تقتله. فهل تستطيع أن تشرح لنا أسباب هذا الكره الذي كنت تحمله لأبيك؟
قال ميتيا بلهجة متجهمة وهو يرفع كتفيه ويخفض رأسه:
- ليس هناك ما يُشرَح أيها السادة! أنا لم أُخفِ عواطفي، والمدينة كلها تعرفها، حتى إن الناس يتحدثون عنها في الحانة. ومنذ بضعة أيام لا أكثر، عبرت عنها في الدير، في حجرة الشيخ زوسيما.. وفي مساء ذلك اليوم نفسه ضربت أبي وأوشكت أن أقتله، وحلفت أمام شهود الأعودنَّ فأجهز عليه. أوه! في وسعكم أن تجدوا ألف شاهد عليَّ، بغير عناء. صرَّحت بكرهي لهُ طوال هذا الشهر... الناس جميعاً يشهدون... الوقائع متوفرة... الوقائع تتكلم من تلقاء نفسها، بل هي تصرخ... أما عواطفي أيها السادة فأمرها أمر آخر يخيل إليَّ أيها السادة (وهنا قطب ميتيا حاجبيه) أنه ليس من حقكم أن تسألوني عن عواطفي. إن وظائفكم تخولكم سلطات، أنا أعرف هذا وأفهمه، ولكن عواطفي هي من شأني أنا ؛ هي تتصل بحياتي الحميمة... على كل حال، ما دمت لم أكتمها حتى الآن... لم أكتمها في الحانة مثلاً، وكنت أكاشف بها أول قادم، فليكن ما تريدون! فلن أخفيها عنكم أنتم أيضاً. أيها السادة، إنني أدرك حق الإدراك أن الشبهات كبيرة وأن القرائن قوية: فلقد أعلنت لجميع الناس أنني سأقتله، وها هو ذا يقتل. فكيف لا أكون أنا القاتل والحالة هذه؟ هأهأ ! إنني أعذركم أيها السادة، أعذركم كل العذر. أنا نفسي قد أذهلني هذا الحادث: من عسى يقتله إذا لم أقتله أنا؟ أليس كذلك؟ إذا لم أقتله أنا فمن يقتله؟ من؟ من؟ (ثم صاح فجأة يقول أريد أن أعرف منكم أيها السادة، أطالبكم بأن تقولوا لي الحقيقة: أين وُجد مقتولا؟ وكيف قتل، بأي سلاح وفي أية ظروف؟ قولوا لي هذه الأمور! (كذلك ردَّد بسرعة، وهو ينظر إلى وكيل النيابة وقاضي التحقيق واحداً بعد آخر).
أجابه وكيل النيابة قائلاً: - وجدناه راقداً على ظهره فوق أرض الغرفة، مكسور الجمجمة.
قال ميتيا مرتجفاً وهو يضع كوعيه على المائدة ويخفي وجهه بيده اليمنى:
- هذا فظيع أيها السادة ! وتدخل نيقولاي بارفينوفتش قائلاً:
- لنتابع الاستجواب. لأي سبب كنت تكره أباك ؟ لقد صرحت على رؤوس الأشهاد، فيما أظن أنني أعلم، أن الغيرة هي التي كانت تؤلبك عليه، فهل هذا صحيح؟
هي الغيرة إن شئتم. ولكن الغيرة ليست السبب الوحيد لموقفي منه.
- لعل هناك خصومات على مال؟
- نعم، نعم، مسائل مالية.
- كان الخلاف يدور، إذا لم يخطئ ظني، على ثلاثة آلاف روبل هي من حقك في الميراث ولم يدفعها لك.
قال ميتيا مستاءً:
- ثلاثة آلاف روبل؟ بل أكثر كثيراً، أكثر كثيراً. كان مديناً لي بأكثر من ستة آلاف روبل، وربما بأكثر من عشرة آلاف. قلت هذا لجميع الناس، صحت به في كل مكان! ولكنني كنت مستعداً لقبول ثلاثة آلاف روبل تساهلاً، لأنني كنت في حاجة مستعجلة رهيبة إلى هذا المبلغ... فكان ذلك الظرف الذي يضم ثلاثة آلاف روبل والذي يوجد تحت وسادته، (أنا أعلم ذلك) والذي أعدَّه هو لجروشنكا، كان في نظري مالاً سُرق مني هل تفهمون أيها السادة؟ كنت أعد ذلك المبلغ من حقوقي، وملكاً شرعياً لي.
بادل وكيل النيابة قاضي التحقيق نظرة ذات دلالة، وغمزه بعينه خلسة.
أسرع القاضي يقول:
- سنعود إلى هذه المسألة. واسمح لي أن أسجل هذه النقطة بعينها، وهي أن ذلك المبلغ المودع في الظرف كان في رأيك حقاً مشروعاً لك.
- اكتبوا أيها السادة! إنني أدرك أن هذا قرينة جديدة عليَّ، ولكنني لا أخشى شيئاً، ولسوف أمدكم بقرائن أخرى. سوف أمدكم أنا نفسي بقرائن أخرى، هل تسمعونني؟ يبدو لي أيها السادة أنكم ترون فيَّ رجلاً مختلفاً كل الاختلاف عمَّا أنا في الواقع (كذلك أضاف يقول حزيناً مظلم الوجه). إن أمامكم أيها السادة إنساناً صادقاً مستقيماً لا يعرف طبعه الالتواء والمخاتلة، إن أمامكم إنساناً - لا يغب هذا عن بالكم - إن يكن قد ارتكب حقارات كثيرة، فإنه ظل دائماً في قرارة نفسه، أعني في أعماق قلبه، طاهراً... الخلاصة... إنني لا أحسن الإفصاح عما بنفسي... لقد تألمت طول حياتي بسبب اندفاعات روحي إلى ما هو خير وسُمُوّ، وكنت أبحث عن نبل الطبيعة الإنسانية بحث ديوجين عنه إن صح التعبير، حاملاً مصباحا... ورغم ذلك قارفت دناءات في كل خطوة من خطواتي، كما نقارف جميعاً هذه الدناءات أيها السادة... أقصد... لا... ليس كما نقارفها جميعاً، بل كما أقارفها أنا وحدي، لقد أسأت التعبير يا سادتي.. نعم، كما أقارفها أنا وحدي... إن بي صداعاً أيها السادة (كذلك قال فجأة وقد تقبضت قسمات وجهه على ألم)... نعم يا سادتي... كنت أكره مظهره؛ كان في هيئته شيء يوحي بالدنس، كانَ فيه

تبجح واحتقار لكل ما هو عظيم مقدس، كان فيه سخرية وكفر أوه! كان هذا دنيئاً، دنيئاً جداً! ولكنني أفكر الآن غير هذا التفكير بعد أن غاب عن الوجود.
- غير هذا التفكير؟ ماذا تعني؟
- غير هذا التفكير، ذلك أنني آسف لأني كرهته ذلك الكره الشديد كله.
- أأنت نادم إذاً؟
- لا، لا يعني ذلك أنني نادم، لا تكتبوا هذا! أنا نفسي مليء بالعيوب أيها السادة! أنا لست مثال جمال النفس، فلم يكن من حقي إذاً أن أنفر منه ذلك النفور كله... هذا ما تستطيعون أن تكتبوه.
وبدا على ميتيا، بعد هذا الجواب الأخير، أنه قد خارت قواه جداً على حين فجأة. وكان وجهه قد أخذ يزداد اكفهراراً وجهامة كلما تتابع الاستجواب. وهذا مشهد لم يكن في الحسبان أن يقع بغتةً في تلك اللحظة نفسها. كانت جروشنكا قد أبعدت من الغرفة طبعاً، ولكنهم لم يقصوها إلى مكان ناءٍ، وإنما أودعوها في الغرفة الثالثة، وهي غرفة لا يفصلها عن الغرفة الزرقاء التي يجلس فيها ميتيا والقاضي إلا القاعة التي قام فيها الرقص وتم فيها القصف أثناء الليل. هي غرفة صغيرة ذات نافذة واحدة جلست فيها جروشنكا بصحبة ماكسيموف الذي روَّعته الأحداث فكان يتشبث بجروشنكا تشبث الغريق بلوح النجاة. وعلى باب تلك الغرفة كان يرابط فلاح على صدره صفيحة من معدن. كانت جروشنكا تبكي، وها هي ذي تحس فجأة أنها أصبحت لا تقوى على كبح حزنها، فإذا هي تنهض وتضم يديها إحداهما إلى الأخرى، وتصبح قائلة: «يا للشقاء !»، ثم تندفع إلى خارج الغرفة، متجهة إليه، إلى عزيزها ميتيا؛ وقد تم ذلك على نحو بلغ من المباغتة أن أحداً لم يتسع وقته لصدِّها. وقد سمع ميتيا صرختها، فارتعش، ووثب عن كرسيه، وأطلق من صدره نوعاً من العويل، واندفع نحوها طائش العقل، كأنه نسي الوضع الذي هو فيه. لم يُترك لهما أن يلتقيا، وإن تكن نظراتهما قد التقت. أمسك ميتيا بقوة. فأخذ يصارع حانقاً مسعوراً، ولم تمكن السيطرة عليه إلا بتعاون ثلاثة رجال أو أربعة. وأمسكت هي أيضاً، ورأى ميتيا كيف كانت تصرخ وتمد إليه ذراعيها في لوعة شديدة بينما كانوا يقتادونها. حتى إذا رجع كل شيء إلى الهدوء وجد ميتيا نفسه مرة أخرى في ذلك المكان نفسه، أمام المائدة، قبالة القاضي، فصاح يسأل القاضي ووكيل النيابة:
- ماذا فعلَتْ لكم؟ لماذا تعذبونها؟ إنها ليست مذنبة، إنها لمَ تفعل شيئاً...
فحاول وكيل النيابة وقاضي التحقيق أن يهدئاه. وانقضت على هذه الحال عشر دقائق. وأخيراً عاد إلى الغرفة ميخائيل ماكاروفتش الذي كان قد غاب؛ وتقدم نحو وكيل النيابة بخطى سريعة وقال له بصوت عال واضطراب شديد:
- أبعدناها من هنا. هي الآن تحت. هل تأذنون لي أيها السادة أن أقول كلمتين لهذا الإنسان العاثر الحظ، كلمتين لا أكثر؟ بحضوركم أيها السادة، بحضوركم...
فأجابه القاضي:
- لك ما تشاء يا ميخائيل ماكاروفتش، نحن لا نرى في هذا أي باس، في هذه الحالة الخاصة.
نبدأ ميخائيل ماكاروفتش يقول مخاطباً ميتيا:
- دمتري فيدوروفتش، بني المسكين، أصغ إليَّ....
كان وجهه المنفعل يعبر عن شفقة على المسكين تشبه أن تكون شفقة أب. وتابع كلامه قائلاً:
- لقد توليت بنفسي أخذ أجرافينا ألكسندروفنا إلى تحت، وعهدت بها إلى بنات صاحب النزل؛ كما أن العجوز الصغير ماسكيموف أصبح لا يتركها.. وقد كلمتها، وطمأنتها، هل تسمعني؟ أفهمتها أن عليك أن تدافع عن نفسك، أن تبرئ نفسك، فما ينبغي لها أن تمنعك من ذلك بتشويشك، وإلا فقد تدلي من شدة اضطرابك بأقوال خطأ تشهد عليك، هل تفهمني؟ الخلاصة... أقنعتها ففهمت ما أقصد. إنها ذكية وطيبة جداً! كانت تريد أن تقبِّل يديَّ أنا العجوز، وتضرَّعت إليَّ من أجلك؛ وطالبتني ملحةً بأن أجيء إليك
لأطلب منك أن تكون مطمئن البال عليها. وأريد يا عزيزي، أن أعود إليها الآن لأبلغها أنك مطمئن وأنك لا تخشى عليها من شيء. هدئ نفسك، ذلك واجبك. أنا أحسَّ بأنني مذنب في حقها. إن لها نفساً مسيحية ؛ نعم يا سادتي: هي طفلة وديعة بريئة. هل أستطيع أن أبلغها يا دمتري فيدوروفتش أنك ستهدأ الآن؟
كانَ الرجل الطيب يخبط في كلامه خبط عشواء. إن ألم جروشنكا، هذا الألم الإنساني، قد نفذ إلى قلبه رأساً، فكان في عينيه دموع. نهض ميتيا واندفع نحوه، وصاح يقول:
- بإذنكم يا سادتي، بإذنكم. إنك يا ميخائيل ماكاروفتش ملاك من ملائكة الخير. شكراً لك من أجلها. نعم، أنا هادئ، قل لها هذا، وسأكون مرحاً... قل لها، بما لك من طيبة وأريحية، إنني مرح، مرح جداً، حتّى لأشتهي أن أضحك، لعلمي بأنها في حماية ملاك حارس مثلك. سأنهي هذا الأمر بسرعة، حتى إذا انتهيت، خففت إليها. فلتعتمد عليَّ ولتنتظرني واثقة. أيها السادة (كذلك قال يخاطب قاضي التحقيق ووكيل النيابة)، سوف أفتح لكم نفسي كلها، سوف أسرُّ إليكم بكل شيء، فنفرغ من هذا الحادث بسرعة وننتهي منه مرحين ضاحكين، لأننا سنضحك جميعاً في النهاية، أليس كذلك؟ إن هذه المرأة أيها السادة هي ملكة قلبي! أوه! اسمحوا لي أن أقول لكم إنني أشعر بالحاجة إلى أن أفضي إليكم بما في قلبي... لأنني أرى أن أمامي أناساً لهم نفوس نبيلة إنها ضيائي وحياتي أيها السادة ! آه... ليتكم تعلمون! هل وحياتي أيها السادة تقول: «سأشاركك العقوبة القصوى!»؟ فماذا أعطيتها أنا الذي لا أملك شيئاً، حتّى أستحق منها مثل هذا الحب؟ لست جديراً بهذا الحب، أنا الإنسان السيئ، بوجهي المنفِّر، وسلوكي الأخرق، ومظهري الثقيل. أأنا جدير بمثل هذا الحب؟ ماذا فعلت في سبيلها حتى تكون مستعدة لأن تتبعني مجون إلى الأشغال الشاقة؟ لقد ارتمت على أقدامكم منذ هنيهة في سبيلي، هي الشماء التي لم ترتكب ذنباً يمكن أن تلام عليه. فكيف لا أعبدها، كيف لا أندفع نحوها كما اندفعت منذ لحظة؟ اغفروا لي أيها السادة! ولكنني قد تأسّيت وهدأت الآن...
قال ميتيا ذلك وعاد يتهالك على الكرسي، وأخفى وجهه بيديه وأخذ يبكي ناشجاً منتحباً. ولكن دموعه في هذه المرة كانت دموع التخفف والطمأنينة. كان يشعر أنه استرد ذاته ورجع إلى نفسه. وأشرق وجه رئيس الشرطة، وظهر الرضى والارتياح على رجلَيْ القضاء أيضاً: لقد أحسّا أن الاستجواب سيدخل مرحلة جديدة. ورجع ميتيا إليهما بعد أن شيَّع رئيس الشرطة، عاد هادىء النفس مطمئن الجنان. وقال:
- والآن أيها السادة، أضع نفسي تحت تصرفكم. ولكن ليتكم ترضون أن لا ترتبكوا بجميع تلك التفاصيل، فنتفاهم عندئذٍ بسرعة كبيرة. إنني أتيه في تلك التفاصيل. أنا مستعد أيها السادة، ولكن صدقوني إذا قلت لكم: إن الثقة المتبادلة لابد منها ولا غنى عنها في مثل هذه الحالة. يجب أن تصدقوني كما أصدقكم، وإلا فلن نصل أبداً إلى النهاية. أقول لكم هذا لمصلحتكم أنتم. فهيا بنا أيها السادة، هيّا بنا إلى القضية إلى الوقائع.
ولكن كفوا خاصة عن النبش في نفسي، ولا تعذبوني في سبيل سفاسف وترهات؛ ألقوا عليَّ أسئلة تتصل بالقضية وحدها دون غيرها. اطلبوا وقائع، وقائع، ولأجيبنّكم بما يرضيكم كل الإرضاء. دعونا من التفاصيل!.
كذلك صاح ميتيا، واستؤنف الاستجواب.

-4-المحنة الثانية

بدأ نيقولاي بارفينوفتش كلامه قائلاً:
- لا تستطيع أن تتصور يا دمتري فيدوروفتش إلى أي مدى تشجعنا نيتك الطيبة هذه...
كان الرضى يُقرأ في عينيه الشهباوين الجاحظتين قليلاً الحسيرتين اللتين رفع عنهما النظارتين منذ حين. وتابع يقول في حرارة:
- إن ما قلته عن ضرورة الثقة المتبادلة صحيح كل الصحة. إن هذه الثقة المتبادلة شرط أساسي في قضية لها هذه الخطورة، ولا سيما حين يريد الشخص المتهم أن يبرئ نفسه وحين يكون في إمكانه أن يبرئ نفسه. نحن من جهتنا سنفعل كل ما يتعلق بنا، ولا بد أنك لاحظت بنفسك بأي روح نجري هذا الاستجواب... أنت توافقني على هذا يا ايبوليت كيريلوفتش، أليس كذلك؟ (أضاف هذا مخاطبا وكيل النيابة فجأة).
أجاب وكيل النيابة مؤيداً، ولكن بلهجة جافة بعض الجفاف، لهجة تتعارض مع ما أظهره قاضي التحقيق من اندفاع حار:
- بدون شك. لنذكر مرةً واحدة وإلى الأبد أن نيقولاي بارفينوفتش الذي وصل إلى مدينتنا منذ زمن قصير والذي هو في بداية عهده بمهنته، قد شعر دفعةً واحدة باحترام عظيم لشخص وكيل النيابة عندنا ايبوليت كيريلوفتش، فانعقدت بين الرجلين صداقة قوية. وكان على كل حال هو الإنسان الوحيد المؤمن حقاً بالمواهب السيكولوجية والخطابية الفذة التي ينعم بها ايبوليت كيريلوفتش «الذي لم يقدر حق قدره». وكان يعتقد هو أيضاً، اعتقاداً جازماً، بأن المراجع العليا تظلم وكيل النيابة هذا الذي سمع عنه في بطرسبرج قبل أن يجيء إلى مدينتنا. وكان نيقولاي بارفينوفتش، الشاب جداً، هو كذلك الإنسان الوحيد الذي شعر نحوه صاحبنا «المجهول القدر» بعاطفة صادقة. وقد اتسع وقتهما في طريقهما إلى موكرويه، لأن تتفق آراؤهما في هذه القضية، ولأن يُجمعا على الموقف الواجب اتخاذه، والطريقة الواجب تبنيها، بحيث إنّ الفكر المرهف الذي ينعم به نيقولاي بارفينوفتش يلتقط الآن بسرعة البرق أخفى الخواطر والنوايا التي تجول في ذهن زميله الأكبر منه سناً، ويحزرها بنصف كلمة، بإشارة خاطفة، بحركة في عضلات وجهه، بغمزة من عينيه.
استأنف ميتيا كلامه متحمساً:
- دعوني أتكلم أيها السادة دون أن تقاطعوني مستوضحين تفاصيل تافهة؛ وسأبسط لكم القضية بسرعة.
- موافق. شكراً لك. على أنني قبل أن أسمع ما تريد أن ترويه لنا أحبّ أن أستوضح واقعة صغيرة تهمنا كثيراً، هي مسألة تلك الروبلات العشرة التي اقترضتها أمس مساء، في نحو الساعة الخامسة، من صديقك بيتر ايلتش برخوتين، وأودعته مسدسيك رهناً.
- صحيح أيها السادة، نعم... رهنتهما! أي شيء خارق في هذا؟ إنني ما إن عدت إلى المدينة بعد تلك الرحلة، حتّى رهنت المسدسين... الأمر بسيط جداً.
- بعد تلك الرحلة؟ هل تغيبت إذاً؟
- طبعاً ! سافرت إلى خارج المدينة، على مسافة أربعين فرسخاً من هنا. أكنتم تجهلون ذلك إذاً؟
تبادل وكيل النيابة وقاضي التحقيق النظرات.
- لعلك تحسن صنعاً إذا أنت بدأت بسطك للقضية بأن تصف لنا على وجه الدقة كيف أمضيت وقتك بالأمس منذ الصباح. اسمح لي أن أسألك مثلاً، ماذا كان الغرض من تغيبك، ومتى سافرت، وفي أي ساعة رجعت. إن جميع هذه الوقائع...
قاطعه ميتيا وهو ينفجر ضاحكاً:
- كان ينبغي أن تسألني عن ذلك فوراً. بل إنني أعتقد أنه يحسن أن نبدأ القصة لا من أمس بل من أمس الأول، من صباح أمس الأول، وستفهمون عندئذٍ لماذا قمت بتلك الرحلة، وماذا كان هدفي منها، وما هي الظروف التي أحاطت بها. في صباح أمس الأول، أيها السادة، ذهبت إلى التاجر سامسونوف على نية أن أقترض منه ثلاثة آلاف روبل لقاء ضمانات موثوقة تماماً. ذلك أنني احتجت إلى هذا المبلغ احتياجاً مستعجلاً على حين فجأة، احتياجاً مستعجلاً جداً أيها السادة...
قاطعه وكيل النيابة يسأله بأدب:
- اسمح لي أن أسألك لماذا احتجت فجأة إلى المال، ولأي غرض وجب عليك أن يكون معك ثلاثة آلاف حتماً؟
- ما فائدة هذه التفاصيل كلها أيها السادة؟ لماذا ومتى وكيف وأين... لأن أحتاج إلى ثلاثة آلاف روبل أو إلى أي مبلغ آخر... لن نفرغ من الأمر أبداً إذا نحن تهنا في هذه التفاصيل الدقيقة ! لسوف نحتاج عندئذٍ إلى ثلاثة مجلدات على الأقل، عدا المقدمة !...
كان ميتيا يتكلم بلهجة خالية من الكلفة، لهجة إنسان قد نفد صبره ويريد أن يذكر الحقيقة كاملة وتحرّكه أطيب النوايا. واستأنف كلامه فجأة يقول:
- لا تؤاخذوني أيها السادة على هذه الخشونة. ثقوا أنني أشعر نحوكم بكل الاحترام الواجب لكم عليّ، وإنني مدرك موقفي تمام الإدراك. لا تظنوا كذلك أنني ثمل. فقد صحوت من سُكري كل الصحو، ولكن حتى لو كنت ثملاً، فإن ذلك لن يغير من الأمر شيئاً، ولن يكون له أي تأثير في ما سأوضحه لكم. أنا واحد من أولئك الذين يصدق فيهم قول الشاعر:
أنا إن صحوت رأيتني غبياً فإذا سكرت غدوت عبقرياً!
ها ها ها! ولكني ألاحظ أيها السادة أنه لا يليق بي الآن المزاح، إلى أن نفرغ من إزالة هذا الالتباس على الأقل. فاسمحوا لي إذاً أن أحافظ على وقاري. إنني أدرك حق الإدراك التفاوت القائم بيننا الآن: فأنا على كل حال إنما أقف أمامكم موقف مجرم، فهيهات أن أكون لكم نداً. إن مهمتكم هي أن تراقبوني. ولا شك أنكم لن تلاطفوني وتلاعبوا بأيديكم شعري وتهنئوني على الحادث الذي وقع لي مع جريجوري. فليس من الجائز للإنسان أن يصرع الشيوخ بغير ذنب جنوه، وأنا أعلم حق العلم أنكم ستطالبون بأن يحكم علي بالسجن ستة أشهر أو قولوا سنةً، معاقبةً لي على هذا الفعل الذي اقترفته، ولكن دون سقوط حقوقي المدنية. أنا لست معرّضاً للحرمان من حقوقي المدنية، أليس كذلك يا وكيل النيابة؟ قلت إذا أيها السادة إنني أدرك حق الإدراك الفرق بين موقفي وموقفكم... ومع ذلك أرجوكم أن تعترفوا من جهتكم بأن الله نفسه يمكن أن تربكه أسئلة من هذا النوع: كم خطوة مشيت، في أي لحظة رفعت قدمك اليسرى، في أي لحظة أنزلت قدمك اليمنى، على أي شيء سرت؟ إذا أخذتم تلقون عليّ مثل هذه الأسئلة، فسأرتبك أخيراً، وستسجلون الخطأ الذي سأقع فيه، وسينشأ عن ذلك أن لا نصل إلى شيء. وما دمت قد بدأت ببعض الكذب، فلا بأس أن أستمر في الكذب، وستغفرون لي كذبي، لأنكم أناس مهذبون مثقفون ثقافة عالية. أحبّ في الختام أن أرجوكم أيها السادة أن تقلعوا عن تلك الأساليب البالية في الاستجواب، أعني البدء بإلقاء أسئلة تافهة: كيف نهضت من نومك هذا الصباح؟ ماذا أكلت؟ أين بصقت؟ ثم المبادرة، بعد «تنويم يقظة المجرم» على هذا النحو، إلى مباغتته فجأة بهذا السؤال: «أين قتلت القتيل وسلبته ماله؟». هاها!... ذلك هو روتينكم، ذلك هو علمكم كله، تلك هي الحيلة الكبرى في أسلوبكم! قد تستطيعون أن تباغتوا فلاحين بمثل هذه الأنواع من المكر، ولكن ذلك لا ينطلي عليّ أنا! أنا نفسي خبير في هذه الشؤون، لقد عملت أنا أيضاً في هذا المجال.. هاهاها! لا تزعلوا يا سادتي، واغفروا لي هذه الوقاحة (كذلك صاح وهو ينظر إليهما ببشاشة تبعث على الدهشة) فما دام ميتكا كارامازوف هو الذي يتكلم بهذه الطريقة، فإن التسامح والتساهل ممكن، لأن ما لا يمكن غفرانه إذا هو صدر عن رجل ذكي، يجب أن لا يُكترث به حين يكون ميتكا هو الذي يقوله! ها ها !...
كان نيقولاي بارفينوفتش يضحك أيضاً وهو يصغي إلى ميتيا، أما وكيل النيابة فلم يضحك ولكنه كان يلاحظ ميتيا بإلحاح، ولا يحول عنه بصره النافذ، ويحاول أن يسجل كل كلمة من كلماته بل وأيسر حركة من حركاته، حتى أخفّ الاختلاجات في عضلات وجهه.
قال القاضي وهو ما يزال يضحك:
- يجب أن تنصفنا هذا الإنصاف على الأقل، فتعترف بأننا لم نستعمل معك هذا الأسلوب. إننا لن نحاول أن نربكك بسؤالك كيف نهضت من نومك في الصباح وماذا أكلت، وإنما واجهنا الأمر الأساسي دفعةً واحدة، بسرعة لعلها كانت مفرطة أيضاً.
- إنني أفهم هذا وأقدّره حق قدره. وأقر كذلك ما أظهرتموه نحوي من طيبة وشهامة تدلان على سمو أخلاقكم. إننا جميعاً، نحن الثلاثة صادقو النية تحركنا أنبل المشاعر. فليجر كل شيء بيننا كما ينبغي أن تجري الأمور بين رجال المتجمع الراقي المثقفين الذين يثق بعضهم ببعض، وتربطهم روابط النبالة والشرف. اسمحوا لي على كل حال أن أعدّكم خير أصدقائي في هذه الدقيقة من حياتي، في هذه الساعة التي يُذَلّ فيها شرفي أكبر الإذلال! أرجو أن لا يسوءكم هذا يا سادتي!
قال نيقولاي بارفينوفتش في وقار مؤيداً: - بالعكس! لقد عبّرت أحسن تعبير، ووجدت أنسب الكلمات! صاح ميتيا يقول بحماسة:
- أما التفاصيل، أما تلك التفاصيل الزخرفية السخيفة كلها، فلندعها وشأنها، وإلا لم نعلم إلى أين يمكن أن ينتهي هذا كله، أليس ذلك صحيحاً يا سادتي؟ قال وكيل النيابة يخاطب ميتيا فجأة:
- أنا مستعد كل الاستعداد لأن آخذ بنصائحك السديدة، ولكني لن أستطيع مع ذلك أن أعدل عن سؤالي. فإنه لعلى جانب عظيم من خطورة الشأن في نظرنا أن

نعلم لماذا احتجت ذلك الاحتياج الشديد كله إلى هذا المبلغ، أعني إلى الثلاثة آلاف روبل.
- لماذا احتجت إلى ذلك المبلغ؟
-احتجت إليه لأسباب عدة... الخلاصة: لأردَّ ديناً عليَّ.
- دينا لمن؟
- ذلك أرفض أن أقوله لكم رفضاً قاطعاً أيها السادة! أرفض أن أقوله لكم لأنني لا أستطيع أن أقوله لكم، لا عن خوف من أي شيء، بل لأن الأمر في الواقع هو من السفاسف التي لا قيمة لها البتة. ولئن صمتُّ عنه مع ذلك، فلأن القضية قضية مبدأ: إن هذا السؤال يمس حياتي الخاصة، ولن أسمح لكم بالتدخل في حياتي الخاصة. هذا هو مبدئي. إن ما تسألون عنه لا علاقة لهُ بالقضية، وكل ما يتجاوز هذه الحدود فهو من حياتي الخاصة! لقد أردت أن أردَّ ديناً هو دين شرف، ولكنني لن أذكر لكم اسم الشخص الذي كنت أريد أن أردَّ له هذا الدين.
قال وكيل النيابة: - اسمح لنا بتسجيل تصريحك.
- سجلوا ما شئتم! اكتبوا أنني لن أجيب عن هذا السؤال بحال من الأحوال! اكتبوا أن في الإجابة عن هذا السؤال إخلالاً بشرفي؟ ليس الوقت هو ما يعوزكم فيما يبدو؟
استأنف وكيل النيابة كلامه قائلاً بصوت أصبح قاسياً رصيناً على حين فجأة:
- أعتقد أن من واجبي أن أنبهك أيها السيد الفاضل، إذا كنت تجهل ذلك، أن من حقك طبعاً أن لا تجيب عن الأسئلة التي تلقى عليك، وأننا لا نملك أن نجبرك على الإجابة إذا أنت رأيت لسبب من الأسباب أن تخفي هذه النقطة أو تلك من النقاط. هذا من شأنك. ولكن من واجبنا أيضاً أن نلفت نظرك إلى الأذى الذي يمكن أن تلحقه بنفسك إذا أنت رفضت الإدلاء بالمعلومات المطلوبة. أرجوك الآن أن تتابع كلامك.
دمدم ميتيا يقول وقد أربكته اللهجة الرصينة التي خاطبه بها وكيل النيابة:
- ولكنني يا سادتي لم أغضب... أنا... أنا.. إن سامسونوف ذاك الذي ذهبت إليه حينذاك... يا سادتي...
لن ننقل هنا سلسلة الوقائع التي ذكرها ميتيا، فإن القارئ يعرفها. لقد أراد ميتيا أن يقدم عرضاً كاملاً ومفصلاً، وكان من جهة أخرى يستعجل إنجاز هذا العرض. لذلك كان يتكلم متسرعاً. غير أن تصريحاته كانت تسجل شيئاً بعد شيء، فكان هذا يضطره إلى التوقف دائماً من حين إلى حين، وكان هذا التوقف يضايقه ويزعجه، فكان يتوقف عن الكلام، ويدمدم متحلحلاً ولكن دون أن يخرج عن طيبته وبساطته. كان يتفق له أن يصيح قائلاً في بعض الأحيان: «أيها السادة، لو كان الله نفسه في مكاني لضاق صدره في هذه الظروف!» أو «لست أرى أيها السادة ما الفائدة من امتحان أعصابي على هذا النحو!»، ولكن دون أن يفسد ذلك من مزاجه الذي كانَ عندئذٍ منطلقا ودوداً. روى كيف أن سامسونوف قد خدعه قبل يومين (لقد أخذ يدرك الآنَ أن سامسونوف ضلَّله وغرر به). وذكر أنه باع ساعته بستة روبلات ليتمكن من السفر، وتلك واقعة كان يجهلها وكيل النيابة وقاضي التحقيق، وقد لفتت انتباههما وظهر عليهما أنهما اهتما بها اهتماماً شديداً. فكان من شأن إلحاحهما على هذه النقطة أن أخرج ميتيا عن طوره، لأنهما رأيا أن من الضروري تسجيل هذه الواقعة، دليلاً جديداً على أنه كان عشية وقوع الجريمة لا يكاد يملك قرشاً واحداً. ومنذ تلك اللحظة أخذ يتجهم وجه ميتيا مزيداً من التجهم شيئاً بعد شيء. وبعد أن روى قصة سفره سعياً إلى لياجافي، وقضائه ليلةً في الكوخ الذي تملؤه غازات الفحم المحترق، وصف عودته إلى المدينة، وأخذ يصوِّر، من تلقاء نفسه في هذه المرة، دون أن يُطلب منه ذلك، جميع تباريح غيرته على جروشنكا. فكان القاضيان يصغيان إليه بانتباه صامتين. وقد سجّلا خاصةً أنه كان قد أنشأ منذ زمن طويل، مركزاً للمراقبة وراء منزل فيدور بافلوفتش في حديقة ماريا كوندراتيفنا، وأنه كانَ يترصد جروشنكا من هناك، وأن سمردياكوف كان ينقل إليه أخباراً ويطلعه على ما يجري في منزل أبيه: هذه الظروف كلها قد سُجِّلت بكثير من العناية والاهتمام. وتكلم ميتيا عن غيرته بإفاضة وانفعال. ورغم الحرج النفسي الذي شعر به من عرض عواطفه الحميمة وتعرية نفسه أمام الناس، فقد حاول أن يتغلب على الخجل والحرج حرصاً منه على أن يقول الحقيقة صادقاً. غير أن النظرات القاسية الباردة التي كان يصبها عليه قاضي التحقيق ووكيل النيابة خاصةً محدِّقين إليه متفرسين فيه أثناء روايته القصة قد اضطربت منها نفسه آخر الأمر. قال في سرِّه حزيناً: إن هذا الصبي الغر نيقولاي بارفينوفتش الذي بادلته منذ عدة أيام أحاديث تافهة غثة عن النساء، وإن وكيل النيابة هذا المريض النفس، لا يستحقان أن يسمعا ما أفضي إليهما به من اعترافات نفسي. يا للعار!». ولكنه استرد عزيمته مردداً ذلك البيت من الشعر الذي يقول: «يا قلبُ صمتاً وإذعاناً وتسليماً» [196]. وتابع يروي قصته مجاهداً متجلداً. فلما وصل من حديثه إلى زيارته للسيدة خوخلاكوفا انبسطت أساريره من جديد وشاع في نفسه المرح، وأوشك أن يروي الحادث الذي وقع لهذه السيدة منذ حين ولا يعلق بالقضية. لذلك استوقفه القاضي عن الكلام بلطف وكياسة، راجياً منه أن ينتقل إلى «واقع أهم». حين وصف انصرافه من منزل تلك السيدة واليأس الذي اجتاح نفسه في الشارع، لم يُسقط من حديثه تلك الواقعة، وهي أنه قد خطر بباله «إنه لم يبق له إلا أن يذبح أحداً ويسلبه ماله بأقصى سرعة للحصول على ذلك المبلغ». عندئذٍ طلب منه القاضيان أن يتوقف عن الكلام وأسرعا يسجلان أنه «قد خطر بباله أن يذبح أحداً»، وتركهما ميتيا يسجلان أقواله دون امتعاض أو احتجاج. فلما وصل في حديثه أخيراً إلى اللحظة التي علم فيها فجأة أن جروشنكا قد كذبت عليه حين زعمت له أنها ستبقى عند سامسونوف إلى منتصف الليل، مع أنها في الواقع قد تركت التاجر العجوز بعد أن ودَّعها ميتيا ببضع دقائق أمام باب منزل كوزما كوزمتش، لم يملك أن يمنع نفسه من أن يصيح قائلاً: «لئن لم أقتل فينيا تلك حين علمت النبأ، فإن السبب الوحيد يا سادتي هو أني قد أعوزني الوقت».
سُجِّلت هذه الأقوال كذلك بعناية واهتمام. فكان ميتيا ينتظر، عابسّ الوجه مكفهر الأسارير، أن يفرغ الكاتب من كتابته؛ وهمَّ أن يشرح بعد ذلك كيف أسرع إلى حديقة أبيه، ولكن قاضي التحقيق قاطعه فجأة، إذ فتح محفظة أوراقه الموضوعة على الكنبة قربه، وأخرج منها مدق الهاون النحاسي، وسأله:
- هل تعرف هذه الأداة ؟ فقال ميتيا وهو يبتسم ابتسامة متجهمة:
- هذا؟ آ... نعم... طبعاً أعرفها! أرنيها... بل لا داعي لأن أراها... اللعنة!
قال قاضي التحقيق: - نسيت أن تتكلم عن مدق الهاون هذا. - اللعنة! ليس في نيتي أن أخفي عنكم هذا فهو لا غنى عنه في قصتي، أليس كذلك؟ كان ينبغي أن أذكر هذه الواقعة، فلولا هذا المدق لما وقع شيء. كل ما في الأمر أنه قد خرج من ذهني.
- هلا تفضلت فذكرت لنا الظروف التي تسلَّحتَ فيها بهذا المدق؟
- بكل سرور يا سادتي، سأتفضل.
وروى ميتيا كيف تناول مدق الهاون عَرَضاً وأسرع يخرج من مطبخ فينيا.
- ماذا كان هدفك من أخذ هذا السلاح؟
- ماذا كان هدفي؟ لم يكن لي غرض، وإنما أخذته هكذا وركضت...
- ما هذا الكلام؟ أكنت تأخذه لو لم يكن لك هدف؟ غلى ميتيا حنقاً. كان يتفرس في «الفتى الغر» مبتسماً ابتسامة عداء وكره. ذلك أنه كان يشعر بمزيد من الخزي والعار، شيئاً بعد شيء، من أنه ارتضى أن يصف «لأناس مثلهم»، بمثل هذا الصدق كله وبمثل هذا الاندفاع العاطفي كله فوق ذلك، مشاعر الغيرة التي كانت تعذبه.
- ما لنا ولهذا المدق اللعين؟
- ولكن...
- ولكن... حسناً، كنت أريد أن أدافع عن نفسي من كلاب الشارع... في الظلام... احتياطاً للمفاجأة..
- هل اعتدت، من قبل، حين تخرج ليلاً، أن تتسلح خوفاً من الظلام؟
- تفو! اللعنة! حقاً إنه ليستحيل الحديثَ معكم أيها السادة... كذلك صاح يقول ميتيا وقد بلغ أوج الغيظ والحنق. ثم التفت نحو الكاتب، فقال له بصوت فيه اهتياج غريب، وقد احمرّ وجهه غضباً:
- اكتب... اكتب حالاً: «إنني أخذت المدق على نية الذهاب فوراً إلى أبي فيدور بافلوفتش.. لقتله.. لتحطيم جمجمته...».
ثم هتف يقول مخاطبة قاضي التحقيق ووكيل النيابة، وهو يرشقهما بنظرة متحدية مستفزة:
- أأنتم راضون الآن أيها السادة؟ هل طبتم نفساً؟ هل اغتبطت قلوبكم؟
فأجابه وكيل النيابة بلهجة جافة:
- نرى أنك قد أعطيت هذا التصريح بسبب حنقك منا وبسبب ضيقك بهذه الأسئلة التي تُلقى عليك والتي تظن أنها تافهة. ولكنها في الواقع هامة جداً.

- رحماكم أيها السادة! أخذت هذا المدق.. طيب!
إن المرء يشعر أحياناً بالحاجة إلى أن يكون في يده شيء... الحق أني أجهل لماذا أخذته. لقد أخذته راكضاً، هذا كل شيء. ألاّ تخجلون أيها السادة دعونا من هذا وإلا فيميناً لن أحكي شيئاً بعد الآن!
قال ميتيا ذلك ووضع كوعيه على المائدة، وجعل رأسه في يده. كان جالساً إلى جانب بالنسبة إلى الرجلين، وكان ينظر إلى الحائط محاولاً أن يسيطر على غضبه. وكان يغريه فعلاً أن ينهض وأن يصرح بأنه لن يقول بعد الآن كلمة واحدة «ولو سيق إلى الموت»..
قال فجأة وهو يجاهد في سبيل أن لا ينفجر:
- أتعرفون أيها السادة؟ إنني، وأنا أصغي إليكم، أشعر بإحساس غريب... يذكّرني الإحساس بحلم... بحلم ما... يعاودني في كثير من الأحيان أثناء النوم... أحلم أن أحداً يطاردني في الليل، في الظلام... أحداً أخاف منه خوفاً رهيباً... إنه يبحث عني، وأحاول أنا أن أختبئ منه، أن أغيب عن بصره... فألوذ وراء باب أو وراء خزانة، فأحس بأن هذا يذلني... والرجل الآخر يعرف أين أنا، يعرف مخبئي، ولكنه يتظاهر بأنه يجهله ليطيل عذابي... وليتمتع بهلعي زمناً أطول... ذلك هو بعينه ما تفعلونه أنتم في هذه اللحظة أيها السادة! ذلك هو بعينه تماماً !
سأله وكيل النيابة: - أتراودك إذاً أحلام من هذا النوع؟
- أي نعم... ألاّ تريدون أن تسجلوا هذا أيضاً؟ - أجابه ميتيا
مبتسماً ابتسامة ساخرة.
- لا... لن نسجله، ولكنه إشارة هامة في الواقع. الحق أنك ترى أحلاماً غريبة...
- غير أن ما أراه الآن ليس حلماً! إنه واقع أيها السادة، هو واقع الحياة الرهيب! أنا ذئب وأنتم الصيادون. فهلموا وراء الذئب!
قاطعه قاضي التحقيق قائلاً له برقة ولطف:
- تخطئ إذ ترى الأمور هذه الرؤية. لماذا هذا التشبيه؟ فقال ميتيا غاضباً:
- بلى أيها السادة! إن هذا التشبيه يصدق على الظرف الحاضر كل الصدق!
غير أن جوابه هذا قد خفف عنه، فهدأ قليلاً، وأخذت الطيبة تغزوه من جديد، فتابع كلامه قائلاً:
- من حقكم أن تشكوا في مجرم أو متهم تعذبونه باستجوابكم ولكن حين يكون أمامكم إنسان مستقيم نبيل أيها السادة، وحين يكلمكم هذا الإنسان مستسلماً لأصدق اندفاعات قلبه (وأقول هذا بصراحة) فما ينبغي لكم عندئذٍ أيها السادة أن تشكوا في كلامه... لا يحق لكم أن لا تصدقوه... لا يحق لكم ذلك حينذاك... ولكن...
يا قلب صمتاً وإذعاناً وتسليماً ثم سألهم فجأة وقد أظلم وجهه:
- أأستأنف سرد قصتي؟ فأجابه نيقولاي بارفينوفتش: - طبعاً! أرجوك أن تفعل؟

-5-المحنة الثالثة

استأنف ميتيا سرد قصته بصوت كالح، ولكنه كان يحاول الآن، أكثر مما قبل ذلك، أن لا يُسقط أي واقعة من الوقائع التفصيلية. روى كيف وثب فوق السور ليدخل إلى حديقة أبيه، ووصف مشيته الصامتة للاقتراب من النافذة، عرض عرضاً دقيقاً ما جرى أثناء اللحظات التي ظل فيها متربصاً مراقباً وراء الشجيرات، وصوَّر تصويراً واضحاً - وهو يفصِّل كلماته - العواطف التي هزت نفسه حين كان يحاول قلقاً أن يعرف هل جروشنكا عند أبيه أم لا. ولكنه استغرب أن يرى أن وكيل النيابة وقاضي التحقيق يصغيان إليه في هذه المرة بتحفظ شديد وقد ظهرت في وجهيهما قسوة، وأصبحت أسئلتهما قليلة. كان يستحيل عليه أن يدرك من تعبير وجهيهما ما كانا يفكران فيه. قال في نفسه: «لا شك أنهما غاضبان مستاءان؛ فليكن ما يكون !». حتى إذا وصل من حديثه إلى الإشارة التي قرر أن يستعملها حتى يظن أبوه أن جروشنكا وصلت فيفتح النافذة، لاحظ أن قاضي التحقيق ووكيل النيابة لا يوليان هذا الأمر أي انتباه، فكأنهما لا يدركان خطورته ولا يفهمان ما هي تلك الإشارة التي يتحدث عنها، فاستغرب ميتيا ذلك أشد الاستغراب. فلما وصل أخيراً إلى اللحظة التي رأى فيها أباه يميل من على النافذة، فشعر بتأجج كرهه له وأخرج مدق الهاون من جيبه، توقف ميتيا عن الكلام كأنه تعمد ذلك، وأخذ يحدق إلى الجدار، ولكنه أحسَّ أن الرجلين يرقبانه بانتباه شديد.

قال وكيل النيابة:

- هيه، أخرجت السلاح من جيبك... ثمّ... ثم... ماذا حدث بعد ذلك؟

- بعد ذلك؟ قتلته... ضربته على رأسه وكسرت جمجمته... هذا ما حدث في زعمك وظنك، أليس كذلك؟

هكذا صاح ميتيا وقد قدحت عيناه شراراً. لقد تأجج الغضب في نفسه من جديد، بعنف متزايد.

قال نيقولاي بارفينوفتش: - ذلك في زعمنا نحن. طيب. فماذا في زعمك أنت؟ خفض ميتيا عينيه. وخيَّم صمت طويل. ثم استأنف ميتيا كلامه قائلاً بصوت هادئ:

- في زعمي أنا، إليكم ما حدث أيها السادة. لا أدري أبتهلت أمي إلى الله في تلك اللحظة، أم انسكبت دموع بريئة طاهرة لإبعاد الشر، أم أمسكني من يدي ملاك لا يُرى؟ المهم أن الشيطان قد غُلبَ. ابتعدت عن النافذة، وركضت متجهاً نحو السور.. ذعر أبي، وعرفني فجأة، وأطلق صرخته، وغاب عن النافذة... أتذكر هذا تذكراً واضحاً. اجتزت الحديقة، وأسرعت أبلغ السور، وفي تلك اللحظة إنما ظهر جريجوري الذي أدركني حين كنت قد راكبة على السور.

قرر ميتيا أخيراً أن يرفع عينيه نحو محدِّثيه. فلاح له أنهما كانا ينظران إليه بغير اكتراث. فألمّت به رعدة من غضب. وقال لهما:

- ألاحظ يا سادتي أنكم تسخرون مني! فسأله نيقولاي بارفينوفتش:

- ما سبب خطور هذه الفكرة ببالك؟

- إنكم لا تصدِّقون كلمة واحدة مما أقول، أنا أدرك هذا. فهمت: لقد وصلت إلى عقدة القضية. العجوز يرقد الآن جثةً هامدة محطم الجمجمة، وأنا، بعد أن وصفت لكم وصفاً فاجعاً كيف أردت أن أقتله، وكيف أخرجت مدق الهاون من جيبي لهذا الغرض، أصرّح لكم فجأة بأنني لم أزد على أن ابتعدت عن النافذة !.. هذه قصيدة حقاً، أليس كذلك؟ كان ينبغي أن يُقال هذا الكلام كله شعراً! كيف يمكن أن يصدِّق رجل مثلي؟ هاها!... إنكم تسخرون مني أيها السادة!

قال ميتيا هذا الكلام، واستدار ثقيلاً على كرسيه فقرقع الكرسي.

قال وكيل النيابة عندئذٍ دون أن يبدو عليه الاكتراث باضطراب ميتيا:

- هل لاحظت أثناء ابتعادك عن النافذة أكان الباب المفضي إلى الحديقة في الطرف الآخر من المبنى مفتوحاً أم كان مغلقاً؟

- كانَ مغلقاً.

- مغلقاً؟ أنت متأكد؟

- كل التأكد. كان ذلك الباب مغلقاً. ثم إنه ما كان لأحد أن يستطيع فتحه... هذا... هذا الباب... لحظة! (كذلك صاح ميتيا يقول مرتعشاً، كأن فكرة قد ومضت في ذهنه فجأة). ألعلكم وجدتم ذلك الباب مفتوحاً؟

- نعم، كان مفتوحاً.

- فمن عسى يفتحه إن لم تفتحوه أنتم؟

كذلك قال ميتيا مندهشاً كل الاندهاش. فقال وكيل النيابة بصوت رصين بطيء، مقطعاً كلماته:

- كان الباب مفتوحاً، ومن المؤكد أن قاتل أبيك قد دخل المنزل من هناك ؛ حتى إذا أتم جريمته خرج من ذلك الباب نفسه أيضاً. تلك نقطة نعدّها مفروغاً منها. فمما لا يخالجنا فيه ريب أن القاتل قد ارتكب جريمته في الغرفة وليس من خلال النافذة. إن هذه النتيجة يدّل عليها جميع ما شاهدناه، يدّل عليها وضع الجثة وتدل عليها مجموعة من القرائن الأخرى. لم يبق أي شك من هذه الناحية.

عبرَّ وجه ميتيا عن دهشة عميقة. وصاح يقول مرتبكاً:

- ولكن هذا مستحيل كل الاستحالة يا سادتي. أنا... أنا لمَ أدخل البيت! أؤكد لكم جازماً أن الباب ظل مغلقاً أثناء وجودي في الحديقة، وأنه كان مغلقاً أيضاً حين هربت. إنني لم أتحرك من مخبئي؛ ومن النافذة وحدها إنما رأيت.... من النافذة وحدها... إنني أتذكر جميع التفاصيل. وهبني لا أتذكرها، فإنني على يقين من أن الباب كان مغلقاً، لأن أحداً لم يكن يعرف الإشارات إلا أنا وسمردياكوف، والمتوفى طبعاً؛ وبدون الإشارة المتفق عليها لا يمكن أن يفتح العجوز الباب.

- الإشارات؟ عن أي إشارات تتكلم؟

كذلك سأله وكيل النيابة بفضول شره محموم أفقده وضع الرصانة والوقار في لحظة. كان في نبرة سؤاله شيء من ضراعة ووجل، ذلك أنه قد أحسَّ أن هناك واقعة هامة كان ما يزال يجهلها، وهو يخشى خشية شديدة أن يرفض ميتيا أن يكشفها له بأكملها.

أجابه ميتيا وهو يغمز بعينه ويبتسم ابتسامة ساخرة حانقة:

- آ... أنت لا تعلم؟ فما رأيك إذا لم أشأ أن أقول لك شيئاً عن أمر تلك الإشارات؟ من عسى يطلعك على ذلك في هذه الحالة؟ ذلك أن هذه الإشارات لا يعرفها أحد إلا أنا وسمردياكوف والمتوفى. إن أحداً لم يطلع على السر، فليس يعرفه، عدانا، إلا الله... ولكن الله لن يقول لك شيئاً عن هذا الأمر؛ وهو أمر هام إلى أبعد الحدود، لا يعرف إلا الشيطان جميع النتائج التي يسمح بالوصول إليها. ها ها ها، اطمئنوا يا سادتي سأكاشفكم بالأمر، مخاوفكم حمقاء ! إنكم لا تعرفون الإنسان الذي تخاطبونه. إن أمامكم متهماً يتلذذ بجمع القرائن التي تشهد عليه !... نعم! ذلكَ أنني أنا فارس شرف، ولكنني لن أقول مثل هذا الكلام عنكم أنتم!

تغاضى وكيل النيابة عن هذه الأقوال الجارحة، لأنه كان يحترق رغبةً لمعرفة الواقعة الجديدة. تكّلم ميتيا بإفاضة ودقة عن كل ما يتصل بالإشارات التي تصورها خيال فيدور بافلوفتش لاستعمال سمردياكوف، وأوضح معنى كل طريقة من تلك الطرق المختلفة في قرع النافذة، ومثلها هو نفسه بالضرب على المائدة. فسأله نيقولاي بارفينوفتش عندئذٍ هل قرع النافذة بالإشارة المتفق عليها لينبىء فيدور بافلوفتش بأن جروشنكا وصلت»، فأجابه ميتيا بأنه قد قرع النافذة فعلاً بعدد الضربات

المتفق عليها لإعلان وصول جروشنكا. وختم ميتيا كلامه قائلاً:

- فها أنتم أولاء اطلعتم على الأمر. هلموا أجمعوا القرائن فوق القرائن، واستخرجوا نتائجكم.

ثم حول وجهه عن الرجلين باحتقار. سأله نيقولاي بارفينوفتش مرة أخرى:

- أنت تؤكد إذاً أنه لم يكن أحد غيركم، أنت وأبوك والخادم سمردياكوف، يعرف هذه الإشارات، أليس كذلك؟ ألم يطلع عليها أحد غيركم البتة؟

- لم يطلع عليها أحد غير سمردياكوف والله. لا تنسوا أن تسجلوا أن الله كان على علم بالسر. قد يكون العون الإلهي ضرورياً لكم أنتم أيضاً في هذه القضية.

أسرعوا يسجلون جميع هذه التفاصيل. ولكن بينما كان الكاتب يكتب، قال وكيل النيابة فجأة كان افتراضاً جديداً قد ومض في ذهنه على حين بغتة:

- ولكن إذا كان سمردياكوف يعرف هذه الإشارات هو أيضاً، وإذا كنت تنكر من جهة أخرى أن تكون أنت قاتل أبيك، أفلا يمكن أن يكون هذا الخادم نفسه قد قرع الإشارة المتفق عليها، فاستدرج أباك إلى فتح الباب، ثم... ارتكب الجريمة؟

فرشقه ميتيا بنظرة فيها سخرية شديدة وكره عنيف في آن واحد؛ وظل يحدِّق إليه مدة طويلة دون أن ينطق بكلمة واحدة، حتى إن عيني وكيل النيابة أخذتا تطرفان. ثمّ انفجر ميتيا يقول أخيراً:

- تريد أن تقبض على الثعلب من جديد بإمساك ذيل هذا الملعون؟ ها ها ها!.. لقد أدركت لعبتك يا وكيل النيابة ! خيِّل إليك أنني سأثب على هذا «الطعم»،

الذي تمده إليّ، وأنني سأتبنى هذا التعليل الجميل الذي توحي به، أليس كذلك؟ لا شك أنك كنت تتوقع أن أصيح ملء حنجرتي قائلاً: «نعم، نعم، هو سمردياكوف ؛ سمردياكوف هو القاتل» اعترف بأن هذه هي فكرتك الخفية، اعترف بذلك، فأتابع قصتي.
ولكن وكيل النيابة لم يعترف، بل ظل ينتظر صامتاً. قال ميتيا: - خطأ! لن أتهم سمردياكوف. لا ولا يساورك أي شك فيه؟ - وأنت هل يساورك هذا الشك؟ هل تشتبه فيه؟
- لقد تصورنا هذا الاحتمال أيضاً.
أطرق ميتيا إلى الأرض. ثم استأنف يقول وقد أظلم وجهه على حين فجأة:
- كفى مزاحاً. وإليكم ما أريد أن أقوله لكم. إذا شئتم الجد إنني منذ البداية، وفي اللحظة التي أزحت فيها الستائر متقدما نحوكم، في تلك اللحظة تقريباً، ومضت في ذهني هذه الفكرة: «أيكون هو سمردياكوف؟...». ثم، حين جلست أمامكم، وبينما كنت أصيح قائلاً إنني لم أسفح دم أبي، كنت أقدر في قرارة نفسي أن سمردياكوف قد يكون هو القاتل، ولم يبارح هذا الافتراض ذهني بعد ذلك. وفي هذه الدقيقة نفسها، بينما كنت تلقي على هذا السؤال، قلت لنفسي مرة أخرى: «إنه سمردياكوف!»، ولكنني سرعان ما انتهيت إلى هذه النتيجة قائلاً في سري: «لا... ليس هو سمردياكوف!». ليست هذه الجريمة من صنعه. سأل نيقولا بارفينوفتش محاذراً:
- هل تشتبه إذا في شخص آخر؟ فقال ميتيا جازماً:
- لا أدري من عسى يكون القاتل، اللهم إلا أن يكون الله أو أن يكون الشيطان هو الذي تدخل في الأمر... ولكن لا يمكن أن يكون سمردياكوف هو القاتل.
- ما الذي يدفعك إلى أن تؤكد جازماً هذا الجزم، ملحاً هذا الإلحاح، أن القاتل ليس سمردياكوف؟
- هو اقتناع داخلي يستند إلى إحساسات كثيرة. إنني أعتقد أنه ليس القاتل، لأنه إنسان ذو طبيعة حقيرة جداً، ولأنه رعديد فوق كل شيء. ليس سمردياكوف رجلاً جباناً بل هو جميع أنواع الجبن في هذا العالم قد تجسدت كائناً حياً يسعى، إن هذا الرجل هو الخوف نفسه متجسداً أيها السادة؛ لقد ولد هذا الرجل في خم! كان، كلما كلمته، يرتجف خوفاً من أن أقتله، مع أني لم أكن أرفع يدي عليه. كانَ يرتمي على قدميّ باكياً ويقبل حذاءيّ ضارعاً إليّ أن لا «أخيفه». هل تسمعون؟ «أن لا أخيفه !» ماذا تعني هذه الكلمة؟ ومع ذلك كنت لطيفاً معه على الدوام، وكنت أهدي إليه الهدايا. هذا فرخ ممروض مصاب بالصرع متأخر العقل يستطيع أن يضربه طفل في الثامنة من عمره. أهذا رجل؟ لا يا سادتي، ليس لسمردياكوف ضلع في هذا الأمر. ثم إنه لا يحب المال، ولقد كان يرفض المكافآت التي كنت أريد أن أهبها له. وما عسى يكون الباعث له على قتل العجوز؟ ربما كانَ سمردياكوف ابن العجوز، ابنه غير الشرعي، هل تعرفون هذا؟
- نعرف هذه الشائعة. ولكنك أنت أيضاً ابن فيدور بافلوفتش، ثم لم يمنعك ذلك من أن تعلن في كل مكان أنك تنوي قتله.
- وهذا حجر آخر في حديقتي! إنها لحقارة وحطة منكم أن تأخذوا عليّ هذا أيها السادة! ومع ذلك أنا لا أخشى غمزاتكم ولمزاتكم! ولكن ألستم ترون أيها السادة أنه ليس لائقاً أن ترموا وجهي بما أسررت به إليكم أنا نفسي؟ أنا لم أشأ أن أقتله فحسب، بل كان في وسعي أن أفعل، وقد اتهمت نفسي أمامكم بأنني أوشكت أن أصرعه ذات يوم. غير أنني لمَ أقتله، فإن ملاكي الحارس قد حماني من ارتكاب هذه الجريمة... ولكنكم لا تعتقدون أن عليكم أن تقيموا وزناً لهذا الكلام. ذلكَ هو الشر في موقفكم، ذلك هو في موقفكم ما يستحق الاحتقار! إنني لم أقتله، إنني لم أقتله، لا، لم أقتله، هل تسمع يا وكيل النيابة؟ أنا لم أقتله؟
كان ميتيا يوشك أن يختنق. إنه لم يضطرب هذا الاضطراب الشديد كله في أية لحظة أخرى أثناء الاستجواب. وسأل بعد صمت:
- فما الذي قاله لكم صاحبنا سمردياكوف؟ هل يجوز لي أن أسألكم عن هذا؟
فأجابه وكيل النيابة قائلاً بلهجة قاسية جافة:
- من حقك أن تلقي علينا ما تشاء من أسئلة. إنني أسمع لجميع الأسئلة التي تتصل بالظروف المادية للقضية. أعود فأقول لك إن من واجبنا أن نطلعك على جميع النقاط التي قد تثيرها. لقد وجدنا هذا الخادم سمردياكوف الذي سألت عنه الآن راقداً على سريره مغشياً عليه يعاني من نوبة صرع شديدة، هي النوبة العاشرة فيما أظن، لأن النوبات تتلاحق بلا انقطاع، حتى لقد صرّح الطبيب الذي رافقنا صرّح، بعد أن فحصه، أن أغلب الظن أنه لن يعيش بعد هذه الليلة.
- فالشيطان هو الذي قتل أبي إذن!
بهذا هتف ميتيا، كأنه لا يزال يتساءل حتى تلك اللحظة: «أهو سمردياكوف أم لا؟»..
قال نيقولاي بارفينوفتش حاسماً المناقشة:
- سنعود إلى هذه المسألة فيما بعد. هل يمكنني أن أرجوك أن تستأنف سرد الوقائع؟
طلب ميتيا أن يؤذن له بأن يستريح بضع لحظات، فوافق رجال القضاء على ذلك بلطف وكياسة. وتابع ميتيا كلامه بعد انقطاع قصير، ولكن كان واضحاً أنه أصبح خائر القوى، وأن الاستجواب قد أرهقه وأهانه، وأن نفسه كانت مهتزة مستاءة. ثم إن وكيل النيابة كان يبدو أنه يتعمّد الآن أن يثير أعصابه بتصديعه في كل لحظة بأسئلة تتناول أموراً تافهة لا قيمة لها. من ذلك مثلاً أنه ما كاد ميتيا يصف كيف جثم على السور وكيف ضرب بمدق الهاون الخادم جريجوري الذي تشبث بساقه اليسرى وكيف سارع يثب إلى الحديقة بعد ذلك ويميل على الضحية، حتى استوقفه وكيل النيابة راجياً منه أن يوضح طريقة جلوسه على السور.
فدهش ميتيا من هذا الإلحاح، وقال يجيبه:
- جلست... هكذا... راكباً... كركوبي على حصان... في كل جهة ساق.
- ومدقّ الهاون؟ - مدق الهاون؟ كنت أمسكه بيدي.
- لا في جيبك؟ هل تتذكر هذا تذكراً تاماً؟ هل اندفعت اندفاعة قوية لتضربه؟
- لا بد... ما دمت قد ضربت ضربة قوية. لماذا هذا السؤال؟
- هل لك أن تجلس على هذا الكرسي بالطريقة التي جلست بها على السور، وأن تقلد الحركة التي قمت بها، والاندفاعة التي اندفعتها بذراعك، والجهة التي سددت إليها الضربة، زيادةً في الإيضاح؟
سأل ميتيا محدِّثة وهو يرشقه بنظرة متكبرة: - أتراك تسخر مني؟
ولكن وكيل النيابة لم تطرف عينه. فاستدار ميتيا فوق كرسيه بحركة عصبية، وجلس عليه راكبا ركوبه على حصان، ورفع ذراعيه، وقال:
- انظروا كيف ضربته، انظروا كيف قتلته! أأنتم راضون الآن؟
ماذا تريدون أيضاً؟
- شكراً. هلاً شرحت لنا الآن لماذا وثبت بعد ذلك إلى الحديقة، وماذا كان هدفك من هذا؟ ماذا كانت نيتك؟
- عجيب... هل أعرف لماذا؟ وثبت لأنظر إلى الرجل المصروع.
- لقد قفلتَ راجعاً إلى الحديقة مع أنك كنت تعاني انفعالاً شديداً وكنت تريد أن تهرب. فهلاً شرحت لنا هذا؟
- نعم، كنت منفعلاً وكنت أريد أن أهرب.
- فهل كان في نيتك أن تسعفه؟
- لا... على كل حال، لا أدري. ولكن... أردت أن أسعفه، ولعلّني أشفقت عليه. لا أتذكر الآن.
- لا تتذكر ؟ أكنت قد أصبحت لا تعرف ماذا تفعل؟
- بل كنت واعية كل الوعي، وإني لأتذكر أيسر التفاصيل. لقد أردت أن أرى الحالة التي كان عليها، وأن أمسح دمه بمنديلي.
- عثرنا على المنديل. هل كنت تأمل إنقاذ حياة الإنسان الذي صرعته؟
- لا أدري هل كنت آمل ذلك. لقد أردت، بكل بساطة، أن أعرف أهو ما يزال حياً أم لا؟
- ها؟ أردت أن تعرف أهو ما يزال حياً أم لا؟ فماذا وجدت عندئذٍ؟
- لم أستطع التأكد، لأنني لست طبيباً. ثمّ هربت معتقداً أني قتلته. وها هو ذا صحا من إغمائه...
قال وكيل النيابة أخيراً:
- عظيم. شكرة. ذلك بعينه ما كنت أريد أن أعرفه. هلاً تفضلت فتابعت سرد الوقائع؟
واأسفاه! لم يخطر ببال ميتيا - رغم أنه يتذكر تذكراً واضحاً – أن يذكر أنه إنما وثب إلى الحديقة بدافع الشفقة، وأنه حين مال على العجوز جريجوري قد نطق بكلمات تعبّر عن الشفقة على ذلك العجوز الذي آلمه أن يراه مجندلاً في هذا المكان. إن كل ما حفظه وكيل النيابة من أقوال ميتيا هو أنه وثب عن السور «في

لحظة كتلك اللحظة، رغم الاضطراب الشديد الذي كانَ يعانيه»، دون أن يكون له من هدف إلا أن يعرف هل الشاهد الوحيد على جريمته ما يزال حياً أم أنه مات. واستخلص وكيل النيابة أن هذا السلوك يدل على قدر كبير من هدوء الأعصاب وقوة التصميم ودقة الحساب لدى هذا الرجل حتى في اللحظة وإلخ.. وإلخ. وكان وكيل النيابة راضياً وهو يقول لنفسه: «لقد استطعت أن أنهك قواه بهذه «السفاسف»، فإذا هو يفضح نفسه».
وتابع ميتيا سرد قصته في عناء ومشقة، ولكن نيقولاي بارفينوفتش استوقفه عن الكلام من جديد. سأله:
- كيف ذهبت إلى الخادمة فيدوسيا ماركوفنا مع أن الدم كان ما يزال يلطخ يديك وحتى وجهك، كما ثبت ذلك فيما بعد؟
- لم ألاحظ عندئذٍ أنني كنت مضرجاً بالدم. قال وكيل النيابة وهو ينظر إلى قاضي التحقيق:
- إنه يقول الحقيقة الآن، فذلك ما يحدث عامة في مثل هذه الحالة.
فقال ميتيا مؤيداً كلامه بحرارة:
- لم ألاحظ ذلك عندئذٍ، نحن الآن متفقان كل الاتفاق يا سيادة وكيل النيابة !
بقي عليه أن يروي كيف قرر فجأة أن «يتنحى عن الطريق»، وأن «يخلي الدرب للحبيبين السعيدين». ولكنه أحسَّ أنه لا يملك الآن، كما كان يملك في بداية الاستجواب، القدرة على أن يفتح قلبه، وأن يتحدث عن «ملكة قلبه» حديثاً طلقاً حراً. إن شعوراً بالاشمئزاز أمام هذين الإنسانين الفاترين اللذين يثبتان عليه أعينهما، بل يغرسانها في لحمه غرساً كحشرات تمص دمه»، إن شعوراً بالاشمئزاز كانَ يصدّه عن الانطلاق في الكلام. فاقتصر على بضعة أجوبة مقتضبة جافة عن أسئلة مكرّرة ألقيت عليه حول هذه النقطة.
- نعم قررت أن أنتحر. لم يبق ثمة ما يربطني بالحياة ويشدني إليها، وكان هذا الحل يفرض نفسه بنفسه. إن صديقها القديم الذي لا يمكن جحوده والذي أهانها في الماضي قد عاد إليها بعد خمس سنين ممتلىء القلب حباً، ليتزوجها فيصلح بذلك ما أفسد من أمرها، ويزيل عنها الأذى الذي ألحقه بها. أدركت عندئذٍ أن كل شيء قد انتهى... وعدا هذا كان يلاحقني ذلك العار، وكان ورائي دم جريجوري هذا... ففيم الحياة بعد ذلك كله؟ هكذا ذهبت إلى ذلك الموظف لأستردَّ منه المسدسين، وحشوت أحدهما على نية أن أطلق في رأسي رصاصة منذ الفجر...
- وبانتظار ذلك، قررت أن تلهو وأن تعبث وأن تقصف طوال الليل؟
- نعم، نعم، قررت ذلك! هلاَّ انتهينا من هذا أيها السادة! لقد عزمت عزمة أكيدة على أن انتحر في مكان غير بعيد من هنا، في أقصى هذه القرية، وكان ينبغي أن أنفذ عزمي هذا في الساعة الخامسة من الصباح. وقد هيأت كلمة أشرح فيها السبب، ووضعتها في جيبي. لقد كتبتها عند برخوتين حين حشوت مسدسي. إليكم الورقة التي كتبت عليها تلك الكلمة، اقرأوها إن شئتم وأضاف يقول فجأة باحتقار: - ولست أروي هذا كله من أجلكم أنتم.
ثم سل من جيب صديرته ورقة ورماها على المائدة. قرأ وكيل النيابة وقاضي التحقيق الورقة باستطلاع شديد، وضمّاها إلى الملف وفقا للأصول.
- ألم يخطر ببالك أن تغسل يديك قبل أن تذهب إلى السيد برخوتين؟ ألم تكن تخشى إذاً أن توقظ شبهات وشكوكاً؟
- شبهات وشكوكاً؟ بماذا يهمني هذا؟ كنت سأجيء إلى هذا المكان لأطلق على رأسي رصاصة في الساعة الخامسة من الصباح ولو لم تَحُم حولي شبهة ارتكاب جريمة. وما كان لوقتكم أن يتسع عندئذٍ لتدخلكم. فلولا المصيبة التي حلت بأبي، لما عرفتم شيئاً ولما وُجدتم الآن هنا. ذلك من صنع الشيطان. إن الشيطان هو الذي قتل أبي وتولى مهمة إبلاغكم بهذه السرعة! ماذا فعلتم حتى استطعتم أن تصلوا إلى هنا في زمن قصير هذا القصر؟ ذلك أمر لا يصدَّق!
- ذكر لنا السيد برخوتين أنك حين دخلت عليه كنت تمسك بيديك... بيديك الداميتين... أوراقاً مالية... مبلغاً ضخماً...
حزماً من الأوراق المالية من فئة المائة روبل؛ ويظهر أن خادمه الصبي قد رأى هذه الأوراق المالية أيضاً.
- صحيح. فعلاً. أظن أنني أتذكر هذا. قال نيقولاي بارفينوفتش بصوت رقيق جداً:
- هنا ينبثق سؤال صغير. ألا تستطيع أن تقول لنا من أين جاءك هذا المال، مع أن جميع الظروف تدل على أنك لم يتسع وقتك حتى للمرور بمنزلك؟
انتفض وكيل النيابة قليلاً حين سمع هذا السؤال يلقى دفعةً واحدة بهذه الطريقة المباشرة، ولكنه لم يقاطع قاضي التحقيق.
أجاب ميتيا قائلاً بهدوء ظاهر، ولكن مطرقاً إلى الأرض: - لم أمر ببيتي فعلاً؟ فعاد نيقولاي بارفينوفتش يقول برفق مَنْ يزحف نحوضحيته:
- فاسمح لي إذاً أن أكرر سؤالي: من أين جئت بهذا المبلغ ما دام ينتج من تصريحاتك نفسها أنك في الساعة الخامسة بعد الظهر كنت...
ولكن ميتيا قاطعه قائلاً بصوت جاف:
- كنت في حاجة ملحة إلى عشرة روبلات، فرهنت مسدسيَّ عند برخوتين، ثم ذهبت إلى السيدة خوخلاكوفا لأقترض منها ثلاثة آلاف روبل، فرفضت أن تقرضني، وهلم جرا... أعرف القصة. كنت لا أملك قرشاً واحداً، أليس كذلك أيها السادة، ثم إذا بي أملك ألوف الروبلات على حين فجأة، هه؟ أحسب أيها السادة أنكم ترتجفون خوفاً من أن أرفض أن أذكر لكم مصدر هذا المال، أليس كذلك ؟ طيب.. أنا أرفض، نعم أرفض أن أشير لكم إلى مصدر المال. لقد حزرتم. لن أتكلم، ولن تعرفوا شيئاً عن هذه النقطة.
كذلك حسم ميتيا الكلام بلهجة قاطعة وهيئة حازمة. وساد صمت. واستأنف نيقولاي بارفينوفتش حديثه يقول بلهجة فيها رفق وإذعان:
- اعلم يا سيد كارامازوف أنه لا غنى لنا عن معرفة مصدر المال.
- أدرك ذلك، ولكني مع هذا لن أقول لكم شيئاً.
وتدخل وكيل النيابة هو أيضاً، فذكّر ميتيا مرة أخرى بأن من حق المتهم أن لا يجيب عن الأسئلة الملقاة عليه إذا هو قدر أن الصمت أنفع له وأجدى، ولكن لما كان يتعرض باتخاذ مثل هذا الموقف لأن يلحق بنفسه أذى، ولا سيما حين يكون الأمر أمر وقائع لها مثل هذه الخطورة...
فقاطعه ميتيا قائلاً بفظاظة:
- وهلم جرا أيها السادة، وهلمَّ جرا! كفى! لقد سبق أن سمعت هذه الأقوال المعادة المكرورة! ثمّ إنني أدرك أنا نفسي خطورة هذه الظروف، وأعلم أنها النقطة الرئيسية في القضية، ولكنني مع ذلك لن أتكلم.
فقال نيقولاي بارفينوفتش بلهجة عصبية:
- هي مصلحتك أنت لا مصلحتنا نحن على كل حال ! لك أن تفاقم حالتك ما دمت حريصاً على ذلك!
رفع ميتيا عينيه، ونظر إليهما بصلابة وثبات قائلاً:
- اسمعوا أيها السادة. كفى مزاحاً. لقد أحسست منذ البداية أننا سنصطدم عند هذه النقطة. ولكن حين بدأتْ قصتي هذه كان هذا الحاجز ما يزال يبدو لي في مكان بعيد غائم، كأنه غارق في الضباب، حتّى لقد بلغت من السذاجة في تلك اللحظة إني اقترحت عليكم أن نقف دفعةً واحدة على «أرض الثقة المتبادلة». وإني لأدرك الآن أن هذه الثقة كانت مستحيلة، لأننا كنا سنصطدم بهذا الجدار عاجلاً أو آجلاً... وها نحن أولاء نصطدم به... فمن المستحيل أن نستمر. هذا كل شيء. ولست ألومكم على كل حال، فإنني أفهم حق الفهم أنكم ليس في وسعكم أن تصدقوا ما أذكره لكم على عهد الشرف.
قال ميتيا ذلك وصمت مظلمَ الوجه. - ألا تستطيع على الأقل، دون أن تتزحزح عمَّا عزمت عليه من
صمت حول النقطة الأساسية، أن تذكر لنا ولو بإشارة يسيرة البواعث القوية التي أمكنها أن تحملك على أن لا تجيب عن سؤالنا في ساعة خطيرة وخطرة إلى هذا الحد بالنسبة إليك؟
ابتسم ميتيا حزيناً واجماً مفكراً.
- أنا خير مما تتصورون أيها السادة، سأشرح لكم هذه البواعث، سأذكر لكم ما تطلبونه، رغم أنكم لا تستحقون ذلك كثيراً! إنني أرفض أن أتكلم لأنني أخشى العار. إن الجواب على السؤال عن مصدر ذلك المبلغ من المال يشتمل بالنسبة إليَّ على دناءة إذا قيست بها جريمة قتل أبي وسلبه المال بدت أمراً هيناً يسيراً، حتى ولو كنت أنا المجرم. ذلك هو سبب اضطراري إلى الصمت. إن الشعور بالعار يخنقني. ماذا تفعلون أيها السادة؟ أتريدون أن تسجلوا هذه الأقوال أيضاً؟
تمتم نيقولاي بارفينوفتش يقول: - نعم، سنسجلها.
- ما ينبغي لكم أن تسجلوا ما قلته عن «الدناءة والعار». لقد أوضحت الأمر لكم لأنني أملك قلباً طيباً. كان يمكنني أن أمنع عنكم هذا الإيضاح. لقد قدمت إليكم هذا الإيضاح بغير داعٍ إلى ذلك، فهل تسارعون إلى تسجيله أيضاً؟ ليكن أيها السادة! اكتبوا ما شئتم أن تكتبوا، أنا لا أخشاكم، ولن أطأطئ رأسي أمامكم.
بهذا ختم ميتيا كلامهً في احتقار واشمئزاز. دمدم نيقولاي بارفينوفتش يسأله:
- هل تقبل أن تقول لنا ما نوع الدناءة التي تعنيها؟ تجهم وجه وكيل النيابة تجهماً شديداً.

- C'est fini.[197]
لا تلحوا! إنني إذ تكلمت أمامكم قد دنست نفسي بما فيه الكفاية، فعلام أدنس نفسي مزيداً من الدنس؟.. أنتم لا تستحقون صراحتي، لا أنتم ولا أحد غيركم. كفى أيها السادة، لن أقول بعد هذه اللحظة كلمة واحدة.
تكلم ميتيا بلهجة قاطعة جداً؛ فاعتقد نيقولاي بارفينوفتش أنه لا جدوى من الإلحاح، ولكنه سرعان ما أدرك من نظرة ايبوليت كيريليوفتش أن هذا لم ييأس بعد.
- قل لنا على الأقل مقدار المال الذي كان بيديك حين وصلت إلى السيد برخوتين. كم روبلاً كانَ المبلغ؟
- لا أستطيع أن أقول.
- ألم تتحدث إلى السيد برخوتين عن ثلاثة آلاف روبل زعمت أنك اقترضتها من السيدة خوخلاكوفا؟
- ربما ذكرت له شيئاً من هذا القبيل. كفى أيها السادة، لن أقول بعد هذا كلمة واحدة.
- أوضح لنا إذاً كيف جئت إلى هنا، وماذا فعلت منذ وصولك إلى موكرويه؟
- ستعرفون ذلك بسهولة متى سألتم الأشخاص الآخرين الموجودين هنا. على كل حال، لا أرى بأساً في أن أروي لكم هذا.
وقص عليهم ميتيا قصة هذه الليلة التي يعرف القارى جميع تفاصيلها. وكان يتكلم هذه المرة في جفاف، مقتصراً على إشارات مقتضبة، فلم يتحدث عن اندفاعات حبه الحارة. ومع ذلك ذكر أن عزمه على الانتحار قد زال بسب «ظروف جدية». ولم يتحدث عن دوافعه، بل اقتصر على الوقائع الأساسية وحدها. ولم يزعجه أحد بالأسئلة أثناء ذلك، فلقد كان واضحاً في نظر وكيل النيابة وقاضي التحقيق أن الأمر الأساسي ليس هنا.
قال نيقولاي بارفينوفتش ليختم الاستجواب:
- سنتحقق من صدق أقوالك، وسنعود إليها حين نسمع أقوال الشهود، بحضورك طبعاً. أحبّ أن أرجوك الآن أن تضع على هذه المائدة جميع الأشياء التي معك، ولا سيما الأموال... جميع المبالغ التي هي في حوزتك الآن.
- المال أيها السادة؟ طيب، طيب... أنا أفهم أن هذا لا بد منه، بل إني لأستغرب أنكم لم تظهروا هذا الفضول قبل الآن. وما كان لي أن أتهرب طبعاً، ما دمتم تراقبونني. إليكم المال. عدُّوه. خذوا. أحسب أن هذا كل شيء...
أفرغ ميتيا جيوبه إفراغاً كاملاً، وأخرج حتى النقود الصغيرة، ومنها قطعتان نقديتان من فئة العشرة كوبكات، أخرجها من جيب صديرته. وجمعت الأموال، فبلغت ثمانمائة وستة وثلاثين روبلاً وأربعين كوبيكاً.
سأله القاضي:
- أهذا كل شيء؟
- نعم.
- لقد تفضلت فقلت لنا منذ قليل، أثناء سرد الوقائع، أن ثمن ما اشتريته من متجر آل بلوتنيكوف قد بلغ ثلاثمائة روبل، فإذا أضفنا إليها العشرة روبلات التي رددتها إلى برخوتين، والعشرين روبلاً التي أعطيتها للحوذي، والمائتي روبل التي خسرتها في اللعب بالورق أثناء الليل، ثم...
أجرى نيقولاي بارفينوفتش الجمع تفصيلاً، وكان ميتيا يساعده راضياً، ووُضعت قائمة دقيقة بجميع النفقات، وحسب نيقولاي بارفينوفتش الحاصل، فقال:
- فإذا حسبنا الثمانمائة روبل التي بقيت لك، كان معنى هذا إنك كنت تملك ألفاً وخمسمائة روبل، أليس كذلك؟
- ممكن.
- فكيف يُجمع الشهود إذا على أن المبلغ أكبر من ذلك؟
- لهم أن يقولوا ما يشاؤون.
- لقد أكدت أنت نفسك أنك كنت تملك أكثر من هذا.
- لعلني أكدت ذلك.
- سنمتحن هذه الوقائع على ضوء شهادات الشهود الآخرين. أما المال فلا تخشى عليه. سنحتفظ به في مكان مأمون، وسيُردُّ؛ إليك في نهاية... هذا التحقيق... إذا ظهر عندئذٍ أو قل إذا ثبت عندئذٍ ثبوتاً قاطعاً أنه لك أنت بغير شك... أما الآن...
قال نيقولاي بارفينوفتش هذا، ونهض فجأة، وأعلن لميتيا بصوت قاطع أنه يرى نفسه «مضطراً» إلى أن «يفتش ملابسه وكل ما معه تفتيشاً دقيقاً»..
- افعلوا أيها السادة. سأقلب جيوبي إن شتم. وأخذ يقلب جيوبه.
- ليس هكذا. لا بد من أن تخلع ملابسك.
- ماذا؟ أخلع ثيابي؟ اللعنة... الا يكون نبش جيوبي أسهل من ذلك؟ أهذا غير ممكن؟
- غير ممكن يا دمتري فيدوروفتش. يجب أن تخلع ثيابك. قال ميتيا عابساً مذعناً:
- كما تشاؤون. ولكن ليس هنا، بل وراء الستائر...
أرجوكمَ... من يتولى التفتيش؟
قال قاضي التحقيق وهو يحني رأسه موافقاً.
- طبعاً وراء الستائر. وطاف بوجهه الصغير عندئذٍ تعبير عن وقار خاص.

- 6 -وكيل النيابة يشوش ميتيا

إن ما حدث عندئذ لم يكن في حسبان ميتيا أبداً. ما كان له أن يتخيل، قبل دقيقة واحدة، أن من الممكن أن يعاملوه هذه المعاملة، هو، دمتري كارامازوف! إن في هذا إذلالاً له، «وازدراءً متعالياً» منهم! وليتهم لم يطلبوا منه أن يخلع إلا سترته. لقد رجوه أن يخلع ملابسه كلها... بل لم يكن هذا منهم رجاء، وإنما كان في الواقع أمراً، وقد فهم هو ذلك، فخضع للأمر دون أن يتذمر أو ينطق بكلمة واحدة، كبرياءً واشمئزازاً! وقد دخل إلى ما وراء الستائر، عدا وكيل النيابة وقاضي التحقيق، عدد من الفلاحين أيضاً، فقال ميتيا يحدث نفسه: «لقد دخل هؤلاء للمساعدة في إجباري على خلع ملابسي، وربما لبواعث أخرى كذلك».

سأل ميتيا بخشونة:

- هه! هل أخلع القميص أيضا؟

ولكن نيقولا بارفينوفتش لم ير داعياً إلى الإجابة. لقد كان مشغولاً مع وكيل النيابة بتفتيش السترة والسروال والصديرة والقبعة. وكان يبدو على الرجلين أن هذا التفتيش يهمهما إلى أقصى حد. قال ميتيا في نفسه: «أصبحا لا يتحرجان من شيء، ولا يراعيان أبسط قواعد الأدب واللياقة !» وقال يسألهما بلهجة أشد خشونة وحدة:

- أسألكم مرة أخرى: أيجب أن أخلع القميص أم لا؟

فأجابه نيقولا بارفينوفتش قائلا بلهجة آمرة (كان هذا إحساس ميتيا على الأقل):

- لا تقلق، سنقول لك ذلك في حينه.

كان وكيل النيابة وقاضي التحقيق يتبادلان الرأي بصوت خافت. إن هناك بقع دم، متخثرة جافة واضحة كل الوضوح، تظهر على السترة، ولا سيما في الظهر وفي الحافة اليسرى. وإن هناك بقع دم أخرى ترى على السروال أيضاً. وعدا ذلك أخذ نيقولا بارفينوفتش، بحضور الفلاحين المكلفين، يجس الياقة وطيات الأكمام، ويجس كذلك مختلف ثنيات الثياب، كأنه يقدر أن يكتشف فيها شيئاً... هو المال طبعا.. وأخطر ما في الأمر أن الرجلين كانا يدلان بذلك، بحضور ميتيا، على أنهما يريان أن من الجائز جداً أن يكون قد أخفى المال المسروق في بطانات الثياب. فجمجم ميتيا يقول: «إنني أعامل الآن معاملة لص، لا معاملة ضابط». لقد كانا يتبادلان الآراء بصوت عال وصراحة تامة دون اكتراث بوجوده. من ذلك مثلاً أن الكاتب، الذي كان كثير الحركة هو أيضاً وبدت عليه الرغبة في أن يخدم، قد لفت انتباه نيقولا بارفينوفتش إلى القبعة التي جست أيضاً، قائلاً له:

تذكروا الكاتب جريدنكا. لقد أوفد في هذا الصيف ليتسلم رواتب جميع موظفي الدائرة، فلما عاد صرّح بأنه فقد المال وهو في حالة سكر. فأين وجدوا المال بعد ذلك؟ وجدوه في شريط قبعته! لقد صنع من أوراق المائة روبل لفات صغيرة استطاع أن يدسها تحت الشريط، ثم خاط الشريط. لم يكن وكيل النيابة وقاضي التحقيق قد نسيا قضية جريدنكا، فوضعا قبعة ميتيا في جانب وفي نيتهما أن يفتشا ملابسه بعد ذلك بمزيد من التدقيق أيضاً.

ورأى نيقولا بارفينوفتش طرف الكم اليمني من قميص ميتيا ملطخاً بالدم ومقلوباً، فهتف يقول فجأة:

- هذا دم أيضاً إن لم يخطئ ظني. فأجاب ميتيا قائلاً بصوت قاطع:

- نعم، هو دم.

- دم؟ أي دم؟.. ولماذا قلبت الكم؟

فذكر ميتيا أنه بعد أن تلطخ كمه أثناء اهتمامه بجريجوري، قد شمره له برخوتين الذي غسل يديه عنده أيضاً.

قال نيقولا بارفينوفتش:

- سيجب أن تنزع قميصك أيضاً.. هذا أمر هام جداً لاستكمال الأدلة المادية.

فاحمر وجه ميتيا وصاح غاضباً:

- أأصبح عارياً الآن؟

- اطمئن... سنرتب هذا. والآن، أنزع جوربيك من فضلك. سأل ميتيا وقد سطع في عينيه حنق:

- أنتم تمزحون؟ أهذا ضروري حقاً؟ فأجابه القاضي قائلاً بلهجة قاسية:

- ما نحن في موقف مزاح! غمغم ميتيا يقول وقد جلس على السرير وأخذ يخلع جوربيه:

- ليكن.. ما دام هذا ضرورياً... أنا...

كان يشعر بخزي لا يطاق، إذ يرى نفسه خالعاً ثيابه هكذا بين أناس يظلون مرتدين ثيابهم. شيء غريب: إنه حين خلع ثيابه شعر فجأة بأنه مذنب في حقهم. كاد يسلم هو نفسه عندئذ بأنه أصبح دون الآخرين قيمة على حين بغتة، وأنه أصبح من حق هؤلاء أن يحتقروه. قال يحدث نفسه: «حين يكون الجميع عراة فلا عار، أما حين أكون وحدي عارياً فذلك هو العار! لكأنني في حلم! لقد سبق أن عانيت في الحلم انحطاطات من هذا النوع». وقد شق عليه كثيراً أن يخلع جوربيه: إنهما وسخان، كسائر ملابسه الداخلية أيضاً، ففي وسع الجميع يلاحظوا هذا الآن. ذلك عدا أن ميتيا كان طوال حياته يكره قدميه ويعد أصبعيهما الكبيرتين بشعتين، ولا سيما الأصبع الكبيرة في قدمه اليمنى التي كان ظفرها مسطحة تاماً فلا ينحني إلا في نهايته. سوف يراه الجميع الآن. اجتاحه الشعور بالخزي والعار، ففارت نفسه، وأصبح فظاً عن عمد. قال:

- ألا تحبون أن تلاحقوا تحرياتكم إلى أبعد من هذا إذا كان الحياء لا يصدكم؟

- لا، لا داعي إلى ذلك الآن. وسأل ميتيا بلهجة حانقة:

- هل علي أن أنتظر عارياً؟

- لا بد من ذلك. تفضل اجلس هنا. في إمكانك أن تتدثر بغطاء السرير... وسأحاول أن أتدبر الأمر.

أظهر الفلاحون على ملابسه ليكونوا شهوداً. حتى إذا انتهى تحرير المحضر خرج نيقولاي بارفينوفتش. وأخذت الملابس، وانصرف وكيل النيابة أيضاً. لبث ميتيا وحده مع الفلاحين الذين كانوا يرقبونه صامتين ولا يحولون عنه أبصارهم. تدثر ميتيا بالغطاء، لأنه كان يحس ببرد شديد، ولكنه لم يستطع أبداً أن يلف الغطاء على قدميه العاريتين ليحميهما. وتأخر نيقولاي بارفينوفتش عن العودة، كأنه يريد إطالة تعذيبي جمجم ميتيا يقول وهو يكز بأسنانه: «يحسبني صبياً ، وقد انصرف الوغد وكيل النيابة كذلك... احتقاراً في أغلب الظن... واشمئزازاً من رؤية رجل عار».

وكان ميتيا يقدر مع ذلك أنهم سيرجعون إليه ثيابه بعد تثبت جديد. فما كان أشد استياءًا حين رأي نيقولاي بارفينوفتش يعود إليه ووراءه فلاح يحمل ثياباً أخرى غير ثيابه. قال له القاضي بلهجة ودود طلقة:

- إليك هذه الثياب التي حصلنا لك عليها أخيراً.

وكان واضحاً أنه سعيد بالنتائج التي وصلت إليها مساعيه، وتابع كلامه يقول:

- إن السيد كالجانوف هو الذي تفضل، في هذا الظرف الغريب، فقدم إليك هذا الرداء وقميصاً نظيفاً كان يحملهما في حقيبته من حسن الحظ. أما ملابسك الداخلية وجورباك ففي إمكانك أن تحتفظ بها.

انفرج ميتيا فزأر يقول بصوت مهدد متوعد:

- لا أريد هذا الرداء الذي ليس لي. ردوا إلى ردائي.

- مستحيل.

- أريد ردائي أنا. شيطان يأخذ كالجانوف وثيابه!

ولم يمكن رده إلى الصواب إلا بكثير من العناء بعد أن شرحوا له ضرورة ضم الثياب إلى وثائق الإثبات ما دامت ملطخة بالدم. وحرص قاضي التحقيق على أن يوضح له أنه لم يكن من حقهم أن يدعوا له ملابسه الخاصة، فليس يدري أحد ما هو المجرى الذي قد تجري فيه القضية. اقتنع ميتيا أخيراً بهذه الحجج، وأخذ يرتدي الثياب الجديدة في تعجل، مع محافظته على صمت متجهم عابس. واكتفى بأن قال وهو يلبس رداء كالجانوف «إن هذا الرداء أثمن كثيراً من ردائه، وإنه يكره أن يستفيد منه؛ ثم إنه ضيق علي فهو يجعلني مضحكاً. هل علي أن أظهر للناس مضحكاً... لتسلوا أنتم؟».

وحاولوا أن يقنعوه من جديد بأنه يبالغ، وبأن قامة السيد كالجانوف كقامته هو، وإن يكن السيد كالجانوف أطول منه قليلاً، وبان السروال وحده سيكون طويلاً

عليه بعض الطول. ولكن اتضح أن السترة مشدودة جداً عند الكتفين، فجمجم ميتيا قائلاً من جديد:
- اللعنة! يستحيل عقد أزرارها. أرجوكم أن تبلغوا السيد كالجانوف أنني لست أنا الذي رغبت في أخذ ثيابه، وأنني أكرهت على ارتدائها كمهرج!
فعلق قاضي التحقيق:
- هو يفهم هذا، وهو يأسف... لا يأسف على حرمانه من ثيابه... لا... بل يأسف لما وقع لك.
- لا حاجة بي إلى أسفه! أين يجب أن أذهب الآن؟ أم أنا مضطر إلى البقاء هنا؟ ارجوا أن ينتقل إلى الغرفة الأخرى من جديد. دخل ميتيا إلى هناك متقبض الوجه غضباً، يحاول أن لا ينظر إلى أحد. كان يحس وهو في ثيابه المستعارة أنه مذل حتى في نظر الفلاحين، وفي نظر تريفون بوريستش الذي لاح وجهه خلسة من خلال باب ثم أسرع يغلقه. قال ميتيا في نفسه: «أراد أن يتأملني وأنا في هذا الزي المضحك». وجلس على الكرسي الذي كان يشغله منذ قليل. كان يبدو له أنه يعيش حلماً ثقيلاً، يعيش كابوساً، وكان يتساءل: ألم يفقد عقله؟
التفت ميتيا نحو وكيل النيابة متقبض الفكين:
- هيه، والآن، هل تأمرون بجلدي؟ لم يبق لكم إلا هذا؟ لم يشأ أن يخاطب نيقولا بارفينوفتش، لأنه أصبح يعده غير جدير بانتباهه بعد الآن. وقال يحدث نفسه: «لقد تلذذ بتأمل جوربي زمناً طويلاً جداً، حتى لقد أمر بقلبهما عامداً».
– يا للشقي!
- بغية أن يطلع الجميع على أن ملابسي الداخلية قذرة جداً!.
قال نيقولا بارفينوفتش وكأنه يجيب عن سؤاله:
- سنبدأ الآن استجواب الشهود. فقال وكيل النيابة يؤيد كلام القاضي ساهماً:
- نعم، نعم.
لقد كان يبدو على وكيل النيابة أنه يفكر في أمر ما. وتابع القاضي كلامه فقال:
- لقد بذلنا قصارى جهدنا يا دمتري فيدوروفتش لنساعدك في موقفك. ولكن بعد أن رفضت رفضاً خشناً أن تلبي طلبنا فتقدم لنا بعض الإيضاحات عن مصدر المبلغ الذي في حوزتك، فإننا نرى أنفسنا ملزمين الآن بأن...
قاطعه ميتيا سائلاً:
- من أي نوع من أنواع الحجارة الكريمة صنع هذا الخاتم؟
كان ميتيا يتكلم كمن أفاق للتو من حالة الشرود، مشيراً إلى واحد من الخواتم الثلاثة التي تزين يد القاضي اليمنى. فسأله القاضي في دهشة:
- خاتمي أنا؟
- نعم، هذا الخاتم... ذلك الذي يزين الأصبع الوسطى... ما هذا الحجر الكريم؟
كذلك قال ميتيا ملحاً بلهجة فيها غير قليل من نفاد الصبر، كطفل عنيد ذي نزوات. فأجابه نيقولا بارفينوفتش مبتسماً:
- هو زمرد أدكن ! هل تريد أن تراه؟ سوف أنزعه ف....
فصاح ميتيا يقول بعنف وقد ثاب إلى رشده، واضطرب وثار على نفسه:
- لا... لا تنزعه... ليس يعنيني هذا... اللعنة.. لقد دنستم نفسي أيها السادة! هل تظنون إذا أنني كان يمكن أن أكذب عليكم لو أنني قتلت أبي فعلاً، هل تظنون أني كان يمكن أن أرتضي لنفسي هوان الإنكار وتمثيل دور البراءة وبراعة التهرب من أسئلتكم؟ إنكم لا تعرفون دمتري كارامازوف! ما كان له أن يمثل مهزلة كهذه المهزلة! يميناً، لو كنت مجرماً لما انتظرت أن تصلوا إلى موكرويه، ولما بقيت حياً إلى الفجر كما كنت أنوي ذلك، وإنما كنت أقتل نفسي فوراً ! لقد تعلمت في هذه الليلة الواحدة المنحوسة أكثر مما كان يمكن أن أتعلم على مدى عشرين عاما من الحياة! أكان يمكن أن أتصرف كما تصرفت هذه الليلة، أكان يمكنني في هذه الدقيقة نفسها أن أخاطبكم كما أخاطبكم الآن، أكنت أجد هذه اللهجة، أكنت أقوم بهذه الحركات، أكنت أستطيع أن أنظر إليكم وجهاً لوجه، أنتم والعالم بأسره، لو كنت قاتل أبي حقاً؟ على أن مجرد تصوري أنني ارتكبت جريمة قتل جريجوري عرضاً قد ظل يعذبني طوال الليل، لا خوفاً.. أبداً... وليس خشية من عقابكم!... يا للعار! ثم تريدون بعد ذلك أيها العائبون الهازلون أن أفضي إلى أناس مثلكم، أناس لا يصدقون شيئاً ولا يرون شيئاً، تريدون أن أحكي لكم أيها المناجذ العمي، دناءة أخرى ارتكبتها، حتى يزداد عاري؟ أبداً... لن أفعل ذلك ولو أدى إلى تبرئتي من اتهاماتكم... أبداً، أبداً... إني لأوثر على هذا الأشغال الشاقة! إن القاتل هو الشخص الذي فتح الباب ودخل إلى بيت أبي من ذلك الباب... إنه ذلك الشخص هو الذي سرق مال أبي! من هو ذلك الشخص؟ إني أتيه في مجاهل الظن والتخمين، وألقى عناءً كبيراً في محاولة حزره. ولكن ذلك الشخص ليس هو دمتري كارامازوف على كل حال، فاعلموا هذا... ذلك كل ما أستطيع أن أقوله لكم... وهو كافٍ، فلا تلحوا... اصنعوا ماشئتم بي أرسلوني إلى الأشغال الشاقة، أو نفذوا في الحكم بالإعدام، ولكن لا تهيجوا حنقي وغيظي بعد الآن. ها أنذا أسكت. أدخلوا شهودكم.
ختم ميتيا كلامة المستفيض وقد بدا في وجهه أنه عازم عزماً مطلقاً على أن لا ينطق بعد الآن بكلمة واحدة. وكان وكيل النيابة يرقبه بانتباه، منتظراً أن ينهي كلامه، فما إن ختم ميتيا قوله قال له بهدوء بارد، كأنما يتحدث عن أمر بسيط جداً.
- في موضوع ذلك الباب بعينه، ذلك الباب المفتوح الذي جئت على ذكره الآن، نستطيع أن نطلعك - وهذا هو الوقت المناسب لذلك فيما أظن - على واقعة من أغرب الوقائع ومن أخطرها شأناً كذلك، بالنسبة إليك وبالنسبة إلينا معاً، وهي واقعة تنتج من أقوال العجوز جريجوري فاسيليف الذي جرحته. لقد صرح هذا العجوز، بعد أن أفاق من إغمائه وثاب إلى وعيه، صرح على نحو واضح جازم قاطع، في الإجابة على أسئلة ألقيناها عليه، أنه حين خرج من باب مسكنه سمع ضجة مشبوهة، فقرر أن يدخل الحديقة ماراً ببابها الذي لم يكن مغلقاً؛ ولكنه قبل أن يلمحك في الحديقة أثناء هروبك في الظلام مبتعداًعن النافذة التي رأيت فيها أباك كما قلت لنا منذ قليل، قد لاحظ أيضاً، من مكان أقرب إليه كثيراً، لاحظ أيضا ذلك الباب الذي تزعم أنه ظل مغلقاً طوال مدة وجودك في الحديقة، فرأى أنه كان مفتوحاً على مصراعيه خلافاً لدعواك. ولا أستطيع أن أكتمك أن فاسيليف يستنتج من ذلك ويؤكد جازماً أنك لا بد أن تكون قد هربت من هذا الباب، رغم أنه لم ير هروبك بعينيه وإنما لمحك حين كنت قد أصبحت على مسافة من الباب، وسط الحديقة، راكضاً نحو السور وثب ميتيا عن كرسيه دون أن يدع لوكيل النيابة أن تم كلامه، وأعول يقول خارجاً عن طوره:
- هذا كذب. هذا كذب دنيء! لا يمكن أن يكون قد رأى الباب مفتوحاً، لأن الباب كان مغلقاً في تلك اللحظة... إنه يكذب!
- من واجبي أن ألفت انتباهك إلى أن أقواله واضحة جداً في هذه النقطة، وأن شهادته لم تختلف ولم تتناقض، بل هو ظل مصراً عليها بإلحاح، لأننا سألناه عن هذا الأمر مرات كثيرة.
قال نيقولا بارفينوفتش مؤكداً كلام زميله بشيء من الحماسة:
- أنا نفسي سألته مراراً كثيرة. فأستأنف ميتيا كلامه صارخاً:
- هذا كذب! هذا كذب! لا يمكن أن يكون هذا إلا وشاية تستهدف الإيقاع بي، أو أوهام رجل يهذي. لا بد أن العجوز قد رأى حلماً أثناء هذيانه بسبب جرحه وانسكاب دمه... فقط عليكم ما رآه في الحلم حين صحا من إغمائه... وأغلب الظن أنه ما يزال يهذي.
- ولكن العجوز لم ير الباب مفتوحاً بعد أن أفاق من إغمائه، وإنما لاحظه قبل أن يجرح، لحظة دخوله الحديقة.
- هذا كذب، هذا كذب، ذلك لا يمكن أن يكون! إن الكره هو الذي يدفعه إلى اتهامي.. لا يمكن أن يكون قد رأى ذلك الباب... أنا لم أهرب من الباب!
هكذا صاح ميتيا مختنقاً.
فالتفت وكيل النيابة إلى نيقولا بارفينوفتش وقال له بلهجة رصينة:
- أره الظرف.
فإذا بالقاضي يضع على المائدة ظرفاً كبيراً من ورق مقوى، ترى عليه ثلاثة أختام من شمع لم تمس، وقد أفرغ الظرف بتمزيقه من أحد أطرافه ؛ قال القاضي يسأل ميتيا:
- هل تعرف هذا؟ فدمدم ميتيا يقول:
- لا شك أنه الظرف الذي كان عند أبي.... الظرف الذي كان يضم ثلاثة آلاف روبل، إذا كان عليه كتابة... هل تسمح لي بأن أري؟ نعم، هذه هي الكتابة: «إلى حمامتي»، وهنا: «ثلاثة آلاف روبل».

وصاح ميتيا: - ثلاثة آلاف روبل... أرأيتم؟
- طبعاً رأينا... ولكننا لم نعثر على ذلك المبلغ. كان الظرف ممزقاً ملقى على الأرض قرب السرير وراء الحاجز. لبث ميتيا بضع ثوان كالمصعوق. ثم صاح يقول بغتة بكل ما أوتي من قوة:
- هو سمردياكوف، أيها السادة! إنه هو القاتل والسارق. إنه الإنسان الوحيد الذي كان يعرف الموضع الذي خبأ فيه العجوز الظرف. إنه هو، كل شيء واضح الآن!
- ولكنك كنت أنت أيضاً تعلم بوجود هذا الظرف، وتعرف أنه موضوع تحت الوسادة.
- بل كنت أجهل ذلك كل الجهل. لم أر هذا الظرف حتى الآن، هذه أول مرة أراه فيها، ولم أكن أعلم بوجوده إلا من مسارات سمردياكوف... كان سمردياكوف وحده يعرف أين خبأ العجوز الظرف... أما أنا فكنت لا أعرف...
كذلك قال ميتيا منقطع الأنفاس.
- عجيب! لقد أكدت أنت نفسك منذ قليل أن هذا الظرف كان موجوداً تحت وسادة أبيك. لقد حددت بنفسك أنه كان مخبأ تحت الوسادة. معنى هذا أنك كنت تعرف المخبأ!
وأمن نيقولا بارفينوفتش على كلام زميله قائلاً:
- لقد شكلت تصريحاتك في محضر الاستجواب.
- سخف... جنون!... لم أكن أعرف أنه تحت الوسادة... ولعله كان في موضع آخر. لقد ذكرت الوسادة مصادفة... ماذا قال لكم سمردياكوف؟ هل سألتموه أين كان الظرف مخبأ؟ فماذا قال الكم؟ تلك هي النقطة الرئيسية!... أما أنا فقد كذبت عامداً... كذبت وكنت لا أعرف أن الظرف كان تحت الوسادة، وها أنتم أولاء سوف... كثيراً ما يقول المرء بعض الأمور مصادفة وعرضاً... يخطر بباله أن يقولها.... لقد كان سمر دياكوف وحده عارفاً بالأمر، ولم يكن يعرفه أحد سواه ! حتى أنا رفض أن يكشف لي عن المخبأ. إنه هو، هو القاتل! هو القائل لا محالة، لقد وضح الأمر الآن وضوح النهار.
كذلك صاح ميتيا مضطرباً اضطراباً ما ينفك يزداد، وقد أصبحت عباراته مفككة غير متماسكة وهو يكررها بحرارة واهتياج:
- افهموا أخيراً واعتقلوه فوراً دون أن تضيعوا لحظة واحدة !... لقد أصبح واضحاً أنه قتل أبي بينما كنت أنا أهرب وكان جريجوري راقداً في الحديقة فاقد الوعي. أصبح كل شيء واضحاً... قرع الباب بالإشارة المتفق عليها، ففتح له أبي الباب... ذلك أنه الشخص الوحيد الذي كان على علم بالإشارات التي ما كان لأبي أن يفتح لولا أن سمعها.
استأنف وكيل النيابة كلامه قائلاً بتلك اللهجة الموزونة نفسها على شيء من التعبير عن الانتصار في نبرة صوته:
- يظهر أنك تنسى من جديد أن الإشارات تصبح زائدة لا داعي إليها ولا ضرورة لها ما دام أن الباب كان مفتوحاً من قبل، بينما كنت أنت ما تزال في المكان، أعني في الحديقة...
قال ميتيا متلعثماً:
- الباب..... الباب...
وسكت، وحذق إلى وكيل النيابة بنظرة طويلة. ثم تهالك على الكرسي كالمنهار. وساد صمت. ثم هتف بقول دون أن يعي ما يقول زائغ الوجه ويحدق إلى الأمام:
- نعم... الباب!... كان هذا شبحاً! الله ضدي !... قال وكيل النيابة بلهجة رزينة:
- أرأيت؟ فاحكم الآن بنفسك يا دمتري فيدوروفتش. هناك من جهة أولى هذه الشهادة القوية الدامغة، في نظرك وفي نظرنا، أعني الشهادة بأن الباب كان مفتوحاً وأنك هربت منه. وهناك من جهة ثانية هذا الصمت العنيد الذي لا يفهم، هذا الصمت الذي تلوذ به عن مصدر المال الذي أصبح في حوزتك فجأة بينما كنت قبل ذلك بثلاث ساعات، كما صرحت أنت نفسك، مضطراً إلى رهن مسدسيك للحصول ولو على عشرة روبلات. فماذا نصدق وعلى أي شيء نستند؟ هلا قلت لي... فلا تأخذ علينا، ظلماً وعدواناً، أننا «أناس مستهزئون باردون مستهترون»، عاجزون عن أن نفهم ما في نفسك من اندفاعات نبيلة، بل ضع نفسك في مكاننا.... وحاول أن تفهمنا أنت أيضاً...
كان ميتيا مضطرباً اضطراباً لا يوصف. وشحب لونه. ثم هتف يقول فجأة:
- طيب! سأكشف لكم عن سري، سأطلعكم على مصدر المال... سأكشف عن عاري، حتى لا ألوم نفسي ولا ألومكم في المستقبل.
قال نيقولا بارفينوفتش بفرح يوشك أن يكون فيه حنان:
- ثق يا دمتري فيدوروفتش أن اعترافاً صادقاً كاملاً منك الآن قد يخفف عنك كثيراً في المستقبل، حتى لقد... ولكن وكيل النيابة لكزه بقدمه لكزة خفيفة من تحت المائدة.
فصمت القاضي في الوقت المناسب. وكان ميتيا لا يصغي إليه على كل حال.

-7-السر الكبير الذي يحتفظ به ميتيا

يتخذ هزأة

بدأ ميتيا كلامه فقال منفعلاً أشد الانفعال:
- أيها السادة... أريد أن أعترف بالحقيقة كلها... كان هذا المبلغ لي أنا...
استطال وجها وكيل النيابة وقاضي التحقيق. لقد خاب فألهما وأخفق انتظارهما، لأنهما كانا يتوقعان اعترافاً يختلف عن هذا الاعتراف كل الاختلاف.
دمدم نيقولا بارفينوفتش يقول:
- كان ذلك المال لك أنت؟ كيف هذا؟ أنت تقول في اعترافاتك نفسها أنك في الساعة الخامسة بعد الظهر...
- سحقاً للساعة الخامسة ولإعترافاتي! ليس هذا هو الموضوع الآن! لقد كان ذلك المال لي أنا... أقصد أنني استوليت عليه، سرقته، نعم، سرقته. هو مبلغ ألف وخمسمائة روبل... كنت أحملها دائماً معي، معي...
- من أين أخذتها؟
- من صدري، أيها السادة، من هذا الصدر الذي ترون.. كنت أخبئها هنا، معلقة بعنقي، مخيطة في خرقة... هكذا كنت أحمل عاري وخزيي منذ زمن طويل، منذ شهر...
- ولكن من عند من... استوليت... على هذا المبلغ؟
- تريدون أن تقولوا من عند من «سرقته»، أليس كذلك؟ سموا الأشياء بأسمائها! أنا أعتقد فعلاً أنني سرقت هذا المال، أنني استوليت عليه إذا كنتم تؤثرون هذا التعبير. وأنا أرى أنه سرقة. وأمس مساء، اكتملت السرقة.
- أمس مساءً؟ ولكنك قلت إنك... حصلت على هذا المال منذ شهر.
- نعم، ولكن ليس من عند أبي، ليس من عنده، اطمئنوا! لم أسرقه من عند أبي، بل من عندها. دعوني أروي لكم الوقائع دون أن تقاطعوني. إنه لأمر قاس على نفسي أن أتكلم هل تفهمون؟ منذ شهر، نعم منذ شهر استدعتني كاترينا إيفانوفنا فرخوفتسيفا، خطيبتي السابقة هل تعرفونها؟
- كيف لا؟
- أعلم أنكم تعرفونها. هذه إنسانة ذات نفس نبيلة، لا يضارعها في نبلها أحد.. ولكنها كانت تكرهني منذ زمن طويل... طويل جداً... وكان من حقها أن تكرهني على كل حال... هناك أسباب تحملها على كرهي.
سأله القاضي مندهشاً:
- كاترين إيفانوفا؟ وظهر الاستغراب على وكيل النيابة أيضاً. قال ميتيا:
- أوه! لا تذكروا اسمها بغير داع إلى ذلك! ما كان أشقاني حين ذكرت اسمها هنا... نعم، كنت أعلم أنها تكرهني... منذ زمن طويل.. منذ اليوم الأول، في مسكني هناك... ولكن كفى! كفى حديثاً في هذا الأمر! إنكم لا تستحقون أن تعلموا هذه الأشياء، ولا داعي إلى ذكر هذه الأشياء على كل حال.. يكفيكم أن تعلموا أنها استدعتني منذ شهر وأعطتني ثلاثة آلاف روبل كلفتني بأن أرسلها إلى أختها وإلى قريبة أخرى لها بموسكو (أما كانت تستطيع أن تتولى ذلك بنفسها؟)... وأنا... كانت تلك الساعة هي بعينها الساعة الحاسمة في حياتي، كانت تلك اللحظة هي اللحظة التي... الخلاصة... هي اللحظة التي كنت قد أحببت فيها امرأة أخرى، هي اللحظة التي كنت فيها قد أحببتها هي.. امرأة هذا اليوم... تعلمون... تلك التي أودعت تحت، جروشنكا... فجئت بها إلى هنا، إلى موكرويه، أعني ألفاً وخمسمائة روبل، واحتفظت بالنصف الآخر. فهذه الألف وخمسمائة روبل الباقية هي ما احتفظت به منذ ذلك الحين معلقة بعنقي مخيطة في كيس. وقد فتحت الكيس أمس، فأنفقت هذا المال في القصف هنا، والثمانمائة روبل التي أخذتها يا نيقولا بارفينوفتش هي كل ما بقي من الألف وخمسمائة روبل التي أخرجتها من الكيس أمس.
- اسمح لي! هناك شيء ليس واضحاً. في المرة الماضية، أعني في الشهر الماضي، أنفقت هنا ثلاثة آلاف روبل لا ألفا وخمسمائة. ذلك أمر يعرفه جميع الناس.
- من أين عرفوه؟ من ذا الذي حسب نفقاتي؟ أنا لم أطلع أحداً على ذلك.
- كيف؟ لقد حكيت لكل إنسان أنك أنفقت ثلاثة آلاف روبل.
- صحيح، حكيت هذا، بل لقد حكيته للمدينة كلها، والناس يتحدثون عنه في كل مكان، وما من أحد إلا ويعتقد اعتقاداً جازماً بأنني أنفقت ثلاثة آلاف روبل. وأهل موكرويه مقتنعون بهذا أيضاً. ولكنني، مع ذلك، لم أنفق في الواقع إلا ألفا وخمسمائة روبل، ثم خبأت باقي المبلغ في كيس. تلك هي الحقيقة أيها السادة، ذلك هو مصدر المال الكثير الذي كان في حوزتي أمس.
دمدم نيقولا بارفينوفتش يقول:
- يشبه هذا أن يكون من المعجزات. وتدخل عندئذ وكيل النيابة فقال يسأل ميتيا:
- اسمح لي أن أسألك هل أفضيت بهذا السر إلى أحد قبل هذا اليوم... أعني: هل يعرف أحد أنك احتفظت بمبلغ الألف وخمسمائة روبل هذا؟
- لم أفض بذلك إلى أحد.
- غريب... لم تذكره لأحد في العالم كله؟
- في العالم كله. لم أذكره لأحد البتة. أؤكد لك ذلك.
- فلماذا هذا السكوت؟ ما هي الأسباب التي دفعتك إلى الاحتفاظ به سراً لا يذاع؟ سأشرح ما أريد أن أقوله. لقد كشفت لنا أخيراً عن سرك الذي تراه «مخزياً» إلى هذا الحد في نظرك، رغم أن هذا الفعل ليس في الواقع - إذا قيس بغيره طبعاً - إلا هفوة صغيرة. إن استيلاء على مبلغ الثلاثة آلاف روبل التي عهد بها إليك كأمانة فاحتفظت بها لنفسك... مؤقتاً... أنا متأكد من هذا... إنما ينبغي أن يعد طيشاً، ولكنه ليس فعلاً يدنس الشرف، ولا سيما إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى طبعك... فلنفرض أن هذا الفعل فعل يؤسف له... وأنا أسلم بذلك ولكنه ليس دناءة أو حقارة أو حطة أو ما أشبه ذلك... واعلم على كل حال أن كثيراً من الناس، في هذه المدينة، قد حزروا، أثناء هذا الشهر، أنك بددت الثلاثة آلاف روبل
التي ائتمنتك عليها السيدة فرخوفتسيفا، رغم أنك لم تذكر ذلك لأحد، حتى لقد وصلت هذه الشائعة إلى أسماعي، وعلم بها ميخائيل ماكاروفتش أيضاً، فليس الأمر أمر سر إذن، وإنما هو كلام يقال ويتردد في كل مكان.. ويبدو من جهة أخرى كذلك أنك اعترفت أنت نفسك ذات مرة، أثناء حديث خاص، إذا لم يخطئ ظني، بأن ذلك المبلغ مصدره السيدة فرخوفتسيفا... لذلك أستغرب أشد الاستغراب حين أرى حتى هذه الدقيقة أنك تولي هذه الألف وخمسمائة روبل، فيما تدعي، اهتماماً خارقاً وتضفي عليها خطورة عظيمة، ولا أفهم البتة أن تجعلها سراً لا تتكلم عنه، سراً مصحوباً بنوع من الهلع... ليس من المعقول أن يسبب لك سر من هذا النوع عذاباً كهذا العذاب، وأن يبدو لك الاعتراف به صعباً إلى هذا الحد... ألم تعلن منذ قليل أنك تؤثر الأشغال الشاقة على مجرد الاعتراف بالحقيقة؟
سكت وكيل النيابة. وكان قد تحمس أثناء الكلام، واشتعل فيه استياء متزايد يشبه أن يكون غضباً، وساق كلامه دون اهتمام بالخطابة، ودون كثير من التسلسل أيضاً، وإنما كان يدع لأفكاره أن تنفجر انفجاراً في جمل مقطعة.
قال ميتيا بصوت جازم:
- ليس العار في سرقة الثلاثة آلاف روبل، بل العار في أنني ادخرت نصف هذا المبلغ، أي الألف وخمسمائة روبل.
فقال وكيل النيابة وهو يضحك ضحكة غيظ:
- حقاً؟ هلا قلت لي أين العار في أن تحتفظ بنصف مبلغ كنت قد استوليت عليه استيلاءً غير لائق، أو استبلاءً مخزياً إن كنت تؤثر أن تصفه بهذه الصفة؟ إن الأمر الهام هنا هو أنك استوليت على هذا المبلغ، لا في أنك تصرفت في المال على هذا النحو أو ذاك من الأنحاء! بالمناسبة: هل تستطيع أن تقول لنا لماذا قسمت المبلغ نصفين، وماذا كان هدفك من ادخار أحد النصفين؟
صاح ميتيا يقول:

- ذلك بعينه هو لب المسألة كلها! لقد قسمت هذا المبلغ عن حقارة ودناءة، أي عن حساب. ذلك أن الحساب هو بعينه الدناءة والحقارة في مثل هذه الحالة... وقد امتدت هذه الدناءة وهذه الحقارة على مدى شهر بأسره!
- كلام لا يفهم!
- أستغرب هذا منكم. ولكنني سأشرح ما أريد قوله. إنني أسلم بأن كلامي قد يبدو لأول وهلة أنه لا يفهم. فأصغوا إلي وتابعوا ما أقول: لنفرض أنني استوليت على ثلاثة آلاف روبل سلمت إلي كأمانة عليها، فأنفقتها في القصف إلى آخر كوبيك منها. إن في إمكاني أن أذهب إلى صاحبة المال في الغد وأن أقول لها: «كاتيا، اغفري لي، لقد بددت الثلاثة آلاف روبل التي ائتمنتني عليها». ليس هذا خيراً بطبيعة الحال، وإنما هو سوء أمانة، وضعف خلق ؛ هو سلوك إنسان لا يستطيع أن يسيطر على اندفاعاته. ولكنني في هذه الحالة لن أكون سارقاً، لن أكون لصاً. لن أكون لصاً بالمعنى الشائع لهذه الكلمة. هل توافقونني على هذا؟ لقد بددت المال، ولكنني لم أسرقه. فلنفرض الآن فرضاً ثانياً، فرضاً أفضل من الأول أيضاً. تابعوا ما أقول، وإلا فقد أرتبك من جديد. إن رأسي يدور قليلاً... إليكم الفرض الثاني لنفرض أنني أنفقت في القصف نصف المبلغ فقط، أي ألفا وخمسمائة روبل، ولنفرض أني ذهبت إليها في الغد حاملاً ما بقي من مال، وقلت لها: «استردي مني المال يا كاتيا لأنني لست إلا إنساناً شقياً طائش العقل محموم الرأس. استردي نصف المبلغ الذي ائتمنتني عليه، وإلا فقد أبدده كما بددت نصفه الأول. إني لا أريد أن أتعرض لهذه الغواية !». فماذا أكون عندئذ؟ أكون ما شئتم، أكون شيطاناً وأكون شقياً، ولكنني لن أكون لصاً، لن أكون قد أصبحت لصاً حقيقياً. لأنني لو أردت أن أسرق لما رددت الألف وخمسمائة روبل الباقية، وإنما كنت أحتفظ بها لنفسي. كانت ستدرك هي عندئذ أنني ما دمت أرد إليها نصف المبلغ، فسأرد إليها النصف الثاني آخر الأمر، في يوم من الأيام وأنني قد أظل أعمل عند الضرورة طوال حياتي مدخراً قرشا فوق قرش لأجمع المال الذي أنفقته في القصف فأرده إليها في ذات يوم. صحيح أنني أكون في هذه الحالة رجلاً حقيراً، ولكنني لا أكون لصاً، أكون ما شئتم، ولكنني لا أكون سارقاً على الأقل.
قال وكيل النيابة بلهجة فيها سخرية باردة:
- لنسلم بأن هناك مجالاً للتمييز فعلاً. إنني أظل أستغرب أن تضفي على هذا الفرق الزهيد دلالة تبلغ هذا المبلغ من شدة الخطورة وصفة المأساة !
- ليس هذا الفرق زهيداً بل هو أكثر من رئيسي. إن أي إنسان يمكن أن يكون وغداً، ولا شك أننا جميعاً أوغاد بدرجات متفاوتة. ولكن ليس كل إنسان لصاً. لا بد من حقارة خاصة حتى يكون المرء لصاً. أحسب أنني لا أجيد التعبير لأنني تعوزني الرهافة... ولكن اللص أحقر الحقراء وأدنا الأوغاد. تلك هي قناعتي العميقة! أصغوا إلي. لقد حملت هذا المال في عنقي مدة أربعة أسابيع، وكنت أستطيع في كل لحظة أن أذهب فأرد إليها هذا المال، فلو فعلت لما كنت وغداً حقيراً، أما وأنني لم أستطع أن أتخذ هذا القرار، فذلك هو الأمر الخطير! كنت كل يوم أفكر فأقول لنفسي: «قرر أيها الشقي، يجب أن ترد المال». ولكني لم أنفذ ذلك، وطالت القضية شهراً بأكمله. فما رأيكم؟ لعلكم ترون هذا جميلاً؟
أجابه وكيل النيابة بصوت مكظوم.
- أعترف بأن ذلك شر. أنا أفهم هذا حق فهمه، ولا يخطر ببالي أن أجحده قيمة ذلك. ولكنني أقترح عليك مع ذلك أن تدع الكلام عن هذه الفروق، وأن تدع هذه الرهافة في التمييز بين الأمور، وأن تعود إلى جوهر القضية. لأنك لم تقبل حتى الآن أن تشرح لنا، في الإجابة عن سؤالي، السبب الذي دفعك إلى أن تقسم هذا المبلغ نصفين فتنفق النصف الأول منه في القصف وتحتفظ بالنصف الثاني معك. ماذا كان هدفك من ذلك. وعلى أي غرض وقفت هذه الألف وخمسمائة روبل التي احتفظت بها؟ إنني أصر على هذا السؤال يا دمتري فيدوروفتش!
صاح ميتيا وهو يلطم جبينه:
- ها... ولكن.... هذا صحيح.... معذرة.. إنني أعذبكم بهذه المناقشات بدلا من أن أشرح لكم جوهر الأمر. سأقول لكم الآن فسرعان ما تفهمون. ذلك أن العار كله يكمن هنا. اسمعوا: لقد كان العجوز، المتوفي، يلاحق أجرافينا ألكسندروفنا بإلحاحه ولجاجته، وكنت أشعر أنا بغيرة شديدة. وكنت أتخيل في ذلك الحين أنها مترددة بيني وبينه لا تعرف أتختارني أم تختاره، فكنت أتساءل كل يوم: اما عسى يحدث إذا هي حزمت أمرها فجأة وكفت أخيراً عن تعذيبي وصارحتني قائلة: «أنت الذي أحبه لا هو، فلنسافر... خذني إلى آخر الدنيا!». كنت أتساءل ما عسى يحدث عندئذ وأنا لا أملك في جيبي إلا بضعة كوبيكات! من أين لنا المال الذي نسافر به؟ ما عساي فاعلاً حينذاك؟ كان ذلك هو النهاية الفاشلة. لاحظوا أنني لم أكن قد عرفتها حق معرفتها في ذلك الأوان. كنت أظن أنها لا تستغني عن المال، وأنها لن تغفر لي فقري. ذلك هو السبب الذي من أجله قررت، أن أحتفظ بنصف الثلاثة آلاف روبل، وأن أخيط المبلغ في كيس. وذلك ما فعلته ببرود، بحساب، من قبل أن أسكر! وبعد ذلك، بعد أن خبأت الكيس، إنما سافرت ألهو وأقصف بالألف وخمسمائة روبل الأخرى. لا... لا... لقد كان ذلك حقارة ودناءة وخسة. هل فهمتم الآن؟
انفجر وكيل النيابة وقاضي التحقيق في ضحك صاخب. وقال نيقولا بارفينوفتش ساخراً:
- في رأيي إن قرارك كان عين العقل، بل وعين الأخلاق، على عكس ما تقول، ما دمت قد عرفت كيف تعتدل فلا تنفق المال كله دفعة واحدة. أين في هذا ما يشبه عاراً؟
- إنني سرقت، هنا الحقارة ! آه... يا رب! إن عجزكم عن الفهم يروعني! كنت أثناء حملي هذه الألف وخمسمائة روبل في عنقي، أردد على نفسي كل يوم وكل ساعة: «أنت لص، أنت لص!». وبسبب هذا العار الذي يرهقني، بسبب هذا الشعور بأنني سارق، إنما كنت شرسة تلك الشراسة كلها عنيفة ذلك العنف كله خلال هذا الشهر الأخير. ذلك هو السبب في أنني تشاجرت واقتتلت في الحانة، وأنني ضربت أبي. وحتى اليوشا أخي لم أجرؤ على أن أعترف له بالحقيقة في موضوع الألف وخمسمائة روبل، فإلى ذلك الحد كنت أشعر بالحقارة والدناءة! ولاحظوا أيضاً أنني طيلة مدة احتفاظي بالمال المودع في الكيس سليماً لا أمسه، كنت أستطيع أن أقول لنفسي كل يوم وكل ساعة: «لا يا دمتري فيدوروفتش، ربما لم تكن لصاً!». لماذا؟ لأنني كنت أستطيع في كل لحظة أن أذهب إلى كاتيا فأرد إليها هذا المال. وأمس فقط، بعد أن تركت فينيا، وفي طريقي إلى منزل برخوتين، إنما قررت أن أفض الكيس. أما قبل ذلك فلم أستطع أن أحزم أمري. ولكنني منذ تلك اللحظة قد أصبحت لصاً بالفعل، لصاً لا يمكن إنكار أنه لص؛ أصبحت رجلاً فقد شرفه إلى آخر الحياة. لأنني حين مزقت الكيس قد مزقت في الوقت نفسه أملي في أن أذهب إلى كاتيا وأن أقول لها: «أنا وغد... هذا صحيح... ولكنني لست لصاً». هل تفهمونني الآن؟
قاطعه نيقولاي بارفينوفتش:
- فلماذا اتخذت قرارك هذا أمس؟
- لماذا؟ يدهشني سؤالكم! لقد اتخذت قراري لأنني عزمت على الانتحار، في هذا المكان، عند الفجر. قلت لنفسي: «ما قيمة أن أموت شريفاً أو وغدا؟». ولكني أدركت أن الأمرين لا يستويان.. صدقوني أيها السادة! إن العذاب الأكبر الذي عانيته في هذه الليلة الرهيبة لم يكن شعوري بأنني قتلت الخادم العجوز، ولا تصوري أنني سأحكم بالأشغال الشاقة في اللحظة التي أخذ فيها حبي ينتصر، في اللحظة التي انفتحت فيها سماوات السعادة أمامي... لم يكن ذلك عذابي الأكبر... ولا كان يساوي، على الأقل، عذابي من تصور أنني فتحت ذلك الكيس اللعين، وأتلفت ذلك المبلغ المنحوس، وأصبحت بهذا لصاً إلى الأبد! أيها السادة، إنني وقد تهدمت إلى أعمق أعماق كياني، أعود فأقول لكم: لقد تعلمت أشياء كثيرة في هذه الليلة. لم أتعلم فقط أنه أمر لا يطاق أن يعيش المرء وغداً، وإنما تعلمت أيضاً أنه أمر مستحيل أن يموت المرء وغداً حقيراً... لا، لا يمكن أن يموت المرء إلا وهو يشعر أنه إنسان شريف !...
كان ميتيا شاحب اللون، وكان وجهه المتقبض على ألم يبدو كأنه خلا من الدم، رغم أنه قد تحمس أثناء الكلام.
قال وكيل النيابة ببطء بلهجة ملطفة فيها شيء من عطف:
- بدأت أفهمك يا دمتري فيدوروفتش. ولكنني أعتقد أن أعصابك، أعصابك المريضة، هي السبب الحقيقي لعذابك... هم... فمثلاً: لماذا لم يخطر ببالك، حتى تتخلص من الآلام النفسية التي قاسيت منها خلال شهر بأكمله، لماذا لم يخطر ببالك أن تذهب إلى تلك الإنسانة التي ائتمنتك على ذلك المبلغ لترد إليها الألف وخمسمائة روبل؟ ألا يكون أبسط من هذا كله، بعد أن تشرح لها الخطيئة التي ارتكبتها في لحظة ضلال، أن تعمد إلى حل يخطر على البال من تلقاء نفسه، وكان يمكن أن يخرجك من المأزق الذي كنت فيه كما تقول؟ لقد كان في وسعك، بعد أن تعترف لها اعترافاً مليئاً بالنبل، أن تطلب إليها أن تقرضك المبلغ الذي كنت في حاجة إليه؛ وإني لعلى يقين، لمعرفتي بسمو نفسها، أنها ما كان لها أن ترفض إقراضك ذلك المبلغ، ولا سيما وأنت ما أنت عليه من ضياع نفسي... خاصة وأنك كنت تستطيع أن توقع لها سنداً أو أن تقدم لها الضمانات التي عرضتها على التاجر سامسونوف، وعلى السيدة خوخلاكوفا أيضاً! أظن طبعاً أنك ما تزال تعد تلك الضمانات موثوقة تماماً.
احمر وجه ميتيا فجأة. ثم هتف يقول مستاءً وهو يحدق إلى عيني وكيل النيابة تحديق من يشك في أن يكون وكيل النيابة قد فهم الموضوع:
- هل يعقل أن تتصوروني منحطة إلى هذه الدرجة؟ أنا لا أستطيع أن أصدق أنكم تتكلمون جادين!
فدهش وكيل النيابة هو أيضا، وانبرى يقول له:

- أؤكد لك أنني جاد كل الجد. لماذا تشك في ذلك؟
- لو قد فعلت ذلك لكان حطة ما بعدها حطة! هل تعلمون أيها السادة أنكم تعذبونني تعذيباً رهيباً؟ طيب ! سأقول لكم كل شيء. إنني أذعن لإرادتكم سأتيح لكم أن تروا الحقيقة الجهنمية ؛ فتعرفوا، التشعروا أنتم أنفسكم بالعار والخزي، إلى أي دناءة يمكن أن ينحدر ضمير إنسان. إن هذا الحل الذي ذكرته الآن يا سيادة وكيل النيابة قد خطر ببالي. نعم يا سادتي! لقد فكرت في هذا الحل أيضاً خلال هذا الشهر المنحوس، وكنت على وشك أن أذهب إلى كاتيا من فرط حطتي وحقارتي، أذهب إليها فأعترف لها بخيانتي، ثم أطلب إليها بعد ذلك الاعتراف، أن تقرضني مالاً لأنفذ هذه الخيانة، لأسدد النفقات التي كانت ستقتضيها هذه الخيانة. أطلب مالاً منها هي، كاتيا، أطلب، أتضرع، هل تسمعون؟ ثم أهرب مع امرأة أخرى، مع غريمتها، مع امرأة تكرهها، امرأة أساءت إليها وأهانتها. ألا إنك المجنون يا وكيل النيابة!
- قد أكون مجنوناً، وقد لا أكن مجنوناً؛ ولكنني أثناء احتدام النقاش لم يخطر ببالي عنصر الغيرة النسوية، هذا إذا افترضنا أن من الممكن أن يكون ثمة غيرة في هذه الحالة كما تقول... والحق أنه على المرء ألا يغفل عن هذا النوع من الغيرة.
كذلك ختم وكيل النيابة كلامه بلهجة ساخرة. زأر ميتيا يقول وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية: - إن عملاً كهذا العمل يكون فيه من الحطة والدناءة، ويبلغ من شدة ما يبعثه في النفس من اشمئزاز، حدة لا أستطيع أن أجد كلمات تعبر عنه ! هل تعلمون أنه كان يمكن جداً أن تعطيني ذلك المال؟ أنا على يقين من أنها كانت ستعطيني ذلك المال، بدافع الانتقام، لتتلذذ بالثأر، لتظهر لي احتقارها، لأنها هي أيضاً لها نفس جهنمية عنيفة غضوب! وكنت سأخذ منها المال، هذا أكيد، فأظل طول حياتي... أوه... رباه! معذرة يا سادتي! لكن صرخت الآن، فلأن هذه الفكرة الكريهة قد ساورتني، ساورتني أمس الأول، بينما كنت أتخبط ليلاً قرب لياجافي... وعاودتني أمس مرة أخرى... نعم... إنني أتذكر هذا... وحاصرتني طول النهار إلى حين وقوع ذلك الحادث...
- أي حادث؟
كذلك تدخل يسأله نيقولا بارفينوفتش مستطلعاً، ولكن ميتيا لم يأبه لسؤاله وختم كلامه يقول مظلم الوجه:
- لقد قدمت إليكم اعترافاً رهيباً، فلتقدروه حق قدره أيها السادة، بل إنه لقليل أن تقدروه حق قدره فحسب، وإنما ينبغي لكم أن تعترفوا بقيمته... وإلا... إذا انزلق هذا الاعتراف على صفحة نفوسكم دون أن يؤثر فيكم، فيجب أن نسلم عندئذ بأنكم لا تضمرون لي أي احترام، ولأموت من شعوري بالعار لأنني فتحت قلبي لأناس مثلكم. لأطلق عندئذ رصاصة في رأسي! ولكنني أرى أنكم لا تصدقونني، أرى ذلك! ماذا؟ أتريدون أن تسجلوا هذه الأقوال أيضاً؟
هكذا صاح ميتيا مروعاً جداً. فأجاب نيقولاي بارفينوفتش يقول وقد أدهشه قلق ميتيا:
- لن نسجل إلا التصريح الذي أدليت به الآن... سنسجل أنك كنت تنوي، حتى الدقيقة الأخيرة، أن تذهب إلى السيدة فرخوفتسيفا لتقترض منها هذا المبلغ... تلك واقعة هامة جداً بالنسبة إلينا يا دمتري فيدوروفتش... صدقني... هذه التفاصيل كلها هامة.... ولا سيما بالنسبة إليك، إليك أنت.
هتف ميتيا يقول وهو يضم يديه متوسلاً:
- أتضرع إليكم يا سادتي! اعدلوا عن تسجيل ما ذكرته لكم الآن، اعدلوا عنه من باب الحياء على الأقل! لقد فتحت لكم نفسي، فإذا أنتم تسرعون فتغمسون فيها أيديكم لتنبشوا آلامي. آه... رباه !
قال ذلك وأخفى وجهه بيديه قنوطاً! فتدخل وكيل النيابة يقول:
- اطمئن يا دمتري فيدوروفتش. إن كل ما نسجله الآن سيقرأ عليك بعد ذلك، وسنعدل عندئذ الفقرات التي لا توافق عليها متقيدين بما تذكره. ولكن يجب علي الآن، مرة ثالثة، أن ألقي عليك سؤالاً صغيراً: هل يعقل فعلاً أن لا يكون أحد على الإطلاق، قد علم بوجود ألف وخمسمائة روبل مخيطة في الكيس؟ أعترف لك بأن هذا يبدو لي غير معقول كثيراً...
- قلت لكم إن أحداً لم يعلم بهذا الأمر. لم أحك هذا الأمر لأحد. إذا لم تفهموا شيئاً البتة! دعوني وشأني أخيراً.
- سيكون علينا أن نوضح هذه النقطة، ولكن ما يزال لدينا وقت كثير، على أنني أرجوك أن تفكر فيما يلي: إن عندنا عشرات من الشهود سيشهدون جميعاً بأنك كنت تروي أنت نفسك، حتى لتكاد تصيح بذلك صباحاً في كل مكان، أنك قد أنفقت في القصف في المرة الماضية مبلغ ثلاثة آلاف روبل، لا ألف وخمسمائة. وحتى في هذه المرة، قلت لعدة أشخاص بصدد المال الذي أصبح في حوزتك فجأة، إنه يبلغ ثلاثة آلاف روبل أيضاً...
صاح ميتيا يقول:
- الشهود؟ ستجدون من الشهود مئات لا عشرات ! سيجيء مائتا شخص يؤكدون ذلك، وربما جاء ألف شخص. ستجدون من الشهود ما تشاؤون.
- ها أنت ذا ترى إذا. لقد سمعك جميع الناس تقول هذا الكلام. وهم جميعاً يؤكدونه اليوم. هل تفهم ماذا تعني كلمة جميع الناس هذه؟
- لا تعني شيئاً! أنا كذبت وكرر الناس كذبتي..
- فلماذا كذبت على حد تعبيرك؟..
- لا يعلم ذلك إلا الشيطان! لعلني كذبت افتخاراً... لأفتخر بالكلام بقصف بلغ ذلك المبلغ من البذخ... أو لأنسى ذلك المال المخيط في الكيس... نعم، ذلك هو، ذلك هو الباعث الحقيقي الذي دفعني إلى الكذب... أنا أحسن هذا!... إلى الشيطان على كل حال! إنكم تعودون فتلقون على نفس الأسئلة. لقد كذبت وكفى! لقد كذبت مرة واحدة ولم أرد أن أعدل عن كذبتي. هل يعلم أحد ما الذي يمكن أن يدفع الإنسان إلى الكذب، في بعض الأحيان؟
قال وكيل النيابة بصوت رزين:
- حقاً إن من الصعب أن يعرف المرء ما قد يدفع الإنسان إلى الكذب. ولكن قل لي: ماذا كانت أبعاد الكيس الذي كنت تحمله معلقة برقبتك؟ هل كان كبيراً؟
- لا، لم يكن كبيراً البتة.
- ماذا كانت أبعاده تقريبا؟
- أبعاد ورقة المائة روبل حين تطوي الورقة نصفين.
- هل بقيت لك منه قطع؟ هل تستطيع أن ترينا تلك القطع؟
- قطع الكيس؟ يا للغباوة! إني لا أدري ما الذي صارت إليه.
- عجيب! أين ومتى نزعت الكيس عن عنقك؟ لقد صرحت أنت نفسك بأنك لم ترجع إلى منزلك.
- نزعته أثناء الطريق بعد أن تركت فينيا لأذهب إلى برخوتين.
نزعته عن عنقي وأخرجت منه المال.
- في الظلام؟
- هل كان علي أن أشعل شمعة؟ لقد توصلت إليه باللمس في مثل لمح البصر.
- في الشارع؟ بدون مقص؟
- نعم. تم ذلك في الميدان إذا لم يخطئ ظني. ما الداعي إلى مقص حين يراد تمزيق خرقة عتيقة بالية؟ لقد تمزقت من تلقاء نفسها.
- ماذا فعلت بتلك الخرقة بعدئذ؟
- رميتها.
- أين؟
- عجيب! في الميدان! أنى لي أن أتذكر المكان الذي رميت فيه الخرقة على وجه التحديد؟ لماذا هذه الأسئلة؟
- ذلك هام جداً يا دمتري فيدوروفتش. ألا تفهم أن هذه الخرقة يمكن أن تكون دليلاً مادياً لصالحك؟ من ساعدك في خياطة الكيس على المال، منذ شهر؟
- لم يساعدني أحد. قمت بذلك وحدي.
- أنت تعرف إذا أن تخيط؟
- لا بد أن يعرف الجندي كيف يخيط. ثم إن هذا لا يحتاج إلى أي براعة.
- أين وجدت القماش، أعني تلك الخرقة التي خطتها على المال؟
- أنتم تسخرون مني؟
- أبداً. ثق أننا لا نرغب في الضحك أي رغبة يا دمتري فيدوروفتش!

- لا أتذكر من أين أخذت تلك الخرقة. لا بد أني لممتها من مكان ما.
- كيف يمكن أن تنسى ذلك؟
- أحلف لكم أنني لا أعرف. لعلني قد مزقت أحد الملابس.
- هذا شيء هام. قد نعثر غداً في منزلك على ذلك اللباس الممزق الذي انتزعت منه قطعة، وربما كان قميصاً من قمصانك... ما نوع نسيج تلك الخرقة؟ أكانت من كتان أم كانت من قطن؟
- أنا أعرف؟ لحظة... لا... لم تكن قطعة قماش منتزعة من أحد الملابس... كانت الخرقة من قماش خاص.. أظن أنني خطت المال في طاقية لصاحبة المنزل الذي أقيم فيه.
- لصاحبة المنزل الذي تقيم فيه؟
- نعم، اختلست هذه الطاقية من عندها.
- اختلستها؟
- أظن. أتذكر فعلاً أنني في ذات يوم أخذت طاقية من عندها. كنت في حاجة إلى خرقة، ربما لأمسح قلمي، فأخذت تلك الخرقة دون أن أقول لأحد، لأنها طاقية لا قيمة لها... خرقة عتيقة سلت وأعيد غسلها مائة مرة... وظلت الطاقية ملقاة في غرفتي منذ ذلك الحين... فلما أردت أن أخبي تلك الألف وخمسمائة روبل، تناولت الطاقية وخطتها على المال...
- هل تتذكر هذا تذكراً واضحاً؟
- لا أدري هل هذه الذكرى واضحة جداً. يخيل إلي أنها الطاقية... ولكن ما قيمة هذا!
- في هذه الحالة ستستطيع صاحبة المنزل أن تذكر أنها افتقدت طاقية، أليس كذلك؟
- لا... أبداً. إنها لم تلاحظ غياب الطاقية. تلك خرقة عتيقة غير ذات قيمة...
- والإبرة؟ من أين أخذت الإبرة؟ والخيط؟
- أتوقف عن الكلام. أرفض الجواب عن مثل هذه الأسئلة.
كفى!
كذلك حسم ميتيا المناقشة غاضباً وقد نفد صبره.
- إنه لغريب حقاً أن تنسى في أي مكان على وجه الدقة رميت ذلك الكيس في الميدان!
- ليس عليكم إلا أن تأمروا بكنس الميدان غداً، فربما عثرتم عليه.
بهذا أجاب ميتيا ساخراً. ثم أردف يقول بصوت متعب مكدود:
- هذا يكفي أيها السادة، يكفي ويزيد. إنني لأرى رؤية واضحة أنكم لا تصدقونني! إنكم لم تصدقوا كلمة واحدة مما كنت أقول. وذلك خطئي أنا لا خطؤكم أنتم: كان على أن أصمت بدلاً من أن أفضي بما في نفسي أمامكم في غباء وبلاهة... آه... لماذا، لماذا أسففت ذلك الإسفاف فكشفت لكم عن سري؟ إنكم لا تزيدون على أن تضحكوا من ذلك، أنا أقرأ هذا في نظراتكم. أنت الذي دفعتني إلى الكلام يا وكيل النيابة. في وسعك أن تفخر بنفسك. اللعنة عليكم أيها الجلادون المناحيس!
قال ميتيا ذلك، وخفض رأسه وأخفى وجهه في يديه. وصمت وكيل النيابة وقاضي التحقيق. وبعد دقيقة، رفع ميتيا رأسه ونظر إليهما فارغ العينين. إن قسمات وجهه تعبر في هذه المرة عن يأس كامل لا برء منه؛ وظل جامداً على كرسيه لا ينطق بكلمة واحدة كأنه غائب عن نفسه. وكان الوقت أثناء ذلك ينقضي، فلا بد من الانتهاء، ولا يمكن تأخير سماع الشهود مزيداً من التأخير. لقد دقت الساعة الثامنة من الصباح، وذابت الشموع منذ زمن طويل. وهذا ميخائيل ماكاروفتش وكالجانوف اللذان غابا عن الغرفة مراراً أثناء الاستجواب، يخرجان الآن من جديد. وإن وكيل النيابة وقاضي التحقيق يبدوان متعبين هما أيضاً إلى أقصى حدود التعب. والصباح كالح مكفهر، والسماء تغطيها الغيوم، والأمطار تهطل سيولاً غزيرة. وميتيا ينظر إلى النافذة كالآلة.
قال ميتيا يسأل نيقولا بارفينوفتش فجاة:
- هل أستطيع أن ألقي نظرة من النافذة؟ فأجابه هذا بقوله:
- ما شئت أن تنظر...
فنهض ميتيا واقترب من النافذة. المطر ينهمر على الزجاج انهماراً قوياً. وأمام المنزل يرى طريق موحل؛ وبعد الطريق، في الضباب الماطر، لمح الكتل السوداء البائسة، كتل الأكواخ التي تبدو في المطر ملفعة بمزيد من الجهامة والبؤس. فكر ميتيا فجأة في «فيبوس ذي الضفائر الذهبية»، وفيما كان قد عقد عليه عزمه من انتحار عند الفجر. فقال في نفسه وهو يبتسم ابتسامة مرة: «هذا صباح كان يناسب مشروعي جداً ثم طرد هذه الرؤيا بحركة عريضة من بده، والتفت إلى جلاديه» وقال:
- أيها السادة، أرى أنني ضعت. ولكن ماذا عنها هي؟ قولوا لي، أتضرع إليكم، هل سيكون عليها أن تهلك معي؟ إنها لا شأن لها بالأمر؛ وفي لحظة من ضلال إنما اتهمت نفسها أمس بأنها «مسؤولة عن كل شيء». هي لم ترتكب أي خطيئة، هي بريئة كل البراءة. لقد تألمت طوال الليل وأنا أفكر فيها بينما كنتم تستجوبونني.. ألا تستطيعون أن تقولوا لي ما هو المصير الذي ينتظرها؟
بادر وكيل النيابة يجيبه:
- اطمئن عليها يا دمتري فيدوروفتش. ليس هناك حتى الآن أي سبب يدعونا إلى إقلاق الإنسانة التي تهتم بها هذا الاهتمام كله، وأرجو أن تضعها نهاية التحقيق في خارج القضية نهائيا... وسنعمل من جهتنا كل ما في وسعنا في سبيلها. فلا تخش عليها شيئاً !
- شكراً يا سادتي. كنت أعلم حق العلم في الواقع أنكم رغم الظروف أناس عادلون شرفاء. لقد أزحتم عن صدري عبئاً ثقيلاً... ماذا أنتم صانعون بي الآن؟ إنني مستعد.
- لم يبق لنا وقت نضيعه. يجب أن نبادر إلى سماع الشهود
حالاً، وهذا لا يكون إلا بحضورك. لذلك...
قاطع نيقولا بارفينوفتش قائلاً:
- ألا يكون من الأفضل أن نحتسي فنجانا من الشاي أولاً.
أحسب أننا نستحق فنجاناً من الشاي !
وتقرر احتساء شيء من الشاي إذا وجد شاي ساخن تحت (وهذا مرجح، وإلا فهل كان يغيب ميخائيل ماكاروفتش إلا لطلب الشاي؟).

وبعد الشاي يستأنف الاستجواب ويتابع بلا كلال. أما الإفطار بمعنى كلمة الإفطار، الإفطار مع «الزاكوسي» [198] (المقبلات)، فيؤجل إلى ما بعد. واتضح أن هناك شاياً مهيأً بالفعل تحت، فجيء بالشاي إلى الغرفة. رفض ميتيا في أول الأمر أن يتناول الكوب التي مدها إليه نيقولا بارفينوفتش بكثير من اللطف والمودة، ولكنه عدل عن رأيه بعد لحظة فتناولها واحتسى الشاي بشراهة. كان يبدو مرهقاً إرهاقاً غريباً. ما كان لليلة قصف، ولو حفلت بانفعالات عنيفة، أن تهدم هذا التهديم رجلاً له مثل قوة جسمه. ولكن ميتيا كان لا يكاد يستطيع الثبات على كرسيه، وكانت الأشياء الموجودة في الغرفة تدور أمام عينيه في بعض اللحظات.
قال يحدث نفسه: «لحظات ثم أهذي»..

-8-أقوال الشهود -الصبي

بدأ استجواب الشهود. ولكننا لن نذكر هنا جميع تفاصيله، كما فعلنا باستجواب ميتيا. لن نحكي إذا كيف أوضح نيقولا بارفينوفتش لكل شاهد أن من واجبه أن يقول الحقيقة كاملة وأنه سيحمل فيما بعد على أن يكرر أقواله معززة بحلف اليمين؛ لا ولن نصف الشكليات الإجرائية، كتذييل الشهود لمحضر استجوابهم بتواقيعهم. وحسبنا أن نشير إلى أن الأسئلة التي ألقاها رجال القضاء إنما دارت في الدرجة الأولى على الثلاثة آلاف روبل: لقد طلب من الشهود أن يقولوا هل أنفق دمتري فيدوروفتش، في موكرويه، أثناء سهرة القصف السابقة، في الشهر الماضي، ثلاثة آلاف روبل أم هو أنفق ألفاً وخمسمائة فحسب، وفي ليلة البارحة، في أول سهرة القصف الثانية هذه، هل كان معه ثلاثة آلاف أم كان معه ألف وخمسمائة. واحزناه ! لقد شهدوا جميعاً عليه ولم يشهد أحد له. حتى إن عدداً منهم ذكروا قرائن جديدة قوية تكذب دعواه. وكان تريفون بوريستش أول من سمعت شهادته. تقدم أمام القضاة دون أن يبدو عليه أي خوف أو خجل، فهيئته هيئة رجل مستاء أعمق الاستياء من سلوك المتهم، وهذا ما أضفى على تصريحاته طابعاً قوياً من الصدق، وأتاح له أن يصطنع أوضاعا فيها كثير من الكرامة والمهابة والوقار. وكان موجزاً في كلامه، متحفظاً في أقواله، ينتظر الأسئلة بدلا من أن يستبقها، ولكنه أجاب عن كل سؤال بكثير من الدقة والروية والتأمل. وقد أكد بلا تردد أن المبلغ الذي أنفق في الشهر الماضي لا يمكن أن يقل عن ثلاثة آلاف روبل، وأن جميع فلاحي المنطقة قد سمعوا رقم الثلاثة آلاف ينطقه «دمتري فيدوروفتش» بلسانه نفسه، وأنه يكفي أن يسألوا عن ذلك. وختم صاحب النزل كلامه بقوله: «لقد أنفق على الغجر وحدهم ثروة طائلة، أعطى النساء ألف روبل في أقل تقدير».

فعلق ميتيا على ذلك قائلاً وهو مظلم الوجه:

- لم أكد أعطيهم خمسمائة روبل. من المؤسف إنني لم أحسب، لأنني كنت ثملاً، ولولا ذلك كان ميتيا جالساً عندئذ في جانب، جاعلاً ظهره إلى الستائر، وكان يبدو كالح الوجه حزين النفس متعب الجسم، يستمع إلى أقوال الشهود مستسلماً مذعناً بغير انفعال، فكأنه يقول لهم: «هيا... قولوا ما شئتم... يستوي عندي كل شيء بعد الآن!».

رد عليه تريفون بوريستش قائلاً بلهجة حازمة:

- لقد كلفوك أكثر من ألف روبل يا دمتري فيدوروفتش. كنت ترمي إليهم المال من دون حساب، كانوا يلتقطونه من الأرض. إن هؤلاء الغجر أوغاد... ذلك معروف... هم لصوص خيل... وقد طردوا من المنطقة، ولولا ذلك لكان يمكن أن يؤتى بهم ليقولوا كم سلبوك في تلك الليلة. لقد رأيت بعيني الحزمة التي كنت تمسكها بيديك. ولئن لم أعد الأوراق المالية التي كانت تضمها الحزمة، لأنك لم تتح لي ذلك، فإنني أتذكر أنها كانت تضم أكثر كثيراً من ألف وخمسمائة روبل، إذا صدق النظر.. أكثر كثيراً على كل حال!

إننا قد رأينا أيضاً مبالغ ضخمة في حياتنا... إننا نستطيع نحن أيضاً أن نقدر ما تضمه حزم الأوراق المالية...

أما عن المبلغ الذي جاء به ميتيا في الليلة البارحة فقد صرح تريفون بوريستش بلهجة قاطعة لا تقبل الجدل بأن دمتري فيدوروفتش ما إن نزل من عربة الترويكا حتى قال له إن معه ثلاثة آلاف روبل.

فحاول ميتيا أن يحتج قائلاً:

- ما هذا يا تريفون بوريستش؟ أأنا زعمت بمثل هذا القطع والجزم أن معي ثلاثة آلاف روبل؟

- أنت قلت ذلك يا دمتري فيدوروفتش! وقد قلته بحضور أندريه.

وهو ما يزال هنا لم ينصرف، فاسألوه. وبعد ذلك بقليل صحت تقول في القاعة، وأنت تغدق على أفراد الجوقة، إنك تنفق هنا الألف السادس من الروبلات، جاعلاً الثلاثة آلاف الأولى في حسابك طبعاً. ولقد سمع كلامك ستيبان وسيمون، وسمعه بيتر فومنش كالجانوف الذي كان إلى جانبك عندئذ، فلعله يتذكره هو أيضاً...

اهتم القضاة بهذا التصريح المتعلق بالألف السادس من الروبلات اهتماماً شديداً. إن هذه المعادلة الجديدة تخلب عقولهم: ثلاثة آلاف في المرة الأولى + ثلاثة آلاف في هذه المرة= ستة آلاف فعلاً.

واستجوب الفلاحان اللذان ذكرهما تريفون بوريستش، وهما ستيبان وسيمون، واستجوب الحوذي أندريه، واستجوب كذلك بيتر فومتش كالجانوف. فأما الفلاحان والحوذي فقد أيدوا تصريحات صاحب النزل بلا تردد. وقد سجلت، بوجه خاص، التفاصيل التي أوردها أندريه عن الحديث الذي جرى بينه وبين ميتيا أثناء الطريق حين سأله ميتيا: «هل سيذهب، هو دمتري فيدوروفتش، إلى جهنم أم إلى الجنة، وهل سيغفر له في السماء أم لا».

وقد تذكر ايبوليت كيرى لوفتش في هذه المناسبة مواهبه الرفيعة في «النفاذ السيكولوجي»، فاستقبل ما رواه أندريه بابتسامة مفهومة، وأمر بضم هذا التصريح إلى ملف القضية.

واستدعي بعد ذلك كالجانوف، فدخل القاعة وقد بدا في وجهه التململ والضجر والتجهم، وأظهر أثناء الاستجواب كثيراً من النزوات وأبدى كثيراً من سرعة الغضب. تحدث مع وكيل النيابة وقاضي التحقيق حديثه مع أناس يراهم لأول مرة، مع أنه يعرفهما منذ زمن طويل، ومع أنه التقى بهما مراراً في المجتمع. وقد بدأ كلامه بقوله: إنه يجهل كل شيء عن هذه القضية، ولا يحب أن يقحم نفسه فيها. ولكنه اضطر أن يوافق على أنه سمع صيحة ميتيا في موضوع الألف السادس من الروبلات، وأنه كان إلى جانبه في تلك اللحظة. فلما سئل كم كان مع ميتيا من المال قال: «لا أعرف عن هذا شيئاً». وأكد في مقابل ذلك أن الرجلين البولنديين قد غشا أثناء اللعب بالورق. وذكر كذلك، بعد إلحاح القضاة عليه إلحاحاً متكرراً، أن ميتيا قد حظي، بعد طرد البولنديين، برضى أجرافينا ألكسندروفنا، وأن أجرافينا ألكسندروفنا قد أكدت أنها تحبه. وقد تكلم كالجانوف عن أجرافينا ألكسندروفنا بلهجة فيها احتشام واحترام كأنها كانت سيدة من صفوة المجتمع، ولم يسمح لنفسه مرة واحدة بأن يسميها «جروشنكا». ورغم الانزعاج الواضح الذي كان يحسه هذا الشاب لاضطراره إلى الإدلاء بشهادته، فإن ايبوليت كيرى لوفتش ظل يستجوبه مدة طويلة حتى علم منه جميع التفاصيل التي تألفت منها خلال الليل رواية ميتيا. وقد ترك ميتيا للشاب كالجانوف أن يتكلم دون أن يقاطعه، وصرف الشاب أخيراً. فابتعد دون أن يخفي استياءه وامتعاضه.

واستجوب البولنديان أيضاً. كانا قد استقرا للنوم في الغرفة التي حبسا فيها، ولكن لم يغمض لهما جفن طوال الليل، وأسرعا يرتديان ثيابهما حين سمعا وصول القضاة، لأنهما كانا يقدران أنهما سيستدعيان للإدلاء بشهادتيهما. تقدما نحو القضاة برصانة ووقار، ولكن بشيء من الخوف والخشية مع ذلك وغرف عندئذ أن السيد الصغير الذي كان يبدو أنه هو الشخصية الهامة من الشخصيتين، موظف محال على التقاعد من الدرجة الثانية عشرة، قد خدم في سيبريا طبيبة بيطرياً. وأن اسمه موزيالوفتش. أما السيد فروبلفسكي فقد صرح بأنه «طبيب أسنان حر». منذ أن دخل البولنديان الغرفة التفتا نحو ميخائيل ماكاروفتش ليجيبا عن الأسئلة التي كان يلقيها عليهما نقولا بارفينوفتش. كان واضحاً أنهما يتصوران أن رئيس الشرطة، المنتحي قليلاً، هو أرفع الشخصيات الموجودة في الغرفة رتبة، فكانا لا ينفكان يخاطبانه بقولهما: «السيد العقيد». ولم يعزما أمرهما على الاتجاه بحديثهما إلى نيقولا بارفينوفتش إلا بعد احتجاجات كثيرة من ميخائيل ماكاروفتش، مصحوبة بإيضاحات وتعليمات. وقد تبين أنهما يجيدان الكلام باللغة الروسية إجادة تامة، بصرف النظر عن بعض عيوب النطق. عرض البان موزيالوفتش علاقاته الحاضرة والماضية بجروشنكا، متكلماً بلهجة مسرحية مظهراً كبيراً من الحرارة والكبرياء، فكان من شأن ذلك أن أحنق ميتيا وأخرجه عن طوره فصاح يقول إنه لا يحتمل أن يتحدث إنسان «حقير»على هذا النحو أمامه. فسرعان ما ألح البان موزيالوفتش على أن يسجل في المحضر أن ميتيا استعمل كلمة «حقير». فصاح ميتيا يقول في اهتياج ووجد:

- حقير... نعم... حقير! سجلوا هذا الكلام، وسجلوا أيضاً أنني لا أعبأ بالمحضر. ولن يمنعني المحضر من أن أصرخ في وجهك مرة أخرى قائلاً: أنت حقير!

أمر نيقولا بارفينوفتش بتسجيل الإهانة، ولكنه عرف بعد ذلك كيف يختم هذا الحادث الأليم ببراعة عظيمة وحنكة مهنية فائقة. دعا ميتيا إلى التزام الهدوء بلهجة قاسية، وعدل بعد ذلك فوراً عن إلقاء أسئلة جديدة تتناول الجانب العاطفي من القضية. وعلى وجه الإجمال، كان في أقوال «البانين» البولنديين نقطة لفتت انتباه القاضيين على نحو خاص، وأثارت فيهما اهتماماً شديداً، ألا وهي محاولة ميتيا أن يتخلص من السيد موزيالوفتش بأن يعطيه ثلاثة آلاف روبل ثمناً لتنازله عن جروشنكا، منها سبعمائة روبل ينقده إياها فوراً، والباقي وهو ألفان وثلاثمائة روبل، يدفعه له منذ صباح الغد في المدينة. وقد ذكر السيد البولندي أن ميتيا حلف له أنه لا يملك المبلغ كاملا في موكرويه، ولكنه يملكه مخبأً في المدينة. احتد ميتيا حين سمع هذا التصريح وأنكر أن يكون قد وعده بإكمال المبلغ منذ الصباح في المدينة. غير البان فروبلفسكي أيد أقوال رفيقه. ففكر ميتيا قليلا، ثم وافق مقطباً، على أن من الجائز فعلاً أن تكون الأمور قد جرت على هذا النحو الذي يذكر البولنديان، وقال إنه كان مهتاجاً أشد الاهتياج أثناء ذلك الحديث، فمن الممكن أن يكون قد قال ذلك الكلام. وأبدى وكيل النيابة اهتماماً

خاصاً بهذه الأقوال إذ إنها توضح الآن وذلك ما لم يتهم الاستناد إليه إلا فيما بعد أن نصف الثلاثة آلاف روبل التي صارت إلى يدي ميتيا أو جزء منها إنما هو مخبأ في المدينة، وربما في موكرويه نفسها. بذلك تبدد ذلك الظرف الذي كان غامضاً بالنسبة للتحقيق، أعني كون ميتيا لا يحمل إلا ثمانمائة روبل، وهذا أمر كان إلى ذلك الحين، هو العنصر الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه في دعم صدق أقواله، وإن تكن دلالة هذا العنصر ضعيفة. هكذا انهار الدليل الوحيد الذي كان يمكن أن يدافع عن ميتيا. فلما سأل وكيل النيابة ميتيا من أين كان يأمل أن يحصل على ما ينقصه، وهو ألفان وثلاثمائة روبل، من أجل أن يدفع للبان البولندي، ما دام جميع ما يملكه هو ألف وخمسمائة، وما دام قد وعد بإكمال المبلغ في الغد، أجاب ميتيا جازماً بأنه كان لا ينوي أن يعطي البولندي المبلغ مالاً سائلاً، بل تنازلاً خطياً عن حقوقه في قرية تشرماشنيا، وهي الحقوق التي سبق أن أراد التنازل عنها للتاجر سامسونوف وللسيدة خوخلاكوفا. فابتسم وكيل النيابة من سذاجة هذا التملص.

- هل تظن جاداً أنه كان سيرضى بهذه الحقوق بديلاً عن ألفين وثلاثمائة روبل عداً ونقداً؟

أجاب ميتيا قائلاً بحرارة:

- طبعاً كان سيقبل. ذلك أنه يربح بذلك أكثر من ألفي روبل. إن في وسعه أن يقبض بهذه الطريقة أربعة آلاف روبل على الأقل، وربما قبض ستة آلاف. كان سيسرع إلى توكيل بعض المحامين، اليهود أو البولنديين، فيجبر العجوز على التخلي لا عن ثلاثة آلاف روبل بل عن قرية تشرماشنيا!

سجلت أقوال البان موزيالوفتش طبعاً، بجميع تفاصيلها، ثم صرف البولنديان. ولم يزعجهما أحد بموضوع الغش في اللعب بالورق. لقد كان نيقولا بارفينوفتش شاكراً لهما تصريحاتهما فلم يشأ أن يصدعهما بسفاسف وترهات، ولا سيما وأن الأمر لا يعدو أن يكون بعد كل شيء خلافاً في اللعب بين قاصفين سكارى. ألم تكن الليلة كلها حافلة بفضائح و حوادث شتى؟ هكذا بقيت المائتا روبل ملكاً حلالاً للبانين البولنديين.

وجاء بعد ذلك دور العجوز ماكسيموف. بدا عند وصوله وجلاً كل الوجل، واقترب من القضاة بخطى صغيرة، حزين الوجه شديد الارتباك. كان قد ظل طوال الوقت في صحبة جروشنكا، لاطياً بها كأنما لتحميه. وكان جالساً بالقرب منها في صمت، ينفجر باكياً أحياناً، ويمسح عينيه بمنديل أزرق ذي مربعات، كما روى ذلك ميخائيل ماكاروفتش فيما بعد. وقد بلغ من فرط الكرب واليأس أن جروشنكا اضطرت أن تهدئه وأن تواسيه مراراً. اعترف العجوز دفعة واحدة، والدموع في صوته، أنه يعد نفسه مذنباً لأنه اقترض من دمتري فيدوروفتش عشرة روبلات بسبب شدة فقره، وأنه مستعد لرها... فلما سأله نيقولا بارفينوفتش هل يعلم كم كان في يدي ميتيا من مال، لأنه استطاع أكثر من أي شخص آخر أن يمعن النظر في الحزمة حين تناول العشرة روبلات، أجاب على الفور باقتناع أن الحزمة كانت تضم نحو عشرين ألف روبل.

فسأله نيقولا بارفينوفتش مبتسماً:

- هل أتيح لك قبل ذلك أن ترى مبلغ عشرين ألف روبل؟

- هل رأيت؟ طبعاً رأيت، ولكنني لم أر عشرين ألفا بل رأيت سبعة آلاف، وذلك حين رهنت زوجتي قريتنا الصغيرة. لقد تباهت أمامي بالمبلغ الذي أعطيته، وأذنت لي أن أنظر إلى الحزمة، ولكن من بعيد. كانت حزمة كبيرة من أوراق نقدية كالأوراق التي كانت مع دمتري فيدوروفتش.

ولم يطيلوا استجوابه. واستدعيت أخيراً جروشنكا. كان القضاة يخشون ما قد يرد به ميتيا حين يراها، حتى لقد اعتقد نيقولا بارفينوفتش أن من الضروري أن يقول له بضع كلمات من باب النصح. ولكن ميتيا اقتصر جوابه كله على أن حني رأسه قليلاً، كأنه يريد أن يقول: «لن يحدث اضطراب !». إن ميخائيل ماكاروفتش هو الذي أدخل جروشنكا. وقد دخلت عابسة مقطبة، ولكن على هدوء ظاهر، وجلست بغير ضجة على كرسي أشار لها إليه نيقولا بارفينوفتش أمامه. وكانت شاحبة الوجه جداً، وكان يبدو أنها تشعر ببرد شديد، وتتلفع بشالها الأسود الرائع. والحق أنها كانت تشعر برعدات حمى هي بداية ذلك المرض الطويل الذي أصيبت به منذ تلك الليلة. وكان من شأن هيئتها الرصينة ونظرتها الجادة الصريحة ووضعها الهادئ أن أحدثت في نفوس الجميع أثراً طيباً. حتى لقد «فتن» بها نيقولا بارفينوفتش بعض الشيء. فقد روى فيما بعد، حين وصف مشاعره في ندوة من الندوات، أنه أدرك مدى جمال تلك المرأة لأول مرة حينذاك. وقال إنه لم يكن يرى فيها حتى ذلك الحين إلا غانية ريفية. وقد صاح يقول ذات مرة بحرارة في مجتمع نسوي: «إن لها آداباً عظيمة كآداب امرأة من صفوة المجتمع»، فأحدثت هذه الصيحة استياءً شديداً في نفوس سامعاته، وسرعان ما وصفته بأنه «فاسق»، فسر هو بهذا الوصف سروراً عظيماً. حين دخلت جروشنكا الغرفة ألقت على ميتيا نظرة خاطفة، فتأملها قلقاً، غير أن منظر هدوئها لم يلبث أن طمأنه. سألها نيقولا بارفينوفتش، بعد الإجراءات الشكلية وبعد بضع نصائح، سألها متردداً بعض التردد، ولكن بكثير من الأدب والتهذيب «ماذا كانت علاقاتها بالملازم المتقاعد دمتري فيدوروفتش كارامازوف»، فأجابته جروشنكا بصوت حازم رقيق:

- كان واحداً ممن أعرف من الناس، وبهذه الصفة إنما كنت أستقبله في بيتي أثناء الشهر الأخير.

وألقيت عليها أسئلة أخرى كان بعضها دقيقاً محرجاً، فكانت تجيب في كل مرة بصراحة تامة. وهكذا اعترفت بأن ميتيا كان قد أعجبها «في بعض الساعات» ولا شك، غير أنها لم تكن قد أحبته، وإنما كانت تلعب به لعبة بدافع الخبث المنحط وحدها، كما كانت تلعب بالعجوز من جهة أخرى؛ وكانت قد لاحظت أن ميتيا يغار جداً من فيدور بافلوفتش، ومن رجال آخرين أيضاً، ولكن ذلك لم يكن عندها إلا موضوعاً جديداً للتسلي والضحك. أما فيدور بافلوفتش فإنها لم تزره في يوم من الأيام، لأنها لم ترد على السخرية منه طول الوقت. وختمت كلامها قائلة: «ثم إنني قد كانت لي خلال هذا الشهر الأخير مشاغل أخرى مختلفة عن ذلك كل الاختلاف. فقد كنت لا أفكر فيهما، لأنني كنت أنتظر وصول رجل أعده آثماً في حقي.. ومهما يكن من أمر، فإنني أحسب أنه ليس لكم أن تتدخلوا في هذا الشأن، وليس علي أن أروي هذه التفاصيل، لأن هذا من حياتي الخاصة»..

أسرع نيقولا بارفينوفتش يخضع أمام هذه الحجة، فكف عن سؤال جروشنكا عن العناصر العاطفية في القضية، وبادر يواجه النقطة الأساسية رأساً، أعني مسألة الثلاثة آلاف روبل. فأيدت جروشنكا أن المال الذي أنفق من موكرويه في الشهر الماضي يرتقي إلى ثلاثة آلاف روبل. فلئن لم تعد المال، لقد سمعت دمتري فيدوروفتش نفسه يذكر هذا الرقم.

سألها وكيل النيابة:

- هل أسر إليك بهذ الرقم على انفراد أم بحضور أشخاص آخرين؟ أم هل عرفته لأنك سمعته يذكر لآخرين؟

فأوضحت جروشنكا أنها سمعت ميتيا يذكر هذا الرقم لأشخاص آخرين، ولكنه حدثها عنه أيضاً، على انفراد وبحضور آخرين.

فسألها وكيل النيابة مرة أخرى:

- هل سمعته يذكر هذا الرقم مرة واحدة أم عدة مرات؟ فأجابت:

- بل عدة مرات.

رضي إيبوليت كيرى لوفتش عن هذه التصريحات رضى عظيماً. وقد أتاحت تتمة الاستجواب أن يعرف، عدا ذلك، أن جروشنكا كانت على علم بمصدر هذا المبلغ، وأنها كانت لا تجهل أن ميتيا قد أخذه من كاترينا إيفانوفنا.

- ألم تسمعي أبداً أن المبلغ الذي أنفق في القصف في الشهر الماضي لم يكن ثلاثة آلاف روبل، بل دون ذلك كثيراً، وأن دمتري فيدوروفتش قد احتفظ بنصف المال؟

- لا، أبداً. لم أسمع هذا في يوم من الأيام.

وإذ طلبوا إلى جروشنكا أن توضح أكثر هذه النقطة، فقد أدى ذلك بها إلى أن تصرح أن ميتيا، خلافاً لذلك، قد أكد لها طوال هذا الشهر أنه لم يبق معه كوبيكة واحدة. وختمت جروشنكا كلامها قائلة: «وكان يأمل دائماً أن يأخذ مالاً من أبيه»..

هنا سألها نيقولا بارفينوفتش على حين فجأة:

- هل اتفق له أن قال بحضورك أو ذكر عرضاً أو صاح وهو في ثورة من غضب أنه ينوي أن يقتل أباه؟

فأجابت جروشنكا متنهدة:

- قال ذلك واأسفاه !

- أقالها مرة واحدة أم قالها مراراً؟ - قالها مراراً، ولكن في لحظات الغضب دائماً..

- هل صدقت أنه سيقدم على تنفيذ نواياه؟

- لا، لم أصدق هذا في يوم من الأيام، لأنني كنت على ثقة بنبل خلقه.

كذلك قالت جروشنكا بلهجة حازمة. فصاح ميتيا يقول فجأة:

- اسمحوا لي أيها السادة! هل أستطيع أن أقول كلمة، كلمة واحدة، بحضوركم، لأجرافين ألكسندروفنا؟
قال نيقولا بارفينوفتش:
- قل ما تريد!
فقال ميتيا وهو ينهض عن كرسيه:
- أجرافينا ألكسندروفنا، صدقيني، فإن الله على ما اقول شهيد أنا لم أسفح دم أبي!
قال ميتيا تلك الكلمات وعاد يتهالك على كرسيه. فنهضت جروشنكا، ورسمت إشارة الصليب بخشوع وتقى وهي تتجه إلى أيقونة، وقالت بصوت حار مؤثر:
- الحمد لله ! ثم أضافت تقول مخاطبة نيقولا بارفينوفتش قبل أن تعود لتجلس:
- إن ما قاله هو الحقيقة، وعليكم أن تصدقوه. أنا أعرفه. قد يمزح لعباً أو عناداً، ولكنه لن يكذب في يوم من الأيام مخالفة ضميره. سيقول الحق دائماً في الأحوال الخطيرة. كونوا من هذا على يقين!
قال ميتيا بصوت يهجه الانفعال:
- شكراً أجرافينا ألكسندروفنا! إن أقوالك قد واست قلبي.
وفي موضوع المال الذي كان مع ميتيا في الليلة البارحة، صرحت جروشنكا بأنها لا تعرف مقداره، ولكنها اعترفت بأن ميتيا قد أكد العدة أشخاص أنه جاء بثلاثة آلاف روبل. وأما عن مصدر ذلك المال فقد قالت جروشنكا إن ميتيا اعترف لها، لها وحدها، بأنه «سرقه» من كاترينا إيفانوفنا، وأنها أجابته على ذلك بأن هذا ليس سرقة، وأن عليه أن يرد إليها المال منذ الغد. فلما ألح وكيل النيابة على أن يعرف ما هو المبلغ الذي يدعي ميتيا أنه سرقه من كاترين إيفانوفنا - أهو الثلاثة آلاف روبل التي كانت معه في الليلة البارحة، أم هو الثلاثة آلاف روبل التي أنفقها بموكرويه في الشهر الماضي - أجابت بأن ميتيا قد تكلم عن الثلاثة آلاف روبل التي أنفقت في الشهر الماضي، وأن هذا ما فهمته هي من كلامه.
هنا انتهى استجواب جروشنكا. وأسرع نيقولا بارفينوفتش يعلن لها أنها حرة تستطيع أن ترجع إلى المدينة، فإذا كان في وسعه أن يعمل شيئاً من أجلها، كأن يأمر لها بخيل أو أن يهيئ لها خفراً، فإنه سوف يسعده أن... فقاطعته جروشنكا تقول وهي تنحني انحناءة توديع يسيرة:
- أشكر لك لطفك. ولكنني أنوي الذهاب في صحبة هذا الملاك العجوز الذي أرغب في أن أوصله إلى منزله. وبانتظار ذلك أؤثر أن أبقى تحت، إذا أذنتم بذلك، ريثما تقرروا مصير دمتري فيدوروفتش.
وخرجت جروشنكا من الغرفة. كان ميتيا هادئاً، حتى لقد كان وجهه يعبر عن رباطة جأش وطمأنينة البال، ولكن ذلك لم يدم إلا لحظة قصيرة. إن وهناً جسمياً شديداً غريباً كان يغزوه شيئاً بعد شيء، وأن عينيه كانتا تغمضان من فرط التعب؛ ولم يكن قد بقي شهود يستمع إلى شهاداتهم، وقد بدأت كتابة المحضر في صورتها الأخيرة، فها هو ذا ميتيا ينهض عن كرسيه، ويتجه إلى زاوية الغرفة قرب الستارة، ويتمدد على صندوق كبير مغطى بسجادة، فسرعان ما ينام، فيرى في منامه حلمة حلمة غريباً لا يتفق مع هذه الظروف في شيء من الأشياء - رأى نفسه في عربة تجتاز سهوباً في المنطقة التي كان قد خدم فيها ضابطاً، والعربة يقودها خلال السهل الموحل فلاح يعمل حوذياً. إن ميتيا يشعر ببرد. هذه أوائل شهر نوفمبر. الثلج يتساقط سبائخ كبيرة رطبة ما إن تلامس الأرض حتى تذوب. الفرح يستحث الخيل ويشجعها على أن تسرع العدو ملوحاً بسوطه. إن له لحية صهباء طويلة جداً. ما هو بالعجوز. قد يكون في الخمسين من عمره. إنه فلاح بسيط يرتدي قفطانة فقيرة. وهذه قرية صغيرة تتراءى في مكان قريب. إن الناظر يلمح أكواخها السوداء الحزينة وقد احترق نصفها ولم يبق منها إلا هياكل محترقة. وعند مخرج القرية تصطف نساء، تصطف كثرة من النساء إنهن هزيلات هزالاً رهيباً. وجوههن بلون التراب. بينهن واحدة تلفت النظر خاصة، وقد وقفت على حافة الطريق. هي امرأة بارزة العظام طويلة القامة، تبدو في الأربعين ولكن ربما كان عمرها لا يزيد على عشرين. وجهها مستطيل جاف. وعلى ذراعيها طفل يبكي. لا شك أن ثديها قد نضبا، فلم يبق فيهما قطرة من لبن. الطفل يبكي، وما ينفك يبكي بلا انقطاع، ماداً ذراعيه الصغيرتين، ذراعيه العاريتين اللتين ازرقت قبضاتهما من شدة البرد.
سأل ميتيا حين مرت العربة أمامه مسرعة:
- لماذا يبكون؟ لماذا؟ فأجابه الحوذي:
- الصبي هو الذي يبكي.
فوجئ ميتيا من قول الفلاح: «الصبي»، بدلاً من أن يقول الطفل. أعجبه من الفلاح أن يستعمل هذه التسمية. إن في كلمة الصبي من العطف والشفقة ما ليس في كلمة «الطفل».
ألح ميتيا يسأل الفلاح رغم شعوره بغباوة سؤاله:
- ولكن لماذا يبكي؟ لماذا ذراعاه عاريتان؟ لماذا لا يغطون جسمه؟
قال الفلاح:
- الصبي قد تخدر من البرد؛ تجلدت ثيابه فأصبحت لا تقيه. ظل ميتيا يسأل في غباء: ولكن لماذا؟ لماذا؟
- هؤلاء نساء فقيرات، احترقت دورهن، ولم يبق معهن خبز، فهن يستجدين.
قال ميتيا وكأنه لا يفلح في أن يفهم:
- لا، لا. قل لي: لماذا هن هنا، تلك الأمهات اللواتي احترقت دورهن، لماذا هن فقيرات إلى هذه الدرجة من الفقر، لماذا هذا الصبي يبكي، ولماذا هذه السهوب عارية كل هذا العري؟ نعم، لماذا لا يتعانقن جميعاً؛ لماذا لا يرتمي بعضهن في أذرع بعض منشدات أغنية فرح؟ لماذا أصحبت وجوههن بلون التراب من شدة الفقر والبؤس، لماذا لا يطعمن الطفل؟
إن ميتيا يحس في قرارة نفسه أن هذه الأسئلة بلهاء سخيفة، ولكنه يشعر بحاجة قوية إلى إلقائها، ويعلم أنها يجب أن تلقى. وهو يشعر كذلك بشفقة كبيرة في قلبه، شفقة لا عهد له بمثلها من قبل، وهو يريد أن يبكي، ويتمنى أن يفعل شيئا ليساعدهن جميعاً، حتى يكف الصبي عن الأنين، وحتى تنقطع عبرات أمه ذات الوجه الهزيل المغبر، وحتى لا يبكي أحد في هذا العالم بعد اليوم. إنه يريد أن يعمل شيئاً على الفور، بغير انتظار، وبدون أن يحسب حساب أي شيء، مندفعاً ذلك الاندفاع الجامح الذي يتميز به آل كارامازوف.
- سأكون معك، لن أتركك بعد الآن، سأبقى إلى جانبك مدى الحياة.
كذلك قال على مقربة منه صوت جروشنكا الرقيق الحنون المتأثر. اشتعل قلبه مندفعاً نحو ضياء ما. إنه يريد أن يحيا، أن يحيا، أن يمشي، أن يمشي بلا توقف نحو ذلك الضياء الجديد الذي يناديه، أن يمشي حالاً، بمزيد من السرعة، على الفور، على الفور!
هتف فجأة وهو يفتح عينيه ويجلس على الصندوق، كأنه يصحو من غيبوبة:
- أين؟ كيف؟
وكانت بسمة مشرقة تضيء وجهه. كان نيقولا بارفينوفتش واقفاً أمامه يدعوه أن يسمع قراءة المحضر وأن يوقعه. أدرك ميتيا أنه نام ساعة أو أكثر. ولم ينتبه أي انتباه إلى كلام نيقولا بارفينوفتش، لأنه لاحظ مندهشاً أن وسادةً كانت موضوعة تحت رأسه، مع أنه لم يكن ثمة وسادة حين استلقى على الصندوق مهدود القوى. هتف يسأل وهو يشعر بامتنان متحمس، وفي صوته دموع، كأنه قد مُنَّ عليه بفضل عظيم:
- من وضع وسادة تحت رأسي؟ من عطف علي هذا العطف النبيل؟
غير أن الإنسان الذي قام ببادرة العطف هذه قد ظل مجهولاً. لعل أحد الشهود أو لعل كاتب نيقولا بارفينوفتش هو الذي أمر بإحضار الوسادة. أحسّ ميتيا بتأثر شديد برفرق الدموع في العينين. واقترب من المائدة، وأعلن أنه سيضع توقيعه على كل ما يشاؤون أن يضع توقيعه عليه.
وقال بصوت غريب:
- رأيت حلماً جميلاً يا سادتي.
إن قسمات وجهه قد تبدلت واكتسبت تعبيراً جديداً فيه شيء من الفرح. إن محيَّاه غارق في ضياء مشرق.

-9-اقتياد ميتيا

حين تم توقيع المحضر التفت نيقولا بارفينوفتش نحو ميتيا في أبهة، وقرأ عليه نص «قرار» يتضمن أنه في يوم كذا، سنة كذا، وفي مكان كذا، استجوب قاضي التحقيق فلاناً (أي ميتيا)؛ وحيث إن المتهم، رغم إنكاره التهم المنسوبة إليه (وتُليت كل التهم بدقة) لم يكن قادراً على أن يبرئ نفسه؛ ونظراً للتهم المنسوبة إليه من الشهود (وتُليت قائمة بأسماء الشهود وشهاداتهم)، ونظراً لظروف القضية، فقد قرر قاضي التحقيق، بالاستناد إلى مواد قانون العقوبات (وتُليت أرقام المواد) أن يودع المتهم السجن الفلاني حتى لا يستطيع الفرار من وجه العدالة، وأن تبلغ صورة من هذا الحكم لوكيل النيابة، إلخ، الخلاصة: أُعلم ميتيا أنه معتقل، وأنه سينقل إلى المدينة ليسجن في مكان ليست الإقامة فيه بالممتعة. وقد أصغى ميتيا إلى قراءة هذه الورقة بانتباه، ولكنه لم يزد على أن رفع كتفيه قائلاً:

- ليكن ما تشاؤون يا سادتي... لست أؤاخذكم، أنا مستعد... إنني لأدرك حق الإدراك أنكم ما كان في وسعكم أن تفعلوا غير ما فعلتم فشرح له نيقولا بارفينوفتش، في لين ورفق، أن مافريكي مافريكيفتش الذي كان في المكان بما يشبه المصادفة، هو الذي سيقتاده.

هتف ميتيا يقول فجأة في ثورة جامحة لا تقاوم، متجهاً بكلامه إلى جميع الحضور في القاعة:

- لحظة أيها السادة! نحن جميعاً قساة، نحن جميعاً وحوش مفترسة، نحن سبب الدموع التي تسكبها الأمهات ويسكبها الأطفال الرضع، ولكنني أنا - أقول هذا جهاراً على رؤوس الأشهاد هنا - أنذل الناس، وأدنأهم طراً. إني أسلِّم بهذا. وما من يوم انقضى في حياتي إلا وحلفت فيه، وأنا ألطم صدري، لأصلحنّ أمري ولأقوِّمنَّ عَوَجي، ولكنني كنت أهوى إلى أخطائي منذ الغد. إنني أدرك اليوم أن رجالاً مثلي محتاجون إلى أن يضربهم القَدَر، محتاجون إلى أن يضربهم القدر ضربة تهزّ كيانهم وتوقظ في أنفسهم قوى الحقيقة العليا. ما كان لي أبداً، أبداً، أن أستطيع النهوض من تلقاء نفسي؟ ولكن الصاعقة قد نزلت عليَّ. وأنا أقبل عذاب الاتهام الموجه إلي، وأقبل العار الذي تلطخ به شرفي أمام الناس. أريد أن أتألم، وأن أتطهر بالألم. لأنني سأفدي نفسي بالألم، أليس هذا صحيحاً أيها السادة؟ ولكنني أؤكد لكم آخر مرة: أنني لم أسفح دم أبي! إنني أقبل العقاب لا على قتله، بل على أنني أردت أن أقتله، وربما كنت سأقتله في النهاية... ولكنني سأكافح لدفع التهمة عن نفسي، فاعلموا هذا! سأدافع عن نفسي حتى النهاية، وسيقرر الرب مصيري. إلى اللقاء أيها السادة. واغفروا لي ما ظهر مني من غضب أثناء الاستجواب. آه... ما كان أغباني عندئذٍ! بعد بضع ثوان لن أكون إلا سجيناً؛ ولآخر مرة إنما يمد دمتري كارامازوف يده إليكم مصافحاً مصافحة رجل حر طليق. وإني إذ أودِّعكم إنما أودِّع العالم...

أخذ صوته يرتجف، وقدم يده، لكن نيقولا بارفينوفتش الذي كان أقرب الحضور إليه، سحب يده فجأة بحركة تشبه أن تكون متشنجة. فلاحظ ميتيا ذلك فارتعش وسقطت يده.

دمدم نيقولا بارفينوفتش يقول محرجاً:

- لم ينته التحقيق. وسنستأنفه في المدينة. وأنا من جهتي أتمنى لك النجاح في ما ستبذله من جهود لتبرئة نفسك. لقد كنت أميل دائما يا دمتري فيدوروفتش إلى أن أعدك إنساناً عاثر الحظ إن صح التعبير، لا إنساناً مجرماً... ونحن جميعاً مستعدون - إذا جاز لي أن أنطق بلسان الآخرين أيضاً - لأن نرى فيك شاباً نبيل الخلق في قرارة نفسه، لكنه، وأأسفاه، قد اندفع مع أهواء عنيفة جامحة اندفاعاً ربما كان فيه إفراط...

وحين نطق القاضي بهذه الكلمات الأخيرة اصطنع شخصه الضئيل وضع مهابة قوي ووقار عظيم. وأحس ميتيا فجأة أن هذا «الولد الصغير» سيمسكه من ذراعه فيتنحى به جانباً ويستأنف معه حديثه الأخير عن «النساء». هل يتصور أحد أي خواطر غريبة شاذة لا تناسب ظروفاً كظروف هذه اللحظة يمكن أن تومض في ذهن الإنسان، ولو كان هذا الإنسان مجرماً يُساق إلى الإعدام؟

سأل ميتيا:

- سادتي، أنتم أناس طيبون إنسانيون. فهل تسمحون لي بأن أراها مرة أخيرة لأودعها؟

- طبعاً... ولكن، بالنظر إلى الظروف الخاصة... أقصد... لا يمكن أن تراها على انفراد بل بحضور شهود.

- لا أرى أي ضير في أن تحضروا اللقاء. مضى بعضهم يحضر جروشنكا. ولكن الوداع كان موجزاً، وهذا ما خيب ظن نيقولا بارفينوفتش. انحنت جروشنكا تحيي ميتيا تحية عميقة. وقالت له:

- قلت إنني سأكون لك إلى الأبد. سأصحبك حيثما تذهب، مهما يكن مصيرك. أستودعك الله، يا من ضيعت نفسك دون أن تكون مذنباً. واختلجت شفتاها، وسالت الدموع من عينيها.

- اغفري لي يا جروشنكا، اغفري لي أنني أحببتك. فسببت لك الضياع بهذا الحب.

أراد ميتيا أن يضيف شيئاً آخر، ولكنه انقطع عن الكلام فجأة وخرج من الغرفة. وسرعان ما وجد نفسه محاطة برجال لم يغب عن أنظارهم. وتحت، أمام درجات الباب الذي وصل إليه الليلة البارحة على عربة أندريه محدثاً ضجة كبيرة، كانت تنتظره عربتان. إن مافريكي مافريكفتش، وهو رجل سمين قصير متورم الوجه، يبدو معتكر المزاج قد أحنقه طارئ ما، فهو يغضب ويصيح. وها هو ذا يدعو ميتيا إلى ركوب العربة بلهجة عدَّها ميتيا مسرفة في الخشونة. قال ميتيا يحدث نفسه وهو يركب العربة: «حين كنت أسقيه خمراً في الحانة، كان يبدي غير ما يبدي الآن». وظهر تريفون بوريستش في أسفل درجات الباب أيضاً.واحتشدت جمهرة من الفلاحين والنساء والحوذيين قرب الباب تتفرس في ميتيا.

هتف ميتيا يقول لهم من مكانه:

- أستودعكم الله أيها الناس الطيبون؟ سامحوني؟

فترجَّعت أصوات تقول له:

- اغفر لنا نحن أيضاً.

- أستودعك الله أنت أيضاً يا تريفون بوريستش!

ولكن صاحب النزل أبى حتى أن يلتفت. لعله كان مشغولاً جداً، فلقد كان يصرخ ويتحرك منهمكاً هو أيضاً: والحقّ أن العربة الثانية التي يجب أن يركبها خفيران من رجال مافريكي مافريكفتش لم تكن بعد جاهزة للسفر. كان الفلاح القصير الذي كُلِّف بسوق العربة يصرُّ على أن يزعم، بينما هو يرتدي قفطانه، أن الدور دور آكيم، لا دوره هو، في القيام بهذه المهمة. ولكن أين آكيم؟ إن أحداً لم يستطع العثور عليه. لقد بحثوا عنه في كل مكان. والفلاح القصير ما يزال يصر ويتوسل أن ينتظروه مزيداً من الانتظار.

هتف تريفون بوريستش يقول:

- إن هؤلاء الناس الذين ينتمون إلى سقط الشعب وقحون وقاحة فظيعة يا مافريكي مافريكفتش، انظر كيف يتصرفون!

وأضاف يخاطب الفلاح الصغير:

- لقد أعطاك آكيم منذ ثلاثة أيام خمسة وعشرين كوبيكاً، فشربت بها خمراً، وتريد الآن أن يحل محلك وأن ينوب عنك.

وعاد تريفون بوريستش يخاطب موريس مافريكفتش:

- يدهشني يا مافريكي مافريكتش ما تعامل به هؤلاء الفلاحين الأدنياء من رقة وتسامح. ذلك كل ما أستطيع أن أقوله.

تدخل ميتيا قائلاً:

- لماذا هذه العربة الثانية؟ تكفينا عربة واحدة، ألا تظن ذلك يا مافريكي مافريكفتش؟ إنني لن أتمرد ولن أفر منك! لا حاجة إلى خفر من أجلي!

فأجابه مافريكي مافريكفتش قائلاً بشراسة:

- تعلّم كيف يجب عليك أن تكلمني يا سيد إذا كنت لا تعرف ذلك بعد. أنا لست رفيقك، وإنني أمنعك من مخاطبتي بصيغة المفرد. مفهوم؟ أما نصائحك ففي وسعك أن تمتنع عن إسدائها إليَّ في المستقبل.

كان واضحا أنه يسعده أن يفرِّج عن نفسه بالاستسلام لغضبه.

صمت ميتيا. وكان قد احمرّ احمراراً شديداً. وها هو ذا بعد لحظة يشعر ببرد. لقد انقطع المطر عن الهطول، ولكن السماء مغطاة بالسحب، وإن ريحاً جافة جداً تصفع وجهه. تساءل ميتيا في نفسه وهو يضم كتفيه في تشنج: «أهذه رعدة حمي؟». وركب مافريكي مافريكفتش العربة أخيرة. جلس في مكانه ثقيلا،

واسترخى على راحته دافعاً ميتيا إلى ركن المقعد دون أن يبدو عليه أنه لاحظ ذلك. الحق أنه كان معتكر المزاج جداً، وكان مستاءً أشد الاستياء من هذه المهمة التي عهد إليه بها.
- أستودعك الله يا تريفون بوريستش!
كذلك صاح ميتيا يقول مرة أخرى، ولكنه شعر بأنه لا يخاطب صاحب النزل في هذه المرة بروح المودة، وشعر بأن الغضب هو الذي انتزع منه هذه الصيحة انتزاعاً بغير إرادته. ظل تريفون بوريستش ساكناً لا يهتز، واضعاً يديه وراء ظهره. وحدَّق إلى ميتيا دون أن يجيب، ناظراً إليه نظرة مثقلة بالكبرياء والتعالي زاخرةً بالاستنكار والاستياء.
ودوَّي صوت كالجانوف يقول فجأة وقد انبجس لا يدري أحد من أين:
- الوداع يا دمتري فيدورفتش، الوداع! |
كان كالجانوف يجري نحو العربة عاري الرأس، ماداً يده إلى ميتيا، فاتسع وقت ميتيا لأن يمسك يده ويصافحه، قائلاً له:
- الوداع أيها الصديق الشهم. لن أنسى كرمك ما حييت!
ولكن العربة تحركت، فانفصلت يداهما، ورنت الجلاجل. لقد اقتيد ميتيا.
انسحب كالجانوف إلى الدهليز، فجلس في ركن، واضعاً رأسه بين يديه، وأخذ يبكي. وظل يبكي زمناً طويلاً كصبي صغير، لا كشابٍ في العشرين من عمره. لقد كان شبه مقتنع، واأسفاه!، بأن ميتيا قد قتل أباه. فكان يهتف بغير ترابط في أقواله، وهو يشعر بحسرة مرة شبيهة باليأس والقنوط: «ما قيمة البشر بعد هذا؟ كيف يثق المرء بالبشر بعد الآن؟». وبدا له في تلك اللحظة أنه أصبح لا يحب أن يحيا، فهو يتساءل قانطاً: «فيم الحياة؟ فيم الحياة؟».

الباب العاشر: الصبيان

-1- كوليا كراسوتكين

نحن في أول شهر نوفمبر (تشرين الثاني). درجة الحرارة إحدى عشرة درجة تحت الصفر. المياه تتجمد. وقد هطل على الأرض المتجلدة في الليل ثلج ناعم. فهذه هي الريح الجافة الحادة[199] تسفعه الآن في الشوارع الحالكة من مدينتنا الصغيرة، فتجمعة أكداساً على ميدان «السوق». الصباح يملؤه الضباب، ولكن الثلج انقطع عن الهطول. إنك ترى، غيرَ بعيد من الميدان، قرب متجر آل بلوتنيكوف، منزلاً صغيراً، نظيفاً جداً في الداخل والخارج على السواء، هو منزل أرملة الموظف كراسوتكين. إن الموظف كراسوتكين الذي كان سكرتيراً حكومياً[200] قد مات منذ زمن طويل... فقريباً يكون انقضى على موته أربع عشرة سنة؛ ولكن أرملته، وهي امرأة حسنة الوجه باشة الهيئة، في نحو الثلاثين من عمرها، ما تزال على قيد الحياة وتعيش من إيراداتها، في منزلها النظيف. وهي تعيش في هذا المنزل حياة شريفة محتشمة، لأن لها طبعاً رقيقاً حنوناً، وإن تكن على شيء من المرح. لم يكن عمرها قد تجاوز الثامنة عشرة حين مات عنها زوجها، وهي لم تعش معه إلا سنة واحدة، أي الزمن الذي كان لازمة لإنجاب ابنها. ومنذ ذلك الحين، منذ اليوم الذي ترملت فيه، لم تعش إلا من أجل هذا الصغير، فوقفت حياتها كلها على ابنها كوليا وحده. ولكنها، على حبها ابنها، خلال هذه الأعوام الأربعة عشر كلها، حباً حنوناً لا حدود له، قد عانت من العذاب، كما تتصورون ذلك، أكثر كثيراً مما ذاقت من الفرح، فهي كل يوم تقريباً ترتعد خوفاً وتموت هلعاً متى تصورت أن ابنها يمكن أن يصيبه برد، أو أن يمرض، أو أن يرتكب تهوراً أثناء لعبه، فيتسلق كرسية ويسقط عنه، إلخ... وحين دخل كوليا المدرسة الابتدائية، ثم حين قُبل بعد ذلك في المدرسة الثانوية بمدينتنا، أسرعت أمه تدرس معه جميع العلوم لتساعده وتعاونه في دروسه. وأسرعت نتعرف كذلك بمدرِّسيه، بل وبنسائهم أيضاً، وتعلقت برفاق صفه، فهي تدلّلهم وتتفانى في بذل جميع الملاطفات لهم، حتى لا يلحقوا بابنها أي إساءة، وحتى لا يسخروا منه أو يضربوه. وقد بلغت من ذلك أن الصبية انتهوا حقاً إلى السخرية منه بسببها، فأخذوا ينادونه، مطلقين عليه اسم «دلّوع أمه». ولكن الفتى عرف كيف يدافع عن نفسه. إنه طفل شجاع، «قوي قوّة هائلة»، لم تلبث شهرة قوته هذه أن ذاعت بين رفاقه ورسخت في نفوسهم. وكان حاذقاً بارعاً، قوي الطبع صلب الإرادة جريئاً مغامراً جسوراً. وكان إلى ذلك تلميذاً ناجحاً متفوقاً حتى لقد كان التلاميذ يؤكدون أنه استطاع أن يتفوق في الرياضيات وفي تاريخ العالم على الأستاذ دار دانيلوف نفسه. ولكنه رغم أنه ينظر إلى الآخرين من علٍ، يعرف كيف يحافظ، في وضعه، على أن يكون بسيطة وأن يكون نعم الرفيق. ولئن كان يقبل احترام رفاقه له على أنه حق من حقوقه، فلقد كان هذا لا يصرفه عن حسن التصرف معهم وعن التزام اللطف والكياسة في معاملتهم. وكان يعرف خاصةٌ كيف يحافظ على القصد والاعتدال. كان قادراً على ضبط نفسه عند الاقتضاء، فهو لا يتجاوز قط، في علاقاته بالمسؤولين عنه، حدوداً معينة لا يمكن احتمال تجاوزها، ولا يُعدُّ تخطيها إلا تمرداً وترديداً في الفوضوية وخروجاً على المشروعية. على أنه كان يحب كثيراً أن يتحرر بعض التحرر، ولايعدم أبداً فرصة تحقيق هذه الرغبة، فينطلق في أفعال مرحة طائشة، مثل سائر الصبية الصغار، لا بدافع «الشيطنة» والحق يقال، بل نشداناً للذة ابتكار شيء ما، وإحداث أثر في النفوس، ولفت الأنظار إليه، وتأكيد ذاته بجرأة وجسارة، والقيام بدور من الأدوار. وكان الفتى على جانب عظيم من الشعور بنفسه والتمسك بكبريائه، وقد استطاع أن يسيطر على أمه سيطرة تامة، وأن يكون له عليها سلطان كبير يشبه أن يكون طغياناً واستبداداً. وقد خضعت الأم وأذعنت منذ زمن طويل، وإنّما كان يؤلمها أن تتصور أن فتاها «لا يحبها كثيراً »، وكانت لا تطبق هذه الفكرة ولا تستطيع احتمالها. كان يتراءى لها دائماً أن كوليا «فاتر العاطفة» تجاهها، وكان يتفق لها أن تبكي بكاء هسترياً، آخذةً عليه هذا الفتور؛ وكان الفتى يكره هذه «المشاهد»، فكلما طالبته أمه بمزيد من إظهار العاطفة، ثبت هو، وكأنما عن قصد، مزيداً من الثبات على جمود إحساسه وبرود عاطفته. والواقع أنه لم يكن يفعل ذلك واعياً، وإنما كان يفعله على غير إرادة منه، فتلك كانت طبيعته ولكن الأم كانت على خطا فقد كان يحبها كثيراً، غير أنه كان يكره هذا الإفراط السخيف في إظهار المشاعر، كان يكره تلك «العواطف التي تشبه عواطف العجول»، كما كان يقول بلغته، لغة التلميذ.

وكان أبوه قد خلّف مكتبة خاصة. وكان كوليا يحب القراءة، فقرأ عدداً من الكتب المودعة في الخزانة. لم يُقلِق هذا أمَّه، غير أنها كانت تستغرب أن يعكف ابنها ساعات طويلة على قراءة كتاب بدلاً من أن ينصرف إلى اللعب. هكذا قرأ كوليا كتباً ما كان يمكن أن توضع بين يديه في سنِّه هذه. على أن الفتى الذي كان لا يحب أن يتخطى بعض الحدود في عبثه، قد أخذ منذ زمن يثرثر حول أمور كانت ترعب أمه رعباً شديداً. لم يكن في سلوكه شيء يجافي الأخلاق، ولكنه أصبح يتلذذ بالقيام بمغامرات متهورة طائشة. من ذلك أن الأم قد ذهبت مع ابنها في هذا الصيف نفسه، أثناء عطلة يوليو إلى قريبة من قريباتها تسكن في مقاطعة أخرى على مسافة سبعين فرسخا من مدينتنا، لقضاء أسبوع عندها. إن زوج هذه المرأة موظف في السكة الحديدية، فهو يعمل في محطة القطار بالمنطقة (وهي المحطة نفسها التي سافر منها إيفان فيدوروفتش كارامازوف إلى موسكو منذ شهر). راح كوليا في الأيام الأخيرة يدرس تجهيزات السكة الحديدية بكثير من العناية والاهتمام، لأنه رأى أن هذه المعلومات الجديدة ستتيح له أن يبهر رفاقه في المدرسة عند عودته. وسرعان ما توثقت الصلة بينه وبين صبية آخرين في المنطقة كان بعضهم يسكن حول المحطة مباشرة وكان بعضهم الآخر يسكن في منازل تبعد قليلاً عن المحطة. هكذا تألفت منهم عصبة عدد أفرادها ستة أولاد أو سبعة، تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والخامسة عشرة، وبينهم اثنان من مدينتنا. وقد نظم هؤلاء الفتيان ألعاباً، وتخيلوا أنواعاً من العبث والهزل، ثم إذا بهذه العصبة المرحة تخترع في اليوم الرابع أو الخامس رهاناً غبياً بروبلين على مغامرة فظيعة، إن كوليا، وهو أصغر أفراد العصبة تقريباً، وكان الكبار يستخفون به لهذا السبب، قد اقترح في ذات يوم، من قبيل حب الظهور أو من قبيل إبراز الجسارة، أن يتمدد على وجهه في إحدى الليالي بين خطي السكة الحديدية، وأن يظل جامداً على هذا الوضع أثناء مرور القطار فوقه بسرعة عند الساعة الحادية عشرة. لا شك أن كوليا قد درس صعوبات هذه المغامرة سلفاً واستنتج أن في وسعه أن يضطجع هذا الاضطجاع بين خطي السكة الحديدية، وأن يظل راقداً هنالك تحت عربات القطار دون أن تلامسه. ولكن ما أشد ما تحتاج إليه هذه المغامرة من هدوء أعصاب ورباطة جأش! وكان كوليا يُزعِّمُ أنه قادر على ذلك، فهزئ منه الفتيان في أول الأمر، ونعتوه بأنه كذاب وبأنه متبجح، فما زاده ذلك إلا اغتياظاً وعناداً؛ وكان يحنقه خاصة أن ينظر إليه هؤلاء الفتيان الذين هم في الخامسة عشرة من أعمارهم نظرة متعالية، وأن يرفضوا أن يعدّوه نداً لهم، وأن يصفوه بأنه «صغير»، وتلك في نظره إهانة لا تطاق! قرر الفتيان أن يذهبوا عند هبوط الليل إلى مكان يبعد عن المحطة مسافة فرسخ، حيث يكون القطار بعد تحركه من المحطة قد أخذ يجري سريعاً. واجتمعت العصبة. كانت الليلة غير مقمرة، وكان الظلام دامساً. وفي الساعة المتفق عليها تمدّد كوليا بين خطي السكة الحديدية. اختبأ المتراهنون الخمسة الآخرون بين الأشجار في أسفل المنحدر قرب الطريق، وهم يشعرون بشيء من الانفعال في أول الأمر، ثم اجتاحتهم الخشية والندامة بعد ذلك. وسُمعت أخيراً من بعيد همهمة القطار الذي غادر المحطة. وسطع ضوءان أحمران في الليل، وأقبل القطار العملاق يجري مسرعاً بضجة كدوي الرعد. صاح الصبيان وقد شلّهم الذعر في مخبئهم، يقولون لكوليا[201]: «اركض، اركض، اهرب»، ولكن كان قد فات الأوان. ووصل القطار ومرّ فوق كوليا. ظل كوليا متمدداً بلا حراك. وهرع إليه الصبيان يحاولون إنهاضه. فإذا هو ينتصب واقفاً على قدميه فجأة، ثم يمضي يهبط المنحدر دون أن ينطق بكلمة. حتى إذا وصل إلى قرب الطريق أعلن لرفاقه أنه تظاهر بالإغماء ليرعبهم. ولكن الحقيقة هي أنه قد أغمي عليه فعلاً، كما اعترف لأمه بذلك بعد مدة طويلة. ومنذ ذلك الحين اشتهر كوليا باسم «الجَسور» إلى الأبد. وقد عاد الصبي إلى المنزل في تلك الليلة شاحباً إلى درجة البياض، وانتابته في الغد حمى خفيفة. ولكنه كان يشعر بسعادة، وكان يضحك ويمزح. ولم يذع أمر هذا الحادث فوراً، وإنما ذيع بعد عودة كوليا إلى مدينتنا، فاهتزت سلطات المدرسة اهتزازاً قوياً؛ وتدخلت أم كوليا لدى الإدارة ضارعة إليها أن تصفح عن الولد وأن تعامله بالحسنى، وظلت تبذل مساعيها، إلى أن تولى المعلم دار دانيلوف، وهو رجل محترم مسموع الكلمة، أمرّ الدفاع عن الصبي، فأهملت القضية كأن شيئاً لم يحدث. إن داردانيلوف هذا، وهو رجل عازب ليس متقدماً في السن، كان قد أخذ بالسيدة كراسوتكينا منذ زمن طويل، وتجرّأ على عرض الزواج عليها في السنة الماضية بكثير من الاحترام وهو يرتعش خوفاً. ولكنها رفضت عرضه رفضاً قاطعاً، لأنها رأت أن زواجها خيانة لابنها. ومع ذلك ظل داردانيلوف يقدِّر، على أساس بعض العلائم الخفية، أن عليه أن لا يفقد الأمل، وأن الأرملة الشابة الفتانة، ولكن المبالغة في عفتها ووسواسها، لا تخلو من الميل إليه والإعجاب به. وكان من شأن تلك المغامرة المجنونة التي قام بها كوليا أن حطمت الجليد بين المعلم والأرملة، وقد أُفهم داردانيلوف، حين شُكرَ له توسطه في الأمر، أنه ليس محظوراً عليه أن يراوده أي أمل. صحيح أن ذلك قد قيل إلماعاً بعيداً غامضاً، ولكن داردانيلوف، الرجل الطاهر الذيل المرهف الشعور هو أيضاً، كان لا يطلب أكثر من ذلك حتى يشعر بسعادة كاملة. وكان يحب كوليا، ولكنه رأى أنه لا يليق بكرامته أن يتزلف إليه، لذلك كان يعامله أثناء الدروس معاملة قاسية متشددة. ولسنا نبتعد عن الإنصاف إذا قلنا إن كوليا نفسه كان يجافيه. لقد كان كوليا يحضِّر واجباته

المدرسية بكثير من العناية، وكان ثاني التلاميذ ترتيباً في صفه، وكان يجيب بلهجة جافة جداً عن جميع الأسئلة التي يلقيها عليه المعلم. وكان جميع رفاقه، من جهة أخرى، مقتنعين بأنه قوي في مادة تاريخ العالم إلى درجة أنه يستطيع أن ينافس أستاذه. وقد حدث فعلاً أن سأل كوليا أستاذه ذات يوم:
«من بني مدينة طراودة؟»، فاقتصر داردانيلوف في الإجابة عن هذا السؤال على ذكر أمور عامة عن هجرات الشعوب وعن غموض تاريخ العصور القديمة وعن الأساطير، ولم يقل شيئاً عمن بنى مدينة طروادة تحديداً، أي من هم هؤلاء الأشخاص، وعدَّ هذا السؤال السبب ما تافهاً لا داعي إليه. وهكذا ظل التلاميذ مقتنعين بأن داردانيلوف يجهل اسم باني طروادة. وكان كوليا قد عثر على بعض المعلومات عن تأسيس مدينة طروادة من كتاب سماراجدوف[202] الذي كان أحد الكتب الموروثة عن أبيه، وأراد جميع التلاميذ أخيراً أن يعرفوا من بني طروادة، ولكن كراسوتكين لم يكشف عن سرّه، وظل محاطاً في علمه الذي لا سبيل إلى معرفته، بهالةٍ من المهابة والاحترام.
وقد حدث تغير في موقف كوليا من أمه بعد حادث السكة الحديدية. إن السيدة آنا فيدوروفا (وهذا هو اسم الأرملة كراسوتكينا) قد أوشكت أن تُجن من الهلع حين علمت بالمغامرة التي قام بها ابنها، وأصابتها نوبات عصبية عنيفة تتابعت أياماً ثم عادت تصيبها بعد هدنة قصيرة.
وارتاع كوليا من الحالة التي صارت إليها أمه. فقطع لها على نفسه عهد الشرف ليعزفنَّ بعد الآن عن هذه الأعمال، وليمتنعنَّ في المستقبل عن مغامرات من هذا النوع. حلف على ذلك أمام الأيقونة وهو يجثو على ركبتيه، وحلف على ذلك أيضاً بذكرى أبيه، كما طلبت أمه. وقد انفجر كوليا «الجسور» عندئذ باكياً بكاء طفل في السادسة من عمره، واستسلم لنوبة من «العاطفة»، وظل الابن وأمه طوال النهار يتعانقان باكيين. ومع ذلك عاد كوليا منذ الصباح «فاتر الشعور»، كما في السابق، «بارد العاطفة»، ولكنه أصبح منذ ذلك الحين أشد صمتاً، وأكثر تواضعاً وصرامةً، وأطول روية. ولكن ما إن انقضت ستة أسابيع حتى اندفع كوليا في مغامرة جديدة، فوصل اسمه حتى إلى أسماع قاضي الصلح. على أن القضية في هذه المرة كانت من نوع آخر تماماً ولم تكن أكثر من «شيطنة» مضحكة وحمقاء اليس فيها خطر، ولم يكن هو نفسه الفاعل فيها، وإنما جرفه إليها غيره. وسنشير إليها فيما بعد على كل حال. وعاشت أمه مرة أخرى في مخاوف مستمرة، وأحس دار دانيلوف بازدياد آماله على قدر ازدياد مخاوف المرأة المسكينة. يجب أن نلاحظ هنا أن كوليا كان يدرك ويحزر الأحلام الخفية التي تراود أستاذه، فكان يحتقره احتقاراً عميقاً لهذه «العواطف السَخيفة» ؛ حتى لقد اتفق له في الماضي أن أعرب عن احتقاره هذا بحضور أمه دون أية مداراة، ملمحاً إلى أنه يعرف كل المعرفة الهدف الذي يريد أن ينتهي إليه داردانيلوف. غير أنه بعد حادث السكة الحديدية قد تبدل موقفه في هذه الناحية أيضاً. فأصبح لا يسمح لنفسه بشيء من الغمز ولو كان غمزاً مستتراً، وأخذ يتكلم عن داردانيلوف أمام أمه بمزيد من الاحترام؛ وإذ أدركت أمه، بإحساس قلبها المرهف، الأسباب التي تدفعه إلى اتخاذ هذا الموقف الجديد، فقد شعرت بكثير من الشكر والعرفان. ولكنها كانت تحمر خجلاً ويصبح خداها كالورد لوناً كلما اتفق أن ذكر زائر غريب اسمَ داردانيلوف بحضور كوليا عَرَضاً. وكان كوليا في تلك اللحظات ينظر من النافذة متجهّم الوجه، أو يتظاهر بأنه ينعم النظر إلى حذاءيه فاحصاً حالتهما، أو ينادي كلبه «برزفون» غاضباً حانقاً، وهو كلب طويل الشعر ضخم الجسم ولكن منظره يثير الشفقة ويبعث على الرثاء، وكان كوليا قد تبناه منذ شهر، لكنه يخفيه في غرفته عن رفاقه لا يعلم إلا الله لماذا؟ كان كوليا يضغط على الكلب أشد أنواع الضغوط من أجل أن يعلمه أنواع شتى من الحيل. واستطاع أخيراً أن يجعل الكلب يتعلق به تعلقاً شديداً حتى أصبح الكلب يعول حزناً وكمداً حين يغادر كوليا المنزل ذاهباً إلى المدرسة؛ ويطير فرحاً وحماسة كلما عاد كوليا إلى المنزل، فمتى رأى «برزفون» صاحبه أخذ ينط ويتواثب طرباً، وأخذ يتقرب منه ويتحبب إليه، وراح يرقد على الأرض متظاهراً بالموت، أي صار يقوم بالحركات التي عُلّمها، ولكنه لا يفعل ذلك في هذه المرة بأمر، بل من تلقاء نفسه، في اندفاعة انفعاله وشكرانه.
بالمناسبة: لقد أغفلت أن أقول إن كوليا كراسوتكين هو بعينه ذلك الفتى الذي طعنه في وركه الصبيُّ إيليوشا الذي يعرفه القارى (هو ابن النقيب المتقاعد سنيجيريف) وذلك دفاعاً عن أبيه ضدَّ تلاميذ المدرسة الذين كانوا يسمونه «بالليفة» احتقاراً.

-2-الأولاد

في ذلك الصباح من شهر نوفمبر (تشرين الثاني)، صباح يملؤه ? الجليد والضباب، كان كوليا كراسوتكين في المنزل. اليومُ يومُ أحد، فلا مدرسة. ودقت الساعة الحادية عشرة. إن كوليا يريد أن يخرج من المنزل حتماً «لأمر هامٍ جداً». ولكنه كان في البيت عندئذٍ وحيداً، وقد عُهد إليه بحراسة البيت إن صح التعبير، لأن جميع الكبار قد اضطروا إلى الغياب عن المنزل لظروف طارئة. إن منزل الأرملة كراسوتكينا يضم شقة أخرى من غرفتين صغيرتين، يفصلها عن الشقة التي تشغلها صاحبة الدار دهليز. وتلك الشقة قد استأجرتها زوجة طبيب، فهي تعيش فيها مع ابنين لها صغيرين جداً. وقد توثقت بين المرأتين، وهما في سن واحدة، عرى صداقة قوية. أما الطبيب فكان قد سافر أولاً إلى اورنبورج منذ أكثر من سنة، ثم سافر من هناك إلى طشقند، ثم انقطعت أخباره منذ ستة أشهر، فلولا الصداقة التي قامت بين زوجة الطبيب والسيدة كراسوتكينا التي خففت حزنها، لقضت هذه الزوجة المهجورة كل وقتها في البكاء والنحيب. ومن أجل أن تبلغ زوجة الطبيب غاية سوء الحظ، كان من الضروري أن تبلغها خادمتها الوحيدة، كاترينا، في لحظة مباغتة لم تكن في الحسبان، ليلة الأحد نفسها، أنها تتأهب لأن تضع

مولوداً. ذلك ما حدث. أما إن أحداً لم يلاحظ قبل تلك اللحظة حالتها، فذلك أمر يوشك أن يكون معجزة. اضطربت زوجة الطبيب اللحادث اضطراباً شديداً، وقررت أن تنقل كاترينا، ما دام في الوقت متسع، إلى قابلة في مدينتنا كانت تستقبل في منزلها نساء في مثل هذه الأحوال. ولما كانت تحرص كثيراً على هذه الخادمة، فقد أسرعت تضع قرارها هذا موضع التنفيذ، فمضت بها إلى القابلة ومكثت قربها. وفي الصباح كان لا بد من الاستعانة بالسيدة كراسوتكينا التي تستطيع الاستفادة من بعض العلاقات التأمين شيء من الحماية للخادمة التي توشك أن تلد. هكذا غابت السيدتان عن المنزل. ومن جهة أخرى، كانت آجافيا، خادمة السيدة كراسوتكينا، قد ذهبت إلى السوق. فبذلك وجد كوليا نفسه مكلفاً، إلى حين، بحراسة الدار ومراقبة طفلي زوجة الطبيب، الصبي والبنت، اللذين بقيا وحدهما معه في المنزل. لم يكن دور الحارس يرعب كوليا، لا سيما وأن الكلب «بيرزفون» إلى جانبه. ولقد أمر الكلب بأن يبقى راقداً تحت دكة في الدهليز، وأن يظل «ساكناً » لا يتحرك. وكان كوليا يذهب ويجيء بين الغرف، فكلما خرج إلى الدهليز، انتفض الحيوان الشهم، وأدار وجهه إلى جهة سيده، وضرب الأرض بذيله ضربتين فرحتين ضارعتين؛ ولكن كوليا لا يصفر له منادياً واأسفاه، ويقتصر على أن يرشق الكلب المسكين بنظرة قاسية، فيسرع الكلب إلى التجمد على سكونه المطلوب. والواقع أن كوليا لم يكن مهتماً إلا بالطفلين. صحيح أن حادث كاترينا المفاجئ قد أيقظ في نفسه احتقاراً عميقاً، ولكنه كان يحب الصغيرين

المسكينين المحرومين من أبيهما حباً كثيراً، وكان قد جاءهما بكتاب مسلٍ. إن ناستيا[203]، وهي الكبرى، تبلغ من عمرها ثماني سنين، وتعرف القراءة. وإن أخاها، وهو أصغر منها بسنة، يجد لذة عظيمة في الاستماع إلى القصص التي تقرؤها له. واضح أن في وسع كوليا أن يجد لهما تسلية أدعى إلى الضحك، كأن يضعهما في صف ويلعب معهما لعبة الجنود، أو لعبة الاختباء، وذلك ما سبق أن فعله مراراً دون أن يشعر منهما بغضاضة، حتى لقد شاع في المدرسة أن كوليا كان يتسلى مع الصغيرين بتمثيل دور الحصان، فهو يدع لهما أن يقرناه مطأطئاً رأسه، ولكن كوليا قد فنَّد هذه التهم، وقال إن لعبة الحصان تخل بالكرامة حقاً «في هذا العصر»، إذا هو لعبها مع رفاق مثله في الثالثة عشرة من أعمارهم، ولكنه إنما يلعبها من أجل الطفلين لأنه يحبهما كثيراً، وليس من حق أحد أن يتدخَّل في عواطفه. لذلك كان هذان الطفلان يعبدانه عبادة. على أن كوليا لم يكن في هذه المرة منشرح النفس للعب. لقد كان عليه أن يُعني يومئذٍ بقضية شخصية هامة جداً، بل وسرية بعض الشيء، والزمن يمضي. وأجافيا التي كان يمكن أن يوكل إليها أمر الطفلين لم تعد من السوق بعد. لقد قطع كوليا الدهليز عدة مرات، ففتح باب شقة زوجة الطبيب، وألقى نظرة قلقة على الطفلين المنهمكين في القراءة تنفيذاً لأمره. فكانا يبتسمان ابتسامة عريضة صامتة كلما ظهر لهما، متوقعين أن يفاجئهما بشيء عجيب مضحك. ولكن كوليا كان مهموماً ولذلك لم يدخل غرفة الطفلين. فلما دقت الساعة الحادية عشرة عزم أخيراً عزم عزماً حازماً جازماً على أن يخرج دون أن ينتظر آجافيا المنحوسة، إذا هي لم تعد خلال عشر دقائق، وذلك طبعاً بعد أن يأخذ من الطفلين عهداً بأن يظلا أثناء غيابه عاقلين هادئين، وأن لا يخافا ولا يبكيا وعلى هذا، ارتدي معطفه الشتوي الصغير المبطن بقطن والمزدان بياقة من تقليد فراء الثعلب، ووضع كيسه المدرسي على كتفه. ورغم التوصيات الملحة التي تسديها إليه أمه بأن لا يخرج في «مثل هذا البرد» دون أن ينتعل خفَّي المطّاط، فإنه حين اجتاز الدهليز لم يزد على أن رمى الخفين بنظرة ازدراء واحتقار وخرج وعلى قدميه جزمتان خفيفتان. فلما رآه الكلب مرتدياً ثيابه للخروج، ضرب الأرض بذيله ضربتين، واضطرب وتحرك، وتقلقل وتدحرج، حتى لقد أصدر أنيناً شاكياً. ولكن كوليا رأى أن هذا الإفراط في الحماسة ونفاد الصبر عند كلبه يدل على قلة الانضباط، لذلك تركه ينتظر تحت الدكة دقيقة أخرى طويلة، ولم يصفر له منادياً إلا حين فتح الباب، فوثب الحيوان الشهم وقد جُنَّ فرحاً، وأخذ يقفز وينط أمام كوليا. اجتاز الفتى الدهليز، ودخل غرفة الطفلين. إنهما ما يزالان جالسين أمام مائدة صغيرة كما كانا من قبل، ولكنهما كفَّا عن القراءة، وكانا منهمكين في مناقشة حامية جداً. كثيراً ما كان يتفق لهما أن تختلف

آراؤهما في تقدير أحداث الحياة اليومية الطريفة، وكانت ناستيا هي التي تنتصر في هذه الخصومات دائمة، وأنها الكبرى. فإذا لم يشأ كوستيا[204] أن يعترف بالهزيمة، احتكم إلى كوليا كراسوتكين، فسرعان ما يكون الرأي الذي يراه كوليا هو الحكم الأخير والقول الفصل في نظر المتخاصمين كليهما. وبدا على كوليا في هذه المرة أن الموضوع الذي يدور عليه النقاش بين «الصغيرين» يشد انتباهه ويثير اهتمامه، فقد وقف في عتبة الباب يصغي إليهما. فلما لاحظا أنه يهتم بما يقولان تضاعفت حماستهما وحرارتهما في المناقشة.

قالت ناستيا مزقزقة:

- مستحيل، مستحيل أن أصدَّق أن القابلات يجدن الصغار في حقول الخضار تحت الكرنب، الآن فصل الشتاء، فلا تنبت خضار، فكيف يمكن أن تحمل القابلة بنت إلى كاترينا؟

دمدم كوليا يقول لنفسه:

- عجيب!

- وعلى كل حال، إذا كانت القابلات يأخذن هؤلاء الأطفال من مكانٍ ما، فإنهن لا يأتين بهن إلا إلى النساء المتزوجات.

كان كوستيا يحدّق إلى ناستيا، ويصغي بانتباه، ويبدو عليه التأمل والتفكير. وقال أخيراً بصوت جازم على هدوء:

- ما أنت إلا غبية يا ناستيا؟ كيف يمكن أن يكون لكاترينا طفل وهي غير متزوجة؟

فقالت ناستيا متململة نافدة الصبر:

- أنت لا تفهم في هذه الأمور شيئاً! لعل لها زوجاً ولكنه في السجن. ولذلك كان لها طفل.

سألها كوستيا بهدوء ووقار:

- أأنت واثقة من أن زوجها في السجن؟

فقاطعته ناستيا فجأة وقد نسيت افتراضها الأول:

- أنا أعرف كيف حدث هذا. ليس لها زوج. أنت على حق. ولكنها كانت ترغب في أن تتزوج، فأخذت تفكر في زواجها المقبل، ففكرت ثم فكرت، ومن كثرة ما فكرت حصلت ليس على زوج بل على طفل!

قال كوستيا المهزوم هزيمة تامة:

- إذا كان الأمر كذلك، فهذا مختلف كل الاختلاف. ولكن كان ينبغي أن تذكريه لي من قبل، فإنني ما كنت لأستطيع أن أتقبَّل الأمر.

تدخل كوليا قائلاً:

- هيه يا أولاد! إنكم أخطر مما كنت أتصوَّر!

صاح كوستيا يقول:

- هه! هل «بِرزنون» معك أيضاً؟

ثم ناداه وهو يصفق له بأصابعه.

بدأ كوليا يقول بوقار ورصانة وقد بدا في وجهه الاهتمام الشديد:

- اسمعوا يا أولاد! أنا في وضع صعب ويجب أن تساعدوني. لا بد أن آجافيا قد كُسرت ساقها، لأنها لم تعد حتى الآن. ذلك هو التعليل الوحيد لتأخرها. ويجب عليَّ حتماً أن أخرج. فهل تأذنون لي أن أنصرف؟

تبادل الصغيران نظرة قلقة، وأظلم وجهاهما بعد أن كانا حتى ذلك الحين باشّين باسمَيْن. وبدا عليهما من جهة أخرى أنهما لم يفهما ما يُنتظر منهما.
- ألن ترتكبوا حماقات أثناء غيابي؟ ألن تتسلقوا الخزانة فتكسروا أرجلكم؟ ألن تبكوا ذعراً من الوحدة؟
ارتسم على قسمات الطفلين كَدَرٌ عميق.
- إذا وعدتموني بأن تبقوا عقلاء، فسوف أريكم شيئاً، سوف أريكم مدفعاً صغيراً من البرونز يُحشى ببارود حقيقي.
فاطمان وجها الطفلين في الحال. وصاح كوستيا مشرق المحيا:
- أرني هذا المدفع!
دسّ كراسوتكين يده في كيس المدرسة وسلّ منه مدفعاً صغيراً من البرونز فوضعه على المائدة.
- ها... ها... هذا يهمكم! انظروا: إنه محمول على عجلات!
قال ذلك وهو يدحرج المدفع على المائدة. وأضاف:
- ويمكن إطلاق النار منه. يحشى خردقاً، فتخرج الطلقة.
- هل يمكن القتل به أيضاً؟
- طبعاً! بهذا المدفع يمكن قتل أي إنسان، على شرط أن تحسن التصويب طبعاً.
أراهما كراسوتكين أين يجب وضع البارود، وكيف يمكن إدخال الخردق. أراهما فتحة صغيرة في البرونز تسمى بيت النار، ولم ينس أن يذكر لهما أن المدفع يرتد إلى وراء عند الإطلاق. أصغى إليه الصغيران بفضول شديد، وأثار خيالهما خاصة ذلك الارتداد.
سألته ناستيا:
- هل عندك بارود أيضاً؟
- عندي.
قالت وهي تبتسم ابتسامة ضارعة وتجر كلماتها جراً:
- أرنا البارود أيضاً.
فدس كراسوتكين يده في كيسه مرةً أخرى، فأخرج منه قارورة فيها قليل من البارود الحقيقي، وورقة لُفَّ بها بعض الخردق. حتى لقد مضى في الملاطفة إلى حد فتح القارورة وسكب شيء من البارود في راحة يده.
- انظروا! ولكن يجب أن لا يكون هنا نار، وإلا حدث انفجار يدمرنا جميعاً.
كذلك قال كراسوتكين ليثير خيال الصغيرين مزيداً من الإثارة.
وأخذ الطفلان يتفحصان البارود في خشية واحترام يزيدان لذتهما.
ولكن اهتمام كوسيتا كان منصرفاً إلى الخردة خاصة. قال يسأل:
- ألا يحترق الخردق؟
- لا، لا يمكن أن يشتعل الخردق.
قال كوستيا متوسلاً:
- اعطني بضع حبات من الخردق.
- سأعطيك. هاك هذه الحبات. خذها. ولكن لا ترها لأمك ما لم أعد أنا؛ وإلا ظنتها باروداً، فماتت هلعاً، وجلدتكما كليكما.
أسرعت ناستيا تقول:
- ماما لا تجلدنا قط.
- أعرف. ولكنني قلت هذا الجمال الصورة. يجب أن لا تكذبوا أبدا على أمكم، إلا هذه المرة، بانتظار عودتي. والآن، يا أولاد، هل أستطيع أن انصرف؟ ألن تبكوا جزعة أثناء غيابي؟
قال كوستيا بصوت رخو، وهو يوشك أن ينفجر باكياً منذ الآن:
- س.....ن....بكي!....
وزادت ناستيا تقول بسرعة خائفة:
- طبعاً سنبكي.
- ما أخطركم في هذه السن يا أولاد! يا عصافيري الصغيرة! سيكون عليَّ أن أبقى معكم لا أدري إلى متى؛ والوقت يمر ملحاً إلحاحاً رهيباً واأسفاه!
قال كوستيا:
- أصدر أمرك إلى «برزفون» بالتظاهر بالموت.
- لا مناص. لا بد من اللجوء إلى «برزفون» أيضاً! برزفون: تعال هنا.
أصدر كوليا أوامره إلى الكلب، فأخذ الكلب ينفذ الحركات التي تعلمها. إن برزفون كلب كثيف الشعر ضخم القامة لا تستطيع أن تحدد لونه، فهو أشهب أغبر معاً، وهو أعور العين، مصلوم الأذن اليسرى، لا يدري أحد لماذا. أخذ الكلب يصيت ويثب فرحاً، ويتبختر، ويمشي على قائمتيه الخلفيتين، ويندفع ويستلقي على ظهره رافعاً قوائمة الأربع في الهواء ويتظاهر بالموت. وإنه ليقوم بهذه اللعبة الأخيرة إذا بالباب يُفتح وإذا بآجافيا، الخادمة السمينة الضخمة التي تعمل عند السيدة كراسوتكينا، وهي امرأة مجدورة الوجه، في نحو الأربعين من عمرها، إذا بها تظهر في العتبة حاملةً بيدها كيس المؤن التي اشترتها من السوق. وقفت آجافيا ونظرت إلى الكلب معجبة بينما الكيس يتدلى من طرف ذراعها اليسرى. ورغم أن كوليا كان ينتظر وصولها نافد الصبر، فإنه لم يقطع ما كان بسبيله من تمثيل حين رآها، وترك الكلب جامداً على وضعه الساكن مدة من الوقت ثم صفر له، فما إن سمع الكلب الصفير حتى وثب واقفاً على قوائمه، وراح يقفز كالمجنون من شدة فرحه بأنه قام بواجبه.
قالت آجافيا بلهجة واعظ:
- هذا كلب حقاً!
فسألها كوليا بقسوة:
- لماذا تأخرت يا جنس النساء؟
- أنا جنس النساء؟ انظروا إلى هذا الولد الخائب!
- خائب!
- طبعاً خائب! ليس شأنك أنت أن أتأخر أنا أم لا. ما دمت قد تأخرت فلا بد أن ذلك كان لازماً...
- دمدمت آجافيا متذمرة، وهي تنهمك قرب الموقد. على أنها لم تتكلم بصوت حانق أو مغتاظ. بالعكس: كان يبدو أنها تجد لذة في مشاجرة سيدها الفتى المرح.
قال كوليا وهو ينهض عن الأريكة:
- اسمعي يا من عقلك كعقل العصافير. هل تحلفين لي بأقدس ما تقدسين في هذا العالم، وبشيء آخر أيضاً، على أنك ستعتنين بالأولاد أثناء غيابي، وبأنك ستراقبينهم بلا غفلة عنهم؟ إن عليَّ أن أخرج.
فقالت آجافيا مدهوشة ضاحكة:
- وعلام أحلف؟ لسوف أهتم بهم من دون يمين أحلفها.
- بل يجب أن تحلفي على ذلك بخلاص روحك! وإلا لن أخرج.
- إذاً لا تخرج. هل يضيرني أن لا تخرج؟ ثم إن الأفضل أن تمكث في الدار، فالبرد في الخارج شديد يجمُد المياه.
قال كوليا يخاطب الطفلين:
- اسمعوا يا أولاد! ستبقى هذه المرأة معكم إلى أن أعود، أو إلى أن تعود أمكم التي كان يجب أن تعود منذ زمن طويل هي أيضاً. وسوف تهيئ لكم فطوركم.

ستطعمينهم، أليس كذلك يا آجافيا؟
- جائز.
- إلى اللقاء يا طيوري الصغيرة. إنني أنصرف الآن مرتاح البال مطمئن الضمير.
ثم أضاف يقول لآجافيا بصوت خافت وهيئة رزينة:
- أما أنت أيتها المرأة الطيبة فأرجو أن لا تقصّي عليهم، بصدد كاترينا، تلك القصص السخيفة التي تعودتّن أن تخترعنها في مثل هذه الأحوال. فما ينبغي إفساد نفوسهم. تعال هنا يا برزفون!
قالت آجافيا متذمرة وقد فقدت في هذه المرة صبرها:
- اذهب إلى الشيطان! يا لك من فتى مضحك! يحسن أن تُجلد حتى تتعلم كيف تتكلم!

-3-التلميذ

ولكن كوليا كان قد كف عن الإصغاء، ها هو ذا يستطيع الخروج أخيراً. وبعد أن اجتاز الباب الكبير، التفت إلى وراء، وشد كتفيه، ودمدم يقول: «اف... ما أشد هذا البرد!»، وسار في أول الأمر قُدُماً على طول الشارع؛ ثم مال بعد قليل إلى زقاق يؤدي إلى ميدان السوق، ووقف أخيراً أمام الدار التي تقع قبل الأخيرة، فأخرج من جيبه صفارة، فصفر بها صفيراً قوياً، كإشارة متفق عليها. ولم يضطر أن ينتظر أكثر من دقيقة واحدة، فها هو ذا صبي أحمر الخدين في الحادية عشرة من عمره، يهرع نحوه. إن هذا الصبي يرتدي هو أيضاً معطفاً دافئاً، نظيفاً جداً، بل وأنيقة. إنه الفتى سموروف، تلميذ الصف التحضيري (إن كوليا يسبقه بصَفَّين)، وهو ابن موظف ميسور كان أهله قد حظروا عليه أن يعاشر كراسوتكين الذي اشتهر بأنه صبي منهور عنيد مستعد للقيام بأجرأ المغامرات الخطرة. واضح أن سموروف قد تسلل إلى الشارع على غير علم من أهله. إن سموروف هذا - ولعل القارئ يتذكر ذلك - كان أحد عصبة الصبيان الذين رشقوا إيليوشا بالحجارة من فوق القناة منذ شهرين، وهو الذي كلم ألكسي كارامازوف عن إيليوشا في تلك المناسبة. قال سموروف وقد لاح في وجهه العزم:

- إنني أنتظرك منذ ساعة يا كراسوتكين.

واتجه الفتيان نحو ميدان السوق. قال كوليان:

- تأخرت حقاً. وذلك بسبب بعض الظروف. قل لي: ألن تُجلد لأنك جئت معي؟

- دعك من هذا الكلام! أتظن أنني أجلد في البيت؟ هل «برزفون» معك؟

- كما ترى.

- هل تنوي اصطحابه أيضا؟

- طبعاً.

- آه... ليته «جوتشكا»!

- هذا مستحيل. «جوتشكا» لم يبق له وجود. لقد اختفى دون أن يخلف أثراً.

قال سموروف فجأة وهو يتوقف:

- خطرت لي فكرة. ما دام إيليوشا يَزعَمُ أن «جوتشكا» كان كلباً طويل الشعر، مثل «برزفون» هذا، وكان أشهب اللون أيضاً، أفلا نستطيع أن نقول له إن هذا «جوتشكا»؟ لعله يصدق.

- اعلم أيها التلميذ أنه ما ينبغي للمرء أن يكذب، ولو في سبيل الخير. هذه واحدة. أما الثانية فهي إني أرجو خاصة أن لا تكون قد تكلمت هناك عن زيارتي.

قال سموروف:

- أبداً. ما هذا الكلام؟ أأنا غبي إلى هذه الدرجة من الغباء؟ ثم أضاف متنهداً:

- ولكن «برزنون» لن يعزُيه. إن أباه، النقيب، هذه الليفة، قد قال لنا إنه سيأتيه اليوم بكلب أسود البوز من أرقى كلاب الحراسة جنساً، وهو يعتقد أن إيليوشا سيتعزي بهذا الكلب. ولكنني أشك في ذلك.

- وكيف حال أليوشا؟

- حاله سيئة جداً. أظن أنه مصاب بالسل. إنه لم يفقد وعيه، ولكن تنفسه صعب... صعب جداً! طلب منذ مدة أن يخرج في نزهة، فألبسوه ثيابه وحذاءيه، فما سار بضع خطوات حتى تهالك. فهتف يقول لأبيه: «قلت لك مراراً يا بابا إن هذين الحذاءين غير صالحين. لقد كنت أجد مشقة في المشي بهما حتى في الماضي». ظن أنه سقط بسبب الحذاءين، مع أنه سقط بسبب ضعفه. لن يعيش أكثر من أسبوع. إن الدكتور هرتسنشتويه يراه من حين إلى حين. لقد أصبحوا أغنياء من جديد. إن معهم مالاً كثيراً.

- أوغاد!

- من هم الأوغاد؟

- الأطباء أوغاد، هم وعلمهم كله. إنني أتكلم على وجه العموم، ولكنني أخصص أيضاً. أنا لا أؤمن بالطب. الطب لا حاجة إليه. على أنني أريد أن أدرس هذه المشكلة دراسة أدق. ولكن قل الي ما تلك النزعة العاطفية التي ظهرت لديكم، يظهر أن تلاميذ الصف جميعاً يذهبون إليه، أليس كذلك؟

- لا، ليس الجميع. نحن عشرة تلاميذ فقط نزوره كل يوم. ليس لهذا كبير شأن.

- إن ألكسي كارامازوف هو الذي يدهشني أمره خاصةً في هذه القصة. سيُحكم على أخيه خلال أيام لجريمة رهيبة، ثم هو يجد من وقته متسعاً للاشتراك مع عدد من التلاميذ في اصطناع العواطف!

- ليست عواطف مزعومة. أنت نفسك تذهب الآن إلى أليوشا، تذهب إليه لتصالحه.

- لأصالحه؟ تضحكني هذه الكلمة! ثم إنني لا أسمح لأحد بأن يحلل ويفسّر أفعالي.

هتف سموروف يقول بحرارة:

- ما أعظم سعادة إيليوشا حين سيراك! إنه لا يتوقع زيارتك البتة. لماذا رفضت أن تجيء إليه طوال هذه المدة؟

- يا عزيزي الفتى الطيب، هذا شأني أنا لا شأنك أنت. أنا أذهب إليه بإرادتي، لأن ذاك يحلو لي. أما أنتم فتذهبون إليه مدفوعين دفعاً من ألكسي كارامازوف. ذلك هو الفرق. ثم من قال لك إن في نيتي أن أصالحه؟ أنا لا أحبّ هذه الكلمة.

- كلا. نحن لا نذهب إليه بسبب كارامازوف! لقد ذهب التلاميذ إليه من تلقاء أنفسهم؛ ولئن تم ذلك بصحبة كارامازوف في أول الأمر فذلك أمر طبيعي. ليس في سلوكنا هذا شيء من حماقة أو من عاطفة مصطنعة! ذهب إليه واحد منا في البداية، ثم فعل ذلك واحد آخر، وهكذا دواليك وما كان أعظم ابتهاج أبيه برؤيتنا! لسوف يُجن إذا مات أليوشا. هو يدرك أن ابنه لن يعيش. وقد سعد سعادة كبيرة بتصالحنا معه. سألنا أليوشا عن أحوالك، ولكنه لم يضف إلى ذلك شيئاً. سألنا عنك ثم صمت. أما أبوه فسوف يفقد عقله أو سوف يشنق نفسه. ثم إن سلوكه كان دائماً سلوك إنسان مختل العقل. ولكنه رجل نبيل جداً، ولقد أخطأنا في الحكم عليه. إن الذنب في ذلك هو ذنب الرجل الذي ضربه في ذات يوم، أقصد ذلك الرجل الذي قتل بعد ذلك أباه.

- مهما يكن من أمر فإن كارامازوف هذا يظل لغزاً في نظري. كان في وسعي أن أتعرف عليه منذ زمن طويل، غير أنني أحبّ في بعض الحالات أن أظهر كبريائي. على كل حال، لقد كونت لنفسي رأياً فيه، وما زلت في حاجة إلى التثبت من هذا الرأي.

قال كوليا هذا وصمت وقوراً رصيناً. ولزم سموروف الصمت أيضاً. واضح أنه كان يشعر نحو كوليا كراسوتكين بإعجاب شديد، وما كان له قط أن يعامله معاملة الند للند. وهو الآن يحسّ بفضول قوي، لأن كوليا قد ذكر أنه يقوم بهذه الزيارة «بإرادته، فلا بد أن يكون في الأمر إذاً سر. لماذا اتخذ كوليا هذا القرار فجأة؟ ولماذا يذهب إلى إيليوشا في هذا اليوم على وجه التحديد؟ كان الفتيان يجتازان عندئذ ميدان السوق حيث تزدحم في هذه الساعة عربات البائعين والدواجن المعروضة للبيع. هؤلاء نساء يقفن تحت أفاريز حوانيتهم عارضات خبزاً وبسكويتاً وخيطاناً. إن الناس في مدينتنا يطلقون، بسذاجة، اسم الأسواق على تجمعات الأحد هذه التي تقام بضع مرات في السنة. وكان «برزفون» يجري في جميع الجهات، ويسرح ويمرح، راكضاً إلى اليسار تارة، وإلى اليمين تارة أخرى متجهاً إلى كل موضع فيه شيء يشمه. فإذا لقي كلاباً أخرى بادلها، بسرور واضح، حركات التودد المألوفة، بوزاً إلى بوز، على ما تقتضيه قواعد الآداب عند الكلاب...

قال كوليا فجأة:

- أحبّ أن أرصد مشاهد الحياة الواقعية يا سموروف. هل لاحظت كيف تتعارف الكلاب بشَمِّ بعضها بعضاً؟ لا شك في أنها إذ تفعل ذلك تخضع لقانون عام من قوانين الطبيعة.

- نعم، لقانون مضحك جداً في رأيي.

- كلا، ما هو بمضحك، أنت مخطئ، ليس في الطبيعة ما يضحك، رغم كل ما قد يظنه الإنسان لامتلاء عقله بأوهام حمقاء! لو كان في وسع الكلاب أن تفكر وأن تنتقد لوجدت حتماً في السلوك الاجتماعي لدى البشر، سادتهم، من الأمور المضحكة في نظرها مثل ما نجد نحن في سلوكها، وربما أكثر من ذلك! أكرر ذلك: لأنني مقتنع بأننا نرتكب من الحماقات أكثر مما ترتكب الحيوانات. تلك فكرة من راكيتين، وهي فكرة ممتازة. أنا اشتراكي يا سموروف.

سأله سموروف:
- ما الاشتراكي؟
- الاشتراكي من يؤمن بأنه يجب أن يكون جميع البشر متساوين، والملكية لديهم واحدة ومشتركة، وأن يلغى الزواج، وأن يتغير الدين وتتغير القوانين على ما يحب كل فرد، وهلّم جرا.. إنك لم تبلغ من النضج في سنك هذه ما يؤهلك لأن تفهم هذه الأمور. ما أشد البرد مع ذلك!
- صحيح. تبلغ درجة الصقيع اثنتي عشرة درجة تحت الصفر اليوم. لقد نظر أبي في الترمومتر منذ قليل.
- هل لاحظت يا سموروف إن المرء، حين تهبط الحرارة في وسط الشتاء إلى خمس عشرة درجة تحت الصفر أو حتى إلى ثماني عشرة درجة، لا يشعر بالبرد مثلما يشعر به في بداية الشتاء حين تتجمد المياه عرضاً ولا تهبط الحرارة إلى أكثر من اثنتي عشرة درجة تحت الصفر، ولا يكون هنالك إلا ثلج قليل. كما هي الحال اليوم؟ ذلك إن الناس لا يكونون قد اعتادوا البرد. كل شيء في الإنسانية عادة، والأمر كذلك في ميدان الحياة الاجتماعية والسياسية. إن العادة هي المحرّك الكبير للحياة الإنسانية. انظر إلى هذا الفلاح كم هو مضحك!
قال كوليا ذلك وهو يومئ إلى فلاح طويل القامة يرتدي معطفاً من فراء الخروف وتبدو عليه البساطة والسذاجة، كان الفلاح واقفاً عند عربته مدثر اليدين بقفازين قصيرين، وهو يضرب يديه إحداهما بالأخرى نشداناً للدفء، وقد غشت حبيبات الجليد الفضية لحيته الطويلة الشقراء.
قال كوليا بصوت متحدٍ مستفزٍ وهو يمر قرب الفلاح:
- تجلّدت لحيته.
فأجابه الفلاح بلهجة هادئة وقورة:
- لست الوحيد الذي تجلدت لحيته.
قال سموروف قَلقاً:
- لا تسع إلى مشاكسته.
- ليس في هذا بأس. لن يزعل. هو رجل طيب. إلى اللقاء ماتفي!
- إلى اللقاء!
- هل اسمك إذاً ماتفي فعلاً؟
- طبعاً. أكنت تجهل ذلك؟ لم أكن أعرف ذلك. وإنما سميتك بهذا الاسم مصادفة.
- غريب. أأنت تلميذ في المدرسة؟
- نعم.
ها... وهل يجلدونك في المدرسة؟
- أحياناً.
- هل الجلد مؤلم؟
- تقريباً.
- كذلك هي الحياة.
بهذا ختم الفلاح الحوار متنهداً.
- استودعك الله يا ماتفي!
- استودعك الله. أنت غلام طيب!
- وتابع الفتيان طريقهما. قال كوليا:
- هذا الفلاح لطيف محبب. إنني أحبّ الحديث مع عامّة الشعب، ويحلو لي أن أنصفهم.
- لماذا كذبت عليه فقلت إننا نُجلد في المدرسة؟
- كان لا بد من مواساته قليلاً.
- مواساته؟ لم أفهم.
- اسمع يا سموروف. أنا لا أحبّ كثيراً أن أسأل حين لا أفهم فوراً. هناك أمور يصعب شرحها. إن هذا الفلاح يتصور أن التلاميذ يُجلدون في المدرسة، وأن الأمور يجب أن تكون كذلك. ما من تلميذ لا يُجلد؟ فلو قلت له بفظاظة إننا لا نُجلد في المدرسة لما فهم شيئاً ولأحزنه ذلك. على أنك لا تفهم هؤلاء الناس. يجب أن تجيد معاملة الشعب.
- ولكنني أتوسل إليك أن لا تتحرش بهم، وإلا فقد تقع لنا قصة كالتي وقعت لنا في ذلك اليوم، مع ذلك الغبي؟
- هل يخيفك هذا؟
- لا تمزح يا كوليا. إني أخاف، والله! لسوف يغضب أبي غضباً رهيباً. لقد حظروا عليّ حظراً قاسياً أن أخرج معك.
- اطمئن. لن يقع شيء هذه المرة. صباح الخير يا ناتاشا!
كذلك صاح كوليا يحيّ بائعة كانت تقف تحت إفريز حانوتها. فأجابت المرأة التي تبدو شابة، أجابت تقول بصوت حاد:
- ناتاشا؟ أتريد أن تضحك؟ أنا اسمي ماريا.
- ماريا؟ هذا أحسن. استودعك الله.
- انظروا إلى الولد الوقع! طوله طول حبة البطاطا، ثم هو يعاكس النساء!
قال كوليا وهو يلّوح بيديه كأن المرأة هي التي تزعجه:
- طيب طيب... ستقصين عليّ هذا في يوم الأحد القادم. أنا الآن مشغول!
فصرّت ماريا تقول غاضبة:
- ليس عندي ما أقصه عليك يا متبجح! انظروا إلى هذا الولد؟ أنت الذي ناديتني متحرشاً بي، بينما لم أكن أهتم بك يا وقح! إن السوط هو ما تستحقه أيها الولد البطال! نحن نعرفك...
فانفجرت البائعات اللواتي كانت بسطاتهن قريبة من بسطتها بالضحك، وفجأة، انبجس من رواق المخازن في الميدان رجل غاضب حانق. إن هيئته تدل على أنه مستخدم في محل تجاري، حتى إنه ليس من مدينتنا، وإنما هو مارٌ بها عرضاً. هو شاب يرتدي قفطاناً أزرقاً طويلاً، وعلى رأسه قبعة ذات حافة تخرج من تحتها خصل شعر كستناوي، ووجهه طويل شاحب مجدور. إنه يبدو مضطرباً اضطراباً أهوج غبياً، وها هوذا ينجه رأساً نحو كوليا وهو يهدده بقبضة يده. قال له صارخاً بغضب:
- أنا أعرفك، أنا أعرفك من زمن...
نظر إليه كوليا متفرس فيه، فلم يفلح في أن يتذكر متى وأين احتكَّ بهذا الرجل. إن مشاجراته في الشارع مع الناس أكثر من أن يستطيع تذكرها جميعاً. سأله كوليا بلهجة ساخرة:
- ها... تعرفني؟
- نعم نعم، أعرفك أعرفك... - ردَّد الرجل في غباء.
- هذا خير لك. أنا مستعجل الآن. استودعك الله.
فصاح المستخدم يقول:
- تعود إلى وقاحاتك؟ تعود؟ أنا أعرفك يا وقح؛ أتعود إلى وقاحاتك؟
قال كوليا وهو يتوقف عن السير ويتفرّس في الرجل:
- ليس يهمك أنت أن أكون أنا وقحاً أو أن لا أكون. ليس هذا من شأنك؟

- كيف؟ ليس من شأني؟
- ليس من شأنك أنت على كل حال!
- من شأن مَن اذن؟ ألا قلت لي!
- هو الآن من شأن تريفون نيكيتش.
- أي تريفون نيكيتش تعني؟
- سأل الرجل وقد بدت في وجهه علامات دهشة بهاء، ولكن صوته ما يزال غاضباً.. نظر إليه كوليا بوقار، ثم سأله على حين فجأة بقسوة:
- هل ذهبت إلى«كنيسة الصعود»؟
- أي كنيسة؟ ولماذا يجب عليَّ أن أذهب إليها؟ كلا، لم أذهب. قال المستخدم متحيراً مرتبكاً. فاستأنف كوليا استجوابه بلهجة أشد قسوة وإلحاحاً:
- هل تعرف سابانييف؟
- أي سابانييف؟ كلا... لا أعرفه.
قال كوليا يحسم الحوار:
- فليأخذك الشيطان إذن!
ثم مال فجأة إلى يمين، وانصرف بخطى سريعة، كأنه يرفض أن ينزل إلى حيث يكلم رجلاً غبياً لا يعرف حتى سابانييف.
صاح المستخدم يسأله وقد ثاب إلى نفسه واضطرب من جديد اضطراباً شديداً:
- انتظر، اسمع، أي سابانييف تعني؟
- ثم التفت فجأة إلى البائعات فسألهن وهو يتفرس فيهن بغباء:
- لماذا كلمني عن سابانيف؟
فانفجرت النساء تضحك.
قالت إحداهن:
- هذا الولد ماكر.
فكرر المستخدم يسأل ملحاً وهو يحرك يده اليمنى بإشارات عريضة:
- أي سابانيف؟ من هذا؟
قالت إحدى البائعات وكأنما قد خطرت ببالها فكرة مفاجئة:
- أغلب الظن أنه سابانييف الذي كان مستخدماً عند آل كوزمتشوف... لا يمكن إلا أن يكون هو...
حدّق إليها المستخدم منقلب الهيئة زائغ النظرة.
وعادت امرأة ثانية تقول:
- عند آل كو.... ز.... متشوف؟ ولكن ذاك لم يكن اسمه تريفون! كان اسمه كوزما وليس تريفون. والتلميذ إنما ذكر اسم تريفون نيكيتش. فليس المقصود إذاً سابانيف ذاك نفسه.
فانبرت امرأة ثالثة تتدخل في المناقشة فتقول بعد أن ظلت طول الوقت صامتة تصغي بانتباه شديد:
- بل أنت مخطئة. لم يكن اسمه تريفون ولا سابانييف، بل كان اسمه تشيجوف، ألكسي إيفانوفتش، أتذكر ذلك جيداً: ألكسي إيفانوفتش تشيجوف.
قالت بائعة رابعة تؤيد كلام الثالثة بلهجة جازمة:
- هذا صحيح. المقصود هو تشيجوف فعلاً.
كان المستخدم ينقل بصره بينهن واحدة واحدةً، وقد بدت في وجهه أمائر الحيرة والذهول. ثم صاح بيأس:
- ولكن لماذا، لماذا ألقى عليَّ هذا السؤال: «هل تعرف سابانييف؟» ؛ هلاّ قلتنَّ لي لماذا ألقى عليَّ هذا السؤال أيتها النساء الطيبات! لا يعلم إلا الشيطان ما الذي كان يدور في رأسه حين كلمني عن سابانيف...
فأجابته إحداهن بصوت صارم:
- ما أنت إلا أحمق! ألم نقل لك إن المقصود ليس سابانييف بل تشيجوف، الكسي إيفانوفتش تشيجوف؟
- تشيجوف؟ أي تشيجوف؟ قولي لي ما دمت تعلمين!
- هو رجل طويل القامة طويل الشعر، كانت له دكته في السوق هذا الصيف.
- ما شأني أنا بصاحبك تشيجوف هذا؟ هه؟ قلن لي أيتها النساء
الطيبات!
- هل عليَّ أنا أن أعرف ما شأنك به؟
وقالت امرأة أخرى:
- هل نعرف نحن؟ يجب أن تعرف أنت ما الذي يريده منك، ما دمت تصرخ هذا الصراخ! لقد كلمك أنت ولم يكلمنا نحن، يا أهبل! أم تراك لا تعرف الرجل؟
- أي رجل؟
- نشيجوف طبعاً!
- شيطان يأخذ تشيجوف هذا وأنت أيضاً معه! سوف أضربه، ذلك كل ما أقوله لكُنَّ، لأنه سخر مني.
- أأنت تضرب تشيجوف؟
- لا، لا، ليس تشيجوف من سأضربه، يا امرأة شريرة تزرع الشقاق، وإنما سأضرب الصبي. ائتيني به إلى هنا، ائتيني به حالاً، حالاً... لقد سخر مني!
ضجت النساء تضحك ضحكاً صاخباً. أما كوليا فكان قد ابتعد، وهو يسير الآن مختالاً اختيال المنتصرين؛ وأما سموروف الذي يسير إلى جانبه فإنه يلتفت من حين إلى حين نحو عصبة البائعات الصائحات. إن سموروف مبتهج هو أيضا ابتهاجاً كبيراً، ولكنه يخشى أن يجره كوليا إلى قصة لا تحمد عقباها.
سأله سموروف وهو يتنبأ بالجواب:
- عن أي سابانييف كلمته؟
- أنا أدري؟ سوف يظلون يتشاجرون في هذا الأمر حتى المساء. لشد ما أحبّ أن أحيُر وأن أربك الأغبياء من جميع فئات المجتمع. انظر! هذا بليد آخر هناك، ذلك الفلاح، هل تراه؟ كثيراً ما يقال: «اغبى الأغبياء غبي فرنسي». أما أنا فأرى إن وجوه الروس تكشف أحيانا عن غباوة يحسدون عليها. أليس مكتوباً على جبين هذا الرجل مثلاً أنه بليد؟ إني أقصد ذلك الفلاح نفسه. ما رأيك؟
- دعه وشأنه يا كوليا. هيا بنا نمضي!
- لن أدعه وشأنه بحال من الأحوال! إنني أشعر باندفاع لا سبيل إلى مقاومته. أنت..! صباح الخير أيها الفلاح الطيب!
ها هوذا الرجل المنادى، وهو فلاح قوي البنية، يبدو أنه ثمل قليلاً، يزدان وجهه المدوَّر الخالي من المكر بلحية متناثرة لوّحها الشيب، ها هو ذا يرفع رأسه ببطء وينظر إلى الفتى.
- طيب، ليكن، صباح الخير، إذا كنت لا تعبث!
- وإذا كنت أعبث؟
- لك ما تشاء عندئذٍ، اعبث قليلاً أيها الفتى. مباح للمرء أن يتسلى في هذا العالم. ليس يسيء ذلك إلى أحد.
- معذرة أيها الطيب، لقد أردت أن أمزح.
- سيغفر الله لك.
- وهل تغفر لي أنت؟

- من كل قلبي. امض في سبيلك!
- يبدو لي أنك فلاح ذكي.
- أذكى منك.
قال الرجل على غير توقع، ولكن دون أن يتخلى عن هدوئه ورصانته..
فأجابه كوليا مرتبكاً:
- أشك في ذلك.
- بلى، بلى! أنا أذكى منك.
- قد يكون هذا حقاً.
- أرأيت؟
- استودعك الله أيها الفلاح.
- استودعك الله.
قال كوليا مخاطباً سموروف بعد بضع لحظات صمت:
- الفلاحون أنواع. لم أكن أتوقع في هذه المرة أن أقع على فلاح ذكي. إنني أشعر بالسعادة كلما صادفت ذكاء لدى أبناء الشعب.
وفي بعيد، دقت ساعة الكاتدرائية الحادية عشرة والنصف. فعدَّ الفتيان الخطى، وقطعا بسرعة، دون كلام تقريباً، المسافة الكبيرة التي كانت ما تزال تفصلهما عن منزل النقيب سنيجيريف. حتى إذا صارا على بعد عشرين خطوة منه، توقف كوليا وأمر سموروف أن بدخل قبله ليرجو كارامازوف أن يخرج إلى الشارع. وقال لسموروف شارحاً:
- أريد أولا أن أتعرف به وأن أتشمم جو المكان.
فاعترض سموروف قائلاً:
- علام نأتي به إلى هنا؟ الأفضل أن تدخل رأساً، وسوف يسعدهم كثيراً أن يروك. ما أغرب هذه الفكرة، أن تتعرف بالرجل على قارعة الطريق في هذا البرد الشديد؟
قال كوليا يحسم المناقشة بلهجة مستبدة (كان كوليا يحب كثيراً أن يصطنع هيئة السيطرة والتسلط في معاملة «الصغار»).
- هناك أسباب تدفعني إلى استدعائه إلى هنا إلى البرد الشديد، وأنا أعرف ماذا أفعل. فأسرع سموروف يطيع الأمر راكضاً إلى المنزل.

-4- «جوتشكا»

أسند كوليا ظهره إلى السياج، مصطنعاً هيئة الوقار، منتظراً وصول أليوشا. إنه يتمنى منذ زمن طويل أن يتعرف إلى أليوشا. لطالما سمع التلاميذ يتكلمون عنه، ولكنه كان حتى الآن، حين يسمع ما يُحكى عن أليوشا، يتظاهر بقلة الاكتراث وبشيء من الازدراء، حتى إنه لم يفته، في بعض المناسبات، أن «ينتقد» سلوك أليوشا. الواقع أنه كان في قرارة نفسه يرغب رغبة قوية في أن يلقاه: إن شيئاً ما، في التفاصيل التي تنقل إليه دائماً عن أليوشا، كان يحببه به ويجذبه إليه. لذلك كانت اللحظة الراهنة خطيرة: إن عليه قبل كل شيء أن يحافظ على كرامته بتأكيد استقلاله. فهو يقول لنفسه: «وقد يعدّني صبياً في الثالثة عشرة، فيكلمني كما يكلّم سائر هؤلاء الصبية الصغار. لماذا يعاشرهم معاشرة أصدقاء؟ سوف ألقي عليه هذا السؤال في أول فرصة. إن ما يضايقني خاصةً هو أنني قصير القامة إلى هذا الحد. إن توزيكوف أصغر مني سناً وأطول مني قامةً. ولكن محياي ينم عن ذكاء. أنا دميم، أعرف ذلك؛ إن وجهي ليس وسيماً، ولكنه يعبِّر عن ذكاء. ينبغي لي، من جهة أخرى، أن أحرص على أن لا أسرف في الإفصاح عن نفسي والإعراب عن مشاعري. لو وثبت إلى عنقه، فمن عسى يظنني؟ أوه! يا للخزي إذا هو ظنَّ أنني لا أجرؤ أن أفكر في هذا!...

كذلك كان كوليا فريسة اضطراب شديد، رغم كل ما كان يبذله من جهود في سبيل أن يصطنع هيئة الهدوء وقلة المبالاة. وكان قصر قامته خاصةً هو الذي يقلقه أكثر مما يقلقه وجهه «المحروم من الوسامة». نعم، قصر قامته. لقد رسم منذ العام الماضي، على الجدار، في بيته، خطاً بقلم الرصاص، يشير إلى طول قامته؛ وهو منذ ذلك الحين حتى الآن، يقف تحت هذا الخط كل شهرين، مهموم القلب، قلق البال، ليعرف هل زاد طوله أم هو لم يزد. ومن المؤسف أن طوله كان لا يزداد إلا ببطء. فكان ذلك يملا نفسه في بعض اللحظات كمداً ويأساً. والحق أن قسمات وجهه لم تكن «محرومة من الوسامة»، بل لقد كانت لطيفة محببة. إن وجهه أبيض شاحب فيه بعض النَّمش. وإن عينيه الشهباوتين صغيرتان ولكنهما تفيضان حياة ونشاطاً، وتنظران نظرات جريئة، ويلتمع فيهما لهيب من العاطفة في بعض الأحيان. وإن وجنتيه عريضتان، وشفتيه صغيرتان دقيقتان، ولكنهما في مقابل ذلك حمراوان جداً. أما أنفه فقد كان دقيقاً كذلك، وكان أقني. فكان كوليا إذا نظر إلى وجهه في المرآة، أشاح عن صورته مشمئزاً وهو يدمدم: «أنف أفطس، أفطس تماماً» - ويبتعد عن المرأة مغتاظاً. وكان يتساءل في بعض الأحيان، وقد راوده الشك حتى في هذا: «هل لي حقا وجه ذكي؟». يجب أن لا نظن مع ذلك أن همَّ قامته ووجهه كان يستغرق كل فكره. فإن الأمر لم يكن كذلك قط. فمهما تكن اللحظات التي كان يقضيها منفرداً بالمرآة قاسية، فقد كان ينساها بسرعة، ثم لا تخطر بباله فترات طويلة «وإنما تشغله عنها الأفكار والحياة الواقعية شغلاً كاملاً»، على حد التعبير الذي كان يحلو له أن يعرّف به نشاطه وعمله.

لم يلبث أليوشا أن ظهر، فاتجه إلى كوليا بخطى سريعة. فلاحظ كوليا، من بعد، أنه مشرق الوجه منبسط الأسارير. تساءل مغتبطاً: «هل يبهجه إلى هذه الدرجة أن يراني؟». يجب أن نقول هنا أن أليوشا كان قد تغير كثيراً عما كان عليه في اللحظة التي تركناه فيها. هو لايرتدي الآن مسوح الدير، بل يرتدي بدلةٌ أنيقة، ويضع على رأسه لبادة رمادية، وقد قصَّ شعره قصيراً، وكان هذا الزي يناسبه كثيرة، وقد أصبح شاباً وسيماً حقاً. وما يزال وجهه البهيج يشع فرحاً، غير أن هذا الفرح قد أصبح الآن هادئاً، وكأنه مجتمع على نفسه. وقد دُهِشَ كوليا حين رأي أليوشا يخرج إلى الشارع بلا معطف، ولا شك أن أليوشا قد نسي من تعجله أن يرتدي معطفه.

مدَّ أليوشا يده إلى كوليا بغير تكلف قائلاً له:

- ها أنت ذا أخيراً! لقد انتظرنا أن نراك بصبر نافد.

- أعلم أنني قد تأخرت، وسأشرح لك أسباب ذلك. على كل حال، يسعدني أن أتعرف إليك. لطالما تمنيت أن تتاح لي هذه الفرصة، لأنني سمعت عنك كثيراً.

كذلك دمدم يقول كوليا بصوت مضطرب، لأن الانفعال قد قطَّع أنفاسه.

- كنا سنتعارف على كل حال. أنا أيضاً سمعت عنك كثيراً. ولكنك أسرفت في التأخر عن المجيء إلى هنا، أسرفت إسرافاً شديداً.

- قل لي: كيف هو الآن؟

- حالة إيليوشا سيئة جداً. سيموت لا محالة.

هتف كوليا يقول بحرارة:

- ماذا تقول؟ هلاَّ اعترفت أن الطب حقير وكريه يا كارامازوف!

- هل تعلم أن إيليوشا قد نطق باسمك مراراً؟ حتى لقد كان في بعض الأحيان يتكلم عنك في أحلامه، وفي لحظات هذيانه أيضاً.

واضح جداً أنك كنت عزيزاً عليه في السابق... قبل ذلك الحادث... حادث الطعن بالسكين. يبدو أن لهذا سبباً آخر... قل لي: أهذا كلبك؟

- نعم، هو «برزوفون».

- آ... أليس هو «جوتشكا» إذن؟ فقد ضاع «جوتشكا» إلى الأبد؟ قال أليوشا وهو ينظر إلى عينيي كوليا حزيناً.

فأجاب كوليا وهو يبتسم ابتسامة ملغزة:

- أعرف أنكم جميعاً هنا تفكرون في «جوتشكا» وتحلمون به. إني مطلع على هذا الأمر. اسمع يا كارامازوف، سأشرح لك هذه القصة. إذا كنت قد جئت إلى هنا، واستدعيتك، فإنما فعلت ذلك الأبسط لك الموقف مقدمة قبل أن ندخل البيت.

وتابع كوليا كلامه قائلاً بحماسة متزايدة:

- في هذا الربيع إنما دخل إيليوشا الصف التحضيري. وأنت تعلم ما هو الصف التحضيري: صبية، أولاد صغار. فسرعان ما أخذوا يعاكسون إيليوشا. وأنا أتقدمه بصفين، فكنت أرقب تلك المشاهد، من بُعد طبعاً. رأيت أن الطفل صغير، هزيل، ولكنه لا يخضع ولا يستكين، حتى لقد مضي إلى حد مقاتلتهم ضرباً بالأيدي. لقد كان ذا أنفة وكبرياء، وكانت عيناه تقدحان شرراً. إنني أحبّ الصبيان الذين هم على هذه الشاكلة. وكان الآخرون يشاكسونه مزيداً من المشاكسة بسبب هذه الكبرياء! وكانت ثيابه خاصة هي التي تحتمل الاستهزاء به حينذاك: سروال مشمور، حذاءان متثائبان... كان الصبية يندفعون إلى التهكم عليه بسبب ثيابه هذه أيضاً، وكانوا يحاولون إذلاله. أخذ ذلك يسوؤني، فسرعان ما تدخلت فأدَّبتهم. إنني أضربهم متى وجب أن أضربهم، وهم مع ذلك يعبدونني عبادة، هل تعرف ذلك يا كارامازوف؟ (كذلك أضاف كوليا متفاخراً). وأنا أعبد الأطفال على كل حال. واعلم أن عندي في البيت، في هذه اللحظة نفسها، طفلين أعني بهما، وهما اللذان أخراني اليوم. هكذا كفَّ الصبيان عن اضطهاد أليوشا، وأصبحت أحميه. ولقد كان الولد شديد الكبرياء صدِّقني، شديد الكبرياء جداً، ولكنه أذعن لي أخيراً إذعان عبد، فهو ينفذ أوامري، ويصغي إليَّ إصغاءه إليَّ إله، ويحاول أن يقلّدني في كل شيء. كان في أثناء فترات الاستراحة بين الدروس يهرع إليَّ فوراً، فنمضي معاً. وكذلك في أيام الآحاد والتلاميذ في مدرستنا يتهكمون عادةً حين يرون كبيراً يرتبط هذا الارتباط بصغير، ولكن تلك آراء سخيفة. هذا هو رأيي وهذه إرادتي ويكفي، أليس كذلك؟ وحاولت أن أعلمه، أن أنمي ثقافته، ولماذا لا أحاول تثقيفه ما دام محبباً إلى نفسي! أنت نفسك يا كارامازوف قد ارتبطت بجميع هؤلاء الصبية الصغار. فأنت تريد إذاً أن تحدث أثراً في الجيل الجديد، أن تغيره، أن تكون نافعاً له. إنني أعترف لك بأن هذه الصفة من صفات طبعك التي عرفتها مما يرويه الرفاق عنك هي التي شافتني فيك أكثر من صفاتك الأخرى. ولكن فلنعد إلى الوقائع: لقد أدركت أن الصبي أخذ يصير إلى الإفراط في الحساسية، في العاطفية. وأنا أكره أشد الكره هذه «العواطف التي تشبه عواطف العجول»، أكرهها وأمقتها منذ ولدت، فاعلم هذا! وقد لاحظت عدا ذلك شيئاً من التناقض في وضعه: فهو من جهة أولى شديد الأنفة والكبرياء ومن جهة ثانية مخلص لي إخلاص عبد. كان يطيعني في كل أمر خاضعاً، ثم إذا بعينيه تقدحان على حين فجأة شرراً، فلا يريد أن يوافقني، بل هو يناقش ويماحك ويغضب. كان يتفق لي أن أعرض له بعض الآراء. لن أقول إنه كان يعارض عندئذٍ هذه الآراء، فلقد كنت أرى رؤية واضحة أن معارضته كانت تستهدفني أنا شخصياً، وأنه كان يتمرد ويعصي لأنني كنت أردّ على اندفاعات عاطفته ببرود. عندئذٍ قررت، حتى أربيه، أن أظهر له مزيداً من البرود وأن أقوِّي تحفظي تجاهه على قدر ازدياد تعلقه بي. كان ذلك من جانبي موقفاً مقصوداً محسوباً، يتفق ومبادئي. لقد أردت أن أصلح طبعه، أن أقوي عزيمته، أن أصلّب إرادته، أن أخلق منه رجلاً... الخلاصة.... لا شك أنك تفهمني بنصف كلمة. وفي ذات يوم، لاحظت فيه اضطراباً غريباً. كان يبدو منهاراً مصعوقاً. وظل على هذه الحال أياماً. أدركت أن هذا التبدل لا يمكن أن يكون مردَّه إلى قلة عاطفتي وحدها، وأن له أسباباً أخرى أقوى وأهمّ. تساءلت ما عسى تكون الدراما التي تجري في نفسه. ولاحقته بالأسئلة، فإذا أنا أعرف الحقيقة: لقد تعرَّف، لا أدري كيف، إلى سمردياكوف خادم المرحوم أبيك (الذي كان ما يزال حياً في تلك الآونة). فعمد سمردياكوف إلى تعليم هذا الأحمق الصغير مزحة سخيفة غبية، بل قل مزحةٌ وحشية حقيرة هي أن يأخذ لب الخبز فيدس فيه دبوساً ثم يلقيه طعاماً إلى كلب ضال، إلى واحد من تلك الحيوانات الساغبة التي تبلع، دون مضغ، كل ما يقع تحت أسنانها... وذلك ليرى ما عسى يحدث بعد ذلك. هكذا أعدَّا لقمة من خبز، وألقياها إلى «جوتشكا» ذاك الكلب الضخم الطويل الشعر الذي كثيراً ما جرى الحديث عليه منذ ذلك الحين. هو كلب من تلك

الكلاب التي ينسى الناس أن يطعموها، والتي تقضي النهار كله نابحةً على الهواء (هل تحب ذلك النباح الغبي يا كارامازوف؟ أما أنا فلا أستطيع احتماله). انقضّ الكلب المسكين على لقمة الخبز، فبلعها، وسرعان ما أخذ يعول متلوياً من الألم، ثم انصرف على الفور راكضاً لا يلوي على شيء، يئن متوجعاً. هكذا اختفى ذلك الكلب، على حسب الرواية التي رواها لي أليوشا نفسه. لقد اعترف لي إيليوشا بفعلته وهو يبكي، فهو ينتحب انتحاباً قوياً ويعانقني متشنجاً، وما ينفك يكرر قوله: «كان الكلب يركض ويئن، يركض ويئن...»، فإلى هذا الحد كان تأثره من ذلك المنظر!... لاحظت أن عذاب الضمير يضنيه، وأن الندم يهدّه هداً. أخذت الأمر مأخذ الجد. كنت حريصاً خاصةً على أن أعاقبه على سلوكه السابق، فعمدت إلى الحيلة والمكر... أعترف لك بذلك. تظاهرت باستياء شديد من فعلته، استياء أشد كثيراً من استيائي في الواقع. قلت له: لقد ارتكبت عملاً حقيراً، عملاً جباناً... أنت نذل... لن أشي بك طبعاً، ولكنني أنهي الآن علاقات الصداقة بيننا. وسأفكر في الأمر، ثم أبلغك بواسطة سموروف (هو الصبي الذي صحبني إلى هنا، وكان مخلصاً لي على الدوام): «هل قررت أن أعيد الصلة بيني وبينك، أم قررت أن أهجرك إلى الأبد بصفتك فتى نذلاً لا يستحق الاهتمام».

أحدثت هذه الأقوال في نفسه أثراً رهيباً. وسرعان ما أحسست - أعترف لك بذلك - أنني أقسو عليه قسوة قد يكون فيها غلو وإسراف. ولكن ما العمل؟ لقد كنت أعمل عندئذٍ بوحي من قناعاتي. وفي الغد، أرسلت إليه سموروف لأبلغه أنني «لن أكلمه بعد اليوم قط». تلك هي الاصطلاحات التي نستعملها في المدرسة للتعبير عن انقطاع كل اتصال بين رفيقين. والحقيقة أنني كنت أريد أن أهجره بضعة أيام فقط، ثم أمدّ إليه يدي حين أرى ندامته. تلك كانت نيتي الجازمة على كل حال. ولكن ماذا تظن أنه حدث؟ أصغى إلى الرسالة التي بلغه إياها سموروف ثم صاح يقول له وقد قدحت عيناه شرراً: «أبلغ كراسوتكين أنني سألقي بعد الآن لقم خبز فيها دبابيس إلى جميع الكلاب، إلى جميع الكلاب!». قلت لنفسي عندئذٍ: «ها... ها.... لقد استيقظت فيه روح التمرد، فيجب أن تُقمع وتُقهر». وأظهرت له منذ ذلك الحين احتقاراً تاماً، معرضاً عنه كلما لقيته أو مبتسماً ابتسامة صغيرة ساخرة. وفي تلك الآونة إنما وقعت لأبيه تلك الحادثة، حكايةُ الليفة كما تعلم. إنك لتقدِّر الآن أن الصغير قد أصبح منذ ذلك الحين مهيأً لنوبات عنف. وإذ رأى التلاميذ أنني هجرته فقد هاجموه من جديد، صائحين له من أجل إغاظته وإخراجه عن طوره: «ليفة، ليفة، إلخ». كان ذلك بداية مشاجرات آسف لها أسفاً شديداً، ذلك أنني أعتقد أنه قد كيلت له الضربات في ذات مرة، وفي يوم من الأيام هجم عند الخروج من المدرسة على العصبة كلها. وشاءت المصادفة أن أكون على بعد عشر خطوات منه ألاحظه وأراقبه. أحلف لك أنني لم أكن قد سخرت منه. بالعكس: لقد أيقظ في نفسي عندئذٍ شفقةً كبيرة، شفقة كبيرة جداً. وكنت أوشك أن أهبّ إلى نجدته. ولكن نظرته التقت بنظرتي فجأة. ولست أدري ما الذي ظن أنه يقرؤه في عيني، ولكنه استل سكّينه بغتةً، وهجم عليَّ، فأغمد السكين في وركي، هنا، فوق الساق اليمنى قليلاً. لم أتحرك. أعترف لك يا كارامازوف أنني أبرهن في بعض الظروف على شجاعة. لم أزد على أن نظرت إليه باحتقار، وكانت نظرتي تقول بوضوح: «أهذا كل شيء؟ ألا تريد أن تضربني أيضاً، عرفاناً منك بالصداقة التي حملتها لك؟ هيا، افعل بي ما تشاء!». ولكنه لم يطعن مرة أخرى، وفقد شجاعته فجأة، وخاف، ورمى السكين ثم لم يملك زمام نفسه، فإذا هو ينفجر باكياً ناشجاً. ثم ولى هارباً، لم أشِ به طبعاً. حتى لقد أمرت جميع التلاميذ بأن يكتموا ما وقع بغية أن لا يصل الأمر إلى مسمع الإدارة. ولم أقل لأمي شيئاً كذلك، ولم أقصص عليها الواقعة إلا بعد أن التأم الجرح تماماً. وكان الجرح خدشاً بسيطاً على كل حال. وقد علمت بعدئذٍ أنه في ذلك اليوم نفسه اقتتل مع رفاقه، ورماهم بالحجارة، وعضّ إحدى أصابعك. لا شك أنك تدرك الآن الحالة النفسية التي كان عليها حينذاك. ما العمل؟ إنه ليؤسفني أنني تصرفت تصرفاً أحمق. فحين مرض لم أزره لأغفر له... أقصد... لأتصالح معه... وأنا الآن نادم على ذلك. ولكني ينبغي أن أقول مع ذلك إن هناك، في هذه القضية، أسباباً دفعتني إلى أن أتصرف كما تصرفت. الخلاصة... هذه هي القصة كلها... ولكن واضحٌ أنني تصرفت تصرفاً أحمق..

صاح أليوشا يقول بانفعال شديد:

- أوه! خسارة أنني لم أعرف قصة علاقاتك بإيليوشا[205] ... وإلا لجئتك منذ زمن طويل راجياً أن تصحبني إليه. تصوّر أنه كان يتكلم عنك أثناء مرضه وهذيانه. كنت أجهل أنك عزيز على نفسه إلى ذلك الحد. هل يمكن فعلاً أن لا تكون قد عثرت على «جوتشكا»؟ ألم تجده حقاً؟ إن أبا إيليوشا ورفاقه قد بحثوا عن الكلب في المدينة كلها. هل تتصور أن إيليوشا قد قال لأبيه ثلاث مرات بحضوري، قال له مريضاً باكياً: « لئن كنت أتألم يا بابا، فلأنني قتلت جوتشكا»... إن الله يعاقبني. لا سبيل إلى إخراج هذه الفكرة من رأسه!

لو استطعنا على الأقل أن نهتدي إلى جوتشكا هذا وأن نريه إياه حتى يعلم أن الكلب لم يمت، بل إنه على قيد الحياة، إذا لبعث حية من شدة الفرح. ولقد كنا جميعا نعول عليك في هذا.

سأل كوليا بفضول شديد:

- لماذا قدرتم أنني سأعثر على «جوتشكا»؟ لماذا كنتم تعولون علي أنا ولا تعولون على أحد غيري؟

- شاع أنك تبحث عن الكلب وأنك ستجيء به إلى إيليوشا متى وجدته. أسمعنا سموروف في ذات مرة شيئاً من هذا القبيل. ونحن جميعاً نجهد في أن نقنع إيليوشا بأن «جوتشكا» حي، بأنه رُئي في مكان ما. وقد جاءه رفاقه بأرنب لا أدري من أين حملوه، فنظر أليوشا إلى الحيوان الصغير مبتسماً ابتسامةً ضعيفة، وطلب أن ترد إلى الأرنب حريته. فعلنا ذلك. وفي تلك اللحظة نفسها عاد أبوه مصطحباً جرواً صغيراً من كلاب الحراسة. كان الأب يظن أن هذا سيواسي ابنه. ولكنني أخشى أن تكون حالة الابن قد ازدادت سوءاً بسبب ذلك...

- قل لي أيضاً يا كارامازوف: إلى أي نوع من الرجال ينتمي أبوه ؟ إنني لا أعرفه إلا بالنظر. فما هو في رأيك؟ أهو مهرج؟

- لا!... إن هناك أناس أوتوا حساسية عميقة، ولكن القدر قد صعقهم وسحقهم. وما تهريجهم عندئذٍ إلا نوع من الانتقام المرّ الساخر إزاء أولئك الذين لا يجرؤون أن يواجهوهم ولا يجسرون، من فرط ما اعتادوا الخضوع الذليل، أن يصارحوهم بالحقيقة وجهاً لوجه. ثق يا كراسوتكين أن هذا التهريج يمكن أن يكون له، في بعض الحالات، أساس تراجيدي جداً. إن أفكاره كلها وحياتها كلها قد تركزت الآن على إيليوشا. يكفي أن يموت إيليوشا حتى يُجنَّ حزناً أو ينتحر، إني لا أنظر إليه مرة إلا اراد يقيناً اليقين من ذلك.

قال كوليا بانفعال:

- أفهمك يا كارامازوف. ألاحظ الآن أنك خبير في معرفة النفس الإنسانية.

- لقد ظننت حين رأيتك منذ قليل مع هذا الكلب أنك تجيء بجوتشكا.

- صبراً يا كارامازوف. قد نعثر على ذلك الكلب. أما هذا فهو «برزفون». سأتركه في غرفة أليوشا، وأغلب الظن أنه سيتسلى به أكثر مما يتسلى بكلب الحراسة الصغير ذاك الذي أتاه به أبوه. اسمع يا كاراماوف. سأذكر لك بعض الأمور. آه... رباه ! ماذا أفعل؟ (هكذا صاح كوليا قلقاً مهموماً)... أؤخرك في هذا البرد الشديد وأنت بغير معطف ! ها أنت ذا ترى مدى أنانيتي... نحن جميعاً أنانيون، واأسفاه !

- لا تقلق. صحيح أن الجو بارد. ولكنني لا أصاب بالزكام بسهولة. على أننا نحسن صنعاً إذا دخلنا البيت. بالمناسبة: ما اسمك؟ أنا أعرف أنهم ينادونك كوليا، ولكن كوليا ماذا؟

- اسمي نيقولا، نيقولا إيفانوف كراسوتكين، أو نيقولا إيفانوف ابن كراسوتكين، إذا أردنا أن نستعمل لغة الدواوين.

كذلك قال كوليا وهو يضحك ضحكة صغيرة غريبة. ثم أسرع يضيف:

- لعلك تقدِّر أنني أكره اسم نيقولا هذا؟

- لماذا؟

- لأنه مبتذل، تافه..

- أأنت في السنة الثالثة عشرة من عمرك؟

- بل في الرابعة عشرة. سأتم الرابعة عشرة بعد أسبوعين. وأحب أن أعترف لك رأساً بوجه من وجوه ضعفي يا كارامازوف حتى تعرف طبعي معرفة جيدة منذ البداية: إنني أكره أن أسأل عن عمري، بل أمقت ذلك أشد المقت... ثم... يجب أن أقول لك... هناك نميمة في حقي تجري الآن وتشيع... إنهم يدعون أنني لعبت في الأسبوع الماضي مع تلاميذ الصف التحضيري لعبة اللصوص... صحيح أنني لعبت هذه اللعبة... لست أنكر ذلك... أما أن يُقال أنني لعبتها لنفسي، لمسرَّتي أنا، فذلك تشنيع كريه. هناك أسباب تدفعني إلى الاعتقاد بأن هذه الشائعة قد بلغت مسمعك. فاعلم إذا أنني لم ألعب هذه اللعبة بدافع ميل شخصي، وإنما لعبتها لأسرّ الأطفال الذين لا يستطيعون أن يتخيلوا شيئاً بدوني. إن الناس في هذه المدينة يحبون الأقاويل. إن هذه المدينة لا تعيش إلا على الثرثرات، أؤكد لك ذلك.

- هبك لعبت لمسرتك الخاصة، فأي ضير في هذا؟

- لمسرتي الخاصة؟ ما هذا الكلام؟ أترضى أنت أن تلعب لعبة الحصان مثلاً؟

قال أليوشا مبتسماً:
- فكِّر قليلاً: في المسرح تُمثّل التمثيليات للكبار، ومع ذلك نرى فيها مغامرات أبطال، ومعارك حروب، بل ونرى فيها لصوصاً من قطاع الطرق في بعض الأحيان. أليس هذا هو ذلك اللعب نفسه في حقيقة الأمر، وإنما اكتسى صورة أخرى؟ اعلم أن الصبيان الصغار، حين يلعبون لعبة الحرب أو لعبة اللصوص من قطاع الطرق، أثناء فترات الاستراحة بين الدروس، إنما يقومون بعمل فني أيضاً على طريقتهم الخاصة. هذا فن ناشئ، هذه تطلعات فنية تتجلى في نفوس الصغار. وإن هذه الألعاب لتكون في بعض الأحيان أجمل من تمثيليات المسرح. الفرق الوحيد هو أن الناس يجيئون إلى المسرح ليروا الممثلين، على حين أن الأطفال في ألعابهم هم ممثلون ومشاهدون في آن واحد. هذا شيء طبيعي تماماً.
سأل كوليا وهو ينظر إلى أليوشا بانتباه شديد:
- أتعتقد بذلك حقاً؟ أهذه قناعتك؟ هل تعلم أنك تعبّر عن فكرة شائقة جداً؟ سأفكر فيها ملياً وسأجترها اجتراراً حين أعود إلى منزلي بعد قليل. لقد كنت أتوقع أن أتعلم منك أموراً شائقة، أعترف لك بذلك. إنني جئت لأتعلّم منك يا كارامازوف.
بهذا ختم كوليا كلامه متحدثاً بلهجة نافذة حارة. فأجابه أليوشا وهو يبتسم له ويصافحه:
- وأنا أيضاً أريد أن أتعلم منك.
كان كوليا مفتوناً بأليوشا. ولقد أرضاه خاصة أن يعامله أليوشا معاملة الند للند، كما يعامل «شخص كبير».
قال كوليا وهو يضحك ضحكةً عصبية صغيرة:
- سأريك حيلة يا كارامازوف، هي نوع من التمثيل المسرحي. لهذه الغاية إنما جئت إلى هنا.
- لندخل أولاً إلى عند أصحاب الدار، في اليمين. لقد خلع هناك جميع رفاقك معاطفهم، لأن جو الغرفة خانق، والمكان ضيق.
- لن أمكث مدة طويلة، فلا حاجة إلى خلع معطفي. وسيبقى برزفون» في الدهليز، ويتظاهر بالموت. «تعال يا «برزفون». ارقد ومت». ها هو ذا قد مات. وسأدخل أولاً، فأرى ما يجري، ثم أصفر في اللحظة المناسبة منادياً: «تعال يا «برزفون»». فيسرع الكلب وقد جُنَّ فرحاً. ولكن يجب أن لا ينسى سموروف أن يفتح الباب في اللحظة المناسبة. سألقّنه التعليمات اللازمة، فترى هذه الحيلة...

-5-على سرير إيليوشا

المكان ضيق والجو خانق في الغرفة المعروفة لدينا التي تسكنها أسرة النقيب المتقاعد سنيجريف، والتي كان يتكدس فيها في تلك الساعة زوار كثيرون جداً. إن عدداً من الصبيان يجلسون قرب سرير إيليوشا. ورغم أنهم مستعدون جميعاً، مثل سموروف نفسه، أن ينكروا أن يكون تصالحهم مع إيليوشا هو من صنع أليوشا، فلقد كان الأمر كذلك في الواقع. ولقد كانت كل براعة أليوشا هو أنه قادهم إلى غرفة إيليوشا واحداً بعد واحد، متحاشياً الاندفاعات العاطفية، متحاشياً ما كانوا يسمونه به «عواطف العجول»، حريصاً على أن يضفي على هذه الزيارات مظهر بادرة عفوية طارئة. وقد أحسنت هذه الزيارات إلى إيليوشا، وواسته كثيراً. إن هذه الصداقة الحنونة وهذا الاهتمام الكبير اللذين يظهرهما له هؤلاء الصبية، أعداؤه القدامى، قد أثّرا في نفسه تأثيراً عميقاً. ليس ينقصه الآن إلا كراسوتكين الذي كان غيابه يُثقِل على صدره كثيراً. وإن كان ثمة شيء في ذكريات إيليوشا المُرّة فهو ذلك الحادث الذي وقع بينه وبين كراسوتكين، صديقه القديم الوحيد وحاميه، الذي انقضَّ عليه إيليوشا بمديته. وذلك ما أدركه سموروف حق الإدراك (وهو فتى ذكي جداً كان أول من جاء يصالح إيليوشا). بينما أسرع كراسوتكين نفسه، حين أبلغه سموروف، بكلمات مغطاة، أن إيليوشا يحب أن يراه «لأمر من الأمور»، أسرع يقطع حديثه مع سموروف وكلفه بخشونة وجفاء أن يقول لكارامازوف إنه يعرف بنفسه ما الذي يجب عليه أن يعمله ليس في حاجة إلى نصائح أحد. وأضاف إلى ذلك أنه إذا قرر أن يعود المريض فسيفعل ذلك في الوقت الذي يراه مناسباً، لأن له «حساباته الخاصة» بهذا الصدد. حدث ذلك قبل يوم الأحد هذا بخمسة عشر يوماً. وذلك هو السبب في أن أليوشا لم يزره كما كان ينوي أن يفعل. وبانتظار فرصة مواتية أرسل سموروف إلى كراسوتكين مرةً ثم مرة ثانية، ولكن كوليا أجاب في المرتين كلتيهما بخشونة وتذمر، وأبلغ أليوشا أنه سوف يعدل عن زيارة إيليوشا إلى الأبد إذا ارتأى أليوشا أن يجيء إليه؛ وطلب أن يُترك وشأنه بعد الآن. وكان سموروف نفسه يجهل إلى آخر يوم أن كوليا قد قرر أن يجيء إلى إيليوشا في هذا الصباح. وفي عشية ذلك الأحد، حين ودع كوليا صاحبه سموروف، إنما أمره بأن ينتظره في صباح الغد ليذهبا معاً إلى أسرة سنيجيريف. وقد أوصاه ملحاً بأن لا ينبئ أحداً بأمر هذه الزيارة، لأنه يريد أن يحضر على غير توقع أو انتظار. وأطاعه سموروف. كان سموروف يرجو في سره أن يجيء كوليا بالكلب جوتشكا)، لأن كراسوتكين قد أفلتت منه في ذات مرة، بحضور سموروف، كلمات مفادها، «إنهم جميعاً حمير، لأنهم لما يستطيعوا بعد أن يعثروا على الكلب، إذا كان الكلب ما يزال حياً». ومع ذلك، حين سمح سموروف لنفسه في ذات يوم، لإعتقاده بأن الفرصة مؤاتية، بأن يشير إشارة غامضة إلى موضوع الكلب أثناء حديث له مع كراسوتكين، فإن كراسوتكين غضب غضباً شديداً وصرخ يقول: «أأنا حمار حتى أضيع وقتي في البحث في أرجاء المدينة كلها عن كلاب الآخرين، بينما أنا أملك كلبي «برزفون»؟ وهل أبلغ من الغباء من جهة أخرى حد الاعتقاد بأن كلباً من الكلاب يمكن أن يبقى حياً بعد أن بلع دبوساً؟ ألا دعونا من عاطفيات العجول هذه!».

لقد أصبح إيليوشا منذ خمسة عشر يوماً لا يبارح سريره الموضوع في زاوية الغرفة تحت الأيقونات. وهو لم يرجع إلى المدرسة منذ اليوم الذي التقى فيه بأليوشا وعض له أصبعه. لقد رقد في سريره في ذلك المساء نفسه، ولكن كان يتفق له أثناء الشهر الأول من مرضه أن ينهض في بعض الأحيان ليسير بضع خطوات في الغرفة أو الدهليز. غير أنه ضعف شيئاً فشيئاً حتى أصبح لا يستطيع أن يتحرك بدون مساعدة أبيه. وكان الأب يرتعد خوفاً على حياة ابنه، حتى لقد كف عن الشراب، وكانت خشيته من أن يشهد موت أبنه تجعله شبه مجنون. وكثيراً ما كان يتفق له، بعد أن يروض صغيره في الغرفة ممسكاً به من ذراعه، وبعد أن يساعده على الرقاد ثانيةً في سريره، أن يهرب إلى ركن مظلم من الدهليز، فيضع جبينه على الجدار، ويأخذ يبكي بكاءً متشنجاً، وهو يخنق أصوات نشيجه حتى لا يسمعها إيليوشا.

فإذا عاد إلى الغرفة حاول أن يسلّي عزيزه الصغير وأن يفرحه وأن يبهجه، قاصاً عليه حكايات سحرية أو راوياً له نكتاً هزلية أو مقلداً أمامه أوضاعاً مضحكة لأشخاص أو محاكياً له حيوانات مختلفة فكان يَعْول ويقلد بأصوات مضحكة. وكان إيليوشا مع ذلك لا يحب لأبيه أن يمثل هذا التمثيل وأن يقوم بدور المهرج أمامه. كان يحاول أن يخفي الضيق الذي يحسّه، ولكنه كان يدرك حق الإدراك في قرارة قلبه المحطم المسحوق، أن أباه قد أذله المجتمع، وأن ذكرى ذلك اليوم الرهيب في الحانة تحاصره ولا تبارحه لحظة. وكانت نينا الكسيحة، أخت إيليوشا، المهيضة الوديعة، تكره هي أيضاً أن ترى ما يقوم به أبوها من حركات مضحكة (أما فرفارا نيقولايفنا فقد سافرت إلى بطرسبرج منذ زمن طويل لتتابع دراستها). أما الأم البلهاء، فقد كانت تجد في ذلك لذة كبيرة، وكانت تضحك من كل قلبها متى أخذ زوجها يقوم بحركاته الهزلية. كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يسرها وأن يسرّي عنها. وهي في كل ما عدا ذلك من وقت، لا تكف عن الشكوى والبكاء، قائلةً إن الجميع قد نسوها، وإن أحداً لا يحترمها، وأن الإساءات والإهانات تنصب عليها، إلخ. غير أن تبدلاً لم يكن في الحسبان قد حدث لها منذ بضعة أيام. أصبح يتفق في كثير من الأحيان أن تنظر صامتةً إلى إيليوشا في ركنه، فإذا هي تطرق وتغرق في التفكير. لقد أصبحت أقرب إلى الصمت، وبدا عليها شيء من هدوء، فإذا بكت حاولت أن لا يُسمع بكاؤها. وقد لاحظ النقيب هذا التبدل فشعر بدهشة أليمة. ولقد كانت زيارات رفاق الابن تضايقها في أول الأمر، ولا تزيد على أن تثير غضبها وحنقها. ولكن صرخاتهم الفرحة وحكاياتهم المسلية أخذت بعدئذٍ تسرّي عنها، ثم أصبحت الأم تحب هؤلاء الأولاد، وبلغت من ذلك أخيراً أن صار وجودهم ضرورة لا غنى لها عنها، فإذا غابوا هوت إلى حزن مرهق. كانت إذا قصَّ التلاميذ حكايات أو أخذوا يلعبون، تضحك أو تصفق بيديها، وتناديهم إليها، في بعض الأحيان تقبلهم. وكان الفتى سموروف يحظى بإيثارها إياه على غيره. أما النقيب فكان مجيء التلاميذ يملؤه فرحاً طافحاً في كل مرة، وكان يأمل في تلك اللحظات أن يسري وجودهم عن إيليوشا، فيشفى بسرعة متى كف عن الحزن. كان لا يشك لحظةً، رغم جميع المخاوف التي توقظها في نفسه حالة ابنه، في أن ابنه سيسترد عافيته فجأة، وكان هذا الاقتناع هو الذي شد أزره حتى هذه الأيام الأخيرة. إنه يستقبل هؤلاء الزوار الصغار باحترام وتأثر، ويسعى ويدور حولهم، ويضع نفسه في خدمتهم، ويقترح عليهم أن يحملهم فوق ظهره، ولا شك أنه كان سيفعل ذلك لولا أن إيليوشا قد أظهر شيئاً من عدم الرضى عن وضع أبيه هذا. لذلك كفو أخيراً عن هذه الألعاب، غير أن الأب قد عوض الأولاد عن هذا، فأصبح يشتري لهم سكاكر وفطائر وجوزاً، ويعد لهم شاياً وساندويشات. يحسن أن نذكر هنا أن المال أصبح لا يعوزه في هذه الفترة. فقد قبل أن يأخذ المائتي روبل التي أرسلتها إليه كاترينا إيفانوفنا بعد رفضه الأول، قبلها في هذه المرة بغير عناء، كما تنبأ أليوشا تماماً. ثم بعد ذلك جاءت إليهم كاترينا إيفانوفنا بنفسها لتتعرف إليهم بعد أن علمت بأحوالهم التعيسة وبمرض إيليوشا بمزيد من التفصيل واستطاعت أن تفتن حتى الأم البلهاء، واستمرت منذ ذلك الحين على مساعدتهم بسخاء، ونسي النقيب كبرياءه القديمة وارتضى أن يتلقى هذه المعونات من شدة خوفه أن يفقد ابنه. وقد أصبح الدكتور هرتسنشتوبه يعود المريض بانتظام كل يومين بطلب من كاترينا إيفانوفنا، ولكن تدخله لم يسفرعن نتائج تُذكر رغم الأدوية الكثيرة التي حشا بها المريض. غير أنهم كانوا في ذلك اليوم، أي في صباح يوم الأحد ينتظرون طبيباً جديداً جاء من موسكو. طبيب ينعم بشهرة واسعة وصيت ذائع. لقد طلبته كاترينا إيفانوفنا خصيصاً، لقاء أجور باهظة. صحيح أنها لم تستدعه من أجل أن يعالج إيليوشا، وإنما هي استدعته لغرض آخر سنتحدث عنه فيما بعد، ولكنها انتهزت فرصة وجوده في مدينتنا، فرجته أن يعود المريض الصغير أيضاً، وأبلغت النقيب بذلك مسبقاً. ولكن النقيب، في مقابل ذلك، لم يكن يتوقع زيارة كوليا كراسوتكين، رغم أنه تمنى منذ زمن طويل أن يجيء هذا الفتى الذي تكلم عنه ايليوشا بكثير من الحنين، وكان أمره يعذبه عذاباً شديداً.

حين فتح كراسوتكين باب الغرفة، كان النقيب والأولاد يحيطون بسرير المريض الصغير، ويتأملون جرو الحراسة الرضيع الذي ولد البارحة وجيء به لتوه. كان أبو أليوشا قد أوصى باحتجاز هذا الكلب له منذ أسبوع، آملاً أن يسرّي به عن ابنه الذي لم يستطع أن ينسى اختفاء «جوتشكا» الذي مات بلا شك. وكان ايليوشا الذي يعلم منذ ثلاثة أيام أنه سيؤتى بكلب صغير، أصيل، من أرقى أنواع كلاب الحراسة (وذلك أمر هام جداً) كان يتظاهر، لباقة، بأنه أشد ما يكون ابتهاجاً بهذه الهدية، ومع ذلك كان جميع الحضور، الأب والأولاد على السواء، قد أدركوا حق الإدراك أن هذا الكلب الجديد لم يزد على أن أذكى في قلب المريض تلك الذكرى الأليمة، ذكرى الآلام التي سببها للكلب المسكين "جوتشكا". كان الكلب الصغير مضطجعاً قرب أليوشا يتحرك. وكان ايليوشا يبتسم ابتسامة ضعيفة واهنة، وهو يلاعبه بيده الشاحبة الشفيفة الناحلة. كان واضحاً أن أليوشا معجب بالحيوان الصغير... ولكن هذا الحيوان الصغير ليس «جوتشكا» ؛ إن «جوتشكا» ما يزال غائباً! آه... يا ليت أن الجمع بين «جوتشكا»

وهذا الكلب الصغير ممكن، إذاً لكان ذلك سعادة كبرى!...

صاح أحد الفتية يقول وقد لمح كوليا:

- كراسوتكين!

حدث اضطراب خلال لحظة، وتباعد الأولاد فاصطفوا على جانبي السرير كاشفين بذلك عن إيليوشا، وهرع النقيب يستقبل كوليا، متمتماً:

- أدخل، تفضل... أيها الضيف العزيز! يا صغيري ايليوشا، هذا السيد كراسوتكين قد جاء يعودك...

لقد أسرع كوليا يمد يده إليه، فبرهن في الحال على معرفته التامة بالآداب الاجتماعية إذ التفت أولاً نحو زوجة النقيب، الجالسة على مقعد (وكانت في تلك اللحظة مستاءة جداً، فهي تعبر عن غضبها من أن الأولاد قد حجبوا عنها سرير أليوشا فحالوا بذلك بينها وبين رؤية الكلب الجديد)، فانحنى يحييها بكثير من الاحترام، ثم

التفت نحو نينا فحياها كما تُحيًّا سيدة تحيةً فيها كثير من الاحتفال أيضاً؛ فكان لبادرة التهذيب والأدب هذه أثر حسن جداً في نفس البلهاء. فانبرت تقول بصوت عال وهي تباعد ذراعيها.
- يدرك المرء فوراً أنه رجل مهذب. شتَّان بينه وبين زوارنا الآخرين هؤلاء الذين يركب بعضهم فوق بعض!
تمتم النقيب يقول بحنان يخالطه قلق على حالة امرأته:
- كيف هذا يا عزيزتي؟ يركب بعضهم فوق بعض؟ ماذا تقصدين؟
- طبعاً... هكذا يصلون جميعاً. في الدهليز يركب بعضهم على أكتاف البعض الآخر، ويتواقحون فيدخلون راكبين إلى غرفة أسرة مرموقة كأسرتنا... أهؤلاء زوار محترمون؟
- ولكن من دخل على هذا النحو يا عزيزتي، من؟
- هذا واحد ركب على ذاك، اليوم. وهذا ركب على الآخر أيضاً...
كان كوليا أثناء ذلك قد اقترب من سرير إيليوشا. وقد شحب لون إيليوشا شحوباً شديداً، فأنهض جسمه وحدَّق إلى كراسوتكين. إن كراسوتكين لم يره منذ شهرين فها هو ذا يقف على حين فجأة مبهوتاً من منظر رفيقه القديم الصغير: كان لا يتوقع أن يراه بوجه نحل هذا النحول كله واصفر هذا الاصفرار كله وسطعت فيه عينان محمومتان قد اتسعتا هذا الاتساع. وخطف بصره هزال يديه أيضاً. إنه يتأمله الآن في دهشة أليمة، بينما إيليوشا، المتيبس الشفتين، يتنفس تنفساً شاقاً سريعاً.
تقدم كوليا خطوة نحوه متحيراً، وقال له بصوت متلجلج وهو يمد إليه يده - هيه يا أخي... كيف حالك؟
واختنق صوته، ولم يسعفه استهتاره. تقبضت قسمات وجهه، واختلجت أطراف شفتيه. وكان إيليوشا، الذي ما يزال عاجزاً عن أن ينطق بكلمة، يبتسم له ابتسامة ضعيفة. رفع كوليا يده فجأة، وأجراها في شعر أليوشا لا يدري لماذا، وقال له متمتماً بصوت خافت:
- الأمر بسيط، اطمئن... قال له ذلك إما ليشجعه أو لأنه لم يعرف لماذا قال هذا الكلام.
صمتا كلاهما لحظة. ثم سأل كوليا بصوت لا أحاسيس فيه:
- أرى أن عندك كلباً صغيراً آخر؟
فأجاب إيليوشا بهمهمة طويلة لاهثة يقول:
- ن-......ع-......م.
- إن بوزه أسود، وهذا يدل على أنه سيكون كلباً شرساً.
- قال كوليا بوقار وبرصانة، كأن للكلب ولبوزه الأسود خطورة خاصة.
والحق أن كوليا كان عاجزاً حتى الآن عن السيطرة على انفعاله، رغم جميع الجهود التي يبذلها، وهو يخشى أن ينفجر باكياً مثل «طفل»..
وأضاف قائلاً:
- سيكون من الواجب ربطه بسلسلة حين يكبر. أنا أعرف هذا. هتف أحد الفتيان يقول:
- سيكون ضخمة. فقالت أصوات أخرى:
- حتما.. ما دام من أحسن أنواع كلاب الحراسة. سيكون حجمه كحجم عجل.
وأسرع النقيب يقول مؤيداً:
- سيكون ضخماً ضخامة عجل، ضخامة عجل حقاً. لقد اخترت هذا الكلب خصيصاً... إنه من نوع شرس جداً... أبواه أيضاً ضخمان شرسان... يصل طولهما إلى هنا... اجلس، تفضل اجلس... اجلس على سرير ايليوشا، أو إجلس هنا على الدكة. أهلاً بك يا ضيفنا العزيز الذي انتظرناه زمناً طويلاً... هل جئت في صحبة ألكسي فيدوروفتش؟
جلس كوليا على السرير قرب إيليوشا. لا شك أنه قد أعد أثناء الطريق كل ما كان ينوي أن يقوله حتى يكون وضعه منطلقاً منذ بداية الحديث، ولكنه قد فقد تسلسل الكلام... فها هو ذا يجيب عن سؤال النقيب قائلاً:
- بل جئت... جئت... مع «برزفون»... عندي الآن كلب يسمى هكذا... هو اسم سلافي تماماً. إنه ينتظر هناك... فمتى صفرتُ له أسرع يجيء.
والتفت نحو إيليوشا فجأة وقال له:
- أنا أيضا عندي كلب. ثم إذا هو يسأل إيليوشا بغتة:
- هل تتذكر «جوتشكا» يا أخي؟
فما إن سمع إيليوشا هذا السؤال حتى تقبض وجهه تقبضاً أليماً، وألقى على كوليا نظرة مثقلة بالمرارة. وكان أليوشا واقفاً قرب الباب، فقطب حاجبيه وأومأ من بعيد ليهيب بكوليا أن لا يجيء على ذكر جوتشكا، ولكن كوليا لم يلاحظ شيئاً أو تظاهر بأنه لا يرى شيئاً.
سأل إيليوشا بصوت محطم:
- أين هو «جوتشكا»؟
- دعك من جوتشكا يا أخي... اختفى... «جوتشكا»، ضاع...
صمت إيليوشا وحدَّق إلى كوليا من جديد. واستطاع أليوشا أن يجذب انتباه كراسوتكين فأومأ له بإلحاح للمرة الثانية، ولكن كوليا أشاح عنه متظاهراً بأنه لم يلاحظ شيئاً.
- «جوتشكا» اختفى ولم يترك أثراً. وهل كان يمكنه أن يعيش بعد أن بلع فطيرة كتلك الفطيرة؟
كذلك تابع كوليا كلامه دون رحمة، بصوت أصبح لاهثاً لا يدري أحد لماذا. ثم أردف يقول:
- ولكني اصطحبت «برزفون»... هذا اسم سلافي.. لقد جئت بهذا الكلب.
فقال إيليوشا فجأة:
- لا أريده!
- بلى بلى. أحب أن تراه، يجب أن تراه. سوف يسليك. لقد جئت به خصيصاً... إن له شعراً طويلاً كالآخر... هل تأذنين لي يا سيدتي بإدخال كلبي؟
كذلك أضاف وهو يلتفت فجأة نحو السيدة سنيجيريفا، متكلماً بانفعال لا سبيل إلى فهمه.
فصاح إيليوشا يقول بصوت محطم من الألم:
- لا، لا أريد. وكانت عيناه الساطعتان تعبران عن عتب.
عندئذٍ وقف النقيب الذي كان يجلس على سحّارة قرب الجدار، وتدخل يقول:
- ربما كان الأفضل... ربما كان الأفضل أن نختار وقتاً آخر...
ولكن كوليا أصر بإلحاح، فالتفت إلى سموروف وصاح بأمره فجأة:
- افتح الباب!
فما إن نفذ سموروف الأمر حتى صفر كوليا، فإذا «برزفون» يهرع فيصير في الغرفة.
صرخ كوليا يقول وقد وثب عن مكانه:
- اقفز يا «برزفون»، هيا على قائمتين !...
فإذا الكلب ينتصب واقفاً على قائمتيه الخلفيتين، قرب سرير إيليوشا. فحدث عندئذٍ شيء لم يكن في الحسبان قط: ارتعش المريض الصغير، ونهض بكثير من الجهد والعناء، ومال على «برزفون» يتفحصه وكأنه لا يتنفس من شدة الانفعال، ثم هتف يقول بصوت مرتعش من الألم والفرح معاً
- ولكن هذا «جوتشكا»!
فصرخ كراسوتكين هو أيضا يقول بصوت مجلجل سعيد:
- فماذا كنت تظن إذن؟
وانحنى على الكلب، فأحاطه بذرعيه، وقربه من وجه ايليوشا، وهو يقول له:

- انظر يا أخي، انظر... ها أنت ذا ترى: إنه أعور ومصلوم الأذن. تلك هي بعينها العلامات التي ذكرتها حين وصفت لي جوتشكا. وبفضل هذه العلامات إنما استطعت أن أجده. ولم أحتج من أجل ذلك إلى زمن طويل. كان كلباً لا صاحب له، لا صاحب له!
(هكذا أضاف يقول شارحاً وهو ينقل بصره بسرعة من إيليوشا إلى النقيب فإلى زوجة النقيب، فإلى أليوشا، ثم يعود إلى إيليوشا). كان هذا الكلب يعيش في الحوش الخلفي من منزل آل فيدوتوف، ويظن أنه قد وجد لنفسه هنالك مأوى يأوي إليه، ولكنهم كانوا لا يطعمونه، فكان يضرب في البرية على غير هدى... ووجدته آخر الأمر... أرأيت يا صاحبي؟ إن هذا الكلب لم يبلع لقمتك وإلا لمات من ذلك حتماً.
حتماً. لقد لفظها من دون أن يبلعها، لذلك ما يزال حياً. أنت لم تلاحظ إنه لم يبلع الدبوس. لقد لفظه. ولكن الدبوس قد وخز له لسانه. ولهذا السبب أخذ يعوي، فتخيلت أنت أنه بلع اللقمة. ولا بد أنه لبث يعوي زمناً طويلاً، لأن للكلاب في فمها أغشية حساسة جداً... أشد حساسية من أغشية أفواه البشر... أشد كثيراً...
كذلك صاح يقول كوليا وقد احمر وجهه وأشرق حماسة.
أما إيليوشا فكان لا يستطيع أن يتكلم، وهو يكتفي بأن ينظر إلى كوليا محملق العينين فاغر الفم أصفر اللون. لو أن كراسوتكين الذي لم يدر في خلده شيء، قد استطاع أن يتصور مدى المشقة التي يمكن أن يعانيها ايليوشا في هذه الدقيقة، ومدى الضرر الذي يمكن أن تلحقه هذه المفاجأة بصحة المريض، إذاً لما قرر أن يدبر هذا الفصل المسرحي. ولعل أليوشا كان بين جميع الحضور الشخص الوحيد الذي ربما خطر بباله ما قد ينتج عن هذا من أثر.
أما النقيب فقد أصبح هو نفسه وكأنه طفل صغير. فهو يهتف بصوت فرح سعيد:
- هذا «جوتشكا!» هذا «جوتشكا» إذن! إيليوشا، عزيزي إيليوشا، إنه هنا، إليك هو، صاحبك «جوتشكا» ! بابا ! هذا «جوتشكا» !
وكان النقيب كمن يبكي. قال سموروف بمرارة:
- ما أغباني حين لم يخطر ببالي شيء! يا له من شاطر كراسوتكين هذا؟ ألم أقل لكم إنه سيجد «جوتشكا»؟ فها هو ذا قد وجده.
وقال صوت آخر فرح:
- وجده!
ودوى صوت طفل ثالث يقول:
- مرحى كراسوتكين!
وترجعت أصوات جميع الأطفال يهتفون وهم يصفقون بأيديهم:
- مرحى! مرحى!
قال كوليا محاولاً أن يسيطر على الجلبة:
- لحظة... اصغوا إليَّ.
سأروي لكم كيف تم ذلك. الأمر كله هنا. لقد عثرت عليه، فقُدْته إلى بيتي، وخبأته في غرفتي، دون أن أظهرعليه أحداً حتى هذا اليوم. سموروف وحده علم منذ أسبوعين أن عندي كلباً، ولكنني أوهمته أن الكلب هو «برزفون» فصدَّق ما قلته له.
وفي أثناء هذا الوقت علمت «جوتشكا» أنواعاً من الحِيَل. سوف ترون كيف أصبح «جوتشكا» عالماً. لقد روضته من أجل أن آتيك به مهذباً كل التهذيب وقد تمت تربيته يا أخي!
سوف ترى كيف أصبح صاحبك «جوتشكا» هل عندكم قطعة لحم؟ سوف يريكم شيئاً يميت من فرط الضحك. قليلاً من اللحم، أليس عندكم قليل من اللحم؟
أسرع النقيب إلى الدهليز، وذهب إلى شقة أصحاب المنزل حيث كان يهيأ للأسرة عشاؤها. ومن أجل أن لا يضيع وقت ثمين، أسرع كوليا يأمر «برزفون» قائلاً له: «مت». فإذا بالكلب يأخذ يدور، ثم يستلقي على ظهره، ويسكن سكوناً تاماً، رافعاً قوائمه الأربع في الهواء، طفق الأولاد يضحكون. واستمر إيليوشا ينظر إلى الكلب، بابتسامة أليمة. ولكن الأم خاصةً هي التي كان يبدو أنها أكثر الجميع فرحةً من رؤية «برزفون» متظاهراً بالموت، فهي تضحك ضحكاً صاخباً، وتنادي الكلب صافقةً بأصابعها: «برزفون»، «برزفون» !
قال كوليا باعتزاز مشروع:
- لن ينهضه شيء في الدنيا كلها! أبدا ! مهما نودي عليه، فلن يتحرك. ولكن يكفي أن آمره أنا حتى ينهض فوراً. تعال يا «برزفون»!
فما إن سمع الكلب نداء كوليا حتى وثب وأخذ ينط ويعوي فرحاً. وهرع النقيب في تلك اللحظة حاملاً قطعة لحم مسلوق.
أسرع كوليا يسأله بوقار:
- أليس اللحم ساخناً جداً؟ ثم تناول قطعة اللحم بأصابعه، وأضاف يقول:
- لا، ليس ساخناً جداً، وإلا أضرت السخونة بالكلب. انظروا الآن جميعا!
انظر يا إيليوشا. هلا نظرت! انظر، يا صاحبي! لماذا لا تنظر؟ أألجيئك به، ثم ترفض حتى أن تهتم؟
إن المشهد الجديد هو أن توضع قطعة اللحم في طرف بوزه الممدود، على أن يظل الكلب ساكناً لا يتحرك. إن على الحيوان المسكين أن يظل على هذا الوضع، واللحم في متناول فمه، ما ظل سيده يطلب منه ذلك، فليس يجوز له أن يقوم بأية حركة ولو خلال نصف ساعة. غير أن الكلب لم يحمل على الانتظار إلا دقيقة قصيرة. صاح كوليا يقول:
- هيَّا
فإذا بقطعة اللحم المسلوق تدخل فم «برزفون» بسرعة البرق. وأعرب الحضور عن دهشتهم وحماستهم طبعاً.
هتف أليوشا يقول بلهجة فيها عتب على غير إرادة منه:
- هل يعقل أن تكون قد تأخرت عن المجيء هذا التأخر كله لا لهدف غير ترويض الكلب؟
- طبعاً... هذا هو الهدف الوحيد. أردت أن أعرضه بكل روعته.
هكذا أجاب كوليا بسذاجة.
وقال ايليوشا ينادي الكلب وهو يصفق بأصابعه النحيلة ليلفت انتباهه إليه:
- «برزفون، برزفون»!
قال كوليا:
- لا حاجة بك إلى أن تناديه. سوف يقفز إلى سريرك من تلقاء نفسه.
ثم أمر الكلب قائلاً له، وهو يضرب السرير بيده:
- هنا يا «برزفون» ! فإذا بالكلب يثب إلى قرب أيليوشا.
أحاط إيليوشا رأس الحيوان بيديه، فلعق الحيوان وجه إيليوشا عرفاناً بالجميل.
وشد إيليوشا نفسه إلى الكلب، وتمدد على سريره، وأخفى وجهه في جزائر شعره الكثيفة.
- يا ربي! يا ربي!
- هتف النقيب. عاد كولا يجلس على سرير ايليوشا، وقال له:
- إيليوشا! أستطيع أن أريك شيئاً آخر أيضاً... لقد جئتك بمدفع صغير. سبق أن حدثتك عنه، هل تتذكر؟ لقد قلت لي عندئذٍ: لشد ما أحب أن أراه !». فها أنذا جئتك به اليوم.
قال كوليا ذلك، وسلَّ المدفع البرونزي الصغير من كيسه بسرعة. كان كوليا يسرع، لأنه كان يحس هو نفسه بالسعادة. ولولا ذلك لانتظر أن يزول أثر المفاجأة الأولى، الذي أحدثه ظهور «برزفون». ولكنه كان في هذه المرة يتعجل إظهارهم على اللعبة غير عابئ بأي رزانة، ويقول في سريرة نفسه: «ها أنتم أولاء سعداء، فلأهبن لكم مزيداً من السعادة !». كان كوليا يشعر بافتتان قوي.
- لقد لاحظت هذه اللعبة عند الموظف موروزوف منذ زمن طويل. فتمنيت الحصول عليها، ولكن من أجلك أنت يا أخي، من أجلك أنت. كان موروزوف قد أخذها من أخيه، وكان لا يستعملها. ولقد استطعت أن أحصل منه عليها مقابل كتاب من مكتبة بابا عنوانه «قريب محمد أو الجنون النافع»[206]. إنه كتاب فاسق ظهر في

موسكو منذ مائة عام، أيام لم تكن هنالك رقابة على المطبوعات بعد. وموروزوف من عشاق هذه الأمور، حتى لقد شكر لي هذه المقايضة...
كان كوليا يمسك المدفع الصغير بيده إمساكاً يتيح للجميع أن يروه وأن يعجبوا به. ونهض ايليوشا عن سريره، وأخذ يتأمل اللعبة منتشياً مع استمراره على معانقة «برزفون» بيده اليمنى. وبلغ التأثر ذروته حين أعلن كوليا أن معه كذلك باروداً، وأن في وسعهم أن يطلقوا النار من المدفع، هذا «إذا كانت السيدات لا ترى في ذلك بأساً».
فسارعت «ماما» تطلب أن تنعم النظر في اللعبة من قرب، فلُبّي طلبها فوراً. أعجبها المدفع البرونزي الصغير المركب على عجلات إعجاباً شديداً، وأخذت تدحرجه فوق ركبتيها، ولم تتردد في أن تأذن بإطلاق النار من المدفع، دون أن تفهم الموضوع جيداً في الواقع. وأخرج كوليا البارود والخردة فأظهر عليهما الحضور، وتولى النقيب، بصفته عسكرياً قديماً، حشو المدفع، فسكب بنفسه قليلاً من البارود على ضوء المصباح. أما الخردق فرجا أن لا يُستعمل هذه المرة. وضع المدفع على أرض الغرفة، ووجهت فوهته نحو فضاء خال، ووضعت ثلاث حبات من البارود وأُشعلت بعود ثقاب. فانطلقت النار كأحسن ما يكون الانطلاق. ارتعشت «ماما» في اللحظة الأولى، ثم أخذت تضحك مسرورة مبتهجة. وكان الصبيان ينظرون إلى اللعبة بإعجاب صامت. غير أن النقيب كان أسعدهم طراً. وكان لا يحول بصره عن أليوشا. وتناول كوليا المدفع، فأهداه فوراً إلى المريض الصغير، كما أهدى إليه البارود والخردق، قائلاً له من جديد وهو في قمة الغبطة والسعادة:
- هذا لك، هذا لك، أعددته منذ مدة طويلة لأهديه إليك. فانبرت البلهاء تقول ضارعة بصوت كصوت طفل:
- بل اعطنيه أنا.
كان وجهها يعبر عن المرارة، وعن الخوف من أن يرفض طلبها. فتحير كوليا؛ واضطرب النقيب، فصاح يقول لزوجته وهو يدنو منها:
- عزيزتي، عزيزتي، هذا المدفع لك، لك أنت. فليحتفظ به إيليوشا إلى حين، ما دام قد أُهدي إليه، ولكنه لك أنت طبعاً. سيسمح لك ايليوشا بأن تلعبي به كلما أردت ذلك. هو لكما كليكما. لكما كليكما...
فقالت الأم وهي توشك أن تبكي:
- لا، لا أريد أن يكون لنا كلينا. أريد أن يكون لي وحدي، ولا أريد أن يكون منه شيء لإيليوشا.
صاح إيليوشا يقول فجأة:
- ماما، خذيه، إنني أهديه إليك.
وكأنما خشي أن يسيء إلى كوليا إذا هو تنازل عن هديته لشخص آخر، فسأله ضارعاً:
- هل أستطيع أن أهديه إلى ماما يا كراسوتكين؟ فأسرع كوليا يقول موافقاً
- لم لا؟
وتناول المدفع من بين يدي ايليوشا، فمده بنفسه إلى الأم وهو يحييها أرق تحية. (لقد انفجرت الأم في البكاء من شدة التأثر).
صاحت الأم تقول بانفعال:
- إيليوشا، بني الصغير، أنت تحبني حقاً، أنت على الأقل. ثم عادت تدحرج المدفع الصغير على ركبتيها.
- عزيزتي، هلاّ أذنت لي أن أُقبل يدك؟ قال زوجها وحقق رغبته فوراً.
استأنفت الأم كلامها شاكرة وهي تومئ إلى كراسوتكين.
- هذا ألطف جميع هؤلاء الصبيان. وقال كوليا:
- أما البارود يا إيليوشا، فسأجيئك منه بقدر ما تشاء. إننا نصنعه بأنفسنا. لقد تعلم بوروفيكوف الطريقة: أربعة وعشرون جزءاً من النطرون، وعشرة أجزاء من الكبريت، وستة من فحم الحطب. يطحن هذا كله معاً، ثم يصب عليه ماء ليُجعل عجينة ثم بعد ذلك من خلال جلد. هكذا يتم الحصول على البارود.
قال إيليوشا:
- حدثني سموروف عن بارودك، ولكن بابا يقول إن هذا ليس هو البارود الحقيقي.
فقال كوليا محتجاً وقد احمرّ وجهه:
- ليس هو البارود الحقيقي؟ كيف ذلك؟ لكنه يحترق... على كل حال، لا أدري..
أسرع النقيب يصحح محرجاً:
- لا... أنا لم أقل شيئاً. ربما أكون قد ذكرت أن البارود الحقيقي يصنع بطريقة أخرى، لا بأس... إن من الممكن أن يحصل على البارود بهذه الطريقة أيضاً.
- أنت أعلم منا على كل حال. لقد أشعلنا بارودنا في وعاء مرهم، فاحترق احتراقا كاملاً ولم يخلف إلا قليلاً من السناج. وكان من جهة أخرى عجينة لا ينقصها إلا إمرارها من خلال جلد... ومهما يكن من أمر، فأنت أدرى بهذه الأمور مني... بالمناسبة: لقد جُلد بولكين بسبب بارودنا، جلده أبوه، هل بلغك هذا؟
هكذا سأل كوليا ملتفتاً نحو إيليوشا على حين فجأة. فأجابه إيليوشا:
- بلغني. وكان ايليوشا يصغي إلى كوليا باهتمام شديد ولذة قوية.
- كنا قد حضَّرنا زجاجة من بارود، فخبأها بولكين تحت سريره. واكتشفها أبوه فقال: «قد تحدث انفجاراً» وجلد ابنه على الفور. حتى لقد كان في نيته أن يشكوني إلى إدارة المدرسة، وحظر على ابنه منذ ذلك الحين أن يخالطني. أصبحوا لا يسمحون لأحد بمخالطتي. حتى سموروف مُنع من ذلك. لقد توسخت سمعتي، فهم يقولون إنني «متهور» (قال كوليا ذلك وهو يبتسم ابتسامة ازدراء). يرجع هذا إلى زمن قصة السكة الحديدية تلك...
صاح النقيب يقول:
- لقد سمعنا بمأثرة السكة الحديدية هذه. كيف استطعت أن تصمد هذا الصمود بين القضيبين؟ هل يمكن حقاً أن لا تكون قد خفت حين مر القطار من فوقك؟ لا شك أن ذلك كان رهيباً !
كان النقيب يتفنن في تملق كوليا. أجاب كوليا بلهجة استخفاف:
- خفت؟ لا... لم أخف كثيراً... لكن تلك الأوزة اللعينة هي التي جاءتني بسمعة التهور هذه.
أضاف كوليا ذلك وهو يلتفت نحو إيليوشا من جديد.
كان كوليا يحاول أن يصطنع في كلامه هيئة عدم المبالاة، ولكنه رغم ما كان يبذله من جهود في هذا السبيل، لم يتمكن من العودة إلى السيطرة على نفسه، وأصبح لا يجد اللهجة المناسبة.
قال ايليوشا مشرق الأسارير:
- سمعت أيضاً بقصة الأوزة هذه! حكوها لي. ولكن هناك نقطة لم أفهمها جيداً. هل صحيح أنهم قادوك إلى القاضي؟
قال كوليا يشرح منطلقاً:
- تلك مهزلة سخيفة تافهة أثيرت حولها ضجة كبيرة وجعلوا من الحبة قبة على عادة الناس هنا. كنت اجتاز ميدان السوق حين كان يؤتى إليه بأوزّ، فوقفت انظر إلى الأوزّ. فإذا بفتى من هنا، فتى اسمه فشنياكوف يعمل الآن أجيراً ساعياً في متجر آل بلوتنيكوف، إذا هو ياخذ يتفرسّ فيَّ ويسألني: «مالك تنظر إلى الأوزّ هكذا؟».
رفعت بصري نحوه. إنه شاب في نحو العشرين من عمره، له سحنة مدورة غبية. إنني لا أحتقر الشعب أبداً، اعلموا هذا. إنني أحب البسطاء من الناس... نحن مختلفون كثيراً عن الشعب، تلك بديهية أؤمن بها... يخيَّل إليَّ أنك تضحك يا كارامازوف، أليس كذلك؟
- بتاتاً ! بالعكس: أنا أصغي إليك بكثير من الانتباه.
هكذا أجابه أليوشا بلهجة طيبة ساذجة، فسرعان ما استرد كوليا شجاعته، وراح يكمل كلامه بفرح قائلاً:
- نظريتي الخاصة بسيطة واضحة يا كارامازوف. إنني أؤمن بالشعب، وإنني أشعر بسعادة كلما استطعت أن أنصفه، ولكن بدون أن أتملقه طبعاً، Sine qua. هذا شرط ضروري. ها... نعم... كنت أتكلم عن تلك الأوزة. التفت نحو ذلك الأبله فأجبته: «إنني أتساءل عما لعل الأوزة تفكر فيه الآن»، فحملق بغباء، ثم استأنف يسألني: وما الذي تفكر فيه هذه الأوزة، في رأيك؟» قلت: «هل ترى تلك العربة المحملة شوفاناً؟ إن الشوفان يتساقط من الكيس، وقد مدت الأوزة رقبتها لتنقر الشوفان، واقفة تحت العجلة تماماً، هل لاحظت ذلك ؟»، قال: «طبعاً لاحظته!» قلت: «فإذا دفعنا العربة الآن قليلاً، قطعت العجلة رقبة الأوزة، أصحيح أم

لا؟».
قال: طبعاً ستقطع العجلة رقبة الأوزة!» قال ذلك فاتحاً فاه من السرور، فإلى هذا الحد أفرحته تلك الفكرة. قلت: «فهيا بنا إذاً أيها الشجاع!» فرد يقول: «هيا بنا!».
ولم يطل الأمر. وقف هو قرب اللجام من دون أن يراه أحد، ورابطت أنا جانباً لأوجه الأوزة. أما صاحب العربة فلم ينتبه إلينا، لأنه كان يتحدث مع أحد الناس.
ولم أحتج إلى التدخل من أجل أن أوجه الأوزة، فقد مدت عنقها تحت العجلة من تلقاء نفسها لتبلغ حبات الشوفان، وأومأتُ إلى الفتى، فشد اللجام، فما هي إلا لحظة حتى كانت رقبة الأوزة قد قُطعت. وشاءت المصادفة أن يرانا في تلك اللحظة جميع الفلاحين المتجمعين في الميدان، فأخذوا يعولون بصوت واحد قائلين له:
«فعلت هذا عمداً». فقال لهم: «لا، لم أفعله عمداً» فقالوا: «بل فعلته عمداً »؛ وازداد صراخهم، وقالوا: «خذوه إلى قاضي الصلح !». واقتادوني أنا أيضاً قائلين:
«كنت أنت حاضراً، فأنت الذي حرّضته، إن جميع الناس يعرفونك في السوق». والواقع أنني معروف جداً في السوق، لا أدري لماذا (كذلك أضاف كوليا قائلاً باعتزاز). وذهبنا إلى قاضي الصلح. وجيء بالأوزة أيضاً. خاف صاحبي الفتى وأخذ ينتحب. حقاً، كان يبكي كامرأة. أما صاحب العربة فكان يصرخ قائلاً: «على هذا يمكنكم أن تقتلوا ما شئتم من أوزّ». وكان ثمة شهود كثيرون. وفصل قاضي الصلح في القضية بسرعة: حكم بتعويض قدره روبل لصاحب الأوزة، وقضى بأن يحتفظ الشاب بالأوزة، وختم قاضي الصلح كلامه قائلاً:
«فلا مزاح من هذا النوع في المستقبل!، ولكن الشاب كان لا يزيد على أن يبكي ويتشكى قائلاً وهو يشير إلي: «لست أنا... هو الذي حرّضني»، فأجبت، دون أن أفقد هدوء أعصابي، بأنني لم أعلمه شيئاً البتة، وإنما عبَّرت عن فكرة هذه المزحة في صورة عامة، كمشروع لا أكثر. فابتسم قاضي الصلح نيفيدوف، ثم أسرع يندم على أنه تبسّم، وقال لي: «سأرسل تقريراً عنك إلى إدارة المدرسة في الحال، حتى لا تندفع بعد الآن في مشاريع من هذا النوع بدلاً من الانكباب على التحصيل وإعداد دروسك». والواقع أنه لم يش بي إلى إدارة المدرسة، وإنما كان ذلك منه تهديداً. غير أن القضية ذاعت في المدينة حتى وصلت إلى آذان المسؤولين في المدرسة.
إنكم تعلمون أن للمسؤولين في المدرسة آذاناً طويلة! استاء الأستاذ كولباسنيكوف الذي يعلم الآداب الكلاسيكية استياءً شديداً، ولكن داردانيلوف دافع عني من جديد. وما يزال كولباسنيكوف غاضباً أشد الغضب حانقاً علينا جميعاً حنق كلب مسعور. ولا شك أنك تعلم يا أليوشا أنه قد تزوج منذ مدة قصيرة. أخذ من آل ميخائيلوف ألف روبل مهراً، عدا خطيبته التي هي آية من آيات الدمامة. وقد نظم تلاميذ الصف الثالث قصيدة في هذه المناسبة، قالوا:
بلوعةٍ وأسف
علم تلاميذ الصف الثالث
أن الأستاذ كولباسنيكوف
أخطأه التوفيق فتزوج
وهلم جرا... هي قصيدة فكهة، سآتيك بها في مرة أخرى. أما داردانيلوف فلن أقول فيه سوءاً: إنه رجل واسع المعرفة، واسع المعرفة حقاً. إنني أحترم أمثاله من الناس، ولكن ليس لأنه دافع عني.
- ومع ذلك غلبته أنت في السؤال عن إنشاء مدينة طروادة.
انبرى يقول سموروف الذي كان يشعر عندئذٍ باعتزاز بكراسوتكين، لأن حكاية الأوزة قد فتنته.
وعاد النقيب يقول بلهجة المديح والتملق:
- غلبته حقاً؟ كان ذلك في موضوع إنشاء مدينة طروادة، أليس كذلك؟ لقد قيل لنا فعلاً إنك كنت أقوى منه في هذه النقطة. حدثني أليوشا عن هذا في ذلك اليوم نفسه..
قال إيليوشا:
- إنه يعرف كل شيء يا بابا، إنه أعلم منا جميعاً! هو يتواضع، ولكنه أول التلاميذ في جميع العلوم...
كان أليوشا ينظر إلى كوليا بسعادة لا نهاية لها. أجاب كوليا باعتزاز متواضع:
- أما حكاية طروادة هذه فهي في الواقع مسألة تافهة لا قيمة لها.
لقد توصل كوليا أخيراً إلى إيجاد اللهجة المناسبة، ومع ذلك كان ما يزال قلقاً جداً: كان يحس أنه مهتاج قليلاً، وأنه قد روى حادث الأوزة بحرارة مفرطة. بينما كان أليوشا صامتاً أثناء رواية هذه القصة، لم يخرج عن رزانته لحظة واحدة فها هو ذا كوليا الحساس يتعذب الآن إذ يتساءل: «أتراه قد صمت احتقاراً لي»، لاعتقاده بأنني استجدي المديح والثناء؟ إن كان قد سمح لنفسه بأن يظن ذلك، فسوف أعرف كيف... وها هو ذا يقول جازماً بمزيد من الاعتزاز أيضاً:
- في رأيي إن ذلك السؤال ليس له قيمة حقيقية.
- أنا أعرف من أنشا طروادة! أعرف من بناها.
كذلك قال فجأة، على غير توقع، فتى لم يكن قد فتح فاه بكلمة حتى ذلك الحين. إنه تلميذ صموت خجول، جميل الوجه جداً، في نحو الحادية عشرة من عمره. إن اسمه كارتاشوف، وكان جالساً قرب الباب. دهش كوليا دهشة شديدة، وتفرس في الطفل بوقار. الواقع أن ذلك السؤال، وهو: «من أنشأ مدينة طروادة؟»، كان قد أصبح سراً يناقش في جميع صفوف المدرسة، وكان لا بد لمعرفة ذلك السر من الرجوع إلى كتاب سماراجدوف. وكان كوليا هو التلميذ الوحيد الذي يملك ذلك الكتاب. ولكن الفتى كارتاشوف قد انتهز في ذات يوم لحظة غفلة من كوليا، فأسرع يفتح كتاب سماراجدوف الذي كان ملقى بين كتب كوليا المدرسية، فوقع عرضاً على الصفحة التي يتكلم فيها الكتاب عن إنشاء مدينة طروادة. وحدث ذلك منذ مدة طويلة، ولكن الفتى كان شديد الخجل، فلم يجرؤ حتى الآن أن يؤكد على مسمع من الناس أنه يعرف هو أيضاً أسماء بناة طروادة. كان يخشى أن يترتب على ذلك وقوع حادث مزعج، وأن يربكه كوليا بتفوقه عليه في العلم. غير أنه لم يستطع في هذه المرة أن يكبح جماح نفسه، فانطلق يتكلم، مرضياً بذلك حاجة في نفسه ما فتئت تعذبه منذ أسابيع.
- قل لنا إذاً من أنشأ «مدينة طروادة !». قال كوليا متعالياً وهو يلتفت نحو الفتى الوقح. لقد أدرك من تعبير وجه الفتى، أن الفتى يعرف السر، فسرعان ما تهيأ لمواجهة جميع النتائج. وحدث شيء من الكدر في مزاج الحضور.
قال الفتى بسرعة:
- بنى مدينة طروادة: توسر، ودردانوس، وايليوس، وتروس.
واحمر وجهه فوراً وبلغ من الاحمرار أن منظره أصبح يثير الألم في النفس، حدَّق إليه الفتيان الآخرون، وتفرسوا فيه دقيقة طويلة، ثم التفتوا بأبصارهم نحو كوليا بحركة واحدة. ظل كوليا يرمق المنافس الجريء باحتقار دون أن يفقد هدوءه، ثم تنازل فقال له:
- قل لنا إذاً كيف بنوها؟ قل لنا ماذا يعني على وجه العموم بناء مدينة أو دولة؟ هل جاء ووضع كل منهم آجرةً مثلاً؟
ضج الجميع يضحكون. واصطبغ لون الصبي المذنب بلون كلون القرمز في هذه المرة. وصمت، وأوشك أن يبكي. وتركه كوليا جالساً على كرسي الاتهام دقيقة أخرى. ثم راح يقول له بقسوة، كأنما هو يريد أن يلقن الفتى المتهور درس:
- ما ينبغي للمرء أن يسمح لنفسه بمناقشة أحداث تاريخية مثل نشوء القومية إلا إذا كان يفهم أولاً معنى ما يقال. على أنني من جهتي لا أقيم وزناً كبيراً لأساطير العجائز هذه.
وأضاف يقول بإهمال، مخاطباً جميع الحضور:
- ثم إنني لا أقدر تاريخ العالم كثيراً.
سأله النقيب بنوع من الذعر:
- لا تقدر تاريخ العالم؟
- نعم، لا أقدر تاريخ العالم. إنه دراسة الحماقات البشرية، لا أكثر.
وأضاف يشرح بلهجة رصينة وهو ينظر خلسة إلى أليوشا، لأن أليوشا هو بين سائر الحضور الشخص الوحيد الذي يتهيب كوليا رأيه:
- أنا لا أحترم إلا الرياضيات والعلوم الطبيعية.
ولكن أليوشا ظل صامتاً محافظاً على جده ورزانته. فلو أبدى رأياً في تلك اللحظة إذاً لاختتمت المناقشة. غير أنه لم يفتح فمه، ومن الجائز «أن يكون صمته احتقاراً، لذلك اغتاظ كوليا اغتياظاً شديداً، وأردف يقول:

- وكذلك أرى أن تعليم اللغات المندثرة [207] جنون محض...
ألاحظ يا كارامازوف أنك تخالفني في الرأي من جديد، أليس كذلك؟
قال أليوشا بهدوء وهو يبتسم ابتسامة متحفظة:
- حقاً، لست أوافقك على رأيك. قال كوليا وقد عاد يلهث شيئاً فشيئاً:
- إذا شئت أن تعرف رأيي، فاعلم أن تعليم اللغات القديمة هو في نظري إجراء بوليسي للقمع والاضطهاد. تلك هي الغاية الوحيدة التي تستهدف من تعليم اللغات القديمة. إنهم يعلمون هذه اللغات لأنها مملة مضجرة تخبّل العقل. كانت الحياة حزينة غبية، فأرادوا لها مزيداً من الجهامة والبلادة والغباء. كان السخف يحكم العالم، فرأوا أن يفاقموا ذلك إذا أمكن. هذا هو السبب في أنهم فرضوا تعليم اللغات المندثرة على المناهج المدرسية. ذلك رأيي بهذا الصدد، وإني لآمل أن لا أغيره وأن لا أحيد عنه في يوم من الأيام.
بهذا ختم كوليا كلامه جازماً قاطعاً. وظهرت على خديه بقعتان حمراوان.
قال الفتى سموروف بصوت مجلجل مؤيد، وكان قد أصغي إلى كلام رفيقه بانتباه:
- هذه هي الحقيقة.
فصاح أحد الصبيان يقول على حين فجأة:
- هو مع ذلك أول التلاميذ في اللغة اللاتينية !
فقال إيليوشا مؤيداً:
- نعم يا بابا، إنه يقول هذا الكلام مع أنه أحسن تلاميذ الصف في اللغة اللاتينية.
اعتقد كوليا أن عليه أن يسوّغ ذلك، رغم أنه سُرَّ كثيراً بهذا المدح، فقال:
- لا يبرهن هذا على شيء! إنني أبلع اللاتينية لأنه لا بد من ذلك، ولأنني وعدت أمي بأن أتم دراستي. وأنا أرى أن على المرء أن يتقن كل ما يشرع فيه. ولكن ذلك لا يمنعني من أن أحتقر، في قرارة نفسي، كل الكلاسيكيين، وكل هذه الدناءة... أأنت غير موافق أيضا يا كارامازوف؟
قال إيليوشا وهو يبتسم من جديد:
- ولكن أين الدناءة التي تتحدث عنها؟
- أين؟ ألا تفهم؟ لقد ترجمت مؤلفات الكلاسيكيين إلى جميع اللغات. فليس الغرض من تعليمنا اللغة اللاتينية إذاً هو أن نستطيع قراءة تلك المؤلفات، وإنما هنالك أسباب بوليسية، والهدف هو تخبيل عقولنا. أفليس في هذا دناءة؟
فصاح أليوشا يسأله مدهوشاً:
- ولكن من ذا الذي دسَّ هذه الأفكار في رأسك؟
- أولا، أنا أستطيع أن أفهم هذه الأشياء بنفسي من دون أن يدسها أحد في رأسي؛ ثانياً، أعلم أن الأستاذ كولباسنيكوف هو الذي شرح بصوت عال أمام جميع تلاميذ الصف الثالث ما قلته الآن.
- وصل الطبيب!
كذلك صاحت تقول نينا على حين فجأة، ولم تكن قد نطقت قبل ذلك بكلمة.
إن مركبةً خاصة تملكها السيدة خوخلاكوفا، قد وقفت فعلاً أمام المنزل. هبَّ النقيب إلى لقاء الطبيب طائش اللب بعد أن انتظر وصوله طوال فترة الصباح. أما الأم فاصطنعت وضع الوقار. واقترب أليوشا من سرير إيليوشا وأخذ يرتب وسادة المريض، فكانت نينا تنظر إليه من قرارة مقعدها قلقة. أما الفتيان فقد أسرعوا يودّعون، ووعد بعضهم بأن يرجع في المساء. ونادى كوليا «برزفون»، فسرعان ما وثب الكلب فصار في أسفل السرير. وقال كوليا لإيليوشا مسرعاً:
- أنا لن أنصرف. سأنتظر في الدهليز ثم أعود متى ذهب الطبيب. سأعود مع «برزفون»..
وكان الدكتور قد دخل الغرفة. إنه شخص مهيب المظهر، يرتدي معطفا من فراء دب، وله سالفان قاتمان طويلان، وذقنه محلوقة بكثير من العناية. فبعد أن اجتاز عتبة الغرفة توقف على حين فجأة متردداً: لقد أحس أنه أخطأ المنزل.
- ما هذا؟ أين أنا؟
كذلك دمدم يقول دون أن يخلع معطفه، محتفظاً على رأسه بقبعته المصنوعة من فراء ثعلب الماء، والمزودة بحافة ذات فراء أيضاً. إن الازدحام، وهذا المسكن الفقير، وهذا الغسيل المنشور على حبل في ركن الغرفة، إن ذلك كله قد حيَّره.
انحنى النقيب أمامه انحناءة كبيرة، وتمتم يقول مفرطاً في التملق: - أنت هنا يا سيدي، هنا، عندي، أنت آتي إلي... قال الطبيب بصوت عالٍ أجش:
- هل أنت سنير.... جير.... يف؟ إذاً أنت السيد سنيجيريف؟
- نعم، أنا....
... آ !
- ألقى الطبيب على الغرفة نظرة ازدراء أخرى، وخلع معطفه. فظهر في عنقه وسام عظيم ساطع سرعان ما خطف جميع الأبصار. تناول النقيب المعطف طيراناً، وتنازل الطبيب فخلع قبعته، وقال يسأل بصوت مجلجل فيه شيء من تذمر.
- أين هو المريض؟

-6-نضج مبكر

سأل كوليا متعجلاً:
- ما الذي سيقوله الطبيب في رأيك؟ يا لها من سحنة كريهة! ألا ترى ذلك؟ إنني أكره الطب.
فأجابه أليوشا بحزن:
- إيليوشا هالك. أظن أن لا شك في هذا، وأن نهايته قريبة.
- يا للسفلة! الطب سفالة! على أنني سعيد بأن قد أتيحت لي فرصة معرفتك يا كارامازوف. لقد تمنيت هذا منذ زمن طويل. ولكن يؤسفني أن لقاءنا قد تم في ظروف أليمة كهذه.
ودَّ كوليا لو يقول شيئاً فيه مزيد من الحرارة والعاطفة والانفعال، ولكنه شعر بشيء من الحرج. وقد لاحظ أليوشا ذلك فشد على يده مبتسماً.
تمتم كوليا من جديد يقول مضطرباً مرتبكاً:
- لقد تعلمت منذ مدة طويلة أن أحترم فيك إنساناً ذا مزايا أخلاقية نادرة. قيل لي إنك صوفي وإنك عشت في الدير. وإنني لأسلم بأن تكون صوفياً، ولكن... هذا لم يصدني عنك... إن الاتصال بوقائع الحياة سوف يشفيك... ذلك ما يحدث دائماً في الطبائع التي تشبه طبيعتك.
سأله أليوشا بشيء من الدهشة:
- ماذا تعني بقولك «صوفي»؟ ومن أي شيء تريد لي أن أشفى؟
- من أفكارك عن الله، وهلم جرا...
- كيف؟ أأنت لا تؤمن بالله؟
- الحق أنني لا اعتراض لي على الله. صحيح أن فكرة الله ليست إلا افتراضاً... ولكنني أعترف بأن الله ضروري، بل ولا غنى عنه للمحافظة على النظام...، وهلم جرا... - ثم أضاف كوليا يقول وقد احمر وجهه فجأة:
- إذا كان الله غير موجود، فيجب أن نخترعه[208]...
ذلك أن كوليا قد خطر بباله أن أليوشا ربما ظن أنه يحب أن يُظهره على معلوماته، وأن يبرهن له على أنه يستطيع أن يناقش «كشخص كبير». فقال كوليا لنفسه متضايقاً: «غير إنني لا أحب أبداً أن أعرض معلوماتي أمامه». وشعر فجأة بحسرة شديدة. وقال يحسم الأمر:
- أعترف لك بأنني أكره المناقشات في هذا الموضوع. ألا يمكن أن يحب المرء الإنسانية دون أن يؤمن بالله؟ ما رأيك؟ لقد كان فولتير مثلاً، لا يؤمن بالله، ومع ذلك كان يحب الإنسانية[209].
(وقال لنفسه باستياء: «أيضاً، أيضاً!»).
قال أليوشا في رفق، بصوت هادئ طبيعي، كما لو كان يحادث واحداً من أترابه أو حتى شخصاً أكبر منه سناً:
- لقد كان فولتير يؤمن بالله، ولكن يبدو أن إيمانه كان ضعيفاً،
وكان كذلك لا يحب الإنسانية كثيراً.
دُهش كوليا كثيراً من تردد أليوشا هذا النوع من التردد في الإفصاح عن رأيه في فولتير، ومن هذه الطريقة في مخاطبته وكأنما يترك له، هو الصغير كوليا، حلّ هذه المشكلة.
سأله أليوشا:
- بالمناسبة، هل قرأت فولتير؟
- لا، لم أقرأه بالذات... يعني... لكني... قرأت «كانديد»[210] في ترجمة روسية، ترجمة قديمة، كريهة، فظيعة («أيضاً! أيضاً!»).
- وهل فهمته؟
- طبعاً... فهمت كل شيء... أقصد... لماذا تقدر أنني قد لا أكون فهمته؟ هناك فقرات كثيرة فاحشة طبعاً... أنا قادر أن أفهم أن هذه رواية فلسفية ترمي إلى البرهان على فكرة.
كذلك أسرع يضيف كوليا مرتبكاً ارتباكاً تاماً. ثم قال فجأة، لا يدري المرء لماذا:
- أنا اشتراكي يا كارامازوف، أنا اشتراكي عنيد. ضحك أليوشا وسأله مدهوشاً:
- اشتراكي؟ متى اتسع وقتك لأن تصبح اشتراكياً؟ أظن أنك لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرك، أليس كذلك؟
شعر كوليا بامتعاض شديد، وقال يحتج بقوة:
- أولاً: ليس عمري ثلاث عشرة سنة بل أربع عشرة، وثانياً: لست أفهم ما شأن عمري هنا. الأمر الآن أمر آرائي لا عمري، أليس كذلك؟
- حين تتقدم في السن قليلاً ستدرك بنفسك أثر العمر في آراء الإنسان. ثم إني أحس أنك تردد آراء سمعتها...
هكذا قال أليوشا بلهجة معتدلة متواضعة، ولكن كوليا لم يدع له أن يتم كلامه، لأنه صاح يقول متحمساً:
- مهلاً! إنك من أنصار الخضوع والصوفية! ألا فاعترف أن الديانة المسيحية لم تنفع إلا الأغنياء والأقوياء، إذ سمحت لهم بإبقاء الفقراء على حالة العبودية. هل تستطيع أن تنكر هذا؟
هتفت أليوشا يقول:
- لحظة! أنا أعرف أين قرأت هذه الجملة. لا شك أن أحداً قد علمك ذلك.
- مهلاً! لماذا تتصور أن أكون قد قرأت هذا الكلام حتماً؟ ثم إن أحداً لم يدخلني في عقيدة من العقائد. أنا قادر على أن أفكر بنفسي... واعلم، بالمناسبة أنني لا آخذ على المسيح شيئاً[211]. إن المسيح إنسان له آراء واسعة ومحترمة، ولو عاش في عصرنا لانضم إلى الحركة الثورية، ولربما قام فيها بدور مرموق... بل هذا مؤكد.
صاح أليوشا يسأله:
- من أين جئت بهذه الفكرة ناشدتك الله؟ من هو ذلك الغبي الذي ارتبطت به؟
- مهلاً إن الحقيقة لا تخفى. أعترف لك بأنني كثيراً ما أتحدث مع السيد راكيتين في قضية من القضايا، ولكن... يقال إن بيلنسكي العجوز كان يقول هذه الأشياء نفسها.
- بيلنسكي؟ لا أتذكر ذلك. وهو على كل حال لم ينشرها.
- إذا لم يكن قد نشرها، فقد عبر عنها في أحاديثه، على ما يقال. سمعت ذلك من... ولكن ما قيمة أن أذكر اسم الشخص الذي سمعت منه هذا الكلام...
- هل قرأت بيلنسكي؟
- الحق... لا... لم أقرأه كله... ولكني قرأت كلامه عن تاتيانا[212]. وكيف رفضت أن تذهب مع أونيجن.
- لماذا رفضت أن تذهب؟ أأنت تفهم منذ الآن هذه الأشياء؟
قال كوليا محتجاً وهو يبتسم ابتسامة غاضبة:
- أرجوك... إنك تظنني، كما يبدو، صبياً صغيراً من نوع سموروف. لا يذهب بك الظن، على كل حال، إلى أنني ثوري متطرف. إنني كثيراً ما أختلف في الرأي مع راكيتين. وإذا ذكرت تاتيانا، فلا تحسب أنني من أنصار تحرر المرأة. إنني أعترف بأن المرأة مرؤوسة وأن وظيفتها الخضوع.
وأضاف كوليا يقول مبتسماً بلا سبب ظاهر. Les femmes tricottent[213]، كما قال نابوليون. ففي هذه النقطة على الأقل، أشاطر ذلك الرجل الزائف

العظمة رأيه كاملاً. وإنني لأرى كذلك، من جهتي، أن الهجرة إلى أمريكا هروباً من الوطن خسة ودناءة وصغار، بل هي أكثر من ذلك أيضاً: هي حماقة وغباوة! علام تسافر إلى أمريكا في حين أن هناك أشياء كثيرة يجب أن نفهمها في بلادنا لنخدم الإنسانية في عصرنا هذا خاصة؟ ليس يعوزنا العمل. هنالك عمل كثير يجب القيام به. ذلك ما أجبت به.

- ذلك ما أجبت به؟ أجبت به من؟ هل عرض عليك أحد أن تسافر إلى أمريكا؟

- أعترف بأنهم حاولوا جري إلى ذلك، ولكنني رفضت. يجب أن يبقى هذا سراً بيننا بطبيعة الحال. لا تقل عن ذلك كلمة لأحد. مفهوم يا كارامازوف؟ إني لا أفضي بهذا السر إلى أحد غيرك. لست أريد أن أقع بين أقدام أفراد «الشعبة الثالثة»[214]، وأن أتلقى دروسا في«جسر الجنازير».

ستذكر المبنى الكبير

بقرب جسر الجنازير

«هل تتذكر هذا البيت من الشعر؟ إنه رائع. لماذا تضحك؟ أتراك تظن أنني كذبت عليك تباهياً وافتخاراً؟» قال كوليا ذلك، وهو يسائل نفسه بسرعة ولكن بقلق: «ماذا لو علم أنني لم أقرأ إلا هذا العدد من مجلة «الناقوس»[215]، الذي وجدته في مكتبة أبي، وأنني لا أعرف شيئاً آخر غيره في ميدان الأدب الثوري؟».

قال أليوشا:

- لا، لا، لست أضحك، ولم يخطر ببالي قط أنك كذبت علي المصيبة هي أنك لا تكذب وأن هذه هي الحقيقة للأسف. قل لي الآن: هل قرأت بوشكين؟ هل قرأت رواية «يفجيني أونيجين»، أنت الذي تحدثت عن تاتيانا منذ لحظة؟

- لا، لم أقرأه بعد، ولكنني أنوي أن أفعل. واعلم يا كارامازوف أنني لا أحمل أفكاراً مسبقة وأنني أريد أن أسمع الطرف الآخر أيضاً. لماذا ذلك السؤال؟

- لا لشيء! هتف كوليا يقول فجأة بصوت قاطع:

- قل لي يا كارامازوف: لا بد أنك تحتقرني احتقاراً رهيباً ! وانتصب واقفاً أمام أليوشا مشدوداً متوتر الأعصاب، وتابع كلامه يقول:

- هيا اعترف بذلك دون لف ولا دوران؟ سأل أليوشا وهو ينظر إليه بدهشة:

- أحتقرك؟ لماذا عساي احتقرك؟ كل ما هنالك أنه يحزنني أن تُفسَد بمثل هذه السخافات طبيعةٌ جميلة كطبيعتك في فجر حياتها.

قاطعه كوليا يقول وهو يشعر مع ذلك بشيء من الارتياح لهذا الثناء على طبيعته:

- دعك من طبيعتي الآن. الواقع أنني موسوس، أنا أعرف هذا.

إنني موسوس بغباوة، ببلاهة. لقد ابتسمت أنت منذ لحظة، فتخيلت أنا أن...

- ابتسمت لأسباب أخرى. سأشرح لك الأمر. لقد قرأت في الأونة الأخيرة انطباعات رجل أجنبي، ألماني، عاش في روسيا وعبر عن رأيه في شبيبة مدارسنا على النحو التالي: «لو أطلعت تلميذاً روسياً على خريطة للسماء ذات النجوم، خريطة لم يسبق له أن رآها من قبل، لأعادها إليك في اليوم التالي مصححة»: نقص كبير في المعرفة وغرور شديد لا حدَّ له، هؤلاء هم تلاميذ مدارسنا في رأي هذا الألماني.

هتف كوليا يقول وهو يضحك مقهقهاً:

- ولكن هذا صحيح كل الصحة! هأهأها! هذه هي الحقيقة صافية لقد أدرك عين الصواب. مرحى للألماني! ولكن هذا الرأس المربع لم يستطع مع ذلك أن يرى مزايانا. إنني أسلم بان فينا غروراً؛ ولكن هذه آفة من آفات سن الشباب يصلحها الزمن بمقدار ما يجب أن يصلحها. ونحن نملك في مقابل ذلك ميزة تتأكد فينا منذ الطفولة تقريباً، هي ميزة استقلال الفكر والاعتقاد. نحن نملك جرأة التفكير والامتناع، على حين أنهم، هم، لا يعرفون تجاه أي سلطة إلا عبودية كعبودية البقالين... ورغم كل شيء فإن ذلك الألماني قد رأى صواباً. مرحى للألماني! على أنني أظن أن من الواجب أن تَرُدّ الألمان إلى الرشد إنهم في حاجة إلى أن يلقنوا درساً، مهما يكونوا أقوياء في العلوم.

سأل أليوشا مبتسماً:

- لماذا تريد لهم أن يُردوا إلى الرشد؟

- لعلني قلت هراء، أعترف لك بذلك. إنه ليتفق لي في بعض الأحيان أن أكون طفلاً على نحو فظيع، وحين ابتهج أفقد سيطرتي على نفسي، فأقول أنواع من السخافات. ولكنني ألاحظ أننا نثرثر هنا في سفاسف بينما يبدو أن الطبيب تأخر هناك. على أنه ربما انتهز الفرصة ليفحص الأم في الوقت نفسه، وكذلك نينا الكسيحة. لقد أعجبتني نينا هذه كثيرة، هل تعلم؟ حين خرجت دمدمت تقول لي بصوت خافت جداً: «لماذا لم تجئ قبل الآن؟». قالت ذلك بلهجة تزخرعتاباً. يخيل إلي أنها طيبة جداً، وأنها كذلك شقية جداً جداً.

قال أليوشا بكثير من الحرارة:

- نعم نعم، سوف ترى حين تعود إليهم أنها إنسانة رائعة. إنه ليفيدك كثيراً أن تتردد إلى أناس مثلهم، لكي تستطيع أن تقدر تقديراً صحيحاً أشياء كثيرة أخرى، أشياء ستظهر لك وتنجلي لبصيرتك من صحبة هؤلاء الناس. تلك أحسن وسيلة من أجل أن تتبدل.

هتف كوليا يقول بحرارة:

- لشد ما يؤسفني أنني لم أجئ قبل هذا الوقت! إنني ألوم نفسي على ذلك.

- شيء مؤسف حقاً. لا بد أنك لاحظت كم هي سعادة هذا الصغير المسكين بزيارتك. لشدة ما عذبه انتظارك سُدى!

- لا تذكرني بهذا. ذلك يعذب نفسي تعذيباً شديداً. هذه خطيئتي على كل حال. لقد تأخرت عن المجيء بدافع حب الذات، بدافع الأنانية، وكذلك بدافع روح الاستبداد هذه التي لا أفلح في التخلص منها، رغم الجهود التي بذلتها طوال حياتي. إنني أدرك الآن يا كارامازوف أنني وغد تافه في أمور كثيرة.

قال أليوشا بصوت يفيض عاطفة وحباً:

- بالعكس: إنك شخصية رائعة، رغم ما بها من فساد. إنني أفهم الآن جيدا كيف استطعت أن تؤثر هذا التأثير الكبير في ذلك الصغير المسكين الذي يملك روحاً نبيلة وحساسية مرضية.

هتف كوليا يقول:

- أنت تقول هذا الكلام لي؟ تصور أنني ظننت غير مرة، منذ جئت إلى هنا، إنك تحتقرني ! آه... ليتك تعلم مدى اهتمامي برأيك وحرصي عليه!

- أيمكن حقاً أن تكون مفرط الحساسية سريع التأذيّ إلى هذه الدرجة؟ أفي مثل سنك ؟ آ... لقد تصورت فيك هذا. منذ قليل، في الغرفة، حين كنت أصغي إلى الحكايات التي قصصتها، قلت لنفسي: لا بد أن يكون هذا الفتى مفرط الحساسية سريع التأذيّ.

- أحزرت إذن؟ يا لنفاذ بصيرتك! يا لقوة حدسك. أعتقد أنك حزرت ذلك حين قصصت أنا حكاية الأوزة. لقد أحسست في تلك اللحظة أنك احتقرتني لتفاخري بالمكر. وقد أخذت أكرهك عندئذٍ، وأخذت أطنب في الحديث عامداً. وبعد ذلك - ونحن في هذا المكان - أحسستُ بعد أن قلت عبارتي: «إذا لم يكن الله موجوداً فيجب أن نخترعه»، أحسست أنني تسرعت كثيراً في عرض معرفتي وإظهار علمي، لا سيما وأنني كنت قد قرأت هذه العبارة في كتاب.. ولكنني أحلف لك على أنني إن سارعت إلى إظهار معرفتي فما كان ذلك مني حباً بالظهور، وإنما صدر هكذا عفو الخاطر لا أدري لماذا، ولعله صدر عن فرح، بل إنه قد صدر عن فرح... على أنني أعلم حق العلم أن من العار جداً أن يرتمي المرء على عنق الآخرين هكذا عن فرح. ولكنني مقتنع الآن بأنك لا تحتقرني، وأن الأمر كله كان من تصور خيالي وحده. آه... لو علمت مدى شقائي يا كارامازوف! إنني أتخيل أحياناً، لا يدري إلا الله لماذا، أن جميع الناس يسخرون مني، وإني لأشعر في مثل تلك اللحظات بأنني مستعد لتحطيم كل شيء.

قال أليوشا مبتسماً:

- وأنت تعذب أهلك طبعاً.

- نعم، ولا سيما أمي. قل يا كارمازوف: هل تجدني مضحكاً جداً؟

هتف أليوشا يقول:

- دعك من هذه التصورات، دعك منها تماماً ! وما هو المضحك على كل حال؟ جميع الناس يكونون أو يبدون مضحكين في بعض المناسبات. الحقيقة أن الأفراد الذين يملكون مواهب عالية، في هذا العصر، يخشون أكثر ما يخشون أن يعدهم الناس مضحكين، وهم أشقياء لهذا السبب. ولكن الشيء الذي يدهشني هو أنك عانيت هذا الشعور في هذه السن المبكرة، وإن كنت قد أتيح لي أن ألاحظ هذه الأشياء نفسها لدى أشخاص آخرين. فالأطفال أنفسهم قد أخذوا في أيامنا هذه يقاسون

من هذا الخوف الغبي. يوشك ذلك أن يكون جنوناً. إنه إفراط في حب الذات لقد تجسد الشيطان وتسلل إلى الجيل كله. نعم.. الشيطان..
- كذلك ردد أليوشا غير مازح البتة كما توهم كوليا الذي كان ينظر إليه محدقاً.
وتابع يقول: أنت تشبه الآخرين في هذه النقطة. أريد أن أقول إنك تشبه عدداً كبيراً من الأشخاص الآخرين الذين أصابهم هذا التشوه نفسه. صدقني مع ذلك: ما ينبغي أن يشبه الإنسان جمهرة الناس.
- هل ينبغي للإنسان إذا أن يختلف عن جمهرة الناس؟
- نعم. حتى لو كان جميع الناس على هذه الشاكلة. كن مختلفاً ولو صرت وحيداً. الواقع أنك لا تشبه الآخرين: فإنك لم تخجل منذ قليل أن تعترف بجوانبك السيئة وحتى بعيونك المضحكة. فأي الناس يملك هذه الجرأة اليوم؟ لا أحد يملكها ولا أحد يشعر بالحاجة إلى أن يحكم على نفسه حكماً موضوعياً. فلا تتردد إذاً في أن تتميز عن جمهرة الناس. لا تكن كسائر أولئك الملأ، ولو أمسيت وحيداً في نوعك. كن على غير شاكلتهم.
- ما أروع هذا الكلام الذي تقوله لي! إنني لأدرك الآن أن ظني فيك لم يخطئ. إنك قادر على أن تعزي وتواسي. آه يا كارامازوف، لطالما انتظرت التعرف إليك! لقد ترقبت فرصة لقائك زمناً طويلاً؟ هل صحيح أنك أردت أن تتعرف إلي أيضاً؟ لقد قلت منذ قليل إنك فكرت فيّ.
- نعم، سمعت عنك وفكرت فيك.. هب حب الذات هو الذي أوحى إليك بذلك السؤال، فأي ضير في هذا؟
قال كوليا بصوت أضعفه الانفعال إضعافاً غريباً وكأن فيه حياء:
- هل تعلم يا كارمازوف أن حديثنا هذا يشبه مصارحة غرام. أليس هذا مضحكاً، مضحكاً جداً؟
أجاب أليوشا وهو يبتسم ابتسامة مشرقة:
- البتة! وهبه مضحكاً، فأي بأس في ذلك، ما دام الحديث على هذا النحو ممتعاً هذه المتعة، عذباً هذه العذوبة؟
- اعترف يا كارمازوف أنك أنت أيضاً تشعر الآن ببعض الخجل من وجودك معي... إني أقرأ هذا في عينيك. كذلك قال كوليا وهو يبتسم ابتسامة ماكرة تشبه أن تكون سعيدة.
- مم عساني أخجل؟
- إذا لماذا احمر وجهك؟ صاح أليوشا يقول ضاحكاً:
- أنت تجعل وجهي يحمر. واصطبغ وجهه فعلاً بحمرة شديدة. ثم تمتم يقول شبه مرتبك:
- طيب.. أشعر ببعض الخجل، لا يدري إلا الله لماذا. أنا نفسي لا أعرف السبب.
هتف كوليا يقول في سورة من حماسة، وقد اشتعل خداه وسطعت عيناه:
- ما أعظم ما أحبك وأحترمك في هذه اللحظة، لأنك تشعر بخجل معي! ذلك أنك تشبهني...
قال أليوشا فجأة دون أن يدري لماذا:
- أصغ إلي يا كوليا: لا شك أنك ستشقى كثيراً في هذه الحياة. فقال كوليا يؤيد كلامه:
- أعرف ذلك. ما أصدق تنبؤك بالمستقبل؟
- مع ذلك سوف تحب الحياة.
- صحيح. صحيح! مرحى! إنك نبي! نحن متفاهمان يا كارامازوف. وما يعجبني فيك خاصة هو أنك تخاطبني مخاطبة النّد للنّد، مع أننا لسنا ندّين متكافئين، لا لا، فأنت أعلى مني! ولكننا سنتفاهم. طوال الشهر الماضي، ظللت أقول لنفسي: «إما أننا سنصبح صديقين منذ اللحظة الأولى وإلى الأبد، وإما أننا سنصبح عدوين منذ الكلمات الأولى وحتى الممات!».
قال أليوشا وهو يضحك ضحكة فرحة:
- منذ قلت لنفسك هذا الكلام، كنت تحبني، هذا أكيد.
- كنت أحبك، كنت أحبك حباً رهيباً، آه... نعم... وكنت أحلم بك! ماذا تفعل حتى تعلم الغيب هذا العلم؟ هه... هذا هو الطبيب.. ترى ما الذي سيقوله لنا؟ انظر إلى تعبير وجهه!

في تلك اللحظة خرج الطبيب من الغرفة مرتدياً فراءه واضعاً قبعته على رأسه. كان وجهه يعبر عن الامتعاض والاحتقار، كأنه كان يخشى أن يتسخ من ملامسة ذلك المسكين. ألقى على الدهليز نظرة خاطفة، ثم حدَّق إلى أليوشا وكوليا بقسوة. أشار أليوشا للحوذي من الباب، فاقتربت العربة التي أقلت الطبيب، من مدخل البيت. ولكن في تلك اللحظة هرع النقيب ليدرك الطبيب، فانحنى له انحناءه كبيرة، ثم رجاه متذللاً معتذراً، أن يسمح له بحديث أخير معه.
بدأ فقال:
- يا صاحب السعادة، يا صاحب السعادة... أهذا ممكن؟
ولكنه لم يستطع أن يتم كلامه، واكتفى بأن عقف يديه بأساً، وهو يلقي على الطبيب نظرة ضراعة قصوى، كأن الأقوال التي سيتفوه بها الطبيب يمكن أن تبدل الموت المحكوم به على ابنه المسكين.
أجاب الطبيب يقول في إهمال، بصوت تخالطه مع ذلك لهجة التسلط والاستبداد المعهودة فيه:
- لا حيلة لي في الأمر أنا لست إلهاً...
- دكتور.. يا صاحب السعادة... هل هذا وشيك، هل هو وشيك؟
أجاب الطبيب وهو ينطق بأحرف كلامه نطقاً واضحاً:
- كونوا مستعدين لكل شيء. ثم خفض عينيه وسار خطوة في اتجاه العربة. قال النقيب مروعاً وهو يستوقف الدكتور من جديد:
- يا صاحب السعادة، ناشدتك يسوع المسيح... هل يمكن حقاً أن لا يكون هناك أي شيء، أي شيء يستطيع انقاذه بعد الآن؟
أجاب الطبيب يقول نافد الصبر:
- هذا لا يتوقف علي الآن. ثم استدرك يقول وهو يتوقف لحظة:
- هم... ومع ذلك... إذا كنتم تملكون مثلاً أن ترسلوا مريضكم، فوراً، من دون إبطاء (وقد نطق الطبيب قوله «فوراً، من دون إبطاء») لا بقسوة فحسب، بل بما يشبه الغضب أيضاً، حتى إن النقيب ارتعش، إلى سيراكوز... فمن الجائز أن تستطيع الظروف المناخية الملائمة أن تحدث بعض التغير، ولكن...
هتف النقيب يقول وقد بدا عليه أنه لم يفهم: - إلى سيراكوز؟ فتدخل كوليا يقول بصوت رنان يشرح الأمر، فنظر إليه الدكتور:
- سيراكوز هي في جزيرة صقلية. فصاح النقيب يقول وقد اضطرب اضطراباً تاماً:
- في جزيرة صقلية؟
ثم أضاف يقول وهو يحرك يديه بحركة دائرية عريضة ليشير إلى فقر مسكنه:
- أما رأيت إذن؟ وامرأتي، وأسرتي؟ ما الذي يصيرون إليه؟.
- لا، لا، لن يكون على الأسرة أن تذهب إلى صقلية. أرسل أسرتك إلى القفقاس في بداية الربيع... يجب أن تقيم ابنتك زمناً في منطقة القفقاس... أما زوجتك فلن تعالج هنالك إلا مدة قصيرة في مركز من مراكز المياه الحارة لتشفى من أوجاع الروماتزم... ثم يكون عليك بعد ذلك أن ترسلها فوراً إلى باريس، إلى عيادة الدكتور لابولوتييه للأمراض العقلية، وفي إمكاني أن أزودك بكلمة إليه... إن من الجائز أن تتحسن حالتها بعض التحسن..
عاد النقيب يقول وهو يلوح بذراعيه يائساً، ويشير إلى ألواح الخشب العارية التي تتألف منها جدران مسكنه:
- دكتور، دكتور، رأيت بعينيك! فقال الطبيب وهو يضحك ضحكة صغيرة:
- هه.... ليس هذا شأني أنا. أنا لم أزد على أن ذكرت لك، في الإجابة عن سؤالك، ما يستطيع العلم أن ينصح بالقيام به محاولة أخيرة بعد اليأس... أما ما عدا ذلك... فأنا آسف ولكن...
- لا تخف، أيها «المداوي»، لن يعضك كلبي.
كذلك قال كوليا في صخب وقد لاحظ النظرة القلقة التي ألقاها الطبيب على «برزفون» المرابط في العتبة.
كان صوت كوليا يرتعش غضباً، وقد تعمد أن يسميه باسم «المداوي» بدلاً من اسم «الطبيب»، إهانة له، كما شرح ذلك فيما بعد.
قال الطبيب وهو يرفع رأسه ويحدق إلى أليوشا مدهوشاً.
- كيف؟
ثم أضاف يسأل أليوشا فجأة، كأنه يطلب منه تفسيراً لقلة الأدب هذه:
- من؟ ماذا؟ عمن يتكلم؟
فقال كوليا من جديد، مشدداً على كلماته:
- أنا صاحب «برزفون». لا تهتم بشخصي أيها المداوي. قال الطبيب ولم يفهم من ذا الذي يسمى بهذا الاسم:
- «برزفون»؟ أي «برزفون»؟
- برزفون»، «برزنون»، أي غرابة في هذا؟ إلى اللقاء أيها المداوي، سوف نلتقي مرة أخرى في سيراكوز.
استشاط الطبيب غيظاً، فانفجر يقول على حين فجأة:
- من هذا ال... من هذا... الوقح؟ فقال أليوشا بسرعة وهو يقطب حاجبيه:
- هو تلميذ من هنا يا دكتور. إنه هازل، فلا تلق إليه بالاً.
وصاح أليوشا يخاطب كوليا قائلاً له:
- اسكت يا كوليا. ثم عاد يخاطب الطبيب بشيء من نفاد الصبر في هذه المرة:
- لا تلق إليه بالاً يا دكتور. فأغول الطبيب يقول وهو يضرب الأرض بقدميه حانقاً مسعوراً:
- إنه يستحق السوط، ال-...-س-...-وط! يجب تأديبه!
اصفرّ وجه كوليا، وقدحت عيناه شرراً، وقال للطبيب بصوت مرتعش.
- هل تعلم أيها المداوي أن كلبي «برزفون» يستطيع أن يعض؟ تعال يا «برزفون»!
فصرخ أليوشا يقول له بلهجة صارمة:
- إذا قلت كلمة واحدة أخرى، فهذا فراق بيني وبينك!
- اعلم أيها المداوي أن هناك شخصاً واحداً في هذا العالم يستطيع أن يأمر نيقولا كراسوتكين. هو هذا الرجل.
قال كوليا ذَلكَ وهو يومئ إلى اليوشا.
- «وإني أطيعه. وداعًا»!
ثمّ اتجه فجأة نحو الباب ودخل الغرفة. واندفع «برزفون» وراءه. لبث الدكتور جامدًا زهاء خمس ثوان، كأنما قد استبد به ذهول، وهو ما يزال شاخص ببصره إلى أليوشا. ثمّ بصق على الأرض، وتقدم إلى جهة العربة بخطى سريعة وهو يردد بصوت عالٍ:
- عجيب، عجيب، عجيب، عجيب!
أسرع النقيب يساعده في ركوب العربة. أمّا اليوشا فقد تبع كوليا ودخل الغرفة. كانَ كوليا واقفاً عندَ سرير إيليوشا. فتناول أليوشا يده، ونادى أباه، فما هي إلا دقيقة حتّى عاد الأب.
- بابا، بابا، تعال إلى هنا...
كذلك تمتم يقول إيليوشا في اضطراب شديد. ثمّ لمّ يقو على إتمام كلامه، فدفع ذراعيه الناحلتين إلى أمام، وطوق بهما أباه وكوليا معاً في حركة متشنجة، وضم أحدهما إلى الآخر بعناق واحد، شادًا جسمه إليهما شدّة قوية. فأخذ النقيب عندئذٍ ينشج نشيجة صامتاً. أمّا كوليا فأخذت شفتاه وذقنه ترتعش.
إنّ إيليوشا يقول بلهجة مرة:
- بابا، بابا، ما أشد ألمي عليك! قال النقيب متمتماً:

- بني إيليوشا.... ملاكي... قال الطبيب إنك...
ستشفى... وسنسعد جميعاً...
صاح إيليوشا قائلاً:
- بابا، أنا أعرف ماذا قال لك الطبيب الجديد عني!... فهمته من النظر إليه؟
وشد إليه أباه وكوليا من جديد، بكل قواه، مسندة وجهه إلى كتف النقيب.
- بابا، بابا، لا تبك... حين سأموت ستأخذ صبيا آخر، صبياً طيباً صغيراً تختاره من بين أحسن من ستعرف من صبيان، وتسميه باسم اليوشا مثلي، وتحبه كما تحبني...
صرخ كراسوتكين يقول لهُ بصوت يشبه أن يكون غاضباً:
- لا تقل سخافات يا صاحبي! ستشفى!
وتابع إيليوشا كلامه فقال:
- أمّا أنا يا بابا، فلا تنسني أبدًا، تعال إلى قبري زائراً. اسمع يا بابا: أريد أن تدفنني قرب تلك الصخرة الكبيرة التي كنا نتّجه إليها أثناء نزهاتنا. وزرني هناك مساء في صحبة كراسوتكين.. ومع «برزفون» أيضاً... سأنتظركم هنالك... بابا، بابا!
اختنق صوت إيليوشا. ظلّ الثلاثة متعانقين صامتين. وفي مقعدها، كانت نينا تبكي بكاء رقيقاً. وإذ لاحظت الأم أن الجميع يسكبون الدموع، انفجرت تبكي هي أيضاً، وصاحت تنادي:
- صغيري إيليوشا، صغيري إيليوشا!
انسل كراسوتكين من عناق إيليوشا بغتة، وقال يُشرَح بسرعة:
- إلى اللقاء يا صديقي. أمي تنتظرني على الغداء. من المؤسف أنني لمَ أنبئها. لسوف تقلق الآن... على أنني سأجيء إليك بعد الغداء، وسأمكث معك طوال النهار، وطوال المساء أيضاً. سأقص عليك حكايات كثيرة. سأرجع مع «برزفون». أمّا الآن فسأصطحبه، وإلا أخذ ينبح فازعجك. إلى اللقاء!
وهرول إلى الدهليز. كانَ يبذل جهدًا من أجل أن لا يبكي. ولكن دموعه تفجرت في الدهليز. وعلى هذه الحال إنما وجده إيليوشا. قال لهُ إيليوشا ملحاً:
- كوليا، عليك أن تفي بعهدك قطعًا، وأن تعود كما وعدته، وإلا حزن حزنًا شديدًا.
- سارجع حتماً. آه... لشدَ ما يحزنني أنني لمَ أجئ قبل الآن.
كذلك تمتم يقول كوليا باكيًا، دون أن يشعر بخجل من البكاء في هذه المرة.
وفي تلك اللحظة خرج النقيب من الغرفة كالمجنون، وأغلق الباب وراءه بسرعة. كانَ في وجهه تعبير غريب، وكانت شفتاه تختلجان. وقف أمام الشابين، ورفع ذراعيه في الهواء، ودمدم يقول زائغ النظرة تائه الهيئة صارفًا بأسنانه:
- لا أريد صبياً صغيرًا طيبًا... لا أريد صبيا آخر! ألاّ فليعقل لساني إذًا نسيتك يا أورشليم[216]...
وتوقف عن الكلام فجأة كأنما قد خنقه الانفعال، وتهاوى على الأرض راكعًا، وأمسك رأسه بيديه المقبوضتين وأخذ يبكي مطلقاً أنات مشوشة ولكن محاولاً أن يخنقها حتّى لا يسمعه أحد في الغرفة.
هرع كوليا إلى الشارع. وصاح يقول لأليوشا بصوت جاف غاضب.
- إلى اللقاء يا كارمازوف! هل تأتي أنت أيضاً؟
- ساجيء هذا المساء حتماً.
- ماذا أراد أن يقول حين تكلّم عن أورشليم؟ ما معنى هذا؟
- هذه آية من الكتاب المقدس «إذًا نسيتك يا أورشليم»، معنى هذا: إذًا نسيت ما هو عندي أعز شيء أغلى شيء، إذًا خنت من ذكرياتي أقدسها، فلتنزل علي عندئذٍ...
- كفي! فهمت! لا تنس أن تجيء أنت أيضاً. تعال يا «برزفون»!
كذلك صاح كوليا ينادي الكلب بصوت حانق، واتجه نحو بيته بخطى واسعة.

الباب الحادي عشر: الأخ إيفان فيدوروفتش

-1-عندَ جروشنكا

اتجه أليوشا نحو ميدان الكاتدرائية حيث يقع منزل التاجرة موروزوفا. كانَ أليوشا ذاهبًا إلى جروشنكا. لقد أرسلت إليه جروشنكا، في ساعة مبكرة من الصباح، خادمتها فينيا، ترجوه ملحة أن يجيء إليها. وقدْ علم من سؤال فينا أن المرأة الشابة تعاني منذ الليلة البارحة قلقاً جديدًا قويًا. وكان إيليوشا، خلال هذين الشهرين اللذين أعقبا اعتقال دمتري، قد زارها مرارًا، تارة من تلقاء نفسه، وتارة بطلب من ميتيا. وكانت جروشنكا قد مرضت مرضًا شديدًا بعد حبس ميتيا بثلاثة أيام، وظلت تعاني من المرض حوالي خمسة أسابيع؛ حتّى لقد لبثت في الأسبوع الأول فاقدة وعيها. وقدْ تبدلت ملامح وجهها تبدلًا كبيرًا أثناء ذَلكَ الوقت، فاصفرت ونحلت، وإن تكن قد أصبحت قادرة على الخروج منذ ما يقرب من خمسة عشر يوماً. على أنها صارت في نظر أليوشا أعظم جمالاً وفتنة، وكان أليوشا يحب كثيرًا أن يلتقي بنظرتها حين يجيء إليها. إنّ شيئاً ما في تعبير عينيها قد غدا أقوى ثباتًا وأكثر تروية وتأملاً. إنّ المرء يلاحظ فيها نوعاً من تبدل روحي، ونوعًا من عزيمة راسخة، وإن تكن هذه العزيمة تشتمل على إذعان وهدوء. إنّ غضنًا قصيرًا عموديًا يرتسم الآن على جبينها بين الحاجبين فيسبغ على وجهها الرقيق معنى التأمل العميق، ويضفي عليه تعبيرًا يشبه أن يكون قسوة في الوهلة الأولى. لمّ يبق هنالك، في الظاهر، أثر لما كانَ يرى فيها من خفة وطيش. ومع ذَلكَ كانَ يدهش أليوشا أنها لمّ تفقد مرحها رغم النازلة التي ألمت بها ورغم اعتقال الرجل الذي تحبه، ورغم حبس هذا الرجل في اللحظة التي أوشكت أن تصبح فيها خطيبته، رغم اتهامه بجريمة خطيرة، وكذلك رغم مرضها الذي أعقب ذَلكَ، ورغم قرب حكم المحكمة المحتوم. وإن عينيها اللتين كانَ فيهما كثير من الكبرياء في الماضي، يلوح فيهما الآن استسلام وادع وخضوع هادئ وإن كانَ يتفق من حين إلى حين أن يسطع في نظرتها لهيب مقلق، ولا سيما في اللحظات التي يراودها فيها ذَلكَ الهم القديم الذي لمّ يهدأ في قلبها أثناء تلك المدة. بل كانَ يشتد ويقوى بغير انقطاع. إنّ موضوع هذا الهم الأليم ما يزال هو نفسه: إنه كاترينا إيفانوفنا التي كثيراً ما ذكرت جروشنكا اسمها حتّى في هذيانها أثناء المرض. كانَ أليوشا يدرك أن جروشنكا تغار من هذه المرأة على ميتيا غيرة رهيبة، رغم أن كاترينا إيفانوفنا لمّ تزر ميتيا في السجن مرة واحدة، كما كانَ في وسعها أن تفعل ذَلكَ بغير عناء في كل آن. وكان ذَلكَ كلّه يضع أمام أليوشا مهمة صعبة، لأن جروشنكا لا تفضي بآلامها وتباريحها إلا إليه، وما تنفك تسأله المشورة والنصح، وهو في بعض الحالات لا يدري بم يجيبها، وماذا يقول لها.

لذلك كانَ أليوشا مهمومًا مغمومًا حين دخل مسكنها. كانت جروشنكا في بيتها، قد رجعت من السجن منذ نصف ساعة. وأدرك أليوشا، من الحركة السريعة التي قامت بها لتنهض عن مقعدها خلّف المائدة وتهب إلى لقائه، أنها كانت تنتظره نافدة الصبر. وكان هنالك على المائدة ورق لعب أعد لشخصين. إنّ أريكة الجلد التي كانت في الجهة الأخرى من المائدة قد أحيلت الآن سريرًا، وها هو ذا العجوز ماكسيموف، الضعيف المريض، ولكن على تبسم متكلف وتلطف متصنع، يرقد على هذا السرير نصف رقاد، مرتديًا ثوبًا منزليًا، واضعاً على رأسه طاقية. إنّ هذا العجوز الذي ليس لهُ مأوى لمّ يترك جروشنكا منذ عودتهما من موكرويه قبل شهرين، وهو يعيش في بيتها منذ ذَلكَ الحين. لقد رجعا من موكرويه معاً في المطر والوحل، فلمّا وصلا إلى مسكنها كانَ البرد قد نفذ في جسمه حتّى العظام، وكان يقاسي هلعًا شديدًا ورعبًا رهيباً، فما إنّ دخلا المسكن حتّى جلس على الأريكة وأخذ يحدق إلى المرأة الشابة صامتة، وهو يبتسم ابتسامة ذليلة متوسلة ضارعة. وكانت جروشنكا عندئذٍ مصعوقة من المصيبة التي نزلت بها، وكانت ترتعد من الحمى منذ تلك اللحظة، فنسيت وجود ماكسيموف خلال نصف الساعة الأولى، مشغولة بإصدار أوامرها إلى خدمها. ثمّ نظرت إليه نظرة ثاقبة، فضحك العجوز ضحكة صغيرة تثير الشفقة وتبعث على الرحمة ونظر هو إلى عينيها ولم ينطق بكلمة. فنادت عندئذٍ فينيا، وأمرتها أن تقدم للعجوز طعامه. وظل العجوز طوال ذَلكَ النهار لا يتحرك من مكانه، حتّى إذًا هبط الليل، وأغلقت النوافذ، سألت فينيا مولاتها:

- هل سيبيت الليلة هنا يا سيدتي؟ فأجابتها جروشنكا قائلة:

- نعم، أعدي الأريكة سريرًا لهُ.

وحين سألت جروشنكا العجوز بعد ذَلكَ، علمت أنّه أصبح لا يعرف الآن إلى أين يأوي، لأن «السيد كالجانوف» المحسن إليه، قد أعلن لهُ جازماً أنّه لن يستقبله بعد الآن في بيته، وأعطاه خمسة روبلات زادًا.

فقالت لهُ جروشنكا بحزن وهي تبتسم ابتسامة شفقة وعطف: «إذن ابق هنا والله يرعاك». فارتعش المسكين لهذه الابتسامة من شدّة الانفعال، واختلجت شفتاه في نشيج مخنوق اعترافًا بالجميل. ولم يتركها بعد تلك اللحظة حتّى أثناء مرضها فوجد الطفيلي التائه في بيتها مأوى. ولم تطرده فينيا ووالدتها طباخة جروشنكا، بل ظلتا تطعمانه وترتبان لهُ سريره على الأريكة. حتّى إنّ جروشنكا ألفت وجوده بعد ذَلكَ واعتادته، فكانت إذًا رجعت من زيارة لميتيا «وقدْ أخذت تزور ميتيا منذ بداية نقاهتها قبل أن تبل من مرضها تماماً»، جلست إلى جانب «ماكسيموشكا»، وأخذت تثرثر معه في سفاسف وترهات، حتّى تطرد حزنها وحتى لا تفكر في شقائها. وقدْ اتفق أن كانَ العجوز يحسن قص الحكايات الشيقة في المناسبات، فإذا هو يصبح حاجة لا غنى لها عنها. وكانت جروشنكا لا تكاد تستقبل أحداً عدا أليوشا الذي كانَ مع ذَلكَ لا يزورها كل يوم، ولا يمكث عندها إلا قليلاً. أمّا صاحبها التاجر العجوز فقد كانَ في تلك الفترة مريضًا مرضًا شديدًا، وكان ملازمًا فراشه.«كانَ بسبيل أن يرحل»، على حد تعبير سكان المدينة. وقدْ مات فعلاً بعد محاكمة ميتيا بأسبوع وإذ أحسَّ بقرب نهايته، فقد أمر قبل موته بثلاثة أسابيع أن يصعد إليه أبناؤه وزوجاتهم وأولادهم وأن لا يبتعدوا عن سريره، وفي الوقت نفسه أصدر أوامره إلى خدمه بأن لا يستقبلوا جروشنكا في بيته، وأن يبلغوها ما يلي إذًا هي جاءت: «إنّ مولانا يأمر بأن تعيشي في السعادة والفرح زمناً طويلاً، وأن تنسيه نسيانًا تامًا». ومع ذَلكَ كانت جروشنكا ترسل من يسأل عن أخباره كل يوم تقريباً.

حين دخل أليوشا على جروشنكا، رمت ورق اللعب، ومدت إليه يدها فرحة وهي تصيح:

- ها أنت ذا أخيراً! إنّ «ماكسيموشكا» هذا المسكين كانَ يتسلى بتخويفي زاعمًا أنك لن تجيء. ليتك تعرف مدى حاجتي إليك! اجلس إلى المائدة. ماذا تريد؟ هل تريد قهوة؟

أجاب أليوشا وهو يجلس قرب المائدة:

- بسرور. أشعر بجوع شديد.

- عظيم! فينيا، هاتي قهوة بسرعة! إنّ الماء يغلي منذ مدة طويلة. أمرت بإعداده خصيصاً لك. فينيا، هاتي فطائر باللحم أيضاً، ولتكن ساخنة. هل تعلم يا أليوشا أنّه قد وقعت لي اليوم قصة رهيبة مع هذه الفطائر؟ حملتها لهُ إلى السجن فردها إليَّ بخشونة، ورفض أن يمسها، هل تصدّق؟ حتّى لقد رمى إحداها على الأرض ثمّ داسها بقدمه. قلت لهُ: «سأتركها عندَ الحارس، فإذا لمّ تأكلها حتّى المساء، كانَ معنى ذَلكَ أنك تؤجج في نفسك الغضب الشرير»، قلت لهُ ذَلكَ وانصرفت. فها أنت ذا ترى أننا تشاجرنا مرة أخرى. كلما زرته انتهينا بمشاجرة.

كانت جروشنكا تتكلم متعجلة وهي فريسة انفعال شديد. وسرعان ما فقد ماكسيموف طمأنينته وابتسم غاضًا بصره.

سألها أليوشا:

- ولأي سبب تشاجرتما اليوم؟

- لسبب ما كانَ لي حقاً أن أتوقعه. تصوّر أنّه أصبح يغار من «القديم». لقد سألني: «لماذا تعطينه مالاً؟ أأخذت إذًا تعيلينه؟». هي الغيرة، الغيرة دائمًا. إنه يغار حين يأكل، وحين ينام. حتّى لقد أقام الدنيا وأقعدها في الأسبوع الماضي، بصدد العجوز كوزما.

- ولكنه كانَ يعلم بوجود «القديم»!

– طبعًا كانَ يعلم بوجوده. كانَ على علم بهذه العلاقة منذ البداية، وها هو ذا يأخذ يهينني اليوم فجأة لهذا السبب. إنني لأستحي أن أردد على مسمعك ما قاله لي صارخًا. يا لهُ من أحمق! وقدْ جاء راكيتين يزوره حين انصرفت. من يدري؟ لعل راكيتين هذا هو الذي يثيره علي.

ثمّ أضافت تقول ذاهلة:

- ما رأيك؟

- رأيي أنّه يحبك، يحبك كثيرًا. ولكن أعصابه ثائرة الآن.

- من حقه أن تكون أعصابه ثائرة، ما دام سيحكم عليه غداً. وذلك بعينه هو السبب الذي من أجله أردت أن أزوره اليوم، لأحدثه عن يوم الغد هذا. تقول لي إنه ثائر الأعصاب. أفليس من حقي أن أكون ثائرة الأعصاب أنا أيضاً؟ ثمّ هو يحدثني عن ذَلكَ البولندي... يا لهُ من أحمق! الحمد لله على أنّه لا يغار من ماكسيموشكا أيضاً!

هنا تدخل ماكسيموف قائلاً:
- كانت زوجتي تغار علي كثيرًا.
فأجابته جروشنكا ضاحكة رغم إرادتها:
- عليك أنت؟ دعك من هذا الكلام! ممن يُمكن أن تغار عليك؟
- من الخادمات.
- اسكت يا ماكسيموشكا، لست اليوم في مزاج يمكنني من الضحك. إنّ غضباً شديدًا قد استحوذ على نفسي. أمّا الفطائر، فليس يجديك أن تنظر إليها بنهم.... لن تصيب منها شيئاً. إنّ أكلتها آذتك. ولن أعطيك خمرة كذلك. ها أنا ذي مضطرة إلى العناية بهذا المسكين أيضاً. ألاّ يُمكن أن يُقال إنّ بيتي أصبح ملجأ خيريًا للبر والإحسان؟
كذلك قالت جروشنكا ضاحكة. فأجاب ماكسيموف بصوت واهن متباك:
- أنا لست أهلاً لإحسانك. أنا إنسان تافه لا قيمة لي. الأولى أن تغدقي مساعداتك على من قد يكونون أحوج إليها مني.
- ما من أحد ليس بنافع في هذا العالم يا ماكسيموشكا. هل يعلم المرء في الواقع إلى من يحتاج أو لا يحتاج. إنّ ذَلكَ البولندي يقع الآن على عاتقي كذلك يا أليوشا. تصوّر أنّه مرض اليوم هو أيضاً. وقدْ زرته. نعم، سأرسل إليه الفطائر عامدة، عامدة. لمّ يكن يخطر ببالي أن أفعل هذا. ولكن ميتيا اتهمني بأنني أرسلت إليه فطائر. لذلك سأرسل إليه منها اليوم عن قصد، هه! هذه فينيا تجيء برسالة. هي رسالة من البولنديين. لا شك أنهما يطلبان مالاً من جديد!
صدق ظن جروشنكا. إنّ البان موزيالوفتش يرسل إليها رسالة تبلغ مبلغاً عظيمًا من الطول والتصنع على عادته، وفيها يرجو أن تقرضه ثلاثة روبلات، ضامة إلى الرسالة سندًا بالمبلغ يتعهد فيه برد المال في غضون ثلاثة أشهر، مذيلا السند بتوقيعه وتوقيع البان فروبلفسكي أيضاً. وكانت جروشنكا قد تلقت قبل ذَلكَ من صاحبها القديم عدداً كبيراً من مثل هذه السندات. بدأ ذَلكَ عندَ شفائها منذ أسبوعين، ولكن جروشنكا علمت أن «البانين» قد جاءا يسألان عن صحتها مرارًا. كانت الرسالة الأولى التي أرسلها البولندي طويلة، قد كتبها على ورقة كبيرة وختمها بخاتم كبير يحمّل شعار نسب أسرته. وكان مضمون الرسالة غامضاً جداً ومتصنعًا جداً، فلم تستطع جروشنكا أن تُقرأ إلا نصفها ثمّ رمتها دون أن تفهم منها شيئاً. ثمّ إنها كانت في تلك الآونة لا تعبأ كثيرًا بما قد يكتب إليها! وفي الغد أتبعت تلك الرسالة برسالة أخرى يرجوها فيها البان موزيالوفتش بأن تسلفه ألفي روبل، متعهدًا بالسداد بعد فترة وجيزة، ولم ترد جروشنكا لا على الرسالة الأولى ولا على الرسالة الثانية. ثمّ تتالت رسائله كل يوم. يكتبها دائمة بلهجة فيها كثير من الجد والاحتفال. ولكن المبلغ الذي يلتمس أن تقرضه إياه ينخفض شيئاً بعد شيء، فيهبط إلى مائة روبل، ثمّ يهبط إلى خمسة وعشرين روبلاً، ثمّ إلى عشرة روبلاً. وأخيراً تلقت جروشنكا رسالة جديدة يرجوها فيها البانان أن تسلفهما روبة واحدة. وقدْ ضمناً إلى الرسالة سندا وقعاه كلاهما. عندئذٍ شعرت جروشنكا بشيء من الشفقة. ومضت تزور البان عندَ الغسق، فإذا هي تجد البولنديين في عوز يشبه أن يكون تامًا، فلا طعام ولا تدفئة، ولا سجائر، وهما فوق ذَلكَ مدينان لصاحبة البيت التي يسكنان عندها. إنّ المائتي روبل التي ربحاها في موكروبه من اللعب بالورق مع ميتيا قد ذابت بسرعة. وما كانَ أشد دهشة جروشنكا حين رأت البانين يستقبلانها استقبالا فيه كثير من التعاظم والادعاء، مهتمين أشد الاهتمام بقواعد الكياسة الاجتماعية، مسترسلين في كلام متفخم متنفخ. لمّ تزد جروشنكا عندئذٍ على أن ضحكت من تكلفهما، ثمّ أعطت صاحبها «القديم» عشرة روبلات. وقدْ نصت هذا المشهد على ميتيا في ذَلكَ اليوم نفسه ضاحكاً، فلم يخطر ببال ميتيا يومئذٍ أن يغار أو يستاء. غير أن البانين قد تشبثا منذ ذَلكَ الحين بجروشنكا، وأصبحا يمطرانها كل يوم برسائل يضرعان إليها فيها أن تمدهما بمعونة مالية. فكانت ترسل إليهما في كل مرة مساعدات ضئيلة. ولكن ها هو ذا ميتيا يظهر اليوم غيرة ضارية.
قالت جروشنكا مضطربة بعض الاضطراب:
- شاءت غباوتي أن أزوره اليوم عابرة، بضع دقائق، قبل أن أذهب إلى ميتيا، لأنه مرض هو صاحبي القديم أيضاً، وقدْ قصصت ذَلكَ على ميتيا ضاحكة. قلت لهُ: اتصور أن صاحبي البولندي قد أخذ يغني لي أغانيه القديمة عازفاً على القيثارة، أملًا أن يؤثر في نفسي فإذا بميتيا يثب فجأة، ويأخذ يرشقني بإهانات فظيعة... يميناً لأرسلن للبولنديين فطائر! يا فينيا، أظن أنهما بعثا بتلك الصبية من جديد، أليس كذلك؟ فأعطها ثلاثة روبلات لهما، وحمليها كذلك عشر فطائر ملفوفة بورق. أمّا أنت يا أليوشا، فأريد حتماً أن تروي لميتيا أنني أرسلت إليهما فطائر.
قال أليوشا مبتسمًا:
- لا، لن أروي لهُ ذَلكَ. قالت جروشنكا بمرارة:
- دعك من هذا الكلام! أتتخيل أنّه يهتم بأمري ويتعذب من أجلي، بينما هو يتظاهر بالغيرة تظاهرًا لا أكثر؟
قال أليوشا:
- يتظاهر تظاهرًا؟ ماذا تقصدين بهذا الكلام؟
- ما أغباك يا صغيري أليوشا! «إلا إنك لا تفهم في هذه الأمور شيئاً رغم ذكائك، إنّ ما يغضبني، أنا المسكينة، ليس هو أنّه يغار علي». بالعكس: إنّ عدم غيرته هو ما يعذبني، هكذا أنا. لن آخذ عليه يوماً أن يكون غيورًا، فأنا نفسي مسمومة القلب شديدة الغيرة. ولكنني شقية لأنه لا يحبني البتة، وإنما هو يتظاهر اليوم بالغيرة علي. ذَلكَ كل شيء. ما أنا بالعمياء. إنني أرى كل شيء رؤية واضحة. لقد أخذ يكلمني فجأة عنها، عن كاتيا تلك، ممتدحة ما صنعته في سبيله، مثنيًا على ما قامت به من أجله. قال لي: «لقد استقدمت طبيبًا من موسكو ليشترك في المناقشات أمام المحكمة إنقاذًا لي.. واستقدمت من العاصمة أيضاً محاميًا هو أشهر المحامين وأبرعهم، وأعلمهم في الوقت نفسه». هو إذًا يحبها ولا يحبني، ما دام يتغنى بمدائحها أمامي ناظرًا إليَّ بعينيه الوقحتين! إنه مذنب في حقي، ثمّ هو يسعى إلى مشاجرتي ليلقي الذنب على عاتقي، على عاتقي وحدي، كأنه يريد أن يقول: «لقد كنت على صلة بذلك البولندي قبلي، فمن حقي إذًا أن أهجرك في سبيل كاتيا». تلك هي المسألة. إنه يريد أن يُلقي الذنب كلّه علي وحدي. إنه يتعمد أن يشاجرني، يعمد ذَلكَ تعمدًا... ولكنني سوف...
لمّ تكمل جروشنكا كلامها لتشرح ما تنوي أن تفعله. وإنما أخفت عينيها بمنديل، وطفقت تبكي في نشيج يثير الشفقة.
قال أليوشا بحزم:
- إنه لا يُحبّ كاترينا إيفانوفنا.
فقالت جروشنكا بصوت يشوبه شيء من التهديد وهي تزيح المنديل عن عينيها:
- سوف أعرف بنفسي إنّ كانَ يحبها أم لا.
لقد تقبضت قسمات وجهها من الغضب. ولاحظ أليوشا، على حزن وحسرة، أن ما كانَ يشيع في وجهها قبل ذَلكَ من رقة هادئة وفرح ساج قد حل محله الآن عنف وشر.
قالت فجأة تحسم الأمر:
- كفى سخافات! إنني لمّ استدعك لأكلمك في هذا، يا أليوشا، يا ملاكي! قل لي: ما الذي سيحدث غداً، ما الذي سيحدث غداً؟ ذَلكَ ما يعذبني. أنا وحدي أفكر في هذا وأقاسي العذاب. إنني أنظر إلى الآخرين فلا أجدُ أحداً يقلق أو يكترث. هل فكرت في الأمر أنت على الأقل؟ غداً سيحكم عليه مع ذَلكَ! قل لي كيف ستجري الأمور أمام المحكمة؟ إنّ الخادم هو الذي قتل، إنه الخادم! يا رب! هل يعقل أن يحكموا عليه بدلاً من أن يحكموا على الخادم، دون أن يتدخل أحد لإنصافه؟ إنهم لمّ يعمدوا حتّى إلى إزعاج هذا الخادم بشيء، أليس كذلك؟
قال أليوشا مطرقاً مفكرًا:
- استجوبوه استجوابًا محكمًا. ولكنهم خلصوا جميعاً إلى أنّه ليس مجرمًا. وهو الآن مريض جداً. إنه منذ وقوع ذَلكَ الحادث يُصاب بنوبات صرع لا تنقطع.
وأضاف أليوشا يقول:
- إنه مريض جداً.
- آه... يا رب! ليتك تستطيع أن تقابل ذَلكَ المحامي، وأن تشرح لهُ القضية بنفسك بينك وبينه. يُقال إنه استقدم من سان بطرسبرج لقاء أجر قدره ثلاثة آلاف روبل.
- دبرنا المبلغ نحن الثلاثة: كاترينا إيفانوفنا وأخي إيفان، وأنا. أمّا الطبيب فإن كاترينا إيفانوفنا هي التي دفعت ألفي روبل لاستقدامه من موسكو. إنّ المحامي فينوكوفتش يتقاضى في العادة أكثر من هذا المبلغ، ولكن القضية قد ذاع صيتها في روسيا كلها، وكتبت عنها جميع الصحف، لذلك عزم أمره على الدفاع عن ميتيا آخر الأمر، لا طمعاً في المال، بل سعياً إلى المجد، لأن هذه القضية أصبحت شهيرة للغاية، وسيفيده أن يقترن اسمه بهذه القضية ولقد كلمته أمس.
سألته جروشنكا متعجلة:
- كلمته؟ فماذا قال لك؟

- أصغى إلى كلامي، ولكنه امتنع عن أبداء أي ملاحظة. قال إنه قد كون رأيا شخصيًا في الموضوع، ووعدني مع ذَلكَ بأن يحسب حساب ما قدمت لهُ من شروح.
- يحسب حساب ما قدمت لهُ من شروح؟ ما معنى هذا الكلام؟ هؤلاء المحامون جميعاً أوغاد! لسوف يضيعونه أخيراً. والطبيب، لماذا استقدموا الطبيب؟
قال أليوشا وهو يبتسم ابتسامة ضعيفة:
- استقدموه كخبير. يريدون أن يقرروا أن أخي مجنون، وأنه قد ارتكب جريمة القتل في نوبة جنون ولم يكن يدري ماذا يفعل. ولكن أخي لن يوافق على ذَلكَ أبدًا.
هتفت جروشنكا تقول:
- ولكن هذا حق إذًا كانَ قد قتل. لا شك في أنّه كانَ فاقدًا عقله، فاقدًا عقله تماماً، ولا شك أنني مسؤولة عن ذَلكَ، أنا الشقية. لكنه لمّ يقتل، لمّ يقتل! هم جميعاً يؤكدون أن ميتيا هو القاتل. المدينة كلها تعتقد بذلك. وفينيا نفسها أدلت بشهادة لا يُمكن أن يستخرج منها إلا أنّه قاتل. وجميع الأشخاص الذين كانوا في المتجر، وذلك الموظف أيضاً! وزبائن الحانة الذين ينقلون كل كلمة من كلماته، وكل قول من أقواله. إنهم جميعاً يشهدون عليه، ويتبارون في إغراقه.
قال أليوشا بلهجة فيها يأس:
- نعم، تكاثرت الشهادات تكاثرًا يدعو إلى القلق.
ثمّ جريجوري، جريجوري فاسيلتش الذي يصر على أن الباب كانَ مفتوحًا. إنه لمّ يتزحزح عن هذه الشهادة. هو يدعي أنّه رأى الباب بعينه مفتوحة. يستحيل أن يتزعزع يقينه من ذَلكَ. لقد ذهبت إليه وتكلمت معه. كاد يشتمني.
قال أليوشا:
- لشهادته شأن كبير، وهو أخطر الشهود على أخي. قالت جروشنكا بلهجة غريبة وهيئة قلقاً:
- أمّا عن جنون ميتيا، فيخيل إليَّ أنّه ما يزال في مثل هذه الحالة حتّى الآن... هل تعلم أنني أردت أن أكلمك في هذا الأمر منذ مدة طويلة يا أليوشا؟ إنني أذهب إليه كل يوم، فما ينفك يزداد عجبي من سلوكه. قل لي رأيك: ما معنى هذه الأحاديث الغريبة التي يحدثني بها في غير انقطاع؟ إنه يتكلم، فلا أتوصل إلى فهم ما يقوله لي. قدرت في البداية أن الأمر أمر مسائل تحتاج إلى ذكاء عظيم وعلم واسع، فلا أستطيع أن أدركها. ولكنه أخذ يحدثني فجأة عن صبي، عن ولد صغير لا أعرفه. سألني: «لماذا يجب أن يتألم الصبي؟ إنني أرتضي أن أذهب إلى سيبيريا بسبب هذا الصبي. صحيح أنني لمّ أقتل، ولكن يجب أن أذهب إلى سيبيريا». أي صبي يعني؟ إني لا أفهم من هذا الكلام شيئاً. ومع ذَلكَ طفقت أبكي وأنا أسمع لهُ، لأنه أجاد الكلام إجادة رائعة. كانَ في عينيه دموع، فانفجرت أنا منتحبة. عندئذٍ قبلني على حين فجأة، ورسم علي إشارة الصليب. ما معنى هذا كلّه يا أليوشا؟ قل لي: أي أصبي يعني؟
قال أليوشا مبتسمًا:
- إني لأتساءل أليس في هذا مكيدة يدبرها راكيتين لقد أخذ راكيتين يتردد إليه في السجن. ولكن لا... ليس هذا من راكيتين. أنا لمّ أزر ميتيا أمس، ولكني سأذهب إليه اليوم.
قالت جروشنكا وقدْ تلعثمت على حين فجأة.
- لا، ليس هو. راكينكا؟ إنّ أخاه إيفان فيدوروفتش هو الذي يبلبل لهُ عقله. إنه هو الذي يزوره في السجن.
تفرس فيها أليوشا كالمذهول وقال:
- إيفان؟ ماذا تقولين؟ إيفان يزوره؟ لقد أكد لي ميتيا أن إيفان لمّ يزره مرة واحدة.
هتفت جروشنكا تقول مضطربة وقدْ احمر وجهها احمراراً شديداً:
- آ... ذَلكَ... ما أكثر ثرثرتي! لقد أسرفت في الكلام! لحظة... اسكت يا أليوشا! ما دمت قد زل لساني، فسأقول لك الحقيقة كلها: لقد زاره مرتين. مرة منذ وصل، لأنه أسرع يعود من موسكو حين بلغه نبأ الحادث، ولم أكن قد مرضت بعد. ومرة منذ أسبوع. وقدْ طلب من ميتيا أن لا يقول لك شيئاً عن هاتين الزيارتين. حظر عليه أن يذيع أمرهما لأي مخلوق. لقد زاره سرًا.
كانَ أليوشا يفكر تفكيراً عميقًا. إنّ شيئاً ما يشغل باله الآن. لقد صعقه هذا النبأ.
قال ببطء:
- إنّ أخي إيفان لا يحدثني أبدًا في قضية ميتيا. ثمّ إنه لمّ يكد يكلمني أبداً خلال هذين الشهرين. وكان يبدو ممتعضًا من زيارتي كلما زرته. لذلك لمّ أره منذ ثلاثة أسابيع. هم... إذًا كانَ قد زار ميتيا منذ أسبوع فذلك غريب حقاً فلقد حدث في ميتيا تغير خلال هذه الأيام الثمانية الأخيرة.
أسرعت جروشنكا تقول:
- حدث فيه تغير، حدث ذَلكَ بالتأكيد. إنّ بينهما سرًا. كانَ بينهما سراً! قال لي ميتيا نفسه ذَلكَ، قال إنّ الأمر سر. وهو سر يعذبه تعذيباً شديدًا، هل تعلم؟ كانَ ميتيا مرحاً قبل ذَلكَ وما يزال مرحاً حتّى الآن: ولكن حين يهز رأسه، ويأخذ يسير في زنزانته، ويحك شعر صدغه بإبهامه الأيمن، أدرك أن هناك شيئاً في قلبه. أنا أعرف هذا. كانَ قبل ذَلكَ مرحًا جداً. وما يزال مرحًا حتّى الآن في الواقع.
- ولكنك قلت لي إنه ثائر الأعصاب جداً.
- نعم، هو مرح وثائر الأعصاب في آن واحد. تثور أعصابه فجأة، ثمّ يصفو مزاجه بعد دقيقة واحدة، ثمّ يهتاج من جديد. إنه يدهشني مزيداً من الدهشة يوماً بعد يوم يا أليوشا. إنّ ما ينتظره رهيب، ومع ذَلكَ يتفق لهُ أن يضحك أحياناً لترهات كأنه طفل.
- هل صحيح أنّه أراد أن لا تكلميني عن إيفان؟ هل قال لك:
لا تقولي شيئاً؟
- ذَلكَ بعينه هو ما قاله لي: «لا تقولي شيئاً! » هو خائف منك أنت خاصة. ذَلكَ أن هناك سرًا وهو نفسه يعترف بأن هناك سرًا. أليوشا، يا عزيزي، امض إليه، وحاول أن تعرف الحقيقة: ما ذَلكَ السر الذي بينهما؟
وأضافت جروشنكا تقول بصوت أصبح ضارعًا على حين فجأة:
- ثمّ عد إليَّ وأخبرني. خلصني من قلقي وهمي، أنا التعيسة الشقية فعسى أن أعرف مصيري المنحوس! من أجل هذا إنما استدعيتك.
- هل تظنين أن هذا السر يتعلق بك؟ لو كانَ كذلك، لما كلمك فيه البتة.
- الله أعلم. لعله أراد أن يحدثني في الأمر، ولكنه لمّ يجرؤ فاكتفى بالتنبيه. لقد أسمعني أن هناك سرًا ولكنه لمّ يقل ما هو هذا السر.
- ماذا تفترضين؟
- ماذا أفترض؟ أفترض أن الأمر أمر ضياعي أنا. لقد اتفقوا هم الثلاثة على تضييعي، لأن كاتيا وراء هذه المؤامرة. إنّ كاتيا هي التي أعدت كل شيء. لقد أطرى مزايا هذه المرأة، قال: «هي كيت وكيت». معنى ذَلكَ أنني لست مثلها. إنه يمهد... إنه ينبهني. ذَلكَ أنّه قرر أن يتركني. هذا هو السر كلّه. لقد تآمروا هم الثلاثة: ميتيا وكاتيا وإيفان فيدوروفتش. اسمع يا أليوشا: هناك سؤال أريد أن ألقيه عليك منذ مدة طويلة: لقد أعلن لي فجأة في الأسبوع الماضي أن إيفان يحب كاترينا إيفانوفنا لأنه يزورها دائمًا. فهل هذا صحيح أم لا؟ أجبني بصدق وإخلاص، دون أن تحاول مداراتي ومراعاتي..
- لا أريد أن أكذب عليك. إنّ إيفان لا يُحبّ كاترينا إيفانوفنا.
ذَلكَ رأيي أنا على الأقل.
- هذا ما قدرته أنا أيضاً. لقد كذب علي. يا لهُ من وقح! واضح أنّه كذب علي! وهو يتظاهر الآن بالغيرة، ليستطيع بعد ذَلكَ أن يُلقي الذنب كلّه علي. ألاّ أنّه لغبي. إنه لا يجيد حتّى التمثيل. إنه بطبيعته صريح مسرف في الصراحة... ولكني سألقنه درسا، سألقنه درسًا! لقد صرخ يقول لي: «أنت تؤمنين بأنني قاتل». صرخ يقول هذا الكلام لي أنا. إنه يأخذ هذا علي أنا. طيب سامحه الله. أمّا كاتيا تلك، فويل لها. سأعرف كيف «أدبرها» أمام المحكمة. سوف أروي لهم قصة صغيرة... سوف أقول كل ما أعرف!
وأخذت جروشنكا تبكي بكاء مرًا.
قال أليوشا وهو ينهض:
- إليك ما أريد أن أقوله لك على وجه اليقين يا جروشنكا: أولاً: هو يحبك، يحبك أكثر من أي شي في هذا العالم. ولا يحب أحداً غيرك على الإطلاق، تستطعين أن تصدقيني. أنا أعلم هذا. أنا من هذا على يقين تام. ثانيًا: أريد أن تعرفي أنني لن أحاول أن استخرج منه سره. وإذا أفضى إلى به اليوم من تلقاء نفسه، فسوف أنبهه فوراً إلى أنني قد وعدتك بإبلاغك هذا السر. وسوف أعود إليك في هذا اليوم نفسه، فأقول لك كل ما أكون قد علمته. على أنني... يخيّل إليَّ.... أن كاترينا إيفانوفنا

ليس لها ضلع في هذا الأمر، وأن السر يتعلق بشيء آخر غير هذا تماماً. بل إنني لواثق من ذَلكَ. يستحيل أن يكون الأمر أمر كاترينا إيفانوفنا. أنا من ذَلكَ على قناعة راسخة. والآن إلى اللقاء.
صافحها أليوشا. كانت جروشنكا ما تزال تبكي. أدرك أنها لمّ تصدّق ما قدم لها من شروح مواسية. ولكن جروشنكا كانت قد تخففت من حزنها بعض التخفف لأنها عبرت عنه. شعر أليوشا بشفقة عليها، وأسف لاضطراره إلى تركها وهي في ما هي فيه من كرب. ولكن كانَ عليه أن يسرع، لأن هناك أمور كثيرة عليه أن يقوم بها في ذَلكَ اليوم.

-2-الساق المريضة

إن الأمر الأول الذي كانَ على أليوشا أن يهتم به، كانَ في منزل! السيدة خوخلاكوفا؛ فراح يسرع الخطى للوصول إلى هذا المنزل، ليفرغ من ذَلكَ الأمر بأقصى سرعة، حتّى لا يتأخر على ميتيا. كانت السيدة خوخلاكوفا مريضة منذ ثلاثة أسابيع لقد تورمت إحدى ساقيها لسبب مجهول، فهي تقضي أيامها في مقصورتها مضطجعة على كنبة، مرتدية غلالة جذابة لكنّها محتشمة، لأنها لمّ تضطر إلى ملازمة فراشها. كانَ أليوشا قد عبر بينه وبين نفسه، في يوم من الأيام، عن هذه الملاحظة المسلية البريئة، وهي أن السيدة خوخلاكوفا قد أخذت بالرغم من مرضها تتغندر منذ زمن: فهي تتزين بمناديل صغيرة أنيقة من الدنتيلا وأشرطة جميلة، وهي تتفنن في التجمل. ولقد أدرك أليوشا سبب عنايتها هذه بملابسها، ولكنه كانَ يطرد هذه الخواطر من ذهنه، وبعدها عبثاً لا طائل تحته. والواقع أن السيدة خوخلاكوفا قد أخذت، منذ شهرين، تستقبل، من بين من تستقبل من معارف وأصحاب، الموظف الشاب برخوتين في أحيان كثيرة.

حين وصل أليوشا الذي لمّ يزر السيدة خوخلاكوف منذ أربعة أيام، أسرع يتجه رأساً إلى غرفة ليزا. فمع ليزا إنما كانَ عليه أن يبحث الأمر الهام الذي أشرنا إليه، لأن الفتاة قد أوفدت إليه خادمتها بالأمس ترجوه ملحة أن يجيء إليها بأقصى سرعة ممكنة، الأمر خطير جداً، وذلك ما أقلق أليوشا لأسباب عدة. ولكن حين ذهبت الخادمة إلى ليزا لتبلغها بوصول أليوشا، علمت السيدة خوخلاكوفا بحضوره مصادفة، فأرسلت تطلب إليه فوراً أن يجيء إليها دقيقة واحدة، فرأى أليوشا أن من الأفضل أن يلبي رغبة الأم أولاً، وإلا فمن الممكن أن ترسل إليه من يستدعيه من عندَ ليزا كل خمس دقائق، أثناء انصرافه إلى الحديث مع ليزا.

كانت السيدة خوخلاكوفا مضطجعة على كنبتها، مهتمة بحسن ملبسها أهتماماً خاصًا، وكان واضحاً أنها مضطربة اضطراباً عصبيًا شديدًا، فاستقبلت أليوشا بصيحات حماسية.

- منذ قرون، منذ قرون ما رأيتك! أسبوع كامل، كيف يُمكن هذا؟ ولكن لا!... لقد جئت منذ أربعة أيام، جئت يوم الأربعاء الماضي. أأنت ذاهب إلى ليزا لا شك أنك كنت تريد أن تمضي إليها سائرًا على رؤوس الأصابع حتّى لا أسمعك. يا صديقي العزيز، يا صديقي العزيز جداً ألكسي فيدوروفتش، ليتك تعلم مدى القلق الذي تسببه لي حالة ابنتي! ولكنني سأكلمك عن هذا الأمر فيما بعد. ولو أن هذا أهم شيء، ولكن فيما بعد، فيما بعد! عزيزي ألكسي فيدوروفتش، إنني أعهد إليك بابنتي ليزا. إنني منذ موت الشيخُ زوسيما، رحمه الله «وهنا رسمت السيدة إشارة الصليب»، أعدك ناسكًا، رغم أنك ترتدي رداءك الجديد على أجمل زي.

أين عثرت على خياط بارع هذه البراعة؟ ولكن لندع هذا الآن، ليس هذا أهم شيء، سنتحدث عن هذا فيما بعد. سامحني إذًّا ناديتك أحياناً باسم أليوشا فقط. أنا امرأة عجوز، فكل شيء جائز لي «قالت السيدة خوخلاكوفا هذا وهي تبتسم في دلال وغنج».

ولكن لندع هذا الآن. سنتحدث عنه فيما بعد. إنّ الشيء الأساسي هو أن لا أنسى الأمر الأساسي. ذكرني بذلك عندَ اللزوم، فإذا ثرثرت فابتعدت كثيرًا عن الموضوع، فعليك أن تقاطعني سائلاً: «والأمر الأساسي؟». ولكن أني لي أن أعرف الآن ما هو الأمر الأساسي! منذ نقضت ليزا العهد الذي قطعته لك - عهد الطفلة يا ألكسي فيدوروفتش، أعني عهدها بأن تتزوجك - فلا شك أنك أدركت أن ذَلكَ كلّه لمّ يكن إلا ثمرة خيال مضطرب عندَ بنت صغيرة مريضة طال سكونها وجمودها على كرسيها المتحرك. الحمد لله على أنها أصبحت قادرة على أن تمشي الآن! إنّ ذَلكَ الطبيب الجديد الذي استقدمته كاتيا من موسكو لأخيك المسكين الذي سوف يحاكم غداً... ولكن فيم الكلام على الغد! إني متى تصورت هذا الغد أوشك أن أموت جزعاً. ذَلكَ من الحشريّة خاصة. المهم أن هذا الطبيب قد جاء إلينا أمس وفحص ليزا ودفعت لهُ أجرًا قدره خمسون روبلاً. ولكن لا، ها أنذا ابتعد عن المسألة مرة أخرى... ليس هذا ما كنت أريد أن... لقد فقدت تسلسل أفكاري تماماً كما ترى. ذَلكَ أنني متعجلة. لماذا أتعجل هذا التعجل؟ لا أدري. أصبحت لا أعرف شيئاً ولا أفهم شيئاً. لقد اختلط كل شيء في ذهني، حتّى صار كالعقدة. إنني أخشى أن تفر من لحظة إلى أخرى ضجرًا وسآمة مما أقول مع أنني لمّ أكد أراك رباه! ما لي نسيت! نحن نثرثر هنا، بينما... ولكن يجب أن نشرب القهوة أولاً. يا جوليا، يا جلافيرا، هاتوا القهوة، هاتوا القهوة حالاً.

أسرع أليوشا يشكرها قائلاً إنه قد شرب القهوة منذ قليل.

- عندَ من؟

- عندَ أجرافينا السكندروفنا.

- عندَ تلك... تلك المرأة؟ ولكنها سبب هلاكهم جميعاً. لست أدري على كل حال. يُقال إنها أصبحت أشبه بقديسة، وإن جاء هذا متأخرًا في رأيي... كانَ ينبغي أن يخطر ببالها ذَلكَ من قبل، يوم كانَ ذَلكَ ضروريًا ومفيدًا. أمّا الآن فما الفائدة؟ اسكت، اسكت يا ألكسي فيدوروفتش، لأن هناك أشياء كثيرة أريد أن أقولها لك، أشياء تبلغ من الكثرة إنني أخشى أن أفقد تسلسل أفكاري فلا أقولها أبدًا. وتلك المحاكمة الرهيبة... سوف أحضرها مهما كلف الأمر... إنني استعد لحضورها، سوف يأخذونني إلى المحكمة على كرسي. ثمّ إني أستطيع جداً أن أبقى جالسة وسيكون بقربي أناس يسندونني. لا شك أنك تعلم أني دعيت إلى الشهادة. ماذا أقول لهم، ماذا أقول؟! إنني لا أعرف البتة ما أستطيع أن أقوله لهم. سوف يكون علي أن أحلف يمينًا، أليس كذلك؟ قل لي...

- نعم، ولكنني أظن أنك في حالة لا تمكنك من المثول أمام المحكمة.

- أستطيع أن أبقى قاعدة. أوه... ولكنك تفقدني تسلسل أفكاري. تلك المحاكمة، تلك الجريمة البشعة، ثمّ ذَلكَ الرحيل إلى سيبريا التي سيذهبون إليها جميعاً. سيتزوج أناس آخرون أثناء ذَلكَ؟ ما أسرع ما تمضي الحياة! كل شيء يجري، كل شيء يتغير، ثمّ لا يبقى أخيراً شيء، لا يبقى إلا عجائز يتربص بهم الموت. ليكن، ليكن... إنني أشعر بإعياء. إنّ كاتيا هذه «الإنسانة الفتانة» - قد حطمت جميع آمالي: إنها تنوي الآن أن تلحق بأحد أخويك إلى سيبيريا. وسيلحق بها أخوك الثاني إلى هناك، فيعيش في مدينة مجاورة. وبذلك لا يزيدون على أن يعذب بعضهم بعضاً. إنّ ذَلكَ يفقدني صوابي، أؤكد لك... ولا سيما بسبب ما نشر في الصحف عن هذه القضية. إنّ جرائد سان بطرسبرج وموسكو مليئة بأخبار هذه القضية منذ أسابيع. آه... نعم... تخيل أنهم تكلموا في هذه الصحف عني أنا أيضاً، زاعمين أنني كنت الصديقة العزيزة جداً لأخيك! إنني لأشمئز من استعمال الألفاظ النابية. هل تستطيع أن تتخيل أمر كهذا الأمر، قل لي، هل تستطيع أن تتصوره؟

- مستحيل. أين وكيف نشر هذا الكلام؟

- سأريك الآن. لقد نشر في جريدة «الشائعات»[217] التي تصدر في سان بطرسبرج، وقدْ وصلتني الجريدة أمس، فأسرعت أقرؤها. إنّ هذه الجريدة قد بدأ صدورها في هذه السنة وأنا أحبّ الشائعات حبًا شديدًا، لذلك اشتركت في الجريدة. هل كانَ في وسعي أن أتنبأ أن الشائعات ستتناولني أنا، ها هي الشائعات! اقرأ، اقرأ، الكلام هنا، في هذا الموضع.

قالت السيدة خوخلاكوفا ذَلكَ ومدت إلى أليوشا ورقة جريدة كانت قد أخفتها تحت وسادتها.

كانت السيدة خوخلاكوفا في حالة انهيار نفسي شديد. ليس الأمر في هذه المرة أمر نوبة من نوبات اعتكار المزاج، وإنما هو هزة قوية أصابت كيانها كلّه، ولعل أفكارها قد بلغت في هذه الساعة من الاضطراب والبلبلة والتشويش أنها أصبحت في رأسها أشبه بغيوم متكاثفة. إنّ الشائعة التي نُشرت في الجريدة المذكورة تتضمن غمزة واضحة وتعريضة ساخرة لا بد أن يحدث في نفسها أثراً أليمًا جداً. ومن حسن حظها، مع ذَلكَ، أنها كانت في تلك اللحظة عاجزة عن تركيز فكرها على موضوع واحد. فبفضل ذَلكَ إنما كانت تستطيع أن تنسي المقالة الفاضحة بعد دقيقة، وأن تنتقل إلى موضوعات أخرى

يجري عليها الحديث. ولا شك أن أليوشا كانَ لا يجهل أن كلامًا كثيرًا قد نشر في صحف روسيا كلها عن هذه القضية الفظيعة ولا شك أنّه قد قرأ خلال هذين الشهرين كثيراً من الأنباء والمقالات الفظيعة التي تفتق عنها خيال المتخيلين والتي لا تمت إلى الواقع بصلة «إلى جانب المعلومات الصحيحة عن أخيه، وعن آل كارامازوف جملة، وعنه هو أيضاً. من ذَلكَ مثلاً ما نشرته إحدى الصحف من أن أليوشا قد بلغ من الذعر في أعقاب الجريمة الرهيبة التي اقترفها أخوه أنّه اعتصم بدير من الأديرة، ليعيش حياة الرهبان. وقدْ أيدت جريدة أخرى هذا النبأ، ولكنها أضافت إليه أنّه قد سرق صندوق الدير متعاونًا مع شيخه زوسيما، ثمّ لاذ الاثنان بالفرار معاً. أمّا الشائعة التي نُشرت في جريدة «الشائعات» فقد كانَ عنوانها ما يلي: مراسلنا في سكوتو بريجونيفسك يكتب إلينا عن قضية كارامازوف

«ذَلكَ هو مع الأسف اسم مدينتنا الصغيرة التي لمّ أجرؤ أن أسميها حتّى الآن[218] ». إنّ المقالة قصيرة، ولم تذكر فيها السيدة خوخلاكوفا بالاسم. ولقد أغفل على وجه العموم ذكر جميع أسماء الأشخاص، واقتصر على الإشارة إلى أن المجرم الذي أحدثت جريمته ضجة كبرى، والذي سيحاكم قريبًا، هو ضابط جيش محال على التقاعد برتبة نقيب، متغطرس كسول من ملاكي الأقنان السابقين، هذا إلى أنّه زير نساء مستهتر، كانَ لهُ بعض التأثير في نساء عديدات أضجرتهن الوحدة، فمن هذه السيدات «أرملة عاطلة» كانت تتصابى وتحاول أن تبدو شابة مع أن لها بنتاً بالغة راشدة، وقدْ بلغت من الافتتان بهذا الرجل الدنيء أنها عرضت عليه قبل وقوع الجريمة بساعتين في أكثر تقدير، أن تعطيه ثلاثة آلاف روبل، ليوافق على اختطافها والسفر معها إلى مناجم الذهب فوراً. ولكن الشقي آثر أن يقتل أباه ليسلبه ثلاثة آلاف روبل، أملاً أن لا تكشف جريمته، مفضلاً أن يتعرض لهذا الخطر على أن يرحل إلى سيبريا في صحبة السيدة العاطلة التي تنعم بمفاتن سنّ الأربعين. واختتمت المقالة على نحو ما يجب أن تختتم فعبرت عن أشد الاستنكار لهذه الجريمة الفظيعة التي ارتكبها

قاتل أبيه بنذالة ما بعدها نذالة ولم تنس في الوقت نفسه أن تدين نظام الرق الملغى.

قرأ أليوشا المقالة باهتمام واستطلاع، ثمّ طوى ورقة الجريدة وردها إلى السيدة خوخلاكوفا.

تمتمت تقول من جديد:

- هذا عني أنا، عني أنا، أليس كذلك؟ لا شك أبدًا في أنّه عني أنا. لقد نصحته فعلاً، قبل وقوع الجريمة بساعة أن يذهب إلى مناجم الذهب. فانظر ماذا خرج من ذَلكَ فجأة: مفاتن سنّ الأربعين! لقد فعل ذَلكَ عامدًا! أسأل الله أن يغفر لهُ «مفاتن سنّ الأربعين» هذه مثلما أغفرها لهُ أنا. ذَلكَ أن كاتب هذه المقالة هو... لا بد أنك تعرف من هو... إنه صديقك راكيتين.

قال أليوشا:

- هذا جائز جداً. ولكنني كنت أجهل ذَلكَ.

- إنه هو، هو. ليس هذا جائزة بل هو أكيد والسبب أنني طردته من منزلي. أظن أنك علمت بهذا الحادث.

- أعرف أنك طلبت منه أن لا يتردد إلى بيتك أمّا السبب الذي دفعك إلى هذا القرار، فأعترف أني لمّ أعلم به... لمّ أعلم به منك على الأقل.

- إذًا علمت به منه هو؟ أهو حاقد علي كثيرًا، وغاضب مني جداً؟

- نعم، هو غاضب، ولكنه غاضب من جميع الناس. أمّا السبب الذي من أجله أغلقت بابك دونه، فإنه هو الآخر لمّ يذكره لي. وأنا على وجه العموم لا أراه إلا نادرًا. ليس هو صديقي.

- طيب. سأقول لك الحقيقة كلها. لا ضير. ثمّ إنني نادمة على شيء من الأشياء في هذه المسألة، إنّ هناك عنصرًا صغيرًا أنا مسؤولة عنه. هو أمر بسيط، بسيط جداً، أمر تافه لا قيمة لهُ، حتّى لقد لا يكون لهُ وجود إلا في خيالي. اسمع يا بني العزيز «هنا بش وجه السيدة خوخلاكوفا وارتسمت على شفتيها ابتسامة رائعة وإن تكن لا فهم فكأنها لغز»... اسمع... إنني أشتبه في أنّه... سامحني يا أليوشا، فإنما أنا أخاطبك كما تخاطب أم ابنها... أقصد... لا... إنّ عكس هذا هو ما أردت أن أقوله... إنني أخاطبك كما أخاطب أب... إذ لا مجال للحديث هنا عن أم... لا قيمة لهذا على كل حال... المهم أنني أكلمك كما كانَ يُمكن أن أكلم الأب زوسيما معترفة. ذَلكَ هو أحسن تشبيه هنا. ألم أصفك منذ قليل بأنك راهب ناسك؟... فاسمع إذن: إنّ هذا الشاب الشقي، صاحبك راكيتين... «أوه.. رباه! إنني لا أستطيع أن أغضب منه حقاً! أنا مستاءة وحانقة... ولكن على ضعف...» الخلاصة: إنّ هذا الشاب الطائش المسكين قد أولع بي فجأة... تصوّر! أنا لمّ ألاحظ ذَلكَ إلا فيما بعد، فيما بعد. أمّا في البداية أي منذ شهر فأصبح يكثر من زيارتي، وأصبح يجيء إليَّ كل يوم تقريباً، رغم أننا متعارفان منذ زمن طويل. لمّ أشتبه في شيء لمّ يخطر ببالي شيء. ولكن ها أنذا ألاحظ قبس من نور على حين فجأة، وها أنذا أخذ أنتبه إلى بعض الأشياء. أنت تعلم أنني أصبحت منذ شهرين أستقبل في كثير من الأحيان ذَلكَ الشاب الطيب الرائع المتواضع الرصين، بيتر ايلتش برخوتين، الموظف في مدينتنا. لقد التقيت أنت به عندي مرارًا على كل حال. إنه شاب جاد كل الجد، لائق كل اللياقة، ألاّ ترى ذَلكَ؟ إنه يجيء إلى بيتي مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، أقصد أنني لا أراه في جميع الأيام، «ولست أجدْ أي ضير في أن يجيء كل يوم على كل حال». هو دائماً حسن الهيئة جيد الهندام. أنت تعرف أني أحبّ الشباب يا أليوشا، الشباب المتواضعين الذين يملكون مواهب عظيمة، من أمثالك أنت مثلاً يا أليوشا. أمّا هذا الشاب فله ذكاء يجعله مساويًا لرجل دولة. وما أجمل حديثه! سوف أتوسط لهُ لدى الأوساط العليا، نعم، نعم، سوف أتوسط لهُ حتماً. سيكون في المستقبل دبلوماسيًا من الطراز الأول. وقدْ أنقذ حياتي تقريباً في ذَلكَ اليوم الرهيب. أنقذني من موت محقق حين جاء إليَّ في الليل. أمّا صديقك راكيتين، فإنه يجيء دائماً بحذاءيه الضخمين يجرهما على السجاد جرة. الخلاصة: أخذ راكيتين يسمعني تلميحات في أول الأمر، وفي ذات يوم شد على يدي شدّة قوية حين انصرف. فما إنّ شذ على يدي ذَلكَ الشذ حتّى شعرت بألم في ساقي. وقدْ التقى عندي ببيتر ايلتش مرارًا، ولكنه ما انفك يسفهه ويعيبه وينتقده دون سبب. واقتصرت أنا علي أن ألاحظهما كليهما، فكان يسليني أن أرى كيف يعامل كل منهما الآخر. وإني وحدي في ذات مرة وكنت في تلك الآونة قد أصبحت مضطرة إلى الاضطجاع إذًا بميخائيل إيفانوفتش يجيئني حاملاً إليَّ أشعارًا.... تصوّر!... هي قصيدة صغيرة أوحت إليه بها ساقي المريضة. انتظر. سأنشدك الأبيات:

كيف للساق الجميلة

كيف للساق اللذيذة

أن تعاني المًا

ياإلهي...

شيء من هذا القبيل... نسيت التتمة. يصعب علي دائماً حفظ الشعر. لا بأس على كل حال. لقد خبأت القصيدة في مكان قريب جداً. سوف أطلعك عليها فيما بعد. ولكنها رائعة، حقاً. هي لا تتحدث عن ساقي فحسب، بل تتحدث عن أكثر من ذَلكَ، لأنها تتضمن فكرة أخلاقية هامة جداً. يؤسفني أنني لا أتذكر الآن تلك الفكرة. الخلاصة: إنّ هذه القصيدة تستحق أن تحفظ في ألبوم. وقدْ شكرته طبعاً، فسر بذلك سرورًا عظيماً، كما يبدو. وما إنّ شكرته حتّى دخل بيتر ايليتش فجأة، فإذا وجه ميخائيل إيفانوفتش يتجهم. أدركت أن وصول بيتر ايلتش قد أفسد عليه مشاريعه. ذَلكَ أنّه كانَ ينوي، ولا شك، أن يقول لي شيئاً بعد قراءة القصيدة. لقد أحسست أنا بذلك ولكن ها هو بيتر ايلتش يدخل في تلك اللحظة نفسها. أطلعت بيتر ايلتش على القصيدة طبعًا، ولكن دون أن أقول لهُ من الذي نظمها. على أنني واثقة، واثقة كل الثقة، من أنّه حزر، وإن كانَ ينكر ذَلكَ حتّى الآن. هو يدعي أنّه لمّ يحزر شيئاً. ولكنه يزعم ذَلكَ عامدًا. انفجر بيتر ايلتش ضاحكاً حين قرأ القصيدة ثمّ نقدها نقداً لاذعًا، فقال: «هي أشعار تافهة، جديرة بطالب من طلاب اللاهوت في أكثر تقدير». لقد ثار على رداءة القصيدة الصغيرة. وهذا صاحبك يستبد به حنق شديد على حين فجأة وكأنما جن جنونه، بدلاً من أن يضحك، قلت لنفسي: «آه... يا رب! لسوف يتضاربان!». قال راكيتين؛ «أنا ناظم القصيدة لقد كتبت هذه الأبيات من باب المزاح لأنني أرى أنّه لا يليق برجل أن يضيع وقته في النظم. ولكن أشعاري جميلة مع ذَلكَ». إنّ في النية إقامة نصب تذكاري لشاعركم بوشكين [219] لتغنيه بجمال سيقان النساء. وإن لأشعاري أنا اتجاهًا أخلاقيًا. أمّا أنت «قال ذَلكَ مخاطباً بيتر ايلتش»، فما أنت إلا رجل رجعي عاجز عجزًا تامًا عن فهم الصبوات العميقة للإنسانية. لقد ظللت غريبًا عن المشاعر النبيلة التي تهز قلوب أبناء الجيل الراهن. إنّ التقدم قد مرّ بقربك دون أن يلامسك، لأنك لست إلا موظفًا مرتشيا! أخذت أصرخ أنا أيضاً، ضارعة إليهما أن يسكتا ويهدءا. وليس بيتر ايلتش هذا بالرجل الهياب، هل تعلم ذَلكَ؟ ولكنه سرعان ما اصطنع لهجة رصينة وقورة رفيعة، فبعد أن أصغى إلى راكيتين ساخر الهيئة أخذ يعتذر لهُ قائلاً: «كنت أجهل أنك ناظم هذه الأبيات، ولو عرفت ذَلكَ لما قلت الكلام الذي قلته، بل لانبريت أطري الأبيات. يُقال إنّ الشعراء شديدو الحساسية سريعو الغضب... الخلاصة أنّه استهزأ به وسخر منه، ولكن بلهجة بدا ظاهرها على غاية اللباقة والكياسة. لقد شرح لي هو نفسه فيما بعد أن ذَلكَ كانَ تهكمة، لكنني ظننت في أول الأمر أنّه تكلم جادًا لا هازلاً ولقد كنت أثناء تلك المناقشة مضطجعة كاضطجاعي الآن أمامك، وكنت أتساءل: هل يليق بي أو لا يليق أن أطرد ميخائيل إيفانوفتش لأنه أجاز لنفسه أن يصرخ في بيتي وأن يهين ضيفي. فهل تصدّق ما سأقوله لك؟ كنت مضطجعة وقدْ أغمضت عيني وأخذت أفكر: «أمن اللياقة أن أطرده أم لا؟ ولا أستطيع أن أجيب، فأعاني معاناة رهيبة، بينما قلبي يدق: أأصرخ طالبة إليه أن ينصرف أم لا؟». كانَ هناك صوت يهيب بي: «اصرخي!»، وكان هناك صوت آخر ينصحني بأن لا أصرخ. فما إنّ سمعت هذا الصوت الثاني الذي ينصحني بأن لا أصرخ حتّى أخذت أصرخ فجأة وسقطت مغشيًا علي فجأة. وقام البيت وقعد كما تقدر. ونهضت بعد لحظات فقلت لميخائيل ايفنوفتش: «يؤسفني أن أقول لك إنني لا أحبّ أن أراك بعد اليوم في منزلي». هكذا طردته من بيتي. آه يا ألكسي فيدوروفتش، إني لأعلم حق العلم أنني أسأت التصرف. ولقد كذبت من جهة أخرى، لأنني لمّ أكن غاضبة منه في الواقع. ولكنني تصورت فجأة، نعم فجأة، أن تدخلي سيكون فيه كثير من الرفعة والتميز، وأن هذا المشهد سيكون جميلاً جداً. وهل تصدّق لقد كانَ هذا المشهد طبيعيًا، إلى درجة إنني طفقت أبكي، وظللت أبكي عدة أيام. ومع ذَلكَ كنت قد نسيت فجأة بعد الغداء كل شيء. وقدْ انقطع راكيتين عن زيارتي منذ أسبوعين، فكنت أتساءل: «هل يعقل حقاً أن لا يأتي بعد الآن قطّ؟». وظللت ألقي على نفسي هذا السؤال حتّى أمس، حين جاؤوني عندَ المساء بجريدة «الشائعات» هذه، فلمّا قرأت المقالة أوشكت أن أنقلب على ظهري. من ذا الذي يُمكن أن يكون قد كتب هذه المقالة إلا راكيتين نفسه؟ لقد عاد إلى مسكنه غاضبًا حانقًا، فلا بد أنّه جلس إلى مكتبه فوراً ليدبج هذه الرسالة الصحفية، ثمّ أرسلها إلى الجريدة التي سارعت إلى نشرها. حدث هذا منذ أسبوعين تماماً. ولكنني ألاحظ يا أليوشا أنني اتخبط في الحديث هنا وهناك، ناسية الأمر الأساسي الذي كنت أريد أن أكلمك فيه. ماذا تريد؟ ذَلكَ أقوى مني!

حاول أليوشا أن يدسّ كلمة فقال في خرافة:

- أنا اليوم مستعجل جداً لأصل إلى عندَ أخي في الساعة المحددة.

- صحيح، صحيح. لقد ذكرتني بالأمر. قل لي: ما هو المس؟ سألها أليوشا مدهوشيا:

- أي مسّ؟

- المسّ القضائي. المس الذي من أجله يغفر كل شيء. فمهما يقترف المرء من جرم، يغفر لهُ على الفور.

- بأية مناسبة تسألين هذا السؤال؟

- إليك الأمر: إنّ كاتيا هذه... آه...... ما أروعها من مخلوقة! ما أجملها من إنسانة، ولكني لمّ أستطع أن أعرف أيهما تحب. لقد كانت عندي منذ مدة، وعبثا حاولت أن أفهم منها شيئاً. جهد ضائع، وعناء لا جدوى منه لا سيما وأنها اتخذت مني على حين فجأة وضعًا سخيفًا جداً. إنها لا تتحدث معي إلا عن صحتي، ولا شيء غير ذَلكَ. لقد اصطنعت في مخاطبتي لهجة بلغت من التقيد بالرسميات أنني قلت لنفسي: «لا بأس، لا بأس، أسأل الله أن يرعاك يا عزيزتي!...» آ... نعم... كنت أسألك عن المسّ. وذلك بمناسبة وصول الطبيب.. هل تعلم أن في مدينتنا الآن طبيبًا جديدًا؟ ولكن لا بد أنك تعلم ذَلكَ، فهو طبيب من أطباء الأمراض العقلية، وأنت الذي استقدمته... لا ليس أنت، بل كاتيا... كاتيا أيضاً! إليك المسألة إذن: هذا رجل ليس بمجنون، ولكنه يُصاب فجأة بمس: لقد احتفظ بوعيه، وهو يعلم ماذا يفعل، ولكنه مع ذَلكَ ممسوس. لعل هذا ما جرى في حالة دمتري فيدوروفتش... لا بد أن ما أصابه... هذه نظرية حديثة اكتشفت منذ إعادة تنظيم محاكمنا. إنّ إعادة تنظيم القضاء هذه قد أحسنت إلينا جميعاً، ولولاها لمّ تعرف الم. لقد زارني الطبيب الجديد، وسألني عما حدث في تلك الأمسية، أقصد مسألة مناجم الذهب تلك: كانَ يريد أن أصف لهُ الحالة التي كانَ عليها أخوك. حقاً لقد كانَ أخوك في حالة مسن واضحة. جاء إليَّ صارخًا: «أريد مالاً، مالاً، أنا في حاجة إلى ثلاثة آلاف روبل، فأعطني ثلاثة آلاف روبل» ثمّ مضى،

وأصبح قاتلاً على حين فجأة. كانَ يقول: «لا أريد أن أقتل، لا أريد». ولكنه قتل. فلهذا السبب إنما سيغفرون لهُ، لأنه قاوم المس، ثمّ قتل بعد ذَلكَ.

قاطعها أليوشا يقول بلهجة فيها شيء من الضيق:

- ولكنه لمّ يقتل.

وأحس بتبرّم وقلق يستوليان عليه شيئاً بعد شيء.

قالت السيدة خوخلاكوفا:

- أعرف أنّه لمّ يقتل. إنّ العجوز جريجوري هو الذي قتل...

صاح أليوشا:

- جريجوري؟ كيف؟

- نعم، نعم، هو جريجوري. فبعد أن ضربه دمترى فيدوروفتش، لبث مغمي عليه مدة من الوقت، ثمّ نهض فرأى الباب مفتوحًا، فهرع ليقتل فيدور بافلوفتش.

- ولكن لماذا، لماذا، لأي هدف؟

- انتابه مسّ. لقد ضربه دمتري فيدوروفتش على رأسه، فلمّا أفاق من غيبوبته، كانَ المسّ قد استحوذ على عقله، فمضى يقتل. ولئن كانَ ينكر أنّه القاتل، فإن ذَلكَ لا يبرهن على شيء، لأن من الجائز جداً أنّه أصبح لا يتذكر. ولكن صدقني إذًا قلت لك إنّ من الأفضل، من الأفضل كثيرًا أن يكون دمتري فيدوروفتش هو الذي ارتكب الجريمة. ثمّ إنه هو الذي قتل. إنّ القاتل هو دمتري فيدوروفتش في الواقع، رغم أنني أؤكد أنّه جريجوري، وذلك أفضل، أفضل كثيرًا. لا تسئ فهمي. أنا لا أدعي أن من الأفضل أن يكون الأب قد قتله ابنه. لست أثني على قتل الابن أباه. بالعكس: أنا أؤمن بأن على الأبناء أن يحترموا آباءهم. ولكن من الأفضل مع ذَلكَ أن يكون هو القاتل. ولن تكون في حاجة إلى أن تشكو وتندب وتستنكر، ما دام قد قتل بغير وعي. أقصد أنّه كانَ واعيًا، ولكنه لا يعرف ماذا يفعل. لا، لا، يجب أن يغفروا لهُ أنا أؤيد تبرئته. لسوف تكون تبرئته مثلاً إنسانيًا جميلاً، ولسوف تتيح لنا أن نفهم حسنات إعادة تنظيم القضاء. كنت أجهل مزايا هذا النظام الجديد الذي يُقال إنه وجد منذ زمن. فما إنّ علمت بهذا الأمر أمس حتّى أحسست بشعور بلغ من القوة أنني أردت استدعاءك فوراً. وفي المستقبل، متى برئ أخوك، سيجب عليه حتماً أن يجيء إلى الغداء عندي منذ خروجه من المحكمة. سأدعو جميع معارفي وأصحابي، وسنشرب نخبّ إعادة تنظيم القضاء. لا أظن أن أخاك خطر جداً. ثمّ إنني سأدبر الأمر بحيث يكون عدد المدعوين كبيرًا، فإذا حدث شيء كانَ في الإمكان إخراجه من البيت. وبعد ذَلكَ يستطيع أن يستقر في مدينة أخرى كقاضي صلح، أو أن يعين لوظائف من هذا القبيل، لأن الذين عانوا الشقاء بأنفسهم يكونون خير القضاة. وأي إنسان يستطيع من جهة أخرى أن يزعم أنّه مبرأ من المس؟ إننا جميعاً مصابون بالمس، أنت وأنا وسائر الناس. ليست تعوزنا الأمثلة على ذَلكَ: هذا رجل يبدو في الظاهر هادئًا ويغني أغنية عاطفية. وفيما هو كذلك إذًا بشيء من الأشياء لا يرضيه، فيخرج مسدسة ويقتل أول قادم ثمّ يغفر لهُ كل شيء. لقد قرأت في الآونة الأخيرة قصة من هذا النوع، وقدْ أكد جميع الأطباء هذه الظاهرة. إنّ الأطباء في أيامنا هذه يؤكدون دائمًا، يؤكدون كل شيء. تصوّر أن ابنتي ليزا مصابة بمس. أمس اضطرتني إلى البكاء، وأمس الأول أيضاً. واليوم إنما اكتشفت الحقيقة، وهي أنها قد اعتراها مس. آه... ليتك تعلم كم تسبب لي ليزا من عناء! يبدو لي أنها فقدت عقلها. ترى لماذا استدعتك؟ أهي استدعتك أم أنت جئت من تلقاء نفسك؟

قال أليوشا وهو ينهض بحزم:

- بل هي استدعتني، وأنا ذاهب إليها. فصاحت السيدة خوخلاكوفا تقول وهي تبكي:

- ولكن يا صديقي العزيز، يا صديقي العزيز جداً ألكسي فيدوروفتش، الآن إنما وصلنا إلى الأمر الأساسي. شهد الله أنني أأكد إليك ليزا صادقة في ذَلكَ كل الصدق. لأن تستدعيك ليزا على غير علم أمها، فليس هذا بالأمر الخطير جداً. وما كانَ لي أن أوكل ابنتي بمثل هذه الطمأنينة إلى أخيك إيفان فيدوروفتش، سامحني إذًا قلت هذا، رغم أنني أعده، حتّى اليوم، شابًا تفيض نفسه فروسية. هل تتصور مع ذَلكَ أنّه زار ليزا، من غير أن أعلم أنا شيئاً؟

قال أليوشا مدهوشًا كل الدهشة:

- ماذا؟ كيف؟ متي زارها؟

ومع ذَلكَ لمّ يُعد إلى الجلوس، بل استمع إلى شروح السيدة خوخلاكوفا واقفاً.

- سأقصّ عليك كل شيء: ومن أجل هذا إنما استدعيتك فيما أظن. على أنني أصبحت لا أعرف أنا نفسي لماذا استدعيتك.

إليك الأمر: لقد زارني إيفان فيدوروفتش مرتين منذ عودته من موسكو. فأما في المرة الأولى فقد جاء من قبيل اللباقة بصفته صديقًا لا أكثر. وأما في المرة الثانية، وهي حديثة جداً، فقد كانت كاتيا عندي، فعلم بذلك، فجاء هو أيضاً. لست أطمع طبعاً في أن يشرفني بالمجيء إلى منزلي كثيرًا، لأنني أعرف مدى انشغاله في هذه الآونة... اعتقد أنك تفهم بسبب ميتة أبيك الفظيعة تلك[220].

... ولكن ها أنذا أعلم على حين فجأة أنّه عاد إلى منزلي لا ليزورني أنا، بل ليزور ليزا. حدث ذَلكَ منذ ستة أيام. حضر إليها، ومكث خمس دقائق، ثمّ ما لبث أن انصرف. لمّ أعلم بهذا إلا بعد ثلاثة أيام من جلافيرا، فدهشت دهشة شديدة. أسرعت أنادي ليزا، ولكنها لمّ تزد على أن ضحكت. وقالت تشرح لي: «كانَ يظن يا ماما أنك نائمة فجاء إليَّ يسأل عن صحتك». أغلب الظن أن هذا صحيح.

ومع ذَلكَ ليتك تعلم مدى ما تسببه لي ليزا من قلق! آه... يارب!... تصوّر أنها في ذات ليلة - حدث هذا منذ أربعة أيام، عقب زيارتك الأخيرة فوراً - قد انتابتها نوبة عصبية على حين فجأة: فكانت تصرخ وتئن كأنها مصابة بهستيريا. لماذا لا أصاب أنا بنوبات عصبية؟ فأنعم بهذا الترف؟ وتكرر ذَلكَ في الغد، وتكرر أيضاً في اليوم الذي تلاه وأمس، وفي نحو المساء بدأتْ تظهر عليها أعراض المس. صرخت تقول لي بغتة: «أنا أمقت إيفان فيدوروفتش. يجب أن لا تستقبليه يا ماما، يجب أن تمنعيه من دخول بيتنا!». ذهلت، وأجبتها بأن من المستحيل علينا أن نعامل على هذا النحو شابًا مثله كريم النفس رفيع الثقافة، شقيًا هذا الشقاء كلّه فوق ذَلكَ. ذَلكَ أن هذه القصص كلها إنما هي شقاء لا سعادة، ألاّ ترى هذا الرأي؟ فلم يكن من بنتي إلا أن أجابت على كلامي بقهقهة مجلجلة أحسست أن فيها إهانة جارحة لي. ومع ذَلكَ قلت لنفسي: «لا بأس، ما دمت قد استطعت أن أفرحها، فلعل نوباتها العصبية ستزول الآن». وكنت أنوي أنا نفسي، من جهة أخرى، أن أمنع إيفان فيدوروفتش من دخول بيتنا بسبب زياراته الغريبة هذه لابنتي بدون إذني. حتّى لقد كنت أريد أن أطلب منه شرحًا لذلك. ولكن ها هي ذا ليزا تثور على جوليا ثورة عنيفة في هذا الصباح منذ استيقظت، حتّى لقد بلغت من ذَلكَ أنها صفعتها، هل تتصور هذا؟ أليس هذا شذوذًا غريباً؟ لاحظ أنني أنا لا أخاطب خدمي أبداً بصيغة المفرد. وما انقضت على ذَلكَ ساعة حتّى كانت ليزا تعانق جوليا وتقبل قدميها. وفي مقابل ذَلكَ بعثت تبلغني أنها لن تجيء إليَّ، لن تجيء إليَّ قطّ، هل تستطيع أن تتصور مثل هذا؟ فلمّا جررت نفسي إلى غرفتها يائسة، ارتمت علي وغمرتني بقبلاتها وهي تبكي، وفيما هي تقبلني دفعتني إلى خارج الغرفة دون أن تنطق بكلمة واحدة، فلم أعرف آخر الأمر شيئاً. أضع آمالي فيك يا عزيزي ألكسي فيدوروفتش، ولا شك أنك تدرك أنك تمسك بيديك مصيري وحياتي. أضرع إليك أن تذهب إلى ليزا، وأن تكلمها كما لا يستطيع غيرك أن يكلمها. ثمّ عد إليَّ لتشرح لي ما يحدث في نفسها، ولتقص علي كل شيء، أنا أمها. ذَلكَ أنني سأموت، نعم سأموت إذًا استمرت تجري الأمور على هذه الحال زمناً طويلاً أيضاً، وإلا فسأهرب من هذا البيت تاركة كل شيء. لقد نفدت قدرتي على الاحتمال، وخارت قوتي. صحيح أن صبري واسع، ولكن لهذا الصبر حدودًا، فإذا بلغت هذه الحدود أمكن أن تقع أمور فظيعة... آه... يا رب!...

وفيما كانت السيدة خوخلاكوفا تقول هذا الكلام، إذًا هي تلمح الموظف برخونين داخلاً إلى الغرفة، فصاحت تقول وقدْ أشرقت أساريرها على حين فجأة:

- هذا بيتر إيليتش يصل أخيرًا! لقد تأخرت عن المجيء، تأخرت! هيه! اجلس، تكلم، قرر مصيري. ماذا قال المحامي؟ إلى أين تذهب يا ألكسي فيدوروفتش؟
- أنا؟ إلى ليزا...
- ها... نعم... صحيح... لن تنسى أن تفعل ما طلبته منك، أليس كذلك؟ على هذا يتوقف مصيري، نعم مصيري...
دمدم أليوشا يقول وهو يستعجل الخروج:
- لن أنسى، هذا إذًا وفقت إلى أن... لكنني تأخرت..
- لا، لا... إنّ عليك أن تعود إلى حتماً. لا أريد كلمة «إذًا وفقت».... وإلا مت!...
كذلك صاحت تقول السيدة خوخلاكوفا، ولكن أليوشا كانَ قد خرج.

- 3 -الشيطان الصغير

حين دخل إيليوشا غرفة ليزا وجد الفتاة نصف مضطجعة على الكرسي المتحرك الذي كانوا ينقلونها عليه في السابق حين لمّ تكن تستطيع أن تمشي بعد. لمّ تقم ليزا بحركة من أجل أن تهب إلى لقائه، وإنما حدقت إليه بنظرة ثاقبة نافذة. كانت عيناها مشتعلتين قليلاً، وكان وجهها الشاحب يبدو مصفرًا بعض الاصفرار. دهش إيليوشا من التغير الذي طرأ على مظهرها في غضون ثلاثة أيام. حتّى لقد لاحظ أنها نحلت بعض النحول. لمّ تمد إليه يدها، بل هو نفسه لامس أصابعها النحيلة الطويلة التي كانت جامدة على ثوبها. ثمّ جلس أمامها دون أن يقول كلمة.

قالت ليزا بصوت جاف:

- أعلم أنك تستعجل الذهاب إلى أخيك في السجن. لقد احتجزتك ماما ساعتين، ولم تزد على أن كلمتك عني وعن جوليا أثناء تلك المدة كلها.

سألها إيليوشا:

- كيف عرفت هذا؟

فأجابته:

- تنصت على الباب... لماذا تنظر إليَّ هكذا؟ إنه ليحلو لي أن أتنصت على أحاديث أمي، وسأظل أفعل ذَلكَ كلما شاء لي هواي ذَلكَ. لست أرى في هذا أي بأس، ولا يخطر ببالي أبدًا أن أعتذر عنه.

- ما الذي جعل مزاجك معتكرًا هذا الاعتكار؟

- أنا؟ بالعكس: أنا مسرورة جداً. لقد قلت لنفسي في هذه اللحظة نفسها، للمرة الثلاثين، إنني قد ألهمت حقاً حين نكثت بوعدي ورفضت أن أصبح زوجتك. أنت زوج لا يطاق. هبني تزوجتك، ثمّ كلفتك بأن تحمل رسالة إلى عشيقي: لسوف تقوم بهذه المهمة، ولن تقتصر على حمل الرسالة إليه بل ستجيئني بالرد أيضاً. وحين تبلغ الأربعين من العمر ستظل تحمل رسائل من هذا النوع متى كلفتك بذلك.

وأخذت ليزا تضحك. فقال إيليوشا مبتسمًا:

- إنّ فيك مزيجًا من الطيبة والخبث والسذاجة في آن واحد.

- أنا ساذجة لأنني لا أخجل منك. لا أتحرج أمامك، بل أرفض أن أخجل منك، نعم منك أنت بالذات. قل لي يا إيليوشا: لماذا أنا لا أحترمك؟ إنني أحبك كثيرًا، ولكنني لا أحترمك. وإلا لما استطعت أن أقول لك هذا في وجهك، أليس كذلك؟

- هو كذلك.

- هل تعتقد أنني لا أحترمك؟

- لا، لا أعتقد ذَلكَ.

ضحكت ليزا ضحكة عصبية مرة أخرى. كانت تتكلم بسرعة، في نوع من تعجل قلق مهموم.

- أرسلت سكاكر إلى أخيك دمتري فيدوروفتش في سجنه. إيليوشا، ليتك تعلم كم أنت لطيف! سوف أحبك كثيرًا لأنني أبحت لنفسي أن أكف عن حبك بمثل هذه السرعة.

- لماذا استدعيتني اليوم يا ليزا؟

- أردت أن أُنقل إليك رغبة. إنني أتمنى أن أُعَذَّب. أتمنى أن يتزوجني أحد، وأن يعذّب روحي بعد ذَلكَ: يخونني ويهجرني ويسافر. لا أريد أن أكون سعيدة.

- تحبين الفوضى إذن؟

- نعم، أحبّ أن أعيش في الفوضى. أحلم دائماً بإحراق المنزل. أتخيّل كيف سأقترب من العمارة، وأشعل فيها النار دون أن يراني أحد. يجب أن يتم هذا بالسر حتماً. ويهب الآخرون ويهرولون هنا وهناك محاولين إطفاء اللهب، ولكن اللهب ما ينفك يشتد. وأكون هناك، أرى كل شيء ولا أنطق بكلمة. هوه! تلك سخافات! إنني ضجرة، ضجرة ضجرًا رهيباً.

قالت ليزا ذَلكَ وحركت يدها الصغيرة بإشارة اشمئزاز.

قال إيليوشا في رفق ولين:

- إنك تعيشين في الثراء.

- أيكون من الأفضل أن أعيش في الفقر؟

- نعم، ذَلكَ أفضل.

- إنّ صاحبك الراهب الراحل هو الذي دسَّ في رأسك هذه الأفكار. ذَلكَ خطأ. فليبق الآخرون فقراء، أمّا أنا فأريد أن أكون غنية. آكل سكاكر، وأحصل على ما أطلب، ولا أعطي من ذَلكَ شيئاً لأحد. لا، لا، لا تقل لي شيئاً «قالت ليزا ذَلكَ وهي تحرك يدها بإيماءة تصد إيليوشا عن الكلام، مع أن إيليوشا لمّ يفتح فمه». لقد سبق أن قصصت علي تلك الحكايات. لقد حفظتها على ظهر قلب إنها مضجرة. لو كنت فقيرة لقتلت أحداً. ولو كنت غنية لقتلت أيضاً. لماذا أبقى دون أن أعمل شيئاً؟ أريد أن أحصد، هل تعلم؟

أريد أن أجني محصول القمح. سوف أتزوجك، وتصبح أنت فلاحًا، فلاحًا حقيقيًا. وسيكون عندنا مهر، مهر صغير جميل، هل تريد هذا؟ بالمناسبة: هل تعرف كالجانوف؟

- أعرفه.

- إنه يسير حالمًا طوال الوقت. يقول: «لماذا أحيا؟ الأولى أن أحلم. إنّ الإنسان يستطيع أن يحلم بأشياء مسلية، أمّا الحياة فهي مضجرة دائمًا». على أنّه سيتزوج قريباً. لقد صارحني بحبه، هل تتصور؟ صارحني أنا أيضاً. هل تعرف كيف تدوم خذروفا؟

- نعم.

- هو أشبه بخذروف: يكفي أن ترميه ثمّ تجعله يدور ويدور، وأنت تضربه وتضربه بسوط صغير. ذَلكَ ما سأفعله. سأتزوجه ثمّ أظل أجعله يدور طوال حياته كخذروف. ألاّ تشعر بخجل من الثرثرة معي!

- لا.

- لا بد أنك حانق من سماع ما أقوله من ترهات سخيفة إلى هذا الحد. أنا لا أحبّ أن أكون قديسة، هل تعلم؟ ما هو العقاب الذي ساعاقب به في الحياة الآخرة على الخطيئة الكبرى؟ لا بد أن تكون عالماً بهذه الأمور.

قال إيليوشا وهو يتفرس في وجه الفتاة بانتباه:

- سوف يحكم الله عليك.

- سوف يحكم علي. ذَلكَ بعينه ما أتمناه. أمثل أمام المحكمة، فيحكم علي، فأنفجر ضاحكة على حين غرة وأنا أحدق في أعين الجميع. آه... ما أعظم شوقي إلى إحراق المنزل، إلى إحراق منزلنا يا إيليوشا! أنت لا تصدّق، أليس كذلك؟

- لمّ لا؟ إنه ليتفق حتّى لأطفال في الثانية عشرة من أعمارهم أن يتمنوا إحراق شيء ما، ثمّ إذًا هم يفعلون ذَلكَ. هذا نوع من المرض.

- خطأ، خطأ! أعلم أن هناك أطفالا... ولكنني أتكلم عن شيء آخر.

- أنت تعدين الشرّ خيراً. هذه نوبة طارئة لن تدوم، ولا شك أنها من بقايا مرضك القديم.

- لا بد أنك تحتقرني كثيرًا حتّى تقول هذا الكلام. الحقيقة أبسط من ذَلكَ. أنا لا أحبّ عمل الخير، وأوثر عليه الشرّ. ذَلكَ كل ما في الأمر، وليس في هذا أي مرض.

- لماذا تحبين عمل الشرّ؟

- لأدمر كل شيء، فلا يبقى شيء. آه... ما أجمل أن أفتح عيني، فأرى أن كل شيء قد زال! أعلم يا إيليوشا أنني أحلم دائماً بأن أقترف سيئات كثيرة رهيبة. أظل أعمل زمناً طويلاً في الظلام والسر، ثمّ يكتشفون الحقيقة على حين فجأة سيهبون عندئذٍ جميعاً ضدي، وسيشيرون إليَّ بالأصابع. فلا أزيد أنا على أن أتفرس فيهم هادئة كل الهدوء. ما أمتع هذا! لماذا يكون هذا ممتعًا يا إيليوشا؟

- لا أدري، ولكني أعرف أنها هي الحاجة إلى تحطيم شيء ما، أو إشعال المنزل كما قلت أنت منذ هنيهة. هذه العواطف توجد في نفوسنا أحياناً.
- أنا لمّ أقل كلاماً عابثاً، لسوف أفعل ما قلت.
- أصدق.
- آه... ما أعظم ما أحبك لأنك تصدقني. أنت لا تكذب البتة، البتة، أليس كذلك؟ أم لعلك ظننت مع هذا أنني قلت ما قلت عامدة لأغيظك؟
- لا، لا أظن ذَلكَ... وإن كانَ من الممكن أن يكون فيك إلى جانب هذا شيء من حب الإغاظة.
- صحيح. هنالك قليل من الإغاظة في هذا. أعترف لك بذلك. ثمّ هتفت تقول فجأة وقدْ قدحت في نظرتها شرارة غريبة:
- لن أكذب أمامك أبدًا.
دهش إيليوشا خاصة مما كانَ في الفتاة من جد. لمّ يكن في وجهها الآن أثر لسخرية أو شيطنة، على حين أن المرح والابتسام العنيد كانا لا يفارقانها قبل ذَلكَ أبدًا حتّى في أخطر اللحظات.
قال إيليوشا مفكرًا:
- ثمة ساعات يحب فيها البشر الجريمة.
- صحيح، هذا هو تماماً! لقد عبرت عن تفكيري نفسه. البشر يحبون الجريمة. «جميع البشر يحبون الجريمة. يحبونها دائمًا، لا في بعض الساعات» فحسب، وكأن هناك اتفاق عامًا بين الناس على الكذب، في هذا الأمر ما من أحد يحب أن يكون صادقًا في هذه النقطة، هم جميعاً يؤكدون أنهم يكرهون الشرّ، مع أنهم يحبونه في سريرة أنفسهم.
- أمّا تزالين تقرئين كتبًا سيئًا؟
- نعم، وماما تحب هذه الكتب، وتخفيها تحت وسادتها. ومن هناك أسرقها.
- ألاّ تستحين أن تدمري روحك هذا التدمير؟
- أحبّ أن أدمر نفسي. في هذه المدينة فتى تمدد بين قضيبي السكة الحديدية ومر القطار فوقه. إنني أغبط هذا الفتى وأحسده على سعادته. انظرْ مثلاً: سيحكمون غداً على أخيك لأنه قتل أباه، والناس جميعاً يستحسنون أنّه قتله.
- الناس جميعاً يستحسنون أنّه قتل أباه؟
- هم مفتونون بذلك، مفتونون! صحيح أنهم يصيحون قائلين إنّ ذَلكَ فظيع، ولكنهم في قرارة أنفسهم مفتونون. وأنا نفسي مفتونة، أنا أول المفتونين.
قال إيليوشا في رفق:
- هناك جانب من حق في ما ذكرته عن مشاعر الناس. فصاحت ليزا تقول بصوت فيه كثير من الحماسة:
- يا سلام. ما هذه الفكرة؟ من ذا يصدق أن راهبًا يقول هذا الكلام؟ لا تستطيع أن تتصور يا إيليوشا مدى ما أكنه لك من احترام لأنك لا تكذب أبدًا. إسمع: يجب أن أقص عليك حلمًا مضحكًا أراه في بعض الأحيان. يتفق لي أن أرى في الحلم شياطين. أكون في الليل وحدي مع شمعة في الغرفة، وفجأة تنبجس الشياطين من جميع الأركان. من كل مكان، حتّى من تحت المائدة. يفتحون الباب، أرى في الخارج منهم جمهرة كبيرة أيضاً. يريدون أن يدخلوا ليقبضوا علي. يقتربون ويمدون مخالبهم وأرسم إشارة الصليب فإذا هم يتراجعون جميعاً وقدْ استولى عليهم الخوف. لكنهم لا ينصرفون تماماً، بل يتلبثون قرب الأبواب وفي أركان الغرفة. وأشعر عندئذٍ برغبة قوية في أن أسب الله بصوت عالٍ. وأخذ أشتم الربّ، فإذا بالشياطين يتجهون نحوي جمهرة من جديد، فرحين كل الفرح، جذلين كل الجذل، يهمون أن يقبضوا علي... ولكن... قف! أرسم إشارة الصليب مرة أخرى، فيتراجعون مذعورين. ذَلكَ أمر يجعلني أضحك حتّى تنقطع أنفاسي في بعض الأحيان.
قال إيليوشا فجأة:
- أنا أيضاً أرى هذا الحلم أحياناً.
صاحت ليزا تقول مدهوشة دهشة قوية:
- أهذا ممكن؟ لا تمزح يا إيليوشا، أرجوك لأن ما أقوله جد لا هزل. هل يُمكن أن يرى شخصان اثنان حلمًا واحدًا بعينه؟
- يُمكن جداً. عادت ليزا تقول وقدْ استبدَّت بها دهشة تبدو شديدة:
- إيليوشا، أكرر قولي: هذا أمر هام جداً. ليس الحلم نفسه هو الذي يدهشني هذا الإدهاش كلّه، وإنما يدهشني أن ترى أنت في الحلم عين ما أرى أنا. أنت لا تكذب علي قطّ، فقل لي الحقيقة هذه المرة أيضاً: أصحيح ما أفضيت به إلى الآن؟ ألم تكن مازحًا؟
- هي الحقيقة بعينها. قالت ليزا فجأة بصوت متوسل:
- إيليوشا زرني كثيراً، زرني أكثر مما تزورني الآن. قال إيليوشا بلهجة جازمة:
- سأزورك دائماً، سأزورك طوال حياتي. عادت ليزا تقول:
- أنت الإنسان الوحيد الذي أفتح لهُ قلبي هكذا. أنا لا أتكلم بصدق إلا مع نفسي ومعك. أنت الإنسان الوحيد الذي أثق به وأركن إليه في هذا العالم. وإني لأحبّ أن أتحدث إليك أكثر مما أحبّ أن أتحدث إلى نفسي. زد على ذَلكَ أني لا أخجل منك البتة يا إيليوشا. لماذا لا أخجل البتة؟ هل صحيح يا إيليوشا أن اليهود يسرقون الأطفال ليذبحوهم في عيد الفصح؟
- لا أدري.
- عندي كتاب يصف محاكمة يهودي، يُقال إنه قطع أولاً أصابع يدي طفل صغير في الرابعة من عمره، ثمّ صلبه بعد ذَلكَ على جدار، دقه بمسامير. وقدْ أكد أمام المحكمة أن الصبي الصغير مات بسرعة، بعد أربع ساعات... هذا سريع حقاً! ويقال إنّ الصبي ظلّ يئن بغير انقطاع، وإن اليهودي كانَ يُنظَر إليه مستمتعًا بالمشهد ما أحسن هذا!
- أهذا حسن؟
- نعم، حسن. أقول لنفسي في بعض الأحيان إنني أنا التي صلبت هذا الطفل. أراه معلقًا يئن، وأرى نفسي جالسة أمامه آكل الأناناس بالسكر. إني أحبّ كمبوت الأناناس بالسكر كثيرًا. وأنت؟
كانَ إيليوشا يُنظَر إليها صامتًا. وهذا وجه ليزا الشاحب الأصفر ينقبض فجأة، وهذا لهب يطوف بعينيها.
- حين قرأت تلك القصة عن اليهودي، ظللت أبكي طوال الليل، هل تعلم؟ كنت أتخيّل صرخات الطفل وأناته «إنّ طفلاً في الرابعة من عمره ليدرك ما يقع لهُ» ثمّ لا أزيد أنا على أن أحلم بالأناناس بالسكر. فلمّا طلع الصبح بعثت برسالة إلى أحدهم طالبة إليه أن يجيئني حتماً. جاء. قصصت عليه حكاية الطفل والأناناس. قلت لهُ كل شيء، وأضفت: «هذا حسن». فانفجر في قهقهة كبيرة، وأعلن أن هذا حسن جداً في الواقع، ثمّ نهض وانصرف. لمّ يمكث عندي إلا خمس دقائق. احتقرني، هه؟ قل لي يا إيليوشا أهو احتقرني أم لا؟
هكذا هتفت ليزا وهي تنتصب على كرسيها المتحرك وقدْ ومضت عيناها ببريق ساطع.
قاطعها إيليوشا يسألها وقدْ اضطرب اضطراباً شديدًا:
- قولي: أأنت التي استدعيته؟
- أنا التي استدعيته.
- برسالة؟
- نعم، برسالة.
- أمن أجل أن تسأليه عن أمر ذَلكَ الطفل؟
- لا، ليس من أجل هذا، ليس من أجل هذا أبدًا.
ولكن حين دخل غرفتي أسرعت ألقي عليه سؤالاً عن موضوع الطفل. فأجابني ضاحكاً، ثمّ نهض وخرج.
قال إيليوشا في رفق:
- لقد أحسن التصرف معك.
- ولكنه احتقرني، أليس كذلك؟ سخر مني؟

- لا... لأن من الجائز جداً أن يكون هو نفسه مقتنعًا بمزايا الأناناس بالسكر. إنه مريض جداً يا ليزا هو أيضاً.
هتفت ليزا تقول وقدْ التمعت عيناها:
- نعم نعم، هو مقتنع بذلك. وتابع إيليوشا كلامه فقال:
- إنه لا يحتقر أحداً، لكنه لا يؤمن بأحد. ومتى لمْ يؤمن بأحد فلا بد أن يحتقر في آخر الأمر حتماً.
- وأن يحتقرني أنا إذًا أيضاً؟ أيحتقرني أنا أيضاً؟
- أنت أيضاً. قالت ليزا في حنق شديد.
- طيب، طيب. حين خرج من عندي ضاحكاً أحسست أن من الممتع للمرء أن يشعر بأنه محتقر. إنّ الطفل المقطوع الأصابع شيء رائع، وجميل جداً أن يحتقر المرء...
وانطلقت ليزا تضحك ضحكاً مجلج وهي تحدق إلى إيليوشا في عينيه. وصاحت تقول فجأة وهي تشب واقفة من كرسيها المتحرك وتطوقه بذراعيها بقوة:

- هل تعلم يا إيليوشا ؟ هل تعلم؟ أود لو... أنقذني يا إيليوشا! ثم كررت تقول بصوت يشبه في هذه المرة أن يكون أنيناً:
- أنقذني يا إيليوشا. من ذا الذي كان يمكنني أن أفضي إليه بما قلته لك اليوم؟ وما اعترفت لك به كان هو الحقيقة مع ذلك، كان هو الحقيقة صافية. أوه. سوف أقتل نفسي، لأنني أشمئز من كل شيء! أصبحت لا أريد أن أحيا، لأني سئمت من كل شيء. كل شيء! كل شيء يثير في نفسي الاشمئزاز. إيليوشا، لماذا لا تحبني البتة؟ إنك لا تحبني قط...
بهذا ختمت ليزا كلامها منفعلة. فقال إيليوشا محتجاً بحرارة :
- بل أنا أحبك.
- أفسوف تبكي علي؟
- سوف أبكي عليك.
- لا أريد أن تبكي علي لأنني رفضت أن أتزوجك، بل أن تبكي لغير سبب، هكذا، هل تفهم؟
- سوف أبكي.
- شكراً. أنا ظمأى إلى دموعك. أما الآخرون فليحكموا عليّ، وليدينوني، ليسحقوني جميعاً، جميعاً، جميعاً، دون استثناء أحد! لأنني لا أحب أحداً. هل سمعت؟ لا أحب أحداً، لا أحب أحداً البتة. إنني أكرههم جميعاً.
ثم أضافت وهي تتركه فجأة:
- إذهب الآن يا إيليوشا. لقد آن أن تمضي إلى أخيك.
سألها إيليوشا شبه مذعوراً:
- كيف أتركك وأنت في هذه الحالة؟
- إذهب إلى أخيك. سوف يغلقون السجن بعد قليل. أسرع.
إليك قبعتك. قبّل ميتيا. انصرف. انصرف الآن.
قالت ليزا ذلك ودفعته إلى خارج الغرفة دفعاً يشبه أن يكون إخراجاً بالقوة. فكان إليوشا ينظر إليها مدهوشاً دهشةً أليمة، ثم إذا هو يشعر فجأةً بأن ورقةً مطوية توضع في يده اليمنى. إنها رسالة صغيرة. ألقى نظرةً على العنوان فقرأ: «إلى إيفان فيدوروفتش كارامازوف». فشخص ببصره إلى ليزا بقوة، ولكن وجه الفتاة كان يعبر عندئذٍ عن معنى يكاد يكون هو التهديد. وأمرته بصوت مندفع، وهي ترتعش من رأسها إلى قدمها:
- اعطه هذه الرسالة، اعطه إياها حتماً، اعطه إياها اليوم، فوراً، وإلا شربت سماً. من أجل هذا إنما استدعيتك.
وأغلقت الباب وراءه فجأةً. وسمع صوت المزلاج يدفع. وضع إيليوشا الرسالة في جيبه، وهبط السلم دون أن يمر بالسيدة خوخلاكوفا التي كان قد نسي وجودها. فما إن ابتعد حتى سحبت ليزا المزلاج من جديد، وشقت الباب قليلاً، فأدخلت إصبعها في الشق، ثم عادت تغلق الباب بحركةٍ مفاجئة. انقضت عشر ثوانٍ أخرجت ليزا بعدها إصبعها واتجهت تجلس على مقعدها بخطى بطيئة، جلست عليه منتصبة القامة تماماً، وأخذت تتفرس في إصبعها التي اسودت وفي الدم الذي تفجّر تحت ظفرها. كانت شفتاها تختلجان، ودمدمت تقول مراراً بسرعة:
- حقيرة، شريرة، شريرة؟

كان الوقت متأخراً جداً حين طرق أليوشا باب السجن (تعلمون أن النهار قصير عندنا في نوفمبر). لقد هبط الليل. ولكن أليوشا يعلم أنهم لن يضعوا عقبات في سبيل دخوله على ميتيا. كان كل شيءٍ، في مدينتهم الصغيرة، يجري كما تجري الأمور في أي مكانٍ آخر. ففي الأونة الأولى التي أعقبت الاعتقال، وبعد التحقيق التمهيدي، كان الوصول إلى السجن صعباً، وكان على الأهل أو الأصدقاء الذين يرغبون في رؤية السجين أن يقوموا ببعض الإجراءات الرسمية. ولئن لم تهمل هذه الأنظمة بعد ذلك، فقد استثني منها عددٌ من الأشخاص. حتى لقد أصبح يسمح لميتيا في بعض الأحيان أن يكلّم زواره في غرفة المقابلات دون رقيب. على أن عدد هؤلاء المستثنين كان محدوداً. إنهم: جروشنكا، وأليوشا، وراكيتين. فأما جروشنكا فقد كانت تحظى من رئيس الشرطة ميخائيل ماكاروفتش بعطف خاص. كان هذا العجوز يريد إصلاح خطأه الذي ارتكبه حين قذفها بما قذفها به من شتائم في موكرويه. إنه حين علم حقيقة الأمر فيما بعد، غير رأيه في المرأة الشابة تغييراً تاماً، ومن غريب الأمور أنه على بقائه مقتنعاً اقتناعاً جازماً بارتكاب ميتيا الجريمة، قد رق لمينتيا شيئاً فشيئاً منذ اعتقاله، وكان يقول لنفسه: «إنه رجل طيب تفيض نفسه خيراً، ولكن السكر والاضطراب النفسي قد أورده موارد الهلاك!». إن نوعاً من الشفقة قد حل في نفس رئيس الشرطة محل الكره الذي شعر به في أول الأمر. وأما أليوشا، الذي يعرفه رئيس الشرطة منذ زمن طويل فقد كان يحبه رئيس الشرطة كثيراً. وأما راكيتين الذي أخذ يزور ميتيا في سجنه كثيراً منذ زمن، فقد كان على علاقات طيبة متصلة «بآنسات رئيس الشرطة»، كما كان يسميهن، وكان يُرى في منزل رئيس الشرطة كل يوم تقريباً. زد على ذلك أنه كان يعطي دروساً لأولاد مفتش السجن، وهو عجوز طيب لطيف، ولكنه متشدد في القيام بواجبه لا تلين له في ذلك قناة. وكان أليوشا، هو أيضا، على صلة وثيقة بهذا المفتش، فهو يعرفه منذ مدّة طويلة وكان المفتش يحب أن يتحدث معه في «الشؤون المقدسة». أما إيفان فيدوروفتش فكان المفتش يحترمه بل ويخشاه، يهاب قوّة فكره خاصةً، رغم أنه كان يعد نفسه فيلسوفاً كبيراً بلغ هذه الدرجة من المعارف بعقله نفسه. وفي مقابل ذلك، كان المفتش يشعر نحو أليوشا بمحبةٍ لا سبيل إلى مقاومتها. لقد شرع أثناء هذه السنة الأخيرة في دراسة الأناجيل المزيّفة، فكان ما ينفك يُطلع صديقه الشاب على ما يجول في ذهنه من أفكار. حتى لقد كان في الماضي يسعى إليه في الدير، ويظل يناقشه ويناقش الكهنة من الرهبان ساعات.

جملة القول، إنه لم يكن على أليوشا حين يصل إلى السجن متأخراً إلا أن يذهب إلى مفتش السجن، فإذا بكل شيء يجري هيناً ليناً. أضف إلى ذلك أنَّ جميع موظفي السجن حتى أصغر حارس، كانوا قد ألفوا أليوشا. والموظف لا يضع العقبات متى كانت السلطات تغمض أعينها، وكان ميتيا يترك زنزانته متى نودي، وينزل إلى القاعة التي تتخذ مكاناً للمقابلة.

فلما دخل أليوشا هذه الغرفة، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام راكيتين الذي يتهيأ للانصراف. كان راكيتين يتحدث بصوتٍ عالٍ إلى ميتيا الذي يشيعه ضاحكاً ضحكةً قويّةً جداً بينما راكيتين يتذمّر. إنَّ راكيتين قد أصبح منذ زمن يمتعض من لقاء أليوشا، ويتجنب أن يكلّمه، ولا يحييه إلا على مضض، فلما لمح أليوشا في هذه المرة، قطب حاجبيه وأشاح عينيه، وتظاهر بانهماكه في عقد أزرار معطفه الشتوي ذي الياقة الفرائية، ثم انهمك بعد ذلك في البحث عن مظلته، ودمدم يقول من أجل أن يقول شيئاً ما:

- أرجو أن لا أنسى شيئاً مما يخصني .

فأجابه ميتيا مازحًا:

- وإياك أن تنسى خاصةً ما يخص غيرك! وأسرع يضحك من كلمته. فغضب راكيتين فجأة وصرخ يقول وهو يرتجف غيظاً وحنقاً:

- خير لك أن تسدي هذه النصيحة إلى ذويك آل كارامازوف، لا إلى راكيتين، أيها المستغلون؟

فأجابه ميتيا قائلاً :

- ماذا دهاك؟ أنا إنما كنت مازحاً. شيطان يأخذك.

ثم أضاف يخاطب أليوشا، مشيراً برأسه إلى راكيتين الذي كان يبتعد مسرعاً:

- هم جميعاً كذلك. لقد كان هنا مرحاً صافي المزاج، فإذا هو يغضب الآن على حين فجأة. لقد أبى أن يحييك حتى بإيماءة. أأنتما متخاصمان تماماً؟ لقد تأخرت اليوم، كنت أنتظرك نافد الصبر، بل كنت في ظمأ شديد إلى رؤيتك منذ الصباح. لا بأس، سنتدارك ما فات.

سأله أليوشا وهو يشير بعينه إلى الباب الذي خرج منه راكيتين:

- لماذا يزورك هذا كثيراً؟ أتراك قد توثقت الصداقة بينك وبينه؟

- ألنا تتوثق الصداقة بيني وبين ميخائيل؟ لا... إنه خنزير. هو يظن أنني ... وغد مثله. أمثاله لا يفهمون المزاح، ذلك أهم ما يميزهم. لا يفهمون المزاح أبداً. نفوسهم جافة، مسطحة وجافة حزينة كجدران هذا السجن كما رأيتها حين وصلت إلى هنا. ولكنه رجل ذكي. هيه يا ألكسي، ها أنذا قد هلكت الآن!

قال ميتيا ذلك ثم جلس على دكة وأجلس أليوشا إلى جانبه. قال أليوشا خجلاً:

- نعم، سيحكم عليك غداً. ولكن ألم يبق لك أي أمل فعلا يا أخي؟

قال ميتيا وهو يلقي على أخيه نظرة غامضة:

- ماذا تقصد؟ آ... فهمت... تقصد تلك المحاكمة! ولكن هذه القصة لا تعنيني. إننا لم نتحدث حتى الآن إلا في سفاسف، كهذه المحاكمة التي تبدأ غداً، وقد سكتُّ أمامك عن المسائل الأساسية حتى الآن. صحيح أنني سيحكم علي غداً، ولكن ليس هذا ما جعلني أقول أنني هلكت. ليس رأسي هو الذي يتهدده الخطر حتى الآن، بل ما في داخل رأسي. لماذا تنظر إليّ هذه النظرة التي تدل على الاستياء؟

- إنني لا أفهم ما تقصد يا ميتيا.

- أقصد أفكاري... أقصد «الايطيقا» [221]. ماذا تعني هذه الكلمة: «الايطيقا»؟

سأله أليوشا مدهوشاً: - الايطيقا؟

- نعم. هل ذلك ضرب من العلم؟

- نعم، هناك علم يسمى بهذا الاسم... ولكن... أعترف لك بأنني لا أستطيع أن أشرح لك ما هو هذا العلم.

- أما راكيتين فيعرف ما هو هذا العلم. إن راكيتين هذا يعرف أشياء كثيرة. شيطان يأخذه! إنه لن يصبح راهباً. إنه يفكر في الذهاب إلى سان بطرسبرج ويأمل أن يمارس هناك عمل النقد، ولكن في اتجاه أخلاقي رفيع. على كل حال، قد يكون نافعاً في هذا المجال، وقد يصبح شخصاً مرموقاً في الوقت نفسه. إنه رجل ماكر يعرف كيف يدبر أموره... وبئست «الايطيقا»! هل تعلم أنني هلكت يا ألكسي، يا رجلاً تقياً من رجال، إني أحبك أكثر مما أحب سائر الناس. إن قلبي ليدمى حين أفكر فيك. من ذلك العالم الذي يسمى كارل برنار؟

سأله أليوشا مدهوشاً من جديد:

- كارل برنار؟

- لا، ليس كارل، لقد أخطأت. لحظة، أقصد كلود برنار [222].

من كلود برنار هذا لعله كيميائي؟

قال أليوشا:

- هو عالم من العلماء. ولكن أعترف لك بأنني لا أستطيع أن أقول لك أشياء كثيرة عنه. لقد سمعت أنه عالم، ولكن لا أدري في أي ميدان من ميادين العلم.

استأنف ميتيا كلامه قائلاً:

- طيب ... شيطان يأخذه ... أنا أيضا لا أدري ... لعله واحد من أولئك الأشقياء الذين كثر عددهم في أيامنا هذه. أما راكيتين فسيعرف كيف يشق طريقه وينجح، إنه يحسن التسلل إلى كل مكان.

هو في نوعه برنار آخر. أوه! ما أكثر الذين يمكن أن يسموا برنار في هذا العالم الآن!

ساله أليوشا ملحاً:

- هلا قلت لي ماذا دهاك؟

- إنه ينوي أن يكتب شيئاً عني، عن قضيتي، ويأمل أن يكون ذلك بداية نشاطه الأدبي. ولهذا الغرض إنما يزورني. لقد شرح لي هو نفسه ذلك. إنه يرجو أن يكتب

مقالة تتيح له أن يبسط بعض الآراء الأخلاقية، كأن يقول، إذا صدق فهمي: «ما كان يمكنه إلا أن يقتل، لأن بيئته قد أفسدته». وسيعبر عن معان أخرى من هذا القبيل، وسيصبغ ذلك كله بلون اشتراكي على ما يقول. شيطان يأخذه. وليقل ما يشاء، وليصبغ ما يقوله بما يحب أن يصبغه به. فذلك كله لا يعنيني في شيء. إنه لا يحب أخانا إيفان. إنه يكرهه. ولا يكنُّ له وداً. أما أنا فإنني أحتمل زياراته لأنه رجل ذكي. ولكنني أعده مع ذلك مغروراً بعض الغرور. قلت له منذ لحظات: «ليس آل كارامازوف أوغاداً، بل هم فلاسفة لأن جميع الروس الحقيقيين فلاسفة. أما أنت فإنك لم تصبح فيلسوفاً رغم جميع دراساتك، لأنك لست إلا فلاح». وقد ضحك ضحكة خبيثة حين سمعني أقول هذا الكلام. فأضفت عندئذ قولي: «لا جدال في الآراء» [223] نكتة حلوة، هه؟ على أي حال أنا أيضاً أستطيع أن أكون كلاسيكياً.

بذلك ختم ميتيا كلامه وهو ينفجر ضاحكا على حين فجأة .

قاطعه أليوشا سائلاً:

- لماذا تقدر أنك هالك؟ لماذا قلت هذا الكلام منذ هنيهة؟

- لماذا أنا هالك؟ هِم... الواقع... إذا أردت أن أقول الحقيقة ... إنني آسف على الله! هذا هو الأمر...

- آسف على الله؟ كيف؟

- تخيل ما يلي: إن هناك أعصاباً في موضع من الرأس ... أقصد في الدماغ... (شيطان يأخذ الأعصاب!)... والأعصاب ألياف، فحين تأخذ هذه الألياف بالاهتزاز أقصد يكفي أن أنظر إلى شيء من الأشياء بعيني حتى تأخذ هذه الألياف بالاهتزاز حالاً... ومتى اهتزت الألياف تكونت صورة، لا على الفور، بل بعد لحظة... تنقضي ثانية فيظهر شيئاً أشبه بلحظة... لا، ليس لحظة... (شيطان يأخذ اللحظة!)... أقصد تحدث صورة، أي يحدث شيء أو فعل... شيطان يأخذهما! ... فذلك هو السبب في أنني أدرك ثم أفكر. ليس السبب هو أن لي نفساً، وإنني خلقت على صورة الله. سخافات هذه الأفكار كلها! لقد شرح لي ميخائيل كل شيء أمس، فشعرت بما يشبه الحرق في قلبي. العلم شيء رائع يا أليوشا! هي إنسانية جديدة ستولد. إنني أدرك هذا... ولكنني مع ذلك آسف على الله!

قال أليوشا:

- أنت آسف. هذا على الأقل أمر جيد.

- أن أكون آسفاً على الله ؟ هي الكيمياء يا أخي، الكيمياء! لا حيلة لك يا صاحب القداسة، الكيمياء تتقدم، تنحوا، افسحوا المكان، افسحوا المكان! أما راكيتين هذا فإنه لا يحب الله! هو لا يحبه. تلك أكثر النقاط ضعفاً فيهم جميعاً! ولكنهم يكتمونه. إنهم يكذبون. إنهم يمثلون. سألته: «هل ستبسط هذه الأفكار في مقالات نقدية؟»، فأجابني ضاحكاً: «لن يُسمح لي بذلك، هذا مؤكد»، فسألته بعد ذلك: «ولكن ما الذي سيصير إليه الإنسان في هذا كله، بغير إله، وبغير حياة آخرة؟ وإذن فمعنى هذا أن كل شيء سيكون مباحاً بعد الآن، وأن في وسع الإنسان أن يفعل ما يشاء؟»، فأجابني ضاحكاً من جديد: «أكنت لا تعرف هذا إذن؟» ثم أضاف قائلاً: «إن الإنسان الذكي يمكنه أن يبيح لنفسه كل شيء، لأنه سيستطيع دائماً أن يدبر أمره ويخرج من مأزقه، أما أنت فقد قتلت ثم سمحت لهم بأن يقبضوا عليك. ولذلك تتعفن الآن في زنزانة». ذلك ما قاله لي، لي أنا. هذا خنزير قذر حقاً! هؤلاء الأوغاد، كنت فيما مضى أطردهم. أما الآن، فأنا أصغي إليه، أسمع له. إن في ما يقوله كثيراً من الأشياء المعقولة. وهو عدا هذا يجيد الكتابة جداً. في الأسبوع الماضي، قرأ علي إحدى مقالاته. فسجلت ثلاثة أسطر منها عامدة. لحظة. إليك ما سجلته.

وأسرع ميتيا فاستل من جيب صديرته ورقة وقرأ:

«من أجل أن يكون المرء قادراً على أن يحل هذه المشكلة، يجب عليه أولاً أن يضع شخصه في تعارض مع واقع حياته». هل تفهم ما معنى هذا؟

قال أليوشا الذي كان يلاحظ ميتيا بدهشة واستطلاع:

- لا، لا أفهم.

- وأنا أيضاً لا أفهم. إن هذه الجملة غامضة وغير مفهومة، ولكنها تبدو لي ذكية وعميقة جداً. وقد أسر إلى «إن جميع الناس يكتبون اليوم بهذه الطريقة. فالبيئة هي التي تفرضها...». إنهم يخافون البيئة. وهو ينظم أشعاراً، هذا وغد. لقد تغنى بساق خوخلاكوفا، ها ها ها.

قال أليوشا:

- سمعت بذلك.

- ها... سمعت؟ هل سمعت تلك الأبيات؟

- لا.

- هي عندي. سأقرؤها لك. هذه حكاية طويلة، أنت لا تعرف، ألم أقصها عليك. يا للوغد! منذ ثلاثة أسابيع قام في رأسه أن يغيظني. قال لي: «ما أغباك! أنت ضيعت نفسك، وضيعت نفسك في سبيل ثلاثة آلاف روبل فقط. أما أنا فسأجني مائة وخمسين ألف روبل، بتزوجي من أرملة غنية، وبعد ذلك أشتري منزلاً جميلاً في سان بطرسبرج» .. وأسر إلى عندئذ أنه يغازل السيدة خوخلاكوفا، التي لم تكن ذكية حتى في ريعان صباها، ثم لم يبق لها شيء من فطنة حين بلغت الأربعين من عمرها. وأضاف قوله: «وهي فوق ذلك حساسة عاطفية، ومن هنا سآتيها. سوف أتزوجها، وأخذها إلى سان بطرسبرج، فأنشئ هنالك جريدة .. وكان يسيل على شفتيه لعاب شهواني فظيع وهو يقول لي هذا الكلام، ولكن لا بسبب خوخلاكوفا طبعاً، بل بسبب المائة وخمسين ألف روبل كان يسيل لعابه، ومنذ ذلك الحين أصبح يسر إلي كل يوم بأشياء جديدة، قائلاً: «إن الأمور تجري مجرى حسناً»، ويشرق وجهه فرحةً أثناء ذلك. ولكن ها هو ذا يطرد فجأة من منزل السيدة خوخلاكوفا. لقد غلبه بيتر إيلتش بير خوتين وانتصر عليه. مرحاً! وددت لو أقبل تلك الحمقاء لأنها استطاعت أن تطرده من منزلها. في فترة زياراته لي إنما نظم تلك القصيدة. وقد أعترف لي قائلاً: «تلك أول مرة أقلل من قيمة نفسي بنظم الشعر. لقد ارتضيت ذلك لأغوي امرأة حمقاء غبية في سبيل عمل عظيم أريد أن أحققه. فمتى استوليت على أموال هذه البقرة العجوز، استطعت أن أكون بعد ذلك نافعاً للمجتمع». إن هؤلاء الناس يجدون في جميع الأحيان عذراً يسوغون به حقاراتهم ودناءتهم، هو عذر المنفعة الاجتماعية. وقد قال لي: «ومع ذلك صنعت خيراً مما صنع صاحبك بوشكين، لأنني استطعت أن أودع حزناً وطنياً عظيماً في بضعة أبيات شعرية هي في ظاهرة مزاح ومرح». على أن ما يقوله عن بوشكين يبدو لي معقولاً. فما دام ذلك الشاعر يملك موهبة عظيمة حقاً، فإنه ما كان له أن يقتصر على التغني بالسيقان! وما كان أشد اعتزاز راكيتين بتلك الأشعار التي نظمها! إن فيهم غروراً، هؤلاء الشعراء جميعاً! إن العنوان الذي تخيله هذا الشخص لقصيدته هو التالي: الشفاء ساق المحبوب الصغيرة».

يا للساق الفتانة

المتورمة الآن

الأطباء حولها منهمكون

ليضمدوها بحب وحنان

لست أندب الساق،

فإني أترك هذا لبوشكين.

لكنني أشكو الرأس ،

لأنه لا يفكر كما ينبغي أن يفكر.

كانت قد بدأت تفهمني

حين تمردت الساق!

هلموا فاشفوا الساق الرقيقة

حتى تستطيع الأفكار أن تحلّق.

إنه وغد، وغد حقاً، ولكن أشعاره مرحة. ثم إن فيها «فكرة وطنية»، كما يقول. لقد استشاط غيظاً حين طرد. كان يصرف بأسنانه من شدة الحنق.

قال أليوشا:

- لقد انتقم منذ الآن. نشر مقالة عن السيدة خوخلاكوفا.

وقص أليوشا على ميتيا بسرعة، قصة المقالة الواشية المتجنّية التي ظهرت في جريدة «الشائعات». فقال ميتيا مؤيداً وهو يقطب حاجبيه:

- إنه هو، إنه هو... هو كاتب المقالة. ليس في ذلك شك! آه من تلك الأقاويل والنمائم! أنا على علم... ما أكثر ما نشروا من تخرصات وأكاذيب لئيمة حقيرة حتى الآن، عن جروشنكا مثلاً! وعن الأخرى أيضاً، عن كاتيا... هم...

قال ميتيا ذلك، وأخذ يمشي في الغرفة مهموم البال. استأنف أليوشا قائلاً بعد صمت:

- لا أستطيع أن أبقى مدة طويلة هذا المساء يا أخي. إن غداً ليوم عظيم رهيب بالنسبة إليك: غداً تتم إرادة الله ... يدهشني مع ذلك أنك في عشية ذلك الغد تضيع وقتك في الكلام عن سفاسف ...

قاطعه ميتيا يقول بحرارة:

- لا يدهشنك هذا. أتراك تؤثر أن أتكلم عن ذلك الشقي العفن النتن، عن القاتل؟ لقد سبق أن تكلمنا عنه، وأسرفنا في الكلام. لا أريد أن أسمع بعد الآن شيئاً عن سمردياكوف النتن ابن النتنة، لسوف يعاقبه الله ... سوف ترى ... ليعاقبنه الله لا محالة ...

واقترب من أليوشا وقد استولى عليه اضطراب شديد، وقبّله فجأة. كانت عيناه تسطعان. وأخذ يقول بنوع من الوجد كأنه خارج عن طوره:

- لا يستطيع راكيتين أن يفهم هذا، أما أنت فسوف تفهمه. ومن أجل ذلك إنما كنت في ظمأ شديد إلى أن أراك. هل تعلم أنني، منذ زمن طويل، أريد أن أكلمك في أشياء كثيرة، هنا، بين هذه الجدران المتقشرة، ولكنني لم أعالج النقطة الأساسية حتى الآن. يبدو أنه لم يكن قد آن لي أن أسر إليك بما في نفسي بعد. لقد انتظرت، انتظرت إلى آخر دقيقة، لأفتح لك قلبي. أخي، أخي، إني في أثناء هذين الشهرين الأخيرين، قد أصبحت إنساناً آخر. لقد ولد فيّ كائن جديد. الحق أنه كان موجوداً فيّ منذ الأزل، ولكن ما كان له أن يظهر لولا تلك الكارثة. شيء رهيب! إنني لا أخشى أن أعمل بيدي في المناجم عشرين عاماً. ذلك لا يهمني، هناك شيء آخر هو الذي أخشاه الآن. إنني أخشى أن يزول، من جديد، الإنسان الذي بُعث حيّاً في نفسي. إن المرء يستطيع أن يجد حتى في سجون الأشغال الشاقة، حتى في جحيم غياهب المناجم، يستطيع أن يجد بقربه سجيناً آخر يخفق فيه قلب إنساني وإن يكن رجلاً قاتلاً. يستطيع المرء أن يصادقه، لأنه مباح للمرء هنالك أيضا أن يحيا وأن يحب وأن يتألم! يستطيع المرء أن ينذر نفسه لذلك السجين، ليشعل في قلبه مرة أخرى شعلة الحب التي أطفأها الظلم، يستطيع أن يحيطه بالعناية والرعاية والحب والعطف خلال سنين، إلى أن تنبجس أخيراً من ظلمات وجوده نفس أحياها الألم وطهرها ونقاها وأسبغ عليها حلّة النبل والكرم، فإذا هي تندفع بعد ذلك نحو النور والضياء. إنّ في وسعنا أن نحيي الملاك في الشيطان، وأن نبعث البطل في الجبان. إنهم كثر هنالك، أولئك الذين سقطوا، إنهم مئات ومئات، ونحن جميعاً مسؤولون عن مصيرهم. لماذا رأيت في حلمي «الصبي»، وأنا أجتاز من حياتي مرحلة تبلغ هذا المبلغ من ألم الفاجعة وعذاب المأساة؟ «لماذا يجب أن يتألم الصبي؟» تلك إشارة من السماء نزلت عليّ في ساعة المحنة العظمى. سأمضي إلى سجن الأشغال الشاقة من أجل ذلك الصبي. إن جميع البشر مسؤولون عن آثام سائر الناس. مسؤولون عن جميع الأطفال لأن في هذا العالم أطفالا منهم الصغار ومنهم الكبار. وجميعهم هم «الصبي» سأمضي من أجلهم جميعهم، لأنه لا بد أن يكفر أحدٌ عن الآخرين وأن يفتديهم. أنا لم أقتل أبي، ولكن من واجبي أن أضحي بنفسي. إنني أقبل ما كتب علي! هنا، في هذا السجن، إنما فهمت هذه الأشياء كلها... هنا، بين هذه الجدران المتقشرة.. إنهم كثيرون هناك، تحت الأرض، يحفرون في المنجم. صحيح أننا سنكون مكبلين بالأغلال، وصحيح أن إرادتنا ستكون محطمة. ولكن، هناك، في ذلك الألم الكبير، سنبعث إلى الفرح، إلى الفرح الذي لا يمكن بدونه أن يحيا الإنسان. إلى الفرح الذي بدونه لا يوجد الله، لأن الله هو ينبوع الفرح، فتلك هي الميزة التي ينفرد بها الله. رباه! إلا فليفنِ الإنسان نفسه في الصلاة والدعاء! كيف يمكنني أن أعيش تحت الأرض بدون الله؟ إن راكيتين يكذب! وحين سيطرد البشر الله من على سطح الأرض، سنهتدي إليه نحن في جوف الأرض، ونرتد إليه. إن السجين المحكوم عليه بالأشغال الشاقة يستحيل عليه أن يحيا بدون الله، بل يستحيل عليه ذلك أكثر من الإنسان الحر الطليق! فمن غياهب الليل، سنغني نحن الذين نعيش تحت الأرض، سنغني نشيداً حزيناً يمجد الخالق ينبوع السعادة والضياء. تبارك الرب، وتبارك فرحه! إني أحب الله!

كان مبتيا يكاد يختنق وهو ينطق بهذه الكلمات. كان قد اصفر وجهه، وتقبضت شفتاه تقبضاً عصبياً، وسالت من عينيه دموع. واستأنف كلامه يقول:

- لا يا أخي، إن الحياة غنية، في وسع المرء أن يحيا تحت الأرض أيضاً. لا تستطيع أن تصدق يا أليوشا إلى أي حد أحب الآن أن أحيا، ولا تستطيع أن تتصور رغبتي المحمومة القوية في أن أوجد وأن أعرف، لا تستطيع أن تتصور هذه الرغبة التي استولت عليّ وأنا بين هذه الجدران المتقشرة! إن راكيتين لن يفهم هذا في يوم من الأيام، لأنه لا يفكر إلا في تحصيل ثروة، وبناء منزل كبير يؤجره ويتقاضى أجوره. لذلك انتظرتك نافد الصبر. ليس يهمني الألم. لن أخشى الألم بعد الآن مهما يكن كبيراً. كنت أخافه في الماضي، ولكنني أصبحت لا أخافه. هل تعلم أن من الجائز أن أرفض الإجابة أمام المحكمة؟ يخيل إليّ في بعض الأحيان أن بي من القوة ما سوف يمكنني من تذليل جميع المصاعب، والانتصار على جميع المحن، لا لشيء إلا أن أقول لنفسي في كل لحظة سعيدة: «أنا موجود». لسوف أردد وأنا في العذاب الذي لا نهاية له: «أنا موجود». لسوف أهتف حين يشنجني الألم: «أنا موجود». لسوف أشعر إذا ربطت بالعمود وشددت إليه، بأنني ما زلت أحيا، وسوف أرى الشمس. وهبني لم أرها، فسوف أعرف على الأقل أن الشمس تشرق على العالم وتتلألأ. لأن أعرف أن الشمس تتلألأ فذلك وحده حياةً كاملة. أليوشا، طفلي الحبيب، إن أفكارهم الفلسفية تقتلني قتلاً، تعساً لهم! إن أخانا إيفان....

قاطعه أليوشا سائلاً:

- هيه... ماله، إيفان؟

ولكن ميتيا لم يسمع.

- كنت في الماضي أجهل جميع هذه الشكوك، ولكنها كانت تضطرب في نفسي على غير علم مني. ولعلني لم أندفع في الشراب، ولم أكن أقاتل الناس وأنقاد للعنف إلا لأن تلك المعاني كانت تغلي في داخلي. فمن أجل أن أخنقها ومن أجل أن أسحقها إنما كنت أتخبط ذلك التخبط. إنا أخانا إيفان ليس مثل راكيتين. إنه يخفي في نفسه فكرة يكتمها سراً. إن أخانا إيفان يشبه أبا الهول. إنه يصمت، يصمت دائماً. أما أنا فإن فكرة الله تعذبني، وهي عذابي الوحيد الحق. ما عسى أن يحدث إذا لم يوجد الله؟ لنفرض أن راكيتين على حق، لنفرض أن الدين فكرة من صنع خيال الإنسان. إذا لم يوجد الله كان الإنسان هو سيد الأرض، ورئيس الكون! عظيم! ولكن كيف يكون هذا الإنسان فاضلاً بدون الله؟ ذلك هو السؤال، وأنا لا أنفك ألقي على نفسي هذا السؤال. من الذي سيحبه الإنسان إذا لم يوجد الله؟ قل لي: إلى من سيندفع الإنسان بشكران روحه، ولمن سيغني أنشودة فرح؟ إن راكيتين يسخر من هذا كله. هو يرى أن الإنسان يستطيع أن يحب الإنسانية مستغنياً عن الله. لا يستطيع إلا سخيف مثله أن يصدق هذا الكلام. أما أنا فلن أفهمه في يوم من الأيام. الحياة تبدو سهلة لراكيتين. قال لي اليوم: «الأولى بك أن تهتم الآن بزيادة حقوق الإنسان المدنية. فإذا لم تستطع ذلك فحاول على الأقل أن تعمل ما يجب عمله حتى لا يزيد الجزارون أسعار اللحم. فبذلك تخدم الإنسانية خدمةً أصدق وأجدى مما تخدمها بهذه الفلسفات كلها». أجبته قائلاً: «إنك إذا أنكرت الله، تنتهي إلى زيادة سعر اللحم أنت نفسك، فتربح بالكوبك روبلاً». عندئذٍ غضب راكيتين. ما هي الفضيلة؟ اشرح لي الفضيلة يا ألكسي. أنا في ذهني فكرة عن الخير، ولكن الصيني في ذهنه فكرة أخرى مختلفة عن فكرتي أنا. وهذا يعني أن الخير فكرة نسبية، أليس كذلك؟ أليس الخير فكرة نسبية؟ هذه مشكلة مقلقة. لن تسخر مني، أنت على الأقل، إذا قلت لك إن هذه المشكلة قد أزقتني ليلتين، فلم أستطع النوم. إنني أتساءل اليوم كيف يمكن أن يحيا البشر دون أن يفكروا في هذه المشكلة. باطل! إن إيفان لا يؤمن بالله. إنه لا يؤمن إلا بالأفكار. ذلك يفوق مستواي. ولكنه يصمت. أحسب أنه ماسوني. سألته فلم أظفر منه بجواب. ملت عليه ميلي على نبع حقيقة لأروي ظمئي، ولكنه لم يجبني. مرة واحدة، أفلتت منه كلمة. سأل أليوشا معجلاً:

- ماذا قال؟

- سألته: «أكل شيء مباح إذن؟» فقطب حاجبيه وقال: «كان أبونا فيدور بافلوفتش رجلاً فاسقاً، ولكنه كان يفكر تفكيراً سليماً». ذلك كل ما قاله لي. لم يقل شيئاً آخر. على الأقل، هذا أوضح من ثرثرات راكيتين.

قال أليوشا بمرارة:

- حقا؟ متى جاء إليك؟

- سأحدثك عن هذا في مرة أخرى. أما الآن، فما حان الحين بعد. أنا لم أكد أكلمك عن إيفان حتى هذه الساعة. أرجأت الحديث عنه إلى النهاية. فمتي خُتمت القضية وصدر الحكم، سأقص عليك شيئاً. سأقول لك عندئذ كل شيء. هناك حكاية رهيبة. ستكون حكماً عليّ في هذه المسألة. أما الآن فلا أريد أن أعالج هذا الموضوع اصمت بانتظار ذلك. كنت تكلمني منذ هنيهة عن يوم الغد، عن المحاكمة، فهل تصدق أنني لا أعلم شيئاً؟

- هل تكلمت مع ذلك المحامي؟

- المحامي؟ دعك من هذا! لقد قصصت عليه كل شيء. إنه وغد لطيف من أوغاد العاصمة، إنه برنار! هو لا يصدق كلمة واحدة مما أقوله له. تصور أنه مقتنع بأنني أنا القاتل! أرى ذلك في نظرته إليّ. سألته: «فلماذا توليت إذاً مهمة الدفاع عني؟». إنني أسخر من هؤلاء الناس جميعاً. وقد استدعوا كذلك طبيباً، بغية أن يزعموا للمحكمة أنني مجنون! إلا إنني لا أطيق ذلك ولن أسمح بذلك! إن كاترينا إيفانوفنا هي التي تظن أنها بذلك تقوم بواجبها، حتى النهاية. على أنها تجبر نفسها على ذلك إجباراً وتحمل نفسها عليه (قال ميتيا هذا وهو يبتسم ابتسامةً مرّة). إنها قطة! قاسية القلب! وهي تعرف ما قلت عنها من كلام في موكرويه، وتعرف أنني

وصفتها بأنها امرأة ذات غضب شديد. لقد نقل إليها هذا الكلام. نعم، لقد تكاثرت الشهادات عليّ حتى أصبحت لا تعد ولا تحصى. ما يزال جريجوري يتهمني، هو رجل شريف، لكنه غبي. ما أكثر الشرفاء عن غباوة! هذه فكرة عبر عنها راكيتين. لقد أصبح جريجوري يناصبني العداء. أصبح عدوي. وهناك أناس يؤثر المرء أن يكونوا أعداءه على أن يكونوا أصدقاءه. أقول هذا وأنا أقصد كاترينا إيفانوفنا. أخشى... آه... أخشى خاصة أن تقص على المحكمة حكاية تلك التحية الساجدة بعد دفع مبلغ الأربعة آلاف وخمسمائة روبل. إنها لن تعفيني من قص هذه الحكاية، معتقدة أنها بذلك تُبرئ ذمتها تجاهي! آه... لسوف تمضي إلى نهاية الشوط... أنا أعرفها. ولكنني لا أريد تضحيتها هذه! سوف أشعر من ذلك بالخزي والعار أمام قضاتي. كيف يمكنني أن أحتمل هذا؟ اذهب إليها يا أليوشا لترجوها أن لا تقص هذه الحكاية على الناس. أتظن أن هذا مستحيل؟ لا ضير إذن. سيان عندي أن تقصها أو لا تقصها سأتحمل. أما هي فلست أشفق عليها ولا أرثي لها. هي التي أرادت ذلك. لن تنال إلا ما تستحقه. وأما أنا يا ألكسي، فسوف ألقي فيهم خطاباً ... أعلم هذا... (قال ميتيا ذلك وهو يبتسم ابتسامة مرة من جديد). ولكن، ولكن ... هناك جروشنكا، جروشنكا... آه... رباه! لماذا ينبغي لها أن تلقى عذاباً كهذا العذاب ؟ (كذلك صاح ميتيا فجأةً وفي صوته دموع). إن صورة جروشا تقتلني، تقتلني قتلاً، تقتلني قتلاً! لقد زارتني جروشا في هذا اليوم.

- حكت لي كل شيء. لقد أهنتها إهانة شديدة.

- أعرف هذا. تباً لطبعي ما أرداه! لقد عذبتها بالغيرة. وحين ودعتها ندمت وقبلتها ولكنني لم استغفرها.

صاح أليوشا يسأله:

- لماذا لم تستغفرها؟

- حماك الله يا فتاي الصغير من استغفار امرأة تحبها، على خطيئةٍ ارتكبتها فعلاً... لا سيما المرأة التي تحبها، مهما تكن أخطاؤك في حقها، لأن المرأة مخلوقة لا يعرف إلا الشيطان ما في نفسها. أنا خبير في هذا على الأقل. حاول مرة أن تعترف لها بأنك أذنبت في حقها، وأن تقول لها: «أنا مذنب، فاغفري لي، اغفري لي». لتسمع منها عندئذ سيلاً من ملامات. لن ترضى قط أن تغفر لك ببساطة، بل ستأخذ تذلك وتخفضك إلى الأرض، معددةً جميع أخطائك، حتى تلك التي لم تقترفها. لن تنسى شيئاً، وسوف تضخم كل شيء، وستختلق أخطاء جديدة عند الحاجة، وبعد ذلك فقط سترضى أن تغفر لك. وخير النساء هن اللواتي يغفرن على هذا النحو. ولكنها ستفرغ أولاً أعماق دروج أحقادها وتلقيها على رأسك. تلك هي القسوة الكاسرة المفترسة القابعة فيهن جميعاً. أعلم هذا. كذلك خلقن، من أولاهن إلى آخرهن، هاته الملائكة اللواتي لا نستطيع أن نحيا بدونهن. سأطلعك بغير تكلف ولا تحرج على حقيقة كبرى يا صغيري الطيب: إن كل رجل يحترم نفسه يجب عليه أن يعيش تحت حذاء امرأة. ذلك هو اقتناعي العميق. بل هو أكثر من اقتناع: هو شعور عميق وعاطفة حميمة. إن على الرجل أن يكون كريماً، وهذا لن يغض من قيمته أبداً، ولو كان بطلاً أو قيصراً. أما أن يستغفر، فكلا ثم كلا! يجب على الرجل أن لا يستغفر امرأة بحال من الأحوال. تذكر دائماً هذه القاعدة التي علمك إياها اليوم أخوك ميتيا، أخوك ميتيا الذي أوردته النساء موارد الهلاك. لا، لا، إنني أوثر أن أصلح أخطائي في حق جروشنكا بطريقة أخرى، دون استغفار. إنني أعظمها وأقدسها حقاً يا ألكسي. ولكنها للأسف، لا ترى ذلك، وتعتقد أنني لا أمحضها حباً كافياً. إنها تعذبني بحبها. لم يكن هذا أمر ذا بال في الماضي. كنت في الماضي لا أحبها إلا بسبب منحنيات جسمها الجهنمية. أما الآن فإن روحها هي التي نفذت في نفسي فصرنا روحاً واحدة. بها إنما أصبحت رجلاً. هل يزوجوننا في السجن؟ إن لم يزوجونا فلاموتن غيرةً. كل يوم أحلم بأمور فظيعة تثير غيرتي... ماذا قالت لك عني؟

ردد له أليوشا أقوال جروشنكا. أصغى ميتيا بانتباه شديد، وألقى على أخيه أسئلة كثيرة، وظل راضياً مغتبطاً، وهتف يقول:

- هي إذا لا تحقد علي لأنني غيور. تلك امرأة حقاً! قالت لك: »أنا نفسي قاسية»، أليس كذلك؟ آه ... إنني أحبهن، هاته النساء القاسيات، رغم أنني لا أطيق أن يعذبنني بالغيرة. لا أحتمل هذا. سيكون بيننا شجار كثير، ولكنني سأحبها حباً أبدياً لا نهاية له. هل سيزوجوننا؟ هل يزوجون السجناء؟ لسوف يستحيل عليّ أن أحيا بدونها...

سار ميتيا في الغرفة بضع خطوات مقطباً حاجبيه. وكان الظلام قد خيم أثناء ذلك. وفجأة ظهر على ميتيا القلق، كأن فكرة ثقيلة قد هاجمته وجثمت على صدره.

- آه !... قالت لك إن هناك سراً بيننا، أليس كذلك؟ قالت إننا نحن الثلاثة قد دبرنا مؤامرة عليها بتحريض من كاتيا؟ لا يا عزيزتي جروشنكا!... لقد أخطأتِ الظن... أخطأتِ الظن كما لا يجيد أن يخطئه إلا النساء، هاته الحمقاوات! لا بأس يا أليوشا، يا بني العزيز، سأكشف لك عن سرّنا.

نظر ميتيا إلى جميع الجهات محاذراً، ثم اقترب من أليوشا حتى لامسه وأخذ يهمس في أذنه وقد بدت في وجهه معاني السر، رغم أن أحداً لا يستطيع في الواقع أن يسمعهما: فالعجوز غافٍ على دكة في ركن من القاعة، والخفراء أبعد من أن يستطيعوا سماع الحديث.

قال ميتيا بهمس سريع:

- سأكشف لك عن سرّنا. لقد كنت أنوي أن أطلعك على هذا السر فيما بعد، ولكن كيف يمكنني أن أتخذ قراري بدونك؟ أنت كل شيء في نظري. ومهما أقل إن إيفان يفوقنا، فأنت في نظري ملاك. ولقرارك وحده قيمة في الواقع. من يدري؟ لعلك أنت المتفوق لا إيفان. اسمع: إن المسألة مسألة ضمير وأخلاق. هذا سر خطير جداً، يبلغ من الخطورة أنني لا أستطيع أن أحمله وحدي، ولا أن أنفرد باتخاذ قرار فيه. فأنا أعتمد عليك. على أن اتخاذ القرار لم يحن حينه بعد. وإنما يجب انتظار صدور الحكم. فمتى أصدرت المحكمة حكمها، كان عليك أن تقطع برأي في الأمر فتقرر مصيري. أما الآن فلا تقل شيئاً. سأشرح لك الموضوع، فتصغي إلى ما سأقوله لك دون أن تفصح عن رأي، عليك أن تصغي وتصمت.

لن أقول لك كل شيء اليوم. سأكشف لك عن مجمل الفكرة دون التفاصيل. عليك خاصة أن لا تقول شيئاً، أن لا تنطق بكلمة: لا سؤال، ولا حركة! اتفقنا؟ ولكنني نسيت: هناك عيناك، فما عساني صانعاً بعينيك اللتين سأقرأ فيهما جوابك؟ آه من عينيك! إني أخشى أن تقولا لي رأيك ولو سكت. اسمع يا أليوشا: لقد اقترح علي إيفان أن أهرب.. لن أقص عليك التفاصيل: لقد تصورنا كل شيء، وسيدبر كل شيء. اسكت، لا تنطق بكلمة. سأسافر إلى أمريكا مع جروشنكا. ففي الحقيقة أنا لا أستطيع أن أعيش بدونها؟ وماذا أعمل بدونها لو أنهم منعوها من اللحاق بي؟ هل يزوجون السجناء؟ إيفان يؤكد أنهم لا يفعلون. فما عساي أفعل بدون جروشنكا، تحت الأرض، في المناجم، مع المطرقة؟ لن أفعل أكثر من أن أسحق رأسي بهذه المطرقة. ولكن من جهة أخرى هناك الضمير. سأكون قد فررت من الألم. لقد تلقيت إشارة من السماء، فإذا هربت كنت أتجاهل هذه الإشارة، وأعرض عن طريق التطهر الذي فتح أمامي. إيفان يؤكد أنني سأستطيع أن أصبح في أمريكا بالإرادة الطيبة والعزيمة الصادقة أنفع مني في المناجم تحت الأرض. طيب! ولكن أين يصبح النشيد الذي سننشده من تحت الأرض، إذا أنا سافرت إلى أمريكا؟ أمريكا... إن أمريكا هي العودة إلى هذا العالم الباطل. لا بد أن أمريكا ملأى بأنواع الدناءة. أعتقد أن الأمر هنالك كذلك. هل أفر من التكفير عن ذنوبي؟ هل أهرب من طريق الصليب؟ إنني أفضي إليك بما في نفسي يا ألكسي، لأنك الإنسان الوحيد الذي يستطيع أن يفهمني. أما الآخرون فإن ما قلته لك في هذه اللحظة ليس في نظرهم إلا حماقة وغباوة وسخفاً. لسوف يظنون أن لوثة خالطت عقلي فجننت، أو أنني أبله. لا، أنا لم أفقد عقلي، ولا أنا معتوه.

إن إيفان يدرك، هو على الأقل، ماذا يعني ذلك النشيد، ولكنه لا يجيبني، بل يلزم الصمت. إنه لا يؤمن بالنشيد. لا تقل شيئاً؟ اسكت! اسكت! قرأت جوابك في عينيك. لقد انتهيت إلى قرار منذ الآن. لا تعلن هذا القرار، ارحمني، لأنني لا أستطيع أن أحيا بدون جروشنكا. أنتظر صدور الحكم؟

أنهى ميتيا كلامه منقلب السحنة. كان يمسك أليوشا من كتفه بقوة، ويغرس في عيني أخيه نظرةً ملتهبةً مثقلةً بمسألة قلقة. وعاد يردد مرةً ثالثة قوله:

- هل يزوجون السجناء؟

أصغى إليه أليوشا بدهشة عميقة، وأحس باضطراب شديد. وسأله:

- قل لي: هل يلح إيفان على مشروع الهرب هذا؟ ومن ذا الذي فكر في هذا المشروع؟ من أول من فكر فيه؟

- هو الذي فكر فيه. وإنه ليلح كثيراً. لم يكن قد زارني قبل ذلك. ثم إذا به يجيء إلي فجأةً منذ أسبوع، فيأخذ يتحدث في مشروع الهرب هذا على الفور. إنه بلغ إلحاحاً رهيباً. هو لا يرجوني رجاء، لا يتوسل إليّ توسلاً، بل يأمرني أمراً. إنه لا يشك في أنني سأطيعه، رغم أنني فتحت له قلبي كما فتحته لك الآن، وحدثته عن النشيد. شرح لي خطته تفصيلاً. لقد حصل على جميع المعلومات الضرورية. سأبسط لك هذا فيما بعد. إنه يلح إلحاحاً حانقاً. وهو يعرض عليّ المال خاصة: عشرة آلاف روبل للهرب، وعشرين ألفاً للاستقرار في أمريكا. يقول إننا نستطيع بالعشرة آلاف روبل أن ننظم أمر الهرب مطمئنين إلى النجاح كل الاطمئنان.

سأله أليوشا من جديد:

- وهل طلب منك أن لا تحدثني في هذا الأمر؟

- أمرني بأن لا أقول كلمة واحدة لأي إنسان، وخاصةً لك أنت، خاصةً لك أنت، بأي حال من الأحوال! أغلب الظن أنه يخشى أن تعارض هذا المشروع باسم الوجدان الأخلاقي. لا تذكر له أنني أفضيتُ إليك بهذا السر. لا تقل له كلمةً واحدة في هذا الأمر، أرجوك، أضرع إليك!

قال أليوشا:

- أنت على حق. لا يمكن اتخاذ قرار من هذا النوع قبل صدور الحكم. فمتى أصدرت المحكمة حكمها، عرفت أنت نفسك ما الذي يجب عليك أن تفعله. سيكون قد

ولد فيك إنسانٌ جديد، وهذا الإنسان الجديد هو الذي سيقرر.
- إنسانٌ جديد أو برنار يقرر كما يمكن أن يقرر برنار. لعلني أنا نفسي واحدٌ من أمثال برنار.
بهذا ختم ميتيا كلامه وهو يبتسم ابتسامةً مرة. قال أليوشا يسأل أخاه:
- أخي، هل يمكن حقاً أن لا يكون لك أي أمل في تبرئة نفسك؟ فرفع ميتيا كتفيه بحركة متشنجة، وحرك رأسه بالنفي، وقال متعجلاً:
- أليوشا، ملاكي، آن لك أن تنصرف. لقد سمعتُ الآن صوت المفتش في الفناء، وسيكون هنا بين لحظة وأخرى. تأخرنا كثيراً، وهذا يخالف النظام. عانقني وقبلني بسرعة، وارسم عليّ إشارة الصليب يا ملاكي. أرسم عليّ إشارة الصليب لنازلة الغد.
تعانق الأخوان وقبّل كل منهما الآخر. قال ميتيا فجاةً:
- إن إيفان يقترح عليّ الهرب، ولكنه مقتنع بأنني القاتل. وطافت بشفتيه ابتسامةٌ حزينةٌ.
سأله أليوشا:
- هل سألته إن كان يعتقد أنك القاتل؟
- لا، لم أسأله عن هذا. أردت أن أسأله، ولكنني لم أجسر. على أنه لا داعي إلى سؤاله، لأنني أقرأ رأيه في عينيه. والآن أستودعك الله!
تعانق الأخوان وقبّل كل منهما الآخر مرّة ثانية. وأسرع أليوشا ينصرف. ولكن ميتيا ناداه على حين فجأة لحظة هم أن يخرج من الحجرة، وقال له وهو يمسكه من كتفيه:
- أليوشا، قف هكذا أمامي! وانظر في وجهي ....
وأمسك أليوشا مرة ثانية بيديه بقوة من كتفيه. كان وجهه قد بلغ من الإصفرار أن منظره يبدو مروعاً في الظلام. وتقبضت شفتاه، وغارت نظرته في عيني أليوشا:
- أليوشا، قل لي الحقيقة كاملةً كأن الله يسمع كلامك في هذه اللحظة. أتعتقد أني قتلت؟ أتعتقد أنت، نعم أنت، أنني قتلت؟ أريد أن أعرف الحقيقة، لا تكذب، لا تكذب ...
كذلك صاح ميتيا خارجاً عن طوره.
كأن قوة ما دفعت أليوشا فترنح تماماً بينما انغرز في قلبه شيء حاد أحسّ به إحساساً واضحاً.
فتمتم أليوشا يقول زائغ النظرة:
- ما هذا الكلام؟ ما هذا الكلام؟ ماذا أصابك؟...
فعاد ميتا يقول مردداً:
- قل الحقيقة، أريد الحقيقة، لا تكذب.
فهتف أليوشا يقول بصوت متهدج مرتجف:
- لم يخطر على بالي لحظة أنك قاتل.
كان الإنفعال يخنقه، ورفع يده اليمنى كمن يريد أن يحلف يميناً. فأشرق في وجه ميتيا عندئذٍ تعبيرٌ عن سعادة. وقال ببطء كأنه يثوب إلى نفسه بعد إغماء:
- شكراً، شكراً. لقد رددت إليّ الحياة. تصور أنني كنت أخشى حتى الآن أن ألقي عليك هذا السؤال. كنت أخاف أن أسألك، أن أسألك أنت خاصةً! امض الآن. لقد أمددتني بقوةّ ليوم الغد، بارك الله فيك! انصرف الآن. حان أن تنصرف.
وأضاف يقول بغتة:
- أحب إيفان!
خرج أليوشا والدموع تنهمر من عينيه. إن هذا الشك الذي يعذب ميتيا، إنَّ إساءة الظن هذه التي تساوره، حتى هو أليوشا، قد فتحت بصر أليوشا على هوّة اليأس السحيقة التي هوى إليها أخوه الشقي، والتي لم يكن أليوشا يظنها عميقةً هذا العمق كله. وشعر أليوشا فجأةً بشفقة عميقة لا نهاية لها تستولي عليه وتعذّبه في لمح البصر. كان قلبه المجروح يؤلمه ألما فظيعاً. وعادت إلى ذهنه تلك العبارة التي هتف بها أخوه ميتيا: «أحب إيفان». وكان أليوشا ذاهباً إلى إيفان على كل حال، فلقد كان يجب أن يراه منذ هذا الصباح. إنَّ التفكير في إيفان يعذّبه كما يعذبه التفكير في ميتيا، والآن، بعد اجتماعه هذا بأخيه ميتيا، أصبحت حاجته إلى التحدث مع إيفان أقوى منها في أي وقت مضى.

-5-ما أنت، ما أنت

كان على أليوشا، حتى يذهب إلى إيفان، أن يمر أمام منزل كاترينا إيفانوفنا. كانت نوافذ الشقة مضاءةً. توقف أليوشا أمام المدخل وقرر أن يصعد. إنه لم ير كاترينا إيفانوفنا منذ أكثر من أسبوع، وخطر على باله أن إيفان يمكن أن يكون عندها الآن، ولاسيما في عشية يوم حاسم كيوم الغد. فبينما هو يصعد السلم الذي يضيئه مصباح صيني بنور ضعيف، إذ هو يلمح رجلاً يهبط السلم، وما إن وصل هذا الرجل إليه حتى عرف أنه أخوه. إذن لقد كان إيفان عند المرأة الشابة ثم تركها في هذه اللحظة.

قال إيفان فيدوروفتش في لهجة جافة خشنة:

- آ... أهذا أنت إذن؟ طاب يومك، وإلى اللقاء. أأنت ذاهب إليها؟

- نعم.

- لا أنصحك بذلك، لأنها مضطربة، ولن تفعل زيارتك إلا أن تفاقم اضطرابها.

صاح صوت يقول من أعلى، من خلال باب فتح على حين فجأة:

- بل اصعد، اصعد. أنت آت من عنده يا ألكسي فيدوروفتش؟

- نعم، رأيته منذ برهة.

- هل حملك رسالة إليّ؟ أدخل يا أليوشا. وأنت أيضا يا إيفان، تعال، آمرك بهذا... هل سمعت؟

كان صوت كاترينا إيفانوفنا يبلغ في تلك اللحظة من صرامة الأمر أنَّ إيفان فيدوروفتش قرر بعد بضع لحظات من التردد، أن يصعد ثانية في صحبة أليوشا.

- ودمدم يقول بينه وبين نفسه حانقا:

- لقد تجسست علينا.

ولكن أليوشا سمع دمدمته.

قال إيفان فيدوروفتش وهو يدخل الصالون:

- اسمحي لي أن لا أخلع معطفي. ثم إنني لن أجلس، لأنني لا أنوي أن أمكث أكثر من دقيقة واحدة.

قالت كاترينا إيفانوفنا:

- اجلس يا ألكسي فيدوروفتش.

وظلت هي نفسها واقفة.

إنها لم تتغير كثيراً منذ شهرين، ولكن وميضاً خبيثاً يسطع الآن في عينيها القاتمتين. سوف يتذكر أليوشا فيما بعد أنها بدت له في تلك اللحظة جميلةً جمالاً خاصاً.

- ما الذي كلفك بأن تقوله لي؟

قال أليوشا وهو يحدق إلى عينيها:

- كلفني بأن أقول لك شيئاً واحداً. إنه يرجوك أن تراعي نفسك، وأن لا تذكري أمام المحكمة (وهنا اضطرب قليلاً).... أن لا تذكري أمام المحكمة... ما جرى بينكما... أثناء أول لقاء ... في تلك المدينة الصغيرة ... قاطعته كاترينا إيفانوفنا وهي تضحك ضحكة مرة:

- آ... يقصد تلك التحية الساجدة وذلك المال؟ أهو خائف على نفسه أم عليّ؟ قل لي! من ذا أراعي في هذا الأمر؟ أراعي نفسي أم أراعيه هو؟ تكلم يا ألكسي فيدوروفتش!

كان أليوشا يتفرس فيها بانتباه ويحاول أن يحزر ما يدور في فكرها.

قال بصوت رقيق عذب:

- هو يرجوك أن تراعي نفسك وأن تراعيه أيضاً.

فقالت بلهجة مسعورة وهي تحمر احمراراً شديداً على الفور:

- هكذا.

ثم أضافت تقول بصوت يداخله تهديد غامض:

- إنك لا تعرفني بعد يا ألكسي فيدوروفتش! وربما كنت لا أعرف نفسي أنا أيضاً. من يدري؟ قد تتمنى أن تسحقني سحقاً في الغد بعد إدلائي بشهادتي أمام المحكمة.

قال أليوشا:

- قولي ما يمليه عليك الشرف. لا حاجة إلى أكثر من ذلك.

فأجابت بقسوة:

- ليست المرأة شريفةً دائماً. لقد كنت أتخيل منذ أقل من ساعة أنني سأتقزز من الكلام عن هذا الوحش، عن هذا الشخص الكريه ... ولكن لا! إنه ما يزال في نظري إنساناً.

ثم هتفت تسأل على حين فجأة بصوت تمازجه هستيريا وهي تلتفت بغتةً نحو إيفان فيدوروفتش:

- ولكن هل مؤكد أنه قتل؟ أهو القاتل؟

سرعان ما أدرك أليوشا أنها سبق أن ألقت هذا السؤال على إيفان منذ دقائق قليلة قبل وصوله، وأن المناقشة التي دارت حول هذه النقطة، للمرة المائة في أغلب الظن، قد انتهت بمشاجرة.

وتابعت تقول مخاطبة إيفان أيضا بصيغة المفرد:

- لقد ذهبت إلى سمردياكوف... أنت أوهمتني أن ميتيا قتل أباه! بسببك إنما صدقت أنا ذلك.

ضحك إيفان ضحكةً حمل نفسه عليها حملاً. وقد ارتعش أليوشا حين سمع هذه المخاطبة بصيغة المفرد. لقد كان لا يتصور أن العلاقة بينهما حميمة إلى هذا الحد.

قال إيفان بجفاف وخشونة:

- كفى هذا اليوم. أنا ذاهب. سأرجع غداً.

ودار على عقبيه فجأةً، وخرج من الغرفة واتجه رأساً إلى السلم. فأسرعت كاترينا إيفانوفنا تمسك يدي أليوشا وتقول له بحركةٍ آمرة ودمدمةٍ متعجلة:

- اتبعه، أدركه! لا تدعه وحده لحظةً واحدة. إنه مجنون. ألا تدري أنه فقد عقله؟ لقد أصيب بحمى عصبية، صدقني طبيبي هو الذي قال لي ذلك. هيا، أسرع! اركض لتدركه ...

وثب أليوشا من مكانه واندفع في أثر إيفان فيدوروفتش. لم يكن إيفان قد ابتعد أكثر من خمسين خطوة.

- ماذا تريد مني؟

كذلك هتف يقول إيفان ملتفتاً فجأة إلى الوراء عندما لمح أن أخاه يريد اللحاق به. وتابع كلامه يقول بلهجةٍ حانقة:

- لا شك أنها أمرتك بأن تتبعني لأنني مجنون، أليس كذلك؟ لقد حفظت هذه القصة على ظهر القلب.

- واضح أنها مخطئة في هذا. ولكنها على حق حين تقول إنك مريض. لقد تفرست في وجهك منذ قليل، فلاحظت أنك مريض، مريض جداً، يا إيفان!

كان إيفان يسير دون أن يتوقف، وكان أليوشا يتبعه.

سأله إيفان بصوتٍ أصبح هادئاً على حين فجأة وخالياً من آثار الحنق وسمع فيه فجأة فضولاً ساذجً للغاية:

- هل تعرف يا ألكسي فيدوروفتش كيف يصبح المرء مجنوناً؟

أجابه أليوشا قائلاً:

- لا، لا أعرف. ولكن يخيل إليّ أن الجنون أشكال شتى.

- هل تعتقد أنّ في وسع المرء أن يدرك هو نفسه أنه قد جُنّ؟

فأجاب أليوشا مدهوشاً بعض الدهشة.
- أحسب أن المرء لا يقدر في مثل هذه الحالة أن يلاحظ نفسه.
صمت إيفان نصف دقيقة. ثم قال فجأة:
- إذا كنت تحب أن تكلمني فأرجوك أن تغير موضوع الحديث.
فقال أليوشا في خجل:
- صحيح. كدت أنسى. معي رسالة لك.
وأخرج من جيبه رسالة ليزا ومدها إلى أخيه ...
كانا في تلك اللحظة قريبين من أحد مصابيح الشارع، فسرعان ما عرف إيفان خط صاحبة الرسالة.
قال وهو يضحك ضحكة خبيثة:
- ها... رسالة من تلك الشيطانة الصغيرة.
ثم مزق الرسالة قطعاً ورماها في الهواء دون أن يفض الظرف، فتناثرت أجزاؤها. وقال بلهجة احتقار وهو يتابع سيره:
- لم تبلغ السادسة عشرة ثم هي تعرض نفسها.
فهتف أليوشا قائلاً:
- كيف هذا؟ - كيف؟ كأية امرأة فاسقة.
فقال أليوشا يحتج في ألم:
- ما هذا الذي تقوله يا إيفان؟ إنها طفلة! أنت تهين طفلة. هي مريضة، مريضة جداً. لعلها جنّت هي أيضا... ما كان يمكنني أن أرفض حمل رسالتها إليك ... وكنت أحب أن أعرف جلياً الأمر منك أنت ... حتى يمكن إنقاذها.
- لن تعلم مني شيئاً. إذا كانت هي طفلة فلست أنا حاضنتها.
اسكت يا ألكسي. كفى! إني لا أفكر فيها، حتى ولا تخطر على بالي.
وصمتا كلاهما بضع لحظات. ثم قال إيفان فجأة بصوتٍ حانق قاطع:
- سوف تقضي الليل كله مصلية مبتهلة إلى السيدة العذراء أن تلهمها الصواب وأن تدلها على ما يجب أن تقوله غداً في المحكمة.
- هل تقصد... كاترينا إيفانوفنا؟
- نعم... إنها تتساءل هل يجب عليها أن تنقذ ميتيا أو أن تضيّعه. سوف تصلي من أجل أن تهتدي إلى الرأي السديد. إنها لا تعرف هي نفسها حتى الآن ما الذي ستقوله، لأن وقتها لم يتسع بعد لأن تتهيأ للأمر. هي أيضاً تعدّني حاضناً لها، وتريد لي أن أهدهدها!
قال أليوشا بحزن:
- كاترينا إيفانوفنا تحبك يا أخي.
- جائز. ولكنها لا تعنيني.
- إنها تتألم. لماذا قلت لها إذن ... في بعض المرات ... كلاماً يمكن أن يبعث فيها أملاً؟ أنا أعرف فعلاً أنك قد أتحت لها أن تأمل.
كذلك قال أليوشا بصوتٍ فيه شيءٌ من لوم خجل. وأضاف:
- سامحني إذا قلت لك هذا الكلام؟
فقال إيفان متضايقاً منزعجاً:
- لا أستطيع أن أتصرف كما ينبغي أن أتصرف، أي أن أقطع صلتي بها وأن أقول لها الحقيقة بقسوة. يجب انتظار صدور الحكم على القاتل أولاً. لو تركتها الآن لضيعت ذلك المسكين مدفوعةً بروح الانتقام. ذلك أنها تكرهه، وهي تعلم أنها تكرهه. كل شيء هنا كذب، كذب متراكم طبقات! هي الآن، وإلى أن أقطع صلتي بها، ستظل تأمل، وستمتنع لهذا السبب عن تضييع ذلك الشيطان، لعلمها بأنني أريد أن أخرجه من المأزق. فمتى يصدر ذلك الحكم اللعين؟
لقد ترجعت كلمتا «القاتل» و«الشيطان» في قلب أليوشا ترجعاً أليماً موجعاً.
وسأل أليوشا أخاه مفكراً محاولاً أن ينفذ إلى معنى أقوال إيفان:
- كيف يكون في وسعها أن تضيع أخانا؟ ما هي الأشياء التي يمكن أن تقولها في شهادتها فتنزل بدمتري كارثة؟
- أنت تجهل هذا حتى الآن. إنها تملك ورقة مكتوبة بخط دمتري نفسه، ورقةً تثبت إثباتاً قاطعاً أنه قاتل فيدور بافلوفتش.
صاح أليوشا يقول:
- مستحيل!
- لماذا؟ لقد قرأت الورقة بنفسي.
أجاب أليوشا بقوة:
- لا يمكن أن يكون هناك ورقة من هذا النوع. ذلك مستحيل استحالة مطلقة، لأن دمتري لم يقتل. ليس هو قاتل أبينا، ليس هو قاتله ...
توقف إيفان فيدوروفتش عن المشي. وسأل أخاه بلهجةٍ فيها شيء من الاستعلاء:
- فمن عسى يكون القاتل في رأيك؟
قال أليوشا بصوت خافت نافذ:
- من؟ أنت تعرفه.
- ماذا؟ أتقصد ذلك الاتهام الغبي لرجل أبله مصاب بالصرع؟
أتقصد سمردياكوف؟
شعر أليوشا برعدة تهز جسمه كله. وقال:
- أنت تعلم حق العلم من هو القاتل.
أفلتت منه هذه الكلمات كأنما على غير إرادة، وكان يختنق اختناقاً.
فقال إيفان يصرخ في هذه المرة صراخاً مسعوراً وتبخر تحفظه كله فجأةً:
- من تعني؟ من تعني؟ تكلم!
لقد فقد إيفان كل سيطرة على نفسه.
عاد أليوشا يقول بهمس مختنق:
- أنا لا أعرف إلا شيئاً واحداً هو أن قاتل أبينا ليس أنت لا لست أنت ....
سأله إيفان مذهولاً:
- «لست أنت»؟ ماذا تريد أن تقول؟
فكرر أليوشا قوله:
- لست أنت قاتل أبينا، لست أنت!
وخيم الصمت لحظة. ثم قال إيفان شاحباً وهو يبتسم ابتسامة لا يكاد يكون فيها من التبسم إلا انفراج الشفتين:
- أعلم أن القاتل ليس أنا طبعاً. هل تهذي؟
وغرس نظراته في عيني أليوشا. وكان الأخوان قد وصلا إلى أحد مصابيح الشارع من جديد.
- لا يا إيفان، أنت نفسك قلت غير مرّة، إنك أنت القاتل. تمتم إيفان يقول زائغ النظرة تائه الهيئة:
- متى قلت أنا هذا؟ متى؟... لقد كنت بموسكو في ذلك الأوان ... متى قلت أنا هذا الكلام؟

- قلته لنفسك مراراً في الساعات التي خلوت فيها إلى ضميرك أثناء الشهرين الرهيبين.
كذلك قال أليوشا متابعاً كلامه بصوت خافت، ولكنه كان ينطق كل كلمة من كلماته واضحة. كان يتكلم كمن تدفعه إلى الكلام قوة لا تُغالب، قوة غريبة عن إرادته إن صح التعبير:
- اتهمت نفسك مراراً كثيرة قائلاً إن القاتل الحقيقي هو أنت. ولكنك لست القاتل يا إيفان. أنت مخطئ. لست أنت القاتل. هل تسمعني؟ لست أنت، لست أنت! الله قد أرسلني لأقول لك هذا.
سكت الأخوان. وامتد صمتٌ ثقيل خلال دقيقة كاملة. إنَّ كلاً منهما يحدق إلى عيني أخيه منكفئ اللون شاحب الوجه. وفجأةً أخذت أعضاء إيفان كلها ترتعش، وأمسك أليوشا من كتفه، ودمدم يقول كازّاً على أسنانه:
- جئت إلى بيتي إذن في السر، في الخفاء... جئت ليلاً بينما كان هو عندي، هو ... هيا اعترف! رأيته، رأيته، أليس كذلك؟
سأله أليوشا مذهولا:
- من تعني؟ أتعني ميتيا؟
زأر إيفان يقول خارجاً عن طوره:
- لا، ليس ميتيا. شيطان يأخذ ميتيا.
قل: أأنت تعرف أنه يأتي إلي؟ كيف علمت بذلك؟ تكلم!
تمتم أليوشا مروعاً:
- من هو؟ من تقصد؟ إنني لا أعرف من الذي تشير إليه بهذا الكلام.
- بل تعرف، تعرف... ولولا ذلك ما استطعت أن... يستحيل أن لا تكون عارفاً بالأمر...
وسكت إيفان فجأةً في وسط الجملة، وأمسك عن الكلام. بدا أنه يفكر في شيء ما. وارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة.
عاد أليوشا يقول بصوت مختلج:
- أخي، أنا قلت لك ما قلت لأنك تصدق كلامي، أعرف هذا. قلت لك ما قلت لتتذكر قولي إلى الأبد: لست أنت القاتل. تذكر هذا طوال حياتك، هل تسمع؟ لقد أمرني الله بأن أقول لك هذا الكلام، ولو جعلك ذلك تكرهني بعد اليوم...
ولكن إيفان فيدوروفتش كان قد استرد سيطرته على نفسه وتحكمه بسلوكه. فبدأ يقول بسخرية باردة:
- اسمع يا ألكسي فيدوروفتش! أنا لا أطيق الأنبياء ولا المرضى بداء الصرع. أما الذين يرسلهم الرب فأنا أكرههم كرهاً خاصة وأمقتهم مقتاً شديداً... تعلم ذلك حق العلم. إنني أقطع منذ الآن كل علاقة لي بك، أقطع كل علاقة لي بك إلى الأبد فيما يخيل إلي. أرجوك أن تتركني فوراً، عند هذا المفترق. وليس لك على كل حال إلا أن تمضي في هذا الشارع الصغير الذي يفضي بك إلى مسكنك. وحاذر خاصةً أن تجيء إليّ اليوم. هل سمعت؟
ودار على عقبيه، وابتعد بخطى ثابتة دون أن ينظر إلى وراء. صاح أليوشا يقول له:
- أخي، إذا حدث لك شيء في النهار، فاذكرني أنا قبل كل شيء!...
لم يجب إيفان. وانتظر أليوشا، عند مفترق الطرق، قرب المصباح، غياب شبح أخيه في الظلام. وعندئذ ابتعد هو أيضا في الشارع متجهاً إلى مسكنه بخطى بطيئة. كان الأخوان يسكنان منفصلين في منزلين مختلفين. لم يشأ أحد منهما أن يقيم في المنزل الخالي الذي خلفه فيدور بافلوفتش. كان أليوشا يستأجر غرفة مؤثثة عند أسرة من صغار سكان المدينة. وكان إيفان يقيم في بيت منفرد بعيد عن مسكن أخيه استأجره من امرأة ثرية صغيرة أرملة أحد الموظفين. لم يكن يخدمه هنالك إلا عجوز صماء مصابة بالروماتزم ترقد كل يوم في الساعة السادسة من المساء، وتنهض من نومها كل يوم في الساعة السادسة من الصباح. ولكن إيفان كان قد أصبح قليل المطالب في شؤون الخدمة أثناء هذين الشهرين الأخيرين، وأصبح يميل إلى الوحدة والاعتزال في بيته، ويحلو له أن يتولى بنفسه ترتيب الغرفة التي ينام فيها، ولا يدخل سائر غرف بيته إلا نادراً. فلما وصل إلى باب منزله وضع يده على الجرس ولكنه أمسك عن قرعه فجأة. شعر أنه كان ما يزال يرتعش كله من الغضب. فما هي إلا لحظة حتى أرخى الجرس وبصق على الأرض اشمئزازاً، واستدار على عقبيه، ومضى يتجه بخطى سريعة نحو الطرف الآخر من المدينة، وذهب إلى منزل صغير من خشب، يوشك أن يكون متداعياً ويقع على بعد فرسخين، وهو منزل تسكنه ماريا كوندراتيفنا، تلك المرأة التي كانت في الماضي جارة فيدور بافلوفتش وكانت تلتمس من مطبخ فيدور بافلوفتش شيئاً من حساء، وكان سمردياكوف ينشدها أغانيه على القيثارة. لقد باعت هذه المرأة بيتها الصغير الذي كانت تقطنه في الماضي، وأصبحت تسكن الآن مع أمها في كوخ حقير، وقد أقام سمردياكوف عندها منذ موت فيدور بافلوفتش، مريضاً يشبه أن يكون محتضراً. فإلى عند سمردياكوف إنما كان يتجه الآن إيفان فيدوروفتش، تدفعه إلى ذلك فكرة مباغته قاهرة.

-6-أول اجتماع بسمردياكوف

هذه ثالث مرة يزور فيها إيفان الخادم سمردياكوف، بعد عودته من موسكو، ليتحدث معه. كان قد اجتمع به مرة أولى بعد وقوع الكارثة فوراً، يوم وصوله من موسكو، وزاره مرة ثانية بعد ذلك بأسبوعين، ثم انقطع عنه بعد تلك المقابلة الثانية، ولم يكد يراه أو يسمع عنه شيئاً منذ شهر ونيف. إن إيفان فيدوروفتش لم يرجع من موسكو إلا بعد موت أبيه بخمسة أيام، وكان أبوه قد دفن عشية رجوعه هو من موسكو. ويرجع سبب هذا التأخر إلى أن إليوشا كان لا يعرف عنوان أخيه بموسكو فرجا كاترينا إيفانوفنا أن تتولى إبلاغه نبأ الوفاة ببرقية، وكانت المرأة الشابة تجهل هي أيضاً عنوان إيفان على وجه الدقة، فأبرقت إلى عمتها وإلى أختها وفي تقديرها أن إيفان فيدوروفتش سيزورهما عندما يصل إلى موسكو. وقد حدث أن إيفان لم يزرهما إلا في اليوم الرابع بعد وصوله إلى موسكو، فلما قرأ البرقية أسرع يعود إلى مدينتنا. وكان إليوشا أول شخص تحدث معه إيفان عن الفاجعة، فما كان أشد دهشته حين لاحظ أن أخاه إليوشا يرفض رفضا مطلقاً أن يشتبه في دمتري، وإنما يتهم سمردياكوف اتهاماً قاطعاً جازماً معتبراً أنه هو القاتل، على خلاف الرأي الذي أجمع عليه الناس في مدينتنا. فلما تحدث إيفان بعد ذلك مع رئيس الشرطة ووكيل النيابة «واطلع على تفاصيل الاتهام والتحقيق، ازدادت دهشته منا» من موقف إليوشا، فنسب هذا الموقف إلى عاطفة الأخوة القوية، وإلى العطف والشفقة على شقيّ مسكين، ذلك أن إيفان كان لا يجهل في الواقع أن إليوشا يحب دمتري كثيراً. ولنقل في هذه المناسبة بضع كلمات عن عواطف إيفان نحو أخيه دمتري فيدوروفتش: لقد كان إيفان يكره أخاه دمتري كره حقيقياً، ولا يشعر نحوه بنوع من شفقة غامضة إلا في القليل النادر، وهي شفقة ترتبط باحتقار عميق يبلغ حد الاشمئزاز. لقد شعر إيفان دائماً بنفور من ميتيا، وكان ينفر حتى من شكله، ويسخطه ما تحمله كاترينا إيفانوفنا لهذا الشاب من حب. وقد زار المتهم ميتيا في السجن يوم وصوله نفسه، فلم تضعف هذه الزيارة اقتناعه بأن ميتيا هو القاتل، بل عززت هذا الاقتناع ورسخته. لقد وجد أخاه فريسة اضطراب كبير وجيشان مرضي. كان ميتيا يتكلم كثيراً، مع بقائه ذاهلاً حائراً مشوشاً، وكان يعبر عما بنفسه بجمل مفككة وعبارات مقطعة. كان يتهم سمردياكوف، وما ينفك يخبط في كلامه خبط عشواء، عائداً على حين فجأة إلى مسألة الثلاثة آلاف روبل التي سرقها» منه المتوفى، قائلاً من حين إلى حين: «كان هذا المال مالي أنا، هبني سرقته فلا جناح عليّ». أما القرائن التي تشهد عليه وتعزز اتهامه فهو لا يكاد يدحضها، حتى إذا عرض الوقائع التي كان يرى أنها دليل على براءته، اضطرب كلامه واختلطت الأمور في حديثه بكثير من الخرافة، وكأنه كان لا يجب أن يبرئ نفسه في نظر أخيه أو في نظر أي إنسان آخر، فهو يغضب ويثور، ويحتقر الاتهامات مستعلياً، ويرد عليها بلعنات وشتائم، ويتهكم باحتقار على شهادة جريجوري بشأن الباب المفتوح، مؤكداً أن «الشيطان هو الذي فتحه»، دون أن يحاول البحث عن أي تعليل ممكن لهذه الواقعة. حتى لقد وجد السبيل، أثناء هذا الاجتماع الأول بأخيه إيفان فيدوروفتش، إلى أن يهينه ويجرح شعوره، مردداً في جفاء وخشونة أن الذين يدعون «أن كل شيء مباح» ليس من حقهم أن يشتبهوا فيه وأن يستجوبوه. وجملة القول إنه لم يُظهر لإيفان شيئاً من مودة، بل خاشنه وأغلظ له القول. وبعد هذا الاجتماع مع ميتيا فوراً إنما ذهب إيفان فيدوروفتش إلى سمردياكوف.

كان إيفان، حين غادر موسكو، قد فكّر في سمردياكوف طويلاً في القطار، وفكّر في الحديث الذي جرى بينهما عشية رحيله. إن عدداً من التفاصيل كان يوقظ في نفسه الشبهات ويقلقه إقلاقاً شديداً. ولكن إيفان، أثناء الشهادة التي أدلى بها أمام قاضي التحقيق، قد آثر أن يسكت مؤقتاً عن ذلك الحديث الذي كان قد جرى بينه وبين سمردياكوف. كان إيفان يريد أن يتحدث بنفسه اولاً مع سمردياكوف. وكان سميدياكوف يومئذ في مستشفى المدينة. وقد صرح الدكتور هرتسنشتوبه لإيفان، وكذلك الطبيب فارفنسكي الذي لقيه إيفان في المستشفى، صرحا له جازمين قاطعين أن نوبة الصرع التي أصيب بها سمردياكوف كانت واقعية تماماً، حتى لقد استغربا سؤال: «ألا يمكن أن يكون سمردياكوف قد تظاهر بالمرض تظاهراً يوم وقوع حادثة القتل؟». وقد أفهما إيفان أن نوبة الصرع التي ألمت بسمردياكوف في هذه المرة كانت خطيرة خطورةً شديدة، لأنها امتدت عدة أيام، وتكررت مرات كثيرة، حتى كادت تودي بحياته، وبفضل الاسعافات التي استطاعا أن يقدماها والاجراءات التي عمدا إلى اتخاذها إنما أصبح من الممكن أن يقال الآن إن المريض لن يموت من هذه النوبة الرهيبة التي ألمت به. وأضاف الدكتور هرتسنشتوبه قوله: «على أن قواه العقلية ستظل مضطربة بعض الاضطراب مدى الحياة أو زمناً طويلاً على الأقل». واذ كان إيفان يسأل بشيء من نفاد الصبر «هل يجب أن يعد الخادم مجنوناً»، فقد أجيب بأنه ليس مجنوناً كل الجنون، وإنما لوحظت فيه أنواع من الشذوذ. فقرر إيفان أن يتحقق بنفسه من طبيعة هذه الاضطرابات على وجه الدقة. وقد سمحوا له بأن يقترب من المريض دون عراقيل.

كان سمردياكوف راقداً على سريره في حجرة ذات سريرين. أما السرير الثاني فكان يشغله رجل من سكان المدينة كان مصاباً بمرض الاستسقاء، وكان قد بلغ درجة قصوى من الضعف، فلن يعيش أكثر من يوم آخر أو يومين، فلا يمكن أن يكون وجوده في الغرفة حائلاً دون الحديث.

ابتسم سمردياكوف ابتسامةً حذرة مرتابةً حين رأى إيفان فيدوروفتش حتى لقد ظهر عليه في أول الأمر شيء من الوجل، أو هذا ما شعر به إيفان على الأقل. ولكن ذلك الوجل سرعان ما تبدد، حتى لقد دهش إيفان من هدوء سمردياكوف بعد ذلك. واستطاع إيفان مع هذا أن يقتنع من أول نظرة ألقاها على المريض أن حالته خطيرة حقاً. لقد كان سمردياكوف ضعيفاً أشد الضعف، وكان يتكلم ببطء كأنه يجد عناء في تحريك لسانه، وكان قد هزل جسمه هزالاً بالغاً، واصفر لونه اصفراراً شديداً. ولم ينقطع سمردياكوف خلال الدقائق العشرين التي استغرقتها الزيارة عن الشكوى من آلام في رأسه وأوجاع في جميع أعضاء جسمه. وكان وجهه الجاف الذي يشبه وجوه الخصيان يبدو أنه قد ضؤل وصغُر، وكان الشعر على صدغيه مبعثراً متشعثاً، ولم يبق من ذؤابته إلا خصلة متناثرة في قمّة الرأس.

ولكن عينه اليسرى ذات الجفن المتغضن قليلاً، والتي تغمز من حين إلى حين لتوحي بمعانٍ ماكرة، تشهد بأن سمردياكوف ما يزال سمردياكوف. وتذكر إيفان جملته التي سبق أن قالها له ذات يوم: يحلو للمرء أحياناً أن يتحدث مع إنسان ذكي»..

جلس إيفان على طاولة من جهة قدمي المريض. فانقلب سمردياكوف على فراشه متألماً، ولكنه ظل صامتاً لا يتكلم، كأنه لا يريد أن يكون البادئ بالكلام. ولم يكن في نظرته شيء يدل على الفضول.

سأله إيفان:

- هل تستطيع أن تتحدث معي؟ لن أتعبك كثيراً.

فتمتم سمردياكوف يقول بصوت واهن:

- طبعا أستطيع أن أتكلم. ثم أضاف يسأله متلطفاً كأنما ليشجع زائره المرتبك:

- هل وصلت منذ مدة طويلة؟

- وصلت اليوم... جئت لأوضح الموقف.

تنهد سمردياكوف. فأسرع إيفان يسأله فجأة:

- لماذا تتنهد وقد كنت على علم بالأمر.

صمت سمردياكوف لحظة دون أن يدع لنفسه أن يهتز أو يتأثر. ثم قال:

- كيف كان يمكن أن لا أعلم؟ كان كل شيء واضحاً سلفاً، ولكني لم أكن أستطيع أن أتنبأ كيف سينتهي الأمر.

- تتنبأ بماذا؟ لا تتهرب من الكلام باللف والدوران.... ألم تتنبأ بأنك ستصاب بنوبة صرع حين ستنزل إلى القبو؟ لقد حرصت على أن تحدد أن ذلك سيقع لك أثناء نزولك إلى القبو!

سأله سمر دياكوف بهدوء:

- هل ذكرت هذا في الشهادة التي أدليت بها؟

غضب إيفان فيدوروفتش وأجابه بقوله:

- لم أذكره بعد، ولكنني سأذكره حتماً. هناك نقاط كثيرة عليك أن توضحها لي، واعلم أنني لن أسمح لك بأن تمثل دور الماكر المخاتل معي!

- أمثل دور الماكر؟ إن أملي كله معقود عليك، كأنك الرب!

كذلك قال سمردياكوف بذلك الهدوء نفسه، مكتفياً بإغماض عينيه لحظة.

بدأ إيفان يقول:

- أولاً، أنا أعلم حق العلم أن من المستحيل التنبؤ بنوبة صرع. لقد سألت عن هذا الأمر، فعلمت علم اليقين أن ذلك مستحيل، لذلك أنصحك بأن لا تراوغ. يستحيل على المرء أن يتنبأ باليوم والساعة التي يصاب بها بنوبة من هذا النوع. فكيف أمكنك إذا أن تحدد لي سلفاً الساعة واليوم اللذين ستوافيك فيهما هذه النوبة، وكيف أمكنك فوق هذا أن تعين المكان الذي ستصاب فيه بهذه النوبة فتقول إنه القبو؟ كيف كان يمكنك أن تتنبأ بأن النوبة ستلم بك في القبو، إذا لم تكن قد اصطنعتها اصطناعاً، وتظاهرت بها تظاهراً؟

أجاب سمردياكوف يقول دون تعجل، جاراً كلماته جراً:
- كان عليّ أن أنزل إلى القبو في كل حال، بل كان علي أن أنزل إليه عدة مرات في اليوم. وفي ظروف كهذه الظروف إنما سقطت في العام الماضي. صحيح أن المرء لا يستطيع أن يتنبأ باليوم والساعة التي توافيه فيها نوبة صرع، ولكنه يستطيع أن يحس ذلك وأن يوجسه.
- نعم، ولكنك تنبأت باليوم والساعة.
- خير لك، يا سيدي، في ما يتعلق بمرضي، أن تسأل أطباء هذا المستشفى. سلهم عن نوبة الصرع أكانت مصطنعة أم لا! أما أنا فلا أرى أن عليّ أن أزيد على ما قلت شيئاً.
- والقبو، القبو؟ كيف علمت أن هذا سيقع لك في القبو؟
- لا يقلقنك أمر القبو المسألة بسيطة: حين كنت نازلاً إلى القبو ألم بي ذعر وخوف وقلق، ألم بي ذعر لأنك كنت غائباً فلم يبق لي أحد يحميني. نزلت إلى ذلك القبو وأنا أقول لنفسي: «الآن ستجيئني النوبة، الآن!... هل سأقع؟ هل سأسقط؟» وبسبب ذلك القلق الذي شعرت به عندئذ إنما أحسست فجأة بذلك التشنج اللعين في حلقي، بذلك التشنج الذي لا حيلة لي في دفعه... ثم ترنحت... وتدحرجت!... هذه التفاصيل كلها، وكذلك الحديث الذي جرى بيني وبينك قبل الحادث بيوم أمام المنزل، حين أطلعتك على مخاوفي وقلقي بشأن القبو، ذلك كله قصصته بأمانة على الدكتور هرتسنشتوبه، وعلى قاضي التحقيق نيقولا بارفينوفتش، فسجلا جميع تصريحاتي في المحضر. أما الدكتور فارفنسكي فقد ألح عندئذ على أن الأمور لا بد أن تكون قد جرت هذا المجرى، وعلى أن نوبة الصرع التي أصابتني إنما كان مردها حتماً إلى خوفي منها، وتوقعي لها: «أسوف أسقط أم سوف لا أسقط؟»، فإذا بالنوبة توافيني في تلك اللحظة بعينها. ذلك ما دونوه في المحضر، وأضافوا إليه أن الأمور لا بد أن تكون قد جرت على هذا النحو نتيجة للخوف الذي كان يهجس في نفسي.
قدم سمردياكوف هذه الإيضاحات ثم تنفس تنفساً عميقاً شاقاً، كأنه يحس بأنه محطم مبلبل من فرط العناء
- أأنت ذكرت هذه التفاصيل إذاً في شهادتك؟
ذلك أن إيفان كان ينوي أن يخيف الخادم بتهديده بإفشاء أمر الحادث الذي جرى بينهما عشية الجريمة، فإذا هو يعلم الآن أن الرجل قد سبقه من تلقاء نفسه إلى ذكر جميع التفاصيل.
وقال سمردياكوف بصوتٍ صار ثابتاً على حين فجأة:
- ماذا كنت أخشى؟ بالعكس: إنني أحرص على أن أسجل الحقيقة كلها في المحضر.
- هل ذكرت الحديث الذي جرى بيننا كلمة كلمة؟
- لا، لم أذكره كلمة كلمة.
- هل قلت لهم أيضاً إنك تجيد التظاهر بنوبات الصرع كما تباهيت بذلك أمامي؟
- لا، لم أقل لهم ذلك.
- قل لي الآن لماذا كنت حريصاً ذلك الحرص كله على أن أسافر إلى تشرماشنيا؟
- كنت أخشى أن تسافر إلى موسكو. إن تشرماشنيا أقل بعداً من موسكو على كل حال.
- كاذب! كنت تريد أن أبتعد عن هنا. «سافر، أهرب من الإثم». ذلك ما كنت تقوله لي.
- لئن أسديت إليك هذه النصيحة، فإنما فعلت ذلك من باب الصداقة لك، والإخلاص لشخصك، لأنني كنت أتوقع النازلة التي كانت ستحل بهذه الدار، فكنت أشفق عليك وأرثي لك. غير أن اهتمامي بسلامتي غلب علي، فقلت لك «اهرب من الإثم، وذلك لأفهمك أن شراً يتربص بالدار، فأحملك على البقاء هنا لتحمي أباك.
هتف إيفان يقول غاضباً على حين فجأة:
- كان عليك أن تقول لي ذلك صراحة أيها الأحمق!
- كيف كان يمكنني أن أكلمك بصراحة أكثر؟ كان الخوف قد شلني شلاً، وكنت أخشى فوق ذلك أن أغضبك. صحيح أن هناك ما كان يحملني على أن أخاف أن يرتكب دمتري فيدوروفتش حماقةً ما، وأن يستولي على ذلك المبلغ لأنه كان يعده ملكاً له، ولكن كيف كان في وسعي أن أتنبأ بأن الأمر سينتهي إلى جريمة قتل؟ كنت أظن أنه سيكتفي بأخذ الثلاثة آلاف روبل التي كان سيدي يخبئها في ظرف تحت الفراش. ولكنه قتل أباه بدلاً من ذلك. أكان في وسعك أنت مثلاً أن تتنبأ بما وقع؟
قال إيفان فيدوروفتش وقد أصبح واجماً يفكر:
- إذاً كنت تقول أنت نفسك إن التنبؤ بذلك كان مستحيلاً، فكيف كان يمكنني أن أتنبا أنا به فأبقى هنا؟ إنك تخلط الأمور وتتخبط في الكلام.
- كان يمكنك أن تتنبأ بالأمر لأنني كنت ألح عليك أن تسافر إلى نشرماشنيا لا إلى موسكو.
- كيف كان يمكنني الوصول إلى هذه النتيجة؟ ما هذا الكلام الذي تقوله؟
بدا على سمردياكوف تعب شديد، فصمت بضع لحظات من جديد. ثم قال:
- كان يمكنك أن تحزر ذلك، حين لاحظت أنني كنت أوثر أن أعلم أنك في تشرماشنيا لا في موسكو لأن موسكو بعيدة جداً. فإذا عرف دمتري فيدوروفتش أنك قريب من هنا، فلعله كان سيتردد، وكان في وسعك إذا كنت في تشرمانشيا أن تسارع فتجيء لتحميني عند الحاجة لأنني قد حدثتك عن مرض جريجوري فاسيلتش وعن توجسي من نوبة الصرع التي ستوافيني. وقد أطلعتك، عدا ذلك، على الإشارات التي يمكن بواسطتها حمل أبيك على فتح الباب. وحين أسررت إليك أن دمتري فيدوروفتش كان على علم بهذه الإشارات لأنني أطلعته عليها، كنت أقدر أنك ستدرك ما يتربص بالدار من شر، وأنك ستعدل حتى عن السفر إلى تشرماشنيا، وأنك ستبقى هنا.
حدث إيفان نفسه قائلاً: «إنه يقول كلاماً مترابطاً جداً، رغم أنه يسيء نطق الكلمات. فأين هي إذا تلك الاضطرابات العقلية التي تكلم عنها الدكتور هرتسنشتوبه؟»..
هتف إيفان يقول غاضباً:
- أنت تمكر بي، يا لك من شيطان!
فأجابه سمردياكوف وقد لاح في وجهه أقصى البراءة:
- أعترف لك بأنني كنت قد أيقنت أنك فهمتني وفهمت ما أقصد تمام آنذاك.
فصاح إيفان يقول غاضباً من جديد:
- لو قد فهمت لبقيت.
- وأنا ظننت أنك حزرت كل شيء، وفهمت كل شيء وأنك أسرعت تسافر بغية الابتعاد عن الإثم، بالهرب إلى مكان بعيد، من باب الخوف لتنقذ نفسك..
- أتراك تتخيل أن جميع الناس جبناء مثلك؟
- معذرة يا سيدي. كنت أظن أنك مثلي!
عاد إيفان يقول مضطرباً:
- طبعاً، كان علي أن أحزر ... كان علي أن أحزر حقاً أنك تهيئ دناءة ما...
- ولكن إيفان صاح يقول فجأةً وقد تذكر نقطة معينة من الحديث الذي جرى بينهما قبل رحيله..
- لكنك تكذب! تكذب! هل تتذكر أنك اقتربت من عربتي لحظة رحيلي لتقول لي: «يحلو للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكي»؟. إذاً لقد سرك أن تراني راح ما دمت قد أخذت تكيل لي المديح!
تنهد سمردياكوف مرة ومرة وهو يبذل جهداً واضحاً من أجل أن يسترد أنفاسه، وظهر في وجهه ما يشبه الحمرة، وقال وهو يكاد يختنق:
- لئن سُررت، إن سروري لم يكن له من سبب إلا أنني رأيتك لا تسافر إلى موسكو بل إلى تشرماشنيا التي هي أقرب من موسكو على الأقل. أما الأقوال التي تعدها مديحاً، فإنك قد أسأت فهمها. ذلك أنني قد قصدت بها إلى لومك في حقيقة الأمر. ولكنك لم تفهم ذلك.
- لومي على ماذا؟
- على أنك رغم توجسك الشر، تترك أباك وتعدل عن البقاء هنا لحمايتنا. ذلك أنني كنت أنا أيضا معرضاً لأن أقحم في القضية بسبب هذه الثلاثة آلاف روبل التي

كان يمكن أن يظن أنني سرقتها.
قال إيفان يسبه من جديد:
- شيطان يأخذك! لحظة ... هل حدثت قاضي التحقيق ووكيل النيابة عن تلك الإشارات، عن تلك الضربات على النافذة؟
- حدثتهما عنها. قلت لهما كل شيء.
دهش إيفان فيدوروفتش بينه وبين نفسه من جديد. ثم استأنف كلامه قائلاً:
- إذا كنت قد خطر لي شيء آنذاك، فقد خطر لي أن من الممكن أن ترتكب أنت حقارةً ما. صحيح أن دمتري كانَ يُمكن أن يقتل، أمّا أن يسرق فذلك ما لمّ أسلّم به حينذاك... أمّا أنت، فكنت أتوقع منك أية حقارة. ألم تسر إليَّ أنت نفسك أن في وسعك أن تصطنع نوبة صرع؟ لأي غرض قلت هذا؟
- قلته عن بساطة. إنني لمّ أتظاهر بنوبة صرع في يوم من الأيام. وإنما أردت أن أتباهي أمامك وأتفاخر. كانَ ذَلكَ غباوة مني. كنت أحبك كثيرة، وأحدثك بسذاجة تامة وبراءة كاملة.
- إنّ أخي يتهمك اتهاما قاطعاً بأنك قتلت وسرقت. أجابه سمردياكوف يقول بابتسامة مرة:
- ماذا بقي لهُ أن يقول؟ من ذا الذي سيصدقه اليوم بعد أن تجمعت عليه جميع تلك الأدلّة؟ الباب الذي رآه جريجوري فاسيلتش مفتوحاً على سبيل المثال... كيف يمكنه أن يتهمني بعد هذا؟ سامحه الله! إنه يرتعش فزعة فيحاول إنقاذ نفسه بأي طريقة!...
صمت سمردياكوف بضع لحظات كأنه يفكر، ثمّ أردف يقول:
- هو الأمر نفسه... إنه يريد أن يُلقي الجرم على عاتقي مدعياً أنني أنا الذي قمت بالضربة... أعرف القصة... ولكن فكّر قليلاً: لقد ذكرت لك مازحا أنني أحسن التظاهر بنوبة الصرع. أفكان يُمكن أن أقول لك إنني قادر على ذَلكَ التظاهر لو كنت أنوي قتل أبيك؟ هل يتخيل أحد أن إنسانا يبيت جريمة كهذه الجريمة يُمكن أن يبلغ به الغباء حد فضح نفسه سلفاً، وتقديم دليل يثبت ارتكابه الجريمة، بالتحدث في هذا الأمر إلى ابن الضحيّة نفسه؟! ذَلكَ شيء لا يُمكن تصديقه إطلاقاً. لا يُمكن أن يحدث ذَلكَ أبدًا. ما من أحد يسمعنا في هذه اللحظة، ما من أحد يسمعنا إلا الله. ولكنك، لو كشفت عن هذه الواقعة لوكيل النيابة وقاضي التحقيق، لن تزيد على أن تخدمني وأن تحميني: هل يُمكن أن يكون المرء مجرماً بهذه السذاجة كلها؟ ذَلكَ ما سيفهمه جميع الناس.
قال إيفان فيدوروفتش وقدْ أدهشته ما تشتمل عليه هذه الملاحظة الأخيرة من منطق:
- اسمع، إنني لا أشتبه أبدًا في أنك ارتكبت هذه الجريمة، بل إنني لأرى أن اتهامك بها أمر سخيف مضحك.
- نطق إيفان بهذه الكلمات وهو ينهض. ثمّ أردف يقول:
- وإني لأشكر لك أنك طمأنتني في هذا الموضوع. إنني أتركك الآن ولكنني سأزورك مرة أخرى. إلى اللقاء. أتمنى لك شفاء سريعة. أأنت في حاجة إلى شيء؟
- شكرا يا سيدي! شكرا لك على كل شيء. إنّ مارفا أجناتفنا تهتم بأمري، وتجعلني في غير حاجة إلى شيء البتة، على عادتها في الشهامة والأريحية. لا شيء يعوزني. وهناك أناس طيبون يزورونني كل يوم.
- إلى اللقاء. ثمّ لن أكشف شيئاً مما ذكرته لي عن حذقك في اصطناع الصرع والتظاهر به.
ثمّ أضاف يقول فجأة دون أن يعرف لماذا: - وأنصحك بأن لا تتحدث عن هذا في شهادتك أنت أيضاً.
- أنا أفهمك كل الفهم. ما دمت لن تتحدث عن هذا الأمر أنت، فسأسكت أنا أيضاً عن تفاصيل ذَلكَ الحديث الذي جرى بيننا حينذاك أمام المنزل.
وهنا خرج إيفان فيدوروفتش من غرفة المريض مسرعا، ولم يدرك فجأة ما قد تشتمل عليه الكلمات الأخيرة التي قالها سمردياكوف من معنى مهين، إلا بعد أن قطع نحو عشر خطوات في الممر، فأوشك عندئذٍ أن يقفل راجعاً إلى المريض، ولكن هذه النية التي هجست في نفسه نصف ثانية، لمّ تلبث أن تبددت، واكتفى بأن دمدم قائلاً:
ذَلكَ كلّه سخافات!»، ثمّ أسرع يغادر المستشفى. كانَ الأمر الأساسي هو أنّه صار مطمئنة وخاصة من مسألة أن القاتل هو أخوه ميتيا لا سمردياكوف، رغم أنّه كانَ من المفروض أن يحدث عكس ذَلكَ. لماذا انقلبت تنبؤاته هذا الانقلاب؟ كانَ إيفان لا يريد أن يعرف لماذا انقلبت تنبؤاته، حتّى لقد كانَ ينفر بعض النفور من تحليل هذه النقطة. كانَ يحاول، فيما يبدو، أن ينسى شيئاً ما. وقدْ اقتنع أثناء الأيام التالية اقتناعاً كاملاً بأن ميتيا هو الجاني، ولا سيما بعد أن عرف جملة القرائن والأدلة التي تجمعت على أخيه. وكان عدد من الشهادات يدينه إدانة خاصة، رغم صدور هذه الشهادات على أشخاص قيمتهم ضئيلة للغاية، من ذَلكَ شهادة فينيا وأمها. أمّا تصريحات برخوتين وروّاد الحانة ومستخدمي متجر بلوتنيكوف والشهود في موكرويه، فقد كانت خطورتها واضحة بلا جدال. وكانت التفاصيل خاصة تدعو إلى القلق. إنّ المعلومات التي تتعلق بالإشارات «الطرقات السرية قد أثرت في قاضي التحقيق ووكيل النيابة تأثيراً قوياً يعادل تأثير شهادة جريجوري عن الباب المفتوح، إنّ لمّ يكن أكثر. وقدْ أجابت امرأة جريجوري، مارفا اجناتفنا، عن سؤال ألقاه عليها إيفان فيدوروفتش فقالت إنّ سمردياكوف قد قضى الليلة كلها وراء الحاجز راقداً على حصيرة «تبعد ثلاث خطوات عن سريرنا نفسه، وإنها رغم أنها نامت نوماً عميقاً، قد استيقظت عدة مرات من سماعها أنات المريض. وأضافت تقول: «إنه لمّ ينقطع عن الأنين، لمّ ينقطع عن الأنين». وأما الدكتور هرتسنشتوبه الذي أطلعه إيفان على شكوكه بشأن سمردياكوف، قائلاً إنه لا يبدو لهُ مجنوناً أبدًا، فقد أجاب يقول بابتسامة رقيقة: هل تعرف ما الذي يشغله الآن؟ تصوّر أنّه يقضي وقته في حفظ كلمات فرنسية على ظهر القلب. إنه يخفي تحت وسادته دفتراً سجل لهُ عليه أحدهم كلمات فرنسية بأحرف روسية. هئ هئ!». هكذا عدل إيفان أخيراً عن شكوكه، وأصبح لا يفكر في أخيه دمتري إلا ويشعر باشمئزاز. ومع ذَلكَ بقى هنالك شيء يبدو لهُ غريباً: إنّ إيليوشا ما يزال يدّعي، في إصرار وعناد، أن الجريمة لمّ يرتكبها دمتري، وأن «أغلب الظن» أن سمردياكوف هو الجاني. ولقد كانَ إيفان يحترم دائماً، في قرارة نفسه، آراء إيليوشا، لذلك كانَ موقف إيليوشا في هذه القضية يدهشه كثيراً، ومن الغريب أيضاً أن اليوشا لمّ يسع يوماً إلى انتهاز فرصة يتحدث فيها إليه عن ميتيا، لا ولا كانَ البادي في الكلام عن هذا الموضوع قطّ، وإنما كانَ يقتصر على الإجابة عن الأسئلة التي يلقيها عليه أخوه. ذَلكَ أمر أدهش إيفان كذلك. يحسن أن نلاحظ على كل حال أن إيفان كانَ في تلك الفترة غارقاً غرقاً تاماً في مشاغلُ غريبة كل الغرابة عن دعوى أخيه. إنه منذ عودته من موسكو قد عاوده هيامه العنيف العارم بكاترينا إيفانوفنا. ليس هنا مجال الكلام على هذا الحب الجديد الذي استبد بإيفان فيدوروفتش والذي سيؤثر في مجرى مصيره كلّه فذلك يُمكن أن يكون موضوع قصة أخرى، موضوع رواية أخرى لا أدري بعد هل أكتبها في يوم من الأيام. ولكنني لا أستطيع مع ذَلكَ أن أسكت عن تسجيل هذه الملاحظة الآن: وهي أن إيفان حين رجع من عندَ كاترينا إيفانوفنا ليلاً بصحبة أليوشا، فصرح لأخيه بان هذه المرأة الشابة لا تهمه ولا يعنيه أمرها، إنما كانَ يكذب كذبة لا حياء فيه. فالحق أنّه كانَ يحبها حباً جنونياً، ومع ذَلكَ فمن الصحيح أيضاً أنّه كانَ يكرهها في بعض اللحظات كرهاً يبلغ من القوة أنّه قادر على أن يقتلها. ولهذا أسباب كثيرة: منها أن كاترينا إيفانوفنا التي هزّها ما حدث لميتيا هزاً عميقاً قد استقبلت إيفان فيدوروفتش حين عودته من موسكو استقبالها لمنقذ ومخلص. لقد كانت تشعر بأن الأحداث التي جرت قد أهانتها وأذلت عواطفها وجرحت كبرياءها، وها هو ذا رجل كانَ يحبها منذ زمن طويلاً... نعم، هي تعرف هذا تمام المعرفة - رجل كانت تحترم ذكاءه وقلبه على كل حال، ها هو ذا يعود اليها. ولكن هذه الفتاة المتكبرة لمّ تستسلم تماماً رغم ما يتصف به هيام صديقها المحب من عنف عارم مضطرب وهو واحد من آل كارامازوف في هذه الناحية ورغم ما تشعر به نحوه من عبادة. وكانت في الوقت نفسه تحس بعذاب الضمير يلاحقها ويطاردها بغير انقطاع، لأنها خانت ميتيا، وكانت في اللحظات العاصفة من مشاجراتها مع إيفان (وهي مشاجرات كانت تتكرر كثيرة)، لا تتردد عن أن تصرح لهُ بذلك في وجهه غاضبة غضباً شديداً. وبسبب هذا الموقف الذي كانت تقفه إنما اتهمها إيفان، في حديثه مع أليوشا، بأنها «تراكم الكذب طبقات». والحق أن سلوكها كانَ يشتمل على كثير من الكذب، وذلك ما كانَ يحنق إيفان فيدوروفتش خاصة... ولكننا سنعود إلى هذا فيما بعد. وحسبنا أن نقول الآن إنّ إيفان كاد ينسى وجود سمردياكوف خلال بعض الوقت. غير أن الخواطر الغريبة التي سبق أن عذبته لمّ تلبث أن عاودته بعد أسبوعين من زيارته الأولى لسمردياكوف. فاذا هو يعود يُلقي على نفسه تلك الأسئلة نفسها بغير انقطاع: لماذا نزل إلى الطابق السفلي في منزل أبيه صامتاً كسارق في الليلة الأخيرة التي قضاها في المنزل واسترق السمع إلى ما يفعله أبوه في الأسفل؟ لماذا شعر بعد ذَلكَ باشمئزاز من تذكر هذا الأمر، ولماذا اجتاحت نفسه فجأة في صباح اليوم التالي وهو في الطريق كآبة عميقة، وعند وصوله إلى موسكو قال لنفسه: «أنا وغد!» إنه ليبدو لهُ الآن أن هذه الخواطر المقلقة تجتاح نفسه اجتياحاً يبلغ من القوة حد أنّه ينسيه حتّى كاترينا إيفانوفنا. وفيما هو يجيل هذا الخاطر في رأسه ذات يوم، التقى باليوشا في الشارع، فاستوقفه ثمّ إذا هو يسأله على حين فجأة:
- هل تذكر أنني في اليوم الذي اقتحم فيه دمتري منزل أبينا بعد الغداء، وضربه، قد قلت لك بعد ذَلكَ في الفناء إنني أحتفظ لنفسي بحق الرغبة والتمني»؟ هل قدرت في ذَلكَ اليوم أنني كنت أتمنى موت أبينا؟ هه؟ أجب!
قال أليوشا بصوت خافت:
- نعم قدرت ذَلكَ.

- كانَ ذَلكَ هو الحقيقة على كل حال، ولا حاجة بالمرء إلى كبير مكر حتّى يصل إلى هذه الحقيقة. ولكن ألم تشعر في ذَلكَ اليوم أنني كنت أتمنى فعلاً أن أرى «وغدأة يلتهم وغداً آخر، أي أن يقتل دمتري أبانا، وأن يقتله بأقصى سرعة ممكنة... وإنني ما كانَ يسوءني أن أساعد من جهتي على ذَلكَ؟ قل!...
اصفر لوّن اليوشا قليلاً وحدّق إلى عيني أخيه صامتا. هتف إيفان يقول:
- هلاّ تكلمت أخيراً! إنني أريد بكل قواي أن أعرف ما فكرت فيه يومذاك. أريد أن أعرف الحقيقة بأي ثمن، الحقيقة، هل سمعت؟
وتنفس إيفان تنفساً شاقاً، ونظر إلى أخيه أليوشا بنوع من غضب مستبق.
فدمدم أيليوشا يقول:
- سامحني... لقد قدرت ذَلكَ أيضاً.
ولكن أليوشا لمّ يلبث أن صمت دون أن يضيف ذكر أي «ظرف مخفف»..
قال لهُ إيفان بجفاف:
- شكراً.
ثمّ تركه هناك وابتعد بخطى سريعة.
أحسّ اليوشا منذ ذَلكَ اليوم أن أخاه يحاول أن يتحاشاه، بل وإنه يشعر نحوه بشيء من الكره، لذلك كف هو نفسه عن زيارته. وبعد ذَلكَ اللقاء الذي تحدثنا عنه مضى إيفان فيدوروفتش إلى عندَ سمردياكوف رأساً، دون أن يعرج على مسكنه.

-7-ثاني اجتماع بسمردياكوف

كانَ سمردياكوف قد غادر المستشفى. إنّ إيفان فيدوروفتش يعرف عنوانه الجديد، ويعرف أن الخادم قد أقام في البيت الخشبي الصغير الذي تداعى جزء منه الآن، والذي يتألف من حجرتين اثنتين، يفصل بينهما ممر. أمّا ماريا كوندراتيفنا فتشغل إحدى الغرفتين مع أمها، بينما يشغل سمردياكوف الغرفة الثانية. ما من أحد يعرف بأي صفة كانَ سمر دياكوف يعيش عندَ هاتين السيدتين: أبصفته صديقاً أم بصفته مستأجراً؟ ولقد دعت أسباب، فيما بعد، إلى افتراض أن سمردياكوف إنما اتخذ مقره هناك بصفته خطيباً لماريا كوندراتيفنا، وأنه كانَ لا يدفع أجراً. وكانت الأم وابنتها تحترمانه كثيرة وتعدانه رجلاً متفوقاً. قرع إيفان فيدوروفتش الباب، ثمّ دخل الممر، ودلته ماريا كوندراتيفنا على الغرفة الجميلة التي يسكنها سمردياكوف، فاتجه إليها قدماً لا يلوي على شيء. الغرفة مدفأة تدفئة شديدة بموقد مكسو بالخزف. والجدران مغطاة بورق أزرق متمزق تمزقاً أ في مواضع عدة، وفي شقوق الورق ترتع صراصير لا حصر لها لحركاتها أصوات لا تنقطع. والأثاث بائس: دكتان على طول الجدارين، وكرسيان قرب مائدة من خشب، بسيطة جداً، لكنّها مغطاة بغطاء مشجر وردي اللون. والنافذتان الصغيرتان تزدان كل منهما بأصيص أزهار. وفي أحد الأركان ثرى أيقونات. وعلى المائدة سماور من نحاس، صغير الحجم، كثير التقعّر، مع صينية وفنجانين.

كانَ سمردياكوف قد فرغ من شرب الشاي، فالسماور قد أطفئ.

إنّ سمردياكوف جالس الآن على دكة قد دفعها نحو المائدة، عاكف على كتابة شيء في دفتر، هذه محبرة صغيرة موضوعة في متناول يده، وهذه شمعة في شمعدان من البرونز تلقي ضوءاً ضعيفاً على مائدته. أدرك إيفان فيدوروفتش من أول نظراً ألقاها على سمردياكوف أن سمردياكوف قد أبلّ من مرضه إبلالاً تاماً. أصبح لونه أكثر نضارة، وأصبح خداه أقل خسوفاً، واسترد ذؤابة رأسه، وعاد يدهن شعره من جديد. إنه يرتدي الآن معطفاً للمنزل زاهي الألوان مبطناً بقطن، لكنه مهترئ جداً. وعلى عينيه نظارتان لمّ يسبق لإيفان فيدوروفتش أن رآهما من قبل، فكان من شأن ذَلكَ الأمر التافه أن ضاعف حنق إيفان فيدوروفتش. فجأة، قال إيفان فيدوروفتش لنفسه: «أهذا المخلوق يجرؤ أن يضع على عينيه نظارتين؟». رفع سمردياكوف رأسه ببطء، وشخص ببصره إلى الزائر من خلال النظارتين محدقة. ثمّ خلعهما بغير تعجل، ونهض متوانية متكاسة، بحركة تبدو فيها قلة الاحترام، كأنه يقتصر على أن يقوم بواجب تمليه اللباقة التي لا يملك أن يستغني عنها. رأى إيفان فيدوروفتش كل هذا في لحظة، وسرعان ما أدرك معنى هذا، وقدْ لاحظ خاصة نظراً سمردياكوف التي كانت تعبر عن الاستياء وتعبر عن عداوة وقحة وحتى متكبرة، فكأنه يقول لهُ: «ما الذي يحملك على إزعاجي هنا وقدْ سبق أن تكلمنا عن كل شيء؟». كبح إيفان فيدوروفتش جماح نفسه حتّى لا ينفجر غيظاً، وقال لهُ واقفاً وهو يحلّ أزرار معطفه:

- الحر في غرفتك شديد. فأجابه سمودياكوف آذنا:

- اخلع إذاً معطفك.

خلع إيفان فيدوروفتش معطفه ورماه على الدكة، ثمّ تناول كرسية بيد ترتعش غضباً، فأدناه من المائدة بحركة عنيفة وجلس عليه. وكان سمودياكوف قد استطاع أن يسبقه إلى الجلوس.

سأله إيفان فيدوروفتش بلهجة صارمة وإلحاح:

- قبل كل شيء: هل نحن هنا وحيدان؟ ألاّ يسمعنا أحد في الجهة الأخرى؟

- لن يسمع أحد شيئاً... إنك لترى أن الغرفتين يفصلهما ممر؟

- اسمع يا عزيزي: ماذا أردت أن تقول غامزاً في المرة الماضية حين تركتك بالمستشفى؟ لماذا قلت لي إنك ستسكت عن تفاصيل الحديث الذي جرى بيننا أمام المنزل إذا أنا لمّ أتكلم عن حذقك في اصطناع نوبات الصرع والتظاهر بها؟ ما هي تلك التفاصيل التي أردت أن تشير إليها؟ إلى ماذا أردت أن تلمح؟ أتراك أردت أن تهددني؟ أتراك تريد أن تزعم أنني كنت متواطئة معك وأنني خائف منك؟

كانَ إيفان فيدوروفتش يتكلم في سورة الغضب، وكأنه كانَ يريد أن يبرهن بإلقاء هذه الأسئلة مباشرة على أنّه يكره المراوغة واللف والدوران، وأنه يحب أن يلعب بالورق مكشوفة على المائدة.

وَمَضَ التماع خبيث في نظراً سمردياكوف، وأخذت عينه اليسرى تطرف، وأسرع يجيب قائلاً (على ما عهد فيه من تحفظ واعتدال وقصد، وكانت هيئته تشبه أن تقول: «أتريد الحقيقة؟ إذا سأقولها لك»):

- ان ما كنت أقصده آنذاك وما أردت أن أقوله هو التالي تماماً:

إنك تركت أباك بغير حماية، مع علمك سلفاً بمشروع قتله. لقد وعدتك بأن أسكت عن هذه النقطة، ولا أتفوه بشيء للسلطات، حتّى لا يستنتج من ذَلكَ نتائج سيئة عن مشاعرك، وربما عن أمر آخر أيضاً.

نطق سمردياكوف بهذه الكلمات دون تعجل، مسيطراً على نفسه كل السيطرة فيما يبدو، ولكن لهجته كانت قد تغيرت، كما أن صوته أصبح فيه شيء من ثبات وإصرار، وشيء من شر وتحد في الوقت ذاته. وحذق بوقاحة إلى إيفان فيدوروفتش الذي أفقدته هذه الجرأة سيطرته على نفسه في الوهلة الأولى.

قال إيفان فيدوروفتش صائحاً: - ماذا؟ كيف؟ أأنت تملك كل عقلك؟ - ثق أنني أملك عقلي كاملاً.

قال إيفان فيدوروفتش وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة عنيفة:

- ولكن هل كانَ في وسعي آنذاك أن أعرف بجريمة القتل؟ وماذا تعني بهذه الكلمات: «وربما عن أمر آخر أيضاً»؟ هلاَّ أجبت أيها الوغد!؟

كانَ سمردياكوف صامتاً، مصراً على التفرس في إيفان فيدوروفتش بنظرة وقحة.

زأر إيفان فيدوروفتش يقول لهُ: - تكلّم أيها الوغد العفن ! ما الذي تعنيه «بالأمر الآخر»؟

- «الأمر الآخر الذي أردت الإلماح إليه هو أنك كنت أنت نفسك تتمنى موت أبيك حينذاك.

وثب إيفان فيدوروفتش من مكانه، ووجه إلى الخادم لكمة قوية عنيفة في كتفه، فترنح هذا حتّى اصطدم بالجدار، وغرق وجهه بالدموع في لحظة، ودمدم يقول: «ألاّ تستحي يا سيدي أن تضرب إنساناً ضعيفاً!»، ثمّ غطى عينيه فجأة بمنديله القذر ذي المربعات الزرقاء، وأخذ يبكي بكاء صامتاً. وانقضت على ذَلكَ دقيقة.

قال لهُ إيفان فيدوروفتش أخيراً بلهجة آمرة وهو يعود إلى الجلوس:

- كفى! كف عن البكاء الآن. خير لك أن لا تفقدني صبري؟

أزاح سمردياكوف خرقته عن عينيه. كانت جميع قسمات وجهه المغضن تعبر الآن عن الإهانة التي أُلحقت به.

- أتخيلت إذا أيها الوغد أنني كنت أريد قتل أبي، متفقاً مع دمتري؟

أجاب سمردياكوف بلهجة جريحة:

- لمّ يكن في وسعي أن أعرف أفكارك حينذاك. لذلك استوقفتك أمام الدار لأسبر ما في نفسك في هذه النقطة بعينها.

- لتسبر؟ لتسبر ماذا؟

- أردت أن أسبر هذه النقطة بالذات: أأنت تتمنى أن يقتل أبوك بأقصى سرعة أم لا؟

كانت هذه اللهجة الوقحة العنيدة التي يصر هذا الخادم على أن لا يتخلى عنها تثير حنق إيفان فيدوروفتش إثارة خاصة.

صاح يقول لهُ فجأة:

- أنت الذي قتلته! فضحك سمردياكوف ضحكاً احتقار صغيرة، وقال:

- أنت نفسك تعلم تمام العلم أنني لست القاتل. كنت أظن أن رجلاً ذكياً مثلك لا بد أن يوفر على نفسه مزيداً من إكثار الكلام في هذا الموضوع.

عاد إيفان فيدوروفتش يسأله: - ولكن لماذا، لماذا قامت في ذهنك شبهة كتلك الشبهة عني؟

- هو الخوف وحده كما تعرف جيداً. كنت في ظرف بحملني الخوف فيه على الاشتباه في كل إنسان. لذلك قررت أن أسبر نواياك أنت أيضاً، قائلاً لنفسي: إذا صدق أنك تتمنى ما يتمناه أخوك، فقد سوي الأمر إذن، وسأهلك أنا في هذه المغامرة كذبابة لا تملك عن نفسها دفاعا.

- اسمع: إنك لمّ تكن تتكلم على هذا النحو منذ أسبوعين.

- هذا نفسه ما كنت أقصده أثناء الحديث الذي دار بيننا في المستشفى، ولكنني افترضت أنك فهمت ما أقصد بلا أقوال زائدة، وأنك وأنت الرجل الذكي لا تحب أن تواجه هذا الموضوع مواجهة مباشرة.

- عجيب! ولكن أجبني، أجبني، إني أصرّ على سماع جوابك: كيف أمكن أن تنبت في نفسك الدنيئة تلك الشبهة الحقيرة المسيئة إليَّ؟

- أمّا أن تقتل أباك بنفسك، فذلك ما لمَ تكن تستطيعه ولا تريده. وأما أن يتولى قتله عنك شخص آخر فلقد تمنيت.
هتف إيفان فيدوروفتش متعجباً:
- ويقول هذا الكلام بهدوء، بهدوء... يا للشقي! لأي غرض كانَ يمكنني أن أتمنى ذَلكَ؟ ما الذي كنت أرجوه من مقتل أبي؟
أجاب سمرdياكوف يقول بلهجة مسمومة انتقامية:
- لأي غرض؟ ما هذا السؤال؟ هو الميراث طبعاً... كانَ كل واحد منكم، أنتم الثلاثة، سيرث عن أبيه عندَ موته أربعين ألف روبل في أقل تقدير، وربما ورث أكثر من ذَلكَ. ولكن لو تزوج فيدور بافلوفتش تلك المرأة، أقصد أجرافينا ألكسندروفنا، لوضعت يدها على الثروة كلها بعد الزفاف لأن هذه السيدة ليست غبية إطلاقا، ولما يتم أنتم الأخوة الثلاثة حتّى ولا بضعة روبلات. ولقد كانَ تمام هذا الزواج أمراً سهلاً كل السهولة: كانَ يكفي أن ترفع تلك المرأة أصبعها الصغيرة حتّى يأخذها أبوكم إلى الكنيسة صاغراً طائعاً.
استطاع إيفان فيدوروفتش أن يكظم غيظه ويسيطر على نفسه بكثير من المشقة والعناء. وقال لهُ أخيراً:
- طيب. ها أنت ذا ترى أنني لمَ أثب من مكاني لأضربك، وأنني لمَ أقتلك بسبب أقوالك هذه. أتمم كلامك: أنت تتصور إذا أنني تركت لأخي دمتري مهمة ارتكاب الجريمة، وأنني في قرارة نفسي قد عولت عليه، أليس كذلك؟
- وكيف لا تعول عليه؟ المسألة واضحة: حين يقتل أخوك أباه، فإنه يفقد امتيازات النبالة، ويفقد رتبته وثروته ويرحل إلى سيبيريا. وبذلك يؤول إليك وإلى أخيك ألكسي فيدوروفتش نصيبه من ميراث أبيه، ويقسم بينكما هذا النصيب، فلا يكون حظ كل واحد منكما أربعين ألفا بل ستين ألفا. لا شك أبدًا في أنك عولت على دمتري فيدوروفتش لتحقيق هذا الهدف؟
- عجيب أنني أحتمل أقوالك ! اعلم أيها اللئيم أنني لو عولت على أحد لعولت عليك أنت لا على دمتري! ويمينا لقد أحسست فعلاً أثناء ذَلكَ الحديث بأنك مقبل على ارتكاب حقارة ما... إنني أتذكر ذَلكَ الإحساس الذي هجس في قلبي تذكراً واضحاً !
أجاب سمردياكوف ساخرة: - أنا أيضاً أحسست أثناء ذَلكَ الحديث أنك تعول علي
كذلك... خطر هذا على بالي لحظة قصيرة... ولكن ما كانَ لهذا الأمر إلا أن يزيدني اقتناعاًة برغبتك في وقوع الجريمة. فما دمت قد قدرت أنني أبيت جريمة، فلقد كانَ سفرك رغم ذَلكَ لا يعني إلا أنك تقول لي: «اقتل أبي إذا شئت، فلست أعارض في هذا».
- يا لك من وغد حقير! أهكذا أولت سلوكي إذن؟
- السبب هو ذَلكَ السفر إلى نشر ماشنيا يا سيدي. فكر قليلاً: كنت قد قررت أن تسافر إلى موسكو، ورفضت رغم إلحاح أبيك أن تذهب إلى تشرماشنيا: ثمّ إذا بك تقبل فجأة أن تذهب إلى تشرماشنيا استجابة لبضع كلمات سخيفة غبية قلتها أنا، فلماذا قبلت السفر إلى تشرماشنيا لا إلى موسكو؟ ما دمت قد غيرت قرارك بدون سبب مهم إلا ما أوحيت به أنا إليك، فليس لهذا من معنى غير أنك كنت تنتظر شيئاً مني أنا.
زأر إيفان فيدوروفتش يقول كازاً أسنانه: - لا، لا، أحلف لك أن لا...
- كيف لا؟ لقد كانَ من واجبك، خلافاً لما حدث، أن تسلمني للشرطة فوراً لأجلد لأنني قلت لك تلك الأقوال لك أنت، ابن فيدرو بافلوفتش! كانَ من واجبك على الأقل أن تضربني في مكاني ! ولكنك بدلاً من ذَلكَ، ومن دون أن تغضب البتة... غيرت قرارك حالاً واتبعت النصيحة الغبية التي أسديتها إليك... اتبعتها بحذافيرها. ثمّ إنّ ذَلكَ السفر إلى تشرماشنيا كانَ سخيفة، فإنما كانَ عليك أن تبقى هنا قرب أبيك لتحميه... فكيف لا أستخرج من سلوكك ذاك بعض النتائج؟
ظلّ إيفان فيدوروفتش جالساً، مكفهرّ الوجه، قابضة كفيه على ركبتيه. وقال وهو يبتسم ابتسامة صغيرة مرة:
- خسارة حقاً أنني لمَ أضربك حينذاك. أمّا أن أسلمك للشرطة فقد كانَ ذَلكَ مستحيلاً: لمَ يكن في إمكاني أن أتهمك بأي شيء معين، ولو قد اتهمتك لما صدقوني. ولكن كانَ يجب علي أن أضربك... واأسفاه، لمَ يخطر ببالي. نعم كانَ يجب علي أن أضربك. وكان في وسعي أن أهشم وجهك راضياً مسروراً، رغم أن ذَلكَ محظور.
كانَ سمر دياكوف يُنظَر إلى إيفان فيدوروفتش وقدْ لاح في وجهه ما يشبه الاستمتاع.
وقال سمردياكوف بتلك اللهجة البلاغية الراضية عن نفسها التي كانَ يصطنعها في الماضي أثناء مناقشاته عن الإيمان مع جريجوري فاسيلتش حين كانَ يحاول أن يناكده وأن يشاكسه في مسائل لا هوتية واقفاً خلْف مائدة فيدور بافلوفتش، قال بتلك اللهجة:
- صحيح أن استعمال القوة أمر يحظره القانون، وأن الناس قد عدلوا عن هذا في أيامنا هذه. ذَلكَ في الأحوال العادية. أمّا في الأحوال الاستثنائية فإن الناس ما يزالون يضربون أقرانهم البشر، تماماً كما كانوا يفعلون في عهد آدم وحواء. وهذا لا يجري في بلادنا وحدها، بل يجري في العالم بأسره، ويجري حتّى في أكمل الجمهوريات، كالجمهورية الفرنسية، وسيظل الأمر كذلك أبد الآبدين. وأنت لمَ تجرؤ أن تضربني حتّى في تلك الحالة الاستثنائية التي نتحدث عنها.
سأله إيفان وهو يومئ إلى الدفتر الموضوع إلى المائدة: - ماذا عندك هناك؟ أتعلم كلمات فرنسية؟
- ولماذا لا أتعلم أنا الفرنسية؟ إنني أريد إتمام تحصيلي، فربما قادتني الظروف إلى أن أعيش ذات يوم، أنا أيضاً، في تلك البلاد السعيدة، بلاد أوروبا.
صاح إيفان يقول، وقدْ سطعت عيناه وارتعد جسمه غضباً:
- اسمع أيها الشيطان! أنا لا أخشى اتهاماتك، وفي وسعك أن تشهد علي كما تشاء. ولئن لمَ أضربك حتّى الموت في هذه اللحظة نفسها، فإن السبب الوحيد الذي يجعلني أمسك عن ذَلكَ هو أنني أشتبه في أن تكون أنت الجاني، ولست أريد أن أنقذك من العدالة، بل سوف أجرك إلى المحكمة. سأعرف كيف أكشف عنك القناع، صدقني!
- في رأيي إنّ الأفضل أن تسكت فلا تقول شيئاً. ما الذي يُمكنك أن تستند إليه لاتهام بريء، ومن ذا الذي يُمكن أن يحمّل كلامك محمل الجد؟ على أنني أنبهك وأحذرك منذ الآن: إذا أنت تصرفت هذا التصرف، فلأقولن من جهتي كل شيء، إذ لا بد لي من أن أدافع عن نفسي.
- أتظن أني أخاف منك؟
- هب المحكمة لمَ تهتم أي اهتمام بشيء مما قلته لك في هذه اللحظة، ولكن الناس سيصدقون كلامي، فيطعن من هذا شرفك، وتسوء سمعتك.
سأله إيفان وهو يصر بأسنانه:
- هو الأمر نفسه دائمة: «يحلو للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكي». أهذا ما تعنيه بتلك العبارة إذن؟ هه؟
- هو بعينه. ستتصرف تصرفْ رجل ذكي.
نهض إيفان فيدوروفتش وهو يرتعد استياءاً وغضباً، وارتدى معطفه، وأسرع يخرج دون أن يكلف نفسه عناء الرد على سمر دياكوف، وحتى دون أن يُلقي عليه نظراً. وقدْ أحسن إليه الهواء الطري الذي يشيع في جو السماء. كانَ القمر يضيء السماء. وكان إيفان يشعر باختناق من ذَلكَ الازدحام الرهيب للخواطر المبعثرة والإحساسات المضطربة التي تغلي وتجيش في نفسه: «أأمضي أبلغ عن سمردياكوف فوراً؟ ولكن ما الذي أستطيع أن أقوله ضده؟ ليس هو القاتل على كل حال... بالعكس: هو الآن يتهمني أنا... حقاً، لماذا سافرت إلى تشرماشنيا؟ لأي غرض، لأي هدف؟ نعم نعم... هذا صحيح، هذا واضح، لقد كنت أتوقع شيئاً... إنّ ذَلكَ الوغد على حق في ما قال...». بهذا كانَ إيفان يحدث نفسه. وتذكر، ربما للمرة المائة، أنّه تجسس على حركات أبيه وسكناته، متسللا على السلم أثناء الليلة الأخيرة التي قضاها عنده، ولكن هذه الذكرى بلغت من إيلامه على حين فجأة أنّه جمد في مكانه كانَ طعنة نفذت في قلبه، وقال يخاطب نفسه: «هذا صحيح، لقد تمنيت ذَلكَ... لقد توقعته... هذا حق! نعم، كنت أتمنى وقوع جريمة القتل هذه، كنت أريد وقوعها! هل كنت أتمنى وقوع هذه الجريمة فعلاً، أكنت أتمناها حقاً أم لا؟... يجب قتل سمردياكوف... إذا لمَ تسعفني الشجاعة اليوم لقتل سمردياكوف، فإن الحياة لن تستحق مني أن أحياها...». لمَ يرجع إيفان فيدوروفتش إلى مسكنه، بل اتجه رأسة إلى بيت كاترينا إيفانوفنا التي روّعها ظهوره المباغت: كانَ زائغ النظرة غريب الهيئة، فإذا رآه الرائي أحسَّ أنّه قد جن. قص على كاترينا إيفانوفنا جميع تفاصيل اجتماعه بسمردياكوف، لمَ يسقط كلمة واحدة. ولم يفلح في تهدئة نفسه رغم نصائح المرأة الشابة، وكان لا ينفك يسير في الغرفة قائلاً كلمات غريبة مضطربة مفككة. ومع ذَلكَ جلس آخر الأمر، واضعاً كوعيه على المائدة، جاعلاً رأسه في يديه، وقال هذه العبارة المذهلة:
- إذا صدق أن القاتل ليس دمتري بل سمردياكوف فإنني أكون عندئذٍ شريكه في هذه الجريمة... حتماً... لأنني أنا الذي حرضته على القتل. الواقع أنني لا أعرف أنا نفسي بعد هل دفعته إلى الجريمة أم لا. ولكن إذا كانَ هو الذي قتل، لا دمتري، فعندئذ أكون أنا القاتل أيضاً.
حين سمعت كاترينا إيفانوفنا هذه الكلمات، نهضت دون أن تقول شيئاً، فاقتربت من مكتبها، ففتحت علبة موضوعة عليه فأخرجت منها ورقة وضعتها أمام إيفان. هذه هي بعينها الوثيقة التي سيقول إيفان فيدوروفتش لأخيه أليوشا فيما بعد أنها تثبت بيقين رياضي أن دمتري هو الذي ارتكب جريمة قتل أبيهما. إنها رسالة كتبها ميتيا إلى كاترينا إيفانوفنا وهو في حالة سكر، مساء التقائه بأليوشا في الحقول حين كانَ أليوشا عائدة إلى الدير بعد المشهد الذي أهانت فيه جروشنكا غريمتها

كاترينا إيفانوفنا.
إنّ ميتيا، بعد أن ترك أليوشا في ذَلكَ اليوم، قد أسرع يذهب إلى جروشنكا. لا ندري هل وجدها في بيتها. ولكنه شوهد تلك الليلة في حانة «العاصمة الكبرى» يسرف في الشراب، حتّى إذا أخذ منه السكر مأخذه، أمر أن يؤتي بريشة وورقة، فكتب وثيقة تشهد عليه وتدينه. هي رسالة ملتهبة مليئة بالهذر، هي سلسلة من جمل مضطربة تليق بسكران حقاً، تذكر قليلاً بالخطب التي يلقيها السكارى حين يرجعون إلى منازلهم فيقصون على زوجاتهم أو على أحد من أقرباءهم بحرارة مستعرة وحماسة شديدة أنهم قد أهينوا إهانات خطيرة، وأن الذي أهانهم إنسان حقير، أمّا هم فرجال عظماء سيعرفون كيف يؤدبون الوقح الذي اعتدى عليهم. ويقولون هذا كلّه في إطناب شديد، في حالة هياج وبجمل لا ترابط بينها، ويخبطون المائدة بقبضات أيديهم من حين إلى حين، ويسبون دموع السكارى. وكانت الورقة التي أعطيت في الحانة رديئة وسخة قد خربش أحدهم على ظهرها بعض الحسابات، ومن أجل أن تتسع الورقة للكتابة، ملأ ميتيا هوامشها، حتّى إنّ العبارات الأخيرة التي انطلقت تعبر عن عواطفه في إطناب السكارى قد خطت عرضاً لا طولا. وإليكم مضمون تلك الرسالة:
«كاترينا يا قدري! سوف أجدُ المال غداً، وسوف أرد إليك الثلاثة آلاف روبل حتّى أستطيع أن أتركك، يا امرأة شديدة الغضب ووداعاً يا حبي أيضاً! لنته من هذا الأمر! سأحاول غداً أن ألتمس هذا المبلغ لدى جميع أنواع الناس، فإن لمّ أوفق، فلك علي عهد شرف أن أذهب إلى أبي فأهشم جمجمته، وأستولي على المال الذي يخبئه تحت وسادته... شريطة أن يكون إيفان غائبة! إنني أقبل أن يحكم علي بالسجن مع الأشغال الشاقة، ولكنني سأرد إليك الثلاثة آلاف روبل. أمّا أنت، فوداعا !... إنني أنحني أمامك حتّى الأرض، لأن الذي ينحني أمامك إنسان شقيّ! سامحيني. بل لا.... لا تسامحيني! ذَلكَ أسهل، علي وعليك! إنني أؤثر السجن على حبك، لأنني أحبّ امرأة أخرى. لقد استطعت أن تعرفيها اليوم، فكيف يُمكنك أن تغفري لي بعد هذا؟ سأقتل الرجل الذي سرقني! سأبتعد عنكم جميعاً، سأذهب إلى المشرق حتّى لا أراكم بعدئذ قطّ! أصبحت لا أريد أن أراها هي أيضاً... ما أنت الإنسانة الوحيدة التي عذبتني. لقد عذبتني هي كذلك، وداعاً.
حاشية: إنني ألعنك، ومع ذَلكَ أعبدك ! أشعر بقلبي يخفق في صدري ! ما يزال هناك وتر يهتز لك. أؤثر أن يتحطم هذا القلب. سأقتل نفسي، ولكنني سأقتل ذَلكَ الشيطان الرجيم أولاً. سأنتزع منه الثلاثة آلاف روبل، فأرميها إليك. إنّ الذي يكتب إليك الآن إنسان شقيّ، ولكنه ليس سرقاً! ستحصلين على الثلاثة آلاف روبل. المبلغ مخبا عندَ ذَلكَ الشيطان الرجيم تحت الوسادة، يلفه شريط وردي اللون. أنا لست لصاً، لأنني سأقتل ذَلكَ الذي نهب أموالي. لا تحتقريني يا كاتيا: ليس دمتري لصاً بل هو قاتل. قتل أباه وضيع نفسه حتّى يستطيع أن يقف أمامك منتصب القامة رافع الرأس، وحتى لا يكون عليه أن يتحمل احتقارك الصلف المتكبر، وأيضاً حتّى يكف عن حبك.
حاشية: أقبل قدميك. وداعة.
حاشية أخرى: كاتيا! صلي واضرعي إلى الله أن يقرضوني المبلغ، فما أضطر إلى أن أسفح دما. أمّا إذا لمّ يقرضوني فسوف يجري الدم! اقتليني!

عبدك وعدوك

«د. كارامازوف»

أقنعت قراءة هذه «الوثيقة» إيفان. لقد اتضح لهُ الآن أن القاتل هو أخوه دمتري وليس سمر دياكوف. وما دام الخادم بريئاً، فليس عليه هو إيفان، أن يتهم نفسه بشيء. ومنذ تلك اللحظة أصبح إيفان يحمّل هذه الرسالة دلالة يقين رياضي، وأصبح لا يساوره أي شك في أن ميتيا هو القاتل. يحسن أن نذكر هنا أنّه لمّ يخطر ببال إيفان في لحظة من اللحظات أن يُفترض أن جريمة القتل الذي ارتكبها ميتيا قد تمت بالتواطؤ مع سمردياكوف. ثمّ إنّ مثل هذا الافتراض لا ينسجم مع الوقائع. خلاصة القول إنّ هذه الرسالة قد حملت إلى إيفان طمأنينة تامة، فلمّا أصبح في الغداة وتذكر سمردياكوف وسخرياته لمّ يشعر إلا باحتقار، حتّى إنه بعد بضعة أيام استغرب أن يكون قد شعر بذلك الألم كلّه من الغمزات المهينة التي وجهها إليه
سمردياكوف. وقرر أن يتجاهله في المستقبل وأن ينساه نسياناً تاماً. ومضى على هذا النحو شهر. لمّ يسأل عن سمر دياكوف أحداً ممن يعرفونه بعد ذَلكَ، ولكنه سمع مرة أو مرتين أن سمر دياكوف مريض جداً وأنه أصبح لا يبدو مالكاً كل عقله، وقال عنه الطبيب الشاب فارفنسكي في ذات يوم إنه «سيهوي إلى الجنون»، فحفظ إيفان هذه العبارة. وفي أثناء الأسبوع الأخير من هذا الشهر أخذ إيفان يحسّ هو نفسه بأنه مريض جداً، وزار الطبيب الذي استقدمته كاترينا إيفانوفنا من موسكو قبل بدء المحاكمة لكي يستشيره. وفي تلك الفترة بعينها إنما كانت علاقاته بالمرأة الشابة قد توترت أقصى التوتر، فهماً يتعاملان تعامل عدوين يحب كل منهما الآخر. كانت رجعات كاترينا إيفانوفنا إلى الهيام الشديد بميتيا، وهي رجعات طارئة لكنّها عنيفة قوية، تخرج إيفان عن طوره ونحنقه أشد الحنق. شيء غريب: إنّ إيفان، إلى أن وقع ذَلكَ المشهد الأخير الذي وصفناه والذي جرى في منزل كاترينا إيفانوفنا حين زارها أليوشا بعد زيارته ميتيا، لمّ يسمع كاترينا إيفانوفنا مرة واحدة طوال الشهر، تعبر عن أي شك في أن ميتيا هو القاتل، رغم «رجعاتها» إلى هيامها به من حين إلى حين، وهي رجعات كانت ثقيلة الوطأة على نفس إيفان. ومن الأمور البارزة أن إيفان، رغم إحساسه بتزايد كرهه لميتيا يوماً بعد يوم، كانَ يدرك إدراكا تاما أن كرهه لأخيه لمّ يكن سببه «رجعات كاتيا» هذه إلى التوله به، بل كانَ سببه أن أخاه قد قتل الأب ! كانَ إيفان يحسّ ويعي ذَلكَ وعية قوية، ومع ذَلكَ ذهب يزور ميتيا في السجن قبل بدء المحاكمة بعشرة أيام، عارضا عليه خطة للهرب، وهي خطة كانَ واضحاً أنّه أعدّها منذ مدة طويلة. وإنما قرر إيفان أن يقوم بهذا المسعى بسبب الحنق الشديد الذي أثاره في نفسه قول سمردياكوف، غامزاً، إنه، هو إيفان، يُجني نفعا من اتهام أخيه دمتري بالقتل، لأن نصيبه ونصيب أليوشا من الميراث سيرتفعان عندئذٍ من أربعين ألفا إلى ستين ألفا. إنّ الجرح الصغير الذي أصاب قلبه من هذا الكلام الذي قاله سمردياكوف لا يُمكن أن يندمل. لذلك قرر أن يضحي وحده بثلاثين ألف روبل ليدبر هرب ميتيا. وحين عاد إيفان من السجن بعد أن عرض هذا المشروع على أخيه، أحسَّ بحزن رهيب واضطراب فظيع يستوليان عليه: لقد تراءى لهُ فجأة أنّه يتمنى هرب أخيه من السجن لا ليتاح لهُ أن يضحي بثلاثين ألف روبل، وأن يشفي جرح قلبه، لا لهذا فحسب، بل لسبب آخر أيضاً. لقد تساءل: «تري ألست أتمنى ذَلكَ لأنني في قرارة نفسي قاتل كاخي سواء بسواء؟». وهذا ألم غامض بعيد، ولكنه لاذع كاو، يستيقظ في قلبه. وكانت كبرياؤه خاصة هي التي قاست كثيرة خلال هذا الشهر، غير أننا سنعود إلى ذَلكَ فيما بعد.
حين أمسك إيفان جرس بيته بعد أن ترك أليوشا، قرر فجأة أن يرجع أدراجه ليذهب إلى سمودياكوف، إنه حين قرر ذَلكَ إنما خضع لغضب مفاجيء مرده إلى سبب خاص. ذَلكَ أنّه تذكر في تلك اللحظة أن كاترينا إيفانوفنا قد صرخت تقول لهُ أمام أليوشا منذ دقائق إنه هو وحده الذي حاول اقناعها بأن مبتيا هو الجاني. فحين تذكر إيفان هذا الكلام أصيب بذهول شديد: إنه لمّ يحاول أن يقنعها في يوم من الأيام بأن القاتل هو ميتيا. بالعكس: لقد اتهم نفسه أمامها بعد زيارته السابقة لسمردياكوف. وهي، هي التي وُضعت أمام عينيه عندئذٍ «وثيقة» الاتهام تلك التي أرادت أن تبرهن بها على أن الجاني ميتيا، وها هي ذي تصرخ لهُ منذ لحظات أنها ذهبت هي نفسها إلى سمردياكوف! متى رأت سمردياكوف إذن؟ إنّ إيفان لا يعرف عن ذَلكَ شيئاً. هل معنى هذا أنها لمّ تكن مقتنعة بأن ميتيا هو القاتل؟ ما الذي يُمكن أن يكون سمردياكوف قد ذكره لها؟ ما الذي قاله لها على وجه الدقة؟ استولى الحنق على إيفان، واستغرب كيف لمّ ينتبه إلى تلك الكلمات قبل نصف ساعة، ولماذا لمّ ينفجر حينذاك ؟ وفيما كانَ على هذه الحال إنما أرخى جرس بيته، وأسرع يمضي إلى سمردياكوف، وقدْ قال محدثة نفسه أثناء الطريق: «قد أقتله في هذه المرة !».

-8-ثالث وآخر اجتماع بسمردياكوف

لما قطع إيفان نصف الطريق هبت ريح جافة شديدة تشبه الريح التي هبت في الصباح. وأخذ يهطل ثلج ناعم كثيف يغطي الأرض دون أن يلتصق بها. فالريح تحمل الثلج وتدور به في الفضاء، وسرعان ما تحول ذَلكَ إلى إعصار. إنّ الحيّ الذي يقيم فيه سمردياكوف من المدينة سيئ الإضاءة، ومصابيح الشوارع فيه قليلة نادرة. فكان إيفان يمشي في الظلام غير عابئ بزوبعة الثلج، متبعاً طريقه على هدى غريزته. كانَ في رأسه صداع، وكان صدغاه يدندنان، فكان يشعر من ذَلكَ بإحساس أليم. وقدْ بلغت نبضات عروقه من القوة أنّه خيل إليه أن قبضتي يديه تتشنجان. وعلى مسافة قصيرة من البيت الحقير الذي تسكنه ماريا كوندراتيفنا التقى إيفان فيدوروفتش فجأة برجل سكران، يلبس قفطانا مرقعاً، ويسير مترنحاً، ويدمدم شاتماً، ويقطع سبابه من حين إلى حين فيأخذ في الغناء بصوت أجش من أصوات السكارى:

سافر فانكا إلى بيتر[224].

لكنني لن انتظره!

ولكن السكران يتوقف عن الغناء كلما وصل إلى البيت الثاني من الأغنية، فيستأنف شتم أحد الناس، ثمّ يرتد فجأة إلى لازمته الأبدية، كانَ إيفان قد سمع أصواته منذ برهة، فشعر نحوه بكره عنيف لا شعوري حتّى قبل أن يراه. ولم يلبث أن أدرك سبب حنقه بغتة، فود لو يصرع الرجل بضربة يهوي بها على رأسه. وبينما هو كذَلكَ اذ أصبح الاثنان جنبا إلى جنب، وكان الرجل يترجح في مشيته ويترنح فصدم إيفان صدمة قوية، فما كانَ إيفان إلا أن دفعه كالمسعور، فهوى السكران على الأرض المنجلدة كتلة واحدة بعد أن أطلق من صدره أنة أليمة ثمّ لبث صامتة. مال إيفان على الرجل، فرآه راقدة على ظهره مغشيا عليه. فقال في نفسه:

«سيتجمد من البرد !»، ثمّ تابع طريقه.

وفي ممر البيت الصغير الذي يسكنه سمردياكوف، قالت لهُ ماريا كوندراتفنا التي أسرعت تستقبله حامله بيدها شمعدانا، قالت لهُ في همس إنّ بافل فيدوروفتش (أي سمردياكوف) مريض جداً، وإن لمّ يكن عليه أن يلزم فراشه حتماً، فإنه لا يبدو مالكاً كل عقله، حتّى لقد رفض شرب الشاي الذي قدم إليه وأمر برفعه.

سألها إيفان فيدوروفتش بلهجة شرسة: - أهو هائج إذن؟ فقالت ماريا كوندراتيفنا:

- بالعكس: إنه هادئ كل الهدوء، ولكنك تحسن صنعا إذا لمّ تطل حديثك معه حتّى لا تتعبه. فتح إيفان الباب، ودخل غرفة الخادم.

كانت الغرفة مدفأة تدفئة شديدة، كما في الزيارة الأولى، غير أن هناك تغيرات طرأت على ترتيب الأثاث: أبعدت إحدى الدكتين ووضعت في مكانها كنبة عتيقة عريضة من جلد، لها مسند من خشب يحاكي خشب الأكاجو، ولقد جعلت هذه الكنبة سريرا عليه وسائد نظيفة نسبياً. كانَ سمردياكوف جالساً على تلك الكنبة مرتديا ذَلكَ الروب المنزلي الذي كانَ يرتديه في أثناء الزيارتين السابقتين. وقدْ دفعت المائدة نحو الكنبة، فأصبحت الفسحة في الغرفة ضيقة للغاية. وكان على المائدة كتاب سميك ذو غلاف أصفر، غير أن سمر دياكوف لمّ يكن يقرأه، وكان يبدو غير عاكف على القيام بأي عمل البتة. استقبل إيفان فيدوروفتش بنظرة طويلة صامتة، ولم يظهر عليه أي استغراب لهذه الزيارة. وكانت قسمات وجهه قد انقلبت انقلاباً شديداً أثناء تلك الفترة. كانَ وجهه ناحلاً أصفر، وكانت عيناه غائرتين، وكانت جفناه السفليين مزرقتين.

قال إيفان فيدوروفتش للخادم وهو يقف أمامه:

- إنك لتبدو مريضة حقاً! لن أمكث مدة طويلة، ولن أخلع معطفي. هل من كرسي لي؟

ودار حول المائدة، وتناول كرسية فدفعه نحو الكنبة وجلس.

قال إيفان مبتدئا كلامه:

- لماذا تنظر إليَّ هكذا وتصمت؟ لقد جئت لألقي عليك سؤالا واحدة في هذه المرة. ولكنني أحلف لك أنني لن أنصرف قبل أن تجيبني. هل جاءت إليك كاترينا إيفانوفنا؟

صمت سمردياكوف برهة طويلة وهو ما يزال يتفرس في إيفان بهدوء. ثمّ حرّك يده بإشارة تململ على حين فجأة، وأشاح وجهه.

هتف إيفان يسأله:

- ما بك؟

- لا شيء!

- كيف لا شيء؟

- نعم جاءت ! فيم يعنيك هذا؟ دعني وشأني !

- لا، لن أدعك. متى جاءت؟ أجب!

قال الخادم وهو يضحك ضحكة احتقار:

-نسيت.

ثمّ التفت نحو إيفان بحركة مفاجئة، وألقى عليه نظرةً مثقلة بكره هو ذَلكَ الكره الشديد نفسه الذي سبق لإيفان أن رآه في عينيه أثناء اجتماعه السابق به منذ شهر.

قال سمردياكوف:

- يبدو أنك مريض أنت نفسك. عجيب! إنّ خديك خاسفتان، وإن قسمات وجهك منقلبة.

- دعك من صحتي وأجب عن سؤالي.

- ولماذا اصفرت عيناك ؟ لقد اصفر بياض عينيك. لعل ذَلكَ يرجع إلى أنك تتعذب كثيراً؟

قال سمردياكوف ذَلكَ وهو يُطلِق ضحكة احتقار من جديد، ثمّ أخذ يقهقه صراحةً.

هتف إيفان يقول وقدْ بلغ به الغضب والحنق كل مبلغ:

- أكرر ما قلته: لن أنصرف من عندك قبل أن تجيبني. فقال سمردياكوف بلهجة أليمة:

- لماذا تعذبني؟ ماذا تريد مني؟

- شيطان يأخذك. أنا لست أهتم بك أنت. أجبني فأتركك حالاً.

قال سمردياكوف وهو يغض طرفه من جديد: - لن أجيبك!

- ساعرف كيف أجبرك على أن تجيبني. صدقني!

سأله سمردياكوف وهو يحدّق إليه على حين فجأة، معبراً في هذه المرة لا عن احتقار فحسب، بل عن شعور يشبه الاشمئزاز والتقزز أيضاً:

- لماذا أنت مضطرب هذا الاضطراب؟ أبسبب تلك المحاكمة التي تبدأ غداً؟ ولكن لا خوف عليك أنت، اطمئن أخيراً. ارجع إلى منزلك، وارقد هادي البال، ونم مرتاحة لا يساورك أي جزع!

- لا أفهم ما تريد أن تقول.... ما الذي يُمكن أن أخشاه أنا من الغد؟

كذلك قال إيفان مدهوشاً، ثمّ لمّ يلبث أن شعر فجأة بخوف غريب يجتاح نفسه ويبث بردة في ظهره.

ألقى عليه سمردياكوف نظراً فاحصة من أخمص قديمه إلى قمة رأسه، ثمّ قال لهُ بلهجة بطيئة مليئة بالعتب:

- أ... لا... تف... هم؟ أية لذة يجد الرجل الذكي في تمثيل مهزلة كهذه؟

نظر إليه إيفان صامتاً. إنّ هذه اللهجة غير المتوقعة، المليئة بتعال غير معهود، التي كلمه بها خادمه القديم، كانت وحدها كفيلة بأن تدهشه. لأن سمردياكوف لمّ يسمح لنفسه يوماً إلى الآن، حتّى في اجتماعيهما السابقين، أن يتحدث بمثل هذه اللهجة.

وتابع سمر دياكوف كلامه:

- أقول لك لا تخش شيئاً، لن أشهد عليك، وليس هناك أدلة ضدك. ما ليديك ترتجفان؟ لماذا تختلج أصابعك هذا الاختلاج؟ ارجع إلى منزلك. لست أنت القاتل!

ارتعش إيفان متذكراً كلمات إيليوشا. وتمتم يقول:

- أعرف هذا. لست أنا...

فكرر سمردياكوف يقول:
- تعرف هذا؟
فوثب إيفان وأمسك سمر دياكوف من كتفه وقال:
- تكلّم، قل الحقيقة أيها الحقير! قل كل ما تعرفه! لمّ يظهر على سمردياكوف أنّه خاف أي خوف، واكتفى بأن ألقي على إيفان نظره مثقلة بكره شديد. ثمّ انطلق قائلاً بصوت صافر مسعور:
- آ... أهكذا؟ اعلم إذا أنك أنت الذي قتلته.
فتهالك إيفان على كرسيه، وبدا عليه الغرق في خواطره وأفكاره.
ثمّ ابتسم ابتسامة خبيثة.
- أتقول هذا بصدد تلك القصة نفسها؟ بصدد ما قلته لي في المرة الماضية؟
- تماماً. ثمّ إنك قد فهمتني في المرة الماضية حق الفهم، كما تفهمني اليوم.
- كل ما أفهمه هو أنك مجنون.
- ألم تمل بعد؟ نحن هنا وحيدان، وليس ثمة شهود. فلماذا هذه المراوغة، لماذا يخادع أحدنا الآخر؟ اللّهم إلا أن تكون ما تزال تنوي أن تلقي التبعة كلها علي، علي وحدي ! ألاّ تشعر بخجل مني؟ إنك أنت القاتل، إنك أنت القاتل الرئيسي، أمّا أنا فلم أكن إلا مساعدك، لمّ أكن إلا خادمك «ليتشاردا»[225]، الوفي الأمين. لقد قمت بما قمت به مستلهماً أقوالك وإيحاءاتك.
سأله إيفان وهو يشعر بأنه قد تجمد من شدّة الهلع:
- قمت بما قمت به؟ أأنت الذي قتلته إذن؟
أحسَّ إيفان بتزلزل نفسي، وترت في جسمه كله رعدات صغيرة باردة. فنظر إليه سمردياكوف عندئذٍ مدهوشة بعض الدهشة. لكأن الجزع الصادق الذي أصاب إيفان قد أذهله أخيراً.
دمدم سمردياكوف يسأل إيفان بشيء من الشك وهو ما يزال يُنظَر
إليه نظراً مواربة ويحبس ضحكاً ساخرة:
- هل يعقل حقاً أن لا تكون قد عرفت شيئاً؟
ظلّ إيفان يتفرس في الخادم، وكأنه فقد النطق. وصار أبكما
وترجعت في رأسه هذه اللازمة على حين فجأة:
سافر فانكا إلى بيتر ،لكنني لن انتظره
ثمّ تمتم أخيراً:
- إني لأتساءل أأنا في حلم؟ ألاّ يُمكن أن تكون شبحا ظهر لي؟
- لا شبح هنا. لا أحد إلا نحن الاثنين، وثالثا أيضاً. وهو الآن هنا ذَلكَ الثالث، هو حاضر بيننا حتماً في هذه اللحظة.
- من هو؟ من؟ من هنا؟ عن أي ثالث تتكلم؟
كذلك سأله إيفان فيدوروفتش مذعوراً، وهو يُنظَر حواليه، ويبحث بعينيه القلقتين عن أحد في زوايا الغرفة.
قال سمودياكوف:
- الثالث هو الله. إنّ الله حاضر بيننا الآن. ولكن لا تبحث عنه، لأنك لن تراه.
انفجر إيفان وزار بجنون:
- كذبت حين زعمت أنك أنت الذي قتلته! أمران لا ثالث لهما: فإما أنك مجنون، وإما أنك تسخر مني كما فعلت في المرة الماضية !
ظلّ سمردياكوف هادئاً مثلما في السابق. ولم يحفل بغضب إيفان، وإنما كانَ يتفرس فيه بانتباه واستطلاع. إنه لمّ يستطع أن يتغلب على شكه وارتيابه، لأنه كانَ يتصوَّر، حتّى في هذه اللحظة، أن إيفان «يعرف كل شيء»، وأنه يتظاهر بالجهل تظاهراً، بغية أن يُلقي التبعة كلها عليه، هو سمردياكوف وأن يجبره على قبول هذا الوضع.
وقال أخيراً بصوت ضعيف واهن:
- انتظر قليلاً.
وسحب ساقه اليسرى من تحت المائدة، وأخذ يشمر سرواله.
ظهرت قدمه في حذاء المنزل، ثمّ ظهر جورب طويل أبيض. وبدون تعجل، حل حمالة الجورب، وأغطس يده إلى القاع. كانَ إيفان فيدوروفتش يُنظَر إليه وهو يفعل ذَلكَ، فإذا هو يأخذ بالارتعاش فجأة، واذا بذعر متشنج يستولي عليه. وهتف يقول:
- مجنون! لقد جن.
ثمّ وثب عن مكانه، وتراجع إلى الوراء بحركة بلغت من القوة أن صدم الجدار بظهره، ثمّ لبث لاصقة بالجدار، متصلبة كعصا.
كانَ يتأمل سمردياكوف بهلع لا حدود لهُ. لمّ يضطرب سمردياكوف من ذعر إيفان، واستمر بنبش قاع جوربه، محاولاً أن يقبض بأصابعه على شيء مخبأ هناك. وظفر بهذا الشيء أخيراً، فأخرجه. رأى إيفان أن هذا الشيء هو أوراق أو حزماً من أوراق. ووضع سمردياكوف الحزمة على المائدة. وقال بصوت خافت:
- هو ذا... فسأله إيفان الذي كانَ يرتعش:
- ما هذا؟
فأجابه سمردياكوف بصوت خافت أيضاً:
- انظرْ فترى.
دنا إيفان من المائدة، وتناول الحزمة، وأخذ يفضها. فإذا هو يسحب أصابعه فجأة، كأنه قد لمس شيئاً مقززاً أو دنيئاً.
قال سمردياكوف:
- أصابعك ترتجف يا سيدي؟
ثمّ تولى فض الحزمة بنفسه دون تعجل. فظهرت تحت الورقة التي تلف الحزمة، ثلاث رزم من أوراق مالية من فئة المائة روبل.
وأضاف سمردياكوف قائلاً وهو يومئ إلى المبلغ داعياً إيفان:
- المال كلّه هنا. ثلاثة آلاف روبل بالتمام والكمال. لا داعي إلى العد. تفضل باستلامها.
تهاوى إيفان على الكرسي، وقدْ اصفر وجهه اصفرارة شديدة. ثمّ دمدم يقول بضحكة غريبة:
- روعتني... بسبب جوربك...
عاد سمردياكوف يسأله:
- هل يعقل، هل يُمكن حقاً أن لا تكون قد عرفت شيئاً حتّى الآن؟
- كنت أجهل كل شيء. كنت أظن أن دمتري هو القاتل. ثمّ صاح إيفان يقول وهو يمسك رأسه بيديه:
- أخي! أخي! آه... رباه!... اسمع: هل قتلته وحدك؟ هل قتلته بمساعدة أخي أم بدون مساعدته؟
- لمّ يكن لي شريك في الجريمة سواك. أنا إنما قتلت بالتواطؤ معك. أمّا دمترى فيدوروفتش فهو بريء براءة كاملة.
- طيب، طيب، سنتحدث عني أنا فيما بعد. ما لي أرتجف هكذا؟ لا أستطيع أن أتكلم.
قال سمودياكوف مدهوشاً:
- كنت في الماضي أكثر جرأة حين كنت تقول: «كل شيء مباح». وها أنت ذا اليوم مذعوراً أشد الذعر. هل تقبل أن تشرب كأسا من شراب الليمون؟ سامر لك

بكأس فإنه سينعشك جداً. ولكن يجب أولاً إخفاء هذا.
قال سمردياكوف ذَلكَ وهو يومئ إلى حزماً الأوراق المالية من جديد. هم أن ينهض على نية استدعاء ماريا كونراتيفنا ليأمرها بإعداد شراب الليمون وإحضاره. ولكنه عدل عن ذَلكَ، وحاول أن يبحث عن شيء يمكنه أن يخفي به الأوراق المالية حتّى لا تراها تلك المرأة، فأخرج في أول الأمر منديله. وإذ لاحظ أن المنديل وسخ جداً أعاده إلى جيبه وتناول الكتاب السميك الأصفر الذي لاحظه إيفان على المائدة حين دخل، فجعله غطاء يخفي تحته الحزمة. واستطاع إيفان فيدوروفتش أثناء ذَلكَ أن يقرا عنوان الكتاب قراءة آلية: «مواعظ أبينا المقدس اسحق السوري[226]».
قال إيفان:
- لا أريد شراب الليمون. سنتحدث عني أنا فيما بعد. اجلس الآن واقصص علي: كيف فعلت ذَلكَ؟ قل الحقيقة كلها.
- هلاّ خلعت معطفك، وإلا شعرت بحر شديد ونضح منك العرق.
خلع إيفان فيدوروفتش معطفه بسرعة، كأنه لمْ يخطر بباله ذَلكَ إلا في تلك اللحظة، ورماه على الدكة دون أن ينهض من مكانه.
- تكلم الآن، أرجوك، تكلّم!
كانَ قد هدأ روعه، فهو ينتظر واثقاً أن سمردياكوف سيقول لهُ الحقيقة كلها.
بدأ سمردياكوف كلامه وهو ينتهد:
- كيف فعلت ذَلكَ؟ الأمر بسيط جداً. استوحيت أقوالك أنت، ف...
قاطعه إيفان قائلاً دون أن يصيح كما كانَ يصيح من قبل، إنما بكلمات واضحة كل الوضوح، ويبدو أنّه استرد سيطرته على نفسه تماماً:
- سنتحدث عن أقوالي فيما بعد. أمّا الآن فاشرح لي بالتفصيل كيف فعلت ذَلكَ. حسب الترتيب، ولا تغفل شيئاً. أريد أن تذكر التفاصيل، التفاصيل خاصة لا تسقط منها شيئاً. أنا مصغ إليك[227].
- بعد سفرك سقطت في القبو...
- أسقطت بنوبة صرع صادقاً أم متظاهراً؟
- متظاهراً طبعاً. متظاهراً في كل شيء. هبطت سلم القبو بهدوء حتّى آخر درجة من درجاته، ثمّ استلقيت على الأرض بهدوء. حتّى إذا صرت راقدة على الأرض رحت أعول، وظللت أتخبط حتّى نقلوني.
- لحظة. إذاً كنت تتظاهر طول الوقت، أليس كذلك؟ وفي المستشفى بعدئذ أيضاً؟
- لا. ففي صباح اليوم التالي، قبل نقلي إلى المستشفى أصبت بنوبة صرع صادقة، وكانت نوبة عنيفة جداً لمْ أعان مثلها منذ سنين. ولبثت يومين كاملين مغشيا علي.
- طيب. طيب. أكمل كلامك.
- أرقدوني على مضجع وراء حاجز غرفة جريجوري فاسيلتش. كنت أتوقع ذَلكَ، لأن مارفا أجناتفنا قد اعتادت أن تُرقدني هناك، على مقربة منها، حين أمرض. لقد أحاطتني دائماً بكثير من الحنان منذ وُلدت. وفي الليلة التالية كنت أئن، ولكن أنيناً ضعيفة، بانتظار دمتري فيدوروفتش.
- كيف؟ هل كنت تنتظر مجيئه إليك في غرفتك؟
- لا... علام يجيء إلى غرفتي؟ كنت أنتظر وصوله إلى الدار. ذَلكَ أنني كنت واثق كل الثقة بأنه سيجيء في تلك الليلة. كانَ لا بد لهُ حتماً، فإنه وقدْ حرم من معونتي وانقطعت عنه الأنباء التي أزوده
بها، كانَ لا بد لهُ من أن يتسلل إلى الدار متسلقاً السور كما يجيد ذَلكَ، ليعرف من أتى، وليتعرف على ضوء ذَلكَ.
- فماذا لو لمْ يجيء؟
- لو لمْ يجيء لما وقع شيء. لولا أنّه جاء لما عزمت أمري.
- طيب، طيب... تكلّم بمزيد من الدقة، ولا تتعجل. المهم ألاّ تغفل شيئاً ! ألاّ تغفل أي تفصيل.
- كنت أتوقع أن يقتل فيدور بافلوفتش. ذَلكَ أمر مؤكد. لأنني كنت قد أثرته إثارة شديدة في الأيام الأخيرة... ثمّ لقد أصبح يعرف الإشارات السرية... فلم يكن يمكنه، وهو فيما هو فيه من شك قوي وحنق مسعور، إلا أن يستعين بهذه الإشارات ليدخل المنزل. كانَ هذا سيحدث حتماً. لذلك كنت أنتظره موقنا أنّه آت لا محالة.
قاطعه إيفان قائلاً:
- لحظة! لو قتل لاستولى هو على المال. أمّا كانَ ينبغي لك أن تفكر على هذا النحو؟ فأي فائدة كانَ يُمكنك أن تجنيها في هذه الحالة؟ لست أفهم.
- دعك من هذا الكلام ما كانَ لهُ أن يعثر أبدًا على المال. أنا وحدي الذي أوهمته بأن الظرف مخبأ تحت الفراش. ولكن ذَلكَ كانَ كذبة مني. كانَ فيدور بافلوفتش يخفي المبلغ قبل ذَلكَ في علبة صغيرة، ولما كنت الإنسان الوحيد في العالم الذي يثق به فقد نصحته بأن يدسّ الظرف خلْف الأيقونات في زاوية الغرفة حيث لا يخطر ببال أحد أن يبحث، ولا سيما إذا كانَ سارقاً يتعجّل الهروب. فهناك، وراء الأيقونات، إنما كانَ المال مخبأ لحظة وقوع الجريمة. أمّا وضع الثلاثة آلاف روبل تحت الفراش، فهو فكرة غبية أفضل منها أن يوضع المبلغ في العلبة الصغيرة التي لها مفتاح على الأقل.
لقد اعتقد جميع الناس هنا أن المال كانَ تحت الفراش. ذَلكَ تفكير أبله. نعود إلى ديمتري: إذن لو قتل دمتري فيدوروتش أباه لما عثر على المال، ولأسرع يهرب وهو يخشى إشارة أي ضجة. هكذا يتصرف القتلة دائمة، والا لضبط واعتقل. وهكذا فإنني كنت أستطيع في الغد أو حتّى أثناء تلك الليلة نفسها أن أمضي آخذ المال من خلْف الأيقونات، فأحمله إلى مسكني، وكانت السرقة ستُنسب عندئذٍ إلى دمتري فيدوروفتش. كانَ يحق لي أن أتوقع ذَلكَ.
- فإذا لمْ يقتل دمتري أباه، ولم يزد على أن يضربه؟
- إذا لمْ يقتله، لا أجرؤ على أن آخذ المال طبعاً. هذا بديهي. وتكون خطتي قد أخفقت. على أنني كنت أفترض، فيما أجريته من حسابات، أن دمتري كانَ سيبلغ من ضربه أباه أن الأب كانَ سيفقد وعيه ويسقط مغشيا عليه. وكنت سأنتهز عندئذٍ هذه الفرصة فآخذ المال. ثمّ أوهم فيدور بافلوفتش بعد ذَلكَ أن السرقة من صنع دمتري، وأن دمتري قد سطا على المال بعد أن ضربه.
- لحظة أخرى... إنني لا أفهم بوضوح... هل دمتري هو الذي قتل إذن، ثمّ لمْ تزد أنت على أن سرقت المال؟
- لا، ليس هو الذي قتل. لقد كانَ سهلاً علي، حتّى في تلك اللحظة، أن أزعم أنّه هو القاتل... ولكنني لا أريد أن أكذب عليك، لأنني... لأنني أدرك الآن أنك لمْ تفهم شيئاً البتة حتّى في هذه اللحظة، وأنك لمْ تكن تمثّل تمثيلا لتلقي التبعة كلها علي، ولتجعلني أقبل هذا الوضع. ومع ذَلكَ فإنك أنت الجاني الأكبر في هذه القضية، لأنك كنت على علم بما كانَ يتهيأ، وقدْ كلفتني بأن أقتل أباك، وسافرت بعد ذَلكَ وأنت تعرف ما سيحدث. لهذا أصرّ على أن أؤكد لك جازمة، في هذا المساء، أن القاتل الرئيسي هو أنت، أنت وحدك ! أمّا أنا فلست إلا معاون قاتل، معاوناً ثانوياً، رغم أن القتل قد تم بيدي. أنت القاتل شرعاً، أنت!...
هتف إيفان أخيراً يقول وقدْ نفد صبره، ناسياً أنّه منذ لحظة قد أرجأ الحديث عن نفسه إلى ما بعد:
- كيف أكون أنا القاتل؟ آه... يا رب!... أبسبب سفري إلى تشرماشنيا أيضاً؟ قل لي إذن: لماذا كنت تحرص ذَلكَ الحرص كله على موافقتي إذا كنت تؤول سفري وحده على أنّه موافقة؟ هل لك أن تشرح لي هذا؟
- حين أثق بأنك موافق، أعلم أنك لن تحدث فضيحة عندَ عودتك، بسبب اختفاء الثلاثة آلاف روبل، إذا اشتبهت في السلطات بدلاً من أن تعتقل دمتري فيدوروفتش، أو إذا هي عدتني شريكا لهُ في الجريمة، حتّى لقد تدافع عني في هذه الحالة. ثمّ إنك بعد أن تنال نصيبك من الميراث قد تكافئني أثناء حياتك. ألم تنل هذا الميراث بفضلي أنا؟ فلو قد تزوج أبوك أجرافينا ألكسندروفنا، لما آل إليك كوبيكاً واحداً من تلك الثروة كلها !.
دمدم إيفان يقول كازة أسنانه:
- ها... كنت تنوي اذن أن تعذبني وتضطهدني طوال حياتي! ولكن ما الذي كانَ يحدث لو أنني أبلغت عنك حينئذ بدلاً من أن أسافر؟
- ماذا كانَ في وسعك أن تقدم ضدي آنذاك؟ ليس يكفي لاتهامي أن أكون قد حضضتك على السفر إلى تشرماشنيا. هذا كلّه سخافات على كل حال! هناك أمران لا ثالث لهما: إما أن تسافر بعد الحديث الذي دار بيننا، وإما أن تبقى هنا. فلو بقيت لما حدث شيء البتة، لأنني أفهم عندئذٍ أنك لا تريد وقوع جريمة قتل، فأمتنع عندئذٍ عن الشروع في العمل. أمّا إذا سافرت فإنك تجعلني أوقن أنك لن تشي بي إلى القضاء وأنك ستغفر لي سرقة الثلاثة آلاف روبل. ومن جهة أخرى، فإنك لمْ تكن

تستطيع ملاحقتي، لأن من الممكن أن أكشف أمام المحكمة عن كل شيء، فلا أذكر أنني سرقت وقتلت - فذلك ما لمّ أكن لأقوله بداهة - وإنما أذكر أنك حرضتني على أن أسرق وأن أقتل، وأنني رفضت ذَلكَ. لقد كنت إذا في حاجة إلى موافقتك بغية أن لا تزعجني بعد ذَلكَ، فما هي الأدلّة التي تملكها ضدي؟ أمّا أنا، فإنني أستطيع أن أزعجك في كل لحظة، بالكشف عن رغبتك القوية العارمة في موت أبيك. ويمينا إنّ جميع الناس كانوا سيصدقون كلامي، وستسوء سمعتك إلى الأبد، وشرفك كانَ سيلطخ مدى الحياة.
سأله إيفان غاضبة غضبا شديدًا:
- أنت تزعم إذا أنني أتمني بحرارة وقوة أن يموت أبي، فهل صحيح أنني تمنيت ذَلكَ؟
أجاب سمردياكوف بلهجة ثابتة وهو يحدًّق إلى إيفان:
- لا شك إطلاقا في أنك تمنيت ذَلكَ، ولقد كلفتني ضمناً بارتكاب هذه الجريمة، دون أن تطلب مني هذا الطلب بكلام ملفوظ صريح.
كانَ سمردياكوف ضعيفة جداً، وكان يتكلم بصوت أجش متعب، ولكن نوعاً من هوى متأجج سري كانَ يجيش في نفسه ويحرك لسانه. كانَ واضحاً أنّه يهدف إلى غاية ما. وقدْ أحسَّ إيفان بذلك.
قال لهُ إيفان آمراً:
- كمل. أسرد وقائع تلك الليلة.
- ماذا أقض أيض؟ كنت راقداً على مضجعي، فإذا أنا يتراءى لي أنني أسمع صوتاً يطلقه أبوك. كانَ جريجوري فاسيلتش قد خرج قبل لحظات، وشمع يعول على حين فجأة، ثمّ ارتد كل شيء إلى صمت مطبق. كنت أنتظر في الظلمات راقداً، وكان قلبي يخفق خفقانا قوياً يكاد ينشق لهُ صدري. لمّ أطق صبراً، فنهضت أخيراً وخرجت. في اليسار، كانت النافذة المطلة على الحديقة مفتوحة. سرت بضع خطوات أيضاً لأتجسس على أبيك، وأعرف أهو ميت أم حي. سمعته يضطرب ويتنهد. قلت لنفسي: «إذن ما يزال حياً، لقد أخفقت الخُطة !». اقتربت من النافذة وناديت أباك قائلاً: «هذا أنا، لا تخف!». فأجابني: «لقد جاء، جاء ثمّ هرب !». كانَ يقصد دمتري فيدوروفتش. وأضاف يقول: «لقد قتل جريجوري فاسيلتش». سألته هامسة: «أين وقع هذا؟» فأجابني يهمس أيضاً: «هناك، في الركن». قلت لهُ: «انتظر لحظة». واتجهت نحو الركن الذي دلني عليه، فاكتشفت جريجوري فاسيلتش عندَ أسفل السور راقداً على الأرض، مضرجاً بالدم، مغشياً عليه. «صحيح إذاً أن دمتري فيدوروفتش قد جاء»، هاجمتني هذه الفكرة فوراً، فسرعان ما قررت أن أتولى بنفسي إكمال المهمة وإتمام الأمر، لأن جريجوري فاسيتش، حتّى ولو كانَ ما يزال حياً، لن يستطيع أن يرى شيئاً ولا أن يسمع شيئاً وهو في ما هو فيه من إغماء. والخطر الوحيد هو أن تستيقظ مارفا أجناتفنا فجأة. شعرت شعوراً واضحاً، في تلك اللحظة، بالخطر الذي أتعرَّض لهُ إذا استيقظت مارفا اجناتفنا، ولكن الإغراء كانَ أقوى من أن أتراجع، وشعرت باندفاع مسعور يقطع أنفاسي. عدت إلى النافذة التي كانَ أبوك واقفاً عندها وقلت لهُ: «جاءت، أجرافينا الكسندروفنا. هي هنا، وتطلب أن تدخل». فارتعش من شدّة الانفعال كطفل صغير، وطفق يسألني: «أين؟ أين هي؟». كانَ لا يستطيع أن يسيطر على نفسه من فرط الهياج، ومع ذَلكَ لمّ يصدّق بعد تصديقاً تاماً. قلت أجيبه: «هي هناك. إنها تنتظر. هلاَّ فُتحت الباب !». كانَ يُنظَر إليَّ من النافذة حائر النظرة مرتبك الهيئة، متسائلًا؟ أيجب عليه أن يصدقني أم لا، ولكنه تردد في فتح الباب. قلت في نفسي: «هو الآن خائف مني أنا». أمر غريب مضحك:
خطر ببالي في تلك اللحظة فجأة أن أقرع زجاج النافذة بالإشارات المتفق عليها إيذانا بوصول جروشنكا. فعلت ذَلكَ، فإذا به، هو الذي لمّ يصدّق أقوالي، إذا به يقتنع فجأة بإشاراتي فيسرع بفتح الباب فوراً. فتح الباب، فأردت أن أدخل، ولكنه وقف أمامي يمنعني من العبور ويسالني مرتعشة: «أين هي؟ أين؟ أين؟». قلت النفسي: «إذا كانَ خائفا مني هذا الخوف، فمعنى ذَلكَ أن الأمور تجري مجرى سيئاً». وفي تلك اللحظة أحسست بساقي تخوران إذ تصورت أنّه لن يدع لي أن أدخل غرفته، أو أنّه سيبدأ بالصراخ، أو أن مارفا أجناتفنا ستجيء مسرعة، أو لا أدري أيضاً. لا أتذكر الآن تذكرة جيدة ما حدث في نفسي عندئذٍ. لا بد أن وجهي كانَ قد اصفر اصفرارة شديدة. دمدمت أقول: «هي هناك، أمام النافذة، كيف لا تراها؟». قال: «ائت بها إلى هنا، ائت بها إلى هنا». قلت: «لقد خافت. روعتها الصرخة التي أطلقها جريجوري فاسيلتش. فاختبأت وراء الأشجار. هيّا، نادها أنت من النافذة». ابتعد عن الباب راكضاً، ودنا من النافذة فوضع على حافتها شمعة مشتعلة، وصاح ينادي: جروشنكا! جروشنكا! أأنت هنا؟». ولكنه لمّ يشأ أن يميل من على النافذة حتّى لا يبتعد عني، وذلك بسبب خوفه. كانَ يخشاني في تلك اللحظة خشية رهيباً، لذلك لمّ يبتعد عني قيد أنملة. قلت لهُ وأنا أقترب من النافذة وأميل بنفسي إلى الخارج: ها هي ذي! وراء تلك الأشجار. هل رأيتها؟ إنها تبتسم لك. انظرْ!». صدقني فجأة، وأخذ يرتعش، لأنه كانَ مغرمة بها أشد الغرام! عندئذٍ إنما مال من على النافذة تماماً. لمّ أضيع ثانية واحدة، تناولت ضاغطة الورق المعدنية التي كانت موضوعة على المنضدة، لا شك أنك تتذكرها. انها تزن ثلاثة أرطال تقريباً. رفعتها، وهويت بها على رأس أبيك بكل ما أوتيت من قوة. فلم تخرج من صدره حتّى صرخة واحدة. كل ما حدث أنّه تهاوي. وضربته مرة ثانية، فمرة ثالثة، وفي المرة الثالثة شعرت أنني حطمت جمجمته. سقط على الأرض منقلباً، مضرجا بدمه. نظرت إلى نفسي لأرى هل تلطخت، فلاحظت أن ثيابي نظيفة لمّ ينبجس عليها شيء من الدم. مسحت ضاغطة الورق، وأرجعتها إلى مكانها. ثمّ اتجهت نحو الأيقونات، فأخرجت المال من الظرف، ورميت الظرف على الأرض، وحرصت على أن أضع جانباً، الشريط الوردي الذي كانَ يلفّ الظرف. وبعد ذَلكَ نزلت إلى الحديقة وأنا أرتعش ارتعاشاً شديداً، فمضيت رأساً إلى شجرة التفاح المجوفة الساق، تلك التي تعرفها... كنت قد اخترت هذه الشجرة مخبأ منذ مدة طويلة، حتّى لقد وُضعت فيها ورقة وخرقة استعدادا لذلك اليوم. لففت الأوراق المالية بالورقة، ثمّ غلفت الورقة بالخرقة، ودسست الرزمة في بطن الشجرة الجوفاء. بقيت الرزمة هناك أسبوعين. ولم أخرجها إلا بعد مدة، عقب خروجي من المستشفى. عدت إلى بيتي، فرقدت على مضجعي، وأخذت أفكر عندئذٍ مذعوراً: «إذا كانَ جريجوري ميتا، فستكون العواقب وخيمة أمّا إذا كانَ حياً فصحا من إغمائه فسوف يجري كل شيء على خير وجه، لأنه سيشهد بأن دمتري قد جاء فعلاً، وسيستنتجون من ذَلكَ أنّه هو الذي قتل وسرق المال». وبينما أنا في هذا القلق وهذا الاضطراب، أخذت أئن لأوقظ مارفا أجناتفنا بأقصى سرعة. فاستيقظت مارفا أخيراً وهرعت إليَّ. ولاحظت فجأة أن جريجوري فاسيلتش غائب، فأسرعت إلى الحديقة وأخذت تعول. ومن تلك اللحظة بدأ هرج و مرج استمر طوال الليلة كلها. أمّا أنا فشعرت باطمئنان كامل.
هنا توقف سمردياكوف عن الكلام. وكان إيفان يصغي إليه صامتة كالأموات، لا يتحرك ولا يحوّل عنه بصره لحظة واحدة. وكان سمر دياكوف أثناء حديثه لا يُنظَر إليه إلا نادرة، وإذا نظر يُنظَر خلسة. فلمّا فرغ من كلامه بدا عليه الانفعال هو أيضاً، وأصبح يتنفس تنفسة ثقيلا، وظهرت على جبينه قطرات عرق. ومع ذَلكَ كانَ يستحيل على المرء أن يعرف أهو يشعر بندم أم لا.
وكان إيفان يفكر، فعاد يقول لهُ:
- لحظة. والباب؟ إذا كانَ أبي لمّ يفتح الباب إلا لك وحدك، فكيف رآه جريجوري مفتوحة قبل ذَلكَ؟ إنّ جريجوري يؤكد أنّه رأى الباب مفتوحاً.
من الملفت للانتباه أن إيفان يُلقي الآن اسئلته بلهجة هادئة كل الهدوء، دون أي اهتياج أو حنق، فلو دخل شخص إلى الغرفة في تلك اللحظة، وألقى من العتبة نظراً على المتحدثين، أحسَّ أنّه يشهد حديثاً هادئاً ودياً يدور بين الرجلين على أمور عادية وإن تكن هذه الأمور تعنيهما بعض العناية.
أجاب سمردياكوف يقول مبتسمة ابتسامة فيها مكر وسخرية:
- أمّا حكاية الباب الذي يزعم جريجوري فاسيلتش أنّه رآه مفتوحاً، فذلك وهم منه لا أكثر. أؤكد لك أن جريجوري ليس رجلاً، بل هو بغل عنيد. إنه لمّ ير شيئاً البتة، ولكنه يتخيل أنّه رأى الباب مفتوحة، وما من أحد يستطيع أن يزحزحه عن اعتقاده هذا. من حظنا كلينا أنّه وضع هذه الفكرة في رأسه، لأن هذه الواقعة تدين دمتري فيدوروفتش إدانة حاسمة.
قال إيفان وقدْ بدا عليه أنّه فقد تسلسل أفكاره من جديد، وأنه يحاول أن يفهم شيئاً ما:
- اسمع أيضاً... أردت أن ألقي عليك أسئلة أخرى... ولكنني نسيت ما الذي كنت أريد أن أسألك عنه... لقد تاه عقلي تماماً... ها... نعم! اشرح لي هذه النقطة على الأقل: لماذا فضضت الظرف ثمّ تركته على أرض الغرفة؟ لماذا لمّ تأخذ الظرف مع المال؟... لقد تراءى لي، أثناء حديثك، أنك قد فعلت ذَلكَ عامداً، وأن ذَلكَ كانَ أمراً ضرورياً... ولكنني لا أفهم لماذا كانَ ذَلكَ ضرورة...
- فعلت ذَلكَ للسبب التالي: لو ارتكب الجريمة شخص يعرف المنزل ويعرف نبات أبيك، مثلي أنا، شخص لعله سبق أن رأي المال، ولعله شهد صرّه أو حتّى ساهم في صرّه، فإن ذَلكَ الشخص ما كانَ ليحتاج إلى فض الظرف بعد ارتكاب الجريمة، لا سيما وهو يستعجل الهروب سريعة، ذَلكَ أنّه يعرف على وجه اليقين أين يوجد المال. لو كانَ القاتل واحدة من أهل الدار، مثلي أنا، لاكتفى بدست الظرف في جيبه دون أن يفضه، ولولى هارية بأقصى سرعة. وليس كذلك شأن أخيك دمتري فيدوروفتش: فلقد كانَ لا يعلم بوجود هذا الظرف إلا عن طريق السماع، ولم يره بعينيه في يوم من الأيام. فإذا فرضنا أنّه أخرجه من تحت الفراش، كانَ عليه أن يفضه حتماً ليتأكد من وجود المال فيه، ثمّ كانَ لا بد أن يُلقي الظرف على الأرض متعجلا، دون أن يتسع وقته للتفكير في أن هذا الظرف يُمكن أن يكون شهادة عليه. إنّ هذا الطيش هو من شأن جميع اللصوص المبتدئين، فهم لا يفكرون في الأمور ولا ينبصرون بالعواقب. يجب أن لا ننسى أن دمتري فيدوروفتش

نبيل المحتد، وأنه لمَ يسرق في يوم من الأيام حتّى ذَلكَ الحين. وإذا قرر أن يسرق في هذه المرة فلأنه يرى أن الأمر ليس أمر سرقة البتة، وإنما هو استرداد لمال يخصه شرعاً. كانَ دمتري فيدوروفتش قد أعلن ذَلكَ في المدينة كلها سلفا، حتّى لقد تفاخر أمام شهود بأنه سيمضي يُسترد حقه من فيدرو بافلوفتش. إنني لمَ أفصح عن هذا التفكير بصراحة في شهادتي أمام وكيل النيابة، ولكنني جعلته يدركه بإشارات وتلميحات، دون أن يبدو علي أنني أفهم أنا نفسي ما أقول، فاعتقد أنّه اهتدى بنفسه إلى هذه الأفكار التي أوحينها إليه. ما أزال أذكر أنّه بلغ من سروره وافتتانه عندئذٍ أن لعابه أوشك أن يسيل.

هتف إيفان يقول وقدْ بلغ من الدهشة أوجها:

- هل يُمكن فعلاً أن تكون قد بنيت هذا كلّه في لحظة الجريمة نفسها؟

ونظر إلى سمردياكوف مرتاعا من جديد..

- طبعاً لا... ما كانَ يُمكن أن يخطر هذا كلّه ببالي في لحظة كتلك اللحظة. وإنما رتب كل شيء من قبل.

صاح إيفان فيدوروفتش يقول متعجبا:

- إذن... إذا لقد ساعدك الشيطان نفسه! لا، لا، لست غبياً.

بل إنك لأذكى كثيراً مما كنت أظن...

ونهض إيفان ينوي أن يمشي بضع خطوات في الغرفة. كانَ يشعر بانهيار نفسي شديد. ولكن المائدة كانَ تسد الطريق، والمساحة الخالية بينها وبين الجدار ضيقة لا تسمح للمرء بأن يمشي فيها على ما يحب. لذلك اضطر إيفان أن يقتصر على أن يدور في مكانه، ثمّ عاد فجلس. ولعل عدم تمكّنه من أن يتحرك كما كانَ يتمنى قد أثار غيظه، فإذا هو يعود إلى الكلام بلهجة مهتاجة كالتي تكلّم بها حين وصوله، قال:

- اسمع أيها الشقي، أيها الإنسان الدنيء الحقير! ألم تفهم أنني إنّ امتنعت عن قتلك حتّى الآن فما ذَلكَ إلا لأستطيع أن أسلمك إلى المحكمة غداً؟ ألاّ فليشهد الله علي (قال ذَلكَ وهو يرفع يده كمن يحلف يمينة)... ربما كنت أنا نفسي جانياً... لعلني كنت أشعر سر برغبة في... أن يموت أبي... من يدري؟ ولكني أحلف لك أنني لست جانياً بمقدار ما تتصور، وأنني لمَ أحرضك على ارتكاب هذه الجريمة على ما يخيّل إليك. لا، لا، لمَ أحرضك! على كل حال، ليس هذا بالأمر الهام! لسوف أتهم نفسي غداً، أيا كانت الشهادة التي قد تدلي بها ضدي، فإنني أقبلها منذ الآن، لا أخشاك. بالعكس: سأؤيد كل ما تقوله. ولكن يجب عليك أن تعترف في الغد أنت أيضاً. هذا واجب يقع على عاتقك. يجب عليك أن تعترف، يجب عليك. سنذهب معاً. تقرر هذا!

قال إيفان هذه الكلمات بلهجة قوية حازمة، وكان واضحاً في سطوع عينيه أن قراره هذا قاطع لا رجوع عنه.

قال سمردياكوف، ولكن دون سخرية في هذه المرة، وبلهجة توشك أن يكون فيها شيء من عطف:

- أرى أنك مريض، مريض جداً. إنّ عينيك صفراوان تماماً.

واستأنف إيفان كلامه فقال:

- سنذهب معاً. فإن رفضت، فلا ضير... سأذهب وحدي وأعترف!

صمت سمردياكوف بضع لحظات كأنه يفكر، ثمّ قال أخيراً كمن يصدر قراراً مبرماً:

- لن يكون شيء من هذا. لن نذهب إلى المحكمة، ولن تذهب أنت.

هتف إيفان يقول بلهجة عتب:

- أنت لا تفهمني.

- ستستحي من اتهام نفسك هذا الاتهام، ولن يكون لهذا أي فائدة على كل حال، لأنني سأصرح عندئذٍ تصريحا قاطعا بأنني لمَ أجر معك أحاديث من هذا النوع في يوم من الأيام، وسأؤكد أنك اخترعت هذا كلّه اختراعاً بسبب ما أنت فيه من حالة مرضية (سيصدقون كلامي لما يبدو عليك من مرض)، أو أقول أيضاً إنك قلت ما قلت إشفاقا على أخيك ورأفة به، مؤثراً اتهام نفسك في سبيل إنقاذه، وإنك ألقيت الذنب علي لأنك لمَ تحسبني في يوم من الأيام إنسانا كسائر البشر، وإنما عاملتني طوال حياتي كما يعامل مخلوق حقير لا قيمة لهُ. فمن ذا الذي سيصدق كلامك بعد هذا؟ فكر قليلاً: أين الأدلّة هل لديك حتّى دليل واحد؟

قال إيفان:

- قل لي: أنت أريتني هذا المال الذي كنت تخبئه عندك، لتقنعني بصدق ما رويته لي؟ أليس كذلك؟

فنحّي سمر دياكوف الكتاب السميك الأصفر الذي كانَ يغطي حزمة الأوراق المالية، وقال متنهداً:

- خذْ المال واحمله معك.

- سأحمله طبعاً! ولكن لماذا ترده إليَّ الآن وأنت إنما قتلت لتحصل عليه؟

كذلك ساله إيفان وهو يُنظَر إليه بدهشة كبيرة.

فأجابه سمردياكوف بصوت مرتجف وهو يحرك يده بحركة ملل وسأم:

- أصبحت لا أريد هذا المال! لقد قدرت خلال مدة ما أن أبدأ بهذا المال حياة جديدة في موسكو، أو قل أيضاً أن أسافر إلى الخارج. كانَ لي هذا الأمل، ولا سيما أنك كنت تقول «إنّ كل شيء مباح». أنت علمتني أن أفكر هذا التفكير، وأن أقضي في الأمور على هذا النحو. كنت تقول لي دائماً: «إذا لمَ يوجد الإله اللانهائي، فالفضيلة إذا باطل لا جدوى منه ولا داعي إليه». هكذا كنت تفكر أنت، ولقد تقبلت أنا آراءك هذه. استندت إلى أقوالك واعتمدت عليها.

سأله إيفان وهو يبتسم ابتسامة ساخرة:

- ثمّ توليت تطبيق هذا التفكير بنفسك في هذه الجريمة، أليس كذلك؟

- نعم، مستوحية آراءك.

- والآن هل عدت إلى الإيمان بالله، ما دمت ترد إليَّ المال؟ دمدم سمردياكوف يقول:

- لا، أنا لا أؤمن بالله.

- فلماذا ترد إلى المال إذن؟ قال سمردياكوف وهو يحرك يده بحركة ملل وسام من جديد:

- كفى! فيم يهمك هذا؟ أمّا كنت تقول عندئذٍ إنّ كل شيء مباح؟ فما بالك تضطرب الآن هذا الاضطراب كلّه، حتّى لتنوي أن تشهد على نفسك؟ على أنك لن تفعل ذَلكَ، لا، لن تشهد على نفسك.

كذلك ردّد سمردياكوف بصوت جازم ينم عن اقتناع كامل. فأجابه إيفان بقوله:

- سترى!

- هذا مستبعد استبعاد مطلقاً. أنت أذكى من أن تفعل ذَلكَ. أنت تحب المال، أعرف هذا، وأنت تحرص كثيرة على أن يحترمك الناس، لأنك مزهو متكبر. ثمّ إنك عدا ذَلكَ تتأثر تأثراً شديداً بمفاتن الجنس اللطيف، وأنت فوق هذا كلّه تحب أن تعيش على ما يشاء لك هواك دون أن تكون رهناً بأحد. أنت تحرص على هذا أكثر مما تحرص على أي شيء آخر. ولن نريد أن تفسد حياتك هذا الإفساد بتلطيخ شرفك إلى الأبد أمام المحكمة. أنت تشبه فيدور بافلوفتش. أنت بين سائر أبنائه أكثرهم شبهاً به، لأنك قد ورثت عنه نفسه.

قال إيفان وقدْ ظهر عليه الإعجاب بملاحظات سمردياكوف، وتدفق الدم إلى وجهه:

- لست بالغبي. كنت أظنك في الماضي أبله. ثمّ أضاف يقول وهو يتفرس في الخادم باستطلاع وفضول: - أرى أنك تتكلم الآن في جد.

- بسبب زهوك وكبريائك إنما كنت تعدني غبياً. خذْ المال. هلاّ أخذته!

لم إيفان رزم الأوراق المالية الثلاث، ودسها في جيبه، حتّى دون أن يهتم بلفها. وقال:

- غداً سأظهر عليها المحكمة.

- لن يصدقك أحد، لأنك الآن غني، فسيقدرون أنك اقتطعت هذا المبلغ من ثروتك أنت.

نهض إيفان وقال:

- لئن لمَ أقتلك اليوم، فما ذَلكَ إلا لأنني سأحتاج اليك غداً.

تذكر هذا!

قال سمردياكوف بصوت غريب وهو يُلقي على إيفان نظراً غريبة:

- اقتلني إذا شئت، اقتلني في هذه اللحظة... ثمّ أسرع يضيف وهو يبتسم ابتسامة مرة:
- ولكنك لن تجرؤ. إنك لن تجرؤ على شيء بعد اليوم، يا من كنت في الماضي رجلاً جسورة.
قال إيفان: - إلى اللقاء وتقدم خطوة نحو الباب.
- لحظة !... أرنيه مرة أخيراً، هذا المال...
أخرج إيفان الأوراق المالية من جيبه، وأراه إياها. فتأملها سمردياكوف بضع ثوان، ثمّ قال وهو يحرك يده تلك الحركة التي تنم عن الملل والسأم:
- طيب. اذهب الآن!
فلمّا هم إيفان أن يفتح الباب صرخ سمردياكوف يقول على حين فجاة:
- إيفان فيدوروفتش!
فالتفت إيفان وسأله:
- ماذا تريد؟
فقال لهُ الخادم:
- وداعا ! فأجابه
إيفان:
- بل إلى اللقاء، إلى الغد! وخرج من البيت.
كانت زوبعة الثلج ما تزال تعصف مسعورة. أخذ إيفان يسير بخطى ثابتة، ولكنه أحسّ بعد لحظات أنه يترنح. فقال لنفسه وهو يبتسم: «هذه لحظة تعب جسدي». واستولى عليه نوع من فرح. كان يحس في نفسه ثباتاً لا يتزعزع: هذه خاتمة الشكوك والمخاوف وضروب القلق التي كانت تعذبه منذ زمن طويل. قال لنفسه وهو يشعر بارتياح نفسي كبير: «قررت. ولن يتغير قراري». وفي تلك اللحظة صدم شيئاً على الأرض، فكاد يتعثر ويقع. توقف عن السير، فإذا هو يرى الرجل الذي كان قد صرعه قبل وقت قصير، راقداً على الأرض، جامداً على ذلك الوضع نفسه، مغشياً عليه. كان الثلج قد دفن وجهه تقريباً. رفعه إيفان وحمله على كتفيه. وإذ رأى نافذةً مضاءةً في منزل على يمينه، اقترب من النافذة وقرعها، فأجابه صاحب البيت، فعرض عليه إيفان ثلاثة روبلات ليساعده في نقل الرجل إلى أقرب قسم من أقسام الشرطة. قَبِلَ صاحب البيت. سأصرف النظر عن التفاصيل، فلا أذكر إلا أن إيفان فيدوروفتش قد استطاع أخيراً، أن يضع الرجل في مقر الشرطة، واتخذ الإجراءات اللازمة لاستدعاء طبيب على الفور لفحصه. وحسبي أن أشير إلى أن هذ القضية قد استغرقت قرابة ساعة من وقت إيفان. ولكن إيفان كان يحسُ برضى عن نفسه. كان فكره يعمل بعنف، رغم أن خواطره مشتتة. قال يحدث نفسه مسروراً: «لو لا أن كان قراري في ما سأفعله من الغد حاسماً فعلاً، لما أنفقت ساعةً كاملةً في الاهتمام بهذا السكران، ولمررت به دون أن أكترث لمصيره، ودون أن أفعل شيئاً في سبيل أن لا يتجلّد من البرد... » ثم تساءل وهو يشعر بمزيد من الرضى والسرور والارتياح: «ولكن كيف أمكن أن أكون قادراً على تحليل نفسي هذا التحليل الصادق العميق... ألا ما أغبى أولئك الأطباء الذين يدّعون أنني بسبيل أن أجن!». حتى إذا وصل إلى مسكنه هاجمه شك على حين فجأة. فقال لنفسه: «أليس الأفضل أن أذهب إلى وكيل النيابة فوراً فأقصَّ عليه كل شيء؟». ولكنه أبعد هذه الفكرة، واتجه نحو الباب عازماً أمره قائلاً: «غداً، يتم هذا كله». شيء غريب: بينما كان إيفان يدمدم بتلك الكلمات الأخيرة، إذا بالفرح الذي كان يملأ نفسه منذ قليل، يتبدد في غمضة عين. وحين اجتاز عتبة غرفته شعر فجأة بشيء بارد كالجليد يمس قلبه، كأنه تذكر شيئاً مقزّزاً معذباً موجوداً في هذه الغرفة بعينها، في هذه اللحظة نفسها، وكان موجوداً فيها كذلك قبل الآن. وترامى على أريكته متعباً مكدوداً. وجاءته الخادمة العجوز بالسماور. فصنع لنفسه شيئا من الشاي، ولكنه لم يشربه، وأمر الخادمة بأن تتركه وحده إلى الغد. كان يشعر وهو جالس على ديوانه بدوار. كان يشعر بأنه مريض خائر القوى. حاول أن ينام. ولكنه نهض ثانيةً وهو في حالة قلق شديد، وأخذ يمشي في غرفته بغية أن ينفض عنه خدره النعس. وخيّل إليه في بعض اللحظات أن فكره أخذ يهذي، على أن المرض ليس هو الذي كان يهمه ويشغل باله في تلك الساعة. وعاد يجلس، ونظر إلى جميع الجهات كأنه يراقب المكان. وأجال بصره حوله عدة مرات. وتجمدت عيناه أخيراً على اتجاه معيّن، وأخذتا تحدقان إلى نقطة بعينها في أقصى الغرفة. وابتسم إيفان. ولكن حمرة الغضب لم تلبث أن صبغت وجهه بعد ذلك فوراً. ولبث جامداً خلال مدة طويلة، ضاغطاً رأسه بيديه ضغطاً قوياً، ولكن عينيه ما تنفكان تلتفتان إلى تلك النقطة نفسها في جهة الكنبة الموضوعة بمحاذاة الحائط أمامه. واضح أن شيئاً ما كان يحنقه ويقلقه ويعذبه.

أحسب أنه قد آن لي، رغم أنني لست طبيباً، أن أقدم للقارىء، بعض الإيضاحات عن طبيعة مرض إيفان فيدوروفتش، أريد أن أستبق تتمة القصة، وأقول هنا إنه كان في ذلك المساء نفسه على أهبة أن يُصاب غداً بنوبة حُمّي حارّة. لقد تغلّب المرض أخيراً على جسمه الخائر الواهن الذي كان مع ذلك ما يزال يقاوم مقاومة عنيفة. وعلى أنني أجهل الطب، فسوف أجازف فأفترض أنه كان قد استطاع، بفضل حفزه لإرادته حفزاً شديداً، أن ينحّي، إلى حين، ذلك المرض الذي كان يدمره، آملا بالطبع أن يقضي عليه نهائيا فيما بعد. كان يعرف أنه مريض، ولكنه يكره أن يكون مريضاً في هذه الأونة في هذه اللحظات الحاسمة القادمة في حياته التي يجب عليه فيها أن يملك جميع قواه، ليتكلم بحرية، ليتكلم بوضوح، «ليبرر نفسه أمام نفسه». على أنه قد ذهب إلى الطبيب الذي وصل من موسكو منذ مدة قصيرة، والذي استدعته كاترينا إيفانوفنا بدافع النزوة وحدها، كما سبق أن قلت من قبل. فبعد أن أصغى الطبيب إلى كلام إيفان، وبعد أن فحصه، انتهى إلى أنه مصاب حتى باضطراب دماغي، ولم يستغرب أيَّ استغراب الاعتراف الذي اعترفه إيفان على مضض. قال الطبيب: «من الممكن جداً، وأنت على ما أنت عليه الآن من اضطراب دماغي، من الممكن جداً أن توافيك هلوسات، رغم أن الأمر يحتاج إلى مزيد من التثبت والتحقق... وكيفما كان الحال، فيجب عليك أن تشرع في معالجة نفسك بغير إبطاء، وإلا يُخشى حدوث أسوأ العواقب». ولكن إيفان فيدوروفتش، حين خرج من عيادة الطبيب، قرر أن لا يلقي إلى هذه النصيحة الحكيمة بالاً، ولا يقيم لها وزناً، ثم أهمل التداوي. قال يحدث نفسه: «ما أزال قادراً على أن أمشي، وما أزال أملك من القوة ما يكفي. ويوم أنهار وأسقط فليعالجني منهم من يريد؟ وليضعوا بي ما يشاؤون. بهذا ختم كلامه لنفسه وهو يحرك يده بإشارة الملل والسأم. جلس إيفان إذن، وكان يدرك هو نفسه في تلك اللحظة أنه في حالة هذيان. كان كما قلت منذ هنيهة يحدق تحديقاً قويا إلى شيء موجود على الكنبة قرب الجدار المقابل من الغرفة. ذلك أنه على الكنبة المستندة إلى ذلك الجدار كان قد ظهر منذ هنيهة شخص دخل الغرفة لا يدري إلا الله كيف، لأن هذا الشخص لم يكن موجودة حين ولج إيفان فيدوروفتش غرفته عائداً من عند سمردياكوف. إن هذا الشخص سيد، أو بالأحرى هو نوع من الجنتلمان الروسي، متقدم في السن قليلا، «qui frisait la cinquantainte» «يناهز الخمسين من العمر» كما يقول الفرنسيون. شعره قاتم طويل كثيف، أشْيَب في بعض المواضع، وكذلك لحيته الصغيرة المدببة. وهو يرتدي صدرة بنية اللون، رائعة التفصيل، ولكنها عتيقة قليلاً، قد بليت «موضتها». لا شك أن عمر ثيابه ثلاث سنين، وما من أحد بين رجال المجتمع الثري يرتدي مثل هذه الثياب منذ سنين. إن القميص والكرافتة الطويلة التي تشبه أن تكون منديلاً، أنيقان أيضا كل الأناقة، فهما مما يلبسه في العادة سادة يُعنون بهندامهم أشد العناية، ولكن القميص يبدو قذرة نوعا ما إذا أنت أمعنت فيه النظر من قرب. والكرافتة العريضة تبدو مهترئة كذلك. والرجل يرتدي سروالا ذا مربعات، يناسبه كثيراً، رغم أن لونه فاقع جداً، ورغم أنه مسرف في الضيق قد اندثرت موضته. ويصدق هذا أيضاً على قبعته المصنوعة من لباد أبيض لا يناسب هذا الفصل البارد من فصول السنة. خلاصة القول إن الرجل يبدو سيداً محترماً لكنه لا يملك إلا موارد محدودة. فلا شك أنه ينتمي إلى فئة ملاكي الأراضي القدماء الذين كانت أوضاعهم مزدهرةً في عهد القنانة. وهو يجيد الآداب الاجتماعية، فلا شك أنه خالط المجتمع الراقي، ولا شك أنه ما يزال محافظاً على بعض العلاقات والصلات. غير أن هذا السيد، وقد صار شيئاً بعد شيء إلى فقر سببه تبذيره في إبان شبابه، وفاقمه إلغاء نظام القنانة في الآونة الأخيرة، قد تردّى الآن إلى حيث أصبح طفيلياً بين أصدقائه وأصحابه القدامى فيحسن هؤلاء استقباله لما يتحلى به من طبع دمث وتربية حسنة؛ حتى لقد كان من الممكن استقباله في المآدب على الموائد بصحبة أعلى الناس قدرة وأوسعهم جاهاً، شريطة أن يعين له مكان متواضع بطبيعة الحال. وإن الطفيليين الذين هم من هذا النوع، الطفيليين الذين يرجعون إلى محتد طيب ويملكون طبعاً حلواً ويعرفون كيف يقصون حكايات ويروون نوادر، ويجيدون المشاركة في لعبةٍ بالورق، ولا يكرهون أن يقوموا بخدمات حين يرجون أن يقوموا بمثل ذلك، إن هؤلاء يكونون في أكثر الأحيان أرامل أو عازبين، وقد يكون لهم أولاد، لكن أولادهم يعيشون دائماً في مكانٍ بعيد، تربيهم عمة أو خالة يتحاشى السيد أن ينطق باسمها في المجتمع الراقي كأنه يخجل أن تكون له قرابة كهذه القرابة. وبمضي الزمن ينسى هؤلاء السادة أولادهم تقريباً، ويتلقون منهم في أحيان متباعدة تهنئات بأعياد ميلادهم أو بأعياد الميلاد، وقد يردون على هذه التهنئات سراً وقد لا يردون.

كان زائر إيفان فيدوروفتش لطيف الهيئة، أن لم نقل محبب الوجه، يشعر المرء أنه بهم في كل لحظة أن يهش ويبش. ولم يكن يحمل ساعة، ولكنه في مقابل ذلك يضع على عينيه نظارةً لها حمالة من صدف، مربوطةً بشريط أسود. وكانت إصبعهِ الوسطى في يده اليمني تزدان بخاتم كبير من ذهب، له فص من حجر رخيص. تأمل إيفان فيدوروفتش زائره الدخيل بعين مرتابة محاذرة، ورفض أن يبدأ الحديث. كان يبدو على ضيفه أنه ينتظر، وكان الضيف يلتزم وضع الاحترام الذي يلتزمه طفيلي هبط من الغرفة المخصصة له في الطابق الثاني ليحتسي الشاي مع رب الدار وليسليه بصحبته، حتى إذا رأى رب الدار غارقاً في تأملاته معتكر المزاج، أمسك عن الكلام ما لم يبادره رب الدار بالخطاب. ومع ذلك يدرك المرء أنه مستعد للاندفاع في حديث لطيف كيس حلو متى أتيحت له الفرصة. وفجأة أصبح وجه الزائر يعبر عن هم، وقال يخاطب إيفان فيدوروفتش:

- اسمع. أعذرني إذا أنا ذكرتك بهذه النقطة: لقد زرت سمردياكوف على نية أن تعرف تفاصيل عن زيارة كاترينا إيفانوفنا له، ولكنك تركته دون أن تطلع على شيء. أغلب الظن أنك نسيت...

هتف إيفان يقول وقد أظلم وجهه:

- صحيح، صحيح، لقد نسيت... ثم دمدم يقول وكأنه يحدث نفسه:

- لا بأس الآن، سيتم هذا كله غدا. ثم استأنف يقول في حنق وهو يلتفت إلى زائره:

- أما أنت فاعلم أنني كنت سأستدرك بنفسي هذا النسيان الذي كانت روحي بسببه قلقة معذبة. لماذا تتدخّل أنت في الأمر؟ أتريدني أن أعتقد بأنك أنت الذي ذكّرتني مع أنني تذكرت من تلقاء نفسي؟

قال السيد المهذب وهو يبتسم ابتسامة عذبة جداً:

- لا قيمة لهذا، لك أن تعتقد بما تشاء. ما جدوى الإيمان الذي يتم بقسر وإكراه؟ ثم إن البراهين لا يمكن أبداً أن تصلح أساساً يقوم عليه الإيمان، ولا سيما البراهين المادية. إن القديس توما لم يؤمن لأنه رأى المسيح يُبعث[228]، بل لأنه كان ظامئاً إلى الإيمان قبل ذلك. انظر مثلاً إلى أولئك الذين يدعون الاتصال بالأرواح.... أنا من جهتي أحبهم كثيراً... تخيل أنهم يتصورون أنهم ينفعون الدين لأن الشيطان يظهر لهم قرونه من حين إلى حين. هم يقولون: «ذلك برهان مادي في أقل تقدير، على وجود العالم الآخر». فانظر إلى هذا التفكير: يؤمنون بالعالم الآخر ويريدون براهين مادية ! ثم.... هبهم برهنوا على وجود الشيطان، فهل يترتب على ذلك أن الله موجود أيضاً؟ في نيتي أن أنتسب إلى جمعية من جمعيات المثاليين لأنشئ فيها حزباً معارضاً. سأقول لهم: «أنا واقعي، لا مادي». هأ هأ !..

قال إيفان فيدوروفتش وهو ينهض فجأةً بقوة:

- اسمع. يخيَّل إليَّ أنني الآن أهذي... أنا أهذي يقيناً... فاكذب ما شاء لك هواك أن تكذب... سيان عندي!.. لن تفلح في إثارة غضبي وغيظي كما فعلت في المرة الماضية. ولكنني أشعر بخجل... لا أدري لماذا... أتمنى أن أمشي في الغرفة... هناك لحظات تغيب فيها عني، فلا أراك ولا أسمع صوتك، تماما كما في المرة الماضية، ولكنني أحزر دائماً ما ستقوله لي، لأنني أنا، الذي أنطق بهذه الأقوال، لا أنت! وإني لأتساءل من جهة أخرى أأنا نمت في المرة الماضية فرأيتك في الحلم، أم أنت ظهرت لي في الواقع أثناء اليقظة؟ سأغطس هذه الخرقة في الماء البارد فأضعها على رأسي. فلعلك تختفي عندئذ.

اتجه إيفان فيدوروفتش نحو زاوية الغرفة، وتناول فوطة بلّلها بالماء ووضعها على جبينه. وأخذ يمشي بعد ذلك في الغرفة طولاً وعرضاً.

قال الزائر:

- إنه ليسرني حقاً أن نتخاطب الآن بصيغة المفرد من غير كلفة ولا حَرَج.

فأجابه إيفان ضاحكاً:

- ألا إنك لغبي! أتراك تتخيل أنني سأستعمل الآن صيغة الجمع في مخاطبتك؟ أنا في هذه اللحظة منشرح النفس منطلق المزاج، غير أنني أشعر بأوجاع في صدغيَّ... وأشعر بصداع في رأسي... فأرجوك... لا تتفلسف اليوم كما تفلسفت في ذلك اليوم. إذا لم يكن في وسعك أن تغيب، فتكلم في أمور فرحة. قصَّ عليَّ نمائم وشائعات. ذلك يناسبك ويليق بك ما دمت طفيلياً. يا له من كابوس فظيع أن لا أستطيع التخلص من هذا الشخص! ولكنني لا أخشاك. سأنتصر عليك آخر الأمر. لن أُقاد إلى مستشفى المجانين.

- هذا رائع أنا طفيلي؟ حقا، ذلك هو دوري في هذا العالم. هل أنا في الواقع إلا طفيلي؟ بالمناسبة: لقد شعرت حين أصغيت إلى كلامك بشيء من الدهشة والاستغراب. لكأنك أخذت تعدني شيئا واقعاً لا شبحاً من صنع خيالك كما زعمت في المرة الماضية بعناد شديد وإصرار قوي...

هتف إيفان يقول حانقاً:

- ما عددتك شيئاً واقعاً في لحظة من اللحظات. أنت أكذوبة. إنك مرضي. ما أنت إلا شبح. ولكنني لا أعرف كيف أقضي عليك، وألاحظ أن عليَّ أن أحتمل حضورك زمناً. أنت هلوسة في دماغي المتعب المكدود. أنت تجسّد ذاتي، ولكنك تجسّد جانباً واحداً منها... إنك تمثل من أفكاري وعواطفي أحطها وأغباها. وكان يمكن، من هذه الناحية ولهذا السبب، أن يعنيني أمرك قليلاً، وأن أهتم بك بعض الاهتمام، لو كان في وقتي متسع...

- لحظة... سوف أفضحك إذا سمحت: منذ قليل، قرب مصباح الشارع، ثرت على أخيك أليوشا صارخاً: «هل علمت هذا منه هو؟ فمن أين علمت أنه يزورني؟». لقد كنت تقصدني أنا إذن. معنى هذا أنك خلال لحظة قصيرة آمنت بوجودي، بأنني موجود فعلاً.

قال السيد ذلك وهو يبتسم ابتسامة لطيفة.

- نعم، كانت تلك لحظةً من ضِعف طبيعي جداً... ولكن من المستحيل أن أكون قد آمنت بأنك واقع لا وهم. إني لأتساءل أأنا نمت أم سرت في الغرفة في المرة الماضية. فلعلني لم أرك عندئذ إلا في الحلم.

- هلا قلت لي لماذا كنت قاسياً تلك القسوة كلها مع أخيك أليوشا منذ قليل؟ إنه فتى لطيف غاية اللطف ! وإني لأشعر بأنني آثم في حقه بسبب حكاية الأب زوسيما تلك.

هتف إيفان يقول ضاحكاً:

- لا تذكر اسم أليوشا! كيف تجرؤ أن تفعل ذلك أيها الوضيع؟ - تشتمني وتضحك في آن واحد. تلك علامة حسنة. ثم إني ألاحظ أنك اليوم أرقّ في معاملتي كثيراً مما كنت في المرة السابقة. إنني أفهم سبب هذا: هو ذلك القرار العظيم النبيل الذي اتخذته.

زأر إيفان في غضب جنوني:

- لا تذكر قراري! حذار أن تذكر ذلك.

- أفهم، أفهم كل الفهم[229] c'est noble, c'est charmant إنك تنوي أن تدافع عن أخيك، وأن تضحي بنفسك في سبيله... c'est chevaleresque[230].

- اسكت وإلا هويت عليك ركلاً!

- هذا يسعدني من ناحية من النواحي، وبه يتحقق هدفي. إذا كنت تريد أن تركلني فمعناه أنك أصبحتَ تؤمن بوجودي واقعاً لا وهماً. هل يركل أحد شبحاً؟ ولكن دعنا من هذه الأمازيح. اشتمني إذا كان يحلو لك ذلك... سيان عندي... ولكن من الأفضل للمرء أن يكون على شيء من الأدب والكياسة والتهذيب حتى في معاملتي أنا. لقد وصفتني بأنني غبي وبأنني وضيع! فما هذه التعابير عيب أن تصدر عنك هذه الألفاظ.

عاد إيفان يقول ضاحكاً:

- حين أهينك فإنما أهين نفسي. ما أنت إلا أنا... أنت نفسي، ولكن في وجهٍ غير وجهي. أنت لا تفعل طوال الوقت أكثر من أن تعبر عن أفكاري وتفصح عن خواطري في نفس اللحظة التي توافيني فيها هذه الأفكار والخواطر... أما أن تقول لي شيئاً جديداً لا أتوقعه فذلك ما أنت عاجز عنه كل العجز!

ردّ عليه السيد بكياسة واعتداد:

- إذا كانت الأفكار التي أعبر عنها هي أفكارك أنت أيضاً، فلا يسعني إلا أن أعتز بهذا التوافق بيننا.

- المؤسف أنك لا تختار من أفكاري إلا أردأها، بل وأغباها على وجه الخصوص. أنت غبي وسوقي. أنت غبي غباء رهيباً في الواقع، لا، لا، لا أطيقك! لا احتمل حضورك ما العمل؟ ما العمل؟

كذلك هتف إيفان حانقاً.

استأنف الزائر كلامه فقال باعتزاز الطفيلي، إلى مسكنة واستعداد لما يجب من تنازلات:

- أما أنا يا صديقي فأحرص على أن أبقى رجلاً مهذباً وأنا أعرف بذلك. صحيح أنني فقير، ولكن... دون أن أزعم أني أشرف من غيري... أستطيع أن أقول إن من المسلّم به في المجتمع عامةً، كبديهية من البديهيات، أنني ملاك سقط. شهد الله أنني لا أستطيع أن أتخيل كيف أمكن أن أكون في الماضي ملاكاً. وهبني كنت في الماضي ملاكاً، فإن ذلك يرجع إلى عهد بعيد إلى حد أنني أُعْذَر إذا أنا نسيته. وكل ما أحرص عليه الآن هو أن يعُرف عني أنني رجل لائق محترم، ثم أن أعيش كما يمكنني أن أعيش محاولا أن أسرَّ أقراني البشر. آه... إنني لأحب الناس حباً صادقاً، وطالما رُوّجت في حقي النمائم من هذه الناحية. حين أجد نفسي بينكم وحين أقيم عرضاً عند واحدٍ من أمثالكم، فإن وجودي يتخذ عندئذ صورة محسوسة واقعية، وذلك ما يحلو لي أكثر من أي شيء آخر في الأمر كله. ذلك أنني أنا أيضاً مصاب مثلك بخيال مضطرب مختل، ولهذا أقدر واقعيتكم الأرضية السليمة حق قدرها. إن كل شيء في نظركم محدد تحديداً دقيقاً، وإن كل شيء عندكم يتم التعبير عنه بصيغ معينة، فالهندسة هي الظافرة المنتصرة. أما عندنا!.. أما نحن... فإننا نظل نتيه إلى الأبد في معادلات غير محددة. أنا هنا أحلم وأتنزه. ما أكثر ما أحب أن أحلم. ثم إنني متى وُجِدْتُ على الأرض أصبحت أؤمن وأصدّق الأوهام. لا تسخر مني، أرجوك: لشد ما يحلو لي أن أؤمن بالخرافات وأن أصدق الأوهام. إنني أتعود جميع عاداتكم في هذه الحياة الدنيا. لقد أصبحت أحبّ الاختلاء إلى الحمّامات العامة، وأصبح يحلو لي أن أجد نفسي في حمام البخار بين التجار والقسس. أن أخفي رغبة تجيش في نفسي هي أن أتجسد «ولكن تجسيداً نهائياً لا عودة عنه» ، في زوجة تاجر سمينة بدينة تزن مائة كيلوغرام، وأن آخذ أؤمن بكل ما تؤمن به، وسيكون مَثَلي الأعلى عندئذ أن أدخل كنيسة فأشعل شمعة باندفاعة صادقة من القلب. سيكون ذلك خاتمة آلامي. وإني لأجد لذةً كبيرة في أن أداوى كما تداوون. في هذا الربيع انتشر في البلاد وباء الجدري، فذهبت التمس أن أُلقَّح كسائر الناس. لا تستطيع أن تتخيل مدى ما شعرت به من سعادة في ذلك اليوم. حتى لقد تبرعت في تلك المناسبة بعشرة روبلات لمساعدة أخوتنا السلافيين المضطهَدين!.. ولكني ألاحظ أنك لا تصغي إلى كلامي.

وأضاف السيد المهذب يقول بعد لحظة من صمت:

- إنك تبدو لي مريضاً جداً، هل تعلم؟ وأنا أعرف أنك ذهبت إلى الطبيب أمس... فماذا قال لك الطبيب؟ كيف حال صحتك؟

فقطع إيفان أسئلته قائلا:

- أبله!

- أما أنت فذكي جداً. عدتَ إلى الفظاظة ثانية؟ أنا لم أسألك عن صحتك من باب التعاطف معك وإنما لأقول أي شيء. لا تجبني إن شئت. لقد انتشر الروماتيزم من جديد...

كرر إيفان يقول:

- أبله!

- أنت تصر على رأيك، ولكن هذا لا ينفي أنني أُصبت في السنة الماضية بأوجاع روماتيزم ما زلت أتذكرها حتى هذا اليوم.

- هل يمكن أن يعاني شيطان آلام روماتيزم؟

- لِمَ لا يمكن ذلك، ما دمت أتجسد أحياناً؟ إني أقبل جميع نتائج تجسداتي، «أنا شيطان و [231] sum et nihil humanum a me me alienum puto «لا شيء مما هو إنساني غريبٌ عني».

- كيف؟ ما هذا الذي تقول؟ أنا شيطان sum et nihil humanum... ليس هذا الكلام غباءً كبيراً حين يقوله الشيطان!

- يسعدني أن أحظى أخيراً برضاك عني. قال إيفان فجأة وقد توقف عن المشي، كأنما دُهش وذُهل:

- ولكنك لم تستعر هذه العبارة مني أنا! إن هذه الجملة الذكية لم

تخطر ببالي في يوم من الأيام! هذا عجيب مع ذلك...

- [232] C'est du nouveau n'est ce pas؟ على أنني سأكون أميناً شريفاً في هذه المرة، فأشرح لك هذا اللغز... أسمع، كثيراً ما يحدث في الأحلام، ولا سيما في الكوابيس - كتلك الكوابيس التي تنشأ عن اضطراب في المعدة مثلاً، أو عن أي سبب آخر - أن تخطر أمام البصر مشاهد فنية جداً، أن تخطر أمام البصر قطع حقيقية من الحياة صادقة صدقاً عميقاً مركَّباً معقداً، أحداث وحتى سلسلةٌ من أحداث تربط بينها وتشد بعضها إلى بعض فكرة موجّهة، وتملؤها تفاصيل غير متوقعة، تتراوح بين أعلى تجليات الوجود الإنساني كما تقولون، وبين أحقر السفاسف التافهة، كزرّ كُمّ مثلاً. إن القصص التي يعيشها المرء على هذا النحو في الحلم يمكن أن تكون لها قيمة فنية تبلغ من العظمة أن ليف تولستوي نفسه لا

يستطيع أن يتخيلها. ومع ذلك فليس الكتاب على وجه العموم هم الذين يرون أحلاماً من هذا النوع، وإنما يرى هذه الأحلام أناس من طراز عادي جداً، أناس ليسوا أكثر من موظفين أو صحفيين أو قسس... والحق أن هذه الظاهرة تثير مشكلة وتلقي سؤالاً: لقد صرَّح لي وزير في ذات يوم أن أخصب الأفكار إنما توافيه عادة وهو نائم. ذلك بعينه هو ما يحدث لك في هذه الساعة. مهما أكن مجرد هلوسة صادرة عن دماغك، فهذا لا ينفي أنني أقول أشياء فيها جدة وطرافة وأصالة، لم تخطر ببالك حتى الآن. فأنا لا أردد إذاً أفكارك أنت، ومع ذلك لست إلا كابوسك لا أكثر.

- كذبت! إن هدفك هو أن تقنعني بأن لك وجوداً واقعياً وبأنك لست مجرد رؤيا تتراءى لفكري. ثم ها أنت ذا تعلن أنت نفسك أنك لست إلا حلماً.

- اعلم يا صديقي أنني قد اصطنعت اليوم أسلوباً جديداً وتبنيت طريقة جديدة. سأشرح لك هذا في المستقبل إذا واتت فرصة. لحظة... إلى أين وصلت من حديثي؟ ها... نعم... قلت لك إنني أصبت ببرد. ومع ذلك لم يحدث هذا على الأرض، وإنما حدث هناك أيضاً...

- هناك ؟ أين؟ قل لي: هل تنوي أن تمكث عندي زمناً طويلاً أيضاً؟ هلّا تركتني أخيراً؟

كذلك هتف يقول إيفان وقد كاد يبلغ ذروة الكرب واليأس.

وكفَّ عن المشي وجلس على الديوان متكئاً بكوعيه على المائدة، ضاغطاً رأسه ضغطاً قوياً. ثم نزع الخرقة المبللة عن جبينه ورماها بحركة أسف وحسرة: لم تنفعه هذه الوسيلة في شيء.

قال السيد المهذب بلهجة منطلقة ولكن فيها كثير من المودة:

- أعصابك مهدودة. تثور عليَّ لأنني أصبت ببرد، مع أن هذا قد حدث لي على نحو طبيعي جداً. كنت قد استعجلت إلى حفلة استقبال دبلوماسية أقامتها سيدة عظيمة من سان سان بطرسبرج. تستقبل شخصيات كثيرة ذات نفوذ، ترى نفسها، إنها لا تقلّ شأناً وعلوّ منزلة عن وزير. كنت مرتدياً إذاً ثياباً رسمية مع كرافتة بيضاء وقفازين. ولكنني كنت في مكان بعيد جداً، فكان عليَّ حتى أصل اليكم على الأرض أن أقطع فضاءات واسعة الكواكب... المسألة مسألة ثوانٍ طبعاً... ومع ذلك تعلمون اليوم أن أشعة الشمس تستغرق ثماني دقائق حتى تصل إلى الأرض. كنتُ إذاً – لا تنس هذا - أرتدي ثياباً رسمية مع صدرية مفتوحة جداً. إن الأرواح لا تتجلد من البرد، هذا معروف. غير أن تجسد الروح يعرضها أحياناً لبعض العواقب السيئة. الخلاصة أنني ارتكبت في ذلك المساء شيئاً من الطيش والخفة حين مضيت في طريقي إلى الأرض مرتدياً تلك الثياب. وليتك تعلم ما أشد البرد في تلك الفضاءات، في الأثير، هذا السائل... إنه برد فظيع، برد لا يكفي أن نقارنه بالصقيع هنا. الصقيع؟ هه... تصوّر أن درجة البرودة كانت مائة وخمسين تحت الصفر! إن بنات قراكم تخيلن مزحةً شائعة جداً. فحين يشير الترمومتر إلى الثلاثين تحت الصفر، يطلبن من فتى ساذج غير ذي خبرة أن يلحس بلسانه حديد فأس، فاذا بلسانه يلتصق فوراً، واذا بالغبي يسلخ جلد لسانه لينتزعه من الحديد. هذا إذا كانت درجة البرودة ثلاثين فحسب. أما إذا بلغت مائة وخمسين، فأحسب أنه يكفي أن تقترب الإصبع من الفأس حتى تزول... شريطة أن يكون في الفضاء فأس طبعاً...

سأله إيفان ذاهلاً بلهجة متقززة:

- هل يمكن أن يكون في الفضاء فأس؟

كان إيفان يشد جميع قواه في سبيل أن لا يصدق أنه يهذي وذلك حتى لا يتردّى إلى الجنون نهائياً.

سأله الزائر مدهوشاً:

فأس؟

فهتف إيفان يقول فجأة بعناد غاضب:

- نعم، نعم، ما عسى يحدث للفأس هناك؟

- ما عسى يحدث للفأس في الفضاء؟ يا لها من فكرة عجيبة! لو رُميت الفأس إلى مسافة بعيدة جداً عن الأرض، فأظن أنها ستأخذ تدور حول كوكبكم هذا من دون أن تعرف تماماً ما هو الهدف وأين المستقر، كما يحدث لتابع من التوابع، كما يحدث لقمر من الأقمار؛ وسيحسب علماء الفلك ساعة طلوعها وساعة مغيبها حساباً

دقيقاً، وسيدوّن جاتسوك ذلك في التقاويم [233] ، وهذا كل شيء.

قال إيفان مغتاظاً:

- أنت غبي، غبي غباءً فظيعاً. حاول أن تكذب كذباً ذكياً على الأقل، وإلا كففت عن الاستماع لك. إنك تحاول أن تقنعني عن طريق الواقعية في كلامك، وأن تجعلني بذلك أسلّم بوجودك. ألا فاعلم أنني لا أريد أن أسلّم بهذا، إنني أرفض أن أصدّقه! لن أصدّقه!

- أنا مع ذلك لا أكذب. إن كل ما أقوله حق. من سوء الحظ أن الحقيقة لا تكاد تكون مفرحة في يوم من الأيام. أنت مثلاً تتوقع مني، فيما ألاحظ، أفكاراً خارقة، وربما رائعة. يؤسفني هذا كثيراً، لأنني لا أستطيع أن أعطي إلا ما أملك...

- دعك من التفلسف أيها الحمار!

- أفتظن إذاً أنني أشتهي أن أتفلسف والجنب الأيمن كله من جسمي يكاد يكون مشلولاً؟ ألا إني لأتمنى، بدلاً من ذلك، أن أئن وأتوجع! لقد استشرتُ عدداً كبيراً من الأطباء: إنهم يملكون قدرة هائلة على تشخيص المرض، ويشرحونه بأدق التفاصيل... أما أن يشفوه فذلك أمر يعجزون عنه. حتى لقد أتيحت لي فرصة التحدث مع طالب متحمس من طلاب الطب، فقال لي فرحاً: «هبك مت من هذا المرض... لسوف يتيح لك ذلك في أقل تقدير أن تعرف على وجه اليقين حقيقة الداء الذي أماتك». وانظر بعد ذلك إلى طريقتهم تلك في إرسالك إلى أخصائيين حين يقولون لك: «مهمتنا نحن تقتصر على تشخيص المرض. بقي عليك الآن أن تذهب إلى الأخصائي فلان أو فلان، فهو الذي سيشفيك». واحسرتاه! إن الطبيب الجيد القديم الذي عرفناه في الزمان الماضي وكان يداوي من جميع العلل والأسقام قد اختفى تماما، تماما، أؤكد لك!.. لم يبق اليوم إلا الأخصائيون، والصحف ملأى بالإعلانات عنهم. إذا شعرت بآلام في الأنف، أرسلوك إلى باريس، فهناك كما يقولون أخصائي له شهرة في أوروبا كلها، في علاج الأنوف. وتذهب إلى باريس فيفحص الأخصائي أنفك، فيقول لك: «أنا لا أستطيع أن أشفي إلا منخرك الأيمن، لأنني لا أهتم أبدا بالمنخر الأيسر، فهو لا يدخل في دائرة اختصاصي. فعليك بعد اتباع معالجتي أن تذهب إلى فيينا حيث يوجد أخصائي حاذق جداً سيفعل لك ما يجب فعله لمعالجة منخرك الأيسر. ما العمل في هذه الحالة؟ لجأت عندئذ إلى استعمال الأدوية التي تنصح بها النساء العجائز. وصف لي طبيب أن أدلك جسمي بعد الحمام بمزيج من عسل وملح. ذهبت إلى الحمّامات العامة لا لشيء إلا لأستمتع بوجودي مرةً في حجرة البخار، وهنالك وسَّخت جسمي بذلك المزيج اللزج الذي لم يُجْدني نفعاً. فلما يئست كتبت إلى الكونت ماتيئي في ميلانو: فأرسل إليَّ نشرة وقطرة. غفر الله له ! تخيَّلْ أن مستحلب الشعير الذي ينتجه هوف هو الذي شفاني تقريباً. كنت قد اشتريته عرضاً، فما شربت زجاجة ونصف زجاجة حتى شعرت بأنني شفيت، حتى لقد اشتهيت أن أرقص. زالت أوجاعي كلها. فحلفت لأنشرن في الصحف رسالة شكر أطري فيها مزايا هذا الإنتاج. كان يدفعني إلى ذلك شعور صادق بالامتنان، ولكن لهذا قصة جميلة جداً ! تخيل أنني لم أجد جريدة واحدة ترضى نشر نثري... قالوا لي: «إن تصريحك هذا يتصف بشيء من الرجعية. ثم إن أحداً لن يصدقك. فالشيطان لا وجود له». ونصحت بأن أنشر شكري في رسالة لا تحمل اسم صاحبها. ولكن ما قيمة شكر لا يحمل اسم صاحبه؟ مازحت موظفي مكاتب تلك الجرائد. فقلت لهم: «إن الإيمان بالله هو الذي يمكن أن يعد شيئاً رجعياً في زماننا هذا. أما أنا الشيطان، فإنه مباح تماما أن أُصدَّق».

فأجابوني بقولهم: «إننا نفهمك حق الفهم. فمن ذا الذي لا يؤمن بالشيطان؟ ومع ذلك يستحيل نشر رسالتك، لأن هذا يخالف الاتجاه العام الذي تلتزمه جريدتنا. اللّهم إلا إن أسبغت على رسالتك طابع الهزل!». قلت لنفسي: «لا بد أن يخلو الأمر من روح الفكاهة إذا هو جُعل هزلاً». وهكذا لم يكتب لشكري أن يظهر في الصحف. هل تصدق؟ وقد بقيت هذه الحكاية تثقل على قلبي. إن أنبل عواطفي، كعاطفة الشكران مثلا، قد حكم عليها أن تظل مكتومة لا أفصح عنها، دونما سبب غير وضعي الاجتماعي.

قاطعه إيفان مغتاظاً يقول:

- ها أنت ذا تسترسل في التفلسف من جديد!

- وقانا الله شر التفلسف. أنا لا أتفلسف البتة، وإنما ينبغي أن يجوز للمرء أن يشتكي من حين إلى حين. أنا كائن تُقال في حقي نمائم خطيرة. لقد اتهمتني أنت نفسك بأنني غبي. هذا موقف يقفه شاب. اعلم يا صديقي أن الذكاء ليس أهمَّ شيء. لقد وُلدتُ طيب السريرة مرح الطبع. «وقد كتبت أيضاً مسرحيات هزلية» [234] . يبدو أنك تعدّني خلستاكوفاً منحطاً، دبّ فيه الهَرَم. مع أن لمصيري شأناً أخطر من ذلك كثيراً. إنني بسبب قَدَرٍ أجهل أسبابه وهدفه، لأنه كُتب عليَّ قبل خلق هذا العالم، أن أظل «أنكر» بغير انقطاع، مع أنني في حقيقة الأمر صادق النية طيب القلب عاجز عن الإنكار المنظَّم. «لا مفر. يجب عليك أن تنكر. فبدون إنكار لا يكون نقد، وكيف يمكن تخيل جريدة أو مجلة خالية من «باب النقد». إن الكون لن يكون بغير النقد إلا «تسبيحاً» متصلاً مستمراً. ولكن الحياة لا يمكن أن تقوم على «تسبيح الله» فقط.

«لابد لاندفاع البشر إلى شكر الله وحمده من أن يمر بحفرة الشكوك، وهلم جرا...» [235] . على أنني لا أخوض في هذا، فلست أنا من خلقه، ولست مسؤولاً عنه. كل ما هنالك أنني جُعلت كبش فداء، وأُمرت أن أقوم بوظيفة ناقدٍ أبدي. على هذا النحو إنما نشات الحياة الأرضية. إننا نحن أيضا ندرك هذه المهزلة. وإني من جهتي أطالب بأن أستطيع الارتداد إلى العدم. فأُجاب: «بل يجب عليك أن تحيا، فمن دونك لن يجري أمر. إذ لو كان كل ما على الأرض معقولاً، لما حدث في الأرض شيء البتة. من دونك لن يكون ثمة أحداث، وهل عن الأحداث غنى؟». أنا إذاً أقوم بوظيفتي متحاملاً على نفسي، من أجل أن يكون ثمة أحداث، وأشيع الضلال في هذا العالم بأمرٍ أعلى. والبشر المساكين يأخذون هذه المهزلة مأخذ الجد، رغم ما وُهب لهم من ذكاء عظيم، وذلك هو ما يجعل مصيرهم فاجعاً، وحياتهم أليمة. إنهم يتعذبون عذاباً لا نهاية له... هذا صحيح... ولكنهم في مقابل ذلك يحيون... يحيون حياة واقعية، لا وهمية، لأن العذاب هو الحياة. ما عسى تصير إليه الفرحة بالحياة في هذا العالم إذا لم يوجد الألم؟ لن يكون هنالك عندئذ إلا نشيد متصل ولطف لا ينتهي. وذلك شيء نبيل جداً، مقدس جداً، ولكنه باعث على أشدّ الملل وأعمق السأم. وأنا؟ أنا أيضاً أتألم، ومع ذلك لا أحيا. أنا حرف «س» في معادلة غير ذات حدود. أنا شبح، أنا طيف أضاع جميع البدايات والنهايات، أضاع فكرة الزمان وانتهى حتى إلى نسيان اسمه الحقيقي. أتضحك؟ لا.. أنت لا تضحك... وإنما تغضب من جديد. إنك تغضب دائماً. إنك لا تريد أن تسمع إلا أشياء فيها ذكاء. ولكنني أعود فأقول لك: إنني مستعد لأن أتنازل، راضياً، عن حياتي السماوية فوق الكواكب، وعن جميع امتيازات العالية وألقابي الرفيعة، في سبيل أن أستطيع التجسد في نفس زوجة تاجر تزن مائة كيلو وتقدم شموعاً للرب بسذاجة وبراءة. سأله إيفان وهو يبتسم ابتسامة كره:

- هل معنى هذا أنك أصبحت لا تؤمن بالله أنت أيضاً؟

- بم أجيبك؟ إذا كنت تلقي عليَّ هذا السؤال جاداً... صاح إيفان يسأله بعناد حانق:

- هل الله موجود أم هو غير موجود؟

- ها... أنت جاد إذن؟ يا عزيزي إنني أنا نفسي لا أعرف عن هذا الأمر شيئاً. وتلك قولة كبيرة أفلتت مني...

- كيف لا تعرف مع أنك ترى الله بعينيك؟ لا، لا، ليس لك وجود واقعي، أنت أنا... ما أنت إلا أنا ولا شيء أكثر... أنت حقارة، أنت ثمرة خيالي أنا !...

- بل قل إن فلسفتي هي فلسفتك. ذلك أصوب. «Je pense donc je suis» [236] تلك هي القضية الوحيدة اليقينية. أما كل ما عداي، أما كل ما حولي، أما جميع تلك العوالم البعيدة، أما الله، وحتى الشيطان، أما كل ذلك فلست أملك برهانا على وجوده، ولا يستطيع أحد أن يؤكد على وجه الثقة واليقين أهذه وقائع موجودة بذاتها، أم هي صادرة عن أفكاري، عن تطور تدريجي للأنا، لهذه الأنا التي لا يكون عندئذ وجود لسواها، والتي تكون قد وُجدت منذ الأبد... جملة القول... ولكني أمسك عن الكلام، أمسك عن الكلام، لأنني أرى أنك تُهم أن ترتمي عليَّ لتشبعني ضرباً.

قال إيفان بلهجة فيها ألم:

- خير من هذا الكلام لله أن تروي نادرة فكهة أو نكتة مسلية!

- أعرف نادرة تتصل بموضوع حديثنا. والحق أنها ليست نادرة بالمعنى الأصلي، بل هي إلى الأسطورة أقرب. إنك تأخذ عليَّ امتناعي على التصديق، ويدهشك أن تراني لا أؤمن بما أبصره. فتقول: «تراه بعينيك ولا تؤمن». فاعلم إذاً أن هذه الحالة ليست حالتي وحدي، وأننا جميعاً، نحن معشر الذين نعيش في المناطق السماوية، تهزنا روح الاضطراب والقلق، وذلك بسبب اكتشافاتكم العلمية اللعينة، حينما كان الأمر مقتصرة على تعليل العالم بالجواهر والذات، والحواس الخمس، والعناصر الأربعة، فقد ظل مقبولاً بعض الشيء، ثم إن الأقدمين كانوا يعرفون الذرات. ولكن حين ذاعت بيننا الشائعة التي تقول إنكم قد اكتشفتم الجزيئات الكيماوية، والبروتوبلازما، وما لا أدري أيضاً، طوينا ذيولنا بين سيقاننا، وحدث في صفوفنا اضطراب شديد، وانتشرت في بيئتنا الخرافات والأوهام، وازدهرت الأقاويل والنمائم. لاحظ أن عندنا نمائم بقدر ما عندكم وأكثر. وأخيراً توالت الوشايات. يجب أن تعلم، في هذه المناسبة، أن عندنا نحن أيضا «شعبة خاصة»، إن عندنا نحن أيضا «مخابرات» تجمع بعض «المعلومات»... والأسطورة التي سأرويها لك يرجع عهدها إلى قروننا الوسطى - أقول قروننا الوسطى نحن، لا قرونكم الوسطى أنتم - وهي أسطورة أصبح لا يصدقها أحد منا الآن، باستثناء زوجات التجار السمينات اللواتي يزنَّ مائة كيلو غراماً، لا زوجات التجار السمينات اللواتي عندكم أنتم، بل اللواتي عندنا نحن. إن كل ما يوجد في الأرض يوجد أيضاً في عالمنا. ذلك سر أكشف لك عنه اليوم من باب الصداقة الخالصة، رغم أن هذا محظور علينا. والأسطورة التي سأرويها لك تتعلق بالجنة: يُقال إنه كان يعيش على أرضكم في ذات زمان فيلسوف «ينكر كل شيء، ينكر القوانين والشعور والإيمان» [237] ويرفض خاصةً أن يسلّم بوجود الحياة الآخرة. وقد مات هذا الفيلسوف وهو على يقين من أنه يغيب في غياهب العدم، فإذا هو يرى نفسه فجأة أمام أبواب الحياة الآخرة. كانت دهشته من ذلك عظيمة، وأعظم منها كان استياؤه. صاح يقول:

«لست أريد الحياة الآخرة هذه، لأنها تخالف عقيدتي». فحوكم وحكم عليه بسبب هذه المقولة الطائشة... معذرةً إذا أنا قصصت عليك الأمور على نحو ما قُصَّت عليَّ... وما هذه إلا أسطورة على كل حال... ما هذه إلا أسطورة على كل حال... حكم على الرجل بأن يقطع في الظلمات، سيراً على الأقدام، مسافة كوادريليون كيلومتر «إن كل شيء يعدُّ الآن بالكيلومترات»، وبعد ذلك تُفتح له أبواب الجنة، ويُغفر له كل شيء...

قاطعه إيفان سائلاً بانتعاش قوي وحرارة شديدة:

- ما هي أنواع العذاب التي يمكن أن يتحملها الإنسان في الحياة الآخرة، عدا هذا الكوادريليون من الكيلومترات؟

- ما هي أنواع العذاب؟ آه... لا تسأل: في الماضي كان الأمر معقولاً كنا نعرف أنواعاً مختلفة من العذاب. أما الآن فقد انتشرت أكثر العذابات الروحية، «عذاب الضمير»، وخزعبلات من هذا النوع. لقد استوردنا هذا من عندكم، وهو ثمرة من ثمرات ما وصلت إليه عاداتكم وأخلاقكم من «لطف ورقَّة». فمن ذا الذي جنى من هذا النظام فائدة، في رأيك؟ إن الأشرار وحدهم انتفعوا بهذا النظام وأفادوا منه. أنَّى لهؤلاء أن يعرفوا «عذاب الضمير» وليس لهم ضمير؟ وفي مقابل ذلك كان على النفوس الصادقة التي احتفظت بشيء من الاستقامة والشرف والأمانة أن تتألم عوضاً عن الآخرين وأن تفتديهم ! ذلك ما يحدث حين يراد إدخال إصلاحات في تربة لم تتهيأ لقبولها، وحين تُقلَّد أنظمة أجنبية تقليداً أعمى. أمر يستحق الرثاء! ألا إن نار جهنم القديمة كانت خيراً من هذا. ولنعد إلى فيلسوفكم الذي حُكم عليه بأن يقطع مسافة كوادريليون كيلومتر: إنه لم يزد على أن رفع كتفيه غير مبالٍ، ثم رقد على الطريق بالعرض قائلا: «أرفض أن أمشي، حفاظاً على العقيدة وتمسكاً بالمبدأ !». خذ نفس ملحدٍ روسي مثقف، وامزجها بنفس النبي يونس الذي لبث في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال يلعن حظه، تخرج من ذلك الحالةُ النفسية لصاحبنا المفكر هذا الذي رقد على الطريق بالعرض مصرّاً معانداً.

- على أي شيء رقد؟

- لا بد أنه كان هنالك شيء رقد عليه. ألأصبحت لا تضحك الآن؟

هتف إيفان يقول وهو على تلك الحالة نفسها من الانتعاش والحرارة «وكان يصغي الآن بنهم غير متوقع»:

- مرحى لذلك الفكر! مرحى! ألا يزال راقداً على الطريق بالعرض حتى الآن؟

- لا. لبث على ذلك الوضع قرابة ألف سنة، ثم عاد ينهض وأخذ يمشي.

صاح إيفان بضحكة عصبية:

- يا له من حمار! ثم بدا على إيفان أنه يفكر تفكيراً عميقاً، ثم استأنف كلامه فقال:

- ولكن أليس يستوي، على كل حال، أن يبقى راقداً إلى الأبد وأن يقطع مسافة كوادريليون كيلومتر؟ أظن أنه سيحتاج من أجل ذلك إلى بليون سنة، أليس كذلك؟

- أكثر أكثر! لو كان معي قلم وورقة أجريت لك هذا الحساب بسرعة. على كل حال، لا قيمة لهذا، ما دام قد انتهى من قطع هذه المسافة منذ زمن طويل. وعند ذلك إنما تبدأ الحكاية.

- انتهى من قطع المسافة؟ كيف هذا؟ من أين جاء ببليون سنة؟

- أنت تندهش لأنك تقيس الزمان بمقاييس زمان أرضكم.

والواقع أن هذه الأرض لعلها قد عرفت الوجود بلايين المرات قبل وجودها الحالي. وهي في كل مرة قد شاخت وتغطت بالثلج وتشققت في كل اتجاه ثم تحللت وارتدّت إلى عناصرها الأولى، فساد ملكوت المياه من جديد، ثم ظهر مذنّب جديد فشمس جديدة ولّدت بدورها أرضاً. وتكرر هذا التطور عدداً لا نهاية له من المرات بهذه المراحل نفسها وهذه التفاصيل ذاتها. ذلك ضجر قاتل بغير حياء...

- طيب، فماذا حدث حين انتهى من قطع تلك المسافة؟

- لم يحدث أي شيء خارق. فُتحت له أبواب الجنة فدخلها، فما إن انقضت على دخوله ثانيتان - ثانيتان عدّهما والساعة في يده، نعم والساعة في يده، ألحّ على هذا «رغم أن ساعته لا بد أن تكون في رأيي قد فسدت في جيبه أثناء رحلته» - أقول ما إن انقضت على ذلك ثانيتان حتى هتف قائلاً إن هاتين الثانيتين لا تعدل قيمتهما مسافة الكوادريليون كيلومتر فحسب، بل تعدل كوادريليون الكوادريليونات مرفوعة إلى أسّ الكوادريليون أيضاً. الخلاصة أنه قد أخذ يرتل تسبيحته، وبلغ من الغلوّ في التسبيح والحمد أن بعضهم ممن كانت لهم أفكار أكثر تطوراً وأرفع نبلاً، قد رفضوا في الآونة الأولى أن يصافحوه، لاعتقادهم بأنه قد بالغ في الانحدار إلى حضيض النزعة المحافظة. تلك هي طبيعة الروس. ولكنني أعود فأكرر لك إن الأمر أمر أسطورة أرويها لك على علّاتها. تلك هي المفاهيم السائدة عندنا اليوم في هذه الشؤون.

هتف إيفان يقول بفرح يشبه أن يكون فرح طفل، كأنه قد تذكر في هذه اللحظة شيئاً ما على حين فجأة:

- ضبطتك! إن هذه الحكاية التي ترويها عن الكوادريليون من السنين إنما اخترعتها أنا نفسي. كنت حينئذ في السابعة عشرة من عمري، وكنت في المدرسة الثانوية... تخيلت هذه الحكاية وقصصتها في تلك الآونة على رفيق من رفاقي اسمه كوروفكين. كان ذلك في موسكو.. إن هذه النكتة تبلغ من تميز أفكاري بها أنني ما كان لي أن استمدها من غير أفكاري هذه... ولكنني نسيتها بعد ذلك الزمان... وقد عاودت ذاكرتي الآن على غير شعور مني. فأنا الذي تذكرتها إذن، ولم تقصصها عليّ أنت! إنه ليحدث هكذا أن تنبجس من النسيان طائفة من الأشياء بغتة عند الإنسان حين يقاد إلى التعذيب أو حين لا يزيد على أن يحلم وهو راقد في

سريره. فما أنت إذاً إلا حلم، ما أنت إلا صورة لفكري وليس لك وجود واقعي.

قال السيد المهذب وهو يضحك مشرق المزاج:

- إنني ألاحظ من جموحك العاطفي في إنكار وجودي أنك تؤمن بي مع ذلك.

- أنا؟ أؤمن بك؟ أبداً... أنا لا أؤمن بك البتة، أنا لا أؤمن بك حتى ولا جزءاً من مائة جزء من الإيمان!

- ولكن ربما آمنت بي جزءاً من ألف جزء! إن المقادير الصغيرة في الأدوية التي تعالج الداء بالداء نفسه قد تكون هي الأقوى أثراً. هلّا اعترفت، هلّا اعترفت بأنك تؤمن بي، ولو جزءاً من عشرة آلاف جزء مثلاً!...

هتف إيفان يقول:

- ولا للحظة من اللحظات. ثم أضاف بعد ذلك بصوت ترقق ترققاً غريباً:

- لكنني أود لو أؤمن بك!

- عظيم، هذا اعتراف له قيمة كبيرة! أعلم أنني طيب القلب وأنني أريد أن أهبّ إلى نجدتك. اسمع: أنا الذي ضبطتك، لا أنت الذي ضبطتني. لقد تعمدت أنا أن أروي لك حكايتك التي كنت قد نسيتها، وإنما فعلت ذلك بغية أن أقودك إلى أن تشك فيّ شكاً نهائياً.

- كاذب! أنت إنما ظهرت لي لتقنعني بوجودك.

- صحيح. ولكن اعلم أن الشكوك والقلق الذي تحدثه هذه الشكوك، اعلم أن الصراع بين الإيمان وعدم التصديق يمكن أو يورثا الإنسان الذي يملك شعوراً مرهفاً عذابات تبلغ من الهول أن الانتحار شنقاً خير منها. ولما كنت أعلم أنك تؤمن بي قليلاً، فقد زرعت الشك في نفسك برواية تلك الحكاية لك. فبذلك أقودك من الإيمان إلى الشك ومن الشك إلى الإيمان مرة بعد مرة على التناوب. وحين أفعل ذلك فإنما أهدف إلى غاية، وإلى أن أطبّق هنا منهجاً جديداً: فمتى شككت في وجودي شكاً نهائياً أردت أن تبرهن لي على أنني لست إلا حلماً وعلى أنني غير موجود في الواقع. ذلك أنني أعرفك. فبهذه الوسيلة أكون قد حققت هدفي، وهو في الحقيقة هدف نبيل جداً. فأنا إنما أرمي في الواقع إلى أن تضع في نفسك بذرة إيمان متواضعة فإذا بشجرة قوية من أشجار السنديان تخرج من هذه البذرة في المستقبل، شجرة تبلغ من القوة أنك ستريد أن تعيش في حماها حياة ناسك وقديس. والحقيقة أن هذه هي رغبتك الخفية المستترة المكتومة منذ زمن طويل. ولسوف تحقق هذه الرغبة يوماً، فتتغذى بالجراد ساعياً إلى الخلاص في الصحراء.

- أفي سبيل خلاص روحي إنما حمّلت نفسك إذاً هذا العناء كله

أيها الوغد؟

- لا بد لي، أنا أيضاً، من أن أقوم بعمل خير من حين إلى حين. ولكنني أرى أنك تغضب، تغضب غضباً يا له من غضب!...

- مهرّج! هل أغريتهم وأغويتهم أيضاً أولئك الذين يقتاتون بالجراد ويقضون في الصحراء سبعة عشر عاماً وهم يصلون وتغطيهم الطحالب؟.

- ذلك هو عملي الرئيسي يا صديقي العزيز، ما أسهل أن ينسى أحدنا الكون وعوالمه التي لا تعد ولا تحصى من أجل أن يتعلق بواحد من أولئك الرجال، لأنهم في نظرنا بمثابة جواهر ثمينة جداً. إن نفساً واحدة من هذا النوع تعدل في بعض الأحيان كوكباً مع جميع توابعه. لدينا في هذا الشأن جدول أسعار. إن نصراً نحققه على واحد من هؤلاء الرجال لهو في نظرنا ذو قيمة عظيمة. أؤكد لك أن بينهم أناساً لا يقلون عنك ثقافة وذكاء، رغم أنك لا تريد أن تسلّم بهذا، أنا أعرف ذلك... وهم قادرون على أن يسبروا، في لحظة واحدة بعينها، أعماقاً من الشك والإيمان، حتى ليحسب المرء في مثل تلك الهنيهات أنهم يوشكون أن يسقطوا «وأرجلهم في الفضاء، على حد تعبير الممثل جوربونوف»[238].

- طيب؟ وفي كل مرة تعود إلى نقطة البداية شاعراً بالخزي. من أنك طويل الأنف كما أتخيّل[239]، أليس كذلك؟

أجاب الزائر بلهجة الواعظ:

- يا صديقي لأن ينصرف المرء بأنف طويل خير في بعض الأحيان من أن ينصرف بغير أنف البتة، كما قال ذلك في الآونة الأخيرة مركيز مريض أثناء اعترافه لكاهن يسوعي. أنا حضرت المشهد، كان رائعاً للغاية «أغلب الظن أن المركيز كان قد عهد بأنفه إلى عناية أخصائي». هتف المركيز يقول وهو يلطم صدره: «رُدَّ إليّ أنفي»، فقال له الكاهن الطيب هامساً: «يا بني، إن أوامر الله لا يُسبر غورها ولا تدرك حكمتها أحياناً. فرب بلاء ظاهر هو ينبوع سعادة عظيمة وإن لم تكن هذه السعادة غير بادية للنظر أحياناً. لئن شاء حظ قاس أن يحرمك من أنفك، إن في ذلك لميزة واحدة على الأقل، هي أن أحداً لن يجرؤ بعد الآن أن يجرك من طرّف أنفك»، فاستأنف المريض اليائس كلامه قائلاً: «ذلك عزاء هزيل! لسوف يسرني ويسعدني ويفرحني أن أجرُ كل يوم من طرف أنفي، شريطة أن يكون أنفي في مكانه»، فأجابه الكاهن متنهداً: «يا بني، لا يمكن أن يملك المرء جميع النعم والخيرات في آن واحد؛ وإن الأمنية التي أفصحت عنها الآن لهي في حد ذاتها معصية الله الذي ما نسيك في هذه الحالة، لأنك حين تؤكد أنه سيسعدك أن تُجرّ كل يوم من طرف أنفك، كما أعلنت هذا بنفسك منذ هنيهة، فإنما أنت تحقق أمنيتك على نحو غير مباشر: إنك إذ فقدت أنفك قد احتفظت به مع ذلك، بالمعنى المجازي....»

صاح إيفان قائلاً:

- ما أغبى هذا الكلام!

- يا صديقي، إنما غايتي الوحيدة حين رويت لك هذه النادرة هي أن أسلّيك وأضحكك. ولكنني أحلف لك أن هذا مثال على الجدل اللاهوتي الذي يمارسه اليسوعيون. إن هذا الأمر قد حدث كما رويته لك تماماً، كلمة كلمة. وهو حالة وقعت في الآونة الأخيرة وأحدثت لي متاعب جمة وأورثتني هموماً كثيرة. إن ذلك الشاب المسكين الذي حدثتك عنه قد انتحر في تلك الليلة نفسها حين عودته إلى البيت بعد الاعتراف. وقد لبثت بقربه إلى آخر لحظة... أما كراسي الاعتراف لدى اليسوعيين فإنني أعترف إنها تسلية من تسلياتي المفضلة، حين يوافيني ضجر ويلم بي سأم وحزن. وسأقص عليك الآن حالة أخرى يرجع عهدها إلى بضعة أيام خلت. استقبل كاهن يسوعي عجوز على كرسي الاعتراف فتاة شقراء، نورماندية، صبية في العشرين من عمرها، جميلة يفتن جمالها العقل ويخلب اللبّ... أما جسمها فإن اللعاب يسيل حين تراه. جثت على ركبتيها، ودمدمت تعترف بخطيئتها من خلال القضبان. هتف الكاهن الصارم يقول: «هل يمكن حقاً، يا ابنتي، أن تكوني قد سقطت من جديد؟ أوه! يا مريم العذراء! ماذا أسمع؟ مع رجل آخر؟ إلى أين تمضين يا بنيتي؟ ألا تستحين؟»، فأجابته الخاطئة تقول وقد غرق وجهها في الدموع ندماً وحسرة: آه يا أبتاه ! إن ذلك يُحدِثُ له هو لذّة عظيمة، ولا يُحْدِثُ لي أنا إلا ألماً قليلاً»! جواب عظيم، هه؟ ما رأيك؟ لقد دهشت أنا نفسي من هذا الجواب. كانت تلك صيحة الطبيعة... بدا لي ذلك أطهر من البراءة نفسها. غفرت لها خطيئتها فوراً، وبينما كنت أهم أن أنصرف، رأيتني اضطر إلى أن أعود أدراجي: فقد سمعت الكاهن يتواعد مع الفتاة من خلال القضبان على أن يلتقيا في المساء. وكان الكاهن مع ذلك شيخاً صارماً شديد العبوس. لقد سقط في لحظة. لقد ظهر أن الطبيعة هي الأقوى. ما لك تكشر؟ أغضبت من جديد؟ حقاً لقد أصبحت لا أدري ما الذي يجب علي أن اخترعه حتى أفرحك...

صاح إيفان يقول بصوت موجع فيه أنين، لأنه كان يحسّ أنه عاجز عن التخلص من هلوسته:

- دعني! إنك تحدث في دماغي جلبة كابوس. إن حضورك يضجرني ضجراً قاتلاً. لقد أصبحت لا أطيق احتمالك. إنني مستعد الآن أعطي كثيراً في سبيل أن

أتخلص منك!

- أكرر إن عليك أن تخفف من غلوائك، وأن تعتدل في مطالبك. كفّ عن توقع أفكار «رفيعة عظيمة» مني، فترى كيف أننا سنتفاهم حينذاك. الواقع أنك حانق عليّ لأنني لم أمثل أمامك في إطار أكثر مهابة، تحف بي هالة حمراء، وتحيطني بروق، وتصحبني رعود. كنت تود لو تراني بجناحين كبيرين محمرّين بنار جهنم، ولا تغفر لي أنني جئت إليك بثياب متواضعة هذا التواضع. إنك تشعر بأنك أوذيت، أوذيت في مشاعرك الجمالية الفنية أولاً، وفي كبريائك وعزتك ثانياً: كيف يستقبل رجل عظيم هذه العظمة - أليس كذلك؟ - كيف يستقبل مثل هذا الرجل شيطاناً مبتذلا هذا الابتذال؟ صحيح! أنا لا أنكر ذلك! إن هذه السمة الرومانسية التي طالما ندّد بها الناقد بيلنسكي هي جزء من طبيعتك. ولكن ما حيلتي أيها الشاب الطيب؟ منذ قليل، حين كنت أتهيأ للمجيء إليك، خطر ببالي أن أرتدي ثياب مستشار دولة محال على التقاعد سبق له أنه خدم في القفقاس، فهو يضع على ردائه وسام «الأسد» و«الشمس»[240]. وكانت هذه الفكرة محببة إلى النفس، ولكنني لم أجرؤ أن أنفذها، فلو قد فعلت لضربتني حتماً لأنني وضعت على صدري وسام «الأسد» و«الشمس» بدلاً من أن أضع «نجمة القطب» «ونجمة الأبرق». وأنت إلى هذا لا تكف عن تذكيري بأنني غبي. يشهد الله مع ذلك أنني لم يخطر ببالي أن أنافسك في الذكاء. حين جاء مفستوفيليس إلى فاوست قال إنه يريد الشر ثم لا يستطيع أن يفعل إلا الخير[241]. ذلك شأنه هو. أما أنا فعلى نقيض هذا. ربما كنت في الكون بأسره الوحيد الذي يحب الحقيقة مخلصاً ويصبو إلى الخير صادقاً. لقد كنت حاضراً حين صعدت «الكلمة» إلى السماء، بعد موتها على الصليب، حاملة على صدرها روح لص اليمين المصلوب[242]. وسمعت صيحات الفرح التي صدحت بها أصوات الكروبيين مسبحين بحمد الله، وسمعت الأناشيد الصاخبة يضج بها الساروفيين الذين هزّوا السماء بأصواتهم المرعدة وأرعشوا بها الخليقة كلها. فيميناً بكل ما أقدّس في هذا العالم، لقد تمنيت عندئذ أن أنضمّ إلى جوقة المنشدين مسبحاً بحمد الله أنا أيضاً كان صدري يرتفع وكانت كلمات الحمد والثناء تندفع إلى شفتي... ذلك أنني - أعلم هذا - حساس جداً، وأنني قد أوتيت عاطفة فنية مشبوبة. ولكن العقل - هذه الملكة اللعينة في طبيعتي - قد صدتني في تلك المرة أيضاً، واضطرتني إلى القصد والاعتدال، فأفلتت مني اللحظة الرائعة، أفلتت مني الفرصة الوحيدة. تساءلت عندئذ: «ما عسى يحدث بعد أن أغني نشيد تمجيد الرب؟ سوف ينطفيء حينذاك كل شيء في هذا العالم، فلا تحدث بعد ذلك أحداث». فبسبب وظائفي وحدها ومن أجل وضعي الاجتماعي وحده إنما خنقت إذاً في نفسي ذلك الاندفاع الطيب الخيّر الكريم، وبقيت وفياً لما أقوم به من أعمال الدناءة. إن شخصاً آخر قد احتكر لنفسه ما يرتبط بالخير من شرف ومجد، ولم تترك لي أنا إلا حطة الشر. ولكنني لا أحسد أولئك الذين يعيشون في السهولة واليسر، فما أنا بالطماع. ولكني أتساءل مع ذلك: لماذا كتب عليّ وحدي، من دون سائر مخلوقات الكون، أن أتلقى لعنات الأخبار من الناس، بل وأن احتمل ركلات أرجلهم في بعض الأحيان، لأن عليّ أن أذعن لهذه المساوىء حين أتجسد. أنا أعلم أن في هذا سراً، ولكنهم يأبون أن يظهروني على هذا السر. ربما كانوا يعرفون أنني يوم أعرف السر، سأسبّح أنا أيضاً بحمد الله، فسرعان ما يتبدد عندئذ ما في هذا العالم من عيوب ضرورية، وسرعان ما ينتصر الرشاد، فيكون ذلك نهاية كل شيء، حتى الجرائد والمجلات، إذ من ذا الذي يخطر بباله عندئذ أن يشترك في الجرائد والمجلات إذا هي أصبحت خاضعة السلطان العقل والرّشاد. لست أجهل طبعاً أنني سأتصالح آخر الأمر مع الخليقة، وأنني بعد أن أقطع ما يجب عليّ أن أقطعه من مسافة تبلغ كوادريليون كيلومتر، سأعرف السرّ الذي يخفونه عني. ولكن إلى أن يتحقق ذلك، سأظل في صف المعارضة، فأقوم بعملي على مضض، وأنهض باعباء مهمتي متألماً أشد الألم: أهلك ألوفاً لأنقذ واحداً. كم نفس وجب إهلاكها وكم من سمعة وجب تلطيخها، من أجل الوصول إلى رجل صالح واحد مثل أيوب، باستخدامي أنا؟ لا... ما ظل السر مكتوماً عني خافياً عليّ، فسيبقى هنالك حقيقتان في نظري: حقيقة السماء التي أجهلها الآن جهلاً تاماً، وحقيقتي أنا. ولا يدري أحد حتى الآن أي الحقيقتين أشرف... ولكنك نمت على ما أري؟

قال إيفان في أنين وغضب مكظوم:

- وكيف لا أنام؟ إن أغبى ما في طبيعتي من أمور، إن أسخف ما كان في ذهني من أفكار تجاوزتها منذ زمن طويل ونبذتها نبذ القاذورات، تأتي أنت الآن فتقدمها لي كما لو كانت شيئاً جديداً.

- حظي سيئ! كنت آمل أن أفتنك بما في كلامي من جمال أدبي. أحسب مع ذلك أنني أجدت وصف التسبيح الذي غنته الأصوات في السماء. ما رأيك في هذه اللهجة الساخرة التي تقتفي آثار هايني؟ يخيل إليّ أنها تناسبني... ألا ترى ذلك؟

- لا، أنا لم أكن في يوم من الأيام خادماً من هذا الطراز! كيف أمكن أن تلد نفسي خادماً مثلك؟

- يا صديقي، أعرف شاباً روسياً من أسرة طيبة، فتى أحلف لك إنه رائع: هو فيلسوف، وهو يهتم بالأدب ويعني بالفن. وقد ألفَ قصيدة تلوح فيها موهبته الشعرية منذ الآن، عنوانها: «المفتش الأكبر». وفيه وحده إنما كنت أفكّر.

صاح إيفان يقول وقد احمر وجهه خجلاً:

- أمنعك من الكلام عن «المفتش الأكبر»!.

- و«التحول الجيولوجي»؟ ألا تتذكره؟ تلك. قصيدة!

- اسكت وإلا قتلتك !

- تقتلني أنا؟ دعني أكمل أولاً ما كنت أريد أن أقوله لك. فمن أجل أن أحصل على هذه المتعة إنما جئت. إنني أعبد أحلام أصدقائي الشباب الذين يفيضون حرارة وحماسة ونبضاً وحياة. كنت تقول لنفسك في الربيع الماضي وأنت تستعد للمجيء إلى هذه المدينة: «سأجد هنالك أناساً جدد». إنهم ينوون أن يحطموا كل شيء وأن يعودوا فيبدأوا من البداية، أي من أكل لحوم البشر ! يا لهم من حمقى! لماذا لم يستشيروني؟ لا حاجة إلى التحطيم في رأيي، وإنما يكفي أن نطرد من أذهان البشر فكرة الإله. بهذا إنما ينبغي لنا أن نبدأ مهمتنا. ذلك هو المنطق الحقيقي الذي يجب أن ننطلق منه في عملنا، وهؤلاء العميان لم يدركوا من هذه الحقيقة شيئاً. فمتى نبذت الإنسانية الإيمان بالله دفعة واحدة (وأنا مقتنع بأن هذا العصر آت لا ريب فيه، ليحل محل العصور الجيولوجية الأخرى التي تعاقبت حتى الآن)، فإن المفاهيم القديمة عن الكون ستختفي من تلقاء نفسها دون أن يكون من الضروري أن نرتد إلى عهد أكل لحوم البشر. وستزول الأخلاق القديمة خاصة، وسيبنى عالم جديد بعد أن يُمحى الماضي. سوف يتحد البشر ليردوا إلى الحياة الحد الأقصى مما تستطيع الحياة أن تعطيه من سعادة وبهجة ومتعة، ولكن في هذا العالم وحده. وسيشعر الإنسان بعزة عظيمة وكبرياء جبارة تحركه وتحمله، لأنه يكون قد أصبح «إلها – إنسانا». إن ما سيحققه الإنسان من انتصارات على الطبيعة لا انقطاع لها ولا حدود لها، بفضل إرادته المتحالفة مع العلم، ستغمر نفسه في كل ساعة بفرح يبلغ من السمو والرفعة أنه سينسيه ما كان يوعد به في الماضي من ثواب سماوي. سيعرف كل إنسان أنه فانٍ، وأنه لن يبعث بعد الموت، ولكن جميع الناس سيقبلون الموت بهدوء فيه عزة وشمم، كأنهم آلهة. سيعدل الإنسان يومئذ، من شدة أنَفَته وكبريائه، عن الشكوى من القدر وعن الاستياء من أن حياته طارئة ووجوده عارض. وسوف يحب الإنسان أخاه الإنسان حباً مبرأً من المنفعة. لن يرجو أن ينال على حبه مقابلاً في ما بعد. صحيح أن الحب لن يتفتح إلا لحظات قصار، لكن قصره نفسه سيجعل سناءه وقوته أشد وأعنف، بينما كان في الماضي يضيع في صبوات غامضة إلى حب أبدي ولو من خلف القبر».. وهلمّ جرا. شيء جميل.

كان إيفان قد سدّ أذنيه بيديه، وأطرق إلى الأرض وهو جالس على الديوان، وأخذ جسمه كله يرتجف.

تابع الصوت كلامه يقول:

- إن المسألة المطروحة الآن - هكذا كان يفكر فيلسوفنا الشاب - هي: هل سيأتي عصر من هذا النوع أم لا؟ فإذا كان الجواب على هذا السؤال بنعم، فسوف تحل المشكلة، وسوف تنتظم الإنسانية على أسس جديدة. ولكن لما كان من المستحيل، بسبب حماقة البشر، بحكم حماقتهم، أن يحل هذا العصر الجديد قبل انقضاء ألف سنة أخرى، فإنه يترتب على ذلك أن من حق كل فرد، وقد وعى الحقيقة منذ الآن، أن يبني حياته على النحو الذي يناسبه دون أن يعبأ بالمفاهيم البالية أو أن يكترث لها! وبهذا المعنى إنما يمكن أن يقال «إن كل شيء مباح». وهب أن ذلك العصر الجديد لن يأتي في يوم من الأيام، فإنه ليظل صحيحاً أنه لا وجود للإله،

ولا خلود للنفس، فمن المباح إذاً للإنسان الجديد أن يصبح إلهاً إنساناً ولو وجب عليه أن يكون الوحيد كذلك في الكون كله. وواضح أنه سيستطيع، في دوره الجديد، أن يتحرر فرحاً من الضغوط الأخلاقية التي كان يخضع لها «الإنسان العبد» في الماضي، وسيكون عليه أن يتحرر هذا

التحرر كلما بدا له ذلك ضرورياً. فلا قوانين تفرض على إله! لأن الإله على حق دائماً، فأي شيء يفعله هو الصواب، وأي مكان يكون فيه الإله فهو مكانه... وأي مكان أقف فيه أنا... سيكون المكان الأول... كل شيء مباح، وكفى! - هذا كله جميل جداً ولكنني أتساءل لماذا يكون الإنسان في حاجة إلى أن يتدثر بدثار الحقيقة ما دام قد قرر أن يغش وأن يخادع؟ فيم هذا السعي، وهذا التأييد للحقيقة؟ هذا هو إنساننا الروسي المعاصر: إنه في حاجة إلى تأييد الحقيقة ولو ليقرر أن يغش... فإلى هذا الحد يبلغ حبه الحقيقة...

كان الزائر يبدو مسروراً ببلاغته وفصاحته. فهو يرفع صوته أكثر فأكثر، وينظر إلى صاحب البيت فاحصاً في مكر ومع ذلك لم يستطع أن يكمل كلامه، فإن إيفان تناول الكأس الموضوعة على المائدة فجأة، فرمى بها الخطيب البليغ بكلِ ما أوتي من قوة.

فهتف الخطيب يقول وهو ينهض متعجلاً ويمسح بأصابعه قطرات الشاي التي تناثرت على ثيابه:

- آ... إن هذا لغباء أخيراً! لقد تذكر محبرة لوثر[243]. هو يدعي أنني لست إلا حلماً، فيقذف الأقداح إلى رأس الخيال الذي ظهر له في هلوسته! لكأنه امرأة حقاً... يا لهذا المنطق ما أغربه!... لقد كنت أقدّر فعلاً أنك تتظاهر بسدّ أذنيك تظاهراً بينما كنت في الواقع تسمعني وتصغي إليّ...

وفي تلك اللحظة سمعت طرقات ملحة على زجاج النافذة، فنهض إيفان فيدوروفتش عن ديوانه واثباً.

- هل سمعت؟ خير لك أن تفتح، فهو أخوك أليوشا يطرق النافذة حاملاً إليك نبأ لست تتوقعه البتة، نبأ هاماً جداً، صدقني...

هتف إيفان وهو في حالة حمىّ شديدة:

- اسكت أيها الدجال! لقد عرفت قبلك أنه أخي أليوشا. وكنت أحسّ أنه سيأتي، ولا بد أن يكون هناك سبب حمله على المجيء. إنه يحمل إليّ «أنباء»، هذا بديهي.

فافتح إذن، افتح له. إن في الخارج زوبعة ثلج... وهو أخوك إن الجو يبلغ من الرداءة حد أن المرء لا يسمح لنفسه بأن يَدَعَ كلباً في الخارج.

واستمر الطرق على النافذة. أراد إيفان أن يهرع فيفتح الباب، لكنه أحسّ فجأة كأنه مشلول، فهو لا يستطيع أن يتحرك من مكانه. بذل جهداً كبيراً من أجل أن ينتزع نفسه من ذلك التجمد، وأن يمزق هذه الحبال التي تشده، ولكنه لم يفلح. وأصبحت الطرقات على النافذة أقوى وأصرم. فشعر إيفان فجأة بأنه يتحرر من عوائقه، فنهض منتفضاً، ونظر حواليه حائراً زائغ البصر. كانت الشمعتان قد ذابتا أو أوشكتا، وكانت الكأس التي رمى بها الزائر منذ لحظة ما تزال في مكانها على المائدة. وليس هناك أحد على الكنبة الموضوعة قبالته حذو الجدار. ورغم أن الطرق على النافذة ما يزال مستمر بإلحاح، فإن الطرقات بدت لإيفان أضعف مما كان يسمعها أثناء حلمه، حتى لقد كانت خفيفة مستخفية.

هتف إيفان فيدوروفتش يقول وهو يندفع نحو النافذة:

- لم يكن ذلك حلماً! لا... لم يكن حلماً... أحلف أنه لم يكن حلماً... أنا لم أحلم... ولقد كان ذلك كله منذ لحظة واقعاً.

وفتح فرجة النافذة، وصرخ يقول لأخيه حانقاً:

- أليوشا! ألم أحظر عليك أن تجيء إليّ؟ قل بكلمتين لا ثالث لهما: ماذا تريد مني؟ أجب... ولكن أوجز، هل تسمع؟

فأجابه أليوشا من فناء الدار قائلاً:

- شنق سمردياكوف نفسه من ساعة. فقال له إيفان:

- تعال إلى المدخل. ومضى يفتح الباب.

دخل أليوشا، وذكر لإيفان فيدوروفتش فوراً أن ماريا كوندراتيفنا قد زارته منذ أقل من ساعة، فأبلغته بانتحار سمردياكوف، قالت له: «دخلت إلى غرفته لأخذ السماور، فإذا أنا أراه مشنوقاً على مسمار أمام الحائط»، فلما سألها أليوشا هل أبلغت من يجب إبلاغه، أجابت بأنها لم تحدّث أحداً في هذا الأمر بعد. قالت: «وإنما أسرعت إليك على الفور، لكي تكون أول من يطلع على الحادث، وكنت أركض ركضاً طوال الطريق» هذا ما أضافته ماريا كوندراتيفنا منقلبة السحنة زائغة النظرة، وكانت كالمجنونة اضطراباً وكانت ترتعش كورقة في مهب الريح. وقد صحبها أليوشا بعد ذلك إلى بيتها، فوجد سمردياكوف مشنوقاً بالفعل على النحو الذي وصفته ؛ ووجد على المائدة ورقة مكتوبة عليها ما يلي: «أنهيت حياتي بإرادتي حراً، فلا تتهموا أحداً». ترك أليوشا الورقة على المائدة، ومضى فوراً إلى رئيس الشرطة، فأطلعه على الحادث. وختم أليوشا كلامه لأخيه إيفان قائلاً: «ومن هناك جئت إليك رأساً، وكان أثناء ذلك يحدّق بانتباه إلى ملامح وجهه التي أدهشه تعبيرها. ثم هتف يقول له فجأة:

- أخي! لا بد أنك مريض، مريض جداً، جداً! فأنت تنظر إليّ دون أن يبدو عليك أنك تفهم ما أقوله لك.

فقال له إيفان واجماً مفكراً، دون أن يلوح أنه سمع تعجب أخيه:

- أحسنت صنعاً إذ جئت. على أنني كنت أعلم أنه شنق نفسه.

- ممن علمت ذلك؟

- لا أدري ممن، ولكنني كنت أعلم. أكنت أعلم أم لا؟ بل كنت أعلم. هو قال لي ذلك، قاله لي منذ لحظة قصيرة.

كان إيفان واقفاً في وسط الغرفة، وكان يتكلم ذاهلاً حالماً، وهو يحدّق إلى الأرض.

سأله أليوشا وهو ينظر حواليه على غير إرادة منه:

- من هو؟

- اختفى.

قال إيفان هذه الكلمة وأنهض رأسه وابتسم ابتسامة رقيقة ثم أردف يقول:

- خاف منك، خاف منك، نعم خاف منك أنت يا حمامتي أنت «كروبي طاهر». دمتري يرى أنك كروبي. كروبي.. رعود أغاني الحماسة التي يغنيها الساروفيون... ما الساروفي؟ ألعله برج نجوم قد لا يكون هو كله في آخر الأمر إلا جزيئة كيميائية بسيطة... هناك برج «الأسد» وبرج «الشمس»، هل تعلم ذلك؟

قاطعه أليوشا يقول مذعوراً أشد الذعر:

- اجلس يا أخي، اجلس على الديوان، أرجوك... أنت تهذي. اضطجع هنا، ضع رأسك على المخدة، هكذا. هل تريد أن أضع على جبينك خرقة مبللة؟ قد يفيدك هذا.

- ناولني الفوطة الموجودة على ذلك الكرسي من فضلك. لقد ألقيتها عليه منذ قليل.

- ليس على الكرسي فوطة. لا تهتم. سأعرف أين أجد فوطة.

هذه فوطة...

كذلك قال أليوشا وهو يتجه نحو الزاوية المقابلة من الغرفة، حيث أبصر، قرب الحوض، فوطة نظيفة لم تمسّ وما تزال مطوية.

نظر إيفان إلى الفوطة وفي وجهه تعبير غريب. كأن الذاكرة أخذت تعود إليه فجأة.

قال وهو ينهض عن الديوان:

- لحظة. إنني منذ ساعة - أتذكر ذلك - قد تناولت هذه الفوطة من قرب الحوض فبللتها بالماء البارد، ثم وضعتها على جبيني، ثم رميتها إلى هناك. فكيف تكون الآن ناشفة ومطوية؟ لم يكن في غرفتي فوطة أخرى.

سأله أليوشا:

- أتقول إنك وضعت هذه الفوطة على جبينك؟

- نعم، ومشيت في الغرفة منذ ساعة والفوطة على جبيني...

لماذا ذابت الشموع؟ كم الساعة الآن؟

- قاربت منتصف الليل. فصاح إيفان يقول فجأة:

- لا، لا، لا، لم يكن ذلك حلماً كان هو هناك، كان جالساً هناك، على تلك الكنبة، أمامي. فلما طرقت أنت زجاج النافذة، رميت رأسه بكأس... هو هذا الكأس نفسه... لحظة! في المرة الماضية أيضاً، كنت قد نمت، ولكن الحلم في هذه المرة ليس حلماً. الأمر في هذه المرة كما في المرة الماضية. هل تعلم يا أليوشا أنني أرى الآن أحلاماً؟... ولكنها ليست بالأحلام... أنا يقظ، أنا أمشي وأتكلم وأرى... ومع ذلك فأنا نائم... ولكنه كان هناك، كان هناك، نعم، على تلك الكنبة. إنه غبي غباء فظيعاً، يا أليوشا، غباء فظيعاً.

كذلك أضاف إيفان وقد أخذ يضحك على حين فجأة وراح يمشي في الغرفة.

سأله أليوشا مرة أخرى قلقاً:

- من هو الغبي؟ عمّن تتكلم؟

- عن الشيطان! لقد أخذ يتردّد إليّ. جاءني مرتين، مرتين، إن لم يكن ثلاث مرات. قال لي ليزعجني ويغيظني إنني أغضب لأنه شيطان عادي لا إبليس محمّر الجناحين بنار جهنم، معتاد أن يظهر محاطاً ببروق ساطعة ورعود مدوّية. ولكنه ليس إبليس إذن. لقد كذب عليّ. إنه دجال. هو شيطان عادي تماماً، شيطان حقير، من طبقة دنيئة. إنه يرتاد الحمّامات العامة! فلو خُلعت ثيابه لاكتُشف حتماً ذنبه الذي لا بد أن يكون طويلاً جداً، لا بد أن يكون طوله أكثر من متر... ذنب بُنّي أملس... ذنب غير مهيب، كذنب كلب خسيس... أليوشا، أرى أنك متجلد من شدة البرد! لقد مشيت في الثلج مدة طويلة. هل تريد شيئاً من الشاي؟ ما رأيك؟ هل تريد أن آمر بإعداد شيء من الشاي لك؟ الجو بارد جداً، يبلغ من البرودّة حد أن المرء لا يرضى أن يدع في الخارج كلباً...

أسرع أليوشا إلى الحوض، فبلل الفوطة بالماء البارد، ثم حمل إيفان على أن يجلس ووضع الفوطة المبتلة على جبينه، ثم جلس إلى جانبه.

استأنف إيفان الكلام فقال وقد أصبح كثير الهذر:

- ماذا قلت لي أمس عن ليزا؟ إنها تعجبني، ليزا هذه؟ أحسب أنني قلت لك سوءاً في حقها. لم أكن صادقاً. إنها تعجبني... أنا خائف من الغد، خائف على كاتيا قبل كل شيء، وفوق كل شيء. وخائف على المستقبل أيضاً. ستهجرني في الغد هجراً نهائياً، وتركلني بقدميها. هي تتخيل أنني أريد هلاك ميتيا بسبب غيرتي منه! نعم، ذلك ما تتصوره. ولكن لا، هذا خطأ. غداً يكون الصليب، ولكن لن يكون الشنق. لأنني لن أشنق نفسي. هل تعلم يا أليوشا أني عاجز عن أن أشنق نفسي؟ لعلك تظن أن هذا جبن مني، أليس كذلك؟ ولكن لا، أنا لست جباناً. فلأنني أحب الحياة حبّاً قوياً إنما أعجز عن الانتحار؟ من أين علمت أن سمردياكوف شنق نفسه؟ آ... نعم... هو الذي قال لي ذلك...

سأله أليوشا:

- أأنت مقتنع اقتناعاً تاماً بأن أحداً قد زارك؟

- طبعاً. كان جالساً هناك، على تلك الكنبة، في زاوية الغرفة. لا شك في أنك طردته. أنت الذي حملته على الهرب قطعاً. لقد غاب في اللحظة التي وصلت فيها أنت. إنني أحبّ وجهك يا أليوشا، هل كنت تعلم أنني أحبّ وجهك؟ أما هو فإنه... أنا يا أليوشا، أنا وحدي. هو كل ما فيّ أنا من دناءة وخسة وحقارة! صحيح أنني «رومانسي»، وقد لاحظ هو ذلك... ولكن هذه نميمة كاذبة. إنه غبي غباء فظيعاً، وبهذا إنما هو قوي. هو ماكر، ماكر كحيوان. كان يعرف بماذا يستطيع أن يثير غضبي وغيظي. زعم ليحنقني أنني أؤمن به، وبهذه الوسيلة حملني على أن أسمع له وأصغي إليه. لقد خدعني كأنني طفل. ولكنه ذكر لي أيضاً حقائق كثيرة عني، ذكر أشياء ما كان لي أن أعترف بها في يوم من الأيام.

ثم أضاف إيفان يقول بلهجة أصبح فيها على حين فجاة كثير من الجد والنجوى:

- هل تعلم يا أليوشا أنني أتمنى كثيراً أن يكون هو في الواقع هو لا أنا ؟

قال أليوشا وهو ينظر إلى أخيه في شفقة وعطف:

- لقد أتعبك.

- أرهقني بسخرياته. وما كان أبرعه وأحذقه! ليتك تعلم كم كان بارعاً حاذقاً: الضمير؟ ما هو الضمير؟ هو ثمرة دماغي. لماذا يشعر الإنسان بعذاب الضمير؟ يشعر بعذاب الضمير من قبيل العادة، نتيجة الطريقة في التفكير تكونت في الإنسانية خلال سبعة آلاف سنة، فمتى تحررنا من هذه العادة، أصبحنا آلهة. هو الذي قال ذلك، هو الذي قال ذلك! لم يملك أليوشا أن يمنع نفسه من سؤال أخيه وهو يحدّق إليه تحديقاً قوياً:

- ألا يمكن أن تكون أنت الذي قلت ذلك؟ أنت بالأحرى؟ دعه الآن، لا تفكر فيه، انسه. فليأخذ معه كل ما تستنكره اليوم وتدينه، ولا يعودنّ بعد الآن أبداً.

قال إيفان بلهجة المتألم المُهان.

- ليكن ذلك. ولكنه خبيث شرير. لقد ازدراني جهاراً. كان وقحاً، صدقني يا أليوشا. ولكنه افترى عليّ، افترى علي في أمور كثيرة. قال: «أنت تنوي أن تقوم بعمل نبيل فاضل! ها! أنت تنوي أن تتهم نفسك أمام المحكمة بقتل أبيك، مؤكداً أن الخادم قتله بتحريض منك...»

قاطعه أليوشا قائلاً:

- قف يا أخي! لست أنت القاتل. هذا خطأ؟

- هو الذي قال ذلك، ولا بد أنه على علم به. قال لي: «أنت تنوي أن تقوم بعمل فاضل، مع أنك لا تؤمن بالفضيلة؛ ذلك ما يهيجك ويعذبك، ذلك هو سبب تجهمك وشراستك». هكذا تكلم، وهو يعرف ما يقول...

هتف أليوشا يقول بمرارة:

- هذه أقوالك أنت لا أقواله هو. إنك مريض، إنك تهذي وتعذّب نفسك في هذيانك!

- لا... إنه يعرف ما يقول. قال لي مؤكداً: «أنت تصدر عن زهو وخيلاء، تريد أن تمثل أمام القضاة فتقول لهم بكبرياء: أنا القاتل، ما لكم تصطنعون هذه الهيئات المروّعة؟ ألا إنكم لكاذبون. إنني أسخر من ذعركم هذا ومن رأيكم!». تلك هي الخواطر التي نسبها إليّ، ثم أضاف يقول: «هل تعرف ماذا تتمنى؟ أنت تتمنى أن يغمروك بالمديح قائلين: هو مجرم، نعم، هو قاتل، ولكنه تحرّكه عواطف سامية كل السمو رفيعة كل الرفعة! يريد أن يتهم نفسه لينقذ أخاه!». أما هذا يا أليوشا فهو كذب« كذلك هتف إيفان فجأة وقد سطعت عيناه». أنا لا أتمني أبداً أن يعجب بي بلهاء! لقد كذب في هذا يا أليوشا، كذب في هذا، أحلف لك! وبسبب ذلك إنما قذفته بكأس، فتحطم الكأس على وجهه القذر!

توسل إليه أليوشا قائلاً:

- هدىء من روعك يا أخي، كُفَّ عن الكلام هكذا! أردف إيفان يقول دون أن يصغي إلى أخيه:

- لا، إنه يجيد التعذيب، إنه قاس شديد العتو. كنت أوجس دائماً الغرض الذي يجيء من أجله. كان يقول: «ليكن! إن الزهو هو الذي يحركك ويدفعك. ولكنك تأمل رغم كل شيء أن يفتضح أمر سمردياكوف، فيرسل إلى السجن، ويبرّأ ميتيا، ولا يُحكم عليك أنت إلا حكماً «أخلاقياً» «وقد ضحك حين نطق بهذه الكلمة»، هل فهمت؟، بينما يُكْبِرُ آخرون عظمة نفسك ونبل روحك. ولكن ها هو ذا سمردياكوف قد مات! لقد شنق نفسه، فمن ذا الذي سيصدقك أمام المحكمة، من ذا الذي سيؤمن بأقوالك وتصريحاتك بعد أن أصبحت وحيداً؟ ومع ذلك ستذهب إلى المحكمة، وتقف أمام القضاة. لقد قررت ذلك، وستفعل. فلأي هدف تريد أن تذهب إلى المحكمة بعد الآن؟ شيء فظيع يا أليوشا! انني لا أطيق احتمال هذه الأسئلة. من ذا الذي يحق له أن يستجوبني بهذه الطريقة؟

قاطعه أليوشا قائلاً وقد جمد من الذعر، ولكنه ما يزال يأمل أن يرد إيفان إلى الواقع:

- أخي، كيف يمكن أن يكون قد كلمك عن موت سمردياكوف قبل وصولي، بينما كان جميع الناس ما يزالون يجهلون الحادث، ولم يتسع وقتهم للاطلاع عليه؟.

قال إيفان بصوت قاطع جازم لا يحتمل الشك:

- لقد قال لي ذلك، بل ظل يكلمني في هذا طوال الوقت إذا شئت أن تعرف الحقيقة، ولم يكلمني إلا في هذا. كان يقول لي:

«وياليتك تؤمن بالفضيلة !... إن أحداً لن يصدقني، ولكن ذلك لا يهمني، فإنما أنا أصدر عن مبدأ. ألا إنك لتسخر من الفضيلة، لأنك خنزير، مثل فيدور بافلوفتش! فعلام ذهابك إلى المحكمة، ما دامت تضحيتك لن تجدي؟.... الحقيقة أنك أنت نفسك لا تدري لماذا تريد أن تذهب إلى المحكمة! آه... إنك لمستعد أن تهب كثيراً في سبيل أن تعرف ذلك. اتظن أن هذا ما قررته؟ إنك لم تقرر شيئاً بعد. ستقضي الليل كله مفكراً متسائلاً أتذهب أم لا تذهب. وإنك لتعلم حق العلم، مهما يكن قرارك، أن الحل النهائي أصبح لا يتوقف عليك. سوف تذهب لأنك لا تجرؤ على أن لا تذهب. أما لماذا لا تجرؤ، فذلك سؤال أدع لك أنت أن تحزر جوابه. هذا لغز حاول أن تتسلى بحله!» قال هذه الكلمات ثم نهض وانصرف. وصلت أنت، فغاب هو. ولقد وصفني بأنني جبان يا أليوشا اللّغز هو أنني جبان. لقد أضاف قائلاً: «لست

من تلك النسور التي تحلّق عالياً في السماء». نعم، أضاف هذه الجملة. وكان سمردياكوف قد قال هذا الكلام نفسه. يجب قتله. إن كاتيا تحتقرني. لاحظت أنا ذلك. لاحظت هذا خلال شهر كامل وسوف تحتقرني ليزا أيضاً.

«ستذهب إلى المحكمة لتحظى بالإعجاب». هذا كذب دنيء. أنت أيضا تحتقرني يا أليوشا. سوف أكرهك الآن من جديد. والمسخ أيضاً، إنني أكره المسخ كذلك. لا أريد أن أنقذ المسخ. ألا فليتعفن في السجن! لقد غنى نشيد فرح. أوه! سأذهب، سأذهب غداً. سأمثل أمامهم، وسأبصق في وجوههم جميعا!

ونهض إيفان فجأة وقد استبدت به حميّا شديدة، فنزع الفوطة عن جبينه وطفق يمشي في الغرفة. تذكر أليوشا أقواله: «أنام وأنا أحسّ بأنني يقظان... أمشي وأتكلم وأرى، وأنا مع ذلك أحلم». ذلك بعينه ما يبدو أنه يحدث الآن. لم يشأ أليوشا أن يترك أخاه. وخطر بباله أن يمضي ليستقدم طبيباً، ولكنه عدل عن ذلك من خوفه أن يترك إيفان وحيداً. كان من جهة أخرى لا يدري إلى من يعهد به. وأخيراً أخذ إيفان يفقد الذاكرة. كان ما يزال يتكلم بغير توقف، وكانت أقواله مفككة كل التفكك، حتى لقد أصبح يبدو عليه أنه يجد عناء في النطق بالكلمات. وترنح على حين فجأة، ولكن أليوشا استطاع أن يسنده في الوقت المناسب، ومضى به نحو السرير، فانقاد إيفان دون مقاومة؛ وبعد أن نضا أليوشا عن أخيه ثيابه كيفما اتفق، أرقده على السرير، ثم جلس قربه، ولبث ساهراً عليه ساعتين أخريين. نام المريض نوماً عميقاً دون أن يتحرك، وكان تنفسه منتظماً. فلما لاحظ أليوشا أن أخاه ينام نوماً مريحاً هادئاً تناول وسادة ورقد على الديوان دون أن يخلع ثيابه. وقبل أن ينام دعا الله لميتيا وإيفان. لقد كان أليوشا يدرك الأسباب العميقة التي نشأ عنها مرض إيفان: «هذه تباريح قرار فيه عزة وكبرياء، هذا قلق صادر عن ضمير قوي!». إن الله الذي كان إيفان يرفض أن يؤمن به يفرض نفسه الآن على وجدان إيفان، وإن الحقيقة الإلهية تشقّ طريقها على هونٍ إلى قلبه الذي ما يزال عصياً. حدّث أليوشا نفسه قائلاً وهو مضطجع على الديوان:

«نعم، لقد مات سمردياكوف، ولن يصدّق أحد الشهادة التي سيدلي بها إيفان. ولكنه سيذهب إلى المحكمة وسيقول الحقيقة مع ذلك». وابتسم أليوشا ابتسامة رقيقة عذبة حين جال في ذهنه هذا الخاطر، ودمدم يقول أيضا: «سينتصر الله !». ثم قال لنفسه بعد ذلك بمرارة:

«إما أن يبعث إيفان بعثاً جديداً بنور الحقيقة، وإما... أن يهوي إلى الكره منتقماً من نفسه ومن الآخرين لأنه خدم قضية لم يكن مؤمناً بها». وعاد أليوشا يصلي من أجل إيفان.

الباب الثاني عشر: خطأ قضائي

- 1 -اليوم المشؤوم

غداة الأحداث التي فرغت من وصفتها الآن، افتتحت في الساعة العاشرة من الصباح، جلسة محكمة مقاطعتنا، وبدأ النظر في قضية دمتري كارامازوف. وإني لأحب أن أقول فوراً بإلحاح إنني أعد نفسي عاجزاً عن أن أصف وصفاً دقيقاً كل ما جرى أثناء المحاكمة، وأن أروي جميع الوقائع لا من حيث الكمال والتمام فحسب، بل من حيث التسلسل الزمني أيضاً. وأحسب أنني لو كان عليّ أن أتذكر جميع التفاصيل وأن أشرحها شرحاً مناسباً، لوجب أن أقف عليها كتاباً بكامله، كتاباً أكبر حجماً من هذا الكتاب. لذلك آمل أن يتفضل القارئ فيعذرني إذا أنا اقتصرت على ذكر الأمور التي أثارت اهتمامي شخصياً فبقيت في ذاكرتي لهذا السبب. ربما أكون قد أقمت وزناً كبيراً لعناصر ثانوية على حساب الأمور الأساسية، وربما أكون قد أسقطت كذلك إسقاطاً كاملاً بعض الملامح والوقائع الهامة والرئيسية... على أنني أعدل الآن عن الاعتذار. فلسوف أفعل ما أقدر عليه، وسوف يدرك القارئ أنني لم أفعل سوى ما استطعت أن أفعل. وإني لأحرص أولاً وقبل الدخول إلى قاعة المحكمة، أن أذكر ما أثار دهشتي أكثر من أي شيء آخر في ذلك النهار، على أن دهشتي هذه قد شاركني فيها الجميع كما علمت ذلك فيما بعد. وإليكم الأمر: كان من المعلوم طبعاً أن قضية هذه الجريمة قد أثارت اهتمام عدد كبير جداً من البشر، وأن جميع الناس كانوا يتحرقون شوقاً إلى أن يبدأ النظر في هذه القضية، وأن الكثيرين في مجتمعنا كانوا طوال شهرين يكثرون من التحدث عنها مع تكهنات كثيرة وصيحات اندهاش لا آخر لها. وكان من المعلوم كذلك أن القضية قد اشتهرت في روسيا كلها. إلا أن أحداً لم يكن يتخيل أن الاهتمام الذي أثارته هذه المحاكمة قد بلغ من قوة الجموح وشدة العصبية أنه هزّ هزاً عميقاً لا سكان مدينتنا فحسب، بل سكان مناطق أخرى أيضاً. وقد أدركنا هذه الحقيقة في ذلك اليوم نفسه أثناء المحاكمة. لقد هرع الفضوليون لا من مركز إقليمنا وحده، بل من مدن روسية أخرى كثيرة أيضاً، وهرعوا حتى من موسكو ومن سان بطرسبرج. كان بينهم أناس من رجال القانون، وشخصيات معروفة مشهورة، ونساء من المجتمع الراقي. وقد اختُطفت تذاكر حضور المحاكمة في طرفة عين. واعتقد القائمون على الأمر، في هذه المناسبة، أن من الواجب، على خلاف ما جرت به العادة، حجز أماكن خاصة وراء منصة المحكمة، يُخصّ بها بعض الزائرين من المشاهير وأصحاب الرتب العليا. هكذا رأينا وراء القضاة عدداً من الأشخاص جالسين على مقاعد وثيرة، وذلك أمر لم يحدث عندنا من قبل قط. وكانت النساء كثيرات كثرة خاصة، سواء كنّ من سيدات مجتمعنا المحلي أم كنّ من سيدات الطبقة العليا في مدن أخرى. وأعتقد أن عددهن كان أكثر من نصف الحاضرين. أما رجال القانون الذين وفدوا لحضور هذه الدعوى فقد بلغوا من الكثرة أن القائمين على الأمر لم يعرفوا أين يضعونهم لأن جميع البطاقات كانت قد وُزّعت فأُعطيت بعد توسلات أو وُعد بها منذ مدة طويلة.

وقد رأيت بعيني كيف جرى على عجل بناء حاجزٍ مؤقت في آخر القاعة وراء المنصة، فبذلك حُدّد مكان خصّ به رجال القانون الذين عدوا أنفسهم سعداء بالتمكن من متابعة مناقشات المحاكمة ولو وقوفًا، لأن الكراسي كانت قد رفعت ليتسع المكان لعدد أكبر من الأشخاص. وهكذا ظل الجمهور الكثيف واقفًا «طوال مدة المحاكمة» كتفًا إلى كتف. وقد جاءت بعض السيدات، ولا سيما السيدات اللواتي وفدن من خارج مدينتنا، جئن إلى قاعة المحكمة في أبهى حلة وأجمل زينة، غير أن أكثر السيدات قد أهملن ما ألفنه من عناية بهندامهن. وكان يُقرأ في وجوههن فضول قوي شره يشبه أن يكون مرضيًا. ومن الخصائص المميزة لهذا الجمهور المحتشد في قاعة المحكمة والتي تستحق أن تُذكر أن جميع السيدات تقريبًا، أو الكثرة الغالبة منهن على الأقل، كما أيدت ذلك شواهد كثيرة فيما بعد، كنّ متحزبات لميتيا، وكن يتمنين أن تبرئه المحكمة. وربما كان السبب الأساسي في هذا ما اشتهر به من أنه شاب يأسر قلوب النساء، ولقد كان معروفًا عدا ذلك أن هناك امرأتين تتنافسان عليه وستتجابهان في سبيله أثناء المحاكمة. فأما أولاهما وهي كاترينا إيفانوفنا، فقد كانت تثير اهتمام جميع الناس بها بصفة خاصة. كان الناس يذكرون أمورًا خارقة عن تولهها بميتيا تولهًا قويًا لم ينل منه ولا أضعفه أن ميتيا ارتكب هذه الجريمة. وكانت تُروى عن هذا الموضوع حكايات مذهلة. وكانت كبرياء كاترينا إيفانوفنا هي التي تثير اهتمام الناس خاصة (إن كاترينا إيفانوفنا لم تكد تزور أحدًا)، وكان الناس يتحدثون عن «صلاتها الأرستقراطية»، ويؤكدون أنها ستلتمس من الحكومة إذنًا بأن تصحب الجاني إلى الأشغال الشاقة، وأن تتزوجه في مكان ما بالمناجم تحت الأرض. وأما المرأة الثانية، وهي جروشنكا، منافسة كاترينا إيفانوفنا، فقد كان الناس يتلهفون إلى ظهورها باهتمام لا يقل شدة عن ذلك الاهتمام. وكانت المجابهة التي ستتم بين المرأتين - الفتاة الأرستقراطية المتكبرة و«الهيتائير» - تثير في الجمهور انتظارًا محمومًا وفضولًا يوشك أن يكون موجعًا. ثم إن سيدات مدينتنا كنّ يعرفن جروشنكا أكثر مما يعرفن كاترينا إيفانوفنا. لقد رأين مرارًا «تلك التي كانت سبب هلاك فيدو بافلوفتش وابنه المسكين، وكان تدهشهن أشدّ الدهشة أن يكون الرجلان قد التهب قلباهما هذا الالتهاب كله بحب هذه البورجوازية الروسية الصغيرة التي هي امرأة عادية جداً، حتى إنها ليست جميلة». خلاصة القول إن التعليقات كانت على قدم وساق. وإني لأعرف من مصادر مطلعة موثوقًا بها أن انشقاقات عائلية خطيرة قد حدثت في مدينتنا بسبب ميتيا. إن عددًا كبيرًا من سيدات مجتمعنا قد تشاجرن في ذلك الوقت مع أزواجهن شجارًا عنيفًا، لاختلاف رأيهن في هذه القضية عن رأي أزواجهن. فكان أمرًا مفهومًا بعد ذلك أن يجيء أزواج هاته السيدات إلى المحكمة متحيزين ضدّ المتهم، بل وحاقدين عليه، حتى ليمكننا أن نؤكد جازمين أن جميع الرجال الذين شهدوا المحاكمة، على نقيض العنصر النسائي في ذلك الجمهور، كانوا قد تحيزوا ضدّ المتهم، فبعضهم عابس الوجه قاسي النظرة، وبعضهم الآخر، هو الأكثرية الغالبة، كان يظهر الكره والعدوانية بمزيد من الوضوح والصراحة. والحق أن ميتيا، أثناء إقامته في مدينتنا، كان قد أهان عددًا كبيرًا من هؤلاء الرجال. وكان هنالك، في مقابل ذلك، أناس يكاد يبدو عليهم الفرح، فهم لا يكترثون بمصير ميتيا، وإنما تهمهم النتيجة التي ستنتهي إليها المحاكمة، ولا يفكرون إلا في الحكم الذي سيصدر، وكان أكثرهم يتمنى معاقبة الجاني تمنيًا قويًا صارمًا، باستثناء رجال القانون، فقد كان هؤلاء لا يعنيهم الجانب الأخلاقي من القضية، وإنما تعنيهم الجوانب القضائية وحدها دون غيرها. وقد أثار الجميع وصول المحامي الشهير فيتوكوفتش. فقد كانت موهبته الخطابية معروفة ومشهورة في كل مكان، وقد سبق أن ترافع في الأقاليم مرارًا في قضايا كان لها دويّ عظيم. وكانت الدعاوى التي يترافع فيها تصبح ذائعة الصيت في روسيا كلها، وكان الناس يحتفظون بذكرى مرافعاته زمنًا طويلًا. وكانت تُروى كذلك نوادر شتى عن وكيل النيابة عندنا وعن رئيس المحكمة. كان يقال مثلًا إن وكيل النيابة في مدينتنا يتهيب لقاء فيتوكوفتش ويخشاه، وأن بينهما عداوةً يرجع تاريخها إلى أول عهدهما بالوظيفة، إلى الفترة التي كان فيها ايبوليت كيريلوفتش المندفع، وهو بمدينة سان بطرسبرج، يشعر دائمًا بجراح في كبريائه لأن كفاءاته لم تقدَّر حق قدرها. ولقد ردّت إليه قضية كارامازوف أملًا كبيرًا، في ما يقال، حتى لقد كان يحلم في أن يستعيد في هذه المناسبة شهرته التي انطفأ بريقها ولكن حضور فيتوكوفتش يقلقه الآن ويبعث في قلبه همًا وغمًا. على أن الحقيقة هي أن الناس قد أخطأوا الظن حين تصوروا أن وكيل النيابة كان يخشى لقاء المحامي الشهير هذه الخشية كلها. إن وكيل النيابة في مدينتنا لا ينتمي إلى تلك الفئة من الرجال الذين يتقهقرون أمام الخطر، بل لقد كان، على نقيض ذلك تمامًا، من أولئك الرجال الذين تلتهب كبرياؤهم القتالية مزيدًا من الالتهاب على قدر قوة العقبات التي تعترض طريقهم. يحسن أن نضيف إلى ذلك أن ايبوليت كيريلوفتش كان ذا طبيعة حارة كما كان شديد التأثر إلى درجة المرض. كان يضع نفسه كلها في بعض القضايا، وكان يتصرف عندئذ كما يمكن أن يتصرف رجل يتوقف مصيره الشخصي وتتوقف ثروته على النتيجة التي ستنتهي إليها الدعوى. وكان الناس في الأوساط القضائية يسخرون منه بسبب هذه الخصلة من خصال طبعه، التي جلبت له شهرة إن لم تكن واسعة كثيرًا فهي أكبر مما يمكن تصوره على أساس المركز المتواضع الذي كان يحتله في محكمتنا. وكانوا يسخرون خاصة من شدة شغفه بالسيكولوجيا. وأحسب أن جميع الناس كانوا مخطئين في هذه النقطة. فلقد كان وكيل النيابة في مدينتنا يملك طبيعة وشخصية أقرب إلى الجد كثيرًا مما كان يتخيل الناس عندنا عامة. ولكن هذا الرجل الذي يتميز بحساسية مرضية لم يكن قد أفلح في اصطناع اللهجة المناسبة والوضع اللائق في أول عهده بالمهنة، فامتد هذا الخطأ الذي ارتكبه منذ البدء، على حياته كلها.

أما رئيس محكمتنا فيمكن أن يقال عنه إنه مثقف وإنساني، وإنه كان يعرف مهنته ويجيدها، ويشارك في آراء العصر المتقدمة المتطورة. إنه قوي الشعور بنفسه، لكنه لا يعبأ كثيرًا بوظيفته، فإن أكبر طموح يهزه هو أن يُعرف عنه أنه رجل تقدمي. وكانت له صلات عالية وكان ينعم بثروة ضخمة. وقد اهتم اهتمامًا قويًا بقضية كارامازوف، كما أدركنا ذلك فيما بعد، ولكنه لم ينظر إلى هذه القضية إلا من زاوية عامة تمامًا، فهو يرى فيها، على وجه الخصوص، ثمرةً من ثمرات ظروفنا الاجتماعية، ومظهرًا مميزًا من مظاهر الطبيعة الروسية، وظاهرة عليه أن يحكم عليها وأن يصنّفها تصنيفًا مناسبًا. أما الجانب الشخصي من القضية، وأما المأساة الروحية الأخلاقية التي تتألف منها هذه الدراما، وأما المصير الفردي للأشخاص الرئيسيين فيها، وعلى رأسهم المتهم، فتلك كلها أمور لا يعبأ بها رئيس المحكمة كثيرًا، ولا ينظر إليها إلا من أفق مجرد. وربما كان ذلك مطلوبًا ومستحسنًا في مركزه ووضعه.

غصّت القاعة بالحضور قبل ظهور أعضاء المحكمة بزمن طويل. إنها أحسن قاعة في مدينتنا: فسيحة واسعة عالية يترجع فيها الصوت واضحًا رنانًا. على يمين أعضاء المحكمة الذين يجلسون على منصة، قد وضعت منضدة ووضع صَفّان من المقاعد للمحلّفين. وعلى اليسار كان مكان المتهم ومحاميه. وعلى منضدة أخرى وسط القاعة، غير بعيد عن المنصة، جُمعت أدلة الاتهام، فمن بينها الثوب الأبيض الذي كان يلبسه فيدور بافلوفتش ساعة مقتله في منزله وكان ملطخًا بالدم، ومدقّ

هاون النّحاس المشؤوم، وهو السلاح الذي يُعتقد أنه استعمل في ارتكاب الجريمة، وقميص ميتيا الذي كان على أحد كمّيه بقع دماء، وصدرته الملطخة بدم كثير من خلف، في موضع الجيب الذي دسّ فيه منديله حين كان المنديل ما يزال يقطر دمًا، ثم ذلك المنديل نفسه وقد تيبس واصفر وغشيته قشرة من دم متخثر، ومن بينها أيضًا المسدس الذي كان ميتيا قد حشاه بالرصاص عند برخوتين على نية الانتحار، وقد جرّده منه تريفون بوريستش خلسةً في قرية موكرويه، والظرف الذي كان قد ضمّ الثلاثة آلاف روبل المخصصة لجروشنكا، وعليه كتابة بخط المجني عليه، والشريط الوردي الدقيق الذي رُبط به ذلك الظرف، وطائفة أخرى من أشياء لا أتذكرها الآن. وعلى مسافة من هناك، في قرارة القاعة، يبدأ المكان المخصص للجمهور. غير أن عددًا من المقاعد قد صُفّ أمام المنّصة، للشهود الذين قد يطلب منهم أن يبقوا في القاعة بعد إدلائهم بشهاداتهم. دخل أعضاء المحكمة في الساعة العاشرة. إنهم رئيس، وعضو المحكمة، وقاضي صلح شرفي. وطبيعي أن وكيل النيابة ظهر في الوقت نفسه تقريبًا. الرئيس رجل قوي البنية متورد اللون، قامته أقصر من متوسط قامة الرجال، في الخمسين من عمره، له وجه محتقن، وشعر قاتم قد اشتعل شيبًا في بعض المواضع وقُصّ قصيرًا. وهو يتوشح بشريط طويل لوسام نسيت اسمه الآن. أما وكيل النيابة فقد بدا لي - كما بدا للجميع - شاحبًا في ذلك اليوم شحوبًا خاصًا، كان لون وجهه يبدو ضاربًا إلى زرقة بل وإلى خضرة، وكأنه قد نحل فجأة في ليلة واحدة، لأنني كنت قد رأيته أمس الأول معافى تمامًا.
بدأ الرئيس العمل بأن سأل حاجب المحكمة هل حضر جميع المحلّفين... ولكنني ألاحظ أنه يستحيل عليّ أن أستمر في سرد الوقائع سردًا مفصلًا هذا التفصيل كله، لأن هناك أمورًا لم أحسن سماعها، وأمورًا أخرى لم أنتبه إليها انتباهًا كافيًا، كما أن هناك أمورًا من خصائص هذه الجلسة قد اختفت من ذاكرتي اختفاءً تامًا منذ ذلك الحين. ثم إنني - و تلك هي الصعوبة الكبرى - لا يتوفر لي الزمان والمكان الكافيان لأن أقصّ هنا كل ما جرى في أثناء ذلك اليوم، وهذا ما سبق أن قلته. ولكنني أعلم أن عدد المحلّفين الذين رفضهم هذا الطرف أو ذاك من الطرفين، أعني وكيل النيابة والمحامي، كان ضئيلًا جداً. وقد احتفظت ذاكرتي من جهة أخرى بتشكيل هيئة المحلّفين الإثني عشر: كانت تضم أربعة موظفين من مدينتنا، وتاجرين وستة فلاحين وبورجوازيين صغار من البلدة. وإني لأتذكر أن الناس في مجتمعنا الصغير، ولا سيما السيدات، قد تساءلوا طويلًا قبل بدء المحاكمة بمدة طويلة، تساءلوا بكثير من الاندهاش والانفعال: «كيف يمكن أن يُعهد بالفصل في مثل هذه القضية ذات الطابع المعقد والسيكولوجي والدقيق إلى بضعة موظفين مغمورين وإلى بضعة فلاحين؟ ما الذي يستطيع أن يفهمه من هذه القضية موظف، ناهيك عن فلاح؟». والحق أن الموظفين الأربعة المشتركين في هيئة المحلّفين كانوا أناسًا صغار الشأن ليسوا من أصحاب الرتب العالية، وكانوا جميعًا متقدمين في السن، باستثناء واحد كان يبدو أصغر سنًا من سائرهم. وكانوا مجهولين في مجتمع مدينتنا، فلا بد أنهم كانوا يعيشون بمرتبات صغيرة، حياة مغمورة، وأنهم قد كان الهم زوجات عجائز لا يحرصون على أن يتجولوا بهن في المجتمع. ولا بد أنهم قد كان لهم أولاد كثيرون يركضون حفاةً في أغلب الظن، ولا بد أن التسليات الوحيدة التي كانوا يتيحونها لأنفسهم عند الاقتضاء هي أن يلعبوا بالورق قليلًا من حين إلى حين. وطبيعي أن أحدًا منهم لم يكن قد قرأ كتابًا في يوم من الأيام. صحيح أن اثنين من المحلّفين، وهما تاجران، قد كان في هيئتهما شيء من مهابة، ولكنهما ظلا صامتين صمتًا غريبًا، ولبثا جامدين لا يحركان ساكنًا. فأما أحدهما فكان حليقًا وكان يرتدي ثيابًا على الطراز الألماني، وأما الثاني، وهو ذو لحية شائبة، فقد كان يتدلى على عنقه شريط أحمر علّق به وسام. وأما الفلاحون والبرجوازيون الصغار الذين تضمهم هيئة المحلّفين، فليس هناك أمور كثيرة يمكن أن تقال عنهم. إن البرجوازيين الصغار في مدينتنا لا يختلفون كثيرًا عن الفلاحين، وهم يمارسون أعمال الفلاحة مثلهم. كان اثنان من هؤلاء البرجوازيين الصغار من سكان بلدتنا الطيبة سكوتو بريجونيفسك يلبسون ثيابًا على الزي الألماني، وكان هذا يضفي على هيئتهم، فيما يبدو، مزيدًا من الوساخة ويجعل مظهرهم أكثر تنفيرًا من زملائهم الأربعة، فمن الطبيعي إذًا أن يكون أشخاص كثيرون، أنا واحد منهم، قد تساءلوا منذ ألقوا نظرة على أعضاء هيئة المحلّفين: «ما عسى يفهم من القضية هؤلاء المساكين؟». ومع ذلك بدا لنا في تعابير وجوههم جميعًا شيء من سلطة، وشيء يشبه أن يكون تهديدًا. لقد كانوا جميعًا قساة مقطبين متجهمين.
وأخيرًا طلب الرئيس النظر في قضية قتل الموظف المتقاعد فيدور بافلوفتش كارامازوف - وقد نسيت الآن التعابير الدقيقة التي استعملها عندئذ. وأمر الحاجب بإدخال المتهم فظهر ميتيا في القاعة، فإذا بصمت شديد يخيم عندئذ على حين فجأة، فلو طارت ذبابة لسُمع صوت طيرانها. لا أدري ما الذي دار في خواطر الحضور، ولكنني أستطيع أن أقول إن المتهم قد أحدث في نفسي شعورًا سيئًا كل السوء. والأمر الذي ساءني منه خاصة هو إفراطه في أناقة هندامه. لقد ظهر أمام المحكمة يومئذ ببدلة جديدة مفرطة في التأنق. وقد علمت فيما بعد أنه قد أوصى على هذه البدلة لذلك اليوم عن قصد وعمد، لدى خياطه بموسكو الذي كان يحتفظ بمقاسه. وكان المتهم يلبس قفازين أسودين جديدين كل الجدة، مصنوعين من جلد ناعم، وقميصًا أنيقًا. وبعد أن اجتاز القاعة بخطاه العسكرية العريضة، ناظرًا إلى أمام بجمود غريب، جلس في مكانه بكثير من الثقة. وفي الوقت نفسه، ظهر محاميه، فينوكوفتش الشهير، فإذا بهمهمة مستخفية تطوف في أرجاء القاعة من أولها إلى آخرها. إن هذا المحامي اللامع رجل طويل القامة جاف المظهر، له ساقان طويلتان نحيلتان، وأصابع طويلة للغاية وشاحبة ونحيلة، وشعر قصير قد صفّف بتواضع. وشفتاه الرقيقتان تلتويان في بعض اللحظات، دون أن يعرف المرء على وجه الدقة أهما تعبران عندئذ عن سخرية أم هما تبتسمان. وكان يبدو في نحو الأربعين من عمره. ولولا عيناه الصغيرتان اللتان ليس لهما تعبير، ولكنهما متقاربتان إحداهما من الأخرى تقاربًا شديدًا، حتى لكأنهما لا تفصل بينهما إلا العظمة الحادة من أنفه الدقيق الطويل، لولا عيناه هاتان، لكان يمكن أن يعدّ وجهه لطيفًا محببًا. الخلاصة إن سحنته كان فيها شيء من سحنة عصفور، وهي بهذا تلفت الانتباه وتخطف البصر. وكان يرتدي الردنجوت مع كرافتة بيضاء إنني أتذكر تذكرًا واضحًا الأسئلة الأولى التي ألقاها الرئيس على ميتيا، وهي تتناول اسمه، ورتبته، وما إلى ذلك. وقد أجاب ميتيا عن هذه الأسئلة بحدة، ولكن بصوت قوي غير متوقع حتى إن الرئيس هزّ رأسه ونظر إليه في دهشة. وبعد ذلك قُرئت قائمة أسماء الأشخاص المستدعين إلى الإدلاء بأقوالهم شهودًا أو خبراء. وكانت القائمة طويلة جداً. واتضح أن أربعة من الشهود غائبون، وهم: ميوسوف الذي كان قد سافر إلى باريس، ولكن أقواله قد سجلت أثناء التحقيق التمهيدي، والسيدة خوخلاكوفا، والمالك ماكسيموف، وكلاهما معذور بسبب المرض، وأخيرًا سمردياكوف الذي مات فجأة قبل افتتاح المحاكمة وقُررت وفاته بشهادة من الشرطة قُدّمت إلى المحكمة. وقد أحدث نبأ انتحار سمردياكوف جلبة ودمدمات في القاعة. ذلك أن عددًا كبيرًا من جمهرة الحضور لم يكن قد علم بالحادث بعد. ولكن الشيء الذي أذهل الناس خاصةً هو أن ميتيا قد انفجر صائحًا على حين فجأة: أنه ما إن علم بالنهاية التي انتهى إليها سمردياكوف حتى صرخ من مكانه يقول بصوتٍ دوّى في القاعة كلها:
- كان كلبًا فمات ميتة كلب!
أذكر أن محاميه قد اندفع نحوه حينئذ، وأن رئيس المحكمة قد وجّه إليه إنذارًا وهدّده باتخاذ إجراءات صارمة في حقه إذا هو كرر فعلته هذه. وقد كرر ميتيا لمحاميه، عدة مرات، بصوت هامس، وهو يحرك رأسه ويتكلم كلامًا متقطعًا، ولكن دون أن يبدو عليه أنه نادم على ما فعل:
- لن أعيدها، أعدك بذلك! لقد افلتت مني!... لن أعيدها!
بديهي أن هذا الحادث الطارئ لم يخدم ميتيا في ذهن المحلّفين وفي ذهن الجمهور. فقد رأى هؤلاء أن ميتيا قد كشف في هذه الفعلة عن طبعه وقدّم نفسه بنفسه. وفي هذا الجو السيئ إنما تلا كاتب المحكمة قرار الاتهام. كان القرار مقتضبًا رغم اشتماله على وقائع القضية واقتصر على عرض الأسباب الداعية إلى الاتهام، الباعثة على الإدانة، الخ. وقد أحدثت قراءة القرار تأثيرًا كبيرًا في نفسي أيضًا. كان كاتب المحكمة يقرأ بصوت واضح جلي بيّن رنان. فانبعثت صورة الدراما في أذهان الحضور مرةً أخرى على نحو يأسر اللب، كأنما انصبت عليها أضواء ساطعة من عدة جهات. وإني لأذكر أنه ما إن فرغ كاتب المحكمة من قراءة قرار الاتهام حتى بادر الرئيس يسأل ميتيا بصوت قوي نافذ:
- المتهم.... هل تعترف بارتكابك هذه الجريمة؟
فنهض ميتيا من مكانه فجأة، وصاح يقول بحرارة لم تكن متوقعة أيضًا وبنبرة لوعة:
- أعترف بارتكابي جرائم السكر والفجور، في الكسل والعربدة. ولقد كنت أنوي أن أُصلح أمري وأصبح إلى الأبد إنسانًا شريفًا، في اللحظة التي حطمني فيها القدر! ولكنني بريء من مقتل العجوز، عدوي وأبي! أنا لم أسرقه، لا، لا!... لم أفعل ذلك، ولا كان لي أن أفعل ذلك: إن دمتري كارامازوف وغد شقيّ ولكنه ليس لصاً!
أطلق دمتري هذه الصيحات ثم عاد يجلس وهو يرتعش بكل جسمه. فاتجه إليه الرئيس من جديد يطلب منه بإيجاز ولكن بإلحاح صارم أن يقتصر على الإجابة عن الأسئلة التي تُلقى عليه، دون أن يندفع في خطب وصيحات طويلة لا فائدة منها. وبعد ذلك أمر الرئيس بسماع أقوال الشهود. فأدخل الشهود ليحلفوا اليمين، فرأيتهم عندئذ جميعًا. على أن أخوي المنهم قد أعفوا من هذا الإجراء وسُمِح لهما أن يدليا بشهادتيهما دون قسم. وبعد النصائح والمواعظ التي قالها الرئيس وقالها كاهن، أخرج الشهود، وعُزل بعضهم عن بعض. ثم بدأ المناداة عليهم واحدًا بعد واحد.

-2-شهود خطرون

لا أدري هل وزّع الرئيس شهود الاتهام وشهود الدفاع إلى فئتين متميزتين، ولا أدري ما هو الترتيب الذي اتبعه في استدعائهم. أغلب الظن أنه اتخذ الإجراءات الضرورية. ولكنني أعرف أن شهود الاتهام هم الذين دعوا إلى الإدلاء بأقوالهم أول من دُعي. أعود فأكرر أنني لا أنوي أن أصف هذه الاستجوابات بالتفصيل كلمة كلمة. ثم إن عرضًا يبلغ ذلك المبلغ من التَمام والكمال سيكون زيادة لا داعي إليها، لأن ما اشتملت عليه شهادات الشهود في ذلك اليوم من معنى ودلالة قد تولى وكيل النيابة والمحامي تلخيصه وإيضاحه في آن واحد، وذلك في مطالعة النيابة ومرافعة الدفاع في آخر المناقشات. وقد سجلتُ هذين الخطابين الرائعين، وأخذت منهما أجزاء برمتها سأعرضها حين يجيء الأوان. وسأذكر كذلك حادثًا وقع أثناء المحاكمة على غير توقع، وقع في البداية وكان له تأثير كبير على نهايتها الرهيبة المشؤومة. أما الآن فسأقتصر على الإشارة إلى وجه خاص من وجوه هذه «القضية» تكشّف دفعة واحدة وخطف أبصار الجميع، وهو قوة الاتهام من جهة وضعف الدفاع من جهة أخرى. لقد بدا منذ الوهلة الأولى أنه ليس هناك تكافؤ بين الاتهام والدفاع، وأدرك جميع الحضور حين رأوا عناصر الاتهام تتجمع وتتركز مزيدًا من التجمع والتركز شيئًا بعد شيء كلما اتضحت الوقائع بشهادات الشهود، وكلما تجلى هول الجريمة بارزًا مزيدًا من البروز. ثم إن جميع الناس قد فهموا منذ الوهلة الأولى أن القضية مفهومة، وأنه لا مجال لأي شك، حتى لكأن المناقشات زائدة لا لزوم لها ولا داعي إليها، وأنها لن تجري إلا من باب التقيد بالشكليات، إذ كان واضحًا أن المتهم هو الجاني، وأن ارتكابه الجريمة أمر لا شك فيه ولا سبيل إلى إنكاره، وأحسب أن السيدات اللواتي شهدن المحاكمة وكنّ يتمنين بنهم شديد وشراهة قوية تبرئة هذا المتهم المشوّق، أحسب أن هاته السيدات كنّ مقتنعات جميعًا، دون استثناء، اقتناعًا مطلقًا بأن المتهم هو القاتل. وأكثر من ذلك أنهن كنّ سيشعرن بكثير من خيبة الأمل لو وُضع ارتكابه الجريمة موضع الشك، لأن الخاتمة تكون عندئذ أقل إثارة للمشاعر، ولأن تبرئة الجاني تكون عندئذ أضعف أثرًا وأقل بهاءً. ومن الأمور العجيبة أن هاته السيدات جميعًا قد ظللن حتى آخر لحظة على يقين من أنه سيُبرّأ: «صحيح أنه هو الجاني، ولكنه سيُبرّأ باسم الإنسانية وباسم الأفكار الجديدة الرائجة الآن»، الخ، الخ. وعلى هذا الأمل إنما كانت جموعهن الغفيرة قد هرعت إلى حضور المحاكمة، وكنّ يضربن الأرض بأقدامهن من فرط نفاد صبرهن أثناء المناقشات. أما الرجال فكان يهمّهم، خاصةً، الصراع بين وكيل النيابة وفيتوكوفتش الشهير. كان الرجال يستغربون ويتساءلون ما الذي سيعمد إليه المحامي الموهوب ليدافع عن هذه القضية الخاسرة مقدمًا، وما الذي سيتوصل إلى الظفر به من هذه البيضة الفاسدة. لذلك كانوا يرصدون جميع حركاته وإشاراته بانتباه شديد. ولكن فيتوكوفتش ظل حتى النهاية موصدًا لا يُسبر غوره ولا تعرف سريرته، إلى أن حان أوان المرافعة. وكان أهل الخبرة والتجربة يقدرون أنه قد هيأ نظام دفاعه ورتب في ذهنه شيئًا ما، وأنه يسعى إلى هدف معيّن، ولكن يكاد يستحيل عليهم أن يعرفوا ما هو ذلك الهدف. وفي أثناء ذلك كانت ثقته وغروره واضحين يخطفان البصر. يضاف إلى هذا أنهم قد عرفوا بارتياح أن وقته قد اتسع أثناء المدة التي قضاها في مدينتنا، وهي لا تكاد تبلغ ثلاثة أيام، لأن يدرس القضية دراسة عميقة، فأصبح يعرف جميع مداخلها ومخارجها. وقد رووا بعد ذلك بكثير من التلذذ كيف استطاع أن يربك جميع شهود الاتهام في اللحظة المناسبة، وكيف استطاع خاصةً أن يدمر سمعتهم الأخلاقية بحذق ما بعده حذق، وأن يحطم بذلك قيمة الشهادات التي أدلوا بها. على أنهم كانوا يرون أنه فعل ذلك كله من قبيل اللعب في الدرجة الأولى، حبًا بالفن، وشغفًا بالمهنة، حتى لا يُغفل أي حيلة من حيل الدفاع الكلاسيكية. ذلك أن الجميع كانوا مقتنعين بأنه لا يستطيع أن يعوّل على جني أي فائدة ذات بال من تلك «التشهيرات»، وأنه لا بد أن يكون عارفًا بهذا أكثر من أي إنسان آخر، فلعله كان يدَّخر فكرة من الأفكار، لعله كان يخبئ سلاحا خفيًا آخر، لعله كان يحتفظ بأدلة وحجج لم يستعملها بعد، ولكنه سيخرجها فجأة في اللحظة المناسبة. وبانتظار ذلك كان يبدو شاعرًا بقوّته، وكان يجد لذّة في التلاعب بالشهود. ومَن يراه كان يحسّ أنه يتسلّى. من ذلك مثلًا أنه حين جاء دور جريجوري فاسيلتش، خادم فيدور بافلوفتش، الذي أدلى بشهادة خطيرة في موضوع «الباب المفتوح» المطل على الحديقة، أمسك المحامي بتلابيبه إن صح التعبير، منذ أتيح له أن يلقي عليه بعض الأسئلة، يحسن أن نذكر هنا أن جريجوري مثل أمام المحكمة من دون أن يضطرب ومن دون أن يبدو عليه أي تهيب لا من جلال المحكمة ولا من كثرة الجمهور الذي يصغي إليه. كان هادئ المظهر، بل كان فيه شيء من مهابة ووقار، وقد أدلى بشهادته بثقة مطمئنة كتلك الثقة التي يخاطب بها امرأته مارفا أجناتفنا حين يجري بينه وبينها أحاديث، ولكن باحترام وتوقير. كان يبدو أن إرباكه مستحيل. سأله وكيل النيابة أولًا عن تفاصيل الحياة العائلية التي تحياها أسرة كارامازوف، فرسم جريجوري لهذه الحياة صورة حية جداً. وقد أدرك الناس أن هذا الشاهد إنسان ساذج أمين غير متحيز. فإنه مع ما أظهره من احترام عميق لذكرى مولاه الراحل، أكد أن المرحوم لم يكن عادلًا نحو ميتيا، وأنه «لم يحسن تنشئة أولاده». وحين تحدث عن سني طفولة ميتيا ذكر أن الطفل «كان سيأكله القمل لولا أن عُني هو به»، وأضاف إلى ذلك أنه «ما كان ينبغي للأب أن يحرم ابنه من حقه في ميراث أمه». فلمّا سأله وكيل النيابة عن الوقائع التي تسمح له بأن يقول إن فيدور بافلوفتش قد غبن ابنه عند تصفية الحساب، عجز جريجوري عن ذكر وقائع دقيقة (وهذا ما أدهش الجميع)، ولكنه أصرّ على أن تصفية الحساب كانت غير عادلة، وأن «ميتيا كان من حقه فعلًا أن يطالب أباه ببضعة ألوف أخرى من الروبلات». أحبّ أن أضيف أن هذا السؤال - أعني السؤال عن الغبن الذي لحق ميتيا - قد طرحه وكيل النيابة بإلحاح خاص على جميع الشهود الذين مثلوا أمام هيئة المحكمة والذين كان يمكن أن يذكروا بعض الإيضاحات حول هذا الموضوع، ولم يستثن من هؤلاء الشهود إيليوشا وإيفان فيدوروفتش، ومع ذلك لم يستطع أحد من الشهود أن يقدم وقائع مقنعة حاسمة في هذه النقطة. لقد أجمعت آرائهم جميعاً على أن الغبن واقع، ولكن أحدًا منهم لم يستطع أن يجيء ببرهان قاطع. وحين وصف جريجوري المشهد الذي جرى في غرفة الطعام لحظة اقتحمها دمتري وضرب أباه مهددًا بأنه سيعود ليقتله فيما بعد، ترسب في النفوس من سرده لهذه الوقائع انطباع كئيب، لا سيّما وأن الخادم العجوز كان يتكلم بهدوء، لا يسترسل في عبارات لا فائدة منها، وإنما هو يستعمل اللغة المألوفة عنده، فكان بذلك بليغًا كل البلاغة من دون أن يقصد إلى البلاغة. أما فيما يتعلق بالإهانة التي ناله بها ميتيا حين لطمه على وجهه وأسقطه على أرض الغرفة آنذاك فقد قال جريجوري إنه لا يحمل لميتيا حقداً أو ضغينة وإنه غفر له هذه الإساءة منذ مدة طويلة. ولما سئل عن المرحوم سمردياكوف، رسم إشارة صليب أولاً، ثم قال إن الفتى لم يكن خاليًا من بعض المزايا، لكنه كان غبيًا، وكان مرضه قد أوهن جسمه وعقله، وأخذ عليه خاصةً أنه كان كافرًا، دون أن ينسى أن يقول إن فيدور بافلوفتش وابنه الأكبر هما اللذان لقّناه الكفر وفي مقابل ذلك ألحّ بشيء من الحرارة على أن سمردياكوف كان فتى أمينًا، وروى كيف أن هذا الخادم حين عثر بالأوراق المالية التي أضاعها مولاه في فناء المنزل، لم يخطر بباله أن يستولي عليها، وإنما ردّها إلى فيدور بافلوفتش الذي كافأه على أمانته بروبل ذهبي، وأصبح يثق بخادمه منذ ذلك الحين ثقة مطلقة. وأكد جريجوري من جهة أخرى، بعناد لا سبيل إلى زحزحته عنه، أن الباب المطل على الحديقة كان مفتوحًا. هذا وقد طرحت عليه أسئلة كثيرة يستحيل عليّ أن آتي على ذكرها كلها.

وأخيرًا جاء دور المحامي لاستجواب الشاهد فسأل قبل كل شيء، عن الظرف الذي «يُزعم» أن فيدور بافلوفتش كان قد أودع فيه الثلاثة آلاف روبل «لشخص ما»: «هل رأيت هذا الظرف بعينيك، أنت الذي تعيش في صميم حياة مولاك خلال تلك السنين الطويلة كلها، وكنت قريبًا منه ذلك القرب كله؟». فأجابه جريجوري بأنه لم يرَ ذلك الظرف، وأنه كان يجهل وجود هذا المبلغ «إلى اللحظة التي أصبح فيها جميع الناس يتحدثون عنه». وقد ألقى فيتوكوفتش هذا السؤال عن الظرف على جميع الشهود الذين كان يمكن أن يجيبوا عن هذه النقطة، وألحّ في ذلك إلحاحًا كإلحاح وكيل النيابة في السؤال عن اقتسام الميراث. فأجاب جميع الشهود، في هذه المرة أيضًا، واحدًا بعد واحد، بأنهم لم يروا الظرف، وإن يكن كثيرون قد سمعوا عنه. وقد لوحظ منذ البداية أن المحامي يلح على هذه النقطة ويقيم لها وزنًا عظيمًا، ويرى أن لها شأنًا خطيرًا.

قال فيتوكوفتش فجأة على نحو غير متوقع:

- أحبّ الآن أن ألقي عليك سؤالًا... إذا سمحت. هل في وسعك أن تقول لي شيئاً عن تركيب ذلك المرهم، أو إن شئت عن تركيب ذلك المنقوع الذي استعملته ذلك المساء قبل أن تنام، كما يظهر من التحقيق الأوَّلي، في تدليك ظهرك، آملًا أن تشفي بهذه الوسيلة؟

نظر جريجوري إلى المحامي نظرةً بلهاء، وصمت بضع ثوان، ثم قال:

- يدخل في تركيبه نبات القويسة.

- لا شيء إلا نبات القويسة؟ ألا تذكر شيئاً آخر؟

- ويدخل فيه نبات لسان الحَمَل أيضًا.

- وربما قليل من الفلفل؟

- وفيه فلفل كذلك.

- عظيم. وهذه النباتات كلها نُقعت في فودكا، أليس كذلك؟

- نعم، في كحول.

سُمعت في القاعة عندئذ ضحكات مكتومة.

- عظيم، عظيم، في كحول، وبعد أن دلّكت ظهرك شربت ما بقي في الزجاجة من هذا السائل مع صلاة خاشعة لا يعرف أحد نصّها إلا زوجتك، أليس كذلك؟

- نعم شربته.
- هل شربت مقدارًا كبيرًا من هذا السائل؟ كم شربت، مثلًا؟ كأسًا واحدًا أم ربما كأسين؟
- كوبا ملآن تقريبًا.
- هه؟ كوبًا كاملًا؟ أم كوبًا ونصف مثلًا؟
صمت جريجوري كأنما يبدو أنه فهم شيئًا ما.
قال المحامي:
- كوب ونصف من كحول صاف. هذا لا بأس به أبدًا، ما رأيك؟ إن الإنسان يستطيع بعد ذلك لا أن يرى الباب المطل على الحديقة مفتوحة فحسب، بل أن يرى كذلك «أبواب الجنة» كلها مفتوحة.
ظل جريجوري صامتًا. وسُمعت في القاعة ضحكات صغيرة مكظومة من جديد. فاضطرب الرئيس.
عاد فيتوكوفتش يسأل بإلحاح وهو يحدّق إلى فريسته:
- أما كنت نعسان حين أبصرت الباب المطل على الحديقة مفتوحًا؟
- كنت واقفًا على قدمي.
- هذا لا ينفي أن تكون نعسان (مزيد من الضحكات المكظومة في القاعة). هل كان في وسعك عندئذ أن تجيب في تلك اللحظة عن سؤال يلقيه عليك أحدهم، كأن يسألك مثلًا في أي سنة نحن؟
- لا أدري!
- طيب... في أية سنة من العصر المسيحي نحن الآن؟ هل تعرف؟
بدت الحيرة على جريجوري الذي كان لا يحول بصره عن جلاده. ومن الغريب أنه كان يبدو أنه يجهل فعلاً في أي سنة نحن.
- هل تستطيع أن تقول لي ما عدد أصابع يديك؟
فقال جريجوري فجأة بصوت قوي واضح:
- أنا امرؤ تعودت أن أطيع، فإذا حلا لمن هم أعلى مني مقامًا أن يسخروا مني، فمن واجبي أن أتحمل ذلك.
بدا على فيتوكوفتش شيء من الغيظ، ولكن الرئيس أسرع يتدخل فطلب من المحامي أن يلقي أسئلة تتعلق بالدعوى تعلقًا مباشرًا. فلمّا سمع المحامي طلب الرئاسة انحنى بوقار، وأعلن أنه ليس لديه أسئلة أخرى. واضح أن شكًا خفيفًا قد زُرع الآن في أذهان الجمهور وفي أذهان المحلّفين، إنه شك بقيمة شهادة يدلي بها رجل يمكن أن «يرى أبواب الجنة» بتأثير دواء، عدا أنه يجهل السنة التي نحن فيها من العصر المسيحي. في وسعنا أن نقول إذا إن المحامي قد حقق هدفه على كل حال. ولكن قبل أن ينصرف جريجوري وقع حادث آخر. ذلك أن الرئيس اتجه إلى المتهم فسأله هل لديه ملاحظات على هذه الشهادة، فصاح ميتيا يقول بصوت قوي:
- باستثناء ما قاله عن الباب، فإن كل ما ذكره هو الحقيقة بعينها. صحيح ما ذكره من أنه أنقذني من القمل، وأنا أشكر له ذلك. ولقد غفر لي اللطمات، فأنا أشكر له ذلك أيضًا. إن هذا العجوز كان رجلًا شريفًا أمينًا صادقًا طوال حياته، وكان وفيًا لأبي وفاء سبعمائة كلب.
قال الرئيس بلهجة قاسية:
- أيها المتهم!... عليك أن تراقب ألفاظك.
وقال جريجوري متذكرًا بدوره:
- أنا لست كلبًا.
- فهتف ميتيا يقول:
- إذا أنا الكلب، أنا. إذا كان إهانةً أن يكون المرء كلبًا فإنني أصف نفسي بهذه الصفة، وأطلب منه الصفح والعفو. لقد كنت قاسيًا وعنيفًا معه. ومع ايزورب أيضًا.
فتدخل الرئيس قائلًا بصرامة:
- أي ايزوب تعني؟ عمّن تتكلم؟
- أتكلم عن بييرو... أبي... أبي... فيدور بافلوفتش.
فأنّب الرئيس ميتيا وقرّعه، وأمره بلهجة صارمة أن يحسن اختيار ألفاظه بعد الآن، وقال له:
- إنك تسيء إلى نفسك بنفسك في أذهان قضاتك. وبتلك البراعة نفسها عرف المحامي كيف يعبث بالشاهد راكيتين الذي كان من أهم شهود الاتهام، والذي كان وكيل النيابة يعوّل عليه كثيرًا. لقد اتضح دفعة واحدة أن راكيتين كان يعرف كل شيء، وأنه مطلع على الأمور اطلاعًا غريبًا، وأنه زار الجميع، وأنه رأى كل شيء، وتحدث مع كل واحد، وأنه يعرف تفاصيل سيرة فيدور بافلوفتش كما يعرف تفاصيل سير آل كارامازوف جملةً. صحيح أنه، فيما يتعلق بالظرف الذي أودعت فيه الثلاثة آلاف روبل، لم يكن قد سمع شيئًا عن هذا الأمر، هو أيضًا، إلا من ميتيا. ولكنه في مقابل ذلك قد وصف سلوك ميتيا في حانة «العاصمة الكبرى» وصفًا دقيقًا، ونقل أقواله وذكر إشاراته وحركاته، وروى حادثته مع النقيب سنيجيريف. أما عن أن فيدور بافلوفتش كان لا يزال مدينًا لميتيا ببعض المال تصفية الحساب الميراث، فلم يستطع حتى راكيتين نفسه أن يذكر شيئًا دقيقًا واضحًا، واكتفى بأن قال بضع عبارات غامضة فيها ازدراء واحتقار: «من ذا الذي يستطيع أن يقول أيهما كان مذنبًا في حق الآخر، وأنّى للمرء أن يعرف شيئًا واضحًا عن حساباتهما في ظل تصريفهم للأمور المالية تصريفًا لا يتسنى لأحد أن يفهم منه شيئًا البتة !». لقد صوّر راكيتين الدراما التي أدت إلى الجريمة على أنها ثمرة الأخلاق المتخلفة النظام القنانة، وثمرة الفوضى التي تسيطر على روسيا التي تفتقر إلى أنظمة لا غنى لها عنها وتعاني من ذلك. خلاصة القول إنه سُمح لراكيتين أن يعبّر عن بعض الأفكار. وبمناسبة هذه الدعوة إنما اشتهر راكيتين وذاع صيته لأول مرة. كان وكيل النيابة يعرف أن الشاهد ينوي أن ينشر مقالًا عن القضية في الصحف، حتى لقد أورد في مطالعته (كما سنرى ذلك فيما بعد) عددًا من الأفكار التي يعبر عنها ذلك المقال، فكان إذًا مطلعًا على مضمون المقال. كانت الصورة التي رسمها راكيتين مظلمة قاسية دكناء يتولد منها شعور يعزز «الاتهام» تعزيزًا قويًا. ونستطيع أن نقول على وجه الإجمال إن العرض الذي قدمه قد خلب ألباب الجمهور بما اشتمل عليه من استقلال الرأي وحرية التفكير، وبما أكده من نُبل العواطف وسمو المشاعر. حتى لقد سُمعت في القاعة تصفيقات انطلقت هنا وهناك من تلقاء نفسها، وذلك أثناء كلامه عن نظام القنانة، وعن روسيا الشقية التي تطغى عليها الفوضى. ولكن راكيتين، الذي لم يكن إلا شابًا على كل حال، لم يستطع أن يتجنب خراقةً سرعان ما استغلها المحامي استغلالًا يدل على مقدرة فائقة في انتهاز الفرص المناسبة. لقد أُلقيت على راكيتين أسئلة عن جروشنكا، فإذا هو حين يجيب عن هذه الأسئلة منقادًا لما حقق من نجاح شعر به هو نفسه، ومنتشيًا بالسمو الأخلاقي الروحي الذي ارتقى إليه، إذا هو حين يجيب عن هذه الأسئلة يزل لسانه فيتكلم عن أجرافينا ألكسندروفنا بشيء من الاحتقار ويصفها بأنها «امرأة ينفق عليها التاجر سامسونوف»، فسرعان ما استولى المحامي على هذه العبارة الشقية التي زلّ بها لسان راكيتين والتي أصبح راكيتين مستعدًا بعد ذلك لأن يضحي بكل شيء في سبيل أن يسحبها. وما كان لهذا كله أن يقع على كل حال لو قد تنبأ راكيتين بأن المحامي قد اطلع أثناء هذه الفترة القصيرة على أدق تفاصيل الأمور.
حين جاء دور المحامي لاستجواب الشاهد، قال وعلى ثغره ابتسامة فيها كثير من اللطف والمودة بل والاحترام:
- اسمح لي أن أسألك هل أنت ذلك السيد راكيتين نفسه الذي نشرت له سلطات الأبرشية في الآونة الأخيرة كتيبًا عنوانه «سيرة الأب السعيد الشيخ زوسيما»، وهو كتيب مليء بأفكار دينية أخلاقية عميقة، ومُهدى بكثير من التبجيل واللباقة إلى صاحب العظمة سيادة البطرك؟ لقد قرأت هذا الكتيب مؤخرًا بكثير من الاهتمام.
تمتم راكيتين يقول وقد بدا عليه الاضطراب فجأة كأنه يشعر بخزي:
- أنا لم أكتب هذه السيرة لتُنشر، وإنما نُشرت بعد ذلك دون علمي.
- ها... عظيم !! إن مفكرًا مثلك يستطيع ويجب عليه أن يبرهن على سعة عظيمة في النظر إلى أية ظاهرة اجتماعية. وقد قُيّض لكتيبك الممتاز، بفضل حماية صاحب العظمة البطرك، أن ينتشر انتشارًا واسعًا وأن يكون ذا فائدة... ولكنني أحبّ من جهتي، دون أن أكون مسرفًا في الفضول، أن ألقي عليك سؤالًا صغيرًا: لقد ذكرت منذ قليل أنك تعرف جيدًا السيدة سفيتلوفا، أليس كذلك (يلاحظ القارئ أنه عُرف في تلك اللحظة وحدها أن اسم أسرة جروشنكا هو سفيتلوفا. ولقد سمعت هذا الاسم في هذه المناسبة لأول مرة).
هتف راكيتين يقول وقد احمر وجهه احمرارًا شديدًا:

- لا يمكن أن أؤاخَذَ على معرفتي بجميع من أعرف من الناس... أنا شاب... ومن ذا الذي يتحمل تبعة جميع ما يعرض له من لقاءات؟
فهتف فيتوكوفتش هو أيضًا يقول متظاهرًا بالخجل حريصًا على المبادرة إلى الاعتذار:
- طبعًا، طبعًا، مفهوم! أنا أفهم هذا حق الفهم. إنه لمن الطبيعي جداً أن تجتذبك، كما تجتذب أي إنسان آخر غيرك، متعة امرأة جميلة يحلو لها أن تستقبل في بيتها زهرة شبان المدينة... ولكنني... أريد أن توضح لي نقطة واحدة: نحن نعلم أن السيدة سفيتلوفا قد تمنت منذ شهرين، بكثير من الإلحاح، أن تتعرف إلى ألكسي فيدوروفتش، أصغر الأخوة كارامازوف، وأنها رجتك أن تجيئها به، وأن تجيئها به مرتديًا ثوب الرهبان الذي يرتديه، وقد وعدتك إذا أنت أفلحت في أن تجيئها به، وعدتك بمكافأة مقدارها خمسة وعشرون روبلًا. ونحن نعلم أنك لبيت طلبها، وأن الزيارة تمت في تلك السهرة نفسها التي اختتمت بالفاجعة موضوع الدعوى. لقد قدت ألكسي فيدوروفتش إلى بيت السيدة سفيتلوفا، وأخذت منها المبلغ الذي وعدتك به، وهو خمسة وعشرون روبلًا، هل هذا كله صحيح؟ ذلك ما أحبّ أن توضحه لنا الآن.
- كانت تلك مزحة لا أكثر... ولست أرى فيم يمكن أن يعنيك هذا الأمر... وقد أخذت المبلغ من باب المزاح والعَبَث... وعلى نية ردّه إليها بعد ذلك...
- إذًا أخذت المبلغ؟ ولكنك لم تردّه حتى الآن... أم تُراك رددته؟
تمتم راكيتين يقول:
- هذه سفاسف. وأنا أرفض أن أجيب عن أسئلة من هذا النوع... طبيعي أنني سأرد هذا المال.
هم الرئيس أن يتدخّل في تلك اللحظة، ولكن المحامي أسرع يعلن أنه لم يبق لديه سؤال آخر يلقيه على راكيتين. وانصرف راكيتين منكسرًا إلى حد ما. لقد فسد ما أحدثه خطابه من شعور بأنه إنسان نبيل النفس، فسادًا لا صلاح له بعده... وكان فيتوكوفتش الذي لاحقه بنظرة ساخرة، كان كمن يخاطب الجمهور قائلا له: «انظروا إلى شهود الاتهام هؤلاء، ما قيمتهم!» وإني لأذكر أن ميتيا قد أحدث حادثًا في هذه المناسبة أيضًا. فإنه وقد أحنقته اللهجة التي تكلم بها راكيتين عن جروشنكا، صاح فجأة يطلق على راكيتين من مكانه هذا اللقب: «برنار»، وحين اتجه الرئيس، بعد استجواب راكيتين، إلى المتهم ليسأله هل له ملاحظات يريد أبداءها، صرخ ميتيا يقول بصوت مجلجل:
- لقد اقترض مني مالًا عدة مرات وأنا رهن التحقيق. هذا برنار حقير، لا يؤمن بالله، وقد ضلّل صاحب العظمة البطرك وغرّر به !
طبيعي أن ميتيا قد أُمِرَ من جديد بالتزام النظام، واجتناب الألفاظ النابية، ولكن السيد راكيتين كان قد أُجهز عليه. ولم يكن حظ الاتهام مع الشاهد التالي، وهو النقيب سنيجيريف، أكبر من حظه مع الشاهدين السابقين، ولكن لسبب آخر. لقد جاء سنيجيريف إلى المحكمة مشعث الثياب وسخ الهيئة موحل الحذاءين، وسرعان ما أدرك الناس أن المسكين سكران سكرًا تامًا، رغم جميع الاحتياطات المتخذة ورغم «تقرير الخبير». فلما سئل عن الإهانة التي ألحقها به ميتيا رفض بإصرار عنيد أن يجيب. وقال:
- سامحه الله. إن صغيري إيليوشا لا يريد هذا. سينصفني الله في الآخرة.
- من الذي لا يريد؟ من يمنعك من الكلام؟
- إيليوشا، ابني الصغير: «بابا حبيبي بابا ما أكثر ما أذلّك!».
هكذا كلمني قرب الصخرة. وهو الآن يموت.
قال النقيب ذلك ثم انفجر باكيًا منتحبًا على حين فجأة، وسجد أمام قدمي الرئيس. فأسرعوا يخرجونه وسط ضحك الحضور و قهقهاتهم، وضاع على وكيل النيابة ما كان يعوّل عليه من أثر يمكن أن يحدثه هذا الرجل المسكين.
واستمر المحامي يستعمل جميع أساليب فنه، واستمر الناس يدهشون مزيدًا من الدهشة لاطلاعه العجيب على القضية بأدق تفاصيلها. هكذا أحدثت الشهادة التي أدلى بها تريفون بوريستتش أثرًا قويًا في أول الأمر، وكانت هذه الشهادة تدين ميتيا طبعًا. من ذلك خاصة أنه حسب، قرشًا قرشًا، النفقات التي أنفقها ميتيا أثناء رحلته الأولى إلى موكرويه قبل وقوع الفاجعة بشهر، فبين أن ميتيا لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون قد أنفق أقل من ثلاثة آلاف روبل، «أو ما يقارب من ذلك. ما أكثر ما رمى للغجريات من مال! أما فلاحونا المقمّلون فإنه لم يكتف بنفحهم نقودًا صغيرة أو نقودًا من فئة الخمسين كوبيكًا بل كان يوزّع عليهم أوراقًا مالية لا تقل الواحدة منها عن خمسة وعشرين روبلًا! ناهيكم عما سُرق منه في تلك الليلة!! ومن يسرق لا يترك يده فكيف يمكن أن تمسك به إذا كنت أنت نفسك تتلف المال إتلافًا وتبدده تبديداً. إن الناس عندنا لصوص لا ضمير لهم ولا وجدان. والبنات! بنات قريتنا! إنه لم ينسهن ! لقد اغتنين منذ ذلك الحين، بينما كان جميع الناس عندنا فقراء قبل تلك الليلة؟». الخلاصة أن تريفون بوريستتش أحصى جميع النفقات، وبدا أنه يجري حسابًا دقيقًا. وبذلك يكون الافتراض القائل بأن ميتيا لم ينفق إلا ألفًا وخمسمائة روبل، وأنه خاط باقي المبلغ في كيس صغير، مردودًا مرفوضًا. «رأيت الثلاثة آلاف روبل بعينيّ، ما أنا بمن يُخدع في مثل هذه الأمور!» كذلك كان يصيح تريفون بوريستتش، وكان واضحًا أنه إنما يفعل ذلك حبًا بإرضاء السلطات. ولكن حين جاء دور المحامي الإلقاء الأسئلة على الشاهد، اكتفى المحامي بأن ذكر الواقعة التالية دون أن يحاول الطعن في شهادة صاحب الفندق، قال: إن الحوذي تيموثي وفلاحًا اسمه آكين قد عثرا بورقة مالية بمائة روبل كانت قد سقطت على أرض الدهليز من ميتيا وهو في حالة سكر، فحملا هذه الورقة المالية وأعطياها لِتريفون بوريستتش الذي كافأ كلًا منهما بروبل، «فهل أرجعت المائة روبل هذه إلى السيد كارامازوف أم أنت لم ترجعها؟ أجب !». فحاول تريفون بوريستتش أن يتملص من الجواب، ولكنه بعد سؤال الفلاحَيْن اللذين عثرا بالورقة المالية، اضطر أن يعترف بالواقعة، واكتفى بأن يؤكد أنه قد أرجع الورقة المالية إلى دمتري فيدوروفتش فورًا، وأنه فعل ذلك «بدافع الأمانة والشرف، ولكنه كان قد بلغ منه السكر كل مبلغ حينذاك، فمن الجائز أن يكون قد نسي أن المال أعيد إليه في حينه». ولكن لما كان تريفون بوريستتش قد ظل إلى حين مثول الفلاحين ينكر العثور بورقة نقدية على أرض الدهليز أصلًا، فإن ما ادعاه بعد ذلك من أن الورقة قد أرجعت إلى ميتيا الثمل، أصبح مطعونًا فيه. هكذا رأينا شاهدًا من أخطر شهود الاتهام يفرغ من شهادته وقد تزعزعت سمعته تزعزعًا قويًا.

وكذلك كان شأن «البانَيْن البولنديين». لقد أظهرا في البداية كبرياءً وغرورًا، وأكدا بصوت قوي أنهما «خدما التاج» [244] بأمانة وإخلاص وأن «البان ميتيا»، عرض عليهما أن يدفع لهما ثلاثة آلاف روبل ثمنًا لشرفهما، وأنهما شاهدا ذلك المبلغ في يديه بأعينهما. وقد استعمل البان موزيالوفيتش عددًا كبيرًا من الألفاظ البولندية في جمله، فلمّا لاحظ أن ذلك قد رفع قدره وزاد قيمته في نظر رئيس المحكمة ووكيل النيابة، شعر بارتياح وسرور وأخذ يتكلم بالبولندية. ولكن فيتوكوفتش عرف كيف يقتنص هذين الرجلين أيضًا بشباكه: فرغم أن تريفون بوريستتش، الذي استدعي إلى القاعة مرة أخرى، قد حاول الإنكار، فإنه اضطر أخيرًا أن يعترف بأن البان فروبلفسكي قد استبدل بورق اللعب الذي أخذه منه ورقًا آخر أخرجه خلسةً، وأن البان موزيالوفيتش قد غشّ في اللعب أثناء استلامه دور «البنك». وقد جاءت أقوال كالجاموف الذي أدلى بشهادته بعد ذلك، جاءت مؤيدةً الصحة هذه «التفاصيل»، فخرج البانان البولنديان مرتبكين مجللين بالعار تشيعهما قهقهات الحضور.
وهذا المصير نفسه كان ينتظر شهود الاتهام الآخرين الخطرين. فقد عرف فيتوكوفتش كيف يسقط اعتبار كل واحد منهم من الناحية الأخلاقية، فانصرفوا وهم في حالة يرثى لها. وقد أعجب محبو الاطلاع ورجال القانون ببراعة المحامي هذه، ولكنهم كانوا يتساءلون ما الذي يمكن أن يجنيه بهذا الأسلوب من فائدة للقضية، ذلك لأنهم - أكرر هذا - كانوا يشعرون جميعًا بأن الاتهام قوي قوة لا تقاوم وأن الأدلّة تتكاثر ويتراكم بعضها فوق بعض وتزداد مأساوية وتصاعدًا. ومع ذلك كان الناس يدركون، من ملاحظة الثقة البادية في هيئة «الساحر الكبير»، أنه كان هادئًا مطمئنًا، لذلك كانوا ينتظرون الخاتمة بكثير من الشوق. ليس عبثًا أن يزعج «مثل هذا الاستاذ» نفسه بالمجيء إلى بلدتنا من سان بطرسبرج، فما هو حتمًا بالرجل الذي يرجع خائبًا دون ثمرة يجنيها.

-3-الفحص الطبي الشرعي ورطل من بندق

كذلك فإن الفحص الطبي الشرعي لم ينفع المتهم كثيرًا، وكان فيتوكوفتش نفسه لا يعوّل كثيرًا عليه، في ما يبدو، كما ظهر ذلك فيما بعد. وإنما عمد إلى استخدامه بسبب إلحاح كاترينا إيفانوفنا التي استقدمت لهذا الغرض طبيبًا شهيرًا من موسكو. كان واضحًا أن الدفاع لن يخسر باستخدام الفحص الطبي الشرعي شيئًا، حتى لقد يجني بعض النفع إذا واتت الظروف. على أن الفحص الطبي الشرعي هذا قد صحبته مشاهد مضحكة جداً، وذلك بسبب اختلاف الأطباء في الرأي. كان الأطباء الذين عيّنوا خبراء للإدلاء بآرائهم في هذه القضية هم أولًا الأخصائي الشهير الذي استُقدم من موسكو، ثم طبيبنا الدكتور هرتسنشتوبه، وأخيرًا الطبيب الممارس الشاب فارفنسكي. على أن هذين الطبيبين الآخيرين قد مَثلا أمام المحكمة بصفتهما شاهدين أيضًا، لأن وكيل النيابة قد طلب ذلك. فأما الخبير الأول الذي استدعي للإدلاء برأيه فهو الدكتور هرتسنشوبه. إنه عجوز في السبعين من عمره، أشيب أصلع، مربوع القامة قوي البنية، كان الناس في مدينتنا يعتبرونه ويحترمونه كثيرًا. كان صاحب ذمة وضمير، طيب القلب عالي الأخلاق، ويبدو أنه كان من ملة الهيرنهوتر أو من «الإخوان المورافيين»[245] إذا لم يخطئ ظني. وهو يقيم في مدينتنا منذ سنين طويلة وكان على جانب عظيم من الوقار والمهابة. وكان رجلًا إنسانيًا كريمًا، فهو يعالج الفقراء والفلاحين مجانًا، ويعودهم في أكواخهم ويترك لهم مالًا لشراء الأدوية. ولكنه كان في الوقت نفسه عنيدًا عناد بغل. كان لا يمكن أن يُزحزح قيد شعرة عن رأي قام في ذهنه. ومهما يكن من أمر، فلقد كان جميع الناس يعلمون أن الأخصائي الشهير الآتي من موسكو قد استطاع خلال اليومين أو الأيام الثلاثة التي قضاها في مدينتنا أن يُفصح مرارًا عن آراء تطعن في كفاءات الدكتور هرتسنوبه الطبية طعنًا بالغًا جارحًا. ورغم أن هذا الأخصائي قد تقاضى خمسة وعشرين روبلًا على الأقل عن كل كشف طبي أجراه، فما كان أكثر الذين ابتهجوا في مدينتنا لقدومه، وانتهزوا الفرصة لزيارته واستشارته غير ضانين بالمال. وطبيعي أن جميع هؤلاء المرضى كان قد عالجهم الدكتور هرتسنشتوبه قبل ذلك، فكان الأخصائي الشهير ينتقد المعالجة التي وصفها لهم الدكتور هرتسنشتوبه نقدًا لاذعًا بألفاظ قاسية جداً، حتى لقد صار آخر الأمر يبادر المرضى الوافدين إليه بهذا السؤال: «هيه! أليس الدكتور هرتسنشوبه هو الذي صيّرك إلى هذا الحال؟ قه قه قه!...» وقد علم الدكتور هرتسنشتوبه طبعًا بما كان يقوله عنه هذا الطبيب الأخصائي. وها هم أولاء الأطباء الثلاثة يمثلون أمام المحكمة واحدًا بعد واحد كخبراء! أكد الدكتور هرتسنشتوبه دفعةً واحدة أن «المتهم لا يملك كامل قواه العقلية، وأن هذا يُرى من أول نظرة». وحين بسط آراءه في هذا الموضوع (وهي آراء لن أعرضها هنا) أضاف يقول إن الشذوذ النفسي الذي يعاني منه المتهم يتجلى لا في طائفة كبيرة من الأعمال التي سبق أن ارتكبها فحسب، بل يمكن أن يلاحظ أيضًا - وهذا أهم - في سلوكه في جلسة المحاكمة هذه نفسها. فلمّا طُلب إلى الدكتور هرتسنشتوبه أن يقول أين هو الشذوذ في وضع المتهم الآن، أجاب الطبيب العجوز قائلًا بالسذاجة المعهودة فيه إن المتهم حين دخل القاعة «كان يمشي مشية غريبة لا تلائم الظروف التي هو فيها، فهو يسير قدمًا لا يلوي على شيء، كما يسير جندي، وهو يحدّق بعينيه تحديقًا ثابتًا لا ينظر يمنة ولا يسرة، مع أن الشيء الطبيعي السوي بالنسبة إليه هو أن ينظر يسرة، حيث توجد النساء، من الحضور، لأنه رجل يحب الجنس اللطيف حبًا عظيمًا، فلا بد أن يقيم وزنًا لما عسى أن يكون رأي السيدات فيه حينذاك». وكان الطبيب العجوز يتكلم بلغة خاصة به. يحسن أن نذكر أنه كان يتكلم اللغة الروسية بانطلاق وتدفق، ولكن كل جملة من جمله كان فيها شيء ألماني لا أدري ما هو، وذلك أمر لم يكن يقلقه البتة، لأنه تعوّد طوال حياته أن يعتقد أنه يتقن الروسية اتقانًا كاملًا، وأن روسيته «خير من روسية الروس أنفسهم». وكان يحب كثيرًا أن يستشهد بالأمثال الروسية، وكان يؤكد في كل مرة أن الأمثال الروسية أجمل وأبلغ من أمثال سائر الشعوب. يجب أن أضيف إلى هذا أنه كثيرًا ما كان يتفق له أثناء الحديث - عن شرور في أغلب الظن - أن ينسى ألفاظًا هي أكثر الألفاظ استعمالًا، ألفاظًا يعرفها حتمًا، ولكنها اختفت من ذهنه على حين فجأة. على أن هذا نفسه كان يحدث له حين يتكلم بالألمانية أيضًا. وهو في اللحظات التي يحدث له فيها ذلك، يأخذ يحرك يده أمام وجهه كمن يريد أن يلتقط الكلمة التي طارت، وما من أحد يستطيع عندئذ أن يجبره على مواصلة كلامه قبل أن يهتدي إلى اللفظة الضائعة.

أثارت الملاحظة التي ذكرها عن المتهم حين قال إنه كان عليه أن ينظر إلى جهة السيدات لحظة دخوله قاعة المحكمة، أثارت في جمهور النساء دمدمات ضاحكة. كانت النساء جميعًا يحببن عجوزنا جداً. وكنّ يعرفن أنه - على كونه عازبًا - قد عاش طوال حياته عفيفًا طاهرًا، وأنه يعد النساء كائنات عليا ومخلوقات مثالية، ولذلك بدت ملاحظته هذه التي لم تكن تتوقع منه، بدت لجميع الناس مثيرة للدهشة والاستغراب.

وجاء دور سؤال الأخصائي القادم من موسكو، فصرّح بلهجة قاطعة وإلحاح أن حالة المتهم العقلية هي في رأيه حالة غير سوية، بل هي «غير سوية إلى أقصى حد». وتكلم في إسهاب وتفقه عن حالة «الخلل العصبي»، وعن مرض «المانيا»، وبَرْهن بالاستناد إلى المعلومات المتجمعة أن المتهم كان قبل اعتقاله ببضعة أيام قد أصيب بحالة خلل عصبي، فإذا سلمنا جدلًا بأنه كان حين ارتكابه الجريمة واعياً شاعرًا بما يفعل، فمما لا شك فيه أنه فعل ما فعله بغير إرادة تقريبًا، لأنه لا يملك القدرة على مقاومة الاندفاع المرضي الذي كان قد سيطر عليه واستبد به. كذلك قال الأخصائي شارحًا. ثم أضاف يقول: على أن المريض كان مصابًا، عدا الخلل العصبي، بداء «المانيا»، وهذا يجعلنا نتنبأ بتطور سيؤدي به إلى الجنون الكامل (ملاحظة: إنني أنقل هنا بلغتي أنا، أقوال ذلك الطبيب الأخصائي في الأمراض العقلية الذي استعمل عندئذ لغة متخصصة فيها كثير من التفقه). وتابع الطبيب كلامه فقال: «لقد كان ينصرف في جميع الأحوال تصرفًا يخالف العقل والمنطق. لن أقول شيئًا عما لم أره بنفسي، أعني الجريمة وتلك الدراما كلها، ولكن يجب عليّ أن أذكر مع ذلك أن نظرته، أمس الأول، أثناء حديث جرى بيني وبينه، كان فيها جمود غريب ليس له تفسير. يضاف إلى هذا أنه كان يضحك بدون أي سبب يدعو إلى الضحك. وقد لاحظت لديه حنقًا مستمرًا غير مفهوم، كما لاحظت أنه يستعمل كلمات غريبة مثل «برنار»، «ايطيقا»، وغير ذلك من ألفاظ لا محل لها «إطلاقًا». على أن أبرز شيء يتميز به مرض «المانيا» لدى المتهم، في نظر الطبيب، هو أن المتهم كان لا يستطيع أن يواجه مشكلة الثلاثة آلاف روبل التي يعتقد أن أباه حرمه منها، وإلا يُصاب بحالة شديدة من الاندفاع، بينما يتكلم عن إخفاقات أخرى أو إهانات أخرى تحمّلها أثناء حياته دون أي اضطراب ظاهر. هذا ويخرج من معلومات أخرى تم الحصول عليها أن المتهم كان يستعر حنقه كلما ذكرت هذه الثلاثة آلاف روبل. رغم أنه، على ما يشهد به الشهود، لا يعد متهافتًا على المنفعة ولا يعد طمَّاعًا». ثم أضاف الطبيب الوافد من موسكو يقول بلهجة ساخرة خاتمًا كلامه: «أما عن رأي زميلي العالم الذي يذهب إلى أن المتهم كان ينبغي له عند دخوله القاعة أن ينظر جهة السيدات، فإنني أعتقد أن من واجبي أن أؤكد، بصرف النظر عما تتسم به هذه الملاحظة من طابع الملاحظة الفكهة، إن هذه الملاحظة خطأ فاحش. فإنني على موافقتي لرأي زميلي المحترم في أن المتهم ما كان ينبغي له أن ينظر إلى أمام، أثناء دخوله قاعة المحكمة التي سيتقرر فيها مصيره، وعلى موافقتي لرأي زميلي المحترم في أن فعلة المتهم هذه يجب أن تعد عرضًا من أعراض حالته العقلية المختلة، أقول إنني من جهتي أرى أن المتهم كان يجب عليه لا أن ينظر يسرةً إلى جهة السيدات، بل أن ينظر يمنةً إلى جهة محاميه باحثًا عنه في تلك اللحظة بعينه، لأن محاميه هو الآن أمله الوحيد، ولأن مصيره كله متوقف على دفاع هذا المحامي». أعرب الطبيب الأخصائي عن رأيه هذا بلهجة قاطعة لا تُرد. غير أن الخلاف المضحك الذي قام بين الطبيبين الخبيرين إنما وصل إلى أوجه وبلغ ذروته حين جاء دور الدكتور فارفنسكي الذي سئل عن رأيه آخر من سئل من الأطباء، فأخذ يدلي بآرائه ويقدم شروحه. قال هذا الطبيب إن المتهم هو، الآن كما كان في الماضي على السواء، في حالة طبيعية تمامًا، سليم كل السلامة، ولئن كان قبل اعتقاله في حالة عصبية، وكان مضطربًا اضطرابًا شديدًا، فذلك كله يمكن تعليله بأسباب طبيعية تمامًا، كالغيرة، والغضب، والإسراف المستمر في الشراب وما إلى ذلك. فهذه الحالة العصبية ليس فيها أي شيء من «الخلل العصبي» الذي جيء على ذكره، أما فيما يتعلق بالمسألة التي أثيرت حول الجهة التي كان ينبغي للمتهم أن ينظر إليها لحظة دخوله القاعة، فقد أعلن هذا الخبير الثالث أنه كان على المتهم «بحسب رأيه المتواضع» أن ينظر إلى أمام، كما فعل تمامًا، ذلك لأن رئيس المحكمة وأعضاءها، وهم الذين يتوقف عليهم مصيره، كانوا قبالته في تلك اللحظة. «وهو، إذ نظر إلى أمام فعلًا، فقد برهن على أنه في حالة نفسية سليمة بريئة من المرض». بهذا ختم الطبيب الممارس الشاب رأيه «المتواضع».

فصرخ ميتيا من مكانه يقول:

- مرحى يا حكيم! هكذا تمامًا! هذا صحيح.

وأُسكت ميتيا طبعًا، ولكن رأي الطبيب الشاب أحدث أثرًا حاسمًا في أعضاء المحكمة وفي جمهرة الحضور على السواء، لأن جميع الناس في مدينتنا قد انحازوا إلى رأيه، كما ظهر ذلك فيما بعد. على أن الدكتور هرتسنشتوبه، حين استُجوب كشاهد، أدلى بأقوال خدمت قضية ميتيا على نحو لم يكن يتوقعه أحد البتة. إن الدكتور هرتسنشتوبه، وهو يقطن مدينتنا منذ عهد بعيد ويعرف أسرة كارامازوف من زمان طويل، قدّم معلومات تساعد الاتهام كثيرًا، ولكنه أضاف يقول وكأنه تذكر شيئًا ما على حين فجأة:

- ومع ذلك فإن هذا الفتى المسكين كان يمكن أن يستحق مصيرًا أفضل، لأنه كان في طفولته طيب القلب، وبعد طفولته أيضًا، أنا أعرف هذا. على أن المثل الروسي يقول: «حسن أن يكون المرء ذا عقل، ولكن أحسنُ من ذلك أن يزوره رجل آخر ذو عقل، لأن عقلين اثنين خير من عقل واحد...».

- تريد أن تقول إن عقل حسن وعقلان أحسن.

كذلك تدخل وكيل النيابة نافد الصبر وهو يعرف طريقة الطبيب العجوز في بطء الكلام وجرّ الألفاظ دون أن يعبأ بأثر ذلك في مستمعيه ودون أن يحفل بنفاد

صبرهم عند الإصغاء إليه حتى لقد كان يبدو أنه يقدر قدرًا كبيرًا مزاحاته الجرمانية الثقيلة الضخمة، يستعملها بطريقة مليئة بالابتهاج والرضى عن النفس. وكان إلى ذلك يهوى التندر.

استأنف الطبيب العجوز كلامه فقال معاندًا:

- نعم، ذلك هو ما قلته.. عقل واحد حسن وعقلان أحسن بكثير. ولكن هذا الشاب لم يزره رجل عاقل آخر، فمضى عقله هو.. مضي ي–... مضى يعمل ماذا؟... نسيت الكلمة.... الكلمة التي تعبّر عما مضى يعمله عقله. نسيت تلك الكلمة (كذلك ردّد وهو يحرك يده أمام عينيه) آ... نعم... تذكرت... مضى عقله «شباتسرين».

- تقصد «يتنزّه»؟

- نعم يتنزّه. ذلك ما قلته أيضًا. مضى عقله يتنزّه، فوصل إلى مكان عميق حيث أضاع نفسه. ولكنه كان فتى نبيلًا حساسًا... أوه... إنني أتذكر يوم كان صغيرًا جداً قد أهمله أبوه فهو يجري في فناء المنزل حافي القدمين لا يكاد يمسك سرواله إلا زر واحد.

وهنا اختلج صوت العجوز الشريف برنة انفعال صادق. فارتعش فيتوكوفتش إذ أوجس مواتاة الفرصة الحسنة. وسرعان ما تشبث بهذا الشاهد.

واصل الطبيب العجوز كلامه فقال:

- نعم، نعم، كنت ما أزال شابًا في ذلك الوقت... كان عمري... نعم... كان عمري خمسة وثلاثين عامًا. وكنت قد استقررت في هذه المدينة منذ فترة قصيرة. لقد أشفقت على الصبي وتساءلت لماذا لا أشتري له رطلًا من... نعم، رطلًا من... ولكن رطلًا مماذا؟ نسيت الكلمة... ما اسم ذلك النوع؟ هو شيء من تلك الأشياء التي يحبها الأطفال كثيرًا... هوه! كيف نسيت؟... كيف نسيت؟... (وحرّك الطبيب يديه أمام عينيه من جديد)... هو ينبت على الأشجار، على الشجيرات فيقطف ويوزّع على الجميع...

- تفاح؟

- أوه! لا، لا! رطلًا، قلت رطلًا. التفاح يباع بالدّسته لا بالرطل... هو وافر جداً، وهو صغير.... تضعه في فمك فتضغط عليه بأسنانك فيطق...

- بندق؟

- نعم، بندق، ذلك بعينه ما قلته أنا...

كذلك وصل الطبيب العجوز قوله هذا بقوله السابق هادئًا كل الهدوء، كأنه لم يبحث عن تلك الكلمة، فتابع يقول:

- جئت الصبي برطل من البندق، لأن أحدًا لم يكن قد جاءه بشيء منه قبل ذلك. رفعت إصبعي وقلت له:

«اسمع أيها الصبي الصغير العزيز، Gott der Vater...» فضحك وردَّد: «Gott der Vater Gott der Sohn»[246] (باسم الإله الأب، باسم الإله الابن) ثم ردَّد ضاحكًا مزقزقًا من جديد «:Gott der Sohn Gott der heilige Geist» - وراح يضحك ويردد عدة مرات «Gott der heilige Geist». ثم انصرفت. ومررت قرب الصبي غداة اليوم التالي. فصرخ يقول: يا عم! «Gott der Vater Gott der Sohn» ولكنه نسي Gott der heilige Geist[247] فذكرته بها، ورثيت لحاله وأشفقت عليه من جديد. ولكنهم نقلوه من هذه المدينة فلم أره بعد ذلك. وانقضت ثلاثة وعشرون عامًا. وفيما أنا في عيادتي ذات صباح، وكان شعري قد ابيضَّ، إذا بي أرى شابًا مزهر الوجه زاهي المحيا يدخل عليَّ. ما كان لي أن أعرف من هو هذا الشاب. وها هو ذا يرفع إصبعه ويقول ضاحكًا: «باسم الإله الأب، باسم الإله الابن، باسم الإله الروح القدُس» (بالألمانية في الأصل).

لقد وصلت إلى هذه المدينة منذ قليل، وأحب أن أشكر لك رطل البندق الذي أهديته إلي في الماضي. ما كان أحد قد أهدى إليَّ شيئًا منه قبلئذٍ. أنت وحدك أهديتني رطلًا من بندق». تذكرت عندئذ شبابي الغابر السعيد، وتذكرت الصبي الصغير الذي كان يجري في فناء الدار حافي القدمين. وتأثر قلبي فقلت له: «أنت شاب نبيل النفس كريم القلب، لأنك لم تنسَ رطل البندق الذي جئتك به في طفولتك». وقبَّلته، وبارته باكيًا. فكان يضحك، ويبكي أيضًا. إن الروس كثيرًا ما يضحكون حيث يحسن البكاء. ولكنه بكي، أنا متأكد من ذلك، رأيته يبكي. والآن واحسرتاه! هو ذا. صاح ميتيا من مكانه يقول:

- والآن أبكي أيها الألماني! نعم أبكي أيها الإنسان الطيب!

مهما يكن من أمر، فإن هذه القصة الصغيرة قد أحدثت في الحضور أثرًا طيبًا. غير أن الأقوال التي أدلت بها كاترينا إيفانوفنا والتي سأتحدث عنها بعد قليل، هي التي خدمت قضية ميتيا خدمة خاصة. وفي وسعنا أن نقول على وجه العموم إن الحظ أخذ يبتسم فعلًا لميتيا منذ بدأ توافد شهود الدفاع الذين استدعاهم المحامي، الأمر الذي لم يكن يتوقعه المحامي نفسه، وهذا ما يلفت النظر أكثر من أي شيء آخر. على أن أقوال أليوشا قد سُمعت قبل أقوال كاترينا إيفانوفنا. وقد تذكر أليوشا على حين فجأة واقعةً يبدو أنها يمكن أن تكون برهانًا وضعيًا يفيد ميتيا، ويدمر نقطة من أهم النقاط التي يرتكز عليها الاتهام.

-4-الحظ يبتسم لميتيا

تغير الحظ كأنما بمصادفة، من دون أن يكون أليوشا قد سعى إلى هذه النتيجة. لم يُحلَّف أليوشا اليمين. وإني لأتذكر أن الطرفين كليهما قد أحسنا استقباله وشعرا نحوه بعطف ومودة منذ الأقوال الأولى من شهادته. ولعل القارىء يدرك أن سمعة أليوشا الحسنة كانت قد سبقته إلى قاعة المحكمة. تكلم أليوشا بلهجة فيها تواضع وتحفظ، ولكن ما يشعر به نحو أخيه البائس من عاطفة حارة قد تدفق في أقواله. قال في الجواب عن سؤال ألقي عليه إن أخاه إن يكن عنيفًا شديد الاندفاع في أهوائه، فإنه في الوقت نفسه نبيل القلب كريم النفس سخي جوّاد قادر على التضحية حين تجب التضحية ولكن أليوشا اعترف أن توله أخيه بغرام جروشنكا، وتنافسه مع أبيه، قد جعلاه في الأيام الأخيرة صعب المراس، ووضعاه في حالة لا تطاق وفي مقابل ذلك استاء أليوشا استياءً شديدًا من الفكرة القائلة بأن أخاه يمكن أن يقتل بدافع الطمع في المال، ولكنه اعترف من جهة أخرى أن هذه الثلاثة آلاف روبل كانت قد ولَّدت في نفس ميتيا شيئًا يشبه أن يكون مسًّا، فهو دائب التفكير فيها، وهو يعدها جزءًا من ميراثه الذي حرمه أبوه منه زورًا واختلاسًا، وهو على كونه زاهدًا في الربح قليل الاهتمام بالمنفعة، لا يستطيع أن يتكلم في أمر هذه الثلاثة آلاف روبل دون أن يستبدّ به حنق شديد وغضب ملتهب. أما التنافس الذي أشار إليه وكيل النيابة بين «المرأتين»، أي بين جروشنكا وكاترينا إيفانوفنا، فقد تكلم عنه أليوشا متهربًا متملصًا، بل رفض حتى أن يجيب عن سؤال أو سؤالين.

سأله وكيل النيابة:

- ألم يذكر لك أخوك، على الأقل، أنه كان ينوي أن يقتل أباه؟ ثم أضاف:

- تستطيع الامتناع عن الإجابة إذا كنت تؤثر الامتناع.

قال أليوشا:

- لم يقل لي ذلك على نحو مباشر.

- أقاله إذًا على نحو غير مباشر؟ كيف قاله؟

- حدَّثني عن الكره الذي يحمله لأبينا، وعن خوفه من أنه قد لا يستطيع أن يمسك نفسه عن قتله... ذات يوم... في لحظة اندفاع شديد... في لحظة تقزز لا سبيل إلى التغلب عليه...

- هل صدَّقته حين سمعته يقول هذا الكلام؟

- أخشى أن أقول إنني صدقته. ولكنني كنت دائم الاقتناع بأن عاطفة عليا ستنقذه في اللحظة الحاسمة، وقد أنقذته فعلًا لأنه ليس هو الذي قتل أبي.

هكذا ختم أليوشا كلامه بصوت ثابت قوي ترجَّع إلى آخر القاعة.

انتفض وكيل النيابة كحصان في ساحة القتال سمع صوت النفير؛ وقال:

- اطمئن إلى أنني أثق ثقة تامة بصدق اقتناعك، دون أن أنسبه إلى ما تشعر به نحو أخيك المسكين من حب. وقد اطلعنا من التحقيق الأولي على نظرتك الخاصة إلى الأحداث المفجعة التي جرت في أسرتك؛ ولكنني لا أكتمك أن رأيك يبدو لنا غريبًا إلى أبعد حدود الغرابة، وأنه يناقض جميع الشهادات الأخرى التي جمعها الاتهام. ذلك هو السبب في أنني أرى من واجبي أن أطلب إليك ملحًا أن تذكر لنا الأساس الذي تبني عليه رأيك حين تؤكد باقتناع جازم أن أخاك بريء، وحين تسند هذه الجريمة إلى شخص آخر سبق لك أن أسميته على نحو مباشر في التحقيق التمهيدي.

قال أليوشا بصوت هادىء عذب:

- في التحقيق التمهيدي، اقتصرتُ على الإجابة عن الأسئلة التي أُلقيت عليَّ، ولم أتهم سمردياكوف من تلقاء نفسي.

- ولكنك أسميته، أليس كذلك؟

- ذكرته مستندًا إلى أقوال أخي دمتري. فقد ذُكر لي، قبل ذلك الاستجواب، ما حدث عند اعتقال أخي، وقيل لي إن أخي اتهم هو نفسه سمردياكوف حينذاك. إنني مقتنع اقتناعًا كاملًا ببراءة أخي. وإذا لم يكن هو القاتل، فقد لا يكون القاتل إلا...

- إلا سمردياكوف؟ لماذا سمردياكوف بالذات؟ وما الذي يحملك على هذا الاقتناع كله ببراءة أخيك؟

- لا أملك إلا أن أصدقه... أصدقه... أنا أعلم أنه لن يكذبني

بحال من الأحوال. ثم إنني رأيت في عينيه أنه كان يقول الحقيقة.

- في عينيه فقط؟ أليس لديك براهين أخرى؟

- ليست لديَّ براهين أخرى.

- وبالنسبة إلى اتهام سمردياكوف، أليس عندك من البراهين أيضًا إلا أقوال أخيك وتعبير وجهه؟

- لا، ليس لديَّ براهين أخرى.

هنا عدل وكيل النيابة عن الاستمرار في استجواب أليوشا. وقد أثارت أجوبة أليوشا كثيرًا من خيبة الأمل لدى الجمهور. كان الناس في مدينتنا قد تكلموا عن سمردياكوف كثيرًا قبل المحاكمة وكان هناك أشخاص سمعوا شيئًا، وأشخاص ممن يزعمون الاطلاع على خفايا الأمور، قد ألقوا في روع الناس أن أليوشا جمع أدلة قوية كل القوة تقرر براءة أخيه وتثبت أن الخادم هو الجاني. فإذا بكل شيء يتبدد الآن. إن أليوشا لم يأت بأي عنصر حاسم، ولم يجيء إلا باقتناع معنوي وهو أمر طبيعي عند شقيق المتهم.

عندئذ جاء دور فيتوكوفتش لاستجواب الشاهد. بدأ المحامي بسؤال أليوشا متى حدثه المتهم عن كرهه أباه وعن شعوره بأنه قد يقتله، وهل أفضى إليه بهذه المسارات أثناء لقائهما الأخير قبل وقوع المأساة؟

وفيما كان أليوشا يجيب عن هذا السؤال، إذاً هو يرتعش فجأة كأنه تذكر شيئًا ما في تلك اللحظة نفسها وقال:

- إنني أتذكر الآن شيئًا كنت قد نسيته تمامًا، ولم يكن واضحًا لي آنذاك، أما الآن...

وأخذ يقص بكثير من الحرارة والانتعاش، كأن فكرة مفاجئة قد ومضت في ذهنه، كيف أن أخاه، أثناء آخر لقاء له معه على طريق الدير قرب شجرة في المساء، قد لطم صدره عدة مرات، قد لطم «أعلى صدره» عدة مرات، مرددًا بإلحاح أنه يملك الوسيلة لاسترداد شرفه؛ وأن هذه الوسيلة موجودة هنا، في هذا الموضع، على الصدر... ومضى أليوشا يقول: «ظننتُ عندما لطم صدره على ذلك النحو أنه كان يشير إلى قلبه. قدَّرت أنه كان يرى أن قلبه يملك من القوة ما يكفيه لاتقاء عارٍ رهيب يهدده، عارٍ لا يجرؤ أن يعترف لي به. أعترف أنني افترضت أنه كان يلمّح إلى أبيه ويلطم صدره لشعوره بالخجل والخزي من أنه اندفع يعامل أباه بالعنف. ولكنني أتذكر الآن أنه إنما كان يشير إلى شيء ما على صدره، حتى إنني خطر ببالي في تلك اللحظة أن القلب ليس هذا موضعه، فإنما يوجد القلب تحت ذلك، وهو يلطم من صدره موضعًا أعلى كثيرًا من موضع القلب؛ كان يلطم هنا، تحت العنق، ويظل يشير إلى ذلك الموضع نفسه دائمًا. لقد بدت لي أفكاري غبية حينذاك فلم أعبأ بها، ولكنني أتساءل الآن فجأة ألم يكن يشير لي إلى الكيس الصغير الذي خاطه على الألف وخمسمائة روبل؟...».

صاح ميتيا من مكانه يقول:

- هو ذاك تمامًا؛ لقد حزرتَ يا أليوشا. هو ذاك كنتُ ألطم الكيس الصغير في تلك اللحظة.

اندفع فيتوكوفتش في لهفة يهدىء ميتيا متوسلًا إليه أن يسكن ويطمئن؛ ثم التفت نحو أليوشا يتابع الاستماع إلى شهادته متشبثًا بها تشبثًا قويًا. تحمّس أليوشا لذكراه هذه، فعرض فكرته بحرارة، قائلًا إن العار الذي حدّثه عنه ميتيا ربما كان قوامه أن ميتيا، رغم أنه يملك الألف وخمسمائة روبل، أي نصف المبلغ الذي يدين به لكاترينا إيفانوفنا، ورغم أن في وسعه أن يردَّ إليها هذا الجزء من دَيْنها عليه، قد آثر أن لا يرد المبلغ، وذلك ليستخدمه في غرض آخر هو أن يملك ما يمكنه من الرحيل مع جروشنكا متى وافقت جروشنكا على أن تتبعه.

وصاح أليوشا يقول بحماسة شديدة:

- نعم نعم، هو ذاك، هو ذاك. لقد ذكر لي أخي في ذلك المساء أن في وسعه أن يتخلص من نصف ذلك العار، نعم من نصفه، نصفه، لقد قال لي ذلك (ردّد أليوشا كلمة نصفه مرارًا). ولكن ضعف إرادته يمنعه من الإقدام... كان يعلم مقدمًا أنه لن يستطيع الإقدام، أنه لا يملك القوة اللازمة لذلك!

سأله فيتوكوفتش بنهم:

- أنت تتذكر تذكرًا واضحًا جليًا أنه لطم من صدره ذلك الموضع بعينه تمامًا؟

- أتذكر ذلك تذكرًا واضحًا جليًا، لأنني تساءلت عندئذ: «لماذا يلطم من صدره ذلك الموضع العالي مع أن القلب يقع تحت هذا الموضع؟». وأتذكر أن هذا التساؤل

بدا لي غبيًا... أتذكر ذلك تذكرًا واضحًا جداً. كان هذا خاطرًا خاطفًا وَمَض في ذهني ومضًا. وبسبب ذلك التساؤل إنما تذكرت الآن هذه الواقعة. وإني لأتساءل كيف لم يخطر على بالي ذلك، كيف أمكن أن أنساها حتى الآن! واضح أنه كان يشير عندئذ إلى الكيس الصغير برهانًا على أن في وسعه أن يردَّ الألف وخمسمائة روبل، ولكنه لن يفعل، وبعد ذلك، حين قُبض عليه في موكرويه، صرخ يقول - أنا أعلم هذا فقد ذُكر لي - صرخ يقول إنه يرى أن أكبر عار في حياته هو – رغم أنه كان يملك القدرة - أن يرد إلى كاترينا إيفانوفنا نصف دينها (نعم، ذكر كلمة النصف)، فلا يكون في نظرها بعد ذلك لصًا، لم يعزم أمره على ردِّ المبلغ، مؤثرًا أن يُعدَّ لصًا على أن يتنازل عن المال. ومع ذلك ما أشد ما كان يعذبه هذا الدَيْن! أوه! ما أشدَّ ما كان يعذبه!

بهذا ختم أليوشا كلامه.

وقد تدخل وكيل النيابة طبعًا، فرجا أليوشا أن يصف المشهد ثانية وألحَّ مرارًا كثيرة على أن يعرف هل صحيح أن المتهم كان يبدو مشيرًا إلى شيء موجود على صدره حين لطم صدره. لعله كان لا يزيد على أن يضرب صدره بقبضة يده غضبًا؟

هتف أليوشا يقول:

- لا، لا، إنه لم يضرب صدره بقبضة يده. وإنما كان يشير إلى الموضع بأصابعه، بأصابعه، وكان يريني الموضع، هنا، فوق، عاليًا جداً... كيف أمكن أن أنسى هذا، ولا أتذكره حتى هذه اللحظة؟

عندئذ سأل الرئيس ميتيا هل لديه ملاحظات يبديها في أمر هذه الشهادة، فأكد ميتيا أن الأمور قد جرت على هذا النحو فعلًا، وأنه قد أشار بيده إلى الألف وخمسمائة روبل التي كان يحملها معلقةً في صدره، تحت الرقبة بقليل. وصرَّح بأن هذا كان في نظره هو العار. وهتف يقول: «ذلك عار لا يخطر ببالي أن أنكره، فهو أحقر عمل قمت به في حياتي! كان في إمكاني أن أردَّ المال، ولكنني لم أفعل، آثرت أن تعدّني لصًا، ولم أرجع المال. وأحقر ما في الأمر أنني أعلم مقدمًا أنني لن أردَّ المال. صدق أليوشا. شكرًا يا أليوشا!».

هنا انتهي استجواب أليوشا. إن أهمَّ وأبلغ عنصر في شهادة أليوشا هو أنه اكتُشفت أخيرًا واقعة يمكن أن تكون ولو برهانًا ضئيلًا. ولو شبه برهان على صدق حكاية ذلك الكيس والألف وخمسمائة روبل التي يضمها. فمن المحتمل إذًا أن لا يكون ميتيا قد كذب أثناء التحقيق الأوّلي حين صرَّح، في موكرويه، أن هذه الألف وخمسمائة روبل «هي له».

شعر أليوشا بسعادة. ومضى يجلس في المكان الذي دُلَّ عليه وقد احمر وجهه من الانفعال، ولبث بضع دقائق يدمدم بصوت خافت:«كيف أمكن أن أنسى هذه الواقعة؟ كيف أمكن أن تخرج من رأسي؟ ما أغرب أن لا أتذكرها إلا الآن!».

ودُعيت كاترينا إيفانوفنا إلى الإدلاء بشهادتها بعد أليوشا. فلمّا ظهرت في القاعة اجتاح الحضور انفعالٌ قوي. فالسيدات وجّهن نحوها نظراتهنّ، والرجال اضطربوا في أماكنهم؛ ونهض بعضهم ليحسنوا النظر إليها. وقد رُوي فيما بعد أن ميتيا امتقع لونه في تلك اللحظة فجأة وشحب «شحوبًا شديدًا». تقدمت كاترينا إيفانوفنا، متشحة كلها بالسواد، إلى المكان الذي دُلَّت عليه بتواضع وبما يشبه الخجل. ظلت قسمات وجهها هادئة ساكنة فلا شيء يشير إلى أنها مضطربة. غير أن عزيمة لا تنثني كانت تسطع في عينيها الداكنتين المهيبتين. وقد أكَّد أشخاص كثيرون فيما بعد أنها كانت جميلة جمالًا خاصًا في تلك اللحظة. كانت تتكلم بصوت خافت، ولكنه واضح متميز، فكان الناس يسمعونها في آخر القاعة. وكانت تتحدث هادئة، أو كانت على الأقل تحاول أن تظل هادئة. استجوبها الرئيس بكثير من الحرص وأظهر لها كثيرًا من التبجيل، كأنه كان يخشى أن يمس «أوتارًا أخرى»، ويريد أن يبرهن على احترامه لتعاسة شديدة. ولكن كاترينا إيفانوفنا أسرعت تؤكد بقوةٍ، منذ البداية، جوابًا على سؤال أُلقي عليها، وأنها كانت خطيبة المتهم «إلى اللحظة التي هجرني فيها من تلقاء نفسه». كذلك أضافت تقول بصوت خافت.

فلمّا سُئلت عن الثلاثة آلاف روبل التي عهدت إلى ميتيا أن يرسلها إلى قريباتها بالبريد، أجابت بحزم وثبات قائلة: «أنا لم أطلب منه أن يرسل هذا المبلغ فورًا. لقد أدركت أنه كان في حاجة ماسة إلى المال... في ذلك الأوان... فأعطيته تلك الثلاثة آلاف روبل ورجوته أن يرسلها في غضون شهر إذا شاء. ولقد أخطأ إذاً حين عذَّب نفسه ذلك التعذيب كله بسبب هذا الدين...».

لن أنقل بالتفصيل جميع الأسئلة التي أُلقيت عليها، وجميع الأجوبة التي أجابت عليها، وإنما سأقتصر على إجمال الأمور الأساسية في شهادتها. واصلت كاترينا إيفانوفنا كلامها فقالت:

- كنت مقتنعةً اقتناعًا جازمًا بأنه سيرسل هذه الثلاثة آلاف روبل متى حصل على هذا المبلغ من أبيه. أنا لم يساورني أي شك في نزاهته وأمانته يومًا... بل في أمانته البالغة... في شؤون المال... لقد كان واثقًا ثقة مطلقة بأنه سيقبض من أبيه هذه الثلاثة آلاف روبل، وقد حدثني في ذلك مرارًا وتكرارًا. كنت لا أجهل أن بينه وبين أبيه خلافات ونزاعات، وكنت مقتنعةً وما أزال أن أباه قد حرمه من حقه. على أنني لا أذكر أنه نطق بأقوال يهدد فيها أباه. بحضوري على الأقل لم يقل شيئًا. إنني لم أسمعه يهدِّد ويتوعّد. ولو قد جاءني في تلك الآونة إذاً لطمأنته في شأن تلك الثلاثة آلاف روبل الشقية التي كان مدينًا بها لي. ولكنه لم يعد إليَّ منذ ذلك الحين... ورأيتني أنا نفسي... في وضع... لا يمكّنني من أن أبادر إلى استدعائه.

ثم أضافت تقول فجأةً وقد دوَّت في صوتها عندئذ نبرة قوية:

- ثم إنني ما كان يحق لي بحال من الأحوال أن أتشدد معه في موضوع هذا الدين. فأنا نفسي قد أخذت منه في الماضي مبلغًا أكبر كثيرًا من تلك الثلاثة آلاف روبل، وقد قبلت منه ذلك المبلغ عندئذ رغم أنني لم أكن أستطيع أن أتنبأ في ذلك الحين أنني سأصبح في يوم من الأيام قادرة على أن أردَّه إليه...

قالت كاترينا إيفانوفنا ذلك وقد ظهرت في صوتها نبرة تحدٍ. وفي تلك اللحظة نفسها جاء دور فيتوكوفتش ليلقي أسئلته.

قال فيتوكوفتش بحذر المحامي، وهو يوجس فورًا الفائدة التي سيجنيها من هذه الشهادة:

- لم يحدث ذلك في هذه المدينة، إذا صدق فهمي، وإنما حدث في بداية علاقتكما، أليس كذلك؟ (يجب أن نذكر بين قوسين ما يلي: رغم أن المحامي قد استدعي من سان بطرسبرج بمبادرة كاترينا إيفانوفنا تقريبًا، فلقد كان يجهل كل شيء عن مسألة الخمسة آلاف روبل التي أعطاها ميتيا للمرأة الشابة في المدينة الأخرى، وكان يجهل كل شيء عن «التحية الساجدة» التي حيَّاها بها عندئذ. إن كاترينا إيفانوفنا لم تحدث المحامي عن هذا الأمر وأخفته عنه. وقد يبدو هذا الكتمان من جهتها غريبًا. ولكن من الممكن أن نقدِّر مع ذلك أنها كانت هي نفسها تجهل حتى آخر دقيقة أتكشف للمحكمة عن تلك الواقعة أم لا؟ وكانت تنتظر نوعًا من الإلهام).

لا، لن أستطيع في يوم من الأيام أن أنسى تلك اللحظات الطافحة بالتأثر! لقد بدأت كاترينا إيفانوفنا قصتها فكشفت عن كل شيء، كشفت عن جميع التفاصيل التي أفضى بها ميتيا إلى أخيه أليوشا بصدد «التحية الساجدة» والأسباب والدوافع التي قادت خطاها، والحالة التي كان عليها أبوها، ومجيئها إلى بيت ميتيا. ولكنها في مقابل ذلك، لم تذكر أن ميتيا كان قد عرض على أختها أن «ترسل إليه كاترينا إيفانوفنا لتأخذ المال». لم تقل عن هذا كلمة واحدة. وصمتت عن سلوك ميتيا حينها. ولكنها لم تخجل أن تؤكد أنها هي التي هرعت من تلقاء نفسها إلى بيت ضابط شاب آملةً لا أدري ماذا... للحصول منه على مال. كانت تلك لحظات رهيبة. شعرتُ ببرد يسري في ظهري وأخذت أرتعش وأنا أصغي إلى كلام كاترينا إيفانوفنا. وجمد جمهور الحضور على صمت مطبق وكأنه يشرب كل كلمة من كلماتها شربًا. كان في وضع هذه المرأة الشابة شيء لا عهد لأحد بمثله من قبل، فما من أحد يمكن أن يتوقع حتى من امرأة تبلغ هذا المبلغ من الكبرياء والتسلط والازدراء، أن تدلي بشهادة فيها كل هذه الصراحة التامة الكاملة، تضحيةً وفداءً. ولماذا تضحي بنفسها هذه التضحية؟ في سبيل من تضحي بنفسها هذه التضحية؟ في سبيل إنقاذ رجلٍ خانها وأهانها، في سبيل أن تساهم في إنقاذه على قدر طاقتها الضعيفة، وذلك بأن ترسم له صورة جميلة تؤثر في نفوس الناس تأثيرًا حسنًا؛ وذلك ما حدث فعلًا: فإن الصورةَ التي رسمتها، صورةَ ضابط يهب الخمسة آلاف روبل الأخيرة التي يملكها - أي كل ما تبقى له من ثروة - يهبها لفتاة بريئة ثم ينحني لها احترامًا إلى درجة السجود، أقول إن هذه الصورة قد أعجبت الجميع وفتنتهم ولكنْ... عَصَر الألم قلبي! أحسست عندئذ أنها بذلك تعرّض نفسها للأقاويل والنمائم، وأن تخرّصات كثيرة ستقال في حقها (وذلك ما حدث !). فقد أخذ أهل مدينتنا يومئون في أحاديثهم بعد ذلك، وهم يبتسمون ابتسامات ملأى بالغمزات الخبيثة، إلى أن القصة التي روتها المرأة الشابة لم تكن كاملة تمامًا، ولا سيما في الموضع الذي يتضمن أن الضابط تركها تنصرف «مكتفيًا - فيما ادعت - بأن حيَّاها ساجدًا». فأغلب الظن أنها «أسقطت» هنا جزءًا مما جرى. وقالت السيدات المحترمات في مجتمع مدينتنا: «هبها لم تُسقط من القصة شيئًا، هبها قالت الحقيقة كلها كاملةً، فإن هذا لا يمنع من التساؤل: هل كان يليق حقًا بفتاة فيها حشمة وحياء أن تتصرف هذا التصرف وأن تسلك هذا السلوك، ولو لإنقاذ أبيها؟». كيف يمكن أن يصدِّق المرء أن كاترينا إيفانوفنا، بما لها من ذكاء حاد وبصيرة نفاذة، لم تتنبأ أقاويل من هذا القبيل ستسعى بين الناس في حقها؟ لا شك في أنها تنبأت بذلك حتمًا، ومع ذلك قررت أن تقول كل شيء! وطبيعي أن هذه الشكوك المسيئة لم تولد إلا فيما بعد. أما أثناء إدلاء كاترينا إيفانوفنا بشهادتها فإن جميع الناس قد سيطر عليهم انفعال قوي حاد. فأعضاء المحكمة أصغوا إلى كلام كاترينا إيفانوفنا بصمت فيه احترام حتى لكأنهم خجلون. ووكيل النيابة لم يسمح لنفسه بإلقاء أي سؤال في هذا الشأن. وفيتوكوفتش اقتصر على أن انحني لها انحناء شديدًا. أوه! كان المحامي على وشك أن ينتصر! إن هذه الشهادة رصيد كبير له: هل يتصور عقل أن الرجل الذي وهب الخمسة آلاف روبل الأخيرة التي يملكها، في وثبة كريمة من قبله، يمكن أن يقتل أباه، ليلًا، في سبيل أن يجرّده من ثلاث آلاف روبل؟ إن في سلوك كهذا السلوك لتناقضًا لا سبيل إلى فهمه. وأحسَّ فيتوكوفتش أنه يستطيع بعد الآن أن يبعد تهمة السرقة في أقل تقدير. لقد اكتست «القضية» وجهًا جديدًا، وظهر

ميتيا على حين فجأة إنسانًا محببًا. أما عن سلوكه هو أثناء إدلاء كاترينا إيفانوفنا بأقوالها فقد قالوا إنه نهض من مكانه مرة أو مرتين ثم هوى على الأريكة من جديد وغطى وجهه بيديه وحين انتهت من الإدلاء بشهادتها هتف يسألها بصوت يخالجه نشيج وهو يمد نحوها ذراعيه:
- كاتيا، لماذا سببت هلاكي؟
ثم أخذ ينتحب انتحابًا قويًا جداً، لكنه لم يلبث أن ثاب إلى نفسه، وصاح يقول:
- الآن ضعت!
ثم سكن جامدًا، كازًا أسنانه، ومصالبًا ذراعيه على صدره. وطُلب من كاترينا إيفانوفنا أن تبقى في القاعة، فجلست على الكرسي الذي عُيّن لها. كانت شاحبة اللون غاضة طرفها. وقد روى الأشخاص الذين كانوا على مقربة منها أنها كانت ترتعد بكل جسمها، كأن بها حمًّى. واستُدعي الشاهد التالي، جروشنكا. إنني أقترب هنا من لحظة الكارثة التي سقطت على ميتيا فجأة، وكانت سبب ضياعه فعلًا، فيما يبدو. وأنا من جهتي مقتنع بأنه لولا ذلك الحادث الذي وقع - وذلك رأي يشاركني فيه الجميع، ويشاركني فيه رجال القانون خاصةً - لكان من الممكن أن ينتفع بوجود ظروف مخفِّفة على الأقل. سأعود إلى ذكر هذا الحادث بعد قليل، ولكن يجب أن أقول بضع كلمات عن شهادة جروشنكا أولًا.
لقد دخلت جروشنكا، متشحة كلها هي أيضًا بالسواد، واضعةً شالها الأسود الرائع على كتفيها. تقدمت إلى المكان الذي يقف فيه الشاهد ماشيةً مشيتها الصامتة الرقيقة الهادئة، مع شيء من ذلك الاهتزاز الذي نراه أحيانًا في النساء البدينات بعض البدانة، محدّقة إلى الرئيس تحديقًا ثابتًا، لا تنظر يمنةً ولا يسرة. في رأيي أنها كانت في تلك اللحظة جميلة جداً، ولم تكن شاحبة اللون البتة، كما زعمت، فيما بعد، السيدات اللواتي شهدن جلسة المحاكمة. وقد زُعم أيضًا أن وجهها كان فيه تقلّص يعبّر عن خبث وشر. ولكنني أميل إلى الاعتقاد بأنها كانت تشعر بغيظ وغضب، وتتألم من نظرات الاحتقار والفضول التي كان يرشقها بها جمهور مدينتنا التوّاق إلى الفضيحة. إن لجروشنكا شخصية أبية، ذات شَمَم وكبرياء، فهي لا تطيق الاحتقار. إنها من الناس الذين ما إن يشعروا بالاحتقار من جانب أحد ما، حتى يشتعلوا غيظًا وظمأ إلى الرد. وإن فيها كذلك وجلًا مع شعور خفي بالخزي من هذا الوجل في الوقت نفسه، فكان طبيعيًا والحالة هذه أنها لم تتكلّم بصوت واحد أثناء إدلائها بشهادتها، وإنما تكلّمت بغضب تارة، وباحتقار تارة أخرى، مصطنعةً في الحالتين لهجة خشنة قاسية ؛ ثم إذا هي بعد لحظة واحدة تتكلم بلهجة يدرك فيها المرء نبراتٍ صادقة من أسف وحسرة حين تتهم ذاتها وتأخذ تلقي اللوم على نفسها. كانت في بعض الأحيان تتكلم كمن يسقط في هوة ولا يبالي العواقب. وكأنها تقول لنفسها: «ليكن ما يكون ليحدث ما يحدث! فسأقولها»... وفيما يتعلق بصلاتها مع فيدور بافلوفتش صرَّحت تقول بلهجة قاطعة: «هذه كلها سفاسف! هل ذنبي أنا أنه تعلّق بي؟» ثم ما انقضت على ذلك دقيقة واحدة حتى أخذت تقول: «أنا الآثمة، أنا المسؤولة عن كل شيء. لقد عبثت بهما كليهما - عبثت بالعجوز وعبثت بهذا - فدفعتهما بذلك دفعاً إلى الكارثة. الذنب ذنبي أنا في كل ما حدث». ولما ذُكر اسم سامسونوف، انطلقت تقول بلهجة متحدية تكاد تكون وقحة: «ليس لأحد أن يتدخل في هذا. إنه الرجل المحسن إليّ. لقد انتشلني من هوة البؤس حين طردني أهلي». فذكّرها الرئيس، ولكن بلهجة مهذبة جداً، بأن عليها أن تقتصر على الإجابة على الأسئلة التي تلقى عليها دون الخوض في تفاصيل لا داعي إليها. فاحمرت جروشنكا، والتمعت عيناها.
صرحت جروشنكا بأنها لم تر الظرف والمال المودع فيه، وإنما هي سمعت من ذلك «الشرير» أن فيدور بافلوفتش أعدّه لها وفيه ثلاثة آلاف روبل، ثم أضافت تقول:
- على أن هذه كلها سخافات، لأنني لم أحمل الأمر على محمل الجد، وما كان لي أن أذهب إليه بحال من الأحوال، هذا مؤكد...
سألها وكيل النيابة:
- من هذا الذي وصفته بأنه «شرير»؟
فأجابت:
- هو ذلك الخادم، هو ذلك السمردياكوف الذي قتل مولاه، ثم شنق نفسه أمس.
طبيعي أنها سئلت فوراً عن الأساس الذي تبني عليه رأيها حين تقرر اتهاما واضحا هذا الوضوح، ولكن اتضح أنها هي أيضاً لا تستطيع أن تذكر أية واقعة محددة. قالت:
- ديمترى فيدوروفتش نفسه هو الذي قال لي ذلك وليس عليكم إلا أن تصدّقوه!
ثم أضافت تقول وهي ترتعد كرهاً وحقداً، ويختلج في صوتها شرُّ وخبث:
- إن تلك المرأة هي التي ضيعته، هذه هي الحقيقة كلها! إنها هي سبب كل شيء، هي وحدها! ذلك واضح!
سئلت جروشنكا من جديد أن تعين الشخص الذي تعنيه بكلامها، فقالت:
- أعني الأنسة، أعني هذه الكاترينا إيفانوفنا الحاضرة هنا! لقد دعتني إلى منزلها، وقدمت لي شوكولاته، آملة أن تغريني وأن تفتنني. ليس فيها حياء، هذه المرأة... تدخل الرئيس ليوقفها عن هذا الكلام، وطلب منها بلهجة قاسية أن تراقب ألفاظها. ولكن قلب المرأة الشاب كان يغلي من الغيرة، وكانت تشعر كأنها مستعدة لأن تمضي إلى النهاية لا تخشى النتائج ولا تهاب العواقب...
وتدخل وكيل النيابة فقال:
- حين قبض على المتهم في موكرويه، فإن الناس منذ هرعت مسرعة من الغرفة المجاورة، قد رأوك وسمعوك تصرخين قائلة إنك أنت سبب كل شيء وإنك تريدين أن تصحبيه إلى السجن. فهل يجب أن نستنتج من ذلك أنك كنت موقنة منذ تلك اللحظة بأن المتهم قد قتل أباه؟
فأجابت جروشنكا قائلة:
- لا أتذكر المشاعر التي اضطربت في نفسي حينذاك. كان جميع الناس يتهمونه في تلك اللحظة بأنه قتل أباه، فأدركت أن الذنب ذنبي، وأنه إنما قتل أباه بسببي، ولكن حين أكد لي أنه بريء، صدقته فورا، وما زلت أصدقه، وسأظل أصدقه إلى الأبد، لأنه ليس بالرجل الذي يكذب.
وجاء دور فيتوكوفتش ليلقي أسئلته.
أذكر أنه أشار عندئذ، بين أمور أخرى، إلى حكاية راكيتين والمبلغ الذي أعطته اياه، وهو خمسة وعشرون روبة، مكافأة له على أنه أتاها بألكسي فيدوروفتش كارامازوف إلى منزلها. فقالت جروشنكا وهي تضحك ضحكة صغيرة خبيثة فيها ازدراء واحتقار:
- لا عجب أن أخذ المبلغ. لقد كان يجيء إلى دائما ليستعطيني بعض المال، وكان يسحب مني بهذه الطريقة حوالي ثلاثين روبلا في الشهر ينفقها على تسلياته الخاصة، لأن المأوى والطعام كانا مؤمنين.
سألها فيتوكوفتش، غير عابىء بالرئيس الذي أخذ يتحرك ويضطرب:
- ما هو السبب الذي جعلك سخية ذلك السخاء كله مع السيد راكيتين؟
- السبب بسيط، هو أن راكيتين ابن خالتي. أمي وأمه اختان. وقد رجاني أن لا أقول هنا كلمة واحدة عن هذه القرابة، اذ يبدو أنه يشعر بعار كبير من كونه يمت إلي بقرابة!.
بوغت الجميع بهذه الواقعة الجديدة ودهشوا منها، لأنها كانت مجهولة في مدينتنا حتى ذلك الحين، وكانت مجهولة حتى في الدير. وكان ميتيا نفسه لا يعرفها. وقد ادعى بعضهم أن راكيتين قد احمر احمرارا شديدا على كرسيه حينذاك. وكانت جروشنكا قد علمت، قبل دخولها إلى القاعة، أن راكيتين أدلى بشهادة تسيء إلى ميتيا، فأغضبها ذلك وأحنقها. وها هو ذا الخطاب الجميل الذي كان قد ألقاه راكيتين مفيضا في كلام نبيل، ثائرة على نظام القنانة، منتقدة ما يسيطر على روسيا من فوضى، ها هو ذا الخطاب يتحطم تحطما لا قيام له بعده، فلا يبقى منه في أذهان الحضور أي أثر. وغبط فيتوكوفتش نفسه: لقد أسعفته السماء. ولم يطل استجواب روشنكا كثيراً على وجه الإجمال، لا سيما وأنها لم تكن تحمل معلومات جديدة كثيرة. وقد تركت شهادتها في النفوس أثرا هو إلى السوء أقرب منه إلى الاستحسان. وتابعتها مئات نظرات الاحتقار حين انتهت من الإدلاء بشهادتها. فمضت تجلس في القاعة بعيدة عن كاترينا إيفانوفنا. وفي أثناء استجوابها كان ميتيا صامتا كأنه متجمد، وكان غاضا بصره، مطرقا بعينيه إلى الأرض.
واستدعي الشاهد التالي: إيفان فيدوروفتش.

-5- كارثة مباغتة

احسب أن من المفيد أن أذكر أن إيفان كان قد استُدعي مرة قبل أليوشا. غير أن حاجب المحكمة جاء يبلغ الرئيس أن الشاهد لا يستطيع أن يمثل أمام المحكمة الآن، وذلك بسبب وعكة أو نوبة مباغتة، وأنه مستعد للمثول متى طلب منه أن يمثل بعد أن تتحسن حالته. ولم ينتبه أحد إلى هذا الأمر، ولم يعلم به أحد إلا فيما بعد. ولم يكن الحضور، على كل حال، يولون ظهور هذا الشاهد اهتماما كبيرا، فإن الأشخاص الرئيسيين في هذه الدراما، ولا سيما المرأتين المتنافستين، كانت قد شمعت أقوالهم، فارتوى فضول الناس بذلك إلى حين. حتى لقد لوحظ شيء من التعب أصاب الجمهور. وما تزال هنالك عدة شهادات يجب سماعها، لكنها شهادات لا يمكن أن تأتي بأشياء جديدة كثيرة، لأن الأمور الأساسية قد قيلت. وكان الوقت يمضي. اقترب إيفان بخطى بطيئة بطأ غريبا، دون أن ينظر إلى أحد، غاضا بصره مطرقا إلى الأرض، كأنه يبذل جهودا شاقة في سبيل أن يجمع شتات أفكاره. كان ملبسه سليما لا مأخذ عليه، ولكن تعابير وجهه قد أحدثت، في نفسي أنا على الأقل، أثرا أليما: كان وجهه يبدو بلون التراب كأنه وجه إنسان يحتضر. وكانت نظرته تائهة مضطربة.

رفع عينيه، وأجال بصره في القاعة ببطء. انتفض أليوشا، وأن أنة صغيرة. إنني أتذكر هذا تذكرا واضحا، رغم أن أحدا لم يكد ينتبه إليه.

بدأ الرئيس بأن قال له إنه لن يُحلَّف اليمين، وأن في وسعه أن يتكلم أو أن يسكت على ما يجب، وإنما ينبغي له أن يشهد بما يمليه الضمير بالطبع، الخ. فكان إيفان يصغي محدقا إليه بنظرة غامضة مبهمة. غير أن قسمات وجهه افترت عن ابتسامة شيئا بعد شيء، فما إن فرغ الرئيس الذي كان يراقبه مدهوشا، ما إن فرغ من كلامه، حتى انفجر إيفان ضاحكا مقهقها، وقال للرئيس سائلا بصوت رنان:

- وماذا أيضاً؟

خيَّم على القاعة صمت مطبق، وأحسّ الناس بأن دراما ستقع.

واضطرب الرئيس. وسأله وهو يبحث بعينيه عن الحاجب:

- أتراك ما تزال مريضا؟ فأجابه إيفان بصوت هادئ فيه احترام وتوقير:

- اطمئن يا صاحب السعادة، فإنني بخير تماما، وإنني قادر على أن أذكر لكم أشياء هامة وشيقة.

فعاد الرئيس يسأله وهو ما زال في شك من أمره: - أعندك أشياء ذات أهمية خاصة تريد أن تنقلها إلينا؟

فخفض إيفان فيدوروفتش عينيه، وانتظر بضع ثوان، ثم رفع رأسه وأجاب في تردد:

- لا... لا شيء، ليس عندي شيء خاص يمكن أن أذكره لكم.

وألقيت عليه أسئلة، فكان يجيب عنها على مضض، مقتضبا اقتضابا مخلا، متضايقا تضايقا ما ينفك يزداد. ولكن إجاباته كانت متزنة معقولة. وأعلن مرارة أنه لا يعرف شيئا عما يسأل عنه. من ذلك أنه قال إنه يجهل كل شيء عن تصفية الحساب بين أبيه ودمتري. وأضاف يقول: «وكان ذلك لا يهمني على كل حال».

واعترف بأنه سمع المتهم يهدد بقتل أبيه. أما الظرف الذي كان يضم المال فإنما علم بوجوده من سمردياكوف.

وصاح إيفان يقول وقد اعتراه الإرهاق:

|- لا جديد... ليس لديّ شيء خاص أقوله لكم.

وبدأ الرئيس يتكلم فقال: - أنا أرى أنك مريض، وأدرك مشاعرك...

ثم اتجه إلى وكيل النيابة والمحامي يدعوهما إلى استجواب الشاهد إذا كانا يريان في ذلك فائدة.

فإذا بإيفان فيدوروفتش يتضرع على حين فجأة قائلا بصوت منطفيء:

- اسمح لي بالانصراف يا صاحب السعادة، فإنني أشعر بضعف شديد.

وما إن قال هذه الكلمات حتى استدار على عقبيه دون أن ينتظر أن يؤذن له بالانصراف، واتجه نحو باب الخروج. ولكنه لم يسر بضع خطوات حتى توقف كأنه يفكر في شيء ما، وابتسم صامتا، وعاد إلى حيث كان من مكان الشهود، وقال:

- أنا يا صاحب السعادة شبيه بتلك الفلاحة الشابة التي كانت... كما تعلمون... تقول: «إن شئت ذهبت، وإن شئت لم أذهب». . كانوا قد جاؤوها بثوب الزفاف ليقودوها إلى الهيكل، ولكنها كانت تردد بغير انقطاع: «إن شئت ذهبت، وإن شئت لم أذهب». هذا مشهد من مسرحية هزلية شعبية.

قاطعه الرئيس قائلا بلهجة صارمة: - ما الذي تريد أن تخلص إليه من هذا الكلام؟

فأجاب إيفان فيدوروفتش وهو يسل من جيبه رزمة الأوراق المالية فجأة:

- ما الذي أريد أن أخلص إليه؟ إليك ما الذي أريد أن أخلص إليه... إن هذا المال هو الذي كان موجودا في هذا الظرف (وأوما إلى المائدة التي جمعت عليها وثائق الاتهام)، والذي بسببه قتل أبي. أين تريدون أن أضعه؟ يا سيدى حاجب المحكمة، انقل هذا المال إلى من يجب نقله إليه.

تناول الحاجب حزمة الأوراق المالية ومنها إلى الرئيس. ساله الرئيس مدهوشان - كيف وجد هذا المال معك؟ أهو ذلك المبلغ نفسه فعلا؟...

- أخذته أمس من سمردياكوف، من القاتل. زرته قبل انتحاره ببرهة قصيرة. إنه هو الذي قتل أبي. ليس أخي القاتل. سمردياكوف هو الذي قتل، وأنا الذي حرضته على ذلك ودفعته إليه. من ذا الذي لا يتمنى موت أبيه؟

صاح الرئيس يقول على غير إرادة منه:- أأنت تملك عقلك كاملا؟

- المصيبة كلها هي أنني أملك عقلي كاملا... وهو عقل خسيس من جهة أخرى، لا يقل خسة عن عقولكم أنتم وعن عقول جميع هؤلاء الأغبياء البلهاء... (قال ذلك وهو يلتفت فجأة نحو الجمهور)،

وأضاف يقول معبرا عن احتقار مبغض كاره: - هم جميعا قتلوا آباءهم، ثم يتظاهرون بالهول والروع! إنهم يمثلون، يضحك بعضهم على بعض... كاذبون! إنهم جميعا يتمنون موت آبائهم. وحش يفترس وحشاً آخر. إذا لم يوجد أناس يقتلون آباءهم، ساءهم ذلك وخرجوا غاضبين... إنهم في حاجة إلى مشهد يتسلون بالنظر إليه! «خبزاً وعروضاً[248]»! ولست أنا خيرا منهم على كل حال. هل عندكم ماء؟ اسقوني ماء ناشدتكم الله!

كذلك صاح وهو يمسك رأسه بيديه. أسرع الحاجب يقترب منه. ووثب أليوشا من مكانه صائحا: - إنه مريض، لا تصدّقوه، إنه مصاب بنوبة حمى عصبية!

وانتصبت كاترينا إيفانوفنا واقفة وقد جمدها الخوف، وحدقت إلى إيفان فيدوروفتش. ونهض ميتيا أيضاً، فتأمل أخاه وهو يبتسم ابتسامة أليمة بينما كان يصغي إليه في نهم وشراهة.

واستأنف إيفان كلامه فقال: - اطمئنوا. ما أنا بمجنون. أنا قاتل فحسب. ثم أضاف يقول لا يدري أحد لماذا: - ليس يسأل قاتل أن يكون فصيحا. وضحك مقهقهاً ساخراً.

مال وكيل النيابة على الرئيس مضطربا اضطرابا واضحا؛ واضطرب سائر أعضاء المحكمة وأخذوا يتهامسون. كان فينوكوفتش يصغي بانتباه شديد. وصمت الجمهور ينتظر منجمدا. وبدا على الرئيس فجأة أنه ثاب إلى نفسه واسترد ثبات جنانه، فقال:

- أيها الشاهد. إن أقوالك غير مفهومة وغير مقبولة في هذا المكان. هدئ روعك إذا استطعت، وقل لنا هل لديك شيء تريد أن تذكره فعلا... قل لنا ما هي الأدلة التي تقيم عليها مثل هذا الاعتراف... إذا كنت لا تهذي فحسب!

- ليس عندي شهود. إن ذلك الكلب سمردياكوف لن يرسل إليكم اعترافه من السماء... في ظرف. وأنتم لا بد لكم دائما من ظروف. يكفي هذا الظرف. لا، ليس عندي شهود.

ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامة واجمة:

- اللّهم إلا شاهداً واحداً.

- من هو هذا الشاهد؟

- إن له ذيلاً يا صاحب السعادة، وليس يتفق والنظام أن سمع شهادته هنا. «الشيطان لا وجود له أبدا».

وواصل إيفان كلامه، دون أن يضحك في هذه المرة، وإنما هو يصطنع لهجه المسارّة والنجوى:

- لا تلقوا إليه بالا، إنه شيطان تعيس حقير. لا شك في أنه مختبئ بمكان ما هنا، ربما تحت مائدة وثائق الإثبات. أين عساه يختبئ إن لم يختبئ هناك. اسمعوا، أصغوا إلي: لقد قلت له إنني لن أستطيع أن أسكت، وكان هو لا ينفك يحدثني عن ذلك التحول الجيولوجي... سخافات! هيه هيا، فكوا أسر المسخ الأشوه ولتطلقوا

سراحه... لقد غنى نشيده لأنه كان فرح القلب هو مثل ذلك الوغد السكران وأغنيته عن فانكا المسافر إلى بيتر! أنا من جهتي مستعد لأن أهب كوادريليون من الكوادريليونات في سبيل ثانيتين من فرح! أوه! إنكم لا تعرفونني! ما أغبى هذا كله! خذوني أنا بدلاً عنه لا بد أنني جئت لأمر ما... لماذا، لماذا كل هذا الغباء؟...
وأجال إيفان على القاعة نظرة بطيئة، وهو واجم الفكر. اضطرب جميع الناس، اندفع أليوشا نحو أخيه، ولكن الحاجب كان قد أمسك إيفان من ذراعه.
صرخ إيفان وهو يتفرس في الحاجب:
- ما هذا أيضاً؟
ثم قبض على كتفيه فجأة، ورماه على أرض القاعة. هرع الحرس وسيطروا على إيفان. فأطلق عندئذ من صدره عويلاً حاداً، وظل يعول هذا العويل راشقاً عبارات مفككة، بينما كان يقاد إلى خارج القاعة.
نشب اضطراب شديد، وقامت بلبلة كبرى. لا أتذكر جميع التفاصيل، لأنني كنت أنا نفسي منفعلاً أشد الانفعال في تلك اللحظة، فلا أستطيع لهذا السبب أن أحسن الرصد والملاحظة، لكنني أعلم أنه حين عاد النظام إلى نصابه، قُرّع الحاجب تقريعاً قاسياً، رغم أنه أفاض في الشرح قائلا إن الشاهد لم تظهر عليه قبل ذلك أية علامة من علامات المرض، وأن الطبيب الذي فحصه منذ ساعة حين أصيب بوعكة خفيفة قد وجده سليما معافى. وأضاف الحاجب يقول: ثم إنه كان حتى لحظة دخوله قاعة المحكمة يقول كلام معقولا، فما كان يمكن التنبؤ بما حدث له. هذا إلى أنه كان يحرص هو نفسه أشد الحرص على أن يدلي بشهادته، وكان يريد المثول أمام المحكمة مهما كلف الأمر.
ولم يكن الانفعال الذي أثاره هذا المشهد في النفوس قد تبدد تماماً، حين حدث حادث أليم آخر. لقد أصيبت كاترينا إيفانوفنا بنوبة عصبية، فأخذت تنشج نشيجاً قوياً، وتطلق صرخات حادة ولكنها رفضت أن تنصرف، وظلت تتخبط ضارعة متوسلة أن لا يبعدوها. ثم صرخت تقول للرئيس فجأة:
- عندي تصريح آخر أريد أن أفضي به. يجب علي أن أذكر الحقيقة فوراً... فوراً! إليكم هذه الورقة، إنها رسالة... خذوها فاقرأوها، بسرعة! هي رسالة أرسلها إلي هذا الإنسان الأشوه، هذا، نعم، هذا (وأومأت إلى ميتيا). إنه هو الذي قتل أباه، سترون، لقد ذكر لي ذلك كتابة. كتب إلى أنه سيقتل أباه! أما الآخر فهو مريض، مريض، إنه مصاب بحمى عصبية! لاحظت منذ ثلاثة أيام أنه مريض.
كانت تصرخ وهي نهب اضطراب شديد. تناول الحاجب الرسالة ومنها إلى الرئيس. وتهاوت كاترينا إيفانوفنا على كرسيها وهي تغطي وجهها بيديها ويهزها بكاء تشنجي صامت. وكانت تحاول مع ذلك أن تخنق نشيجها مخافة أن تطرد من قاعة المحكمة. إن الورقة التي تناولها الحاجب من كاترينا إيفانوفنا هي بعينها الرسالة التي كتبها ميتيا في «العاصمة الكبرى»، والتي كان يصفها إيفان فيدوروفتش بأنها برهان رياضي على الجريمة. واحسرتاه! لقد غدت هذه الرسالة برهاناً له قوة اليقين الرياضي فعلاً، فلولا هذه الرسالة الشقية لكان من الجائز جداً أن لا يضيع ميتيا، أو أن لا تكون نهايته تلك النهاية البائسة كل البؤس على الأقل. أعود فأقول: لقد كان من الصعب على المرء أن يلاحظ كل شيء تفصيلا، وما تزال ذكرياتي إلى الآن تختلط في شعور بفوضى شاملة. لعل الرئيس قد أطلع المحكمة ووكيل النيابة والمحامي والمحلفين على تلك الرسالة فورا. لا أدري. ولكنني أتذكر أن كاترينا إيفانوفنا قد أعيد استجوابها. سألها الرئيس في رفق ولطف أهي تشعر بأنها هادئة هدوءا كافياً لتستطيع الإجابة، فهتفت تقول بقوة:
- أنا مستعدة، مستعدة كل الاستعداد.
وأضافت وهي تخشى خشية رهيبة، فيما يبدو، أن يرفضوا الاستماع إليها:
- أنا قادرة على الإجابة كل القدرة، كل القدرة!
سئلت أن تشرح بالتفصيل أمر هذه الرسالة وظروف وصولها إليها. فقالت:
- وصلتني عشية وقوع الجريمة، وقد كتبها هو من الحانة في اليوم السابق. أي قبل ارتكابه الجريمة بيومين. انظروا: إن هذه الرسالة مكتوبة على ورقة هي نوع من فاتورة حساب - كذلك صاحت تقول لاهثة - كان يكرهني في تلك الآونة، لأنه اقترف عملا حقيراً وتعلق بتلك المخلوقة... ولأنه كان مديناً لي بتلك الثلاثة آلاف روبل أيضاً... أوه! كان يتعذب بسبب ذلك المبلغ، لأنه كان يدرك حطته ودناءته! أما عن تلك الثلاثة آلاف روبل، فإليكم كيف جرت الأمور. أرجوكم أن تستمعوا إلي، أتضرع إليكم أن تستمعوا إلي: قبل وقوع جريمة القتل بثلاثة أسابيع جاء إلي في ذات صباح. كنت أعلم أنه في حاجة إلى مال، وكنت لا أجهل سر حاجته إلى المال. كان يريد، نعم، كان يريد أن يغري هذه المخلوقة وأن يرحل بها. وكنت أعلم منذ ذلك الحين أنه قد خانني وأنه يفكر في تركي. وعندئذ قدمت له ذلك المبلغ من تلقاء نفسي. أعطيته ذلك المبلغ بحجة أنني أريد منه أن يرسله إلى أختي في موسكو، وحين سلمته المال أعلنت له، وعيني في عينيه، أنه يستطيع أن يرسله «ولو بعد شهر» إذا كان ذلك يناسبه، فكيف، كيف يمكن أن لا يكون قد أدرك في تلك اللحظة أنني كنت في الواقع أقول له: «أأنت في حاجة إلى المال لكي تخونني مع تلك المخلوقة؟ إذا خذ هذا المال، إنني أعطيك إياه من تلقاء نفسي. خذه، إذا كنت خالياً من المروءة والشرف خلواً تستطيع معه أن تقبل المال مني».
كنت أريد أن أخجله. فماذا تظنون أنه فعل؟ لقد أخذ المال، أخذه ومضى لينفقه بعد ذلك في ليلة واحدة، هنالك، مع هذه المخلوقة، وقد فهم مع ذلك، فهم في تلك اللحظة أنني كنت على علم بكل شيء. صدقوني أنه فهم أنني كنت أريد أن أمتحنه حين عهدت إليه بهذا المال، وأنني كنت أحب أن أعرف هل تبلغ به قلة الشرف حد أن يأخذ مني هذا المال. كنت أحدق إلى عينيه، وكان يحدق إلى عيني هو أيضاً، لأنه كان يفهمني حق الفهم، وكان يفهم كل شيء. ورغم ذلك أخذ المال، أخذه ومضى به.
زأر ميتيا يقول فجأة:
- هذه هي الحقيقة بعينها يا كاتيا! كنت أحدّق إلى عينيك فأدركت أنك تريدين تلطيخ شرفي بالعار. ومع ذلك أخذت المال! احتقريني. أنا الشقي، احتقروني جميعاً! إنني أستحق هذا الاحتقار؟
هتف الرئيس يخاطبه: - يا متهم! إذا قلت كلمة واحدة أخرى، فلأخرجنك من القاعة. وواصلت كاتيا كلامها بسرعة تشنجية:
- كان يعذبه هذا المبلغ. كان يريد أن يرده إليّ، هذا صحيح، كان يحرص على أن يرده، ولكنه كان في حاجة إلى مال من أجل هذه المخلوقة. لذلك قرر أن يقتل أباه، ولكنه لم يرد إلي ديني، وإنما ذهب مع هذه المرأة إلى تلك القرية، فتم القبض عليه هناك. لقد بذد في تلك القرية، مرة أخرى، المال الذي سرقه من أبيه بعد أن قتله. وقبل الجريمة بيومين كان قد كتب إلي الرسالة. كتبها وهو سكران، أدرك ذلك فورا. وكتبها عن خبث وشر، لعلمه علم اليقين بأنني لن أطلع عليها أحداً، ولو ارتكب هذه الجريمة، والا لما كتبها. كان يعرف أنني لن أرضى أن أنتقم منه وأن أكون سبب ضياعه. هلاّ قرأتم الرسالة! اقرأوا بمزيد من الإمعان، أرجوكم، لتعلموا أنه قد وصف في هذه الرسالة كل شيء سلفا، ذكر كيف سيتدبر الأمر ليقتل أباه، وذكر أين يوجد المال، ذكر ذلك كله سلفا. وأحب أن ألفت انتباهكم إلى إحدى عباراته خاصة، راجية أن تقفوا عندها وهي عبارة: «شريطة أن يكون إيفان غائباً». هل رأيتم؟ لقد قتل عن سابق تصوّر وتصميم، وفكر في جميع التفاصيل. كذلك قالت كاترينا إيفانوفنا بخبث وشر وسوء، كأنما لتؤثر في عقول القضاء تأثيراً. أقوى وأضمن - واضح أنها كانت قد درست هذه الرسالة المشؤومة دراسة دقيقة، وأنها تحفظ كل كلمة من كلماتها على ظهر قلب - ولولا أنه كان عندئذ في حالة سكر لما كتب إلي بهذه الطريقة. انظروا كيف تذكر هذه الرسالة سلفا كل شيء، بنفس التفاصيل التي نفذ بها القتل فيما بعد. الخطة كلها!
هكذا كانت تصيح غَضْبى؛ وواضح أنها كانت لا تبالي في تلك اللحظة بعواقب شهادتها. ولعلها كانت قد تنبأت بهذه العواقب منذ زمن طويل، ذلك أنها لا بد أن تكون قد تساءلت مرارة كثيرة وهي ترتعش استياء: «أيجب عليّ أن أقرأ هذه الرسالة في جلسة المحاكمة؟». أما وأنها عزمت أمرها، فإنها لا تأسف الآن على شيء، ولا تبالي شيئا. أذكر أن هذه الرسالة قد تلاها كاتب المحكمة عندئذ بصوت عال، فتركت في نفوس الجميع انطباعاً مذهلا.
وسئل ميتيا بعد ذلك هل يعترف بأنه هو كاتب الرسالة فصاح ميتيا يقول:
- هي رسالتي، نعم، رسالتي! وما كنت لأكتبها لولا السكر!... يا كاتيا، إن كلا منا يكره الآخر لأسباب كثيرة. ولكنني أحلف لك، أحلف لك على أنني، حتى حين كرهتك، كنت لا أزال أحبك. أما أنت فلا!...
قال ميتيا ذلك، وتهالك على كرسيه وهو يلوي يديه كرباً ويأساً.
وتناوب وكيل النيابة والمحامي إلقاء الأسئلة على كاترينا إيفانوفنا، ملين خاصة على الأسباب التي دفعتها إلى أن تسكت في بداية شهادتها عن وجود رسالة تبلغ هذا المبلغ من خطورة الشأن، وأن تدلي بتصريحات تختلف في لهجتها وروحها عن أقوالها الآن». فقالت كاتيا منقلبة السحنة تقريباً:
- صحيح، نعم، كذبتُ منذ قليل، كذبت عن عمد و قصد على خلاف ما توجبه أمانتي ويوجبه ضميري. ولكنني أردت أن أنقذه في تلك اللحظة، لأنه كان يكرهني ويحتقرني. أوه! كان يحتقرني احتقاراً فظيعاً؛ واعلموا أنه كان يحتقرني دائما! احتقرني منذ اللحظة التي انحنيت فيها أمامه ساجدة في سبيل ذلك المال. رأيت ذلك... أحسست به فورا، ولكنني لبثت زمنا طويلا أتردد في تصديقه. كم من مرة قرأت في عينيه أنه يقول لي: «مع ذلك، أنت التي جئت إلي في الماضي». آه... إنه لم يفهمني، إنه لم يفهم شيئا من سلوكي في يوم من الأيام، إنه لم يدرك سبب مجيئي إليه، لأنه لا يستطيع أن يتخيل إلا أحقر الدوافع وأدنا البواعث. لقد حكم

عليّ من خلال نفسه هو.
وأضافت كاترينا إيفانوفنا تقول وهي تصر باسنانها غضبا، لأنها كانت في حالة اندفاع شديد:
- ظن أن جميع الناس مثله. ولم يخطر بباله أن يتزوجني بعد ذلك إلا لأنني ورثت ثروة. ذلك هو السبب، ذلك هو السبب! لقد قدرت دائما أن ذلك هو السبب الحقيقي! آه... هذا شيطان رجيم. ظن أنني سأظل طول حياتي أرتعش أمامه خجلا من أنني ذهبت إليه في الماضي، وأنه سيستطيع أن يحتقرني لهذا وأن يتسلط علي. ذلك هو السبب في أنه أراد أن يتزوجني، ذلك هو السبب! هذا ما
حدث، أؤكد لكم أن هذا ما حدث! حاولت أن آخذه بالحب، بحب لا نهاية له، حتى لقد كنت مستعدة لأن أغفر له خيانته. ولكنه لم يفهم شيئا، لم يفهم شيئة البتة، البتة! وهل هو قادر على أن يفهم أي شيء؟ هذا مخلوق أشوه! وصلتني منه هذه الرسالة في ذلك الصباح، جاؤوني بها من الحانة، بينما كنت في ذلك الصباح نفسه أستعد لأن أغفر له كل شيء، حتى خيانته!
حاول رئيس المحكمة ووكيل النيابة أن يهدّئاها طبعاً. وإني لعلى يقين من أنهم جميعا كانوا يشعرون في قرارة أنفسهم بالخجل من استغلال اندفاع المرأة الشابة هذا الاستغلال، ومن الاستماع إلى مثل هذه الاعترافات. أذكر أن رئيس المحكمة ووكيل النيابة قالا لها: نحن نفهم ما تعانين من ألم، وثقي أننا نشاطرك هذا الألم، الخ. ولكن هذا لا ينفي أنهما انتزعا منها شهادة بينما كانت في حالة قريبة من الهستيريا، وبينما أصبحت لا تسيطر على نفسها ولا تتحكم بسلوكها. ووصفت أخيراً بوضوح ما بعده وضوح - وهذا ما يتجلى في كثير من الأحيان، ولو على نحو عابر، في لحظات التوتر النفسي الشديد الذي من هذا النوع - كيف أن إيفان فيدوروفتش قد أصبح مجنوناً خلال الشهرين الأخيرين بسبب الفكرة التي حاصرته واستبدت به، وهي أن عليه أن ينقذ أخاه، «هذا الشيطان، هذا القاتل».
وهتفت تقول:
- كان عذابه لا ينقطع ولا يهدأ. وكان يريد أن يخفف من ذنب أخيه قائلا لي إنه كان هو نفسه لا يحب أباه، وإنه ربما كان يتمنى موته. آه... هذا إنسان ذو ضمير حي ووجدان رفيع! لقد مرض من كثرة ما عاني من عذاب الوجدان والضمير. قال لي كل شيء، كل شيء إطلاقاً! كان يجيء إليّ كل يوم فيتحدث إليّ حديثه مع صديقته الوحيدة! ولي الشرف بأن أكون صديقته الوحيدة! - هكذا هتفت تقول فجأة بنوع من التحدي والتمعت عيناها - لقد ذهب إلى سمردياكوف مرتين. وفي ذات يوم جاء إليّ فقال لي: «إذا لم يكن القاتل أخي بل سمردياكوف (ذلك أن الأسطورة القائلة بأن سمردياكوف قد يكون هو القاتل، كانت قد أُطلقت بين الناس، فمن الجائز أن أكون أنا أيضاً جانياً، لأن سمر دياكوف كان يعلم أنني لا أحب أبي وأنني أتمنى موته». وعندئذ إنما أخرجت تلك الرسالة فأطلعته عليها. فلما قرأها اقتنع بأن أخاه هو القاتل، فإذا بهذه الفكرة تحطم نفسه أخيراً. لم يطق أن يتصور أن يكون أخاه قاتل أبيه! وقد لاحظت، منذ أسبوع، أن ذلك أمرضه فعلا. كان يتفق له في الأيام الأخيرة أن يأخذ يهذي أثناء زياراته لي. وأدركت أنه في الطريق إلى الجنون. كان يهذي وهو يسير، وقد شوهد هائماً على وجهه محدثاً نفسه في شوارع مدينتنا. وحين فحصه، أمس الأول، تلبية لطلبي، الطبيب الأخصائي الذي وفد إلى مدينتنا، قال لي إنه على وشك أن يصاب بالحمى العصبية. ذلك كله بسببه، بسبب هذا الشيطان الرجيم! وفاقم الأمر أنه علم أمس أن سمردياكوف قد انتحر، فأحدث هذا النبأ في نفسه أثراً بلغ من القوة أنه فقد عقله... وذلك كله بسبب هذا الشيطان الرجيم، بسبب رغبته في إنقاذ هذا الشيطان الرجيم!
أوه! أنا أعلم أن المرء لا يمكن أن يتكلم بهذه الطريقة وأن يدلي باعترافات من هذا النوع إلا مرة واحدة طوال حياته، في اللحظات التي تسبق الموت، حين يصعد مثلا درجات المشنقة. لقد كانت كاتيا في حالة من هذا النوع نفسه، هي حالة تتفق وطبعها على كل حال. إنها في الواقع تلك الفتاة الجامحة نفسها التي هرعت في الماضي إلى بيت الضابط الفاسق إنقاذا لأبيها، إنها كاتيا تلك نفسها التي ارتضت منذ قليل أن تضحي على رؤوس الأشهاد بحيائها وخفرها، وهي العفيفة الأبية الطاهرة ذات الكبرياء، فقصت قصة
«السلوك النبيل الذي سلكه مينيا»، لا لشيء إلا أن تخفف المصير الذي ينتظره بعض التخفيف. وهي بهذه الطريقة نفسها، وعلى هذا النحو نفسه، إنما تضحي بنفسها الآن، ولكن في سبيل رجل آخر، في سبيل رجل لعلها أدركت لأول مرة في تلك اللحظة مدى ما تضمر له من حب. تضحي بنفسها في سبيله مخافة أن يكون قد أساء إلى شرفه وإلى سمعته حين قال إنه هو القاتل لقد بدا لها فجأة أنه بشهادته قد ضيع نفسه، فهي تضحي بنفسها لتنقذه هو، لتنقذ اسمه وسمعتها على أن هناك سؤالا مقلقا يطرح نفسه: هل كذبت قبل ذلك حين تكلمت عن عواطفها نحو ميتيا، وهل تجنت عليه حين وصفت موقفه منها؟ لا، لا، لا... إنها لم تندد به عامدة حين صرخت تقول إنه يحتقرها بسبب التحية الساجدة التي حيته بها في الماضي! لقد كانت تؤمن بذلك صادقة، لقد كانت مقتنعة، ربما منذ حيته بتلك التحية، أن ميتيا، هذا الطفل البسيط الطيب الذي كان يحبها حب العبادة في ذلك الأوان، قد احتقرها وسخر منها واستهزأ بها. وهي ما تعلقت به ذلك التعلق، ولا أحبته ذلك الحب الهستيري المصطنع المغالي إلا من قبيل الكبرياء وحدها. إن ذلك الحب، الذي نشأ عن زهو جريح، كان أقرب إلى الانتقام منه إلى الحب. وربما كان يمكن أن تستحيل هذه العاطفة المجلوبة إلى حب حقيقي ولقد كانت كاتيا تتمنى ذلك بحرارة على كل حال، ولكن ميتيا أساء إليها بخيانته إساءة عميقة، وأهانها إهانة بالغة، فلم تستطع نفس الفتاة المتكبرة المتغطرسة أن تغفر له. وحلت ساعة الانتقام فجأة، على نحو لم تكن تتوقعه هي نفسها، فإذا بالأحقاد التي تراكمت في قلب المرأة المهانة تراكماً أليماً هذه المدة الطويلة كلها، إذا بهذه الأحقاد تتدفق دفعة واحدة على حين بغتة. إن كاتيا تخون ميتيا الآن، ولكنها تخون نفسها أيضاً! وطبيعي أن التوتر العصبي قد زال منذ أفصحت عما يعتلج في قلبها فأخذ يستولي عليها الشعور بالخزي والعار. لقد أصيبت عندئذ بنوبة عصبية جديدة، فتهاوت على مقعدها وهي تنشج وتئن. فاضطروا إلى نقلها من القاعة. وفيما كانوا يبعدونها هرعت جروشنكا نحو ميتيا صارخة قبل أن يتسع وقت أحد لصدها والسيطرة عليها:
- ميتيا! إن هذه الأفعى قد ضيعتك!
وأضافت تقول وهي ترتعش غضبة وتتجه بكلامها إلى أعضاء المحكمة:
- ها هي ذي الآن تظهر على حقيقتها!
وبأمر من رئيس المحكمة، أمسكت جروشنكا واقتيدت إلى خارج القاعة. كانت تقاوم وتتخبط وتندفع نحو ميتيا. فأخذ ميتيا يعول هو أيضاً، وقام بحركة مباغتة ليلحق بها. فأمسكوه وسيطروا عليه.
افترض أن سيداتنا اللواتي جئن إلى جلسة المحاكمة كمشاهدات، قد أرضاهن ما رأين: فقد كان مشهدا حافلا يستحق العناء. وأتذكر أن الطبيب الأخصائي الوافد من موسكو قد ظهر في تلك اللحظة. يبدو أن رئيس المحكمة كان قد كلف الحاجب باستدعائه لإسعاف إيفان فيدوروفتش. قال الطبيب للمحكمة إن إيفان فيدوروفتش مصاب بنوبة خطرة جداً من نوبات الحمى العصبية، وإن من الواجب صرفه فورا. وجوابا عن أسئلة ألقاها عليه وكيل النيابة والمحامي، صرح بأن المريض قد جاء يستشيره في أمر مرضه منذ يومين، وبأنه قد تنبأ له بنوبة حمّى عصبية وشيكة، ولكن إيفان فيدوروفتش رفض أن يعالج. قال الطبيب راوياً: «لقد كان منذ ذلك الحين مريضاً جداً. واعترف لي هو نفسه بأن أشباحاً تتراءى له، فهو يرى في الشارع أشخاصا ماتوا منذ زمن بعيد، ويزوره الشيطان مساء كل يوم».
وانصرف طبيب الأمراض العقلية الشهير بعد أن فرغ من الإدلاء بشهادته. وضمت الرسالة التي قدمتها كاترينا إيفانوفنا، ضمت إلى وثائق الإثبات. وتشاور أعضاء المحكمة، فقرروا أن يواصلوا مناقشة الشهود. ودونت الشهادتان اللتان لم تكونا متوقعتين (أعني أقوال كاترينا إيفانوفنا وإيفان فيدوروفتش) في محاضر المحاكمة.
أحسب أنه لا داعي إلى سرد تتمة مناقشة الشهود. فإن أقوال الشهود الذين سُمعت شهاداتهم بعد ذلك لم تأت بشيء جديد، ولم تزد على تكرار ما عرفه القاريء حتى الآن، مع بعض الفروق الطفيفة الشخصية. وأقول مرة أخرى: إن جميع الشهادات قد لخصتها وكثفتها مطالعة وكيل النيابة التي سأعرض لها حالا. وحسبي أن أشير هنا إلى أن الحضور كانوا يرزحون تحت وطأة انفعال شديد عنيف من هول الكارثة، وكان الجميع ينتظرون خاتمة الدراما وخطابي الاتهام والدفاع بقلوب يحرقها نفاد الصبر، وكان يبدو على فيتوكوفتش أن أقوال كاترينا إيفانوفنا قد أذهلته. أما وكيل النيابة فكان يبدو منتصراً. حتى إذا انتهت مناقشة الشهود رُفعت الجلسة نحو ساعة. وأعلن الرئيس أخيراً أن الكلام لوكيل النيابة. وأظن أن الساعة كانت هي الثامنة تماما من المساء حين بدأ ايبوليت كيرى لوفتش القاء مطالعته.

-6-مرافعة النيابة - تقييمات

حين بدأ ايبوليت كيرى لوفتش إلقاء مرافعته كان يرتعش ارتعاشة و عصبية، والعرق البارد ينضح على جبينه وصدغيه، وهو يشعر بحُمّي وبارتعاد، مرة بعد مرة. بهذا وصف هو نفسه، فيما بعد، الحالة التي كان عليها حينذاك. كان يرى أن المرافعة «أفضل إنتاجه» وتاجاً يتوج حياته في آخر عهده بمهنته، ونشيداً كنشيد البجعة يصدح به صوته قبيل مماته. وقد مات ايبوليت كيرى لوفتش فعلا بعد ذلك بتسعة أشهر، من سل خبيث لم يمهله طويلا، فلعله كان على حق حين شبه نفسه ببجعة تغني قبل موتها، إذا صدق أنه أوجس ذلك حقا. لقد وضع في هذه المرافعة كل قلبه، ووضع فيها كل ذكائه أيضاً، وبرهن في هذه المناسبة على أنه يملك حساً وطنياً اجتماعياً لم يكن متوقعاً منه، وأنه يهتم هو أيضاً «بالمشكلات الحادة»، على الأقل في حدود قدرة صاحبنا المسكين ايبوليت كيرى لوفتش على فهمها.
وقد فتن الناس بصدقه خاصة: كان ايبوليت كيرى لوفتش يؤمن فعلا بأن المتهم هو الجاني، فكان لا يتهمه ويطالب بإنزال «العقاب» في الحال بحكم ما تقتضيه منه مهنته فحسب، وإنما كان كذلك مقتنعاً اقتناعا عميقاً بما يقول، وكان مشبعاً «بعاطفة إنقاذ المجتمع». إن النساء من جمهور المشاهدين، وهنّ يعادين بمشاعرهن ايبوليت كيرى لوفتش، لم يخفين الأثر العميق الذي أحدثه خطابه في نفوسهن. ولقد بدأ وكيل النيابة إلقاء خطابه بصوت متوتر متقطع، ولكنه صوت ما ينفك يقوى شيئا فشيئا، ثم بدوي في القاعة كلها إلى نهايته. ومع ذلك أوشك ايبوليت كيرى لوفتش أن يغمى عليه حين فرغ من إلقاء الخطاب. بدأ وكيل النيابة مرافعته هكذا:
سادتي المحلفين! إن القضية التي ننظر فيها اليوم قد أحدثت ضجة كبيرة في روسيا كلها. ولكن فيما نُدهش وفيما نُروَّع؟ هل من حقنا أن نُدهش وفيما نُروَّع؟ ألم نألف هذا النوع من القبائح منذ زمن طويل؟ ألا إن أشنع ما في الأمر هو أن فظاعات تبلغ هذا المبلغ من السواد قد أصبحت لا تهز نفوسنا! ذلك هو بلاؤنا! وأن هذا التعود على الشر هو ما ينبغي أن نحزن له، لا هذه أو تلك من الجرائم التي يرتكبها هذا أو ذاك من المجرمين. فما هي أسباب قلة اكتراثنا، ما هي أسباب عدم انفعالنا إزاء جرائم من هذا النوع، جرائم هي في حقيقة الأمر علامات شر مستطير تنذر بمستقبل مظلم؟ هل ترجع تلك الأسباب إلى ما صرنا نتصف به من استهتار واستخفاف، هل ترجع إلى أن العقل والخيال قد نضبا نضوباً مبكراً في مجتمعنا هذا الذي ما يزال فتياً ثم هو قد شاخ قبل الأوان؟ هل نعزو عدم انفعالنا وقلة اكتراثنا إلى أن مبادئنا الأخلاقية قد اهتزت، اللهم إلا أن تكون هذه المبادىء الأخلاقية أموراً تعوزنا أصلا؟ لست أريد أن أجيب عن هذه الأسئلة، ولكن يجب أن نعترف بأنها أسئلة مقلقة ومعذبة، وبأن كل مواطن يستحق اسم المواطن، ينبغي بل ويجب عليه أن يعانيها. إن صحافتنا التي ما تزال في بداياتها، والتي تظهر شيئا من التهيب في بعض الأحيان لهذا السبب، قد قدمت للمجتمع من هذه الناحية خدمات كبيرة فلولاها لما استطعنا أن نعرف بصورة مستفيضة كل ما يعبث في بلادنا فساداً وانحلالا من جميع الأهواء وفساد الأخلاق مما تطلعنا عليه في صفحاتها كل يوم، وبذلك لا تقتصر معرفة الواقع المرير على الذين يحضرون في قاعات المحاكم الجديدة العلنية التي منحنا إياها في عهد القيصر الحالي [249] والتي يعد نشر وقائعها من حسنات النظام الحالي، وإنما تتعداهم إلى جميع المواطنين بغير استثناء. فماذا نقرأ كل يوم في هذه الصحف؟ وا أسفاه! إننا نقرأ في هذه الصحف أنباء عن جرائم يفوق هولها هول القضية التي ننظر فيها اليوم، ولا تعد هذه القضية بالقياس إليها إلا حادثاً تافهاً مبذولا. وأخطر ما في الأمر أن عددا كبيراً من قضايانا الجنائية الوطنية، قضايانا الروسية، يدل على نوع من سقوط جماعي عام شامل هو بلاء مشترك بيننا جميعا، بلاء رسخ في أخلاقنا وعاداتنا رسوخاً عميقاً، فأصبحت محاربته أمراً شاقاً عسيراً فها هو ضابط شاب لامع ينتمي إلى الأوساط الأرستقراطية [250] في بداية حياته وبداية مهنته. ها هو ذا لا يتردد، في ذات يوم، عن ذبح خادمة موظف بسيط كان قد قدم له خدمة، وعن ذبح هذا الموظف بوضاعة، ودون أن يحس بشيء من عذاب الضمير، وذلك ليسترد من هذا الموظف سنداً كان حرره له اعترافا منه بدينه عليه؛ ثم هو ينتهز الفرصة، فيسطو على ما يجده في منزل القتيل من مال، قائلا لنفسه: «سينفعني هذا المال في استمراري على معاشرة المجتمع الراقي، وسيسهل ارتقائي في وظيفتي تبعا لذلك»؛ حتى إذا فرغ من الإجهاز على ضحيتيه، لم ينس أن يضع تحت رأسيهما وسادة، وانصرف. وإليكم مثالا آخر: شاب بطل يزدان صدره بأوسمة حصل عليها لشجاعته. ها هو ذا يقتل في الطريق كما يفعل قاطع طرق، يقتل أم رئيسه المحسن إليه؛ ومن أجل أن يطمئن شركاءه في الجريمة، ومن أجل أن يشجعهم على مشاركته في ارتكاب الجريمة، يقول لهم: «إن هذه المرأة تحبني كابنها، لهذا ستتبع نصائحي دون أن تتخذ أي احتياط من الاحتياطات».صحيح أن هذا إنسان شاذ. ولكنني لا أجرؤ أن أقول إنه حالة مفردة في هذا العصر الذي نعيش فيه. وهناك آخرون قد لا يقتلون، ولكن نفوسهم تجيش بهذه الرغبات نفسها وهذه المشاعر نفسها التي تجيش بها نفس ذلك المجرم، وهم خالون من الشرف خلوّه هو منهم، ولعلهم حين ينفردون بأنفسهم يتساءلون: «ما هو الشرف؟ أليس الخوف من سفك الدم وهما من الأوهام الباطلة؟». قد تقولون عني إنني متشائم تشاؤما هو أقرب إلى المرض، واشهر بالناس تشهيراً خبيثاً، وأغالي في وصف الشر الذي ألاحظه مغالاة هاذية! آه... كم أتمنى يا رب السماء أن تكونوا محقين، إذا لكنت أول من يسعد. لكم أن لا تصدقوني إذا شئتم، ولكم أن تعدوا قلقي هذا وخوفي هذا مرضاً، ولكن تذكروا مع ذلك ما أقوله لكم اليوم: إذا لم يكن في أقوالي إلا عشر أو عشر معشار من صدق، فذلك وحده رهيب! هل فكرتم، أيها السادة، في العدد المروع من الشباب الذين ينتحرون في بلادنا؟ إنهم يقتلون أنفسهم بلا كلام، دون أن يتساءلوا، كما فعل هاملت، عما سيصيرون إليه بعد الموت. لكان مشكلة النفس الإنسانية، لكأن مشكلة المصير الذي ينتظرنا في الحياة الآخرة، أصبحت غريبة عن عقولهم، فهم قد نسوا ودفنوا هذا النوع من الاهتمامات والتساؤلات منذ زمن طويل. وانظروا، بعد، إلى فساد أخلاقنا وتحلل عاداتنا الذي يتجلى لدى الفاسقين الماجنين من أبناء مجتمعنا. إن فيدور بافلوفتش، الشقي المجني عليه في هذه القضية، يمكن أن يعد طفلاً بريئاً إذا قيس بأولئك الفاسقين الماجنين، ولقد عرفناه جميعا، «وكان واحداً منا»... قد يجيء يوم تعكف فيه عقول متفوقة، في بلادنا وفي البلاد الأخرى، على دراسة سيكولوجية المجرم الروسي، لأن الموضوع يستحق عناء الدرس طبعاً. ولكن هذه الدراسة ستتم في المستقبل، حين يهدأ البال ويطمئن العقل، حين تصبح ضروب المآسي التي يعاني منها عصرنا ذكرى لا أكثر، فيكون من الممكن عندئذ أن تدرس دراسة فيها من الإنصاف والعدل والحياد ما لا يستطيعه رجال مثلي في هذا الأوان؛ نحن الآن مروعون، أو نحن نتظاهر بأننا مروعون، مع تلذذنا بمشهد الجريمة، لأننا نحب الإحساسات القوية الشاذة العنيفة التي توقظ نفوسنا من الخدر وتهز ما تعانيه من قلة الانفعال وكثرة الاستخفاف والاستهتار؛ أو قولوا أيضاً إننا أشبه بأطفال صغار. نطرد الرؤى المرعبة بحركة من يدنا، وندفن وجوهنا في الوسادة إلى أن تغيب تلك الرؤى المرعبة، عازمين على أن ننساها فورا بالمسرات واللعب. ولكن لا بد لنا مع ذلك من أن نعزم أمرنا مرة على أن تأخذ الحياة مأخذ الجد، وعلى أن نفكر فيما توجبه علينا الحياة وما تقتضيه منا. لا بد لنا أن نفكر وأن نتأمل وأن نحاسب أنفسنا لنستطيع أن نفهم، أو لنحاول أن نفهم، على الأقل ما يجري في مجتمعنا. إن كاتباً كبيراً من كتاب عهد قريب، قد شبه روسيا، في خاتمة كتابه الرائع، بعربة ترويكا تعدو عدواً سريعاً نحو غاية مجهولة، فهتف يخاطبها قائلاً: «أيتها الترويكا، يا طائرة سريعة، من ذا الذي أوجدك؟» [251] وأضاف يقول في اندفاعة كبرياء وعجب وزهو: إن الشعوب لتتنحى باحترام من طريق الترويكا الجبارة. ليكن، أيها السادة! لنسلم بأن الشعوب تتنحى باحترام أو بدون احترام. ولكنني أعتقد، في رأيي المتواضع، أن الفنان العبقري إنما استعمل هذه الصورة وهو في حالة اندفاع مثالي طفولي يغفر له، أو لعله لجأ إلى هذه الصورة لأنه كان يخشى الرقابة على المطبوعات في ذلك العهد؛ إذ لو شئ إلى هذه الترويكا أبطال روايته نفسها، أمثال سوباكيفتش ونوز در ويوف وتشيتشيكوف، فهل تعلمون إلى أين يمكن أن تقودنا الترويكا بهذه الخيول أيا كان الحوذي الذي يقودها؟ وتلك مع ذلك خيول من عهد غابر لا تضارع خيول هذا الزمان. وقد رأينا بعدها كثيرة...
هنا قطع مرافعة ايبوليت كيرى لوفتش تصفيق من الجمهور - لقد طرب الجمهور مما في صورة الترويكا هذه من ليبرالية. ولكن التصفيق الذي انطلقت به الأكف كان تصفيقاً متفرقاً هنا وهناك، لذلك لم ير رئيس المحكمة أن عليه أن «يهدد بإخلاء القاعة»، واقتصر على أن يرشق الأشخاص المذنبين بنظرة قاسية. غير أن ايبوليت كيرى لوفتش قد تشجع. إنه لم يصفق له حتى الآن يوما في حياته. لقد ظل الناس سنين طويلة يرفضون الإصغاء إليه، وها هو ذا يستطيع على حين فجأة أن يسمع صوته إلى روسيا كلها! وتابع وكيل النيابة خطابه فقال:
ما الذي تمثله في الواقع أسرة كارامازوف هذه التي اكتسبت في بلادنا، بين عشية وضحاها، شهرة سوداء هذا السواد كله؟ قد تظنون أنني أبالغ، ولكنني أحسب أن حياة هذه الأسرة تعكس عناصر بارزة يتميز بها مجتمعنا المثقف المعاصر؛ صحيح أنها تعكسها مصغرة تصغيراً مكروسكوبياً «كما تعكس الشمس قطرة ماء»، ولكننا نجد فيها قبسات ذات دلالة. انظروا أولاً إلى ذلك العجوز الشقي، ذلك الفاسق الجريء، ذلك «الأب» الذي لقي مصيراً حزيناً تعيساً. لقد بدأ حياته طفيليا مسكينا رغم نبالة محتده وأتاح له زواج موفق لم يكن يأمله، أن ينال مهراً هو رأس مال لا بأس به. لم يكن الرجل في ذلك الحين إلا غشاشاً ضيق المدى ومهرجاً يتملق الأقوياء، ولكنه يملك مزايا ذكاء لا تجحد. وهو قبل كل شيء مراب. وتنقضي السنون، فيربو رأس ماله، ويأخذ يرفع رأسه شيئا بعد شيء. وتختفي المذلة والاستكانة ونزول الزلفي والمداهنة، ولا يبقى من الرجل إلا إنسان فاجر عاهر، إنسان شرير خبيث ساخر. غابت الحياة الروحية من نفسه غياباً تاماً لا رجعة لها بعده، وأصبح ظمؤه إلى اللذة ظمأ جارفاً لا حدود له، وغدا لا يرى في الوجود إلا المباهج والمنع والملذات؛ وبهذه الروح إنما نشأ أولاده، أما الواجبات الأخلاقية التي تقع على عاتق أب فإنه لم يعبأ بها ولم يكترث لها. إنه لا يبالي بأبنائه، بل يتركهم في الفناء الخلفي من منزله، ويعد نفسه سعيداً حين ينتزعون منه. ثم ينسى وجودهم آخر الأمر نسياناً تاماً. إن قاعدة السلوك التي ارتضاها هذا الرجل لنفسه وأخذ بها تتلخص في قول القائل: «من بعدي الطوفان» إن نظراته ومفاهيمه

تجعل منه نقيض المواطن، فهو يعيش بعيداً عن المجتمع، في عزلة تشبه أن تكون معادية للمجتمع، ولسان حاله يقول: «ألا فليهلك المجتمع كله، شريطة أن أكون أنا بخير». ولقد كان بخير فعلا، فهو راض عن مصيره، مغتبط بما ناله، يتمنى بحرارة أن يعيش على هذا النحو عشرين سنة أخرى أو ثلاثين سنة أخرى. وهو يغبن ابنه ويسلبه حقه؛ وبالمال الذي آل إلى الفني من ميراث أمه ورفض الأب أن يرده إليه، يحاول أن ينتزع من الأبن عشيقته. لا، لن أترك عبء الدفاع عن المتهم للمحامي اللامع الذي وفد إلينا من سان بطرسبرج! سأقول الحقيقة بنفسي، لأنني أفهم الاستياء والحقد اللذين راكمهما هذا الأب في نفس ابنه. ولكن كفانا ما قلناه عن ذلك العجوز، لأنه قد عوقب على آثامه عقابا كافيا. ولكن يجب أن لا ننسى أن هذا الأب من معاصرينا. أتقولون إنني أهين المجتمع إذا زعمت أنه واحد من عدد كبير من الآباء المعاصرين؟ واأسفاه! ما أكثر الآباء الذين لا يمتازون عليه، في عصرنا هذا، إلا بأدب أرهف يمنعهم من أن يفصحوا عن أنفسهم بذلك الاستهتار نفسه، بينما هم في الواقع يشاطرونه آراءه! لنسلم جدلا بأنني متشائم. لقد اتفقنا على أن تعذروني هذه المرة. فليكن مفهوماً منذ الآن أنكم قد لا تصدقونني، ولكنني سأعبر عن آرائي تعبيراً حراً، وسأقول كل ما أعتقد به في قرارة نفسي. لكم أن لا تصدقوني. ولكن شيئا مما سأقوله سيبقى في نفوسكم مهما يكن من أمر.
لننتقل الآن إلى أبناء ذلك العجوز، ذلك الأب الذي هو رب أسرة: إن واحدة منهم يجلس الآن أمامكم في قفص الاتهام. وسأتحدث عنه، فيما بعد، حديثاً أطول. أما الآخران، فسأوجز الكلام عليهما. إن أكبرهما هو واحد من شبابنا الحديثين يملك ثقافة ممتازة وذكاء عظيماً، ولكنه لا يؤمن بشيء، لأنه كان قد نبذ وجحد أمور كثيرة قبل ذلك، كأبيه تماما. إننا نعرفه جميعا: لقد استقبل استقبالا حاراً في مجتمعنا، وكان لا يخفي آراءه. بالعكس: كان يجاهر بها، وذلك يجيز لي أن أتكلم عنه اليوم بشيء من الصراحة، فأحلله لا من حيث هو شخص مفرد طبعاً، بل من حيث هو واحد من أسرة كارامازوف. لقد انتحر بالأمس، في الطرف الأقصى من المدينة، رجل شقي ضعيف العقل مريض، مرتبط بهذه القضية ارتباطا وثيقا، هو الخادم القديم وربما الابن غير الشرعي لفيدور بافلوفتش. أقصد سمردياكوف. لقد روى لي ذلك المسكين، أثناء التحقيق الأولي، وهو يبكي بكاء متشنجاً، كيف أن هذا الشاب كارامازوف، أعني إيفان فيدوروفتش، قد روّعه بإباحية تفكيره. كان يقول له: «كل شيء مباح، كل شيء مشروع، كل ما قد يشتهيه الإنسان في هذا العالم حلال، وما ينبغي أن يحرم شيء بعد الآن». ذلك ما كان يعلمه إياه. ويظهر أن هذا الرجل الضعيف العقل قد فقد صوابه نهائيا بتأثير هذه الأفكار، وإن يكن من الجائز أيضاً أن يكون مرضه، وهو مرض الصرع، قد أثر في حالته العقلية كذلك، وأن تكون الدراما الرهيبة المروعة التي وقعت بالمنزل قد أسهمت في اختلال عقله. ومع ذلك فإن هذا الأبله قد ساق في يوم من الأيام ملاحظة شائقة هامة يمكن أن يفاخر بمثلها رجل أذكى منه، ولذلك أرى أنه من المفيد أن أذكرها هنا. لقد أفضى إليّ بقوله: «بين جميع أبناء فيدور بافلوفتش، لا شك أن الذي يشبهه في طبعه أكثر من الآخرين، هو إيفان فيدوروفتش». أريد أن أختم، بهذه الملاحظة، التحليل السيكولوجي الذي عرضته لكم، فليس يجمل أن ألح مزيداً من الإلحاح. ولا أريد أن أتعجل استخراج النتائج وأن أكون المتنبيء بالشقاء لشاب في فجر حياته. لقد رأينا في هذه القاعة، منذ اليوم، أن القوة التي لا سبيل إلى مغالبتها، أعني قوة الحقيقة، ما تزال تؤكد نفسها في قلب هذا الفتى، وأن عواطف التعلق العائلي لم يخنقها الكفر بالدين ولا قضى عليها الاستخفاف بالأخلاق، وهما كفر واستخفاف يرجعان إلى الوراثة أكثر مما يرجعان إلى تفكيره الخاص.
وانظروا بعد ذلك إلى أصغر هؤلاء الأبناء. إن هذا الابن ما يزال مراهقاً متواضعاً تقياً يحاول، على نقيض المفاهيم الفلسفية المظلمة التي تدفع إلى الانحلال والتي أخذ بها أخوه، يحاول أن يتعلق بما يزعم أنه «أسس روح الشعب»، أو ما يطلق عليه في أيامنا هذه، في صفوف بعض الأوساط المثقفة من مجتمعنا، هذا الاسم الذي فيه شيء من الادعاء. وها هو قد تعلق بدير، وكاد يرتدي مسوح الراهب. يخيل إلي أنه لا بد أن يكون قد أحس، ربما على غير شعور منه، بذلك الكرب الوجل وذلك القنوط الخائف اللذين يقاسي منهما الآن، في بلادنا الشقية، هذا العدد الكبير كله من الأشخاص الذين يروعهم ما يشيع في مجتمعنا من استهتار واستخفاف، وتحلل من الأخلاق. وإذ كان هؤلاء الأشخاص يعزون الشر كله إلى الثقافة الغربية ظلماً بغير حق، فإنهم يرجعون، كما يقال، إلى «تراب الوطن»، ويسارعون إلى الاحتماء بذراعي الأرض الأم التي أرضعتهم، مثلهم كمثل أولئك الأطفال الذين روعهم رؤى أشباح، فهم يلوذون بالصدور الناضبة من أمهاتهم الموهنة، آملين أن يجدوا فيها هدوء النوم وراحة الغفو على أقل تقدير. وهم يتمنون أن يستطيعوا أن يناموا هذا النوم طول حياتهم، هربا من منظر الأهوال التي تروّعهم. إنني، من جهتي، أتمنى أحسن التمنيات لمستقبل هذا المراهق الطيب الموهوب. وآمل أن لا تنقلب مثاليته الشابة وميله إلى الأفكار الشعبية، كما يحدث هذا في كثير من الأحيان، إلى صوفية ضبابية وغيبية مظلمة في مجال الأخلاق، وإلى تعصب قومي أعمى على صعيد السياسة. فهذان ضلالان هما في نظري أشد شؤماً على مستقبل أمتنا من الانحلال الأخلاقي المبكر الذي ولدته في أخيه ثقافة غربية لم يحسن هضمها وتمثّلها...
هنا انطلقت بعض الأكف بالتصفيق من جديد، على ذكر التعصب القومي والغيبية. وواضح أن ايبوليت كيرى لوفتش قد استرسل في هذا الكلام المستفيض بدافع الفصاحة، وأن ملاحظاته لم تكن تمت بصلة قريبة إلى القضية. ثم لقد كان كلامه كله غامضاً مبهماً، ولكن هذا الرجل المصدوم الحانق قد أراد أن يفصح عما بنفسه مرة واحدة في حياته على الأقل. وقد قيل فيما بعد إنه إنما انقاد في تحليله النفسي الإيفان فيدوروفتش لعاطفة فيها شيء من حقد لأن إيفان فيدوروفتش كان قد أحرجه وأربكه مرة أو مرتين في الأحاديث التي كانت تدور في صالونات المجتمع، فلم ينس ايبوليت كيرى لوفتش ذلك، فاستغل هذه المناسبة من أجل أن يثأر لنفسه وأن ينتقم فيما قيل. ولست أدري مدى صحة هذا الاستنتاج. مهما يكن من أمر، فإن هذا الجزء من خطابه لم يكن إلا استهلاك، وسوف يأخذ الآن بمعالجة القضية من كثب. واصل وكيل النيابة إلقاء خطابه فقال:
أعود الآن إلى الابن الثالث من أبناء رب هذه الأسرة الحديثة إنكم ترونه أمامكم جالساً في قفص الاتهام، وأمام أبصاركم تخطر حياته كلها، أعماله وسلوكه: لقد حانت الساعة التي يتضح فيها كل شيء. إنه يمثل، خلافا لما يمثله أخواه من اتجاهات أوروبية أو ميول شعبية، إنه يمثل روسيا على حالتها الطبيعية إن صح التعبير، ولكن لا روسيا كلها من حسن الحظ، لا روسيا كلها والحمد لله! ولكننا نجد روسيا فيه، نشم رائحتها المألوفة، نحزر حضورها! نعم، نحن أناس على حالة الطبيعة، يختلط فينا الخير والشر اختلاطاً غريباً. نحب الثقافة ونعجب بشيللر، ولكننا نعربد في الحانات ونجد لذة في جر رفاق السكر من لحاهم. صحيح أننا نعرف كيف نكون أخياراً طيبين وكرامة أسخياء في المناسبات، ولكن ذلك لا يحدث لنا إلا حين نكون سعداء راضين عن أنفسنا. نحن نحب الأفكار النبيلة، ونلتهب حماسة لها، نعم، نلتهب حماسة لها، ولكن شريطة أن تهبط علينا من السماء بغير جهد نبذله، وأن لا تكلفنا شيئا، خاصة أن لا تكلفنا شيئا. نحن لا نريد أن نبذل في سبيلها شيئا، نحن نكره أن نكون مضطرين إلى العطاء. ولكننا في مقابل ذلك نحب أن نأخذ، نحب الأخذ في جميع الميادين. لسان حالنا يقول: اعطونا، اعطونا جميع خيرات الحياة (أقول جميع الخيرات لأننا لا نرضى بأقل من ذلك)، ولا تعارضوا رغباتنا في شيء، تروا عندئذ كيف نستطيع أن نكون لطافاً محببين؛ ما نحن بالطماعين النهمين طبعا، ولكننا نريد أن تعطونا مالا، أن تعطونا مالا كثيراً، أن تعطونا أكبر قدر ممكن من المال: وسوف ترون عندئذ كيف نستطيع، باحتقار نبيل كريم للمعدن الخسيس، أن نبده وأن نتلفه في ليلة واحدة أثناء قصف محموم ولهو مسعور. فإذا شاء سوء الحظ أن يمنع عنا هذا المال، أظهرنا ما نحن قادرون على أن نفعله للحصول عليه متى اشتدت حاجتنا إليه. ولكنني ألاحظ أنني أستبق الأمور. فلنعمد إلى عرض الأشياء مرتبة منظمة. هذا هو الصبي الصغير يتركه أبوه، «فيتسكع في الفناء الخلفي حافي القدمين»، على حد تعبير مواطننا المحترم المحبب، الذي يرجع إلى أصل أجنبي واأسفاه! أعود فأقول: إنني لن أترك لأحد عبء الدفاع عن المتهم. سوف أكون المتهم له والمحامي عنه في آن واحد. ذلك أننا بشر نحن أيضاً، وسأعرف كيف أقيم وزنا لما تخلفه مشاعر الطفولة وحياة المنزل الأبوي من آثار في النفس وما تتركه من بصمات على الطبع. ويكبر الصبي، فيصبح مراهقاً، ثم يصبح شاباً، ويخدم في الجيش ضابطاً. وفي أعقاب أعمال عنف قام بها، وعلى أثر استفزاز إلى مبارزة، نُفِي إلى مدينة صغيرة نائية، تقع قرب حدود وطننا الغني الواسع. وهناك واصل حياته العسكرية، واسترسل في إفراطه طبعاً، فهو يلهو ويقصف ويعبث. ولا بد له من المال، لا بد له من المال قبل كل شيء. لذلك قرر، بعد مناقشات طويلة ومجادلات كثيرة، أن يتساهل مع أبيه، فقبل أن يدفع له أبوه مبلغاً أخيراً. قدره ستة آلاف روبل، وقد تقاضي هذا المبلغ فعلا. لاحظوا أن هناك سنداً ممهوراً بتوقيعه هو رسالة يصرح فيها أنه يتنازل عن باقي الميراث، وأنه يعد استلام هذه الستة آلاف روبل نهاية لنزاعه مع أبيه في أمر هذا الميراث. وفي تلك الفترة يلتقي بفتاة نبيلة الطبع عالية الثقافة. أوه! اعفوني من الدخول في التفاصيل، فقد سمعتم هذه القصة هنا! إن المسألة مسألة شرف ومروءة، مسألة تضحية، فلا يسعني إلا أن أسكت باحترام وإجلال. إن الصورة التي رسمت لكم عن شاب هو إنسان طائش منحل ولكنه يعرف كيف ينحني أمام نفس نبيلة صادقة، أمام مثل أعلى كريم رفيع، إن هذه الصورة قد أحببناها جميعا وأعجبنا بها جميعا. ولكنكم قد اطلعتم بعد ذلك بلحظات، في هذه القاعة نفسها، على نحو لم يكن يتوقعه أحد، اطلعتم على الوجه الآخر من هذه الصورة. سأمتنع هنا أيضاً عن فرض الفروض، وسأعدل عن تحليل الأسباب التي دفعت الشاهدة إلى تغيير موقفها. وهي أسباب موجودة حتما. لقد سمعنا هذه الشاهدة نفسها، وهي تبكي من آلام طال كظمها، تعلن لنا أنه كان أول من ازدراها واحتقرها للعمل الذي قامت به، العمل الذي ربما كان فيه طيش وعدم تبصر، ولكنه نبيل المنبع كريم الهدف على كل حال. ففي منزل هذا الشاب، في منزل خطيبها، إنما رأت هذه الفتاة، لأول مرة، تلك النظرة التي تشتمل على معنى الاحتقار والسخرية، تلك النظرة التي لم تُطق هذه الفتاة خاصة أن تحتملها. وحين علمت أنه خانها (وقد خانها لاعتقاده بأن عليها أن تحتمل منه كل شيء، حتى الخيانة)، تعمدت أن تعرض عليه تلك الثلاثة الاف روبل وهي تفهمه بوضوح، وربما بوضوح مفرط، أنها إنما تعطيه هذا المال لتيح له أن يمضي في خيانته إلى نهايتها. وكانت نظرتها الفاحصة تسأله: «هيه! أتقبل المال أم لا؟ أتبلغ هذا المبلغ من الاستخفاف؟» وقد قرأ هو نظرتها، وأدرك ما يخفيه تفكيرها، أدركه إدراكا تاما (ألم يعترف في هذا المكان نفسه، أمامكم، أنه أدركه؟) ولكنه قبل الثلاثة آلاف روبل دون تردد، وأنفقها خلال يومين على لهوه في حبه الجديد.. فماذا نصدق؟

هل الحقيقة قائمة في الصورة الأولى التي رسمت لنا عنه هل الحقيقة قائمة في أسطورة تلك الاندفاعة النبيلة الكريمة التي حملت الضابط الشاب على أن يضحي بآخر ما يملك، وعلى أن ينحني أمام الفضيلة؛ أم الحقيقة قائمة في الوجه الآخر من تلك الصورة، الذي يبعث على الاشمئزاز ويثير التقزز؟ إنه ليحدث في الحياة عادة أن توجد الحقيقة في الوسط، حين يكون هناك عنصران متناقضان. ولكن الأمر ليس كذلك في الحالة التي ننظر فيها الآن. وإنما أغلب الظن أن الشاب كان صادق النبل في المرة الاولى بقدر ما كان صادق الخسة والحطة في المرة الثانية. فاذا سألتموني: لماذا؟ قلت لأننا إزاء طبائع عريضة هي طبائع آل كارامازوف - وذلك ما أريد أن أخلص إليه - أعني أننا إزاء أناس قادرين على أن تضم نفوسهم جميع تناقضات الحياة، وعلى أن يرنوا بأبصارهم إلى الهوّتين كلتيهما في آن واحد، الهوة العليا التي تحلق فيها أنبل المثل والهوة السفلى التي تعرض فيها أحقر المخازي وأدنا أنواع السقوط. تذكروا تلك الفكرة اللامعة التي عبر عنها، منذ قليل، السيد راكيتين، هذا الشاب الذي أوتي موهبة الملاحظة العميقة، وأتيح له أن يدرس آل كارامازوف من كثب، وذلك حين قال: «إن هذه الطبائع العنيفة المسعورة تحتاج إلى الإحساس بالدناءة والسقوط كحاجتها إلى أرفع النُّبْل». ألا إن هذا لصادق كل الصدق: إن هذا المزيج الشاذ وهذا الخليط العجيب هما من الأمور التي يقتضيها طبعهم بغير انقطاع. لا بد لنا من هوّتين اثنتين أيها السادة، هوّتين نستطيع أن نرنو إليهما معا في آن واحد، وإلا شعرنا بالشقاء وعدم الرضى، لأن حياتنا يعوزها الامتلاء عندئذ. نحن عريضون، عريضون عرض أمّنا الطيبة روسيا؛ نحن نستطيع أن نضم في أنفسنا كل شيء، أن نضم كل شيء وأن نقبل كل شيء! بالمناسبة، أيها السادة المحلفون لقد أثرت الآن موضوع تلك الثلاثة آلاف روبل، فاسمحوا لي أن أستبق الأمور قليلا. هل في وسعكم أن تتصوروا أن هذا المتهم، الذي وصفت لكم طبعه، قد أمكنه في ذلك اليوم نفسه الذي أخذ فيه المال من خطيبته - لقاء مذلا لا مذله بعدها، وخزي لا يضارعه خزي - هل في وسعكم أن تتصورا أنه قد أمكنه في ذلك اليوم نفسه أن يقتطع نصف ذلك المبلغ وأن يخيط عليه كيساً يعلقه بعد ذلك في عنقه خلال شهر بكامله دون أن يفض الكيس ويأخذ المال، رغم الإغراءات التي لا حصر لها والحاجات التي لا سبيل إلى مغالبتها، رغم هذه الإغراءات وهذه الحاجات التي تحفل بها حياته؟ كيف يمكنه أن لا يمس هذه الذخيرة لا أثناء إفراطه في الشراب في الحانات، ولا في اللحظة التي قام فيها بمساع لا يعلمها إلا الله في سبيل الحصول على المال من خارج هذه المدينة بغية أن يستطيع السفر مع حبيبته الغالية التي يريد أن يبعدها عن ما يريده منها أبوه، غريمه ومنافسه؟ أما أنا فأرى أنه كان لا بد له أن يفض الكيس، ولو لم يكن له من هدف إلا أن لا يترك هذه المرأة العزلاء أمام إغراءات أبيه الذي يغار هو منه، وأن يبقى إلى جانبها حارسا يقظاً بانتظار اللحظة التي تقول له فيها أخيراً «أنا لك»، فيستطيع عندئذ أن يهرب معها إلى حيث يبعد بها عن هذه البيئة الموبوءة. ولكن لا، إنه يأبى أن يمس حرزه؛ وما حجته في ذلك؟ إن الباعث الأول الذي ذكره، كما قلنا منذ قليل، هو رغبته في أن يدخر هذا المال للحظة التي ستقول له فيها: «انا لك، فخذني إلى حيث تشاء»، فيكون في وسعه عندئذ أن يرحل معها مستعيناً بذلك المال. ولكن هذه الحجة الأولى لا قيمة لها بالقياس إلى الحجة الثانية، وذلك باعتراف المتهم نفسه. كان المتهم يحدث نفسه قائلا: ما ظللت أحمل هذا المال، فإنني أكون شقياً ولكنني لا أكون لصاً، لأنني أكون قادرة في كل لحظة على أن أذهب إلى خطيبتي التي أهنتها، وأن أضع أمامها نصف المبلغ، وأن أقول لها: انظري! لقد أتلفت نصف مالك في اللهو والقصف، مبرهناً على أني ضعيف مخل بما تقتضيه الأخلاق، وعلى أنني وغد إن شئت (إنني استعمل تعابير المتهم نفسها)، ولكني، مهما أكن وغداً، لست بسارق! فلو كنت سارقا لما رددت إليك النصف الذي بقي لي من مالك وإنما كنت أسطو عليه كما سطوت على النصف الأول». يا لهذا التعليل لسلوكه ما أشد غرابته! إن هذا الرجل العنيف، ولكن الضعيف، إن هذا الرجل الذي عجز عن مقاومة إغراء الثلاثة آلاف روبل فأخذها في ظروف تلطخ شرفه ذلك التلطيخ كله، يجد في نفسه على حين فجأة قوة راقية تمكنه من أن يعلق بعنقه أكثر من ألف روبل دون أن يمس هذا المبلغ في لحظة من اللحظات! هل يتفق هذا التعليل وسيكولوجية المتهم؟ إنني لا أتردد في رفض هذا التعليل؛ وسأجيز لنفسي أن أقول لكم كيف كان يمكن أن يتصرف، في رأيي، ديمترى كارامازوف الحقيقي، إذا صدق أنه خاط على ذلك المال كيساً علقه في صدره. إنه في سبيل أن يسر المرأة الحبيبة التي كان قد أتلف معها قبل ذلك مبلغا مماثلا، كان سيفض الكيس فيأخذ منه ولو مائة روبل، مثلا، في أول الأمر، قائلا لنفسه عندئذ: «علام ألأخر نصف المبلغ تماما، أي ألفا وخمسمائة روبل؟ يكفي أن أرد اليها ألفاً واربعمائة، فالأمران واحد »لأنه سيظل قادرة على أن يقول لها:

- «أنا وغد ولكنني لست لصاً، فها أنذا أرد إليك ألفا وأربعمائة روبل، على حين أن اللص يأخذ المبلغ كله ولا يرد منه شيئا». وبعد مدة من الوقت، يفض الكيس مرة أخرى ليأخذ منه مائة روبل أخرى، ثم يفضه ليأخذ منه مائة ثالثة، فمائة رابعة، وهكذا دواليكم؛ فما ينقضي الشهر إلا ويكون قد أخرج ألفا وأربعمائة روبل محتفظاً بورقة واحدة من أوراق المائة روبل قائلا لنفسه: «يكفي أن أرد إليها مائة روبل، أليس الأمران سيان؟»

- «أنا وغد، ولكنني لست لصا. لقد أتلفت في اللهو والقصف ألفين وتسعمائة روبل، ولكني أرد إليك مائة روبل رغم كل شيء، وما كان اللص أن يرد إليك شيئا».

وفي النهاية، بعد أن يتلف تلك المائة السابقة على الأخيرة، كان سيهتف قائلا: «علام أرد إليها مائة روبل؟ فلأنفقها كما أنفقت غيرها!». ذلك هو التصرف الذي كان سيتصرفه ديمترى فيدوروفتش الحقيقي، الذي نعرفه. على أن أسطورة الكيس هذه تتناقض مع الواقع تناقضاً مطلقاً. إن في وسع المرء أن يتخيل كل شيء إلا هذا. ولكننا سنعود إلى هذا الأمر فيما بعد».

وبعد أن عرض ايبوليت كيرى لوفتش، بالترتيب، كل ما تبين من التحقيق الأولي فيما يتعلق بالمنازعات المالية والخلافات العائلية بين الأبن وأبيه، وبعد أن أشار مرة أخرى إلى أن الوقائع المعروفة ليس فيها أي شيء يجيز لنا أن نقطع برأي حاسم وأن نجيب إجابة شافية على سؤالنا أي الرجلين غش الآخر وغبنه عند اقتسام الميراث، انتقل ايبوليت كيريلوفتش إلى الكلام عن الحالة النفسية التي كان عليها ميتيا حين غدا اهتمامه بالثلاثة آلاف روبل فكرة ثابتة تحاصر ذهنه ولا تبرحه في لحظة من اللحظات، فجاء في هذه المناسبة على ذكر تقرير الطبيب الشرعي.

«يريد تقرير و تقرير الطب الشرعي أن يبرهن لنا على أن المتهم لا يملك: جميع قواه العقلية وأنه مصاب بمرض «المانيا». أما أنا فأؤكد أن المتهم يملك عقله كاملاً، وذلك هو بلاؤه وشقاؤه: فلو كان لا يملك عقله كاملاً، لكان من الممكن أن ينصرف تصرفاً أقرب إلى الذكاء. أما أن يكون مصاباً بمرض «المانيا»، فذلك أمر أسلم به، ولكن مرض «المانيا» عنده لا ينصب إلا على نقطة واحدة هي تلك التي أشار إليها تقرير الطب الشرعي، أعني الفكرة التي رسخت في ذهنه عن أن أباه قد سلبه تلك الثلاثة آلاف روبل على ما يزعم. ومع ذلك نستطيع لتعليل ذلك الحنق الذي يجتاح نفسه ويستبد به كلما دار الكلام على هذه الثلاثة آلاف روبل، أن نجد تفسيراً أبسط كثيراً من هذا التفسير القائم على أن لدى المتهم استعدادا للجنون. إنني، من جهتي أشاطر الطبيب الشاب رأيه الذي يقول إن المتهم كان يملك وما يزال يملك جميع قواه العقلية، وأنه طبيعي سليم من الناحية السيكولوجية ولكنه منفعل حانق حاقد. تلك هي عقدة القضية: ليس مبلغ الثلاثة آلاف روبل، ليس المال هو السبب فيما كان يعانيه المتهم من غضب متصل وحنق مستمر، إن هناك سببا آخر كان يثير غضبه، وهو سبب خاص: إنه «الغيرة!».

أفاض ايبوليت كبريلوفتش بعد ذلك في الكلام على الهوى المشؤوم الذي شدَّ المتهم إلى جروشنكا؛ وذكر تاريخ هذا الهوى منذ اليوم الذي ذهب فيه المتهم إلى «تلك المرأة الشابة»، على نية أن «يضربها» - على حد تعبيره - فإذا هو بدلا من أن يضربها يتهاوى على قدميها. قال وكيل النيابة: «تلك كانت بداية هذا الحب». وفي ذلك الأوان نفسه إنما ألقى العجوز، أبو المتهم عينيه على هذه المخلوقة. يا للمصادفة العجيبة المشؤومة! لقد اشتعل القلبان حبا في آن واحد. في ساعة واحدة تقريبا، مع أن كلا منهما قد أتيح له أن يراها قبل ذلك مراراً كثيراً. وكان الهوى الذي ألهب الرجلين هوى محموماً مسعوراً يتفق وطبيعة آل كارامازوف. ولدينا اعترافات هذه المرأة الشابة نفسها، إذ قالت: «لقد ضحكت على الرجلين كليهما». نعم. لقد اشتهت فجأة أن تضحك عليهما كليهما. لم تكن قد اشتهت ذلك من قبل، ولكن هذه الفكرة استهوت نفسها على حين فجأة، فإذا بالرجلين يزحفان وراءها آخر الأمر. فالعجوز الذي كان حتى ذلك الحين لا يعبد شيئا إلا المال، أعد لها ظرفاً فيه ثلاث آلاف روبل يهديها لها متى ارتضت أن تمن عليه بزيارة في منزله، بزيارة لا أكثر؛ ثم وصل به الهيام إلى درجة أن يعلن أنه مستعد أن يلقي على قدميها اسمه وثروته متى قبلت أن تصبح زوجته الشرعية. إن أمامنا شهادات واضحة جداً في هذا الموضوع. أما المتهم فإن المأساة التي صار إليها وضعه واضحة لنا مبسوطة أمامنا. وهي (لعبة) هذه الإنسانة مع ذلك. إن المغوية الخطرة لم تهب لهذا الشاب حتى أملاً، لأنه لم يعرف أملاً، أعني لم يعرف أملاً حقيقياً، إلا في آخر لحظة، حين جثا أمام المرأة التي سببت له تلك الآلام كلها ومن نحوها يديه اللتين كانتا قد تلوثتا بدم أبيه، غريمه ومنافسه، وقد قبض عليه في تلك اللحظة نفسها، فلما رأت أنه يُعتقل، استولت عليها ندامة صادقة، فهتفت تقول: «اسجنوني معه، أريد أن أتبعه، لأنني أنا التي أوردته موارد الهلاك، لأنني أنا المذنبة!»، إن السيد راكيتين، الشاب الذي يملك حسا سيكولوجياً مرهفاً والذي تحدثت معه منذ قليل، قد تولى تحليل خفايا هذه القضية، ووصف طبع بطلتنا في بضع جمل موجزة، فقال: «خيبة الآمال وتبدد الأوهام في ميعة الصبا؛ والمعاناة من كذب البشر في سن مبكرة؛ ثم السقوط؛ وخيانة خطيب أغواها ثم هجرها؛ وأخيراً البؤس ولعنات أسرة محترمة، والاحتماء بتاجر عجوز ما تزال تعده إلى هذا اليوم محسناً إليها. هكذا تجمَّع الغضب من وقت مبكر في قلبها الشاب الذي لعله عرف اندفاعات طيبة كريمة. فنشأ عن ذلك طبع رديء، وميل إلى كنز المال، كما نشأ عنه موقف من المجتمع تسيطر عليه روح المكر والخداع والاحتقار والثأر والانتقام». إن هذا التحليل النفسي يتيح لنا أن ندرك كيف أمكن هذه المرأة أن تلعب بالرجلين كليهما في آن واحد، بدافع النزوة وحدها، لتلهو بهما لهواً خبيثاً شريراً ولو أدى ذلك بهما إلى الدمار، وفي أثناء ذلك الشهر المليء بحب لا يعرف الأمل، وبسقوط أخلاقي، وبالخيانة للخطيبة، وبالاستيلاء على مبلغ اؤتمن عليه وليس له، في أثناء ذلك الشهر لا بد أن يكون المتهم قد عرف، عدا هذا، حنقاً شديداً بسبب غيرة متصلة كانت تعذبه عذابا قاسياً؛ وممن كانت غيرته؟ من أبيه نفسه! وأخطر ما في الأمر أن العجوز الطائش المجنون كان يحاول أن يفتن المرأة التي تولّه بحبها بواسطة ذلك المال نفسه الذي كان ابنه يعده حقا آل إليه من ميراث أمه، ويدأب أبوه على حرمانه منه وحجبه عنه. نعم، إنني أعترف بأن احتمال هذا كان عسيراً عليه! حتى ليمكن أن يتصور المرء أن يصاب الشاب من ذلك بمرض «المانيا». «فليست المسألة مسألة مال في الواقع، وإنما هي مسألة أن هذا المال نفسه يستخدم في تحطيم سعادته باستهتار مقزز يثير الحنق والغيظ!».

بعد ذلك وصف ايبوليت كيرى لوفتش كيف أن رغبة المتهم في قتل أبيه قد استولت على نفسه شيئا فشيئا، وذكر الوقائع التي تسمح بتتبع نشوء الجريمة خطوة بعد خطوة. قال:

- كان في أول الأمر يذم ويقدح في الحانات، وظل شهراً بكامله لا يعمل شيئا غير أن يذم ويقدح. إنه يحب صحبة الناس، ويحلو له أن يفضي، إلى جميع من يلقاهم، حتى بأشد أفكاره خطرة وإيذاء، متوقعاً من هؤلاء الأشخاص الذين يستمعون إلى بوجهه أن يظهروا له عطفهم عليه ومودتهم له وأن يعربوا عن فهمهم لآرائه وتأييدهم الأفكاره كان يفترض، لا يدري أحد لماذا، أن يشاركوه همومه ويشاطروه هواجسه، وأن يؤيدوه تأييدا كاملا، فلا يعارضوه في شيء، وإلا ثارت ثائرته وأخذ يقلب كل شيء في الحانة (هنا ذكر وكيل النيابة الحادثة التي وقعت للمتهم مع النقيب سنيجيريف). وقد انتهى الأمر بالذين لاحظوه وسمعوا كلامه خلال هذا الشهر إلى الشعور بأن ما يعلنه هذا الشاب ليس صرخات باطلة وتهديدات عقيمة، وأن ديمترى كارامازوف، وهو على ما هو عليه من اندفاع أخرجه عن طوره، قد يضع تهديداته موضع التنفيذ متى حان الحين (وهنا وصف وكيل النيابة الاجتماع العائلي الذي عقد في الدير، وذكر أحاديث المتهم مع أليوشا، وصور ذلك المشهد الكريه الذي وقع في منزل الأب بعد الغداء يوم اقتحم ميتيا المنزل واستعمل مع أبيه العنف) ثم تابع وكيل النيابة كلامه: لست أمضي إلى حد الادعاء أن المتهم كان، قبل وقوع مشهد العنف هذا، قد فكر في الجريمة ملياً، وعزم عزماً جازماً قاطعاً على ارتكابها. ولكنني أقول إن فكرة القتل هذه قد راودته مرارة وأنه قد فكر فيها تفكيراً واعيا، وهذا ما تثبته الوقائع، وأقوال الشهود واعترافاته هو نفسه. إنني أعترف لكم، يا سادتي المحلفين، أنني ظللت حتى هذا اليوم أتردد في اتهام الرجل بأنه ارتكب، عن سابق إصرار وتصميم، جريمة القتل هذه التي كان يحس بأنه مدفوع إليها. صحيح أنني كنت مقتنعاً بأنه فكر مراراً في أن يقدم في المستقبل على إنهاء القضية بهذه الخاتمة الفاجعة، ولكنني كنت مقتنعاً بأنه لم يفكر في هذا الحل إلا أنه احتمال قد يتحقق، دون أن يحدد لتنفيذه يوما بعينه، وطريقة بعينها. وقد زالت اليوم تردداتي هذه حين اطلعت على تلك الوثيقة الحاسمة التي قدمتها الآنسة فرخوفتسيفا إلى المحكمة. لقد سمعتم يا سادتي كيف صاحت تقول: «هذه خطة قتل! » بهذا وصفت تلك الرسالة المشؤومة التي كتبها هذا الرجل العاثر الحظ وهو في حالة سكر. والحق أن هذه الرسالة تدل على أن هناك خطة، وعلى أن الجريمة قد ارتكبت عن سابق إصرار وتصميم. لقد كتبت هذه الرسالة قبل وقوع الجريمة بيومين، ومعنى هذا أن المتهم قد حلف، قبل تنفيذه خطته الرهيبة بثماني وأربعين ساعة، أنه إذا لم يستطع أن يحصل على المال في الغد، فليقتلن أباه ليستولي على المبلغ المخبأ تحت الوسادة في ظرف مربوط بشريط وردي اللون، شريطة أن يكون إيفان غائباً». هل سمعتم؟ «شريطة أن يكون إيفان غائباً». كان إذا في تلك اللحظة قد عين جميع تفاصيل التنفيذ، ووزن جميع الاحتمالات. ونحن نعلم أن الجريمة قد تم تنفيذها بعد ذلك على هذا النحو نفسه الذي ورد وصفه في الرسالة! إن الإصرار والتصميم واضحان: لقد ارتكبت الجريمة بقصد السرقة. المتهم نفسه أعلن هذا، كتبه بخط يده وذيله بتوقيعه. ولم ينكر المتهم توقيعه. فإذا قيل إنه كان في تلك اللحظة سكران، قلت إن ذلك لا ينقص من خطورة الأمر شيئاً. بالعكس: لقد كتب وهو في حالة السكر ما سبق أن فكر فيه مليا وهو في حالة الصحو. فلولا أنه كان قد اتخذ هذا القرار قبل أن يسكر، لما كشف عن نياته وفضح نفسه حين أثر فيه السكر. وقد يقال أيضاً: فلماذا أعلن عن نياته قبل ذلك جهاراً في الحانات؟ إن الذين يريدون ارتكاب جريمة من الجرائم عن سابق إصرار وتصميم حقا، يصمتون في العادة ويخفون ما عقدوا العزم عليه! هذا صحيح، ولكن المتهم لم يكن يصيح ذلك الصياح إلا حين لم يكن لديه خطة مبينة وبرنامج مدبر، وإنما كان يشعر بمجرد الرغبة في القتل والميل إلى القتل. ولقد أصبح بعد ذلك لا يتكلم عن هذا الأمر إلا قليلا. وفي المساء الذي كتب فيه تلك الرسالة، بعد أن سكر في حانة «العاصمة الكبرى»، بدا صامتا على غير عادته، ولم يلعب البلياردو، وظل منتحياً لا يقترب من أحد، ولا يخاطب أحداً، واكتفى بأن صفع مستخدماً صغيراً يعمل في محل تجاري. ثم إنه قد فعل ذلك على غير شعور منه تقريبا، لأنه كان يستحيل عليه أن يضبط نفسه. صحيح أن المتهم، حين عزم عزماً حاسماً على ارتكاب الجريمة، لا بد أن يكون قد ساوره خوف من أنه أسرف في الكلام بالمدينة قبل ذلك، لأن ما قاله يمكن أن يكون شهادة عليه بعد تنفيذ خطته، ولكن لم يكن له في الأمر حيلة، فقد فات الأوان وليس في وسعه أن يسترد الأقوال التي أفلتت من لسانه. وقد راعاه الحظ حتى ذلك الحين، فما يزال يعول على الحظ. لقد كان يتكل على نجمه يا سادتي! على أن من واجبي أن أعترف أنه قد بذل جهودا كثيرة في سبيل أن يؤخر اللحظة المشؤومة، آملا أن يتجنب هذا الحل الدموي. كتب يقول بتلك اللغة الخاصة به: «سأحاول في الغد أن ألتمس هذا المبلغ لدى جميع أنواع الناس، فإن لم أحصل عليه، فسوف يسيل الدم». هنا أيضاً يبوح وهو في حالة السكر بما كان قد انتواه وهو في حالة الصحو، وسوف يتصرف في حالة الصحو هذا التصرف نفسه الذي وصفه في رسالته!

عرض ايبوليت كيرى لوفتش بعد ذلك بالتفصيل المحاولات التي قام بها ميتيا في سبيل الحصول على المال لتجنب الجريمة. روى مساعيه لدى سامسونوف، والرحلة التي قادته إلى لياجافي، مستشهداً على ذلك بوقائع مستمدة من ملف القضية.

- عاد إلى المدينة أخيراً وقد انهدّت قواه، وأرهقه التهكم عليه، وأنهكه الجوع، وباع ساعته ليدفع للحوذي أجره (مع أنه كان يحمل ألفا وخمسمائة روبل، في زعمه، هذا في زعمه!)، ومزقته الغيرة لأنه ترك محبوبته التي تشعل نار قلبه، ويخشى أن تذهب أثناء غيابه إلى فيدور بافلوفتش... عاد إلى المدينة أخيراً. الحمد لله! لم تذهب حبيبته إلى فيدور بافلوفتش، وها هو ذا يوصلها بنفسه إلى منزل حاميها سامسونوف (الغريب أنه لم يكن يغار من سامسونوف. تلك سمة سيكولوجية

خاصة تتميز بها هذه القضية). ثم يسارع إلى المرابطة في مرصده خلف الحديقة. وهناك يعلم بنبأ نوبة الصرع التي أصابت سمردياكوف، ويعلم كذلك بمرض الخادم الآخر. الساحة إذا خالية. وهو يعرف «الإشارات السرية». أليس في هذا إغراء قوي له؟ ولكنه يقاوم نداء الجريمة رغم كل شيء، ويذهب إلى خوخلاكوفا، السيدة الجليلة التي تقيم في مدينتنا إلى حين، والتي نحمل لها جميعا هنا أعمق الاحترام. إن هذه السيدة تشفق عليه وترثي لحاله وتهتم بمصيره منذ زمن، فها هي ذي تسدي إليه نصيحة حكيمة عاقلة، وهي أن يعدل عن هذا الحب المخزي، وأن ينقطع عن هذا التسكع في الحانات وأن يعزف عن تبديد قوي شبابه في هذه الترهات الباطلة، فيسافر إلى سيبيريا، إلى مناجم الذهب. وقالت له:
«هنالك ستجد فرصة للقوى والطاقات التي تفور وتغلي في نفسك، وهنالك ستجد فرجا لطبيعتك الرومانسية المولعة بالمغامرات».
وبعد أن قصَّ وكيل النيابة كيف انتهى هذا الحديث وحين وصل إلى اللحظة التي علم فيها المتهم فجأة أن جروشنكا لم تمكث عند سامسونوف، وصف الغضب الذي استولى على المسكين، والغيرة التي تأججت نيرانها في قلبه حين تصور أن هذه المرأة قد كذبت عليه، وأنها الآن عند فيدور بافلوفتش. واعتقد ايبوليت كيرى لوفتش عندئذ أن عليه أن يلفت الانتباه هنا إلى الدور الذي لعبته المصادفة، فقال:
- لو قد اتسع وقت الخادمة لأن تقول له إن حبيبته موجودة في موكرويه مع «الصديق القديم المشروع»، لما حدث شيء البتة. ولكن الخادمة، وقد ماتت من الخوف، طفقت تحلف له أغلظ الأيمان على أنها لا علاقة لها بالأمر ولا دخل لها فيه، ولئن لم يقتلها المتهم فورا، فما ذلك إلا لأنه أسرع يلاحق الغادرة الخائنة في الحال. ولكن لاحظوا هذه النقطة: إن المتهم، رغم أنه قد جن جنونه غضبا، لم ينس أن يأخذ معه مدق الهاون النحاسي. فلماذا يأخذ هذا المدق بعينه ولا يأخذ سلاحا آخر؟ ما دام قد فكر في ارتكاب الجريمة خلال شهر كامل، فمن الطبيعي أن يتناول أول شيء تقع عليه يداه مما يصلح أن يكون سلاحا. لذلك أدرك عفو الخاطر أن هذا المدق يفي بالغرض ويحقق الهدف. معنى ذلك أنه لم يتناول المدق المشؤوم على غير شعور أو على غير إرادة منه. وها هو ذا الآن في حديقة أبيه: الساحة خالية، لا شهود، لا شيء إلا الليل العميق، والظلمات، والغيرة. وتصور أنها هناك، قرب غريمه، مع منافسه، وربما كانت في هذه اللحظة تسخر منه وتستهزئ به. استولت هذه الفكرة على المتهم. ليس الأمر في هذه المرة أمر شكوك وشبهات، ليس الأمر أمر خوف مبعثه الخيال، واأسفاه. قال لنفسه: «الخيانة واضحة!» هي هنا، هنا، في هذه الغرفة التي يرى نافذتها مضاءة... إنها مختبئة وراء الستائر. ويتسلل المسكين نحو النافذة... هل تريدون منه أن يكتفي بأن يلقي على الغرفة نظرة احترام، ثم يهدأ على الفور، وينصرف في تعقل وحكمة، تجنبا لبلية من البلايا وتحاشياً للاندفاع في عمل خطر مجاني للأخلاق؟ ذلك هو، مع ذلك ما يحاولون أن يقنعونا به نحن الذين نعرف طبع المتهم وندرك الحالة النفسية التي كان عليها في تلك الدقيقة! إننا نعرف الحالة النفسية التي كان عليها، نعرفها من وقائع ثابتة، ونعرف خاصة أنه كان على علم بالإشارات التي يستطيع بواسطتها أن يحمل أباه على أن يفتح له الباب، فيدخل إلى البيت!.
حين جاء ايبوليت كيرى لوفتش على ذكر الإشارات السرية، اعتقد أن من اللازم أن يستطرد قليلا، وأن يقطع، إلى حين، عرضه للأدلة التي تدين المتهم، وأن يندفع في تحليلات تتناول شخص سمردياكوف. كان واضحا أنه إنما يريد أن يقضي على ذلك الافتراض الذي يذهب إلى أن سمردياكوف قد يكون هو الجاني، وأن يستأصل هذه الفكرة من عقول المحلفين استئصالا نهائية. لم يهمل وكيل النيابة أي أمر من الأمور التفصيلية. وأدرك الجميع أنه، وإن كان يستبعد هذا الافتراض باحتقار وازدراء، يرى أن التوقف عنده والتلبث عليه أمر هام جداً.

- 8-مقالة عن سمردياكوف

بدأ ايبوليت كيرى لوفتش كلامه عن سمردياكوف بهذا السؤال: به «أولًا، كيف نشأ هذا الاتهام؟» ثم قال «إن أول من اتهم سمردياكوف هو المتهم نفسه لحظة القبض عليه، ولكنه لم يستطع أن يقدم حتى الآن واقعة واحدة يمكن أن تؤيد مثل هذا الاتهام، واقعة؟ بل ولا ظل واقعة يستطيع إنسان أوتي ذرة من عقل أن يعدها مقبولة محتملة. وبعد المتهم، لم يعبر عن هذا الاتهام إلا ثلاثة أشخاص هم: أخوا المتهم والسيدة سفيتلوفا. ولكن إيفان فيدوروفتش لم يفصح عن شكوكه و شبهاته حول هذا الموضوع إلا في هذه الجلسة، بينما هو مريض قد انتابته نوبة هذيان و حمّى عصبية لا شك فيها. أما خلال الشهرين الماضيين، فقد ظل مقتنعاً، كما نعلم ذلك، بأن أخاه هو الجاني، ولم يحاول قط أن يدحض هذه الفكرة. وإن لنا عودة إلى تصريحاته على كل حال. ثم لقد أكد لنا الأخ الصغير من أخوي المتهم، أكد لنا منذ قليل أنه لا يملك أي دليل يمكن أن يثبت أن سمردياكوف هو الجاني؛ وإنما هو يبني اتهامه على هذيان المتهم، وعلى «تعبير وجهه». نعم أيها السادة، إن هذا الشاهد قد قدم لنا هذا الدليل مرتين! أما السيدة سفيتلوفا فقد قالت كلاما أغرب من هذا الكلام أيضاً قالت: «ما عليكم إلا أن تصدقوا المتهم، فليس هو بالرجل الذي يكذب!». تلك هي جميع الأدلة المادية التي أمكن تقديمها ضد سمردياكوف حتى الآن، وقد قدمها إلينا ثلاثة أشخاص يعنيهم مصير المتهم ويهمهم كثيراً. ومع ذلك، أيها السادة، فإن الشكوك والشبهات حول سمر دياكوف قد انتشرت بين الناس وما تزال تنتشر، رغم كل ما في ذلك من غرابة، ورغم أن هذا الاتهام لا يمكن أن يصدقه العقل.وهنا اعتقد ايبوليت كيرى لوفتش أن من واجبه أن يرسم صورة سريعة لشخصية المتوفى سمر دياكوف، الذي «أنهى حياته أثناء نوبة جنون»، فصوَّره على أنه امرؤ ضعيف العقل، يملك مباديء ثقافة مشوشة، ولكن المفاهيم الفلسفية التي تتجاوز حدود ذكائه قد هزت عقله، كما أن بعض الآراء الحديثة في الواجب والالتزامات الأخلاقية قد روَّعت قلبه. وقد تعلم هذه النظريات، على الصعيد العملي، من الحياة الفاسقة التي يعيشها مولاه فيدور بافلوفتش الذي ربما كان أباه أيضاً، وتعلمها على الصعيد النظري من الأحاديث التي كانت تدور بينه وبين إيفان فيدوروفتش، الابن الأوسط من أبناء مولاه. كان إيفان فيدوروفتش يتسلى هذه التسلية من حين إلى حين بسبب الملل أو من قبيل التفكه والتندر، ومن قبيل الضحك على هذا المسكين في أغلب الظن، وذلك حين لا يكون لديه شيء آخر يسري به عن نفسه.

وواصل ايبوليت كيرى لوفتش كلامه قائلاً:

- لقد وصف لي هو نفسه الحالة النفسية التي كان عليها طوال الأيام الأخيرة التي قضاها في منزل مولاه. وأيد ذلك أشخاص آخرون: أيده المتهم نفسه خاصة، وأيده أخو المتهم، بل وأيده جريجوري أيضاً، أي أيده جميع أولئك الذين يعرفونه عن كثب. ثم إن سمردياكوف، الذي هذه مرض الصرع، «كان جبانا كدجاجة».
لقد أسر إلينا المتهم في لحظة لم يكن يتصور فيها، بعد ما قد يشتمل عليه هذا التصريح من ضرر له، أسر إلينا قوله: «كان يرتمي على قدمي ويقبلهما»، وقال لنا في يوم آخر، بهذه اللغة الخاصة به المعهودة فيه: «هو دجاجة مصابة بداء الصرع». ومع ذلك فإن هذا الرجل الضعيف هو الذي يتخذه المتهم نجية له يفضي إليه بأسراره (وذلك ما اعترف هو به)، ويبلغ من ترويعه حد أن المسكين ارتضى آخر الأمر أن يكون له جاسوساً ومخبراً، فلما ارتضى أن يكون مخبراً، خان مولاه وأطلع المتهم على وجود الظرف المودع فيه المال، وعلمه في الوقت نفسه الإشارات التي سيتسنى له بواسطتها أن يدخل المنزل. وهل كان في وسعه أن لا يطلعه عليها؟ لقد قال لنا سمردياكوف أثناء التحقيق وهو يرتعش أمامنا خوفا، رغم أن جده كان قد قبض عليه في ذلك الحين وأصبح لا يستطيع أن يقتص منه، قال لنا: «لو كتمت عنه تلك الأمور لقتلني، رأيت بعينيَّ أنه سيقتلني لو كتمتها عنه. كان لا ينفك يشتبه فيّ وَيشك في صدقي؛ فكنت حين يروعني ويرهبني، أسارع فأكشف له عن جميع الأسرار التي أعرفها، لأدفع عن نفسي غضبه، مبرهناً له على براءتي وصدقي، منقذاً بذلك حياتي». تلك هي الألفاظ التي استعملها المسكين في كلامه بنصها، وقد دونتها. « كنت إذا أخذ يصرخ، ارتمي جاثياً على ركبتي أمامه»، وكان الخادم المسكين، وهو بطبيعته أمين أمانة بالغة، قد حظي بثقة مولاه الذي أيقن من صدقه وأمانته يوم رد إليه الأوراق النقدية الضائعة. ولا بد أن يكون سمردياكوف قد عانى كثيرة من عذاب الضمير لأنه خان مولاه هذا الذي كان يحبه ويرى أنه محسن إليه منعم عليه. إن أطباء الأمراض العقلية البارزين يعرفون أن الأشخاص المصابين بداء الصرع ميالون إلى اتهام أنفسهم بغير انقطاع، وأنهم يقاسون عذاباً شديداً من شعورهم بأنهم «مذنبون» في حق أحد أو في حق شيء، وأن تبكيت الضمير يرهقهم إرهاقاً مضنياً دون أن يكون هنالك ما يدعو إلى ذلك في كثير من الأحيان، وأنهم يضخمون أخطاءهم وربما اخترعوا جرائم خيالية يقع في وهمهم أنهم ارتكبوها. فما بالكم بإنسان من هذا النوع أصبح مذنباً أو جانياً بالفعل لأنه أكره على ذلك بالإرهاب. يضاف إلى ذلك أن سمردياكوف كان يحس سلفا أن الأحوال التي يرى تطورها في منزل مولاه قد تؤدي إلى بلاء عظيم وشر مستطير. فحين أراد الابن الأكبر من أبناء فيدور بافلوفتش إيفان فيدوروفتش أن يسافر إلى موسكو قبيل وقوع الكارثة، تضرع إليه سمر دياكوف أن يبقى، ولكنه بحكم ما تتصف به طبيعته من خوف ووجل, لم يجرؤ أن يفصح له بوضوح وجلاء عن المخاوف التي تساوره، واكتفى بالتلميح إليها إلماحاً، ولكن إيفان لم يفهم منه. يجب أن نلاحظ أن وجود إيفان فيدوروفتش في المنزل كان يبدو لسمردياكوف نوعا من الحماية له، كأنه كان على يقين أن شيئًا لن يحدث ما بقي إيفان حاضراً. تذكروا ما كتبه ديمترى كارامازوف في «رسالة السكر» التي بعث بها إلى كاترينا إيفانوفنا: «شريطة أن يكون إيفان غائبا». كان حضور إيفان إذا ضمانة لاستتباب الأحوال وطمأنينة البال في نظر الجميع. ولكنه سافر. فما إن انقضت على رحيله ساعة واحدة، حتى انتابت سمردياكوف نوبة صرع. وذلك أمر مفهوم معقول. يجب أن لا ننسى أن سمردياكوف كان، خلال الأيام الماضية، وقد هده الخوف وأضناه نوع من اليأس النفسي، كان يحس بدنو نوبة من نوبات الصرع هذه التي سبق أن انتابته مراراً في ساعات التوتر العصبي والانهيار النفسي. صحيح أنه من المستحيل على المصاب بهذا الداء أن يتنبأ بالساعة واليوم اللذين ستوافيه فيهما نوبة كهذه النوبة، ولكن جميع المصابين بهذا الداء يستطيعون أن يحسوا مقدما بوشوك حدوثها. ما إن ابتعدت عربة إيفان فيدوروفتش عن المنزل حتى نزل سمردياكوف إلى القبو لشأن من شؤون الخدمة. وكان في تلك اللحظة برزخ تحت وطأة الشعور بالعزلة والهجران، ويحس بأنه أعزل لا يملك عن نفسه دفاعا، وكان يتساءل وهو يهبط السلم: «هل ستوافيني نوبة؟ ما عسى يحدث لو سقطت الآن؟». وبسبب هذه الحالة النفسية، بسبب هذا الخوف وهذا السؤال الذي ألقاه على نفسه، إنما حدث له على حين فجأة تقلص في الحلق هو ذلك التقلص الذي يسبق موافاة النوبة دائما، ثم إذا هو يتدحرج إلى القبو مغشيا عليه. إن هذا الحادث الطبيعي تماما، قد ولد شكوكا وشبهات، فأراد بعضهم أن يرى فيه دليلاً على نية مبيتة، وادعى أن هذا الرجل قد اصطنع النوبة اصطناعاً وتظاهر بها تظاهراً. فلنفرض الآن أن هذا الادعاء صحيح. غير أن هناك سؤالا ما يلبث أن يطرح نفسه علينا وهو:

ما عسى يكون هدف هذا الرجل من ذلك التظاهر المزعوم؟ ما عسى يكون الحساب الذي أجراه، وما عسى يكون الغرض الذي سعى إلى تحقيقه باصطناع النوية والتظاهر بها؟ لنترك الطب جانبا. فإنه يقال إن الطب يمكن أن يخطئ، وكثيراً ما يؤدي إلى ضلال الرأي وفساد الحكم، وإن الأطباء لا يستطيعون أن يميزوا دائما بين مرض صادق ومرض مصطنع. لنسلم بأن هذا صحيح. ولكنني أطلب منكم أن تجيبوا عن هذا السؤال: ما هي الفائدة التي كان يمكن أن يجنيها من التظاهر بالصرع؟ لو كان قد نوى ارتكاب الجريمة، أفكان يتمنى مثلًا أن يلفت إليه انتباه جميع من في المنزل سلفا بنوبة صرع يفتعلها؟ لاحظوا، يا سادتي المحلفين، أنه كان في منزل فيدور بافلوفتش، ليلة حدوث الدراما خمسة أشخاص لا أكثر: فأما الأول فهو فيدور بافلوفتش نفسه. ولكن من الواضح أن فيدور بافلوفتش ليس هو القاتل، وأما الثاني فهو خادمه جريجورى، ولكن جريجورى أوشك أن يكون قتيلاً هو نفسه؛ وأما الثالث فهو زوجة جريجورى، الخادمة مارفا اجناتفنا، ولكن من المضحك أن نتخيل أن تكون هي التي قتلت مولاها. لم يبق هنالك إذا إلا شخصان، هما المتهم وسمردياكوف. ولما كان المتهم يدعي أنه بريء، فلا يمكن إذا أن تكون جريمة القتل قد ارتكبها أحد إلا سمردياكوف. ليس هناك حل آخر، إذ يستحيل اكتشاف شخص يمكن اتهامه بهذه الجريمة غير هذين الرجلين. على هذا النحو إنما نشأ إذا ذلك الاتهام «البارع» الرهيب لأبله مسكين هو ذلك الشقي الذي انتحر بالأمس. لقد اتهموه لسبب واحد هو أنه ليس هناك شخص آخر يمكن أن يوجهوا إليه اتهامهم! ولو كانوا يملكون ولو ظل شبهة تسمح باتهام شخص سادس، لاستحى المتهم نفسه - وأنا من هذا على يقين - أن ينسب الجريمة إلى سمردياكوف، ولوجه التهمة عندئذ إلى ذلك الشخص السادس. إن الاشتباه في سمردياكوف سخف محض!.

ولكن دعونا من السيكولوجيا أيها السادة، ودعونا من الطب، ودعونا حتى من المنطق، ولنقتصر على النظر في الوقائع وحدها، وفي الظروف المادية. لنترك للوقائع أن تتكلم. لنفرض أن سمردياكوف قد قتل، ولنتساءل كيف قتل؟ أقتل وحده، أم قتل بالتواطؤ مع المتهم. لننظر في الافتراض الأول، وهو أن يكون سمردياكوف قد قتل بمفرده. من البديهي أنه إذا كان قد قتل، ففي سبيل أن يجني نفعا ما، ولما كان لا يجيش في نفسه أي باعث من البواعث التي يمكن أن تحض المتهم على القتل، كالكره والغيرة وما إلى ذلك، فإن سمردياكوف ما كان ليرتكب هذه الجريمة إلا بدافع الطمع في المال طبعة، وذلك ليستولي على تلك الثلاثة آلاف روبل التي رأى مولاه يودعها في ظرف؛ حتى إذا عقد النية على ارتكاب هذه الجريمة أسرع يفضي إلى شخص آخر - إلى شخص يعنيه الأمر كثيراً، أعني إلى المتهم - بجميع التفاصيل المتصلة بالمال، وبالإشارات السرية وبالمكان الذي خُبي فيه الظرف، وبالكتابة التي كتبت على الظرف، وبالطريقة التي تسمح بدخول منزل رب الدار. أفقال هذا الكلام ليفضح نفسه؟ أقاله ليحرض على الاستيلاء على المال شخصاً يستطيع أن يستولي عليه ويحرمه منه؟ رب قائل يقول إنما تكلم من شدة خوفه ! عجيب! هل يقبل رجل لم يتردد لحظة واحدة عن ارتكاب جريمة فظيعة هذه الفظاعة كلها، جريئة هذه الجرأة كلها، أن يفضي - عن خوف! - بمعلومات لا يعرفها أحد في العالم سواه، ولا يمكن أن تخطر ببال أحد إذا هو كتمها؟ لا، لا، إن الرجل مهما يكن شديد الخوف، ما كان له أن يبوح لأحد، بعد أن

عقد النية على ارتكاب مثل هذه الجريمة، بالتفاصيل المتعلقة بالظرف والإشارات، ولو فعل ذلك لكان يشي بنفسه سلفا. إن هذا الرجل كان يمكن أن يتخيل شيئًا آخر، أن يكذب وأن يخترع ويلفق إذا هو أجبر على الكلام، أما أن يبوح بهذه التفاصيل فلا! ولو لم يذكر شيئًا عن المال، ثم قتل واستولى على الظرف لنفسه، لما خطر ببال أحد في العالم - أكرر هذا - أن يتهمه بالقتل، طمعاً في المال، لأن أحداً غيره في العالم لم يكن يعرف شيئًا عن هذا المبلغ، ولا رأى هذا المبلغ، ولا يخطر بباله أن له وجودًا في المنزل. وإذا اتهم الرجل بعد ذلك بالقتل، فلا بد عندئذ من تخيل سبب آخر دفعه إلى ارتكاب الجريمة. ولكن أحداً لم يتصور حتى ذلك الحين أن هناك أي سبب يمكن أن يحضه على القتل، بل لقد كان جميع الناس يعرفون أن مولاه يحبه ويكرمه بمحض ثقته، فما كان للشبهات والحالة هذه أن تحوم حوله، ولكان آخر من يمكن أن توجه نحوه الشكوك، ولفكر الناس عندئذ في اتهام ذلك الذي تجيش في نفسه بواعث من هذا النوع سبق أن جاهر بها في كل مكان، ولم يكتمها عن أحد، بل كان يصارح بها أول قادم، أي لاتهم الناس عندئذ ابن المجني عليه، أعني ديمترى فيدوروفتش. أفلا يكون هذا في مصلحة القاتل سمردياكوف؟ فما قولكم إذا كان دمتري هذا نفسه هو بعينه الشخص الذي أفضى إليه سمردياكوف، بعد أن عقد النية على القتل، بالمعلومات التي تتصل بالمال والظرف والإشارات السرية؟ يا للمنطق الواضح!.

ويجيء يوم ارتكاب الجريمة. سمردياكوف يتدحرج إلى أرض الكهف متظاهرًا بنوبة صرع. ولكن ما هو هدفه من ذلك؟ أيكون هدفه من ذلك أن يعدل الخادم جريجوري، الذي كان قد قرر أن يداوي مرضه، أن يعدل عن هذه المداواة وأن يرجئها إلى وقت آخر، ليتولى بنفسه حراسة المنزل، إذ يلاحظ أن المنزل أصبح بغير حراسة؟ أم يكون هدفه من ذلك أن يبادر رب الدار، حين يلاحظ أنه لم يبق هناك أحد يحرسه من عدوان ابنه الذي يخشى أن يداهمه ولا يكتم خشيته هذه، أن يبادر رب الدار إلى مزيد من الحذر والاحتياط والتيقظ؟ أكثر من ذلك: هل كان سمردياكوف يستهدف، من التظاهر بنوبة الصرع، أن ينقل من المطبخ الذي كان ينام فيه عادة والذي كان يستطيع أن يخرج منه دون أن يراه أحد، أن ينقل إلى الطرف الآخر من المبنى الملحق، إلى غرفة جريجوري ليمدد هناك صريعاً وراء حاجز رقيق لا يبعد عن سرير الخادم العجوز وامرأته إلا ثلاث خطوات، كما كان يفعل ذلك به كلما وافته نوبة من نوبات الصرع، بأمر من رب الدار ومن مارفا أجناتفنا الرحيمة الشفوق، حتى إذا أضجع على حصيرة وراء ذلك الحاجز كان عليه أن يواصل التوجع والأنين طوال الليل، ليحسن تمثيل دوره، فإذا هو يوقظ الشخصين النائمين على بعد ثلاث خطوات منه (وذلك ما حدث فعلا، بشهادة جريجورى وامرأته)؟ أيكون سمردياكوف قد تخيل هذا كله، قد تخيل هذه التمثيلية كلها، ليتسنى له أن ينهض فيمضي يقتل مولاه بمزيد من السهولة واليسر؟

رب معترض يقول لي إن سمردياكوف إنما تظاهر بنوبة الصرع ليدفع عن نفسه الشبهات بحجة مرضه، وإنه أطلع المتهم على المعلومات المتصلة بالظرف والإشارات السرية، ليغري المتهم بأن يجيء فيتولى القتل بنفسه، حتى إذا فرغ المتهم من قتل أبيه وغادر المنزل حاملًا معه المال، بعد أن يحدث ضجة وجلبة من شأنهما أن توقظا سكان الدار، نهض سمردياكوف، نعم، نهض فمضى... مضى يفعل ماذا؟ مضى ليقتل مولاه مرة أخرى، وليسرق مرة أخرى المال الذي سبقه إليه المتهم وذهب به. أتضحكون أيها السادة؟ إني لأعترف لكم بأنني أشعر أنا نفسي بالخجل حين أراني مضطرًا إلى النظر في افتراضات من هذا النوع. ولكن هذا التفسير هو بعينه التفسير الذي يقدمه لنا المتهم. فتصوروا وتأملوا! إن المتهم يدعي أن سمر دياكوف قد قام بقتل مولاه وبسلبه ماله، في الوقت الذي كان هو فيه يغادر المنزل بعد أن جندل جريجورى وأحدث ضجة. لن أطيل الكلام على هذا التساؤل: كيف تسني لسمردياكوف أن يتنبأ بكل هذا التنبؤ، وأن يحسب حسابا دقيقا أن الابن العنيف المندفع الخارج عن القانون سيجيء لا لغرض آخر غير أن يلقي من خلال النافذة نظرة احترام، وأنه على علمه بالإشارات السرية سينصرف في الحال تاركا الغنيمة له هو سمردياكوف؟ أيها السادة، إنني أسألكم جاداً: في أي لحظة ارتكب سمردياكوف الجريمة؟ دلوني على تلك اللحظة، وإلا لا يمكن النظر في هذا الافتراض أساساً.

قد يقال: لعل نوبة الصرع كانت صادقة غير مصطنعة، ولعل المريض صحا من غيبوبته فجأة، فسمع صراخاً فخرج. وماذا بعد ذلك؟ لعله نظر حواليه فعزم أمره على حين بغتة قائلاً: «آ... عندي فكرة ! سأمضي أقتل مولاي!.. ولكن أنى لسمردياكوف أن يكون قد حزر ما وقع وقد كان حتى ذلك الحين مغشياً عليه؟ إنني أتوقف عن الاسترسال في مثل هذا الكلام، لأن للخيال حدوداً هو أيضاً...

وقد يقول نفر ممن أوتوا فكرا مرهفاً: ربما كان هذا كله صحيحاً، ولكن أفلا يمكن أن يكون قد قام بين الرجلين تواطؤ على الجريمة، فارتكباها معاً واقتسما المال؟ ذلك في الواقع افتراض له وزنه، افتراض يستند إلى قرائن قوية جداً تؤكده، كما سترون: أحد الشريكين يقتل ويتحمل كل العناء وحده، بينما الثاني يستريح متظاهراً بنوبة صرع، لا لشيء إلا أن يجعل جميع من في المنزل في يقظة، وأن يثير القلق في نفس مولاه وفي نفس جريجورى! ألا إنه لأمر شائق أن نعرف ما عسى تكون الأسباب التي دفعت الشريكين إلى تخيل خطة حمقاء إلى هذا الحد؟ وقد يقول بعضهم إن مشاركة سمردياكوف في الجريمة لم تكن مشاركة فعالة، وإنما كانت مشاركة سلبية لعله قبلها على مضض، فلعل المسكين لم يزد على أن ارتضى أن لا يعارض صاحبه في ارتكاب الجريمة، وذلك من شدة ما شعر به من خوف، وما كان يقاسيه من إرهاب صاحبه له؛ وإذ أدرك مع ذلك أنه سيتهم بأنه سهل مقتل مولاه لأنه لم ينبه ولم يسارع إلى الدفاع عنه، فلعله توسل إلى ديمترى فيدوروفتش كارامازوف سلفاً أن يأذن له بأن يصطنع أثناء ذلك نوبة صرع قائلاً له: «اقتل ما شاء لك هواك أن تقتل، فذلك أمر لا شأن لي به». ولكن لو صح هذا لكان من شأن نوبة الصرع أن تنبه المنزل كله حتما، ولما قبل ديمترى كارامازوف الذي لا بد أن يتنبأ بذلك، لما قبل تدبيراً من هذا النوع. ومع ذلك فلنسلم بأن ديمترى قد ارتضى هذا التدبير. سوف ينتج عن ذلك في هذه الحالة أن ديمترى كارامازوف يكون هو القاتل، هو المحرض والفاعل في آن واحد، أما سمردياكوف فلا يكون إلا شريكا مستترا، بل إنه يكون أقل من شريك، يكون شاهدا كتم الجريمة رغم إرادته من شدة الخوف؛ ولن يفوت المحكمة عندئذ أن تحدد درجة مسؤولية كل من الرجلين. ولكن ما الذي رأيناه بالفعل؟ رأينا المتهم، ما إن قبض عليه، حتى ألقي الجرم كله على عاتق سمردياكوف، واتهمه بأنه وحده الفاعل. إنه لم يش به شريكاً له في الجرم، بل وشي به فاعلا منفردا بارتكاب جناية القتل. صاح يقول: «هو القاتل، هو وحده القاتل، هو الذي قتل وسرق!. الجريمة من صنع يديه وحده!» فكيف نتصور أن يتهم كل من الشريكين صاحبه منذ أول لحظة؟ ذلك أمر لم يسبق أن حدث حتى الآن. وانظروا أيضاً إلى الخطر الذي يعرض له ديمترى كارامازوف نفسه حين يتصرف هذا التصرف: إنه هو القاتل الرئيسي، على حين أن الآخر ليس له من المشاركة في الأمر إلا نصيب ضئيل وحصة تافهة، فما هو إلا شاهد لم يحرك ساكناً، ولبث راقداً على حصيرته وراء الحاجز، فحين يلقي ديمترى كاراكازوف الجرم كله على عاتق هذا الرجل، فإنما يعرض نفسه عندئذ لأن يستاء منه هذا الرجل وأن يثور عليه فيبادر إلى الكشف عن الحقيقة كاملة على الفور ولو بدافع غريزة حب البقاء وحدها. كان سمردياكوف سيروي عندئذ أنهما ارتكبا الجريمة معاً، ولكنه لم يتول هو تنفيذ القتل، وإنما اكتفى من شدة خوفه بأن يدع لصاحبه أن يفعل وأن لا يعارضه في ما عزم عليه من ارتكاب جريمة القتل. ذلك أن سمردياكوف لا بد أن يدرك أن المحكمة كانت ستعترف بأن نصيبه من المشاركة في الجريمة نصيب ضئيل، ولا بد أن يأمل أن يكون عقابه، إذا هو عوقب، أخف كثيرة من العقاب الذي ستنزله المحكمة في الفاعل الرئيسي الذي يحاول أن يلقي الجرم كله على عاتقه. فلو كان الأمر كذلك، إذن لأحس سمردياكوف بأنه مدفوع إلى الاعتراف بكل شيء. ولكننا لم نر شيئًا من هذا. إن سمردياكوف لم يتفوه بكلمة واحدة عن هذا التواطؤ المزعوم، رغم أن القاتل قد اتهمه اتهاما قاطعًا صريحًا، وكان يسميه دائمًا على أنه الفاعل الوحيد الذي ارتكب الجريمة. وأكثر من ذلك أن سمردياكوف قد ذكر من تلقاء نفسه أثناء التحقيق أنه هو الذي زود المتهم بالمعلومات التي تتعلق بالمبلغ، وبالإشارات السرية، فلولاه لما عرف المتهم من هذه المعلومات شيئًا. فهل كان يمكن أن يكشف القاضي التحقيق عن هذه الحقائق كلها، هل كان يمكن أن يعترف بأنه قد أطلع المتهم على هذه الأمور بنفسه، لو كان شريكه في الجرم فعلًا؟ ألا إنه لو كان شريكه حقا لحاول استبعاد هذه التفاصيل، ولأنكرها محاولًا أن يشوه الوقائع وأن يخففها. ولكنه لم يشوه شيئًا ولم يخفف شيئًا. ولا يمكن أن يتصرف هذا التصرف إلا إنسان بريء، إنسان لا يخشى أن يتهم بالاشتراك في الجريمة. وأمس شق هذا الرجل نفسه وهو في حالة انهيار مرضي مرده إلى داء الصرع وإلى الكارثة التي ألمت بذويه ؛ وقبل موته كتب كلمة يقول فيها بأسلوبه الخاص: «أنهيت حياتي بإرادتي حرا، فلا تتهموا أحداً». فلماذا لم يضف إلى ذلك قوله: «أنا القاتل، لا كارامازوف»؟ إنه لم يضف هذا الكلام. أيكون عنده من شرف الذمة وعذاب الضمير ما يكفي لدفعه إلى قتل نفسه، ثم لا يكون عنده منهما ما يكفي لدفعه إلى تبرئة بريء؟ دعونا من هذا الكلام أيها السادة.

وإليكم الآن شيئًا آخر: لقد أتي إلى هذه المحكمة منذ قريب بمبلغ من المال هو ثلاثة آلاف روبل على زعم أن هذا المبلغ هو الذي كان مودعا في الظرف الموجود الآن على منضدة أدلة الاتهام، وقد ادعى الشاهد أنه أخذه أمس من سمردياكوف ولكن المشهد الأليم الذي جرى هنا منذ قليل، ما يزال ماثلًا في أذهانكم، يا سادتي المحلفين. لن أذكر تفاصيل هذا المشهد، وسأكتفي بأن أسوق بعض الملاحظات في هذا الصدد وهي ملاحظات تافهة، ولكنها لتفاهتها هذه نفسها قد تغيب عن البال

وقد تهمل؛ فأقول أولًا: إن المفروض هو أن سمردياكوف قد انتحر أمس ورد المال لأنه شعر بعذاب الضمير. (فلولا عذاب الضمير لما رد المال). وبالأمس إذا إنما يكون سمردياكوف قد اعترف بجريمته لإيفان كارامازوف أول مرة، كما ذكر لنا إيفان كارامازوف ذلك في شهادته، وبدون هذا لا يمكننا أن نفهم لماذا يكون سمردياكوف قد سكت عن الأمر حتى الآن. ولكن إذا كان سمردياكوف قد اعترف بجريمته، فإنني أعود فأسأل: لماذا لم يعترف بالحقيقة كلها في الكلمة التي كتبها قبل موته وهو يعلم أن بريئا قد يصدر في حقه غدا حكم فظيع؟ إن المال وحده لا ينهض دليلا على شيء من ذلك مثلًا أنني علمت منذ أسبوع، بطريق المصادفة وحدها، كما علم ذلك شخصان آخران حاضران في هذه القاعة أن إيفان كارامازوف قد صرف في مركز المقاطعة سندين بفائدة خمسة في المائة، قيمة كل منهما

خمسة آلاف روبل فيكون المجموع عشرة آلاف روبل. وإذا كنت أذكر هذا فإنني لا أذكره إلا لأبين أن أي إنسان يستطيع أن يحصل على مبلغ من المال في لحظة معينة، وأن إبراز ثلاثة آلاف روبل يستحيل أن يبرهن برهان قاطعًا على أن هذا المبلغ هو بعينه المبلغ الذي كان مودعًا في درج معين أو في ظرف معين. ثم إنني أتساءل أخيراً: لماذا لم يبادر إيفان كارامازوف، حين حصل بالأمس من فم القاتل الحقيقي على اعترافات تبلغ هذا المبلغ من الخطورة، أقول لماذا لم يبادر إلى القيام بعمل من الأعمال على الفور، لماذا لم يبادر إلى إبلاغ القضاء في الحال؟ لماذا أرجأ تصريحه إلى الصباح؟ لماذا؟ أحسب أنني أحزر: مريض منذ ثمانية أيام، إنه وهو يعاني من هلوسات ويرى أشباحة وتهجس في نفسه أوهام فيتخيل أنه يرى في الشارع أشخاصًا قد ماتوا منذ زمن طويل، إنه وهو في عشية نوبة من نوبات حمى عصبية رأيتم كيف صرعته منذ قليل، أنه وهو في تلك الحال قد علم فجأة بأن سمردياكوف مات، فإذا هو يفكر التفكير التالي: «لقد مات هذا الرجل فيمكن اتهامه. أما أخي فسوف أنقذه. وعندي مال: سوف آخذ من هذا المال حزمة بمبلغ ثلاثة آلاف روبل، فأصرح للمحكمة بأن سمردياكوف أعطانيها قبل موته». قد تقولون لي إن في هذا مجافاة للشرف والأمانة، وإن من واجب المرء أن لا يتجنى ولو على ميت، وإن من الواجب على المرء أن لا يفتري ولو لإنقاذ أخيه. إنني أسلم بهذا. ولكن لعل إيفان فيدوروفتش قد كذب على غير شعور منه بأنه يكذب، متخيلا أن الأمور قد جرت فعلا على هذا النحو، لأن عقله قد اختل اختلالا نهائيا حين علم بغتة بنبأ موت ذلك الخادم. لقد شهدتم المشهد الذي جرى هنا، فرأيتم الحالة التي كان عليها الشاهد. كان واقفا على قدميه وكان يتكلم، ولكن أين كان عقله؟ وبعد الأقوال التي أوردها هذا الرجل المريض، قدمت إلينا وثيقة هي رسالة كتبها المتهم قبل وقوع الجريمة بيومين، وأرسلها إلى الآنسة فرخوفتسيفا، مضمنا هذه الرسالة خطة مفصلة التنفيذ الجريمة. فهل من الضروري بعد هذا أن نطيل التفكير وأن نمعن في التأمل من أجل أن نكتشف الفاعل؟ لقد تم ارتكاب الجريمة على النحو الذي جاء وصفه في هذه الرسالة تماما، فلا يمكن أن يكون الجاني إلا ذلك الذي كتب الرسالة. «نعم، يا سادتي المحلفين تمت الجريمة حسب المكتوب !». إن المتهم لم يترك نافذة أبيه لائذا بالفرار في احترام ووجل، بينما كان فوق ذلك مقتنعا بأن حبيبته موجودة مع أبيه. هذا أمر غير معقول ويجافي الحقيقة. وإنما الواقع أنه دخل البيت، ونفذ خطته إلى النهاية. جائز أن يكون قد قتل وهو في حالة اهتياج شديد وحنق مباغت سيطرت عليه واستبدت به منذ رأى غريمه المقيت، جائز أن يكون قد قتل في لحظة واحدة، جائز أن يكون قد قتل بضربة واحدة هوت بها ذراعه المسلحة بالمدق النحاسي، ثم أدرك بعد ذلك، حين فتش جميع أركان الغرفة، أن تلك المرأة لم تكن هناك. ولكنه لم ينس، بعد أن نفذ جريمة القتل، لم ينس أن يدس يده تحت الوسادة، فيستل الظرف الذي يحتوي على المال، ذلك الظرف الممزق الذي يوجد الآن على منضدة أدلة الاتهام. وأنا أجيء الآن على ذكر هذا الظرف لأوجه انتباهكم إلى أمر هو في نظري من الأمور الهامة جداً. لو كان الجاني مجرما ذا خبرة، لو كان قاتلا يهدف إلى سرقة مال، أكان يترك هذا الظرف على أرض الغرفة، قرب الجثة، حيث عثر عليه فيما بعد؟ فيما بعد؟ إذا فرضنا مثلًا أن جريمة القتل قد ارتكبها سمردياكوف بغية السطو على المال، أفما كان يكتفي سمردياكوف عندئذ بأن يأخذ الظرف من دون أن يخطر على باله أن يفضه، لأنه موقن من أن المال مودع فيه، فقد رأى مولاه يضع المال في الظرف ويغلق الظرف على المال؟ لو كان سمردياكوف هو القاتل اذن لأخذ الظرف قائلاً لتفسه: متى اختفى الظرف فلن يخطر ببال أحد أن هناك سرقة. إنني لأسألكم يا سادتي المحلفين: هل كان يمكن أن يتصرف سمردياكوف على النحو الذي تكشف عنه وقائع القضية؟ هل كان يمكن أن يترك الظرف ملقى على أرض الغرفة؟ لا، إن هذا التصرف لا يمكن أن يكون إلا تصرف قاتل خارج عن طوره، قاتل أصبح لا يفكر تفكيراً واضحاً، قاتل لم يكن هدفه السرقة ولا سبق له أن سرق قبل ذلك في يوم من الأيام، قاتل لا يتصرف حتى في تلك اللحظة، حين دس يده في السرير ليستل المال، تصرف سارق يسطو على غنيمة، وإنما يتصرف تصرف رجل يسترد مالا كان قد سلب منه؛ وتلك هي في الواقع أفكار دمتري كارامازوف في هذا الشأن، وهي أفكار كادت تصير في ذهنه إلى هوس يحاصره ولا يبارحه. لذلك فإنه حين أمسك الظرف الذي لم يسبق أن رآه قبل ذلك، سارع يمزقه ليتأكد من أن المال مودع فيه حقا، ثم وضع المال في جيبه وولى هاربا دون أن يحمل نفسه عناء التفكير في أنه يخلف وراءه دليلاً قاطعاً هو هذا الظرف الممزق الملقى على الأرض. ذلك كله من فعل كارامازوف، لا من فعل سمردياكوف، ذلك كله من فعل رجل لم يفكر ولم يتسع وقته لأن يفكر! ويهرب دمتري كارامازوف، ويسمع صرخة الخادم العجوز الذي لحق به فأمسكه، وكان سيقبض عليه، فإذا بالعجوز يتهاوى على حين فجأة مجندلا بضربة من المدق؛ وعندئذ يغر المتهم من على السياج، ويميل على العجوز. هل مال على العجوز من باب الشفقة والعطف؟ ذلك ما يدعيه، تخيلوا!... إنه يزعم أنه مال على الخادم العجوز شفقة ورأفة، ليرى هل في وسعه أن يسعفه وينجده! أتلك لحظة يشعر فيها المرء بالرحمة والحنان فعلاً؟ لا، وإنما هو مال عليه ليرى هل الشاهد الوحيد الذي عرف جريمته ما يزال حياً؟ إن كل باعث آخر، وكل عاطفة أخرى، لا يمكن أن يتصور العقل وجودهما في مثل تلك اللحظة. لاحظوا أنه أخذ يتحرك ويضطرب قرب جريجورى، وأنه مسح رأسه بمنديله، فلما أيقن أن الخاد قد مات، مضى ينصرف كمجنون ملطخا بالدماء، ليركض مرة أخرى إلى منزل حبيبته. كيف لم يخطر بباله في تلك الدقيقة أنه مغطى بالدماء وأنه سرعان ما سيشتبه به؟ إن المتهم يصرح لنا هو نفسه بأنه لم ينتبه إلى الدم الذي كان ملطخاً به. إن في وسعنا أن نصدق كلامه في هذه النقطة. ذلك جائز جداً، وذلك ما يحدث للمجرمين في مثل تلك اللحظات على وجه العموم. إنهم يجرون حسابات شيطانية في بعض الأمور، ثم هم ينسون التفكير في أمور أخرى نسياناً تاماً. ثم إن سؤالاً واحداً كان يشغل باله في تلك اللحظة، فهو لا يفكر إلا في ذلك السؤال: أين هي؟ كان يريد أن يعرف بأقصى سرعة أين عساها تكون. وهرع إلى منزلها، فعلم هنالك بنبأ لم يدر في خلده ولا كان في حسبانه، نبأ هز نفسه هزاً قوياً عنيفاً. وهو: أنها سافرت إلى موكرويه، وأنها مع »صديقها القديم الذي لا يجحد«.

- 9 - سيكولوجيا مندفعة

عربة الترويكا تعدو

خاتمة مرافعة النيابة

واضح أن ايبوليت كيريلوفتش قد اختار لخطابه منهجاً في العرض هو المنهج التاريخي الصارم الذي يصطنعه جميع الخطباء العصبيين محاولين أن يلتزموا أطرا ذات حدود دقيقة في سبيل ان يضبطوا سيل اندفاعهم العارم. فلما وصل إلى هذه النقطة من خطابه، أفاض في الكلام على الحبيب الأول الذي «لا يجحد»، فساق في هذا الموضوع افكاراً شائقة. قال إن كارامازوف، الذي يشعر بغيرة كاسرة من الجميع، قد أمحى فجأة وزال أمام هذا الحبيب «القديم الذي لا يجحد»؛ وذلك أمر يثير الاستغراب والدهشة لا سيما وأنه لم يكد يفكر قبل الآن في الخطر الجديد الذي كان يهدده به هذا الغريم الذي لم يكن في حسبانه. كان يتصور هذا الخطر بعيدا، فإن رجلا مثل كارامازوف لا يعيش إلا في اللحظة الحاضرة. ولعل هذه الصفحة من الحياة الماضية التي عاشتها المرأة الشابة كانت قد اتخذت في ذهنه صورة وهم من الأوهام أو خيال من الأخيلة لا يمت إلى الواقع بصلة. ولكن ها هو ذا يدرك الآن، محطم القلب، أن هذه المرأة إن أخفت عنه حتى ذلك الحين أمر وصول هذا الرجل في القريب، وإن كذبت عليه تلك الكذبة الأخيرة، فما ذلك إلا لأن لهذا الرجل وزناً كبيراً في حياتها بالفعل، ولأنه يمثل في الواقع كل آمال روحها، وأشواق قلبها. فلما أدرك هذه الحقيقة أذعن واستسلم. ليس في وسعي، يا سادتي المحلفين، أن أغفل هذه السمة من سمات طبع المتهم الذي كان يبدو عاجزا عن القيام بتضحية كهذه التضحية حتى الآن. لقد استولت على نفسه فجأة حاجة قوية إلى الحقيقة، واستولى عليه شعور بالاحترام لهذه المرأة ولحقها في أن تحب كما يشاء لها هواها حرة طليقة، وذلك في تلك اللحظة التي كان فيها قد صبغ يديه بدم أبيه من أجلها وفي سبيلها ولا شك أن هذا الدم كان يطالب بالثأر منذ ذلك الحين، ولا بد أن المتهم كان يتساءل بعد أن ضيع نفسه وحطم وجوده على هذه الأرض: «ما أنا بالنسبة إليها بعد اليوم، ما الذي أستطيع ان أهبه الآن لهذه الإنسانة التي أحبها وأعبدها أكثر من أي شيء في العالم؟ ما أنا في نظرها بالقياس إلى الصديق القديم الذي لا ينسى والذي عاد تائباً مليئاً بعذاب الضمير تجاه المرأة التي هجرها في الماضي ثم رجع يحمل إليها الآن حبا جديدا وآمالا مشرقة في حياة شريفة سعيدة تبعثها بعثاً جديداً؟». نعم، ما الذي يستطيع أن يقدمه إليها في هذه الساعة، ما الذي يمكنه أن يهبه لها الآن؟ لقد أدرك كارامازوف ذلك كله، أدرك أن جريمته قد سدت أمامه جميع سبل الحياة، وأنه ليس بعد اليوم إلا قاتلا سينزل فيه العقاب، وأنه أصبح لا ينتمي إلى عالم الأحياء. أرهقته هذه الفكرة ودمرته. وفي تلك اللحظة إنما تصور، على حين فجأة، مشروعا لا بد أن يكون بالنسبة إلى طبع كطبعه المخرج الوحيد من وضع يائس. ذلك المخرج هو الانتحار. فها هو ذا يهرع إلى الموظف برخوتين ليسترد مسدسيه المرهونين لديه؛ وفيما هو في الشارع، يسرع فيخرج من جيبه الأوراق المالية التي من أجلها صبغ يديه بدم أبيه منذ قليل. ذلك أنه أصبح الآن في حاجة إلى المال أكثر من أي وقت مضى: إن كارامازوف سيموت، إن كارامازوف سينتحر، وينبغي أن يتذكر الناس هذا المشهد! ليس عبثاً أننا شعراء، ليس عبثاً أننا أفنينا حياتنا كشمعة أشعلناها من طرفيها. «إليها، إليها... ويجب أن أراها... وبعد ذلك... سأحتفل احتفالا لم ير له مثيل من قبل، احتفالا يظل يتحدث الناس عنه زمنا طويلا بعدي. وفي وسط الصرخات الوحشية، والأغاني الغجرية، والرقصات المحمومة، سأرفع كأسي، فأشرب نخب السعادة الجديدة التي ستنعم بها المرأة المعبودة. وبعد ذلك، فورا بعد ذلك، أهشم دماغي فأسقط على قدميها مكفرا عن ذنوبي وآثامي! هكذا ستتذكر ميتيا كارامازوف، وسترى كم كنت أحبها، وسترثي عندئذ لحال ميتيا وتشفق عليه»!. إن في هذا المشروع الذي عزم المتهم على تنفيذه غير قليل من الخيال الحار والحماسة الروائية، وإن فيه كثيراً من ذلك الاندفاع العارم والحساسية الشديدة اللذين يتميز بهما آل كارامازوف. وإن فيه شيئًا آخر، شيئًا آخر يا سادتي القضاة، شيئًا كان يصرخ في أعماق نفسه ويحاصر فكره ويسمم قلبه، ألا وهو ضميره، يا سادتي القضاة، ضميره الذي أدانه وحكم عليه، وأصبح يعذبه ويرهقه من أمره عسرا! ولكن المسدس سيتيح له أن يضع حدا لكل شيء، فهو الحل الوحيد، ولا حل سواه. أما عما سيحدث بعد ذلك، فإنني لا أدري هل تساءل كارامازوف في ذلك الأوان عما سيصير إليه. لا أدري هل كان كارامازوف قادرا على أن يفكر في حياته الآخرة كما فعل هاملت. لا يا سادتي القضاة، هم عندهم أمثال هاملت؛ أما نحن فليس في بلادنا حتى الآن إلا أمثال كارامازوف!». وبعد ذلك وصف ايبوليت كيريلوفتش ما أعده ميتيا بالتفصيل، وصف زيارته للموظف برخوتين، ومروره بمتجر البقالة، ومناقشاته أصحاب العربات؛ وذكر عدداً كبيراً من أقواله وصيحاته وإشاراته وحركاته، مستمداً ذلك كله من شهادات الشهود. فكان للوحة التي رسمها تأثيراً كبيراً في الحضور، وقد خطف تكامل الوقائع التي سردها الانتباه وأسر العقول خاصة، وأصبح واضحاً للجميع أن هذا الرجل الذي كان يتخبط طائش العقل ولا يراعي نفسه هو الجاني فعلا. وتابع ايبوليت كيريلوفتش كلامه فقال: «أصبح المتهم في غير حاجة إلى الحذر والتروي، لذلك اتفق له مرتين أو ثلاث مرات أن كاد يعترف بكل شيء، فكان يلمح إلى جريمته بدون انقطاع، ولكنه لم يمض إلى حد التحدث عنها صراحة (هنا ذكر النيابة بشهادات الشهود)؛ حتى لقد صرخ يسأل الحوذي وهو في طريقه إلى مركرويه: «هل تعرف أنك تقل في عربتك قاتلاً؟». ومع ذلك كان لا يملك أن يمضي في اعترافاته إلى آخرها. فإنما المهم أن يصل أولا إلى موكرويه وأن يكمل القصيدة. ولكن إليكم ما كان ينتظر المسكين هناك: لقد لاحظ منذ الدقائق الأولى، منذ أن وصل إلى قرية موكرويه، لاحظ أولا ثم أدرك إدراكاً واضحاً بعد ذلك أن منافسه الذي كان يظن أنه «لا ينسى»، ليس بالمنافس الذي «لا ينسحقا، وأن الحبيبة لا تريد ولا تقبل منه، هو ميتيا، أن يهنئها بالسعادة الجديدة. على أنكم تعرفون الوقائع يا سادتي المحلفين، تعرفونها من نتائج التحقيق. لقد انتصر كارامازوف على منافسه انتصارا كاملا. وعندئذ، عندئذ يا سادتي، إنما بدأت مرحلة جديدة من مراحل عذابات قلبه، مرحلة هي أفظع المراحل التي عرفها والتي سيعرفها أيضاً. آه يا سادتي القضاة! ألا إننا لنستطيع أن نؤكد أن الطبيعة المساء إليها والقلب الآثم ينزلان عقابا أشد هولا من العقاب الذي تنزله فيه عدالتنا الأرضية ذلك هو عذاب القلب والروح. بل نستطيع أن نذهب إلى أبعد من هذا فنؤكد أن العقاب الذي يمكن أن توقعه العدالة الإنسانية يخفف العقاب الذي توقعه الطبيعة، وهو في هذه الأحوال ضروري لنفس المجرم، لأنه السبيل الوحيد إلى نجاة روحه من اليأس. ليس في وسعنا أن نتخيل أنواع الهول وضروب العذاب التي لا بد أن يكون كارامازوف قد عاناها وقاسى منها حين علم أن هذه المرأة تحبه، وأنها تعدل في سبيله عن صديقها االقديم الذي لا ينسى»، وأنها تدعوه هو، هو ميتيا، إلى أن يبدأ معها حياة جديدة، وأنها تعده هو، هو ميتيا، بالسعادة؛ وذلك في اللحظة التي كان فيها كل شيء في نظره قد انتهى، فأصبح لا يستطيع أن يتعلق بأي أمل، ولا أن يتشبث بأي رجاء. أحب في هذه المناسبة أن أثبت واقعة أحسب أنها هامة جداً لفهم الوضع الذي كان عليه المتهم في تلك اللحظات: إن تلك المرأة التي كان يحبها ويشتهيها شهوة جياشة عارمة، كانت قد ظلت إلى آخر دقيقة، إلى حين القبض عليه، بعيدة المنال لا يستطيع الظفر بها. ورب سائل سأل: لماذا لم ينتحر إذن، لماذا عدل عن نيته حتى لقد نسي مسدسه؟ الجواب على هذا أن هواه المشبوب وأمله المفاجىء في إرضاء هذا الهوى لم يلبثا أن صداه عن تنفيذ ما عقد النية عليه. إنه وهو في سكرة اللهو والقصف قد التصق بحبيبته التي كانت تشاركه لهوه وقصفه، والتي كانت تبدو له تلك اللحظات أجمل وأروع وأفتن وأحق بالحب والعبادة منها في في أي وقت مضى، فهو لا يحول عنها بصره، وهو لا ينفك يزداد إعجابا بها وذوبانا فيها. حتى إن هذا الهوى الحار وهذا الظما الشديد إلى الحب قد خنقا في نفسه، أول الأمر، لا الخوف من الاعتقال فحسب، بل عذاب الضمير أيضاً. ولكنهما لم يخنقاهما إلا لحظات قصارا أيها السادة، لحظات لا أكثر! إنني أتخيل الحالة النفسية التي كان عليها المتهم وقد استبدت به عناصر ثلاثة: أولها أبخرة الخمرة التي صعدت إلى رأسه وضوضاء الرقصات والأغاني التي تدوي في أذنيه وهذه المرأة التي تخضب وجهها بالحمرة من أثر الشراب وأخذت تغني وترقص سكرى هي أيضاً. وكانت تبتسم له ابتساماً فتّاناً؛ وثانيها أمل في أن الخاتمة المحتومة ما تزال بعيدة، أو أنها ليست وشيكة على الأقل، وأنها لن يحين حينها قبل الغداة، وأنه لن يقبض عليه قبل طلوع الفجر، وأن أمامه إذا ساعات وهذه الساعات إنما هي سعادة كبيرة عظيمة! وثالثها أن في وسع المرء أن يضع خلال بضع ساعات خططاً كثيرة. إنني أتصور أن حالته النفسية حينذاك لا بد أن تكون شبيهة بحالة المحكوم عليه الذي يقاد إلى الميدان الذي سيشنق فيه، فهو يقول لنفسه وهو راكب عربة التحقير والتشهير بينما الحصان يسير بخطى بطيئة أمام ألوف المشاهدين: «ما يزال هناك شارع، شارع طويل طويل سأجتازه»، ثم تنعطف العربة يمنة وتلج شارعا آخر لا يظهر الميدان الذي نصبت فيه المشنقة الرهيبة إلا في نهايته... «يخيل إلي أن المحكوم عليه لا بد أن يشعر، في بداية هذه الرحلة، أنه ما تزال أمامه أبدية حياة. ولكن المنازل تخطر أمام عينيه واحداً بعد آخر، والعربة تتقدم بغير شفقة ولا رحمة، والرجل يقول لنفسه: اما هذا بشيء، ما يزال المنعطف بعيدا»، ويظل يتفرس، رابط الجأش، في ألوف المستطلعين الذين يزدحمون على اليسار واليمين من ممره دون اكتراث، والذين تحدق أبصارهم إليه. إنه يتصور عندئذ أنه شبيه بجميع هؤلاء الخلق، وأنه ما يزال ينتمي إلى عالم الأحياء. وها هي ذي العربة تنعطف إلى الشارع الآخر. اوه! ما هذا، بشيء، فما يزال هناك هذا الشارع كله. وتخطر المنازل واحداً بعد آخر، ولكنه يظل يردد: «آما يزال هناك منازل كثيرة»، ويستمر على ذلك حتى النهاية، حتى لحظة الوصول إلى الميدان المحتوم المشؤوم. تلك هي في رأيي الحالة النفسية التي كان عليها كارامازوف أثناء تلك الساعات. كان يقول لنفسه: «لم يتسع وقتهم لاكتشاف الجريمة، وفي وسعي أن أهتدي إلى تعليل ما. أوه! سوف أهتدي إلى تعليل ما. أوه! سوف اهتدي في أثناء هذا الوقت إلى خطة دفاع. إلى وسيلة أدرأ بها الخطر عن نفسي.. أما الآن، أما الآن فما أجملها وما أروعها!». صحيح أنه كان مضطربا مهموما، ومع ذلك فقد ملك من حضور البديهة ما مكنه من اقتطاع نصف المبلغ الذي جاء به، وإخفائه في مكان ما - ذلك أنني لا أستطيع أن أفسر بغير هذا كيف أمكن أن يخفي نصف تلك الثلاثة آلاف روبل التي استلها من تحت وسادة أبيه. كان قد جاء قبل ذلك إلى

موكرويه، وظل يقصف فيها يومين فهو يعرف هذا المنزل الخشبي الكبير القديم، يعرفه حق معرفته، يعرف جميع أركانه وزواياه، طاف في أروقته، وتجول في حجراته. إنني أفترض أنه في ذلك المنزل إنما خبأ نصف المال قبل أن يقبض عليه بلحظات، دسه في شق من الشقوق أو تحت وتد من الأوتاد، في زاوية مظلمة، أو بين القرميد، لا أدري؟ فإذا سألتموني ماذا كان هدفه من اقتطاع نصف المبلغ وإخفائه، قلت إن الهدف واضح. فالمصيبة قد تسقط عليه من لحظة إلى لحظة، وهو لم يفكر بعد في وسائل حماية نفسه منها، وليس في وقته متسع للتفكير في ذلك، ما دام رأسه يضج هذا الضجيج كله، ولأن كل شيء خلال تلك الدقائق إنما كان يدفعه نحو الحبيبة! ولكن المرء يحتاج إلى المال في جميع الظروف. ومن ملك شيئًا من مال، فقد ظل في هذا العالم شيئًا مذكورا. رب قائل يقول إن مثل هذا الحساب ليس طبيعياً في ساعة كتلك الساعة. ولكنني أسألكم: ألم يقل لنا المتهم نفسه إنه منذ شهر، في ساعة مضطربة درامية أيضاً من حياته، قد اقتطع نصف الثلاثة آلاف روبل وخاط عليها كيساً؟ ولئن كان زعمه هذا كاذباً، كما سأبرهن على ذلك بعد قليل، فإن هذا لا ينفي أن هذه الفكرة كانت قد ساورته وأنه كان قد درسها؛ حتى ليمكن أن نذهب إلى أنه حين أعلن لقاضي التحقيق بعد ذلك أنه احتجز نصف المبلغ في كيس (كيس لم يوجد في يوم من الأيام على كل حال)، إنما وافته فكرة هذا الادعاء عفو الخاطر لهذا السبب عينه، أعني لأنه كان قد اقتطع نصف المبلغ في موكرويه، قبل ساعتين، وخبأه من باب الاحتياط إلى الفجر، حتى لا يحتفظ به في أحد جيوبه، خاضعاً في ذلك لوحي مباغت وإلهام مفاجيء. تذكروا الهوتين، يا سادتي القضاة، تذكروا الهوتين اللتين يمكن أن يتأملهما رجل مثل كارامازوف في آن واحد معاً! ولقد فتشنا المنزل مع ذلك فلم نعثر على شيء؛ فمن الجائز أن يكون المال ما يزال موجودا فيه، ولكن من الجائز أيضاً أن يكون المال قد أخذ في الغد وأنه الآن في حوزة المتهم. مهما يكن من أمر، فلقد كان المتهم قرب هذه المرأة، جاثياً على ركبتيه أمامها، حين جاء رجال السلطة للقبض عليه، كانت هي مستلقية على السرير، وكان هو مادا ذراعيه نحوها، وقد بلغ من نسيان كل ما عدا ذلك في تلك اللحظة أنه لم يسمع حتى وقع أقدام الرجال الذين جاؤوا للقبض عليه. لم يكن قد هيأ بعد شيئًا يجيب به عن أسئلتهم. لقد داهموه على غير توقع منه. وها هو ذا يقف عندئذ أمام قضاته الذين سيقررون مصيره.

سادتي المحلفين، اننا، أثناء ممارسة وظيفتنا نمر بلحظات يعترينا فيها، على حين فجأة، خوف ووجل أمام التهم وأمام المصير الذي ينتظره؛ وهي اللحظات التي نرى فيها لدى المجرم ذلك الهلع الغريزي الذي يستولي عليه حين يدرك أن كل شيء قد ضاع، ولكنه يظل يناضل، ويظل يحاول أن يقاومنا. إن غريزة البقاء تستيقظ في نفسه عندئذ قوية قوة هائلة، فإذا هو وقد تسلطت عليه رغبة محمومة في الإفلات منا، يتفرس فينا بنظرة نافذة، نظرة مستفهمة أليمة في آن واحد، محاولاً أن يحزر أيسر تعبيرات وجوهنا وأن يعرف أخفى ما يجول في خواطرنا، متسائلاً ما هي الجهة التي سنأتيه منها؛ وسرعان ما تقوم في ذهنه المضطرب عندئذ ألوف الخطط الدفاعية، ولكنه يخاف مع ذلك أن يتكلم، يخاف أن تفلت منه كلمة متعجلة ليس فيها ترو أو تبصر. إن هذه اللحظات التي يذل فيها الإنسان، وهذه الشدائد التي تقاسي منها النفس، وهذه الرغبة البهيمية في الإفلات من العقاب، إن هذا كله يبعث منظره أشد الألم، ويثير الشفقة والعطف حتى لدى قاضي التحقيق. لقد شهدنا هذا المنظر حين ألقي القبض على كارامازوف، بدا في أول الأمر مصعوقا، قد انهارت قواه وانهدت مقاومته، وأفلتت من لسانه كلمات تعرضه للخطر. قال: اسفحت دما! أستحق هذا المصير!» ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه، فماذا يقول، بماذا يجيب؟ هو لا يعرف بعد ماذا يقول لأنه لم يهيئ شيئًا، فلجأ في أول الأمر إلى إنكارات قاطعة هاتفا: «أنا لم أقتل أبي!. كان ذلك هو المتراس الوحيد الذي أقامه ارتجالا ليحتمي به، وفي نيته أن يقيم متاريس أخرى. وحاول بعد ذلك أن يصلح ما أفسده وأن يتدارك ما ورطته فيه صيحاته الطائشة التي لم يكن فيها شيء من التروي والتبصر، فاستبق أسئلتنا وأعلن أنه لا يعد نفسه مسؤولا إلا عن موت الخادم جريجورى. قال: اصحيح أنني سفحت دمه هو، ولكن من الذي قتل أبي، من الذي قتله أيها السادة؟ من ذا الذي قتله إذن، ما دمت لست أنا القاتل؟» هل سمعتم: إنه يلقي علينا نحن هذا السؤال، نحن الذين إنما جئنا لنلقي هذا السؤال نفسه عليه! لاحظوا هذه الطريقة التي يعمد إليها في استباق الأمور وأخذ زمام المبادرة قائلاً: «ما دمت لست أنا القاتل»، انظروا إلى هذا المكر البهيمي، وإلى هذه السذاجة أيضاً، وإلى هذا التسرع الذي يدل على نفاد الضبر والذي هو شيء من طبيعة رجل مثله! لست أنا القاتل، وإني لأحظر عليهم حتى الوقوف عند هذه الفكرة والتلبث عليها. ثم لا يلبث أن يعترف قائلاً بعد قليل (إنه يتعجل، يتعجل تعجلا رهيبا): «كنت أريد أن أقتله أيها السادة، كان في نيتي ذلك، ولكن لست أنا الذي قتلته، لست أنا المسؤول عن مقتله!». هو يسلم لنا بأنه كان ينوي أن يقتله، فكأنه يقول لنا: انظروا كم أنا صادق، فعليكم أن تصدقوني متى أكدت لكم أنني لم أقتل. إن المجرمين يبرهنون في لحظات من هذا النوع على خفة كبيرة وطيش شديد وسذاجة لا يتصورها العقل. وفي تلك اللحظة نفسها سئل، كأنما بمصادفة، وكأن الأمر عادي طبيعي إلى أبعد الحدود: «أليس من الجائز أن يكون سمردياكوف هو القاتل؟». فعمد إلى طريقة هي بعينها الطريقة التي تنبأنا بها: غضب حين لاحظ أننا كشفنا خبيئة نفسه بغتة بينما هو لم يتسع وقته بعد لإعداد متراسه واختيار أفضل لحظة لإلقاء التهمة على سمردياكوف؛ فبادر يندفع إلى الطرف الأقصى الآخر، خاضعاً في ذلك لقوانين الطبيعة، وطفق يحاول أن يبرهن لنا بحماسة وحرارة على أن سمردياكوف لا يمكن أن يكون القاتل، وعلى أنه عاجز عن أن يقتل. ولكن لا تصدقوه، فما كان هذا إلا حيلة ومكرا ودهاء: إنه لم يعدل أبدا عن فكرة استعمال سمردياكوف لتبرئة نفسه. بالعكس: سوف يقدم سمردياكوف متى آن الأوان، وهل يوجد إلا سمردياكوف شخص يستطيع أن يحمله الجريمة؟ ولكنه سيفعل ذلك فيما بعد، أما الآن فقد ضاعت الفرصة وفسد الأمر. قد يخرج سمردياكوف غدا أو بعد بضعة أيام. سوف ينتظر الفرصة المؤاتية ليصيح قائلاً: انظروا! ألا تتذكرون أنني استبعدت أن يكون سمردياكوف هو القاتل؟ ألا تتذكرون أنني دافعت عنه أكثر مما دافعتم أنتم عنه؟ ولكنني قد اقتنعت الآن بأنه هو الذي قتل، وأنه الوحيد الذي يمكن أن يكون مرتكب هذه الجريمة!» أما في تلك اللحظة فقد اصطنع أمامنا موقف الإنكار القاطع والنفي الجازم، متظاهرا بكثير من الغيظ والحنق. ومع ذلك فإن نفاد الصبر وشدة الغضب قد أوحيا إليه بتفسير لسلوكه هو بين جميع التفاسير الممكنة أقلها حذقا وبراعة وأبعدها عن المعقول، فأخذ يروي لنا كيف أنه اقتصر - في زعمه - على أنه نظر من خلال نافذة أبيه ثم انصرف بعد ذلك باحترام. يجب أن لا ننسى خاصة أن المتهم لم يكن على علم في تلك اللحظة بخطورة الأقوال التي وردت في شهادة جريجورى بعد أن صحا جريجورى من غيبوبته. وقمنا بتفتيشه على ما توجبه الأنظمة، فأحنقه هذا الإجراء، ولكنه شجعه في الوقت نفسه، فلم نعثر على الثلاثة آلاف روبل كاملة، ولم نجد إلا ألفا وخمسمائة روبل. وواضح أنه في أثناء تلك اللحظات من الصمت الغاضب والإنكار المقهور إنما خطرت بباله لأول مرة فكرة أن يحدثنا عن ذلك الكيس. لا شك في أنه كان هو نفسه يحس بأن هذا الاختراع غير معقول ولا مقبول، ولا شك في أنه كان يعمل فكره جاهدا من أجل أن يجعل هذا التلفيق جائزا محتملا، دون أن يدري ما الذي يجب عليه أن يتخيله حتى ينشئ رواية يصدقها العقل. ولكن أول واجب يقع على عاتق المحققين في مثل تلك اللحظات هو أن يباغتوا المتهم فلا يدعوا له فسحة من الوقت لتحضير إجابته، وأن يقودوه بذلك إلى الكشف عما يضمره من حساب مع كل ما يشتمل عليه هذا الحساب من سذاجة ومن بعد عن الاحتمال، ومع كل ما يحتويه من تناقضات. ولا يمكن إجبار المجرم على أن يفضح نفسه هذا الفضح إلا إذا أطلع بغتة، بما يشبه المصادفة العابرة، على واقعة لها دلالة بليغة وخطورة عظيمة، ولكنه ما يزال يجهلها ولم يخطر على باله وجودها ولا استطاع إذا أن يستعد لها. وكنا نحن قد أعددنا هذه الواقعة... كنا قد أعددناها منذ مدة طويلة... ألا وهي شهادة الخادم جريجورى الذي صرح حين صحا من غيبوبته أنه رأى الباب الذي هرب منه القاتل مفتوحا. كان المتهم قد نسي نسيانا تاما أن يفكر في ذلك الباب، ولم يخطر بباله أن من الممكن أن يكون جريجورى قد رآه. فلما فاجأناه بهذه الواقعة، كان لها فيه أثر فظيع، فها هو ذا يثب عن مكانه ويصرخ قائلاً لنا: سمردياكوف هو الذي قتل! إنه سمردياكوف!. هكذا كشف المتهم عن فكرته الخبيثة، وفضح خطة دفاعه الأساسية، ولكنه أسلمنا ذلك في صورة هي أبعد الصور عن المعقول والمحتمل، لأن سمردياكوف ما كان يمكن أن يقتل إلا بعد أن جندل المتهم جريجورى وولى هاربا. فلما قلنا له بعد ذلك إن جريجورى رأى الباب مفتوحا قبل أن يهوي على الأرض مضرجا بدمائه وأنه حين خرج من غرفته قد سمع سمردياكوف يئن ويتوجع وراء الحاجز، حين قلنا له ذلك صعق فعلا. إن زميلي المحترم الذكي نيكولاي بارفينوفتش قد روى لي بعد ذلك أنه أشفق عندئذ على المتهم، وتأثر تأثرا شديدا حتى كادت تفيض عيناه بالدموع. وفي تلك اللحظة إنما سارع المتهم، إصلاحا للموقف، فأفضى الينا بقصة الكيس العجيبة تلك، فلا بد أنه قال لنفسه عندئذ: طيب... إليكم الآن هذه الرواية فاقبلوها!». سبق أن ذكرت لكم رأيي في هذه القصة يا سادتي المحلفين، وسبق أن ذكرت لكم لماذا أعد اختراع هذا الكلام عن مبلغ اقتطعه المتهم وخاط عليه كيساً قبل الحادث بشهر، لماذا أعد اختراع هذا الكلام أسخف وأضعف تفسيرا من التفسيرات التي كان يمكن اختلاقها في حالة من هذا النوع. ومهما يبحث المرء فلن يستطيع أن يتصور شيئًا أبعد عن المعقول وأنأى عن الاحتمال من هذه القصة الملفقة. إن في وسعنا في هذه النقطة أن نربك قصاصنا المرتجل الواثق من نفسه، وأن نفضح كذبه وندمر حجته، بأن نجابهه ببعض التفاصيل، أن نجابهه بتفاصيل من تلك التفاصيل التي ما أكثر ما يحفل بها الواقع، ولكن هؤلاء المساكين الذين يلفقون القصص الوهمية على غير إرادة منهم يهملونها ويغفلونها على أنها تافهة زائدة لا قيمة لها، بل ولا تخطر لهم على بال أصلا، فإن وقتهم لا يتسع للاهتمام بهذه السفاسف، وإنما هم يتصورون حكاياتهم في خطوطها العريضة وصورتها المجملة... ولكن ها هم أولاء يجابهون بتلك التفاصيل الشقية! وعندئذ إنما نستطيع أن نضبطهم. ألقينا على المتهم هذا السؤال: امن أين جئت بقماش ذلك الكيس الصغير، ومن الذي خاطه لك؟» فأجابنا: خطته بنفسي فألحنا نسأله: «والقماش، من أين جئت به؟ فشعر المتهم باستياء وضيق، كأن الأمر أمر ترهات لا تليق به. ولقد كان عندئذ صادقا كل الصدق، نعم كل الصدق. فلا تعذبوه. إنهم جميعا على هذه الشاكلة، هؤلاء المجرمون! قال: «انتزعت قطعة قماش من قميصي». قلنا «عظيم. إذا سنعثر غدا على هذا القميص بين ملابسك، سنعثر على هذا القميص الذي تنقصه قطعة». إنكم لتدركون يا سادتي المحلفين أننا لو كنا قد عثرنا فعلا على ذلك القميص (وهل كان يمكن أن لا نعثر عليه في حقيبته أو في درج من الأدراج لو كان له وجود حقا)، لكان ذلك واقعة محسوسة ملموسة تشهد بصدق أقواله. ولكن ذلك لم يكن قد خطر على باله. واستأنف كلامه يقول: الست اتذكر جيدا. أظن أنني لم أنتزع قطعة القماش من

قميص، بل قصصتها من طاقية لصاحبة المنزل الذي أسكن فيه». سألناه: «أية طاقية؟» فأجاب: «طاقية أخذتها من عندها وكانت ملقاة في غرفتها، هي متاع من تلك الأمتعة العتيقة القطنية». قلنا: «هل ذكرياتك دقيقة؟» قال: «لا، ليست دقيقة!»، وأخذ يغضب ويثور علينا. ألا إنني لأسألكم: كيف يمكن أن ينسى هذا الأمر؟ إن التفاصيل التي من هذا النوع هي التي تعود إلى ذاكرة المرء في أشقى ساعات الحياة، في لحظة الإعدام مثلًا، فإذا بالمحكوم عليه، الذي ربما يكون قد نسي كل ما عدا ذلك، يتذكر السطح الأخضر من منزل أبصره أثناء الطريق، أو يتذكر غرابا أسود رآه واقفا على صليب، لأن هذه التفاصيل تبقى محفورة في الذاكرة إلى الأبد. ولا بد أن المتهم قد اختبأ عن أعين الناس الذين يقيم عندهم حين أخذ يخيط ذلك الكيس، ولا بد أن يتذكر ما كان يشعر به عندئذ من خشية مذلة وألم ممض حين كان ممسكا بالإبرة وهو يرتعش خوفا من أن يدخل عليه أحد فيباغته متلبسا بالفعل؛ ولا بد أنه كان ينتفض لدى سماعه أيسر ضجة فيهرع يختبىء وراء الستارة (لأن في غرفته ستارة... على أنني أتساءل، يا سادتي المحلفين، لماذا أذكر لكم هذا كله، لماذا اذكر لكم جميع هذه التفاصيل، وجميع هذه الترهات! بهذا هتف ايبوليت كيريلوفتش على حين فجأة، ثم واصل كلامه:

- إنني مضطر إلى أن أفعل ذلك لأن المتهم ما يزال مصرا في عناد ما بعده عناد على أن يورد مثل هذه المزاعم السخيفة الباطلة. إنه خلال هذين الشهرين الماضيين، منذ تلك الليلة التي حملت إليه ذلك الشؤم كله، لم يأتنا بتعليل واحد مقبول، ولم يستطع أن يضيف أيسر واقعة مادية محسوسة إلى ما سبق أن لفقه لنا خياله العجيب. هذه في نظره تفاصيل لا قيمة لها، وإنما يجب علينا أن نصدق أقواله على عهد الشرف وحده. والحق أننا لا نتمنى إلا أن نصدقه، والحق أننا نحب كثيراً أن نثق به وأن نركن إلى كلامه ولو على عهد الشرف وحده. فهل نحن أناس سفاكون سفاحون متعطشون إلى دماء البشر؟ ألا فاعطونا واقعة واحدة، ألا فدلونا على واقعة صغيرة واحدة يمكن أن تساعدنا على تبرئة المتهم، فنفرح بذلك أشد الفرح، ونغتبط له أشد الاغتباط. ولكن لا بد لنا من عنصر محسوس ملموس، لا بد لنا من عنصر واقعي، لا بد لنا من شيء غير الاستنتاجات التي يستنتجها أخوه من تعبير وجهه، ولا بد لنا من شيء غير قول القائل إن المتهم حين ضرب صدره إنما كان يدل على الكيس المخبأ فيه، إنما كان يشير إلى هذا الكيس، وذلك في ظلمة الليل أيضاً! لسوف يسرنا أن نعرف أية واقعة جديدة، ولسوف نكون عندئذ أول من يعدل عن الاتهام ويسارع إلى الاعتراف ببراءة المتهم. ولكن حرصنا الشديد على العدالة يلزمنا بواجبنا في هذه الساعة، فلا بد لنا أن نلح على ذكر الأدلة التي تدين المتهم، ولسنا نملك إلا أن نظهركم هنا وصل ايبوليت كيريلوفتش إلى خاتمة مطالعته. كان يرتجف عندئذ من الحمى، فتحدث بصوت متهدج متألم عن الدم المسفوح، دم الأب الذي قتله ابنه «بدافع حقير هو الطمع في المال»؛ وألح إلحاحا شديدا على أن الأدلة القاطعة التي تدين المتهم متوافرة توافرا تاما لا يدع مجالا لشك أو تردد. وختم كلامه قائلاً: «أيا كان الكلام الذي سيقوله لكم بعدي وكيل المتهم، المحامي المعروف بموهبته (لم يملك ايبوليت كيريلوفتش إلا أن يضيف هذه الكلمات) الذي ستترجع في هذه القاعة أصداء خطابه البليغ المؤثر من أجل أن يهز عواطفكم، فلا تنسوا يا سادتي المحلفين أنكم أمام هيكل العدالة المقدس. تذكروا أن رسالتكم هي أن تدافعوا عن الحقيقة، وأن مهمتكم هي أن تحموا وطننا المقدس روسيا، وأن تصونوا أسس حياتنا القومية، وأن تذودوا عن الأسرة وعن أرفع قيم الحياة الاجتماعية! نعم يا سادتي المحلفين، إنكم تمثلون الآن روسيا كلها، تمثلون روسيا التي تشخص بأبصارها إليكم في هذه الساعة حماة وقضاة من حماتها وقضاتها، فعلى قراركم يتوقف أن يشتد أزرها وتتشجع حميتها، أو أن يخيب ظنها ويخور عزمها. فلا تعذبوا روسيا، لا تخيبوا رجاءها، لأن الترويكا الجامحة التي تحمل مصائرنا القومية تعدو عدوا سريعا وربما هوت بهذه المصائر إلى الضياع والهلاك. إن العقلاء من رجال بلادنا يمدون أذرعهم إلى الخيول الهائجة، منذ زمن طويل، ضارعين مبتهلين أن يوقف اندفاعها العنيف العارم. وإذا كانت الشعوب الأخرى تتنحى الآن عن طريق الترويكا الطائشة، فربما كانت لا تتنحى الآن من باب الاحترام، كما أراد الشاعر أن يقول، وإنما هي تتنحى من قبيل الخوف والذعر، ولتلاحظوا ذلك، من قبيل الخوف والذعر، وربما من باب الاشمئزاز والتقزز أيضاً... ومن حسن الحظ أنها ما تزال تتنحى على كل حال وماذا لو أنها كفت في يوم من الأيام عن الخوف منها، فإذا تنتصب سدا منيعا أمام الاندفاع المسعور فتوقف ركبنا المجنون المتحلل صيانة لنفسها، وإنقاذا للحضارة والثقافة. إن أصواتا قلقة قد ارتفعت منذ الآن في أوروبا، ووصلت إلى مسامعنا. إن احتجاجات قد أخذت تنطلق في البلاد الأخرى. فلا تغروا بنا أعداءنا، ولا تزيدوا كرههم لنا وحقدهم علينا بإصدار حكم يسوغ أن يقتل أب بيد ابنه!...

جملة القول إن ايبوليت كيريلوفتش قد انقاد لفصاحته وانساق مع بلاغته، ولكنه مع ذلك قد أنهى كلامه بنغمة مؤثرة فعلا، فكان الأثر الذي أحدثه في نفوس الحضور كبيراً جداً. فلما انتهى من إلقاء مرافعته أسرع يخرج إلى الغرفة المجاورة، وكاد يغمى عليه كما سبق أن ذكرت. ولم يصفق الجمهور، غير أن الرصينين الوقورين من الحضور قد شعروا بالارتياح والرضى. وكانت السيدات أقل اغتباطا وابتهاجا بطبيعة الحال، ولكنهن قد تذوقن، هن أيضاً، فصاحة وكيل النيابة وأعجبن ببلاغته، لا سيما وأن الشك في نهاية المحاكمة لم يساورهن، فهن لا يخشين شيئًا من هذه الناحية، لأنهن يعولن كثيراً على فيتوكوفتش، فإنه «سيتكلم أخيراً، وسينتصر لا محالة!». واتجهت جميع الأعين نحو ميتيا: كان قد أصغى إلى مرافعة النيابة صاما، متشنج اليدين، كاز الأسنان، خافض البصر. وكان في بعض الأحيان يرفع رأسه، ويصيخ بسمعه. وهذا ما حدث خاصة حين جاء ذكر جروشنكا. فحين أورد وكيل النيابة رأي راكيتين فيها، ارتسمت على شفتي ميتيا ابتسامة شريرة محتقرة، وقال بصوت مسموع: «هؤلاء اناس من أمثال برنار!». وحين روى ايبوليت كيريلوفتش كيف استجوب المتهم وعذبه في موكرويه، رفع ميتيا رأسه من جديد، وبدا عليه أنه بانتباه شديد. وفي لحظة من اللحظات، كاد يثب عن مكانه، على نية أن يقول شيئًا ما بطبيعة الحال، ولكنه لم يلبث أن كبح جماح نفسه واكتفى برفع كتفيه احتقارا. وقد أثارت خاتمة المرافعة التي ألقاها وكيل النيابة، ولا سيما حديثه عن المهارة التي قاد بها استجواب المتهم في موكرويه، أثارت مناقشات كثيرة ومحادثات طويلة بعد ذلك في مجتمعنا، ولم ينس الناس أن يسخروا من ايبوليت كيريلوفتش، فكانوا يقولون: إنه لم يستطع مقاومة الإغراء الذي يحضه على الزهو بنفسه والإعجاب بمقدرته». ورفعت الجلسة، ولكنها لم ترفع إلا مدة قصيرة جداً، ربع ساعة أو عشرون دقيقة في أكثر تقدير، سمعت أثناءها بين الجمهور أحاديث شتى وصيحات تعجب كثيرة إليكم بعض ما حفظته منها:

قال سيد بين نفر من الناس وهو يقطب حاجبيه:

- خطاب جاد كل الجد، خطير كل الخطورة!

فأجابه آخر:

- أسرف في السيكولوجيا مع ذلك!

- ولكن ما قاله هو الحقيقة، هو الحقيقة بعينها خالصة!

- نعم هو حجة في هذا الميدان.

- أجمل النتائج وعرض تاريخ المتهم.

وتدخل ثالث فقال:

- وقد نلنا نصيبنا نحن أيضاً، في بداية مرافعته، هل تتذكرون؟ حين أكد أننا جميعا نشبه فيدور بافلوفتش.

- وفي نهاية المرافعة كذلك. ولكنه كذب!

- ثم لقد تصمنت مرافعته فقرات كثيرة غامضة.

- انقاد لدافع الفصاحة والبلاغة.

- كان ظالماً، ظالماً جداً.

- لا أرى هذا الرأي، كان بارعاً. طال انتظاره، ولكنه عرف كيف يفصح عما بنفسه أخيراً! هيه!

- انني أتساءل عما سيقوله المحامي.

وفي جماعة أخرى، دار الحديث التالي:

- أخطا حين نال من هذا المحامي الاتي من سان سان بطرسبرج: «حتى يؤثر في عواطفكم». لا شك أنكم تتذكرون هذه العبارة.

- نعم، لقد أخطأه التوفيق هنا!

- أسرف في التعجل.

- هو رجل عصبي.

- نحن نضحك، نحن، أما بالنسبة إلى المتهم فليس في كلام وكيل النيابة ما يبعث على الضحك.

- أي والله. مسكين ميتيا!

- وددت لو أعرف ما سيقوله المحامي!

وفي جماعة ثالثة جرى هذا الحوار:

- من هي تلك السيدة السمينة الجالسة في الركن، الواضعة على عينيها نظارة صغيرة؟

- هي زوجة جنرال. إنها مطلقة. أنا أعرفها.
- آ... لهذا تضع نظارة.
- هي هول من الأهوال.
- أما أنا فأرى أنها مثيرة.
- على مقربة منها، بعد كرسيين، توجد صغيرة شقراء، تلك أجمل.
- لقد عرفوا كيف يفحمونه بحذق وبراعة في موكرويه، ألا ترون هذا الرأي؟
- لا أنكر أنهم كانوا بارعين. لم يستطع وكيل النيابة مقاومة الإغراء الذي يحضه على سرد هذه الأمور مرة أخرى. لقد طالما سمعناه يقص هذه القصة مرارا قبل الان، في بيوت بعض الأصدقاء!
- لا حيلة له في دفع هذا الإغراء. غلبه حب الظهور على أمره.
- هو رجل ما ينفك يشعر أنه مغبون! هه!..
- وهو إلى ذلك سريع التأذي. وقد أسرف في اصطناع أساليب البلاغة، وكانت عباراته مفرطة في الطول.
- ثم لقد حاول أن يخيفنا، حاول أن يروعنا باستمرار. هلتتذكرون ما قاله عن الترويكا؟ «إن عند الشعوب الأخرى رجالا من أمثال هاملت، أما نحن فليس عندنا بعد إلا أمثال كارامازوف!» تلك براعة منه.
- أراد أن يتملق الليبراليين. إنه يخاف منهم.
- ويخاف من المحامي.
- حتما! إني لأتساءل ما الذي سيقوله السيد فيتوكوفتش.
- مهما يتكلم فلن يتنصر على فلاحينا!
- أتظن ذلك؟
في جماعة رابعة جرى هذا الحديث:
- أحببت كثيراً تلك الفقرة التي تكلم فيها عن الترويكا، الفقرة التي تكلم فيها عن الأمم الأخرى.
- لقد قال الحقيقة بعينها - هل تتذكر؟
- حين أكد أن الشعوب الأخرى لن تنتظر طويلا ستضيق ذرعا بنا آخر الأمر!
- لماذا؟
- ظهرت بوادر ذلك منذ الآن. ففي الأسبوع الماضي قام أحد أعضاء البرلمان الإنجليزي، فقدم سؤالا إلى الوزارة عن العدميين، وسأل: أما آن الأوان لردع هذا الشعب الهمجي ورده إلى الصواب من أجل تأديبه. إلى هذا إنما ألمح ايبوليت كيريلوفتش. أنا أعرف ذلك. لقد حدثنا عن هذه الواقعة منذ بضعة أيام.
- إن أيديهم أقصر من أن تستطيع أن تنالنا بشيء.
- كيف؟
- الأمر بسيط. يكفي أن نغلق ميناء كورنشتات، وأن ننقطع عن إمدادهم بالقمح. فمن أين يجيئون بالقمح عندئذ؟
- من أين؟ أنسيت إذا أمريكا؟ إن عندهم الآن قمحا، في أمريكا!
- غير صحيح!
ولكن جرس رئيس المحكمة دوى رنينه، فأسرع الجميع إلى أماكنهم. وتقدم فيتوكوفتش لإلقاء مرافعته.

- 10 - مرافعة الدفاع
سلاح ذو حدين

خيَّم على القاعة صمت كبير منذ الكلمات الأولى التي نطق بها الخطيب الشهير. وكانت جميع الأبصار متجهة إليه منصبة عليه. بدأ مرافعته بدون جمل طنانة، ومضى إلى هدفه رأسا، ببساطة تامة مقنعة ليس فيها شيء من ادعاء أو غرور. خلا كلامه من كل ما يمكن أن يدل على رغبة في الفصاحة وميل إلى البلاغة، أو إيثار للألفاظ الرنانة التي تهدف إلى التأثير في العواطف. لكأنه رجل يتحدث في حلقة ضيقة من الأصدقاء. وكان له صوت جميل قوي محبب ينم جرسه عن الصدق وطيب السريرة وحسن النية. غير أن جميع الناس قد أدركوا مع ذلك أن هذا المتحدث قادر على أن يرتفع إلى مستوى الخطابة التي تؤثر في السامعين تأثيرا قويا حقا، وأن «يهز أوتار القلوب هزاً عنيفاً لا يجاريه فيه أحده. لعله كان يتحدث بلغة تقل سلامة عن لغة ايبوليت كيريلوفتش، ولكنه لا يستعمل عبارات طويلة، وهو أميل منه إلى الوضوح وأقرب إلى الدقة. ومع ذلك هناك أمر لم يعجب السيدات فيه: لقد كان يحني ظهره دائماً، ولا سيما في بداية مرافعته، لا كما يحني المرء ظهره التحية، وإنما هو يحني ظهره كمن يندفع نحو سامعيه. وأكثر من هذا أنه كان لا يحني إلا نصف ظهره الطويل الذي كان يبدو كأنه مزود بمفصلة في وسطه تتيح له أن ينثني زاوية تكاد تكون قائمة. وقد تكلم في بداية خطابه على نحو مبعثر مشتت، دون أن يلاحظ السامع وجود خيط ينظم الكلام أو خطة تربط أجزاءه بعضها ببعض، وإنما هو ينتقل من واقعة إلى أخرى بما يشبه المصادفة، غير أنه قد أخرج من ذلك في النهاية مجموعة متسقة الأجزاء ملتحمة الترابط. وفي وسعنا أن نقسم مرافعته قسمين: فأما القسم الأول فهو يشتمل على نقد ودحض للاتهام، وكان في بعض مواضعه لاذع السخرية كاوي التهكم. وأما القسم الثاني فقد غير فيه الخطيب لهجته بل وغير موقفه فجأة، فاذا هو يرتقي دفعة واحدة إلى نبرة مؤثرة تهز أوتار القلب. وكأن القاعة كانت تنتظر تلك اللحظة، فأخذت ترتعش حماسة جياشة. وقد عمد المحامي إلى مواجهة القضية رأساً، فأعلن قبل كل شيء أنه وإن كان يمارس المحاماة عادة في سان سان بطرسبرج فقد اتفق له مرارا أن ذهب إلى مدن الأقاليم ليدافع عن بعض المتهمين، ولكنه لم يكن يفعل ذلك إلا حين يقتنع ببراءة أولئك المتهمين أو يحسها. وأضاف يقول شارحاً:

- وهذا ما حدث لي أيضاً في القضية التي ينظر فيها الآن. فإنني منذ قرأت أولى المقالات التي نشرتها الصحف عن هذه القضية قد خطفت انتباهي ظروف تشهد ببراءة المتهم. على أن جانباً قانونياً محضاً هو الذي همني في أول الأمر. لقد رأيت عندئذ، رغم أن الملاحظات التي من هذا النوع كثيرة في ممارسة القضاء، رأيت أن الأمور التي تشهد ببراءة المتهم لم تكن في أية قضية من القضايا واضحة بقوة كقوة وضوحها في هذه القضية، ولم تشتمل على تفاصيل بارزة تبلغ هذه الكثرة التي تبلغها في هذه القضية، فيما يخيل إلي. وربما كان ينبغي لي أن أحتفظ بهذه الآراء إلى آخر المرافعة، حين أكون قد فرغت من تمحيص الوقائع، ولكنني أؤثر أن أعبر عما يجول في فكري منذ البداية، لأن من عيوبي أنني أمضي إلى هدفي رأسا، غير مبال بما يكون لكلامي من تأثير، وغير مكترث بما يجب على المحامي في مثل هذه الظروف اصطناعه من تدرج فيما يريد أن يحمله إلى نفوس السامعين. وقد أكون في هذا متهورا غير مترو، ولكنني مخلص صادق على كل حال. إليكم الفكرة التي أريد أن أعبر عنها: إننا نرى، من جهة أولى، قرائن قوية ثقيلة قاطعة تشهد بأن المتهم هو الجاني، ونرى من جهة ثانية أنه ما من واقعة من الوقائع التي تتخذ أساسا للاتهام يمكن أن تصمد وحدها لأي تفنيد جدي! وقد عزز هذا الشعور في نفسي كل ما قاله الناس أو نشرته الصحف عن هذه القضية. ثم ها أنذا أتلقى من أهل المتهم، على حين فجأة، دعوة إلى تولي الدفاع عنه. فقبلت على الفور، حتى إذا وصلت إلى هذه المدينة، صار اقتناعي إلى يقين.

فمن أجل أن أفتد تلك القرائن المتراكمة التي تميل إلى إدانة المتهم، ومن أجل أن أكشف عن بطلانها واستحالتها، ومن أجل أن أظهر ضعف كل عنصر من عناصر الاتهام على حدة، إنما قبلت أن أتولى الدفاع عن المتهم. بهذه الكلمات استهل المحامي مرافعته، ثم أضاف:

- سادتي المحلفين، أنا امرؤ جاء من مدينة أخرى لا يحمل افكاراً مبيتة، ولا أثر في مشاعره تحيز. إن هذا المتهم الذي يتصف بطبع عنيف جامح لم يسيء إلي في الماضي كما لعله أساء في هذه المدينة إلى عدد من الأشخاص إساءات تفسر لنا ما يحمله له هذا العدد الكبير من الناس من شعور العداء. إنني اعترف طبعا بأن الرأي العام ليس ثائرا عليه من غير سبب: فإن المتهم رجل عنيف لا يلجم نفسه ولا يكبح جماحه. ومع ذلك كان يُستقبل في المجتمع الراقي، وكان يدلل حتى في أسرة السيد وكيل النيابة الذي أقدر موهبته العظيمة وأعجب بها كثيراً. (ملاحظة: أثارت هذه الكلمات في الجمهور ضحكات صغيرة لم تلبث أن خُنقت، ولكن جميع الناس لاحظوها، لأنهم كانوا يعرفون أن وكيل النيابة استقبل ميتيا في منزله على مضض، لمجرد أن زوجته رأت في ميتيا فتى تحلو جلسته. إن زوجة وكيل النيابة امرأة محترمة، وهي سيدة فاضلة إلى أبعد الحدود، ولكنها غريبة الطبع، تحب أن تعاكس زوجها أحياناً، ولا سيما فى الأمور التي ليس لها كبير شأن. على أن ميتيا لم يزرهما إلا لماما).

تابع المحامي كلامه فقال:

- ولكنني أستطيع أن أؤكد مع ذلك أن موكلي العاثر الحظ قد خلف أثرا سيئا في نفس خصمي الذي يتصف باستقلال الرأي ويتميز بالإنصاف والعدل. إنني لأعرف أن هذا المسكين قد فعل كل ما من شأنه أن يحمل الناس على إساءة الظن فيه وإساءة الحكم عليه، وأن يحملهم على أن لا يضمروا له عاطفة طيبة. إن مخالفة الشعور الأخلاقي، ومجافاة الحس الجمالي خاصة، أمران لا يغتفران. لقد سمعنا في المرافعة اللامعة التي ألقتها النيابة تحليلا قاسيا لنفسية المتهم وأعماله، وسمعنا عرضا تناول وقائع القضية بنقد صارم؛ وقد حاولت النيابة خاصة، في سبيل أن تفهمنا جوهر القضية، أن تطل بنا على أغوار سيكولوجية ما كان للسيد وكيل النيابة أن يسبرها لولا أنه يضمر لشخص المتهم شيئًا من العداء أو سوء الظن. على أن هناك، في مثل هذه الحالات، أمورا أنكى وأشأم مما قد يحمله المرء للمتهم من عاطفة سيئة، أو ما قد يتخذه منه من موقف معاد عن عمد وقصد. ذلك ما يحدث خاصة حين ننقاد لنوع من العبث الفني، لنوع من الحاجة إلى الخلق الشعري إن ميح التعبير، لنوع من الرغبة في إنشاء رواية وتأليف قصة، وهذا أمر مفهوم معقول حين تكون العناية الإلهية قد أعطتنا مواهب سيكولوجية. إنني وأنا في سان سان بطرسبرج بينما كنت أستعد للمجيء إلى هذه المدينة قد نُبهت - وما كنت أجهل ذلك على كل حال - أنني سأواجه في هذه القاعة خصما أوتي إحساسا سيكولوجيا خارقا مرهفا عميقا، وهو خصم اكتسب بفضل كفاءاته المرموقة في هذا الميدان قدرا من السمعة والمجد لدى الأوساط التي ليس لها خبرة واسعة من رجال هيئتنا القضائية الشابة. ولكن السيكولوجيا، يا سادتي، سلاح ذو حدين، مهما تكن عميقة. (هنا سمعت في الجمهور ضحكات صغيرة). إنني لعلى ثقة بأنكم ستغفرون لي هذا التشبيه العامي، فأنا امرؤ لا أملك ما يملكه غيري من جمال البيان وقوة البلاغة. لآخذ مثالا هو أول مثال يعرض لنا في مرافعة النيابة. إن المتهم، حين هرب في جوف الليل من خلال الحديقة، تسلق السور، ثم هوى بضربة من مدق الهاون على رأس الخادم الذي تشبث بساقه. وعاد يثب إلى الحديقة بعد ذلك من جديد، فقضى قرب العجوز الذي جندله خمس دقائق طويلة محاولا أن يعرف أهو قد قتله أم لا. إن النيابة ترفض رفضا قاطعا أن تسلم، بحال من الأحوال، أن المتهم قد قال الحقيقة حين أكد أنه قد شغل بجريجورى شفقة عليه ورأفة بهيقول خصمي: «لا، إن هذه العاطفة لا محل لها في مثل هذه الحالة، ولا يمكن أن تكون طبيعية، فإنما قفز المتهم إلى الحديقة من جديد لا لسبب إلا أن يتأكد من أن الشاهد الوحيد قد مات، فكأنه حين فعل ذلك قد وقع اعترافا بجريمته، فما كان ليحضه على ذلك أي باعث آخر أو أي عاطفة أخرى، حين عاد يثب إلى الحديقة». إنني أسلم بأن هذا الكلام هو من السيكولوجيا. ولكن ألا فلنأخذ هذه السيكولوجيا فنطبقها على الوقائع تطبيقا جديدا من الجهة المعارضة، فنرى أن النتائج التي نصل إليها عندئذ لا تقل إقناعا عن النتائج التي وصلت إليها النيابة. إن القاتل الذي وثب إلى الحديقة ليتأكد من أن الشاهد على جريمته قد مات، كان قد ترك، منذ لحظات، في غرفة أبيه الذي قتله، قرينة يصفها السيد وكيل النيابة نفسه بأنها قرينة قاطعة ودليل حاسم، ألا وهي الظرف الممزق الذي تثبت العبارة المكتوبة عليه أنه كان يضم مبلغ ثلاثة آلاف روبل. فلو أن المتهم قد أخذ هذا الظرف، إذا لما خطر ببال أحد أنه كان هناك ظرف، لا ولا خطر ببال أحد أنه كان هنالك مال، ولما استطاع أحد أن ينسب إلى المتهم فعل السرقة. ذلك ما قاله السيد وكيل النيابة. فمن جهة أولى إذن، نرى رجلا طاش صوابه وذهب عقله، واستحوذ عليه الخوف فهرب تاركا في أرض الغرفة برهاناً على ارتكابه الجريمة؛ ومن جهة ثانية نرى هذا الرجل نفسه يسترد على حين فجأة كل صحو ذهنه وحضور بديهته، ويبرهن على أنه يحسب للأمور حسابا يبلغ أبعد حدود الدهاء، ويمضي إلى أقصى آماد النأي عن العاطفة الإنسانية. لنسلم مع ذلك بأن الأمور قد جرت على هذا النحو فعلا، لنسلم بأن كل رهافة السيكولوجيا إنما تكمن هنا: رُب فرد واحد بعينه يملك في بعض الظروف طبيعة دموية وبصرا حادا كنسر من نسور القفقاس، ثم هو يصبح. بعد لحظة واحدة أعمى هلوعا كخلد مروع بائس. ولكن إذا كنا قد بلغنا من شدة القسوة ودقة الحساب حد الوثوب مرة أخرى إلى أسفل السور بعد ارتكابنا جريمة قتل، لا لهدف إلا أن نتأكد من أن الشاهد الذي قد يشهد علينا مات، فلماذا نشغل أنفسنا بعد ذلك خمس دقائق طويلة قرب هذه الضحية الجديدة متعرضين لأن يتنبه إلينا شهود آخرون في أغلب الظن؟ لماذا نبلل منديلنا بالدم الذي يسيل من رأس الضحية، مع أن هذا المنديل قد يستخدم بعد ذلك دليلا علينا؟ ألم يكن من الأفضل لنا، ونحن على هذا القدر من شدة التوحش وقسوة القلب، أن نبادر بعد الوثوب عن السور إلى الحديقة من جديد، فنجهز على الخادم بضربات أخرى نهوي بها على رأسه بمدق الهاون لنصبح على يقين من موته، ثم نهرب وقد فرغنا من هذا الهم وتخلصنا من هذا الخوف! وإليكم تناقضا آخر: أأثب إلى أسفل السور لأتأكد من موت شاهد مزعج، ثم أترك على ممر في الحديقة دليلا قاطعا علي هو ذلك المدق الذي أخذته من عند امرأتين يمكن أن تعرفاه وأن تشهدا بأنني الذي أخذته من عندهما؟ ولا يمكن الادعاء بأننا نسينا هذا المدق في الممر نسيانا أو أنه سقط منها سهوا بسبب ما كنا فيه من انفعال واضطراب.

لا، فإنما نحن رمينا ذلك السلاح رميا عامدين، فقد وجد على مسافة خمس عشرة خطوة على الأقل من المكان الذي كان راقدا فيه جريجوري. فإذا سأل سائل لماذا فعلنا ذلك، قلنا فإنما نحن فعلناه لما شعرنا به من أسف شديد ومرارة عظيمة لصرعنا رجلا هو خادم عجوز. فلما استولى علينا الغضب من أنفسنا ألقينا السلاح الذي استعملناه في ارتكاب هذا الذنب، ألقيناه بعيدا عنا. ذلك هو التفسير الوحيد الممكن. وبدون هذا لا يمكن أن يفهم أحد لماذا رمى المتهم ذلك السلاح بمثل ذلك الاندفاع. ولكن إذا استطعنا أن نشعر بتلك المرارة كلها وتلك الشفقة كلها لأننا قتلنا ذلك الخادم العجوز، فإن معنى هذا أننا لم نقتل أبانا. فلو قد ارتكبنا جريمة قتل الأب، لما ملنا على الضحية الثانية مشفقين، ولكان شعورنا عندئذ مختلفا عن هذا الشعور كل الاختلاف، ولما فكرنا عندئذ إلا في نجاتنا نحن وفي خلاصنا نحن، ولما أشفقنا على غير أنفسنا البتة. ذلك أمر بديهي لا سبيل إلى المماراة فيه. بالعكس: كنا سنجهز عندئذ على الضحية، بدلا من أن نشغل بها خمس دقائق طويلة!... ولئن شعرنا بالشفقة، ولئن استيقظت فينا العواطف الخيرة في تلك اللحظة، فما ذلك إلا لأننا كنا نحس حتى ذلك الحين ببراءة الذمة وطهارة الضمير. إن هذا من السيكولوجيا أيضاً، ولكنه سيكولوجيا مختلفة بعض الاختلاف. وإنما تعمدت، يا سادتي المحلفين، أن أعمد أنا أيضاً إلى استدلالات سيكولوجية، لأظهر لكم بوضوح وجلاء أن في وسع المرء أن يخلص من أمثال هذه التحليلات إلى ما يشاء الخلوص إليه من نتائج، وأن يستخرج منها ما يحب له هواه أن يستخرجه من أحكام. والأمر كله يتوقف على الهدف من استعمال هذه التحليلات، ويتوقف على الشخص الذي يقوم بهذه التحليلات. إن السيكولوجيا، يا سادتي، يمكن أن تغري أحرص الناس على الجد، وأكثرهم تمسكا بالإنصاف، بإنشاء روايات وتأليف قصص، وذلك على غير إرادة منهم. وطبيعي يا سادتي أن ما قلته الآن لا يتناول إلا بعض مبالغات التحليل السيكولوجي، وبعض إساءات استعماله. ضحكات صغيرة أخرى يؤيد بها الجمهور سخرية المحامي من وكيل النيابة. ولكنني لن أنقل كل المرافعة التي ألقاها المحامي، وإنما أقتصر على مقتطفات منها هي أهم ما ورد فيها.

- 11 - لم يكن ثمة مال، لا ولا سرقة

لقد لفت انتباه الجميع في خطاب المحامي أنه كان ينفي نفياً تاماً وجود هذه الثلاثة آلاف روبل المشؤومة وبالتالي إمكانية سرقتها. استأنف المحامي كلامه فقال:

- سادتي المحلفين، إن في هذه القضية أمراً خاصاً يخطف انتباه كل إنسان غير متحيز. هذا الأمر الخاص هو اتهام موكلي بالسرقة مع انتفاء أي دليل قاطع على أن هناك مالا قد سرق. يقال إن مبلغ ثلاثة آلاف روبل قد اختفى، ولكن ما من أحد يعرف على وجه اليقين هل كان لهذا المبلغ وجود. فكروا قليلاً: من الذي أعلمنا بوجود هذه الثلاثة آلاف روبل، من الذي رآها؟ لا أحد إلا الخادم سمردياكوف الذي زعم أن هذا المال كان مودعا في ظرف عليه الكتابة التي جرى الحديث عنها. وهذا الخادم سمردياكوف هو الذي نقل أيضاً هذا النبأ، قبل وقوع الكارثة، إلى المتهم والى أخيه إيفان فيدوروفتش، كما تحدث عنه كذلك إلى السيدة سفيتلوفا. غير أن هؤلاء الأشخاص الثلاثة لم يروا هذا المال بأعينهم. وما من أحد رآه إلا سمردياكوف على ما زعم. ولكن لا بد أن نلقي على أنفسنا عندئذ هذا السؤال: لنفرض أن سمردياكوف كان صادقا في ما قال، فمتى رأى هذا المبلغ آخر مرة؟ لنتخيل مثلًا أن مولاه قد أخرج المال بعد ذلك من تحت الفراش ووضعه في صندوقة دون أن يبلغ الخادم ذلك. لاحظوا أن أقوال سمردياكوف تذهب إلى أن المال كان مخبأ في السرير تحت الفراش. فلا بد إذا أن يكون المتهم قد نبش السرير. فهل رأيتم السرير منبوشا؟ كلا... وتلك واقعة مسجلة في محضر التحقيق. فكيف يمكن أن لا يكون المتهم قد جعد غطاء السرير ولو تجعيداً يسيراً، بل كيف يمكن أن يكون قد دس يديه الملطختين بالدماء تحت الفراش دون أن يلوث المفارش النظيفة، التي وضعت على السرير في ذلك المساء خصيصا؟ رب سائل يسأل: فما قولك بالظرف الملقى على الأرض؟ ألا فلنتكلم إذا عن هذا الظرف قليلاً. لقد دهشت بعض الدهشة منذ قليل حين سمعت السيد وكيل النيابة، أثناء حديثه عن هذا الظرف نفسه، في مرافعته اللامعة الموهوبة، أنه هو نفسه - نعم هو نفسه أيها السادة – يقول من أجل أن يبرهن على بطلان اتهام سمردياكوف بارتكاب جريمة قتل: «لولا وجود ذلك الظرف، لولا أن ذلك الظرف كان ملقى على الأرض دليلاً مادياً، لولا أن السارق لم يأخذ هذا الظرف معه، إذا لما خطر ببال أحد في العالم شيء عن وجود هذا الظرف ووجود المال المودع فيه، ولما أمكن أن ينسب إلى المتهم أنه سرق». معنى ذلك أن هذه القطعة من الورق الممزق، مع العبارة المكتوبة عليها، هي وحدها الأساس الذي يقوم عليه اتهام المتهم بالسرقة. فلولا هذا الظرف لما عرفنا أن سرقة حدثت، ولما كنا على يقين من وجود المال. فهل يمكن حقا أن نزعم أن هذه المزقة من الورق الملقاة على الأرض تنهض دليلاً كافياً على وجود المال وحدوث السرقة؟ قد يُعترض على هذا بأن «سمردياكوف قد رأى المال في الظرف»، لكننا نسأل عندئذ: متى، متى رأى هذا الظرف آخر مرة؟ ذلك هو السؤال الذي ألقيه عليكم. لقد تحدثت في هذا الأمر مع سمردياكوف، فذكر لي أنه رآه قبل حدوث الدراما بيومين. فهل محظور علينا أن نفترض والحالة هذه أن العجوز فيدور بافلوفتش قد خطر بباله فجأة، حين كان وحده في الغرفة منتظرا حبيبته وهو في حالة هستيرية نافدة الصبر، أن يخرج الظرف من السرير وأن يفضه، قائلاً لنفسه: «اذا كان المال مودعا في الظرف فقد يراودها شك، أما إذا رأت في يدي ثلاثين ورقة جميلة من فئة المائة روبل، فسوف تقتنع رأسا، وسوف يسيل لعابها طمعاً!». ها هو ذا إذا يمزق الظرف ويخرج المال، ثم يرميه على أرض الغرفة بحركة واثقة هي حركة رب الدار الذي لا يخشى طبعا أن يكون في ذلك شهادة عليه. هل هناك حقا، أيها السادة المحلفون، افتراض أقرب إلى المعقول وأدنى إلى الجواز من هذا الافتراض الذي صورته لكم؟ لماذا لا تكون الأمور قد جرت على هذا النحو فعلا؟ ولكن إذا جرت الأمور على هذا النحو، أو على نحو قريب من ذلك، فقد سقطت تهمة السرقة من تلقاء نفسها: فلا وجود لسرقة ما لم يوجد مال. إذا كانت النيابة العامة ترى أن وجود الظرف ملقى على أرض الغرفة دليل على وجود المال، فلا شيء يمنعني أنا من أن أؤكد نقيض ذلك. وهو أن الظرف لم يكن ملقى على الأرض إلا لأنه قد أفرغ من المال، أفرغه منه صاحبه نفسه. رب سائل يسأل الآن: «ولكن إذا صح هذا، إذا صح أن فيدور بافلوفتش هو الذي أخرج المال من الظرف، فأين صار هذا المال؟ إننا لم نجد المبلغ أثناء تفتيش المنزل». إن جوابي عن هذا السؤال هو أولاً أن جزءاً من المال قد عُثر عليه في صندوق القتيل، وثانياً أن من الممكن أن يكون العجوز قد أخرج المال في صباح يوم الحادثة، أو قبل ذلك بيوم، ليتصرف فيه تصرفا آخر، كأن يدفعه لأحد أو يرسله إلى أحد، وثالثا أن من الجائز أن يكون قد عدل عن رأيه فيما بعد، فغير خطة عمله تغييراً كاملاً، دون أن يُطلع سمردياكوف على ذلك. فإذا كان هناك أيسر إمكان لتفسير الأمور على هذا النحو، ففيم هذا الإصرار كله وهذا الاستمرار كله على تأكيد أن المتهم قد قتل ليسرق، وأنه سرق بعد أن قتل؟ ألا إن هذا لرواية مؤلفة تأليفا! حين يزعم أحد أن شيئًا ما قد سرق، فإنما ينبغي له، على الأقل، أن يقول لنا بوضوح ما هو ذلك الشيء، وأن يبرهن لنا على أنه وجد فعلا. أما في هذه القضية فإن الشيء المسروق لم يره أحد. لقد حدث في سان بطرسبرج، منذ وقت قصير، أن شابا يكاد يكون مراهقاً، في الثامنة عشرة من عمره، يعمل بائعاً متجولاً، قد داهم دكان صراف في وضح النهار، متسلحاً ببلطة، فقتل الصراف بجرأة قصوى، وسطا على ألف وخمسمائة روبل، قبض عليه بعد بضع ساعات، فعثر على المبلغ معه كاملا لم ينقص منه إلا خمسة عشر روبلاً كان قد اتسع وقت الشاب لتبديدها. هذا إلى أن أجير الصراف، حين عاد إلى الدكان بعد وقوع الجريمة، استطاع أن يذكر للشرطة لا مقدار المال المسروق فحسب، وإنما ذكر للشرطة أيضاً مم يتألف ذلك المال، أي ذكر عدد الأوراق النقدية المسروقة وقيمة كل منها، وعدد الدنانير الذهبية التي حملها القاتل. وقد عثر مع القاتل على تلك الأوراق ذاتها وعلى تلك الدنانير نفسها. يضاف إلى ذلك أن القاتل أدلى أخيراً باعترافات كاملة صادقة، فقال إنه قتل وسرق. ذلك يا سادتي المحلفين ما أستطيع أن أسميه أدلة قاطعة. ها هنا لا مجال للشك: فالمال أمامي، أراه وألمسه، ويستحيل علي أن أزعم أنه لم يوجد. فهل الأمر على هذا النحو في القضية الراهنة؟ والمسألة مع ذلك مسألة حياة أو موت، مسألة مصير إنسان! قد يقول قائل: طيب... ولكن هذا لا ينفي أن المتهم قد قصف في تلك الليلة نفسها، وأنه بعثر المال يمنة ويسرة، وأنه قد عُثر معه على ألف وخمسمائة روبل. فمن أين أتى بهذا المال؟» ولكنني أقول إن هذه الواقعة، وهي أنه لم يعثر معه إلا على ألف وخمسمائة روبل وأنه استحال رغم جميع الجهود أن يُكتشف النصف الثاني من المبلغ الذي يزعم أن المتهم قد سرقه، أقول إن هذه الواقعة نفسها تبرهن برهاناً كافياً على أن المال ليس مصدره السرقة وأنه لم يكن مودعا في ظرف. إن التدقيق في أجزاء الزمن الذي قضاه المتهم بعد وقوع الجريمة (وقد حُسب هذا الزمن حساباً دقيقاً) قد أوضح وبين أثناء التحقيق أن المتهم لم يذهب إلى بيته بعد أن خرج راكضا من عند الخادمتين ليمضي إلى منزل الموظف برخوتين، وأنه لم يذهب إلى أي مكان آخر، وأنه عدا ذلك كان في صحبة أشخاص آخرين طول الوقت، فمن المستحيل والحالة هذه أن يكون قد اقتطع جزءا من الثلاثة آلاف روبل ليخفيها في مكان ما بالمدينة. وهذه الاعتبارات بعينها هي التي حملت السيد وكيل النيابة على أن يتصور أن المال لا بد أن يكون قد أُخفي في مكان ما أو في شق من الشقوق في قرية

موكرويه. لماذا لا نقول إنه مخبأ في أقبية قصر أودولف؟ أليس هذا الافتراض عجيباً غريباً في الواقع؟ لاحظوا يا سادتي المحلفين أنه متى سقط هذا الفرض، أعني متى سقط الفرض الذي يذهب إلى أن المتهم قد خبأ المال في موكرويه، فقد سقط الاتهام بالسرقة سقوطا تاما، وإلا فأين ذهبت الألف وخمسمائة روبل الأخرى؟ بأية معجزة اختفت ما دام قد ثبت أن المتهم لم يدخل إلى أي مكان؟ أبالاستناد إلى روايات ينشئها الخيال على هذا النحو؟ يجوز لنا أن ندمر مصير إنسان؟ فإذا قيل لي إن المتهم لم يستطع أن يدلنا على مصدر الألف وخمسمائة روبل التي عُثر عليها معه، وإنه كان معروفا لدى جميع الناس أن المتهم لم يكن يملك قرشاً واحداً قبل تلك الليلة، قلت: من يدري؟ إن المتهم قد قدم لنا، من جهته، تفسيراً واضحاً قويا لمصدر ذلك المبلغ، وما أحسب إلا أنكم تسمحون لي، يا سادتي المحلفين، بأن أنادي قائلاً إنه لا يمكن أن يكون هناك، ولا يتصور العقل أن يكون هناك، أقوال أقرب إلى الصحة وأدنى إلى الاحتمال من الأقوال التي أدلى بها المتهم حول هذه النقطة، لا سيما وأن ما رواه المتهم يتفق كل الاتفاق مع طبعه وخصاله النفسية. لقد حلا للاتهام في القصة التي ألفها أن يتخيل أن رجلا ضعيف الإرادة يأخذ ثلاثة آلاف روبل تقدمها إليه خطيبته في ظروف مخزية إلى ذلك الحد، لا يمكن أن يملك من القوة ما يمكنه من أن يقتطع ذلك المبلغ وأن يخيط عليه كيساً يخفيه في صدره، وهبه فعل ذلك

فإنه ما كان ليستطيع إلا أن يفتح الكيس كل يومين فيستل منه مائة روبل بعد مائة روبل، إلى أن يتلف المبلغ كله في غضون شهر.

ذلك كله قد قاله لنا السيد وكيل النيابة، كما تتذكرون، بلهجة قاطعة لا تقبل الأخذ والرد. فماذا إذا كانت الأمور لم تجر على نحو ما صورت قصتكم هذه التي حركتم فيها شخصية روائية من صنع الخيال والوهم؟ ألا إن البلاء هو أنكم صورتم لنا شخصية روائية لا وجود لها في الواقع! رب معترض يقول إن هناك شهودا رأوا المتهم يبدد مرة واحدة في موكرويه، قبل وقوع المأساة بشهر، كل الثلاثة آلاف روبل التي أخذها من السيدة فرخوفتسيفا، فلا يمكن أن يكون قد احتفظ من ذلك المبلغ بنصفه. ولكن من هم هؤلاء الشهود؟ إن درجة الثقة التي يستحقون أن نوليهم إياها قد اتضحت لنا اتضاحاً كافياً أثناء المناقشات. ثم إن قطعة الخبز تبدو لنا دائما أكبر مما هي في الواقع حين نراها في يد غيرنا. يضاف إلى ذلك أن أحداً من أولئك الشهود لم يعد المبلغ نفسه، ولم يتكلم أحد عن مقدار ذلك المبلغ إلا على أساس رؤية العين. ألم يمض الشاهد ماكسيموف إلى حد ادعاء انه رأى في يدي المتهم عشرين ألف روبل؟ هكذا ترون، يا سادتي المحلفين، إن السيكولوجيا سلاح ذو حدين، فاسمحوا لي لذلك أن أواجهها من الطرف الآخر لنرى ما سيخرج منها. قبل وقوع المأساة بشهر، عهدت السيدة فرخوفتسيفا إلى المتهم بثلاثة آلاف روبل، وكلفته أن يرسلها بالبريد. إنني لأتساءل مع ذلك هل صحيح أن هذا المال قد سُلم إليه على النحو المذل المخزي الذي وُصف لنا منذ قليل؟ إن الشهادة الأولى التي أدلت بها فخوفتسيفا كانت مختلفة عن هذا، كانت مختلفة عن هذا اختلافاً كبيراً. أما شهادتها الثانية فلم تكن إلا خليطاً مشوشًا مضطربًا من صرخات غضب وانتقام، وإلا انفجاراً لكره طال أمد كبته. ويكفي أن لا يكون هذا الشاهد قد قال لنا الحقيقة دقيقة في تصريحاته الأولى حتى نشك في صدق التصريحات

الأخرى التي أدلى بها بعد ذلك. «إن وكيل النيابة لم يشأ ولم يجرؤ» - وتلك كلماته نفسها - أن يمس هذا الجانب من المأساة. ليكن له ذلك، وها أنذا أتنازل أنا أيضاً عن التوقف على هذا. غير أنني أسمح لنفسي مع ذلك بإبداء هذه الملاحظة: حين نرى إنسانة طاهرة فاضلة مثل السيدة فرخوفتسيفا التي نحترمها جميعاً أكبر الاحترام، حين نراها تسمح لنفسها فجأة بأن تتراجع أثناء جلسة المحاكمة عن شهادتها الأولى على نية أن تضيع المتهم، فإنه يكون واضحاً عندئذ أن شهادتها لا تخلو من الهوى ولا تتصف بالموضوعية. فهل حرام علينا والحالة هذه أن نتصور أن امرأة تجيش في نفسها روح الانتقام وتحركها عواطف الثأر، هل حرام علينا أن نتصور أن هذه المرأة قد بالغت في كثير من الأمور، وضخّمت كثيراً من الأشياء؟ إن من الممكن خاصة أن نكون قد ضخّمت طابع الذل وصفة الخزي والعار في تقديمها المال إلى خطيبها. وإني لمقتنع بأن هذا المبلغ قد قُدّم إلى المتهم بطريقة تغري بقبوله، لا سيما بالنسبة إلى رجل خفيف خفة صاحبنا المتهم هذا. ويجب أن لا ننسى خاصةً أن المتهم كان ينتظر أن يستلم من أبيه في القريب مبلغ الثلاثة آلاف روبل الذي يدين أبوه له بها تصفية الحساب الميراث. صحيح أن ذلك كان منه طيشاً وتسرعاً، ولكن الخفة هي بعينها التي جعلته لا يشك في أن أباه سيردّ إليه هذا المبلغ، فيكون في وسعه في كل وقت أن يعيد إلى السيدة فرخوفتسيفا المال الذي عهدت إليه به وائتمنته عليه، فيسدّد دينها عليه ويبرئ ذمته تجاهها. ولكن السيد وكيل النيابة يرفض رفضاً قاطعاً أن يصدّق أن من الممكن أن يكون المتهم قد اقتطع، في ذلك اليوم نفسه، نصف المبلغ الذي أخذه من خطيبته وأنه خاط عليه كيساً، فالسيد وكيل النيابة يرى أن ذلك لا «يتفق وطبع المتهم، وأن المتهم ما كان له أن يشعر بمثل هذه العواطف». ولكن ألم تهتفوا أنتم أنفسكم قائلين إن لأمثال كارامازوف طبيعة عريضة، ألم تتكلموا هنا عن الهوّتين اللتين يمكن أن يتأملها في آن واحد معاً رجلٌ مثل كارامازوف؟ ألا إن كارامازوف هو فعلاً ذلك الرجل الذي لا حدود لإمكانياته في الاتجاهين كليهما، إنه رجل الهوّتين الذي إذا انقاد لفرحة إتلاف المال واستسلم لظمأ الابتهاج واللّهو والقصف كان يستطيع في تلك اللحظة نفسها أن يتوقف فجأة متى راودته فكرة أخرى تريه الوجه الآخر للموقف. ولقد كان هذا الوجه الآخر قائماً:

إنه الحب الذي اشتعل في نفسه، وكان يحتاج من أجله إلى المال احتياجاً أشد من احتياجه إليه في سبيل اللّهو والقصف مع حبيبته. فيومَ تقول له حبيبته: «أنا لك. إنني لا أريد فيدور بافلوفتش»، سيرحل معها، وسيكون عندئذ في حاجة إلى مال. وذلك أخطر شأناً من القصف واللّهو، ما في ذلك ريب. إن رجلاً مثل كارامازوف لا يمكن إلا أن يدرك هذا. وذلك بعينه هو ماكان يعذبه تعذيباً يوشك أن يصير إلى مرض، لأن هذه الفكرة كانت تحاصره محاصرة ولا تبرحه في لحظة من اللحظات. فلماذا نستبعد أن يكون قد اقتطع ذلك المبلغ وادّخره من باب الاحتياط؟ ولكن الوقت كان يمضي وفيدور بافلوفتش لا يرد للمتهم الثلاثة آلاف روبل. والأدهى من ذلك أن المتهم قد علم أن فيدور بافلوفتش ينوي أن يستخدم هذا المبلغ نفسه لإغواء حبيبته، لإغوائها بماله هو. فقال لنفسه عندئذ: «وإن لم يرد إليّ فيدور بافلوفتش هذا المبلغ فسوف تعدني كاترينا إيفانوفنا لصاً». عندئذ وُلدت في ذهنه تلك الفكرة، وهي أن يمضي في يوم من الأيام بالألف وخمسمائة روبل التي ما يزال يحملها في عنقه، أن يمضي بها إلى فرخوفتسيفا فيقول لها: «أنا وغد ولكنني لست لصاً». أصبح هنالك إذاً سببان يدفعانه إلى الاحتفاظ بهذه الألف وخمسمائة روبل، وإلى المحافظة عليها محافظة شديدة وإلى أن يصونها كما يصون بؤبؤ عينيه وإلى أن لا يفض الكيس ليستلّ مائة روبل بعد مائة روبل. لماذا تنكرون على المتهم أن يملك شيئاً من الشعور بالشرف؟ لا يا سادتي! إن هذا المتهم يملك الإحساس بالشرف، قد يكون في إحساسه بالشرف شيء من المبالغة والبعد عن طريق الصواب، وقد يظهر هذا الإحساس في بعض الأحيان مقلوباً، ولكنه يحسّ بالشرف إحساساً قوياً ويتصوره تصوراً جياشاً بالهوى والاندفاع، ولقد برهن على هذا! ويتعقد الأمر مع ذلك، فمشاعر الغيرة هذه تبلغ أوجها، وهذان سؤالان، سؤالان قديمان، ما يزالان بلحان على نفسه المضطربة إلحاحاً شديداً، وما يزالان يؤلمانه مزيداً من الألم: «سأرد إلى كاترينا إيفانوفنا مالها، ولكن من أين أجيء بعد ذلك بما سأحتاج إليه من مال الأرحل مع جروشنكا؟». ولعل السبب في أن سلوكه كان طوال هذه الفترة فاسداً ذلك الفساد وأنه كان يقبل على السكر بغير انقطاع، لعل السبب في هذا هو أن نفسه كانت تفيض مرارة، وأنه لم يفلح في السيطرة على ألمه، وتفاقمت الخواطر التي كانت تثيرها هذه المسائل في ذهنه، تفاقمت حتى أودت به إلى اليأس. وأوفد أخاه الصغير إلى أبيه يرجوه مرة أخيراً أن يدفع له تلك الثلاثة آلاف روبل، ولكنه داهم المنزل دون أن ينتظر جواباً، وانتهى به الأمر إلى ضرب العجوز على مرأى من شهود. وبعد ذلك فَقَدَ أي أمل في الحصول على هذا المبلغ، لأنه أيقن أن أباه سيرفض حتماً إعطاءه المال، حقداً عليه وانتقاماً منه. وفي ذلك اليوم نفسه، حين التقى بأخيه في المساء، لطم صدره، لطم أعلى صدره، في الموضع الذي يوجد فيه الكيس، وحلف أن في إمكانه أن لا يصبح وغداً حقيراً، ولكنه سيصبح كذلك، لأنه يتنبأ بأنه لن يستعمل هذا الإمكان، لافتقاده القوة النفسية التي تتيح له ذلك. إني لأسألكم لماذا يرفض الاتهام أن يثق بأقوال ألكسي كارامازوف وأن يركن إلى شهادته التي أدلى بها بريئاً تلك البراءة كلها، صادقاً ذلك الصدق كله، عفوياً تلك العفوية كلها، والتي هي من جهة أخرى معقولة محتملة إلى أبعد الحدود؟ ولماذا يُراد لي، في مقابل ذلك، أن أُقسَر قسراً على الاعتقاد بأن هناك مبلغاً من المال قد خُبئ في شق خفي من الشقوق أو في قبو من أقبية قصر أودولف؟ وفي ذلك المساء نفسه، بعد حديثه مع أخيه، كتب المتهم تلك الرسالة المشؤومة، تلك الرسالة التي هي أقوى قرينة ضده، وأكبر دليل عليه، والتي هي الأساس الرئيسي لاتهامه بالسرقة. «سأمضي ألتمس المال لدى جميع أنواع الناس، فإن لم أحصل عليه، فسوف أقتل أبي، وسوف أستولي على المال المخبأ تحت الفراش في ظرف مربوط بشريط وردي اللون، شريطة أن يكون إيفان غائباً». هذه خطة قتل. فكيف لا يكون هو القاتل والحالة هذه، أليس كذلك؟ «لقد تصرف المتهم وفقاً لما جاء في الرسالة» بهذا صاح السيد وكيل النيابة. ولكني أقول أولاً إن هذه الرسالة قد كتبت في حالة سكر، بينما كان يستحوذ على المتهم حنق شديد وغيظ كبير، وأقول ثانياً إن المتهم لا يتكلم في هذه الرسالة عن الظرف إلا اعتماداً على أقوال سمردياكوف، لأنه لم ير الظرف بنفسه، وأقول ثالثاً إن هذه الرسالة قد كُتبت فعلاً، ولكن ما الذي يبرهن لنا على أن المتهم قد تصرف بعد ذلك وفقاً لما جاء في تلك الرسالة؟ هل أخرج الظرف من تحت الفراش، هل وجد فيه المال، بل أكان لهذا المال وجود؟ تذكروا أن المتهم لم يهرع إلى منزل أبيه بغرض الحصول على هذا المال، تذكروا هذا أيها السادة! وإنما هو تسلل إلى الحديقة كالمجنون، لا ليسرق، بل ليعرف أين توجد تلك المرأة، تلك المرأة التي يحبها حب العبادة، فهو إذاً لم يذهب إلى منزل أبيه لينفذ الخطة الموصوفة في الرسالة، إنه لم يذهب إلى منزل أبيه لارتكاب سرقة مدبرة، وإنما هو أسرع إلى هناك بغير تدبير ولا تفكير، وقد استبدّت به نوبة غيرة مسحورة. يقول: «ولكن هذا لا ينفي أنه قتل أباه بعد ذلك، واستولى على المال». هنا أسألكم أخيراً: «هل قتل؟ هل قتل حقاً؟» إنني أرفض تهمة السرقة مستنكراً مستهجناً: فليس يجوز لنا توجيه تهمة من هذا النوع حين لا نستطيع أن نحدد الشيء المسروق على وجه الدقة: تلك بديهية من البديهيات. ولكن هل قتل المتهم، هل قتل دون أن يسرق؟ هل جريمة القتل ثابتة؟ ألسنا، هنا أيضاً، بصدد رواية مؤلفة؟

- 12 - لا ولا كان قتل

معذرة يا سادتي المحلّفين، ولكن الأمر يتوقف عليه مصير إنسان، فيحسُنُ بالمرء أن يلتزم جانب الحكمة والحذر والتروي. لقد سمعتم السيد وكيل النيابة يصرّح هو نفسه بأنه قد تردد حتى آخر يوم، حتى انعقاد جلسة المحاكمة هذه، في أن ينسب إلى المتهم جريمة قتل عن سابق اصرار وتصميم. وأنه ظل يتردد في ذلك حتى اللحظة التي قُدّمت فيها إلى المحكمة تلك الرسالة المشؤومة، تلك الرسالة «السكرى» التي كتبها سكران. «لقد تصرف المتهم وفقاً لما جاء في الرسالة».

ولكنني أعود فأقول مكرراً إن المتهم قد تسلل إلى الحديقة ليعثر على تلك المرأة، وليس له من هدف إلا أن يعرف أين هي تلك واقعة ثابتة لا سبيل إلى إنكارها. فلو قد وجدها في منزلها لما ذهب إلى دار أبيه، ولظلّ إلى جانب تلك المرأة، ولما نفّذ ما أعلن عنه في رسالته. لقد هرع إلى منزل أبيه بحركة مباغتة لم يكن يتوقعها، ولعله كان في تلك اللحظة قد نسي الرسالة التي كتبها وهو سكران. رب قائل يقول: «ولكنه أخذ مدقّ الهاون، أليس كذلك؟» ولا شك أنكم تتذكرون التحليلات السيكولوجية التي اتُّخذ هذا المدق الشقي ذريعة لها وحجة، وكيف أريد إقناعنا بأن المتهم لا بد أن يكون قد عدّ هذا المدق سلاحاً، وأنه قد استولى عليه أداةً لارتكاب جريمة قتل الخ. إن فكرة بسيطة جداً تحضرني في هذه المناسبة: تُرى ما الذي كان يمكن أن يحدث لو أن مدق الهاون هذا لم يكن موضوعاً على رف فرآه المتهم فتناوله، وإنما كان مودعاً في خزانة مثلاً؟ ما كان لهذا المدق عندئذ أن يخطف بصر المتهم، ولانصرف المتهم عندئذ خالي اليدين، لا يملك سلاحاً، ولما أتيح له والحالة هذه أن يقتل أحداً. فكيف نستطيع بعد هذا أن نعدّ ذلك المدق دليلاً على سابق إصرار وتصميم، وبرهاناً على نية التزود بسلاح؟ رب قائل يقول: طيب... ولكن المتهم قد صرح يقول هو نفسه، في الحانات، إنه سيقتل أباه، ومع ذلك فإنه قبل الحادث بيومين، في المساء الذي كتب فيه رسالة السكران تلك، كان هادئاً لم يزد على أن تشاجر قليلاً في إحدى الحانات مع بائع من باعة المتاجر: «لأن كارامازوف كان لا يستطيع إلا أن يتشاجر مع أحد». وأقول في الردّ على هذه الحجة إن رجلاً فكر في ارتكاب مثل هذه الجريمة وانتوى أن يقترفها وفق خطة مرسومة سلفاً، ما كان له قطعاً أن يتشاجر مع أحد، ولو مع بائع، بل ولا كان له أن يدخل إلى إحدى الحانات أصلاً، لأن الرجل الذي يفكر في اقتراف جريمة من هذا النوع، إنما ينشد الهدوء والعزلة ويحاول أن لا يلاحظه أحد، يحاول أن لا يراه أحد ولا أن يسمعه أحد، وكأنه يتمنى في قرارة نفسه أن يقول للناس: «انسوا وجودي، إذاً أمكن ذلك»، لا عن حساب وتدبير، بل بغريزته وحدها. إن السيكولوجيا سلاح ذو حدين يا سادتي المحلّفين، وإنا لنحسن استعمالها نحن أيضاً. أما التهديدات التي أطلقها في الحانات طوال تلك الفترة فما هي إلا زعيق شبيه بزعيق الأطفال، وما هي إلا أقوال حمقاء يطلقها سكارى يتشاجرون فيأخذون يعولون قائلين: (لأصرعنك، لأقتلنك!)، ولكنهم لا يفعلون شيئاً. وأما تلك الرسالة المشؤومة فليست إلا صرخة سكر وغضب هي أيضاً، ليست إلا تبجح رجل يصيح وهو خارج من خمارة: «لأقتلنكم، يمينا لأقتلنكم جيمعاً !». فيم البحث عن تعليل آخر غير هذا التعليل، فيم الإصرار على رفض هذا التعليل؟ إن هذه الرسالة توصف بأنها حجة دامغة، أفليس الأَولى أن توصف بأنها كلام مضحك؟ نعم إنها كلام مضحك، ولكنهم لا يريدون لها إلا أن تكون دليلاً قاطعاً وحجة دامغة، لسبب واحد هو أن الأب قد وُجدت جثته قتيلاً، وأن شاهداً قد رأى المتهم يهرب خلال الحديقة وفي يده سلاح، وأن هذا الشاهد قد صُرع هو أيضاً بعد ذلك، فرتبوا على هذا أن كل شيء قد تم وفقاً لما جاء في الرسالة، فلا يمكن إذاً أن تكون تلك الرسالة كلاماً مضحكاً، ولا يمكن إلا أن تكون دليلاً قاطعاً، وحمدوا الله على أنهم وصلوا إلى النقطة الحاسمة فقالوا: «أما وأنه كان في الحديقة فقد قَتَل». إن هذه الكلمات الصغيرة الثلاث «أما وأنه كان» هي في الواقع جوهر الأساس الذي تقوم عليه القضية ويستند إليه الاتهام. «كان في الحديقة، فهو إذن...؟». ماذا لو أسقطنا كلمة إذاً هذه دون أن ننكر مع ذلك أن المتهم كان في الحديقة؟ ألا إنني لأسلم بأن توافق الوقائع في هذه القضية واجتماعها هما أمران بالغا الدلالة. ولكن هلاّ حمّلتم أنفسكم عناء تحميص كل واقعة من هذه الوقائع في ذاتها على حدة، دون أن تهتموا بتوافقها؟ لماذا يرفض جانب الاتهام مثلاً أن يصدّق أن المتهم ذكر الحقيقة حين قال إنه انصرف عن نافذة أبيه؟ تذكروا الأسلوب الساخر المتهم الذي استعمله السيد وكيل النيابة حين تكلم في هذا الموضوع فأشار إلى مشاعر الاحترام «وعواطف التقوى والفضيلة» التي اجتاحت نفس القاتل على حين فجأة. أي عجب في أن تكون الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً، أي أن يكون المتهم قد استيقظت في نفسه حينئذ مشاعر قد لا تكون مشاعر احترام بالضرورة، ولكنها مشاعر تقوى وفضيلة. لماذا يكون هذا مستحيلاً؟ لقد قال المتهم أثناء التحقيق: «لا بد أن تكون أمي قد تشفعت لي في تلك اللحظة». فالمتهم قد هرب إذاً منذ أدرك أن سفيتلوفا ليست في صحبة أبيه. فإن ردّت النيابة على هذا قائلة: «ما كان المتهم ليستطيع أن يدرك ذلك حين ينظر من النافذة»، قلت لم لا؟ لقد فُتحت النافذة بعد أن قرع المتهم النافذة بالإشارات المتفق عليها. ومن الجائز أن يكون فيدور بافلوفتش قد أفلتت منه في تلك اللحظة كلمات أو صرخات استنتج منها المتهم أن سفيتلوفا ليست في المنزل. لماذا هذا الإصرار على تأويل الوقائع تأويلاً يتفق وما تخيلته النيابة أو ما جهدت أن تتخيله؟ إن الواقع يشتمل في كثير من الأحيان على احتمالات لا حصر لها، احتمالات تغيب عن أدق الروائيين ملاحظة وأنفذهم رؤية. رُبَّ معترض يقول: «طيب، ولكن هذا لا ينفي أن جريجوري قد رأى الباب مفتوحاً، وهذا دليل على أن المتهم قد دخل المنزل، وعلى أنه إذاً قد قتل». ها نحن أولاء وصلنا إلى حكاية الباب هذه، يا سادتي المحلّفين. تعلمون يا سادتي المحلّفين أن هناك شخصاً واحداً يَزْعَمُ أنه رأى الباب مفتوحاً، وهذا الشاهد الوحيد كان عندئذ في حالة خاصة، كان في حالة... ولكن لا داعي إلى الإلحاح... لنسلّم جدلاً، إذاً كنتم تحرصون على ذلك، بأن الباب كان مفتوحاً، وبأن المتهم قد كذب في هذه النقطة أثناء التحقيق، يدفعه إلى الكذب حرصه على الدفاع عن نفسه، وهو أمر مفهوم في مثل وضعه. لنسلم جدلاً بأنه دخل البيت، نعم، لنسلّم جدلاً بذلك.

فهل يترتب على هذا بالضرورة أنه قتل؟ إن من الممكن أن يكون قد اقتحم البيت، وطاف بالغرف راكضاً، ودفع أباه بل وربما ضربه أيضاً. فلمّا ثبت له بعد ذلك أن سفيتلوفا ليست في الدار ولّى هارباً وهو يشعر بسعادة لأنه لم يجدها ولأنه انصرف دون أن يقتل أباه. ولئن قفز إلى الحديقة بعد ذلك بدقائق فمال على جريجوري الذي صرعه في لحظة غضب شديد، فإنه لم يفعل ذلك إلا لأنه كان قادراً على أن يشعر بعواطف شفقة ورحمة بسبب أنه انتصر على إغراء قتل أبيه، فكان قلبه يفيض فرحاً وصفاء وبراءة. إن وكيل النيابة قد وصف لنا، ببلاغة مظلمة قاتمة، الحالة النفسية التي لا بد أنها كانت حالة المتهم في موكرويه، حين أدرك أن السعادة والحب يعرضان له، ويناديانه إلى حياة جديدة بينما كان محظوراً عليه أن يحب، لأنه خلّف وراءه جثة أبيه الدامية، ولأنه كان يرى أمامه العقاب الذي لا مناص منه. ولكن وكيل النيابة قد سلّم مع ذلك بأن الحب قد تكلم في قلب المتهم، ثم راح يفسر لنا ذلك على طريقته الخاصة معتمداً على تحليلات سيكولوجية، فقال: «هذه حالة تشبه السكر، هذه حالة تشبه حالة مجرم يقاد إلى ساحة الإعدام، فيحدث نفسه قائلاً إن الطريق ما يزال طويلاً، الخ». ولكنني أتوجه إلى السيد وكيل النيابة مرة أخرى بهذا السؤال: ألم تخلق هنا شخصية روائية من صنع الخيال؟ هل طبيعة المتهم فعلاً طبيعةٌ تبلغ من قلة الإحساس وشدة الاستخفاف والاستهتار أنه يستطيع، بعد أن سفك دم أبيه، أن يفكر في الحب وأن يبني خططاً ماكرة للدفاع عن نفسه؟ كلا ثم كلا! إني لأحلف بأغلظ الأيمان على أن المتهم، حين اكتشف أن هذه المرأة تحبه، وحين رآها تناديه إلى حياة جديدة وهانئة، كان لا بد أن يشعر برغبة في الانتحار لا تغالب ولا تقاوم، وكان سينتحر حتماً، لو أن ضميره كان مثقلاً بوزر قتل أبيه حقاً! وما كان لينسى عندئذ أين وضع مسدسيه! إنني أعرف المتهم: إن ما ينسبه إليه جانب الاتهام من قسوة القلب وقلة الإحساس يناقض طبيعته. لو كان المتهم آثماً لانتحر حتماً، هذا محقق! وإذا كان لم ينتحر فلأن «أمه قد تشفّعت له، فلم يسفح دم أبيه، وإذ ظل يتعذب طوال تلك الليلة في موكرويه، وإذ ظل يلوم نفسه ويؤاخذها، فإن ذلك لم يكن إلا بسبب جريجوري الذي كان المتهم قد صرعه، فكان المتهم لا ينفك يسأل الله صامتاً أن يعود ذلك العجوز إلى الحياة، وأن لا تكون ضربة المدق قد قضت عليه، وأن ينجو هو نفسه من العقاب. لماذا نرفض تأويل الوقائع على هذا النحو؟ ما الذي يبرهن لنا على أن المتهم يكذب؟ رُبَّ سائل يسأل: «وجثة الأب؟ إذاً كان المتهم قد هرب من دون أن يقتل فمن ذا الذي قتل إذاً فيدور بافلوفتش؟»..

أعود فأقول: إن كل المنطق الذي يستند إليه الاتهام هو هذا. من ذا الذي قتل، إذاً لم يكن المتهم هو القاتل؟... يُقال لنا: إنه من المستحيل علينا أن نعثر على قاتل آخر. فهل هذا صحيح يا سادتي المحلّفين؟ لقد سمعنا وكيل النيابة يحصي جميع من كانوا في المنزل ليلة وقوع الجريمة. إنهم خمسة أشخاص، منهم ثلاثة يجب استبعادهم من القضية فوراً: المجني عليه، وجريجوري، وامرأته. لم يبق إذاً إلا اثنان يمكن اتهامهما بارتكاب جريمة القتل هما المتهم وسمردياكوف. وقد صاح السيد وكيل النيابة يقول بلهجة مؤثرة: لئن عمد المتهم إلى تسمية سمردياكوف قاتلاً، فلأنه لم يجد أحداً غير سمردياكوف يستطيع أن يشي به، فلو كان هنا شخص سادس بل طيف شخص سادس يمكن اتهامه بالقتل، إذاً لأسرع يترك اتهامه السمردياكوف محمرّ الوجه خجلاً بدافع الخجل، ولمضي يتهم ذلك الشخص السادس على الفور. ولكن ما الذي يمنعني يا سادتي المحلّفين من أن أقلب هذا الدليل؟ هناك شخصان لا ثالث لهما: المتهم وسمردياكوف. أفلا يجوز لي أن أؤكد أنكم لا تتهمون موكلي إلا لأنكم لا تجدون شخصاً آخر توجهون إليه التهمة؟ ولكن لئن تجدوا شخصاً آخر توجهون إليه الاتهام فما ذلك إلا لأنكم قد تحيّزتم لسمردياكوف منذ البداية دفعةً واحدةً، فاستبعدتم كل شبهة حوله، ورفضتم كل شك فيه.

صحيح أن أحداً لم يسمّ سمردياكوف قاتلاً، إلا المتهم وأخويه وسفيتلوفا. غير أن هناك شيئاً آخر يحمل على الاشتباه فيه. إن شائعات غامضة تجري عنه، إن أسئلة وشبهات تساور الأنفس وتستحيل إلى توقع عام وانتظار شامل. ثم إن هناك وقائع تشهد عليه رغم غموض دلالتها: من ذلك أولاً نوبة الصرع تلك التي وافته في يوم وقوع الكارثة نفسه، بحيث رأى السيد وكيل النيابة أن من واجبه - لا أدري لماذا - أن يهتم اهتماماً كبيراً بالإلحاح على أنها نوبة طبيعية يمكن تعليلها. ومن ذلك ثانياً انتحار سمردياكوف عشية انعقاد جلسة المحاكمة انتحاراً لم يكن يتوقعه أحد. ومن ذلك أيضاً هذه الشهادة التي لم يكن يتوقعها أحد أيضاً، أعني شهادة أخ المتهم، إيفان فيدوروفتش، الذي ظل إلى ذلك الحين مقتنعاً بأن أخاه هو القاتل، فإذا هو يجيء اليوم إلى المحكمة حاملاً المال المسروق قائلاً إن سمردياكوف هو

القاتل! صحيح أنني أشاطر المحكمة والنيابة العامة رأيها في حالة الشاهد النفسية. فأنا مقتنع اقتناعاً تاماً بأن إيفان كارامازوف مريض، وأنه مصاب بنوبة حمّى عصبية، وأن أقواله قد تكون محاولة يائسة تصورها وهو في حالة هذيان في سبيل أن ينقذ أخاه بإلقاء الجريمة على عاتق رجل مات. ولكن هذا لا ينفي أن اسم سمردياكوف قد ذُكر في هذه المناسبة مرة جديدة، مع كل ما يرتبط بذكر اسمه هذا من أمور توشك أن تكون ألغازاً، فكأن هناك، يا سادتي المحلّفين، أشياء لم تُذكر إلى آخرها بخصوص هذا الرجل، وكأن الملاحظات التي قيلت في حقه لم تكتمل بعد، ولعلها تكتمل في ما بعد. ولكن ما ينبغي أن نستبق الأمور. لقد قررت المحكمة منذ قليل متابعة المناقشات، ففي وسعي، ما دمنا الآن في انتظار ذلك، أن أبسط لكم بضع ملاحظات تتعلق بخصائص المرحوم سمردياكوف التي صوّرها لنا وكيل النيابة بكثير من البراعة والرهافة والموهبة. إنني على إعجابي بما أظهره السيد وكيل النيابة من فن في رسم تلك اللوحة النفسية، لا أستطيع أن أشاطره رأيه في هذا الرجل مشاطرة تامة. لقد ذهبت إلى سمردياكوف، رأيته وتحدثت معه، فترك في نفسي صورة تختلف عن الصورة التي رسمها لنا السيد وكيل النيابة. صحيح أن صحته كانت ضعيفة ولكن طبيعته ليست ضعيفة كما وصفها لنا الادعاء. إنني لم أجد فيه أثراً من ذلك الرجل الهلوع الذي تكلم عنه السيد وكيل النيابة بإلحاح شديد. أما بساطة القلب وسذاجة الطبع فلا وجود لهما عنده البتة. بالعكس: لقد لاحظت فيه حذراً رهيباً ودهاءً خبيثاً، وإن تدثر هذا الحذر وهذا الدهاء بمظاهر سذاجة مصنوعة، كما لاحظت فيه ذكاءً قادراً على أن يفهم أموراً كثيرة. في رأيي إن السيد وكيل النيابة قد تسرّع قليلاً حين ظن أن هذا الرجل ضعيف العقل. لقد خلف سمردياكوف في نفسي شعوراً واضحاً كل الوضوح: تركته مقتنعاً بأنه إنسان تفيض نفسه شراً وخبثاً، وحقداً وحسداً، وغرورة ومية إلى الانتقام. لقد جمعت بعض المعلومات عنه: كان يكره أصله، ويحمرّ خجلاً منه، ويكز أسنانه غضباً حين يذّكر أنه ابن امرأة «نتنة». وكان يسيء معاملة الخادم جريجوري وامرأته اللذين أحسنا إليه وأنعما عليه في سني طفولته. وكان يكره روسيا ويلعنها ويسخر منها، وكان حلمه أنه يسافر إلى فرنسا وأن يصبح فرنسياً. وكثيراً ما كان يقول إنه يحتاج إلى مالٍ من أجل أن يرحل. وأعتقد أنه كان لا يحب إلا نفسه، وكان يقدر نفسه فوق قدرها كثيراً. كان يعد نفسه رجلاً مثقفاً لأنه يعنى بهندامه ويلبس قمصاناً نظيفة وينتعل حذاءين لامعين. وإذ كان يعد نفسه ابناً غير شرعي لفيدور بافلوفتش (ذلك أمر تثبته الوقائع أيضاً)، فمن الجائز أن الفرق بين وضعه ووضع ابناء مولاه الشرعيين قد أورثه حقداً: كان هؤلاء يتمتعون بجميع المزايا، وكان هو لا يتمتع بأية مزية. كانوا يملكون جميع الحقوق وكانوا يستطيعون أن يرثوا أباهم، أما هو فلم يكن إلا طباخاً. لقد أسرّ إلي أنه ساعد فيدور بافلوفتش في إيداع المال في الظرف. والهدف الذي نُذر له هذا المبلغ - وهو مبلغ كان يمكن أن يعينه في تحقيق أغراضه - لا بد أن يكون قد أثار في نفسه غيظاً شديداً. ثم إنه رأى ثلاثة آلاف روبل أوراقاً مالية زاهية الألوان (سألته عن هذا عامداً)، وأنتم تعلمون، يا سادتي، أنه ما ينبغي لنا أن نلألئ مبلغاً ضخماً أمام عيني إنسان حسود مغرور، وكانت تلك أول مرة يتاح له فيها أن يرى مالاً يبلغ هذا القدر من الضخامة في يدي شخص واحد. فلا بد أن يكون منظر تلك الكدسة الزاهية من الأوراق النقدية قد أحدثت في نفس هذا الرجل شعوراً مَرَضياً دون أن يترتب على ذلك شيء في بداية الأمر. إن السيد وكيل النيابة الذي نعجب بموهبته كل الإعجاب قد حلل برهافة عظيمة جميع الأدلة التي يمكن اللجوء إليها لتأييد أو دحض الافتراض القائل بأن سمردياكوف ربما كان هو القاتل، وقد ألحّ خاصةً على هذا السؤال: لأي سبب كان يمكن أن يصطنع سمردياكوف نوبة الصرع تظاهراً وكذباً؟ ولكن سمردياكوف لم يكن في حاجة إلى ذلك التظاهر، فمن الجائز أن تكون النوبة قد وافته طبيعيةً، ومن الجائز أن تكون قد زايلته على ذلك النحو نفسه أيضاً. ومن الجائز أن يكون المريض قد صحا من غيبوبته وثاب إلى وعيه. صحيح أنه لا يكون قد شفي عندئذ من مرضه، ولكن كان لا بد أن يعود إليه شعوره عاجلاً أو آجلاً، كما يحدث دائماً حين يُصاب المريض بنوبة من نوبات الصرع. إن الادعاء يسأل: في أي لحظة يمكن أن يكون سمردياكوف قد ارتكب جريمة القتل؟ الحق أن الجواب عن هذا السؤال يسير جداً، فما أسهل أن تعيّن تلك اللحظة. فمن الجائز أن يكون سمردياكوف قد ثاب إلى وعيه وصحا من نومه العميق (ذلك أنه كان نائماً فقط، فإن نوبات الصرع يعقبها دائماً نوم عميق)، في تلك اللحظة نفسها التي تشبث فيها العجوز جريجوري بساق المتهم (حين كان هذا يحاول أن يهرب من فوق السياج) فصرخ يقول معولاً بصوت حاد ملءَ حنجرته: «يا قاتل أبيه!». فمن الجائز أن تكون هذه الصرخة الخارقة التي دوّت في صمت الليل المظلم قد أيقظت سمردياكوف من نومه فلما نهض اتجه على غير شعور منه، وبدون أية نية معينة، إلى الجهة التي جاءت منها الصرخة وكانت أفكاره ما تزال مبهمة، وكان خياله ما يزال وسنان. ولكن ها هو ذا يصل إلى الحديقة، وها هو ذا يقترب من النافذة المضاءة، فإذا هو يعلم بالنبأ الرهيب من فم مولاه نفسه، الذي اغتبط لرؤيته طبعاً، وإذا بفكرة الجريمة تنبت في رأسه فجأة. لقد أطلعه مولاه المذعور على ما جرى. وها هي ذي الفكرة التي نبتت في رأسه المريض المشوش تظهر إلى النور واضحة المعالم بينة الحدود. إنها فكرة رهيبة ولكنها مغرية يؤيدها منطق لا يرحم: وهي أن يقتل العجوز ويستولي على الثلاثة آلاف روبل، ثم يلقي الجريمة بعد ذلك على عاتق ابن القتيل! من ذا الذي يمكن أن يُشتبه فيه الآن، من ذا الذي يمكن أن يُتّهم، غير هذا الابن الذي تشهد عليه قرائن قوية وتدينه أدلة دامغة؟ ألم يكن هذا الابن موجوداً هنا منذ لحظات؟ من الجائز إذاً أن تكون قد استبدَّت بسمردياكوف عندئذ شراهة رهيبة إلى السطو على المال، وظمأ شديد إلى الاستيلاء على الغنيمة، مع الشعور بأنه لن يناله عقاب. ألا إننا لنعرفها، هذه الاندفاعات المفاجئة القاهرة التي تشبّ فجأة في نفوس قتلة كانوا قبل دقيقة واحدة في معظم الأحيان لا يخطر ببالهم ولا يدور في خلدهم أنهم سيقتلون. من الجائز إذاً أن يكون سمردياكوف قد دخل إلى غرفة مولاه، ونفّذ خطته. فإذا سألتموني ما هو السلاح الذي استعمله في القتل، قلت إنه من الجائز أن يكون قد استعمل أول حجر عثر عليه في الحديقة، واذا سألتموني ما هو الهدف الذي قتل من أجله قلت إنه تلك الثلاثة آلاف روبل التي يمكنها أن تؤمن مستقبله! لا، لا، إنني لا أناقض نفسي: فمن الجائز أن يكون المال موجوداً. ومن يدري؟ لعل سمردياكوف هو الشخص الوحيد الذي كان يعرف المخبأ الذي أخفى فيه مولاه المال. رُبَّ معترض يقول: «والظرف؟ الظرف الممزق الملقي على أرض الغرفة؟ فأجيب قائلاً: إن السيد وكيل النيابة قد أورد في موضوع هذا الظرف نفسه فكرةً تبلغ غاية الدقة والرهافة، وهي أن هذا الظرف لا يمكن أن يتركه على أرض الغرفة إلا لصّ يقوم بفعل السرقة عرضاً، وليس له خبرة سابقة أي لا يمكن أن يتركه إلا لص مثل كارامازوف، أما رجل مثل سمردياكوف فما كان له بحال من الأحوال أن يرتكب مثل هذه الغفلة فينسى على أرض الغرفة شيئاً سيكون قرينة قاطعة ودليلاً دامغاً على أنه هو الفاعل. سادتي المحلّفين، حين سمعت السيد وكيل النيابة يبدي هذه الملاحظة الدقيقة المرهفة أحسست أنني أسمع صوت جرس معروف عندي مألوف لي. تصوروا أن هذه الفكرة عن السلوك الذي يمكن أن يسلكه كارامازوف في ما يتصل بهذا الظرف، تصوروا أن هذه الفكرة قد عرضها لي، منذ يومين، شخص ليس إلا سمردياكوف نفسه. وعدا ذلك، فإن وضعه في تلك اللحظة قد خطف انتباهي، فشعرت شعوراً واضحاً بأن سذاجته متصنّعة كاذبة، وأنه إنما كان في حقيقة الأمر يسبقني فيوحي إليّ بهذه الفكرة بغية أن تتجسّد في نفسي بعد ذلك، فاستخرج منها النتائج التي يريد أن يبثها بهذه الطريقة في ذهني. أفلا يمكن أن يكون سمردياكوف قد لقّن قاضي التحقيق هذه الفكرة أيضاً؟ أفلا يمكن أن يكون قد أنبتها عمداً في فكر السيد وكيل النيابة الذي يمتاز بمواهب عظيمة؟ رب قائل يقول: ولكن العجوز زوجة جريجوري قد ظلت تُسمع أنين سمردياكوف على مسافة ثلاث خطوات من سريرها طوال الليل! لست أنكر أنها سمعت أنينه، ولكن هذه الحجة من أوهي الحجج. عرفتُ سيدة شكت يوماً بكثير من المرارة من أن كلباً ظل ينبح طوال الليل فحرمها من النوم، وأكدت هذه السيدة أن جفنها لم يغمض. وقد تبين مع ذلك أن الكلب المسكين لم ينبح في الواقع إلا مرتين أو ثلاث مرات متباعدة جداً. إن أمثال هذه الأخطاء طبيعية: هذا إنسان نائم يسمع أنيناً فيصحو حانقاً لأنه أُوقِظَ من نومه، ثم ما يلبث أن يعود ينام فوراً، وتنقضي على ذلك ساعتان أو ثلاث ساعات، فإذا بأنين جديد ينطلق، فيستيقظ الرجل ثم يعود ينام كما في المرة السابقة، وبعد عدة ساعات أخرى يوقظه أنين ثالث، فتكون مرات الأنين خلال الليلة كلها ثلاثاً لا أكثر. ولكن صاحبنا، حين يستيقظ في الصباح، سيشكو من أن أنيناً متصلاً غير منقطع قد حرمه من النوم طوال الليل. ولا بد أن يحسّ هذا الإحساس حتماً، لأنه لن يتذكر فترات الساعتين أو الثلاث ساعات التي كان أثناءها نائماً، ولن يحتفظ إلا بذكرى تلك الاستيقاظات المتكررة. لذلك سيتخيل أنه أوقظ إيقاظاً متصلاً غير منقطع. وقد هتف السيد وكيل النيابة سائلاً: «ولكن لماذا لم يعترف سمردياكوف بجريمته في الكلمة التي كتبها قبل موته؟ أيكون عنده من الضمير ما يكفي لحمله على الانتحار، ثم لا يكون عنده من الضمير ما يكفي لحمله على الاعتراف؟» هنا أستوقفكم لأقول: إن الضمير يتضمن الندم. ولعل سمردياكوف لم يكن يشعر بأي ندم حين انتحر، ولعله لم يختر هذا النموذج إلا يأساً وقنوطاً. إن الندم واليأس شيئآن اثنان يختلف أحدهما عن الآخر كل الاختلاف. فاليأس قد يكون زاخراً بكره وحقد لم يشف غليلهما، وحين ينتحر سمردياكوف فإنه يستطيع أن يكره مزيداً من الكره أولئك الذين ظل يحسدهم طوال حياته. سادتي المحلّفين، إياكم والخطأ القضائي! هل في هذا التأويل الذي أضعه بين أيديكم شيء يخالف العقل ويجافي الاحتمال؟ دلّوني على خطأ واحد في ما عرضته لكم، دلوني على استحالة واحدة، أو بطلان واحد! ولكن إذا كان هذا الافتراض الذي بسطته لكم يشتمل ولو على ظل احتمال، ولو على ظل إمكان أو جواز، كان عليكم أن تمتنعوا عن إصدار حكم يدين المتهم. فما بالكم وفيما قلته لكم أكثر من ظل حقيقة! ألا إنني لأحلف لكم بكل ما أقدسه في هذا العالم على أنني، من جهتي، مقتنع اقتناعاً عميقاً بصدق تأويل الوقائع على النحو الذي وصفت. وإني لأشعر باضطراب شديد وقلق عظيم يخرجاني عن طوري حين تراودني هذه الفكرة التي تلاحقني وتطاردني بغير انقطاع، وهي أنه ليس بين مجموعة القرائن الكثيرة التي جمعها الادعاء قرينةٌ واحدة يمكن أن تعدّ واضحة، ويمكن أن تصمد للتفنيد والدحض. إن اجتماع هذه القرائن بعضها إلى بعض هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يكون سبباً في هلاك إنسان شقيّ. أنا أعلم أن اجتماع هذه القرائن رهيب: ذلك الدم السائل من يدي المتهم، ذلك القميص الملوث بالدم، تلك الصرخة التي دوّت في ظلام الليل قائلة: «يا قاتل أبيه!»، وسقوط الرجل الذي أطلق تلك الصرخة، سقوطه على الفور مهشّم الجمجمة، ثم جميع تلك الشهادات والأقوال، وجميع تلك الحركات والصيحات... آه... إن ذلك كله يمكن أن يؤثر في الفكر وأن يولد اقتناعاً خطأً... ولكن لا في عقولكم أنتم يا سادتي المحلّفين، لا في عقولكم أنتم، فما أنتم بمن يمكن تضليلهم على هذا النحو. تذكروا أنكم تملكون سلطةً لا حدود

لها، وأنكم قد أعطيتم حق العقد والحل. وعلى قدر السلطة إنما تكون المسؤولية ! إنني لا أتراجع عن حرف واحدٍ مما قلته، ولكن فلنسلم جدلاً، خلال دقيقة، بالرأي الذي يذهب إليه الادعاء حين يَزْعَمُ أن موكلي قد غمس يديه بدم أبيه. أكرر أن هذا افتراض، ذلك أنني لا أشك لحظة واحدة في براءة موكلي. ولكنني أتنازل هذا التنازل، فأسلِّم جدلاً بأن المتهم قد ارتكب جريمة قتل الأب، ألا فاسمعوا إذاً ما أحبّ أن أقوله لكم حين أسلّم جدلاً بهذا الافتراض. إنني أحرص على أن معركة تنشب الآن في هذه النقطة، إنني أحس وأقدر أن معركة تنشب الآن في نفوسكم وعقولكم... سادتي المحلّفين، اغفروا لي هذا الدخول الذي لا حقّ لي فيه، إلى مشاعركم الصميمة. فقد آليت على نفسي لابقينّ مخلصاً وصادقاً إلى النهاية. نعم، يا سادتي المحلّفين، لنكن جميعاً مخلصين صادقين !...

هنا قطع مرافعة الدفاع تصفيق متصل. ذلك أن المحامي قد نطق هذه الكلمات الأخيرة بلهجة فيها من الصدق ما جعل جميع الناس يشعرون بأنه ربما كان عنده ما يقوله حقاً، وأن ما سيعبّر عنه الآن هو جوهر القضية فعلاً. ولكن رئيس المحكمة ما إن سمع التصفيق حتى علا صوته مهدداً «بإخلاء القاعة» إذاً تكرر شيء من هذا مرة أخرى!». فعاد الجميع إلى الصمت، واستأنف فيتوكفتش مرافعته بصوت تغيرت نبرته على حين فجأة وأصبح نافذاً يختلف اختلاف التعارض والتناقض عن اللهجة التي تحدث بها حتى ذلك الحين.

-13- الزاني بالفكرة

ليس اجتماع الوقائع وحده هو الظرف المشؤوم الذي يدين موكلي. لا يا سادتي المحلّفين، وإنما تدينه في الواقع جثة أبيه! فلو كانت جريمة القتل هذه جريمة عادية، لترددتم كثيراً أمام هذه الوقائع التي تفقد قيمتها وتصبح غير معقولة ولا محتملة متى مُحّصت كل واحدة منها على حدة بدلاً من النظر اليها في مجموعها، ولتراجعتم أمام ضعف وافتقاد الأدلّة والبراهين ولدحضتم الاتهام دفعة واحدة، أو لرفضتم على الأقل أن تدمّروا مصير إنسان بسبب ما قام في الأذهان من رأي سيئ فيه، وهو رأي يستحقه في الحقيقة وأسفاه! ولكن الجريمة ليست جريمة عادية، وإنما هي جريمة قتل ابن لأبيه؛ فهذا الظرف يؤثر في النفوس والعقول غير المتحيزة تأثيراً يبلغ من القوة أنه يضفي على أتفه الأدلة وأوهن القرائن خطورة خارقة، فالضمائر لا يقلقها عندئذٍ غياب البرهان القاطع على أن المتهم هو الجاني. هل يخطر ببال أحد أن يبرّئ مجرماً من هذا النوع؟ أن الفكر يرفض أن يسلم بأن هذا المتهم يمكن أن يُبرّأ، كيف يرتكب جريمةً كهذه الجريمة ثم يخرج منها سليماً؟ تلك فكرة تثير النفوس. هذا ما يحسه كل إنسان في قرارة نفسه، على غير إرادة منه تقريباً. نعم، إنه لشيء رهيب أن نسفك دم أب، دم إنسان وهب لنا الحياة وأحاطنا بحبه، دم رجل لم يدخر في سبيلنا وسعاً، وكان في طفولتنا يتألم إذا مرضنا، ولم يفكر طوال حياته إلا في سعادتنا، ولم يغتذ طوال حياته إلا بما نشعر به من أفراح وما نصيبه من نجاح! أن يقتل امرؤ أباً كهذا الأب، فذلك يا سادتي شيء لا يتصوره العقل، ولعل الخيال يرفض أن يصدق وقوع جريمة كهذه الجريمة. ما الأب يا سادتي المحلّفين؟ ما الأب الحق؟ ماذا تحمل هذه الكلمة من معنى عظيم يهز قلوبنا، ماهي الدلالة الهائلة التي تختفي في اسم الأب؟ لقد وصفنا منذ هنيهة، ولو وصفاً ضعيفاً ما يمكن وما يجب أن يكونه أب حقيقي، ما كان فيدور بافلوفتش كارامازوف وهو الضحيّة في هذه القضية التي تشغلنا وتدمي قلوبنا ينطبق عليه هذا المثل الأعلى الذي رسخ في أعماق نفوسنا عن الأبوة. ذلك شقاء. إن بين الآباء من هم كارثة. فلننظر في هذه المسألة من قرب، لأننا يجب أن لا نخشى شيئاً وأن لا نتراجع أمام شيء، يا سادتي المحلّفين، فإن القرار الذي ينتظره الناس منكم قرار بالغ الخطورة. يجب علينا أن لا نهاب مجابهة الواقع وجهاً لوجه، ويجب علينا أن لا نطرد بحركة من يدنا بعض الرؤى المؤلمة، كما يفعل الأطفال أو كما تفعل نساء ضعيفات على حد التعبير الموفق الجميل الذي استعمله رجل القضاء اللامع الذي استمعتم إلى خطابه منذ قليل. على أن خصمي المحترم (ولقد كان خصماً لي حتى قبل أن أنطق بكلمة واحدة) قد هتف عدة مرات يقول إنه لن يترك لأحد عبء الدفاع عن المتهم، وإنه لن يتكل في أمر الدفاع عنه على المحامي الوافد من سان بطرسبرج، وإنه سينهض بمهمتَيْ المدعي والمدافع في آن واحد. لقد نادي بذلك عدة مرات. ولكنه نسي أن يذكر أن هذا المتهم المقيت قد استطاع أن يحتفظ خلال ثلاثة وعشرين عاماً بعاطفة الشكر وشعور الامتنان بسبب رطل من بندق أهداه إليه رجل كان هو الإنسان الوحيد الذي دلله في منزل أبيه. وفي مقابل ذلك لم يكن في وسع المتهم خلال هذه الأعوام الثلاثة والعشرين أن ينسى أنه اضطر أن يركض أثناء طفولته حافي القدمين «في الفناء الخلفي من المنزل، مرتدياً سروالاً لا يمسكه إلا زر واحد»، كما ذكر لكم الدكتور هرتسنشتوبه الطبيب الشهم الرحيم. إني لأسألكم يا سادتي المحلّفين هل من اللازم حقاً أن نتوقف طويلاً عند الكلام عن هذه «الكارثة» الأبويّة، وأن نلحّ على أمور يعرفها جميع الناس؟ أيّ استقبال لقيه موكلي حين جاء إلى هذه المدينة ليزور أباه؟ لماذا، نعم لماذا هذا الإصرار العنيد على تصوير موكلي في صورة رجل عديم الإحساس، أناني الطبع، شاذ الخلقة؟ هو عنيف مندفع، هو متوحش صخّاب، وبسبب هذا إنما نحكم عليه اليوم. ولكن من المسؤول عن مصيره، وعلى من يقع الذنب إذا هو رُبّي تربيةً يؤسف لها رغم حسن استعداده ونبل نفسه ورقة قلبه؟ هل تولى أحد في يوم من الأيام أن ينير فكره وأن يثقف عقله، بأن يكشف له عن جمال العلم؟ هل مال عليه أحد في حب وحنان أثناء سني طفولته؟ لقد شبّ موكلي في رعاية الله وحده، شبّ كحيوان متوحش. لعله كان ظامئاً إلى أن يرى أباه من جديد بعد فراق طال تلك المدة كلها، ولا بد أنه طرد من خياله مائة مرة قبل ذلك، الأشباح المقيتة التي ملأت أيام طفولته والتي كان كمن يراها أثناء تلك المدة من خلال حلم ثقيل، أقول لا بد أنه طرد تلك الأشباح مائة مرة في سبيل أن يغفر لأبيه بكل نفسه ويحتضن أباه بذراعيه. ولكن ما الذي حدث؟ حدث أن تلقاه بالسخريات المستهترة والتهكّم عجوزٌ شكاك ريّاب، يجادله في مال الميراث. ولا بد أن الشاب قد شهد كل يوم محادثات كان المتوفي يعرض فيها فلسفته في الحياة وهي فلسفة تثير في نفسه التقزز وكان العجوز يبسطها وهو يشرب أقداحاً من الكونياك. وزاد الطين بلّة في آخر الأمر أن رأى أباه يحاول أن يسلبه حبيبته، وهو ابنه، مستعملاً في ذلك مالاً يعده الابن ماله. آه، يا سادتي المحلّفين، ذلك كله رهيب قاسٍ إلى أبعد الحدود. وكان العجوز فوق ذلك هو الذي يجرؤ أن يشكو لجميع الناس أن ابنه خالٍ من الاحترام والعاطفة نحوه، وكان لا يتردد عن التشهير به في المجتمع، والإساءة إليه بالنمائم والوشايات، وشراء سندات ديونه لايداعه بالسجن! سادتي المحلّفين، إن الرجال الذين هم من طينة موكلي، إن هؤلاء الرجال الذين يدُلُّ ظاهرهم على العنف والقسوة والاندفاع، يملكون في أكثر الأحيان قلباً رقيقاً إلى أبعد حدود الرقة، ولكنهم لا يظهرون ذلك. لا تسخروا من هذا الشرح الذي أقدمه اليكم عن طبعه وخلقه! إن السيد وكيل النيابة الذي أُعجب بموهبته الخطابية قد تهكم منذ قليل بغير شفقة ولا رحمة على المتهم وعلى ميله إلى شيللر وحبه للأمور «الرفيعة». ولو كنت في مكان السيد وكيل النيابة لامتنعت عن الاستهزاء بما يجيش في نفس المتهم من صبوات عليا وأشواق سامية. إن النفوس التي من هذا النوع - واسمحوا لي ياسادتي أن أدافع عن أمثال هذه النفوس التي ما أكثر ما يجهلها الناس وينتقدونها ظلماً بغير حق ! - أقول إن النفوس التي من هذا النوع كثيراً ما تكون ظمأى إلى الحنان والجمال والعدالة، كأنما تبحث بذلك عن نقيض عنفها وقسوتها. قد تكون هذه الصبوات وهذه الأشواق لاشعورية، ولكنها مع ذلك عارمة قوية. إن هؤلاء الأشخاص الذين يدل ظاهرهم على جموح الهوى وقسوة القلب، قادرون على الحب إلى درجة الألم، قادرون على أن يحبوا امرأةً حباً روحياً سامياً إلى أقصى حدود الروحية والسمو. لا، لا، لا تضحكوا يا سادتي! فذلك ما يحدث، دائماً على وجه التقريب، لدى الطبائع التي تشبه طبيعة هذا الرجل، والبلاء كله في هذه الطبائع أنها لا تعرف كيف تكبح اندفاعاتها الجامحة التي تكون فيها بعض الأحيان عنيفة فظة، وما يخطف بصر الناس فيها هو ما يلاحظ من ظاهر سلوكها، أما حياتها النفسية الداخلية فتبقى خافية عن الأبصار لا يراها أحد. ومع ذلك فإن أهواءها العنيفة تهدأ بسرعة، فإذا بالرجل الذي كان يُظَنّ أنه عديم الاحساس، وأنه فظ غليظ، إذاً هو يحاول أن يجدد نفسه قرب إنسان نبيل طاهر متمنياً إصلاح حاله بالاتصال به، أملاً أن يصبح إنسانا أفضل وأكثر شرفاً وسمواً وطيباً هو أيضاً. «الجمال والسُّمُوّ»... آه... فيمَ الاستهزاء بهاتين الكلمتين؟ لقد أعلنت منذ بضع لحظات أنني لن أجيز لنفسي أن أتحدث هنا عن قصة المتهم مع السيدة فرخوفتسيفا. ولكن يجب أن يباح لي مع ذلك أن أشير إلى هذه القصة إشارة سريعة مقتضبة. إن ما سمعناه في هذه القاعة لم يكن شهادة شاهد، بل كان صرخة انتقام من امرأة استعر حنقها وجُنّ جنونها! لا، ما هي التي كان يحق لها أن تتهم موكلي بالخيانة، لأنها هي التي خانته في الواقع ! ولو قد اتسع وقتها للتفكير قليلاً، إذاً لما قالت تلك الأقوال ولما أدلت بتلك الشهادة. لا تصدقوها يا سادتي. ليس موكلي بالرجل الذي وصفته فرخوفتسيفا بأنه «شيطان رجيم». إن المصلوب الذي كان يحب بني الإنسان قد هتف يقول وهو يصعد التل الذي نصب عليه الصليب: «أنا الراعي الصالح الذي يبذل حياته في سبيل خرافه. فلن يهلك واحد من الخراف» [253] ألا فلنحاذر نحن أيضاً أن نهلك نفساً إنسانية! لقد سألت منذ هنيهة: ما الأب؟ وهتفت أقول: هذه كلمة كبيرة، هذه تسمية تهز النفس وتؤثر في القلب إلى غير حد. ولكن يحسن بالمرء أن يكون صادقاً أميناً في ما يقول يا سادتي المحلّفين، ولهذا سأسمح لنفسي أن أسمي الأشياء بأسمائها فأقول: إن رجلاً مثل العجوز كارامازوف لم يكن له حق في أن يسمى أباً، لأنه غير جدير بهذا الاسم. إن حب الابن أباه يصبح سخفاً باطلاً بين لا يسوّغه خُلُق الأب. إن مثل هذا الحب لا يمكن أن يقبله العقل. ما كان للحب أن يقوم على العدم، لأن الله وحده يستطيع أن يخلق من عدم. إن الرسول بولس الذي كان قلبه يتأجج حباً قد كتب يقول: «وأنتم أيها الآباء لا تغيظو أولادكم» [254] . إنني أبيح لنفسي أن أستشهد بهذه الآيات المقدسة لا لأنني أفكر في موكلي فحسب، وإنما أنا أستشهد بها متجهاً إلى جميع الآباء. مَنْ الذي وهب لي حق أن أعظّمهم بما يقع على عاتقهم من واجب؟ لا أحد! ولكنني أقول أناديهم بصفتي إنساناً ومواطناً! إن إقامتنا على هذه الأرض قصيرة، ونحن نقوم على هذه الأرض بكثير من الأعمال الشريرة، وننطق بكثير من الأقوال المؤسفة. فيحسن بنا لهذا السبب أن ننتهز دقيقة كهذه الدقيقة التي تجمعنا في مكان واحد، ليقول بعضنا لبعض بضع كلمات خيّرة طيبة. وذلك ما أفعله الآن: إنني أتحين الفرصة لأخاطبكم جميعاً. ليس عبثاً أن السلطة العليا قد وهبت لنا هذا المنبر: إن الكلمات التي ننطق بها هنا تسمعها روسيا كلها. فإلى جميع الآباء إنما أتجه إذاً بالكلام، لا إلى الآباء الحاضرين في هذه القاعة فحسب، فأهتف قائلاً: «وأنتم أيها الآباء، لا تغيظوا أولادكم!»، فأهتف يجب علينا أن نطبق نحن أولاً تعاليم المسيح، وبعد ذلك إنما يحق لنا أن نطالب أبناءنا بتطبيقها. فإذا لم نفعل ذلك لم نكن آباء أبنائنا بل كنا أعداءهم، وسيصبحون أعداءنا هم أيضاً، سيصبحون أعداءنا بسبب خطئنا نحن. «بالكيل الذي به تكيلون يُكال لكم» [255] . لست أنا من يقول هذا الكلام، وإنما يقوله الإنجيل: كيلوا بالكيل الذي يكال به لكم. فكيف نأخذ على أبنائنا أن يكيلوا لنا بالكيل الذي نكيل لهم به؟ لقد وقع في فنلندة، في الآونة الأخيرة، أن اشتبه الناس في امرأة خادمة واعتقدوا أنها ولدت ولداً. فأخذوا يراقبونها فاكتشفوا في علية المنزل صندوقاً لها كانوا يجهلون وجوده، وقد أُخفي الصندوق في ركن من العلية وراء بعض القرميدات. فلما فتحوه وجدوا فيه جثة طفل وليد قتلته، ووجدوا في الصندوق أيضاً هيكلين عظميين لطفلين وليدين كانت قد ولدتهما من قبل فقتلتهما فور ولادتهما، وذلك ما اعترفت به هي نفسها. فهل نستطيع يا سادتي المحلّفين أن نسمي تلك المرأة أماً؟ صحيح أنها قد ولدت هؤلاء الأولاد، ولكن هل كانت أمهم حقاً؟ هل يجرؤ

أحد منا أن يسبغ عليها هذا اللقب المقدس، لقب الأم؟ ألا فلنتجمّل بشجاعة الفكر يا سادتي المحلّفين ! إلا فلنكن جسورين بل ومتهورين في هذا الأمر، لأن من واجبنا في هذه اللحظة أن لا نتهيب بعض الألفاظ وأن لا نخاف بعض الأفكار، وأن لا نكون شبيهين بزوجات التجار في موسكو اللواتي يؤمنّ بالخرافات، فيخشين كلمتي «معدن» و «كبريت»[256]. بالعكس: يجب أن نبرهن على أن التقدم الذي تحقق في هذه السنين قد شمل تطورنا الروحي الأخلاقي. يجب أن نعلن بغير تردد أنه ليس يكفي المرء أن ينسل نسلاً حتى يكون أباً، وإنما ينبغي له أن يستحق شرف هذا الاسم. أنا أعلم أن هناك رأياً مختلفاً عن هذا الرأي، أن هناك فهماً آخر لمعنى كلمة الأب، هو أن أبي يظل أبي ولو كان شيطاناً رجيماً و مجرماً عاتياً في حق أولاده، وذلك لمجرد أنه أوجدني. ولكن هذا التصور تصوّر غيبي إن صح التعبير، تصورٌ لا يستطيع أن يدركه العقل، ولا يمكن قبوله إلا على أنه عقيدة وإيمان، مثله كمثل كثير من الأمور التي لا يفهمها عقلنا ولكن الدين يأمرنا أن نؤمن بها. ومثل هذا التصور يبقى عندئذ في خارج الحياة الواقعية. أما في واقع الحياة الذي لا يشتمل على حقوق فحسب، بل يفرض علينا واجبات كبيرة أيضاً، فإنه ينبغي لنا، إذا أردنا أن نكون إنسانيين وإذا أردنا أن نتصرف تصرف مسيحيين، أن نقتصر على أفكار يؤيدها العقل وتدعمها التجربة، أفكار مرت ببوتقة التحليل المنطقي، أي ينبغي لنا أن نتصرف تصرف بشر عقلاء، لا تصرف أناس طاشت عقولهم فهم يغرقون في حلم أو هذيان وذلك حتى لا نلحق أذى بأخينا الإنسان وحتى لا نعذبه ولا نهلكه ظلماً بغير حق. ذلك هو الموقف المسيحي حقاً، الموقف الذي لا يكون عندئذ غيبياً فحسب، بل يكون في الوقت نفسه معقولاً مستوحى من حب صادق لأقراننا البشر...

هنا انطلقت الأكف بتصفيق حاد من جميع أرجاء القاعة، ولكن فيتوكفتش أوقف الحضور عن التصفيق بحركة من يده، كأنه يضرع إليهم أن لا يقاطعوه وأن يأذنوا له بإتمام كلامه. فسرعان ما ساد الصمت من جديد، وواصل الخطيب حديثه فقال:

- أتراكم تظنون يا سادتي المحلّفين أن المسائل التي من هذا النوع لا تطرح نفسها على فكر أبنائنا حين يبلغون سنّ المراهقة مثلاً، فيأخذون يفكرون ويبحثون ويناقشون؟ ألا إنكم إذن لواهمون. إن أبناءنا لا يمكن إلا أن يتساءلوا في هذه الحالة، وليس في وسعنا أن نحول بينهم وبين ذلك، وإلا كنا نطلب المستحيل. إن المراهق لا بد أن يطرح على نفسه اسئلة مؤلمة حين يرى أباه دنيئاً منحطاً، ولا سيما حين يقارن سلوك أبيه بسلوك آباء أولاد آخرين هم رفاقه، فيلاحظ ما بين السلوكين من تضاد وتناقض. قد يقال له عندئذ، على ما جرت به العادة المألوفة المبتذلة: «لقد وهب لك الحياة، وأنت من صلبه، فعليك أن تحبه». ولكن الفتى سيتساءل عندئذ على غير إرادة منه: «فهل كان يحبني حين وهب لي الحياة؟»، وسيزداد اندهاش الفتى أثناء تأملاته، وسيتابع تفكيره قائلاً لنفسه: «لا، إنه لم يهب لي الحياة حباً بي أنا، إنه لم يكن يعرفني، بل إنه كان يجهل أذكر أنا أم أنثى في لحظة الخلق تلك، في لحظات الهوى تلك التي لعل الخمرة هي التي كانت توقدها، فلم يورثني إلا حب الشراب والميل إلى السكر. تلك كانت كل نِعَمِهِ وآلائه عليّ... فلماذا يُراد مني أن أحبه لا لسبب غير أنه أبي، مع أنه لم يكترث بي بعد ذلك في يوم من الأيام؟». قد تجدون هذا التفكير فظاً قاسياً يا سادتي، ولكن لا تطلبوا من عقل فتى مراهق أكثر مما يطيق: «اطردوا الأمور الطبيعية من الباب ترجع إليكم من النافذة»[257] ولنحاذر خاصةً قبل كل شيء، أن يسيطر علينا الخوف من «المعدن» و«الكبريت»، ولنقض في الأمر بما توجبه قوانين العقل الإنسانية، لا بما تفرضه التصورات الغيبيّة. فما الذي نقرره عندئذ؟ إليكم الأمر: ليتقدم الابن إلى أبيه وليلقي عليه في أناة وروية هذا السؤال «قل لي يا أبي لماذا يجب عليّ أن أحبك؟»[258] فإذا كان الأب قادراً على أن يجيب عن هذا السؤال، وأن يبرهن على أن من واجب ابنه أن يحبه، كنا بصدد أسرة طبيعية سوية سليمة حقاً، أسرة قائمة لا على أوهام غيبية، بل على وقائع معقولة واضحة التصور إنسانية الحدود. أما في غير هذه الحالة، أي إذاً عجز الأب عن الإتيان بالبرهان المطلوب، فقد انتهت تلك الأسرة، ولم يعد من حق الأب أن يتصرف تصرف أب، وأصبح يجوز للابن ويحق له أن ينظر إلى أبيه نظرته إلى غريب، بل وإلى عدو. إن على منبرنا هذا، يا سادتي المحلّفين، أن يكون مدرسةً للحقيقة والمعاني السليمة.

هنا قاطعت الخطيب عاصفةٌ من تصفيق مسعور. ولئن لم تعرب القاعة كلها عن استحسانها وتأييدها على هذا النحو، فإننا نستطيع أن نؤكد أن نصف الجمهور قد انطلقت أكفه بالتصفيق. صفق الآباء والأمهات. كما أن صرخات حادة وصيحات إعجاب قد قامت في الجزء الأعلى من القاعة، وهو الجزء الذي توجد فيه السيدات، وأخذت الأيدي تلّوح بالمناديل، واضطرب الرئيس وتحرك وأخذ يهز جرسه بغير انقطاع. كان واضحاً أنه غاضب من سلوك الحضور، ولكنه لم يجرؤ أن يمضي إلى حد «إخلاء القاعة» عملاً بتهديداته السابقة: ذلك أن التصفيق والتلويح بالمناديل قد نشب حتى في صف الكراسي الموضوعة في الخلف، الموقوفة على كبار الموظفين، وأكثرهم شيوخ يرتدون ملابس رسمية تزينها الأوسمة والنياشين. لذلك اكتفى الرئيس، منذ هدأت الضجة وسكن الصخب، أن كرر تهديده السابق بلهجة قاسية قائلاً إنه سيخلي القاعة إذا تكرر ما حدث مرة أخرى. وهذا فيتوكوفتش يستأنف مرافعته منفعلاً كَمَن قد أحرز انتصاراً، فيقول:

- سادتي المحلّفين، إنكم تتذكرون تلك الليلة الرهيبة التي طال الحديث عنها أثناء هذه الجلسة، تلك الليلة التي دخل فيها المتهم إلى منزل أبيه بعد أن تسلق السور، فوجد نفسه وجهاً لوجه أمام الرجل الذي ولده وأساء إليه وأهانه وكان عدوه. إنني أعود فأقول ملحاً: أن المتهم لم يذهب ليسطو على المال، فاتهامه بالسرقة سخافة كما سبق أن بينت ذلك، لا ولا اقتحم منزل أبيه ليقتل! كلا ثم كلا. فلو قد كان ينوي ارتكاب جريمة، إذاً لاحتاط للأمر سلفاً فتزود، على الأقل، بسلاح، بسلاح حقيقي، لا بمدق الهاون هذا الذي تناوله بغريزته حتى دون أن يعرف غرضه من ذلك حق المعرفة. لنسلّم جدلاً إذاً بأنه خادع يقظة أبيه باللجوء إلى تلك الإشارات السرية، فدخل البيت. لنسلّم بهذا جدلاً، لأنني لا أصدق هذه الأسطورة لحظة من اللحظات، كما سبق أن قلت ذلك. ولكن فلنسلّم جدلاً، خلال بضع دقائق، بأن الأمور جرت على هذا النحو فعلاً. إني لأقسم لكم بكل ما أقدّسه في هذه الحياة يا سادتي المحلّفين، أن المتهم، بعد أن اجتاز جميع الغرف راكضاً فاقتنع بأن المرأة التي يبحث عنها ليست في المنزل، كان سينصرف مسرعاً دون أن يُلحق بمنافسه أي أذي لولا أن منافسه هذا هو أبوه. لعله كان سيضربه أو سيدفعه عابراً في أكثر تقدير، لأن هناك شيئاً آخر كان يشغل باله. لقد كان في عجلة من أمره، كان يريد أن يعرف بأقصى سرعة أين توجد تلك المرأة. ولكنه رأى نفسه على حين فجأة أمام أبيه، أمام أبيه، وجهاً لوجه.... آه يا سادتي إن رؤية ذلك الأب هي التي كانت سبب كل شيء، ذلك الأب الذي كان عدوه منذ طفولته، وكان يضطهده ويسومه سوء العذاب، ثم أصبح الآن منافساً رهيباً له على حبه! إن شعوراً بالكره لا يغالب قد استولى عليه حينذاك واستبد بروحه، فأصبح لا يستطيع أن يفكر. ثار كل شيء في نفسه حينذاك. كان ذلك انفجار جنون، ولكنه جنون طبيعي، جنون هو رد الطبيعة وقوانينها الانتقامية الأبدية التي تحكم الإنسان بغير شعور وغير لجام، شأن كل ما هو من الطبيعة. ولكن القاتل، حتى في تلك الدقيقة، لم يقتل! إنني أؤكد هذا وأصيح به هنا! كلا، وإنما هو اكتفى بأن رفع المدقّة بحركة استياء مشمئز، دون أن يكون في نيته. أن يقتل، ودون أن يتنبأ بأنه قد يقتل. ولولا أنه كان يمسك بيديه ذلك المدق المشؤوم في تلك اللحظة، فلربما كان سيكتفي بأن يضرب أباه أما أن يقتله فلا. وحين هرب بعد ذلك كان لا يدري أقتل العجوز الذي ضربه أم لا. إن قتلاً يحدث في هذه الظروف ليس بقتل. وإن قتلاً من هذا النوع ليس قتل ابن أباه أيضاً. لا، لا يمكن أن يوصف قتل مثل هذا الأب بأنه قتل أب. إننا لا نستطيع أن نتكلم هنا عن جريمة قتل أب إلا بسبب وهم قائم في الأذهان! ولكنني أعود فأسألكم مرة أخرى صادقاً كل الصدق، بكل نفسي: هل كان ثمة قتل فعلاً؟ تخيلوا يا سادتي المحلّفين أننا حكمنا على هذا الرجل فقال لنفسه بعد ذلك: «إن هؤلاء الناس لم يفعلوا في سبيلي شيئاً من أجل أن يصلحوا أمري. لم يهتموا بتربيتي وتثقيفي، ولم يحاولوا أن يجعلوا مني إنساناً أفضل. إن هؤلاء الناس لم يعطوني ما أشربه ولا ما آكله، ولم يساعدوني يوماً في حبسي المظلم، وها هم أولاء يرسلونني الآن إلى الأشغال الشاقة! ألا إني إذاً اليوم براء حيالهم، لا أدين لهم بشيء، ولن أدين بشيء لأحد من الناس في هذا العالم بعد هذه الساعة قط! إنهم جميعاً أشرار، فسأكون شريراً مثلهم. إنهم جميعاً قساة، فسأكون قاسياً مثلهم». ذلك ما سيقوله يا سادتي المحلّفين. أحلف لكم أنكم إذاً حكمتم عليه كنتم تريحونه بهذا الحكم الذي سيمنعه من أن يسمع صوت ضميره. صحيح أنه سيلعن الجريمة التي ارتكبها، ولكنه لن يشعر بالندامة والتوبة. إنكم إذاً حكمتم عليه كنتم تحطمون إلى الأبد ما في نفسه من إمكانيات إصلاح حاله، لأنه سيظل شرير النفس أعمى البصر إلى آخر عمره. فلماذا لا تؤثرون على ذلك أن تنزلوا فيه عقاباً رهيباً هائلاً هو أفظع عقاب يمكن تصوره، مع إنقاذكم نفسه، ومنحه فرصة أن يُخلق خلقاً جديداً إلى الأبد؟ ألا فأرهقوه برحمتكم، فتروا وتسمعوا كيف سينتفض مروّع النفس عندئذ، قائلاً: «هل أستطيع أن أحتمل هذه الرحمة، هل أنا جدير بهذا الحب كله، هل أنا استحق هذا الحب فعلاً؟» كذلك سيكون ردّه على رحمتكم. إنني أعرف هذا الرجل يا سادتي المحلّفين، إنه متوحش، ولكنه نبيل القلب في قرارة نفسه. لسوف يعجب عندئذ بعظمة موقفكم، لأنه ظامئ إلى الحب قبل أي شيء آخر، وسيشتعل قلبه عندئذ اشتعالاً رائعاً، وسيولد ولادة جديدة نهائية. إن هناك نفوساً تلعن العالم كله وتتهم كل إنسان ما ظلت حبيسة وحدتها الضيقة وعزلتها الخانقة. فاشملوا هذه النفوس برحمتكم وبرهنوا لها على حبّكم، فإذا هي تلعن وضعها السابق وموقفها الماضي، لأن فيها قدراً كبيراً من الأشواق النبيلة المكبوتة. لسوف تتفتح روح هذا الإنسان متى خطفت بصره رأفة الله وطيبة الإنسان وعدالة البشر. لسوف تروّعه عندئذ جريمته، فيسحقه عذاب الضمير، ويضنيه الشعور بالواجب الكبير الذي يقع على عاتقه بعد الآن. لن يقول بعدئذ: «أنا الآن براء لا أدين لأحد بشيء، بل سيهتف قائلاً: «أنا آثم أمام جميع الناس لأنني أحط الناس قاطبةً». ومن خلال دموع ندامته وتوبته، سيصيح قائلاً وهو يشعر بعاطفة لاذعة كأنها حرق: «جميع الناس خير مني لأنهم أرادوا خلاصي لا ضياعي!». سهل عليكم يا سادتي المحلّفين أن تحققوا فعل الكرم والرحمة هذا، وسوف يعذبكم ضميركم كثيراً إذا أنتم أصدرتم حكمكم بإدانته رغم عدم توفر الأدلة المقنعة حقاً! لأن نبرئ عشرة مجرمين خير من أن نجرّم بريئاً - هل تسمعون هذا الصوت العظيم الذي انطلق

في قرن ماض من تاريخنا المجيد؟ هل عليّ أنا، أنا المخلوق الضعيف، أن أذكّركم بأن القضاء الروسي لا يهدف إلى العقاب فحسب، وإنما يهدف كذلك إلى إنقاذ الإنسان الذي زلت قدمه فسقط؟ للشعوب الأخرى أن تتمسك بحرفية النص ما شاءت، ولها أن لا تفكر إلا في العقاب ما حلا لها ذلك، أما نحن الروس فنبقى أوفياء لروح النص ومعنى القانون، ونريد قبل كل شيء آخر أن نقيل عثرة الساقطين وأن نبعثهم بعثاً جديداً. ما دام الأمر كذلك ما دام هذا هو الطابع الذي تتصف به بلادنا ويتميز به قضاؤنا، فإلى الأمام يا روسيا.. لا يا سادتي ليست روسيا ترويكا مسعورة. لا تخيفونا بهذا التشبيه اليست روسيا ترويكا جامحة تتنحى الشعوب الأخرى من أمامها مشمئزة! فإنما روسيا مركبة فخمة ذات عظمة وجلال تتقدم نحو هدفها هادئة متئدة مظفرة. يا سادتي المحلّفين، ليس بين أيديكم مصير موكلي فحسب، بل مصير العدالة الروسية أيضاً. فأنقذوا هذه الحقيقة الغالية التي عهد بها إليكم واؤتمنتم عليها، دافعوا عنها فتبرهنوا بذلك على أننا أوفياء لها وعلى أنها في أيد أمينة.

بهذه الكلمات ختم فينوكوفتش مرافعته، فاذا بالحماسة المحمومة الهاذية تنفجر في الجمهور انفجاراً لا سبيل إلى دفعه كأنها العاصفة. كان يستحيل وقف هذا الانفجار: فالنساء تنشج وتنتحب، وعدد كبير من الرجال يبكون، حتى لقد شوهدت دموع في أعين اثنين من كبار الموظفين. وبدا على الرئيس أنه يذعن، حتى إنه تأخر في هزّ جرسه. «لو شاء أن يلجم حماسةً كتلك الحماسة لكان ذلك منه تدنيساً للمقدسات !»، ذلك ما هتفت تقوله سيدات مدينتنا في ما بعد. وكان المحامي منفعلاً انفعالاً صادقاً هو أيضاً. وفي تلك الدقيقة إنما اعتقد صاحبنا ايبوليت كيريلوفتش أن من واجبه أن ينهض «ليثير بعض الاعتراضات». نظر إليه الناس نظرة توشك أن تكون كرهاً وبغضاً: كيف! ماذا يريد؟ أهو من يجيز لنفسه أن يردّ الآن؟». كذلك دمدمت السيدات. ولكن ما كان لجميع نساء الأرض، وعلى رأسهن زوجة ايبوليت كيريلوفتش، أن يجدي احتجاجهن في شيء، لأنه كان يستحيل، حتى في هذه الحالة أن يُصدّ وكيل النيابة عن الكلام في تلك اللحظة. كان ايبوليت كيريلوفتش شاحب الوجه ممتقع اللون، وكان يرتعش انفعالاً. إن الكلمات الأولى التي قالها كانت مضطربة غير مفهومة، لأن الرجل يختنق بكلامه، وكان ينطق بألفاظه نطقاً مبهماً غير متميز، وكانت عباراته مختلطة مشوشة. ولكنه لم يلبث أن استردّ سيطرته على نفسه. وسأقتصر هنا على نقل بضع جمل من ردّه:

... يعاب علينا أننا ألّفنا رواية أو أنشأنا قصة. ولكن ما الذي فعله الدفاع غير تركيب أوهام وتلفيق خرافات لا يصدقها العقل؟ ألا إن مرافعته لم يكن يعوزها إلا الوزن والقافية حتى تكون قصيدة. هو يرى اذن أن فيدور بافلوفتش قد مزق الظرف ورماه على أرض الغرفة بانتظار وصول حبيبته !... بل هو يذكر لنا أيضاً نص كلمات لا بد أن يكون فيدور بافلوفتش قد نطق بها في تلك الظروف الغريبة ! أليس هذا رواية؟... كيف يمكن البرهان على أنه أخرج المال من الظرف؟ من ذا الذي سمع الكلمات التي قالها حينذاك؟ وهذا الإنسان الضعيف العقل، سمردياكوف، الذي يصوره لنا الدفاع في صورة بطل رومانسي يثأر من المجتمع لولادته غير الشرعية، هل الكلام عنه على هذا النحو إلا قصيدة من طراز قصائد بايرون؟ أما ذلك الابن الذي اقتحم منزل أبيه وقتل أباه دون أن يقتله مع ذلك، فإن الكلام الذي قاله الدفاع عنه ليس شعراً ولا هو رواية أو قصة، وإنما هو أبو الهول يطرح ألغازاً يعجز هو نفسه عن حلّها. من قتل فقد قتل. كيف يقتل إنسان دون أن يقتل، من ذا الذي يستطيع أن يفهم كلاماً كهذا الكلام؟ ولقد نودي بعد ذلك بأن منبرنا يجب أن يكفل للحقيقة وللأفكار السليمة أن تدوّي في الأرجاء، ثم ها هم يعلّموننا من على منبر «الأفكار السليمة» هذا، كما يعلّمون بديهية من البديهيات، إن إطلاق اسم جريمة قتل الأب على مقتل أب بيد ابنه إنما هو وهم من الأوهام! ولكن إذا كان علينا أن نعد جريمة قتل الأب وهماً من الأوهام، وإذا اكتسب كل ابن حل سؤال أبيه عن الأسباب التي توجب عليه أن يحبه، فما عسى تصير إليه بلادنا، ما عسى تصير إليه الأسس التي يقوم عليها مجتمعنا، ما عسى تصير إليه الأسرة؟ وقد زعموا أن ما نشعر به من هول تجاه جريمة قتل الأب شبيه بخوف زوجات تجار موسكو من «الكبريت»! ألا إنهم ليشوهون ويفسدون أقدس قواعد العدالة الروسية، ويعبثون بمصيرها ومستقبلها، وذلك كله في سبيل الوصول إلى الهدف الحقيقي الذين يسعون إليه، في سبيل تسويغ ما لا يمكن تسويغه، والعفو عما لا يمكن العفو عنه. لقد صاح المحامي يقول: «حطّموه برحمتكم!». ألا إن هذا هو كل ما يتمناه المتهم، ولترون غداً كيف سترهقه رحمتكم هذه! يخيّل إليّ أن المحامي كان متواضعاً جداً حين اقتصر على المطالبة ببراءة المتهم. تُري لماذا لم يطالب بإنشاء جائزة تسمي باسم قاتل أبيه، تخليداً لذكرى فعله في نفوس الأعقاب والجيل الجديد؟ ويريدون أن يصححوا الإنجيل وتعاليم الدين، فيقولون: «هذا من الأمور الغيبية !». ألا إننا نحن الذين نطبق المسيحية الحقّة التي يضبطها حكم العقل في ضوء الأفكار السليمة! ومضوا إلى أبعد من هذا فرسموا لنا المسيح في صورة باطلة! سيُكال لكم بالكيل الذي كِلْتُم به: بهذا هتف المحامي، ثم أسرع يستنتج من ذلك أن المسيح قد أمرنا أن نكيل للآخرين بالكيل الذي كالوا لنا به. فانظروا ما يجرؤون أن يعلنوه من على منبر الحقيقة والمعاني السليمة هذا! واضح أنهم من أولئك الناس الذين لا يتنازلون فيلقون نظرةً سريعة على الإنجيل إلا عشية إلقائهم مرافعاتهم أملاً في أن يلمع نجمهم بالاستشهاد بكتاب عظيم يستطيعون استغلاله للتأثير في النفوس، ما احتاجوا إلى ذلك طبعاً! ألا إن المسيح لا يأمرنا بأن نسلك هذا السلوك الذي هو سلوك عالم خبيث فاسد شرير، وإنما هو يأمرنا، على خلاف ذلك، أن نغفر الإساءات التي ألحقت بنا، وأن نمد خدنا الأيسر، بدلاً من أن نكيل للمسيئين إلينا بالكيل الذي كالوا لنا به: ذلك ما يعلمنا إياه الرب، إن الرب لم يقل إن منع الأبناء من قتل آبائهم وهم من الأوهام الاجتماعية! ألا فليمتنعوا عن استخدام هذا المنبر، منبر الحق والمعاني السليمة، في تصحيح تعاليم ربنا الذي اقتصر المحامي في مرافعته على أن يسميه باسم «المصلوب الذي كان يحب بنى الإنسان»، خلافاً لما تفعل روسيا الاثوذكسية كلها التي تبتهل إلى الرب قائلةً: «أنت إلهنا!».

. عندئذ تدخل الرئيس ليذكر وكيل النيابة بالقصر والاعتدال، راجياً منه أن لا يبالغ ويغلو، وأن لا يبتعد عن الموضوع، إلى آخر ما هنالك، مستعملاً اللغة المعهودة في الرؤساء. وكانت القاعة تضطرب وتتحرك. لقد أصبح الجمهور عصبياً، وأصبحت تُسمع صيحات استياء واستهجان هنا وهناك. وعدل فيتوكوفتش عن الرد، ولم يزد على أن يصعد المنبر واضعاً يده على قلبه، فقال بضع كلمات تفيض وقاراً ورصانة، قالها بلهجة إنسان أوذي شعوره وأسيء إليه، وعاد يشير إشارة عابرة ساخرة إلى «الروايات» و«السيكولوجيا»، ووجد السبيل إلى أن يستشهد بالقول المأثور: «قد غضبت يا جوبتر، فأنت إذاً على خطأ»، فأثار ذلك ضحكات استحسان وتأييد صغيرة، لأن ايبوليت كيريلوفتش لم يكن فيه شيء من جوبتر البتة، ثم أعلن يقول بهيئة رصينة وقورة إنه لن يرد حتى على اتهامه بأنه يأذن لأبناء الجيل بأن يقتلوا آباءهم، أما في ما يتعلق بالصورة الباطلة التي قال وكيل النيابة إن المحامي رسمها للمسيح»، وفي ما يتعلق بأن المحامي لم يتنازل فيسمي المسيح إلهاً وإنما اقتصر على تسميته باسم «المصلوب الذي يحب بني الإنسان، مخالفاً بذلك الأرثوذكسية مخالفةً ما ينبغي أن يسمح بها من على منبر الحقيقة والمعاني السليمة»، فقد غمز فيتوكوفتش أن في هذا «افتراء» وأنه حين جاء إلى مدينتنا كان يأمل على الأقل أن يؤذن له بالتحدث من على هذا المنبر بحرية، دون أن يتعرض لاتهامات خطيرة تمس شخصه كمواطن شريف مستقيم... ولكن الرئيس قاطعه عندئذ ليذكره بالتزام النظام، فما كان من فيتوكوفتش إلا أن انحني قائلاً إنه أنهى كلامه، ولم يبق لديه ما يضيفه، وعاد إلى مكانه تصحبه دمدمات الاستحسان والتأييد من الجمهور. أما ايبوليت كيريلوفتش فقد كان «منسحقا انسحاقاً نهائياً» في ما أكدت سيداتنا من بعد.

وطلب إلى المتهم أن يتكلم، فنهض ميتيا، ولكنه لم يقل إلا بضع كلمات. كان يبدو مهدود القوى روحاً وجسماً. إن هيئة الكبرياء والقوة التي كانت بادية فيه حين دخل قاعة المحكمة في الصباح قد اختفت الآن أو كادت. كان يلوح عليه أنه قد عاش في هذا النهار ساعات حاسمة تعلّم فيها أشياء أساسية وفهم أموراً رئيسية كان يجهلها قبل ذلك. إن صوته ضعيف واهن، فهو لا يصرخ الآن كما كان يصرخ في بداية الجلسة، وفي كلامه الآن نبرة جديدة، نغمةٌ فيها إذعان وانكسار ومذلة. قال:

- ماذا استطيع أن أقول لكم يا سادتي المحلّفين؟ لقد دقت ساعة حسابي، ووضع الله يده عليّ. ذلك تكفير عن حياتي المضطربة الفاسدة! ولكنني أؤكد هنا، أؤكد تأكيد من يعترف أمام الله: «إنني لم أسفح دم أبي»، لا، لست أنا مرتكب هذه الجريمة! أعود فأكرر لكم «إني لست الذي قتله». لقد عشت حياة فاسقة، ولكني كنت أحبّ الخير، كنت أفكر دائماً في إصلاح نفسي، ومع ذلك ظللت أعيش كما يعيش حيوان متوحش. أشكر للسيد وكيل النيابة أنه قال عني أموراً كنت أجهلها أنا نفسي. ولكن قوله إنني قتلت أبي قول خطأ. لقد أخطأ السيد وكيل النيابة! وأشكر للمحامي دفاعه عني أيضاً. لقد بكيت وأنا أصغي إلى كلامه. ولكن من الخطأ أن يُقال إنني قتلت أبي، وما كان ينبغي حتى أن يُفترض افتراضاً أنني فعلت ذلك. أما الأطباء فلا تصدقوهم! إنني أملك عقلي كاملاً، ولكن نفسي مرهقة. إن تسامحتم معي فاطلقتم سراحي دعوت لكم وصليت من أجلكم، وإني لأعدكم بأن أصلح ما فَسُدَ من أمري، أحلف لكم على ذلك أمام الله، وإن حكمتكم عليّ توليت بنفسي تحطيم سيفي وقبلت حطامه. ولكن ترفّقوا بي: لا تحرموني من إلهي. إنني أعرف نفسي، فلو فعلتم لثرت وتمردت! إن نفسي مرهقة أيها السادة... فترفقوا بي!.

قال ميتيا هذا الكلام وعاد يجلس على كرسيه بما يشبه السقوط. لقد تهدم صوته، ولم يكد يستطيع أن ينطق جملته الأخيرة إلا في كثير من العناء. وانتقلت المحكمة بعد ذلك إلى تحرير الأسئلة التي يجب أن تلقى على المحلّفين، ودُعيت الأطراف إلى الإدلاء بالنتائج التي انتهت إليها. لن أدخل في وصف التفاصيل. ونهض المحلفون أخيراً للمداولة. وكان الرئيس مكدوداً فلم يوجه إليهم إلا كلاماً مقتضباً، قال: «لا تتحيزوا، لا تتأثروا بالأقوال البليغة الفصيحة التي تضمنها خطاب الدفاع، بل زِنوا قراركم، وتذكروا الرسالة العظيمة الموكولة إليكم»، الخ الخ... ورفعت الجلسة بعد خروج المحلّفين. أصبح يحق للحضور أن ينهضوا، وأن يسيروا، وأن يتبادلوا الآراء والمشاعر، وأن يمضوا إلى البوفيه ليصيبوا شيئاً من طعام أو شراب. وكان الوقت متأخراً، فالساعة هي الواحدة بعد منتصف الليل، ولكن أحداً لم يخطر على باله أن ينصرف. كانت أعصاب الجميع مشدودة متوترة، وقد بلغ فرط اهتياج النفوس أن أحداً لم يدر في خلده أن ينصرف ليرتاح. كان الناس ينتظرون حكم المحكمة بما يشبه الحمّى. على أن القلق لم يكن عاماً شاملاً، إن السيدات خاصة هنّ اللواتي سيطر عليهن نفاذ الصبر إلى حد الهستيريا. ومع ذلك لم يساورهنّ أي خوف. كنّ وهنّ يتهيأن للحظة الحماسة العارمة المؤثرة، كن يقلن: «لا شك أنه سيُبَرّأ». ويجب عليّ أن أعترف من جهة أخرى أن عدداً كبيراً من الرجال أيضاً يشاطرهن هذا اليقين بأن المتهم سيبرأ، فبعضهم مغتبط بذلك مبتهج له، وبعضهم يقطب الجبين استياءً، بل إن منهم من استطالت أنوفهم امتعاضاً واستهجاناً: كان هؤلاء لا يريدون البراءة. أما فيتوكوفتش فكان واثقاً بالنصر موقناً منه. وكان الناس يحيطون به، ويهنّئونه ويتملقونه. فقال لجماعة منهم، كما رُوي ذلك في ما بعد:

- هناك تيارات تعاطف تشد المحامي إلى المحلّفين كخيوط لا تُرى، وهذه الخيوط تنعقد وتدرك أثناء المرافعة نفسها. لقد أحسست أنها موجودة لقد ربحنا القضية لا

تخافوا...
- إني لأتساءل عما عسى يقرره فلاحونا الآن! كذلك قال سيد ضخم الجسم مقطب الجبين مجدور الوجه وهو يقترب من جماعة حَميَ فيها وطيس المناقشة. إنه أحد مالكي الأطيان في ضواحي مدينتنا.
فأجابه آخر:
- إن هيئة المحلّفين لا تضم فلاحين فحسب، ففيها أربعة موظفين أيضاً.
«فقال أحد أعضاء مجلس المدينة» مؤمناً وهو ينضم إلى الجماعة:
- نعم، نعم، يوجد موظفون...
- هل تعرفون نازارييف، بروخور إيفانوفتش نازارييف؟ - إنه ذلك التاجر الموشّح الصدر بوسام. هو عضو في هيئة المحلّفين.
- وماذا؟
- هو واحد من أذكى أعضاء الهيئة.
- ولكنه يصمت طول الوقت.
- صحيح. يصمت. هذا أفضل. ليس أناس سان بطرسبرج هؤلاء هم الذين يستطيعون أن يلقنوه دروساً. إنه أقوى من جميع أهل العاصمة أولئك. إن له اثني عشر ولداً، تصوروا... وفي جماعة أخرى هتف أحد الموظفين يقول:
- هه! معقول أنهم لا يبرئونه؟.
فقال صوت آخر بلهجة جازمة:
- سيبّرئونه حتماً.
فعاد الموظف يقول:
- عار أن لا يبّرئوه، خزي أن لا يبرئوه. صحيح أنه قتل، ولكن هناك أب وأب. ثم إنه كان في حالة اهتياج شديد... من الجائز حقاً أن يكون قد هوى بالمدق دون أن يكون في نيته أن يقتل، فإذا بالآخر يسقط على الأرض مجندلاً من الضربة. على أنني أرى أن إقحام ذلك الخادم في القضية أمر مؤسف. كان ذلك من المحاكمة جزءاً مضحكاً لا أكثر. لو كنت في مكان المحامي، لصحت أقول صراحة: «نعم قتل، ولكنه ليس مجرماً، وليأخذكم الشيطان جميعاً!».
- ولكن هذا بعينه هو ما قاله، باستثناء حكاية الشيطان هذه. فتدخل صوت ثالث يقول:
- بل كاد يقول لهم «فليأخذكم الشيطان» يا ميخائيل سيميونتش.
- تصوروا يا سادة! لقد برأوا عندنا، أثناء الصيام، ممثلةً ذبحت عنق زوجة عشيقها الشرعية.
- نعم، ولكنها لم تقطعه إلى آخره.
- أوشكت أن تقطعه على كل حال.
- هل سمعتم ما قاله عن الآباء؟ كان كلامه رائعاً !.
- رائعاً!
- وقوله عن الغيبية، هه؟
- دعوكم من الغيبية والصّوفيّة. أولى بكم أن تفكروا في ايبوليت وفي المصير الذي ينتظره. لسوف تفقأ أمرأته عينيه بسبب ميتيا.
- أهي في القاعة؟
- ما هذا السؤال؟ لو كانت في القاعة لفقأت له عينيه منذ مدة.
ولكنها في الدار، لأنها تشكو من أوجاع في أسنانها، هئ هئ!
- ها ها ها.
وفي جماعة ثالثة دار الحديث التالي:
- من الجائز أن يُبرأ ميتيا!
- لا ينقصنا إلا هذا! لسوف يقلب غداً كل شيء في حانة «العاصمة الكبرى»، ثم لا يصحو من السكر عشرة أيام.
- إنه لشيطان رجيم حقاً !
- الشيطان هو الشيطان، ولم يمكن الاستغناء عن الشيطان هنا.
أين عسى يوجد الشيطان إن لم يوجد في هذه القاعة؟
- لنسلّم أيها السادة أن للبلاغة وزنها! ولكن تحطيم جمجمة أب غير جائز على كل حال، وإلا فإلى أين المصير؟
- وما قاله عن المركبة المظفرة، هل تتذكرون ما قاله عن المركبة المظفرة؟
- نعم، جعل من العربة المبتذلة مركبة مظفرة!
- سيردها في الغد عربة بسيطة «ما احتاج إلى ذلك»، على حد تعبير وكيل النيابة.
- لقد زادت براعة الناس. قل لي: ألا تزال توجد حقيقة في روسيا؟
ولكن جرس رئيس المحكمة أخذ يرن. لقد تشاورت هيئة المحلّفين خلال ساعة كاملة. ساد صمت عميق منذ عاد الحضور إلى أماكنهم. ها أنذا أرى هيئة المحلّفين تدخل القاعة. جاؤوا أخيراً! لن أذكر، بالترتيب، الأسئلة التي كان عليها أن تجيب عنها، لأنني نسيتها. كل ما أتذكره هو جوابها عن النقطة الأساسية كما صاغها الرئيس: هل ارتكب المتهم جريمة القتل عن سابق إصرار وتصميم بقصد السرقة؟» (نسيت النص الدقيق). خيّم على القاعة صمت كصمت الموت. وقال رئيس هيئة المحلّفين، وهو أصغر الموظفين سناً، قال بصوت قوي واضح دوّى في أرجاء القاعة الصامتة صمت الموت.
- نعم، مذنب.
وكان هذا الجواب نفسه جواباً عن سائر الأسئلة: نعم، مذنب، مذنب في كل مرة، دون وجود أي ظرف مخفّف، لم يكن أحد يتوقع ذلك. لأن جميع الناس كانوا يقدرون أن تكون هنالك أسباب مخففة على الأقل. استمر الصمت الذي يشبه أن يكون صمت الموت. وأصبح الجمهور كالمتجمّد دهشةً، يستوي في ذلك الذين كانوا يتمنون أن يُحكم على ميتيا، والذين كانوا يتمنون أن يُبرَّأ. ولكن هذا السكون لم يدم إلا بضع دقائق أعقبتها جلبة كبيرة. فأما الرجال فإن عدداً كبيراً منهم قد شعر بالرضى، حتى لقد أخذ بعضهم يفرك الأيدي غبطة وسروراً دون أن يحاول إخفاء فرحته وصُعق المستاؤون منهم فأخذوا يرفعون أكتافهم ويتهامسون، ولكنهم لا يبدو عليهم أنهم قد أدركوا الواقع بعد. وأما السيدات، فيا رب السماء ! لقد خيّل إليّ أنهن سيقمن بثورة! إنهن في أول الأمر لم يصدقن آذانهنّ، ثم لم يلبثن أن انفجرن صائحات في جميع أرجاء القاعة:
«ما معنى هذا؟ ما هذه الحكاية؟»، وأخذن يثبن عن أماكهن. واضح أنهن كان يخيل إليهن أن كل شيء يمكن أن يتغير، وأن يستبدل بالحكم حكم آخر. وفي تلك اللحظة نهض ميتيا عن مكانه فجأة، وأعول يقول بصوت ممزّق، ماداً ذراعيه إلى أمام:
- إنني أحلف أمام الله، بانتظار عدالته الرهيبة، أني بريء من دم أبي! أما أنت يا كاتيا فإنني أغفر لك. ويا أخوتي، يا أصدقائي، ترفقوا بالأخرى وأحيطوها برعايتكم...
لم يكمل ميتيا كلامه، وانفجر ينتحب. كان ينشج نشيجاً صاخباً، بصوت ليس صوته، صوت مخيف، لا يدري المرء من أين يصدر. وفي أعلى القاعة، من ركن مظلم بالشرفة، انطلقت صرخة حادة: انها جروشنكا. كانت جروشنكا قد تضرعت كثيراً أن يؤذن لها أخيراً بالعودة إلى القاعة، قبل إلقاء مرافعة النيابة. واقتيد ميتيا. وأرجى إعلان الحكم إلى الغد. ونهض الجمهور في جلبة شديدة. ولكنني كنت قد أصبحت لا أنتظر ولا أصغي إلى شيء. كل ما وعته ذاكرتي لا يعدو بضع صيحات سمعتها على درجات مخرج القاعة:
- لن يقل الحكم عليه عن عشرين عاماً بالأشغال الشاقة[259] في مناجم الاستخراج.
- لن يقل عن ذلك!

- نعم، لقد صمد فلاحونا.
وقضوا على ميتيا.

خاتمة

-1-مشاريع إنقاذ ميتيا

بعد صدور الحكم على ميتيا بخمسة أيام، ذهب أليوشا في الصباح الباكر إلى كاترينا إيفانوفنا ليتخذ معها إجراءات أخيرة في أمر يهمهما كليهما كثيراً، وليقوم عدا ذلك بمهمة كان قد كلف بالقيام بها. كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة قليلاً. واستقبلته المرأة الشابة في تلك الغرفة نفسها التي سبق أن استقبلت فيها جروشنكا منذ بضعة أسابيع. وفي الغرفة المجاورة كان يرقد إيفان فيدوروفتش غائباً عن الوعي بتأثير الحمّى. لقد نقلته كاترينا إيفانوفنا إلى منزلها فور حدوث المشهد الذي وقع في جلسة المحاكمة، دون أن تبالي بالأقاويل التي كان لا بد أن تثيرها هذه البادرة منها، ودون أن تقلق لما سيصبّه عليها المجتمع من ضروب اللوم. وقد سافرت احدى قريبتيها اللتين كانتا تعيشان معها، إلى موسكو منذ نهاية المحاكمة، وبقيت الأخرى في منزل كاترينا إيفانوفنا. ولكن كاترينا إيفانوفنا ما كان لها أن تتراجع عن إنفاذ ما عزمت أمرها عليه ولو كانت وحيدةً في منزلها، وسهرت على المريض بنفسها نهاراً وليلاً. وكان الطبيبان فارفنسكي وهرتسنشوبه يعالجان إيفان. أما الأخصائي الذي جاء من موسكو فقد سافر من دون أن يرضى الإفصاح عن رأيه في ما عسى تصير إليه حالة المريض، وفيما عسى يكون من أمر تطور المرض.

وكان الطبيبان يبذلان لكاترينا إيفانوفنا وأليوشا أنواع التشجيع، ولكنهما لا يجازفان فيهبان لهما آمالاً قاطعة. وكان أليوشا يزور أخاه المريض مرتين في اليوم. على أنه إنما جاء الآن لأمر محرج إحراجاً خاصاً، مربك إرباكاً شديداً، وهو يشعر بمدى الصعوبة في مواجهة الموضوع، ولا يعرف من أين يأتيه. وكان عدا ذلك في عجلة من أمره، لأن عليه أن يقوم بواجب آخر وأن ينهض بعبءٍ ثان، في حي غير هذا الحي من المدينة، فكان يحسن به اذن أن يسرع. انهما يتحدثان منذ ربع ساعة. وكاترينا إيفانوفنا شاحبة الوجه ممتقعة اللون تبدو مرهقةً مهدودة القوى، ولكنها في الوقت نفسه مضطربة اضطراباً يشبه أن يكون مرضاً، لأنها كانت في الواقع تدرك الهدف الذي جاء من أجله أليوشا. قالت لأليوشا بلهجة تفيض ثقة:

- لا يقلقنك أمر القرار الذي سيتخذه، فإنه لا بد أن يتلبث على هذا الحل أخيراً: فليس أمامه من مخرج آخر غير الفرار! إن هذا المسكين، هذا البطل من أبطال الشرف والضمير

- أوه! لا! لست أقصد دمتري فيدرورفتش، وإنما أقصد ذلك الراقد وراء هذا الباب، ذلك الذي ضحى بنفسه في سبيل أخيه - (كذلك أضافت تقول كاترينا وقد سطعت عيناها) قد أطلعني منذ مدة طويلة على تفاصيل مشروع الفرار هذا. ولعلك تعلم أنه اتصل بعدّة أشخاص من أجل إنفاذ هذا المشروع... وقد ألمحت لك إلى هذا من قبل على كل حال... سيتم الفرار في المرحلة الثالثة من مراحل الطريق في أغلب الظن، أثناء نقل السجناء إلى سيبيريا. أوه! ما يزال الأمر بعيداً. وقد زار إيفان فيدوروفتش رئيس المحطة الثالثة. ولكننا لا نعرف حتى الآن من الذي سيقود القافلة، لأن ذلك يستحيل أن يُعرف سلفاً. وقد أطلعك غداً على تفاصيل الخطة التي تركها لي إيفان فيدوروفتش قبل المحاكمة، احتياطاً لما قد يحدث له... تمّ هذا في ذلك اليوم نفسه الذي رأيتنا نتشاجر فيه... أنت تذكر هذا... لقد خرج من عندي فلما رأيتك أجبرته على أن يصعد ثانية. تتذكر هذا، أليس كذلك؟ فهل تعرف فيم كنا نتشاجر؟

قال أليوشا:

- لا، لا أعرف.

- أخفي عنك هذا طبعاً! فاعلم إذاً أن المشاجرة كانت تدور على موضوع الفرار هذا بنفسه. كان قد عرض لي قبل ذلك بثلاثة أيام، الأمور الأساسية من هذه الخطّة، وفي تلك اللحظة إنما قام الشجار بيننا ثم استمر ثلاثة أيام. فحين أعلن لي أن ديمتري فيدوروفتش سيهرب إلى الخارج مع تلك المخلوقة إذا حُكم عليه، شعرت فجأة بغضب شديد. لا أستطيع أن أقول لك لماذا غضبت. إنني أجهل أنا نفسي سبب غضبي... آه! السبب هو تلك المخلوقة طبعا! فبسببها إنما ثارت ثائرتي، لأن تلك المخلوقة تطمع في أن تسافر إلى الخارج مع دمتري! بهذا صاحت كاترينا إيفانوفنا فجأة وقد أخذت شفتاها تختلجان من فرط الغضب. وواصلت كلامها تقول:

- فلما لاحظ إيفان فيدوروفتش أنني غضبت بسبب تلك المخلوقة تخيل فوراً أنني أغار منها، وأنني إذن ما زلت أحبّ دمتري. هكذا نشبت مشاجرتنا الأولى في ذلك اليوم. لم أشأ أن أقدم له شرحاً، ولا كنت أستطيع أن أعتذر إليه أيضاً. ولكن كان يحز في نفسي أن أتصور أن رجلاً له مثل قيمة إيفان فيدوروفتش يمكن أن يهجس في نفسه أنني ما زلت أحبّ ذلك ال... مع أنني كنت أكدت له أنا نفسي منذ مدة طويلة أنني أصبحت لا أحبّ دمتري، وأنني لا أحبّ أحداً إلا هو إيفان!..... فلما غضبت من تلك المخلوقة، ثارت ثائرتي عليه. وبعد ذلك بثلاثة أيام، في ذلك المساء نفسه الذي جئت فيه إليّ، جاءني إيفان بظرف مختوم وطلب مني أن لا أفض الظرف إلا إذا وقع له شيء. أوه! لقد كان يتنبأ عندئذ بمرضه. وقال لي إن الظرف يتضمن عرضاً مفصلاً لمشروع الفرار، وإن عليّ أن أتولى وحدي إنقاذ ميتيا، إذا مات هو أو مرض مرضاً خطيراً. وفي تلك المناسبة نفسها ترك مالاً، قرابة عشرة آلاف روبل - هو ذلك المبلغ نفسه الذي جاء على ذكره وكيل النيابة في مطالعته بعد أن علم مصادفة أن إيفان قد كلف أحد الناس بإحضاره من مركز الإقليم لقاء سندات يبدلّها. وقد أدهشني أشد الدهشة عندئذ أن ألاحظ أن إيفان فيدوروفتش، رغم غيرته عليّ ورغم اقتناعه بأنني ما زلت أحبّ ميتيا، لم يعدل عن فكرة إنقاذ أخيه، وأنه يعهد إليّ، إليّ أنا، بالقيام بهذه المهمة. آه... ما كان أقوى روح التضحية في سلوكه هذا! لا يا ألكسي فيدوروفتش! يصعب إدراك ما يشتمل عليه هذا السلوك من نكران الذات! تمنيت لو أسقط على قدميه، شعوراً بإعجاب لا حدود له. ولكن هجس في نفسي فجأة أنه قد يعزو هذه البادرة مني إلى فرحتي بإنقاذ ميتيا (كان سيؤول بادرتي هذا التأويل حتماً)، فما إن تصورت أنه قد يفترض هذا الافتراض الظالم في حقي حتى ثارت ثائرتي من جديد، واشتد حنقي، فبدلاً من أن أقبّل قدميه، رحت أضايقه. آه... ما أشقاني! ذلك هو طبعي... إنه طبع رهيب... عجيب! سوف ترى، سوف ترى: سوف أعمل كل ما سيدفعه إلى أن يهجرني أخيراً إلى امرأة أخرى يسهل عليه أن يتفاهم معها أكثر مما يسهل عليه أن يتفاهم معي، تماماً كما فعل دمتري. ولكن في هذه الحالة... لا... لن أحتمل في هذه المرة... سوف أنتحر! وحين دخلت عليّ، بعد أن أمرته بالصعود ثانيةً، جُنّ جنوني غضباً من نظرة الكره والاحتقار التي لاحظت أنه رشقني بها في تلك اللحظة. وعندئذ هل تتذكر؟

- عندئذ إنما صرخت أقول إنه هو وحده الذي جعلني أعتقد بأن ميتيا قاتل!... لقد كذبت عندئذ عامدةً، بغية أن أجرحه مرة أخرى فأنا التي كنت قد سعيت إلى إقناعه بأن ميتيا قاتل. آه... إن طبعي اللعين هو سبب البلاء كله! أنا، أنا المسؤولة عن ذلك المشهد الرهيب الذي حدث في جلسة المحاكمة! لقد أراد أن يبرهن لي على نبل نفسه، أراد أن يبيّن لي أنه، رغم حبي أخاه، لن يقبل أن يضيّعه غيرة وانتقاماً. لهذا إنما تكلم على ذلك النحو أمام المحاكمة... أنا سبب كل شيء، أنا وحدي الآثمة!

لم يسبق لكاتيا أن اعترفت لأليوشا بمثل هذه الاعترافات في يوم من الأيام، فأحس أليوشا أنها كانت عندئذ تعاني من ذلك العذاب الذي لا يطاق، ذلك العذاب الذي يجعل النفس العاتية المتكبرة تعدل فجأة عن صلفها وجبروتها فتنهار مغلوبة على أمرها قد هزمها الألم. ثم لقد كان أليوشا يدرك أن لتاريحها سبباً آخر أيضاً، سبباً رهيباً حاولت أن تخفيه منذ صدور الحكم على ميتيا. ومع ذلك كان سيؤلمه كثيراً أن يراها تذل نفسها أمامه إلى حيث تبادئه الكلام عن سبب عذابها، وأن تحدّثه عن هذا السبب من تلقاء نفسها في هذه اللحظة نفسها: الواقع أن كاتيا كانت تتألم من «الخيانة» التي ارتكبتها في المحكمة. وأحس أليوشا أن ضميرها كان يدفعها إلى أن تتهم نفسها أمامه صادقةً، أن تتهم نفسها بدموع غزار وصرخات حادة، وربما بلطم جبينها بالأرض في نوبة هستيرية من نوبات عذاب الوجدان. وكان أليوشا يخشى هذا المشهد، ويرفق بحال المرأة الشقية. وكان هذا يفاقم حرجه وارتباكه من القيام بالمهمة التي كلّف بها. وعاد يتكلم عن ميتيا.

فقاطعته بعناد حازم:

- لا تقلق له! صدقني إن معارضته لن تستمر طويلاً. أنا أعرفه، أعرف طبعه حق المعرفة. ثق أنه سيوافق على الفرار أخيراً. لا تنس خاصةً أن الأمر ليس بقريب، وسيكون له متسع من الوقت لاتخاذ قراره. ومن الآن إلى أن يحين الموعد، يكون إيفان فيدوروفتش قد أبلّ من مرضه، فيتولى القضية بنفسه، ولن يكون عليّ أنا أن أهتم بها. لا تخف، سيوافق على الهرب. بل إنه لموافق منذ الآن: فأنّى له أن يترك تلك المخلوقة! ما داموا لن يسمحوا له بأن تتبعه هذه المرأة إلى المعتقل، فلم يبق له إلا أن يهرب. هو يخاف منك خاصةً، يخاف أن تلومه على الهرب لأسباب أخلاقية. فمتى جُدت عليه فأذنت له وافق، ومن واجبك أن تأذن له مادام هذا الأذن ضرورياً لا بد منه.

بهذه العبارة ختمت كاتيا كلامها بلهجة مسمومة. وصمتت بضع لحظات، وابتسمت ابتسامة ساخرة، ثم أردفت تقول:

- إنه يتحدث في السجن عن نشيد، عن صليب عليه أن يحمله، عن واجب عليه أن يقوم به... إني أتذكر هذا الكلام لأن إيفان فيدوروفتش قد روى لي تفاصيل كثيرة في هذا الموضوع. ليتك تعلم بأي طريقة كان إيفان فيدوروفتش يتكلم ! (هكذا هتفت كاتيا تقول فجأة في اندفاعة لا تقاوم). ليتك تعلم كم كان يحب هذا الشقي

حين كان يتكلم عنه، وكم لعله كان يبغضه في الوقت نفسه أيضاً! أما أنا، فقد أصغيت عندئذ إلى هذه القصة التي رواها لي باكياً، أصغيت إليها وأنا أتفرّس فيه متكبرة متعجرفة ساخرة! ألا ما أحطّني من مخلوقة! نعم أنا التي يجب أن أسمى مخلوقة! بسببي إنما أصيب بالحمّى! أما الآخر، الذي حُكم عليه، فإنه غير مستعد لأن يتألم البتة. وهل في وسع امرئ مثله أن يتألم؟... إن رجالاً من نوعه لا يتألمون أبداً.

هكذا ختمت كاتيا كلامها حانقة غاضبة. إن نبرة بغض واشمئزاز واحتقار قد طافت بصوتها حين نطقت هذه الكلمات الأخيرة. ومع ذلك فإنها هي التي خانته. قال أليوشا لنفسه: «إنما هي تكرهه في بعض اللحظات لأنها تشعر بأنها أذنبت في حقه». كان أليوشا يتمنى أن لا تكرهه إلا في بعض اللحظات. وقد لاحظ أليوشا في الكلمات الأخيرة التي قالتها كاتيا شيئاً من تحدٍّ، ولكنه لم يحفل بالأمر.

وأضافت كاتيا تقول بلهجة فيها مزيد من الاستفزاز:

- إنما كان هدفي من استدعائك اليوم هو أن تعدني بأن تمارس تأثيرك فيه لإقناعه، اللّهمّ إلا أن تعد الفرار عملاً منافياً للشرف، مناقضاً للكرامة، أو... ماذا أقول؟... ربما كنت تعد الفرار مخالفاً للمسيحية، هه؟

فتمتم أليوشا يجيبها:

- لا... لماذا؟ سأقول له كل شيء.

ثم قال لها فجأة وهو يحدق إلى عينيها بحزم:

- هو يرجوك أن تجيئي إليه اليوم.

فارتعشت كاتيا بكل جسمها، وتقهقرت قليلاً إلى وراء، ودمدمت تقول وقد اصفرّ وجهها اصفراراً شديداً:

- أنا؟... ولكن هل هذا ممكن؟

فعاد أليوشا يقول بإلحاح وقد انتعش فجأة:

- ليس هذا ممكناً فحسب، وبل هو ضروري أيضاً. لا بد أن يراك، الآن خاصةً. ولولا أن ذلك واجب حتماً، لما تعرضت لهذه المسألة مخافة أن أؤلمك في غير طائل. إنه مريض. إنه يشبه أن يكون مجنوناً. إنه لا يكفّ عن مناداتك. وهو لا يريد أن يراك من أجل أن يصالحك. كل ما يطلبه هو أن تذهبي إليه وتظهري له عند باب غرفته. إن تحولاً كبيراً قد حدث في نفسه منذ ذلك اليوم الحاسم. لقد أدرك مدى الإثم الذي اقترفه في حقك. ليس يسألك أن تغفري له. هو نفسه يقول: «أنا لا أستحق الغفران». كل ما يرجوه هو أن تظهري له عند باب غرفته...

تمتمت كاتيا تقول:

- أنت تحرجني... كنت أتنبأ كل يوم أنك ستجيئني طالباً مني ذلك... كنت واثقة بأنه سيدعوني. ولكن لا... مستحيل.

- مستحيل، أم غير مستحيل... يجب عليك أن تفعلي.

تذكري أنه لأول مرة في حياته يدرك مدى الاساءة التي ألحقها بك. يدرك هذا لأول مرة في حياته. إنه لم يدرك ذلك في يوم من الأيام إدراكاً كاملاً كما يدركه الآن. قال لي: «إذا رفضت أن تجيء فسأكون تعيساً بقية عمري». هل تفهمين؟ رجل محكوم بالسجن عشرين عاماً ثم هو يريد أن يكون سعيداً ! أليس هذا مما يستحق الشفقة؟ تذكري أيضاً أنك تزورين إنساناً بريئاً (هكذا هتف أليوشا يقول فجأة بلهجة فيها تحد). إن يديه طاهرتان لم يلوثهما دم. فاذهبي إليه، اذهبي إليه بسبب هذه الآلام التي تنتظره والتي لا حدود لها!... اذهبي، مدّي إليه يدك في هذه الليلة... اظهري له على الباب فحسب، على الباب فحسب... هذا واجب عليك، هذا واجب عليك...

هكذا ختم أليوشا كلامه ملحاً على كلمة «واجب» إلحاحاً شديداً. قالت كاتيا بصوت فيه أنين:

- هذا واجب عليّ، ولكن... لا أستطيع... سينظر إليّ... لا، لا، لا أستطيع.

- يجب أن تلتقي نظراتكما. كيف يمكنك أن تعيشي في المستقبل إذا لم تفعلي؟

- أؤثر أن أظل أتألم طول حياتي!

- يجب أن تذهبي إليه، يجب.

كذلك قال أليوشا ملحاً لا ينثني عن عزمه.

قالت كاتيا:

- ولكن لماذا اليوم؟ لماذا حالاً؟ يستحيل عليّ أن أترك المريض وحده.

- بل تستطيعين أن تتركيه بضع لحظات. لن يطول غيابك. ما كنت لأقول لك هذا لولا أنه حق. ليكن في قلبك شيء من شفقة.

أجابت كاتيا تقول بلهجة عتاب مر:

- أنا أولى بالشفقة.

وأخذت تبكي.

قال أليوشا بصوت جازم وقد رأى دموعها:

- معنى هذا أنك آتية. سأبلغه أنك ستجيئين.

هتفت كاتيا تقول مذعورة:

- لا لا تقل له شيئاً البتة. سأذهب إليه، ولكن لا تبلغه ذلك...

وقد لا أدخل عليه... لا أدري بعد...

قالت ذلك وتحطّم صوتها. كانت تتنفس في مشقة. ونهض أليوشا لينصرف. فسألته فجأة بصوت خافت وقد امتقع لونها من جديد:

- فماذا لو لقيت أحداً هناك؟

فأجابها أليوشا وقد أدرك من تعني:

- فإنما أسألك أن تجيئي الآن لأنك لن تلقي أحداً. لن يكون هناك أحداً. ثقي بذلك.

وختم كلامه يقول بالحاح:

- سننتظرك. وخرج من الغرفة.

-2-صار الكذب إلى حقيقة لحظة أسرع

أسرع أليوشا إلى المستشفى الذي كان فيه ميتيا الآن. لقد أصيب يتيا بحمّى بعد صدور الحكم بيومين، فنُقل إلى مستشفى مدينتنا، وأودع القسم المخصص للسجناء. ولكن الدكتور فارفنسكي رضي أخيراً بعد شفاعات أشخاص كثيرين (السيدة خوخلاكوفا، ليزا، الخ) أن لا يترك ميتيا بين السجناء، ونقله إلى غرفة صغيرة مستقلة، هي تلك الغرفة نفسها التي أقام بها سمردياكوف. إن على نافذة هذه الغرفة قضباناً حديدية، وإن حارساً كان يرابط في آخر الدهليز، فليس على فارفنسكي أن يخشى إذاً شيئاً من هذه الميزة التي تفضّل بها على السجين والتي تخالف القانون قليلاً. كان الطبيب شاباً طيب القلب رحيم النفس، فأدرك مدى ما يمكن أن يلقاه رجل مثل ميتيا من عناء وألم إذا هو وجد نفسه فجأة يعيش وسط قتلة ولصوص، وأدرك أنه لا بد له من مرحلة انتقال تتهيأ له فيها أسباب التعوّد على الوضع الجديد. وقد أُذن لأقرباء السجين وأصدقائه ضمناً بأن يزوروه، أذن بذلك الطبيب والمراقب وحتى رئيس الشرطة. ولكن أليوشا وجروشنكا كانا هما الوحيدين اللذين يجيئان إلى ميتيا في تلك الأيام وقد حاول راكيتين أن يدخل عليه مرةً أو مرتين، ولكن ميتيا رجا الدكتور فارفنسكي ملحاً أن لا يسمح له بالدخول.
وجد أليوشا أخاه مضطجعاً على مضجعه بمعطف المستشفى. كان به شيء من حمّى، وكان رأسه ملفوفاً بفوطة مبتلة بخل. فلما أبصر ميتيا أخاه أليوشا حدّق إليه بنظرة غامضة يخالطها نوع من خوف.
وكان ميتيا قد أصبح منذ صدور الحكم عليه كثير الوجوم. وكان يتفق له أن يبقى صامتاً خلال نصف ساعة وكأنه يفكر في أمر من الأمور تفكيراً أليماً، وكان يبدو عليه في مثل تلك اللحظات أنه نسي مَنْ حوله نسياناً تاماً. حتى إذا خرج بعد ذلك من تأمله وأخذ يتكلم، استرسل في حديث من الأحاديث ارتجالاً، وعالج موضوعاً يختلف كل الاختلاف عما كان يهمه أن يقوله في الواقع. وكان يثبت على أخيه في بعض الأحيان نظرة مثقلة بالألم والعذاب. وكان يرتاح إلى وجود جروشنكا أكثر من ارتياحه إلى وجود أليوشا. صحيح أنه كان لا يكاد يكلّمها، ولكن وجهه كان يشرق فرحاً متى جاءت. جلس أليوشا على مضجع أخيه دون أن ينبس بكلمة. وكان أخوه ينتظره في هذه المرة مهموماً قلقاً، ولكنه يخشى أن يسأله. كان يقدّر أن من المستحيل أن توافق كاتيا على المجيء إليه، وكان يحسّ في الوقت نفسه أن رفضها المجيء سيورثه ألماً لا يطاق. وكان أليوشا يحزر عواطفه.
بدأ ميتيا الكلام فقال بعصبية:
- يُقال إن تريفون بوريستش كاد يخرب فندقه. فهو يقتلع أخشاب الأرض، وينزع ألواح الجدران، حتى لقد هدم الرواق هدماً تاماً. إنه يبحث عن الكنز، عن الألف وخمسمائة روبل التي اتهمني وكيل النيابة بإخفائها هناك. إنه منذ أن عاد إلى موكرويه قلب كل شيء عاليه سافله. يستحق هذا الوغد ذلك. علمت هذا من حارس هناك قصّه عليّ أمس.
قال أليوشا:
- اسمع... إنها ستجيء. ولكنني لا أعرف بعدُ متى تجيء. ربما جاءت اليوم، أو غداً، أو في يوم قريب، لا أعرف على وجه الدقة، ولكنها ستجيء، حتماً.
انتفض ميتيا، وبدا عليه أنه أراد أن يقول شيئاً، ولكنه صمت. لقد هزه هذا النبأ هزاً عميقاً. كان واضحاً أنه يتحرق شوقاً إلى معرفة تفاصيل الحديث الذي جرى بين أليوشا وكاتيا، ولكنه لا يجرؤ أن يسأل أخاه في ذلك: فإن كلمة فيها قسوة أو احتقار تقولها كاتيا كفيلة في هذه اللحظة بأن تطعنه كخنجر.
- إليك ما قالته في ما قالت من أمور أخرى: إنها تطلب مني ملحةً أن أهدّئ ضميرك في ما يتعلق بالفرار. وستتولى هي تدبير الأمر إذا لم يُشف إيفان من مرضه إلى ذلك الحين.
قال ميتيا مفكراً:
- سبق أن ذكرت لي ذلك.
فأجابه أليوشا:
- ونقلت أنت هذا الكلام إلى جروشنكا.
فقال ميتيا معترفاً:
- صحيح.
ثم أضاف وهو يلقي على أخيه نظرة خجلة وجلة:
- لن تأتي جروشنكا هذا الصباح. لن تأتي إلا في المساء. حين حكيت لها أمس أن كاتي تهيئ أمر فراري، سكتت في أول الأمر وتقبضت شفتاها، ثم دمدمت تقول: «لها ما تشاء». لقد أدركت أن الأمر جد. لم أجرؤ أن أقول لها أكثر من ذلك. أحسب أنها تدرك الآن أن كاتيا لا تحبني أنا، وإنما تحب إيفان.
فأفلت من أليوشا هذا السؤال:
- أأنت متأكد من هذا؟.
- ربما كنتُ مخطئاً في ظني.
ثم أسرع يضيف قوله:
- على كل حال، لن تأتي هذا الصباح. لقد كلّفتها بمهمة ستقوم بها... أما إيفان فإنه خير منا جميعاً. هو الذي يستحق الحياة، لا نحن. وسيُشفى.
قال أليوشا:
- تصور أن كاتيا رغم خوفها الشديد عليه تكاد تكون واثقة بأنه سيُشفى.
- هذا برهان على أنها واثقة بأنه سيموت. فمن الخوف إنما تحاول أن تقنع نفسها بأنه سيشفى.
قال أليوشا في قلق:
- إن أخانا إيفان قوي الجسم متين البنية. أنا أيضاً أتمنى بحرارة وقوة أن يبلّ من مرضه.
- سوف يبلّ من مرضه. ولكنها، هي، واثقة بأنه سوف يموت.
وصمت الأخوان بضع لحظات. كان واضحاً أن هناك هماً ثقيلاً يعذب ميتيا.
وانطلق ميتيا يقول فجأة بصوت راعش مثقل بالدموع:
- أليوشا، إنني أحبّ جروشنكا حباً رهيباً.
فأسرع يقول له أليوشا:
لن يسمحوا لها بأن تتبعك إلى هناك!
فاستأنف ميتيا كلامه يقول بصوت أصبح مهتزاً مختلجاً على حين فجأة:
- إليك ما كنت أريد أن أقوله لك أيضاً. إذا ضربوني أثناء الطريق، أو هناك، فلن أحتمل ذلك ولن أسمح به، سأقتل أحداً فيرمونني بالرصاص. أنّى لي أن أحتمل هذا عشرين سنة! لقد بدأوا يخاطبونني منذ الآن بصيغة المفرد هنا. الحرس ينادونني بقولهم أنت. لبثت أفكر وأتساءل طوال الليل. لا، لست مستعداً، لست قادراً على أن أحتمل هذا المصير؟ لقد أردت أن أنشد «نشيدا» وها أنذا ذا أعجز عن احتمال أن يخاطبني حارس من الحرس بصيغة المفرد! لو كانوا سيأذنون لجروشنكا بأن تصحبني لاحتملت كل شيء في سبيلها... إلا الضرب طبعاً... ولكنهم لن يأذنوا لها بذلك.
ابتسم أليوشا ابتسامة رقيقة عذبة، وبدأ الكلام:
اسمع يا أخي. إليك رأيي في هذا الموضوع، أعلنه لك مرة واحدة إلى الأبد. أنت تعلم حق العلم أنني لن أكذب عليك. فاسمع: أنت غير مهيأ، وذلك الصليب لم يُخلق لك. أكثر من ذلك: ليس من الضروري البتة أن تقبل عذاباً شديداً يفوق طاقتك. لو كنت قد قتلت أباك لما ارتضيت لك أن ترفض المحنة. ولكنك بريء وهذه الكفارة فوق ما تطيق. كنت تريد أن تتألم لتخلق نفسك خلقاً جديداً، ولتصبح إنساناً آخر. في رأيي أنه يكفيك أن تظل طوال حياتك تفكر في هذا الإنسان الآخر، وأن يظل هذا الإنسان الآخر ماثلاً أمامك حيثما وُجدت، وأينما هربت. ذلك كاف من جهتك. إن رفضك احتمال عذاب أشد لن يكون من شأنه إلا أن يعزز شعورك بواجبك، وهذه الفكرة الدائمة المستمرة التي ستتبعك حيثما تذهب قد تساهم مزيداً من المساهمة في خلقك خلقاً جديداً لا يتحقق لك من وجودك هناك، ذلك أنك لن تحتمل نظام الحياة هناك، فإذا أنت تثور وتتمرد وتقول لنفسك آخر الأمر فعلاً: «ها أنذا الآن براء لا أدين لأحد بشيء». لقد صدق المحامي حين قال هذا الرأي. إن من المحن ما يكون من القوّة بحيث لا طاقة لكل إنسان به. إن من الناس من لا يستطيعون احتمال مثل هذه المحن. تلك هي آرائي ما دمت حريصاً كل هذا الحرص على معرفتها.

ثم أضاف أليوشا يقول مبتسماً:

- لو كان سيعاقب على هربك أشخاص آخرون - كالضباط أو الجنود لما سمحت لك بأن تهرب. ولكن يظهر أن في إمكاننا، بشيء من الحذق والبراعة، أن نجنبهم المتاعب، وفي إمكانهم أن يخرجوا من الأمور بغير كبير عناء (رئيس المحطة نفسه أكد هذا الإيفان). صحيح أن الرشوة عمل غير شريف، حتى في حالة من هذا النوع، ولكنني أمتنع هنا عن إبداء رأي وإصدار حكم. فلو كلفني إيفان أو كلفتني بأن أتولى هذا الأمر من أجلك، لما أحجمت عن استعمال الرشوة. أنا أعلم ذلك. إن من واجبي أن أقول لك الحقيقة كلها في هذا الموضوع. ولذلك لا أصلح أن أكون قاضياً يحكم على ما قد تفعله. ولكن ثق على الأقل أني لن ألومك ولن أدينك. وأنّى لي أن أكون قاضيك في هذه المسألة! هذا كل شيء. وأحسب أنني قلت كل ما كان يجب عليّ أن أقوله في هذا الصدد.

هتف ميتيا يقول:

- ولكنني سأدين نفسي بنفسي. سوف أهرب، هذا أمر مفروغ منه، هذا أمر تقرّر حتى قبل أن تكلّمني. وهل يستطيع ميتيا كارامازوف إلا أن يهرب؟ هه!... ولكنني سأدين نفسي بنفسي بعد ذلك، وسأكفّر عن هذا الذنب طوال حياتي في البلد الذي سألجأ إليه. قل لي: أليس يفكر. اليسوعيين هكذا؟ ألا يتكلمون كما نتكلم نحن الآن؟

- بلى... هكذا يفكرون.

بهذا أجاب أليوشا وهو يبتسم برفق وهدوء. فصاح ميتيا يقول وهو يضحك بفرح ومرح:

- أحب فيك أنك تقول الحقيقة دائماً ولا تخفي شيئاً. ها أنذا إذاً قد فاجأت أليوشا متلبساً بما يفعله يسوعي! وددت لو أقبّلك من أجل هذا، هل تعلم؟ اسمع إذاً ما أريد أن أقوله لك أيضاً، لأنني أريد أن أفتح لك النصف الثاني من نفسي كذلك. إليك القرار الذي اتخذته بعد أن فكرت فيه ملياً وأنضجته طويلاً ووزنته من جميع النواحي:

هبني هربت، بمال وجواز سفر، فأقمت في أمريكا. سوف يعزّيني ويواسيني ويشد أزري ويقوي عزيمتي أن أتصور أنني إذ أهرب لا أهرب لأفرح وأسعد، وإنما أهرب لألقي نفسي في سجن آخر مختلف عن السجن الذي كنت سأودع فيه هنا، ولكنه سجن على كل حال سجن يعادل السجن هنا أو هو أسوأ منه. أوه! إني أمقت أمريكا هذه منذ الآن... شيطان يأخذها!... وستكون جروشنكا معي.... طيب... ولكن فكّر قليلاً: ما الذي في جروشنكا من امرأة أمريكية؟ فيم تشبه جروشنكا امرأة أمريكية؟ إنها روسية، روسية حتى النخاع من عظامها، وستشعر هنالك بالحنين الأليم إلى الأرض التي ولدت فيها. وسوف أرى في كل لحظة أنها من أجلي إنما ارتضت عذاب النفس هذا، وأنها في سبيلي إنما حملت ذلك الصليب، هي التي لم تقترف ذنباً ولم ترتكب إثماً! وأنا؟ هل تظن أنني سأستطيع أن أطيق معاشرة أولئك الجفاة من سكان تلك البلاد حتى ولو كانوا خيراً مني؟ إنني أكرهها منذ الآن، أمريكا هذه؟ شيطان يأخذ سكان تلك البلاد ولو كانوا جميعاً، من أولهم إلى آخرهم، تكنيكيين من الطراز الأول! ذلك أنهم ليسوا هم الناس الذين يحبهم قلبي، ليسوا هم البشر الذين يستهوون فؤادي! أنا أحبّ روسيا يا ألكسي، أنا أحبّ إلهنا الروسي، رغم أنني لست أنا نفسي إلا إنساناً شقياً. ولكني سأختنق هنالك، سأختنق...

بهذا هتف ميتيا فجأة وقد سطعت عيناه واختلج صوته ثم أردف يقول مسيطراً على انفعاله:

- فإليك ما عقدت عليه العزم يا ألكسي. اصغ إليّ: سأذهب مع جروشا فمتى وصلنا إلى هناك اندفعنا نعمل فوراً: نستصلح الأرض ونحييها في مكان بعيد لا تجاورنا فيه إلا الدببة، مكان هو أنأى ما يكون عن المناطق الآهلة بالسكان. لا بد أن توجد هنالك أماكن نائية مقفرة! يُقال إنه ما يزال يوجد في أمريكا سكان حمر يعيشون في أقاصي البلاد. فإلى هناك سنذهب... إلى آخر قبائل الموهيكان سنلجأ... وسنشرع، أنا وجروشا في دراسة اللغة على الفور، لا نضيّع يوماً واحداً. ونقضي في ذلك ثلاث سنين: نزرع الأرض وندرس قواعد اللغة. وفي نهاية تلك السنين الثلاث، نكون قد أتقنا اللغة الإنجليزية، وأصبحنا نجيد الكلام بها كبريطانيين أصليين. فمتى تم لنا إتقان اللغة الإنجليزية إتقاناً كاملاً قلنا لامريكا وداعاً، وعدنا إلى روسيا كمواطنَيْن أمريكيين. ولكن لا تخف: لن نرجع إلى هذه المدينة. وإنما سنختفي في مكان ما، بعيد عن هنا، بالشمال، وربما بالجنوب. والى أن نعود يكون قد تغير مظهري، وتبدلت هيئتي، ويكون قد حدث لها هي أيضاً مثل ذلك. ثم إن أحد أولئك الأطباء الأمريكيين سيستطيع أن يجري تعديلاً في ملامح وجهي، كأن يزرع في خدي شامية اصطناعية مثلاً! إنهم هناك بارعون في التكنيك ! وسأفقأ إحدى عيني إذا اقتضى الأمر ذلك، وسأرخي لحيتي طويلة جداً، بيضاء كل البياض (ذلك أن لحيتي ستكون قد شابت بسبب ما أكون قد قاسيت من حنين إلى الوطن). وبذلك آمل أن لا أعرف حين أعود. وإذا افتضح أمري رغم ذلك فلا ضير... سيرسلونني عندئذ إلى المعتقل في سيبيريا... سيكون ذلك قدراً ولا شك!... وهنا أيضاً، في روسيا، سنحرث الأرض في ركن ناءٍ بعيد، وسأظل أتظاهر حتى الممات بأنني أمريكي. هكذا سيتاح لنا على الأقل أن نموت في وطننا وأن نُدفن في تراب بلدنا. تلك هي خطتي، وذلك هو قراري لن أرجع عنه. هل تؤيدني في هذا؟

-أؤيدك.

كذلك قال أليوشا الذي لم يشأ أن يعاكسه ويغيظه.

وصمت ميتيا لحظة ثم هتف يقول:

- ما أشد ما شوّهوا الوقائع في المحاكمة! يا لها من مسرحية!

فقال أليوشا وهو ينتهد:

- حتى بدون ذلك كانوا سيحكمون عليك.

فاستأنف ميتيا كلامه قائلاً بصوت فيه ألم:

- نعم، لقد ضاقوا بي في هذه المدينة، سامحهم الله، ولكن هذه قسوة فظيعة...

وساد الصمت مرة أخرى. ثم قال ميتا فجأة:

- أليوشا، يجب أن أعرف حتماً: أهي آتية أم لا؟ أجب... ماذا قالت لك؟ بماذا وعدتك؟

قال أليوشا:

- وعدتني بأن تجيء، ولكنني لا أدري هل تستطيع أن تجيء اليوم..

ثم أضاف وهو يلقي على أخيه نظرة خجلى:

- ليس هذا سهلاً عليها.

قال ميتيا:

- أقدّر أن هذا ليس سهلاً عليها. وكيف يكون سهلاً؛ أليوشا، انني أكاد أُجن. إن جروشا لا تكف عن التفرس فيّ. يبدو أنها تدرك. آه... رباه! اللّهم ألهمني الصبر! انظر ماذا أطلب الآن: إني أطلب كاتيا، لا بد لي من كاتيا... أأنا أدرك ما الذي أريده بهذا؟ هذه حمّى آل كارامازوف! هذا هو اندفاعنا المخزي! لا، لست قادراً على أن أتألم، واأسفاه! ما أنا إلا إنسان شقي تافه... ذلك كل شيء!...

في تلك اللحظة صاح أليوشا:

- هي ذي !

كانت كاتيا قد ظهرت في عتبة الباب. وتوقفت بضع لحظات تتأمل ميتيا بنظرة زائغة تائهة. وثب ميتيا واقفاً على قدميه، وعبّر وجهه عن ذعر، وامتقع لونه، ولكن سرعان ما ارتسمت على شفتيه. ابتسامة مذلة وضراعة، ومدّ ذراعيه فجأة نحو كاتيا بحركة لا تقاوم. فاستجابت كاتيا لهذه البادرة، واندفعت إليه، فأمسكت يديه، وأجلسته على سريره عنوةً، وجلست إلى جانبه وهي ما تزال ممسكة يديه، وأخذت تضغط عليهما ضغطاً قوياً عنيفاً يشبه أن يكون تشنجاً. وأرادا أن يتكلما عدة مرات، ولكنهما أمسكا عن الكلام في كل مرة، لينظر كل منهما في الآخر صامتاً، مبتسماً ابتسامة غريبة، وكأن كلا منهما قد شُدّ إلى صاحبه والتصق به. هكذا مرّت دقيقتان.

دمدم ميتيا أخيراً:

- هل غفرت لي؟

والتفت في اللحظة نفسها نحو أليوشا، وصرخ. يسأله وقد التهب وجهه بفرح عظيم:

- هل تسمع ماذا أسألها؟

وهتفت كاتيا تقول فجأة:

- لأن لك قلباً كريماً هذا الكرم إنما أحببتك. ولكن لست أنا من يغفر لك، لأنني أنا التي أحتاج إلى غفرانك. ولكن ليس هذا بالأمر الهام... لأن هذا الجرح سيظل

نازفاً في قلبي طوال حياتي سواء أغفرت أم لم أغفر. ستكون أنت عذابي، وسأكون أنا عذابك. حسن هذا....
وتوقفت كاتيا عن الكلام لتسترد أنفاسها، ثم استأنفت تقول مستعجلةً بصوتٍ أصبح شديد الحماسة والحرارة:
- هل تدري لماذا أتيت إليك؟ لأقبّل قدميك، لأشد على يديك، هكذا، إلى حد إيلامك، كما كنتُ أفعل في موسكو، أما زلت تتذكر؟ نعم، جئت لأقول لك مرةً ملء حنجرتي: إني أحبك حب الجنون.
صاحت تقول ذلك بصوت كأنه الأنين، ثم أطبقت بشفتيها على يد ميتيا فجأة، وأخذت الدموع تتدفق من عينيها.
لبث أليوشا صامتاً متحيراً: إنه ما كان له قط أن يتوقع مشهداً كهذا المشهد.
وتابعت كاتيا كلامها فقالت:
- الحب قد انقضى يا ميتيا، غير أن ما انقضى يظل عزيزاً في نفسي إلى حد الألم. تذكّر هذا إلى الأبد.
ثم دمدمت تقول وهي تبتسم ابتسامة متشنجة، تحدق إلى عينيه من جديد بنظرة فيها تعبير عن فرح:
- لنفرض، خلال لحظة، أن ما حلمنا به قد تحقق. أنت تحب الآن امرأة أخرى، وأنا أحبّ رجلاً آخر. لا بأس... سأظل أحبك مع ذلك إلى الأبد... وستظل تحبني أنت أيضاً. أكنت تعرف ذلك؟ هل تسمع؟ أريد أن تحبني، أريد أن تحبني مدى الحياة!
كذلك صاحت بهذه الجملة الأخيرة وفي صوتها ارتعاش يشبه أن يكون تهديداً.
أجابها ميتيا وهو يتوقف بعد كل كلمة من كلماته ليسترد أنفاسه:
- سأحبك، نعم... هل تعلمين أنني كنت أحبك أيضاً منذ خمسة أيام، في ذلك المساء... حين أغمي عليك ونُقلت من قاعة المحكمة... سأحبّك طوال حياتي! ذلك ما سيكون، ذلك ما سيكون إلى الأبد...
هكذا أخذا يتبادلان أقوالاً طائشة تفيض حماسة، ولعلها تفيض كذباً. ولكن كل شيء قد أصبح في تلك اللحظة صدقاً وحقيقة، وكانا كلاهما مخلصين كل الإخلاص.
وصاح ميتيا يسألها فجأة:
- كاتيا، أتعتقدين بأنني قتلت؟ أنا أعلم أنك لا تعتقدين الآن بذلك... ولكن في تلك المرة... أثناء إدلائك بشهادتك أمام المحكمة... هل يمكن حقاً أن تكوني قد اعتقدت بأنني قتلت؟
- لا، لم أعتقد بذلك حتى حينذاك! لم أعتقد بذلك في وقت من الأوقات! ولكنني كرهتك في تلك الآونة، فأقنعت نفسي خلال لحظات بأنك القاتل... أقنعت نفسي بذلك في تلك الدقيقة ذاتها التي أدليت فيها بشهادتي... أقنعت نفسي بذلك، فسرعان ما اقتنعت... ثم كففت عن الاقتناع منذ انتهيت من الإدلاء بشهادتي. أريد أن تعرف هذا. لقد نسيت أنني إنما جئت إلى هنا لأعاقب نفسي.
أضافت كاتيا ذلك وقد تبدّل تعبير وجهها وأصبح صوتها لا يشبه
في شيء ذلك الصوت الذي كانت يتمتم بكلمات الحب الرقيقة منذ قليل.
قال ميتيا فجأة وقد فقد كل تحفظ:
- روحك معذبة يا امرأة.
فدمدمت كاتيا:
- دعني أنصرف. سأعود إليك، أما الآن فلا أطيق البقاء. إنني متألمة.
ونهضت لتنصرف. ولكنها سرعان ما أطلقت صرخة حادة وتراجعت إلى وراء. كانت جروشنكا قد ظهرت في الغرفة. لقد دخلت بغير ضجة، ولم يكن يتوقع أحد أن يراها. اتجهت كاتيا نحو الباب مسرعة، ولكنها ما إن وصلت إلى مستوى جروشنكا حتى توقفت فجأة، وهمست تقول لها بصوت فيه أنين وتوجع وقد صار وجهها كالشمع اصفراراً:
- اغفري لي!
فحدقت إليها جروشنكا تحديقاً متفرساً، حتى إذا انقضت بضع ثوان أجابتها بصوت مسموم يفاقمه الكره:
- كلتانا شريرة. نحن متساويتان في الشر. فعلام تغفر كل منا للأخرى. أنقذيه، فأدعو لك الله إلى آخر أيامي!
صرخ ميتيا يقول لجروشنكا بلهجة عتاب شديد:
- لم تشائي أن تغفري لها؟
ودمدمت كاتيا تقول بسرعة:
- لا تخافي ! سأنقذه.
وأسرعت تفرّ من الغرفة.
وعاد ميتيا يهتف قائلاً بمرارة:
- كيف رفضت أن تغفري لها بعد أن طلبت منك ذلك؟ فتدخل أليوشا يقول بحرارة:
- لا تلمها يا ميتيا! ليس من حقك أن تلومها! وأجابت جروشنكا تقول باشمئزاز:
- لم يصدر كلامها من أعماق نفسها وإنما أوحاه إليها الكبر. ألا فلتنقذك فأغفر لها عندئذ كل شيء!
وصمتت كأنما لتكبت العواطف التي كانت تجتاح نفسها. لم تكن قد ثابت على هدوئها، وقد جاءت مصادفةً كما اتضح ذلك في ما بعد، دون أن تتوقع لقاء كهذا اللقاء.
قال ميتيا وهو يلتفت بحركة قوية نحو أخيه:
- أليوشا، حاول أن تلحق بها... واشرح لها... قل لها...
لا أدري ماذا... ولكن لا تدعها تنصرف على هذه الحال !
فصرخ أليوشا يقول وقد اندفع في أثرها:
- سأعود إليك هذا المساء
وأدركها في الشارع. كانت تسير بخطى سريعة، وتبدو مستعجلة، ولكنها حين أبصرت أليوشا قالت له بلهجة قوية:
- لا، يستحيل عليّ أن أذلّ نفسي أمام تلك المرأة! وإنما سألتها أن تغفر لي، لأنني أردت أن أمضي في التضحية إلى نهايتها، أن أشرب الكأس حتى الثمالة. وقد منعت عني غفرانها، فمرحى لها... إنني أحبها لموقفها هذا!...
أضافت كاتيا عبارتها الأخيرة هذه بصوت متشنج، وطاف بعينها لهيب من كره وحشي!
دمدم أليوشا يقول:
- لم يكن يتوقع أخي حضورها، كان واثقاً بأنها لن تجيء!
فقالت تحسم الحديث:
- لا شك في ذلك. ودعنا من هذا. اسمع: يستحيل عليّ أن أذهب معك الآن إلى الجنازة. لقد بعثت إليهم بأزهار للنعش. أظن أنهم ما يزال معهم بقية من مال. قل لهم، إذا لزم الأمر، إنني لن أتركهم في المستقبل أبداً... والآن دعني، دعني، أرجوك... ها أنتذا قد تأخرت منذ الآن، فلن تدرك إلا القداس الثاني... اتركني، أتضرع إليك!

-3-جنازة إيليوشا. التأبين قرب الصخرة

وصل أليوشا متأخراً بالفعل. كانوا ينتظرونه، وقد هموا أن يذهبوا إلى الكنيسة بدونه، حاملين النعش الصغير المزيّن بالأزهار تزييناً جميلاً. إنه نعش إيليوشا، الصبي المسكين. لقد مات بعد الحكم على ميتيا بيومين. استُقبل أليوشا أمام باب المنزل بصرخات الأطفال رفاق الصبي الراحل. كانوا جميعاً ينتظرونه بصبر نافد، وابتهجوا بوصوله. إن عددهم اثنا عشر صبياً يحملون حقائب المدرسة على ظهورهم. كان إيليوشا قد قال لهم قبل موته: «سيبكي بابا، فابقوا إلى جانبه»، وتذكر الأطفال وصيته. وكان على رأسهم كوليا كراسوتكين هتف كوليا وهو يمد يده إلى أليوشا:

- ما أسعدني برؤيتك يا كارامازوف! إن ما يجري هنا رهيب. إن ما يجري هنا تمزق رؤيته القلب. ليس سنيجريف سكران. نحن نعلم أنه لم يشرب اليوم شيئاً البتة، ولكنه كالسكران. إنني قوي القلب رابط الجأش، ولكن هذا المنظر رهيب. لا أريد أن أؤخرك يا كارامازوف، ولكن هل يمكنني أن ألقي عليك سؤالاً واحداً قبل أن تدخل؟

سأله أليوشا وقد توقف عن السير:

- ماذا يا كوليا؟

- هل أخوك مذنب أم هو بريء؟ أهو الذي قتل أباك، أم القاتل هو ذلك الخادم؟ سوف أؤمن برأيك. إن هذا السؤال قد حرمني النوم أربع ليال.

أجابه أليوشا:

- الخادم هو الذي قتل. أخي بريء.

فهتف الفتي سموروف يقول فجأة:

- ذلك هو رأيي أنا أيضاً.

صاح كوليا يقول:

- إذاً سيهلك بريئاً، سيهلك شهيداً من شهداء الحقيقة. لقد هوى، ومع ذلك لا بد أن يكون سعيداً! ألا إنني، من جهتي، المستعد أن أغبطه وأحسده!؟

قال أليوشا مدهوشاً:

- كيف؟ كيف يمكنك أن تقول مثل هذا الكلام؟

فأجابه كوليا بحماسة:

- أوه! لشد ما أتمنى أن أضحي بنفسي يوماً في سبيل الحقيقة.

قال أليوشا:

- ولكن ليس في قضية من هذا النوع، فما أتخيل... ليس في مثل هذا الجو من الخزي والهول والهوان؟

- طبعاً... أنا أتمنى أن أموت في سبيل الإنسانية كلها. أما هذا الخزي الذي تشير إليه فلا قيمة له! ألا سحقاً لأسمائنا. إنني أحترم أخاك.

- وأنا أيضاً أحترمه.

كذلك قال صوت آخر في جماعة التلاميذ، على نحو لم يكن متوقعة. إنه صوت ذلك الصبي الذي أكد في الماضي أنه يعرف أسماء بناة طروادة، وكما حدث في المرة السابقة اصطبغ وجهه بحمرة شديدة.

دخل أليوشا الغرفة. كان إيليوشا مسجّي في نعش صغير أزرق مزدان بتخريم أبيض، وقد أُغمضت عيناه وضُمت يداه. إن ملامح وجهه الناحل لم تكد تتغيّر. والأمر الغريب أنه ما من رائحة تعفن من جثته. وكان وجهه يعبر عن الجد، وكأنه يعبّر عن تفكير. وكانت يداه جميلتين جمالاً خاصاً. مقدودتان من مرمر. وقد وضعت بين أصابعه أزهار. وكان النعش كله مزداناً في الباطن والظاهر بأزهار أرسلتها ليزا خوخلاكوفا، منذ الصباح. وقد وصلت الآن أيضاً أزهار أرسلتها كاترينا إيفانوفنا، وفي اللحظة التي فتح فيها أليوشا الباب كان النقيب ينشر تلك الأزهار الجديدة على جسد ابنه الحبيب بيد مرتعشة. لم يكد ينظر إلى أليوشا. وكان غير عابئ بأحد على كل حال، حتى ولا بامرأته الخرفة التي كانت تبكي وتحاول أن تنهض على ساقيها المريضتين لتتأمل طفلها الميت من قرب. أما نينا فكان التلاميذ قد نقلوها على كرسيها وجعلوها قرب النعش، فهي الآن مسندةً رأسها إلى النعش، ولا شك أنها تبكي هي أيضاً في صمت. وكان وجه سنيجيريف يعبّر عن حركة ونشاط، غير أن فيه ارتباكاً على شيء من قسوة. كان في اشاراته وحركاته جنون، وكذلك في الأقوال التي تنطلق من لسانه. كان يصيح في كل لحظة قائلاً: «بنيّ الصغير الشهم، بنيّ الصغير الشجاع!». لقد كان يحب، حتى أثناء حياة ابنه، أن يناديه بقوله: «بنيّ الشهم الشجاع!».

- قالت الأم الخرفة وهي تنتحب:

- بابا، أعطني بضعة أزهار أنا أيضاً. خذ منه هذه الزهرة البيضاء التي يمسكها بيده، واعطني إياها!

أكانت تلك الوردة الصغيرة البيضاء هي التي أعجبتها ذلك الإعجاب كله، أم هي كانت تود أن تحتفظ بالزهرة التي يمسكها ابنها بيده، ذكرى منه؟ لا أحد يعلم، ولكن الأم كانت تضطرب اضطراباً رهيباً وهي تمد يديها نحو تلك الزهرة المشتهاة.

صرخ سنيجيريف يقول بلهجة قاسية:

- لن أعطيها لأحد، لن أعطي شيئاً. هذه الأزهار له هو، لا لك أنت ! كل شيء له هو، وليس لك شيء البتة!

قالت نينا فجأة وهي ترفع وجهها المبلل بالدموع:

- بابا، أعط ماما زهرة!

- لن أعطي شيئاً. لن أعطيها هي خاصةً، لأنها لم تكن تحبه؟ لقد أخذت منه هذا المدفع الصغير من قبل، وارتضى هو أن يهديه إليها.

كذلك قال النقيب وهو ينفجر باكياً من ذكرى اليوم الذي تنازل فيه إيليوشا عن لعبته لأمه من تلقاء نفسه. غطت المجنونة المسكينة وجهها بيديها، وأخذت دموعها تسيل. واذ لاحظ الصبية أن الأب لا يترك ابنه، مع أنه آن أوان نقله، فقد تحلقوا حول النعش حلقة كثيفة، وأخذوا يرفعون النعش.

- زأر سنيجريف يقول فجأة:

- لا أريد دفنه في المقبرة. سوف أدفنه قرب الصخرة، قرب صخرتنا. هذا ما أراده إيليوشا. لن أسمح بنقله.

الواقع أن سنيجيريف كان يؤكد منذ ثلاثة أيام أنه سيدفنه قرب الصخرة. احتج الحاضرون. وأخذ أليوشا وكراسوتكين وصاحبة البيت واختها وسائر الصبية، أخذوا يحاولون إقناعه.

قالت صاحبة البيت العجوز بصرامة:

- يا للفكرة العجيبة! كيف يُدفن قرب صخرة حقيرة كأنه شنق نفسه. المقبرة فيها صلبان وأرضها مباركة مقدسة. والناس يجيئون إليها فيصلون على روحه. وأناشيد الكنيسة تصل إلى هناك، وللشماس صوت يبلغ من قوة الرنين والوضوح أن أقواله يمكن أن يسمعها الصبي كأنها تُتلى على قبره.

وأخيراً حرّك النقيب يده بإشارة تنم على الإذعان والرضوخ وكأنه يقول: «خذوه حيث شئتم!». أنهض الصبية النعش وساروا به، حتى إذا مروا بالأم توقفوا وأحنوه لتستطيع أن تودع إيليوشا الوداع الأخير. فلمّا رأت الأم فجأة، من قرب، ذلك الوجه الصغير الغالي الذي كانت تتأمله منذ ثلاثة أيام من بعد، أخذت ترتعش وهي ترجّح رأسها الأشيب ترجيحاً هستيرياً من أمام إلى وراء، فوق النعش.

صرخت نينا تقول للأم:

- ماما، ارسمي عليه إشارة الصليب وباركيه وقبّليه !

ولكن المجنونة ظلت تهز رأسها صامتةً كأنها آلة تتحرك بغير إرادة، وقد تشنج وجهها على ألم شديد، وفجأة أخذت تلطم صدرها بقبضة يدها. وابتعد الصبية بالنعش. فلما مروا بأخته نينا ألصقت الفتاة شفتيها بشفتي أخيها المتوفي مرة أخيرة. وحين خرجوا من الدار اتجه أليوشا إلى صاحبة البيت فرجاها أن تهتم بأمر الباقين، ولكن صاحبة البيت لم تتح له أن يتم كلامه فقالت:

- أعرف واجبي. لن أتركهم. نحن أيضاً مسيحيون! وكانت العجوز تبكي أثناء كلامها.

لم تكن الكنيسة بعيدة. إنها على مسافة ثلاثمائة خطوة في أكثر تقدير. وكان النهار مضيئاً هادئاً، على شيء من صقيع، وكانت أصوات النواقيس تُسمع مؤذنة بالصلاة. إن سنيجيريف يركض وراء النعش مضطرب الحركة، تائه الهيئة، مرتدياً معطفه العتيق القصير الذي يشبه أن يكون كساءً من أكسية الصيف، حاسر الرأس يمسك بيده قبعته البالية الطويلة الحواف، المصنوعة من لباد. كان كمن تملأ ذهنه مشاغلُ لا سبيل لحلها، هو تارةً يمد ذراعيه على حين فجأة ليساعد في

حمل النعش فلا يزيد على أن يُربك أولئك الذين يحملونه، وهو تارة أخرى يهرع إلى جانب محاولاً أن يصطف في الموكب. وسقطت زهرة على الثلج، فأسرع يلتقطها كان سقوطها هذا يمكن أن يؤدي إلى عواقب خطيرة لا يعلم إلا الله ما هي؟
وصرخ يقول مذعوراً على حين فجأة:
- رغيف الخبز! نسينا الرغيف!
ولكن الصبية نبّهوه إلى أنه قد أخذ الرغيف، وأن الرغيف هو الآن في جيبه. فأسرع يخرجه، حتى إذا تأكد من وجوده اطمأن باله. وقال لأليوشا شارحاً:
- إن إيليوشا هو الذي أمر بهذا. كان لا ينام الليل، وكنت أجلس قربه. وفجأة أمرني قائلاً: «بابا، حين يهيلون على قبري التراب، فانثر فوقه فتات خبز فتتهافت عليه العصافير، فأسمع صوتها، فلا أشعر بأنني وحيد».
قال أليوشا:
- فكرة حسنة. يجب فعل ذلك أحياناً كثيرة.
- كل يوم، سأفعل هذا كل يوم!
بهذا أجاب الأب متحمساً.
ووصل الموكب أخيراً إلى الكنيسة، ووضع النعش في وسطها، وأحاط به الصبية يحرسونه بأبهة وجلال إلى آخر القداس. إنها كنيسة قديمة فقيرة، وإن عدداً كبيراً من أيقوناتها معلق من غير أطر. وفي كنائس من هذا النوع إنما يّصلي أحسن الصلاة في أكثر الأحيان. بدا على سنيجيريف أثناء القداس أنه هدأ قليلاً، غير أن قلقاً لا شعورياً، قلقاً ليس له سبب ظاهر، كان يجتاح نفسه من حين إلى حين. واقترب من النعش مرةً ليرتب الغطاء وليعدل العصابة التي تعصب جبين الميت[260].
وفي مرة أخرى سقطت احدى الشموع فأسرع يعيدها إلى موضعها وانشغل بهذا العمل مدة طويلة. وعاد إليه الهدوء بعد ذلك من جديد، فوقف عند رأس التابوت مذعناً، على شيء من بلادة وقلق وحيرة في تعبير وجهه. حتى إذا انتهت قراءة ما قرىء من الإنجيل، قال سنيجيريف لأليوشا هامساً في أذنه (وكان أليوشا إلى جانبه): لم تكن القراءة «كما يجب أن تكون»، ولكنه لم يشرح جوهر فكرته. وحين أنشد الكروبين، صاحَبَ الأب الإنشاد بصوت خافت، ولكنه لم يلبث أن توقف عن الإنشاد فجأة وارتمى جاثياً على ركبتيه، ثم سجد حتى التصق جبينه بالبلاط، ولبث على هذا الوضع مدة طويلة. وأخيراً تليت صلاة الجنازة، ولكن مهابة الغناء الجنائزي المؤثر لم تلبث أن نفذت إلى قلبه فهزته، ثم عاد إلى ذاته، وتجمع على نفسه، وأخذ يبكي بنشيج قصير سريع، خانقاً صوته في أول الأمر، تاركاً لألمه بعد ذلك أن ينفجر صاخباً غير مكظوم. حتى إذا آن أوان التوديع وأريد إغلاق التابوت، فأسرع يحيطه بذراعيه كأنما ليحول دون إغلاقه، وألصق شفتيه بوجه صغيره الميت. وراح يغمره بالقبل في ظمأ لا يرتوي[261]، وطفق يقبله على الفم مزيداً ومزيداً من التقبيل لا يريد أن يتوقف. وردّوه أخيراً إلى الصواب واستطاعوا أن ينحّوه. وفيما هو ينزل على الدرجات، غيّر رأيه فجأة، فأغار بذراعيه على التابوت واختطف منه بضع زهرات، وأخذ يتأملها. إن فكرة جديدة قد نبتت في نفسه عندئذ، حتى لكأنه نسي، خلال لحظات، الأمر الذي هو فيه. وهوي، شيئاً فشيئاً، إلى نوع من تأمل عميق، فلم يظهر بعد ذلك مقاومة ولا معارضة حين رُفع التابوت الصغير لنقله إلى القبر. كان القبر قريباً كل القرب، فهو في الحوش إلى جانب الكنيسة. وقد تكلف ثمنا باهظاً تولت دفعه كاترينا إيفانوفنا. وقام الحفارون بإنزال التابوت في القبر بعد إجراء الطقوس المألوفة، فبلغ سنيجيريف (وكان يحمل الأزهار بيده) بلغ من شدة ميله على القبر المحفور أن الصبية أمسكوه من معطفه مذعورين وشدوه إلى وراء. غير أن من يراه في تلك اللحظة يخيّل إليه أنه أصبح لا يفهم ما يجري حوله فهماً واضحاً. حتى إذا أهيلت على القبر أولى مجارف التراب، خرج من خدره فجأة، فأشار بيده إلى التراب الذي كان يتكوم، ودمدم بعباراتٍ غامضةٍ لم يفهمها أحد. على أنه لم يلبث أن صمت فوراً. وذُكّر عندئذ بأن عليه أن ينثر فتات الخبز، فاضطرب فجأة، وأخرج الرغيف من جيبه، وأخذ يفتته، مبعثراً فتاته على القبر، مدمدماً في تشفع قلق: «هيّا اسرعي يا عصافيري الصغيرة !». وقال له أحد الصبية إن الأزهار التي يمسكها بيده تعوق حركته، واقترح أن يحملها عنه لحظات، ولكنه أبى أن يعطيها، حتى لقد بدا عليه ذعرٌ من تصوّر أن أحداً يريد انتزاعها منه. حتى إذا ألقي نظرة على القبر، فاطمأن إلى أن كل شي قد تم على ما يرام، وأن فتات الخبز قد نثر، استدار فجأة ومضى متجهاً إلى البيت وقد هدأ هدوءًا كبيراً على حين بغتة. ولكن خطواته أخذت تسرع شيئاً بعد شيء، وأخذ يتعّجل المشي مزيداً من التعجل حتى صار كمن يركض ركضاً. ولم يتركه أليوشا والصبية.
بدأ يهتف:
- أزهار للأم. لا بد من أزهار للأم. لقد أوذيت الأم وتألمّت.
ولفت أحدهم انتباهه إلى أن عليه أن يضع قبعته على رأسه مخافة البرد، فإذا بهذه الملاحظة تغضبه، وإذا هو يرمي قبعته على الثلج بعنف قائلاً:
- لا أريد قبعة، لا أريد قبعة!
فمال الفتى سموروف على الثلج، فتناول قبعة اللباد وتولى حملها. وكان جميع الصبية يبكون، ولا سيما كوليا والصبي الذي اكتشف بناة طروادة. أما سموروف فكان يبكي بكاءً غزيراً هو أيضاً، ممسكاً قبعة النقيب بيده، ومع ذلك أمكنه أثناء الطريق أن يتناول من الأرض قطعة قرميد كان يتلألأ احمرارها في الثلج، فرماها في الهواء على سرب من العصافير، فلم يصبها طبعاً، فعاد ينضم إلى جماعته وهو يبكي. وفي منتصف الطريق توقف سنيجيريف فجأة، وشرد فكره نصف دقيقة ثم إذا هو يستدير وكأن فكره مباغتة قد انبجست في ذهنه، واندفع يركض نحو الكنيسة، نحو القبر الصغير المهجور. ولكن الصبية لحقوا به وأدركوه في لمح البصر وأحاطوا به من جميع الجهات ليصدّوه، فتهاوى عندئذ على الثلج محطّماً مهدم القوى، وأخذ يئنّ منتحباً صائحاً:
- بنيّ الشهم الشجاع إيليوشا، بنيّ الشهم الشجاع !
أنهضه أليوشا وكوليا محاولَيْن أن يواسياه ويهدئاه.دمدم كوليا يقول له:
- ما هذا يا نقيب؟ إن على الرجل الشجاع أن يعرف كيف يحتمل الألم!
وقال له أليوشا:
- سوف تفسد الأزهار، بينما الأم تنتظرها. هي الآن في البيت تنتحب لأنك رفضت أن تعطيها بعض أزهار إيليوشا.
وفي البيت أيضاً السرير الصغير الذي كان يرقد عليه إيليوشا فصاح سنيجيريف يقول وكأن ذاكرته قد عادت إليه فجأة:
- نعم نعم، لنركض إلى الأم.
وأضاف يقول مذعوراً من تصوّر أنهم قد يُبعدون سرير ابنه:
- سوف يرفعون السرير، سوف ينقلون السرير!
نهض وأخذ يركض نحو البيت. ولم تكن المسافة الباقية طويلة. ووصل الجميع في وقت واحد. وفتح سنيجيريف الباب بسرعة، وصاح يقول لامرأته التي خاشنها تلك المخاشنة كلها منذ قليل:
- ماما، ماما العزيزة، إن إيليوشا يرسل إليك هذه الأزهار. إن ساقيك مريضتان !...
هكذا صاح وهو يمد إليها الأزهار التي تجلدت وتكسرت بعض التكسير حين كان يتخبط في الثلج. ولكنه في تلك اللحظة نفسها أبصر في ركن من الأركان أمام سرير إيليوشا، حذاءي ابنه اللذين رتبتهما صاحبة البيت هناك منذ هنيهة - وهما حذاءان عتيقان حال لونهما واهترأت أطرافهما، ورقّعتا في كل موضع، فلما رآهما رفع ذراعيه وركع أمامهما، فتناول أحدهما، وأطبق عليه بشفتيه يقبله تقبيلاً نهماً، ويئن قائلاً:
- بنيّ الشهم الشجاع إيليوشا، بنيّ الشهم الشجاع، أين هما الآن قدماك الصغيرتان الحلوتان؟
فاعولت المجنونة تسأل بصوت ممزّق.
- إلى أين أخذته؟ إلى أين أخذته؟
وأجهشت نينا تبكي وتنتحب أيضاً. فخرج كوليا من الغرفة مسرعاً وتبعه الصبية الآخرون، ولحق بهم أليوشا إلى الخارج، وقال يخاطب كوليا: «لندعهم يبكون. ليس هناك ما نعمله الآن، فلسنا نستطيع أن
نعزيهم. لننتظر هنا بضع لحظات، ثم نعود إلى الغرفة».
قال كوليا مؤيداً:
- نعم، لا نستطيع أن نفعل الآن شيئاً. فظيع، فظيع!
ثم أضاف يقول خافضاً صوته على حين فجأة حتى لا يسمعه أحد غير أليوشا:

- هل تعلم يا كارامازوف! إنني أشعر بحزن رهيب، وإني لمستعد أن أهب كل شيء في العالم من أجل يُبعث حياً، لو كان ذلك في الإمكان.
قال أليوشا:
- وأنا أيضاً.
- هل يجب علينا أن نعود إليهم في هذا المساء؟ ما رأيك يا كارامازوف؟ إن من الجائز أن يكبّ على الشراب ويسكر!
- من الجائز فعلاً أن يسكر. ولكننا سنجيء وحدنا نحن الاثنين. هذا كاف. وسنقضي في صحبتهم ساعتين، مع الأم ونينا. أما إذا جئنا جميعاً فقد نوقظ آلامهم.
كذلك اقترح أليوشا.
قال كوليا:
- إن صاحبة البيت تهيئ المائدة الآن. أغلب الظن انها تفعل ذلك إعداداً لوجبة إحياء ذكرى الميت. وسيجيء القس. هل علينا أن نعود إلى الغرفة يا كارامازوف؟
أجابه أليوشا:
- حتماً ؟
- ما أغرب هذا كله يا كاراماوزف؟ أيكون الناس في مثل هذا
الألم ثم يأكلون الفطائر؟ ما أكثر ما هنالك من أمور غريبة في ديانتنا!
قال الفتى الذي اكتشف بناة طروادة، قال فجأة بصوت عالٍ:
- هنا أيضاً سمك سلمون.
فقال له كلوليا بصوت حانق:
- أرجوك ملحاً يا كارتاشوف أن لا تتدخل في حديثنا بسخافاتك، لا سيما وأن أحداً لم يسألك عن شيء! وأننا نؤثر أن نجهل وجودك !
فاحمرّ وجه الفتى احمراراً شديداً ولكنه لم يجرؤ أن يجيب. وكان الصبية يسيرون في الطريق على مهل، فصاح سموروف يقول فجأة:
- تلكم هي صخرة إيليوشا، الصخرة التي كان يُراد أن يدفن تحتها.
توقف الجميع أمام الصخرة الكبيرة ولبثوا صامتين، فنظر إليهم أليوشا، ورأى بخياله المشهد الذي قصه عليه سنيجيريف، ورأى إيليوشا معانقاً أباه قائلاً له: «بابا! حبيبي بابا! ما أشد ما أذلّك!». وتحرك شيء ما في نفس أليوشا عندئذ، فطاف بنظرة رصينة ثابتة على هذه الوجوه الفتية النضرة الزاهية، وجوه التلاميذ، رفاق إيليوشا، وقال لهم:
- يا أصدقائي، أحبّ أن أوجه اليكم بضع كلمات هنا، في هذا المكان بعينه.
فأحاط به الصبية وحدقوا إليه بأعينهم الملتهبة.
قال أليوشا:
- يا أصدقائي، سنفترق عما قريب. أنا الآن مقيم في هذه المدينة قرب أخويّ اللذين سيرسل أحدهما بعد مدة قصيرة إلى الأشغال الشاقة، أما الثاني فيحتضر. ولكنني سأبارح هذه الديار قريباً، وربما غبت عنها سنين طويلة. سنفترق إذاً يا أصدقائي. لذلك أقترح عليكم أن نتعاهد هنا، قرب هذه الصخرة التي كان إيليوشا يحب أن يقف عندها، على أن لا ننسى الراحل الصغير أبداً. هذا أولاً، وأن نتعاهد ثانية على أن يتذكر بعضنا بعضاً على الدوام. يجب علينا، مهما يقع لنا في هذه الحياة، ولو طال فراقنا عشرين عاماً، أن نتذكر دائماً هذا اليوم الذي دفنّا فيه الصبي المسكين الذي كنا نرميه بالحجارة قبل ذلك - قرب الجسر الصغير، هل تتذكرون؟ - ثم أصبحنا نحبه جميعاً كل هذا الحب. لقد كان فتى شهماً، طيب القلب، شجاعاً، قوى الشعور بالشرف، أبياً عميق الإحساس بالمرارة من الإهانة التي ألحقت بأبيه، تلك الإهانة التي تمرّد بسببها وثار. يجب أن نظل نتذكره طوال حياتنا. مهما يكن مصيرنا المقبل، وأياً كانت الأمور الخطيرة التي ستشغل فكرنا، وسواء أأصبحنا نحتل مناصب عليا أم نزل بنا شقاء لم يكن في الحسبان، يجب أن لا ننسى أبداً هذا العهد الذي أسعدنا فيه شعورنا بالاتحاد على عاطفة طيبة بريئة طاهرة نحو الصبي الراحل، وأسعدنا فيه هذا الحب الذي حملناه له والذي لعله جعلنا خلال هذه الفترة أحسن مما نحن في الواقع. يا طيوري الصغار - اسمحوا لي أن أناديكم هكذا لأنكم جميعاً تشبهون طيور الحمام الجميلة - إنني أتأمل الآن وجوهكم التي تفيض طيبة ولطفاً ورقة، فأقول، يا أبنائي الأعزاء، إنكم قد لا تدركون أقوالي الآن لأنني في كثير من الأحيان أعبّر تعبيراً غامضاً، ولكنكم ستحتفظون بذكراها على الأقل، ثم يأتي يوم توافقونني فيه على رأيي. ألا فاعلموا إذا أنه ليس في حياتنا شيء أقوى ولا أطهر ولا أكثر سمواً وأنفع لحياتكم المقبلة من ذكرى طيبة، ولا سيما إذا نفذت إلى نفوسنا أثناء طفولتنا تحت سقوف منازل الآباء. ما أكثر ما يحدثكم الناس عن تربيتكم وتهذيبكم. ألا فاعلموا أن ذكرى مشرقة مقدسة
يحملها المرء في نفسه منذ طفولته هي خير تربية وأفضل تهذيب. سيجد المرء خلاصه إذا كانت نفسه تحتفظ بذكريات كثيرة من هذا النوع. ورب ذكرى مضيئة واحدة كهذه الذكرى تكون كافية لخلاصنا ولو لم يبق في قلوبنا أي شيء سواها. قد نصبح أشراراً بعد، قد نعجز في المستقبل عن مقاومة فعل سيئ. قد نسخر من ألم الإنسان ومن الناس الذين يحترقون شوقاً إلى «التألم في سبيل الإنسانية»، كما قال كوليا منذ قليل، قد نستهزئ بمثل هؤلاء الناس في خبث وشر، ولكن مهما نصبح أشراراً، لا سمح الله، فما إن نتذكر اليوم الذي دفنا فيه إيليوشا، والحب الذي حملناه له في الآونة الأخيرة، وهذه المودة والصداقة والمحبة التي ترفرف علينا في هذه الدقيقة، قرب هذه الصخرة. إن أشدنا ميلاً إلى القسوة وحباً بالتهكم - هذا إذا أصبحنا قساة متهكمين في يوم من الأيام - لن يجرؤ، متى استيقظت في خياله هذه الذكرى، لن يجرؤ، في قرارة نفسه، أن يسخر من العواطف الطيبة والمشاعرة الكريمة النبيلة التي هزته أثناء هذه اللحظات. ومن يدري؟ ربما استطاعت هذه الذكرى أن تصدَّه في اللحظة المناسبة عن ارتكاب عمل سيئ، فمتى تذكرها ثاب إلى ذاته وحدَّث نفسه قائلاً: «نعم، لقد كنت في ذلك الوقت طيباً شجاعاً شريفاً ».
قد يبتسم قليلاً حين يتذكر هذا العهد... إنه لأمر طبيعي أن يتندر الإنسان على ما هو خير وطيب وبراءة. تلك خفة وطيش لا أكثر. ولكن أؤكد لكم يا أصدقائي أن أحدنا ما إن يبتسم قليلاً حينذاك حتى يبادر إلى لوم نفسه في قرارة قلبه قائلاً: «لا، لقد أخطأت حين ابتسمت، فلا مزاح في هذه الأمور»..
هتف كوليا يقول وقد سطعت عيناه:
- ذلك ما سيكون يا كارامازوف! إني أفهمك يا كارامازوف!
واضطرب الصبية الآخرون أيضاً، وتمنوا أن يصيحوا قائلين شيئاً ما، ولكنهم كبحوا جماح أنفسهم، وحدّقوا إلى الخطيب تحديقاً شديداً يفيض بالانفعال والحنان.
وتابع أليوشا كلامه فقال:
- إنما أقول لكم الآن هذا الكلام مخافة أن نصبح أشراراً. ولكن لماذا نتصور هذا الإمكان، علام نقدّر أن من الجائز أن نصبح أشراراً؟ أليس كذلك يا أصدقائي؟ ألا فلنكن ولنصبح أخياراً قبل كل شيء، ولنكن شرفاء بعد ذلك، ثم فليتذكر بعضنا بعضاً إلى الأبد. إنني ألح على هذا، وأعاهدكم، من جهتي، على أنني لن أنسى أي واحد منكم! سأظل أتذكر، ولو بعد ثلاثين عاماً، كل وجه من وجوهكم هذه التي تنظر إلي الآن. منذ قليل زعم كوليا للفتى كارتاشوف أننا نؤثر «أن نجهل وجوده بيننا». ولكن أنّي لي أن أنسى وجود كارتاشوف الذي أصبح لا يحمرّ في هذه اللحظة كما احمر حين ظن أنه اكتشف طروادة، والذي ينظر إليّ الآن بعينيه الطيبتين الباشتين الفرحتين. يا أصدقائي، يا أصدقائي الأعزاء، لنكن جميعاً كراماً شجعاناً كما كان الصغير إيليوشا، لنكن جميعاً جسورين نبلاء أذكياء مثل كلويا (الذي سيتوهج ذكاؤه. مزيداً من التوهج حين يكبر)، ولنكن جميعاً خجولين على ذكاء وحلاوة مثل كارتاشوف! ولكن لماذا أتكلم عن هذين الاثنين فحسب؟ إنني من اليوم أحبكم جميعاً يا أصدقائي، فستحيون جميعاً في قلبي، وأرجو أن أحيا في قلوبكم أيضاً! من ذا الذي وحّدنا الآن على هذه العاطفة النبيلة الطيبة التي ستظل نتذكرها بغير انقطاع، والتي سيظل يجب علينا وسنظل نريد أن نتذكرها بقية العمر؟ من ذا الذي وحّدنا على هذه العاطفة إلا إيليوشا، ذلك الفتى الطيب الرائع، ذلك الفتى الذي سنظل نحمل ذكراه الغالية إلى الأبد؟ نعم، يجب أن نتذكر إيليوشا مدى الحياة.
يجب ألاّ ننساه قط. ألا فلتعش أرواحنا، ألا فلتعش في قلوبنا ذكرى هذا الفتى الطيبة، الآن وإلى آخر الزمان!
- نعم نعم، ذكراه الطيبة!
كذلك ردّد جميع الصبية بأصواتهم الرنانة بينما كانت تُقرأ على قسمات وجوههم عاطفة قوية عارمة.
- ألا فلنتذكر وجهه، فلنتذكر ثيابه، وحذاءيه الصغيرين الفقيرين، ونعشه، ألا فلنتذكر أيضاً أباه الشقي الخاطئ، ولنتذكر تلك الجرأة التي أظهرها إيليوشا في دفاعه عنه ضد جميع تلاميذ الصف!
- نعم نعم، فلنتذكر هذا كله ! لقد كان شجاعاً، وكان طيباً ! بهذا راح يهتف الصبية من جديد. وصاح كوليا قائلاً:
- آه... كم كنت أحبه!
- يا أصدقائي الأحبة، يا أبنائي، لا تخافوا الحياة! ما أجمل

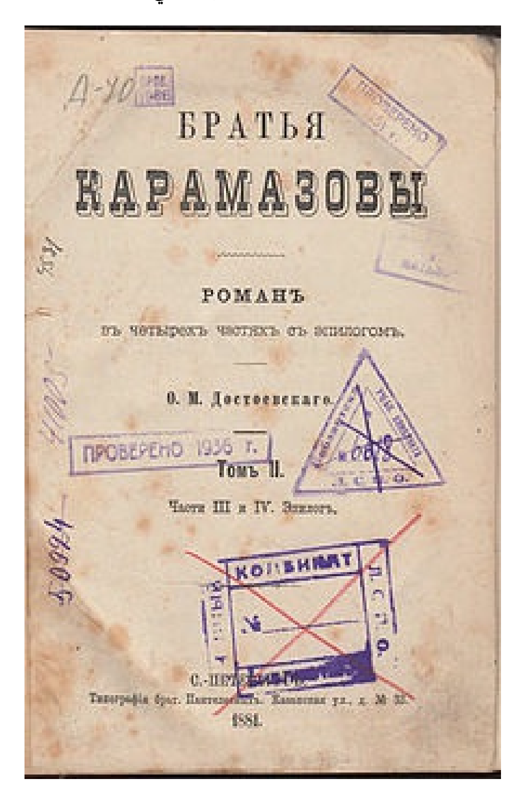
الحياة حين يحقق المرء في هذا العالم شيئاً من خير وعدل !
- نعم نعم، صحيح...
كذلك ردّد الصبية في حماسة.
وقال صوت على حين فجأة، هو صوت كارتاشوف في ما يبدو: - نحن نحبك يا كارامازوف!
فكرر جميع الصبية قوله:
- نحن نحبك، نحبك يا كارامازوف!
وسالت دموع من أعين عدد كبير منهم.
وصاح كوليا يهتف بلهجة فيها حماسة:
- مرحى كارامازوف!
فأضاف أليوشا يقول بانفعال:
- وعاشت أبدية ذكرى الميت الصغير!
فردد الصبية بصوت واحد:
- عاشت إلى الأبد!
وقال كوليا سائلاً:
- كارامازوف، هل صحيح ما يعلمنا إياه الدين من أننا سنُبعث أحياء بعد الموت في يوم من الأيام، فيرى بعضنا بعضاً، ونرى إيليوشا؟
- هذه حقيقة مطلقة. لا شك في أننا سنبعث أحياء بعد الموت، فنلتقي جميعاً، ويقص بعضنا على بعض ما وقع له بفرح ومرح بهذا أجاب أليوشا بين هزل وحماسة.
فقال كوليا صائحاً:
- آه... ما أروع هذا!
- كفانا الآن كلاماً، وهيا بنا إلى وجبة إحياء ذكرى الميت. ولا تقلقكم الفطائر التي سنأكلها. هذه عادة قديمة لها جانبها الجميل أيضاً. هيا بنا إلى الطعام يداً بيد.
كذلك قال أليوشا ضاحكاً. فصاح كوليا يقول من جديد بصوت
يفيض حماسة:
- نعم، يداً بيد، وليكن الأمر كذلك على مدى حياتنا كلها.
مرحى كارامازوف.
وردّد سائر الصبية هتاف كوليا بصوت واحد.

1880 - 1879

البوم صور



<u>غلاف الطبعه الاصلية الاولي:</u>



БРАТЬЯ

КАРАМАЗОВЫ

РОМАНЪ

въ четырехъ частяхъ съ эпилогомъ.

Ѳ. М. Достоевскаго.

Томъ II.

Части III и IV. Эпилогъ.

1881.

الصفحة الأولى من اول طبعة للكتاب سنة 1879م

БРАТЬЯ КАРАМАЗОВЫ

РОМАНЪ

Истинно, истинно говорю вамъ: если пшеничное зерно, падши въ землю, не умретъ, то останется одно; а если умретъ, то принесетъ много плода.

(Евангеліе отъ Іоанна. Глава XII, 24.)

ОТЪ АВТОРА.

Начиная жизнеописаніе героя моего, Алексѣя Ѳедоровича Карамазова, нахожусь въ нѣкоторомъ недоумѣніи. А именно: хотя я и называю Алексѣя Ѳедоровича моимъ героемъ, но однако самъ знаю что человѣкъ онъ отнюдь не великій, а посему и предвижу неизбѣжные вопросы въ родѣ таковыхъ: чѣмъ же замѣчателенъ вашъ Алексѣй Ѳедоровичъ что вы выбрали его своимъ героемъ? Что сдѣлалъ онъ такого? Кому и чѣмъ извѣстенъ? Почему я, читатель, долженъ тратить время на изученіе фактовъ его жизни?

Послѣдній вопросъ самый роковой, ибо на него могу лишь отвѣтить: „Можетъ-быть увидите сами изъ романа". Ну а коль прочтутъ романъ и не увидятъ, не согласятся съ примѣчательностью моего Алексѣя Ѳедоровича? Говорю такъ потому что съ прискорбіемъ это предвижу. Для меня онъ примѣчателенъ, но рѣшительно сомнѣваюсь успѣю ли это доказать читателю. Дѣло въ томъ, что это пожалуй и дѣятель,

مذكرات دوستويفسكي للفصل 5 من الاخوة كارامازوف

الفهرس:

Notes

[←1]

آنا جريجوربيفنا دوستويفسكايا (اسم عائلتها قبل الزواج : سنستكينا) 1864 - 1918، هي زوجة دوستويفسكي الثانية. تزوج منها عام 1867.

[←2] «الحق، الحق أقول لكم...»: يرى بعضهم أن تصدير دوستويفسكي كتابه بهذه الآية من الإنجيل يعبرعن اقتناع دوستويفسكي بأن النفس الإنسانية و(النفس الروسية) لن تبعث بعثاً جديداً إلا بعد أن تجتاز أزمة عميقة.

[←3]

إن اسم كارامازوف، كغيره من أسماء بعض الأسر النبيلة، يرجع إلى أصل تتري. ولكن بعض النقاد يرون أن اختيار دوستويفسكي هذا الاسم لأبطال روايته قد تأثر خاصة باسم دمتري كاراكوزوف، الثوري الذي حاول يوم 4 نيسان (إبريل) 1866 اغتيال القيصر الإسكندر الثاني بينما كان القيصر يتنزه في حديقة الصيف. ويقال إن دوستويفسكي قد هزته كثيراً محاولة الاغتيال هذه. ويشير آخرون إلى أن كلمة كارا (قره) تعني في اللغة التترية: الأسود، ويرون في ذلك رمزاً.

[←4] يشير الناقد إلى أن معنى ذلك أن دوستويفسكي يضع أحداث رواية «الأخوة كارامازوف» في خريف 1866، وبذلك يكون قد أخطأ في الحساب حين أشار في الفصل الثامن من الباب الثاني من هذه الرواية إلى مقتل فون سون الذي وقع في نهاية سنة 1869.

[←5]
الإشارة إلى أوفيليا بطلة مسرحية «هملت» للشاعر والمسرحي الإنجليزي وليام شكسبير (1564 -1616) تقترن هنا بفكرة تحرير المرأة وتشير إلى الطابع الغربي لهذه الفكرة.

[←6]

استشهاد غير دقيق ببيت من قصيدة «لا تصدّق نفسك» (1839) للشاعر الروسي ميخائيل ليرمنتوف (1814 – 1841).

[←7] «ميتيا» تصغير اسم دمتري، تحبباً.

[8←]

بيير جوزيف برودون (1809 -1865) اقتصادي وعالم اجتماع فرنسي من الاشتراكيين الطوباويين ذوي النزعة الفوضوية. وميخائيل ألكسندروفتش باكونين (1814 -1876) ثوري روسي من الثوريين الشعبيين، وأحد مؤسسي المذهب الفوضوي (الفوضوية).

[←9]

«الأيام الثلاثة الأولى من ثورة شباط (فبراير) 1848»: هي الأيام التي تمتد من 22 إلى 24 فبراير، والتي أدت إلى تنازل لويس فيليب عن العرش.

[←10]

«يملك ثروة مستقلة يمكن أن تقدر في ذلك العصر بالف نفس»: ألف نفس، أي ألف قن، وهذا يدعو إلى افتراض أن الأراضي المملوكة تزيد على عشرة آلاف هكتار.

[←11]

حسب القوانين الروسية يعتبر الشخص قد بلغ سن الرشد عندما يبلغ عمره الحادية والعشرين.

[←12]

«كليكوشي»: الكلمة مشتقة من فعل كليكات الروسي ومعناه صرخ، وهو اسم يطلق على النساء الهستيريات اللواتي يصرخن كأن بهن مسأ من جن.

[←13]

ظهرت هذه المسألة عام 1864 ارتباطاً بالإصلاح القضائي العام. وقد نشب جدال حامي الوطيس على صفحات الجرائد والمجلات واستمر سنوات عديدة حول إصلاح المحاكم الدينية (الكنسية). وقد أصر أنصار العلمانية على دعم الأسس الحكومية (الدولة) في النظام القضائي الكنسي القادم، بينما نادى الآخرون (أنصار الكنيسة) بضرورة إخضاع هذه المحاكم كلية لرجال الدين.

[←14]

«الشيخ»: بالروسية «ستارتس»، وهو اسم يطلق تعظيماً وتبجيلاً على الرهبان الطاعنين في السن. أما العجوز العادي فاسمه بالروسية «ستاريك».

[←15]

«الشيخ زوسيما»: إن هذه الشخصية تذكر بشخصية الشيخ أمفروسي الذي زاره دوستويفكسي في أوبتينا سنة 1878، ولكن دوستويفسكي قد استوحي أيضاً كتاباً بعنوان: «حياة الشيخ الراهب زوسيما وأعماله المجيدة»، وقد نشر هذا الكتاب في موسكو سنة 1860، إن هذا الراهب (1767 - 1835) هو ابن حاكم مقاطعة سمولنسك المسمى فرخونسكوي، وقد كان في شبابه ضابطاً في حرس القيصرة كاترين الثانية، ثم ترَهَّب وأصبح شيخاً يعيش حياة نسك قاسية. وقد جمع أحد مريديه أقواله ومواعظه ونشرها، فاستخدمها دوستويفسكي في إعداد الباب السادس من روايته «الأخوة كارمازوف».

[←16]

لا بد إذن من اختراعها (بالفرنسية في الأصل).

[←17]

«هذه... من أجلي أنا خاصة...»: تحوير لعبارة فولتير (1694 - 1778) الشهيرة: «لو لم يكن هناك إله لوجب اختراعه».
(«Si dieu n'existait pas, il faudrait l'inventer»).

[←18]

«رأيت طيف حوذي كان ينظف طيف عربة بطيف فرشاة» (بالفرنسية في الاصل».
J'ai vu l'ombre d'un cocher, qui avec l'ombre d'une bross frottait l'ombre d'une carrosse
عرض بتصرف لمقطع من النشيد السادس من «الألياذة المزورة»، وقد نشرها سنة 1643 الأخوة شارل ونيقولا وكلود بيرو وصديقهم بورين.

[←19]

«أعلن الرسول توما...»: إن ما يذكر عن هذا الرسول من عدم تسرعه في التصديق قد أشير إليه في إنجيل يوحنا (الإصحاح العشرون، 24 - 29).

[←20]

إنجيل متى - الإصحاح التاسع عشر، 21.

[←21]
«... بعد سقوط القسطنطينة...»: سقطت القسطنطينية (استنبول حالياً) في يد السلطان التركي محمد الثاني في عام 1453.

[←22] بائيسي فيليتشكوفسكي (فيليتشكوفسكي بيوتر إيفانوفيتش - 1722 - 1794): ناسك يرجع أصله إلى أوكرانيا، كان راهباً في جبل أثوس، فالاشيا، ومولدافيا، وهو الذي أدخل نظام «المشايخ» إلى روسيا، ترجم كتب إسحاق السوري وتيودور ستوديت. وقد نشرت مؤلفاته سنة 1847.

[←23] كوزلسكايا أوبتينا، منسك أوبنا: دير يقع بقرب كوزلسك في مقاطعة كالوجا. ووفقا للأسطورة أنشأه في القرن الرابع عشر رجل من قطاع الطرق تائب، اسمه أوبتا، وقد اشتهر هذا الدير في القرن التاسع عشر بتقوى رهبانه. وزاره دوستويفسكي في شهر حزيران (يونيه) سنة 1878 بصحبة المؤرخ الشاب فلاديمير سولوفييف (1853 - 1900) بعد موت ابنه أليوشا. وكان في هذا الدير الشيخ أمفروسي، الذي اتخذه دوستويفسكي نموذجاً للشيخ زوسيما في هذه الرواية.

[←24]

إنجيل لوقا، الإصحاح الثاني عشر، 14.

[←25]

إنه فارس حقيقي! (بالفرنسية في الأصل).

[←26]

«... إنه يذكرني بفون سون...»: نظرت محكمة بطرسبرج في مارس 1870 في قضية قتل شخص يدعى فون سون. وقد استدرج هذا الشخص إلى إحدى الحانات في وسط بطرسبرج، حيث دسوا له السم ثم قتلوه بوحشية ونهبوه.

[←27]
«لكل دير قواعد...»: هناك مثل روسي يقول: «لا تذهب إلى دير اجنبي لتفرض عليه قواعدك أنت».

[←28]

«... يرجع تاريخها إلى عهد سابق على الانشقاق...»: الانشقاق (العقيدة القديمة، الطقوسية القديمة) هو اتجاه ظهر في الكنيسة الروسية في أواسط القرن السابع عشر كاحتجاج على البدع، التي أدخلها البطريرك نيكون (1605 - 1681) وتمثلت في تصحيح الكتب الدينية وبعض الطقوس والأعراف الكنسية.

[←29] أم الرب المحزونة (باللاتينية في الأصل).

[←30]

«دقة المواعيد هي أداب الملوك...»: عبارة شهيرة للملك لويس الثامن عشر ملك فرنسا (1814 -1824).

[←31]

رئيس الشرطة

[←32]

«اهلا تنازلت يا سيدي الإيسبرافنك، فكنت لنا نابرافنك...»: ها هنا لعب لفظي على كلمتي إيسبرافنك ونابرافنك، فأما كلمة إيسبرافنك التي يسمى بها رئيس الشرطة فهي مشتقة من فعل إيسبرافيت ومعناه أدب أو عاقِب، وأما نابرافنك فهو اسم ادوارد نابرافنك (1839 - 1916) رئيس الأوركسترا الشهير في دار الأوبرا الكبرى بمدينة سان بطرسبرج منذ سنة 1869، وهو من أصل تشيكي، وقد شاءت المصادفة أن يكون اسمه هذا مشتقاً من فعل نابرافيت ومعناه: وجه، أدار، أصلح.

[←33] «... هذا الفيلسوف... قد جاء يوماً إلى المطران أفلاطون في عهد الأمبراطورة ايكاترينا...» ديديروت هو الكاتب والفيلسوف المادي الفرنسيديني ديدرو (1713 - 1784). وأفلاطون (بيوتر بجوروفتش ليفشين) هو مطران موسكو (1737 - 1812)، واعظ مشهور وكاتب كنسي ورجل دين.

[←34]
ايكاترينا الثانية، هي الإمبراطورة الروسية التي تولت العرش عام 1762. (34) إيكاترينا رومانوفنا داشكوفا (1743 - 1810)، أميرة روسية لعبت دوراً أساسياً في انقلاب القصر الذي أوصل إيكاترينا الثانية إلى العرش الإمبراطوري عام 1762. وأصبحت داشكوفا في عهد إيكاترينا الثانية رئيساً لأكاديمية العلوم الروسية، والتقت بالفيلسوف الفرنسي ديدرو. أما بوتيومكين جريجوري الكسندروفتش (1739 - 1791) فرجل دولة وعسكري روسي كان حظي إيكاترينا الثانية.

[←35]

«طوبى للبطن الذي حملك، والثديين اللذين رضعتهما»: كلام قالته امرأة من الشعب ليسوع المسيح (إنجيل لوقا، الإصحاح الحادي عشر، 27).

[←36]

«يا معلم ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟» : كلام قاله ناموسي يجرب يسوع المسيح (إنجيل لوقا، الإصحاح العاشر، 25).

[←37]

«هل صحيح أن كتاب سير الشهداء.. يروي قصة قديس... قطعوا رأسه...فتناوله من الأرض...»: هذه القصة لا وجود لها في كتاب «سير الشهداء الروسي»، وإنما هي تحكي عن الشهيد الكاثوليكي ديونيسي، أسقف باريس، وهي رائجة جداً في فرنسا. ويحتوي كتاب السير على وصف لسير القديسين موزعة على أيام وشهور السنة ومواعظ للسنة كلها. وقد صيغت هذه السير تدريجيا وجرى تنقيحها مراراً.

[←38]

ناستاسيوشكا: تصغير اسم ناستاسيا، ويستعمل تحبباً.

[←39]

«ثلاثة أعوام إلا ثلاثة أشهرا: في هذه السن تماما مات أليوشا ابن دوستويفسكي. وقد كتبت أرملة دستويفسكي تقول: «هذه ثمرة تأثر فيدور ميخائيلوفتش بموت ابننا أليوشا الذي مات سنة 1878 وعمره ثلاثة أعوام إلا ثلاثة أشهر. ففي تلك السنة إنما شرع فيدور ميخائيلوفتش في كتابة الرواية».

[←40]

نيكيتوشكا: تصغير اسم نيكيتا ويستعمل تحبباً.

[←41]

«هذه راشيل... تبكي صغارها...»: تروي زوجة دوستويفسكي أن هذه الكلمات هي الكلمات التي وجهها الشيخ أمفروسي إلى دوستويفسكي محاولاً مواساته بسبب موت ابنه.

[←42]

«ساذكره في صلواتي» : علقت زوجة دوستويفسكي على ذلك قائلة: إن فيدور ميخائيلوفتش قد نقل إلي أقوال الشيخ هذه حين عاد من أوبتينا بعد حديثه مع أمفروسي ووصفه له مدى ما نعانيه من لوعة لموت ابننا.

[←43]

النص في إنجيل لوقا (الإصحاح الخامس عشر، 7) كما يلي: «أقول لكم إنه و هكذا يكون فرح في السماء بخاطئ واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة).

[←44]

«أوبدورسك»: مدينة صغيرة في أقصى شمال سيبيريا الغربية، مدينة ساليخارد الحالية.

[←45]

«ما يبقى إلا قليل من العشب على قبري، كما قرأت هذا الكلام لكاتب من الكتاب»...: الإشارة هنا إلى عبارة بازاروف بطل رواية «الآباء والبنون» (1862) للكاتب الروسي إيفان تورجينيف.

[←46]

«كان أحد رجال الدين قد نشر كتاباً ضخماً في هذه المسألة»: إن أستاذاً في القانون الكنسي هو الراهب ميخائيل جورتشاكوف قد نشر كتاباً عنوانه : «بحث في الأسس العلمية للقضاء الإكليركي»، وكانت مكتبة دوستويفسكي تضم هذا الكتاب.

[←47]

«ولكن هذا ليس إلا عقيدة اولترامونتانية... أما نحن فليس لدينا حتى جبال ..»: التلاعب اللفظي قائم على أساس أن كلمة «أولترامونتانية» من اللاتينية Ultra,montis)) تعني: ما وراء الجبال، أي في روما. وظهرت هذه العقيدة في الكنيسة الكاثوليكية في القرن الخامس عشر. وسعي أنصار هذه العقيدة إلى إخضاع الكنيسة كلية لبابا روما ودافعوا عن حقه في التدخل في الشؤون الدنيوية لأي دولة. وفي القرن التاسع عشر انتشرت العقيدة الأولترامونتانية كمقابل رجعي للحركة الثورية.

[←48]
«وليس هذا هو المقصود إطلاقاً من التعبير «ليست من هذا العالم» الوارد في الإنجيل المقدس»: المقصود هنا ما قاله المسيح لبيلاطس البنطي: «مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون لكي لا أسلم إلى اليهود ولكن الآن ليست مملكتي من هنا». (إنجيل يوحنا، الإصحاح الثامن عشر، 36).

[←49]
أصبحت المسيحية ديناً رسمياً للإمبراطورية الرومانية في بداية القرن الرابع الميلادي. ففي عام 325 عقد المجمع المسكوني الأول في مدينة نيقيا الذي أعلن «قانون الإيمان» وهو مجموعة العقائد وثوابت الدين المسيحي وصاغ التحالف بين الكنيسة وسلطة الدولة الدنيوية حيث أعلن الإمبراطور قسطنطين الأول رئيساً للكنيسة وظلاً للمسيح على الأرض.

[←50]

الإقليم البابوي أو الكنسي (وعاصمته روما) نشأ عام 756 على شكل دولة ثيوقراطية مستقلة، واستمرت حتى عام 1870.

[←51]

البابا جريجوري السابع، بابا روما في الفترة من 1073 إلى 1805، كان يعتبر سلطة البابا سلطة مطلقة، وحاول وضع نفسه وخلفائه على رأس السلطتين الدينية والدنيوية.

[←52] ... بعد الانقلاب الذي وقع في شهر ديسمبر...: المقصود هنا الانقلاب الذي قام به لويس بونابرت (1808 - 1873) في 2 ديسمبر 1851 فأعلن نفسه امبراطوراً.

[←53]

«باتيوشكا»: بهذا اللقب ينادي رب الأسرة والكهنة وغيرهم من الأشخاص المحترمين، من باب الملاطفة.

[←54]

كلمات الشيخ هذه تجمع في نص واحد مقطعين مختلفين من رسالتي بولس الرسول: «فإن كنتم قد قمتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق... اهتموا بما فوق لا بما على الأرض» (الرسالة إلى أهل كولوسي، الإصحاح الثالث، 1- 2). «الآن كثيرين... هم أعداء صليب المسيح الذين نهايتهم الهلاك الذي إلههم بطنهم ومجدهم في خزيهم، الذين يفتكرون في الأرضيات، فإن سيرتنا نحن في السموات...». (الرسالة إلى أهل فيلبي، الإصحاح الثالث 18 - 20).

[←55]

تلعب مأساة «قطاع الطرق» (1781) للشاعر والمسرحي الألماني يوهان فريدريك شيللر (1759 - 1805) دوراً هاماً في رواية «الأخوة كارامازوف». وقد كتب دوستويفسكي في رسالة بتاريخ 18 أغسطس 1880: «إن الانطباعات عن الجمال هي لا غنى عنها في الطفولة بالذات. لقد كنت في العاشرة من عمري عندما شاهدت في موسكو مسرحية «قطاع الطرق» لشيللر.. وإني لأؤكد لكم أن الانطباعات القوية التي خرجت بها آنذاك قد أثرت على الجانب الروحي فيّ تأثيراً خصباً للغاية». وكانت لدى دوستويفسكي ترجمة ل«لقطاع الطرق»، قام بها أخوه ميخائيل ميخائيلوفتش. إن فيدرر بافلوفتش يطلق عل إيفان لقب: كارل مور النبيل، أما ديمتري فيسميه فرانتسي مور الخبيث وقد أثبتت الأحداث التالية خطأ ظنه، لأن إيفان بالذات، مثل فرانتس مور، هو الذي لعب دوراً غادراً تجاه أبيه وأخيه

[←56]

الكونت فون مور الحاكم! (بالألمانية في الأصل).

[←57]
أدخل وسام القديسة أنّا في عداد الأوسمة الروسية في عام 1798. وفي عام 1855 أضيف إليه، كما لغيره من الأوسمة الممنوحة مقابل الخدمات العسكرية، سيفان متقاطعان.

[←58]

«المسيح نفسه قد غفر للمرأة التي أحبت كثيراً»: إشارة إلى غفران المسيح للخاطئة من أجل ذلك أقول لك قد غفرت خطاياها الكثيرة لأنها أحبت كثيراً، (إنجيل لوقا، الإصحاح السابع، 47).

[←59]

«سفياتسي»: سجل بأسماء القديسين المسيحيين والأعياد الكنسية موزعة على شهور السنة الاثني عشر. ومن المستحيل إثبات صلة القرابة عن طريقها.

[←60]

«جروشنكا»: لقب ملاطفة، مشتق من اسم آجرافينا تصغيراً.

[←61]

... إن شاعرنا بوشكين... قد مجد ساقيها الصغيرتين في شعره...: في قصيدة بوشكين «مدينة فخمة، مدينة فقيرة» (1828) يقول الشاعر: «لأن ساقها الصغيرة، تخطو هنا أحياناً، وخصلة ذهبية تطير».

[←62]

«كاتنكا»: تصغير اسم كاتيا (كاترينا) تودداً وملاطفة.

[←63]

قرب جسر كامني الذي سيقام فيما يقال على نهر نيفا في بطرسبرج؛ المقصود جسر ليتيني، ثاني جسر دائم يقام على النيفا في بطرسبرج، وجرى تشييده في 1875 - 1879.

كان الرهبان الروس لا يأكلون اللحم أبداً.

[←64]

[←65]

الراقصة الداعرة...: المقصود ابنة الملك هيرودس التي طلبت من أبيها أن يقدم لها رأس يوحنا المعمدان مكافأة على رقصتها.

[←66]

«ملة الخليستي»: إحدى الفرق الدينية التي ظهرت في روسيا في القرن السابع عشر، وكانت من أشد الفرق الدينية ظلامية وإغراقاً في التعصب.

[←67]

«قبلة على الشفتين وطعنة في القلب»: كلمات كارل مور في المشهد الثاني من مسرحية شيللر «قطاع الطرق».

[←68] ... شراب العسل اللذيذ الذي يباع في متجريليسييف...: الأخوة يليسييف: من كبار تجار الخمور ومالكي المتاجر والمستودعات. وكانت شركة يليسييف في عداد أولى الشركات في روسيا من حيث جودة الخمور.

[←69]
أثقلتموني باللعنات في جميع مجالسكم السبعة...: من بين المجامع المسكونية (اجتماعات ائمة رجال الدين المسيحي) لا تعترف الكنيسة الأرثوذكسية سوى بالمجامع السبعة الأولى التي عقدت قبل انقسام الكنائس (1054) وابتداء من المجمع الأول كانت اللعنات والإدانة تصب على أحد ما في كل مجمع تقريباً.

[←70]

«فانيا»: تصغير اسم إيفان.

[←71]

... تغني أغنية «في المروج»: أغنية شعبية راقصة ترجو فيها فتاة شابة من أبيها إلا يزوجها من زوج عجوز (وفي روايات أخرى من زوج شاب) بل من «قرينها».

[←72]

«إسحاق السوري» ناسك عاش في القرن 17، جُمعت مجموعة من مواعظه سنة 1858 في موسكو. وكان هذا الكتاب في مكتبة وستويفسكي.

[←73]

«ليزافيتا سمردياشايا»: اسم مشتق من فعل سمرديت، ومعناه النتنة. وقد روى أخو دوستويفسكي الأصغر (وهو أندري دوستويفسكي) في مذكراته التي نشرت سنة 1930 أن امرأة معتوهة اسمها أجرافينا كانت تسكن في أراضي أبيهما أيام شبابهما: كان عمرها 20 - 25 سنة. وكانت قليلة الكلام، فإذا تكلمت تكلمت كارهة على مضض، وقالت كلاماً غامضاً مفككاً. فإذا سمع السامع ما تقول فهم إنها تتذكر ابنها المدفون في المقبرة. ويظهر أنها كانت معتوهة منذ ولادتها، وقد اغتصبت فولدت ولداً مات في سن مبكرة. فحين قرأت نصة ليزافيتا في رواية «الأخوة كارامازوف» تذكرت تلك المرأة المعتوهة أجرافينا».

[←74]

«بوروديفانا»: اسم يطلقه الناس على بعض ضعاف العقول ممن يعدّون «مجذوبين إلى الله».

[←75]

«إن مدينتنا مبعثرة جداً...»: إن دوستويفسكي يسمي هذه المدينة في روايته بهذا الاسم الساخر: سكوتو بريجونيفسك المنحوت من كلمتين (قاد - بهائم). وفي المسودات يسميها توبولسك، وفي رأي زوجة دوستويفسكي أنه وصف ستارايا روسا، تلك المدينة الصغيرة الهادئة الوادعة، بأقنيتها، وحفرها وحديقتها ذات الأسيجة الخشبية.

[←76]

هذان الشطران هما من نظم دمتري نفسه، وسينشدهما مرة أخرى (الجزء و الثاني، الباب الثامن، الفصل الخامس).

[←77]

أبيات من قصيدة «من ظلمات الضلال» (1846) للشاعر الروسي نيقولاي نيكراسوف (1821 - 77/ 1878).

[←78]

... كتلك السمكة الذهبية الصغيرة التي تروي الحكاية أنك أرسلتها إلى ذلك الصياد العجوز الغبي... الإشارة هنا إلى حكاية الصياد والسمكة (1833) للشاعر الروسي ألكسندر بوشكين.

[←79]

«كن نبيلاً يا أيها الإنسان»: مطلع قصيدة للشاعر والمفكر الألماني جوته (1749 - 1832). عنوانها: «الإلهي (Das Gottiche)» وقد نظمها سنة 1783.

[←80]

«سيلين ذو الوجه المزهر... قد أمتطي حماراً يتعثر» الأبيات الختامية من قصيدة «باريلييف» (1842) للشاعر الروسي ابولون نيكولايفتش مايكون (1821 - 1897). وسيلين هو تابع باخوس إله الخمر والخصب في الأساطير الإغريقية.

[←81]

«سكان الكهوف الخائفون الوجلون»: إن دمتري لا يتلو هنا نشيد الفرح بل قصيدة أخرى للشاعر شيللر هي «عيد ايليئوزيس» (1798) في ترجمة روسية قام بها ف. آ. جوكوفسكي (1783 - 1852) (الفقرات 2، 3، 4).

[←82]

«لا بد للإنسان...»: الشطر الأول من البيت السابع في قصيدة عبد إيليثوزيس، في ترجمة جوكوفسكي.

[←83]

«روح العالم التي خلقها الله»: هاتان هما الفقرتان السابعة والخامسة من قصيدة شيللر الشهيرة «إلى الفرح» (1785) في الترجمة الروسية التي قام بها الشاعر الروسي فيدور تيوتشيف (1803 - 1873).

[←84]

... زخرفات إضافية على طريقة بول دو كوك... : بول دو كوك (1793 -1871) كاتب روايات فرنسي، له روايات ذات محتوى خليع.

[←85]

«الكوليبياكا»: فطائر بالسمك.

[←86]

«حمارة بلعام»: إن الأتان التي ركبها الرسول بلعام قد نطقت فجأة حين رأت ملاك الرب (التوراة، الإعداد 22، الآيات من 23 إلى 30)

[←87]

«أمسيات قرب قرية ديكانكا»: أول مجموعة قصص للأديب الروسي نيكولاي جوجول (1809 - 1852)، وقد صدرت عامي 1831 - 1832.

[←88]

« التاريخ العام» من تأليف سماراجدوف: هو موجز التاريخ العام للمدارس الابتدائية، طبع مرارة منذ سنة 1845.

[←89]

«ثلاث أوراق نقدية ملونة»: هي أوراق نقدية من فئة المائة روبل.

[←90]

هناك لوحة جميلة رسمها الرسام كرا مسكوي...: إيفان نيكولايفتش كرامكوي (1837 - 1887) هو مصور روسي من مؤسسي المدرسة الواقعية في التصوير. وقد عرضت لوحة «المتامل»، في معرض الصور السادس لجمعية المعارض الفنية المتنقلة، في بطرسبرج من 9 مارس إلى 22 إبريل 1878. وقد رسم كرامسكوي صورة لدوستويفسكي وهو على فراش الموت.

[←91]

قد سمع قصة ذلك الجندي الروسي..: المقصود هنا هو فوما دانيلوف، صف الضابط بالكتيبة التركستانية الثانية الذي وقع في الأسر ولقي حتفه في21 نوفمبر 1875.

[←92]

«... جاء في الكتاب المقدس أن الذي يملك الإيمان الحق»: تحوير لما ورد في الأناجيل: «الحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل، ولا يكون شيء غير ممكن لديكم»، (انجيل متى، الإصحاح السابع عشر، 20).

[←93] «... ولكن الفلاحين مستمرون على جلد أنفسهم بأنفسهم»: إن الإصلاح القضائي الذي صدر سنة 1864 قد ألغى العقوبات الجسدية في محاكم الدولة، ولكنه تسامح في تطبيقها في محاكم القرى.

[←94]

هذه كلها قذارة خنازير (بالفرنسية في الأصل)

[←95] المركيز دي ساد: هو الاسم المستعار للكاتب الفرنسي دوناسيين ألفونس فرنسوا، الكونت دي ساد (1740 - 1814)، صاحب المؤلفات التي تصور الفجور الأرستقراطي والقسوة. وقد أصبح اسم دي ساد مضرب الأمثال.

[←96] إن في داخله شيئا من بيرون (بالفرنسية في الأصل). أليكسيس بيرون (1689 - 1773): شاعر ومسرحي فرنسي اشتهر ككاتب فج.

[←97]
«آربنين»: إن الأب كارامازف، وهو قليل الحظ من الثقافة يخلط هنا بين بطل رواية الشاعر ليرمونتوف الشهيرة «بطل من هذا الزمان (1840)، واسمه في الواقع هو بتشورين، وبين بطل مسرحية لهذا الشاعر نفسه عنوانها «التنكر» (صدرت لأول مرة في سنة 1842 بعد موت الشاعر)، وبطل هذه المسرحية هو الذي اسمه آربنين.

[←98]

«فانيا، أليوشا»: تصغير اسمي إيفان وألكسي.

[←99]
«لا تقل لايزوب كلمة واحدة»: إن دمتري يسمي أباه هنا باسم الشاعر اليوناني الشهير ايزوب في معرض الاحتقار، ومعروف أن هذا الشاعر قد ولد عبداً، وأنه كان دميم الوجه عيي اللسان أحدب.

[←100]

«إيكاتيرنبورج»: مدينة في منطقة المناجم من الأورال، على طريق سيبريا ونسمي الآن سفر دلوفسك.

[←101] «ذلك أن مجمع الأساقفة الذي انعقد في لاوديكيا»... انعقد في مدينة لاوديكيا بآسيا الصغرى، التي كانت ضمن الإمبراطورية الرومانية المجمع الكنسي الذي أصبحت القواعد التي وضعها جزءا من قوانين الكنيسة. وقد انعقد ذلك المجمع في عام 360 أو 370 ميلادي.

[←102]

«ميتكا»: تصغير تحقير لاسم ميتيا (دمتري).

[←103]

«جروشكا»: تصغير تحقيري لاسم جروشنكا (آجرافينا).

[←104]

«فانكا»: تصغير تحقيري لأسم فانيا (إيفان).

[←105]

«أبدى أليوشا هذه الملاحظة الجدية العملية بطريقة عفوية»: روت أرملة دوستويفكي أن هذه الطريقة هي التي كان يستعملها زوجها في مخاطبة أطفال لا يعرفهم.

[←106]

هذه فاجعة (بالفرنسية في الأصل).

[←107] بالشكر يا سيدتي لا أحفل (بالألمانية). آخر بيت من قصيدة شيللر «القفاز» (1797). إن كاترينا قد عذبت إيفان كثيراً وسببت له آلام شديدة، مثلما فعلت تلك السيدة الجميلة بفارسها دولورج.

[←108] «الرائد سينجيريف - س»: يشير سنجيريف هنا، باستعمال حرف السين (س)، إلى انحطاط مكانته الاجتماعية الآن. فهكذا يتكلم الحقراء أمام العظماء، مضيفين هذا الحرف إلى أواخر الكلمات.

[←109]

مقطع من قصيدة بوشكين «المارد» (1823).

[←110]
«نشر نومازوف»: لعب لفظي على اسم كارامازوف الذي يعني نصفه «كارا» : أسود (تشورني) فيكون معنى تشرنو مازوف: «المسود» أو «الملطخ بالسواده».

[←111]

ما للأمر وما عليه (باللاتينية في الأصل).

[←112]

«sosna kak so sna»: ها هنا لعب بالألفاظ قائم على التشابه بين كلمة Sosnaومعناها الصنوبر وبين so sna بمعنى: «في الحلم».

[←113]

«أنا الآن في موقف فاموسوف في آخر مشاهد المسرحية»: إشارة إلى المسرحية الهزلية التي كتبها جريبويدوف (1795 - 1829) الكاتب والديبلوماسي الروسي وعنوانها: «ذو العقل يشقى» (1824) ودوستويفسكي كثيراً ما يستشهد بهذه المسرحية. في المشهد الأخير من هذه المسرحية يفاجى فاموسوف ابنته صوفيا متحدثة مع تشانسكي على السلم الكبير في المنزل.

[←114]

«بقوة عظيمة... أنجذب»: أغنية يقول دوستويفسكي في رسالة كتبها سنة 1874 أنه سمعها في موسكو قبل أربعين عاما، وكان يغنيها الخدم.

[←115]

«لأن أمي امرأة نتنة»: إشارة إلى معنى اسم أمه «سمردياشايا»، الذي كما سبق وذكرنا، مشتق من فعل «سمرديت»، ومعناه النتنة.

[←116]
«نابوليون الأول، وهو أبو الإمبراطور الحالي»: واضح خطأ سمردياكوف فإن نابوليون الأول (1869 - 1821) هو عم نابوليون الثالث (1808 - 1873) الذي حكم فرنسا بهذه الصفة من سنة 1851 إلى سنة 1870.

[←117]

«.... يستطيع أن يحافظ على «مظهر نبل»...»: استشهاد غير دقيق بمقطوعة صغيرة لبوشكين عنوانها: ذات مرة قبل للملك...» (1825): «أيها المنافقون، اجتهدوا كي تحتفظوا في الخسة بقامة نبل».

[←118]
«إذا كان الله غير موجود فيجب اختراعه»: هنا استشهاد بعبارة للكاتب والفيلسوف فولتير (1694 - 1778) في رسالة إلى صانع الخدع الثلاث» (1769)، وقد تحورت عبارة فولتير قليلا، لأنها في الأصل: «فإذا لم يكن إله...».

[←119]

يجب أن نتذكر أن الرياضي الروسي نيقولاي لوباتشفسكي (1792 - 1856) قد عرض سنة 1826 مذهباً جديداً في «هندسة غير إقليدسية»، فسبق بذلك أينشتاين ومهد له.

[←120]

)... «يوحنا الرحيم»... : يوحنا الرحيم (القرنان 6- 7) أسقف الإسكندرية. والمشهد الذي يرويه إيفان مأخوذ من «أسطورة القديس بوليان الرحيم (1876) للكاتب الفرنسي جوستاف فلوبير (1821 - 1880).

[←121]

ينقل دوستويفسكي هنا نقلاً أميناً مضمون وأسلوب النشرة التي أصدرتها لجنة توزيع الكتب الدينية في إقليم «فو» بسويسرا، وعنوان النشرة «جذوة جديدة تنتزع من النار، أو القصة الحقيقية التي تروي اهتداء وموت لويس فردريك ريشار الذي أعدم بمدينة جنيف في 11 يونية 1850». تنفيذ عقوبة الإعدام هذه التي أنزلت في ريشار وشهدها ما يقرب من عشرة آلاف شخص، قد وصفت في نشرات أخرى، منها النشرة التي أصدرها أرنست كرامر في جنيف سنة 1850، وعنوانها: «قصة اللحظات الأخيرة التي عاشها لويس فردريك ريشارد».

[←122]

... لقد صوّر نكراسوف شقاء حصان كان فلاح بضربه على اعينيه «الوديعتين»... الإشارة هنا إلى قصيدة الشاعر الروسي ورئيس تحرير مجلة «اسوفريمينك» («المعاصره») نيقولاي نكراسوف بعنوان «قبيل الغسق» من سلسلة «عن الجو. انطباعات طريق» (1859).

[←123] هي قضية ابن صاحب البنك كروننبرج، الذي أحيل إلى المحكمة لسوء معاملته لابنته. وقد وقف دوستويفسكي على هذه القضية فصلاً كاملاً من «يوميات كاتب» (1876).

[←124]

... في الأرشيف، أو الماضي القديم...كانت مجلتا «الأرشيف الروسية (1863 - 1917) و «الماضي القديم الروسي» (1870 - 1918) تنشران مواد عن تاريخ روسيا وبصفة خاصة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وكان دوستويفسكي يقرؤهما في كثير من الأحيان. غير أن الواقعة التي يذكرها هنا مأخوذة عن «مذكرات فن» التي كتبها كاتكوف، وهو من أنصار السلافية، ونشرتها مجلة «البشير الروسي»، العدد 9، سنة 1877.

[←125]

«محرر الشعب»: هو اللقب الذي أصبح يلقب به إسكندر الثاني (1818 - 1881) بعد إلغاء نظام القنانة في 19 فبراير سنة 1861.

[←126]

«أحدب نوتردام» (بالفرنسية في الأصل).

[←127]
«.... احتفالاً بميلاد ابنه البكر...): في رواية «أحدب نوتردام»، لا يدور الحديث عن عيد ميلاد ولي العهد بل عن وصول الرسل الفلمنكيين الذين أرادوا تزويج ولي العهد من مرجريتا فلاندرسكايا.

[←128]

«الرأي الصائب للعذاراء مريم المقدسة المنعمة» (بالفرنسية في الأصل).

[←129]

«عندنا في موسكو»: نظم القسيس جريجوري عروضاً سنة 1672 لبلاط القيصر ألكسي. وقد بدأها بمسرحيتين اقتبسنا عن اللغة الألمانية وهما: «استير» و«توبي».

[←130]

«سأعود قريباً» قول المسيح في رؤيا يوحنا الرسول، (الاصحاح الثاني والعشرون، 12).

[←131]

بيتان من قصيدة شيللر «الرغبة»، نظمها الشاعر سنة 1801. وترجمها إلى الروسية ف. جوكوفسكي.

[←132]

«ظهرت هرطقة»: إشارة إلى حركة «الإصلاح». المقصود حركة الإصلاح الواسعة المعادية للاقطاع التي اكتسبت مظهر الصراع ضد الكاثوليكية. وفي. القرن السادس عشر عمت معظم بلدان غرب أوروبا.

[←133]
«أيتها الأرض التي ولد فيك ملك السماوات»، إلخ: آخر رباعية من قصيدة للشاعر فيدور تيوتشيف عنوانها: «هذه القرى الفقيرة، هذه الطبيعة الهزيلة»، وقد كتبها الشاعر سنة 1855، وقوله في صورة عبده تعبير مستمد من رسالة بولس الرسول إلى أهل فيليبي (الاصحاح الثاني ، 6).

[←134]

«في نيران رائعة» إلخ: بيتان مستمدان من قصيدة «كوريولان» للشاعر الكسندر بوليجايف (1804 - 1838).

[←135]

«كبرق يسطع من الشرق إلى الغرب»: هكذا ستكون عودة المسيح على نحو ما يصفها إنجيل متى (الإصحاح الرابع والعشرون، 27: «كما أن البرق يخرج من المشارق ويظهر إلى المغارب، هكذا يكون أيضاً مجيء ابن الإنسان»).

[←136]

تمجيداً لله (باللاتينية في الأصل). «تمجيداً لله»: هو شعار جمعية اليسوعيين التي أسسها الإسباني اغناطيوس اليولا عام 1534.

[←137]

من معجزات المسيح فيما أورده إنجيل مرقص (الإصحاح الخامس، 41).

[←138]

... «الهواء معطر بعبق أشجار الرند والليمون... »: استشهاد مُحَرف من مأساة « الضيف الحجري» (1826 - 1830) للشاعر الروسي الكسندر بوشكين (المشهد الثاني): الهواء الدافيء ساكن، والليل يعبق بالليمون وبالغار...

[←139]

«شيء بدل شيء آخر» الالتباس، سوء الفهم. (باللاتينية في الأصل).

[←140]

«... قد خاطبك في الصحراء...» المقصود بذلك تلك القصة الواردة في الإنجيل عن غواية الشيطان للمسيح (إنجيل متى، الإصحاح الرابع، 1-11، وإنجيل لوقا، الإصحاح الرابع، 1- 13).

[←141]

«وتبرهن على قوة إيمانك بابيك... »: جاء في إنجيل متى (الإصحاح الرابع، 6 – (5: «ثم أخذ إبليس إلى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل، وقال له: إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل، لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك فعلى أياديهم يحمونك لكي لا تصدم بحجر رجلك». ومثل هذا جاء في إنجيل لوقا (الإصحاح الرابع، 9-11).

[←142]

«إن رسولك الكبير يروي... »: هو يوحنا الرسول في رؤياه (رؤيا يوحنا الرسول، الإصحاح السابع، 3-8) وهي أحد إصحاحات العهد الجديد. وقد صبغت مصارحات يوحنا في صورة رؤيا، وتضمنت نبوءات عن آخر أيام العالم ومصيره. يذكر فلاديمير سولوفيف أن رؤيا يوحنا الرسول كانت سفر دوستويفسكي المفضل في السنين الأخيرة من حياته.

[←143]

«فمنذ ثمانية قرون.»: إشارة إلى إنشاء دولة البابا سنة 756.

[←144]

صورة من رؤيا بولس الرسول (الإصحاح السابع عشر) ولعلها رمز إلى روما الوثنية.

[←145]

قد قلت (باللاتينية في الأصل).

[←146]

«.... إن الماسونيين لا بد أن يكون لهم سر من هذا النوع... » الماسونيون أو الماسونيون الأحرار هم أعضاء اتحاد سري تكون في القرن الثامن عشر في انجلترا، ثم انتشر بعد ذلك في جميع البلدان. وقد سعى الماسونيون إلى إنشاء دين جديد يمكنهم بواسطته أن يسيطروا على العالم. وقد أحيط نشاطهم بالسرية لا بالنسبة للجماعات الأخرى فحسب بل وداخل السلم الهرمي الماسوني ذاته.

[←147]

... إلى «الشوارع المظلمة المقفرة من المدينة... »: استشهاد غير دقيق بقصيدة بوشكين. «ذكريات» (1828).

[←148]

الأب سيرافيكوس (باللاتينية في الأصل)... الأب سيرافيكوس...: إشارة إلى فرانسيسك الأسيزي (1181 أو 1182 - 1226) الواعظ الإيطالي ومؤسس وسام الفرانسيسكان. واسم الأب سيرافيكوس، بالنسبة للقديس فرانسيسك قد تبنته الكنيسة الكاثوليكية، وهو يرتبط بالوقائع الأسطورية في سيرة حياته كرؤية المسيح في صورة الملاك سيرافيم، هذه الرؤية التي تجلت لفرانسيسك ذات مرة. (وعلى لسان إيفان تعبر هذه الكلمات قبل كل شيء عن الاحترام للشيخ زوسيما، غريمه. وفي الوقت نفسه تدل على أنه ليس لدى إيفان فرق بين الكاثوليكية والأرثوذكسية). أطلق كذلك هذا الاسم من أسماء القرون الوسطى على القديس بونافانتورا، وهو يظهر في المشهد الأخير من الجزء الثاني من فاوست جونه.

[←149]

«تشرماشنيا» : هو اسم قرية ملحقة باملاك والد دوستويفسكي. وقد زار دوستويفسكي هذه الأماكن منذ طفولته حتى سنة 1877.

[←150]
«على أن أكون خادمه ليتشاردا...» ليتشاردا هو خادم الملك جفيدون في الرواية المترجمة قصة ولي العهد بوف، التي ظهرت في روسيا في القرن السادس عشر وما زالت تروى شفهية وكتابة.

[←151]

«كولاك»: كان اسم «كولاك» يطلق على المحتكرين وعلى الفلاحين الأغنياء، وهو من الكلمة التترية كولاك ومعناها قبضة اليد.

[←152]

«لياجافي»: نعت معناه «كلب صيد».

[←153]

«إن لم تقع حبة الحنطة...» : قول المسيح بعد قيام عازر من الموت، كما ا ورد في إنجيل يوحنا (الإصحاح الثاني عشر، 24 - 25). وبهذا القول صدر دوستويفسكي روايته هذه.

[←154]

«مائة وأربع قصص مستمدة من التوراة والإنجيل»: قالت أرملة دوستويفسكي: «في هذا الكتاب إنما تعلم فيدور ميخائيلوفتش القراءة». وهو موجود الآن في متحف دوستويفسكي بموسكو.

[←155]

«كان يعيش في أرض عرص… »: إشارة إلى الفصل الأول من سفر أيوب.

[←156]

«إن القصص التي تروي حياة إبراهيم وسارة وإسحق وربيكا ويعقوب الذي ذهب إلى عند لابان... » بخصوص إبراهيم وسارة. انظر سفر موسى الأول. التكوين، الإصحاح 11، الآيات 29 - 31 والإصحاح 12 - 18، الآيات 20 - 32. وعن إسحق وربيكا انظر الإصحاح 24 - 27، وعن يعقوب انظر الإصحاح 28 - 32، وعن صراع يعقوب مع الرب انظر الإصحاح 32 الآيات 24 - 32 .

[←157]

«قصة الفتى الجميل الفنان يوسف»...انظر سفر التكوين الإصحاح 37، 39 - 40.

[←158] المقصود وصية يعقوب: «لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب (سفر التكوين، الإصحاح 49، الآية 10) ويعتبر المسيحيون هذه الكلمات نبوءة بقدوم المسيح.

[←159]

«قصة استير الرائعة وفاستي المتكبرة...»: المقصود الرواية المذكورة في التوراة عن زوجتي الملك احشويروش. فقد رفضت فاستي (وشتي) المثول أمام الملك حسب أمره «ليري الشعوب والرؤساء جمالها»، فعاقبها على تكبرها وعصيانها واختار بدلاً منها أستير العاقلة الوديعة (انظر سفر أستير).

[←160]

«...القصة عن يونس في جوف الحوت...» انظر قصة النبي يونس.

[←161]
...ولا سيما رموز الإنجيل كما وردت في كتاب القديس لوقا...: تتضمن جميع الأناجيل (ما عدا إنجيل يوحنا) «قصصاً ربانية»، وهي قصص قصيرة مجازية. ومثل هذه القصص هي في إنجيل لوقا أكثر مما في الأناجيل الأخرى. وبعض هذه القصص في إنجيل لوقا تقوم أساسا لأهم المواقف في «الأخوة كارامازوف»، مثل قصة تقسيم الإرث.

[←162]

تقول الأسطورة الواردة في أعمال الرسل (العهد الجديد) إن شاول مضطهد المسيحيين رأى ذات مرة وهو في طريقه إلى دمشق نوراً من السماء وسمع صوت المسيح الذي سأله: «شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟» (أعمال الرسل، الإصحاح التاسع 40). وصعق الشاب وعندما وصل دمشق كان قد أصبح مسيحياً، وبعد ذلك أصبح رسولاً وتسمى باسم مهين هو بولس (من اللاتينية Paulus أي «الصغير»).

[←163]

حياة كبرى الشهيدات مريم القبطية...: تقول الأساطير إن مريم المصرية (القبطية) التي تحتفل الكنيسة بذكراها في أول إبريل حسب التقويم القديم، كانت في صباها فتاة ضالة. وسمعت بالصدفة عن تعاليم المسيحية فانضمت إلى ركب الحجاج المتوجه إلى القدس واعتنقت المسيحية وعاشت سبعة وأربعين سنة معتكفة في الصحراء على الصلاة والتوبة.

[←164]
«...وقصصت عليه أن دباً اقترب ذات يوم من قديس عظيم...» الإشارة هنا إلى مشهد من سيرة سرجي رادونيجسكي (1314 - 1392). وهو شخصية دينية وسياسية كبيرة، ساعد على تعزيز سلطة كبار أمراء موسكو ورفع مكانة موسكو. وهو مؤسس دير الثالوث الأقدس في مدينة زاغورسك قرب موسكو.

[←165]

«... في موضوع حدث كان قد وقع...»: إشارة إلى ثورة الديسمبريين في و شهر ديسمبر 1825.

[←166]

«عد بسرعة يا بابا لتقرأ معنا في «مجلة الأطفال»: كانت هناك عدة مجلات و تحمل هذا الاسم في روسيا آنذاك.

[←167]
«مخيف هو الوقوع في يدي الله الحي»: هذا الشطر الوارد في رسالة بولس الرسول موجه إلى أولئك الذين رغم «إدراك الحقيقة»، لا يحترمون المسيح وتعاليمه (رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين، اصحاح 10 - 131).

[←168]

«ألا إن الغضب ملعون لأنه قاس»...: الشيخ يكرر كلمات وصية يعقوب الذي أدان ولدين من أولاده هما شمعون ولاوي اللذين انتقما بقسوة غير مبررة من المدينة كلها دفاعاً عن شرف أختهما، «ملعون غضبهما فإنه شديد، وسخطهما فإنه قاس» (سفر التكوين، الإصحاح 49، 7).

[←169]

«يرى إبراهيم بعد أن يبارح الأرض ويتحدث مع إبراهيم كما ورد في رمز الغني ولازار...»انظر: إنجيل لوقا، الإصحاح 16، الآيات 19 - 26.

[←170]
«... ولكن ويل للذين أنهوا حياتهم على هذه الأرض بأنفسهم، ويل للمنتحرين»، الانتحار في مفهوم الكنيسة المسيحية هو من أكبر الذنوب، وتضع الكنيسة المنتحر في مستوى الوثني أو الهرطيق وتمنع دفنه بنفس طقوس دفن الأشخاص الآخرين.

[←171]
«كانت حياته هادئة وادعة»: يضيف دوستويفسكي هنا حاشية الشرح التالية : «حين انهاض جثمان راهب بسيط (لنقله من الصومعة إلى الكنيسة) ونقله بعد قداس الجنازة من الكنيسة إلى المقبرة» تتلى الآية «كانت حياته هادئة وادعة»، أما إذا كان الراحل راهبا من أصحاب النذور، فانه يرتل له النشيد «ربنا هب لنا من لدنك عونا واحمنا».

[←172]

«فينيا» : تصغير اسم فيودسيا.

[←173]

كتب دوستويفسكي يقول بصدد اسطورة «البصلة» «لقد اخذت هذا النص الثمين من فم فلاحة، ولا شك أنه يسجل الآن أول مرة. أنا على الأقل، لم يسبق لي ان رأيته». اسطورة «أخو المسيح» ذات الموضوع المشابه قد وردت في «مجموعة الأساطير الروسية الشعبية» التي جمعها المؤرخ والباحث الأدبي والمتخصص في الآداب الشعبية الكسندر افاناسيف (1826- 1871) وقد صدرت عام 1859 في طبعتين في لندن وموسكو. ويبدو أن دوستويفسكي لم يطلع على هذه المجموعة.

[←174]

«كفى!» اشارة إلى قصة تورجنيف التي تحمل هذا العنوان والتي ظهرت سنة 1865، وفيها يعلن تورجنيف عزمه على الانقطاع عن الكتابة، ويودع قراءه.

[←175]
«ان سقوط عملتنا الورقية قد حرمني من النوم». دأبت الصحافة خلال ستينات وسبعينات القرن الماضي على مناقشة الأوضاع المالية الروسية. ونشرت مجلة "المواطن" التي كان يرأس تحريرها دوستويفسكي آنذاك عدة مقالات حول هذا الموضوع.

[←176]
«لقد كتبت في هذا إلى شيدرين» ميخائيل سالطيكوف - شيدرين (الاسم الحقيقي: سالطيكوف، والاسم المستعار : شيدرين (1826 - 1889) هو كاتب هجائي وأحد محرري مجلة (المعاصرة). وقد بدأ الجدل بينه وبين دوستويفسكي منذ الستينات. (راجع المجلد الأول من هذه الطبعة).

[←177]

أن كلمة «عصرية» كان يمكن أن تذكره بمجلته «المعاصر» وان توقظ في نفسه ذكريات أليمة بسبب الرقابة التي تسود الآن. («المعاصر») مجلة أدبية واجتماعية - سياسية اسسها الشاعر الكسندر بوشكين عام 1836. وفي خلال سنوات 1840 - 1860 أصبحت لسان حال القوى الديمقراطية الثورية الروسية. ولهذا السبب تعرضت «المعاصر» لمضايقات شديدة من جانب الرقابة.

وهذه الغمزة من جانب دوستويفسكي ضد شيدرين ومجلة المعاصر التي رأس شيدرين تحريرها فترة من الزمن هي بمثابة صدى متأخر لذلك الجدل العنيف بين «المعاصر» ومجلة الأخوين دوستويفسكي.

[←178]
«الصمت وحده يهمهم» ... استشهاد محوُّر ببيت من قصيدة «روسلان ولودميلا» (1820) للشاعر الكسندر بوشكين: وربما ظننت... يهمس السكون...

[←179]

«متجر آل بلوتنيكوف» : ذكرت ارملة دوستويفسكي ان زوجها كان يذهب كثيرا إلى بقالية بلوتنيكوف، في مدينة ستارايا روسا، ليشتري منها مقبلات وحلوى.

[←180]

بيتان من الشعر يقولهما أوليس في المقطع الخامس من قصيدة للشاعر شيللر عنوانها «عيد النصر»، وهي تصور معسكر اليونان بعد اخذ طروادة وقد قام بترجمة القصيدة إلى اللغة الروسية تيوتشيف سنة 1851.

[←181]

شطران الفهما دمترى نفسه، وقد سبق وورده‍ما في الباب الثالث من هذه الرواية.

[←182]
«اشعر بحزن شديد... واأسفاه! مسكين يوريك ذلك»: هنا يستشهد ميتيا استشهادا غير دقيق بعبارات هملت من مسرحية «هملت» للشاعر والمسرحي البريطاني ويليام شكسبير (1564 - 1616)، حيث نجد هملت في المشهد الأول من الفصل الخامس الختامي ممسكاً بجمجمة يوريك، مهرج البلاط السابق، ومتحدثاً عن فناء كل الاحياء.

[←183]

«بضعة أسطر أخرى وأتم القصيدة» استشهاد محرف بمونولوج الراهب المؤرخ بيمن في مسرحية «بوريس جودونوف» للشاعر الكسندر بوشكين (1824 - 1825): ما زال ثمة قول أخير وأفرغ من تدوين الأحداث...

[←184]

كان موظفو دوائر الدولة في روسيا يرتدون زياً رسمياً.

[←185]

«بارين» : بهذا اللقب كان يخاطب الخدم سادتهم في روسيا قبل الثورة(1917).

[←186]

البان، تعني السيد بالبولونية، وسيستخدم دوستويفسكي هذه الكلمة كثيراً في إشارة إلى السيد البولوني، وهو الضابط الذي كان عشيق جروشنكا.

[←187]

«النفوس الميتة» هي رواية جوجول الشهيرة (1842) التي كثيرا ما يستشهد بها دوستويفسكي. اما نوزدريوف وتشتشيكوف فهما من أبطال هذه الرواية.

[←188]

«نوزدريف كان اسمه الحقيقي نوسوف» : ها هنا تلاعب لفظي بكلمتي nozdri ومعناها «المنخران» وnoss ومعناها «الانف».

[←189]

«اهذا أنت... الشاعر بوالو؟...» : مطلع ابيات ساخرة للشاعر اى. آ. كريلوف تستهزئ من ترجمة قصيدة)فن الشّعر (L’art poetique التي ترجمها شاعر ضعيف هو الكونت د. ج. خفوستوف.

[←190] أبيات ساخرة للشاعر باتيوشكوف عنوانها «قصيدة إلى سافو جديدة» ، وفيها يتهكم على الشاعرة الروسية الأولى آنا بونينا، آسفة على أنها لم تغرق كما غرقت الأديبة اليونانية الشهيرة سافو.

[←191]
«إنني أشرب نخب روسيا بحدودها السابقة على سنة 1772!» : في عام 1772، وعند التقسيم الأول لبولندا فيما بين روسيا وبروسيا والنمسا، ضُّم إلى روسيا الجزء الشرقي من بيلاروسيا والقسم الكاثوليكي من لاتفيا الحالية (لاتغاليا). أما الأراضي البولندية الأصلية فضمت إلى النمسا وبروسيا.

[←192]

«لا شك أن النقيب يعرف قصة بودفيسوتسكي؟: كتب دوستويفسكي في رسالة بتاريخ 16 نوفمبر 1879: «أدخلت نادرة البان بودفيسوتسكي، تلك النادرة الاسطورية لدى جميع لاعبي الورق الغشاشين البولنديين الصغار الشأن. وقد سمعت هذه النادرة ثلاث مرات في حياتي، في أوقات مختلفة ومن بولنديين مختلفين».

[←193]
في رسالة تاريخها 16 تشرين الثاني (نوفمبر) 1879، موجهة إلى ن.آ. ليوبينوف، كتب دوستويفسكي يقول: «هذه الأغنية، التقطتها نفسي، وهي مثال على الفن القروي الحالي».كان أفراد السلطات التي ينتخبها الفلاحون في قرية من القرى يحملون على صدورهم صفائح معدنية تشير إلى رتبهم أثناء ممارستهم عملهم، وهي تقوم بدور الشهود في أثناء تحقيق قضائي.

[←194]
كان أفراد السلطات التي ينتخبها الفلاحون في قرية من القرى يحملون على صدورهم صفائح معدنية تشير إلى رتبهم أثناء ممارستهم عملهم، وهي تقوم بدور الشهود في أثناء تحقيق قضائي.

[←195]
«معنى بعض الإصلاحات»: إشارة إلى إصلاحات ألكسندر الثاني في السنوات 1861 - 1866 (إلغاء القنانة، الإصلاح القضائي، إلخ).

[←196]

من قصيدة (الصمت) للشاعر الفيلسوف ف. ج. تيوتشيف (1833).

انتهى (بالفرنسية في الأصل).

[←197]

[←198]

«الزاكوسكي» : مائدة مقبلات باردة، مع فودكا، يصيبها الطاعمون عادة في حجرة مجاورة لقاعة الطعام، ويمضون إليها قبل الوجبة.

[←199]

استشهاد من قصيدة «قبيل المطر»، (1846) للشاعر الروسي نيكولاي نيكراسوف:
ويقبل البرد
تياراً جافا وحاداً.

[←200]

«كان سكرتيراً حكومياً»: السكرتير الحكومي موظف من الدرجة الثانية عشرة وهي رتبة تقابل في الجيش رتبة ملازم ثان.

[←201]

كوليا: تصغير نيقولا

[←202]

كتاب «سماراجدوف»: في الكتاب المدرسي« المرشد في معرفة التاريخ القديم لدور التعليم المتوسط» من وضع س. سماراجدوف 1840، ذكر ان مؤسسي طروادة (ايليون) هما طروادة وابنه ايل. وطروادة مدينة قديمة في شمال غرب آسيا الصغرى وترجع شهرتها إلى ملحمة «الألياذة» الإغريقية. وقد اكتشفت طروادة في الحفريات التي جرت سبعينات القرن الماضي.

[←203]

«ناستیا»: تصغیر اناستاسیا.

[←204]

«كوستيا»: تصغير كونستانتين.

[←205]

يستخدم اسم إيليوشا في هذا الجزء للتدليل على أليوشا الصغير، وليس أليوشا «ألكسي» كارامازوف، وإيليوشا هو اسم الدلع له «إيليا».

[←206]
«قريب محمد أو الجنون النافع»: رواية فرنسية ماجنة من تالف فروماجيه «1742» وقد ترجمت إلى الروسية سنة 1785 في عهد «حرية الطباعة». ويتحدث بطل هذا الكتاب، وهو فرنسي وصل إلى القسطنطينية، عن مغامراته الغرامية المتنوعة.

[←207]
«اللغات المندثرة»: المقصود بها هنا اللاتينية واليونانية القديمة. ومن المعروف أن وزير التعليم، الكونت دمترى تولستوي قد زاد زيادة كبيرة عدد ساعات تدريس اللاتينية واليونانية القديمة في المدارس الثانوية. وذلك إجراء كانت الأوساط الليبرالية تعده رجعية.

[←208]

«صحيح أن فكرة الله ليست إلا افتراضا... إذا كان الله غير موجود، فيجب أن نخترعه...»: يردد كوليا هنا عبارة الكاتب والفيلسوف الفرنسي ماري فرانسوا فولتير «1694 - 1778» «s'il n'existait pas Dieu il faudrait l'inventer».

[←209]

«ألا يمكن أن يحب المرء الإنسانية من دون أن يؤمن بالله؟ لقد كان فولتير مثلا لا يؤمن بالله، ومع ذلك كان يحب الإنسانية».
هذا الكلام هو تحوير لعبارات الناقد الروسي والثوري الديمقراطي فيساريون بيلينسكي «1811 - 1848» التي وردت في رسالة بيلينسكي الى جوجول «1847». وقد قرأ دوستويفسكي «رسالة بيلينسكي إلى جوجول» في حلقة الاشتراكي الطوباوي الروسي ميخائيل بتراشيفسكي «1821 - 1866». وقد وجهت لجنة التحقيق في قضية حلقة البتراشيفسكيين اتهامها إلى دوستويفسكي بصدد هذه الواقعة بصفة خاصة، وفيما بعد، أثر عودة دوستويفسكي من الأشغال الشاقة في سيبيريا، كثيرا ما كان يجادل في أفكار بيلينسكي الواردة في الرسالة، وذلك انطلاقا من قناعته هو، دوستويفسكي.

[←210]

«.. قرأت «كانديد» في ترجمة روسية، ترجمة قديمة، كريهة، فظيعة.»:كانديد أو «التفاؤل» رواية فلسفية لفولتير «1759»، تسخر من فلسفة التفاؤل للفيلسوف والرياضي الألماني غ. ف. ليبنتس «1646 - 1716».

[←211]

«واعلم بالمناسبة أنني لا آخذ على المسيح شيئا... ولو عاش في عصرنا الانضم إلى الحركة الثورية...» : كتب بيلينسكي في رسالته إلى جوجول: «... لماذا أقحمت المسيح هنا؟ وما الذي رأيته يجمع بينه وبين أي كنيسة، ومن باب أولى الكنيسة الأرثوذكسية؟ لقد كان أول من أعلن في الناس تعاليم الحرية والمساواة والأخوة واكد باستشهاده صدق تعاليمه». ثم كتب ايضا:«إن من يقدر على المعاناة لدى رؤية الآخرين، ومن يثقل عليه مشهد اضطهاد الغرباء.. فهذا يحمل المسيح في قلبه....»

[←212]

«قرأت كلامه عن تاتيانا...» : المقصود هنا بطلة رواية بوشكين الشعرية ديفجيني اونيجين» «1823 - 1831».
إنني أهواك «فما الداعي للكذب؟»
«لكنني زُوجت من آخر وله أبقى وفية ما حييت».
وفي إحدى مقالاته عن بوشكين كتب بيلينسكي بغضب معلقاً على رد تاتيانا السابق على أونيجين: «يا له من إباء حقيقي للفضيلة النسائية! الوفاء الأبدي... لمن وفيم؟ الوفاء لعلاقات تعد امتهانا للمشاعر ولطهارة الأنوثة، الأن بعض العلاقات التي لا يكتنفها الحب هي لا أخلاقية إلى أقصى حد». أما دوستويفسكي وفي خطابه الذي ألقاه في حفل افتتاح تمثال بوشكين «1880»، فقد اعتبر تصرفها، خلافا لتقدير بيلينسكي، مظهراً للإحساس الأخلاقي السامي الذي لا يسمح لها بأن تبني سعادتها الشخصية على ألام الآخرين.

[←213]

النساء تحبك «بالفرنسية في الأصل».

[←214]
الشعبة الثالثة: هي إدارة الشرطة السياسية التي كان مقرها قرب «جسرالجنازير» على نهر فونتانكا. والشطران التاليان مستمدان من قصيدة هجائية ساخرة نظمها الشاعر الفكاهي د. مينايف بمناسبة حفلات يلقى فيها الشعر على الشعب وتنظمها جمعية خيرية في مبنى قريب، ولكن ما لبث هذان البيان أن أصبحا يقصدان«الشعبة الثالثة».

[←215]
«الناقوس»: جريدة ثورية حررها الكاتب الثوري الروسي الكسندر هرتسين «1812 - 1870» والشاعر الروسي نيكولاي اوجاريوف «1813 - 1877». وقد صدرت في لندن من عام 1857 حتى 1867 وكانت توزع في روسيا سراً. وقد لعبت «الناقوس» دوراً هاماً في تربية الطليعة المثقفة في روسيا.

[←216]

«ألا فليعقل لساني إذا نسيتك يا أورشليم...» : المزمور المائة والسابع والثلاثون، 5- 6.

[←217]

«الشائعات»: لعل الإشارة هنا إلى مجلة «الصوت»، التي أصدرها أ. أ. كرايفسكي من سنة 1863 إلى سنة 1883، وكانت ذات اتجاه ليبرالي معتدل.

[←218]

إن هذا الاسم المستعار مشتق من كلمتي «سكوت» أي بهائم و «بريجانت» أي سوق، وبذلك يكون معنى الاسم: سوق البهائم.

[←219]
«إن في هذه النية إقامة نصب تذكاري لبوشكين...» : كان الناس منذ سنة 1862 يتكلمون عن إقامة نصب تذكاري للشاعر الكبير بوشكين، وفي سنة 1871 أعلن في الجرائد عن اكتتاب تبرعات. وجرى افتتاح النصب التذكاري البوشكين في 6 حزيران 1880، في موسكو.

[←220]

أعتقد أنك تفهم: بسبب ميتة أبيك تلك الفظيعة. «بالفرنسية في الأصل».

[←221]

«الايطيقا»: هي كلمة يونانية معناها علم الأخلاق.

[←222]

«اكلود برنار» «1813 - 1878» : هو عالم الفيزيولوجيا الفرنسي المشهور، مؤسس علم الأمراض التجريبي. وقد نشرت عنه في الآونة التي بدأ فيها دوستويفسكي كتابة روايته طائفة كبيرة من المقالات. وإن ميتيا يطلق اسم برنار على الماديين الملحدين.

[←223]

«لا جدال في الآراء»: قالها كوليا باللغة اللاتينية «de opinionibus non est disputandum». وهي تحريف للمثل اللاتيني القائل: «لا جدال في الأذواق» «de gustibus non est disputandum».

[←224]

بيتر: هو اسم التحبب المألوف الذي كان سكان بطرسبرج يطلقونه في الماضي على مدينتهم.

[←225]

«الم أكن إلا خادمك ليتشاردا» : ليتشاردا خادم الملك جويدون في الرواية المترجمة قصة بوفا ابن الملكة التي صدرت في روسيا في القرن السادس عشر وذاعت شهرتها. وفي الجزء الأول من هذه الطبعة سمى سمردياكوف نفسه «خادم ليتشاردا» بالنسبة إلى ميتيا. والسخرية هنا تتجلى في أن ليتشاردا - الصورة الأدبية لشخصية سمردياكوف - كان يخدم بنفس الدرجة من الوفاءه سيده الملك وزوجته الشريرة التي فكرت في اغتيال زوجها.

[←226]

«مواعظ أبينا المقدس إسحق السوري»: إسحق السوري ناسك من القرن السابع قرأ دوستويفسكي خطبه ومواعظه مترجمة إلى الروسية.

[←227]

«لا تسقط أي من التفاصيل»: تروي أرملة دوستويفسكي أن هذه العبارة كانت من العبارات الأثيرة عند زوجها.

[←228]

«إن القديس توما لم يؤمن لأنه رأى المسيح يُبعث»: توما، تلميذ المسيح، كان يؤمن بقصة بعث المسيح. وعندما ظهر المسيح للتلاميذ مرة أخرى هتف توما: «ربي والهي»، فقال المسيح موضحاً: «لأنك رأيتني آمنت. طوبى للذين آمنوا ولم يروا» «إنجيل يوحنا، الإصحاح 20، الآيات 19 - 29».

[←229]

هذا عمل نبيل، هذا عمل رائع. «بالفرنسية في الأصل».

[←230]

هذه فروسية «بالفرنسية في الأصل».

[←231]

ولا شيء مما هو إنساني غريب عني «باللاتينية في الأصل».

[←232]

كلام فيه جدة، أليس كذلك؟ «بالفرنسية في الأصل».

[←233]

«وسيدون جاتسوك ذلك في التقاويم»: هو الكسندر جاتسوك «1832 - 1891»، ناشر حولية «تقويم الصليب»، التي كانت رائجة جداً في ذلك الحين.

[←234]

«كتبت أيضا مسرحيات هزلية»: أقوال المتفاخر خليستاكوف، شخصية مسرحية جوجول «المفتش العام».

[←235]

كتب دوستويفسكي في أحد دفاتره: أنا لا أؤمن بالمسيح إيمان صبي، ولا أعترف به اعتراف فتى غر... إن تسبيحي قد مر بهوّة من الشكوك، كما يقول الشيطان في روايتي.

[←236]

«أنا أفكر فأنا إذا موجود» : هي القولة الشهيرة التي تقوم عليها فلسفة الفيلسوف الفرنسي ديكارت «1596 - 1650» والتي وردت في كتابه «مقالة في المنهج» الجزء الرابع.

[←237]

«ينكر كل شيء، ينكر القوانين والشعور والإيمان»: جملة مستمدة من المسرحية المشهورة التي كتبها جريبودوف وعنوانها: «و ذو العقل يشقى» -«الفصل الرابع، المشهد الرابع».

[←238]

«وأرجلهم في الفضاء، على حد تعبير الممثل جوربونوف»: هو إيفان جوربونوف «1831 - 1890»، الفنان الهزلي الذي اشتهر كثيراً بقصصه المضحكة ونوادره التي كان يلقيها في الجمهور.

[←239]

تعبير روسي شائع معناه: يعود بخفي حنين.

[←240]
«أن أرتدي ثياب مستشار دولة محال على التقاعد سبق له أن خدم في القفقاس، فهو يضع على ردائه وسام «الأسد» و«الشمس»...» : أي موظف من الدرجة الخامسة نال في القفقاس هذا الوسام من شاه إيران «فالأسد والشمس هما شعارا تلك البلاد».

[←241]

حين جاء مفستوفيليس إلى فاوست قال إنه يريد الشر ثم هو لا يستطيع أن يفعل إلا الخير: هذه هي الكلمات التي قالها الشيطان في الفصل الأول من فاوست جوته «المشهد الثالث».

[←242]

«لص اليمين»: لص اليمين ولص الشمال هما فيما تقول الأناجيل السارقان اللذان صلبا مع المسيح وآمن أولهما قبل موته.

[←243]

تذكر محبرة لوثر: إن المصلح الديني مارتن لوثر «1483 - 1546» زعيم حركة الإصلاح الديني في ألمانيا «حركة معادية للإقطاع اتخذت صبغة النضال ضد الكنيسة الكاثوليكية»، كان يؤمن بوجود الشيطان. وثمة رواية تقول إن الشيطان تمثل أمام لوثر ليغويه عندما كان جالساً يترجم التوراة فرماه بمحبرته. وما يزال الناس يرون بقعة الحبر على جدار غرفة النسك التي كان يقيم فيها لوثر. وإن هلوسات إيفان كارامازوف تذكر بعض الشيء بذلك الحوار مع الشيطان الذي تحدث عنه المصلح الديني.

[←244]

أنهما خلعا التاج: أي خدما العرش، أي خدما المملكة، أي خدما الدولة. كان تعبير «خدما التاج» شائعاً جداً في بولندا حيث كان يستعمل كلمة التاج وحدها دلالة على المملكة، ولم يكن هذا التعبير شائعاً في روسيا مثل هذا الشيوع.

[←245]

«الإخوان المورافيين»: ملة بروتستانتية ظهرت في مورافيا في القرن السادس عشر. الهيرنجوتية - حركة دينية اجتماعية ظهرت في القرن الثامن عشر في سكسونيا في منطقة هيرنجوت، وانتشرت خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وكانت تعاليم الهيرنجونية في روسيا تستهدف إعادة التربية الأخلاقية للبشر. وترجع جذور هذه الدعوة إلى تعاليم الإخوان المورافيين، تلك الطائفة الدينية التشيكية التي ظهرت في القرن الخامس عشر. وفي البداية كانت تعاليم «الأخوان المورافيين» تنكر الدولة وانقسام المجتمع إلى فئات واللامساواة في الملكية، كما تعارض دعوة «عدم مقاومة الشر»، ولكنها بالتدريج تحولت إلى الإذعان وعدم المقاومة.

[←246]

باسم الإله الأب، باسم الإله الابن «بالألمانية في الأصل».

[←247]

باسم الإله الأب، باسم الإله الابن «ولكنه نسي الروح القدس».

[←248]

«خبزاً و عروضاً!» : ذلك ما كان يطلبه الشعب في روما القديمة.

[←249]
«في قاعات المحاكم الجديدة العلنية التي منحنا إياها القيصر الحالي»، أدخل نظام قضاء المحلفين العلني المفتوح إلى روسيا في الإصلاح القضائي لعام 1864. وخلال الستينات والسبعينات نشرت الصحف والمجلات تقارير من المحاكم ونصوص المرافعات التي كانت تتلى في القضايا المهمة والمثيرة.

[←250]

فهو ضابط شاب لامع ينتمي إلى الأوساط الأرستقراطية: المقصود هنا قضية صف الضابط المحال إلى التقاعد لانسبرج الذي اتهم بقتل أحد معارفه ويدعى فلاسوف والمواطنة سيمينيدوفا. وقد كتبت جريدة ««الصوت» عن هذه القضية بالتفصيل في 7 - 10 يوليو 1879.

[←251]
«إن كاتباً كبيراً من كتّاب عهد قريب، قد شبه روسيا بعربة ترويكا تعدو عدوة سريعة نحو غاية مجهولة...» : هو الكاتب الروسي الكبير جوجول في كتابه النفوس الميتة، «الجزء الأول، الفصل 10». والترويكا عربة تجرها ثلاثة أحصنة.

[←252]

الإشارة هنا إلى الرواية التي كتبتها آن رادكليف بعنوان «أسرار قصر أدولف» 1974، والتي أصابت نجاحاً كبيراً في أوروبا كلها.

[←253]

«أنا الراعي الصالح...»: من أقوال المسيح في إنجيل القديس يوحنا «الإصحاح العاشر، 11».

[←254]

وأنتم أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم: رسالة بولس الرسول إلى أهل افسس «الإصحاح السادس، 4».

[←255]

«بالكيل الذي به تكيلون يكال لكم» : من أقوال المسيح في إنجيل متى «الإصحاح السابع، 2»، وإنجيل مرقس «الإصحاح الرابع، 24».

[←256]
أن لا نكون شبيهين بزوجات التجار في موسكو اللواتي يؤمن بالخرافات، فيخشين كلمتي «معدن» و «كبريت»: إن الخشية الخرافية من هاتين الكلمتين الأجنبيتين قد أبرزها أ. ن. أوستروفسكي في مسرحينه الهزلية «الأيام المشؤومة» «الفصل الثاني، المشهد الثاني» التي مثلت سنة 1863.

[←257]

«اطردوا الأمور الطبيعية من الباب ترجع إليكم من النافذة»: تعبير شائع مستمد من مقالة للكاتب ن. م. كارامزين، وقد أصبح هذا التعبير من الأمثال السائدة في روسيا.

[←258]

جملة مأخوذة من مسرحية «اللصوص»، للشاعر الألماني شيللر.

[←259]

«لن يقل الحكم عليه عن عشرين عاما بالأشغال الشاقة»: كانت عقوبة جريمة قتل الأب في قانون العقوبات الروسي لعام 1845 هي الأشغال الشاقة المؤبدة. ولكن الملازم ابلنسكي، الذي نشبه حالته حالة ميتيا، لم يحكم عليه إلا بعشرين عامة، بسبب الشك في ارتكابه الجريمة.

[←260]

«المعدل العصابة التي تعصب جبين الميت»: هي عصابة من قماش الساتان أو من الورق يمثل عليها يسوع المسيح ومريم العذراء والقديس يوحنا ويحاط بها جبين الميت.

[←261]
راح يغرقه بالقبل في ظمأ لا يرتوي: في روسيا يبقى التابوت مفتوحا أثناء قداس الجنازة، حتى إذا انتهى القداس جاء الأهل وغيرهم يقبلون الميت قبلة أخيرة. وبعد ذلك يغلق التابوت.